الكافي

في

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة الماليه الجليلة حالا

عفي عنه

الجزء الثالث

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ — سنة ١٣١٥

ميلاديه هجريه

(بالقسم الادبي)

(فهـــــرست)

الجـــــزء الثـالث

من

(تاريخ الكافي)



(فهرس الجـــــزء الثالث من تاريخ الكافى)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تمت)

الكافي

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الثالث

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ — سنة ١٣١٥

ميلاديه هجريه

(بالقسم الادبى)



الجـــــزء الثـــالث

(المقالة السابعة)

(فيمن هم الترك وفي نسبهم وفيمن تفرع منهم من الممالك والامم الى ظهور ملوك آل عثمان)

اعلم أن الترك أمة من أقدم الأمم وأعظمها وقد اجتمعت كلة أكثر المؤرخين من عرب وأعجام على أنهم من ولد يافث بن نوح وأبوهـم ترك هو الذى سماه هيرودتس المؤرخ باسم ترجيشاوس وجاء فى التوراة باسم توجرما

قال ابن الاثير والترك من ولد تيرش أوطيراش بن يافث وقيـل أيضا ان ترك هـذا انما هو من ولد طوج بن أفريدون ينتهى الى جومرت أو كيومرت ويرجع الى تيرش بن يافث ابن نوح قال ٭ قال ابن خلدون وينسبهم العرب الى غامور بن سويل بن يافث وهو غلط لان غامور مصحف من كومر أوجومر فأبدل العرب الكاف غينا فصارت غامور وجومر هذا من ولد توجرما وقال مؤرخو التتر المغول بل هـم من ولد تتر ومغول وهـما أخوان من نسل ترك ابن يافث وهم لايقصدون بذلك الاعلاء شرف عائلتهم اهـ وقد ذكر هيرودتس المؤرخ وبلنيوس وجبيونيوس ميلا اسم الترك قديما وذكروا أيضا فى مواضع أخر باسم توغريوس فصحفه الكتاب وأهل النقل الى أمورغيوس وبقال ان بلنيوس سماهم أيضا ترسى وسماهم جبيونيوس باسم برسى وكان البزانطيون أى الروم المشارقة يسمونهم باسم فرس أو انغرد يعنى المجر قال بعض الكـــتاب مع أنه لم يكن بين الترك والفرس قرابة ولا بين الفرس والمجر ٭ قال العلامة البستانى صاحب دائرة المعارف ما محصله وقد خرجت من جبال التائى قبائل تركية وتفرقت فى أنحاء آسية العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم توكو كاسمى الفرس بلاد تركستان باسم توران فكان لفظ ترك أو تورانية اسما جنسيا للقبائل المتوحشة وصارت كلة توران عنـد جماعة اليونان بلفظ تيران ومعناها طاغية أوعات اهـ وقـد ورد فى بعض الروايات ان أغورخان بن قراخان هو الذى أسس بفتوحاته وشرائعـه دولة الترك وشيد ركن

تمدنها

عنها وان أوغورخان هذا كان معاصرا للخليل ابراهيم عليه السلام وانه ترك عبادة الاصنام
ولاذ الى عبادة أصح منها ثم ركب على أخيه فقاتله قتالا دينيا ومازالت الحرب قائمة
بينهما زهاء سبعين سنة وهو يقاتل أخاه حتى ظفر به وهزمه شر هزيمة فخضع له حينئذ سائر
تركستان وهو القسم الممتد من ارتلاز وسيرام الى بخارى وخلف أوغورخان هذا ستة بنين
فلما مات اقتسموا المملكة بينهم وكان لكل واحد منهم أربعة أولاد فكانوا آباء أربع وعشرين
قبيلة تركية فسكن منهم ثلاثة فى تركستان ولم يلبثوا أن اكتسحوا كل البلاد الواقعة بين
جيحون وسيحون وتقدموا نحو جنا القلعة والطونة وعاثوا وأفسدوا فكانوا يلقبون بالمدمرين
قال بعض الكتاب وقد سمى بعضهم هذه الامة بالتتار أيضا ولكن التتار فرع منهم وقال
آخرون ان من الترك أهم فروع العائلة التورانية وآخرون يقولون ان اسمهم مرادف للتورانية
وزعم بعضهم أنهم من الامة الايرانية مع أن المتأخرين تحققوا أن لا اتصال لهم بهذه
الامة البتة وكان أول ظهورهم فى آسية الشمالية والوسطى بين رعاة الطونة والتتر الذين
أكثروا من شن الغارة على الصينيين عدة قرون قبل الميلاد المسيحى وبعده وفى القرن
السادس ظهرت طائفة منهم أيضا فى آسية وأصلها على مايقال من البلاد المسماة الآن
تركستان فوطئت بساط السلام آونة ثم عادت فجددت حروبها مع أهل الصين شرقا وأهل
فارس جنوبا ولما كانوا كلهم أخلاطا مؤلفين من لفيف قبائل متباينة فى الاخلاق والعادات
ميالة بالطبع الى الغزو والغارات جافية متوحشة لم تتفق لهم كلمة وانفصمت عروة اتحادهم
فتفرقوا فى تلك الانحاء الواسعة واستوطنوها على ماهم عليه من الخشونة فكان ذلك داعيا
لضعفهم ولما كانت سنة أربع وأربعين وسبعمائة للميلاد المسيحى استظهرت على مملكتهم أمة
منهم يقال لهم الويغور قال بعض أهل التحقيق وهم أول قبيلة تركية استعملت لغة مكتتبة
وكانوا أولا بوذيين تمجسوا على مذهب زرادشت ثم أسلموا فى القرن التاسع والعاشر ❊ هذا
ما كان من أمرهم فى الشرق ❊ أما ما كان من أمرهم فى الغرب فانهم فى أواسط القرن التاسع
انحطوا وتضعضعوا وسادت عليهم طائفة القرغيز وهى طائفة منهم وقيل بل هى من التتر فلما
ظهر جنكيزخان الذى كان على يديه انحطاط دولتهم فى آسية الوسطى أيضا واذلالها صارت
من هذا الحين سائر الدول القائمة بتلك الانحاء وفى جهة العراق وماوراءها أيضا من الممالك
الاسلامية تترية بعد أن كانت تركية بيد السلاجقة وغيرهم وما زالوا على هذه الحال الى
موت تيمورلنك فظهروا فى ممالكه واستولوا على أرمينية ومابين النهرين ولبثوا هكذا الى
أواسط القرن السادس عشر للميلاد حتى قام عليهم الصوفية وطردوهم وظهرت فى تلك الايام
الازبكية وهى أمة يقال انها بقايا الويغور كانت نازلة فى جنوبى تركستان الصينية تحت
جبال تيان شان فاستولت على تركستان الشرقية وما جاورها من المدن والبلدان الى حدود
الفرات ولم يمض عليها قرن أو بعض قرن حتى استظهرت عليها أمة أخرى تركية تعرف
بالتركمان ❊ قال أصحاب التاريخ وليس للترك بقية مهمة الآن الا الازبكية والتركمان المقيمون

الآن فى مواطنهم القديمة

واعلم أن أشهر الدول التركية التى ملكت ببلاد الاسلام والروم مما وراء النهر وخراسان هم بنو سامان وقد ملكوا زهاء مائة وسبعين سنة وكان انقراضهم فى سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة وبنو سبكتكين وهم المعروفون بالدولة الغزنوية لاتخاذهم مدينة غزنة قاعدة لمملكتهم وقد ملكوا بلاد السامانية وكانت مدة ملكهم مائة واثنتين وسبعين سنة ثم انقرضوا فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة ثم نشأت الدولة السلجوقية فكانت مدة ملكهم مائة وأربعين سنة ابتداؤها من سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة وهى أعظم دولهم وأوسعها كلمة ثم تفرع منها عدة دول أخرى منها الدولة الخوارزمية التى قام على رأسها خوارزم شاه وهذه قد ملكت ماوراءالنهر بعد السلاجقة وكانت مدة ملكها مائة وثمانيا وثلاثين سنة وانتهاؤها سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجرة وقد ملك حلب والشام فرع من هذه الدولة أيضا يعرف بدولة تتش بن الب ارسلان وكان أولهم أتسز بن أبق ملك حوالى سنة أربعمائة وثمان وستين وما زالوا الى أن انقرضوا على يدى تمرتاش بن ايلغازى سنة ست عشرة وخمسمائة ومنهم أيضا بنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر وأولهم أرتق بن أكسب ولكنهم لم يلبثوا أن انقرضوا على يدى هولاكو سنة سبعين وسبعمائة للهجرة ومنهم الاتابكية ملوك حلب والشام وأولهم قسيم الدولة آق سنقر مملوك السلطان ملكشاه تولى الملك فى صدر سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة ومنهم دولة بنى طغتكين بالشام وأولهم طغتكين أحد رجال تتش ابن ألب ارسلان ملك فى القرن الخامس ثم انقرض ملكهم بعد أواسط القرن السادس ومنهم فرع آخر ملك فى بلاد الروم وأولهم قطلمش تولى الملك فى أواسط القرن الخامس ثم انقرضوا بظهور الدولة العثمانية وذلك حوالى سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية

(المقالة الثامنـــــــــة)

(فى تأسيس الدولة العثمانية وفى ظهور ملوكها الى مجىء السلطان سليم الى ديار مصر واستخلاصها من أيدى المماليك الشراكسة المعروفين بدولة المماليك الثانية)

قد علمت مما تقدم كيف اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن ترك الذى هو جد الاتراك هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام ثم هم يقولون أيضا بان أوغز بن قراخان الذى هو من ولد ترك هـذا كان ملكا جليـل القدر عظيم الشوكة تسلط على بعض البلاد فى أيام الخليل ابراهيم عليه السلام وتصرف فيها فكانت تركستان التى هى توران داخلة تحت سلطانه قالوا وانقسمت مملكة أوغز هذا بعد موته الى خانيات منها ثلاثة ويقال لها الاسهم الثلاثة فاختصت بالاوغز الشرقى الى حدود الصين ثم ثلاثة أخرى ويقال لها الخاطمة احداها

خانيـة الجبال والثانية خانيـة البحر والثالثة خانية السماء أوخانية القبة الزرقاء ومن هذه الخانيـة نشأ سـبط كابى الذى جاء منه آل عثمان فلما كانت سنة خمسمائة للهجرة أى سنة ست ومائة وألف للميلاد شبت نيران الحروب بين أسباط تلك الخانيات واشتدت وعلا لهيبها فأبادت لفيفهم أو كادت ومزقت من بقى منهم كل ممزق فسار أحـد أولاد كابى المـذ كور الى ماهان واستوطنها فاجتمع حوله بعض بقايا تلك الاسـباط وخضعوا لكلمته ولبث ماشاء الله ثم مات عن عدة بنين منهم كابى ألب وكان عظيما مهيبا ثم مات كابى ألب المذ كور عن ابن اسمه سليمان وكان سليمان هـذا مغازيا حسن التدبير مهيبا مطاع الكلمة فلما كان حوالى سـنة احـدى وعشرين وستمائة للهجرة أى حوالى الجيـل الثالث عشر للميـلاد قدم جنكيزخان سلطان المغل فى عسكر جرار ونزل على خراسان وضـيق عليها حتى أخضعها فلم يطق سليمـان شاه ابن كابى ألب المذ كور الصبر على ذلك وكان مقيمـا بماهان كما تقدم فرحل عنها على رأس خمسين ألفا من قومه الى أرزنجان وخلاط من بلاد الارمن ولبث مهاجرا سبع سنين حتى طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وقصوها فلما علم بذلك قفل بمن كان معـه الى بلده فبينما هو يجتاز الفرات عند جعبر اذ غرق فحزن عليه قومه وبنوا له قـبرا يقـال انه باق الى يومنا هذا يعرف بترك مزارى وخلف سليمان شاه المذ كور أربعة بنين وهم سغور زنكى وكونطغدى وارطغريل ومعناه المسـتقيم وكوندز فانقسموا مع من كان معهم من القوم بعد دفن سليمـان شـاه وافترقت كلمتهم فمنهم من شاء العود الى الوطن ومنهم من فضل الغربة والنزول على بعض الجهات الغربيـة وهؤلاء قد انضم اليهـم الامير ارطغريل والامير كوندز وكانوا زهاء أربعمائة عشيرة فيها أربعمائة وأربعـة وأربعون فارسا مدججين بالسلاح فساروا فى طريقهم قاصدين الجهات الغربية وبينماهم على هـذا الحال اذ رأوا فى طريقهم جيشين يقتتلان قتالا عنيفا وكان أحدهما قليل العدد والعدد وكان هـذا الجيش الضعيف للسلطان علاء الدين السلجوقى من ولد ملكشاه بن قلج أرسلان والثانى من المغل الذين هم أعداء الترك فمال الامير ارطغريل بقومه الى معاونة جيش السلطان علاء الدين وانضم اليه فاشتد القتال بين الفريقين شـدة بالغة وما زالوا يقاتلون حتى دارت الدائرة على المغل وتم النصر للسلاجقة وجاء الخبر بذلك الى السـلطان علاء الدين ففرح واستدعى اليه الامير ارطغريل وأحسن لقاءه وأدناه من مجلسـه وخلع عليه وعلى أخيه كوندز وأنزلهما وقومهما بمراعى نومانية وأرمينية أو بجبال قراجاطاغ عند أنقرة وأخلص ارطغريل فى خدمة السلطان علاء الدين وبالغ فى طاعته وقاتل معه فى حروبه المتتابعة مع الروم والمغل وأبلى فى كل منها بلاء حسـنا فأقطعه ايالة عظيمة واقعة بين بلاده وبلاد الروم يقال لها سلطانية فنزل فيها بجماعة ممن لاذوا به وأحسن السيرة فى أهلها فعلت كلمته فلما كان حوالى سنة سبعمائة للهجرة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ميلادية مات ارطغريل وقيل بل كانت وفاته حوالى سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجرة أى سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية بعد أن تغلب على قوطاهية وأخذها من الروم سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة

احدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية وفى قول بعض المؤرخين من المتقدمين ومنهم المؤرخ جورجى فرانزس الرومى المولود بمدينة القسطنطينية ان أصل الدولة العثمانية آت عن ملوك الروم بالسلالة وملوك الفرس بالكلالة * قال بعد كلام فلما كانت سنة ثلاثين ومائة وألف ميلادية خرج الامبراطور يوحنا كونيوس امبراطور الروم ومعه ابن أخيه أوغسطس المدعو يوحنا أيضا لقتال الملوك السلجوقيين فقاتلهم أياما حتى تغلب على كثير من قلاعهم وحصونهم وأقام على هذا الحال حتى نفدت الذخيرة أوكادت وعز القوت فى تلك الاصقاع البـاردة ومات أكثر دواب الحمل والخيل من قلة العلف فخاف الامبراطور شر العاقبة اذا ظل على هذا الحال وجعل يدبر حيلة الخلاص ورسم بتوزيع مابقى من الخيل على أعظم فرسانه وأشدهم بأسا وهم من طوائف الروم والايطاليان وجعل يجول بين الصفوف وينتقى منهم من يتوسم فيه سمة الفتوة والشجاعة فبينما هو على هذا الحال اذ رأى بين الصفوف فارسا من الطليان حسن الشكل أعجبه منظره فنظر الى ابن أخيه أوغسطس وقال له ادفع فرسك الى هذا الشاب ليمتطيه فاستعظم أوغسطس هذا الامر فشدد عليه الامبراطور فى ذلك فترجل أوغسطس عن فرسه وهو يتميز غيظا ودفعه الى الشاب وسار من ساعته مغضبا قاصدا ملك العجم فلما علم ملك العجم بقدومه وما وقع له مع عمه فرح به وأحسن لقاءه وقربه اليه ورفع منزلته فدان أوغسطس بدين الاسلام فزوجه ملك العجم بابنته وأقطعهما بلادا كثيرة وأجزل عطاءهما وكان أوغسطس هذا شابا جميلا دقيق الشمائل عارفا بعلوم اليونان ولغة العرب مهذبا طلق الوجه كريما مقداما لين الجانب فلقبه الفرس بالشلبى وأحبه الناس كثيرا ومالوا اليه بقلوبهم فعلت كلمته وطارت شهرته وعمت مهابته سائر مدن آسية وولدت له زوجته ولدا فسماه سليمان وهذبه وعلمه العربية واليونانية وبالغ فى تهذيبه فترعرع وشب على مكارم الاخلاق وأحسن الطباع فأحبته الرعية ومالت اليه فلما مات أبوه تولى مكانه وسار فى قومه سيرة حسنة وكان ميالا الى الفتح والجهاد فاستولى على الكثير من البلدان وضم الى مملكته كثيرا من مملكة الروم المجاورة لبلاده فاتسع نطاق مملكته وارتفعت كلمته وطار صيته فى الآفاق قال فكان أوغسطس هذا الذى هو يوحنا جدا للامير ارطغريل خان الذى هو أبو الامير عثمان رأس ملوك آل عثمان * وأوهم بعض أهل التاريخ من المتأخرين ومنهم ادواردس فوكوك الذى ترجم تاريخ أبى الفرج الملطى الى اللاطينية وجعله هدية لكرلوس الثانى ملك الانكليز عام ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية أى عام ثمان وخمسين وألف هجرية فقال بعد كلام * ولم يتسن لاصحاب التاريخ الى الآن معرفة شئ حقيقى عن سليمان شاه جد آل عثمان ولا الى من ينتهى نسبهم وحاصل مانقلوه من أخباره هو أنه لما تغلب جنكيزخان ملك التتر على أكثر البلاد ودان له أكثر مدن آسية خرج سليمان شاه المذكور حوالى سنة احدى عشرة وستمائة للهجرة فى نفر من قومه وسار الى تخت الدولة السلجوقية وكان معه أربعة بنين وهم سنقورزنكى وكدنطغدى وارطغريل وكوندز فبينماهم يعبرون

الفرات

الفرات اذغرق سليمان شاه المذكور فافترق بنوه واختلفت كلمتهم فذهب اثنان منهم وهم سنقور زنكي وكندطغدى ببعض القوم الى الجهة الجنوبية من الفرات وسار ارطغريل بك وكوندز مع من بقى الى تخت السلطان علاء الدين السلجوقى صاحب قونية ونزلوا فى جواره فأحلهم محلا رحبا وأقطعهم قرجيطاغ فما زالوا بها حتى مات ارطغريل حوالى سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية أى سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف ميلادية اه وقال العلامة ابن خلدون بعد كلام طويل والظاهر أن ملوك بنى عثمان كانت الى هذا العصر من أعقاب على بك وعلى بك صهر محمد بك أحد أمراء التركمان من بنى جق أو أقاربه يعنى أعقاب أقاربه قال ويشهد بذلك اتصال هذه الامارة فيهم يعنى الامارة على التركمان مدة هذه المائة سنة قال فلما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو ارتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ماوراء الدروب الى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصا من تلك الناحية وكان يسمى ارخان بن عثمان جق فاتخذها دارا لملكهم ولم يفارق الخيام الى القصور وانما ينزل فى خيامه فى بسيطها وضواحيها الى أن قال اه

قلت ومع اجتماع كلمة بعضهم على أن الترك انما هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام واختلاف السواد الاعظم منهم فيمن هو جد آل عثمان الاول فقد عادوا بعد تأويل وتعليل الى القول بأن سليمان شاه هو رأس هذه العائلة العظيمة التى دوخت بحروبها وغاراتها المتتابعة ثلاثة أرباع المعمور من الارض وقلبت تخت الممالك العظيمة وأبادت الكثير من الامم والشعوب الذين قاموا فى وجهها فاستولت على ممالك الدولة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكتكين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام ودولة المماليك فى مصر والشام ودولة الاتابكية فى الموصل ثم الفرنجة فى بعض مدن الشام وقارة أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة افريقية وجزائر بحر الروم وغيرها مما هو باق بعضه فى حوزتها الى يومنا هذا وانه بموت سليمان شاه المذكور ظهرت كلمة ابنه ارطغريل واتسعت شهرته ودوخ أكثر البلدان المجاورة لولايته الصغيرة التى أقطعه اياها علاء الدين ومازال على دأبه من الغزو والجهاد وتوسيع أرجاء مملكته كل أيام حياته حتى مات فى سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة احدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه فى هذه الامارة زهاء اثنتين وخمسين سنة بالتبعية لسلاطين قونية السلجوقيين

وبموته قام بعده ولده الامير عثمان وكان يقال له عثمان جق كما رواه ابن خلدون فحذا حذو أبيه فى الغزو والجهاد ولبث يقاتل الروم ويهاجم بلادهم حتى استخلص من أيديهم بلادا كثيرة ووقعت هيبته فى قلوبهم وخافوه فأرسل اليه سلطان السلجوقيين منشورا ولواء أبيض وطبولا إعلانا بامارته وولايته على تلك الاصقاع ولقبه بالغازى فعلت من ذلك الحين كلمته وكبرت مهابته وأحسن السياسة والتدبير ومازال مثابرا على الغزو والجهاد وفتح

البلدان وتدويخ المدن حتى أحس بزوال الدولة السلجوقية ورأى من اختلال أحوالها وزوال هيبة القيصرية الرومية وضعضعة أمورها بسبب الخلاف الواقع فى أمر الدين بين جماعة المسيحيين مادفعه الى طلب الملك ومال به الى جانب الظهور والاستبداد على السلجوقيين فجعل حينئذ يمهد الاسباب ويأتى على كل أمر منها من أقرب الابواب حتى قدر الله بانقراض الدولة السلجوقية فى سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية واندرست معالمها من الاناطولى ولم يبق أحد من سلاطينها واستقل كل من كان تحت حكمها من الامراء وتقاسموا البلاد فاختص الامير عثمان المذكور بجزء من مملكة بروسة وخطب له فى بعض أعمالها ولما استقرت به الامارة أحسن السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة ثم تجرد للغزو وفتح المدن والامصار وكان شهما جليل القدر عارفا بفنون الحروب والقتال ففتح الفتوحات العظيمة بنفسه وعلى يدى ولده أورخان بك وأخذ كثيرا من مدن القياصرة فكبرت مملكته واتسعت أرجاؤها وظهرت وعرفت من ذلك الحين بالدولة العثمانية ثم نقل تخت مملكته هذه الى مدينة ينى شهر وأقام بها على أحسن مايكون من الصولة والبأس حتى مات فى سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية وكان كريما عالى الهمة أبى النفس جوادا قيل ولذلك لم يترك بعد موته شيأ لامن الاموال ولامن النفائس التى جمعها فى غزواته وفتوحاته الكثيرة ولم يوجد عنده الابعض الملبوس ومسبحة كانت أعز شئ لديه وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة وقيل بل سبعا وعشرين

وقام بالامر بعده ولده أورخان الغازى تولى السلطنة فى السنة التى مات فيها أبوه سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ميلادية فأحسن التدبير ونظم الامور وعدل فى الرعية فاجتمعت القلوب على محبته وولى أخاه علاء الدين الوزارة فقام بها خير قيام وأخذ فى تنظيم الامور وسن القوانين واعلاء شأن المملكة وكان الغازى أورخان المذكور محبا للغزو والفتح كأبيه ميالا لتوسيع نطاق المملكة ففتح مدينة بروسة وبالغ فى تحسينها بالمبانى الفاخرة والآثار العجيبة ثم نقل كرسى مملكته اليها ولم تقعده كثرة حروبه عن تنظيم عسكره وترتيبهم على أسلوب جديد بعد أن كانوا فى أيام أبيه أخلاطا من فرسان التركمان وغيرهم فانشأ وجاق الانكشارية ورتبه وأحسن ترتيبه فكان له عونا على كثرة الفتوح والمغازى وهابه الملوك وبلغت شهرته مبلغا عظيما ولكن عاد أولئك الانكشارية بعد قليل فصاروا أعداء لمن تولى السلطنة فكان السلطان لايأتى أمرا الاباشارتهم ولا يعمل عملا الابرضا كبارهم فتبدل خيرهم شرا ونفعهم ضرا وكثرتهم وبالا ومازالوا على هذا الحال من التصرف فى معظم الامور واختصاصهم بالرياسة والسياسة حتى أذلهم السلطان محمد الثانى ومزق شملهم وفرق كلمتهم وشردهم تشريدا * ولما دانت للسلطان أورخان الامور عمد الى غزو بلاد اليونان فجهز عليها جيشا عظيما للغاية وقاتلها

ففتح

ففتح مدنها وبلدانها وأحسن معاملة أهلها فمالت الى محبته القلوب واجتمعت على طاعته الخواطر وسار فى غزواته يرافقه الاقبال حتى بلغ خليج القسطنطينية وبوغاز كاليبولى وكانت الامبراطورية الرومية فى هذا الحين آخذة فى الانحطاط الى حضيض الدمار لاسيما بعد أن ضعضعتها الحروب الداخلية التى سببتها فتنة يوحنا كاتا كوزين نائب الامبراطور يوحنا باليولوغوس ووصيه * وتحرير الخبر بالايجاز أنه لما كثر عبث كاتا كوزين المذكور بأمور الدولة وأساء التصرف أبغضه الناس بغضا شديدا وهمّ الروم بخلعه فلما آنس منهم ذلك راسل آل عثمان واستنجدهم فأمدوه وقويت عزيمة الترك على التوغل فى وسط أوروبا فغزوا وفتحوا عدة مدن منها وكثيرا من القلاع والحصون واستولوا عليها وتصرفوا فيها وسار الامير سليمان أكبر أولاد السلطان أورخان فاجتاز بوغاز شنق قلعه فى سنة ستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وألف ميلادية وفتح مدينة غاليبولى التى هى مفتاح القسطنطينية ثم اخترمته المنية فحزن عليه أبوه حزنا عظيما وأفرط فى البكاء والنحيب فمات غما فى السنة التى مات فيها ولده أى سنة اثنتين وستين وسبعمائة هجرية

فقام بالامر بعده ولده السلطان مراد الاول وكان شجاعا مهيبا مغازيا فلما استقرت به السلطنة عمد الى فتح أدرنه ففتحها وسار الى الصرب والبلغار فأخضعهما وكانت بلاد الاناطولى لم تزل مستقلة فى حكمها تابعة لبعض الامراء من الترك يتصرفون فى حكمها كما يشاؤن فحاربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت طاعته وزوّج ابنه الامير بايزيد بابنة أمير كرميان تزلفا الى ولاة آسية الصغرى وتقربا منهم ليتسنى له بذلك ضم بلادهم الى أملاكه ففاز بذلك وضم الى بلاده مقاطعة كرميان وغيرها من مدن آسية الصغرى واستولى على مدينة كوتاهيا وكان أمير كرميان وهبها لابنته يوم زفافها ثم سار بعسكره بعد ذلك للحمل على مقاطعتى مقدونية وبلاد الارنؤد فأخضع كثيرا منهما واستفحل أمره واتسعت كلمته وتهيب منه جميع الامراء المجاورين له فنهض أهل الصرب والفلاخ وأهل دلماطيا والمجر والبلغار وتحالفوا على قتاله وابقائه عند حده وخرجوا فى جيش جرار فركب عليهم وقاتلهم جميعا وهزمهم وشتت شملهم وأبلى فيهم بلاء حسنا وبينما هو يغدو ويروح فى ساحة القتال ويكرّ بجواده اذوثب عليه جندى من البلغار كان بين جثث القتلى وطعنه بخنجر فى أحشائه فمات لحينه فتقهقرت عساكره وانكفوا عن القتال * قال بعض أصحاب التاريخ وهذا القرن هو الدور الاول للدولة العثمانية فانها فى مدة المائة سنة هذه قد عظم أمرها وتمكنت وثبتت أركانها وظهرت فى مظهر الدول الكبار بعد أن كانت امارة صغيرة ولم يتم لها هذا الا بمحافظة سلاطينها على وصية الغازى عثمان قالوا وذلك أنه لما حضرته الوفاة دعا اليه ولده أورخان وأوصاه بوصايا ثلاث فقال له يابنى تمسك فى كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور فى المهمات أهل الرأى والدهاء * وأعط كل ذى حق حقه من التكريم والانعام لاسيما العلماء الاعلام الذين هم دعائم الدين مصداقا لقول صاحب الشريعة خير الناس من ينفع الناس * وتنبه لما هو أعظم من ذلك

وهو التعظيم لاوامر الله والرأفة بعباد الله واطلب خير النتائج من اعلاء كلمة الله والغزو لوجه الله فانك خليفتى من بعدى اه قالوا فكانت هذه الوصية سنة مرعية بين سلاطين آل عثمان يتلقاها الخلف عن السلف والملك لله يؤتيه من يشاء

ولما مات السلطان مراد الاول قام بالامر بعده ولده السلطان بايزيد الاول فى السنة التى مات فيها والده وكان بطلا مقداما عارفا بفنون الحرب والقتال وضروب السياسة ميالا الى الغزو والجهاد فلما استقرت به السلطنة عمد الى اخضاع ما بقى من الممالك الصغيرة التى كانت الى هذا الحين مستقلة فى الاناطولى فدوّخها وأخضعها لسلطانه ثم سار فى عسكر جرار الى ايالات مقدونية والبلغار والروم ايلى ففتحها وأدخلها تحت طاعته فكبر أمره وعظمت هيبته ودانت له الامور فلما أنس من الايام النصر تهيأ لفتح القسطنطينية واخضاع ممالك الفرنجة فزحف بجيش كبير الى نواحى أوروبا واستولى على مدينة سالونيك وشن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنجة فى موقعة هائلة ثم سار الى القسطنطينية فحاصرها وكان امبراطورها يومئذ مانوئيل فخاف وهاله كثرة عساكر السلطان بايزيد فأرسل الى من جاوره من الملوك يطلب منهم المدد على قتال الترك فخاف السلطان بايزيد من اتحادهم وخشى عاقبة أمرهم فعقد مع الروم صلحا لعشر سنين وأن يعطوا له فى كل سنة ثلاثين ألف ريال وأن يجعل فى القسطنطينية قاضيا من المسلمين ويبنى فيها مسجدا ثم رحل عن القسطنطينية ولبث قليلا حتى تبين من الفرص أنفعها فعاد الى حصارها وشدد فى الحصار ولم يراع ميثاقا ولا عهدا وبينما هو يواصل الرمى على أسوارها وحصونها اذ جاءته الاخبار بركوب تيمورلنك بعسكره الى بلاده وفتح الكثير منها وضمها الى سلطنة التتار فاضطرب السلطان بايزيد من ذلك واستعظمه جدا ورحل عن القسطنطينية ليدفع تيمورلنك عن بلاده فالتقى الفريقان عند مدينة أنقره واقتتلا قتالا عنيفا يوما كاملا وقد مات فى ذلك اليوم خلق كثير جدا حتى خاضت الخيول فى الدماء ثم انكشفت المعمعة عن نصرة تيمورلنك وهزيمة السلطان بايزيد وسقوطه فى قبضة تيمورلنك فسجنه فى قفص من الحديد وما زال فى سجنه هذا الى أن مات سنة خمس وثمانمائة هجرية أى نحو سنة احدى وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار وكان قد تغلب السلطان بايزيد فى آخر أيامه هوى النفس فتهافت على ما لا يليق من الاسراف والتبذير والاسترسال فى اللهو والخلاعة وغير ذلك من دواعى التأخر فاغتنم تيمورلنك هذه الفرصة وسار على مملكة بايزيد فى سبعمائة ألف مقاتل فقابله السلطان بايزيد وقاتله فوقع فى يده أسيرا وفرح ملوك أوروبا بسقوط السلطان بايزيد فى قبضة تيمورلنك فرحا عظيما وأرسلوا الى تيمورلنك رسائل التهانى فكان ممن أرسل ذلك شارلس الثالث ملك الفرنسيس فرد عليه تيمورلنك ردا حسنا جدا وأوصاه خيرا بمن يقدم الى بلاد الفرنسيس من تجار الفرس كما أنه ضمن لتجار الفرنسيس الذين يقدمون على بلاد فارس كمال الراحة والرفاهية

(مطلب

(مطلب)

﴿ ماجرى بعد موت السلطان بايزيد من الاختلال ﴾

ولما مات السلطان بايزيد كاد يختل نظام الملك اذ قامت الفتنة بين أولاده واستبد كل واحد منهم بقسم من مملكة أبيه فتجزأت المملكة الى عدة امارات صغيرة وجرى عليها ماجرى لدولة آل سلجوق وخرجت عن الطاعة فى خلال هذه الفتنة ولايات البلغار والصرب والفلاخ واستمر النزاع بين أولاد السلطان بايزيد زهاء احدى عشرة سنة وكان أحد أولاد بايزيد المدعو عيسى قد استبد بحكم البلاد الواقعة على مقربة من أنقرة وسينوب والبحر الاسود فوثب عليه أخوه محمد وقتله بعد حروب يطول شرحها واستولى على جميع تلك الاصقاع وسار بلا منازع من اخوته الى آسية الصغرى واستخلص أخاه موسى وكان فى أسر تيمورلنك وسيره فى جيش عظيم الى قارة أوروبا لقتال أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد الى آسية مدحورا ثم أصلح حال جيوشه وعاد بهم مرة ثانية لقتال أخيه سليمان المذكور فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا شديدا فقتل سليمان خارج أسوار مدينة أدرنة وتم الظفر للسلطان محمد * وكان آل عثمان لما اشتد الخصام بين أولاد السلطان بايزيد وعمت الفتنة واستفحل أمرها اختاروا الامير سليمان هذا سلطانا عليهم فى مملكة أبيه التى بقارة أوروبا فبايعوه بالسلطنة وولوه أمورهم ولكنه كان ضعيف الرأى سيئ التصرف منهمكا فى الملاذ مولعا بالملاهى والفجور خامل الفكر فلم تطل سلطنته حيث مات فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة عشر وأربعمائة وألف ميلادية * ولما تم الظفر لموسى المذكور سار بمن معه من العساكر وركب على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم وتمردهم وقاتل سجسمون ملك المجر حيث أنجد أهل الصرب عليه وكاد يظفر به فظهر من هذا الحين نبله وعلت كلمته واتسعت شهرته فداخله الطمع وطمحت نفسه الى الاستقلال بالملك والخروج عن طاعة أخيه السلطان محمد وأخذ جميع بلاد أبيه التى بقارة أوروبا وسار بعسكره لحصار القسطنطينية فحاصرها وضيق عليها ليفتحها ويجعلها تحت ملكه فأحس السلطان محمد بما وراء ذلك وخشى العاقبة وأتت اليه رسل قيصر الروم تشكو من فعال أخيه موسى وتستنجده فسار الى القسطنطينية فى جيش عظيم جدا وقاتل أخاه فكانت الحرب بينهما سجالا ثم تقوى السلطان محمد بعسكره فزحزح الامير موسى عن القسطنطينية وتحالف السلطان محمد مع قيصر الروم وأمير الصرب على اذلال الامير موسى وتفريق شمل من معه من الجنود فأعملوا الفتنة وبثوا الدسائس بين عسكر الامير موسى حتى نفرت منه قلوب الجند وخانه كبار القواد ثم ركب عليه السلطان محمد بعسكره وانتصر عليه نصرة عظيمة وفر موسى هاربا فتبعه فارس من فرسان أخيه محمد وقتله واحتز رأسه وأتى به الى أخيه وذلك سنة ست عشرة وثمانمائة

هجرية أى نحو سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية وفى رواية أنه قتل بين يدى أخيه صبرا

(فصـــل)

(فى استقلال السلطان محمد الغازى بالملك)

ولما مات الامير موسى انفرد محمد بالسلطنة على مابقى من ملك آل عثمان و بايعه الناس كافة فكان هو الخامس من ملوك آل عثمان على المتفق عليه عند أصحاب التاريخ وقد عرف عندهم بالسلطان محمد چلبى الغازى وكان ملكا جليل القدر واسع المعرفة حليما فصفت له الايام ودانت له الامور وجاءت اليه رسل ملوك الفرنجة برسائل التهانى والتبريك فأكرمهم وأحسن وفادتهم وأخذ يمهد الامور ويدبر أحوال المملكة فعقد الصلح مع الاجانب وقوى معهم روابط المودة والاتحاد وحافظ على محالفة مانوئيل قيصر الروم الذى لولاه لخيف على ملك آل عثمان من الدمار ورد اليه جميع ماأخذه أسلافه من القلاع والحصون الرومية فمالت اليه الخواطر واجتمعت على محبته القلوب وعلت كلمته وكان عادلا ذا شفقة على الرعية موفقا فى غزواته ونقل كرسى مملكته الى مدينة أدرنة وأنشأ السفن البحرية وجعل لها جنودا يقاتلون على ظهور تلك السفن وأعاد رونق السلطنة الى ما كان عليه بعد أن كاد يتولاها الدمار بأسباب غارات تيمورلنك * وظهر فى أيامه رجل اسمه بدر الدين من كبار علماء زمانه وكان متوليا القضاء فى عسكر الأمير موسى أخى السلطان محمد فلما انهزم عسكر الامير موسى وتمزق شملهم حكم على بدر الدين القاضى المذكور بملازمة مدينة ازنيك فلبث بها حينا ثم هرب منها واختفى خبره أياما ثم ظهر يدعو الى مذهبه وهو المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم فى الاموال والمتاع وعدم التفريق فى ذلك بين الغنى والفقير والمسلم والمسيحى فتبعه خلق عظيم من المسلمين والمسيحيين وكان يقول ان الناس جميعا اخوة لاب واحد وأم واحدة فذاع خبره وكثرت أحزابه ولبى دعوته القاصى والدانى وخيف على بهجة الدولة العثمانية من الزوال بسبب دعوته فسير اليه السلطان محمد جيشا عظيما ومقدمه ابن أمير البلغار الذى كان أسلم وتولى العمالة على مدينة سمسون فخرج عليه أحد زعماء مذهب بدر الدين المذكور فى جيش كبير وقاتله وهزم عسكره شر هزيمة وقبض على ابن أمير البلغار وقتله فلما جاء الخبر بذلك الى السلطان محمد اضطرب واستعظم هذا الامر جدا وجمع جيشا عظيما وجعل رئيسه الوزير الاول بايزيد فسار بايزيد لقتال ذلك الزعيم فلاقاه على مقربة من ازمير وكان بدر الدين قد سار الى بلاد مقدونية فاقتتلت عساكر الوزير مع عساكر بدر الدين واشتد القتال بين الفريقين وانكشف عن هزيمة عسكر بدر الدين وسقوط مقدمهم المدعو مصطفى فى قبضة الوزير فأمر

بقتله

بقتله فقتلوه بين يديه وقتلوا عددا كثيرا ممن كانوا معه وسيروا من يقبض على بدر الدين فى بلاد مقدونية فتحرز بدر الدين وكانت بينهم وبينه وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها ثم قبض عليه وقتل شنقا فى سنة عشرين وثمانمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف ميلادية بعد استصدار فتوى فى شأن ذلك قال عمر فى تاريخه ونص الفتوى من أتاكم وأمركم جميعا على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه * فسكنت بقتله الفتنة وزالت أسبابها واطمأنت قلوب الناس وبقى السلطان محمد عزيزا مهيبا محبوبا مطاعا الى أن أدركته الوفاة سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار والسلطان محمد هذا أول من أرسل الهدية الى أمير مكة قدرا من الذهب فى كل عام للنفقة على فقراء مكة والمدينة وهى التى يطلق عليها اسم الصرة الآن ولكنها لم تكن تبلغ ما بلغته الآن وقال آخرون السلطان سليم الاول هو أول من أرسل الصرة المذكورة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بعد فتح الديار المصرية وازالة دولة الجراكسة الثانية والقول الاول هو الذى عليه المعول

وبموت السلطان محمد جلبى قام بالامر بعده (ولده السلطان مراد الثانى) بويع له بالملك سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة احدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ثمان عشرة سنة فلما استقرت به السلطنة قام بتدبيرها أحسن قيام ووسع نطاقها وأبرم صلحا مع أمير القرمان وقرر اتفاقا مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات وتفرغ لتدويخ من عصى وخرج عن الطاعة من ولايات آسية فلم يتم له ذلك حتى جاءته رسل مانوئيل قيصر الروم فى طلب العهد منه على أن لايحارب القيصرية الرومية بوجه ما وأن يسير الى القسطنطينية اثنين من أولاد السلطان محمد الغازى رهينة على وفاء العهد فان أبى ذلك أطلق القيصر سراح الامير مصطفى بن السلطان بايزيد وكان الامير مصطفى المذكور قد اختفى خبره ولم يوقف له على أثر بعد واقعة أنقرة التى أسر فيها أبوه السلطان بايزيد الاول ثم ظهر فى أيام السلطان محمد الغازى عقب واقعة بدر الدين الخارجى وطالب أخاه السلطان محمد بالملك وأعانه على ذلك أمير الفلاخ تعظيما للفتنة واضراما لنارها فأغار الامير مصطفى المذكور على اقليم تساليا من أملاك اليونان فطاردته جنود أخيه السلطان محمد ففر الى سلانيك وكانت قد عادت الى مملكة الروم مع غيرها من بعض الايالات التى أرجعها السلطان محمد الى قيصر الروم ونزل على عاملها مستجيرا فأجاره وطلبه السلطان محمد فلم يجبه قيصر الى ذلك ووعد أنه يبقيه عنده ولايفك سراحه ما دام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان منه ذلك ورتب لاخيه شيأ فى كل سنة فلبث فى جوار قيصر حتى سير قيصر رسله الى السلطان مراد فى طلب ذلك العهد فامتنع السلطان مراد من اجابة قيصر الى ماطلب فسير قيصر الامير مصطفى المذكور ومعه عشر مراكب حربية فأتى بها وحاصر مدينة جاليبولى وضيق عليها فاستسلمت وامتنعت عليه قلعتها فأحاطها بطائفة من العسكر ليمنع عنها المدد وسار بمن بقى معه يريد أدرنه فسير

اليه السلطان مراد جيشا عظيما ومقدمه وزيره بايزيد فلما التقى الجمعان برز الامير مصطفى
أمام صفوف ابن أخيه السلطان مراد ونادى على العسكر وخطب فيهم وقال انه هو أولى
بالملك وأحق بالسلطنة من ابن أخيه واستنهض العسكر الى نصرته فلبت الجيوش دعوته
وقاموا لنصرته وقبض جماعة منهم على بايزيد وزير السلطان وقتله ثم سار الامير مصطفى لقتال
السلطان وكان السلطان متحصنا مع عسكره عند نهر صغير فلم يقترب الامير مصطفى من ذلك
المكان حتى وقعت الفتنة بين عسكره وخانه بعض قواده وتركه أغلب العسكر فكرّ راجعا
الى چاليبولى ولم يدخلها حتى قبض عليه بعض أتباع السلطان وأتوا به اليه فأمر به فقتلوه
شنقا ۔ ولما سكنت الفتنة بموت الامير مصطفى عمد السلطان مراد الى الانتقام من قيصر
الروم فسار الى حصار القسطنطينية بجيش جرار وحاصرها وضيق عليها أياما ثم عاد عنها
مدحورا لقيام الفتنة وخروج بعض الايالات عن طاعته وما زال يراقب الفرص حتى مات
مانوئيل قيصر وخلفه على سرير الملك يوحنا باليولوغوس فراسل يوحنا المذكور فى دفع
مبلغ من المال فى كل عام جزية وأن يسلم اليه جميع البلاد التابعة للقسطنطينية ويستثنى
من ذلك القسطنطينية وضواحيها أو أنه يتأهب لقتاله فقبل يوحنا هذه الشروط وسلم الى
السلطان مراد جميع القلاع والحصون التى كانت الى هذا الحين فى حيازة الروم على سواحل
البحر الاسود وسواحل الروم ايلى ومملكتى مقدونية وتساليا ثم ركب بعد ذلك بعسكره
واستخلص أيضا جميع المدن والبلدان التى هى داخل برزخ كورنثوس ومازال يتقدم فى
غزواته حتى توغل فى بلاد المورة وضم أكثرها الى أملاكه ۔ ولما شاع بين ملوك أورپا خبر
فتوحات آل عثمان ومثابرة ملوكهم على الغزو والجهاد خافوا من سقوط القسطنطينية فى
قبضة الترك ومن زحفهم على بقية الممالك المسيحية فنهض عند ذلك أوجينيوس البابا وشرع
فى عقد محالفة بين ممالك الفرنجة على مقاومة الترك ومنعهم وقام لادسلاس ملك بولونيا
والمجر وأخذ على نفسه مقاومة الترك وجيش لذلك جيشا عظيما ومقدمه يوحنا هودياس القائد
الشهير وانضم الى هذا الجيش جمهور من الحربيين والمتطوعة من الفرنسيس والجرمانيين
وساروا للقاء الترك فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا عنيفا ظفر فيه يوحنا فى معركتين عظيمتين
واستظهر على الترك فخشى السلطان مراد شر العاقبة وعمد الى المصالحة فتقررت القاعدة
على أن ينسحب السلطان مراد بمن بقى من جيوشه فانسحب راجعا الى كرسى مملكته فلما
سكنت الفتن وزالت أسباب القلاقل خلع السلطان نفسه عن الملك وتنازل عنه لولده محمد
فبايعه الناس وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق ولقبوه بالفاتح واعتكف السلطان مراد عن
الناس واعتزلهم والتزم العبادة والتهجد فلما علم لادسلاس صاحب بلونيا والمجر بخبره خالف
العهد ونبذ الهدنة ظهريا وتقدم بعساكره لقتال الترك وحبب الى ملك القرمان شن الغارة
عليهم أيضا ليقعوا بين نارين فتقدم عند ذلك كبار الدولة الى السلطان مراد فى رجوعه الى
منصب السلطنة لرد العدوّ عن البلاد فعاد الى المنصب وجيش جيشا عظيما وسار به لقتال

الاعداء

الاعداء فالتقى الفريقان عند مدينة وارنه واقتتلا قتالا عنيفا وثبتت جيوش المسيحيين أمام عسكر الترك واشتد القتال شدة بالغة وجرى الدم بين الصفوف مجرى الماء * قال بعض كتاب الاخبار وكانت العساكر المسيحية قليلة فى هذه الواقعة لانفصال المحاربين من الفرنسيس والالمان عنهم بعد نصرتهم الاولى وكان لادسلاس فى حومة القتال ينادى على العساكر ويحرضهم ويستنهض هممهم ويكر بين المواكب وصفوف الترك كأنه الأسد الضارى حتى أصابه سهم فسقط ميتا وذاع خبر موته بين جنوده ففترت هممهم وتفرق شملهم فهمّ مقدمهم هودياس بجمع شتاتهم والرجوع بهم الى ساحة القتال فلم يفلح وقد أعمل فيهم الترك القتل بحد السيف فكانت قتلاهم زهاء عشرة آلاف فى هذه الواقعة الهائلة على مارواه بعض أصحاب التاريخ وعاد السلطان مراد بعد هذه الواقعة وراية النصر تخفق على رأسه وتنازل عن السلطنة ثانية لولده وعكف على العبادة فلم ترض بذلك جماعة الانكشارية وأبوا الاعوده الى المنصب فعاد اليه كارها ثم لم يلبث أن جيش جيشا عظيما وساربه الى بلاد الارنؤد ليضمها الى مملكته وكان ممن تولى الحكم على شئ من تلك البلاد بالتوريث أمير اسمه يوحنا كاتريو فلما علم بقدوم السلطان مراد بجيوشه وتحقق أن لا قبل له على رده راسله فى أمر الصلح وعاهده على دفع الجزية فأجابه السلطان الى ذلك وعاهده وأبقاه على ما بيده من البلاد وأخذ أولاده الاربعة رهينة عنده فاختلط ثلاثة منهم بمماليك السلطان حتى صاروا لايمتازون عنهم فى شئ والتزم رابعهم وهو أصغرهم واسمه جورج بخدمة باب السلطان وما زال حتى تقدم وارتقى المناصب العالية لشجاعته وبأسه وذكائه ثم أسلم بعد ذلك وتجرد للغزو والجهاد وعرف باسم اسكندر بك فكانت له مواقع هائلة وحروب عظيمة فى خدمة الترك قال بعض كتاب الاخبار ثم عاد بعد ذلك فندم على ما فرط منه من قتال المسيحيين وارتد الى دينه وتعصب وصار من أكبر أعداء المسلمين وأشد المبغضين لآل عثمان فحرض الاهالى على الخروج وشق عصا الطاعة فكان من وراء ذلك من الحوادث والخطوب مالا محل لذكره هنا وركب أيضا السلطان مراد على قسطنطين صاحب المورة وباقى الاقاليم المتاخمة لتلك البلاد فدوخهم وأخضعهم للملكه ورتب عليهم الجزية وجرت بسبب ذلك حروب هائلة كثيرة بينه وبين الارنؤد والمجر وما زال يغزو ويفتح البلاد حتى أصابته سكتة فمات فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة احدى وخمسين وأربعمائة وألف ودفن بمدينة بورسه

فقام بالامر بعده ولده (السلطان محمد الثانى) بايعه أهل الدولة فى اليوم الذى مات فيه أبوه فكان سابع سلاطين آل عثمان قال أصحاب التاريخ وهو من أعظمهم همة وأعلاهم قدرا وكان بطلا مقداما شجاعا قوى الجنان موصوفا بالمغازى والحروب وكان أبوه السلطان مراد قد أوصاه قبل موته أن لا يغمد له سيفا ولا يبطل له جهادا حتى يفتح مدينة القسطنطينية فجيش جيشا عظيما وأخذ يتأهب لحصارها وكان نظام القيصرية الرومية فى هذا الحين على



شقا بجوف هار بسبب المنافسات الدينيــة ولذلك أصبحت القيصرية في غاية الضعف فزالت هيبتها وانحطت عظمتها فـلم يبق للقيصر من السلطنة الا مجرد الرسوم والعادات البسيطة *
قال بعض كتاب الاخبار وبلغ من خلل أحوال الامــبراطورية الرومية وانحطاط قدرها أنه لما وردت الاخبار الى القسطنطينية بان السلطان محمد الثانى ابتنى قلعــة بوغاز كســن وكان قد ابتناها لغرض ســد خليج القسطنطينية على سفن الامبراطورية والتضييق عليها خاف الروم واضطربت أحوالهم وعقدوا للمذاكرة فى ذلك مجلسا كبيرا فى كنيسة أياصوفيه فلما اجتمعوا أخــذوا يتزاحمون ويتقدم بعضهم على بعض فى الجلوس ولم يراعوا درجات بعضهم فأدى بهم ذلك الى السباب والملاكمة وانفرط عقد اجتماعهم ولم يعملوا عملا يذكر اه

وكان الامبراطور على القسطنطينية يومئذ قسطنطين دراغابس بن امانوئيل فأرسل الى السلطان محمد رسلا يستعطفونه ويستميلونه الى تقرير قاعدة للصلح فطردهم السلطان ولم يسمع كلامهم وأخذ فى التأهب والاستعداد ورسم ببناء الحصون والقلاع على شاطئ بوغاز القسطنطينية فزاد خوف قسطنطين وهاله الامر جدا وأرسل الى السلطان سفراء آخرين يقول على أيديهم ان ماوراء بناء هــذه القلاع الا القتال واضرام نار الحرب فان لم تراع ما كان بين بلادى وبلادك من العهود والمواثيق وتقرر بيننا قاعــدة للصلح فذلك اليك وقــد فوضت أمرى الى الله فان هــداك سبحانه وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وان كان قــد قضى لك بفتح القسطنطينية فلا مفر مما قــدره وقضاه والا فلا أسلم فيها وفىّ لسان ينطق فلما وصلت رسله وقالوا للسلطان مقالتــه لم يلتفت لقولهم وشــدد فى بناء الحصون والقلاع وبالغ فى التأهب والاستعداد فكتب قسطنطين الى الدول الفرنجية يطلب منهم المعونة والاسعاف ويستحثهم على نصرته وأقسم أنه ينجز لهم ما وعدهم به أسلافه من ضم الكنيسة الشرقية الى الكنيســة الغربية فسر البابا بذلك سرورا عظيما وسير اليــه نجدة عظيمة من طوائف الفرنجــة فاغضبت فعال قسطنطين جماعة الروم لكراهتهم ضم كنيستهم الشرقيــة الى الكنيســة الرومانية لما بين الفريقــين من العــداوة القــديمة والشحناء المستمرة ونقموا على امبراطورهم وتفرقوا عنه وخذلوه وقضاوا سقوط المدينة فى أيدى المسلمين على خلاصها وضم الكنيستين الى بعضهما وقال الدوق نوتاراس كبير وزراء القسطنطينية يومئذ جهارا أحب الىّ أن أرى فى هذه المدينة بريد القسطنطينية تاج السلطان محمد من أن أرى فيها اكليل البابا ثم تخلى أكثرهم عن حماية أسوار المدينة وتفرقوا عنها فلم يبق منهم الانحو عشرة آلاف بين روم وفرنجة وبينماهم على هذا الحال من فتور الهمة واختلاف الكلمة وتفرق الرعية عن راعيها اذ أقبل السلطان محمد فى مائتين وستين ألفا من المقاتلين وذلك فى ســنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية ومعه عمارة حربية مؤلفة من ثلاثمائة سفينة كبيرة فنزل بجيوشه على أسوار المدينة وحاصرها من جميع الجهات وأرسل

الى

الى قيصر يطلب اليه أن يسلم البلد تحت شروط كلها شدة واهانة فأبى قسطنطين وصمم على القتال جهد الاستطاعة فغضب السلطان محمد لذلك وأمر فشددوا فى الحصار وجاءت الاخبار الى قسطنطين بعزم السلطان محمد على الهجوم على الاسوار وأخذ المدينة عنوة فى يوم كذا فهاله الامر جدا وجمع اليه خواصه وكبار قومه ومن كان عليهم معتمده من الروم وشكى اليهم حاله وبالغ فى الشكوى وبكى وانتحب وعظم البلوى فبكوا جميعا لبكائه وأقسموا على الذب والدفاع واقتحام نار الوغى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ثم قاموا وتعانقوا وقبل بعضهم بعضا قبلة الوداع وطلعوا على الاسوار وتحصنوا فيها وكذلك فعل قسطنطين وكان ممن لبى دعوة قسطنطين وقام لنصرته على المسلمين أهالى جنوه فسيروا لنجدته عمارة بحرية ومقدمها الامير جوستنيانى فأتى بها يريد الدخول الى مياه القسطنطينية فعارضته السفن التركية فاقتتلوا قتالا عنيفا وانتصر جوستنيانى نصرة عظيمة فدخل المينا غانما فاستعظم السلطان هذا الامر جدا وصمم على ادخال مراكبه الى المينا أيضا ومحاصرة المدينة برا وبحرا قال بعض الكتاب وفكر كثيرا فى هذا الامر فخطر على باله أن ينقل المراكب على البر حتى تجتاز السلاسل الحديد الموضوعة على مضيق البوغاز فمهد لذلك طريقا على البرطوله فرسخان وقيل أكثر وغطاه بالخشب وصب عليه الزيت والدهن ونقل عليه فى ليلة واحدة أكثر من سبعين سفينة * قلت ولعل فى ذلك مبالغة * ولما حل الاجل المعهود هجم عساكر المسلمين على الاسوار هجمة الاسود وكانوا زهاء مائة وخمسين ألفا من الابطال المشهود لهم فلقيهم الروم بقلوب مطمئنة واشتبك القتال وحمى الوطيس ونفرت الابطال من فوق الاسوار وكان قسطنطين قائما مابين النارين ينادى على الروم بالتجلد والثبات واعمال السيف فى أعناق الاعداء وهو يقاتل قتال الابطال والمسلمون يندفعون على الاسوار من كل فج عميق فلما أيس قسطنطين من الظفر وأيقن بالغلبة وسقوط المدينة فى أيدى المسلمين نزع عنه أسلحته المذهبة وألقى بنفسه بين صفوف المسلمين فقطعوه بحد السيف ولم يعلموا من هو فلما شاع بين من بقى على الاسوار من الروم خبر موت قسطنطين انفشلوا فظفر بهم المسلمون وتغلبوا على الاسوار وأخذوها ثم اقتحموا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ودخلوا كنيسة القديسة صوفية وقد كان فيها بطرق القسطنطينية يصلى وحوله خلق عظيم وقتلوا من فيها بحد السيف ولم يبقوا على أحد ونهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا مافى المدينة من الابنية العظيمة والآثار الفاخرة وأحرقوا جميع مكاتبها فكان عدد ماأكلته نار الحريق منها مائة ألف مجلد وعشرين ألفا

ورأى السلطان محمد من أبنية القسطنطينية ومراسيها ومنتزهاتها ماحبب اليه نقل كرسى مملكته اليها فنزح الروم عنها فرارا من الترك وكادت تخلو من السكان فرسم لكل من عاد اليها من الروم أن يبقى على دينه وعاداته ولا يتعرض له أحد بسوء فلم يأت اليها الا القليل بل كثر النازحون منها لاسيما بعد اقامة الأذان والصلاة فى كنيسة أيا صوفية وتبديل حالها

فهال السلطان هذا الامر واستعظمه وأتى اليها بكثير من أهل القرى والضواحى ثم أقام للروم بطركا ليجتمعوا حوله وسلم له عصا البطريكية وخاتمها كما كانت تفعل القياصرة فى سالف الازمان وقسم مافى المدينة من الكنائس بين النصارى والمسلمين وجعل لكل فريق منهم حدا لا يتعداه وفرض على النصارى قدرا من المال يقومون به الى الخزينة السلطانية فى كل عام قال بعض كتاب الاخبار وبقى الحال على ذلك زهاء ستين سنة حتى جاء السلطان سليم الاول فنسخه وسيرهم على ما أراد

ولما استقامت للسلطان محمد الأمور بعد فتح القسطنطينية عمد الى فتح جزيرة رودس فسير الى أهلها يتهددهم ويطلب منهم الجزية وكان عظيمهم يومئذ يوحنا دولستيك فأرسل اليه يوحنا يقول كف عنا فوالقات فرسان رودس لم يأخذوها الا بسيوفهم ومعونة الله سبحانه وتعالى ولم تطأ أرجلهم أرضها بعناية أحد من ملوك الارض فلن نسلم لك فيها وفينا رمق * وعرض للسلطان محمد بعد ذلك ماشغله عنها فوجه عنايته الى فتح الصرب فسار اليها فى جيش عظيم وتوغل فى جوفها فقام عند ذلك البابا كالستوس الثالث يستنهض جميع ملوك المسيحية على قتال المسلمين ويحضهم على استخلاص البلاد من أيديهم ويحثهم على الجهاد فى سبيل الله وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان محمد فسار فى مائة ألف وخمسين ألفا من الجند المدربة وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كادت تسقط فى يديه وطارت الاخبار بذلك الى الآفاق فأخذت حمية الدين أحد رهبان القديس فرنسيس فطاف يحث النصارى ويحضهم على الجهاد واستخلاص بلغراد من أيدى المسلمين وأكثر من التطواف والحض والمناداة فاجتمع حوله زهاء أربعين ألفا من الجنود النمساوية فسار بهم الى القائد هونيادس الشهير قائد الجيوش المجرية وجعله المقدم عليهم فسار بهم هونيادس وقاتل السلطان محمد قتالا عنيفا للغاية فانتصر عليه وأتلف سفنه الحربية وأغرق أكثرها فلبث السلطان محمد يهاجم المدينة أربعين يوما فلم ينل منها ورجع بمن بقى من عسكره وقد مات منهم خلق عظيم وأصابت هونيادس قائد العساكر المسيحية بعد نصرته بجراحات بليغة فاعتل ومات بها بعد انسحاب السلطان محمد بعسكره فلما علم السلطان بموته فرح وسير وزيره محمد باشا الى فتحها فحاصرها ولبث يقاتل عليها سنة ونصف سنة حتى تم له النصر وسقطت فى يده فخسرت بذلك استقلالها وأصبح حكمها حكم بقية المدن التى وقعت فى قبضة العثمانيين

مطلب
قيام البابا كالستوس الثالث وحشه المسيحيين على قتال السلطان محمد

ولما كانت سنة احدى وستين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وفتحها بعد حروب هائلة وضمها الى أملاكه واتفق فى هذه الاثناء ان وقع الخلاف مابين الملك توما والملك ديمتريوس باليولوغوس أخى قيصر الروم بشأن مملكة المورة التى كانا يحكمانها بالاشتراك معا ويدفعان عنها الخراج

مطلب
زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وما كان من وراء ذلك

السلطان محمد واشتد بينهما الخصام واستفحل أمره فقامت الحرب بينهما على ساق فظفر
توما بدمتريوس وهزمه فاستنجد دمتريوس بالسلطان محمد وطلب منه المدد وزوجه
بابنته ليستميله اليه فلبى لذلك دعوته وأنجده على توما وسير اليه جيشا فخذما فهرب
توما بعد انهزامه شر هزيمة وخلا الجو لدمتريوس فجعل يتصرف فى الامور ولكن
لم تكد تستقر به الراحة بعد تلك الحروب الهائلة حتى داخل السلطان الطمع ومالت نفسه
الى ضم مملكة دمتريوس الى بلاده فركب على دمتريوس بخيله ورجله وقبض عليه ونفاه
الى احدى الجزائر واستولى على بلاد المورة الا بعض الحصون التى كان سلمها توما الى
البابا وأهل البندقية قبل فراره من وجه دمتريوس * ولم تأت سنة سبع وستين وثمانمائة
هجرية أى سنة احدى وستين وأربعمائة وألف ميلادية الا وقد زالت آثار السلطنة
المشرقية العظيمة ولم يبق منها سوى مملكة طرابزون فضمها السلطان محمد فى تلك السنة الى أخذها
وضمها الى مملكته وجيش جيشا وسار به اليها وقاتلها حتى أخضعها لحكمه ودخلت فى عداد
ممالكه ثم سار منها فأخذ ولاية سنوب وجاء بصاحبها داود كومونين أسيرا الى القسطنطينية
ومثل به شر تمثيل ثم أمر فقتلوه صبرا وكان قد اتهمه بمكاتبة ملك فارس والتألب معه وقتل
كذلك أولاده بين يديه وكانوا ثمانية وعاد الى القسطنطينية ظافرا غانما * ثم جيش بعد قليل
جيشا عظيما وسار به لقتال أمير الفلاخ وكان سبب ذلك تعدى بعض أهالى الفلاخ
على جماعة من التجار العثمانية النازلين هناك فلما علم صاحب الفلاخ بحضوره أرسل
اليه رسلا فى طلب الصلح وقيامه بدفع جزية فى كل سنة قدرها عشرة آلاف دوكاوان
بمصادق على جميع الشروط التى تقررت فى معاهدة سنة ست وتسعين وسبعمائة هجرية
أى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية مابين السلطان بايزيد وأمير الفلاخ يومئذ
فقبل السلطان محمد الثانى بذلك وانسحب بجميع جيوشه وكان هذا القول من أمير الفلاخ
خدعة ليتمكن من عقد محالفة مع ملك المجر على قتال الترك فلما تم له ما أراد وعلم السلطان
بالخبر سير اليه رسولين يسألانه فى ذلك فقبض عليهما وقتلهما ثم لم يلبث ان زحف فى
جيش عظيم وأغار على بلاد بلغاريا التى هى من أملاك آل عثمان فعاث فيها وأفسد وخرب
وأحرق وعاد بخمس وعشرين ألف أسير فسير اليه السلطان رسلا فى طلب فك الاسرى
والرجوع الى الطاعة وعدم مخالفة العهد فلما مثلوا بين يديه قيل انه أمرهم بخلع عمائمهم
عن رؤسهم اجلالا له وتعظيما فأبوا ذلك فأمر بأن تسمر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من
حديد ففعلوا بهم ذلك وهم بين يديه وجاءت الاخبار الى السلطان بما وقع لرسله فكاد
يتميز غيظا ونادى فى جنده بالتأهب ثم خرج فى مائة ألف لقتال أمير الفلاخ ومازال حتى
اخترق جوف بلاده ووصل الى مدينة بخارست عاصمة مملكته بعد أن هزمه شر هزيمة
ومزق شمل عسكره فهرب صاحب الفلاخ ونزل على ملك المجر مستجيرا فنادى السلطان

محمد بخلعه من منصب الامارة وأقام أخاه راوول مكانه وكان راوول هذا قد تربى في حضانة السلطان محمد والسلطان به ثقة فصارت بذلك بلاد الفلاخ تابعة لأملاك السلطنة العثمانية

مطلب تدويخ بلاد البوسنا وأخذها عنوة

وركب في سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف ميلادية على البوسنا لامتناع أميرها عن دفع الجزية فحاربه وانتصر عليه وقتله هو وولده بعد قتال عنيف للغاية فدانت له بقتله جميع بلاد البشناق وكبر الامر على صاحب المجر فهم باستخلاص البوسنا من أيدي العثمانيين وخرج في عسكر عظيم فركب عليه السلطان في جيش جرار وهزمه وفرق شمل عساكره فعاد خائبا وشدد السلطان على أهل البوسنا فسلبهم جميع ما كان لهم من الامتيازات والحقوق وأدخل في الصفوف الانكشارية زهاء ثلاثين ألفا من شبان البوسنا وشدد على كبار أهلها وأشرافهم فتدين أكثرهم بالدين الاسلامي وصارت البلاد ولاية كبقية الولايات الداخلة في حكم آل عثمان * ولما كانت سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وألف ميلادية ابتدأ الخلاف بين العثمانيين وأهل البنادقة وكان سبب هذا الخلاف ان عظيما من العثمانيين هرب الى ناحية كورون التابعة للبنادقة فطلب فلم يسلموا فيه وامتنعوا وقالوا انه تنصر واعتنق الدين المسيحي فلا يحل اعتباره عبدا رقيقا وكان في نفس السلطان أن يشن الغارة على جميع أعمال البندقية ويضمها الى أملاكه فاتخذ ذلك حجة للقتال وجيش جيشا عظيما وسار به في سنة خمس وسبعين وثمانمائة هجرية ونزل على جزيرة اغريبوز المعروفة أيضا بارجوس يريد قتالها فقاتله أهلها قتالا عنيفا وأرسلوا يستنجدون حكومتهم فسيرت لنجدتهم عمارة عظيمة فوصلت الى بلاد المورة وأنزلت الى البر من بواسل الجنود والمقاتلة فتقوت بهم عزائم سكانها وثاروا معهم على من كان عندهم من عسكر السلطان فأجلوهم عن البلاد ثم رمموا ما كان تهدم من أسوار برزخ كورنثيه وحاصروا مدينة كورنثية واستخلصوا مدينة اغريبوز فاستعظم السلطان هذا الامر وأكبره جدا وزحف في زهاء ثمانين ألفا فخاف أهل البندقية وسقط في أيديهم وتركوا البرزخ المذكور ورجعوا القهقرى فوصل السلطان بعسكره ودخل البلاد بعد قتال خفيف واسترجع كل ما أخذوه وأرجع الامور الى سابق مجراها

واشتد بغض أمم أوربا للعثمانيين وكرهوا جوارهم فقام البابا بيوس الثاني يدعو المسيحيين الى قتال المسلمين ويستحثهم على نصرة الدين ومحو آثار العثمانيين من قارة أوربا وأكثر أتباعه من النداء والتحريض فهاجت الخواطر وامتلأت القلوب بغضا فقام صاحب الباتيا بعسكر جرار وشن الغارة على المملكة العثمانية وقاتل العثمانيين قتال الابطال فخرب وأحرق وأهلك الحرث والنسل وأراق الدماء الكثيرة وما زال يقاتل حتى أدركته المنية فمات

سنة

سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية حتف أنفه وقد كان من أشد خصوم العثمانيين وألد أعداء سلاطين آل عثمان حاربهم خمسا وعشرين سنة لايغمد له فيها سيف ولا يثنى له عزم ولم يقو السلطان محمد على قمعه وادخاله تحت الطاعة * وسير السلطان بعد ذلك بقليل عمارة حربية لفتح مينا آق كرمان ففتحتها وأقلعت السفن تريد مصاب نهر الدانوب لاعادة الكرة على بلاد البغدان وأخذها فلاقته العساكر البغدانية وفى مقدمها الامير اصطفن الرابع صاحب البغدان عند نهر الدانوب فاجتاز السلطان النهر فلم تقف امامه عساكر اصطفن وتقهقروا خديعة ومكرا ولم يقاتلوا السلطان فتبعهم السلطان بعساكره وساق خلفهم بخيله ورجله حتى دخلوا فى غابة كثيفة للغاية لاتعرف مفاوزها فلم يمهلهم اصطفن المذكور حتى انقض عليهم بعسكره وقهرهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ففر السلطان ونجا وتمزق شمل من بقى من عسكره وانتصر اصطفن فى هذه الموقعة نصرة عظيمة وكان ذلك فى سنة احدى وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ست وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية ففرح المسيحيون بنصرة اصطفن فرحا عظيما وسير اليه البابا رسولا يهنئه بالنصر ويقول له ان البابا قد سماه من هذا اليوم بطل النصرانية وحامى حمى الديانة المسيحية

مطلب
فيما أصاب عسكر السلطان فى بلاد البغدان وفى هزيمتهم

وجهز فى سنة خمس وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ثمانين وأربعمائة وألف ميلادية عمارة أخرى عظيمة وعليها مائة ألف مقاتل وشئ كثير من الذخيرة ومعدات الحرب وسيرها مع ميشطس باشا أحد العائلة الباليولوغية الامبراطورية الرومية وكان قد اعتنق الدين الاسلامى بعد فتح القسطنطينية فسار بها الى جزيرة رودس وحاصرها وضيق عليها وأقام تحت أسوارها تسعين يوما فلم ينل منها مراده فأمر بالارتحال عنها فارتحل ولم يقدر الله للسلطان محمد قتالها بعد ذلك * قال أصحاب التاريخ ولما وصلت عمارة السلطان محمد الى جزيرة رودس كان صاحبها قد تمكن من ابرام صلح مع سلطان مصر وباى تونس بعد ان وقعت الحرب بينهما وبينه أياما كثيرة ليتفرغ بذلك الى دفع غارات العثمانيين عن الجزيرة التى هى مقر رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى فحاصرتها عمارة السلطان محمد حصارا تاما ومنعت عنها المدد وضيقت عليها من كل جانب ووالت الرمى عليها بالمكاحل فكان أهلها يصلحون فى الليل ماتخربه المدافع من أسوارها فى النهار فطال حصارها تسعين يوما وفى كل يوم يهجم العثمانيون على الاسوار فلم تنل منها وقد قتل منهم خلق كثير للغاية فلم يبق الا القليل وجاء مرسوم السلطان برفع الحصار والارتحال عنها فارتحلوا

مطلب
حصار سفن السلطان لرودس والرجوع عنها

وما زال السلطان محمد على قدم الغزو والجهاد لا ينكف عن القتال وتدويخ البلاد حتى أدركته المنية وهو سائر بعسكر جرار لقتال ملك فارس مات فى مدينة ازنكميد فى سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية

مطلب
وفاة السلطان محمد وولاية ابنه بايزيد

فى سلخ ربيع الاول وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة سلطنته احدى وثلاثين سنة قال أصحاب التاريخ وله الفعال المأثورة فى داخل بلاده فهو الذى دعا الحكومة العثمانية بالباب العالى وقسم هيئتها الى أربعة أقسام وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتردار والنيشانجى أى كاتب سر السلطان ورتب وظائف الجند على أسلوب جديد فجعل لطائفة الانكشارية كبيرا سماه الاغا وسلمه حراسة القسطنطينية وضبط أحوالها الداخلية وآخر لاصحاب المكاحل وآخر لما تحتاجه الجيوش من الذخيرة والمؤنة ومعدات الحرب واهتم بترتيب وظائف القضاء وسن القوانين النظامية المناسبة للزمان والمكان * وأعقب ولدين وهما بايزيد وجم فبايع الناس بايزيد بالسلطنة فى اليوم الذى مات فيه أبوه وهو الرابع من ربيع الاول سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فأخذت له البيعة العامة فى خلال سنة ست وثمانين هجرية وكان سلطانا جليل القدر عالما شاعرا لبيبا مواظبا على العلم حسن السيرة * قال أصحاب التاريخ لما مات السلطان أبو الفتح محمد وكان أكبر أولاده بايزيد وولى عهده من بعده مقيما باماسيا بحكمها من قبل أبيه أخفى الوزير قرمانى محمد باشا خبر موت السلطان حتى يأتى ابنه بايزيد المذكور ولكنه لما كان بينه وبين أصغر أولاد السلطان مودة ومحبة أكيدة وكان يفضله على بقية اخوته سير اليه سرا من يعلمه بخبر موت أبيه ويستقدمه على عجل ليسلمه مقاليد السلطنة قبل أخيه بايزيد فشاع خبر ذلك بين الناس وعلم به جماعة الانكشارية فثاروا على الوزير وقتلوه وعاثوا وشذوا فى المدينة وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وولوا الامير كركود ابن السلطان بايزيد السلطنة مكان أبيه حتى يأتى أبوه فلما كان الثالث عشر من ربيع الاول وصل الرسول الى بايزيد وأعلمه بخبر موت أبيه فركب فى اليوم الثانى فى أربعة آلاف وسار مجدا فدخل مدينة القسطنطينية بعد مسير مائة فرسخ وستين فرسخا فى تسعة أيام فخرج أمراء الدولة وكبارها وأعيانها لملاقاته ودخل المدينة فى أبهة وجلالة عظيمة للغاية وأخذ فى مباشرة الامور * أما الامير جم فانه لما وصل اليه الخبر بموت أبيه ركب من فوره فى جماعة من أصحابه وسار قاصدا مدينة بروسة فمانعه من دخولها من كان بها من المرابطين فقاتلهم بمن معه وانتصر عليهم نصرة عظيمة ودخلها عنوة وأقام بها ولم يستقر به المقام حتى جاءه أخوه السلطان بايزيد فى جيش عظيم وقاتله وقهره وساق خلفه بخيله ورجله حتى أوصله الى تخوم ديار مصر فلما رجع ظافرا منصورا سأله الانكشارية أن يبيح لهم بروسة لينتقموا منها فلم يوافقهم على ذلك ولكنه خاف عاقبة أمرهم فأقطع كل رجل منهم قرشين

وأقام جم بمصر ماشاء ثم عاد الى حلب واتحد مع الامير قاسم بك آخر سلالة أمراء القرمان على قتال أخيه بايزيد فلم ينالا شيأ فراسل أخاه فى طلب الصلح بشرط أن يقطعه بعض الولايات ليقيم بها فلم يقبل بايزيد منه ذلك فخاف جم العاقبة وسار الى جزيرة رودس

وطلب الى رئيس رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى أن يساعده على أخيه بايزيد فقبله عنده وأنزله منزلا رحبا لجاءت وفود السلطان بايزيد الى رئيس الرهبنة وكلموه فى أمر جم المذكور وانه ان بقى عندهم بالجزيرة تحت الحفظ تعهد لهم السلطان بعدم مس استقلال جزيرتهم مدة حياته وأن يحمل لهم فى كل سنة مبلغا من المال قدره خمسة وأربعون ألف دوكا فقبل الرئيس ذلك ووفى بالوعد فلم يمكن جما من الخروج ولم يسمح له بالذهاب الى ملك المجر ولا امبراطور الالمان وقد كان كل منهما يطلبه ليتخذه واسطة لتذليل السلطان بايزيد واذهاب هيبته وسيره الى مدينة نيس ليبقى بها محجورا عليه لايفارقها ثم نقله الى شمبرى وجعل بعد ذلك ينتقل من بلد الى آخر من بلدان فرنسا زهاء سبع سنوات فلما كانت سنة خمس وتسعين وثمانمائة هجرية بعثه رئيس رهبنة القديس يوحنا الى البابا نوسان الثامن ليبقى عنده فراسل البابا السلطان بايزيد فى أمره وطلب اليه أن يبعث بالمال الذى كان يحمل فى كل سنة الى رئيس رهبنة القديس يوحنا فأجابه السلطان الى ماطلب وظل الامر على ذلك حتى مات البابا نوسان وقام بعده البابا اسكندر بورجيا واشتغل السلطان بايزيد بماجاءه من أخبار اغارات شارل الثامن ملك الفرنسيس على بلاد ايطاليا وعقده النية على فتح القسطنطينية وقد اشتدت رغبة شارل فى ذلك فبعث البعوث الى بلاد مقدونية واليونان لاضرام نار الفتنة والخروج على السلطان بايزيد فلما علم ملك نابولى وجمهورية البنادقة بما يشويه شارل خافوا من تعاظم شأن دولة الفرنسيس واستفحال أمرها وأرسلوا الى السلطان بايزيد يحذرونه شر العاقبة ويحثونه على الاخذ بأسباب التأنى والحزامة وأن يسير الى بلاد ايطاليا طائفة من عسكره ليصد بها جيوش ملك الفرنسيس فأحس شارل بذلك وأكبره فسار الى مدينة رومة وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وطلب من البابا اسكندر أن يسلمه جما أخا السلطان بايزيد فلم ير بدا من تسليمه فسار بجم مع جيوش الفرنسيس حيث ساروا حتى أدركته المنية فى مدينة نابولى فدفنوه فى بلدة من بلاد ايطاليا ثم نقل الى مقابر أجداده بمدينة بروسه

مطلب
وتاقت نفس السلطان بايزيد الى فتح الديار المصرية

وتاقت نفس السلطان بايزيد الى فتح الديار المصرية وضمها الى أملاكه فسار فى جيش عظيم لقتال سلطانها فالتقيا بجهة القرمان واقتتلا قتالا شديدا فلم يفلح السلطان بايزيد وراسلهما باى تونس بالكف عن القتال بدعوى انه لايصح قيام الحرب بين ملكين مسلمين فتقررت بين الفريقين قاعدة الصلح وعاد السلطان بايزيد بعسكره وعادت كذلك العساكر المصرية وبينما هو يغزو ويحارب ويفتح المدن والامصار والتوفيق ملازمه اذ قامت الفتنة داخل بلاده بخروج اثنين من أولاده عن طاعته واضرامهم نار الحرب قال بعض كتاب الاخبار وقد كان له ثمانية أولاد ذكور مات منهم خمسة فى حداثتهم وعاش ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان كركود مولعا بالعلوم والآداب ميالا لمخالطة العلماء والأدباء فكانت العساكر لاتميل اليه لهذا السبب وكان الثانى عاقلا رزينا محبوبا من الامراء والاعيان موقرا

عنـد كبير الوزراء مكرما وكان الثالث ميالا للغزوات والحروب فكانت طوائف الجنود والانكشارية تحبه وتجتمع عنـد كلمته ولذلك ولى السـلطان با يزيد كلا منهم منصبا يليق بحاله فولى الامير كركود احدى الولايات البعيدة وولى الامير أحمد ولاية اماسيا وولى الامير سليما ولاية طرابزون فلم يقبل الامير سليم هذا المنصب واستصغره وسار من طرابزون الى كافا وسير منها رسلا الى أبيـه يطلب اعطاءه احدى الولايات الكبرى من مملكته التى فى أوروبا فاستعظم السلطان ذلك وأكبره ولم يجبـه الى ماطلب ورد الرسل كما حضروا فكبر الامر على الامير سليم وركب فى جيش من التتار وسار لقتال أبيـه فأرسـل أبوه كذلك جيشا لارهابه فلم يرعو واشتد فى التأهب والاستعداد لاضرام نار الوغى فخشى السلطان شر العاقبة وأجابه الى ماطلب وعقـد له الولاية على مدينتى ودين وسمندرية فداخل نفس الامير كركود من ذلك ماداخلها وأغار على ولاية صاروخان وجعلها له مقرا حتى لايكون بعيدا عن تخت مملكة أبيه عند الحاجة

مطلب
خروج الامير سليم على أبيه السلطان بايزيد فى طلب الملك

ولم يستقر بالامير سليم المقام فى سمندرية حتى تاقت نفسـه الى ارتقاء منصب السلطنة والانفراد بالملك فسار من سمنـدرية فى جيش الى أدرنه واستقربها ونادى بسـلطنته عليها وطير الاخبار بذلك الى الآفاق فلما وصل الخبر الى السلطان بايزيد هاله جدا وأغضبه فسير جيشا لاخضاع الامير سليم وارجاعه الى الطاعة فقاتله فانتصرت عسـاكر السـلطان بايزيد وفر الامير سليم الى بلاد القرم واختـفى وتفـرق من كان معـه من العساكر والاحزاب ولما تم للسلطان بايزيد النصر على ابنه سليم سـير جيشا آخر لقتال ولده كركود بصاروخان فخرج كركود لقتال عسكر أبيه فالتقى الجمعان واقتتلا فانهزم أصحاب كركود شر هزيمة واختفى كركود حتى كان من أمره ماسيذكر فى محله ❊ ولم يكد يتم الظفر للسلطان حتى قامت طوائف الانكشارية على قدم وساق وسألوه العفو عن ولده الامير سليم وارجاعـه الى ولاية سمندرية فطاولهم فأكثروا من الالحاح وشددوا وارهبوا وهددوا وما زالوا حتى أجابهـم السلطان الى ماطلبوا وسـير الى الامير سليم فرمان الرضا والولاية على سمندرية كما كان فظهر الامير سـليم عند ذلك من مخبئه وسار فى نفر يريد سمندرية فخرج للقائه جماعة من الانكشارية وساروا فى ركابه وعرجوا به الى القسطنطينية ودخلوها فى كبكبة وضجة زائدة ومازالوا على ماهم عليه من الجلبة والصياح حتى صاروا تحت قصر السلطان بايزيد وسيروا اليه جماعة يطلبون اليه خلع نفسـه والتنازل لولده الامير سليم عن الملك وأكثروا من النـداء والصياح وشددوا فى الطلب فاجتمع الناس وكثر الزحام وعلت الضوضاء وعم الخوف سائر من فى المدينـة واشتد الهرج فخاف السلطان بايزيد شر العاقبة وأجابهم الى ماطلبوا وخلع نفسه فى اليوم الثامن من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة هجرية أى سـنة اثنتى عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ سبع وستون سنة

وفى رواية انه لما قامت الفتنة فى داخلية البلاد بخروج اثنين من أولاده عن طاعته أمر بقتلهما فقتلا فكثرت قلاقل القلاقل وعلت كلة الانكشارية فعاهدوا الامير سليما بالملك وكلوه فى أمر السلطنة فاجتاز بوغاز القسطنطينية لاستخلاص الملك من أبيه فحاربه أبوه وهزمه فهرب الى بلاد القرم وأقام بها ثم قصد القسطنطينية ثانية فى جيش وجرى بينه وبين أبيه وقائع كثيرة فلما اشتد الحال بالسلطان بايزيد خلع نفسه من السلطنة وعهد بها الى ابنه سليم المذكور وسار الى أدرنة فدس له ابنه من سقاه السم خوفا من رجوعه الى دست السلطنة فلما مات بايعوا بعده السلطان سليما البيعة العامة واستقرت به السلطنة فقبض على أخويه أحمد وكركود وقتلهما ومثل بهما الخلوله الجو ثم سار لقتال ملك فارس ثم كان ما كان من انتشاب الحرب بينه وبين السلطان قانصوه الغورى صاحب مصر وتغلغله بعساكره فى داخل البلاد حتى وطئت خيله القاهرة وتصرفه فى الامور بعد ان بدد شمل عساكر الملك الاشرف طومان باى وظنه موت الاشرف مع من قتل من الامراء والاجناد والمماليك فى الواقعة التى حصلت عند الريدانية كما مر بك بيان هذا كله فى محله

(المقالة التاسعة وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(فيما جرى بعد دخول السلطان سليم القاهرة وفى سلطنته على ديار مصر ولبسه شعار الخلافة)

لما استقر بالسلطان سليم المقام بالقاهرة بعد انتصاره على السلطان الملك الاشرف طومان باى ومن معه من كبار الامراء والمماليك وتبديد شملهم وإعمال السيف فمن بقى منهم ظن موت السلطان الملك الاشرف وان قد دانت له البلاد فعمد الى ترتيب الامور وتقرير قواعدها ورسم فى يوم الثلاثاء رابع المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بتقليد بعض أصحابه المناصب العالية وأمر ونهى وقضى يومه هذا فى أنس وصفاء وهو لايعتقد الاهلاك الاشرف فما أذن لوقت العشاء من ليلة الاربعاء حتى أطبقت عساكر الاشرف على السلطان سليم من كل جانب والاشرف ينادى فيهم بالحمل وإعمال السيف وأن لايبقوا أحدا فاندفعت عساكر الاشرف على عساكر السلطان اندفاع الوحوش الضوارى وأعملوا فيهم السيف

وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأحرقوا بعض خيامهم وبحثوا عن السلطان سليم فلم يقفوا له على أثر من شدة الظلام وهرع العامة وعياق بولاق من النوتية وغيرهم وأحاطوا بخيام عسكر السلطان وصاروا يرجمون بالمقالع وفيها الحجارة وكثر الصياح وعلت الاصوات واشتدت الجلبة واستمروا على هذا الحال الليل كله حتى مطلع الفجر فتمزق عساكر السلطان سليم كل ممزق وتفرقوا فى الشوارع والحارات يريدون النجاة وذهب فريق منهم الى ناحية النصرية فلاقاهم الامير علان الدوادار الكبير عند الميدان وقاتلهم قتالا عنيفا ومازال حتى استرد منهم الطريق من رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر والى قنطرة قديدار واستمر القتال بين الفريقين من مطلع الفجر الى مابعد الغروب واشتدت عزائم الجراكسة وقويت قلوبهم فاحتشوا فى قتل العثمانيين وأخرجوهم من جميع الاماكن التى كانوا مختفين بها وجعلوا يحتزون رؤسهم كما فعلوا هم بهم عند الريدانية وكانوا يأتون بالرؤس بين يدى السلطان الملك الاشرف وهو يستحث المماليك على القتال والاخذ بالثار وأصبحوا يوم الاربعاء الخامس من المحرم والقتال قائم على ساق بين الفريقين والمناداة من السلطان الملك الاشرف متواصلة بالقبض على كل من يجدونه من عساكر السلطان سليم فجد الناس كافة فى طلبهم والقبض على من يجدونه منهم فكان يوما شره مستطير * ورتب السلطان سليم من بقى من عسكره ونادى فيهم بالقتال فقويت قلوبهم وصدموا المماليك عند بولاق وجزيرة الفيل صدمة قوية للغاية فاجلوهم عنهما وأخذوهما وهجموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالنصرية وقبضوا على من كان بها من المماليك الشراكسة وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية وقتلوا جماعة كثيرة من العامة والنساء والاطفال والشيوخ وأجلوا من بقى من المماليك عن النصرية فتوجهوا الى قناطر السباع ونزل الاشرف طومان باى الى جامع شيخون بالصليبة وأخذ يجمع من تفرق من عسكره ثم رسم بحفر خندق فى راس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر عند راس الرميلة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند جزيرة البقر ورسم باحراق خان الخليلى فمنعه بعض الامراء من ذلك ثم قسم عساكره الى أربع طوائف طائفة تقاتل عند قناطر السباع وطائفة عند الرميلة وطائفة عند جامع ابن طولون وطائفة عند راس الصليبة ولكن قد كان الخوف استولى على قلوب عساكره ففترت هممهم وكبر خوفهم لمبارزة عسكر السلطان سليم على القتال وكان القتلى من الفريقين مطروحين فى الطرق من بولاق الى قنطرة السباع والى الرميلة والى تحت قلعة الجبل وبقى الحال على هذا الوصف الى يوم السبت ثامن المحرم فلم يشعر السلطان الملك الاشرف الا وقد اختفى من بقى من أصحابه ولم يبق معه فى ساحة القتال الا بعض العبيد الرماة والمماليك السلطانية وقليل من الامراء فلما رأى أنه مأخوذ لامحالة ترك القتال وهرب الى بركة الحبش وشاع الخبر بفراره فانقض عسكر السلطان سليم على الصليبة وأحرقوا جميع البيوت التى حولها من درب ابن عبد العزيز وقتلوا كثيرا من العامة وأحتشوا

فى القتل والنهب والاحراق وعاثوا فى البيوت والمساجد والاضرحة سعيا وراء المماليك فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه فى الحال وفعلوا بالجامع الازهر مالا يحسن وكذلك فعلوا بجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرهما من الجوامع فكانت الكلاب من كثرة الرمم تنهش فيها نهشا وتمزقها تمزيقا وكان المنظر مدهشا مريعا جدا والناس فى شاغل عن دفن تلك الجثث لانتشار عسكر السلطان سليم فى الحارات وقتلهم كل من يجدونه فى طريقهم

ورسم السلطان سليم بالمناداة فى العسكر بالكف عن القتل واراقة الدماء فانكفوا وعاد السلطان الى خيمته فى الجزيرة الوسطى واشتغل الناس بدفن الموتى فكانوا لايكادون يميزون بعضهم عن بعض وانتشر البكاء والعويل فى مصر والقاهرة وقامت المآتم ببعض البيوتات الكبيرة فكان الخطب عظيما والمصاب شديدا ❋ وأخذ السلطان سليم بمشورة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى وعمل بقوله فظهرت كلمة الخليفة يومئذ وعظمت شوكته ووقف فى دهليزه الامراء من المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشروات فرارا من عسكر السلطان سليم وكذلك المخدرات من النساء وأصحاب البيوتات العالية ونزلت عنده خوند ابنة الامير آق بردى زوجة السلطان الملك الاشرف طومان باى وقد فرض عليها السلطان سليم مبلغا من المال غرامة فلم تقدر على وفائه واستغاثت بالخليفة على استرضاء السلطان فأخذ يتطلف به حتى تجاوز عن شئ منه وألزمت بايفاء الباقى وما زال الحال فى شدة والناس فى خوف ماعليه من مزيد حتى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى منادى السلطان سليم بالامان لجميع من بقى من الامراء المقدمين وأمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات والمباشرين وأصحاب الوظائف الديوانية فخرجوا من مخبئهم وأتوا الى معسكر السلطان فأمنهم ورسم لهم بالذهاب الى مدرسة الغورى فلما اجتمعوا بها جاءت طائفة من العساكر العثمانية واحاطت بالمدرسة فتخوف الامراء من ذلك وظنوا الغدر بهم ثم رسم لهم بعد أيام بالصعود الى قلعة الجبل فصعدوا اليها والجند تحرسهم فأقاموا بها تحت طلب السلطان فلما كان يوم الخميس عشرى المحرم صعد السلطان الى القلعة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والطبول والزمور وطوائف الجند من المماليك الذين كانوا مع خير بيك والغزالى والعساكر العثمانية ومن من الصليبة فانطلق العامة بالدعاء له

ولما استقر به المقام رتب من قومه كشافا على الغربية والشرقية ونظر فى بعض المهمات من الامور وقيد بعض المأمورين بمساحة الشرقية وكشف مافيها من اقطاعات المماليك الشراكسة وغير ذلك من الرزق والاوقاف وكذلك فعل بالغربية والمحلة وجميع الجهات القبلية واحتجب عن الناس بالقلعة ولم يجلس على الدكة السلطانية للنظر فى الظلامات كما كانت تفعل ملوك مصر وسلاطينها قبله ❋ وبينما هو على هذا الحال اذ جاءت الاخبار من الاقاليم القبلية بظهور السلطان الملك الاشرف طومان باى ومعه جموع كثيرة من المماليك والغلمان السود والعربان والعامة والكثير من الخيل والدواب والاسلحة وانه عازم على المجئ



الى القاهـرة ليقاتل السلطان سليما ويجليه عن البلاد وشاع هـذا الخبر بين الناس وتأكد بوصول مكاتبة من الاشرف الى السلطان سليم يقول له فيها

وبعـد فان شئت أن أجعـل الخطبة باسمك وكذلك السكة وأكون نائبا عنـك بمصر وأحمـل اليك فى كل سنة الخراج حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا فارحل عن مصر الى الصالحية أنت وعسكرك وصن دماء المسلمين بيننا ولا تحمل وزر اراقة دماء الشيوخ والنساء والاطفال بغـير سابق ذنب والا فاخرج للقتال بعسكرك فى الجـيزة والله سبحانه يعطى النصر لمن يشاء فلما وقف السـلطان سليم على مافى المكاتبـة جمع اليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربعة وجماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة يمين الى الملك الاشرف وكتبه بخطه ووقع عليها ثم تكلموا فى الامر طويلا فوقع الاتفاق بينهم على تسيير الخليفة والقضاة الاربعة الى الاشرف بذلك اليمين وخلع السلطان سليم على القضاة وأمرهـم بالتأهب للسفر فنزلوا من عنده على ذلك اما الخليفة فانه امتنع عن السـفر فرسم السلطان بتسيير دوادار بدلا عنه فسافروا ولما صاروا على مقربة من البهنسا خرج عليهم جماعة من الشراكسة وقبضوا عليهم وسلبوا ما كان معهـم من متاع وسلاح وهدايا وخيول وجمال وغـير ذلك وقتلوهـم فـلم ينج منهـم سوى القضاة الاربعة ودوادار السلطان ورجعوا الى القـاهرة وهـم فى أسوإ حال فلما عـلم السلطان سليم بما جرى لهم أمر فنقلوا معسكره من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش ونزل فى يوم السبت حادى عشر صفر من قلعة الجبل ومعه الجم الغفير من العساكر والمباشرين والغلمان ورماة البنادق وقـد أشيع خـبر انحدار عسكر الاشرف طومان باى من البهنسا الى ترسه بالجـيزة فرسم السـلطان بعمل سـقائل على النيل بناحيـة طرا ومصر القديمة وبولاق لعبور العساكر عند الاقتضاء وأخذ فى التأهب والاستعداد وقد ظهرت عليه وعلى جميع قومه عـلامات الاضطراب وخاف الناس كثيرا لاسيما وهـم لم يتناسوا ماحـل بهم باسباب الوقائع التى وقعت بالصليبة والناصرية وغيرهما

ولمـا كان يوم الاربعاء ثانى شهر ربيع الثانى أمر السلطان سـليم بجيء بجميع الامراء الذين كانوا بقلعة الجبل وقد كانوا ظهروا بأمان من السلطان كما تقدم القول فانزلوهم مكبلين بالحديد والجنـد من حولهم الى بركة الحبش فلما مثلوا بين يدى السـلطان أخـبرهم بما فعله الملك الأشرف بالقضاة والدوادار وامتناعه من الصلح بعـد ان طلبه وأكثر من تأنيبهـم وتوبيخهم ثم أمر بضرب أعناقهـم جميعا فضربوا أعناقهم بين يديه وكانت عـدتهم أربعة وخمســين أمـيرا مابـين مقـدمى ألوف وأمراء طبلخانات وعشروات وغـير ذلك وألقوا جثثهم للكلاب فكانت نساؤهـم تسعى فى أخذها بدفع شئ من المال الى الموكلين بالعمـل ثم قام السـلطان سليم من ساعته الى بركة الحبش وعـبر النيل بعسكره الى الجـيزة فجاءته الاخبار بوصول عسكر الاشرف الى المناوات فأقام بالجـيزة الى يوم الخميس عاشر ربيع الثانى فظهرت طلائع عسكر الاشرف ولاقتها عساكر السلطان عند المناوات وقيل بل عنـد وردان

فالتقم

فالتحم القتال بين الفريقين واشتد وحى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك والرماح بالرماح والصفاح بالصفاح فاستظهر المماليك على عساكر السلطان وقتلوا منهم خلقا كثيرا وساقوهم حتى ألقى أكثرهم بأنفسهم الى النيل فماتوا غرقا وكاد يتم النصر للاشرف طومان باى وعسكره وجموعه فجاءت فى وسط هذه الشدة لعساكر السلطان نجدة من أصحاب البنادق ورموا بالبنادق على المماليك واصلوا الرمى بشدة حتى ردوهم ومازالوا بهم حتى فرقوا جمعهم ومزقوا شملهم وعادت الهزيمة عليهم فولوا الادبار وولى الاشرف مهزوما يريد قرية من أعلى تروجة اسمها البوطة فلما تم للسلطان سليم النصر عاد الى القاهرة ودخلت عساكره ومعهم العدد الكثير من رؤس القتلى وهم فى كبكبة عظيمة ثم نودى بالزينة فزينت البلد ثلاثة أيام والناس مع ذلك فى شاغل بما سيكون من وراء ذلك لعلمهم بما هو عليه الاشرف من البسالة والجلد على الحروب * أما الاشرف فانه نزل بقرية البوطة فأقام بها ثلاثة أيام وهو متحرز فى نفر من أصحابه ثم حضر اليه الشيخ حسن بن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ عربان البحيرة وكان بين المذكور وبين الاشرف صداقة قديمة فدعاه حسن الضيافة وألح عليه فى ذلك فركن اليه الاشرف ونزل عنده فلما استقر به المقام طلب مصحفا ووضعه بين يدى حسن واستحلفه عليه هو وابن أخيه انهما لايخونانه ولا يغدرانه ولا يدلان عليه ولا يخبران بخبره أحدا ولا يسعيان ضده عند السلطان سليم فحلفا على ذلك ثلاثا فطاب قلب الملك الاشرف وسكن جاشه وبات ليلته وأصبح وقد أحاط العربان بالمكان الذى هو فيه وأحدقوا به من كل جانب فخاف من كان معه من الغلمان والمماليك وتفرقوا عنه وأرسل ابن مرعى المذكور الى السلطان سليم يعلمه بالقبض على الاشرف ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وسير طائفة من عسكره فقبضوا عليه وقيدوه بالحديد وأتوا به بين يدى السلطان وهو فى زى العربان فقام له السلطان اجلالا وعاتبه ثم أشار الى بعض الواقفين من أصحابه فخرجوا بالاشرف من حضرته وأدخلوه فى خيمة أعدت له وأقاموا حولها الحرس من الغلمان الرماة والانكشارية فلبث الى يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر نحو سبعة عشر يوما والاخبار عنه بين الناس كل يوم فى شان فلما كان يوم الاثنين المذكور أركبوه على اكديش بعد ان عبروا به النيل من انبابه الى بولاق وهو مكبل بالحديد فى زى العربان الهوارة وامامه زهاء الاربعمائة من العثمانيين وساروا من سوق مرجوش ومروا به من القاهرة فتسابق الناس لرؤيته وهم فى دعاء له وصياح وجلبة عظيمة وكان يحييهم بلطفه المعهود وهو لايدرى أين هو ذاهب فلما جاؤا به عند باب زويلة وقفوا له وأنزلوه عن الاكديش وارخوا حبالا قد نصبوها له على السبيل الذى هناك ووقفت حوله العساكر بالسيوف فلما رأى مافعلوا قال أو أنتم قاتلى اليوم قالوا بلى فتبسم والتفت الى من حوله من جمهور الناس وقال وهو ثابت الجنان راسخ القلب اقرؤا لى الفاتحة بالخوانى ثلاثا واعفوا عما فرط منى فضج الناس وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب

مطلب
قتل السلطان الملك الاشرف طومان باى

وعلت الضوضاء وارتفعت أصوات النساء من أعالى البيوت والتفت الاشرف الى الجلاد وقال له تقدم وافعل ماشئت فالله ولى الامر فتقدم الجلاد ووضع الحبل فى عنق الاشرف وجذبه فانقطع الحبل وسقط الاشرف فضج الناس وصاحوا وولولوا فرفعوه ثانيا فانقطع الحبل فاشتد صياح الناس وعلت أصواتهم بالبكاء ففارقته روحه فبكاه الناس بكاء مرًا وكان عند ذلك مكشوف الرأس وعليه ثياب من الجوخ الاحمر وفوقها ملوطة وفى رجليه سراويل من جوخ أزرق ثم تركوا جثته معلقة ثلاثة أيام حتى فسدت وانتنت فانزلوها وساروا بها الى مدرسة عمه السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة رحمه الله برحمته الواسعة • قال أهل التاريخ وقد كان شابا حسن الوجه لايتجاوز الرابعة والاربعين من العمر بطلا مقداما حازما تولى النيابة فى الغيبة لما خرج عمه السلطان الغورى الى قتال السلطان سليم بحلب فاحسن التدبير وأمن السبيل ودفع المظالم وأبطل الاحداثات والبدع وكان محبا للرعية شفوقا كثير البر والاحسان وقورا • قال بعض كتاب الاخبار ولما جهز لقتال السلطان سليم حبب اليه بعض الامراء أن يجبى الاموال من الرزق والاقطاعات معجلا لنفقة الحرب فقال لا ولا أجعلها نقطة سوداء فى صحيفة أعمالى وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما اذ كانت ولايته فى الرابع عشر من رمضان وهروبه فى التاسع والعشرين من ذى الحجة وهى كلها حروب وكروب وخطوب • روى أنه لما كثر ظلم مماليك الغورى وزاد عبثهم بأمور الرعية وكثر فسادهم فى الارض أبغضهم الناس جدا وضجوا الى الله يطلبون الخلاص واتفق أن رجلا من خيار الناس رأى جنديا من عسكر الغورى أخذ متاعا من دلال ولم يرضه فى قيمته فتبعه الدلال يطالبه بحقه وهو يمتنع فقال الدلال بينى وبينك شرع الله فضربه الجندى بدبوس شج رأسه وسقط مغشيا عليه فرفع الرجل يديه الى السماء وقال الهى أنت أعلم بما تفعل هذه الفئة فاحكم فأنت خير الحاكمين ثم نام فى تلك الليلة وهو حزين مما رأى فرأى فى منامه أن ملائكة نزلت من السماء وبايديهم مكانس وهم يكنسون الشراكسة كنسا فاستيقظ مدهوشا واذا بقارئ يقرأ قوله تعالى فانتقمنا منهم فاغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا باياتنا وكانوا عنها غافلين • فعلم الرجل أن الله يأخذهم أخذا وبيلا فلم يمض الا القليل من الايام حتى قدم السلطان سليم وبدد شملهم وأباد سلطانهم ومزقهم أيدى سبا فزالت بموت الاشرف طومان باى دولة الشراكسة المعروفة فى عرف أصحاب التاريخ بالدولة الثانية فكانت مدة تصرفهم مائة سنة واحدى وعشرين سنة وجملة سلاطينهم اثنان وعشرون سلطانا أولهم برقوق وآخرهم الاشرف طومان باى

ولما دانت الامور للسلطان سليم بموت الاشرف أخذ يرتب أمور البلاد على مايشاء فجعل ادارة البلاد ثلاث طبقات وجعل فى كل طبقة منها رئيسا وجميعهم طوع أمر وزير الديوان



الكبير ورتب هذا الديوان من الوالى المنتدب من قبل السلطنة على البلاد ومن بكوات سبع وجاقات عسكرية وخص الوالى المذكور بتبليغ الاوامر السلطانية الى الديوان وحماية البلاد وتوصيل الخراج الى الخزينة السلطانية وفصل الخصومات بين أرباب الديوان وبعضهم وايقاف كل عند حده وخص أرباب الديوان بنقض أوامر الوالى عند الحاجة وخلعه من المنصب عند الضرورة والتصديق على مايصدر منه من المراسيم الديوانية المتعلقة بامور البلاد وقسم البلاد القبلية والبحرية الى أربع وعشرين مديرية وولى جماعة من المماليك عليها فكان عليهم جمع الخراج وجباية الاموال ورد العربان عند خروجهم عن الطاعة وقيد هؤلاء الحكام ولم يطلق لهم العمل الاعشورة أرباب الديوان العالى ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد * ثم قسم الخراج الذى يتحصل فى كل سنة الى ثلاثة أقسام الاول لمرتبات الجند من المشاة والفرسان والثانى لحاجات الحرمين والثالث للخزينة السلطانية وأقام من المرابطين لحراسة البلاد عشرين ألفا من المشاة واثنى عشر ألفا من الفرسان وجعل مقدمهم خير الدين أغا الانكشارى ورسم له بملازمة قلعة الجبل وعدم البراح منها * قال بعض كتاب الاخبار ولم يلتفت الى تحسين أحوال الرعية ولانظر فى رفع تلك المضار السائدة على أهل البلاد ولاخفف عنهم شيأ مما أتت به الحروب المتوالية والخطوب المتراكمة فكان هذا كله أكبر الاسباب التى آل بهذا النظام الى الزوال وبشوكة السلطنة العثمانية الى الضعف والذبول على توالى الايام * ثم انتقل بخيامه من الجزيرة الوسطى الى الروضة وابتنى له كشكا فوق قاعات المقياس وهو مشرف على النيل والروضة والمقياس فكان يجلس فيه محتجبا الا عن بعض خواصه وكبار دولته ثم نزل من ذلك الكشك وسكن فى دار الاشرف طومان باى التى خلف حمام العراقى المطل على بركة الفيل وكان سبب ذلك ان بعض الانكشارية تآمروا على قتله فأحس بذلك ونزل من الروضة وسكن فى الدار المذكورة وأمر فقبضوا عليهم وكانوا كثيرين واعملوا فيهم القتل والتفريق والشنق على أبواب القاهرة كباب زويلة وباب النصر وباب الفتوح حتى أفناهم

وجاءت الاخبار الى السلطان سليم بتأهب ملك فارس لقتاله ورد ما أخذ من أملاكه فاهمه هذا الامر جدا وأخذ يتأهب للخروج من مصر الى الشام فعرض جميع الخزائن وحواصل الحكومة وأخرج مافيها من سلاح ومتاع وكراع وغير ذلك ونقل جميع التحف والنفائس التى بالديوان الكبير بقلعة الجبل وكذلك التى كانت فى قاعة البيسارية والدهيشة وغيرهما وجمع جميع الكتب التى كانت فى خزائن المدارس على اختلافها وخاف أن يترك أمير المؤمنين المتوكل على الله فى منصب الخلافة فتطمع نفسه فى السلطنة فقبض عليه ليحمله معه الى القسطنطينية وقيل بل أمره بالشخوص اليها فخرج يوم الثلاثاء عاشر جمادى الاولى وخرج معه ابنا عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد وخرج معه أيضا الناصرى محمد العلائى على بن خاص بيك صهر الخليفة وكذلك الشرقى يونس ابن الاتابكى سودون

وقبل خروج الخليفة نزع السلطان سليم منه الخلافة قهرا ولبس شعارها فى محفل حافل فخرجت فى هذا اليوم الخلافة من بنى العباس الى آل عثمان وزالت عنهم كما زال الملك من ديار مصر بزوال دولة الغورى فسبحان من بيده تصاريف الامور وهو المعز المذل يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء انه على كل شئ قدير

مطلب خروج السلطان سليم من مصر الى مقر سلطنته بالقسطنطينية

وتأهب السلطان للرحيل عن مصر فسير امامه الى القسطنطينية من أولاد الملوك والسلاطين الذين كانوا بديار مصر وكبار الامراء والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمباشرين والكتاب من القبطة وهم المعلم بانوب كاتب الخزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغير والمعلم أبو المكارم وغيرهم وكثير من الاعيان وكبار التجار وأرباب الصنائع من مثل المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والمرخمين وصغار الفعلة فساروا بهم فى يوم الجمعة سابع عشر رجب الفرد الى الاسكندرية ثم الى القسطنطينية وأنزلوا معهم شيأ كثيرا من الرخام والعمد مما أنزلوه من قلعة الجبل والقاعات الكبرى وأخذوه من بيوت الامراء والاعيان من القاهرة ومصر القديمة وكانت شيأ كثيرا جدا * قال بعض كتاب الاخبار كان عدد من خرج من الامراء وأولاد الملوك والقضاة وغيرهم زهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جدا فكانت شدة عظيمة للغاية * ولما كان يوم الخميس ثالث عشرى شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خرج السلطان سليم يريد الرحيل الى القسطنطينية فسار من بيت الاشرف ومر من الصليبة الى الرميلة وهو فى موكب وجلالة وامامه العساكر والاجناد من المشاة والفرسان وطوائف الامراء وكبار الجند وعدة جنائب حربية والامير خير بيك نائب مصر وجان بردى الغزالى وكان السلطان راكبا على بغلة قيل انها كانت للسلطان الغورى كان يركبها فى الاسفار وحوله جماعة الوزراء وبينهم يونس باشا والدفتردار فسار بموكبه على السور ومر بتربة الاشرف قايتباى ووقف امام القبر لحظة لطيفة ثم مر من بين المقابر الى تربة العادل التى بالفضاء واستمر على ذلك حتى نزل بالمخيم الذى نصبوه له ببركة الحج ولم تعلم العامة بخروجه فى ذلك اليوم فلم تقف للقائه والدعاء اليه كعادتهم فى مثل هذه المواكب * ثم سار من بركة الحج الى الخانقاه السرياقوسية قال بعض كتاب الاخبار ولما وضع رجله بالركاب يريد المسير تقدم اليه خير بيك بمفاتيح البلد فردها عليه وقال له وليتك اياها الى ان تموت بها فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول فى خدمة الاجناد فأجابه الى ذلك فشاوره أيضا فى ابقاء أوقاف الشراكسة وهى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجابه بابقائها على ما كانت عليه فأستاء وزيره وقال فنى مالنا وعسكرنا ونسلمهم بلادهم وندخلهم فى عسكرنا ونبقى أوقافهم يستعينون بها علينا * قال فغضب السلطان وقال أين الجلاد فضرب عنق الوزير ووضع رجله الثانية فى الركاب وسار * قلت ويقال ان لقتل الوزير المذكور سببا آخر * ولما نزل السلطان الخانقاه لاطفوه وسألوه عن سبب قتل الوزير فقال عاهدناهم

على

على انهم ان ملكونا بلادهم أبقيناها لهم وجعلناهم عليها فهل يجمل بنا ان نخون العهد واذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم مسلمون أولاد مسلمين واما أرضهم فأصلها ملك الفاطميين ومنهم من أوقف ومنهم من قامت ذريته من بعده فهل يجوز لنا أن ننازع الملاك فى أملاكهم وانما أزلت الوزير كراهة ان يغير علىّ اعتقادى بتكرار كلامه

وسار من الخانقاه يريد بلبيس فلما صار على مقربة منها أصابه مرض حال بينه وبين ركوب دابته فأرسل الى الامير خيربك يطلب منه ان يجعل بارسال محفة فأرسلها اليه فركبها وسار الى الشام لقتال ملك فارس فأقام هنالك أشهرا وقد اشتدت به علته فسار الى القسطنطينية فكانت مدة اقامته بمصر ثمانية أشهر الا أياما وكان من يوم قتاله للسلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق الى قيامه من القاهرة سنة واحدة وشهرواحد وقد تملك فى هذه المدة من الفرات الى مصر والعراقين وما حولهما ـ قال بعض كتّاب الاخبار وكان دخول السلطان سليم بجيوشه الى مصر من أكبر الضربات على البلاد وأهلها فقد هلك بسببه العدد العديد من الرجال والنساء والاطفال حتى الدواب وتخرب الكثير من المساكن والشوارع والحارات وكسدت التجارة وتعطلت الصناعة حتى بطل منها خمسون صنعة من أعظم الصنائع وأشرفها وزالت منها الخلافة كازالت السلطنة وأصبحت ايالة تابعة لدار السلطنة العثمانية

ولما ارتحل السلطان بعسكره الى القسطنطينية اشتدبه المرض وظهرت فى ظهره قرحة عظيمة عجز الاطباء عن علاجها فكانت توضع الدجاجة فى قرحته هذه فتذوب وشوهدت معاليق أكباده من خلف وما زال يشتد به المرض حتى مات سنة ست وعشرين وتسعمائة فكانت مدة سلطنته تسع سنين فتولى الملك بعده ولده السلطان سليمان

﴿ الفصل الثانى ﴾

﴿ فى سلطنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم ﴾

ثم قام بالامر بعده ولده السلطان سليمان بويع له بالملك يوم موت أبيه سنة ست وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة تسع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ست وعشرون سنة فكان عاشر ملوك آل عثمان وكان يوم مات أبوه مقيما باقليم صاروخان فأخفى الوزراء خبر موت السلطان سليم حتى يحضر خوفا من قيام الانكشارية واضرام نار الفتنة فلما جاءه الخبر بموت أبيه سار الى القسطنطينية فدخلها فى سادس عشر شوال وكانت طوائف الانكشارية فى انتظار قدومه فلما رأوه صاحوا بأصوات التهليل وطالبوه بالعطايا حسب العادة فطيب خواطرهم ووعدهم بالاحسان وفى غد ذلك اليوم أغدق عليهم من انعامه

وطير الخبر بخلافته الى الآفاق وراسل بجميع العمال والولاة وأمراء مكة والمدينة فى أمر الحكم بين الناس بالعدل فكان يستهل رسائله بآية * انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم

مطلب
نظر السلطان الى ترتيب الدواوين والمجالس وتنظيم الاحكام الشرعية وتقرير قاعدة لذلك بديار مصر

وعلم السلطان سليمان بما كان من اخلاص خيربك فى خدمة أبيه السلطان سليم فأعجبه ذلك ونظر الى مصر نظرة الراغب فى فلاحها فأخذ فى تقرير أمورها على أحسن القواعد ورتب فيها ديوانين ينظران فى مصالح الرعية ويفصلان فى الخصومات فكان إذا انعقد هذان الديوانان جلس الوالى خلف ستار المنبر ليسمع ماتدور عليه رحى الحديث بعد أن يرسم الكتخدا والدفتردار بذلك فاذا تمت مباحثات المجلس رفع الكتخدا والدفتردار مااستقر عليه الرأى الى الوالى فيرسم بتنفيذه بلا نقض ولا ابرام فيقضيه الكتخدا مع الدفتردار * ويختص الديوان الكبير من هذين الديوانين برؤية أهم الامور التى لا علاقة لها بدار السلطنة العثمانية فكان لذلك يتألف من أغوات الوجاقات الست والدفترداريين والرزنامجيين والنواب فى جميع وجاقات العساكر وأمير الحاج وقاضى القضاة والمشايخ والعلماء والاشراف وأصحاب الفتوى الأربعة والأئمة الاربعة * وكان لا يجتمع الا فى المهمات من الامور ولا يصح اجتماعه الابناء على طلب الوالى وكانت تأتى اليه المراسيم السلطانية على يد الوالى * وأما الديوان الثانى فكان ينعقد كل يوم فى بيت الوالى من الكتخدا والدفتردار والاغا وكبار وجاق المتفرقة ونائب من كل وجاق فينظر فى الاعمال وما تحتاج اليه البلاد من الامور النافعة * ورسم السلطان بأن يكون مقر الوالى بقلعة الجبل وان لاتزيد ولايته عن سنة واحدة ثم تعطى لغيره ممن يقع الاختيار عليه ورسم أيضا بابطال بعض المكوس والمغارم وأزال بعض العوائد والرسوم وهيأ الحصون ومهد المسالك وزاد فى نظام الجند فأنشأ وجاقا سابعا ممن بقى من المماليك الشراكسة ورتب لكل وجاق ديوانا ينظر فى شؤنه ويتألف هذا الديوان من كبار الوجاق وافراد من ضباطه وكان لكل منهم لباس مخصوص وعلامة مخصوصة تدل على مرتبته ووظيفته وكان عدد جند هذه الوجاقات كلها عشرين ألفا وربما زادوا أو نقصوا وكان لوجاق الانكشارية الافضلية على سائر الوجاقات وكبيره مقدم على جميع كبارهم وله الكلمة النافذة عليهم فى كل حال وهم يجلونه ولا يخالفون له أمرا

مطلب
تقرير الامير خيربك على عمالة مصر وماجرى له

ولما أتم نظام الامور على ماأراد أقر خيربك على عمالة البلاد واجازله التصرف فى الامور بما فيه المصلحة وان يعدل فى الرعية ولا يحدث شيأ من المغارم والمكوس فجعل خيربك يتصرف تصرف الملوك والسلاطين وبدت منه دلائل الجفاء والشدة * قال بعض كتاب الاخبار ثم لم يلبث ان طغى وظلم وأخذ الناس بالشبهات وأساء الى طوائف الجند فأبغضوه وتربصوا به الشر فلما أحس منهم بذلك أخذ فى تدبير الحيلة وجمع اليه من بقى من طوائف المماليك الشراكسة وقربهم اليه وأدنى كبارهم منه وأباح لهم ركوب الخيل وحمل السلاح وقد كان ذلك محرما عليهم منذ دخول السلطان سليم القاهرة بعسكره ورسم فنادوا بذلك فى

القاهرة

القاهرة ومصر القديمة وسوق السلاح وقلعة الجبل فشق هذا الامر على طوائف الجند وأحسوا بما وراء ذلك من الخيبة انهم ظلوا متقاعسين فقاموا قومة رجل واحد وسيروا طائفة منهم فوقفوا لخيربك فى حوش الديوان وكلموه فى ذلك وأغلظوا عليه فى القول ومنعوه من الدخول الى بيته وسبوه وهمّ بعضهم بقتله فأفلت منهم وانزوى فى بيته فعاثوا فى قلعة الجبل وأزعجوا من فيها وتطاولت أيديهم الى النهب وثاروا على خير الدين نائب القلعة وهموا بقتله فأغلق دونهم الابواب واختفى منهم فى ذلك اليوم فنزلوا الى المدينة وتفرقوا وهم حاقدون على خيربك ناقمون عليه واشتدوا على الرعية فصاروا يشوشون على جميع الخلق بلا فرق ولا تمييز حتى على السوقة والباعة وكانوا يأخذون ما فى البيوت من الابواب والشبابيك وخشب الاسقف للوقود وكان اذا احتاج أحدهم الى وقود الحريق ذهب الى أقرب البيوت لبيته وأخذ منه ما يحتاجه ليومه أوليومه وغده على مرأى من صاحب البيت حتى أخذوا جميع ما فى الاماكن التى فى زقاق الكحل والسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والازبكية من الاخشاب وكانوا يبيعون ما فضل منهم بأبخس الاثمان

وقال بعض كتاب الاخبار فضج الناس وبجوا واجتمع أصحاب البيوت وتبعهم العامة وساروا الى بيت قاضى القضاة العثمانى وشكوا اليه من فعال أولئك الجند وصاحوا واستغاثوا وقالوا ما يحصل ذلك يا مولانا فشق الامر على القاضى وركب من ساعته وسار الى بيت الامير قايتباى الدويدار وأخذه وسار الى خيربك بعقره وأعلماه بالخبر وأغلظ القاضى فى القول وهدد خيربك ان لم ينشط الى العمل فجمع خيربك كبار الجند واختيارية الوجاقات وكلمهم فى ذلك فطيبوا خاطره وهونوا عليه الامر وطلبوا منه ان يمنع فتح الحوانيت ليلا فأمر فنادوا بذلك فكانت السوقة تقفل الحوانيت قبل غروب الشمس

واتفق فى هذه الاثناء ان جاء رسول من دار السلطنة فى طلب بعض الامراء المصريين وعدد من العساكر الشاهانية يعنى الانكشارية والاصباهية نجدة ففرح خيربك بذلك ونادى فى العسكر بالتأهب للرحيل فغضبوا وظنوها خدعة من خيربك وأبوا الرحيل وزادوا فى الافساد والاضرار بخلق الله فكانوا كلما أكثروا فيهم المناداة زادوا تمردا وطغيانا ثم خرج منهم جماعة الى الشرقية وآخرون الى الغربية فعاثوا وأفسدوا وأحرقوا الحرث والنسل وانضم منهم جماعة أيضا الى بعض العربان وقطعوا السبل على المارة واختفى منهم جماعة بالقاهرة ومصر القديمة فشدد خيربك فى التفتيش عليهم وقبض على جماعة منهم وسجنهم فى قلعة الجبل ورسم لرسول دار السلطنة بالتأهب للسفر معهم بلا ابطاء فلما كانت الليلة التى قبضوا فى نهارها عليهم اجتمع جميع الذين كانوا فى القلعة منهم بالحوش وكسروا باب القلعة ونزلوا منها ليلا الى مصر القديمة وركبوا بعض السفن التى وجدوها هنالك وساروا الى الصعيد متفرقين فخشى خيربك شر العاقبة ورسم للامير قايتباى الدويدار بالخروج خلفهم بخيله ورجله وان يقتل كل من لقيه منهم فى الطريق بغير معاودة فقام قايتباى ومعه



الامير جانم الجزاوى والامير على العثمانى وعبروا النيل الى الجيزة فلبثوا بها يومهم حتى تكامل خروج عسكرهم ثم ساروا الى ناحية الميمون بالقرب من جزيرة عدى فالتقوا هنالك مع الانكشارية فقاتلوهم قتالا عنيفا وانتصر الامير قايتباى عليهم نصرة عظيمة وحرق مراكبهم وقتل منهم خلقا كثيرا بالمكاحل والبنادق وقبضوا على من بقى منهم وحزوا رؤس كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وعادوا الى القاهرة ففرح خيربك بذلك ورسم لوالى القاهرة برفع تلك الرؤس على أبواب المدينة فلم يمكنه كبار الانكشارية من ذلك وكادت الفتنة تقوم بالقاهرة، وخاف من بقى من الانكشارية والاصبهانية وانكشوا وأطاعوا وخرج منهم طائفة كبيرة مع رسول دار السلطنة الى الريدانية ثم رحلوا عنها بعد أيام الى الشام مع بعض الامراء المصريين الذين جاءهم الطلب فكانت هذه الوقعة أول فتن الانكشارية بعد أن تسلموا حراسة البلاد والذب عنها ولما ظهرت الفتنة على النحو المذكور ضعفت شوكة خيربك وكادت هيبته تزول وطمع العربان فى البلاد وخرج حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة فى طائفة كبيرة من قومه وانضم الى جماعة من عربان الشرقية وغيرهم وعاثوا فى بلاد البحيرة وأفسدوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا وقطعوا السبل على المارة وسار بهم ابن مرعى المذكور يريد القاهرة ووردت الاخبار بذلك الى خيربك فاضطرب ونزل من قلعة الجبل الى الميدان وعرض جميع المماليك الشراكسة والعساكر العثمانية واختار منهم جماعة وسيرهم مع الامير قايتباى الدويدار والامير خورشد كبير العثمانيين وكانت الامور قد ضاقت جدا على أهالى الشرقية والغربية واتسع نطاق الفتنة واستفحل أمر الفساد وفعل أولئك الناس بالقرى مالا يطاق من الجور وظهر عبد الدائم بن بقر واخوته وهو من زعماء عربان الشرقية فعاث أيضا وأفسد وخرب بلادا كثيرة من الشرقية والغربية وعمت الفتنة البر والبحر فكبر خوف الامير خيربك وشدد على قايتباى الدويدار وخورشد بالقيام الى البحيرة أولا وقطع شأفة ابن مرعى وأصحابه فجدوا السير فلما أحس ابن مرعى بقدومهم وعلم أن لاقبل له على قتالهم أرسل أخاه شكرا الى الامير خيربك يطلب له الامان فكتب اليه خيربك يؤمنه وبعث اليه صورة يمين ليحلفه على يدى القاضى فخر الدين بن عوض وأرسل اليه كذلك قفطان حرير بمخمل وخلع على أخيه شكر خلعة أخرى وكتب الى الامير قايتباى أن يتربص بعساكره فتربصوا فى المكان الذى أدركهم فيه الخبر وجاء حسن بن مرعى صحبة القاضى فخر الدين بن عوض وصعد الى قلعة الجبل فأكرم خيربك لقاءه وخلع عليه خلعة سنية ثم أنزله فى موكب حافل وعادت الامور فى البحيرة والغربية الى سابق مجراها واطمأنت قلوب الرعية وتحول قايتباى بمن معه من العساكر نحو الشرقية فلما علم بقدومه عبد الدائم بن بقر زعيم العصاة بها أرسل الى خيربك يطلب الامان فأجابه الى ذلك وأرسل يستقدمه فحضر الى القاهرة ومعه جماعة من العربان وحضر معه أبوه أحمد بن بقر فلما مثل بين يدى خيربك أكرم لقاءه ولقاء أبيه وهم أن يخلع عليهما ويقرر عبد الدائم المذكور على مشيخة عربان

الشرقية

الشرقية فقال أبوه ان أنت فعلت ذلك أيها الامير جلبت على أهل الشرقية وبالا ومكنت
ولدى هذا من رقاب الابرياء وزدت نار الفتنة اضراما فعجب خير بك بكلامه وأمرفى
الحال فقبضوا على عبد الدائم وكبلوه بالحديد وقبضوا على جميع من جاؤا معه من أصحابه
وسلموهم الى خير الدين بك نائب القلعة ففرح الناس بذلك فرحا لا يوصف لاسيما أهل
الشرقية والغربية واطمأنت قلوب الخلق وزالت عنهم المخاوف ثم بعد أيام قلائل أخرجوا
من أولئك العربان عدة أشخاص وأماتوهم شنقا بعضهم على قنطرة الحاجب وبعضهم على رأس
الحسينية وبعضهم عند باب النصر وقتلوا آخرين بغير ذلك أيضا * وأما حسن بن مرعى شيخ
عربان الغربية فانه بعد ان خلع عليه خلعة الرضا وأعاده الى الغربية معززا لم يلبث بها
الا قليلا حتى دس خيربك الى اينال السيفى طراباى كاشف الغربية بأن يقتله مع أخيه شكر
فأخذ اينال المذكور يكاتب ابن مرعى و يتودد اليه ويظهر له غاية الاخلاص والمودة حتى
أمن جانبه ومال اليه ثم أدب له مأدبة عظيمة فى بلدة قريبة من دمنهور ودعاه اليها مع أخيه
شكر فأجابا دعوته وأتيا اليه فأحسن لقاءهما وبالغ فى الترحيب بهما حتى حضر الطعام
فأكلوا جميعا ثم انتقلوا الى مجلس الشراب فشربوا فبينماهم كذلك اذ خرج على حسن
وأخيه جماعة من المماليك الشراكسة من مكان كانوا مختفين به وعاجلوهما بضرب السيوف
واحتزوا رأسيهما فأرسل بهما اينال الكاشف الى خيربك ففرح ورسم لوالى القاهرة برفعهما
على باب النصر فرفعهما وتزاحم الناس لمشاهدتهما * قال بعض كتاب الاخبار وحسن
ابن مرعى هذا هو الذى غدر بالسلطان الملك الاشرف طومان باى وقبض عليه وسلمه الى
السلطان سليم واتفق انه لما سار حسن المذكور الى مأدبة الكاشف اينال السيفى كان راكبا
على فرس السلطان الملك الاشرف التى كان أخذها يوم سلمه الى جند السلطان سليم بعد
أن أقسم انه لايخونه ولايدس عليه فلما احتز المماليك رأسه ورأس أخيه شكر ربطوهما
فى عنق ذلك الفرس ودخلوا بهما القاهرة على هذه الصورة فعد ذلك من النوادر العجيبة
فى بابها

وفرح خيربك بموت ابن مرعى وعده من أكبر أسباب الظفر وبث العيون والارصاد
حول جماعة العربان فى البحيرة والغربية والشرقية وشدد فى ذلك فانكمشوا وخافوا وتمكن
كاشف المنوفية من قتل شيخ العرب على الاسمر بن أبى الشوارب فاختفى من بقى من كبار
العربان وأصحاب الكلمة فيهم وسلكت بعض الطرق التى قطعها العربان واطمأنت قلوب
الناس ولكن لم تطل هذه الايام حتى عاد عربان السوالم الى الخروج بالشرقية وكاد يستفحل
أمرهم وعاد الناس الى الخوف فاعمل اياس كاشف الشرقية الحيلة للقبض على مشايخهم
وما زال يتقرب منهم ويتودد اليهم حتى استدعاهم الى مأدبة أعدها لهم فركنوا اليه
واطمأنت من قبله قلوبهم وأتوا اليه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ولم يقضوا معه يومهم
حتى قبض عليهم وقتلهم وسلخ جلودهم وحشاها بالتبن وأرسل يعلم الامير خيربك بالخبر

فسير اليه خيربك طائفة من الانكشارية والاصبهانية والجراكسة فأحاطوا بمنازل عربان السوالم وقتلوا من وجدوه بها من الشيوخ والنساء والاطفال وغنموا مافيها من الخيل والابل والاغنام والاماء والعبيد والملبوس والمفروش وقبضوا على الشيخ نجم شيخ عربان العائد لاتهامه بامداد عرب السوالم وأتوا برؤس من قتلوا مع جلود المشايخ الى القاهرة فتفرق من بقي وطلع جماعة الى الجبال * ونزل جماعة الى الصالحية فأحرقوها وأحرقوا ماجاورها من القرى والكفور وقتلوا ونهبوا أخذا بالثار واشتدت الفتنة وعمت جميع انحاء الشرقية فولى خيربك اخا نجم شيخ عربان العائد شيخا بدل أخيه نجم وجهز لقتال السوالم طائفة من الانكشارية والاصبهانية وأخرى من المماليك الشراكسة وطائفة من الرماة بالبنادق وبعض المكاحل وكان لما قبضوا على نجم شيخ عربان العائد قام أيضا اصحابه وعاثوا فى بلاد الشرقية وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وانحدروا حتى أتوا على رأس المطرية فكانوا يقبضون على المارة ويسلبون مايجدونه معهم فلما وصلت العساكر الى الشرقية هرب من بقي من السوالم وأطاع من كبارهم من لم يهرب وسلموا بأنفسهم الى اياس كاشف الشرقية فنزل بهم الى القاهرة ودخل بهم على الامير خيربك فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضا وأقرهم على المشيخة بشرط الطاعة وحسن الولاء والاخلاص فى خدمة الدولة فأطاعوا

مطلب
خروج الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان وعزمه على الزحف على مصر وضمها الى الشام

ورسم خيربك بشنق شيخ العرب أبو الشوارب فشنق ومعه آخرون من كبار العربان ثم عاد فعفا عن نجم شيخ العائد وأفرج عنه وولاه المشيخة ثانية وأطلق آخرين من كبار السوالم وكان الحامل له على ذلك ماورد اليه من الاخبار بخروج جان بردى الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان واستقلاله بملك الشام واتخاذه لنفسه شعار السلطنة وانه قد خضع له جميع الولاة والعمال وقبلوا الارض بين يديه وزينت له جميع المدن والبلدان أياما ثلاثة فلقب نفسه بالملك الاشرف أبي الفتوح وكتب الى جميع الولاة يستحثهم على تجنيد الجند واعداد آلات الحرب لقتال خيربك بمصر وأخذ البلاد منه وضمها الى الشام كما كانت على عهد من سلف من الملوك والسلاطين * وكان الحامل له على قتال خيربك انه لما هم بالخروج وشق عصا طاعة السلطان راسل خيربك فى ذلك وحبب اليه الخروج وألح عليه فى الطلب وهون عليه الامر فخدعه خيربك وسير كتب الغزالى الى السلطان وعلم الغزالى بخبر ذلك فأكبره وأعظمه جدا وتجرد لقتال خيربك فخاف خيربك من هذه الاخبار وخشى سوء العاقبة فاطلق لذلك من أطلقهم من مشايخ وكبار العربان الذين كانوا فى السجون وعاهدهم وأمدهم بالاسلحة والاكراع ورسم لهم بقتال جان بردى الغزالى فى طريقه قبل أن يصل الى الديار المصرية فخرج منهم جماعة وساروا الى الشام لمنع الغزالى ولومه وكان الغزالى قد جمع اليه جموعا كثيرة من الاكراد وعربان جبل حوران ونابلس وعربان بنى عطا وبنى عطية وغيرهم من طوائف العربان وخرج من دمشق فى جيش عظيم للغاية وجموع كثيرة جدا يريد الديار المصرية فاهتم الامير خيربك لذلك وعرض العساكر والاجناد وجمع

طوائف

طوائف الانكشارية والاصبهانية والكمالية المماليك الشراكسة وغيرهم ممن شاء الدخول
فى خدمة الدولة وجماعة كثيرة من المغاربة والروم أصحاب الحرف والصنائع وأكثر من جمع
السلاح وانشاء المركبات والعجلات لجر المكاحل ونادى فى هذه الجموع والاجناد بالتأهب
والاستعداد

وبينما كان خيربك يجند الجنود ويكثر من جمع السلاح كانت رسل الغزالى تأتى الى
مصر بالرسائل الى بعض الامراء من الروم وبعض التجار والجواسيس تنقل من أخبار خيربك
الى الغزالى كل ماوصلوا الى معرفته فأحس خيربك بذلك وشدد ومنع من دخول الاغراب
الى القاهرة الابعد البحث والتنقيب عن أحوالهم وقبض على بعض الروم من تجار خان الخليلى
وأمر بقتلهم فقتلوا تحت قلعة الجبل بتهمة نقل الاخبار وكان من أمره أنه اذا نقل اليه أن أحد
الناس مهما كانت درجته ذكر الغزالى فى مجلس أو تكلم عن زحفه على ديار مصر أو عن استقلاله
بملك الشام أمر بصلبه على أحد أبواب القاهرة ثم أمر بالقاء جثته للكلاب فتنهشها فخاف
الناس جدا وانكمشوا وقل خروجهم الى الاسواق وجلوسهم على الحوانيت وجاءت الاخبار
بوصول طلائع لموم الغزالى الى اقطيا فجرد خيربك لقتالهم طائفة من الاصبهانية وأخرى
من الكمالية فساروا من الريدانية الى بلبيس ومنها الى الصالحية فأفسدوا فى طريقهم وعاثوا
ونهبوا الكثير من الضياع وعلى الخصوص ما كان منها حول بلبيس والصالحية وأخذوا
مافيها من الشعير والسمن والطيور وأذاقوا أهل البلاد مرارة الجور وانقطع الوارد من الديار
الشامية وسدت المسالك فى وجوه أصحاب التجارة فانكفوا وانقطعت العلائق مع أهل الشام
وكتب خيربك بتحرير الخبر الى دار السلطنة فاهتم السلطان بأمر الغزالى وجند لقتاله
الجنود وسيرها على قدم السرعة ومقدمها الوزير فرحات باشا فلاقته العساكر السلطانية
عند حلب الشهباء وكان الغزالى محاصرا لها فقاتلته قتالا عنيفا أياما كثيرة ثم انتصرت
عليه ومزقت شمل جنوده ففر وسار يريد الشام وقد كسر جسر الرستين فتبعته العساكر
السلطانية وقاتلته خارج دمشق قتالا شديدا أياما مات فيه خلق كثير قيل عشرة آلاف
وقيل أكثر من ذلك وضيق عليه العساكر السلطانية وسدوا عليه المسالك حتى
قبضوا عليه وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وأخذوا رأسه مع رؤس كثير من كبار قومه وأرسلوها
الى دار السلطنة قال بعض الكتاب وكان الغزالى هذا من مماليك الاشرف قايتباى اشتراه
وأعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك السلطانية ثم استخدمه الامير
تغرى بردى الاستادار شادا على ضيعة له بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب اليها وقيل له
جان بردى الغزالى مضافا لاسم تلك الضيعة ثم ان الاشرف قايتباى قرره جدارا وجعله فى
كشف الشرقية ثم صار أمير عشرة فى آخر دولة الناصر محمد بن قايتباى ثم تولى محتسبا
القاهرة فى دولة السلطان الغورى ثم ولاه فى حجوبية الحجاب بمدينة حلب فخرج اليها من
يومه ثم نقله السلطان الملك الغورى الى نيابة صفد وذلك سنة سبع عشرة وتسعمائة ثم الى

مطلب
قتل الغزالى وارسال رأسه
الى دار السلطنة

نيابةحماة فلبث بها حتى كان ما كان بين الغورى والسلطان سليم فانضم الغزالى بعسكره الى جيوش السلطان سليم فولاه السلطان سليم الشام وجعل له التصدث على الشام وحماة وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس ورملة والكرك وغير ذلك من الاعمال الشامية فلما استقربه هذا المنصب تاقت نفسه الى الاستقلال بملك الشام فصار يجند الجنود ويكثر من المعدات وآلات الحرب وضم اليه الكثير من عربان حوران ونابلس والكرك وغيرهم واستمال كثيرا من المماليك الجراكسة ممن كانوا فى خدمة الدولة فى مصر فساروا اليه ولحقوا بعسكره ولحق به أيضا كثير من الاكراد والتركمان ومازال حتى بلغت جنوده اثنى عشر ألف مقاتل و بينهم كثير من الرماة بالبنادق فزحف بهم يريد فتح المدن والامصار وألبس نفسه شعار السلطنة وتلقب بالملك الاشرف أبى الفتوح وضرب السكة باسمه وخطب له على المنابر فى دمشق وغيرها من المدن قيل خطب له بدمشق جمعتين *وكان طائشا عديم الرأى غير بصير بعواقب الامور كثير الاخذ بالشبهات كبير البطش وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وسبعة أشهر الا أياما ولقد صدق من قال

والنفس لاتنتهى عن نيل مرتبة * حتى تروم الذى من دونه العطب

ولما جاءت الاخبار بزوال ملك الغزالى وسقوطه فى قبضة العساكر السلطانية وقتله فرح الامير خيربك فرحا عظيما اذ لم يكن عنده من الجنود ومعدات القتال مايقوى معه على مبارزة جموع الغزالى وجيوشه المنظمة لاسيما وقد كانت الفتنة ضاربة بين كبار جند خيربك ورؤساء عسكره وكان كلما أخرج طائفة وسيرها لقتال الخوارج عاثت فى البلاد وأهلكت الحرث والنسل وفعلت مالاتفعله جنود العدو اذا احتلت البلاد عنوة وكان يخاف جدا من طوائف المماليك الشراكسة حيث تحقق له أن بعض كبارهم مالوا عنه وانضموا الى دعوة الغزالى وانهم يراقبون الفرص ويتأهبون للخروج عند أول سبب *وعادت المواصلات التجارية مابين مصر والشام بعد موت الغزالى وجاءت قوافل التجارة باصناف البضائع على اختلافها وزالت وحشة الناس وسكنت خواطرهم بعد الخوف وزاد اطمئنانهم بوصول الاخبار من دار السلطنة بان السلطان سليمان أجاز لمن كان أحضرهم أبوه من الامراء المصريين والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمعتبرين والتجار وأرباب الحرف والصنائع من المصريين يوم خروجه من مصر بعد فتحها أن يعودوا الى أوطانهم فلم تكن الا أيام بعد ذلك حتى حضر منهم من لم تخترمه المنية قال بعض كتاب الاخبار وقد ذاقوا الذل ألوانا وأصبح الاعيان والمباشرون منهم لايملكون شروى نقير حيث نفدت أموالهم * وجاءت أيضا خاتون سلطانة عمة السلطان سليمان ومعها ولدها الامير مصطفى تريد الحج الى بيت الله الحرام وكان حضورها فى كبكبة زائدة وخدم وحشم وكثير من الصبيان فقوبلت بغاية الاحتفاء والاحتفال وسار الامير خيربك وجميع الامراء وكبار المماليك فى ركابها حتى نزلت فى بيت مطل على بركة

الفيل و رتبت لها وتخـدمها المآ كل والمشارب ووقف على بابها بعض الحجاب وزارها نساء الامراء وقدمن لها التحف والهـدايا النفيسة فلما خرج المحمل خرجت مرافقة له في هودج وامامه الخدم والحشم وبالغ أمير الحاج في تنظيم الركب وسير امامه المركبات وعليها المكاحل والمدافع النحاس وأنفقت السلطانة في الحرمين أموالا عظيمة وشيأ كثيرا من الاقمشة والغلال وتصدقت على الفقراء ونزلاء التكايا وكثر في هـذا الحـين افساد الانكشارية والاصبهانية بأسباب عدم صرف جماكيهم وتأخير مرتباتهم فنزعوا الى الثورة وتعرضوا لخير بك في طريقه وتحت القلعة وخاطبوه ببذئ القول وفحش الكلام وأقسموا أنهم ينهبون المدينة إن هو أصر على ايقاف صرف جماكيهم ومرتباتهم ووقف جماعة منهم على أبواب الامراء يهـددونهم ان لم يكلموا خير بك في ذلك فكلموه وحـذروه شر العاقبة فصرف لهم بعض المال على قدر الحاجـة واعتذر بقـلة ذات اليـد وعجز المباشرين عن جباية الاموال وتعذر البيع والشراء وكساد الحال وبوار الكثير من المزارع وتشرد أصحابها بسبب فعال العساكر وعبثهم بالبلاد ثم شدد على المباشرين وطالبهم بالمال فانبثوا في البلاد وطلبوا قسط الخراج معجلا قبل وفاء النيل وزرع الاراضي وضيقوا على أهـل البلاد وبالغوا في التشديد وقـد كان متحصـل خراج مصر في هـذه الدولة أى دولة السلطان سليمان على ما قاله بعض الكتاب ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ذهبا ومن الغـلال ستمائة ألف اردب منها ثلثمائة ألف قمحا وثلثمائة ألف شـعيرا وفولا وغير ذلك في كل سـنة ﴿قلت﴾ وكان خراج مصر على عهد المقوقس عظـيم القبطة على مارواه تقي الدين في خططـه مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكانت مـساحة أرضها على عهد الفراعنـة مائة ألف ألف فـدان وثمانين ألف ألف فـدان تزرع غير البور وبلغ خراج مصر على عهد عمرو بن العاص وعبـد الله بن أبي السرح في صدر الاسلام اثنى عشر ألف ألف دينار وفي أيام أحمـد بن طولون أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير مايتحصل من المكوس والغـلال * وجبي خراجها في الدولة الاخشيدية فكان ألفى ألف ألف دينار وجبي خراجها في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري فكان اثنى عشر ألف ألف دينار ﴿قلت﴾ وهو اليوم عشرة آلاف ألف ألف وخمسمائة ألف وبضع مئات ذهبا أى جنيها * وكانت جوامك ومرتبات العساكر في ذلك الحين درجات بعضها فوق بعض فكانت جمكية الاصبهانية منهم مئتين دينارا وخمسين وأربعين وثلاثين وعشرين في كل شهر والانكشارية مابين خمسة عشر واثنى عشر دينارا في كل شهر والصوباشية ثلاثين دينارا في كل شهر والكمالية مابين اثنى عشر وعشرة دنانير في كل شهر والمماليك الشراكسة سبعة دنانير في كل شهر هذا عدا مرتبات الامراء وكبار الجند وعظمائهم وكانت هذه الجوامك والمرتبات لاتصرف الامن خراج الشرقيـة والغربية والبحيرة والاقاليم القبلية فقط دون الاموال الخارجـة من الثغور كثغر الاسكندرية ودمياط ورشـيد والبرلس وعيذة

مطلب
كم كان خراج مصر في دولة السلطان سليمان وما بعده إلى هذا الحين

وغيرها فانها كانت تحمل الى خزائن السلطان مباشرة فلا يأخذ الوالى منها شيأ حتى ولا للجهاد والغزو وكانت أيضا بعض المغارم والمكوس تحمل كذلك الى خزينة السلطان فلا يأخذ الوالى منها شيأ وسرى ذلك الى ما كان مقررا على الرزق والاقطاعات والارزاق الاحباسية والاوقاف وترك الاموات من طوائف الترك والمماليك الشراكسة ثم تعدى ذلك أيضا الى ما كان مقررا لنواب القضاة والشهود على عقود الانكحة فقيدوا به قاضيا مخصوصا اسمه القسام فضرب على عقد البكر ستين نصفا والثيب ثلاثين نصفا كانت تحمل الى الخزينة السلطانية

مطلب
إبطال السلطان سليمان لقضاة المذاهب الاربعة

ولما كانت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رسم السلطان سليمن بابطال قضاة المذاهب الاربعة من التصرف فى القضاء بديار مصر وتسليم جميع الاحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم وان تبطل وظائف سائر النواب والشهود وأن لا يبقى سوى أربعة من النواب لكل مذهب نائب لاغير ولكل نائب منهم اثنان من الشهود لاغير وانهم يكونون جميعا بالمدرسة الصالحية فلا يصح بعد ذلك لاحد أن يوقف وقفا أو يعقد عقدا أو يكتب وصية أو عتقا أو اجارة أو حجة أو غير ذلك من الامور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر المذكور ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك فاضطربت أحوال الناس كافة وانكمش جميع القضاة والنواب والشهود وصاروا يتوقعون حضور قاضى العسكر المذكور فى كل يوم فلما كان يوم الاثنين عاشر رجب من السنة أى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة قدم الى القاهرة القاضى المذكور واسمه سيدى جلبى فاركبوا له موكبا حافلا وساروا به حتى أنزلوه فى بيت الامير جانم مصبغة الكاتب خلف المدرسة الغورية فلما استقر به المقام قدم عليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وكان قاضى قضاة الحنفى مريضا فى هذا الحين فلم يحضر قال بعض كتاب الاخبار فلما دخلوا عليه لم يجلهم ولم يقم لقدومهم وكان شيخا مسنا أبيض اللحية طويل القامة على عينه حصابة فصيح اللسان يحسن العربية جيدا فكلمهم ساعة ثم انصرفوا فلما كان اليوم الثانى نزل الامير خير بك من قلعة الجبل الى الميدان وجلس بالمصطبة وجلس معه الامراء العثمانيون والامير قايتباى الداودار ثم حضر القاضى المشار اليه وبين يديه المرسوم السلطانى فقرئ المرسوم بحضرة من ذكروا وهو يتضمن تسليم زمام جميع الاحكام الشرعية فى المذاهب الاربعة اليه وأن يكون القائم على جميع الامور الشرعية على اختلافها ثم كان منه بعد ذلك ان رتب جميع الامور التى تتعلق بالاحكام والقضاة فأقام قاضيا للحنفية من الروم يحكم بالنيابة عنه وجعل مقره بالمدرسة الصالحية وأقام آخر الحكم على مذهب الامام الشافعى بالنيابة عنه وأقام لكل قاض من الروم نائبا من قضاة مصر فجعل القاضى شهاب الدين بن شرين الحنفى نائبا عن القاضى صلاح الدين العثمانى وجعل القاضى شمس الدين محمد الحلبى الشافعى نائبا عن القاضى فتح الله العثمانى وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه

والمرجع

مطلب
ماتقــررمن الرسوم على التركات لبيت المال وما أحدث من الاحداثات

والمرجع فى جميع الاحكام الى قاضى العسكر المشار اليه ثم رسم بأن لايبقى مع كل نائب من هؤلاء الاربعة سوى شاهدين اثنين وأبطل سائر النواب والشهود ورسم للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية بأنهم اذا وقفوا امامه يأخذون بأيديهم العصى فاجتمع منهم بالمدرسة زهاء الستين ثم أقام أيضا شخصا من الروم للتحدث على التركات سماه (القسام) فضرب على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الذكور والاناث وشدد فى طلب ذلك ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك وبأن لايعقد أحد من الشهود قاطبة عقدا ولايكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيأ من الامور الشرعية الا فى المدرسة الصالحية وشدد فى السير على مقتضى الشريعة والعمل بموجب السنة وعامل الغنى والفقير والجليل والحقير على السواء فهابه الناس كافة وخافه الامراء والكبراء حتى اذا كان لاحد من العامة فى ذمة أحدهم شئ بادر الى ارضائه وتلطف فى معاملته خوفا من الشكوى ٭ ورسم فنادوا فى القاهرة ومصر القديمة بأن لاتخرج امرأة الى الاسواق الا العجائز منهن ومن خالفت تضرب وتربط من شعرها بذنب اكديش ويطاف بها فى القاهرة ومصر فخاف النساء خوفا عظيما وانكششن ولم يخرجن ٭ واتفق انه صعد الى قلعة الجبل يوما فوجد بعض النسوة يتحدثن مع جماعة من العسكر الاصبهانية فى وسط السوق فعز عليه هذا الامر وكلم الامير خيربك فى ذلك فرسم الامير خيربك بأن لاتخرج امرأة من بيتها ولا تركب على حمار مكارى وكل مكارى أركب امرأة شنق من يومه فخاف المكارية وبارت حرفتهم فباعوا حميرهم قاطبة واشتروا بدلها أكاديش وشدوها فصارت النساء يركبن عليها وتحتهن الطنافس والمكارى يقود بلجام الاكديش كما يفعل المكارية بالقسطنطينية ٭ ورسم القاضى أيضا بمسح أطيان الاقاليم القبلية وترتيب سائر الرزق الاحباسية على قاعدة نظمها هو لذلك وقيد بهذا العمل القاضى فخر الدين ابن عوض فسار الى الصعيد ومعه جماعات المساحين والقباسين وطوائف الكتاب والمباشرين فجعل يدخل كل مايجده من أطيان الرزق الاحباسية فى المساحة العمومية ويحبس غلاتها ومنع أصحابها من أخذ شئ منها فاضطربت أحوال أصحابها ووقفوا الى الامير خيربك فى طريقه يشكون له مما يفعله القاضى فخر الدين بن عوض وأبرز اليه بعضهم مكاتيبهم بتلك الرزق وبعضهم أبرز مبيعاتهم فأخذها منهم وصرفهم خائبين ورسم بادخال رزقهم فى أطيان الذخيرة قال بعض أهل التاريخ ولم يكن ليتعرض لهذه الرزق قط أحد من سلاطين مصر ولا أخرج منها شيأ عن أصحابها منذ أنشأها الامام الليث بن سعد فانه هو الذى دون الاحباس وأنشأ لها فى أيامه ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش واستمر ذلك باقيا بعد الامام الليث حتى قام القاضى فخر الدين بن عوض المذكور فنقضه وهو على جهات البر والاحسان

قلت ومن هذا الحين زالت ولاية الاحكام الشرعية أيضا عن قضاة مصر الاربعة كزوال الخلافة والسلطنة عنها وآلت الى قضاة الروم يتناوبها الواحد بعد الواحد فيولى ويعزل من القضاة والنواب والشهود من يشاء وقد تبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت

من طور الى آخر وضاقت حدودها الا على من أجازهم قاضي العسكر المشار اليه بتولى الاحكام وبطل من هذا الحين أيضا جلوس الشهود على الحوانيت للفصل فى الخصومات لاسيما ما كان منها بين المتزوجين وزوجاتهم ومن كان منهم له حانوت لذلك أغلقه و زالت عن أولئك القضاة والشهود والنواب بهجتهم ورونق وظيفتهم وصارت المدرسة الصالحية دار الشريعة ومقر المتصدين عليها دون بقية الجهات ولبث القاضي المشار اليه على هذا الحال من الشدة وعدم التهاون حتى بصغائر الامور مدة والناس فى قلق واضطراب عظيمين يضجون ويعجون الى الله تعالى بزوال منصبه واذهاب سلطته * فلما كان السادس والعشرون من شعبان خرج القاضي المشار اليه يريد الحج من طريق القلزم فركب وركب معه الى تربة العادل مودعا الامير خير بك وبقية الامراء من العثمانيين والشراكسة وكبار الجند وقدموا له بعض التقادم والهدايا النفيسة فسار الى مدينة بلبيس ثم الى السويس ومنها الى مدينة جدة ففرح الناس بخروجه وكانت النساء أشد فرحا وأكبر سرورا فغنت بعض المغنيات منهن بهذه الكلمات

مطلب
خروج قاضي القضاة الى الحج

قوموا بنا نقحب ونسكر * قد خرج عنا قاضي العسكر

فكانت عند العامة من أطرب الاغاني وأحسنها توقيعا وأكثرها استعادة واستحسانا وأعمها تداولا على ألسنة الكبار والصغار * ومرض الامير خير بك فى هذه الاثناء مرضا شديدا فانقطع عن الخروج ولازم الفراش أياما واشتد به المرض شدة بالغة فأعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه وأمر بأن يتصدق من ماله على العلماء والفقهاء وأولاد المكاتب وأصحاب المزارات والمنقطعين من ذوى البيوتات ففرقوا شيأ كثيرا من المال ومن القمح نحو عشرة آلاف إردب وأكثرت نساؤه وجواريه من التصدق والاحسان لعل الله تعالى يشفيه وأمر بأن يخرجوا مراسيم للقاضي فخر الدين بن عوض بالافراج عن الرزق الاحباسية لاصحابها وردها اليهم وقد كان ماضبط منها وأدخل الى الديوان السلطاني ألف رزقة وثمانمائة رزقة فأفرج عنها لاصحابها وأعاد لهم أيضا مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجها عنهم يوسف بن الجاكية ثم رسم باطلاق المحابيس من الرجال والنساء وكانوا كثيرين فلم يغن عنه هذا شيأ واشتدت به علته فاستقدم اليه الامير سنان بك العثماني ودفع اليه الخاتم الذى حمله اليه السلطان سليم يوم ولاه عمالة الديار المصرية وأعلمه بأن فى خزانته من المال ستمائة ألف دينار ذهبا عينا خلاف ماهو فى بيت المال * فلما كان يوم الاحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة مات خير بك المذكور فاجتمع جميع الامراء وبينهم الامير سنان بك وتولوا غسله ودفنه فى موكب حافل الغاية واستقر الامير سنان بالقلعة يريد التصرف فى الامور حتى يأتيه مرسوم السلطان فعارضه فى ذلك خير الدين نائب القلعة ومنعه من التصرف حتى يأتى مرسوم السلطان فأبرز الامير سنان مرسوما

مطلب
موت الامير خير بك

سلطانيا يتضمن جواز تصرفه اذا مات خيربك حتى يأتي الفرمان بما يستقر عليه الرأى وقيل كان الخلاف على التصرف بين الامير سنان المذكور وبين الامير خضر أحد كبار أمراء العثمانيين فلما أبرز الامير سنان المرسوم السلطاني لم يبق بينهما من موجب للخلاف واستقر الامير سنان بالقلعة وأخذ من يومه يتصرف فعرض ما فى بيت المال من الاموال فوجد خيربك بينها ستمائة ألف دينار ذهبا عينا وكثيرا من الذخائر والتحف والنفائس والاقمشة البعيدة النوال مما لايكاد يدخل تحت الحصر

وكان الامير خيربك هذا من مماليك الاشرف قايتباى وهو شركسى الجنس أباظيا وكان اسم أبيه ملباى الشركسى ولهذا كان يدعى خيربك ملباى الى الاشرف قايتباى وكان له أخوان أحدهما اسمه خضر ولم يعش طويلا ومات والثانى اسمه جان بلاط وكان مقدم ألف وله شهرة مات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى وكان موته بالطاعون وأقام خيربك المذكور بالطباق وصار فى عداد مماليك الطباق السلطانية فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وأدخله فى عداد الجمدارية ثم الخاصكية وصار داودار سكين ثم صار فى سنة احدى وتسعمائة أمير عشرة فى دولة الملك الناصر محمد بن الاشرف قايتباى وبعث به رسولا الى دار السلطنة العثمانية فى مهمة فى سنة ثلاث وتسعمائة ثم صار مقدم ألف فى دولة الاشرف جان بلاط وخرج مع من خرج من العساكر والاجناد الى الديار الشامية فلما وصلها حجر عليه فى دمشق فلما حضر العادل الى مصر أرسل بالافراج عنه واستقدمه فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف وأقره على ما كان عليه فلما تولى السلطنة الملك الاشرف الغورى جعله حاجب الحجاب فلبث بها حتى تولى نيابة حلب فى سنة عشر وتسعمائة وما زال بها حتى زحف السلطان سليم على الديار الشامية يريد ملك مصر فجرى منه ماجرى من الانضمام بجيوشه الى جيوش السلطان سليم كما فعل الغزالى وكان من أمر توليته على نيابة مصر ماتقدم بيانه فاستمر على النيابة الى ان مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة فكانت مدة نيابته خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما عدا فى ذلك مدة انقطاعه عن الحاكمية * وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء كثير الاخذ بالشبهات طاغية قتل فى أيامه مالايحصى من الخلائق ظلما فلما جاء الخبر بموته الى السلطان سليمن وهو على حصار رودس ولى الامير الوزير مصطفى باشا وكان صدر الوزراء العثمانيين وزوج أخت السلطان سليمن خضر الى الاسكندرية وجاءت الاخبار بوصوله اليها فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة

مطلب ولاية الوزير مصطفى باشا

فلما كان يوم الاربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الى ساحل بولاق فنزل لملاقاته الامير سنان وخير الدين نائب القلعة والامير خضر وجميع الامراء وكبار الجند وجميع الانكشارية والاصباهية والكمالية والشراكسة وقابلوه ثم أركبوه على فرس وعليه الخلعة السلطانية وسارت امامه العساكر والاجناد قاطبة والاعيان والمقدمون فدخل من باب

البحر وسار الى باب القنطرة فمر من سوق مرجوش ثم من القاهرة وكان الامير سنان على يمينه والامير جانم الحمزاوى على يساره والامير خير الدين والامير خضر امامه فارتفعت له الاصوات من العامة بالدعاء وكان أبيض اللون عربى الوجه أشقر الشارب حليق اللحية معتدل القامة عليه حشمة ووقار وما زال فى موكبه حتى مر من الرميلة ودخل من الميدان وصعد الى قلعة الجبل * قال بعض كتاب الاخبار ولى مصطفى باشا نيابة مصر وهو فى ركاب السلطان سليمن على حصار رودس يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ودخل مدينة الاسكندرية فى التاسع عشر من ذى الحجة فكانت مدة ولايته مذ تقررت برودس أربعة عشر يوما وكانت مدة حضوره من الاسكندرية الى ساحل بولاق أربعة أيام فدخل فى يوم الاربعاء ثالث عشرى ذى الحجة فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس الى ان دخل الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما اهـ ولما استقر به المقام بالقلعة تحول عنها الامير سنان ونزل الى داره بدرب ابن البابا فكانت مدة نيابته بالقاهرة ثمانية وثلاثين يوما وفى ثانى يوم نزل مصطفى باشا الى الميدان واجتمع جميع الامراء والاكابر والاعيان والقضاة والعلماء وقرئ عليهم المرسوم السلطانى القاضى بولايته ثم أخذ يتصرف وجلس للناس عامة فترادفت عليه القصص بحوائج الناس وأخذ فى تدبير الامور فأبطل نظام القلعة القديم الذى كان على عهد من سبق من الملوك وأبطل البوابين والركابة والبوابية والسواس والفراشين وغلمان السلطان قاطبة والمقرئين والمؤذنين وغير معالم ذلك النظام ورسومه وتصرف فى الحواصل السلطانية والاشوان وبيت المال كما يحب ويختار وجمع اليه أعيان المباشرين وكلمهم فى أمر الخراج فشرعوا فى تحصيله ورتبوا له ولمماليكه خاصة وحاشيته وبطانته ثمانية آلاف دينار ذهبا فى كل شهر يقومون بدفعها نقرة فكان اذا تأخر المباشرون فى شئ من هذا المال المقرر أجله ضيق عليهم وشدد وبالغ فى الوعيد فتنبث أعوانهم فى البلاد يضيقون على أهلها ويشددون فى الطلب ويأخذون كل ماوصلت اليه أيديهم من الماشية والغلال ويبيعونها بأبخس الاثمان قياما بأداء تلك النفقة فى آجالها فاشتد بسبب ذلك الكرب على الفلاحين وأصحاب الزروعات وعم الخطب ونزح الكثير من أهالى الاقاليم القبلية الى الاقاليم البحرية وأهالى الاقاليم البحرية الى القبلية وأهملت الارض فرارا من المطالب المتتابعة فبارت وقل الوارد من الغلال الى مصر وبولاق فارتفعت الاسعار وشكى الناس من هذا الحال وضجوا وابتهلوا الى الله فلم تطل مدة ولايته وجاء الخبر بعزله وولاية أحمد باشا ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وانكف المباشرون عن التضييق على أهالى البلاد فى جباية الاموال فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر ويومان

ولما جاء الخبر بوصول أحمد باشا المذكور الى بولاق نزل الامراء وكبار الدولة والعلماء والقضاة وأصحاب العكاكيز لملاقاته فركب فى أبهة وكبكبة عظيمة وصعد الى قلعة الجبل

مطلب
إبطال نظام قلعة الجبل القديم

مطلب
ولاية أحمد باشا

وامر

وأمر فقرئ فرمان التولية فى محفل حافل *وقيل وكان السبب فى توليته هو أنه لما جلس السلطان سليمن على تخت السلطنة العثمانية صادف وزير أبيه وهو محمد باشا الصديق ناظرا على الصدارة وكان محمد باشا هذا كبير السن بطىء الحركة فى قيامه وقعوده وتصرفه فرأى عجزه عن القيام بأعباء هذه الرئاسة فأنزل نفسه وولى مكانه ابراهيم باشا المعروف بأودة باشا وكان أقدم من ابراهيم باشا فى الخدمة آخر هو أحمد باشا وكان يؤمل ان الصدارة لاتفوته الى غيره من بقية الامراء فزاحم ابراهيم باشا المذكور وجلس بقوة قربه من السلطان فشكاه ابراهيم باشا الى السلطان فدبر فى ازالته وولاه مصر ليستجلب خاطره فلما ولاها وأخذ يتصرف فى أمورها جعل ابراهيم باشا الصدر يتعقبه للعداوة السابقة ويرميه بما يوجب قتله ومازال بالسلطان حتى أبرز الامر لجماعة المرابطين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله ثم يولوا أحدهم مكانه حتى يرد عليهم الامر بولاية خلافه وأرسلت الاحكام بذلك الى الامراء بمصر * قال بعض أصحاب الاخبار فوقع الامر فى يد أحمد باشا المذكور قبل أن يصل الى الامراء فخاف وجعل يضرب اخماسا فى أسداس حتى سولت له نفسه العصيان والخروج عن طاعة السلطان وان يقاتل بجيش يجمعه من مصر فأبدى الخروج وادعى السلطنة وضرب السكة باسمه على الدنانير والدراهم وتحصن بقلعة الجبل وقبض على الامير جانم الحمزاوى والامير محمود بك وسجنهما يريد قتلهما ولبث الحال هكذا أياما اختل فيها نظام القاهرة وظهرت الغوغاء وانقطعت السبل وأغلقت الحوانيت نهارا وعاث أهل الفساد فسرقوا ونهبوا وفعلوا مالا خير فيه

واتفق ان دخل أحمد باشا المذكور الحمام يوما للغسل فعلم الحمزاوى والامير محمود بك بذلك فكسرا الابواب وخرجا ورفعا صنجقا سلطانيا ونادبا من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت الصنجق فوقف تحت الصنجق خلق كثير وجم غفير فساروا وسار امامهم الحمزاوى ومحمود بك الى الحمام فكبسا الحمام على أحمد باشا وكان قد حلق نصف رأسه وأعجله على حلق النصف الثانى هجوم أصحاب الحمزاوى فهرب الى سطح الحمام وتسلق من مكان الى مكان ونهبوا جميع ماعنده من سلاح ومتاع واقتفوا أثره فأدركوه بمنية جناح بالغربية فقتلوه وذلك فى أخريات سنة ثلاثين وتسعمائة واحتزوا رأسه وجىء به فعلقوه على باب زويلة ثم بعثوا به الى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه بمصر سنة واحدة لاغير لم يأت فيها عملا يذكر فيشكر

مطلب
ولاية قسام جزل باشا
وخلعه وولاية إبراهيم باشا

وقد تولى بعده قسام جزل باشا فدخل القاهرة فى السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وامامه أرباب الوظائف وطوائف الجند من المشاة والفرسان وعليه خلعة التشريف السلطانية فلم يكد يستقر به المنصب حتى جاء الامر بخلعه وولاية ابراهيم باشا فنزل من القلعة فى المحرم افتتاح سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ولم يلبث إلا أياما حتى جاء إبراهيم باشا الوالى المذكور ودخل القاهرة فى كبكبة عظيمة وصعد إلى قلعة الجبل ثم نزل فى ثانى يوم وجلس على المصطبة بالميدان وبين يديه جميع الامراء والقضاة والعلماء والمباشرين

وأصحاب الوظائف فتلى فرمان التولية ورفعت إليه القصص فى ذلك اليوم فنظر فى مصالح الخلق وكان عاقلا ذكيا محبا للخير • واهتم السلطان سليمن فى أيامه بترتيب أمور الديار المصرية فأجاز لطوائف المماليك الشراكسة الذين أقرهم والده على خدمة الدولة أن يتولوا رتبة الباشوية عند الحاجة وضم إليهم اثنى عشر أميرا فكان من بعض انتخابهم الى هذه المرتبة العظيمة الكيخياوقباطين ثغور السويس ودمياط والاسكندرية وأمير الخزينة السلطانية والدفتردار وأمير الحج وصناجق الشرقية والغربية وجرجا والبحيرة • وكان لدار السلطنة اهتمام عظيم وعناية كبرى بالثغور الثلاثة المذكورة لانها أبواب البلاد فكان الجند المرابطون فيها يقدمون من دار السلطنة مع القباطين فيقيمون سنة ثم يستبدلون بآخرين وهكذا فى كل سنة فكان مرابطو الثغور المذكورون غير محسوبين فى عداد العسكر المصرى وكأنهم أجانب عنه

ولم تطل مدة إبراهيم باشا فقد جاء الامر بعزله فرحل عن مصر فى شعبان سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سبعة أشهر وتولى بعده سليمن باشا الخادم فدخل القاهرة فى تاسع شعبان من السنة وجعل يتصرف فى الامور فرسم فى أيامه السلطان سليمن بمساحة جميع قرى مصر وضبط أراضيها على يدى الامير كيوان وربط خراجها على من كان يستغلها فطاف المساحون البلاد ومسحوها وقسموها إلى أحواض سموها بالقراريط وأحكموا عليهم فزاد الخراج زيادة عظيمة وجباه الولاة فكان بعد ذلك شيأ كثيرا •ورسم بأنه هو صاحب جميع أرض مصر ومالكها يعطيها لمن يشاء ويمنعها ممن يشاء فكان يقطعها لطائفة من الاهالى يعرفون بالملتزمين فكانوا يتصرفون فى الارض تصرف الملاك ما بين هبة وأسقاط وايقاف وغير ذلك وكان أصحاب الارض الذين هم ملاكها من أهل البلاد يحرثونها ويفلحونها لاولئك الملتزمين ولا يأخذون من غلاتها الا بقدر الحاجة ولا يتصرفون فيها مع توريثها لاعقابهم من بعدهم وكان لا يحل لاحدهم ترك ما بيده من الارض أو التخلى عن تعهدها بالحرث والزرع بل كان يجبر على ذلك ويضرب ويقوم بدفع ما عليها من الخراج الى أولئك الملتزمين فاذا مات الفلاح ولم يعقب نسلا أعطيت أرضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها لمن يشاء فاذا مات الملتزم ولم يعقب وارثا انحل التزامه وعاد الى ملك السلطان وكان اذا تأخر الفلاح والملتزم فى دفع الخراج أخذت منهما الارض وسلمت لغيرهما ليقوم بما عليها فى آجاله وبعد ان أتم مساحة جميع الاطيان سموها من هذا الحين أطيانا سلطانية ورزقا وأوقافا واقطاعات وغير ذلك وكتب بها دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وتسمى دفاتر ترابيع سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ولم تلبث ان أحرقت ثم جددت وقيل بل أهملت ولم تجدد

مطلب
ولاية سليمان باشا الخادم وفيما رسم به السلطان من مساحة أطيان سائر البلاد وجعلها ملكا للسلطان

وكان سليمن باشا المذكور ميالا للخير يحب انشاء المبانى العظيمة والآثار الفاخرة فعمر جامعا بقلعة الجبل وآخر ببولاق القاهرة وبجواره وكايل وأسواق وربوع وغير ذلك ثم

ورد

ورد عليه مرسوم السلطان سليمان بالتوجه الى اليمن فكانت مدة تصرفه بديار مصر تسع سنين واحد عشر شهرا وستة أيام فتولى بعده خسرو باشا ودخل القاهرة فى عشرى رمضان سنة احدى وأربعين وتسعمائة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر وعمر صهريجا بين القصرين بالقاهرة وتصرف الى سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعزل ثم عاد سليمن باشا الخادم الى ولاية البلاد عند عوده من اليمن فى حادى عشر رجب سنة ثلاث وأربعين فتصرف الى حادى عشر المحرم سنة خمس وأربعين وكانت ولايته الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما وكان حسن التدبير عظيم السياسة واسع الرأى مطاعا محبوبا ثم عزل وتولى بعده داود باشا فدخل القاهرة فى سابع المحرم سنة خمس وأربعين وتسعمائة وجلس للناس على المصطبة بالميدان فرفعت اليه القصص فنظر فى مصالح الخلق وجعل يتصرف مع الكياسة والعدل وكان كريما مهيبا محبا للعلوم والعلماء كلفا بالمطالعة واقتناء كتب العرب وقد جمع منها شيأ كثيرا واستنسخ كل ماظفر به منها وسعدت فى ولايته البلاد واطمأنت الرعية وساد الأمن وسلكت السبل وبنى فى ولايته مدرسة عظيمة بسويقة صفية اللالا بالقاهرة ووقف لها أوقافا وهى باقية الى الآن وتصرف الى ثالث عشر ربيع الاول سنة خمس وخمسين وتسعمائة فكانت مدة ولايته احدى عشرة سنة وشهرا واحدا وعشرين يوما وتوفى بالقاهرة ودفن بالقرافة وكانت أيامه كلها بركة واسعادا وتولى بعده مصطفى باشا صفصفان فوصل القاهرة فى الخامس من ربيع الاول سنة ست وخمسين وتسعمائة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه شئ يذكر فتصرف الى شهر رجب من السنة المذكورة وعزل فكانت ولايته أربعة شهور ونصف شهر وتولى بعده على باشا فى خامس شعبان سنة ست وخمسين وتسعمائة وتصرف الى غاية المحرم سنة احدى وستين وتسعمائة وعزل فكانت مدته أربع سنين وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما وكان على باشا هذا وقورا معززا محبوبا من الرعية شفوقا عليها بعيدا عن العسف والظلم ميالا الى انشاء العمائر العظيمة والآثار النافعة فشاد منها فى رشيد والقاهرة وفوه وحذا حذوه الامراء والكبراء ففعلوا كذلك بمصر والقاهرة وغيرهما من المدن ولما انصرف عن ولاية مصر عاد الى دار السلطنة فجعل يتقلب فى الوظائف العالية والمناصب الرفيعة حتى بلغ مسند الصدارة فدبر الامور وسار سيرة حسنة للغاية فأحبه الناس ومالت اليه القلوب وتولى بعده على مصر محمد باشا المعروف بدوقتركين زاده ودخل القاهرة فى أوائل صفر سنة احدى وستين وتسعمائة فلما جاء الخبر بوصوله الى بولاق نزل الامراء والعلماء والقضاة لملاقاته فصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ثم تحجب عن الناس وزاد فى التحجب وكان فظا غليظا جبارا عنيدا فأساء التصرف وعبث بالامور وأكثر من المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم فكثر الوشاة على أبوابه وأخذ بالشبهات فكرهه الناس كافة وأبغضه الامراء

مطلب
ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع سليمان باشا الى الولاية ثانية

مطلب
ولاية داود باشا

مطلب
ولاية مصطفى باشا صفصفان وخلعه وولاية على باشا

مطلب
ولاية محمد باشا المعروف بدوقتركين زاده

مطلب
ولاية اسكندر باشا

وأعرضوا عنه ثم خلع فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وشهرين وتسعة عشر يوما وتولى بعده اسكندر باشا فدخل القاهرة فى جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وتسعمائة فتصرف الى غاية رجب سنة ست وستين فكانت ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكان شهما حازما حسن التدبير والسياسة وقورا مهيبا عمر فى ولايته المدرسة التى بباب الخلق المطلة على الخليج الناصرى وهى من آثر المبانى وأتقنها وعمر تكية تجاهها وسبيلا بجوار المدرسة فعمل له بعض الشعراء تاريخا نصه رحم الله من دنا وشرب سنة ٩٦٦

مطلب
ولاية على باشا الخادم وخلعه وولاية شاهين باشا

ووقف على ذلك أوقافا جليلة ولما خلع تولى بعده على باشا الخادم فدخل القاهرة فى سابع عشر شعبان سنة ست وستين وتسعمائة فتصرف الى سادس عشر صفر سنة ثمان وستين فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر * وتولى بعده شاهين باشا فدخل القاهرة فى ثانى ربيع الاول سنة ثمان وستين وأخذ يتصرف فى الامور فكان رجلا جليل القدر حسن السياسة والتدبير وما زال حتى عزل فى غاية جمادى الآخرة سنة احدى وسبعين وتسعمائة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر

مطلب
ولاية على باشا الصوفى

* وتولى بعده على باشا الصوفى فدخل القاهرة فى أول رجب سنة احدى وسبعين وتسعمائة ولاقاه الامراء والعلماء والقضاة وأصحاب الوظائف وصعدوا به الى قلعة الجبل فلم يجلس للناس كعادة الامراء والولاة وتحجب ثم لم يلبث ان تجبر وظلم وكان قبل حضوره الى مصر واليا على بغداد وكان له فيها أحوال غريبة وأحكام جائرة فأبغضه الناس وشكوا منه وضجوا وعجوا فعزل عنها وأتى به الى مصر وكثر عسفه فكثر الفساد فى البلاد وارتفع الامن وعاث اللصوص فنهبوا وسلبوا بغير مانع وأحاط قطاع الطرق بضواحى مصر والقاهرة فانكمش الناس وانكفوا عن الخروج خارج السور وضجوا وشكوا الى على باشا المذكور فلم يلتفت لشكواهم وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه فبلغت الجراءة بالغوغاء والحرافيش مبلغها وقامت طائفة من الفداوية فأوقدوا النار فى المدينة طمعا فى النهب فسرى الحريق الى الجامع الابيض واشتدت النيران وعلا اللهيب وكثر النهب والسلب وخرجت النساء والاطفال والشيوخ من الديار هائمين على وجوههم فرارا من فعال الفداوية وما زالت النار تعمل فى جميع ما وصلت اليه حتى كادت تدمر جميع المبانى والوكائل وغيرها وكلم الامراء على باشا المذكور فى أمر اللصوص وفيما آلت اليه حالة المدينة من الخراب فلم يلتفت لقولهم فرأوا أن يقيموا سورا من قنطرة الحاجب الى الجامع الابيض ليمنعوا البلد من تطاول أيدى اللصوص اليها فأقاموه ووكلوا به من يحرسه فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر قليلا وما زال على باشا المذكور يتصرف بالجور والظلم

مطلب
فى سبب إقامة السور من قنطرة الحاجب الى الجامع الابيض

مطلب
ولاية محمد على باشا المعروف بالمقتول

حتى خلع وتولى بعده محمد على باشا المعروف بالمقتول فقدم من دار السلطنة فى كبكبة عظيمة فكان كلما مر ببلد من الاسكندرية الى القاهرة قدمت له التحف والهدايا ومدت له الموائد وبالغ الناس فى تعظيمه واجلاله فرحا بخلاصهم من ظلم الصوفى وجوره * فلما دخل القاهرة

لاماه بجميع الامراء والعلماء والقضاة والمباشرين وأصحاب الوظائف العالية والامير محمد بن عمر متولى الاقاليم القبلية يومئذ وقدم له عدة هدايا نفيسة للغاية وخمسين ألف دينار نقرة فأجلسه محمد على باشا المذكور وأدناه من مجلسه وقد طمع فيه فلما استأذنه بالانصراف وخرج من مجلسه أمر فقبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه خنقا فاندهش الناس من ذلك جدا وأخذتهم الطيرة وسأل عن قاضى القضاة يومئذ الشيخ يوسف العبادى فقيل له إنه لم يحضر فرسم باحضاره فاحضروه فلما مثل بين يديه أمر بخنقه وهو يستغيث وليس من يغيثه ثم تحجب عن الناس أياما ثم ظهر وبث العيون والجواسيس بين الامراء وأرباب الدولة فزاد عسفه وأخذ الناس بالشبهات وأكثر من القتل واراقة الدماء وبالغ فى اذلال الرعية والتنكيل بالامراء وكان لايسير فى المدينة الاومعه الشوباصى وهو كبير الجلادين فاذا مر بأحد وأراد قتله أشار بيده الى الشوباصى المذكور فينزع حالا رأسه عن جسده ويهدر دمه على الفور فانكمش الناس وزاد خوفهم وضجوا الى الله وابتهلوا بالدعاء وزاد سخطهم عليه وتواردت قصص الامراء بمصر على دار السلطنة مستغيثين من عسف محمد على باشا المذكور وظلمه للرعية فلم يلتفت السلطان اليهم لاشتغاله يومئذ بفتح جزيرة مالطا التى كانت الى هذا الحين مقر رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى وإعداد سفن الحرب ومراكب النقل اللازمة لذلك لانه لما اتسعت أملاك السلطنة العثمانية وبسطت يدها على الكثير من سواحل البحر الابيض المتوسط وكانت جزيرة مالطا واقعة بين اقليم تونس وجنوبى ايطاليا وكان لمن يملكها اليد الطولى على البحر المذكور عمد السلطان سليمن الى فتحها وسير الى ذلك مائتى سفينة حربية فحاصروها حصارا تاما وضيقوا عليها تضييقا شديدا وواصلوا الرمى عليها بالمكاحل وداموا على هذا الحال أربعة أشهر مات فى خلالها الامير طرغول أمير تلك العمارة العظيمة وكانت الفرنجة تسميه دراجوت ومع كل ذلك لم ينالوا منها وجاء الشتاء وكثرت الزوابع وارتفعت أمواج البحر فارتفع عنها الحصار وعادت العمارة الى القسطنطينية فعاد الامراء بمصر الى الاستغاثة بالسلطان من شر محمد على باشا الوالى وأكثروا من رفع الظلامات وترادف القصص فلم ينالوا منه شيأ لخروجه فى جيش عظيم فى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة لصد هجمات النمسا عن بلاد المجر اذ كانت له السيادة عليها الى هذا الحين وبينما هو فى الطريق بلغه أن صاحب سكدوار إحدى مدائن بلاد المجر التى يقال لها أيضا زيجت قد ظفر ببعض الجيوش العثمانية التى كانت تقاتل فى تلك الاصقاع فسار الى قتاله وحاصر المدينة المذكورة وشدد عليها حتى أخذ جميع معاقلها الامامية فاخلى عساكرها المدينة وتحصنوا بقلعتها فلم تفتر للسلطان همة فى قتالهم واشتد فى القتال وقد نهكه التعب فمرض وثقل عليه المرض فلما كان العشرون من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمائة اشتد عليه مرضه ومات فاخفى وزيره خبر موته تحاشيا من وقوع الفشل فى العسكر وسير الى ولده الامير سليم بكوتاهية يعلمه بخبر موت أبيه ويحثه على الحضور الى القسطنطينية ليتولى منصب السلطنة ولم يكشف



الوزير عن القتال مع من تحصنوا بقلعة سكدوار ووالى الهجوم عليها وما زال بها حتى احتلتها العساكر العثمانية عنوة فهرب من كان بهامن الاعداء فلم يستقر بها مقام العساكر العثمانية حتى انخسفت بهم أرض القلعة وسقط جميع بنائها عليهم جميعا فماتوا تحت الردم وذلك أن العدو كان قد دبر هذه المكيدة بان عمل عدة الغام تحت بناء القلعة فلما دخلتها العساكر واستقروابها أشعل العدو تلك الالغام فانخسفت أرض القلعة وتهدم جميع بنائها وهلك جميع من دخلها ولما تم النصر للعساكر السلطانية على هذه الكيفية طير الوزير خبره الى الآفاق وسير الرسائل بخاتم السلطان كى لايعلم أحد بخبر موته ثم عاد الى القسطنطينية مع من بقى من العساكر ومعهم جثة السلطان فوجد أن الامير سليم قد حضر وقبض على زمام الامور وأخذ يتصرف فى أعمال المملكة* قال أصحاب التاريخ ولم تكن ولاية العهد قد أتت اليه بالارشدية أو الاستحقاق بل بسعية أمه روكسلان احدى حظيات السلطان وقتل السلطان لولده الارشد الامير مصطفى وابنه الثانى الامير بايزيد مع أولاد بايزيد الخمسة *وتحرير الخبر* أنه كان للسلطان سليمن حظية مجهولة النسب تسمى روكسلان وكان يحبها حبا شديدا فولدت له من المذكور الامير سليمان وابنتين وكانت تتمنى أن يكون الملك لابنها بعد موته ولكنها كانت تخفى ذلك عن السلطان وتراقب من الفرص أنفعها فلما مات اياس باشا صدر الدولة سعت روكسلان المذكورة لدى السلطان فى تولية رستم باشا منصب الصدارة وكان بينها وبين رستم المذكور كلام فى أمر مبايعة ولدها بالملك بعد أبيه فولاه السلطان الصدارة وأدناه منه كثيرا وزوجه بابنته من روكسلان هذه فزاد تعلق روكسلان به وعد هو الى ارضائها بتمهيد الطريق لتولى ابنها الملك بعد أبيه فلما انتشبت الحرب بين الدولة ومملكة فارس سير السلطان الامير مصطفى أكبر أولاده على رأس جيش الى ساحة القتال وكان محبوبا عند طوائف الانكشارية لحسن سياسته ومعرفته بفنون الحرب والقتال وبسالته واقدامه فأبلى فى الفرس بلاء حسنا وظهرت شجاعته فازداد حب طوائف الانكشارية له ومالت قلوبهم جميعا اليه فانتهز رستم باشا هذه الفرصة وكتب الى السلطان يخوفه من ولده ويقول إنه عامل على الخروج وشق عصا الطاعة مع طوائف الانكشارية وعزل السلطان وتوليه هو منصب السلطنة كما فعل السلطان سليم الاول بأبيه بايزيد فأكبر السلطان هذا الخبر واستعظمه وكاد لايصدقه واغتم له للغاية فآنست منه روكسلان الحيرة والاضطراب فسألته عن سبب ذلك فاخبرها بخبر ولده مصطفى وما قاله رستم باشا فاظهرت غاية الخوف والانزعاج وأخذت تقبح له فعال الامير وترميه بالخيانة والغدر وتحذره من عاقبة التهاون بهذه المكيدة ومازالت به حتى التهب قلبه غيظا وقام فى طائفة من عسكره يريد بلاد فارس وطير الخبر بانه انما قام ليتولى قيادة هذه الغزوة فلما اقترب من المعسكر خرج ولده مصطفى وجميع الامراء وكبار الجند للقائه وساروا فى ركابه حتى أنزلوه فى سرادقه وفرح ولده مصطفى بقدومه فرحا عظيما فلما كان الثانى عشر من شوال سنة ٩٦٠

هجريه

هجرية استدعى السلطان ولده مصطفى الى سرادقه ليكلمه فى أمر القتال مع الفرس فدخل عليه وهو فى لباسه المعتاد فلم يكد يصل الى أبيه حتى قبض عليه جماعة من الخدم وقتلوه خنقا وهو يصيح ويستغيث بأبيه حتى مات وأبوه ينظر اليه ثم نقلوا جثته الى مدينة بروسة فدفنت فى تربة أجداده ✽ قالوا ولم تكتف روكسلان بقتل الأمير مصطفى بل أرسلت أيضا الى مدينة بروسة بعض خواصها فقتلوا ابنه الرضيع وشاع هذا الامر بين الناس فاستعظموه وانحرفت خواطرهم عن السلطان وبكى الأمير مصطفى أهل العلم والادب ورثاه الشعراء ولم يخشوا بأس أبيه فقال بعضهم فى ذلك

يادهر ويحك ماأبقيت لى جلدا ✽ وأنت والد سوء تأكل الولدا

وثار طوائف الانكشارية على السلطان وطلبوا قتل رستم باشا المذكور وهاجوا وماجوا حتى كادت الفتنة تعم فرسم السلطان بخلعه وولى مكانه أحمد باشا تسكينا للفتنة واسترضاء لطوائف الانكشارية وكان للامير مصطفى أخ اسمه الامير جهانكير فحزن على أخيه حزنا عظيما جدا وبكاه بكاء شديدا للغاية حتى مات كمدا عليه بعد قليل من الأيام وقيل بل قتل نفسه امام أبيه بعد ان وبخه وأنبه على قتل أخيه فلم يبق بعد موته من أولاد السلطان سوى الامير بايزيد والامير سليم بن روكسلان ✽ وكان للأمير بايزيد مرب اسمه لاله مصطفى فولاه السلطان النظر على بيت الامير سليم بعد روكسلان امه فأحبه الامير سليم وقربه منه وأعلمه بما كان يخشاه من مزاحمة بايزيد له فى الملك بعد أبيه وطلب منه أن يعمل على هلاك بايزيد وأولاده ليخلو له الجو فهون عليه لاله مصطفى الامر ومناه بالفوز وجعل يستعمل الحيلة فكتب الى بايزيد يوما يقول ان أخاك سليما منهمك فى اللذات غافل عن واجب السلطنة وما هو مفروض على أبناء الملوك فضلا عما هو عليه من الطيش وعدم الاهلية لمنصب الخلافة ومع ذلك فان أباك أبى إلا مبايعته بولاية العهد من بعده فهل لك فى هذا الامر رغبة ✽ وتعددت بينهما الرسائل وركن الامير بايزيد الى لاله مصطفى وأمن جانبه فكاشفه بما فى نفسه ولم يخف عنه أمرا ثم كتب الامير بايزيد الى أخيه سليم يوما يعيب فعال أبيه ويرميه بالجفاء وغلظة الطبع ويسمه بالقسوة وفقدان الحنو الأبوى فأشار لاله مصطفى على الامير سليم باعطاء تلك المكاتبة لابيه فلما اطلع السلطان على مابها مما يمس كرامته غضب غضبا شديدا وزاده غضبا وشاية لاله مصطفى بالامير بايزيد فسير الى بايزيد يقول له اذا أتاك كتابى هذا تحول من قونية الى اماسية وكان واليا على قونية فخاف بايزيد من ذلك وظن ان أباه انما يضمر له الشر فامتنع من الذهاب الى اماسية وجيش له جيشا عظيما وتحصن فى قونية فسير اليه أبوه جيشا ومقدمه الوزير محمد باشا الملقب صقللى فالتقى الجيشان عند قونية واقتتلا قتالا عنيفا مدة ثلاثة أيام كانت فيها الحرب سجالا ثم انكشف القتال عن هزيمة بايزيد وفراره الى مدينة اماسية فلحقته عساكر أبيه فرحل عنها الى بلاد فارس ولجأ هو وأولاده الى طهماسب ملك فارس فقبله وأكرم مثواه ولكنه سير الى السلطان سليمن خفية يعلمه بخبره فارسل السلطان

سليمن رسلا فى طلبه فسلمه اليهم طهماسب مع أولاده ولم يرع ذمتهم فأمر بهم السلطان فقتلوا جميعا فى مدينة قزوين احدى مدائن فارس ونقلت جثثهم الى مدينة سيواس وخنقوا طفلا كان لبايزيد بمدينة بورسة ودفنوه مع أبيه واخوته بسيواس ٭ قال أصحاب التاريخ فكانت هذه الامور الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ حياة السلطان سليمن وكادت تذهب بجميع حسناته وشهرة غزواته وكثرة فتوحاته ادراج الرياح مع أنه كان ملكا جليل القدر واسع الكلمة عارفا بفنون الحرب وأساليب السياسة محبا للخيرات وافر الصدقات ٭ قال بعضهم ومن آثاره الجيدة السحابة الكبرى بطريق الحج ولها أوقاف كثيرة يشترى من ريعها فى كل عام جمال لحمل الفقراء والمنقطعين والعواجز والماء والزاد وغير ذلك ومقرريها من المغاربة أربعون نفرا ومن المطاوعة أربعون نفرا (بريديهم العسكر) ذهابا وايابا مات فكانت خلافته نحوا من تسع وأربعين سنة وله من العمر أربع وسبعون سنة قضاها كلها فى الغزو والفتوحات

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد ان أقام أربع عشرة سنة وفى أيام سليمان المذكور اشتد الولاة على قبطة مصر وضيقوا عليهم وعملوا على تبعيدهم عن أوطانهم فبعدوا منهم خلقا من العظماء والوجهاء وخيار الناس ثم صادروا من بقى وأخشوا فى تخريب بيوتهم وتبديد أرزاقهم فكانت شدة عظيمة الغاية وبعد موت مرقس المذكور أقيم يوحنا وهو خامس ثمانيهم وأصله من الشام فأقام ست سنين ومات فأقام المتأصلون بعده غبريال وهو سادس ثمانيهم وكان راهبا من دير المحرق فأقام ثمان سنين ومات فأقيم بعده متاووس وهو سابع ثمانيهم وكان راهبا بدير المحرق فأقام ثلاثين سنة ومات وكان عالما تقيا عاقلا محبا للخير معينا للفقراء كثير التصدق ولم تكن أيامه أقل شدة من أيام سلفه فقد ذاقت فيها النصرانية من البلايا والمحن اشكالا وبعده أقام المتأصلون غبريال وهو ثامن ثمانيهم وكان راهبا بدير القلامون ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله وبموت السلطان سليمن كما تقدم القول تولى السلطنة بعده ولده السلطان سليم الثانى

الفصل الثالث

(فى سلطنة السلطان سليم الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمن ولده السلطان سليم الثانى بويع بالملك تاسع ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية أى سنة ست وستين وخمسمائة وألف ميلادية وعمره ست وأربعون سنة ولم يمض الا ثلاثة أيام على بيعته حتى سار فى جيش عظيم الى

نجدة العساكر الذين كانوا يقاتلون بناحية سكدوار فلما وصل الى ناحية سردم لاقاه الوزير محمد باشا وكان هو القائد لجيوش تلك الغزوة فاعلمه بما يعانيه العسكر من البرد وسقوط الثلج وكان الوقت وقت شتاء وأعلمه بمنعة قلعة سكدوار ووجوب عودهم الى الاوطان حتى ينقضى الشتاء وأشار عليه أن يتربص ناحية سردم حتى يأتى اليه بجميع الجند والامراء المحاصرين للقلعة فلبث السلطان سليم أياما حتى اجتمع العسكر وساروا فى ركابه الى دار السلطنة * وووردت الاخبار الى مصر بسلطنة السلطان سليم فزينت المدينة ثلاثة أيام وأطلقت البشائر وفرح الناس بولايته وتقوت آمالهم بالخلاص من مظالم محمد على باشا واستعباده لهم فرفع الامراء وكبار الرعية والعلماء والمباشرون عندئذ ظلامتهم الى دار السلطنة واستغاثوا وضجوا فورد مرسوم السلطان الى محمد باشا المذكور باجراء العدل فى الرعية والرفق بالناس والنهى عن الجور وكان قد تزايد جوره وأخذه للناس بالشبهات فاحش فى القتل والسلب وتتبع العورات فلم يرعو ولم تأخذه آخذة من الخوف فعادوا الى الشكوى وعظموا للسلطان البلوى ولبثوا ينتظرون ماسيكون بعد ذلك * واتفق فى هذه الغضون موت الامير ابراهيم بك الدفتردار الذى كان متوليا امارة الحج فاستولى محمد باشا المذكور على خزائنه ومماليكه وجواريه وكل ماله وجملة ذلك مائة ألف دينار ذهبا فضمها الى خزانة السلطان التى يبعث بها فى كل عام من مصر وأرسل معها أيضا شيأ كثيرا من الهدايا والتحف التى لامثيل لها هدية منه للسلطان ورجال الدولة استجلابا لخواطرهم فلم يكن بعد ذلك من يسمع للمصريين شكوى ودامت الحال على تلك المدة * فلما كان يوم الاربعاء غاية جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة خرج محمد باشا المذكور فى كبكبة وحوله طائفة من أعوانه ومر من جهة الناصرية يريد مصر القديمة فلما صار على مقربة من حائط هناك أطلقت عليه بندقة من خلف الحائط فأصاب رصاصها صدره فسقط عن فرسه فهاج لذلك أعوانه وبحثوا عن القاتل فلم يعثروا له على أثر واتفق فى هذه الاثناء ان مر رجلان من الفلاحين بالقرب من موضع الحادثة فقبضوا عليهما واتهموهما بالفعل وقتلوهما ظلما وقيل انه قتل فى يوم الاحد تاسع عشرى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة أشهر وعشرين يوما وفرح الناس بموته فرحا ماعليه من مزيد فقال فيه بعض الشعراء

موت محمود حياة * فيه للعالم رحمه

قتله بالنار نور * وهو فى التاريخ ظلمه

سنة ٩٧٥ هجرية

وقال بعضهم أيضا

أتى محمود باشا يوم خمس * فساقته منيته غصيبه

تجاه الناصرية خلف حيط * بغيط جاءه منه مصيبه

ببندقة رماه كف رام * فخر رها بجاءته مصيبه

مطلب
ولاية سنان باشا

فلما وصل خبر موته الى دار السلطنة أرسل للولاية بعده سنان باشا فدخل القاهرة في ثالث عشرى شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة وكان قبل مجيئه واليا على حلب فلم تستقر به الولاية على مصر حتى ورد عليه مرسوم السلطان بالقيام الى فتح اليمن واسترجاعها من الزيديين وكانوا قد خرجوا ثانية وشقوا عصا الطاعة فسار من القاهرة فى الرابع من شوال سنة ست وسبعين فكانت مدة تصرفه فى مصر نحوا من تسعة أشهر وسار معه من الامراء المصريين حمزة بك وعلى بك وغيرهما من الصناجق قيل وكان استصحابه لهؤلاء الصناجق لامر نسبوه اليه وهو قتل محمد باشا الوالى السابق * وأقام سنان باشا المذكور يقاتل اليمانيين سنتين وأربعة أشهر حتى يسر الله له الفتح واستنقذ اليمن من أيدى الزيديين وطير الاخبار بذلك الى مصر والقسطنطينية ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وتزاحم على أبوابه الشعراء بقصائد التهانى وألف العلامة قطب الدين محمد بن أحمد المكى تاريخه لهذا الفتح سماه البرق اليمانى فى الفتح العثمانى قيل وهو غاية فى البلاغة وبه قصيدة لابأس بايراد بعض أبيات منها هنا وهى

لك الحمد يامولاى فى السر والجهر * على عزة الاسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد اذا سعت * لها الهمم العليا الى أشرف الذكر
جنود زهت من كوكان خيامها * وآخرها بالنيل من شاطئ المصر

(ومنها)

فهل يطمع الزيدى فى ملك تبع * ويأخذها من آل عثمان بالمكر
أبى الله والاسلام والسيف والقنا * وسر إمام المسلمين أبى بكر

وهى طويلة للغاية

مطلب
ولاية اسكندر باشا الفقيه السركسى بدلا من سنان باشا

فلما سار سنان باشا الى فتح اليمن أتى للولاية بعده اسكندر باشا الفقيه الشركسى فدخل القاهرة فى رابع جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وجعل ينصرف الى غاية المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين فكانت مدته سنتين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عادلا تقيا محبا للرعية أبطل بعض المغارم والمكوس ورفع عن الفقراء والعواجز وأهل العلم وأمنت فى أيامه السبل واطمأنت قلوب الرعية فكانت أيامه كلها بركة ورخاء على البلاد وأهلها ولم يقع فيها شئ من الاحن والبلايا ومازال يتصرف فى الامور ويعدل فى الرعية حتى مات * وعاد سنان باشا من فتح اليمن بعد موت اسكندر باشا بأيام قلائل ولم يرجع معه أحد من الامراء والصناجق الذين كانوا قد ساروا فى ركابه الى هذه الغزوة وكأنهم قد ماتوا جميعا فلما دخل القاهرة جاءه الامر بولايته على مصر ثانية فتولاها من أول شهر صفر سنة تسع وسبعين فزاد البلاد اطمئنانا وأمن السبل وأتى على اصلاح الامور من أبوابها فحفر خليج الاسكندرية وأحسن مجراه وأنشأ عدة مساجد وتكايا وربط وجوامع بديار مصر فى الثغور والبنادر ولم يكن الى ذلك الحين أحد من الولاة أمثاله فعل مافعله سنان باشا من البر والخيرات وكان كثير العناية

بمصالح

بمصالح الرعية شفوقا عليهم يسأل العمال عن الصغيرة والكبيرة وقد بلغه ان الامير منصور بن بغداد أمير ولاية المنوفية حدث متلاعب أهمل أمور الولاية وهو منهمك فى اللذات واتباع الشهوات وان جماعة من السفهاء قد استولوا على عقله وهم المتصرفون فى ولايته وقد زاده اهمالا وجراءة معرفته بالوزير الاعظم ميلوش باشا وتقربه منه وكان قد عهد له بأن لاقدرة لاحد على خلعه من ولاية المنوفية فسار سنان باشا فى القعدة من السنة أى سنة تسع وسبعين وقبض على الامير منصور المذكور وخلعه وولى مكانه الامير علام بن بغداد واستمر الامير منصور مسجونا فى البرج بقلعة الجبل من سنة تسع وسبعين الى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة عند ماقدم حسن باشا وأطلق سبيله وأرجعه الى ولاية المنوفية فكانت مدة حبسه نحوا من عشر سنين

مطلب
ولاية حسين باشا

ومازال سنان باشا يتصرف فى الامور مع الرفق واللين بالرعية حتى جاءه أمر السلطان سليم بالحضور الى دار السلطنة فرحل عن مصر والقلوب راضية عنه فكانت مدته الثانية سنتين اثنتين وتولى بعده حسين باشا فدخل القاهرة فى سادس عشرى المحرم افتتاح سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وجعل يتصرف فى الامور ثم خلع فى سنة اثنتين وثمانين فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عاقلا رزينا شفوقا بالرعية ميالا الى الخير والاحسان ووقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول والمشروب ثم وقع قحط عظيم جدا فأكل الناس بذر الكتان والحشيش اليابس واشتد الجوع بالناس اشتدادا عظيما وأعقبه الموات فجاءة حتى ان الرجل أو المرأة أو الخادم اذا خرج من بيته لقضاء حاجته أدركته المنية فى الطريق فيموت سريعا بلا ألم ولا وجع وبقى الحال على هذا الوصف أياما كثيرة فهاجر الناس الى ضواحى القاهرة ومصر ونزحوا الى بعض القرى والبلدان فرارا من الموت ولكنه لم يلبث ان عم جميع القرى والمدن وكثر واشتد شدة بالغة ثم أخذ يزول * وماتم زواله حتى كثرت اللصوص وظهر قطاع الطرق فعاثوا فى البلاد وسلبوا ونهبوا وأفسدوا وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وكانوا لاينفكون ليلا ولا نهارا وعجز حسين باشا المذكور عن ردعهم فتمادوا وكثر شرهم وعم الخوف جميع البلاد فكانت شدة عظيمة وازدادت الاحوال اضطرابا والامور خللا وفسادا بتطاول أيدى الجند أيضا الى أموال الناس وعبثهم بمصالح الدولة وعدم وقوفهم عند طاعة كبارهم وايذائهم للسوقة والباعة وأصحاب البيوت حتى ضج الناس وترقبوا مرور حسين باشا فى الطريق وصاحوا فى وجهه وقبحوا عجزه وأقسموا انهم اذا ماهم رافعون ظلامتهم الى السلطان وكان السلطان فى هذا الحين فى شاغل ليس عن مصر فقط بل عن جميع الايالات التابعة الى مملكة أبيه بما تولى عليه من الخمول وضعضعة النفوذ * قال أصحاب التاريخ وذلك لانه لم يكن متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه ولا هو متصفا بالحزامة واصالة الرأى فارتبكت لذلك أحوال المملكة وانفشلت أمورها وطمع فيها الاعداء ومالت بعض الولايات الى الخروج فشدد بعض الدول الكبرى فى طلب كثير من

الامتيازات كدولة الفرنسيس فقد نالت فى أيامه حقوقا مهمة غير الذى نالته منها فى أيام أبيه وكان صدر الدولة يومئذ صقلى محمد باشا وهو رجل موصوف بالتدبير عالى الهمة كبير السياسة خبير بفنون الحرب صادق الخدمة فبذل العناية فى بقاء مركز الدولة غير محقر ولا مهان وأجهد النفس فى حفظ ما بيدها من الثغور والعمالات وفتح ما تمكن فتحه من المدائن والثغور فسير لفتح جزيرة قبرس عمارة عظيمة من سفن الحرب تحمل زهاء مائة ألف مقاتل ومقدمها لالا مصطفى باشا فحاصرت الجزيرة الى ان دخل الشتاء فانصرفت عنها ثم عادت لحصارها حتى تم فتحها وأقلعت بعد ذلك هذه العمارة الى جزيرة كريد لفتحها فلم تنل منها فأخذت من البنادقة بعض المدن الواقعة على بحر الادرياتيك فأكبر البنادقة هذا الامر جدا وعمدوا الى محالفة دولة اسبانيا فلما تمت لهما المحالفة تعاهدا مع بابا رومة على قتال الترك ومنازلة عمارتهم ومحو آثارهم من البحار فأعدوا لذلك عمارة عظيمة من مائة وأربعين من سفن البنادقة وسبعين من سفن الاسبانيول واثنتى عشرة سفينة للبابا وتسع من سفن رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى بمالطه وكان مقدم هذه العمارة الامير دون جوان وهو ابن للامبراطور شرلكان من احدى عشيقاته وكانت سفن الترك ثلثمائة سفينة فلما التقى الفريقان عند ليبنة اقتتلوا قتالا عنيفا الغاية نحوا من ثلاث ساعات ثم انكشف الأمر عن هزيمة السفن التركية وانتصار سفن الاحزاب فاستولوا على مائة وثلاثين سفينة عثمانية وأحرقوا واغرقوا أربعا وتسعين وغنموا زهاء ثلثمائة من المدافع وأسروا نحو ثلاثين ألفا من المقاتلين فكانت هذه الواقعة من اتعس الوقائع وأشدها خطرا على مقام الدولة العثمانية فى عرض البحار * وجاءت الاخبار الى دار السلطنة بما حل بالعمارة فهاج المسلمون وماجوا وهموا بقتل رسل البابا الذين هم دعاة المذهب الكاتوليكى فلم ينالوا منهم لاهتمام صقلى محمد باشا بمنع القلاقل وعدم تطاول أيدى الرعية الى الايذاء * قال بعض كتاب الأخبار ولم تكن هذه الكسرة المشؤمة لتقعد همة صقلى محمد باشا عن لم شعث العمارة العثمانية واعادة ما كان لها من الرونق والبهجة حيث أنشأ لها عدة سفن وجهزها وبالغ فى تجهيزها واتقن نظامها وسيرها فى عرض البحار طلبا للثار فلم يقع بينها وبين سفن الاحزاب شئ من القتال لانفصام عرا الاتحاد مابين البنادقة والاسبانيول وعقد معاهدة مابين العثمانيين والبنادقة على شروط رضاها الفريقان فلما كان فى خلال الحوادث الاخيرة مرض السلطان سليم واشتد به مرضه أياما ثم مات فى سابع رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة اربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحوا من تسع سنين فولى السلطنة بعده ولده السلطان مراد خان

(الفصل الرابع)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ولده السلطان مراد بويع له بالملك عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة اربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وكان شهما مقداما عالى الكلمة واسع المعرفة خبيرا بالأمور محبا للفتح والغزوات فغزا عدة غزوات وسار بجيش ضخم لاخضاع المجر وردها الى طاعة الدولة بعد أن كادت تخرج عنها فقاتلها وأذلها اذلالا كبيرا وأعادها الى ما كانت عليه وفتح عدة مدائن وحصون ودوّخ كثيرا من البلدان فاتسعت كلمته وكبرت هيبته وعاقده كثير من الملوك وتقربوا اليه

مطلب
ولاية مسيح باشا

وكان حسين باشا والى الديار المصرية قد عزل من منصب الولاية قبل أن يتولى السلطان مراد السلطنة بقليل فأقام بدله مسيح باشا وكان من خزنة دار السلطان سليم فدخل القاهرة فى أوائل سنة اثنتين وثمانين وكان ذا مهابة وعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكانوا فى ولاية حسين باشا قد كثروا فى الأرض وعاثوا وأفسدوا فيها كما تقدم فعمل على قطع شأفتهم وصار يتجسس أخبارهم ومواطنهم ويبعث بالحكام فيقبضون عليهم ويأتونهم عشرات عشرات فيقتل منهم ويشنع فى قتلهم فخافوا وانكفوا وارتجع أهل التهم وسكن الحال واستتب الامن واطمأنت قلوب الرعية واشتدت يقظة الحكام وهابوه وانكفت أيدى الولاة والكشاف جميعا عن التجرئ على مالايصلح عمله من أخذ الرشاوى والبراطيل وأخذ الاموال من أصحابها بالسوط والنبوت وبالغ مسيح باشا فى القتل والتمثيل لاقل سبب قيل فكان عدد من قتل فى أيامه زهاء عشرة آلاف وقد علق شناكل من الحديد بالرميلة وبولاق والشون بمصر القديمة لقتل المفسدين وأصحاب الكبائر فكان لذلك وقع فى قلوب الرعية وخافه جميع الناس ومالت اليه القلوب وأحبته الرعية وتصرف فى الولاية التصرف العام الى ثانى عشرى جمادى الاولى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ثم جاءه الامر بالانصراف عنها فقام الى القسطنطينية على الاثر فكانت مدة تصرفه خمس سنين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان قد بنى له مدرسة ومدفنا بالقرافة وأوقف عليها أوقافا عظيمة وكان يؤمل أن يدفن فى مصر * وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت * خزن

مطلب
ولاية حسن باشا الخادم

الناس لعزله فلما عزل مسيح باشا تولى بعده حسن باشا الخادم فدخل القاهرة فى سادس عشرى جمادى الاولى من السنة وكان قبل ولايته هذه خازندار السلطان مراد فلم يستقر به المنصب حتى ظهرت عليه علامات الغلظة وجعل يتصرف مع العسف والكبرياء فكان ظالوما غشوما عتلا زنيما محبا للمال ومصادرة الناس ميالا للرشاوى والبراطيل فصادر كثيرا من أهل الوجاهة وذوى البيوتات فاصبحهم بعد الغنى والاثراء فقراء لايتملكون شروى نقير واشتد بالرعية شدة بالغة وأخذهم بالشبهات فقتل وشرد وألزم اليهود فى أيامه بلبس الطراطير الحمر والزم النصارى بلبس القلانسوة السوداء وكان قليل الرأى ضعيف التدبير سفاكا للدماء ولكنه جبان صغير القلب متحببا الاعلى بعض خواصه فابغضه الناس كافة وضجوا من فعاله ورفعوا القصص الى دار السلطنة واستغاثوا فجاءه الامر بالعزل فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنتين واحدى عشر شهرا وثمانية عشر يوما كلها بلايا واحن وقد عمر ببولاق وكالة تجاه الترمضانة وصهريجا مقابلها يعلوه مكتب للايتام وكان قصده أن يزيل الترمضانة ويبنى مكانها جامعا فلم يتمكن من ذلك لعزله

مطلب
ولاية الوزير ابراهيم باشا

وتولى بعده الوزير ابراهيم باشا فدخل القاهرة فى رابع عشرى ربيع الآخر من السنة وسار من وسط المدينة فى موكب لم يعهد لاحد من قبله وفرح الناس به فرحا لايوصف قيل وكان معه مرسوم من السلطان بتحقيق ماارتكب فعله حسن باشا والقبض عليه وتعويقه حتى يتم ذلك فأحس حسن باشا بذلك وسار من القاهرة خفية قبل وصول ابراهيم باشا اليها وطلع من باب المقابر ليلا فى نفر من أتباعه وبطانته فلما وصل الى دار السلطنة قبضوا عليه ثم أبعدوه عن خدمة الدولة وبالغوا فى اذلاله ومازال حتى صادفته العناية والعناية صدف فارتقى مسند الصدارة العظمى وعلت كلمته واتسعت صولته ثم عزل وقتل شر قتلة وأما ابراهيم باشا فانه أخذ يتصرف فى الامور وأقام بجامع السلطان فرج بن برقوق ديوانا لسماع القصص التى كانت ترفع من الناس على حسن باشا فلبث الديوان ينظر فى تلك القصص من العاشر من رجب من السنة الى غاية رمضان من السنة فأبان التفتيش عن شئ كثير من مظالم تكاد لاتحصر ولا تعد وكان منها مائة ألف اردب وأربعمائة واثنان وخمسون اردب قمحا بيعت من الشون وأخذ ثمنها حسن باشا المذكور وغير ذلك من الاختلاسات الاخرى قيل فلما رفع أمر هذا كله الى السلطان مراد وكان حسن باشا المذكور قد ارتقى منصب الصدارة العظمى أمر باعدامه خنقا وجاءت الاخبار بذلك الى مصر ففرح الناس بموته لما قاسوه فى أيامه من البلايا والاحن

وسار ابراهيم باشا من القاهرة الى داخلية البلاد ليستطلع أحوال الاهالى ووصل الى بئر الزمرد فأحاط بها علما وظفر منها بالزمرد النفيس وسار الى دمياط والى المحلة الكبرى وكان بها كنيسة عظيمة للغاية وهى من أفخر العمائر القديمة وبها جماعة من قسوس

المتأسلين أى أهل البلاد فلم يشأ أن تكون لهم واستعظمها عليهم فأمر بهدمها وبنى مكانها مدرسة وجماها الوزيرية فعدت له هذه نقطة سوداء فى تاريخ حياته ثم سار الى كثير من المدن والبنادر ثم رجع الى القاهرة وأنزل نفسه عن الولاية فى سنة اثنتين وتسعين فكانت ولايته سنة واحدة وتسعة عشر يوما وسافر الى دار السلطنة فى شهر شوال من السنة فتولى بعده سنان باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى ثالث عشر شوال من السنة وابراهيم باشا بها فلما استقر به المنصب طغى وتجبر وظلم الرعية وصادر الناس فى أموالهم وأراق الدماء لاقل الاسباب وأضعفها واشتد شدة بالغة فضج الناس ورفعوا أمره الى دار السلطنة فأتاه الامر بالعزل وقد تصرف الى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرة أيام ولبث بالقاهرة الى أن قدم أويس باشا واليا ونزل بناحية شبرا فربامين ولاق فأرسل الى أويس باشا المذكور هدية عظيمة للغاية ومعها حصان أشهب بسرج مرصع وعدة تليق به وكان يؤمل أن أويس باشا حال طلوعه من المركب الى الوطاق المنصوب له يركب الحصان المذكور فعدل عنه وركب اكديشا أشهب كان أحضره معه ثم ان سنان باشا قدم ناحية شبرا وقابل أويس باشا عند غروب الشمس فشاهد علامات الغيظ على وجهه فهاله ذلك وداخله الخوف فلما رجع من عنده الى القاهرة اختفى ولم ير بعد ذلك الا فى الديار الرومية

مطلب
ولاية سنان باشا الدفتردار

وتصرف أويس باشا فى أمور البلاد من ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وكان قبل ذلك قد ولى القضاء ثم صار دفتردار الروم ايلى ثم جاء الى ولاية مصر فكان جبارا عنيدا شديد البطش سفاكا للدماء كثير الاخذ بالشبهات ثم تطاولت يده أيضا الى العبث بأمور العساكر والاجناد والتصرف فى مرتباتهم وجعا كيهم بما يناسب هواه فخرجوا عليه وأحاط جماعة منهم بديوانه ودخل عليه جماعة وأوسعوه ضربا ونهبوا داره فأخذوا جميع ما كان بها من مال ومتاع وقاموا على عثمان أغا اغاة الجاويشية وذبحوه ذبح الشاة وأحرقوا دار القاضى وقتلوا اثنين من قضاة مصر ثم عمدوا الى حوانيت القاهرة ومصر فنهبوا ما فيها وعاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه وذلك فى شوال من سنة ثمان وتسعين فخاف الناس خوفا شديدا وانكمشوا فى البيوت وتحصنوا بها وقد تطاولت أيدى العامة والغوغاء الى النهب والسلب أيضا فكانت فتنة عظيمة للغاية لم تقدر الامراء ولا كبار الجند على تسكينها وبذل الباشا الجهد فى ملاطفة أصحاب الفتنة وكبار العصابة وبعث الى القضاة يعلمهم بان لا يخالفوا الثائرين أمرا عسى أن يكفوا عن فعالهم فزاد تمردهم وطغيانهم وقبضوا على أولاد الباشا وأخذوهم رهنا على ما يطلبون وكان أولاد البلد الى هذا الحين يدخلون فى خدمة الدولة ويلبسون لباس العسكر لهم مالهم وعليهم ماعليهم فلما وقعت هذه الفتنة حرموا من ذلك وحظر عليهم الدخول فى مصاف العسكر ايجابا لطلب أهل الثورة

مطلب
ولاية أويس باشا

وحدثت عقب ذلك مصادرات كثيرة من وجوه شتى * قال بعض كتاب الاخبار فكان لاويس باشا المذكور يد فى هذه الحركة لامر خفى وطالت أيام الفتنة فقلت الاقوات وعز وجودها وضج الفقراء واجتمعوا تحت قلعة الجبل وسبوا أويس باشا ورجموا الناس بالاحجار

ولما كان يوم الاحد رابع صفر سنة تسع وتسعين حصلت زلزلة بالقاهرة ومصر بعد ظهر اليوم المذكور فمكثت درجة وسدس درجة وسقط بسببها عدة منارات وبيوت وربوع وغاض الماء من حيضان الحمامات ومطاهر الجوامع وهدمت عقبة أيلة فنهب العرب جميع ما كان بها من ذخيرة الحجاج والمرابطين قبل ولم يسبق وقوع مثل هذا الزلزال الامن عهد بعيد للغاية ووقعت بعدها بثلاثة أشهر أى فى يوم الاربعاء عاشر جمادى الاولى من السنة زلزلة أخرى ولكنها لم تلبث الا يسيرا جدا فزاد تشاؤم الناس وكرههم الى أويس باشا وعجوا الى الله تعالى وتضرعوا اليه وكثر الدعاء بالجوامع وغيرها فلما كان سادس شهر رجب سنة تسع وتسعين أصابته سكتة قلبية فجأة فمات بها ودفن بالقرافة ففرح الناس بموته فرحا لا يوصف وكانت مدة تصرفه أربع سنين وشهرا واحدا وثمانية أيام فنظم بعضهم تاريخا فى موته فقال

أهلك الله أويسا انــــــه * جار فى الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أتى مصر تعـدى حده * وبه الظلم تبـــدى فى مزيد
هلك الحرث وكم من فتنة * قد أثيرت منه عما لا يفيد
مـــذ دعاه الموت ما أغفله * لاولا كان له عنـــه محيد
غاب ســعيا وبقاه أرخــو * هاوغاب كل جبار عنيــد
سنة ٩٩٩ ٦٠٩ ٥٠ ٢٠٦ ١٣٤

مطلب
ولاية أحمد حافظ باشا الخادم

فلما مات تولى بعده أحمد حافظ باشا الخادم فدخل مصر فى سابع عشرى رمضان سنة تسع وتسعين وتسعمائة وأخذ يتصرف فى الامور فكان نعم الرجل ذا رأى وتدبير محبا للعلم والفقراء حسن السياسة فأمنت فى أيامه السبل وانتظمت أحوال الرعية وامتنع أهل الفساد وانكف الولاة والعمال عن العبث بأمور الرعية وكان يجلس للناس فترفع اليه القصص بحاجات الخلق وعمر فى أيامه وكالة كبرى وأخرى صغرى وسوقا وربوعا وبيوتا ببولاق من القاهرة بجوار شون الحطب وعمل مصلى بالوكالة الكبرى مطلة على النيل وعمر كذلك برشيد عمائر أخرى عظيمة وعمل سحابة بطريق الحاج وبها النفع للحجاج فلما كان التاسع من شعبان سنة ثلاث وألف هجرية جاءه الامر بالعزل والقيام الى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوما ولما بلغ دار السلطنة حمدت مساعيه بديار مصر فولى الصدارة العظمى ثم أزال نفسه عنها واستأذن فى الحج فأذن له وجاء الى مصر بحرا فتلقاه الكبراء والامراء أحسن ملتقى وأهدوا اليه الهدايا النفيسة

فحج

مطلب
ولاية قبودر باشا

خلع ورجع الى الديار الرومية فمات بها وتولى بعده على ديار مصر قبودر باشا فدخل القاهرة في ثالث عشر رمضان سنة ثلاث وألف وكان أميا اذكان محبا للهو والملذات قليل الحيلة ضعيف الرأى لاهم له غير اللعب واللهو ويروى عن لهوه حكايات كثيرة أضربنا عن ايرادها هنا صفحا

وكان لما تولى السلطان مراد السلطنة أمر فانشؤا بالمدينة تكية ورباطا بظاهر المدينة وقرر بها أرباب وظائف ومجاورين ورتب بالتكية طعاما وحبوبا للحرمين ووقف على ذلك قرى من قرى مصر المحروسة باقليم البحيرة ناحية نكلا وناحية الضاهرية وبالمنوفية ناحية سبك الاحد وناحية شبرا زنكى وبالقليوبية ناحية طنان وناحية كفر زريق وناحية طوخ الملق وناحية سد طنان وناحية سنهرا وبالدقهلية ناحية سندوب وناحية منية سمنود وناحية أبو الحسن وبالجيزة ناحية كوم برا وناحية نهيا وناحية العثامنة وناحية ديشنا وبالوجه القبلى البهنساوية وناحية بلينا وناحية الدبل وناحية العثامنة وناحية ديشنا وناحية نهيا بلقية وناحية دنديل وناحية العثامنة وناحية الضوابط وناحية اهناس الخضراء فكان يجهز الى بندر السويس من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام من الحب ألفى اردب ومائتى إردب تحمل فى مراكب فى وقف الدشائش الدارية الى الينبع برسم التكية المذكورة ومجاورى الحرمين هذا عدا ما كان يجهز من النقد من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام صحبة أمير الحج المصرى وقدره سبعة عشر كيسا توزع على أربابها من مجاورى الحرمين * ولعل هذا كله باق الى الآن * فتطلع قبودر باشا الى هذه الاوقاف وطمعت نفسه فى أخذ بعضها فلم يقدر ثم خشى العاقبة وانعطف الى غيرها من موارد الاموال فشكاه الدفتردار الى دار السلطنة وبالغ فى فساد الاحوال وعدم صلاحيته للولاية * قال أصحاب التاريخ ولم تكن هذه الاوقاف والخيرات والتكايا لتكفر عن ذنوب السلطان مراد وما اقترفه من جريمة قتل اخوته الخمسة بعد توليته منصب السلطنة فانه بعد ان تمت له البيعة واستقر به المنصب أمر فقتلوا اخوته المذكورين صبرا ليأمن على ملكه من النزاع ولم يخش الخزى والعار فكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء فى صفحات أيامه مع مايضاف الى ذلك من تحجبه عن الناس وعدم اكتراثه بالامور وترك الغزو والخروج فى مقدمة الجند كما كانت تفعل أجداده حتى طمع العدو فى البلاد وتغلبت دولة النمسا على كثير من القلاع والحصون العثمانية وانتصرت فى عدة وقائع عظيمة مات فيها كثير من رجال الدولة ومقدمى العساكر وخرجت بعض الايالات عن الطاعة فقاتلت حتى انتصرت ونالت الاستقلال واسترجعت ماأخذ من مدنها وبلدانها عنوة واستخفت طوائف الانكشارية بقدر الدولة فتمردوا وأهانوا كبارهم ومقدميهم وثاروا على بعض العمال وكبار الدولة فقتلوهم جهارا ولم يقو السلطان على منعهم حتى كاد يبلغ الخلل حده وكانوا سببا فى دوام الحروب ومعاداة الممالك المجاورة لدولة القسطنطينية

لاجتماعهم على الخلاف وعبثهم بامور الدولة وتقويض أركان الامن فيها بما يفعلونه من القتل والنهب واذلال كبارهم عند أقل سبب وقد كان مما أهاجهم وخرج بهم عن حد الطاعة انه لما كثر فسادهم وكبرشرهم بما فشا فيهم من الادمان على السكر والافراط فيه أمر السلطان بمنعهم من ذلك وبالغ فى عقاب من يقبض عليه سكران فقاموا عند ذلك قومة رجل واحد وحاصروا السلطان فى قصره وضيقوا عليه وصمموا على قتله جهارا ولبثوا على هذا الحال أياما كثر فيها النهب والسلب والعربدة وتطاولت أيدى الناس لسلب أموال بعضهم ولم تسكن هذه الفتنة الا بعد ان أباح لهم السلطان السكر وتعاطى الخمر والرجوع الى ما كانوا عليه من العربدة والفساد

وظلت الاحوال فى مصر ودار السلطنة فى قلق واضطراب بعضه بسبب الحروب المتواصلة بين السلطنة والممالك المجاورة وبعضه بسبب كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر وتحزب الاحزاب وظهور كلمة الجند فيها وعدم وقوف كبارهم عند حد الى أن مات السلطان مراد فى السابع عشرمن جمادى الآخرة وقيل سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة وتسعة أشهر وستة أيام فخلفه ابنه السلطان محمد

ومات فى أيام السلطان مراد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكانت الامور فى أيامه على طرفى نقيض ماصفت يوما الا وتكدرت أياما فاقيم بعده يوحنا وهو تاسع ثمانيهم ولم يكن لرهبانيته دير وكان حازما مهيبا محبوبا محبا للخير ميالا للفقراء آوى اليه كثيرا من ذوى الحاجة فدلهم بدالمعاونة وبذل لهم المعروف وأقام أربعا وعشرين سنة ومات فخلفه متاوس وهو المتمم للتسعين وكان قبل ذلك راهبا فى دير المحرق ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل الخامس)

(فى سلطنة السلطان محمد ابن السلطان مراد)

ثم قام بالامر بعد السلطان مراد ولده السلطان محمد بويع له بالملك فى يوم الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وألف هجرية أى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف ميلادية ولم يستقر به مقام السلطنة حتى قام على اخوته فقتلهم ليأمن على ملكه من المنازع وكأن هذه الفعلة الشنعاء قد صارت سنة عند ملوك آل عثمان يعمل بها الخلف عن السلف ثم تحجب بعد ذلك عن الناس وانعكف على الملاذ وترك أمور المملكة لجماعة الوزراء فعاثوا وأفسدوا وتصرف كل منهم على هواه وعمل على مافيه مصلحته فباعوا الوظائف والقاب الشرف بابخس الاثمان وسلموا مقاليد الدولة للاغرار والسفلة فبلغ الخلل حده وزالت

حرمة الدولة وكبر طمع العدو فيها فخرجت عليها الخوارج وقامت الحروب من كل جانب واشتدت الخطوب وظهر الامير مخائيل صاحب الفلاخ على عساكرها فى عدة مواقع عظيمة وضم الى مملكته اقليم البغدان وجزأ كبيرا من ترنسلفانيا وساعدته على غير ذلك أيضا عساكر القسا فعم الخلل جميع انحاء المملكة وقامت الفتنة وتطاير شررها الى بجوف الاناطولى وظهر رجل اسمه قره يازجى كان من مقدمى المتطوعة الذين نفاهم السلطان الى آسية لجبنهم فى الحروب وادعى أن صاحب الشريعة الاسلامية أتاه فى منامه وأمره بالغزو والجهاد فى آل عثمان ووعده بالنصر والغلبة عليهم وأخذ جميع ولايات آسية منهم وبث الدعاة بذلك فى الآفاق فتبعه خلق عظيم من أولئك القوم فنزل بهم على بلاد القرمان وقاتل عامل الدولة عليها حتى ظفر به وأخذ مدينة عين تاب عنوة فكبرت عند ذلك لومه وظهرت كلمته واشتهر أمره فسير السلطان لقتاله جيشا من الانكشارية فحاصروا مدينة عين تاب وضيقوا عليها وشددوا فلما أحس قره يازجى بالغلبة وأنه مأخوذ لامحالة عمد الى استعمال الحيلة فعرض على مقدم الانكشارية الطاعة للسلطان بشرط أن يوليه آماسيا فأجابه الى ذلك ورفع عن المدينة الحصار فلم يكن بأسرع من أن عاد قره يازجى المذكور الى العصيان وكان له أخ اسمه والى حسن قد ولاه السلطان على بغداد فسير اليه قره يازجى رسلا تستفزه الى شق عصا الطاعة والقيام لنصرته فأجابه الى ذلك وسير اليه جماعة كثيرة من أصحابه فاشتدت عزيمة قره يازجى واستفحل أمر الفتنة وظهرت كلمة قره يازجى وأخيه والى حسن واتسعت شهرتهما وكادت تتم دعوتهما فكبر الامر على السلطان واستعظمه وسير لقتالهما عسكرا عظيما ومقدمهم صقللى حسن باشا فقاتلوا أولا قره يازجى حتى ظهروا عليه وجرحوه فترفع الى الجبال ومات بجراحته ثم انحازوا لقتال والى حسن صاحب بغداد فقاتلهم قتالا عنيفا وانتصر عليهم فى عدة مواقع وقتل صقللى حسن باشا على أسوار (توقات) ومزق شمل عساكره ثم سار ونزل على دمشق بخيله ورجله فهزم واليها شر هزيمة وهزم ولاة حلب وديار بكر ونزل على مدينة كوناهية فحاصرها وضيق عليها من كل جانب فاشتد عند ذلك الخلل وتعاظم وهممت أكثر ايالات الدولة الى الخروج وتأهبت الى شق عصا الطاعة الا مصر فانها كانت فى شاغل عن هذا كله بما قد انتابها من كثرة التولية والعزل فى ولاتها وعدم وقوف الجند والامراء فيها عند حد وعسف واليها قيودر باشا وعبثه بجميع الامور وتطاول يده الى أموال الناس بلا استثناء وما زال الحال على ذلك الى سابع عشر رجب سنة أربع وألف ثم جاء قيودر باشا المذكور الامر بالعزل فكانت مدة ولايته عشرة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده الشريف محمد باشا ودخل القاهرة فى ثالث شوال سنة أربع بعد الالف وكان مهيبا ذا بصيرة وخبرة بالامور واسع الاطلاع بادارة البلاد فلما استقرت به الولاية وجلس للناس رفعت اليه القصص ضد كوسى حسن الشاغرت وأحمد المسلمانى وكان الاول على الاموال والثانى على الشون السلطانى وكانا قد اختلسا منهما شيأ كثيرا فعين عليهما من ضبط حسابهما

لاجتماعهم على الخلاف وعبثهم بامور الدولة وتقويض أركان الامن فيها بما يفعلونه من القتل والنهب واذلال كبارهم عند أقل سبب وقد كان مما أهاجهم وخرج بهم عن حد الطاعة انه لما كثر فسادهم وكبرشرهم بما فشا فيهم من الادمان على السكر والافراط فيه أمر السلطان بمنعهم من ذلك وبالغ فى عقاب من يقبض عليه سكران فقاموا عند ذلك قومة رجل واحد وحاصروا السلطان فى قصره وضيقوا عليه وصمموا على قتله جهارا ولبثوا على هذا الحال أياما كثر فيها النهب والسلب والعربدة وتطاولت أيدى الناس لسلب أموال بعضهم ولم تسكن هذه الفتنة الا بعد ان أباح لهم السلطان السكر وتعاطى الخمر والرجوع الى ما كانوا عليه من العربدة والفساد

وظلت الاحوال فى مصر ودار السلطنة فى قلق واضطراب بعضه بسبب الحروب المتواصلة بين السلطنة والممالك المجاورة وبعضه بسبب كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر وتحزب الاحزاب وظهور كلمة الجند فيها وعدم وقوف كبارهم عند حد الى أن مات السلطان مراد فى السابع عشر من جمادى الآخرة وقيل سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة وتسعة أشهر وستة أيام فخلفه ابنه السلطان محمد

ومات فى أيام السلطان مراد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكانت الامور فى أيامه على طرفى نقيض ماصفت يوما الا وتكدرت أياما فاقيم بعده يوحنا وهو تاسع ثمانيهم ولم يكن لرهبانيته دير وكان حازما مهيبا محبوبا محبا للخير ميالا للفقراء آوى اليه كثيرا من ذوى الحاجة فمدلهم يد المعاونة وبذل لهم المعروف وأقام أربعا وعشرين سنة ومات فخلفه متاوس وهو المتمم للتسعين وكان قبل ذلك راهبا فى دير المحرق ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل الخامس)

(فى سلطنة السلطان محمد ابن السلطان مراد)

ثم قام بالامر بعد السلطان مراد ولده السلطان محمد بويع له بالملك فى يوم الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وألف هجرية أى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف ميلادية ولم يستقر به مقام السلطنة حتى قام على اخوته فقتلهم ليأمن على ملكه من المنازع وكأن هذه الفعلة الشنعاء قد صارت سنة عند ملوك آل عثمان يعمل بها الخلف عن السلف ثم تحجب بعد ذلك عن الناس وانعكف على الملاذ وترك أمور المملكة لجماعة الوزراء فعاثوا وأفسدوا وتصرف كل منهم على هواه وعمل على مافيه مصلحته فباعوا الوظائف والقاب الشرف بابخس الاثمان وسلموا مقاليد الدولة للاغرار والسفلة فبلغ الخلل حده وزالت

حرمة الدولة وكبر طمع العدو فيها فخرجت عليها الخوارج وقامت الحروب من كل جانب
واشتدت الخطوب وظهر الامير ميخائيل صاحب الفلاخ على عساكرها فى عدة مواقع عظيمة
وضم الى مملكته اقليم البغدان وجزأ كبيرا من ترنسلفانيا وساعدته على غيرذلك أيضا عساكر
النمسا فعم الخلل جميع انحاء المملكة وقامت الفتنة وتطاير شررها الى جوف الاناطولى
وظهر رجل اسمه قره يازجى كان من مقدمى المتطوعة الذين نفاهم السلطان الى آسية
لجبنهم فى الحروب وادعى أن صاحب الشريعة الاسلامية أتاه فى منامه وأمره بالغزو
والجهاد فى آل عثمان ووعده بالنصر والغلبة عليهم وأخذ جميع ولايات آسية منهم وبث
السعاة بذلك فى الآفاق فتبعه خلق عظيم من أولئك القوم فنزل بهم على بلاد القرمان وقاتل
عامل الدولة عليها حتى ظفر به وأخذ مدينة عين تاب عنوة فكبرت عند ذلك لومه وظهرت
كلمته واشتهر أمره فسير السلطان لقتاله جيشا من الانكشارية فحاصروا مدينة عين تاب
وضيقوا عليها وشددوا فلما أحس قره يازجى بالغلبة وأنه مأخوذ لامحالة عمد الى استعمال
الحيلة فعرض على مقدم الانكشارية الطاعة للسلطان بشرط أن يوليه أماسيا فأجابه الى
ذلك ورفع عن المدينة الحصار فلم يكن بأسرع من أن عاد قره يازجى المذكور الى العصيان
وكان له أخ اسمه والى حسن قدولاه السلطان على بغداد فسير اليه قره يازجى رسلا تستفزه الى
شق عصا الطاعة والقيام لنجدته فأجابه الى ذلك وسير اليه جماعة كثيرة من أصحابه فاشتدت
عزيمة قره يازجى واستفحل أمر الفتنة وظهرت كلمة قره يازجى وأخيه والى حسن واتسعت
شهرتهما وكادت تتم دعوتهما فكبر الامر على السلطان واستعظمه وسير لقتالهما عسكرا
عظيما ومقدمهم صقللى حسن باشا فقاتلوا أولا قره يازجى حتى ظهروا عليه وجرحوه فترفع
الى الجبال ومات بجراحته ثم انحازوا لقتال والى حسن صاحب بغداد فقاتلهم قتالا عنيفا
وانتصر عليهم فى عدة مواقع وقتل صقللى حسن باشا على أسوار (توقات) ومزق شمل
عساكره ثم سار ونزل على دمشق بخيله ورجله فهزم واليها شر هزيمة وهزم ولاة حلب وديار
بكر ونزل على مدينة كوتاهية فحاصرها وضيق عليها من كل جانب فاشتد عند ذلك الخلل
وتعاظم وهمت أكثر ايالات الدولة الى الخروج وتأهبت الى شق عصا الطاعة الامصر فانها
كانت فى شاغل عن هذا كله بما قد انتابها من كثرة التولية والعزل فى ولاتها وعدم وقوف
الجند والامراء فيها عند حد وعسف واليها قبودر باشا وعبثه بجميع الامور وتطاول يده الى
أموال الناس بلا استثناء وما زال الحال على ذلك الى سابع عشر رجب سنة أربع وألف
ثم جاء قبودر باشا المذكور الامر بالعزل فكانت مدة ولايته عشرة أشهر وعشرة أيام فتولى
بعده الشريف محمد باشا ودخل القاهرة فى ثالث شوال سنة أربع بعد الالف وكان مهيبا
ذا بصيرة وخبرة بالامور واسع الاطلاع بادارة البلاد فلما استقرت به الولاية وجلس للناس
رفعت اليه القصص ضد كوسى حسن الشاغرت وأحمد السلماني وكان الاول على الاموال
والثانى على الشون السلطانى وكانا قداختلسا منهما شيأ كثيرا فعين عليهما من ضبط حسابهما

فثبت عليهما ماقيل فأمر بشنقهما على باب زويلة وتركت أجسادهما معلقة ثلاثة أيام فهابه الناس وخافوه خوفا ماعليه من مزيد نفاخره لذلك الغرور حتى بلغ به الى الاخذ بالشبهات والبطش بمن يتوسم فيه سمة الانكار وأراد أن يبطش ببعض كبار الناس فأشيع عنه ذلك فحذروا منه وأبغضه الناس والامراء كافة فلما كان فى بعض الايام أراد التوجه الى الربيع فنعه بعض أصحابه وأنذروه بسوء العاقبة ان هو ذهب فى يومه فنبذ كلامهم فلما خرج قام عليه جماعة من العسكر وتعرضوا له عند انصرافه وهو بباب الوزير بموكبه الخاص وعساكره وطائفة من السامانية وهم معدون بالبنادق فلما عاين من معه كثرة العساكر تفرقوا عنه فى الازقة وتركوه فى نفر قليل من أتباعه فدعاه العسكر لمحاكمة امام قاضى القضاة عدرسة السلطان حسن فأظهر لهم الانقياد والطاعة وسار معهم الى انوصل الى الرميلة فاركض فرسه نحو باب السلسلة ودخل القلعة وأغلق الابواب بينه وبين العسكر فهاج العسكر وأثاروا الفتنة وقتلوا كل من كان يكثر التردد على محمد باشا من الامراء والعلماء وأصحاب الوظائف وأخذوا الناس بالشبهات فعم الخوف وكثر اضطراب الناس وبقى محمد باشا بقلعة الجبل مكفوف التصرف قاصر الكلمة محجورا عليه الى أن جاءه الامر بالعزل فى خامس عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الالف وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء وقع فى أيامه قحط شديد للغاية استمر مدة وأعقب القحط وباء عظيم فكثر الموات فى الناس بالقاهرة ومصر وضواحيها وزاد زيادة بالغة ثم عم القرى وانتقل أيضا الى بقية البلدان فكانوا يدفنون الاموات فى الليل والنهار وكثرت الجثث فى البيوت وفى الطرق والحارات واشتد الوهم بالناس وفر محمد الشريف باشا من القاهرة هربا من الموت واستخلف على البلاد بيريى بيك أحد كبار الامراء فلم تستقر به الولاية حتى أدركه الموت فولى الامراء عليه عثمان بيك فأقام الى ان كانت الفتنة وعزل محمد الشريف باشا وأتى خضر باشا واليا فكانت مدة تصرف محمد الشريف باشا سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما وخرج من مصر فى موكب عظيم وعلى رأسه عمامة خضراء وركب معه خاصة العسكر وعامته فلما وصل الى الديار الرومية أرسله السلطان لقتال ملك فارس فأسر وبقى ببلاد فارس الى ان مات

مطلب
ولاية خضر باشا

ودخل خضر باشا القاهرة فى عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الالف فتصرف ثلاث سنوات وخمسة أيام فلم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر الا ما كان من سكون الفتنة ورجوع الجند والعسكر الى الطاعة وزوال الخوف من قلوب الرعية ثم عزل فى خامس عشر المحرم افتتاح سنة عشر وألف * وتولى بعده على باشا فدخل القاهرة فى تاسع صفر سنة عشر

مطلب
ولاية على باشا

وألف وكان لما قدم الى الاسكندرية لبث بها أياما فتراكمت عليه القصص وتساقطت بين يديه بالشكوى من الكشاف وبعض رجال الدولة وأكثرها من برويز كاشف المنوفية وكان برويز هذا عتلا زنيما ظالما محبا للمال كثير المصادرة للناس سفاكا للدماء لادين له ولا ذمة ولا حرمة ولا أدب فلما أتى الكشاف للقاء على باشا المذكور وبينهم برويز هذا أمر به على باشا فقبضوا

عليه وقتلوه بين يديه * وقيل ان لقتل برويز المذكور سببا غير ذلك وهو ان شيخي افندى الذى كان متوليا قضاء المنوفية وانصرف عنها قد اجتمع بعلى باشا فى جزيرة رودس فسأله على باشا عن مصر وأحوالها ومافيها من الامور الخارقة فحدثه بما علمه من أحوال البلاد وأهلها و بالغ فى الوقيعة ببرويز كاشف المنوفية المذكور وأخذ يعدد قطائعه فلما وصل على باشا الى كفر الخضراء رفعت اليه القصص ضد محمد بن نجا حاكم الصحراوية فقبض عليه وقتله بفناء الكفر فهابه الحكام وخافه الكشاف ودخل القاهرة فى هيبة وجلالة وقبض على برويز وقتله فلقبوه من يومئذ بالنمر * ولما استقرت به الولاية أرسل قوسا وأمر أن يعلق على باب زويلة بالمرى ولصق بمورقة ذكر انه مكتوب فيها كل من أدنى هذا القوس يعطى ماهو مقيد بالورقة فلم يجسر أحد أن يمس القوس تأدبا واستمر وهو معلق أياما ثم رفع ثم اشتد بعد ذلك على العسكر وضيق عليهم وصار يؤاخذهم على الصغائر والكبائر فابغضوه وجعلوا يراقبون فرصة للانتقام منه فاتفق انه سار الى طندتا لزيارة السيد البدوى فعارضه بعض العسكر ومنعوه من الخروج من القاهرة الا اذا أعطاهم ما كانوا طلبوه منه فأجابهم الى سؤالهم صاغرا وعاد الى القاهرة وقد كاد يتميز غيظا فمرض واشتد به مرضه فأرسل الى دار السلطنة يطلب الاذن بالعود الى القسطنطينية فأذن له فسافر فى سادس ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرين يوما فلما وصل الى دار السلطنة قلد منصب الصدارة العظمى ثم وجه لقتال المجر فلم يلبث الا قليلا وعاوده المرض فمات هنالك وكانت أيامه بمصر كلها خير وبركة وظهر فى أيامه التبغ بديار مصر وكثر استعماله ولم يكن الى ذلك الحين شيأ يذكر وظهر الطاعون فمات به خلق كثير جدا وعم القرى والمدن والبنادر ومكث أياما وفتك فتكا ذريعا ثم ارتفع * وجاءت الاخبار فى هذه الاثناء بموت السلطان محمد مات فى رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية فكانت مدة سلطنته تسع سنين وخمسة عشر يوما وتولى بعده ابنه السلطان أحمد

(الفصل السادس)

(فى سلطنة السلطان احمد ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمد ابنه السلطان أحمد بويع له بالملك فى ثالث رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية أى سنة ثلاث وستمائة وألف ميلادية وله من العمر ثمانى عشرة سنة فاستوزر الامير قويجى مراد باشا وكان شيخا كبيرا صادق الخدمة تولى الوزارة وأركان الدولة متزعزعة فى جميع جهات آسية والفتنة قائمة ونار الحرب مستعرة على حدود فارس شرقا والنمسا غربا والسبب فى ذلك انه لما تولى عباس شاه على ملك فارس



بعد موت محمد ميرزا فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة هجرية نهض الى استرجاع ماأخذه ملوك آل عثمان من ملك فارس فأعد المعدات وجيش الجيوش ورمم القلاع والحصون وسار فى عسكر من خراسان الى مشهد وكانت قد استولت عليها قبائل الازبك فاستخلصها منهم وانتصر عليهم عند هرات أيضا نصرة عظيمة فلما تقوت عزيمته بما ناله من الظفر عمد الى قتال آل عثمان فنال منهم واسترجع جميع ماأخذوه من مملكة فارس عنوة ولم تقو الدولة على رده يومئذ لاختلال الاحوال وسريان الفساد فى جميع ولايات الدولة الشرقية وخروج الخوارج بعضهم يستفز بعضا فلما بطلت الحرب مع عباس شاه سار قويجى مراد باشا الصدر فى مقدمة جيش عظيم الى اطفاء نار الفتنة وقمع أولئك الخوارج فى جميع الولايات الشرقية فقاتلهم وانتصر عليهم ومزق شمل لمومهم وقبض على كبارهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ومازال بهم حتى زالت الفتنة وعادت الامور الى سابق مجراها ورجع بمن بقى من جيوشه الى القسطنطينية ظافرا غانما فلقب يومئذ بسيف الدولة ثم مات بعد ذلك فكان موته خسارة عظيمة على الدولة لصدق خدمته وأمانته وسعيه فى اعلاء منار الدولة وارجاع رونقها القديم فتولى بعده الوزارة نصوح باشا واتفق بعد ولاية نصوح باشا هذا ان عادت سفن رهبنة مالطة وسفن الحرب الاسبانيولية الى مهاجمة مراكب الدولة وسد المسالك عليها فى عرض البحر الابيض وأعانتها على ذلك المراكب الايطالية أيضا فرسم نصوح باشا لجميع مراكب الدولة بالاجتماع فى البحر الابيض والمحافظة على المواصلة مابين القسطنطينية والايالات المغربية فاجتمعت وكان مجىء بعضها من البحر الاسود فلما خلا البحر الاسود منها قامت طائفة من القوزاق وزحفت على ثغر سينوب فنهبوا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه وجاء الخبر بما وقع الى دار السلطنة فأكبره السلطان واتهم الصدر الاعظم بالخيانة وسوء القصد وكان للصدر خصوم وأعداء لاتغفل عن الوشاية به فزينوا للسلطان قتله وحببوا اليه التخلص منه فأمر به فقتلوه خنقا فى قصره * وكانت مصر الى مابعد خلع واليها على باشا وقيامه الى دار السلطنة بأيام كثيرة بلاوال والاحوال فيها فى اضطراب والامراء والجند على طرفى نقيض حتى جاء مرسوم السلطان الى أمير الحاج بالتصرف فى ولاية البلاد فتصرف من عاشر ربيع الآخر فكان لابأس به أصلح بعض الامور ورفع بعض المغارم وأبطل كثيرا من المظالم وأعاد الجند الى حد الطاعة وأزال المشجلة من بين كبارهم ولكن لم تطل مدته اذ اخترمته المنية فى يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان سنة اثنتى عشرة وألف من الهجرة فكانت مدة تصرفه نحوا من خمسة أشهر ودفن بالقرافة فاتفق الامراء وكبار الدولة على تولية عثمان بك أمير اللواء فولوه المنصب فى سابع عشر شعبان المذكور الى أن يقدم من دار السلطنة من يتصرف وكان الامير عثمان هذا مشهورا بالعفة والاستقامة وله جلالة وهيبة ورأى وخبرة بالامور فتصرف مدة ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما * ثم جاء الخبر بولاية ابراهيم باشا المعروف بالمقتول فدخل القاهرة فى يوم السبت ثانى عشرى ذى الحجة

مطلب
ولاية ابراهيم باشا المعروف بالمقتول

سنة

سنة اثنتى عشرة وألف فلما استقر به المنصب وتصرف فى الامور منع الكثير من طلبات العسكر وجعل يتتبع عثراتهم ويتجسس أخبارهم ولاسيما مجالس هزلهم فأشار عليه أصحاب المعرفة بأن يقلع عن هذا فلم يقبل وكان مستقلا برأيه نفورا مختالا لاينقاد الى نصح ولايهتدى لقول مشير * واتفق ان أتت له الاخبار يوما بأن جماعة من العسكر بالغيط الذى بقناطر السباع يتعاطون الخمر ويفعلون مالاخير فيه فقام وغير لباسه وسار اليهم ومعه ثلاثة رجال من خواصه فلما علم العسكر بحضوره فروا هاربين وزاد بغضهم له ونووا قتله فلما كان فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة خرج ابراهيم باشا فى نفر من الجند والاتباع وأصحاب الوظائف والصناجق لقطع جسر أبى المنجى بين شبرا وقليوب فأشار عليه بعض أصحابه أن لايخرج وان الذى يخرج عادة لقطع هذا الجسر هو زعيم مصر فان كان مايمنعه أرسل بعض أتباعه لقطعه فقال وماعلىّ لوذهبت بنفسى قالوا ان خواطر الجند منصرفة وقلوبهم متغيرة عليك بسبب فعلك بهم فقال لابد من الذهاب وخرج بغير اهتمام وقد أدركته صلاة الجمعة ببولاق القاهرة فصلى بها وهيئت له سفينة عظيمة وزينت بالستائر والرايات والفرش والطنافس الثمينة فركبها وصحبته الامير محمد بن خسرو أمير اللواء بمصر المحروسة وبعض أكابر خدمة الديوان ومازال الى ان وصل الى الجسر فقطعه فى يوم السبت مستهل جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة بعد الالف وكان ابراهيم باشا قد هيأ طعاما بالغيط الذى أنشأه محمود باشا تجاه قناطر أبى المنجى فدخل الغيط ومن معه وصحبته الامير محمد بن خسرو وعزمى زاده قاضى القضاة يومئذ وحصل لهم الصفو والمباسطة قبل الطعام فلما حضر الطعام رأى الامير محمد بن خسرو طائفة من العسكر مقبلين بسلاحهم يريدون الفتك بهم فاسرع اليهم وعارضهم وسألهم عما يطلبونه فسألوا من ابراهيم باشا شيأ كان يمكن قضاؤه فى الحال فلما رأى ابراهيم باشا ماهم عليه من التهديد والجفاء والتحزب لم يجبهم الى ماطلبوه وأغلظ عليهم القول فتقدموا نحوه فمانعهم الامير محمد وزجرهم وصاح فى وجوههم فطعنه أحدهم بخنجر فسقط يختبط فى دمه فعلا صدره آخر واحتز رأسه وهجم آخرون على ابراهيم باشا واحتزوا رأسه وهو على مائدة الطعام فامتلأت أوانى الطعام من دمه ورفعوا رؤسهما على جريدتين من نخيل الغيط وعادوا الى القاهرة وهم فى ضجة وجلبة وطافوا بهما الشوارع وساروا من وسط المدينة الى باب زويلة وعلقوهما هنالك فخاف الناس وأغلقت جميع الحوانيت فى ذلك اليوم وسدت أبواب الدور من خلف وأيقن الناس بوقوع الفتنة واضطرام نارها وأغلقت أبواب المدينة كباب الحسينية وباب النصر وباب البحر وتعطلت جميع الاعمال فكان يوما عبوسا وفى قول ان قتل ابراهيم باشا المذكور كان فى قلعة الدولاب وهو راجع مع من كانوا معه الى القاهرة لما بلغه خبر حضور العسكر لقتله * وكان قد أشار عليه بعض الصناجق بالهروب بحرا وعدم العود الى القاهرة فلم يلتفت لقولهم ولا أخذ بمشورتهم فلحق به العسكر وقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا به فى

الشوارع وعبثوا وأفسدوا فى ذلك اليوم وفعلوا مالاخير فيه فكانت مدة تصرف ابراهيم باشا المذكور فى الولاية أربعة أشهر وثمانية أيام لاغير وقد نظم بعضهم تاريخا فى موته فقال

ان ابراهيم باشا * قدسعى فى الخير سعيا
قتله قد أرخوه * وأرى التاريخ بغيا

سنة ١٠١٣

ولما قتلوه على الصورة المتقدمة أقاموا قاضى القضاة عزمى زاده واليا بعده فى ثالث جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة بعد الالف وقد كانوا أرادوا أن يولوا الامير عثمان بك فامتنع ولم يقبل * فلما وصل خبر قتل ابراهيم باشا الى دار السلطنة غضب السلطان ورسم بولاية جرجى محمد باشا الخادم وأمره بقتل الثائرين وقطع دابر جميع من كان له يد فى هذه الثورة فدخل القاهرة فى سابع رجب سنة ثلاث عشرة بعد الالف وأتى الى الصناجق أيضا مرسوم السلطان بماذكر فلما استقر محمد باشا بالقلعة وطلب الامراء ليقرأ عليهم مرسوم السلطان وان يأتوا بأهل الفساد وأصحاب الثورة خاف الامراء وامتنعوا من الصعود الى القلعة واجتمعوا بقراميدان تحت القلعة وتشاوروا طويلا وكان بعض أكابر الدولة يترددون مابين الباشا والصناجق حتى استقرت القاعدة بينهم على تسليم زعماء الثورة والعفو عن الصناجق فسلموهم فأمر الباشا برمى أعناقهم بين يديه فرميت فى الحال وتشتت من بقى من أصحاب الثورة فى البلاد فرارا من وجهه فجد فى طلبهم من الكشاف فمنهم من جئ به حيا فقتل ومنهم من قتله العربان قال بعض كتاب الاخبار فكان ماقتله منهم نيفا ومائتين فى مدة تصرفه وكانت مدة يسيرة اذجاءه الامر بالعودة الى الديار الرومية فسار فى يوم الاحد ثانى عشر ربيع الاول سنة أربع عشرة فكانت مدته سبعة أشهر وسبعة عشر يوما وتقلبت به الاحوال الى أن ولى مسند الصدارة العظمى وكان حازما شهما قوى الجاش حسن التدبير صائب الرأى ذا خبرة بالامور واسع الكلمة مهيبا * وتولى بعده حسن باشا الدفتردار وقد كان واليا على اليمن ثم صرف عنها وقدم منها صحبة الحج الى القاهرة فتردد عليه الناس وزاره الامراء والعلماء والأكابر فشاهدوا منه رجلا عاقلا أديبا محتشما وأقام بالقاهرة أياما كان يبحث فيها عن أحوال البلاد وسير الكشاف ومعاملة أرباب الحل والعقد لاهالى البلاد فوردت الاخبار الى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث ربيع الاول سنة أربع عشرة وألف بولاية حسن باشا المذكور على الديار المصرية وقد كان اذا أتى لزيارة الكبراء والامراء والعظماء توجع لهم مما يشاهده من ضنك الأهالى وفاقة الناس واشتداد الكروب ويقول اذا آتانى الله سبحانه ولاية مصر بذلت فى اصلاح الاحوال مهجتى فلما جاءته الولاية واستقربها لم يمنع ولم ينفع واختلت أموره وقصرت كلمته وعمت البلوى وانقفل فى وجه أصحاب الظلامات باب الشكوى فعاث العسكر فى أيامه وعادوا الى التمرد

مطلب
ولاية جرجى محمد باشا الخادم

مطلب
ولاية حسن باشا الدفتردار

والافساد

مطلب
ولاية الوزير محمد باشا

والافساد فلم يقدر على ردهم فاشتدت الفتنة وظهر أهل الفساد وارتفع الامن وسدت
الطرق فى وجوه أبناء السبيل وقل الوارد من المأكول الى القاهرة ومصر القديمة فغلت
الاسعار وتعذر على الفقراء الحصول على قوت اليوم ولبث الحال على هذا الوصف حتى
صرف عن الولاية فى يوم الاربعاء رابع صفر سنة ست عشرة وألف فكانت مدته سنة
واحدة ونصفا وستة وعشرين يوما ثم ولى بعده الوزير محمد باشا فدخل القاهرة يوم
الخميس خامس عشر صفر الخير سنة ست عشرة وألف وكان حازما عاقلا ذا فكرة وتدبير ساكن
القلب هادئ اللب كثير الصبر والجلد فلما استقرت به الولاية التفت الى أمور البلاد وحاجات
الخلق و بالغ فى ترتيب الاحوال وتأمين السبل وابعاد أهل البغى والفساد وأخذ الكل
بالشبهات فانحرفت لذلك خواطر الامراء عنه وابغضه الجند وكثرت عليه الشكاوى من
جور الكشاف وأخذهم أموال الناس فلما كان غاية جمادى الاولى من السنة المذكورة
استقدم اليه ابن درغت كاشف المنوفية وبرويز مجر كاشف الغربية وكوسى كاشف البحيرة
وعوقهم عنده بقلعة الجبل الى غروب اليوم ثم أمر برمى أعناقهم وولى مكانهم آخرين وأخذ
عليهم العهود والمواثيق أن لايظلموا الرعية ولا يتعدوا الحدود وكان ممن عين لكشافة
الغربية الخلوجى فاتفق انه بعد توليته ذهب الى بولاق القاهرة لقضاء مصلحته فالتقى
بطائفة من العسكر وقد علموا بولايته على اقليم الغربية فسألوا منه حاجة فلم يجبهم اليها
وأغلظ معهم فى القول ونهرهم فاطلق عليه بعضهم طبنجة محشوة بالبارود فانزعج وألقى
بنفسه الى النيل فاثقلته ثيابه فمات غريقا وبلغ الخبر محمد باشا فجمع اليه الأمراء وأكابر
العسكر بالميدان تحت قلعة الجبل ونشروا البيرق السلطانى ونادى منادى من كان مطيعا
لله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وولى الامر فليدخل تحت لواء السلطنة الشريفة
العثمانية فاجتمع عالم كثير من الامراء وأكابر العسكر ومكثوا بالميدان ثلاثة أيام ثم طلع
الامراء الى قلعة الجبل فكلمهم الباشا طويلا فى أمر هؤلاء الخوارج وقد كانوا بعد موت
الخلوجى اجتمعوا خارج سور القاهرة وانضم اليهم طوائف أخرى من العساكر والاجناد
وقسموا بينهم بلاد مصر وأقاموا عليهم سلطانا منهم واختص كل فريق بجهة من جهات
مصر العليا والسفلى وتفرقوا على ذلك فعاثوا وأفسدوا الحرث والنسل وسدوا الطرق وقطعوا
السبل ومنعوا ورود الاقوات الى القاهرة فاستقرت القاعدة مابين محمد باشا والامراء فى ذلك
اليوم على الخروج بطائفة من الجند لقتالهم فخرجوا واقتتلوا معهم قتالا شديدا وظفروا
بهم ومزقوا شملهم وقبضوا على زعمائهم وأصحاب الكلمة منهم وقدموهم الى محمد باشا فأمر
بقتلهم بين يديه وتتبع الجند من بقى منهم فى المدن والقرى وابادوهم الا من طال عمره
وخمدت نار الثورة ثم لم تكد تطمئن خواطر الخلق حتى ظهر جماعة من لموم الاشقياء فى أوائل
القعدة سنة سبع عشرة وألف واجتمعوا من الاقاليم القبلية والبحرية وتألفوا حزبا واحدا
وحلفوا لمن بقى من متشردى اولئك العسكر بعد الواقعة الأولى على الأخذ بثارهم وقطع

دابر الامراء وأكابر الدولة ونصبوا خيامهم بالمرج والزيات وتحالفوا على الهجوم والقتال فلما علم محمد باشا بخروجهم أرسل لهم جماعة من الاختيارية الموصوفين بالعقل والتجربة فوعظوهم وحذروهم عاقبة هذا الامر فلم ينتهوا فعادوا وأخبروا الباشا بما كان فجمع الباشا طوائف العربان ومشايخها من الاقاليم وجميع العساكر والاجناد وجيش منهم جيشا عظيما مدججا بالسلاح وآلات الحرب وعدة من المدافع وجعل مقدمه الامير مصطفى بك سردار العساكر فسار مصطفى بك بهذا الجيش لقتال الخوارج فلما وصل الى بركة الحاج تراءى الجمعان فاقتتلا قتالا شديدا وظفر بهم مصطفى بك وضيق عليهم المسالك فطلبوا الامان واختلط الجيشان فقبضوا على أشرارهم ومقدميهم وهرب من خلص منهم فتبعتهم العربان وقتلتهم وعاد مصطفى بك الى القاهرة بمن معه من الخوارج وهم مشاة حفاة حاسرو الرؤس مكبلون بالحديد ورؤس القتلى مرفوعة على الرماح ودخلوا جميعا من باب النصر والناس ينظرون اليهم ومروا بالقصبة الى أن وصلوا الى القلعة فلما مثلوا بين يدى محمد باشا أمر بجماعة منهم فقتلوا فى ساعة وصولهم والباقى منهم قتل فى ليلة وصوله وألقوا جثثهم فى النيل ثم أخذوا يتتبعون اثر من بقى منهم فكانوا اذا عثروا بأحد نفوه الى اليمن وما زالوا حتى لم يبق منهم أحد وصفت الحال وسكنت خواطر الخلق واطمأنت قلوب سكان مصر والقاهرة • ووجه الباشا عنايته الى ترتيب خراج البلاد وابطال الكلف والمغارم وتخفيف الضرائب وابطال طريقة جباية الاموال التى كانت جارية من عهد دولة المماليك الشراكسة ورسم بجبايتها على ما جاء فى حكم السلطان سليمان الموقع فى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وكان شفوقا بالرعية محبا للضعفاء آخذا بناصر المظلوم نافذ الكلمة لا يرد له أمر وما زال محفوظا الى ان اختار العود الى دار السلطنة وتنزيل نفسه عن ولاية مصر فخرج فى يوم السبت ثانى جمادى الآخرة سنة عشرين وألف فى جلالة وموكب عظيم ما تخلف عنه أحد من العسكر والاجناد والامراء فكانت مدة تصرفه أربع سنوات وأربعة أشهر واثنى عشر يوما وعمر فى ولايته جملة مبان وعدة عمارات بثغر رشيد وأخذ الجزر المقابلة لرشيد وأطيانا بالمنوفية والجيزة وعمل مصاية بطريق الحاج فلما بلغ دار السلطنة ولى مسند الصدارة ثم أرسل بجيش جرار لقتال ملك فارس فلم يقارن أعماله توفيق ولم ينجح له تدبير وعاد مهزوما فولاه السلطان ولاية حلب فأقام بها قليلا ومات

مطلب
ولاية حاجى باشا وخلعه وولاية محمد باشا المعروف بالصوفى

فتولى بعده على مصر حاجى باشا بأمر سلطانى أحضره اليه محمد باشا قبل سفره الى الديار الرومية وسلمه اياه بمدينة بلبيس فى يوم السبت ثالث رجب سنة عشرين وألف ودخل القاهرة وتصرف لغاية يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة المذكورة فكانت مدته شهرا واحدا وسبعة عشر يوما وتولى بعده محمد باشا المعروف بالصوفى ودخل القاهرة فى ثانى عشرى شعبان وجعل يتصرف فى الامور فكان ظاهره اللين والرفق بالرعية وتأمين السبل وقطع شأفة أهل الفتن والفساد فلما كان فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وألف قدمت الى مصر طائفة من عسكر الدولة يبلغون زهاء أربعة آلاف غير

الاتباع

الاتباع وكان السبب فى قدومهم انهم ثاروا على الدولة وخرجوا عن طاعة كبارهم وكادت
فتنهم تعم فدبر الصدر الاعظم فى ابعادهم الى مصر وأشاع بينهم انه يريد بقاءهم بها رباطا
مستديما فلما وصلوا الى القاهرة أتى الى محمد باشا مرسوم سلطانى بتجهيزهم الى بلاد اليمن
وامدادهم بما يلزم من المؤن والعلائف ودواب الحمل قدر الاستطاعة فلما تحققوا انها مكيدة
عصوا وتمردوا فأعلمهم محمد باشا بالخروج بعد ان صرف لهم جوامك السفر وسير معهم
قندق بك أحد الامراء ليسير بهم الى مدينة السويس فبرز قندق بوطاقه يوم ثالث عشرى
ربيع الآخر من السنة المذكورة فسر الوطاق بباب زويلة ثم الى باب النصر وكان به
أولئك العسكر فقاموا عليه ورموا بالخيام من فوق ظهور الجمال ومنعوهم من الخروج
وهاجوا وماجوا ونادوا بالويل والثبور على السلطان ورجال دولته فوصل الخبر الى
محمد باشا فجمع من وجد عنده اذذاك من العسكر ورسم الى قندق بك بالخروج الى
الريدانية بالعسكر واجهار النداء بأن جميع العسكر الذين قدموا من دار السلطنة
يخرجون صحبة السردار المعين ومن خالف قبض عليه وجوزى فامتنعوا جميعا وأغلقوا
بابى النصر والفتوح ورموا خلف البابين بالاحجار وتحفظوا من كل جانب ومنعوا كبارهم
من الخروج الى الريدانية والطلوع الى الديوان ونصبوا حواجز بالشوارع الموصلة اليهم
وتحصنوا بكثير من المتاريس وصعد جماعة منهم الى أعالى الخانات والربوع والبيوت
والجوامع والمنارات وهم ينتظرون من يقدم عليهم فلما بلغ محمد باشا خبر هذا التحصين
وان لا طاقة لقندق بك ومن معه على اخضاع أولئك الخوارج جمع الصناجق والكشاف
ومقدمى الخفر بميدان الرميلة وتشاوروا فى الامر فاستقرت القاعدة بينهم على ان يسيروا
اليهم فساروا فلما عاين الخوارج ذلك الجمع اذعنوا للطاعة وأجابوا ورفعوا الحصار وأزالوا
المتاريس وفتحوا الابواب وطلبوا الامان ودواب الحمل فأحضروا لهم مايزيد عن ثمانين جملا
فلما وصلت اليهم الجمال عادوا الى العصيان وضربوا الجمال بالسيوف فنفرت وتشردت
وقفلوا الابواب ثانية وعادوا الى أقوى مما كانوا عليه من التحصين وشاع الخبر بأنهم قتلوا
كبارهم ولم يبقوا على أحد فأمر محمد باشا السردار بالخروج فخرج ومعه جمع كبير من
الامراء والاجناد واثنى عشر من كبار الامراء وطائفة من حارة الفوالة وساروا الى الخوارج
بستة مدافع كبار محشوة بالفلوس الجدد والمسامير ونودى للرعايا الملاصقين لاماكنهم وبيوتهم
بغلق الحوانيت والبيوت فلما وصلوا اليهم وجدوهم متيقظين مصطفين بعلو الاسطحة والمآذن
فلما تراءى الجمعان التحم القتال فكان كل ماألقى العسكر من الرصاص و النشاب والاحجار
لايصل الى الخوارج لعلوهم على العسكر وكلما ألقاهم على العساكر نال منهم فقتل من
العساكر سبعة فهال مقدم عسكر الوالى هذا الامر وخشى استفحال أمر هذه الفتنة وقد
اشتد رمى الخوارج وتتابع على العسكر فجعل مقدم عسكر الوالى يتدبر فى الوصول اليهم من
وكالة البطيخ وما زال حتى اتصل اليهم بجماعة من العسكر واتصل الامير قاسم والامير عبدى

من خلفهم وتقدم الامير يوسف الغاص بأصحابه فرفع الحواجز والمتاريس ونقبوا عليهم أماكنهم ودخلوا عليهم فلما اشتد الحال عليهم ولم يجدوا لهم قوة على القتال وعلموا أنهم مأخوذون لامحالة طلبوا الامان وأجابوا بالامتثال فى السفر الى حيث شاء الباشا فأخرجوا جميعا ولم يتخلف منهم أحد وسيروا بهم الى السويس وزالت الفتنة وسكن الحال واطمأنت خواطر الناس وعادت جميع الامور الى سابق مجراها * وسار محمد باشا فى الرعية سيرة حسنة وكان شفوقا عليهم ميالا لخيرهم فرفع كثيرا من المغارم القديمة وأبطل بعض المكوس الفادحة وكان يجلس بنفسه للنظر فى مصالح الخلق ويوقع على مايرفع اليه من القصص فزالت فى أيامه القلاقل والفتن ودرت الارزاق وحصل رخاء عظيم حتى بيع الاردب القمح بخمسة وعشرين نصفا فاويا نحاسا والفول كل اردب بخمسة عشر نصفا والعدس والبسلة كل اردب بثمانية عشر نصفا وكثر وارد المأكولات وتنازلت أثمان غير ماذكر ففرح الناس فرحا عظيما ومالوا اليه بقلوبهم وأحبوه محبة عظيمة * فلما كان فى يوم الاربعاء عاشر ربيع الاول سنة سبع وعشرين وألف ورد مرسوم سلطانى بصرف محمد باشا عن ولايته فكانت مدتها ثلاثسنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوما فحزن الناس عليه كثيرا * وولى بعده أحمد باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر ربيع الاول سنة سبع وعشرين وألف فى موكب عظيم مشى فيه جميع العساكر والاجناد وهو على فرس وعلى رأسه عمامة بريشتين قيل ان قيمة كل ريشة منهما ألف دينار فلما وصل بموكبه الى الجواخين سقط على فرسه حجر من طاقة بيت بالربع الذى يعلو حوانيت الجواخين فألقى احدى الريشتين على الارض ومزق جانبا من القماش فقبض فى الحال على من ألقى الحجر فتطير أحمد باشا من ذلك وأمر برمى عنق الرجل فرموا عنقه وكان الرجل يوصف بخبال العقل وما زال فى موكبه حتى صعد الى قلعة الجبل واحتجب أياما لا يراه أحد ثم جلس للناس وتصرف فى الامور فكان حاكما سياسيا صاحب تدبير سهلا فى أموره قريبا من الناس ليس عنده تحجب ولا غلظة محبا لخير الرعية ميالا لاسعاد البلاد فكان يأتى الى أحسن الامور من أبوابها حتى اجتمعت القلوب على محبته واتحدت على طاعته وهابه الحكام وخافه الولاة والكشاف وساروا بسيرته الا القليل وعمت الراحة أفراد الرعية وراجت أسباب الزراعة وكثرت غلات البلاد كثرة عظيمة

مطلب
ولاية احمد باشا الدفتردار

فلما كان شهر شوال وردت الاخبار الى أحمد باشا بموت السلطان أحمد مات فى اليوم العاشر من القعدة سنة سبع وعشرين وألف حتف أنفه وهو آخر السلالة المتصلة من عمود هذا النسب وكان عادلا محبا للخير أرسل الى حرم صاحب الشريعة الاسلامية حجرا من الماس قيمته يومئذ اثنا عشر ألف دينار وأكثر ورسم بأن يوضع فى الحجرة وهو موجود الى الآن وأرسل أيضا جملة هدايا وتحف وميزابا من الفضة مموها بالذهب فوضع موضع الميزاب العتيق قبل وله خيرات أخرى كثيرة وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة

واربعة

وأربعة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أخو السلطان أحمد المشار اليه

ومات فى سلطنته متاوس بطرك المتأصلين بعد ان أقام ثلاث عشرة سنة وكانت أيامه كلها هادئة مطمئنة فأقيم بعده غبريال وهو حادى تسعيهم فأقام ثمان سنوات ومات فأقيم بعده ميخائيل وهو ثانى تسعيهم وكان تقيا فاضلا متواضعا فلم تطل مدته غير سنة واحدة ومات فأقيم بعده يوحنا وهو ثالث تسعيهم وأصله من بلدة نقادة من صعيد مصر وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل السابع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أول من ارتقى على سرير السلطنة من اخوة ملوك بنى عثمان بويع له بالملك ثالث عشرى ذى القعدة سنة سبع وعشرين وألف هجرية أى سنة سبع عشرة وستمائة وألف ميلادية وكان فى مدة سلطنة أخيه أحمد مقيما فى محل داخل السراى السلطانى ممنوع التصرف والاجتماع بالناس لايمكن من الخروج من مكانه وعنده بعض صبيان يخدمونه قيل وهو موصوف بالصلاح والتقوى لاالتفات له الى سلطنة ولا الى تصرف فى أمر من الامور وكان كلما اجتمع بأخيه السلطان أحمد يقول له لاحاجة لى بسلطنة مطلقا وكان يقال ان السلطان أحمد كلما خطر بفكره شئ من قبل أخيه السلطان مصطفى كان مصطفى يقول له ارجع بالأحد عما تقصده قيل فكان ذلك سببا للكف عنه فلما تولى السلطنة ظهر عجزه اذ كان ضعيف الرأى منبوذ الكلمة لاهيبة له ولا وقار مغلوبا على أمره والكلمة لوزيره الاعظم واتفق عقب توليته بأيام ان هرب أحد أشراف بولونيا وكان معتقلا فى دار السلطنة بعد الحرب التى أخذ فيها أسيرا وكان هروبه بمساعدة سفير دولة الفرنسيس فى دار السلطنة فأستكبر الصدر الاعظم هذا الامر وأعظمه وأمر فقبضوا على السفير وكاتبه وترجمانه وألقوهم جميعا فى السجن ووصل الخبر بذلك الى عاصمة الفرنسيس فهاجوا وماجوا وكادت الحرب تقوم على ساقها وبالغت دولة الفرنسيس فى التهديد والوعيد والتأهب والاستعداد وكثر الاخذ والرد بين الفريقين أياما ثم كان من أمر ذلك ماسيذكر فى سلطنة السلطان عثمان خان الثانى

واستمر أحمد باشا الدفتردار يتصرف فى ولاية مصر لاراد لكلمته ولامانع لامره وقد شافه الجند وهابه العسكر فاعتنى بأمرهم واهتم بصرف مرتباتهم وجماكيهم وعلوفاتهم فساروا

سيرة حسنة وانكفوا عن الايذاء والشر وأمسوا وهم طوع أمره ثم ورد الى الباشا المشار اليه مرسوم السلطان بأن يجيش نحو ألف من العسكر المصرى نجدة لعسكر السلطان القائم الى اليمن لقتال الخوارج من الزيديين وقيل لقتال ملك فارس فأرسلهم صحبة الامير صالح بك أمير الحاج وزودهم بالمال والسلاح والعلوفة فساروا ومروا بالاقاليم المصرية ولم يقع منهم شئ ولا لحق بالاهالى من مرورهم ضرر وقد كان قبل ذلك إذا مر عشرة منهم بقرية أومدينة عاثوا فيها وأقلقوا راحة أهلها وأهلكوا الحرث والنسل وفعلوا مالا خير فيه فلما فرق فيهم المال نال الرجل منهم عشرين دينارا وبينما هو يتصرف فى الامور على ما ألفه من العدل واغاثة الملهوف اذ جاءه الخبر بخلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان * وتحرير الخبر * أنه لما كان السلطان مصطفى ممن تربى فى حجر الانزواء وكانت أحواله مخالفة للمألوف من حال الزمان وكان مغلوبا على أمره كما تقدم القول لم تطل مدة تصرفه سوى ثلاثة أشهر وعشرة أيام ثم قام عليه كبار الدولة وأصحاب الكلمة ومنهم شيخ الاسلام وقظلار أغاسى السراى السلطانية وبعض الحرم فخلعوه ليلة الاربعاء ثالث ربيع الاول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية ثم أودع فى جب داخل السراى * قال بعض الكتاب وسد عليه بابه ماعدا روزنة لطيفة ينزل منها الطعام والشراب وولوا بدله السلطان عثمان ابن السلطان محمدخان الثانى

(الفصل الثامن)

(فى سلطنة السلطان عثمان بن السلطان محمدخان الثانى)

ثم قام بالامر بعد السلطان مصطفى السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى بويع بالملك يوم الاربعاء ثالث ربيع الاول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية أى سنة تسع عشرة وستمائة وألف ميلادية وله من العمر احدى عشرة سنة لاغير * قال بعض أصحاب التاريخ فكان مع صغر سنه واسع الفكر هماما ذاهبة فأول عمل بدأ به هو أنه أمر فأطلقوا سفير الفرنسيس وكاتبه وترجمانه من الحبس وسير الى ملك الفرنسيس وهو يومئذ الملك لويز الثالث عشر رسولا يستعطفه ويستميله الى الصفح فأجابه الى ذلك وعادت الامور بين البلادين الى سابق مجراها فعهد السلطان بعد ذلك الى اصلاح ما فسد من أحوال الدولة ودفع ما استولى على جميع أمورها من الخلل فلم يتمكن لخروج العساكر عن الطاعة وتطرق الفساد الى جميع المصالح وأخذ الاوغاد والاغرار بزمام جميع الامور وتصدرهم فى الوظائف العالية والمراتب السامية ومع ذلك فان هذه الشوائب لم تقعده عن الغزو وفتح المدن والبلدان فتأهب لقتال مملكة بولونيا وجعلها حدا بين أملاكه وأملاك الروس وجيش لذلك الجيوش وأعد المعدات وخاف ان يترك أخاه الامير محمدا فى دار السلطنة فينازعه فى الملك فأمر بقتله صبرا

وكان

وكان الى هـذا الحين لايبرم أمرا فى دار السلطنة الاباشارة مفتيها ولا يتم للسلطان ورجال الدولة عـل الا برأيه فكان يعـزل ويولى من يشاء من الولاة والحكام ويمضى الاحكام بـلا معارض ولا منازع نخاف السلطان منه وخشى من تركه فى دار السلطنة على هذا الحال من نفوذ الكلمة وبسط اليد لاسيما وقد كان الانكشارية لايقفون عند حـد وقد تفشى الخلل والفسـاد بين كبارهم وصغارهم فنزع منه ذلك النفوذ وأبعد عنه تلك الهيبة وأوقفه عند حد الافتـاء لاغير ليأمن شره وسـير فى طلب أحـمد باشا الدفتردار والى ديار مصر فجاءه المرسوم السـلطانى بالانصراف عن الولاية فانصرف عنها فى يوم الخميس ثالث عشر صـفر سنة تسع وعشرين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنتين واحد عشر شهرا وثلاثة أيام كلها اسعاد وبركة وخـير ورفاهـية على البـلاد وأهلها

مطلب
ولاية مصطفى باشا السلحدار

وولى بعده مصطفى باشا السلحدار فدخل القـاهرة فى ثالث عشر صفر من السنة ثم سار السـلطان بجيوشـه لغزو مملكة پولونيا فالتقى الجمعان واقتـتـلا قتالا عنيفا للغاية ولمـا كانت طوائف الانكشارية مضـطربة الاحوال ناقة على السلطان تقاعسـت عن الحرب وأظهرت الملل وطلبت مخابرة البولونيـين فى تقرير قاعـدة للصلح والكف عن القتال فمانع السـلطان فى ذلك وأبى الا القتـال حتى يتم له النصر فلم يفلح وأبى الانكشـارية الا عقـد الصلح وألحوا فى الطلب وبالغوا فى التهـديد فتقرر الصلح بين الفريقين وعاد الانكشارية الى دار السلطنة الى ان كان من أمرهم ماسيتلى عليك فى موضعه ● ولمـا عاد السلطان الى القسطنطينية خلع مصطفى باشا عن ولاية الديار المصرية أخريات سـنة تسع وعشرين فكانت مدة تصرفه سنة الا شهرا لم يأت فيها من الاعمال شئ يذكر فانه كان ضعيف الرأى خامل الفكر كثير التعجب والانزواء ● وولى بعده جعفر باشا وكان جعفر باشا هذا لمـا قدم من اليمن أقام بالقـاهرة أياما والناس يترددون عليه فكان ذاعلم وفضل ومشاركة فى غالب العلوم العاليـة وابحاث جيـدة فلما رأى اقبال النـاس عليه وميـل قلوبهم اليه طمع فى الولاية فأرسـل الى دار السلطنة التماسا بذلك ولبث ينتظر الجواب وكان لما علم مصطفى باشا بذلك خشى الفتنة وساءه مافعـله جعفر باشا فأرسل اليه بعض كبار الامراء يحثه على الرحيل عن مصر ويعلمه شر عاقبة البقاء فامتنع أولا ثم عاد فأذعن وسافر برا فى نفر من أتباعه وحاشيته ولكنه لم يلبث ان عاد بمرسوم الولاية فخرج لاستقباله الامراء والعلماء وأكابر الدولة وكبار العسكر ودخل القاهرة فى موكب لم يعهد له مثيل وفرح العامة والخاصة بقدومه وكان دخوله القاهرة فى أواسط صفر سنة ثمان وعشرين وألف كما تقـدم القول فـلم يسـتقر به المقام حتى فشا الطاعون بمصر والقاهرة ثم عم جميع القرى والمـدن وكثر الموات فى النـاس واشـتد اشـتدادا عظيما فقـفلت الاسواق بمصر والقاهـرة قال بعض كتاب الاخبار الا أسواق الاكفان فلم تقفل ليلا ولا نهارا ومنع جعفر باشا عامل الاموات من التعرض للأموات فكان الناس يدفنون موتاهم بغـير اذن فى الليـل والنهار

مطلب
ولاية جعفر باشا

واستمر الحال على هذه الشدة نحو الشهرين مات فيهما خلق كثير لايكاد يدخل تحت حصر ثم ارتفع الموات وزال فسكنت القلوب واطمأنت الخواطر وكره الناس جعفر باشا وتطيروا من ولايته وحسبوها شؤما على البلاد * فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف جاء مرسوم السلطان بالعزل فسافر بحرا الى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه ستة أشهر وأياما قال بعض كتاب الاخبار فلم يقم بالديار الرومية الا أشهرا قلائل ومات فعاد ولده الى مصر وعاش بها فقيرا وليس له من يسأل عنه

مطلب ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى عاشر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف فلم تستقر به الولاية حتى جار وظلم وضرب المغارم والمكوس وأكثر من جمع الأموال بجميع وسائل العسف والقهر وشدد على أصحاب الأموال وضيق وهدد وبالغ فى الارهاب فكثر الوشاة وأصحاب السعاية على بابه يتقاولون له أخبار الناس فضاقت أحوال أصحاب الأموال واختلت جميع الأمور فكان من وشى به اليه وبذل ماطلبه منه سلم ومن تقاعس ولم يبذل حقر وأخذ منه أكثر مما طلب منه قال بعض كتاب الأخبار وتتبع أثر مصطفى بك اليقجلى زعيم ثورة الجند التى حصلت على عهد مصطفى باشا وقبض عليه وقتله بيده فظن الناس قيام الفتنة بسببه وتمنوا ذلك فلم يحصل فكبر خوفهم منه ورفعوا ظلامتهم الى دار السلطنة وضجوا وطلبوا خلعه فجاء مرسوم السلطان بخلعه فى ثالث رمضان سنة تسع وعشرين وألف فكانت مدة تصرفه سنة الا ثلاثة أيام

مطلب ولاية حسين باشا

وتولى بعده حسين باشا فى ثالث عشرى الشهر المذكور ووصل الى القاهرة وأدرك مصطفى باشا المعزول قبل سفره فمنعه من السفر وأنزله من قلعة الجبل الى بيت مراد باشا بالسبع قاعات بالقاهرة وجعل على بابه الحرس وتركه على هذا الحال أياما ثم طلبه فلم يجده وكان قد تخلص بتدبير أحد كبار الدولة وسار الى الديار الرومية فتبعه كثير ممن صادرهم وأخذ أموالهم فادعوا عليه ونالوا منه وأخذوا جميع ما كان اغتاله منهم وسار حسين باشا الوالى الجديد سيرة حسنة للغاية فأبطل بعض المغارم والمكوس المستحدثة على أيام مصطفى باشا ورتب أمور الدولة وأحكم نظام مااختل منها أيام أسلافه ووقع فى أيامه غلاء عام حتى بيع إردب القمح بالكيل المصرى بمائتى نصف فضة والشعير بمائة وعشرين نصفا والفول بمائة وستين نصفا وكذلك بقية الغلال فكانت شدة عظيمة للغاية * ثم زادالنيل زيادة فوق الحد وعم جميع الارض وثبت على الزيادة فوق جميع الاراضى لغاية شهر هاتور القبطى حتى كاد الناس ييأسون من زرع الأرض ثم هبط فتمكنوا من الزرع ولكنه لم يأت الا بما قل من المحصول وضربت على الناس فى أيامه أيضا ضريبة جديدة هى ضريبة النطرون وقد فرضت على جميع المدن والثغور فتألم الناس منها وراجعوه فى رفعها فلم يرض فانحرفت الخواطر عنه وابتعدت القلوب ونقموا عليه وظهر الخلل فى جميع أمور الدولة واستخف الناس بحرمته وزالت عنهم هيبته فعاد أهل الفساد فى جميع المدن

والقرى

مطلب
ولاية محمد باشا البستنجي

والقرى للعبث وكاد يستفحل أمرهم فلما كان عاشر ربيع الآخر سنة احدى وثلاثين وألف جاء مرسوم السلطان بعزله فكانت مدة تصرفه سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام

وولى بعده محمد باشا البستنجي فى حادى عشرى ربيع الآخر ولكنه لم يقدم الى مصر لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان عثمان وخلعهم اياه ثم سجنه ثم قتله فناب عنه فى الولاية على مصر حسن افندى الدفتردار * قال أصحاب التاريخ لما ظهر عصيان الانكشارية أيام قتال البولونيين امام مدينة شوك ثم واكراههم السلطان عثمان على عقد الصلح مع البولونيين والكف عن القتال والحاحهم فى ذلك عاد السلطان الى القسطنطينية وقلبه يلتهب غيظا وأقسم ان يستأصل الانكشارية ويمحو آثارهم عن وجه الأرض فرسم من هذا الحين بجمع عسكر جديد فى بعض عمالات آسية وجعل يعد لهم المعدات ويبالغ فى اتقانهم وتنظيمهم فأحس الانكشارية بذلك وعلموا ماوراء التقاعد والسكوت فقاموا على قدم واتحدوا على خلع السلطان فخلعوا بيعته فى التاسع من رجب سنة احدى وثلاثين وألف هجرية ودخلوا عليه فى قصره وهو بين نسائه وجواريه وقبضوا عليه وأخذوه قهرا الى محلتهم وسبوه باقبح السب والشتم ثم نقلوه الى قلعة يدى قله فلبثبها يوما وبعض يوم ثم دخل عليه جماعة من كبار الدولة وأصحاب الفتنة فقتلوه ونادوا بولاية السلطان مصطفى الأول ثانية بعده وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فكانت سلطنة السلطان عثمان أربع سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام وكان جليل القدر واسع المعرفة كبير السياسة عظيما شديدا فى الحروب عظيم التدبير ومع هذا كله فانه لم يفلح مع جماعة الانكشارية ولم يقدر على ابادتهم كما كان يتمنى

ومات فى سلطنة السلطان عثمان يوحنا بطرك المتاصلين فكانت أيامه كلها شدة وعناء وضيق وفناء ومصائب واحن ومحن ذاق فيها القبطة من جور العمال وظلم الحكام وعسفهم أشكالا وكانت مدة تصرفه ثلاث سنوات فاقيم بعده يوحنا وهو رابع تسعيهم وأصله من بلدة صدفة يعرف بابن المصرى وكان تقيا ورعا كثير الصدقة مهيبا محبوبا ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل التاسع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانية)

ثم تم الأمر بعد قتل السلطان عثمان السلطان مصطفى ارجعوه الى تخت الملك ثانى يوم قتل السلطان عثمان فى ثامن رجب سنة احدى وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثمان

وأربعين وستمائة وألف ميلادية ولم تستقر به السلطنة حتى قامت الفتنة واشتد لهيبها فانه لما تم لطوائف الانكشارية ماأرادوه من خلع السلطان عثمان وقتله كثر استخفافهم بالامور واستصغارهم لكبار الدولة ورجال السلطنة فعاثوا فى القسطنطينية وأفسدوا وصاروا يعزلون ويولون من يشاؤن من الوزراء وكبار الدولة ويبيعون الوظائف جهارا ويقبضون على من يتوسمون فيه سمة الانكار حتى اختلت جميع الامور وفسد نظام الدولة وزالت هيبة السلطنة وظهر الاوغاد وأسافل الناس وقبضوا على زمام الأمور واشتد الكرب وسرت نار الفتنة الى جميع العمالات التابعة لدار السلطنة فنهض والى طرابلس الشام ووالى ارضروم الى شق عصا الطاعة وركب والى ارضروم فى عسكر عظيم للغاية ونادى بالثارات عثمان ونزل على مدينتى سيواس وانقره وفتحهما واعمل السيف فمن كان فيهما من طوائف الانكشارية وضبط أموالهم وأرزاقهم ثم سار الى مدينة بروسة وقد تبعه والى سيواس ووالى سنجق قره شهر فحاصروها وأقاموا على حصارها ثلاثة أشهر حتى دخلوها عنوة ووردت الاخبار بذلك الى القسطنطينية فلم يلتفت اليها لاشتغال طوائف الانكشارية بالنهب والسلب والقتل واراقة الدماء فلما وطل الحال على ذلك من الخلل والارتباك سنة ونصف سنة والناس فى ضيق ماعليه من مزيد ثم اجتمع رجال الدولة واتحدت كلمتهم على تولية على باشا كما نكش منصب الصدارة وتفويض الأمور اليه لعله يتمكن بخبرته من ارجاع الامور الى سابق مجراها فتولى المنصب وجعل يتصرف فى الامور ويدبر الاحوال جهد الاستطاعة ويعمل على اعادة الامن الى داخلية البلاد ويدفع غارات الانكشارية عن أهلها بالتى هى أحسن حتى كان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى محله * ولم تثبت نيابة حسن افندى الدفتردار فى ولاية مصر عن محمد باشا البستانجى فقد صرف محمد باشا المذكور عن الولاية قبل أن يقدم الى مصر فكانت مدة تصرف حسن افندى الدفتردار أربعة أشهر وسبعة أيام

مطلب
ولاية ابراهيم باشا السلحدار

ثم تولاها ابراهيم باشا السلحدار ودخل الى رشيد فى يوم الجمعة ثانى عشرى شعبان سنة احدى وثلاثين وألف ووصل الى القاهرة فى أوائل رمضان من السنة وكان ذا فكر ومهابة واسع الدراية صاحب تدبير ولكنه كان محبا للمال والكسب بكل مايتصل اليه قدرته واتفق انه وقع فى أيامه غلاء زائد جدا فجاء الناس من الاقطار الحجازية والديار الشامية ومن غزة وغيرها الى مصر ليمتاروا فمن كان ذامال امتار مايحتاج اليه ورجع الى أهله ومن لا مال معه وله قدرة على الكسب أو الخدمة صار يقتات من خدمته أو كسبه ومن لامال له ولا قدرة له على الكسب ولا الخدمة صار يستعطى حتى امتلأت مصر وقراها منهم فكان مابيع فى مصر والمدن والكفور والثغور والقرى من القمح والفول والعدس والشعير وبقية الحبوب شيأ كثيرا جدا لايكاد يدخل تحت حصر * ولما طالت أيام ابراهيم باشا تغيرت أحواله وتزايد جوره وجور اتباعه وكثرت على الناس طلباته وطلبات اتباعه فكانت له تجارة واسعة فى بن القهوة يأتيه من اليمن فى كل عام فكان يلزمه التجار ومشايخ الاسواق فحصل لهم بسبب

ذلك

ذلك خسارة عظيمة فشكوا اليه فلم يلتفت لشكواهم فرفعوا ظلامتهم الى بعض كبار الدولة فتحزبك عليه جماعة منهم ومنعوه من ذلك فانحط قدره وقصرت كلمته وبقى مقهورا مدحورا الى أن صرف عن الولاية فى يوم الاربعاء سابع رمضان سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة عشر يوما

مطلب
ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى الثانى والعشرون من رمضان فلما صعد الى قلعة الجبل أتى اليه كتبة الديوان يشكون من ابراهيم باشا المعزول وقالوا انه أخذ من مال الخزينة السلطانية أموالا جزيلة فسير مصطفى باشا فى اثره جماعة من العسكر فالتقوا به فتهددهم فرجعوا وأخبروا بما كان فسير اليه مصطفى باشا الامير صالح بك فادركه وقد نزل الصر عند الاسكندرية فسأله أن يتربص فقال انى سائر الى دار السلطنة فاذا كان على الخزينة شئ دفعته هناك فألح عليه صالح بك فلم يلتفت لكلامه وأقلعت به المركب فأطلقوا عليه المدافع من طابية منارة الاسكندرية فلم يناله منها ضرر ونجا بما كان معه من الاموال والمتاع وكان شيأ كثيرا فلما وصل الى القسطنطينية لم يصبه من جانب السلطنة شئ لاشتداد الفتنة يومئذ وارتباك الاحوال وتعذر ارجاع الامور الى سابق مجراها وانكماش على باشا الصدر الاعظم ورفضه البقاء فى منصب الصدارة ان بقى السلطان مصطفى فى منصب السلطنة مع ما هو فيه من وهن العزيمة وضعف العقل وعدم الوقوف عند حد فلما رأى رجال الدولة أن لا خلاص من هذه الفتن الا بخلع السلطان قاموا عليه وخلعوه فى يوم السبت الثالث والعشرين من ذى القعدة وقيل فى الخامس والعشرين منه سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية وولوا بدله ابن أخيه السلطان مراد ابن السلطان أحمد فكانت سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة لاغير

(الفصل العاشر)

(فى سلطنة السلطان مراد الرابع ابن السلطان احمد)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان مصطفى ولد أخيه السلطان مراد بويع له بالملك يوم الاحد فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وستمائة وألف ميلادية فكان مغلوبا على أمره لا كلمة له لحداثة سنه اذ كان لايناهز الثانية عشرة من العمر وكانت كلمة الانكشارية فوق كل كلمة ويدهم فوق كل يد فقال أصحاب التاريخ ولما كان كل من يتولى الحل والعقد فى تلك الايام من أهل هذا الاختلال والغش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة واصلاح الامور من المحال وشاع الخبر بذلك عند

ملوك الدول المجاورة وكثر تحدثهم به وكان ممن سره هذا الخلل وافرحه وهن أركان الدولة العثمانية عباس شاه ملك فارس لما كان بين الدولتين من البغضاء والشحناء فاغتنم هذه الفرصة وعمد الى أخذ بعض بلاد الدولة العثمانية وارتجاع ماأخذ من بلاده وسار فى جيش عظيم الى بغداد فحاصرها وكان بها عسكر السلطان فأقام على حصارها حتى احتلها عنوة وأعمل السيف فى أعناق من بها من العسكر السلطانى وقتل جميع كبار الدولة وعظماء الجند ووردت الاخبار بذلك الى القسطنطينية فهال السلطان هذا الامر وأزعجه جدا وكان للصدر الاعظم كثير من الاعداء والخصوم من بطانة السلطان وقرنائه فوشوا به عند السلطان وقالوا ان سقوط دار السلام فى يد العدو انما كان بخيانة الصدر الاعظم فغضب السلطان وأمر بقتله فقبضوا عليه وقتلوه وولى مكانه شركس محمد باشا فلم تطل مدته ومات وتولى الصدارة بعده حافظ باشا

وورد مرسوم السلطان الى مصطفى باشا والى مصر بتثبيته فى مقام الولاية والايعاز اليه بالرفق بالرعية والقيام بما يلزم للحرمين وخروج الحاج فى أوقاته فقرئ بحضرة العلماء والامراء والمشايخ وأخذ مصطفى باشا يتصرف فى الامور ولكنه لم يلبث ان جاءه الامر بالعزل والعود الى الديار الرومية فلما شاع خبر عزله اجتمع طوائف العسكر على عادتهم وساروا الى عيسى بك نائب الغيبة وطلبوا أن يعطيهم العطايا التى كانوا يأخذونها عند تولية الولاة فلم يعطهم ومنعهم من الاتيان الى دوانه فألحوا فى الطلب وكرروا النداء فلم يلتفت اليهم فاجتمعوا وساروا من وسط المدينة وهم يضجون وينادون لانريد أحدا يتولى أمور البلاد غير مصطفى باشا وكان مصطفى باشا بعد أن جاءه الامر بالعزل لبث ينتظر الخلف وما زال الجند يطوفون و ينادون الى أن وصلوا الى قره ميدان فتحالفوا على أن يكونوا جميعا يدا واحدة وقلبا واحدا ووصل الخبر بذلك الى مصطفى باشا ففرح فرحا لايوصف وتقوت عزيمته وكتب الى دار السلطنة يلتمس البقاء على ولاية مصر وكذلك كتب العلماء والمشايخ والقضاة فلم تكد تصل رسل مصطفى باشا الى دار السلطنة حتى وصل الخبر بوصول على باشا الوالى الجديد الى ثغر الاسكندرية فسيروا اليه فى الحال من يعلمه بان الجند وأهل البلاد كافة لاتقبله فبعث هو كتابا الى العسكر وكافة الامراء والاجناد وأعيان البلاد يمتدحهم ويثنى عليهم ويقول أما بعد فانى لم آت الى مصر الا طائعا لامر السلطان الذى يجب على وعلى كل مسلم صحيح الدين طاعته فلما قرئت الكتب على أهل الحل والعقد سيروا اليه ثانية يقولون انا لانقبلك فقبض عند ذلك على الرسل وقيدهم فى سجن قلعة الاسكندرية وكان العسكر المرابطون فيها اخوانا لاولئك الرسل ففكوا فى الحال قيودهم وهجموا جميعا على وطاق على باشا المذكور بسيوفهم وقبضوا عليه وأنزلوه فى مركب وأخرجوه من مينا الاسكندرية وكانت الريح معاكسة فأعادت المركب الى المينا قهرا فأطلق عليه الامير مصطفى امير جند قلعة المنارة

عدة طلقات ثقبت المركب عدة ثقوب ولم تغرقها فخرج القارب من فوره قاصدا الديار الرومية وعاد الرسل الى القاهرة فأخبروا بما جرى ففرح مصطفى باشا بذلك

ولما كان العشرون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين قدم الى القاهرة من الاسكندرية طائر البطاق يحمل الخبر بقرب وصول قاوجى (أى رسول) من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى فبعد أيام قلائل وصل القاوجى المذكور ودخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل وجمع الامراء والعلماء وجميع الصناجق وتلا عليهم الفرمان بتثبيت ولاية مصطفى باشا على مصر اجابة لطلبهم ثم ألبس مصطفى باشا خلعة سنية وقلده سيفا عظيما ففرح الجند بذلك فرحا لا يوصف حيث فازوا بمقصودهم واستقر المنصب بمصطفى باشا فتصرف وعلت كلمته ومالت اليه القلوب وأحبته وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فارتفع الى أربع وعشرين ذراعا وثبت على ذلك أياما فخاف الناس من وقوفه الا أنه هبط بعد ذلك سريعا وانكشفت الاراضى ففرح الناس وأخذوا فى الحرث والبذر * وبينما هم على هذا الحال والقلوب مطمئنة والفتن ساكنة اذ ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر فى أوائل ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وامتد امتدادا سريعا فى جميع المدن والبنادر والقرى وعم البلاد شرقا وغربا فمات به خلق كثير * قال بعض الكتاب كان عدد من مات فى هذا الطاعون نيفا وثلثمائة وألف بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر واشتد اشتدادا عظيما لم يسبق له مثيل ثم أخذ فى التناقص فى شعبان من تلك السنة وارتفع فى أوائل رمضان فتطاولت يد مصطفى باشا الى أخذ تركات ومقتنيات جميع من ماتوا فى هذا الوباء وادعى لنفسه حق التوريث فشكا الوراث من ذلك فلم يسمع منهم فرفعوا أمرهم الى دار السلطنة وأكثروا من الشكوى فجاء الامر بعزله وتولية بيرم باشا بدله فدخل القاهرة فى جمادى الاولى سنة سبع وثلاثين وألف فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور فى المدة الاولى والثانية نحو ثلاث سنين وبضع أشهر * ولما استقر بيرم باشا المقام منع مصطفى باشا من السفر وحجزه فى بيت بالقاهرة ووكل به من يحرسه وحاسبه على مافى ذمته من أموال الخزينة وتركات الاموات وألزمه بارجاع جميع ما أخذه فباع كل متاعه وجميع مقتنياته ودفع ما عليه ورحل الى الديار الرومية ولبث بها الى أواخر سنة سبع وثلاثين ثم أمر السلطان بقتله فقتل

مطلب
ولاية بيرم باشا

وتصرف بيرم باشا فكان يرى فى الجند شدة العناد الذى يكاد يذهب بنفوذه ويحط عرتبته اذ كان تحريشهم لعزل وتولية الولاة والخروج عند أقل سبب وتداخلهم فى أمور الدولة مجلبة للبوار واذهاب رونق النظام الذى أسسه السلطان سليم الفاتح لكل طائفة من الطوائف الحاكمة بديار مصر وقد زاد الجند جراءة وتداخلا تهاون رجال السلطنة واجابتهم الى كل ما يطلبون وعدم الالتفات الى ما ينجم عن ذلك من الخلل والفساد فبذل بيرم باشا جهده فى ترتيب الامور ومنع هذه المضار واعادة نفوذ الدولة الى ما كان عليه قبلا فلم يفلح ولم يتم له الامر الا بقدر الحاجة فاطمأنت مع ذلك قلوب الرعية وسكنت الخواطر المضطربة

بسبب الفتن المتوالية والاحن المتراكم بعضها فوق بعض وراجت أسباب المعاملات وتحسنت التجارة ولكنه أكثر من المكوس والضرائب على أغلب البضائع ولا سيما الصابون فلما كان شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين استدعى بيرم باشا المذكور الى دار السلطنة فسار اليها فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر وتولى بعده محمد باشا الوزير فدخل القاهرة فى أواخر شعبان المذكور وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل وتصرف وجلس للناس على العادة فكان رجلا حازما مهيبا واسع الرأى نافذ الكلمة محتجبا عن الناس لاينزل المدينة ولا يتجول فى الشوارع ولا يزور المتنزهات قيل ولم يظهر فى طرق القاهرة فى مدة تصرفه الا ست مرات وكانت الاحوال فى أيامه هادئة والقلوب مطمئنة وظهرت فى أيامه الفتنة فى بلاد اليمن وخرج أهلها عن الطاعة فعرض على السلطان اخضاعها وتمهيد سبلها وارجاعها الى طاعة الدولة فأجابه السلطان الى ذلك وعهد اليه بالامر فنظم جيشا من العسكر المصرى وبالغ فى تنظيمه وعقد لواءه الى قانصوه بيك أمير الحاج يومئذ فأعجب السلطان ذلك وولى قانصوه بيك المذكور ولاية اليمن واعطاه رتبة الباشاوية فجعل قانصوه المذكور يرتب أمور جيشه ويكثر من معدات الحرب فاجتمع تحت لوائه ثلاثون ألفا وبينهم زهاء الالف من العساكر العثمانية وقد حضروا من دار السلطنة لهذه الغزوة وأخرج قانصوه خزائنه فكانت كثيرة الغاية وبعد ان رتب أمور جيشه على ما أراد انقطع فى داره أياما لغير سبب معلوم ولا أمر ظاهر فأركنت العساكر الى البغى والفساد وعاثت فى الاسواق وأخذت من الباعة سلعها بغير ثمن فكان اذا مانع البائع عن ماله ضربوه وربما قتلوه وتعرضوا للنساء والصبيان فى الطرق والحارات فانكف الناس عن الخروج وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم واحتاج الناس الى الخبز فلم يتيسر الحصول عليه لغلق الحوانيت والافران فضج الناس الى محمد باشا فجمع اليه كبار العسكر العثمانى وكلمهم فى أمر ذلك فكفلوا له الراحة ورد العسكر المصرى عن فعاله وألزموا قانصوه بالخروج والسفر الى اليمن فخرج صاغرا قيل وكان امتناعه لاسباب يطول شرحها وسار بالعسكر وقاتل اليمانيين حتى أخضعهم وأرجعهم الى الطاعة وكان خروجه فى المحرم افتتاح سنة تسع وثلاثين ولبث هنالك يتصرف فى الولاية فلما كان شهر شعبان من السنة جاء الخبر الى محمد باشا والى مصر بأن قد نزل فى الشهر المذكور بمكة سيل عظيم فأغرق معظم أرضها وهدم جميع بنيان البيت الحرام ولم يبق منه الا الجدار الايمن فأبلغ محمد باشا هذا الخبر الى دار السلطنة فعهد اليه السلطان أمر ترميمه فقام بذلك وتوسع فى النفقة فكان ما أنفق عليه مائة ألف قرش رومى

وفى سنة أربعين وألف قصر النيل فى الزيادة وجاء شهر توت ولم يبلغ الستة عشر ذراعا فخاف الناس من حصول القحط فاعتنى محمد باشا بأمر رى الاراضى وتقسيم المياه بقدر الاستطاعة فأمنت البلاد من الجوع وأعطت الاراضى بعض المحصول فاطمأنت القلوب

مطلب
ولاية محمد باشا الوزير

ومالت الى محمد باشا خواطر الرعية وأحبوه وتعلقت آمالهم به ولكنه لم يلبث ان جاء اليه الامر بالقيام الى دار السلطنة فى السنة المذكورة واعتزال المنصب فاعتزله وقام الى الديار الرومية فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر

مطلب ولاية الوزير موسى باشا

وولى بعده الوزير موسى باشا فلما وصل محمد باشا الى القسطنطينية قوبل بأحسن قبول وولاه السلطان مسند الصدارة العظمى ودخل الوزير موسى باشا القاهرة سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وألف فى موكب حافل وكان الناس قد خرجوا لملاقاته عندشبرا وصعد الى قلعة الجبل فى كبكبة فلما استقر به المنصب أطاع هوى النفس فتطاولت يده الى أخذ أموال الناس وقبول الرشاوى والبراطيل فأداه ذلك الى الجور والظلم والعسف بالناس وترصد أحوال الاغنياء من أهل البلاد وبالغ فى التجسس عليهم وتعقب زلات الاكابر منهم وتفنن فى أفانين السلب والنهب جهد الاستطاعة واتفق ان أرسل السلطان يعهد اليه بتجريد حملة من الجند المصرى وتسييرها لقتال ملك فارس فجمع جيشا كبيرا وجعل مقدمه الامير قيطاس ثم فرض على البلاد النفقة لهذه الحملة وبث أصحاب الجباية فطافوا البلاد شرقا وغربا وجمعوا من ذلك مالا جزيلا فلما جاؤا اليه بالمال أخذه لنفسه ولم ينفق منه شيأ فى لوازم الحملة فطالبه قيطاس بيك فقال لاقدرة للبلاد على القيام بنفقة العسكر لاسيما وان الحرب التى أعدت لها هذه الحملة لاتفيد مصرشيأ فراجعه قيطاس بيك وألح عليه فى الطلب وبالغ فى المشددة وكذلك فعل أشياع قيطاس بيك وكان الباشا يكره قيطاس المذكور ويتمنى هلاكه فلما عظم الخلاف بينهما استدعى الباشا قيطاس يوم عيد الاضحى العاشر من الحجة من السنة الى قلعة الجبل فصعد اليه فى نفر قليل من غلمانه فلما دخل قبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه بالسيوف وأنزلوا جثته فى نعش الى بيته بالمدينة وكان ممن تأهب من الامراء المصريين للخروج مع قيطاس بيك لقتال ملك فارس الامير كنعان بيك والامير على بيك فلما جاءهما الخبر بموت قيطاس قاما واجتمعا بكبار الجند وأعلماهم بخبر قيطاس فاجتمع الجند فى الحال بالرميلة تحت قلعة الجبل وحاصروها من كل جانب واجتمع العلماء والمشايخ والقضاة والصناجق وكبار الدولة بجامع السلطان حسن وتناجوا فى الامر واتفقت كلمتهم على خلع موسى باشا المذكور وتولية من يحل محله حتى يأتى أمر السلطان فخلعوه وولوا حسن بيك مكانه وكتبوا الى دار السلطنة بالواقعة وطلبوا صرف موسى باشا وتولية من يصلح فلم يكن بأسرع من أن ورد الخبر بعزله وتولية خليل باشا

مطلب ولاية خليل باشا

فلما كان شهر ربيع الأول سنة احدى وأربعين وألف وصل خليل باشا المذكور الى القاهرة وخرج موسى باشا وهو فى أسوإحال من الخزى والعار فكانت مدة تصرفه نحو سنة الا بضعة أيام وجعل خليل باشا يتصرف فى الأمور فكان جليل القدر عادلا حازما فسكنت فى أيامه الفتن وزالت عن البلاد الرزايا والاحن وأخصبت الأرض وكثرت محصولاتها فهبطت الاسعار وكثر وارد الغلال والمأكولات وفرح الناس بذلك وخرج فى أيامه الشريف

نامى شريف مكة بجماعة من اللصوص فعاثوا فى الأرض ونهبوا مكة فلما جاء الخبر بذلك الى خليل باشا جيش له جيشا عظيما وجعل مقدمه الامير قاسم بيك فسار وقاتل الشريف ومن معه فاستظهر عليه وظفر بزعماء الفتنة وأعمل فيهم السيف ثم عاد ظافرا منصورا فدخل القاهرة فى صفر سنة اثنتين وأربعين فخلع عليه خليل باشا خلعة سنية واتسعت من هذا الحين كلمة خليل باشا وظهر نبله وكبرت هيبته وأحبته الرعية حكى ابن أبى سرور انه جيء الى خليل باشا المذكور يوما بثلاثة من اللصوص قبض عليهم وهم يسرقون فوسم بمحاكمتهم فقال رجل من دوانه ليس فى الأمر مايدعو الى المحاكمة وقد قبض عليهم وهم يسرقون فلا شئ بعد ذلك الا الحكم عليهم بالقصاص فلما سمع خليل باشا مقالته نظر الى أحد أعوانه وقال اذهب الساعة واهدم بناء بيت هذا وأشار الى المتكلم فقال ولماذا أيها الأمير قال اذا كان هدم بيتك المبنى من حطام الدنيا قد دعاك الى معارضتى فكيف يكون حالنا عند ذلك البانى العظيم اذا هدمنا مابناه ظلما قال ناقل الحكاية وأطلق اللصوص فتابوا من ذلك الوقت خوفا من الباشا * وفى أخريات سنة اثنتين وأربعين وألف أزيل خليل باشا المذكور نفسه عن منصب الولاية وكتب الى دار السلطنة بذلك فارسل السلطان يستقدمه فسافر فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر كلها خير وبركة على البلاد وأهلها

مطلب ولاية أحد باشا الجوربجى

وتولى بعده أحد باشا الجوربجى فدخل القاهرة فى موكب حافل وكان قبل ولايته على ديار مصر أميرا خور السلطان مراد فتصرف وجعل يدير الأمور على النحو الذى نحاه خليل باشا فكان حازما كاملا واسع المعرفة باساليب السياسة فلما كان شهر صفر من سنة ثلاث وأربعين جاءه مرسوم سلطانى بتجريد ألف مقاتل من العسكر المصرى ليسيروا مع العسكر المنصور الى قتال طائفة الدروز بلبنان وان يسير معهم أربعة آلاف قنطار من البارود وخمسة آلاف من البقسماط فجيش ذلك الجيش ولم يتم تنظيمه حتى جاءه مرسوم آخر بتجريد ألفين آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود وتسييرهم لغزو ملك فارس فهاله هذا الامر وكتب الى دار السلطنة يقول ان البلاد فى فاقة ولا قدرة لاهلها على القيام بهذه المطالب الجسيمة فبعث اليه السلطان باثنى عشر ألف قنطار من النحاس ليضرب بها سكة ويبعث بدلها الى خزينة السلطان ثلثمائة ألف محبوب ذهبا نفقة لتلك الحروب فجمع لذلك العمال وأعد المعامل ولكنه لم يفلح اذ مات أكثر العمال وعجز من بقى عن القيام بهذا العمل فجمع اليه أهل الديوان وأصحاب الشورى من الأمراء والقضاة والعلماء وشاورهم فى الأمر وقال انه يرى وجوب صرف هذا المال من ماله رحمة بأهل البلاد وأن يجعل ذلك النحاس سبائك صغيرة ويبعث بها الى السودان فتباع فيها وقد رأى أحد القضاة غير ذلك وأن تجبر أهالى القاهرة على أخذ النحاس ودفع مطالب السلطان ثم تقررت القاعدة بينهم على عمل تفريدة على أهالى القاهرة فأقاموا لذلك عمالا وقيدوهم بالعمل فجعلوا يوزعون النحاس

ويجمعون

ويجمعون عوضه الذهب وبدؤا بذلك من السادس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين الى أواخر شعبان من سنة اربع وأربعين فعمت هذه البلوى الغنى والفقير والتاجر والصانع بلا فرق ولا تمييز فكانت من أشد الضربات وبلا وأثقلها حملا فضجوا وعجوا الى الله وقلت النقود ثم امتنعت وارتفعت أسعار المأكولات وغلت غلاء فاحشا جدا وأعقب ذلك تقصير النيل فى وفاء أذرعه المعتادة وتشريق الكثير من الاراضى فاستغاث الناس وانكشف حال المستورين وضاقت الدنيا برحبها فى وجوه الفقراء والمحتاجين وظهرت بعض اصابات بالطاعون بأسباب الجوع ولكنه لم ينتشر ولم تشتد وطأته * فلما أتم الجباة جمع أموال هذه التفريدة طمعت نفس أحمد باشا فأخذها لنفسه ولم يرسل منها شيأ لخزينة السلطان فلم يمض عليه بعد ذلك الا القليل حتى أتاه الطلب من الباب العالى فرحل عن القاهرة فى سلخ القعدة من سنة أربع وأربعين وألف فكانت مدة تصرفه نحو سنتين الا أياما فلما وصل القسطنطينية قام بعض أهالى القاهرة وشكوا أمره الى الباب العالى وطالبوه بما أخذه من المال فى ضريبة النحاس فعين السلطان جماعة لتحقيق ذلك ثم أمر بقتله فقتل

مطلب
ولاية الوزير حسين باشا

وولى بعده الوزير حسين باشا فدخل القاهرة فى الثانى من الحجة سنة اربع وأربعين وألف ومعه طائفة من العسكر من دروز لبنان وهم اخلاط من الاشقياء وقطاع الطرق فلما استقرت به الولاية واستقر بهم المقام جار وجاروا وظلم وظلموا وسلموا أهل البلاد الخسف وأكثروا من قتل الباعة وهدر دماء السوقة لأقل سبب وتعرضوا للسابلة وقطعوا الطرق وتطاولت أيديهم الى نهب أموال الناس بغير ممانع واشتدت مظالم حسين باشا أيضا الى حد لم يسبق له مثيل فكان اذا مات الرجل أرسل اتباعه وأعوانه فيصلون اليه ماله ويحجرون على عقاره فيأخذه لنفسه أيضا ويحرم ورثته وعم فعله هذا جميع المدن والبنادر وكان يكثر التطواف فى الشوارع والحارات راكبا ويقتل فى كل مرة طافها الرجل والرجلين أو أكثر بلا موجب ولا سبب وربما قتل كل ما صادفه من الدواب فى طريقه * قال بعض الكتاب فكان من قتله فى مدة تصرفه زهاء ألفى رجل وكان كثير الاخذ بالشبهات فكثر فى أيامه الوشاة وتزاحم أهل السعاية على بابه فكان اذا وقع بين رجل وآخر مخاصمة وذهب أحدهما ووشى الى الباشا المذكور بأن خصمه من ذوى الاموال قبض عليه الباشا والقاه فى السجن فلا يخرج منه الا بالبذل الكثير وما زال على هذا الحال من القتل والسلب حتى جاءه الامر بالعزل من منصب الولاية فى سلخ القعدة سنة ست واربعين فكانت مدة تصرفه سنة ونحو احد عشر شهرا

مطلب
ولاية الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا

وولى بعده الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا فدخل القاهرة فى آخر القعدة من السنة المذكورة وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل من العسكر المنصور وتصرف فكان شهما مهيبا صاحب فكر وتدبير ثم لم يلبث ان تبدلت حاله وتغيرت أخلاقه وركب متن الجور فأفسد وظلم وتتبع خطوات السلف فى مصادرة الناس ومد اليد الى تركات الامراء والاغنياء

والمستورين من أهل البلاد فأثرى وكثر ماله ومنع الصدقات والمرتبات الخيرية عن الارامل
واليتامى وأخذها لنفسه فضج الناس واستغاثوا وجعوا الى الله تعالى وتضرعوا اليه بزوال
ولايته فكان كلما طالت أيامه زاد عسفه وكثر فساده وسام الناس الخسف * وجاء
الامر من الباب العالى فى شوال من سنة سبع وأربعين بتجريد حملة للغزو مع العسكر
المنصور ببغداد لخروج أهلها ففرح الناس بذلك وظنوا خروجه مع الحملة حسب مرسوم
السلطان فلم يخرج وسلم قيادتها الى قانصوه بك أمير الحاج فسارت فى المحرم من السنة
اى سنة ثمان واربعين وعاد من بقى منها فى صفر سنة تسع وأربعين ومحمد باشا الوالى على
ماهو عليه من الجور والعسف فضج الناس ورفعوا ظلامتهم الى دار السلطنة فلم يلتفت
لشكواهم لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان
وقتلهم حافظ باشا الصدر الاعظم فى السراى السلطانية واصرار كبارهم على ارجاع خسرو باشا
الصدر المعزول وعدم مراعاة حرمة المراسيم السلطانية * قال بعض كتاب الاخبار لما كانت سنة
تسع وثلاثين وألف هجرية أو نحوها مات شاه عباس ملك فارس وتولى الملك بعده ابنه شاه
مرزا وكان صبيا لم يبلغ أشده فلما جاءت الاخبار بولايته الى دار السلطنة تقوت عزيمة كبار
العسكر المنصور وفرح خسرو باشا الصدر الاعظم بذلك وسار فى جيش عظيم الى بلاد فارس
لرد ما أخذ من بلاد الدولة ونزل على همذان ودخلها ثم سار منها قاصدا بغداد فلاقته
فى الطريق عساكر فارس فقاتلهم وانتصر عليهم وساق خلفهم حتى نزل على بغداد وحاصرها
من كل جانب وشدد فى حصارها ووالى الرمى عليها بالمكاحل بالليل والنهار فلم ينل منها وطالت
أيام الحصار ودخل الشتاء فتذمر الانكشارية وطلبوا رفع الحصار والعود الى القسطنطينية
فمناهم بالأمانى الكثيرة فلم يقبلوا وأبوا الا الرحيل فسار بهم عن بغداد الى الموصل ولبث
معهم حتى انقضى الشتاء وعزم على الرجوع الى حصار بغداد فلم تطعه العساكر فألح عليهم
فأبوا الا الرجوع الى القسطنطينية فسار بهم الى حلب خوفا من أن يداهمه العدو وهو
بالموصل ولا قبل له على رده ووصلت الاخبار بما جرى الى السلطان فاستعظم هذا الامر
جدا ورسم بخلع خسرو باشا من منصب الصدارة وسير اليه الفرمان بذلك وأعاد حافظ باشا
ثانية الى منصبه فكبر الامر على خسرو باشا ودس الى طوائف الانكشارية من يعلمهم ان
خلعه من منصبه انما كان للذب عنهم والعمل برأيهم فهاجوا عند ذلك وساروا الى دار
السلطنة وأشعلوا نار الفتنة ودخلت طائفة منهم الى السراى السلطانية وقبضوا على حافظ باشا
الصدر وقتلوه فى الثامن والعشرين من رجب سنة احدى وأربعين وألف ولم يراعوا للسلطان حرمة
ولا حفظوا له عهدا ولا ذمة فكبر الأمر جدا على السلطان وسير الى خسرو باشا جماعة
فقتلوه وولى الصدارة محمد باشا بيرم وتجرد السلطان من هذا الحين الى اخضاع الانكشارية
واذلال كبارهم فأعمل فيهم القتل لأقل سبب ورسم بمنع الناس كافة من شرب القهوة

والدخان

والدخان فكان يخرج فى كل ليلة متنكرا ويمشى فى أسواق القسطنطينية بدعوى تأديب المولعين بشرب القهوة والدخان ومعه جماعة من أعوانه وهو انما يخرج لاتلاف الاشرار وقطع شأفة أهل الفساد من الانكشارية وغيرهم فخافوا وانكمشوا وامتلأت قلوبهم رعبا منه وخشيه الكبير والصغير فهدت الطرق وزال البأس عن الناس وأمنوا على أموالهم واعراضهم ولبثوا على الطاعة والانكماش الى سنة احدى وأربعين وألف هجرية فهبوا الى الحركة وتجردوا الى الثورة ومقدمهم يومئذ رجل اسمه رجب باشا فعاجلهم السلطان وقبض على رجب باشا المذكور وأمر به فذبحوه وألقوا جثته من شباك السراى السلطانية بين جمهور الانكشارية فكبر عند ذلك خوفهم وتفرق جمعهم وعادوا الى السكينة وملازمة الحدود وزالت من هذا الحين سطوتهم وانحطت شهرتهم وتفرقت كلمتهم وكفى الله الناس شرهم * ولما دانت للسلطان الأمور وزالت عن مقر سلطنته المخاوف بقطع شأفة أهل الفساد سار فى جيش عظيم لغزو بلاد فارس فحارب ملكهم واسترجع كثيرا من القلاع والحصون التى أخذها ملك فارس على عهد الفتن المتتابعة ونال أيضا من بلاد فارس ففتح بغداد وارىوان فسير اليه ملك فارس من يخابره فى الصلح وطال الكلام فى أمر ذلك ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على بقاء دار السلام فى حوزة السلطان ورد اريوان الى مملكة فارس وتم الصلح على ذلك وعاد السلطان ظافرا منصورا * ثم مرض بعيد ذلك وطال مرضه فلما كان تاسع عشر شوال سنة تسع واربعين وألف هجرية مات من غير عقب ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر فبكاه أهل الفضل من الناس وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان ابراهيم الاول فكانت سلطنة المتوفى ست عشرة سنة واحد عشر شهرا وخمسة أيام رحمه الله تعالى

(الفصل الحادى عشر)

(فى سلطنة السلطان ابراهيم خان الاول)

ثم قام بالامر بعد السلطان مراد أخوه السلطان ابراهيم الاول ابن السلطان أحمد بويع بالملك فى عاشر شوال سنة تسع وأربعين والف هجرية اى سنة أربعين وستمائة والف ميلادية قال بعض الكتاب ووافق تاريخ توليته استعنت بالله ولما كان مشابها

٩٨١ ٦٨ سنة ١٠٤٩

فى أحواله واطواره لعمه السلطان مصطفى تولى أمور السلطنة الاغرار وقرناء السوء فاختلت أحوال المملكة وعادت الى ما كانت عليه من الفساد وهبت طوائف الانكشارية من

رقدة الخمول والانكماش الى الظهور فعادوا على عادتهم وطلبوا المطالب الطويلة العريضة فمنامهم وأجزل عطاءهم وفتح امامهم أبواب الحرب ليشغلهم عن العبث بأمور الدولة ومصالح السلطنة فسير طائفة منهم لاسترجاع مدينة ازاق من بلاد القرم التى أخذها القوزاقيون فقاتلوا وأبلوا بلاء حسنا حتى استردوها ثم سير طائفة أخرى لغزو جزيرة كريد احدى الجزر التابعة يومئذ الى جمهورية البندقانية وسير لذلك أيضا سفنا حربية ومقدمها يوسف باشا فقصوا الجزيرة المذكورة بعد قتال خفيف فسيرت جمهورية البنادقة سفن حربها الى بتراس وكورون ومورون من ثغور كريد فأحرقتها تشفيا وانتقاما لتطير فتح جزيرة كريد فكبر هذا الامر على السلطان وهم بقتل جميع النصارى الذين فى بلاد الدولة فمنعه من ذلك على ماقيل اسعد زاده ابو سعيد مفتى دار السلطنة وهوّن عليه الامر فأطاعه وبذل السلطان جهد الاستطاعة فى اصلاح مااختل من أحوال المملكة الداخلية * وقد وصل الى مسامعه خبر مايلاقيه أهل مصر من جور محمد باشا واليها وظلمه فأمر بعزله وورد الخبر بذلك الى القاهرة ففرح الناس به فرحا لايوصف وتأهب محمد باشا الرحيل الى الديار الرومية وأخذ فى جمع أمواله ومتاعه فكان شيأ كثيرا للغاية وتباطأ فى السفر والخروج من مصر أياما كانت على أهل البلاد كانها أعوام ثم نزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت أحد الامراء اياما أخرى جاءه الامر فيها ثانيا من دار السلطنة ببقائه فى منصب الولاية فلما شاع الخبر بذلك حزن الناس حزنا ماعليه من مزيد فصعد الى قلعة الجبل وعاد الى التصرف فى الأمور فضاعف الجور وبالغ فى الظلم واشتد على الرعية وأكثر من مصادرة الناس على اختلافهم وفتك وقتل وأراق الدماء ظلما وما زال على هذا الحال من الجور والعسف حتى قدر الله سبحانه وتعالى بخلعه فجاءه الامر بذلك فى سلخ جمادى الآخرة سنة خمسين وألف فكانت مدة ولايته ثلاث سنين ونحو ستة أشهر

مطلب ولاية مصطفى باشا البستانجى

وتولى بعده مصطفى باشا البستانجى فدخل القاهرة فى غرة الحجة سنة خمسين فى موكب حافل وتصرف فكان عاقلا أبىّ النفس قنوعا لايتطلع الى مابأيدى الرعية وكان له دوادار اسمه أحمد افندى وهو جاف خشن الطباع ظلوم غدور محتال وكان بيده مقاليد الامور فاستبد وجار وظلم وأعاد أيام احمد باشا من الاخذ بالشبهات ومصادرة الاغنياء والعظماء وأخذ أموال الصدقات والخيرات فشكا الناس أمره الى مصطفى باشا المشار اليه فلم يفطنوا لتحجبه عن الناس وترك الامور الى دوانيه المذكور يتصرف فيها كما يشاء فاضطربت لذلك الاحوال غاية الاضطراب واختل النظام وفشا الاجرام وظهر أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكثرت السرقات فى حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة وما جاورها من القرى وقصر النيل فى الزيادة فغلت الاسعار وقل وارد الحبوب واشتد البلاء على الناس فكانوا بين غريمين عنيدين الغلاء واللصوص وكان إذا أتى الى والى القاهرة بلص أو بجماعة منهم أطلق سبيلهم وكذلك كانت تفعل كشاف البلاد والاقاليم فلما اشتد الحال بالناس اجتمعوا زمرا تحت قلعة الجبل

وصاحوا

وصاحوا على الباشا وشكوا من أفعال والى القاهرة وكشاف الاقاليم وتجبوا ونادوا مايحل من الله ياباشا اتق الله فى خلقه فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة وولى بدله كنعان بك ورسم بالقبض على كل من تقع عليه شبهة فقبض على كثير حتى ملؤا السجون فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وظنوا بقاء الحال على ذلك فلما كان شهر شوال سنة احدى وخمسين ثار جند وجاق الجاويشية على كبارهم واشتدوا على أميرهم على بك وقالوا بأنه لم يفرق عليهم شيأ من أموال العطايا وان الكتاب هم الذين يأخذون هذه العطايا وطلبوا من الباشا خلعه فسايرهم وطاولهم فلم يرتجعوا وشددوا فى طلب عزله فعزله وأقام مكانه عابدين بك فلما رأى جماعة العسكر ما كان من فوز اخوانهم الجاويشية ثاروا هم كذلك وشكوا من فراغ مخازن ذخيرتهم وطالبوا بمعاشاتهم المتأخرة واتهموا احمد افندى دوانى الباشا السابق الكلام عنه ببيع مافى تلك المخازن وأخذ أثمانها فعين لتحقيق ذلك قاضى قضاة المحروسة فبحث عما فى الاشوان والحواصل فلم ير فيها شيأ وثبت ان الكاتب المذكور باع ما كان فيها وأخذ الثمن لنفسه فخلعه الباشا تسكينا للفتنة واسترضاء لخواطر الجند فاستنجد الكاتب المذكور بجماعة الجاويشية فأنجدوه وأرجعوه الى منصبه قهرا فزاد عسفه وتضاعف جوره وظلمه وبالغ فى ايذائه وما زال والناس فى شدة وضيق حتى صرف مصطفى باشا عن الولاية فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين

مطلب ولاية مقصود باشا

وتولى بعده مقصود باشا فدخل القاهرة فى رجب من السنة فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور سنة وثمانية أشهر ولما استقرت بمقصود باشا الولاية جعل ينظر فيما وقع من مصطفى باشا وعوقه عن السفر من مصر وقبض على كاتبه أحمد افندى وعلى الكخيا وجلدهما جلدا مبرحا وأخذ منهما مائتى كيس نقرة من أموال الخزينة السلطانية وقد كانا أخذاها لانفسهما فحيلة ثم بعث مصطفى باشا المذكور الى دار السلطنة تحرسه طائفة من الجند فلما وصل اليها أخذ منه مائة كيس للخزينة السلطانية ثم أخلى سبيله ولبث حينا محتجبا عن الناس ثم أدخل فى خدمة الدولة وما زال حتى بلغ مسند الصدارة العظمى ودبر مقصود باشا أمور البلاد أحسن تدبير فأبطل كثيرا من المكوس والمغارم وأزال بعض الضرائب وأعاد حقوق الوراثة لأهلها وضرب على الورثة ضريبة يدفعونها للخزينة السلطانية فقط ثم جعل يتعقب اللصوص وقطاع الطرق فقبض على كل من نالته شبهة منهم وسجن وغرق وقتل فخافوا واختفى خبرهم وارتاحت الافكار من شرورهم • وبينما كانت القلوب هادئة والخواطر مطمئنة اذ ظهر الطاعون واشتد وعم القاهرة ومصر القديمة وضواحيهما ثم تفشى فى جميع المدن والقرى وعم وكثر الموات وكان ظهوره أولا من ناحية بولاق القاهرة فى أوائل شعبان من سنة اثنتين وخمسين وألف وما زال على هذا الحال من الاشتداد والانتشار من ابتداء ذى القعدة من السنة الى غاية صفر سنة ثلاث وخمسين وألف ثم بدأ بالتناقص الى آخر شهر ربيع الاول ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فى الفتك والشدة

فكانت تنقل الجثث عشرات عشرات والجنازات تمشي خلف بعضها حتى أبطلت الصلاة على الاموات لكثرتهم وفتك بالقرى كذلك فتكا ذريعا جدا حتى حكى أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا ليس فيها ديار ولا نفاخ نار وكانوا يجدون الأموات في الطرق وعلى جوانب الجدران والكلاب تحوم حولها وما زال على شدته حتى ارتفع وزال

وبعد انتهاء الطاعون بقليل من الزمان ظهرت في العشرين من القعدة فتنة بمدينة الاسكندرية والسبب في ذلك ان سبعمائة من الروم المسيحيين كانوا مقيدين بسجن الاسكندرية وقاسوا من العذاب أمره فأتت بعد حين لخلاصهم سفينة وجاءت اليهم أخبار قدومها فقاموا وكسروا أبواب السجن في اليوم المذكور والمسلمون في صلاة الجمعة وطافوا في شوارع المدينة وجعلوا ينهبون البيوت والحوانيت ومخازن الارزاق وعاثوا وأفسدوا فلم يبقوا ولم يذروا ثم نزلوا بتلك السفينة وأقلعوا من فورهم ونجوا بما كسبوا ولم يظفروا بأحد منهم وضيق مقصود باشا على الصناجق وطالبهم بتلك الأموال المرتبة على الاقطاعات التي بأيديهم لصرف علائف الجند ورواتب العسكر المنصور فأغضب ذلك جماعة الصناجق ولم يقبلوا فرأوا منه قرما عنيدا فاجتمعوا في بيت الأمير رضوان أبي شنب في يوم الجمعة ثاني عشر رمضان سنة أربع وخمسين وتحالفوا على خلعه ان هو شدد في الطلب فطولبوا فرفضوا وطلبوا عزل كار مشورة الباشا فأجابهم الى ذلك وطالبهم فأبوا وكتبوا الى الباب العالي يشكون من تصرف مقصود باشا فورد اليه مرسوم السلطان بالاستعلام عن السبب الموجب لتلك الشكوى فأجاب بما دفع عنه الريبة وأفحم أصحاب الخصومة وقد علم ان زعماء هذه الفتنة الأمير علي بك والأمير ماماي بك وشعبان الدفتردار فعزم على الفتك بهم ورتب لذلك كمينا وأقام لهم رصدا ليقتلهم في الديوان اذا نزلوا اليه في يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وخمسين فلم ينزل الى الديوان في ذلك اليوم الا الدفتردار فقط فأمسك عن قتله وأبقى العمل الى يوم آخر فلما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة جاءه الامر السلطاني بالخلع واعتزال المنصب وتولية شعبان بك الدفتردار النيابة حتى يأتي الوالي الجديد فبل فشق هذا الامر على مقصود باشا واستعظمه جدا وسلم الامر الى الدفتردار صاغرا ثم جاء الخبر من الباب العالي بتولية أيوب باشا فلبثوا ينتظرونه وهم في خوف حتى انصرف مقصود باشا عن الولاية فكانت مدة تصرفه سنة ونحو سبعة أشهر

مطلب ولاية أيوب باشا

وقدم أيوب باشا الى مصر ودخل القاهرة في موكب حافل قيل ولم يقبل هذا المنصب الا بعد اقدام واحجام لما يعلمه من اختلال الامور واستفحال أمر الجند واتساع سلطتهم وصعد القلعة في العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وألف وأخذ في تدبير الامور وترتيبها على الوجه الاتم فأحكم نظامها وقطع دابر اللصوص واقتفى أثر من فر منهم وأعمل فيهم القتل والشنق والتغريق وأخذ على الصغار فخافه أهل الفساد وانكمش أصحاب الغايات واستتب

الامن

الامن وزال الخوف وسادت الراحة واطمأنت قلوب الناس ولازم كل حده نفرحت بايامه الرعية ولبث يتصرف سنتين ثم كتب يستأذن السلطان فى الانصراف عن منصبه فأذن له فسافر فى سلخ رجب سنة سبع وخمسين وألف فكانت مدة تصرفه سنتين ونحو ستة أشهر وخرج فى موكب حافل جدا والناس فى حزن عليه

مطلب
ولاية الوزير محمد باشا ابن حيدر

فتولى بعده الوزير محمد باشا ابن حيدر فلما وصل أيوب باشا الى دار السلطنة رقى الى مسند الصدارة العظمى فأحسن التصرف والتزم الحزامة وحسن التدبير ثم نزل وترك المنصب وعكف على العبادة وتنازل عن جميع أمواله ومقتنياته الى خزينة السلطان وتزيا بزى الدراويش وانفرد فى جامع من جوامع الروم ايلى وتصرف ابن حيدر المذكور فى ولاية مصر فأساء التصرف وعكس التدبير وأفسد مانظمه مقصود باشا فكانت أيامه كلها خروج وطغيان واشتد حوله الجند واستفحل أمرهم فكانوا يثورون عند أقل حادثة أو لاصغر سبب وقامت منهم طائفة الانكشارية فى العاشر من رجب سنة سبع وخمسين وألف بمصر القديمة فعاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه فركب عليهم والى القاهرة وتهددهم ان هم بقوا على هذا الحال فضجوا فى وجهه وساروا الى ماتحت قلعة الجبل ونادوا بقتل الوالى المذكور وكان الوالى من وجاق الجاويشية فجاءهم الخبر بعزم الباشا على قتل الوالى انتصارا للعامة فركبوا جميعا ونادوا على الباشا بالويل والثبور فخشى الباشا العاقبة فدعا اليه قانصوه بك وشاوره فى الامر وكان قانصوه ناقما على الأمير رضوان بك والأمير على بك فأشار اليه أن يكتب الى دار السلطنة بما جرى ويسند حدوث جميع هذه الفتن الى الأميرين المذكورين ويقول انهما قد أخذا أيضا مال الخزينة واختلسا المناصب بغير استحقاق وكان قصد قانصوه بذلك رجوعه هو ومامای الى منصب امارة الحاج وولاية جرجا فجنح الباشا الى مشورته وطلب بعض الاعيان للتوقيع على محضر بذلك فاتصل الخبر برضوان بك فبادر هو بالكتابة يشكو الباشا الى الباب وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فورد الجواب من الباب بتفويض رضوان بك وعلى بك فى تحقيق جميع ماأسند فعله الى الباشا وقانصوه بك وورد الى الباشا فرمان بذلك فى الحادى والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وألف وفى السابع والعشرين منه استدعاهما الباشا الى الديوان الخاص بقلعة الجبل فصعدا اليه وعقدا مجلسا وتجادلا مع من حضر من الامراء والعلماء ثم تقرر قتل قانصوه بك ومامای بك ومن كان على دعوتهما فقتلا وقتل معهما عدة من الامراء ثم قام بعد ذلك على بك الى مقر وظيفته بجرجا وسكنت الفتنة وزالت بعض القلاقل وتسابق بعض الامراء الى أخذ منصب قانصوه بك وكان ممن تقدم الى ذلك وبذل الجهد فى الحصول عليه مصطفى كتخدا الملقب بالششمز فلم يفلح وخاب سعيه فتمرد بالعصيان وشق عصا الطاعة وكادت تستفحل فتنته لولا ماعاناه رضوان بك من ايقاف تيارها بحسن تدبيره واستدعى الباشا الامير رضوان بك الى ولية كان أعدها عنده بقلعة الجبل فخاف رضوان بك على نفسه وأبى الحضور فغضب الباشا ورسم

بتجريده من امارة الحاج وكأنه كان ينوى له ذلك فقام رضوان بك من القاهرة في نحو مائتى رجل وكثير من الامراء والكشاف ولحق بالامير على بك بجرجا فجهز الباشا ألفين من الجنود ونحو خمسمائة من الانكشارية وأمرهم فاجتمعوا بالرميلة تحت قلعة الجبل وتأهبوا للسفر ثم عدلوا واتفقوا على نبذ طاعة الباشا ان هو أصر على قتال رضوان بك وعلى بك فخاف الباشا وتحير في أمره ولبثت العساكر أياما بغير حركة فورد في هذه الاثناء فرمان السلطان بابقاء رضوان بك وعلى بك في منصبيهما فخاب الباشا سعيا وأرسل يستقدمهما الى القاهرة فقدما في التاسع عشر من رمضان من السنة أى سنة سبع وخمسين وسعى في مصالحتهما مع مصطفى كتخدا وأعقب رجوع رضوان بك وعلى بك الى القاهرة الاشاعة بخلع الباشا وتولية آخر اسمه مصطفى باشا فلهج الناس بهذا الخبر وعم واتصل بالباشا فأخذ يتأهب للسفر وجمع أمواله وأمتعته ولم يبق الا أن ينزل من قلعة الجبل فلما كان السادس والعشرون من رمضان المذكور ورد فرمان السلطان بتثبيته في منصب الولاية فعاد وتصرف في الامور على ما كان عليه ٭وفى غاية شهر رجب سنة ثمان وخمسين وألف وردت الاخبار الى القاهرة بخلع السلطان ابراهيم ابن السلطان أحمد وتولية ابنه السلطان محمد بدله فسار المنادى بذلك في شوارع القاهرة ومصر القديمة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق ٭قال أصحاب التاريخ ولما كثر عبث طوائف الانكشارية وزاد تمردهم وعمت شرورهم كبر أمرهم على السلطان ابراهيم وعمد الى الفتك بكبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وأخذ يدبر الحيلة في ذلك فأسر الى بعض خواصه أن يقتلوهم اذا حضروا وليمة زفاف احدى بناته على ابن الصدر الاعظم فتأهبوا لذلك واستعدوا فأحس كبار الانكشارية بما في عزم السلطان فخافوا عاقبة السكوت وتجردوا لخلعه وساروا الى مسجد أورطه جامع ونادوا بخلع بيعته فوافقهم على ذلك بعض العلماء والمفتى عبد الرحيم وشاع الخبر بذلك فهاج الانكشارية وطوائف السباه ونادوا جميعا بخلعه وولاية ابنه محمد بدله وهو لم يبلغ يومئذ الا السابعة فخلعوه في ثامن عشرى رجب سنة ثلاث وخمسين وألف هجرية وحجروا عليه في مقره فاضطربت عند ذلك الأحوال واختل النظام وزاد عسف الانكشارية وبقى الحال على ذلك عشرة أيام فعادت طوائف السباه وطلبت ارجاع السلطان ابراهيم الى منصب السلطنة وألحت في ذلك وتجردت لارجاعه فخشى زعماء الثورة عاقبة ذلك وعمدوا الى قتل السلطان ابراهيم فساروا الى مقره ومعهم الجلاد ودخلوا عليه وقتلوه خنقا فمات شهيدا وكانت مدة تصرفه نحو ثمان سنين وتسعة أشهر

ومات في أيامه يوحنا بطرك التأصلين بعد ان أقام أربعين سنة وفى أيام يوحنا المشار اليه كان من حوادث الطاعون والغلاء وتوالى الاحن ومصادرة الناس في أموالهم وتطاول أيدى العساكر والاجناد وانتشار أصحاب السعاية والوشاة والاخذ بالشبهات وغير ذلك من فرض الفرض والمغارم والمكوس ما مر بيانه في محله فأقيم بعده غبريال

وهو خامس تسعيهم واسمه روفائيل من رهبان دير السريان ومولده فيمنشاة المحرق وكان من الحوادث في أيامه ماسيذكر في محله

(الفصل الثاني عشر)

(في سلطنة السلطان محمد الرابع ابن السلطان ابراهيم)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان ابراهيم وقتله ابنه السلطان محمد الرابع بويع بالملك في العشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وألف هجرية أي سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبع سنين فكانت سلطنته بالاسم فقط والتصرف للوزراء وكبار الانكشارية فصارت لذلك أحوال المملكة في انحلال وأمورها في اختلال ونظامها في زوال لعدم وقوف طوائف العسكر عند حد وتداخلهم في جميع أمور الدولة وعزلهم للولاة والحكام عند أقل سبب وتطاول أيديهم الى أموال الناس واراقة الدماء ظلما فكان اذا عمد صدر من الصدور الى اصلاح الامور وارجاع الاحوال الى سابق مجراها قاموا عليه وخلعوه وربما قتلوه وطافوا بجثته في الشوارع والطرقات فلم يجسر قط أحد على فعل مالا يرضونه وقد أخلدوا الى الترف وكرهوا الحروب فكانوا اذا ساروا الى غزوة تثاقلوا وركبوا متن هواهم ولم يسمعوا لكبارهم كلمة فيستخف بهم العدو ويتم له النصر عليهم قال أصحاب التاريخ وقد سرى هذا الداء أيضا الى الجنود البحرية فتولى عليهم الخمول ولازمهم الفشل فآنست جمهورية البندقية منهم ذلك وسيرت مراكبها لقتالهم عند مدخل الدردانيل فانتصرت عليهم نصرة عظيمة واحتلت مدينة تيندوس وجزيرة لمنوس وغيرهما وقطعت الطريق على السفن الحاملة للغلال والمؤنة فلم تتمكن من الوصول الى القسطنطينية فارتفعت لذلك الاسعار ووقع الغلاء وعز وجود الخبز واشتد الحال بالفقراء وطالت أيام هذه الشدة الى سنة ست وستين وألف هجرية وقد تولى الصدارة محمد باشا الكوبريلي وفوض اليه تدبير جميع الامور وكان شيخا قوي العزم ثابت الجاش حسن التدبير عظيم السياسة خبير بأحوال المملكة فأخذ بزمام جميع الامور وأتى أوجه الاصلاح من أبوابها واشتد على طوائف الانكشارية شدة عظيمة للغاية فقتل منهم وغرق وشرد وسام كبارهم الخسف فثاروا فاشتد عليهم وضيق فخافوا وانكمشوا ولازموا الطاعة وسير سفن الحرب لاسترجاع ماأخذته مراكب جمهورية البندقية من الجزائر والثغور العثمانية وفتح طريق القسطنطينية فلاقتها سفن البندقية واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انتصرت سفن الدولة واستردت ماأخذ من الجزائر والثغور وما زال يقاوم أعداء الدولة في الداخل والخارج ويأتي على أوجه

الاصلاح من أبوابها حتى مرض واشتد به مرضه فسأله السلطان عمن يتولى المنصب بعده فقال ولدى وعليه فى اتمام مالم أتمه معتمدى ومات فى سنة اثنتين وسبعين وألف هجرية فتولى الصدارة بعده ولده أحمد باشا فكان كابيه فى الحزم واصالة الرأى وحسن السياسة والتدبير فخالفه طوائف الانكشارية وتجرد لمحاربة أعداء الدولة ففاز وظفر ونهى وأمر وغلب وقهر وفتح القلاع والحصون ودوخ المدن والامصار وأتم الاصلاحات التى كان بدأ بها أبوه فأعاد الدولة مجدها القديم

وكان لما تولى السلطان محمد الملك وبلغ مسامعه خبر الخلاف الواقع مابين محمد باشا والى الديار المصرية ورضوان بيك والى على بيك مقدى الامراء المصريين رسم بخلع محمد باشا المذكور فجاءه الفرمان بالعزل فى أواخر رمضان سنة ثمان وخمسين وألف * وتولى مكانه الوزير أحمد باشا فسافر محمد باشا المعزول فى العشر الاولى من شوال فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر ودخل أحمد باشا القاهرة فى غاية شوال وصعد الى قلعة الجبل وتصرف فكان سئ التدبير ضعيف الرأى مشؤم الطالع على البلاد فانه منذ قبض على زمام الاحكام ظهرت الفتن وبدأت القلاقل ودرج أهل الفساد وقصر النيل عن زيادته المعتادة فلم يبلغ فى سنة ستين وألف زيادة عن الستة عشر ذراعا فشرقت الاراضى فى الاقاليم القبلية جميعها وبعض أراضى الاقاليم البحرية وغلت الاسعار وعزت الاقوات وانقطع واردها الا القليل جدا وتجرد أحمد باشا من ذلك الوقت الى تجديد المغارم وفرض الفرض واحداث المكوس وتتبع أهل اليسار وعادى جميع الامراء وخص بالمكيدة رضوان بيك أمير الحاج وكاتب دار السلطنة فى شأنه وطلب عزله من منصب امارة الحاج وتولية على بيك بدله ليوقع النفرة بينهما فلم يفلح اذ كان رضوان بيك وعلى بيك على غاية المودة والاتحاد * فلما كان يوم السبت السادس من صفر سنة احدى وستين وألف جاء فرمان السلطان الى أحمد باشا المذكور بالعزل وولاية الوزير عبد الرحمن باشا فدخل عبد الرحمن باشا القاهرة فى سلخ صفر وصعد الى قلعة الجبل وقبض من ساعته على أحمد باشا وسجنه فى بيت وحاسبه على مافى ذمته من أموال الخزينة فكانت شيأ كثيرا ولم يخرج عنه الا بعد ان دفعها وسافر الى الديار الرومية فكانت ولايته نحو سنتين

مطلب ولاية الوزير أحمد باشا

مطلب عزل أحمد باشا وولاية الوزير عبد الرحمن باشا

وتصرف عبد الرحمن باشا المذكور فاساء السلوك وحذا حذو السلف فأكثر من جمع الاموال السحت وزاد فى التعرض لاموال الناس وأكثر من الفرض والعوائد والمغارم وتطاولت يده الى مال الخزينة السلطانية ولم يقف عند حد جبار وظلوم وما زال الى غرة شوال سنة اثنتين وستين وألف فخلع من منصبه * وأتى مكانه الوزير محمد باشا ولم يدخل القاهرة فى موكبه الا فى ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث وستين وألف وصعد الى قلعة الجبل وقبض على عبد الرحمن باشا الوالى المعزول وسجنه ثم حاسبه على ما كان فى ذمته من مال الخزينة السلطانية ولم يفرج عنه من السجن الا بعد ان أدى ماعليه صاغرا *

مطلب ولاية الوزير محمد باشا

وتصرف

وتصرف محمد باشا المذكور فكان حازما عاقلا مدبرا واسع الكلمة مهيبا تخافه الجند وخشوا بأسه فتجرد الى اصلاح ماأفسدوه ورتب أمور البلاد على أحسن ترتيب فأمن الطرق وقطع دابر اللصوص وأهل الفساد فسكنت فى أيامه القلاقل واطمأنت قلوب الرعية ودرت الارزاق وكثرت الاقوات وزال الغلاء وانقطعت أسبابه وما زالت أيامه زاهية زاهرة حتى جاءه فرمان السلطان بالخلع سلخ المحرم سنة ست وستين وألف هجرية فأسف الناس على فراقه أسفا ماعليه من مزيد وخرج جميع الامراء والكبراء والعلماء والاعيان فى ركابه مودعين

مطلب
ولاية غازى باشا وعزله وولاية عمر باشا

﴿ وولى بعده غازى باشا فأقام بضعة أشهر وجاءه الامر بالعزل فسار الى الديار الرومية وتولى بعده عمر باشا فى أواخر سنة سبع وستين وألف هجرية فطالت أيامه ﴿ ولما كانت سنة احدى وسبعين وألف قامت الفتنة بين العسا كرالمصرية على اختلاف طبقاتها واشتدت نارها وعلا لهيبها فى القاهرة ومصر القديمة ثم امتدت الى الاقاليم القبلية وعظم أمرها فتطاولت أيدى الجند والغوغاء معا الى السلب والنهب وهتك الحرمات وظهر العربان فتخطفت كل من خرج من مصر فرارا من الفتنة فكانت شدة عظيمة للغاية مات فيها الجم الغفير من الناس وجرى الدم فى الشوارع والحارات ومات الكثير من الامراء الفقارية وغيرهم وطالت أيام الفتنة ثم انحسمت أسبابها ولبث عمر باشا الوالى المذكور يتصرف الى سنة سبع وسبعين وألف هجرية ﴿ قلت فان صح ذلك كانت ولايته زهاء عشر سنين وهذا بعيد فى جانب ماتعوده رجال السلطنة من كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر لاسيما وقد كانت أيام عمر باشا المذكور مفعمة بالفتن والكوارث والمحن وخروج الجند بعضهم على بعض فكان لابد لتسكين الفتنة ومنع حدوث مثل هذه القلاقل من تغيير وتبديل فى الولاة ﴿ ثم عزل عمر باشا المذكور وولى بعده أحمد باشا وقيل ابراهيم باشا وذلك فى أواخر سنة سبع وسبعين فأقام سنة وعزل فى أواخر سنة ثمان وسبعين وألف هجرية وفى رواية انه أقام يتصرف الى سنة خمس وثمانين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه زهاء تسع سنين ﴿ وولى بعده حسين باشا وجاء الخبر بوصوله الى بولاق مصر فخرج الناس لملاقاته

مطلب
ولاية أحمد باشا أو وهبه ابراهيم باشا وعزله وولاية حسين باشا

وركب فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل ومعه كثير من الخدم والحشم فأخذ يتصرف مع الحكمة والعقل وكان محبا للرعية غير محتجب كان يجلس للناس فترفع له القصص فيأمر وينهى مع الرفق واللين وجاء فرمان السلطان بطلب ثلثمائة كيس قروش كلاب على حساب القرش الكلب ثلاثون نصف فضة ﴿ قال بعض الكتاب وكانت قيمة القرش الكلب الى ذلك الوقت أربعين نصف فضة وكانت قيمة الريال اثنين وأربعين والشريف البندقى خمسة وتسعين نصف فضة والشريف المحمدى خمسة وثمانين ﴿ ولبث حسين باشا يتصرف حتى جاءه الامر بالعزل فى المحرم افتتاح سنة سبع وثمانين وألف هجرية وتولية حسن باشا الجانبلاط فكانت مدة تصرف حسين باشا سنة وبضعة أشهر ودخل حسن باشا الجانبلاط القاهرة فى منتصف المحرم فخرج لملاقاته العلماء والمشايخ والامراء وكبار الجند

مطلب
ولاية حسن باشا جانبلاط

وأصحاب العكاكيز فصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وأطلقت لقدومه البشائر فأخذ يتصرف فى الامور فكان مشؤم الطالع وقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول وعز وارتفعت الاسعار جدا فبيع الاردب القمح بمائة وثمانين نصف فضة والاردب الشعير بمائة وثلاثين وكذلك الفول والتبن كل حمل بمائة وخمسين نصفا فضة واشتد الحال على الفقراء حتى أكلوا الميتة وجذور الاشجار وطافوا فى الشوارع يخطفون الخبز من الافران ويرجمون بيوت الامراء بالاحجار ويصيحون ويضجون * قال بعض أصحاب التاريخ ومع هذا فقد كان النيل فى غاية الكمال وأقام حسن باشا يتصرف الى ان جاءه الامر بالعزل فى المحرم سنة احدى وتسعين وألف هجرية وتولية عثمان باشا فكانت مدة تصرفه أربع سنين * ودخل عثمان باشا القاهرة وصعد الى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الامور فكان عادلا كاملا حسن السيرة قنوعا غير محب لاخذ مابايدى الناس وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فعم بجميع الاراضى القبلية والبحرية ورواها وأخصبها فأثمرت وأنجبت غلاتها فنزلت الاسعار وكثر الوارد وامتلأت العرصات بالقمح والفول والشعير والعدس والارز وكثر الخبز بالافران والدكاكين وشبع الفقراء ووجه غايته الى ضبط المقاييس والمكاييل وتحرير عيار النقود على اختلافها فلم يتم ذلك حتى جاء الامر من دار السلطنة بان يكون وزن الالف نصف فضة مائتين وثلاثين درهما وكل مائة درهم فضة يدخلها خمسة وعشرون درهما من النحاس ونودى بذلك فى القاهرة ومصر القديمة فتكدر الناس من ذلك جدا وخصوصا السوقة وأصحاب التجارة وراجعوا الباشا فى ذلك فرفع الامر الى دار السلطنة وبالغ فى شكوى الناس من ذلك فلم يلتفت اليه وجاءه الامر بالتعجيل ففعل

مطلب ولاية عثمان باشا

وكانت الى هذا الحين لم تبطل الحرب القائمة مابين الدولة وخصومها ولم يتم بجميع الاصلاحات التى بدأ بها كوبريلى أحمد باشا بعد توليته الصدارة العظمى انجازا لمقاصد أبيه اذ عاجلته المنية فمات حتف أنفه فى سنة سبع وثمانين وألف هجرية فولى الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى قال بعض الكتاب فلم يكن كفوًا لهذا المنصب الجليل ولا هو موصوف بحسن السياسة والتدبير فلما استقر به المنصب تغلب عليه هواه فركب متن الشطط وباع المناصب العالية وعاقد الدول على مايأباه شرف دولته وعزة جانبها وخلط وخبط فأبعد عن الدولة قلوب معاهديها وأزال بسوء تدبيره ماأسسه كوبريلى الكبير وابنه من بعده فظهر الخلل وتطرق الى جميع مصالح الدولة وتقدمت الاوغاد وعلت كلمة الاغرار واشتد خصوم الدولة عليها فسار قره مصطفى الصدر المذكور فى جيش عظيم يريد محاصرة ويانه عاصمة النمسا فنزل عليها وحاصرها وضيق عليها وأقام على حصارها زهاء شهرين واستولى على جميع قلاعها الامامية ورمى عليها بالقنابل وواصل الرمى ليلا ونهارا حتى هدم بعض أسوارها ولما يأخذها فسير بابا رومه رسله الى ملك بولونيا وملك ساكس وباڤيرا يستنهضهم الى نجدة النمساويين وقتال المسلمين وخلاص البلاد من أيديهم فقاموا جميعا

للقتال

القتال وهاجموا عساكر المسلمين وقاتلوهم قتالا عنيفا للغاية فظفروا بهم وانتصروا عليهم نصرة عظيمة وفشلت جنود قره مصطفى باشا وتمزقت فاستولت الاحزاب على جميع مدافعهم وماتركوه من مؤنة ودواب وآلات الحرب وكانت شيأ كثيرا للغاية ثم جمع قره مصطفى باشا مابقى من جنوده على نهر داب وقفل راجعا بهم الى مدينة بور فتبعه ملك بولونيا فى عسكره وصار يتخطف من خلفه ووصل الخبر بذلك الى دار السلطنة فكبر الامر على السلطان وسير على الفور أحمد حاشيته الى قره مصطفى باشا فقتله وبعث رأسه الى القسطنطينية وولى مكانه ابراهيم باشا وكبر الامر على دولة النمسا وتعلقت آمال ملكها بالنصر بعد استخلاص وبانه من هجمات العساكر العثمانية فتحالف مع مملكة بولونيا وجمهورية البندقية ورهبنة القديس يوحنا وبابا رومية ودولة الروس على قتال المسلمين وأخذ جميع مابأيديهم من البلاد فى قارتى آسية وأوربا ودعوا هذه المحالفة بالمحالفة المقدسة ثم قصدوا الحرب على الدولة من كل صوب وحدب فسارت سفن جمهورية البنادقة تهدد سواحل اليونان وبلاد المورة ومعها سفن حرب البابا وسفن رهبنة القديس يوحنا فتغلبوا على مدن اليونان وأخذوا كورنيثه وأثينه وزحفت جيوش الملك سوبسكى على بلاد البغدان وأغارت عساكر النمسا على بلاد المجر فاحتلت مدينة بست وحاصرت مدينة بور وضيقت عليها فلم تنل منها فهاجموا بعض القلاع والحصون وأخذوها عنوة وفاز الاحزاب وانتصروا عدة نصرات متتابعة فكبر ذلك على السلطان وظنه خيانة من الصدر الاعظم فسير اليه الامر بالعزل والابعاد الى جزيرة رودس وعين مكانه سليمان باشا السردار فلم يغن عزله شيأ ولم يفلح لسليمان باشا السردار عمل وافتتح النمساويون مدينة بوز ودخلوها واعملوا فيمن بها من العساكر العثمانية القتل وقتلوا عاملها المدعو عبدى باشا فكان سقوط هذه المدينة فى أيدى الاعداء خسارة عظيمة على الدولة العثمانية وفشلت بعد ذلك عساكر سليمان باشا وتولى عليها الجبن والضعف وفازت عساكر الاحزاب وتقدمها النصر فى جميع حروبها والسلطان فى شاغل عن جميع أمور السلطنة بالصيد والقنص ومنادمة قرناء السوء فى القسطنطينية وضواحيها

ولما وردت الاخبار الى دار السلطنة بتوالى هزيمة العساكر العثمانية وفوز الاحزاب ودخول الشتاء رسم السلطان بأن يكون الروم ايلى مشتى العساكر فى ذلك العام أيضا وقد كانوا أشتوا فيها عدة سنين فهاج العسكر عند ذلك وماجوا وأبوا الا العود الى دار السلطنة فلما صاروا على مقربة منها كتبوا محضرا بما عليه السلطان من سوء الاخلاق وعدم صلاحيته لمنصب الخلافة وطلبوا خلع بيعته فوافقهم على ذلك العلماء والمشايخ وأهل الدولة وخلعوه فى غرة المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية وأجلسوا بدلا منه أخاه السلطان سليمان الثانى وبقى السلطان محمد محجورا عليه حتى مات سنة خمس ومائة وألف هجرية



(الفصل الثالث عشر)

(فى سلطنة السلطان سليمان خان الثانى)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان محمد أخوه السلطان سليمان خان الثانى بويع له بالملك فى الثانى من المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانين وستمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما تمت له البيعة دخل جميع العساكر الذين كانوا فى حومة القتال الى دار السلطنة بسلاحهم وكراعهم ودوابهم وضربت كتائب السباهيين خيامهم فى المكان المعروف بميدان السلطان أحمد وضرب الانكشاريون خيامهم فى المكان المعروف بآت ميدان وماغموا حتى قبضوا بعد ذلك على أزمة الاحكام وأمروا ونهوا وصاروا يعزلون و يولون ويقصون ويدنون من شاؤا و يقتلون ويصادرون الوزراء والامراء والحكام على السواء وتطاولت أيديهم أيضا الى أموال الرعية واشتدوا على الناس شدة بالغة وعاثوا وأفسدوا وهتكوا الحرمات ودخل جماعة منهم يوما الى الباب العالى وقبضوا على الصدر الاعظم سياوس باشا وقتلوه شر قتلة فعم الخلل وظهر أهل الفساد فتبعوا العسكر فى النهب والسلب وعاثوا وعربدوا واتفق ان جماعة منهم دخلوا الى بيت شريف من الاشراف ينهبون خانعهم الشريف فلم يقدر فخرج وهو يصيح ويضج ثم رفع منديلا على رأس عصا وصار ينادى من كان مؤمنا بالله ورسوله فليأت تحت الصنجق فلما سمع الناس نداءه أتوا اليه من كل صوب وحدب وأحاطوا به وهم يضجون ويعجون الى الله وذاع الخبر فى جميع أطراف القسطنطينية بخروج البيرق النبوى أى بيرق صاحب الشريعة فهرع الناس أفواجا أفواجا الى السراى السلطانية وهم لايشكون فى أن منديل ذلك الشريف هو البيرق النبوى فتعجب الامراء وكبار الدولة من هذا الامر الغريب وظنوا ان اجتماع هذه الجموع الكثيرة على هذه الصورة انما هو بارادة سماوية ومشيئة الهية فأسرعوا فى اخراج البيرق النبوى للحال ووقع السيف فى أعناق أهل الشقاوة والفساد وكثر القتل والتفريق وعمت الثورة واستفحل الخطب واشتد الويل والكرب وأغلقت الاسواق وتترس الناس فى البيوت والدروب فكانت فتنة كبرى

وبينما كانت القسطنطينية تتأجج بنار الفتنة والدماء تسيل فى طرقاتها كانت عساكر الاحزاب تقاتل بلاد الدولة وتحتل الثغور وتأخذ القلاع والحصون فاستولى البندقيون على ايالة المورة ووصل النمساويون الى بلغراد ثم استولوا على قلاع ودين وفتح الاسلام ونيس والافلاق وغيرها ووردت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فاجتمع كبار الدولة وأهل الحل والعقد فيها وتشاوروا فى الأمر واعترفوا بعجزهم وعدم قدرتهم على اطفاء نار هذه الفتنة وبعد اقدام واحجام اتفقت كلمتهم على تسليم كوبريلى مصطفى باشا خاتم الصدارة العظمى فاستقدموه فى الحال وسلموه الخاتم فقبض على زمام الأمور بهمة عالية وأبطل كثيرا

من

من البدع والمظالم المستحدثة وأزال جميع الامانات والالتزامات وأبطل رسوم وعادات الوزراء في الاعياد والمواسم وبالغ في ارجاع الجند الى حدود الطاعة وملازمة النظام وصرف لهم جميع جماكيهم وعلوفاتهم المتأخرة وبث حول كبارهم العيون والارصاد فخافوه وأخلدوا الى السكينة وقطع دابر أصحاب الشقاوة وأهل الفساد وأمن الطرق فأحبه الناس ومالت اليه قلوب الجند فأذعنوا لأمره واجتمعوا عند كلمته وانطلقت ألسنة الناس كافة بالدعاء له فلما تم ما أراده من تنظيم أمور المملكة الداخلية تجرد للغزو وأخذ الثار من الاعداء وأمر الحرب على النمسا وجمهورية البندقية وبقية الاحزاب وسير لقتالهم عسكرا جرارا فكانت بينهم سجالا * وبينما كانت نار الحرب تشتعل بين العساكر السلطانية وجيوش الاحزاب تحرك كذلك بطرس الاكبر قيصر الروس ونكث العهد وزحف بجيش عظيم يريد اما التخلص من الجزية المفروضة على مملكته لبكوات القريم واما الحرب والقتال فكبر هذا الأمر على الصدر الاعظم ورسم لجيوش التتار بقتال الروس فقاتلوهم قتالا عنيفا وهزموهم شر هزيمة وغنموا ما كان معهم من المدافع وآلات الحرب والخيام والدواب وكانت شيأ كثيرا وعادت التتار ظافرة غانمة وتفرغ الصدر الاعظم حينئذ لقتال الأحزاب وشدد في ذلك فهزمت العساكر السلطانية عساكر جمهورية البندقية وانتصرت عليها نصرا عظيما وركب هو بعسكره أيضا على دولة النمسا فافتتح قلعة نيس وجميع القلاع والبقاع المتصلة الى قلعة بلغراد وقلعة سمندرة واسترجعت أيضا السفن العثمانية قلعة ودين وسير طائفة من العسكر الى أطراف أردل فغزوها وانتصروا على من كان بها من الاعداء

ولم تكن هذه الحروب المتتابعة لتشغل رجال السلطنة عن التولية والعزل في ولاة مصر فانه بعد ان لبث عثمان باشا يتصرف جاءه الأمر بالعزل في أوائل سنة تسع وتسعين وألف هجرية وتولية حسن باشا السلحدار فكانت مدة تصرفه نحو ثمان سنين وبضعة أشهر * ووصل حسن باشا الى الاسكندرية فخرج لملاقاته الامراء وكبار الجند والعلماء والوجهاء فدخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل وأخذ يتصرف في الامور فلما كانت سنة ألف ومائة هجرية وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال الى القاهرة فبيع الاردب القمح بمائة وعشرين نصفا فضة والاردب الشعير بثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفا * قال بعض الكتاب وأجرة طحين ويبة القمح أربعة أنصاف فضة فضج الفقراء وطافوا بالازقة والحارات يتساءلون وصاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز في الافران وفي الدكاكين واهتم حسن باشا بأمر الغلاء ففتح الاشوان السلطانية وأطعم حتى زال الغلاء وكثر الوارد من الغلال واطمأنت قلوب الناس ولبث حسن باشا يتصرف الى ربيع الثاني سنة إحدى ومائة وألف هجرية فجاءه الأمر بالعزل وتولية أحمد باشا فنزل من قلعة الجبل * ودخل أحمد باشا القاهرة فى آخر ربيع الثاني المذكور فكانت مدة

مطلب
ولاية حسن باشا السلحدار

مطلب
ولاية أحمد باشا

تصرف حسن باشا ثلاث سنين غير كوامل وتصرف أحمد باشا تصرفاً حسنا الا أنه لم تطل مدته

وكان السلطان سليمان قد رحل عن القسطنطينية إلى أدرنه وأقام بها يستطلع أخبار الحرب ويستنشق نسمات النصر بعد ذلك الخذلان المتتابع فبينما هو على هذا الحال جاءته الاخبار بظفر جنوده وقهرهم للاعداء ففرح بذلك فرحاً لا يوصف وسار من أدرنه إلى دار السلطنة فضربت لقدومه البشائر وعاد بعد أيام أيضا الصدر الاعظم بجميع عساكره ورايات النصر تخفق على رؤسهم كان ذلك فى وقت الشتاء فتفرغ من الحرب الى امضاء الاحكام وتنظيم أمور الدولة واعادة ما خسرته من العز والجاه وبقى كذلك الى دخول الربيع فخرج بجيوشه يريد بلغراد للغزو والجهاد وخرج السلطان إلى أدرنه تشجيعا للمقاتلين فلم يلبث بها الا أياما حتى مرض واشتد به مرضه فمات فى العشرين من رمضان سنة اثنتين ومائة وألف فكانت سلطنته ثلاث سنين وتسعة أشهر وتولى الملك بعده أخوه السلطان أحمد خان الثانى ابن ابراهيم خان

(الفصل الرابع عشر)

(فى سلطنة السلطان احمد الثانى ابن ابراهيم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان أخوه السلطان احمد الثانى ابن السلطان ابراهيم بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة اثنتين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة احدى وتسعين وستمائة وألف ميلادية فلما استقرت به السلطنة أخذ يتصرف فى الامور ولم تكن الحرب القائمة بين جيوش مصطفى كوبريلى صدر الدولة وبين جيوش النمسا قد انقضت الى ذلك الوقت فاهتم السلطان أحمد بأمرها وسير مصطفى باشا المشار اليه الى بلاد النمسا لاخضاعها واسترداد ما بقى تحت يدها من المدن والبلدان فسار مصطفى باشا وما زال يحارب حتى مات فى ساحة الحرب وانهزم جيشه شر هزيمة ومات منه زهاء العشرين ألفا وتشرد من بقى منه فاضطرب السلطان من ذلك وصمم على الاخذ بالثار فجعل يعد المعدات ويجيش الجيوش ويراقب الفرص ويتبين انتفاعها فبينما هو على هذا الحال اذ قام الحريق بالقسطنطينية واشتد بها شدة بالغة جدا فاحترق نحو ربع المدينة ومات كثير من الشيوخ والاطفال وعم الخطب فتعوق تسيير الحملة على بلاد النمسا ولم تخرج الا فى سنة خمس ومائة وألف وكانت جيوش النمسا فى هذا الحين تشدد الحصار على مدينة بلغراد فلما جاء الخبر بقدوم العساكر العثمانية خاف قائد جيوش النمسا وفك الحصار عن بلغراد ورجع عنها فنزلت العساكر العثمانية حول بلغراد ولبثت هنالك من غير قتال ولم يقع الاتفاق بين قائد الجيوش العثمانية وقائد جيوش الفرنجة على شئ من أسباب الصلح أو المهادنة ولم

تزل الحال كذلك الى أن مات السلطان أحمد سنة ست ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته ثلاث سنين وبضعة أشهر وقيل أربع سنين ومات فى أيامه احمد باشا والى مصر فدفن بالقرافة * وجاء فرمان السلطان بتولية على باشا قلج بدله فدخل القاهرة فى ربيع الثانى سنة اثنتين ومائة وألف هجرية فكانت مدة تصرف احمد باشا سنة وبضعة أشهر وتصرف على باشا قلج فكان غير موفق فى جميع أعماله ميالا للايذاء غير قنوع وقصر فى أيامه النيل عن زيادته المعتادة فرسم للشيخ يوسف السادات بان يبيت فى قاعة المقياس ويتلو حزبه فى كل ليلة حتى يحصل الوفاء وأقام بطرك المتأصلين كذلك الصلاة ودعاء الله سبحانه وتعالى فيل فزاد النيل ووفى فى السابع والعشرين من مسرى القبطى وعم الاراضى ثم انحدر عنها فاخصبت وانحبت غلاتها ولبث يتصرف حتى تولى السلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وكان من أمره ماسيذكر فى محله

مطلب
ولاية على باشا قلج

(الفصل الخامس عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع بويع بالملك سنة ست ومائة وألف هجرية اى سنة خمس وتسعين وستمائة وألف ميلادية وكان متأدبا حسن السيرة محبا للعلوم والمعارف رزينا كريم الاخلاق فلما استقرت به السلطنة جيش على جزيرة ساقس ففتحها ثم سار الى قتال النمسا اذ الحرب لم تكن خمدت نارها بين الفريقين فلما التقى الجمعان واقتتلا انهزمت جيوش السلطان شر هزيمة فقفل راجعا بمن بقى معه ثم سار بجيش آخر لقتال الروس فلاقته جيوشهم وقاتلته قتالا عنيفا فانتصرت عليه نصرة عظيمة وأخذت منه مدينة ازوف ولما رأى السلطان من توالى نصرة أعدائه وموت عساكره سلم خاتم الصدارة الى حسين باشا عموجه زاده من عائلة كوربلى ففرح الناس بذلك وعدوا هذا الفعل من تدابير السلطان الحسنة وكانوا يودون لو أن الصلح يقع مع الدول المحاربة على يد حسين باشا الصدر المذكور فتحقن الدماء وتزول ويلات الحروب وكان الصدر الاعظم يرى وجوب التمسك بقول القائل اذا أردت الصلح والصلاح كن مستعدا للحرب والكفاح فسار من فوره بالعسكر السلطانى الى نواحى بلغراد يريد القتال فتداخلت عند ذلك دولتا الانجليز والفلمنك فى تقرير قاعدة للصلح فأذعن الصدر بذلك خوفا من ملل الجنود من توالى الحروب عليهم فى اربع جهات مختلفة ونفاد الاموال فضلا عما طرأ على البلاد من الخراب فتم أمر الصلح مع الاحزاب ولكن لم يرق هذا العمل الخطير فى عين فيض الله افندى شيخ الاسلام وحسد الصدر الاعظم على هذا الفوز فدس فى حقه الى السلطان وأكثر من النميمة

والوشاية به وأثار عليه الخواطر ورماه بالمروق ووسمه بالخيانة فلم يطق الصدر هذا الحال واعتزل المنصب وكتب الى السلطان بذلك فجاءه جواب السلطان بالقبول * قال أصحاب التاريخ وقد ختمت بهذا الوزير سلسلة محمد باشا الكوبريلي ولم تلبث الاحوال أن تغيرت وظهر الاغرار وقبضوا على زمام الاحكام وكان للسلطان ميل تام الى فيض الله افندى شيخ الاسلام لانه شيخه ومربيه فاركن اليه واعتمد فى كل الامور عليه فتاقت نفس فيض الله الى الانفراد بالأمر ففعل مالم يفعله أحد قبله من سلفائه وأمضى مالا يليق بشأن العلماء فولى أولاده ومن ينسب اليه المناصب العالية وارتقاهم المراتب السامية وقبض على أزمة جميع الامور فنهى وأمر وفاز واشتهر وغلب وقهر وحصر المنافع فيه وفى أولاده واتباعه وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها فلم تبق كلمة فوق كلمته ولايد فوق يده * وولّى السلطان مصطفى والوالى على مصر على باشا قلج فأتى اليه فرمان الرضا فلبث يدبر الامر وكان على باشا هذا سيئ الطالع قليل الرأى عديم التدبير متحجبا عن الناس الا عن بعض خواصه وكانت أيامه كلها شدائد وقع فيها غلاء شديد جدا فقل ورود الغلال يوما عن يوم حتى انقطع وعزت الاقوات وضاقت أمور الفقراء واشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا الجيف وجذور الاشجار ثم اجتمع منهم السواد الاعظم رجالا ونساء وصبيانا وصعد الى قلعة الجبل وذلك فى منتصف المحرم من سنة سبع ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا ونادوا على الباشا فلم يجبهم أحد فرجموا بالاحجار وأكثروا من العربدة فركب الوالى وطردهم فنزلوا الى الرميلة ونهبوا مابها من حواصل الغلال وكذلك وكالة القمح وحواصل كتخدا الباشا وكانت ملأى بالشعير والفول وأصناف الحبوب الاخرى فلم يقدر أحد على ردهم واشتد الغلاء حتى بيع الاردب القمح بستمائه نصف فضة والشعير بثلثمائة والفول باربعمائة وخمسين والارز بثمانمائة نصف فضة أما العدس فكان لاوجود له بالكلية وحصلت شدة عظيمة بمصر والاقاليم كافة وجاء أهالى القرى والارياف الى القاهرة ومصر القديمة فامتلأت منهم الازقة والحارات واشتد الكرب وعم الخطب ومات الكثير من الناس جوعا وخلت أكثر القرى من أهلها وخطف الاهالى الخبز من الاسواق ومن الافران والذى على رؤس الخبازين مع ندرته فكان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه ويعودوا به واستمر الامر على ذلك الى أن عزل على باشا المذكور فى ثامن عشرى من المحرم افتتاح سنة سبع ومائة والف هجرية * وخلفه فى الولاية مسلم باشا اسمعيل وهو من ولاة الشام فلما جاء الخبر بعزله فرح الناس فرحا لايوصف واستبشروا بالفرج بعد الضيق وقام ابراهيم بك أبوشنب فى نيابة الغيبة حتى يقدم مسلم باشا اسمعيل المذكور الى مصر * ونزل على باشا المخلوع الى بيت احمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل واستقر به فكانت مدة تصرفه اربع سنين وثلاثة أشهر وأياما وحضر اسمعيل باشا الوالى الجديد من البر

مطلب
ولاية مسلم باشا اسمعيل

وصعد الى قلعة الجبل بالموكب فى يوم الخميس السابع والعشرين لصفر من السنة فلما استقر به المنصب ورأى مافيه الناس من الجوع والكرب والموات رسم بتوزيعهم على بيوت الامراء والأعيان كل انسان على قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانبا ولاعيان دولته جانبا وعين لهم مايكفيهم من خبز وطعام فى الصباح والمساء الى ان انقضى الغلاء ثم أعقب ذلك وباء عظيم للغاية فرسم الباشا لاصحاب بيت المال بأن يكفنوا جميع الفقراء والغرباء كافة فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات ويذهبون بهم الى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن وما زالوا على هذا الحال الى ان انقضى الوباء أيضا فكان عدد الموتى لا يكاد يحصر وكان انقضاء الوباء فى آخر شوال من السنة فعمل الباشا أفراحا وختن ولدا له اسمه ابراهيم وختن معه ألفين وثلثمائة وستة وثلاثين غلاما من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار * وكان من ملتزمى دار الضرب على عهد على باشا الوالى المنفصل يهودى اسمه ياسف وكان طاغية داهية وقد طلب الى دار السلطنة وسئل عن أحوال مصر وما يتعلق بها فأملى على أمور والتزم بتحصيل أموال الخزينة زيادة عن القاعدة المقررة فى كل عام وحسن احداث بعض احداثات فأجازت له الدولة ذلك وأعطت له مرسوما فلما حضر مصر تلقته طائفة اليهود من بولاق وأصعدوه الى الديوان فى كبكبة فقرئت الاوامر التى حضر بها ووافقه الباشا على اجرائها والعمل بها وأشهر النداء بذلك فى شوارع مصر والقاهرة فاغتم الناس وتوجه التجار وأعيان البلد الى الامراء وراجعوهم فى ذلك فركب الامراء والصناجق وطلعوا الى القلعة وكلموا الباشا فلم يقبل منهم فغضبوا وسألوه أن يسلمهم اليهودى فامتنع فاغلظوا عليه وصمموا على أخذه فأمرهم بوضعه فى العرقانة وان لا يشوشوا عليه حتى ينظروا فى أمره ففعلوا به ذلك فقام الجند على الباشا وطلبوا أن يسلمهم اليهودى ليقتلوه فامتنع فمضوا الى السجن وأخرجوه وقتلوه عند بابه وجروه من رجله وألقوه فى الرميلة فقام العامة وجمعوا حطبا وأحرقوه بمرأى من الناس كافة وذلك فى يوم الجمعة بعد الصلاة ثم سكنت الفتنة وكأنها لم تكن * ومن هذا الحين انحرف الجند على الوالى ونقموا عليه وصاروا ينكرون عليه كل فعل ولو لم يستحق الانكار حتى قاموا عليه فى الثانى والعشرين من ربيع الاول من السنة وعزلوه فكانت ولايته سنتين اثنتين * وقام مصطفى بك بالامر الى ان حضر الوالى الجديد واسمه حسين باشا وكان واليا على صيدا من أعمال الشام فلما حضر الى القاهرة طلع الى قلعة الجبل فى موكب حافل فى منتصف رجب سنة تسع ومائة وألف فلما استقرت به الولاية أخذ ينظر فى أمور البلاد ومصالح الخلق فكان يرى نفسه مغلوبا على أمره لا كلمة له بين الجند والامراء والصناجق فعمل على تعزيز جانبه واعلاء كلمته فلم يتمكن لقصر أيامه * واتفق فى ولايته ان خرج المغاربة من أهل تونس وفاس المقيمين بالقاهرة فى رابع عشر شوال من السنة ليصلوا كسوة الكعبة التى تعمل فى كل عام للبيت الحرام وكانت عادتهم فى ذلك اليوم انهم يمرون بالكسوة فى وسط

مطلب
ولاية حسين باشا

القاهرة مع غاية الاختفاء والاحتفال ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان في اثناء مرورهم فرأوا رجلا من اتباع مصطفى كتخدا القازدغلي يدخن فكسروا أنبوبته وضربوه وشجوا رأسه وكان في مقدمتهم اناس منهم متسلحون فزاد التشاجر واشتد الامر فقام عليهم أهل السوق وأوقعوا الضرب في بعضهم بعضا وكادت الفتنة تعم القاهرة ومصر وخاف الناس العاقبة وحضر أودة باشا البوابة فقبض على جماعة منهم وقيدهم بالحديد وصعد بهم الى حيث الباشا فأمر بهم فحبسوا حتى سافر الحاج من مصر ومات منهم جماعة في السجن ثم أفرج عنهم بعد ذلك وورد عقب هذا الحادث بقليل الخبر بعزل حسين وولاية قره محمد باشا فحضر مصر في منتصف ربيع الآخر سنة احدى عشرة ومائة وألف فكانت ولاية حسين باشا سنة وسبعة أشهر وأياما ولم يكن لقره محمد من حظ الولاية على البلاد الا ما كان لسلفه فانه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة للامراء والصناجق ولم يبق له الا صغائر الامور فوجه عنايته اليها وماهي الا ازالة بعض السقائف والدكاكين لتوسعة الطرق والاسواق وقطع الارض وتمهيدها ورسم بترميم جامع الاربعين الذي بجوار باب قره ميدان وأنشأ في الميدان المذكور جامعا بخطبة وتكية لفقراء الخلوتية من الروم وأسكنهم بها وأنشأ تجاهها مطبخا ودار ضيافة للفقراء وفي علوها مكتبا للاطفال ورتب لهم مايكفيهم وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف ببستان الغوري حماما فسيحا مفروشا بالرخام الملون وجدد بستان الغوري وغرس فيه الاشجار ورمم قاعة الغوري التي بالبستان وعمر بجوار المنزل سكن امير اخور وبنى مسطبة عظيمة برسم الباس القفاطين وتسليم المحمل لامير الحاج وأرباب المناصب * قلت وهي موجودة الى يومنا هذا * وعمر مسطبة يرمى عليها بالنشاب وأنشأ الحمام العظيم بقره ميدان ونقل اليه من قلعة الجبل حوض رخام ضمن قطعة واحدة وعلاوة فسقية في وسط المسلخ وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبد القادر الجيلاني وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم مايكفيهم وأنشأ صهريجا بداخل القلعة بجوار نوبة الجاويشية ورتب فيها خمسة عشر نفرا يقرؤن القرآن كل يوم بعد الشمس

أما فيض الله افندى شيخ اسلام دار السلطنة فانه لما اتسعت كلمته وبسط يده على جميع الامور وصار السلطان طوع يده أبغضه الناس وكثرت خصومه وناواه جميع أعيان الدولة وأركانها وظهرت الفتنة وعظمت واستفحل أمرها فقامت الجنود على السلطان فخلعوه وقبضوا على شيخ الاسلام وقطعوا عنقه بحد السيف وسجنوا السلطان مصطفى ووكلوا به طائفة منهم تحرسه وذلك سنة خمس عشرة ومائة وألف هجرية فكانت مملكته تسع سنين وقيل ثمان سنين ومازال مسجونا حتى مات في نحو سنة تسع عشرة وخلفه أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد

ومات في أيام السلطان مصطفى متاوس بطرك المتأصلين بعد ان أقام أربع عشرة سنة وكان اسمه جرجس من رهبان دير البراموس ونقل في أيامه دار البطركية من حارة زويلة

مطلب
ولاية قره محمد باشا

الى حارة الروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا عالما فأقيم بعده يوحنا وهو الثالث بعد المائة واسمه ابراهيم من رهبان دير انطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل السادس عشر)

(فى سلطنة السلطان احمد ابن السلطان محمد)

ثم قام بالامر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد بويع بالملك بعد خلع أخيه سنة خمس عشرة ومائة وألف هجرية أى سنة اثنتين وسبعمائة وألف ميلادية فلما استقر به الملك اشتد على العسكر وضيق عليهم وكان شديد البطش عظيم البأس سفاكا للدماء فهابه العسكر وخافته الرعية فأصلح بعض الامور التى فسدت على عهد السلف وأعاد للدولة بعض القوة والنظام وظهرت فى أيامه وقعات الروس مع الاسوجيين وزحف بطرس الاكبر قيصر الروس بعسكر عظيم للغاية على قلعة ازاق فى بلاد القرم وحاصرها وضيق عليها حتى فتحها وطمحت آماله الى ضم بلاد اسوج الى مملكته فسار لقتالها وكان ملكها كرلوس الثانى عشر جليل القدر واسع المعرفة بأساليب السياسة وتدبير الممالك وكان يعرف عند أهل الاسلام باسم تيمور باش وقد أنذر الدولة العثمانية بالخطر الذى يلحق بها اذا تركت بطرس قيصر الروس وشأنه يغزو ويدوخ الممالك المجاورة له فلم تلتفت يومئذ لقوله فلما نال بطرس الغلبة وكاد يأخذ ملك أسوج أسيرا هرب ملك أسوج الى دار السلطنة العثمانية فنال بطرس من بلاد أسوج وضم جانبا عظيما منها الى مملكته من ناحية بحر البلطيق وتجاوزت العساكر الروسية بعض الحدود العثمانية فرسم السلطان الى بلطجى محمد باشا الصدر الاعظم بالمسير لقتال بطرس ورد غارات عسكره فسار فى جيش عظيم وعبر الطونة وقطع ايالة بسارابيا وكانت عساكر الروس قد عبرت قبل ذلك نهر بروت فنزلوا على ساحل الطونة فلم يلتفت اليهم وظل سائرا بجيوشه حتى بلغ ممر فالجى وقصد عبور نهر بروت من هذا الممر فلما تحقق ذلك القيصر ظن الظنون البعيدة وسير فريقا من عساكره لمنعهم من العبور فلم يقدروا وتمكنت العساكر العثمانية من العبور وقاتلوا الروس فهزموهم وساقوا خلفهم حتى ألحقوهم بمعسكرهم بعد الزوال ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجؤا العدو وهجموا عليه هجمة رجل واحد فانهزم وتقهقر فعارضه نهر بروت من جهة وسد عليه أيضا خان القريم الطريق من الجهة الثانية فنظر القيصر واذا به قد وقع بين مفتطع عثرين فسير رسله الى الوزير فى طلب الأمان وتقرير قاعدة للصلح فأجابه الوزير الى ذلك وتقررت بين الفريقين القاعدة وتم الصلح على ماسيذكر وكتب به أيضا عقد مؤقت وهو

الباعث لتحرير هذا الكتاب الصحيح النصاب هو انه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب

عساكرنا المنصورة مع قيصر الروس وعسكره فى طرف نهر بروت وبعد حصارهم والتضييق عليهم فبلطفه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم اجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح والصلاح على الوجه الآتى بيانه * وهو ان قلعة ازاق مع أراضيها وسائر ملحقاتها يجرى تسليمها كالأول للدولة العلية * والقلعـة الجـديدة الكائنة فى أعالى طغيان وقانكة وصمصار المختصـة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبخانة الموجودة ضمن قانكة يجرى تسليمها بتمامها للدولة العلية * وفيما يأتى من الزمن لاينشأ فى المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعـد الآن من طرف القيصر المرقوم مع اللهويين والتابعين لهـم وهـم راباش والبورتغال ولا الى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكراى خان القريم بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الآن وبعد اليوم لايحق للقيصر أن يقيم سفيرا فى استانبول من طرفه * وأما التجار الروسيون الذين يأتون برا للممالك المحروسة لاجل التجارة فانهم مأذونون فى الاقامة بها * والاسرى من المسلمين الذين أسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر أن يسلمهم للدولة العلية مهما كان عددهم * وملك أسوج حيث انه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الآن يتوجـه الى مملكته بالامن والسلامة ولايحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعيا واذا وجد بينهم عدم توفيق ورضا اتحاد فعليهم أن يجريا المصالحة * وأنا أرجو من كمال افضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة ومن فيض مكارمـه الملوكيـة غض النظر من طرف الدولة العليـة عن الحركات الخارجة عن الادب التى سبق وقوعها فى جانب رعايا الدولة وسائر المنسوبين الى الممالك المحروسة وان لايصير عليهم فيما يأتى من الزمان تعد كما تقرر ذلك فى الشروط والعهود * وبحسب الوكالة المطلقـة حرر هـذا الصك وأعطى لطرف القيصر الى ان يعقد العهـد والميثاق ان شاء الله تعالى فى دار السعادة بالوجه المشروح وتعطى صورته له * وبعد أن يأخذ القيصر صـك العهد فلا تكون حينئذ ممانعة ومداخلة فى أمر ذهاب عساكره الى بلاده فى الطـرقات المستقيمة لامن طرف العساكر المنصورة ولا من فـرد من أفراد طوائف التتار وجماعتهـم * وأما أمين أسرار القيصر قدوة أعيان الملة المسيحية قبارون قانجلير بترد شافروف والجنرال ميخائيل أولدبورس حفيد شرمت * ختمت عواقبهـما بالخير * حيث انهـما كانا حضرا من طـرف القيصر للعسكر المنصور ليكونا رهنا لنا بعـد تسـليم المواد المذكورة واعطاء صك العهد من طرف القيصر واتمام خدمتهما يعطى لهما الاذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهـما الى بلادهـما بلا تأخـير ولبيان ذلك حرر هـذا فى اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف

بيور لدى محـــراء * التوقيع خدش كيمدى

قال بعض كتاب الاخبار وكان الوزير المحكى عنه صاحب حيل ودهاء دقيق الفكر فى أعماله وحركاته ولم ينل مسند الصدارة العظمى الا بما أجراه من الدسائس الكثيرة والحيل الغريبة

فلما علم السلطان أحمد بحقيقة حاله وانه من الطغاة أعرض عنه ثم عزله من منصب الصدارة وبقي معزولا حتى قامت الحرب بين الروس والسوج وكان من أمرها ماتقدم بيانه فاقتضت المصلحة إعادته الى مقام الصدارة ثانية فأحسن فيها العمل وفاز بالظفر والغلبة على ذلك الرجل العظيم وهو بطرس الاكبر ولكن لم تطل أيامه حيث وشى به خصومه ورموه بالخيانة وقالوا انه انما عقد هذا الصلح بالرشاوى والبراطيل وقد كان في وسعه أن يقطع شأفة جميع الجيوش الروسية بعد أن تحقق له ان بطرس الاكبر لم يسلم بهذه الشروط مع مافيها من الفضيحة والعار عليه وعلى بلاده الا بعد أن أكلت جيوشه جميع دواب الحمل حتى جذور الاشجار وبعد انسدت عليهم جميع المسالك وما زالوا يحسنون للسلطان الانتقام منه الى أن أمر بعزله ونفيه قبل أن يصل الى دار السلطنة بعد نصرته في تلك الحرب الهائلة قال بعض الكتاب وهو وان كان بريئامن هذه التهمة فقد ارتكب في صدارته الاولى من المعاصي والذنوب ضد الكثير من خيار الناس مالايكاد يعد فظهر بها الآن سر قولهم ان الجزاء من جنس العمل

وكان الوالي على ديار مصر عند تولي السلطان أحمد السلطنة قره محمد باشا فأقره في منصبه وأتاه فرمان الرضا فلبث يتصرف بعد ذلك أشهرا ثم خلعه * وولى مكانه رامي محمد باشا وكان قد تولى مسند الصدارة على عهد السلطان مصطفى وعزل منها وتولى على جزيرة قبرس ثم حضر منها واليا على مصر فصعد الى قلعة الجبل يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست عشرة ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف في الامر فكان مشؤم الطالع قليل الحظ توقف النيل عن الزيادة في سنته فضج الناس وعجوا وابتهلوا الى الله بالدعاء وطلب الاستسقاء واجتمعوا على المقطم وغيره فاستجاب الله لهم في حادي عشر توت وزاد النيل فكان من النوادر الغريبة وقد أرخه بعضهم بهذين البيتين

النيل في مصر وافى * في توت حادي وعاشر
والناس قد أرخوه * لله جبر الخواطر

فروى بعض البلاد وهبط سريعا فشرقت البلاد الاخر وحصل الغلاء وبلغ سعر الاردب القمح مائتين وأربعين نصف فضة والفول كذلك والعدس مائتي نصف فضة والشعير مائة نصف فضة والارز أربعمائة نصف فضة وبيع اللحم الضأن كل رطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسي والبقري بنصفي فضة والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثمانمائة وخمسين والدجاجة بثمانية أنصاف*قال الراوي فكثر الشحاذون في الازقة وعزت الاقوات وعم الكرب واشتد الخطب على الفقراء وخشي الناس العاقبة بظهور الوباء فلم يقع شئ من ذلك * وجاء الخبر بعزل رامي محمد باشا في رجب سنة ثمان عشرة ومائة وألف هجرية وشاع القول بولاية علي باشا فنزل محمد باشا من قلعة الجبل في موكب عظيم وسكن في بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل بالقرب من حمام السكران حتى قدم علي باشا الوالي الجديد من طريق البحر وذهب الناس لملاقاته فأرسى بساحل بولاق يوم

مطلب
ولاية رامي محمد باشا

مطلب
ولاية علي باشا

الاثنين تاسع شعبان من السنة وهوفى نحو ألف ومائة رجل خلاف الاتباع فلبث ببولاق الى ثانى عشرى رمضان وركب فى موكبه وصعد الى قلعة الجبل فأطلقوا المدافع لقدومه وزينت القاهرة ومصر ثلاثة أيام ولم يكد يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة على ساق بين وجاق العزب والمتفرقة * وتحرير الخبر ان شخصا من وجاق العزب اسمه محمد افندى من صغار الكتاب كان بعد عزله من منصبه تولى خليفة أى ثانى كاتب فى دوان المقابلة وحصل له تهمة عزل بسببها من هذا الدوان أيضا فجعل يسعى ويجد حتى نال وظيفة سردار على طائفة العزب النازلين بالاسكندرية ثم كتخدا القبطان واتفق بعد ذلك أن سافر فى إحدى المراكب فشاع الخبر بموته غرقا فحلوا اسمه وماله من المعلقات فى بابه ولكنه لم يلبث ان عاد إلى مصر وصعد الى الديوان وصحح اسمه الذى فى سجلات العزب وجراياته ومتعلقاته وبقى له بعض تعلقات لم يقدر على خلاصها ولم يساعده أهل بابه على ذلك وأهملوا أمره فأعظم هذا الامر وأكبره وذهب من فوره الى باب المتفرقة وطلب الانضمام اليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب فأجابوه الى ذلك فجعل يركب معهم كل يوم للديوان ويمر على باب العزب * وبينما هو ذات يوم سائر الى الديوان اذ وقف له جماعة من العزب وقبضوا عليه وأنزلوه وحبسوه فى بابهم فبلغ الخبر جماعة المتفرقة وهم فى الديوان فحضر أمين بيت المال الى باب العزب وكان يومئذ نائبا عن باشجاويش لتمرضه فعاتبه جماعة المتفرقة على مافعله جماعة العزب فأغلظ عليهم فى الكلام وخاطبهم بفحش القول فقبضوا عليه من أطواقه وأرادوا ضربه فحال بينهم وبينه بعض المصلحين وخلصوه من أيديهم فنزل الى باب العزب وأخبرهم بما فعله المتفرقة فاجتمعت طائفة العزب ووقفوا على بابهم فمر بهم اثنان من جماعة المتفرقة ذاهبين الى منازلهما فهجم عليهما جماعة العزب وضربوهما ضربا مبرحا وأنزلوهما عن الخيل وشجوا رؤسهما ونهبوا ماعلى الخيل من العدد وأخذوا ماعليهما من الملبوس فلما جاء الخبر للمتفرقة اجتمعوا مع بقية الوجاقات وجلسوا على باب الانكشارية ورفعوا أمرهم الى الاغوات والصناجق وأهل الحل والعقد وبقوا على هذا الحال ثلاثة أيام الى ان وقع الاتفاق على إبعاد أربعة أشخاص عن الديار المصرية وهم سبب اشعال نار هذه الفتنة فوافق الجميع على هذا الرأى وصمموا عليه وبعثوا بهم الى الصعيد الاعلى وانحسمت هذه الفتنة وكفى الله الناس شرها

وأعقب هذه الفتنة ورود مرسوم السلطان بعزل على باشا الوالى فعزل فى أوائل رجب من السنة ثم حبس فى قصر يوسف بك وبيعت جميع موجوداته لوفاء ماعليه لبعض تجار القسطنطينية ثم أفرج عنه * ووردت الاخبار بولاية حسين باشا فقدم الى الاسكندرية وجاء منها الى القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة تسع عشرة ومائة وألف هجرية فكانت ولاية على باشا سنة واحدة وأياما وكانت قبل قدوم حسين باشا المذكور

مطلب
حسين باشا

بايام

بأيام قد وقعت فتنة أخرى بباب الانكشارية اها وكادت تشتعل نارها ويعلو لهيبها فتسارع الاغوات وأصحاب الحل الى تسكينها خوفا من قدوم الوالى الجديد فيرى ماهى عليه البلاد من الخلل وعدم طاعة العسكر وعزلوا أحمد أوده باشا المشهور بافرنج أحمد وحسين أوده باشا وأبعدوهما الى الطينة بدمياط فسكنت الفتنة وخمدت نارها فلبثا بالطينة أياما ثم هربا وعادا الى القاهرة واختفيا عند أغوات الشراكسة والتجأ أحدهما حسين الى باب التفكشية فلما علم الانكشارية بقدومهما فارين اجتمعوا ببابهم وطلبوا رجوع فرنج أحمد الى منفاه فلم تقبل طائفة الشراكسة وامتنعوا من تسليمه وقالوا لابد من نقله من وجاقكم وساعدهم على ذلك بقية الوجاقات فصمم الانكشارية على طلبهم ووقفوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بلك ببابه فعم الخوف الناس وانقطعوا عن الخروج من بيوتهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وكاد ينقطع الوارد من المأكول والمشروب الى القاهرة ومصر خوفا من عبث العساكر فاجتمع العلماء والمشايخ والتقوا بالصناجق والاعيان وخاطبوهم فى أمر العسكر وفيما كان عليه الناس من الخوف وما يتهدد راحتهم من هذه الفتن المتراكمة وسألوهم فى حسم الفتنة منعا من تفاقم الخطب وانتشار العامة والحرافيش فى الاسواق للعربدة والنهب ثم كلموا الباشا فى ذلك أيضا وألحوا فى الطلب فوقع الاتفاق على ان يولوا فرنج أحمد المذكور رئاسة طبلخاناة وأرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأصحاب الدرك وأحضروه الى مجلس الاغا وقرؤا عليه مرسوم الصنجقية وانه ان خالف ولم يطع عوقب بغير معاودة فأطاع وقبل وخرج بموكب عظيم الى بيته ونزل له الصنجق السلطانى والطبلخاناة فانفصمت الفتنة وسكن الاضطراب واطمأنت قلوب الخلق •

وكان الوالى يرى انه غير مسموع الكلمة مقهور على جميع أعماله وأقواله ولا قدرة له على دفع هذا الخلل الضارب على البلاد فكان كثير التوجع والشكوى قلقا مضطربا لايستقر له قرار حتى مال الى وجاق الانكشارية واستمال كباره اليه واستخلصهم لنفسه ليقوى بهم على قمع الفتن ومنع الدسائس • فبينما هو يدبر هذا الامر اذ وقعت الفتنة بين طوائف العسكر وكان من خبرها أن مملوكا لرجل من آحاد الناس وقف على دكان قصاب بباب زويلة يشترى منه لحما فوقع بينه وبين حمار عثمان أوده باشى نزاع أدى الى المشاجرة ثم الى الملاكمة فوصل الخبر الى عثمان أوده باشى المذكور فأرسل أعوانه واتباعه فقبضوا على ذلك المملوك وأحضروه اليه فأمر بحبسه فى سجن الشرطة فلما بلغ سيده خبر حبسه حضر هو وأولاده وأتباعه الى باب صاحب الشرطة لخلاص المملوك فتطاول بعضهم على بعض بفحش القول ووقعت بينه وبين صاحب الشرطة مشاجرة فقبض عثمان اوده باشى على سيد ذلك المملوك ووضعه فى السجن واعلم باش أوده باشى وكتخدا مستحفظان بما فعله فلم يرضيا بما وقع وأمراه باطلاق المملوك وسيده على الفور فرجع وأخرجهما من السجن فاجتمع فى ثانى يوم الحادثة طائفة الجاويشية مع طائفة المتفرقة والاسباهية والامراء

والصناجق والاغوات فى الديوان وطلبوا ابعاد عثمان اوده باشى المذكور جزاء ما فعله من
حبس ذلك المملوك وسيده فلم يوافق الانكشارية على ذلك ومانعوا فى ابعاده فوقع بينهم
جدال طويل ثم صعدوا جميعا الى الديوان وطلبوا عثمان المذكور للدعوى فحضر واقيمت
الدعوى بحضرة الباشا والقاضى فأمر القاضى بحبس عثمان كما حبس محمد جاويش سيد
ذلك المملوك فلم يرض الاخصام بذلك وقالوا لابد من عزله وابعاده فلم يوافقهم الانكشارية
فطلب العسكر من الباشا أن يرسم بنفيه فأبى عليهم ذلك فنزلوا مغضبين واجتمعوا بمنزل
كتخدا الجاويشية وأنزلوا مطبخهم من نوبة خاناه الى منزل كتخدا صالح اغا وأقاموا به ثلاثة
أيام وامتنعوا من الذهاب الى الديوان ثم اجتمع أهل البلكات وتحالفوا على أن يكونوا على
قلب رجل واحد وصمموا على نفى عثمان أوده باشى المذكور ثم اجتمعوا على الصناجق
واتفقوا على أن يكونوا معهم على طائفة الانكشارية وأرسل الاسباهية الرسائل الى
أصحابهم المحافظين على الكشاف بالولايات يلزمونهم بالحضور فلما شاع الخبر بذلك رسم
الباشا بعزل عثمان أوده باشى المذكور اخمادا لنار الفتنة فلم يغن عزله شيأ ووردت الاخبار
الى وجاق الانكشارية بان العسكر على أهبة القتال وانهم قد تجهزوا لذلك فبعثوا هم كذلك
يطلبون أصحابهم من الجهات فاجتمعوا على الاثر ومروا بالاسواق فانزعج أهلها وأغلقوا
الحوانيت كافة واستمر أ ‍ ‍ن الوجاقات الستة يجتمعون ويتشاورون فى الامر وكذلك
الانكشارية كانوا يجتمعون بالباشا ويتشاورون معه فيما يفعلونه مع العسكر وفى كيفية
قتالهم وبالغ كل من الفريقين فى التأهب والاستعداد ● وقدم فى هذه الاثناء محمد بك
حاكم الاقاليم القبلية فى جند كثير واتباع وعدة وطلع الى ديوان مصر على عادة حكام
الصعيد الخلوعين ثم لبس الخلع السلطانية ونزل الى بيته بالصليبة فظن الناس أنه إنما اتى
بعسكره لقتال العسكر أو وجاق الانكشارية فخافوا وانكمشوا حتى كادت الاسواق كلها
تتعطل وطال الحال بين أخذ ورد أياما فكانت الانكشارية لاتنفك عن مراقبة الحوادث
والاخذ بصغائر الامور وقد شاع ان بعض الامراء يسعى للحصول على منصب امارة الحاج
بدلا من قيطاس بك المعتاد تقريره فى كل عام لهذا المنصب فلما علم الانكشارية بذلك
اجتمعوا بسلاحهم ووقفوا خارج الباب الكبير على طريق الديوان كى لايمكنوا أحدا
من تولى امارة الحاج خلاف قيطاس بك وعلم الصناجق والامراء بذلك فخافوا شر العاقبة
واجمعوا رأيهم مع أهل الوجاقات الستة على نفى ستة أشخاص من الانكشارية وهم الذين
بيدهم الحل والعقد واخراجهم من مصر الى بلد التزامهم تسكينا للفتنة وعلم
الانكشارية بما دبره هؤلاء فاجتمعوا فى بابهم أيضا فى عددهم وعددهم فلم يهم الامراء
والصناجق أمر اجتماعهم وقالوا لابد من نفيهم أو محاربتهم واجتمعوا هم كذلك فى أبوابهم
واستعد الانكشارية فى بابهم وشحنوه بالاسلحة والذخيرة والمدافع وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم
وخلت الطرق من المارة ونقل جماعة الجاويشية مطبخهم من قلعة الجبل من النوبة

الى

الى دار كتخدا الجاويشية وأقام الانكشارية منهم طوائف يحافظون على أبواب القلعة وباب الميدان والصحراء الذى بالمطبخ الموصل الى القرافة خوفا من أن العسكر يستميلون الباشا وينزلون الى الميدان واجتمع الصناجق بعد ذلك وكبار العسكر واستقر الرأى بينهم على أن ينتدبوا محمد بك الذى كان بالاقليم القبلى لحصار القلعة من جهة القرافة على المقطم بالمدافع والعسكر فقبل ذلك وأسرع فى عمل الحصار فاتمه على أحسن مارام وخاف العسكر من وقوع النهب والفتنة بالمدينة اذا انتشب القتال بينهم وبين الانكشارية فألزموا مصطفى أغا الشراكسة بالطواف فى الاسواق وفى شوارع البلد وحاراتها وأقاموا أحمد بك المعروف بافرنج أحمد اغات التفكشية لحصار طائفة الانكشارية من بابهم الموصل الى المحجر وباب الوزير ومنعوا من يصل اليهم بالمدد

أما الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة فانهم اجتمعوا بباب الشرطة واتفقوا على أن يهجموا العسكر المحافظين بالباب ويدخلوا الى باب الانكشارية فلما بلغ الصناجق والعسكر ذلك انتدبوا ابراهيم الوالى ومصطفى أغات الجبجية فى طائفة من الاسباهية فنزلوا الى باب زويلة وعلم الانكشارية الذين اجتمعوا فى باب الشرطة بنزولهم فتفرقوا واختفوا فجلس مصطفى أغا محل جلوس اوده باش وابراهيم بك فى محل جلوس العسس وانتشرت طوائفهم فى نواحى باب زويلة وباب الخرق واستمروا على هذا الحال ليلة الاحد وأصبحوا وقد خرج نقيب الاشراف والعلماء وقاضى القضاة وأرباب الاشاير واجتمعوا بالشيخونية فى الصليبة وتكلموا فى الامر طويلا ثم كتبوا فتوى بانه ان لم يذعن الانكشارية الى نفى المطلوبين والا جاز محاربتهم بغير معاودة ٭ وأرسلوا الفتوى صحبة جوخدار قاضى القضاة الى باب الانكشارية فلما قرئت عليهم فترت عزائمهم وانفشلوا وأذعنوا الى ابعاد المطلوبين بشرط ضمانهم من القتل فضمنهم الامراء والصناجق وكتبوا بذلك حجة وسلموها لهم ثم أنزلوهم الى أمير اللواء اوازبك ورضوان أغا فسارا بهم فى الحال الى بولاق ومن هناك سيروهم الى الريف فلبثوا حينا ثم عادوا ففرقوهم على الوجاقات بعد رضا الامراء والصناجق ٭ ولم تكن الفتنة قد سكنت تماما حتى جاء الخبر بعزل حسين باشا الوالى وتولية ابراهيم باشا القبودان وأن يكون حسين باشا المعزول نائبا عن ابراهيم باشا حتى يحضر فحضر فى منتصف الحجة سنة اثنين وعشرين ومائة وألف هجرية وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ونزل حسين باشا من القلعة الى بيت الامير يوسف أغا دار السعادة بسويقة عصفور وامامه الصناجق والاغاوات وكثير من أرباب المناصب فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين واربعة أشهر وثلاثة عشر يوما ٭ ولم يستقر المنصب بابراهيم باشا الوالى المذكور حتى أتاه الامر بخلعه وتولية آخر اسمه خليل باشا وذلك فى الخامس عشر من رجب سنة اثنين وعشرين فنزل ابراهيم باشا من القلعة الى بيت عباس أغا ببركة الفيل وأقام به أياما فكانت مدة تصرفه ثمانية

مطلب
ولاية ابراهيم باشا وخلعه وتولية خليل باشا

أشهر لم يعمل فيها عملا يذكر • ووصل خليل باشا وكان بصيدا واليا فأقام بالبر يوم الثلاثاء
خامس شعبان سنة ١١٢٢ اثنين وعشرين ومائة وألف وصعد الى القلعة فى الموكب
المعتاد فلم يمض على جلوسه الا شهران حتى قامت الفتنة ثالثة بين أصحاب الوجاقات
واستفحل أمرها وعم ضررها • وتحرير الخبر أنه فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وعشرين
اجتمع من يدعى حسن جاويش القازدغلى وآخر اسمه الامير سليمان جربجى وآخر
اسمه ابراهيم جوربجى وعقدوا النية على ترك خدمة باب مستحفظان والانتقال الى خدمة
أخرى فذهب اليهم اختيارية بابهم واستعطفوهم وسألوهم الرجوع عن هذا العزم فلم
يقبلوا وصمموا على الخروج ثم طلب آخر اسمه موسى جوربجى الخروج كذلك فلم يرض
رؤساؤه بذلك فذهب موسى الى ابراهيم بك وايواز بك وقيطاس بك فسألهم الوساطة فى أمره
فلم يقبل رضوان أغا رئيسه اجابة طلبهم ومانع فى ذلك وشدد فى المنع فلما رأوا منه الشدة
وعدم الرضوخ لطلبهم من اخلاء سبيل موسى المذكور اتفقوا على اغراء الوالى على عزل
رضوان أغا وولية على أغات الانكشارية سابقا بدله وان يعزل أيضا سليمان كتخدا
الجاويشية ويولى بدله اسمعيل أغا تابع ابراهيم بك فكلموا الباشا فى ذلك وألحوا عليه فى
عزلهم فامتنع وقد كان اختيارية وجاق الجملية توافقوا مع الامراء والصناجق على عزل
رضوان أغا المذكور واجتمعوا ببيت باشجاويش واجتمع أهل كل وجاق ببابهم واستمروا
على ذلك أياما والوالى لايجيبهم الى مايطلبون خوفا من قيام العسكر عليه • أما الانكشارية
الذين انتقلوا الى العزب فانهم اجتمعوا بباب العزب وقطعوا الطريق الموصلة الى القلعة
ومنعوا من يريد الصعود الى باب الانكشارية من العسكر والاتباع فلم يبق فى الطريق
الموصلة الى القلعة الا باب المطبخ ثم قصدوا سد السواقى لمنع الماء عن القلعة فمنعهم
العسكر من الوصول اليها فكسروا آلات السواقى التى بعرب اليسار وخربوها وسار نفر من
الانكشارية من طريق المجبر يريدون الصعود الى قلعة الجبل فقبضوا عليهم وضربوهم
ونجوا بعضهم فمضى أحدهم من طريق الجبل ودخل من باب المطبخ واجتمع بافرنج أحمد
وبقية الانكشارية وأخبره بحالهم وما جرى لهم فأخذ جماعة منهم ورفعوا أمره الى الوالى
وقاضى القضاة وبالغوا فى الشكوى وعظموا البلوى فقال القاضى قد جاز قتال هؤلاء القوم
حيث منعونا الماء وخرجوا عن طاعتنا وأخافوا الناس وسلبوهم فحقت محاربتهم • فلما
فاض الخبر بذلك تقدم أحمد اوده باشا الى الوالى فى محاربة أصحاب باب العزب فاذن له بذلك
وتعوق القاضى عن النزول ولبث مع الوالى وخرج أحمد أوده باشا وشرع فى القتال
وواصل الرمى بالمدافع على أصحاب باب العزب من بعد الزوال الى مابعد العشاء واشتد عليهم
شدة بالغة فقتل من جماعة العزب كثيرين وعم الخوف أهالى مصر والقاهرة وباتوا ليلتهم تلك
وهم فى خوف ماعليه من مزيد وأصبحوا وقد اجتمع الامير ايواز بيك أمير الحاج والامير ابراهيم

بك

بك أبو شنب وقانصوه بك ومحمود بك ومحمد بك تابع قيطاس بك الدفتردار وتحادثوا فيما أصاب أصحاب باب العزب واتفقوا على أن يلبسوا آلة سلاحهم ويذهبوا الى الرميلة مددا للعزب على الانكشارية وهموا بذلك فأخبروا ان أيوب بك قد وضع المدافع على طريق المارين على منزله وعلى قلعة الكبش فامتنعوا من الركوب وجلسوا فى بيوتهم بسلاحهم خوفا من طارق واستمر افرنج أحمد يقذف نيران مدافعه على أصحاب باب العزب ثلاثة أيام بلياليها واجتمع على رضوان أغا طائفة من نفره وتذاكروا فيمن كان السبب فى إثارة هذه الفتنة فعرفوهم وهم أربعة من الاختيارية فخلعوهم وكتبوا لهم مرسوما بان يخرجوا من بيوتهم ثم ذهبوا الى بيت قيطاس بك وأرسلوا من كل بلك اثنين من الاختيارية الى منزل أيوب بك يطلبون رضوان أغا فاركبوه فى موكب حافل ثم عادوا الى منزل أيوب بك وتسلجوا فى أمر الصلح وكتبوا الى أحمد أوده باشى الذى هو افرنج أحمد بالكف عن القتال فأبى فكتبوا عرضا الى الباشا من جميع الصناجق وأغوات الوجاقات الخمسة بطلب الكف عن القتال فأرسل الباشا الى الانكشارية بالكف فامتثلوا وتركوا القتال وتكلم الصناجق والاغوات المذكورون مع بعض الاختيارية من وجاق الانكشارية فى أمر الصلح فتقررت القاعدة بينهم على ارسال حسن كتخدا العزب وأحمد بن بقر رسلا الى العسكر فى طلب ذلك فاجتمعوا بالعسكر والصناجق فى بيت اسمعيل بك وحضر معهم أيضا جميع أهل الحل والعقد وتشاوروا فى اخماد نار الفتنة بالتى هى أحسن وأرسلوا الى باب الانكشارية فى ذلك فقالوا لانأبى الصلح بشرط ان هؤلاء الشناسية الذين كانوا سببا فى اثارة هذه الفتنة لايكونون فى باب العزب بل يذهبون الى وجاقهم وأن يسلم الامير حسن الاخميمى الى الباشا يتصرف فى أمره كيف يشاء فأبى أهل باب العزب ذلك ولم يرضوه فأرسل الامراء الى افرنج أحمد يشفعون عنده بأن الاشخاص المذكورين يرجعون الى وجاقاتهم فقط ويعفون من النفى ومن القبض على الامير حسن الاخميمى فلم يوافق افرنج أحمد على ذلك وقال ان لم يرضوا بشرطى والاحاربتهم ليلا ونهارا حتى أمحو أثرهم فتفرقوا على غير صلح وبقى الحال على ذلك أياما ثم اجتمع جميع الامراء بعزل ابراهيم بك بقناطر السباع وتذاكروا فى أمر الصلح على كل حال وكتبوا حجة على ان من صدر منه بعد اليوم مايخالف رضا الجماعة يكون خصم الجماعة كلهم وكلموا أيوب بك فى أن يرسل الى افرنج أحمد بصورة الحال وان يكف عن القتال الى تمام الامر المشروع فيه فبطل القتال نحو الخمسة عشر يوما وأخذ افرنج أحمد فى خلال هذه الايام فى تحصين جوانب القلعة وعمل المتاريس ونصب المدافع وتعبية الذخيرة وقد ملأ الصهاريج بالماء وصار على تمام الأهبة والاستعداد واتفق أن حضر فى هذه الأثناء محمد بك حاكم الاقاليم القبلية ونزل بفضاء البساتين ولبث به ثلاثة أيام ثم دخل القاهرة ومعه السواد الاعظم من العربان والمغاربة والهوارة فلم يكن بأسرع من أن جعل يقاتل كذلك بمن معه من جامع السلطان حسن ومن بيت يوسف أغاة الجراكسة فلم

يخلو وقتـل من أصحابه جماعة كثيرة وانتصر عليه محمد بك المعروف بالصغير مع من انضم اليه من اتباع ابراهيم بك وايواز بك ومماليكه وكانوا قد تترسوا في سوق السـلاح ووضـعوا المتاريس في شبابيك الجامع الذى هناك فانتقل محمـد بك المذكور وسار الى طولون وتترس بها وهجم على طائفة العزب الذين كانوا بسبيل المؤمن فوقعت بينهـم موقعة عظيمة مات فيها خلق من الفريقين ولم يطق أهل العزب المقاومة فتركوا السبيل وذهبوا الى باب العزب فعند ذلك انكف محمد بك عن القتال وترك جماعة من أصحابه بالسبيل رباطا وسار بمن بقي الى غير ذلك المكان ه ولما اشتد الحال وضاقت أمور أهل البلد وكبر خوفهم سار جماعة من كبارهم الى الشيخ الخليفي أحد كبار المشايخ وشكوا اليه مايلاقيه الناس فسار الشيخ الخليفي الى افرنج أحمد وتكلم معه ومع من كان معه من الاختيارية في أمر الصلح والكف عن القتال وشدد في ذلك فرد عليـه افرنج أحمـد بسفيه الكلام وبفحش القول وأرسل في الحال الى أصحاب المدافع أن يطلقوا مدافعهم على أصحاب باب العزب وأن يوالوا رمى القنابل فجعلوا يطلقونها تباعا فانزعج الناس كافة وكبر خوفهـم وقام سكان باب العزب وأخـذوا ماخف من أمتعتهم وتركوا بيوتهم ونزلوا بالمدينـة وتفرقوا في الحارات بالقاهرة ومصر وأغلقت جميع الوكائل والخانات والاسواق وخرج أكثر السكان القريبين من قلعـة الجبل كالرميلة والحطابة والمحجر هائمين على وجوههم وقد هدمت المدافع أكثر بيوتهـم وأحرقتهم نارها وطاف الانكشارية يحرقون مابقى من تلك الدور ولم يصب باب العزب شئ من ذلك الا القليل من أماكنه ثم ان افرنج أحمد وأيوب بك أقاما بعض أصحابهما بالمدرسة بقوصون وبجامع مرداره بسـويقة العزى وبجامع قيماس بالدرب الاحمر ليعطلوا الطريق على العزب واختار افرنج أحمد جماعة من الانكشارية وأعطى لكل واحـد دينارا وأرسلهم بعـد الغروب الى تلك الاماكن مـددا لمن بها وجعل هو يقاتل من كان مع الجانبكية ه واتفق أن مر في صباح ذلك اليوم رجل من أهل العزب ممن كانوا مرابطين في جامع مزدارة من ناحية السلطان حسن يريد منزله فقبض عليه طائفة من الانكشـارية وسلبوه ثيابه وتركوه عريانا وبعثوا به الى افرنج أحمد فلما بلغ أهل العزب ماحصل برجلهم أرسلوا طائفة منهم الى المترسين بجامع مزدارة فدخلوا من بيت الشريف يحيى بن بركات ونقبوا منزل عمر كتخدا مستحفظان اذ ذاك ومايجاوره من الدورالى أن وصـلوا مـنزل مراد كتخدا فلما رآهم العسكر الذين كانوا بالجامع المذكور فروا هاربين وتركوا الجامع ومافيـه من أسلحة وذخيرة ه أما عمر أغاة الشراكسة ومن كانوا معه بجامع قيماس فانهم بعـد ان تترسوا وأحكموا متاريسهم بشبابيك الجامع فرقهم عمر المذكور بجهة باب زويلة وجهـة التبانة فوقع الخوف في قلوب سكان تلك الجهـة ونزحوا منها الى حوارى القاهرة حتى ضاقت بهـم فأرسل أهل العزب صالح جوربجي الرزاز بجماعة من عسكر العزب وآخرين ممن انضم اليهـم من الانكشارية وغيرهم فقاتلوا من كان بجامع قيماس واستولوا على الجامع والمتاريس وأخذوا كذلك جامع المرداني ونهبوا من كانوا فيه وأقام به طائفة منهم

وأخرى

وأوى بجامع أسلم وانتشرت طوائفهم بتلك الاخطاط والاماكن فسكنت خواطر أهلها واطمأنت قلوبهم قليلا

وهجم طائفة من بلك المتفرقة والاصبهانية على بيت الامير قرا اسمعيل كتخدا مستحفظان فدخلوا من بيت مصطفى بك ابن ايواز ونقبوا الحائط بينه وبين بيت قرا اسمعيل المذكور فلما جاء الخبر الى أهل العزب أرسلوا طائفة منهم ومعهم بيرق ومقدمهم أحمد جوريجى فلم يتمكن أحمد من الدخول من جهة الباب فخرق صدر دكان هنالك وتوصل منه الى بيت أحمد افندى كاتب الشراكسة ثم نقبوا منه محلا توصلوا منه الى حيث المتفرقة والاصبهانية فداهموهم وهم مشغولون بنهب الاثاث والامتعة وهجموا عليهم هجمة واحدة فألقوا ما بأيديهم من السلب ورجعوا القهقرى الى المكان الذى دخلوا منه فتبعوهم واقتتل الفريقان قتالا عنيفا الى ان دارت الدائرة على طائفة المتفرقة والاصبهانية وتمزقوا كل ممزق ونهبت طائفة العزب بيت مصطفى بك المذكور حيث مكن المتفرقة والاصبهانية من الدخول الى بيته وانتقل أحمد بمن معه من العسكر الى قوصون ودخل جامع الماس وتحصن به وكان محمد بك حاكم الاقاليم القبلية فى هذا الحين يغدو ويروح ما بين جامع الماس والصليبة فكمن له أحمد بطائفة من أصحابه بمنزل البيرقدار فى محل فيه يشرف على الطريق فلما مر بهم فى وسط قومه أطلقوا عليه البنادق فأصابوا أربعة من أصحابه فظن ان النيران أتت من بيت محمد كتخدا البيرقدار فوقف على بابه وأضرم فيه النار فاحترق أكثره ونهبوا ما فيه من أثاث وأمتعة ولحقت النار بالبيوت الملاصقة والمواجهة له فعلقت بها وعلا لهيبها وطار شررها الى جميع بيوت تلك الخطة فأحرقت أكثرها من الرباع والدكاكين التى هنالك من ناحية جامع الماس الى تربة المظفر يمينا وشمالا وأفسدت ما بها من أثاث ومتاع وما لم يحترق نهبه النهابة والحرافيش الذين كانوا يتبعون الحريق ويزيدونه ضراما فكان المنظر مخيفا جدا وخرجت النساء حاسرات مكشفات الوجوه هائمات فى الازقة والحارات يطلبن الملجأ وعم النهب والسلب فى هذا اليوم الى حد لم يسبق له مثال وتعطلت الطرق من المارة والهاربين من نيران الحريق وعلى الخصوص طريق بولاق القاهرة ومصر القديمة والقرافة فقد كانت ملأى بالاخلاط من طوائف السحوية والهوارة وغيرهم الذين جاؤا مع محمد بيك حاكم الاقاليم القبلية كما تقدم القول وقد أحاطوا بأطراف البلد وصاروا يسلبون المارة واستاقوا جميع جمال السقائين وأخذوها فكان الخطب شديدا والكرب عميما ٭ وانقسم العسكر فى هذه الآونة الى فريقين فريق مؤلف من ايواز بك وقيطاس بك وابراهيم بك أمير الحاج سابقا ومحمد بك وقانصوه بك وعثمان بك بن سليمان بك ومحمد بك ومعهم بلوكات الاصبهانية الثلاثة والجاويشية والعزب والثانى من أيوب بك ومحمد بك الكبير وأغوات الاصبهانية ومحمد بك أغاة متفرقة باشى وأهل بلكه وسليمان أغا كتخدا الجاويشية وبلك الانكشارية المقيمين بقلعة الجبل مع افرنج أحمد والوالى وقاضى القضاة

ونقيب الاشراف وأغلقوا أبواب القلعة جميعها ماخلا باب الجبل فامتنع الناس من النزول من القلعة أو الصعود اليها الا من الباب المذكور واستمر افرنج أحمد ومن معه يطلقون المدافع على باب العزب ليلا ونهارا وبالباب المذكور خلق كثيرون منتشرون حوله وحول ماقاربه من الحارات ورتبوا لهم جوامك تصرف اليهم فى كل يوم * ولما طال الامر على هذا الحال واشتد البلاء على الرعية اجتمع الامراء بجامع بشبك بدرب الجماميز وأجمعوا على خلع الباشا وتعيين نائب من الامراء حتى يرد الامر من السلطان بما يراه واتحدت كلمتهم على اقامة قانصوه بيك ثم ولوا أغوات البلوكات وأرباب الرتب والوظائف وأحكموا الترتيب فبلغ الخبر أغوات الانكشارية فاعلموا خليل باشا الوالى به فكبر عليه وأعظمه وكتب الى أغوات جميع البلكات الثلاثة يحضهم على قتال الصناجق ومن معهم نظر وجهم على نائب السلطان ثم جمع جماعة للقتال ورتب لهم جوامك ومرتبات واتفق محمد بك حاكم الصعيد مع افرنج أحمد على ان أحدهما محمد بك يهجم بأصحابه على طائفة العزب من طريق قراميدان ويكسر باب العزب الموصل الى الميدان فوصل خبر ذلك أيضا الى طائفة العزب فاستعدوا وكمنوا على مقربة من بابهم فلما كان بعد العشاء الاخيرة هجم محمد بيك وأصحابه على الباب وكان جماعة العزب قد أحضروا شيأ كثيرا من حطب القرطم وطلوه بالزيت والقار والكبريت فلما تكامل عسكر محمد بيك أوقد جماعة العزب النار فى ذلك الحطب فاضاء لهم قراميدان وصار كالنهار فاطلقوا على أصحاب محمد بك البنادق وأحكموا الرمى ونابهوه فنفر جماعة محمد بك وتقهقروا وقد قتل منهم خلق كثير وأرسل خليل باشا الى ابراهيم بك وايواز بك وقيطاس بك يطلبهم الى الديوان ليتشاوروا فى الامر فاعتذروا بما هم عليه من ترتيب أمور القطاع وعدم فتح الطريق فلما أيس منهم جمع اليه أيوب بك ومن انضم اليه من العسكر واستقرت القاعدة بينهم على استمرار القتال حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا وبرزوا جميعا الى ظاهر القاهرة وأخذوا فى التأهب للقتال * فلما كان يوم الاحد ثالث ربيع الاول أرسلوا أيوب بك ومحمد بك الى العربان ليأتوا بجميع جمال السقائين وحميرهم ويمنعوا الماء عن البلد ففعلوا وأخذوا جميع ما وجدوه من الجمال والحمير فعز الماء وبلغ ثمن القربة خمسة أنصاف فضة فضج الناس وعجوا وابتهلوا الى الله تعالى وكبر الامر على أصحاب العزب فسار طائفة منهم الى القصر العينى ليستخلصوا تلك الدواب وجلسوا يراقبون من يمر بهم من المتعصبين فلم يكن بأسرع من ان دهمهم محمد بك بجماعة من طائفة الهوارة فدافعوا ساعة ثم هربوا وقد قتل منهم جماعة كثيرة وأرسلت رؤسهم الى الباشا قبل فسره ذلك جدا ورجع المنهزمون الى بيت قانصوه بك وايواز بك وأخبروا بما حل بهم فكبر الامر على قانصوه بك وايواز بك وصمما على البراز فركبا فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثانى وخرج الفريقان الى جهة قصر العينى والروضة واقتتلا قتالا عنيفا قتل فيه من العسكر خاصة زهاء الاربعمائة

من

من الفريقين خلاف العربان والهوارة وغيرهم من الاخلاط وركب ايوازبك على محمد بك حاكم الاقاليم القبليـة فانهزم محمد بك الى جهة المجرى فساق خلفه وكان محمد المذكور قد أجلس كمينا فوق المجرى فلما مر بهم ايواز بك أطلقوا عليه الرصاص وعلى من معه فأصابوه فى صدره فسقط عن جواده ميتا وتفرق من كان معه فقام عليه من بالكمين واحتزوا رأسه وجاء الخبر بقتله الى أصحابه ففترت عزائمهم وضعفت قلوبهم وذهبوا فى طلبه فوجدوه جثة بغير رأس فحملوه و ذهبوا به وتفرقوا وتمزق جمعهم واما جماعة الانكشارية فانهم طلعوا بالرأس الى مقر الباشا وأعلموه بما جرى ففرح وظن تمام الامر وسكون الفتنة بموت ايوازبك وأمر بالرأس فسلخ ثم طلبه أصحاب ايواز من أيوب بك فدفعه لهم فدفنوه مع الجثة واشتد حزن أصحاب ايواز بك على فقده وكبر كبدهم مما حصل بهم فاجتمعوا ببقية الامراء وولوا ابنه بدله وتجهزوا للقتال فتجهز الفريق الثانى أيضا وخرجوا فى يوم السبت تاسع عشر ربيع الثانى والتقى الجمعان فوقع بينهما أمور يطول شرحها فلما رأى جماعة العزب اشتداد الامر وعدم التمكن من الوصول الى قلعة الجبل وامتناع من بها وتوالى الرمى عليهم بالمدافع ليلا ونهارا اتحدت كلمتهم على أن يولوا كتخدا جديدا لطائفة الانكشارية ويجلسوه بباب الوالى بطائفة من العسكر وينادوا فى الشوارع ان كل من له علوفة فى وجاق مستحفظان يأتى تحت البيرق بالبوابة ومن لم يأت بعد ثلاثة أيام نهب بيته من غير معاودة ففعلوا ذلك وركب الكتخدا المذكور وألبسه قانصوه بك النائب قفطانا وسلمه البيرق فسار العسكر امامه بالبيرق والمنادى ينادى بما ذكر الى أن وصل الى بيت الوالى * وعادوا الى القتال فبرزوا الى خارج القاهرة من باب قناطر السباع واجتمعوا بقرب قصر العينى بالمدافع وآلات الحرب واقتتلوا من ضحوة النهار الى العصر فقتل من الفريقين خلق ثم افترقوا وعاد بعضهم الى البلد وتخلف طائفة من العزب فأتى اليهم محمد بك حاكم الاقاليم القبلية وأحاط بهم من كل جانب فلما بلغ الخبر قانصوه بك أرسل اليهم مددا فقاتلوا محمد بك وهزموه شرهزيمة وتبعوه الى قنطرة السد وكان أيوب بك فى هذه الاثناء متترسا بداخل التكية المجاورة لقصر العينى فلما شاهد احتدام الوطيس فر ونجا بنفسه فأحرق طائفة العزب القصر ونهبوا مافيه واستمر الحال على هذا المنوال أياما متتابعة

وأرسل قانصوه بك الى من بالقلعة من الوجاقات يتهددهم بحرق بيوتهم ونهب مافيها ان لم يتركوا ماهم فيه من القتال والعمل باشارة افرنج أحمد فاختلفت عند ذلك كلمتهم وخارت عزائمهم وأرسل قانصوه بك بعض الامراء والعسكر الى نهب بيت أيوب بك وغيره من بيوت الامراء فاتصلوا بها من ربع يجاورها وأطلقوا على من بها النيران فهرب أيوب بك وأتباعه فدخلوا ونهبوا مافى البيت وعم النهب فى ذلك اليوم جميع دور الامراء وأحرقوا منها ماقدروا عليه ونهبوا ماجاورها من الدور والربوع والدكاكين وغيرها وتفرقت بذلك عزيمتهم فأرسلوا طائفة منهم الى الجيوشى ومعهم بعض المدافع فجعلوا يطلقونها تباعا على

بيت الباشا وعلى قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من أسفل ورموا بالبنادق فرفع الباشا عندذلك على بيته بيرقا أبيض يطلب الامان وفر من كان داخل القلعة من العسكر فهجمت العساكر الخارجة على الباب واقتحموه عنوة ودخلوا الديوان فانزعج الباشا وأرسل القاضى ونقيب الاشراف يطلبان له الامان فتلقوهما بالتكريم فقالا ان الباشا يقرئكم السلام ويقول لكم إنا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا مطلوبكم فلا نخالفكم فقالوا أعلما بأن الصناجق والأمراء والاغوات وسائر العسكر قد اتفقوا على خلعه وان قانصوه بك يكون نائبا وأما الباشا فانه ينزل ويسكن فى المدينة الى أن تعرض الأمراء على الدولة ويأتينا الجواب فأرسل القاضى نائبه الى الباشا يعرفه بذلك فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته فى خواصه يقدمه قانصوه بك وأغات مستحفظان على يمينه وأغات المتفرقة على شماله واختيارية الوجاقات من خلفه وامامه ونزل من باب الميدان الى الرميلة على الصليبية وقد اصطف العامة على جانبى الطريق وهم يسبونه ويلعنونه ويخاطبونه بفحش القول الى أن وصل الى بيت على أغا الخزندار بجوار المظفر * وهجم بعدذلك أصحاب العزب على باب مستحفظان فلكوه ونهبوا ماوجدوه فيه من متاع وغيره وقتلوا من صادفوه بالباب وبطريق المحجر من أصحاب الفتنة وطلع الذين كانوا بباب العزب من الانكشارية الى بابهم فكانت عدتهم ستمائة ثم اجتمع الامراء جميعا ببيت قانصوه بك وكتبوا محضرا بصورة ماوقع وطلبوا من دار السلطنة ارسال وال آخر وانقضت الفتنة وسكنت الخواطر * ولبث خليل باشا محجورا عليه بالقاهرة حتى جاء والى باشا من دار السلطنة وصرح له بالسفر فسافر فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين ومائة وألف هجرية فكانت أيامه كلها فتنا وقتالا وهى سنة وتسعة أشهر وأيام وكانت أيام هذه الفتنة خمسة وسبعين يوما * وطلع والى باشا الى مقره بقلعة الجبل فى أواخر شهر رجب سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف هجرية

مطلب ولاية والى باشا

واتفق ان جلس فى مستهل شهر رمضان واعظ من الروم بجامع السلطان الملك المؤيد وأخذ يعظ الناس فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد بالاتراك وصار يجلس كذلك فى كل عام ثم انتقل من الوعظ الى ذكر مايفعله أهل مصر بأضرحة الاولياء من ايقاد الشموع والقناديل فى القبور وتقبيل أعتاب الأولياء وغيرذلك وصرح بأن فعل هذا كله منكر يجب على الناس الاقلاع عنه وعلى ولاة الأمر السعى فى إبطاله وعرض بذكر ماقاله الشعرانى فى طبقاته ان بعض الاولياء اطلع على اللوح المحفوظ وقال انه لايجوز ذلك أبدا وان الاطلاع على اللوح المحفوظ لايقع حتى ولا للأنبياء فضلا عن الأولياء وندد ببناء القباب على أضرحة الاولياء والتكايا وجزم بهدمها وذكر أيضا وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان فكان لقوله وقع مهم فى قلوب السامعين وما أتم كلامه حتى خرج الناس بعد الصلاة ووقفوا بالشبابيت

والمساوق

والمساوق والاسلحة على مقربة من باب زويلة فهرب الذين يقفون هنالك فقطعوا الجوخ والاكر
التى كانت معلقة وهم يقولون أين الاولياء فتأثر الناس من ذلك جدا وذهب بعض
العامة الى العلماء بالازهر وحدثوهم بما قاله الواعظ الرومى وما فعله الناس بباب زويلة فأفتى
الشيخ أحمد الغزاوى والشيخ الخليفى بأن كرامات الاولياء لاتنقطع بالموت وان انكار الواعظ
المذكور اطلاع الاولياء على اللوح المحفوظ لايجوز ويجب على الحكام كفه عن ذلك فأخذ
بعض الناس تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه فلما قرأها غضب وقال أيها
الناس ان علماء بلدكم قد أفتوا بخلاف ماذكرت لكم وانى أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم
فى مجلس قاضى القضاة فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق فصاحوا جميعا
نحن معك لانفارقك فنزل عن كرسيه واجتمع عليه من العامة خلق كثير ومر بهم من وسط
القاهرة الى أن دخل بيت قاضى القضاة فانزعج القاضى وخاف وسألهم عن السبب لحضورهم
فرفعوا له ورقة الفتوى وطلبوا منه احضار المفتين والبحث معهم بحضرته فقال القاضى
لابأس عليكم اصرفوا أولا هؤلاء القوم ثم نحضر من أفتى بهذه الفتوى فقالوا وماتقول أنت
فى هذه الفتوى فقال هى باطلة قالوا اكتب لنا حجة ببطلانها فقال ان الوقت قد فات
والشهود قد انصرفوا قال الراوى وكان الذى يخاطبهم ترجمان القاضى فقبضوا على الترجمان
وأوسعوه ضربا وطلبوا القاضى فهرب فقبضوا على النائب فكتب لهم حجة بماشاؤا فتفرقوا
وانصرفوا واجتمعوا بعد ذلك لسماع الواعظ على عادتهم فلم يحضر فأخذوا يسألون عنه فقال
بعضهم ربما منعه القاضى من الجلوس فقام فى الحال رجل منهم وقال أيها الناس من أراد
أن ينصر الحق فليتبعنى فتبعه الجم الغفير فمضى بهم الى مجلس القاضى فدخلوا عليه وقالوا
أين شيخنا قال لا أدرى فقالوا قم واركب معنا الى الديوان لنكلم الباشا فى هذا الامر
ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم فان أثبتوا دعواهم
نجوا من أيدينا والا قتلناهم فركب القاضى مكرها وتبعوه الى أن طلعوا الديوان
فسأله الباشا عن سبب حضوره فعرفه بقصة القوم الذين حضروا معه وما وقع منهم
بالامس واليوم وانهم ضربوا ترجمانه وأخذوا الحجة قهرا وأتوا اليوم وأركبوه قهرا فأرسل
الباشا الى كتخدا الانكشارية والى كتخدا العزب وقال اسألا هؤلاء عن مرادهم فقالوا نريد
احضار الغزاوى والخليفى ليبحثا مع شيخنا فيما أفتيا به فرسم الباشا باحضارهما وافترقوا
على ذلك فأرسل الباشا بعد افتراقهم الى ابراهيم بك وقيطاس بك يعلمهما بما حصل من
العامة ويقول ان لم يعاقب هؤلاء فلابد لى من السفر أنا وقاضى القضاة ❁ أما العامة فانهم
نزلوا بمرسوم الباشا الى جامع الملك المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه الى كرسيه فصار يحضهم
على الاجتماع فى غد بالمؤيد كى يذهبوا بجملتهم الى القاضى ويحضهم أيضا على الانتصار للدين
وقمع طائفة المفسدين ثم افترقوا على ذلك ❁ ولما وصل مرسوم الباشا بمعاقبة العامة الى الامراء
اجتمعوا جميعا ببيت الدفتردار وتناجوا فى الامر فاتفقوا على ان تركب الاغوات وتطوف

بالشوارع والحارات فمن وجدوه من أهل تلك العصابة قبضوا عليه وأن يطردوا كل من يجدونه في جامع المؤيد من طائفة الترك فلما كان اليوم الثاني صباحا ركب الاغا وأرسل الجاويشية الى جامع المؤيد فلم يجدوا منهم أحدا وجعل يفحص ويفتش على أفراد المتعصبين فمن ظفر به أرسله الى بابه فضرب بعضهم ونفى بعضهم وما زالوا كذلك حتى سكنت الفتنة وعادت الأمور الى ما كانت عليه

وما كادت تطمئن القلوب بسكون هذه الفتنة حتى ظهرت فتنة أخرى ومحنة كبرى وذلك ان رجلا من الاشراف تشاجر مع تركي في سوق البندقانيين فضرب التركي الشريف فقتله وفر ولم يعلم أين ذهب فقام الاشراف كافة ووضعوا المقتول في نعش وطافوا به الاسواق حتى طلعوا به الى الديوان وأثبتوا القتل على القاتل فلم يقفوا له على أثر فنزل الاشراف وأصبحوا وقد قفلوا الاسواق التي بالقاهرة وصاروا يرجمون أصحاب الحوانيت بالحجارة كي يقفلوا حوانيتهم ويضربون كل من عثروا عليه في الطريق من المارة ومكثوا على هذا الحال يومهم وأصبحوا كذلك وأرسلوا الى الاشراف القاطنين بقرى مصر ليحضروا ثم اجتمعوا بالمشهد الحسيني وخرجوا وامامهم بيرق وساروا الى بيت قيطاس بك الدفتردار فخرج عليهم أتباعه وطردوهم وهزموهم بعد قتال فرجعوا وقد عاثوا بالطرق وفعلوا ما لاخير فيه فلما تفاقم أمرهم وكادت الفتنة تتسع فحرك عليهم العسكر وركب أغوات الاصبهانية الثلاثة وأغوات الانكشارية في عددهم وعددهم وطافوا المدينة فخاف الاشراف وتفرقت جموعهم ثم نادوا بالامن والامان وفتح الحوانيت فقضت وسكنت الفتنة بعدان كاد يستفحل أمرها

وأعقب هذه الفتن المتراكمة والمحن المتوالية طاعون شديد أمات خلقا كثيرا جدا وبقي على شدته بالقاهرة ومصر من ربيع الاول من السنة الى أواخر جمادى الثانية ففتك فتكا ذريعا وعم وامتلأت البيوت والطرق بالموتى والدفن مستمر ليلا ونهارا فكانت شدة عظيمة للغاية ثم ارتفع وزالت بزواله ولاية والي باشا وجاءت الاخبار بعزله وتولية عابدين باشا فقدم الى مدينة الاسكندرية ثم حضر الى القاهرة في صفر سنة خمس وعشرين ومائة وألف هجرية فنزل والي باشا وسافر الى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه عشرة أشهر وأياما

❁ وأخذ عابدين باشا يتصرف في الامور فقدم له الامراء كافة التقادم والتحابي النفيسة وقدم له اسمعيل بك أيضا تقدمة نفيسة للغاية فاستعظمها عابدين باشا ومال اليه وأحبه واختص به ومال الى طائفة القاسمية ارضاء لاسمعيل بك المذكور فجعل يوليهم المناصب العالية حتى ظهروا بمظهرهم القديم من الابهة والتكريم وزال عنهم البأس ولازمتهم النعمة فصارت أمور البلاد على أحسن مايرام واستتب الامن وعم واطمأنت قلوب الرعية وكثرت الاقوات ودرت الارزاق وارتفع الغلاء وزال الوباء وراجت أسباب التجارة وسلكت الطرق وأخصبت الارض وأجادت فكانت أيام عابدين باشا المذكور كلها راحة وهناء فلما كانت أخريات سنة ثمان وعشرين ومائة وألف جاء الخبر بعزله وولاية آخر اسمه علي باشا فأسف

الناس

مطلب
ولاية على باشا

الناس لذلك وحزنوا عليه ونزل عابدين باشا من قلعة الجبل عند ماوصل الخبر بوصول على باشا الى الاسكندرية ثم سافر الى الديار الرومية قبل وصول على باشا الى القاهرة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين الا اشهرا وسافر الى الاسكندرية أرباب الخدم والصناجق وكبار الامراء لملاقاة على باشا المذكور وحضروا معه الى القاهرة فصعد الى قلعة الجبل على الرسم المعتاد واستقر به المنصب والامور والفتن نائمة والقلوب مطمئنة فلم تبق الحال كذلك مستتبة الا قليلا حتى قامت الفتنة بين أهل بولاق القاهرة من حارة الجوابر وبين بعض الجمالة اتباع أمير الحاج وذلك ان بعض سكان الحارة المذكورة تشاجروا مع نفر من الجمالة لاسباب لطيفة الغاية فأدت هذه المشاجرة الى الملاكمة والمضاربة بالايدى ثم بالهراوى والمساوق وعلا الصياح واجتمعت الغوغاء والحرافيش وكثرت الجلبة فخرج لمعاونة الجمالة أمير اخور الاصطبل ومعه نفر من الاتباع فقام عليهم أهل الحارة كافة وأوسعوهم ضربا بالمساوق فوصل خبر ذلك الى الامير اسمعيل بك أمير الحاج فأرسل اليهم أغات الانكشارية والوالى فقاموا عليهما كذلك وضربوهما وكانت النساء فى هذه الاثناء يصوتن بأعلى أصواتهن والصغار يقصعون ويسبون كل من يحضر اليهم ويرجمون بالاحجار فى الحارات ومن أعالى البيوت فعاد الوالى ورجع اليهم بطائفة من الجند وقصدوا الحارة فتترس فيها أهلها وعلت الاصوات وصعدت النساء على أسطحة البيوت وصرن يرجمن بالاحجار فأطلق الجند البنادق فقتلوا عدة رجال ثم هرب من بقى فدخلوا البيوت وأخرجوا النساء والاولاد وحملت النساء متاعهن ثم قفلوا الابواب ودقوا فيها المسامير فسكنت الفتنة ولما بلغ خبرها من بالقاهرة ومصر القديمة خافوا وظنوا انها من الفتن الكبرى فانكمشوا ليلتهم تلك وتعطلت الاسواق حتى شاع الخبر بسكون الفتنة ورجوع الحال الى سابق مجراه

واتفق ان أرسل الوالى الخزينة السلطانية صحبة محمد بك ابن ابراهيم بك أبى شنب وكان بين محمد بك المذكور وبين اسمعيل بك ابن ايواظ وعلى باشا الوالى نفور ووحشة فلما وصل محمد بك الى دار السلطنة واجتمع بصدر الدولة يومئذ وشى فى حق اسمعيل بك وبالغ فى الوقيعة به وقال انه ان استمر على هذا الحال وطالت أيامه فى مصر استقل بملكها وأزال عنها نواب الدولة فقد تمكن منها وبث فى خدمتها أتباعه ومماليكه ومماليك أبيه وأن لا حرمة للوالى عنده ولا كلمة فوق كلمته وقد أبعد كل من كان ناصحا للدولة وصادقا فى خدمتها وجعل للدولة أربعة آلاف كيس ان هى أزالت اسمعيل بك المذكور وخلعت على باشا الوالى وأتت بغيره قبل فأجابه الصدر الاعظم الى ذلك وبقى الامر مكتوما بينهما الى أن تعين أمير للحاج الشامى اسمه رجب باشا فرسم له الصدر بأنه اذا وصل مصر يعرج على القاهرة ويقبض على على باشا واليها ويقتله ثم يحتال على قتل اسمعيل بك ابن ايواظ مع جميع عشيرته ماعدا على بك الهندى * ورجع محمد بك أبو شنب ظافرا مطمئنا وجاء رسول رجب باشا ومعه مرسوم بحبس على باشا الوالى واقامة أحمد بك الاعسر نائبا فحبسوه

فى قصر يوسف بك ثم جاء رجب باشا الى القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل فلما استقر به المقام أحضر على باشا بين يديه وكذلك خازنداره وكاتب الخزينة والروزنامجى ورسم بعمل حساب على باشا ثم أمر به فذبحوه ذبح الشاة واحتزوا رأسه وسلخوها وبعث بها الى دار السلطنة قال بعض الكتاب فمات على باشا شهيد الزور والافتراء ودفن بمقام أبى جعفر الطحاوى بالقرافة قال ويعرف قبره الى الآن بعلى باشا المظلوم ثم رسم بضبط جميع مخلفاته واستحضر اليه خفية محمد شركس وشاوره فى كيفية قتل ايواظ بك وجماعته فدبروا له ولكن لم يتم له تدبير اذ اختفى ابن ايواظ مدة ثم ظهر ومعه فرمان السلطان بخلع رجب باشا فدفعه اليه وأنزله من قلعة الجبل الى بيت مصطفى كتخدا عزبان ووكل به من يحرسه ولبث على هذا الحال أياما الى ان جاء بالولاية من قبل الدولة محمد باشا البستانجى وذلك فى أوائل سنة ثلاث وثلاثين فكانت مدة ولاية على باشا المظلوم سنتين وبعض أشهر

مطلب ولاية محمد باشا البستانجى وخلع رجب باشا

ولما استقرت بمحمد باشا الولاية أبرز فرمانا سلطانيا بالعفو عن ابن ايواظ وصرح رجب باشا بالسفر فسافر مهانا مرذولا وقد كان استفحل أمر محمد بك شركس واعتز جانبه فى أيام رجب باشا فظهر بمظهر الكبرياء والعظمة والاستخفاف بأقرانه من الامراء وكان حقده على الامير ذى الفقار وقومه يزداد يوما عن يوم فطلب من محمد باشا الوالى مرسوما بالخروج على ذى الفقار المذكور وقتله فأبى محمد باشا ذلك فألح عليه فلم يقبل فقام من عنده يوما مغضبا وانقطع من ذلك اليوم عن الصعود الى الديوان وأهمله فغضب لذلك الباشا وأبرز مرسوما بخلع محمد شركس المذكور من منصبه وكتب الى المشايخ وأرباب الوجاقات بذلك فلما علم محمد شركس بالخبر أسرع وجمع اليه أصحابه ورتب أموره وقام معهم وأحاطوا بالرميلة وحوالى قلعة الجبل ونادوا بخلع محمد باشا البستانجى ثم أنزلوه من القلعة وحبسوه فى بيت ابن الوالى وكان ذلك فى أخريات سنة سبع وثلاثين فكانت مدة تصرفه فى هذه المدة التى هى المرة الثانية أربع سنين وأرسل الى محمد بك أبى شنب فخلع عليه وولوه النيابة وأخذوا منه مرسوما بقتال ذى الفقار وأصحابه وأرسلوا من يقتله ويأتى برأسه فلم يظفروا به واختفى ذوالفقار فنهبوا داره وأخذوا مافيها وكتبوا بصورة الحال الى دار السلطنة وطلبوا أن ترسل لهم واليا آخر بدل محمد باشا البستانجى وكان محمد باشا المذكور قد كتب أيضا بصورة ماوقع فأرسلت الدولة آخر اسمه على باشا فدخل القاهرة فى أوائل المحرم سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف هجرية فلم تستقر به الولاية حتى عمد الى العزل والتنصيب فى الأمراء والحكام ونقض فيهم وأبرم والكلمة يومئذ لمحمد بك أبى شنب واسمعيل بك ابن ايواظ * قال بعض الكتاب ولما كان هذا العزل والتغيير لم يتناول الا ذو الفقار وجماعته اجتمعوا وتشاوروا فى الامر وتكلموا فى كيفية خلاصهم من فعال على باشا المذكور وقد تحققوا ماوراء ذلك من الخيبة ان هم تراخوا وما زالوا حتى أحكموا تدبير أمورهم وعلى باشا وبقية الامراء فى شاغل عنهم بالمناصب وتفريق الوظائف والعزل والتولية ثم ظهر ذو الفقار من مخبئه

مطلب ولاية على باشا

واجتمع بمحمد باشا البستانجي المعزول ولم يكن الى ذلك الحين قد سافر الى الديار الرومية
وكلمه فى أمر الخروج واضطرام نار الفتنة فاستقرت القاعدة بينهما على اعمال الحيلة على
قتل كتخدا العزب فاذا تم لهم قتله امتلكوا باب العزب وظفروا بمقصودهم ثم جمعوا لذلك
طائفة من الفقارية وأخرى من الشواربية وركب أبودفيه أحد المقدمين عند فجر ذلك
اليوم ومعه بعض الامراء وقيطاس ذوالفقار وحوله عدة من الكبراء من قومه وربطوا
الاربطة بالطريق الموصل الى قلعة الجبل وساروا الى الرميلة ووقفوا هنالك فلما مر بهم كتخدا
العزب المذكور تقدم اليه أحدهم ليسلم عليه وقبض على يده وتبعه آخر وضربه بسيفه
فسقط الى الأرض فتركوه وترا كضوا جميعا الى الباب وأجلوا من كانوا عليه وامتلكوه
و وصل الخبر الى محمد باشا البستانجي فركب فى الحال وجاء الى جامع المحمودية وأتى الى
على باشا من أعلمه بالخبر فنزل الى باب العزب وهو فى دهشة وحيرة واجتمع جميع الصناجق
وتشاوروا فى الامر طويلا فلم يروا بدا من أن يعيدوا الوظائف الى ما كانت عليه تسكينا
للفتنة وقسموها بين الفقارية ٭ واتفق ان قبطانا من قباطين دار السلطنة كان قدم الى القاهرة فى
نفر من العسكر السلطانى ولبث بها فلما ظهرت هذه الفتنة ووصل اليه خبرها ركب فى عسكره
وأتى الى جامع السلطان حسن واستقر به مع ذى الفقار بك وظهرت كلمة محمد باشا البستانجي
فى الحال فجعل يقسم المناصب العالية ويتصرف فى الولاية ويخلع على الامراء أصحاب الفتنة
ولبث على هذا الحال بجامع المحمودية مع أصحابه أياما ٭ فلما رأى محمد بك شركس ان قد
تمت الحيلة ودارت عليه وعلى أعوانه الدوائر كبر عليه هذا الامر جدا وجعل يتأهب للضرب
والقتال وسير من فوره الى بيت قاسم بك عدة كبيرة من الجند والمدافع ورسم فأقاموا المتاريس
عند درب الحمام وجامع المصرية وهجمت عساكره على من كانوا بسبيل المؤمن بالبنادق
حتى أجلوهم وهزموهم وهربوا الى جهة القلعه وسوق السلاح ولكنهم تمكنوا من عمل
متاريس عند مذبح الجمال ورموا على من كانوا بجامع المحمودية وتتابع الرمى من كل صوب
وحدب فهرب المجتمعون بالرميلة وبقى أصحاب شركس المذكور المتاريس أيضا عند وكالة
بالاشكنبية وما زال فى دفاع وقتال حتى كاد يتم له الظفر بالفقارية وبدأت شارات النصر
وعلائم الفوز والغلبة فبرز يوسف الجربجى البركاوى وألقى بنفسه وتسلق على باب العزب
ونط الحائط تحت رمى البنادق واتصل بمحمد باشا البستانجي ومن معه بجامع المحمودية وطلب
أن يعطوه مرسوما الى كتخدا العزب كى يعطيه بيرقا ومائة مقاتل وضمن لهم اجلاء الذين
كانوا بسبيل المؤمن ثم يتحول بعد اجلائهم بمن معه الى بيت محمد شركس فيضربه
تخريبا بشرط أن يولوه منصب كتخدائية العزب ان عاد اليهم ظافرا فأجابوه الى ماطلب فنزل
بمن معه من باب الميدان وسار بهم من جانب تكية اسمعيل باشا ووقف بجانب باب كان
هنالك يوصل الى الرميلة وطوى البيرق وهجم بمن معه على سبيل المؤمن يطلق النيران المتتابعة
وهم يهللون ويكبرون فانزعج من كانوا بالسبيل وتحيروا فى أمرهم وولوا جميعا الادبار الى

درب الحصرية وأصحاب يوسف جوربجى فى أقفيتهم يصاولون فيهم الضرب والطعن حتى جاوزوا جميع متاريسهم ودخل بيت قاسم بك فحولوا المدافع صوبه وصعدوا منارة جامع الحصرية ورموا بالبنادق على البيت فنزلت عند ذلك سائر البيارق من الابواب وساروا الى جهة الصليبة وطلع القبطان الى قصر يوسف بك ووضع مدفعا على بيت محمد بك شركس وأطلق عليه الكلل تباعا وقد كان قاسم بك أصيب برصاصة ممن كانوا بمنارة جامع الحصرية فمات فلما رأى محمد شركس ماحل بقومه وما يترصده من المكاره خرج هاربا فخرج معه محمد بك الاعسر ومحمد شركس الصغير وأخذ جميع أمواله وذهب بأصحابه الى ناحية مصر القديمة وعبروا النيل الى الجانب الغربى خفية وركب محمد باشا البستانجى وصعد الى قلعة الجبل فى أهبة وكبكبة ثانية فنزل على باشا وسافر الى جزيرة جريد وقبض ذو الفقار بك على زمام الامور فارتفعت كلمته وظهرت بعد الخمول والانكماش عظمته وبعث بمن يقبض على محمد بك جركس فجد الرسل السير خلفه فلم يدركوه ورجعوا فأخبروا انه سار الى الجبل الاخضر ومنه الى أدرنة وكان خروج محمد جركس المذكور فى يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف فسكنت بعد خروجه الفتنة وزالت أسبابها ووقف كل عندحده قال بعض الرواة وهذه الفتنة كانت بايعاز من دار السلطنة

واتفق بعد ذلك بقليل ان على بك المعروف بابى العزب ومصطفى بك ابن ايواظ ويوسف بك الخائن ويوسف بك ابن الشرابى وعبدالله أغا كتخدا الجاويشية وسليمان أغا أبادقية وهم جميعا من طائفة القاسمية جلسوا على عادتهم فى بيت أحدهم على بك أبى العزب يشربون الخمر فلما أخذ الشراب من عقولهم فى تلك الليلة تأوه مصطفى بك ابن ايواظ وقال يموت أخى العزيز الصغير والكبير ويصير الهندى مملوكنا سلطانا على مصر وله الكلمة النافذة علينا والوالى فى قبضة يده وكان النيل قريب الوفاء فقال على بك خفف عنك والله انى لقاتل الباشا يوم جبر البحر فقال أبودقية وانى لقاتل ذو الفقار وقال مصطفى بك وانى قاتل الهندى مملوكنا ثم تحالفوا على ذلك وتعاهدوا على العمل وكان معهم فى تلك الليلة مملوك من مماليك عبد الله بك وقد كان هرب عند قتل سيده ولحق بالهندى وأقام فى خدمته أياما فلما ارتقى مصطفى بك المناصب العالية أخذه من الهندى وجعله فى خدمته فلما سمع هذا المملوك ماتحالفوا عليه ذهب الى على بك الهندى وأعلمه بالخبر فبعث به الى ذى الفقار فأخبره أيضا فبعثه الى محمد باشا فأخبره ٠ فلما كان يوم الديوان وقد صعد على بك أبوعزب الى الخدمة بالديوان أمر به الباشا فقبضوا عليه وقتلوه من ساعته تحت ديوان السلطان قايت باى وأحاط بداره ونهب مافيها وكان شيأ كثيرا للغاية وأرسل فى الحال مرسوما الى الاغا بالقبض على باقى أصحاب هذه المؤامرة فكان أول من قبض عليه منهم ابن ايواظ فاركبوه حمارا وأتوا به الى الباشا فأمر به فقتل فى الحال واختفى الباقون فضعف بذلك جانب القاسمية

واشحط قدرهم وعلت كلمة الفقارية ولم يبق ظاهرا من القاسمية الاعلى بك الهندى فعمل ذو الفقار على قتله أيضا فقتله وقتل معه آخرين

واتفق ان عاد فى هذه الاثناء محمد بك شركس من فراره على ماتقدم بيانه فلما علم أصحابه برجوعه جاؤا اليه وأقبلوا جميعا عليه فركب معهم ونزل الى البحيرة يريد الاسكندرية فلاقاه حسين بك الخشاب فى جنوده يريد منعه والظفر به فهزمه جركس وغنم خيامه وخيله وجماله ثم هبط الى الفيوم ونزل على بنى سويف ثم الى القطيعة على مقربة من جرجا فاجتمع عليه من بقى منهم من القاسمية المتشردين فقام لصده حسين بك حاكم جرجا فركب عليه جركس المذكور وقاتله فقتل حسين بك وجماعة كثيرة من أتباعه وغنم جركس آلاتهم وجميع معداتهم وجاءت الاخبار بذلك الى القاهرة فجمع ذو الفقار الامراء وشاورهم فى الامر فجهزوا لذلك عسكرا عظيما صحبة عثمان بك وآخر اسمه على بك قطامش فتلاقوا مع جركس بوادى البهنسا واقتتلوا فكانت الهزيمة على عسكر ذى الفقار ومن معهم واستولى جركس على ما كان معهم من آلات الحرب والخيام والخيل وحال الليل بينهم فافترقوا ورجع المنهزمون الى القاهرة فشق أمرهم على ذى الفقار وهاله جدّا وجمع الامراء ثانية واتفقوا على ارسال حملة أخرى ولكنهم لم يجدوا ماينفقونه فطلبوا مرسوما من محمد باشا البستانجى بثلثمائة كيس من مال الخزينة نفقة وعليهم رده من أموال السنة القابلة فامتنع الباشا فألحوا عليه فصمم على الامتناع فشكوا فلم يسمع فركبوا عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وأقاموا محمد بك قطامش نائبا وأخذوا منه مرسوما بالنفقة وجهزوا العسكر واهتموا بأمرها اهتماما عظيما فسارت هذه الحملة والتقت بجركس ومن معه فوقعت بين الفريقين حروب هائلة ووقائع متوالية انجلت عن هزيمة جركس وتبديد شمل جماعته وتفريقهم كل ممزق ‌. أما محمد باشا البستانجى فانه بعد ان خلعوه أنزلوه من قلعة الجبل وحجروا عليه أياما حتى ورد الخبر بولاية باكر باشا وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه الثانية أربع سنين وأشهرا ووصل الى مصر باكر باشا الوالى الجديد فكان وصوله فى خلال الفتن واشتداد الخطوب والمحن فلم يعمل عملا يذكر لان البلاد كانت فى شدة وضنك بأسباب الحوادث المتراكم بعضها فوق بعض ولم يستقر به المقام الا أياما قلائل حتى ثار من فى البلد من القاسمية المختفين وثار معهم سليمان اغا أبودفية فدخل منهم جماعة على ذى الفقار بك وقت العشاء فى رمضان من السنة وقتلوه وكان ذلك بتدبير من محمد بك جركس وهو مختف جهة الشرقية ينتظر موعدهم بعد قتل ذى الفقار بك فقضى الله بموت جركس قبل أن يعلم بخبر موت ذى الفقار وذلك انه لما بعث ذوالفقار قومه فى طلب محمد جركس المذكور شددوا فى البحث عنه وتتبعوا خطواته فكان ينتقل من جهة الى أخرى حتى صار الى الشرق ومعه جماعة من عربان خويلد فتبعه عثمان بك قطامش بعسكره وسالم بن حبيب البدوى وقومه فتلاقوا معه واقتتل الفريقان قتالا عنيفا جدا انجلى عن هزيمة جركس ومن معه ففروا وألقوا بأنفسهم الى

مطلب
عزل محمد باشا البستانجى
وولاية باكر باشا

النيل ونزل جركس بفرسه يريد العبور الى الجانب الغربى من النيل فانغرز الفرس فى روبة تحتها الماء غزير فترجل عنه ليخلصه فسقط ومات غريقا وكان على مقربة منه شادوف وعليه رجلان من الفلاحين ينقلان الماء الى مزرعتهما فنزلا اليه فوجدا الفرس وجركس ميتين ولم يعلما من هو فأخرجاه وأخذا ماعليه من الملابس وسلاحه و ذرخه وما فى جيوبه ودفناه بالجزيرة ومر بهما قارب صيد فطلباه ووضعاه فيه وكان على بك جالسا بجانب النيل ومعه سالم بن حبيب فنظر سالم الى القارب وهو مقبل فقال ماهذا الا سمكة عظيمة مقبلة الينا فأوقفوا القارب فتقدم أحد الشداقين الى على بك وقبل يده فقال له ماخبرك قال وجدنا جنديا من المهزومين غريقا ومعه حصان فلعله من الطاوين والا ألقيناه فى الماء فقال لاحد أصحابه اذهب وانظر من هو فلعلك تعرفه فذهب وعاد فاخبر انه محمد جركس الكبير وقد أحضر معه خاتمه فأمر به فاخرج من القارب وقبض على بك على أحد الشداقين والزم الآخر باستحضار ماأخذه من الثياب والسلاح فاحضرها ثم أمر فاحتزوا رأس محمد بك جركس وغسلوا جثته ودفنوه ناحية شرونة وارتحلوا الى القاهرة وكان القاسمية الذين بالقاهرة قد دخلوا على ذى الفقار وقتلوه كما تقدم القول وابثوا ينتظرون قدوم محمد جركس وكانت أبواب المدينة مقفلة وعلى كل باب منها صنجق والوجاقلية يطوفون فى الشوارع وبأيديهم السيوف والقرابين المحشوة فلما وصل على بك قطامش الى الآثار النبوية المعروفة عند العامة (بأثر النبى) أرسل يخبرهم بما جرى فخرج اليه عثمان بك ودخل صحبته بموكب حافل والرأس امامهم محمولة فى صينية حتى طلعوا بها الى قلعة الجبل و وضعوها بين يدى الباشا فخلع عليهم الخلع السمور ونزلوا الى بيوتهم فأنتهم التقادم أيضا من جميع الامراء قال أصحاب التاريخ وكان جركس المذكور من أظلم خلق الله وأشدهم طغيانا وكان أتباعه على شاكلته فكانت أيامه شر الايام وكانت الحروب فى عهده لاتقعد لها قائمة فاشتدت على الرعية الخطوب وتوالت المحن والكروب وتعاقب الغلاء وعم الويل والوباء واشتد البلاء وقتل البنون والآباء وكان موت محمد جركس المذكور فى أواخر سنة اثنتين وأربعين * أما الامير ذوالفقار بك فقالوا انه كان أميرا جليل القدر شجاعا بطلا كريم الاخلاق مع قلة ثروته وعدم ظلمه وكان كثير الحسنات يرسل فى كل شهر رمضان من السنة لجميع الامراء والاعيان والوجاقلية الملكات والكساوى وللعلماء بالازهر ستين كسوة ودراهم تفرق على الفقراء والمجاورين فكان محبوبا محترما مهيبا نافذ الكلمة بكاه الناس كافة وحزنوا على فقده هذا ماكان من أمر الفتن بديار مصر

❁ أما ما كان من أمرها فى دار السلطنة فانه لما تم تلصوص محمد باشا البلطه جى الصدر الاعظم النكاية به وعزله وتبعيده كما تقدم القول تولى الصدارة بعده عدة من الوزراء فلم تطل أيامهم ولم يفلحوا الى أن تولاها على باشا دماد فأحسن التدبير وأصلح ماأفسده السلف وساق الجيوش الى اخضاع أهل الجبل الاسود لتمردهم وخروجهم عن طاعة السلطان

ثم سار لتدويخ البلاد التابعة لجمهورية البندقانيين وضمها الى أملاك الدولة ومحو أثر
الجمهورية المذكورة حيث كانت الدولة قد ملت من حروبها المتتابعة ففتح كثيرا من البقاع
والقلاع كاستنديل وكورودوس وأنا بولى وقتل وسبى وخرب ثم عاد الى دار السلطنة
ظافرا غانما ولبث الى أن زال الشتاء وكر راجعا فى جيش عظيم لاخذ مابقى من جمهورية
البندقانية فلما علمت دولة النمسا عما وراء ذلك من استيلاء العثمانيين على خليج البندقانيين
وان هذا مما يفتح للعثمانيين بابا واسعا لنقل مهماتهم وذخائر حربهم ويسهل لهم الهجوم
على بلادها ويغنيهم عن المجيء اليها عن طريق بلغراد وطمشوار أفاقت من غفلتها وراسلت
الدولة العثمانية فى مجانبة الحرب مع جمهورية البندقانيين وأنذرتها بانها اذا أبت ذلك
أشهرت الحرب عليها فاستعظم الصدر هذا الامر جدا وحول وجهه عن محاربة البندقانيين
الى قتال النمسا فسار بجيوشه وشن الغارة على أملاكها فسيرت لقتاله جيشا عظيما للغاية
ومقدمه البرنس أوجين دى ساڤوا وهو من أكبر قواد ذلك العصر وأعظمهم خبرة
بفنون الحرب والقتال فاشتبكت الحرب بين الفريقين واشتد القتال فانتصر النمساويون
نصرة مؤزرة فى موقعة بترواردين وقتلوا الصدر الاعظم فى ساحة الحرب ثم سار قائد
الجيوش النمساوية الى مدينة طمشوار فافتتحها بعد حصار أربعة وأربعين يوما ثم نزل على
مدينة بلغراد وحاصرها وشدد فى حصارها وكان قد تولى مسند الصدارة العظمى خليل
باشا فحضر فى عسكر عظيم لاستخلاص المدينة ورفع الحصار عنها فلم يفلح وتغلب عليه العدو
ودخل المدينة عنوة وأعمل فيمن بها من عساكر المسلمين السيف ووصلت الاخبار بذلك
الى القسطنطينية فعمدوا الى طلب الصلح وأرسلوا الى النمسا فى ذلك وكان الذى قد تولى
هذا الامر ابراهيم باشا نائب الركاب الهمايونى فاستكبر الجند هذا الامر جدا وقالوا لاتترك
طمشوار الجميلة فى أيدى الاعداء فأخذ الناس بقولهم ووافقوهم على استدامة القتال وتبعهم
فى ذلك أيضا طلبة العلم فسقط ابراهيم باشا فى يده وانفرد برأيه وبقى الكلام فى الصلح نسيا
منسيا وأعيدت الحرب ثانية فانهزم العسكر الهمايونى هزيمة أشد من الاولى وانفشلوا وركبهم
النمساويون بحد السيف فعادوا الى طلب الصلح وكان الى هذا الحين قد تولى ابراهيم باشا
مسند الصدارة فعقد النمساويون الصلح بعد أخذ ورد فكانت شروطه شديدة على الدولة
اذ تركت للنمسا ولاية طمشوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من
بلاد الفلاخ وتركت لجمهورية البندقية ثغور شاطئ دلماسيا واسترجعت هى بلاد المورة ليس
الا ۰ قال بعض الكتاب ولو أظهرت الدولة يومئذ للعدو علامات القوة مع عزة النفس لتم
عقد الصلح على وجه أليق بشرفها ۰ فلما تمت شروط الصلح على هذه الصورة طمع الاعادى
فيها واستخفوا بقدرها فتحركت دولة الروس الى نكث العهود وسيرت سفيرها الى دار السلطنة
فى طلب الغاء بعض الشروط المأخوذة على الروس فى معاهدة الصلح الأخيرة والتقى السفير
بالصدر وكلمه فى الامر وشدد عليه فى الطلب وقال ان لم تعجلوا بتعديل الشروط والا
نقضناها بسيوفنا وكان الصدر الاعظم يكره الحرب ميالا الى الترف والراحة يخاف سوء العاقبة

وأجابه الى جميع ماطلب فلم يبق للدولة بعد ذلك شئ من الامتيازات والحقوق التى أريقت بسببها الدما الكثيرة وقاتلت الاشهر والاعوام الطوال • قال بعض الكتاب ومع ان المتاركة بين الدولة وخصومها كانت لاجل ان تتمكن الدولة من لم شعث جنودها لتقوى بهم على قمع الاعداء وايقاف كل عند حده فقد كانت سببا فى ادخال عوائد جديدة على الناس مالت بطباعهم الى السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش فاصبح السواد الاعظم أسيرا للملاهى وعبدا للملاذ ففسدت الآداب وانحلت الرابطة الطبيعية القائمة بين الازواج وزوجاتهم وبالغ الناس فى السرف والترف واندفعوا الى تشييد المبانى الفاخرة والقصور العظيمة وأنشؤا القاعات الفسيحة المزينة بأنواع النقوش والرخام وغرسوا فى أطرافها الازهار وأوقدوا فيها المصابيح وجعلوا ظهور السلاحف منائر لها فكانت تلك السلاحف تتجول فى طرق القاعات والجنائن والانوار تسطع على ظهورها وتثبت مرتبة على أحسن نظام فكانوا لذلك يطلقون عليها اسم چراغان ومعناها الشموع • قال وقد بنى ابراهيم باشا الصدر الاعظم قصرا جميلا بجوار بشكطاش سماه بقصر چراغان فكان يأدب فيه فى كل سنة مأدبة حافلة للسلطان وأولاده فيأتى اليها للتفرج على تلك السلاحف الحاملة للانوار فكان يقيم على هذه الحال أياما وكان هذا الدور فى دار السلطنة محسوبا من أحسن الادوار صفاء وذوقا الا انه قد أورث الدولة خللا والامور خطلا والناس كسلا وذهب بكثير من حقوقها وامتيازاتها العظمى

وانتبه الصدر الاعظم من رقدة ذلك الترف وسكرة تلك الملاذ فرأى ان دولة فارس قد انحلت أو كادت وان الافغانيين قد تغلبوا عليها واستولوا على أصفهان فخاف شر العاقبة واستعد لارجاع ما كان فى حوزة الدولة العثمانية قديما من البلاد والايالات ودخلت فى يد فارس قبل ان يبتزها غيرها وسير اليها جيشا عظيما فرافقه النصر وتغلب على عدة إيالات كهمذان وكنجه وروان وشروان وكورجستان وقام كذلك الروس واحتلوا داغستان وكافة سواحل بحر الخزر فلم تلبث تلك الايالات تابعة للدولة حتى قام نادرشاه وتولى ملك فارس واستردها جميعها واسترد كذلك ما كان بيد الروس بعد حروب هائلة جدا كادت تخرب بسببها الاناطولى وغيرها وجعل نادرشاه من هذا الحين يشن الغارة على الحدود العثمانية ولا ينكف عن السلب واراقة الدماء فكبر أمره على أصحاب الحل والعقد وأنكروا هذه الاحوال على ابراهيم باشا الصدر الاعظم ورموه بالمروق عن جادة العمل وتبعهم العامة فى ذلك فطعنوا فى الصدر وقالوا انه ترك ما كان عليه أسلافه من الاعتناء بتدريب الجند وتنظيم أحوال المقاتلين وانه منغمس فى الملاذ واللعب وقد عوّد السلطان على اللهو والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة فى أيدى الندامى بعد ان كانت لاتعطى الا لاهل الخبرة والدراية بجميع الامور والمستعدين للقيام بها من المجاهدين وانه ترك لنادرشاه ما كان قد استولى عليه بالحرب والجهاد فلما أنس ابراهيم باشا منهم ذلك أخذ يستعمل الحيلة فضرب السرادقات الهمايونية فى اسكدار لارهاب نادرشاه المذكور وأذاع السفر الى بلاد

فارس

فارس للانتقام منـه ولبث على هـذه الحال عدة أيام فاشمأزت من ذلك النفوس وتكدرت خواطر الناس وظهرت الفتنة فى القسطنطينية وتأججت نارها وارتفع لهيبها وكان بعض محبى الصدر الاعظم قد حذروه أمر الفتنة فلم يلتفت لقولهم وكذلك تقدم بعضهم الى كتخدا بك وحـذره وقال ان الخطب شديد والفتنة قائمة فانكر عليـه ذلك وأنبه واجتمع جماعة من أركان الدولة وأبلغوا السـلطان ما كان عليه الناس من الهياج والفتنة ان طال بقاء الصدر فى منصب الصدارة فلم يلتفت لقولهم نظرا لعلو مكانة الصدر عنده فانكمش أهل النصح ولبثوا ينتظرون مايظهره القضاء وقد اتسع الخرق واشتدت نار الفتنة فرسم الصدر عند ذلك باخراج البيرق الشريف • وهو بيرق صاحب الشريعة المحمدية • ونادى بالاجتماع حوله فلم يلتفت أحد للنداء وطاف العامة يفسدون وينهبون كل ماوصلت اليه أيديهم وكان زعيم هذه الفتنة رجلا اسمه بطرونا خليل

فلما كان خامس عشر ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وأربعين ومائة و ألف هجرية سير بطرونا المذكور الى السراى السلطانيـة جماعة يطلبون قتل الصـدر الاعظم والمفتى وقبطان باشا السفن الحربية فامتنع السلطان من اجابة الطلب فشـددوا وهـددوا وتوعدوا بما لاخير فيه فخاف السـلطان شرهم و رسم لهم بقتل الصدر وأمير سفن الحرب ومانع عن المفتى فقتلوهما وألقوا جثتهما فى البحر على مشهد من جميع الناس • ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عاد أهـل الثـورة الى الهياج والجلبـة والتطـواف فى شـوارع القسطنطينية وهم ينادون بخلع السـلطان وتنزيله عن منصب الخلافة وتوليـة ابن أخيـه السلطان محمود الاول بدله ثم ساروا الى السراى السـلطانية وأبلغوه ذلك فأسرع الى اجابتهـم وخلع نفسه و بايع ابن أخيه بالملك وذلك فى ليلة التاسع عشر من ربيع الاول سنة ثلاث وأربعـين ومائة وألف هجرية و بقى معزولا الى ان توفى فى أول المحرم افتتاح سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته زهاء سبع وعشرين سنة

(الفصل السـابع عشر)

(فى سلطنة السلطان محمود خان الاول)

ثم قام بالامر بعد السـلطان أحمد ابن أخيه السلطان محمود خان الاول ابن السـلطان مصطفى بويع بالملك فى الليلة التى خلع فيها عمه ليلة التاسع عشر من ربيع الاول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية أى سـنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وقد تولى والامور فى اضطراب والاحوال فى اختلال ولا كلمة فوق كلمة البطرونا خليل فانه منذ خلعه السلطان



أحمد وقتله للصدر الاعظم وأمير سفن حرب الدولة بسط يده على جميع الامور وصار يتصرف في اعمال الدولة كيف شاء فأكثر من العزل والتولية وسام الناس الخسف ولم يفرق بين الجليل والحقير فأمر ونهى وجار وظلم وكان اذا رأى من طوائف الانكشارية تذمرا بالغ في التضييق عليهم وشدد وأوقع بكبارهم فيخافون ويخلدون الى السكون صاغرين فلما ضاق بهم الخناق ونفد منهم الصبر اجتمع كبارهم حول السلطان وحببوا اليه قتل البطرونا خليل المذكور وكان السلطان يتمنى حصول ذلك فوافقهم فقاموا وركبوا عليه فقتلوه وتأهبوا لقتال أصحابه ان هم قاموا للاخذ بثاره فلم يقو أصحابه على الخروج وأوقعت بهم طوائف الانكشارية وأعملوا في كبارهم السيف فعادت الامور الى سابق مجراها من الهدو والسكينة وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وانطلقت كلمة السلطان فتصرف ودانت له الامور فسير الجيوش لقتال ملك فارس واسترجاع ماأخذه من الايالات على أيام عمه السلطان أحمد فوقعت بينه وبين العسكر السلطاني عدة حروب كان النصر فيها لعسكر السلطان ثم أقام عثمان باشا الاعرج أحد مقدمي العسكر الموصوفين في المعامع والحروب سرعسكر لجيوش الشرق فقاتل ملك فارس وظفر به في صحراء كركوك ومزق شمل عساكره ففر ملك فارس مجروحا ثم عاد في جيش جرار للقتال ثانية فكانت الحرب بين الفريقين سجالا وطالت أيامها فمات في خلالها السرعسكر عثمان باشا وأرسلت الدولة الى ملك فارس في طلب الصلح فأجابها اليه بشرط رد جميع ماأخذته الدولة من مملكته وارجاع حدود الدولتين الى ماهو مذكور في معاهدة ابراهيم باشا فتم الصلح على هذا الوجه وبطلت الحرب وارتفعت أوزارها

ورأت النمسا ان الدولة بعد عقد الصلح مع فارس تفرغت أو كادت ولا بد من ان تتوجها الشرور نخافت ولم تمهلها وحشدت في سنة ثمان وأربعين ومائة وألف جيشا عظيما واتفقت معها أيضا حنة قيصرة الروس على هذه الحرب فساقت عسكرها على عسكر الدولة تحت قيادة الجنرال مونيخ فجعل القائد المذكور يذيع الخبر بأنه سيحيى بهذه الغزوة دولة الروم القديمة ويعيد لها مجدها الاول ففرح بذلك الروم واشرأبت نفوسهم الى هذا المأمول وتلقى أهالي البغدان عساكر الروس عند دخولهم الى بلادهم بالفرح والقبول وسهلوا امامهم السبل والعقبات فاشتبك القتال بين الروس والعثمانيين وتمزق جمع العثمانيين وأبلى فيهم الروس بلاء حسنا وأخذوا اقليم البغدان واحتلوا مدينة ياسي عاصمة الاقليم المذكور وانتصرت عساكر النمسا أيضا وأغارت على بلاد البوسنه والصرب والفلاخ فكبر كبد الدولة وكادت تسقط في يدها ۞ واتفق انه تولى في هذه الاثناء مسند الصدارة الحاج محمد باشا وهو من نخبة السياسيين المشهورين بالكياسة وحسن التدبير فرأى من تقهقر عساكر الدولة وانتصار الاعداء عليهم ما اد هشه فأسرع في حشد الجيوش واعداد المعدات وسار لمنع تقدم العساكر الروسية وايقافهم عند حدهم وسير فريقا آخر لقتال عساكر النمسا فظفروا بهم وانتصروا عليهم وانهزموا شر هزيمة

وتقهقروا الى ماوراء نهر الدانوب ثم ساق الحاج محمد باشا بعسكره فرافقه النصر وقيض الله له الظفر فركنت النمسا عند ذلك الى طلب الصلح ووافقها أيضا على طلبه حنة قيصرة الروس وخابروا الحاج محمد باشا فى أمره وسعت الرسل بين الفريقين وبعد أخذ ورد تمت شروطه على تنازل النمسا للدولة العثمانية عن مدينة بلغراد وجميع ماأعطى لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى المعاهدات السابقة لهذه الحرب وتعهدت كذلك قيصرة الروس بهدم قلاع وحصون مينا أزاق وعدم اعادتها مرة ثانية وبعدم انشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الاسود أو بحر أزاق وبأن ترد للدولة العثمانية جميع ماأخذته من الاقاليم والبلدان قال أحد الكتاب وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد ولماتم الصلح على ماذكر بطلت الحرب وسكنت القلاقل أياما كثيرة

مطلب
عزل أحمد باشا كبر باشا وولاية عبدالله باشا التكفورلى

وما كانت هذه الحروب المتتابعة والخطوب المتواصلة لتشغل رجال الدولة عن كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر فانه لما تولى السلطنة السلطان محمود خان كان الوالى على مصر من قبل السلطان أحمد باكير باشا فجاءه الامر بالعزل وتولاها عبدالله باشا التكفورلى فدخل القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية * قال أصحاب التاريخ وكان من أرباب الفضائل وأصحاب المعارف العالية والعلم والشعر وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله الى أهل العلم والادب فقال بعضهم

ولما جاء مصرا أرخوه * لقد سعدت بعبد الله مصر

لقد	سعدت	بعبد	الله	مصر
١٣٤	٥٣٤	٧٨	٦٦	٣٣٠

سنة ١١٤٣

يظهر ان المؤرخ احتسب ألف الله المحذوفة رسما المثبتة لفظا واحدا ليكون تاريخ حضوره مصر سنة ١١٤٣ كالحقيقة اﻫ مؤلف

وكان خيرا صالحا منقادا للشريعة أبطل المنكرات وحانات الخمارين ومواقف الومسات والبوظة من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة وجعل للوالى والمقدمين عوضا عما كان مرتبا لهم على تلك الحال فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشوات وكتب بذلك حجة شرعية ولعن فيها من تسبب فى اعادة تلك الحال ولم يحدث فى أيامه شئ يذكر اذ كانت خصيرة جدا حيث عزل فى أواخر سنة أربع وأربعين ومائة وألف هجرية

مطلب
عزل عبدالله باشا وولاية محمد باشا السلحدار

وتولى بعده محمد باشا السلحدار والى البصرة فدخل القاهرة فى أوائل سنة خمس وأربعين ولبث يتصرف الى سنة ست وأربعين ولم يعمل فى أيامه عملا يذكر وجاء الخبر بعزله وتولية عثمان باشا الحلبى فحضر الى مصر عن طريق العريش ونزل بالعادلية ولاقته أرباب العكاكيز وأصحاب الوظائف فصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل ونزل منها محمد باشا المعزول وسافر الى الديار الرومية فأخذ عثمان باشا يتصرف وجاءه فرمان السلطان باحصاء اليهود والنصارى وجمع ماعليهم من الجزية فى كل بلد العالى أربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسبعون والدون مائة نصف فاهتم عثمان باشا بالامر وقيد بذلك عمالا فطافوا البلاد كافة وأحصوا أهلها وفعلوا من الجور والعسف بأهل البلاد مالا يكيف فضج

مطلب
عزل محمد باشا السلحدار وولاية عثمان باشا الحلبى

الناس وشكوا فلم يلتفت اليهم وظل الحال على ذلك حتى دخل شهر رمضان واشتغلوا بظهور رجل تكروري بالجامع الازهر يدعى النبوة وقد ذاع خبره وكادت تتم شهرته فأحضروه بين يدى الشيخ أحمد العماوى فسأله عن حاله فأخبره انه كان فى شربين فنزل عليه جبريل وعرج به الى السماء ليلة سابع عشرى رجب فصلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل فلما فرغ من الصلاة أعطاه ورقة وقال له أنت نبى مرسل فانزل وبلغ الرسالة وأظهر المعجزات فلما سمع الشيخ كلامه قال له أنت مجنون فقال لست بمجنون وانما أنا نبى مرسل فأمر به فضربوه وأخرجوه من الجامع فجعل يطوف الازقة والحارات ويكثر من الجلبة والصياح فسمع عثمان كتخدا بخبره فأحضره وسأله فقال مثل ما قاله للشيخ فبعث به الى دار المجانين فاجتمع الناس وكثرت حوله العامة رجالا ونساء وكادوا يصدقونه ويدفعون عنه الايذاء مخافة الوالحشر العاقبة وأمر فأخفوه عن أعين الناس لتسكن الفتنة ثم طلبه الباشا وأمر بحبسه فحبسوه ومنعوا من دخول أحد اليه أياما * فلما كان النصف من رمضان اجتمع العلماء وأحضروه بين أيديهم فسألوه فلم يتحول عن كلامه فعالجوه فشدد فأمروه بالتوبة فامتنع وصمم على ماهو عليه فأمر الباشا بقتله فقتلوه فى حوش الديوان وهو يقول * فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل * ثم أنزلوه وألقوه بالرميلة ثلاثة أيام فكاد الناس يفتتنون ولم تهدأ الخواطر حتى شاع بين الناس بالقاهرة ومصر القديمة ان القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع وأربعين وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والارياف وودع الناس بعضهم بعضا وهم بين راغب فى التوبة وداع بطلب المغفرة وباك على مافات من أيامه ومنهم من كان يقول لرفيقه بقى من عمرنا يومان فقد كانت هذه الاشاعة فى يوم الاربعاء رابع عشرى الحجة * وانتشر أهل الخلاعة فى الجنائن والمنتزهات ليودعوا الدنيا كما كان يقول بعضهم لبعض وخرج أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى النيل ومن الناس من علاه الحزن والوهم واعتقدوا صحة الاشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم موقعا عظيما وكثر فيهم الهرج واشتد بهم الخوف فتعطلت الاعمال وكادت تقفل الاسواق وما زالوا على هذا الحال الى يوم الجمعة فلم يقع شئ مما كانوا يتوقعون ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت فلم يقع كذلك شئ * قال صاحب عجائب الآثار فانتقلوا يقولون فلان العالم قال ان سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم فيقول الآخر اللهم نفعنا بهم فاننا بأخى لم نشبع من الدنيا وشارعون فى عمل حظ ونحو ذلك من الهذيانات اه

مطلب
عزل عثمان باشا وولاية باكير باشا الولاية الثانية

وأقام عثمان باشا يتصرف فى الولاية الى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف هجرية ثم عزل وتولى بعده باكير باشا وهى ولايته الثانية فكانت مدة تصرف عثمان باشا سنة وخمسة أشهر وحضر باكير باشا من جدة الى السويس اذ كان واليا بجدة بعد عزله من ولايته الاولى على مصر وكان دخوله القاهرة فى يوم السبت رابع عشرى شوال سنة سبع وأربعين

ومائة

ومائة وألف وصعد الى القلعة فى موكب حافل للغاية وخلفه من الحشم والاتباع زهاء الثلاثين على ظهور الخيل الملبسة بالزروخ المذهبة وله من الاولاد خمسة ذكور ركبوا أيضا امامه فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكلف وفساد العملة فلم يلتفت لصراخهم وسار حتى صعد القلعة ولم يلبث حتى جعل يدس الدسائس بين الامراء وسار يعمل على فساد أمورهم وتفريق كلمتهم وما زال حتى كاد يتم له ماأراد ولكن ظهر فى غضون ذلك الطاعون وفشا فى المدينة وانتشر فى البلاد قاطبة وفتك بالناس فتكا ذريعا لم يسبق له مثال فسماه العامة طاعون كو وسموه أيضا الفصل العاتى يأخذ على الراتق ومات به خلق كثير للغاية وكان فعله كثيرا فى الاعيان فكانت الناس تدفن الموتى فى ضوء المشاعل حتى كاد لايوجد من يدفن الموتى التى كانت تقع فى الشوارع والحارات واشتد شدة بالغة جدا وطالت أيامه ٭ وبينما الناس على هذا الحال من الشدة وهم يضجون ويعجون الى الله من كثرة الموات اذ اضطرمت نار الفتنة بين الامراء وعلا لهيبها واستدسعيرها ٭وتحرير الخبر٭ان كاشفا اسمه صالح زوج ابنة ايواظ بك كان ملتجئا الى عثمان بك ذى الفقار وكان صالح هذا من القاسمية فحرضته زوجته على طلب امارة القاسمية فطلب من عثمان بك أن يساعده على ذلك فوعده وخاطب محمد بك قيطاس المعروف بقطامش وهو اذ ذاك كبير القوم فى ذلك فلم يجبه خوفا من أن يعود القاسمية الى مظهرهم القديم فيظفروا بالفقارية ويستأصلوا شأفتهم بعد الذى وقع بين الفريقين فبعث عثمان بك بصالح المذكور الى البحيرة كاشفا نائبا عنه حيث كانت له فلما كملت السنة رجع الى القاهرة وتحركت همته الى طلب الامارة وألحت عليه زوجته فى ذلك فعاود عثمان بك فى الخطاب وهو تكلم مع محمد بك فصمم محمد بك على الامتناع ووافقه على ذلك على بك تابعه وآخر اسمه خليل أفندى فذهب صالح المذكور الى عثمان كتخدا القزدغلى وشكا اليه حاله وما يلاقيه من قيطاس ثم بكى واستمال عثمان كتخدا المذكور تابعه وخليل أفندى على أن يكونوا معه على قيطاس فقام القزدغلى من ساعته واجتمع برضوان بك أمير الحاج سابقا وسليمان بك الفراش وتكلم معهما فى أمر قتل المذكورين فوافقاه على أن يكون قتلهم فى بيت محمد بك الدفتردار على علم من باكير باشا الوالى وأخبروا محمد بك بذلك فرضى وكتب بطلب اجتماع الامراء كافة فى بيت الدفتردار للمداولة فى أمور الخزينة فركبوا جميعا الى بيت قيطاس بعد العصر ومن هناك توجهوا معه الى بيت الدفتردار فلما تكاملوا ولم يبق منهم أحد أمر محمد بك قيطاس بتحرير عريضة وأملى الكاتب بصورة مايكتب فخرج الكاتب وكان قد دخل الغروب فأراد القوم الانصراف فوقف الدفتردار وقال مهلا هاتوا لنا شربات وكان هذا القول هو الاشارة مع صالح المذكور وعثمان كاشف وآخر من مماليك سليمان بك ففتحوا باب خزانة كانت بالمكان الجالسين فيه فخرج منها جماعة على رؤسهم طرابيش وبأيديهم الاسلحة فوقف عند ذلك محمد بك قيطاس على أقدامه مذعورا فأطلق عليه

أحدهم طبنجة فى صدره ووقع الضرب وهاج من كان فى المكان وامتلأ المكان بدخان
البارود وظلام الليل فلم يعلم القاتل من المقتول وألقى على الترجمان بنفسه من شباك مطل
على الجنينة وأصاب عثمان بك ذا الفقار ضربة سيف قطعت شاشه وناولوه فأخذ بيده
صالح صاحب هذه الفتنة وأنزله فنجا بنفسه وركب حصان أحمد الطوائف وخرج من
باب البركة وأصيب مستحفظان البرلى بجراح عظيمة فحملوه الى بيته ثم أوقدوا الشموع
ونظروا الى الاموات واذا هم محمد بك قيطاس وعلى بك تابعه وصالح بك وعثمان بك كتخدا
القازدغلى وأحمد كتخدا الخربطلى ويوسف كتخدا البركاوى وخليل أفندى وأغات الجملية
وعلى صالح بربجى والاسباهى فكانت عدتهم عشرة غير مستحفظان البرلى الذى مات
بجراحه بعد ثلاثة أيام فعروا المقتولين من ثيابهم واحتزوا رؤسهم وأتوا بهم الى جامع السلطان
حسن فوجدوه مغلقا فأحرقوا الباب الذى جهة سوق السلاح ووضعوا الرؤس العشرة
على الدرج ووضعوا عند كل رأس شيأ من التبن ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح كاشف
رأس هذه الفتنة الى باكير باشا ليلا من باب الميدان وأعلمه بما جرى فخلع عليه رتبة الامارة
فطلب منه مالا يفرقه على العسكر المجتمعين اليه فوعده بأن يرسل اليه ماطلب فنزل
صالح الى جامع السلطان حسن فوجد محمد كتخدا الداودية وأتباعه وجماعة آخرين
فلبث معهم ينتظر المال وصعد عمر جلبى ابن على بك قيطاس بطائفة من قومه الى باكير
باشا يطلب بثار أبيه وكان وصوله بعد نزول صالح كاشف فخلع عليه الباشا امارة أبيه
قيطاس ورسم له بقتال قاتلى أبيه ومن معهم وكان يود لوانهم يقطعون بعضهم بعضا فنزل
ابن قيطاس وأصحابه وامامهم بيرق من المحجر خلف جامع المحمودية وبيت الحصرى وزاوية
الرفاعى وعملوا متاريس على باب الدرب قبالة باب جامع السلطان حسن وجعلوا يطلقون
بنادقهم تباعا على كل من يمر بهم من الخصوم وعلى من هم بجامع السلطان حسن وكذلك
من باب العزب وبيت الاغا • اما صالح كاشف رأس هذه الفتنة فانه لبث ينتظر حصول المال
للنفقة على الجند فلم يرسل له الباشا شيأ فخاف وخشى العاقبة ونزل الى خان الخليلى ومعه
رضوان بك وعثمان كاشف وعلوك من مماليك سليمان بك واختفوا وظل ابن قيطاس
وأصحابه يوالون الرمى على الجامع حتى انقطعت أصوات بنادق من كانوا به فاقتحم هو
وأصحابه باب الجامع فلم يجدوا به أحدا فرجعوا وباتوا ليلتهم خلف المتاريس فلما أصبحوا
ذهبوا الى بيت الدفتردار ونهبوه ونهبوا بيت رضوان بك ودخلوا على سليمان بك فقتلوه
واحتزوا رأسه ونهبوا مافى بيته فلما رأى كبار الوجاقات مابلغت اليه هذه الفتنة وانها انما
هى بايعاز من باكير باشا قاموا على قدم رجل واحد وأحاطوا بالقلعة وأنزلوا باكير باشا
ذليلا مقهورا وسجنوه وكتبوا الى دار السلطنة بما وقع وطلبوا ارسال وال آخر فأرسل
السلطان الامير مصطفى باشا أمير اخور لضبط أموال من قتلوا فى هذه الفتنة فلبث شهرين
ثم ورد الامر بولايته فتولاها فكانت مدة تصرف باكير باشا سنة وبضعة أشهر

مطلب
عزل باكير باشا وولاية
مصطفى باشا أمير اخور

وجعل

مطلب
عزل مصطفى باشا وولاية سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم

وجعل مصطفى باشا المذكور يتصرف الى سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية ثم عزل ولم يقع فى أيامه شئ يذكر ووّلاها سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم فلما استقر به المنصب عمد الى ايقاد نار الفتنة ثانية بين أمراء الوقت وجعل يدبر لذلك فاستمال اليه عمر بك ابن على بك قطامش واختصه لنفسه ثم كاشفه بما فى ضميره واتفق معه على قتل عثمان بك ذى الفقار وابراهيم بك قطامش وعبد الله كتخدا القزدغلى وعلى كتخدا الجلفى وهم اذ ذاك أصحاب الرئاسة ووعده امارة مصر والحاج انهو أنفذ ذلك فجمع عمر بك أربعة من اخصائه وأطلعهم على ماوقع الاتفاق عليه مع الباشا فتعهد كل واحد بقتل واحد منهم فكان أول من قتل منهم على كتخدا قتله رجل اسمه لاظ ابراهيم عند بيت اتبرى وهو صاعد الى الديوان وشاع خبر قتله ففرح الباشا بذلك ظنا منه أن قد قضى الامر فهم بضبط باب العزب وسير لذلك مائتى جندى فمنعهم جند الباب من العبور وطلب متولى الباب اثنين من كبارهم يسألهما عن مرادهم فقالا انا أتينا لتشفع لنا عند الباشا فانه لم يعطنا علائفنا فأرسل معهم من يشفع لهم فلم يفلحوا فى هذه المرة ثم انكشف أمر الباشا وانفضح سره فقام حسين بك الخشاب وصعد الى باب العزب وما زال بمتوليه حتى أنزله وتولى هو أشغال الباب وجمع اليه جميع أصحابه بالمكان الذى كان فيه الباشا وأرسلوا يقولون له انزل الى قصر يوسف بك فركب من ساعته وأراد العبور من باب الانكشارية فوجهت أصحاب الباب أفواه البنادق نحوه فعاد ودخل قصر يوسف بك ثم نزل بعد أيام الى بيت البيرقدار وما زال به حتى سافر الى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه الى شهر جمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف هجرية وكانت أيامه كلها قلاقل واضطرابات * وتولى بعده الوزير على باشا حليم اوغلى وهى الولاية الاولى على مصر فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وأقام الى عاشر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين فكانت أيامه كلها هدأ والطمأنينة والفتن فيها راقدة ثم جاء الامر بخلعه فنزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت القازدغلى ولبث ينتظر الوالى الجديد * فجاء الى القاهرة يحيى باشا وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وصعد اليه على باشا المخلوع فلاقاه وأكرمه ثم نزل هو كذلك فسلم عليه وسرحه فسافر الى الديار الرومية وأخذ يحيى باشا يتصرف فى الامور الى أن جاءه الامر بالعزل مستهل رجب سنة ست وخمسين ولم يقع فى أيامه شئ يذكر * وتولى بعده محمد باشا اليدكشى فلما استقرت به الولاية لم يأت عملا ماسوى النهى عن تعاطى الدخان فى الشوارع والدكاكين والجلوس على أبواب البيوت وشدد فى ذلك جدا فكان يطوف الاغا والوالى وهما فى التبديل كل يوم ثلاث مرات وشددا فى الانكار والنكال عن يفعل ذلك وكان الوالى اذا رأى فى يد أحد انبوبة الدخان عاقبه وربما أطعمه حجر الانبوبة الذى يوضع فيه الدخان بالنار وكذلك كان يفعل الاغا ولم يأت من أعماله شيأ غير ماذكر حتى جاءه الامر بالعزل سنة ثمان وخمسين فكانت مدة تصرفه نحو سنتين ففرح الناس بخلعه فرحا لايوصف * وتولى بعده محمد راغب باشا

مطلب
عزل سليمان باشا وولاية على باشا حليم أوغلى

مطلب
عزل على باشا وولاية يحيى باشا

مطلب
عزل يحيى باشا وولاية محمد باشا اليدكشى

مطلب
عزل محمد باشا اليدكشى وولاية محمد راغب باشا

وحضر الى الاسكندرية فذهب لملاقاته أصحاب العكاكيز وأرباب الرتب العالية فلما استقرت
به الولاية أخذ يدبر الحيلة لقتل من بقى من الامراء أصحاب الوقت واستمال اليه حسين بك
الخشاب واستخلصه ثم كاشفه بما فى نفسه ثم اقسما الايمان على أن لايخونا بعضهما وأعلمه
أن السلطان محمود انما يريد قطع دابر بيت القطامشة والدمايطة وهم أصحاب الكلمة يومئذ
فأجابه الى مرغوبه وهون عليه الامر وأخذ من يومه يدبر الحيلة ويتبين أنفع الوسائل
وأحسن الطرق حتى اجتمع بمن يعتمد عليه من أصحابه وأخبرهم بما عمله من الباشا فاتفقوا
على قتل كبارهم بالديوان عندصعودهم اليه وتحالفوا على ذلك وأغلظوا فى الايمان فلما كان
يوم الديوان أخذ الامراء فى الحضور جماعة بعد جماعة وحضر بينهم خليل بك وعلى بك
الدمياطى ومحمد بك وجلسوا فى أماكنهم فبرز شخص اسمه عثمان أغا اغات المتفرقة وجلس
بجانب خليل بك وقال له لماذا لم تدخل على الباشا وقد مضى عليك أيام ولم تفعل ذلك فقال
خليل بك دعنا فانا لسنا ممن يهتم بأمره وقد تركناه لك فأظهر عند ذلك عثمان أغا المذكور
الغيظ وصاح فى وجه خليل بك وكأنك تهزأبى وجرد خنجره فى الحال وطعن خليل بك
فسقط ميتا لاحراك به وكان بقية المتآمرين مختفين فلما سمعوا الصياح خرجوا جميعا
والسيوف بأيديهم مسلولة فضربوا عمر بك بلاط واحتزوا رأسه ورأس خليل بك فهرب من
كان بالمجلس ودخلوا بالرأسين على الباشا وهرب على بك الدمياطى ومحمد بك ونزلا الى نوبة
الجاويشية واختفيا فيها فأرسل الباشا يطلبهما وقال ان السلطان رسم بذلك فأتوا بهما اليه
فأمر بهما فقطعت أعناقهما أيضاوعم خبر ماجرى الآفاق فخاف من بقى من الامراء وتجرد
ابراهيم بك وعمر بك وسليمان بك الالفى للمقاومة فرسم الباشا بقتالهم وأمر العسكر بالتأهب
لذلك فاجتمعوا وأخذوا مالزمهم من آلات الحرب والمدافع والمكاحل وساروا إلى القاهرة ونصبوا
بعض مدافعهم على قنطرة سنقر وكان بها بعض أولئك المشاغبين فلم يقووا على القتال مع
العسكر وتفرقوا إلى الاقاليم القبلية فدخلت العساكر بيت ابراهيم بك ونهبوه وكذلك نهبوا
بيت خليل بك وذهبوا الى بيت على بك فوجدوا فيه مصحفا قد احتله وامتلكه بما فيه فلم
يتعرضوا له وكذلك لم يتعرضوا ليوسف بك ناظر الجامع الازهر بسوء

ولم تكد تجف دماء الذين قتلوا بالديوان حتى طلب الباشا من حسين بك الخشاب أن
يعمل على قتل ابراهيم جاويش القازدغلى ورضوان كتخدا الجلفى وأطمعه فى ولاية الامر
والانفراد بالكلمة فتعهد له بذلك وقام لساعته يدبر أمره مع أصحابه الذين عليهم معتمده فاتضح
أمره وانكشف سره وعلم ابراهيم جاويش ورضوان كتخدا بالمكيدة فقاما وقامت معهما الجند
والعسكر وامتلأ باب الانكشارية وباب العزب بطوائف الجند واجتمع أمراء العسكر
كافة بسبيل المؤمن والاسباهية بالرميلة وأرسلوا يطلبون من الباشا مرسوما بالركوب على
بيت حسين بك الخشاب وقتله فلم يرض وامتنع فبعثوا له طائفة من كبار العسكر يطلبون
ذلك فان أبى أنزلوه من القلعة فامتنع فأنزلوه هو وجميع عياله وأتباعه من قراميدان الى أن

صار

سار بالرميلة فاراد أن ينزل على شيخون إلى بيت حسين بك الخشاب واذا بالعزب المرابطين
في جامع السلطان حسن أطلقوا عليه البنادق لرده فقتل أحد أتباعه فنزل على بيت آق
بردى الى بيت ذى عرجان تجاه المظفر فارسلوا اليه ابراهيم بك بلفية صحبة كتخدا الجاويشية
فلم يرد امن أن يوليه النيابة وعاد ابراهيم بك الى بيته فأخذوا منه مرسوما بجر المدافع الى ناحية
الصليبة وسار أمراء الجند يتقدمهم عمر بك أمير الحاج وآخرون أمثاله واحتاطوا ببيت
حسين بك الخشاب وبيت محمد بك أباظه من الجهات الاربع فحاربهم من داخل
البيت من الصباح الى الظهر وكان فى أثناء المناوشة يخرج أمتعته وأمواله وأثقاله وهم
لايشعرون فلما لم يبق فى البيت شئ خرج بمن معه من أصحابه وأتباعه إلى ناحية زين
العابدين وسار إلى الاقليم القبلى وكذلك هرب عمر بك ابن على بك فى طائفة من أصحابه الى
أرض الحجاز ودخل العسكر بيت حسين بك الخشاب بعد انقطاع أصوات البنادق
والمدافع فلم يجدوا فيه شيأ وكان ذلك فى أواخر سنة احدى وستين ومائة وألف فعاد كل
الى مقره وسكنت الفتنة قليلا وجعل ابراهيم بك بلفيه بتصرف ومحمد راغب باشا محجور
عليه الى أن سافر الى الديار الرومية فكانت مدة ولايته سنتين ونصفا وجاء الخبر بولاية الوزير
أحمد باشا المشهور بكور وزير ووصل الى الاسكندرية فنزل اليه الملاقون وأرباب العكاكيز
وأصحاب الخدم فدخل القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فى غرة المحرم
افتتاح سنة اثنتين وستين ومائة وألف وعمل الديوان وخلع الخلع على الامراء والاعيان
والمشايخ ولكنه لم يتمكن من التصرف اذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لابراهيم
بك جاويش ورضوان كتخدا وهما صاحبا العقد والحل فأقام فى المنصب الى عاشر شوال سنة
ثلاث وستين ومائة وألف وجاء الخبر بعزله وولاية عبد الله باشا فكانت مدة تصرفه سنة
وعشرة أشهر وكان عالما مدققا فاضلا كريما محبا للعلم والعلماء مقربا اليهم وكانت أيامه هادئة
مطمئنة لم يقع فيها شئ من الحوادث والفتن * قال بعض الكتاب وكان مولعا بالرياضيات وعمل
عدة منحرفات على الواح كبيرة من الرخام صناعة وحفرا وعمل له تاريخا منظوما نقشه
عليها وهو

مزولة متقنة * نظيرها لايوجد
راسمها حاسبها * هذا الوزير الامجد
تاريخها أتقنها * وزير مصر أحمد

٥٥٧   ٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣

سنة ١١٦٣

ونصب من هذه المنحرفات واحدة بالجامع الازهر فى ركن الصحن على يسار الداخل
بالركن فوق رواق معمر وهى لفضل دائر العصر وأخرى بسطح جامع الامام الشافعى وفيها
خيط مسائرة وفضل دائر وقسى عصر وفضل دائر الغروب وأخرى بمشهد السادات الوفائية
وهى بشاخص الظهر والعصر اه

مطلب
ولاية أحمد باشا كور وزير

مطلب
عزل أحمد باشا وولاية
عبد الله باشا

مطلب
عزل عبد الله باشا وولاية محمد أمين باشا

وحضر الشريف عبد الله الى الاسكندرية ونزل أحمد باشا من قلعة الجبل الى بيت البيرقدار وسافر الملاقون الى عبد الله باشا فدخل القاهرة في رمضان سنة أربع وستين فأقام الى سنة ست وستين * ثم عزل عنها ولم يقع فى أيامه شئ من الحوادث والفتن وولى حلب فنزل الى القصر بقبة العزب وهاداه الامراء وسار الى حلب فتولى بعده محمد أمين باشا فكانت ولايته سنة وبضعة أشهر لاشئ فيها من الحوادث أو الاحن ودخل محمد باشا المذكور القاهرة وصعد الى قلعة الجبل وهو مريض فلبث شهرين على فراش الاوجاع ومات فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف ودفن بجوار قبة الامام الشافعى فبقيت مصر بلا وال سنة وخمسة أشهر والكلمة يومئذ لابراهيم بك ورضوان بك * وفى خلال هذه الحوادث حضر الى القاهرة من دار السلطنة بطرك الروم ومعه مرسوم سلطانى بمنع نصارى الشوام من الدخول الى كنائس الفرنجة فاذا دخلها أحدهم عوقبوا جميعا بدفع غرامة قدرها ألف كيس لخزينة السلطنة واستفاض الخبر بذلك بين الشوام ثم أعقب ذلك ان سير ابراهيم كتخدا فى طلب أربعة من قسيسى الفرنجة فجاؤا بهم فحبسهم وأخذ منهم مالا كثيرا ومع ذلك لم تنكف الشوام عن الدخول الى كنائس الفرنجة فانكشف الغطاء وبرح الخفاء عن أنها حيلة من بنات أفكار ابراهيم بك لحصوله على المال من قسيسى الفرنجة * واتفق عقب هذا الحادث بقليل ان قصد القبط بمصر الحج الى بيت المقدس وكان عظيمهم يومئذ المعلم نيروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية سنية وألف دينار فكتب له فتوى وجوابا يتضمن ان أهل الذمة لايمنعون من القيام بشعائرهم الدينية وزياراتهم فشرعوا فى قضاء أشغالهم ثم خرجوا فى هيئة وأحمال ومواهى وتختروانات فيها النساء والاولاد ونصبوا خيامهم عند قبة العزب وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم وشاع أمر خروجهم بعد أيام فاستعظم المسلمون ذلك وأنكروه واتفق ذهاب الشيخ عبد الله الشبراوى الى بيت الشيخ البكرى لزيارته أخى البكرى حيث كان مريضا فلما استقر به المكان قال له البكرى متهكما ماهذا الحال ياشيخ الاسلام كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الفعال هل كان ذلك لانهم أرشوك وهادوك فقال ان ذلك لم يكن قال بل أرشوك بالف دينار وهدية وعلى ذلك تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من هذا ويصنعون لهم محملا ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سنة عليك وزرها الى يوم القيامة قال صاحب عجائب الآثار فقام الشيخ الشبراوى وخرج من عند البكرى وهو مغتاظ وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب مامعهم وخرج عليهم كذلك طائفة من مجاورى الازهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا مامعهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرداش * قلت وهى كنيسة رويس * قال وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ماصرفوه وأنفقوه فى الهباء انتهى قوله * وولى بعد محمد باشا أمين الذى مات كما تقدم القول مصطفى باشا فدخل القاهرة وصعد الى قلعة الجبل ثالث

مطلب
ولاية مصطفى باشا

عشر ربيع الاول سنة سبع وستين ومائة وألف هجرية واستقر على الولاية الى أن جاءه الامر بالعزل كما سيذكر فى محله

ورأى السلطان محمود بعد تقرير الصلح مع خصومه شرقا وغربا أن لابد من قيام الروس بما على دولة السويد وابتلاعها مضغة لينة ثم لايمنعها بعد ذلك مانع من شن الغارة على بلاده وأخذ كل ما أمكن أخذه منها فجعل يتدبر الامر فحسن له سفير الفرنسيس بدار السلطنة ومثذ تعضيد دولة السويد وعقد محالفة دفاع وهجوم معها ضد الروس وكشف له عما فى ذلك من الفائدة للدولة وكبح جماح الروس ورد كيدهم فوافق السلطان على ذلك وعقد محالفة مع السويد فكانت حدا فاصلا بين الروس وبين مطامعهم السياسية وهدأت الاحوال وسكنت الخواطر وتفرغ رجال الدولة للاصلاح داخلا وخارجا ودبر الصدر الاعظم أمور الدولة فأحسن التدبير وأمضى الاحكام وأزال بعض الخلل وما زال الحال فى هدو وسكون حتى مات السلطان فى يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحو خمس وعشرين سنة قال بعض أصحاب التاريخ وهو آخر ملوك بنى عثمان فى حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الامور والمآثر الحسنة وله كثير من المزايا التى خلدت فى بطون التواريخ * وخلفه على سرير الملك السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان

ومات فى سلطنته يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان ورعا تقيا عالما فاضلا مسموع الكلمة وهو من بلدة طوخ وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس وهو الرابع بعد المائة واسمه مرجان من رهبان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان انبابولا ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل الثامن عشر)

(فى سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمود السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد وقيل ابن مصطفى بويع بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان محمود فى السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية وجاءت بذلك الاخبار الى مصر فدقت البشائر ودخل الامراء والعلماء والمشايخ على مصطفى باشا الوالى يهنونه ثم ورد بعد أيام الى مصطفى باشا فرمان التثبيت فبقى يتصرف فى



مطلب
عزل مصطفى باشا وولاية على باشا حكيم أوغلى

الامور الى أن جاءه الامر بالعزل فى أوائل ربيع الاول سنة تسع وستين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين الا أياما ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وتولى بعده على باشا حكيم أوغلى الولاية الثانية وقدم الى الاسكندرية فنزل اليه الملاقون وأرباب المناصب ثم دخل القاهرة فى يوم الاثنين غرة جمادى الاولى من السنة وجعل يتصرف فسار فى الرعية سيرة حسنة ودبر أمورهم أحسن تدبير وأسكن الفتن وطمن القلوب فلم يقع فى أيامه شئ من الخطوب والمحن واستمر على الولاية معززا محبوبا من الرعية وكان قريب الاعتقاد بالخرافات ميالا الى الزايرجات وأصحابها وكان له تعلق بالشيخ على بن تاج الدين محمد بن الحسن ابن محمد بن سالم القلعى الحنفى المكى لغزارة معرفته بهذه العلوم وكان أول اجتماعه به فى الديار الرومية قيل انه أخبر على باشا بأمور فوقعت كما قال فازداد عنده مهابة وأنزله فى منزل بالقرب من جامع أزبك بخط الصليبة وصار يركب فى موكب حافل مثل موكب الوزير وكان فيه الكرم المفرط والمروءة وسعة الصدر فى اجازة الوافدين مالا وشعرا ومدحه شعراء عصره بمدائح جليلة جدا وكان على باشا لايفارقه قيل ولا يعمل عملا الا باشارة منه فله كثير من المزايا ومع ذلك فقد كان حسن التدبير موفقا محبوبا من الرعية

وسار السلطان عثمان فى الرعية سيرة رديئة للغاية وكثر تحجبه عن الناس وتجسسه على أحوال الرعية فكان كثير الاخذ بالشبهات ظلوما غشوما عسوفا فظا غليظا سفا كا للدماء قيل انه قتل فى أيام سلطنته ستة وزراء فثقلت أيامه على الرعية وأبغضوه بغضا كبيرا وابتهلوا الى الله تعالى وعجوا اليه وظل على هذا الحال من الجور والعسف الى أن مرض واشتدت به علته فمات وجاء الخبر الى القاهرة خامس عشرى صفر سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى ثمونية سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة سلطنته أربع سنوات غير كوامل فخلفه فى الملك السلطان مصطفى الثالث

(الفصل التاسع عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان احمد)

ثم قام بالامر بعد السلطان عثمان السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد بويع بالملك يوم موت السلطان عثمان خامس عشرى صفر سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فاستقرت به الخلافة وكان المتولى الصدارة العظمى الوزير محمد راغب باشا فأقره على منصبه وسلم اليه مقاليد جميع الامور واعتمد عليه فى تدبير مهام الدولة فأحسن التدبير وأحكم السياسة وكان عالما عاقلا رزينا كيسا حازما محبا لنجاح الامة فبالغ فى إصلاح الاحوال الداخلية وأحدث كثيرا من النظامات المألوفة

ورتب

ورتب الامور على مافيه المصلحة فزهت أيامه وسعدت ثم مات فتبدلت بعد موته الاحوال وتغير مجرى الحوادث وتحركت دولة الروس الى نكث العهود وتجردت إلى الشر وطلبت كاترينة الثانية قيصرة الروس يومئذ التداخل فى شؤن مملكة بولونيا فأقامت ستا نسلاس بونياتوسكى ملكا على بولونيا بدل ملكها الذى مات خلافا للعهد المتفق عليه بين الروسية والعثمانية • قال أصحاب التاريخ وقد قصدت كاترينة بذلك العمل بما أوصى به بطرس الاكبر من إزالة الموانع الثلاثة الحائلة بين أملاك الروس وأوروبا الغربية وهذه الموانع هى مملكة السويد ومملكة بولونيا والمملكة العثمانية قالوا وقد تمت إزالة المانع الاول منها بوضع يد الروس على جميع الايالات السويدية وكاد يتم لها زوال الثانى بتولية ستانسلاس عشيق كاترينة ملكا على بولونيا فلم يبق منها سوى الدولة العثمانية فتنبهت الدولة لذلك وحضت خان القرم على قتال الروس فزحف بخيله ورجله وقاتلهم وانتصر عليهم عدة نصرات وخرب الكثير من أملاكهم وسار البرنس جالتسين بعساكر الروس إلى مدينة شوكزيم فحاصرها وضيق عليها فسير السلطان الصدر الاعظم محمد باشا البرشنبى لنجدتها فى عسكر عظيم فلم يفلح فاستعظم السلطان هذا الامر وأكبره وسير إلى الصدر المذكور من قتله وأتى برأسه إلى القسطنطينية وانهزمت العساكر السلطانية مرة ثانية عند نهر دينستر بسبب فيضان النهر المذكور عند عبور العساكر السلطانية له فأعمل فيهم الروس القتل والتغريق وتمكن البرنس جالتسين من الدخول إلى شوكزيم واحتل إيالتى الفلاخ والبغدان

وكانت المراكب السلطانية فى هذه الاثناء تجول فى عرض البحار فلاقتها مراكب الروس فى المضيق الواقع مابين جزيرة ساقص وساحل آسية فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية ثم افترقوا ودخلت المراكب السلطانية ميناجشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس والتصقا بالمراكب السلطانية وألقيا عليها النيران فاشتعل مابها من البارود واحترقت جميعها فكان المنظر مريعا للغاية والخطب عظيم جدا وطال الاخذ والرد بين الدولتين وطالت أيام الحرب والقتال برا وبحرا ثم تخابر الفريقان فى أمر الصلح فشطت الروسية فى الطلب واشترطت على الدولة شروطا مهينة مزرية فأبت الدولة إجابتها الى ذلك وعاد الفريقان الى ما كانا عليه من الحرب والقتال فخرجت من يد الدولة مدينة بندر وعدة من جزائر الارخبيل ودست الروس إلى اليونان والارنؤد فثارا وأشهرا الحرب وخرجا عن طاعة السلطان ونهض أيضا على بك الكبير أحد أصحاب الكلمة بديار مصر يريد الاستقلال بالامصر والخروج عن طاعة السلطان وقام أيضا أحد مشايخ عربان الشام المسمى ظاهر العمر وتملك بعض مدن الشام وأخذ يتصرف فى أمورها تصرف المالك المطلق حتى اختل نظام المملكة وسقطت كلمة السلطان وذهبت هيبته أوكادت واستخف به على بك واستصغر شأنه وهم بالخروج وشق عصا الطاعة وجعل يتأهب لذلك وبينما هو على هذا الحال من التأهب والاستعداد اذ ظهر الطاعون بمصر والقاهرة وكان ظهوره عقب أن أمطرت السماء مطرا



غزيرا جدا سالت منه السيول وامتلأت الأودية واشتد الطاعون شدة بالغة فكثر الموات وصارت الموتى تلقى فى الطرق والحارات لكثرتها وعدم وجود من يدفنها وكثرت الجيف واجتمعت حولها الكلاب تنهشها وطالت أيام الوباء فسمته العامة (قارب شيحة الذى يأخذ المليح والمليحة) واهتم الامراء عند ذلك بدفن الموتى وأعلوا الجهد حتى خف الموت فى أواخر رمضان من السنة ولكنه لم يرتفع تماما إلا فى أوائل سنة اثنتين وسبعين

مطلب
عزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد

وجاءت الاخبار عقب ذلك بعزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد فدخل القاهرة فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فلم يكن لقدومه رونق ولا بهجة بأسباب الطاعون واشتغال الناس بدفن موتاهم ولم يكن لولايته أثر يذكر عند على بك الكبير إذ كانت الكلمة والرياسة يومئذ له لاسيما بعد موت حسين بك القزداغلى على ماتقدم لك بيانه وكان لما ان بسط يده على جميع الامور وقبض على زمام الاحكام ودانت له الرغائب استقدم أصحابه الذين كانوا مبعدين وولاهم المناصب العالية فاتسعت من ذلك الحين كلمته وبعدت شهرته ولكنه كان فى شاغل من جانب عبد الرحمن بك كتخدا المتولى مشيخة البلد فكان لاينكف عن إعمال الحيلة فى قتله ولا تفتر له همة حتى اتفق مع بعض أعوانه على أن يقتلوه بعد قيامه هو بركب الحاج إلى المدينة وأن يولوا بعد قتله على مشيخة البلد خليل بك الدفتردار وبقى الامر مكتوما بينهم حتى قام بركب الحاج فجعل أصحابه يعملون على قتل عبد الرحمن بك فأحس عبد الرحمن بك بالمكيدة واستكشف السر وعلم بخفى أمرهم فأسرع هو إلى عمل الحيلة والتدبير فى تبعيدهم وأغرى بهم على بك بلاط فتمكن من تبعيد خليل جاويش المعروف بحيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الاقطار الحجازية وحسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى إلى فارسكور فتمزق جمعهم وتفرقت كلمتهم * فلما نزل على بك بالعقبة وهو راجع بالحاج علم بما جرى لاصحابه فكتمه وأمر الجند بعمل بعض الاشكال الحربية ليوهم الناس أن الذى جاءه من القاهرة أخبره بخبر يسره ثم سار بركب الحاج إلى قلعة نخل فانحاز إلى القلعة وسلم الحاج والمحمل إلى بعض أمرائه وركب فى خاصته وسار إلى غزة ولبث بها زهاء ثلاثة أشهر وكاتب دار السلطنة ووشى لها فى حق الكثير من الامراء بالديار المصرية وبالغ فى الوقيعة بهم فجعل رجال الدولة يعدونه ويعللونه منه الآمال بنيل اغراضه ومازالوا حتى استصفوا ما معه من مال ومتاع ولم يتم له أمر فعاد الى القاهرة بوساطة صهره فلما دخل القاهرة لم يقم بها سوى ثمانية أيام ومات كمدا وقيل بل أطعمه بعض أصحابه سما فاطمأنت القلوب بموته فقد كان داهية قرما عنيدا كثير الصبر عظيم الجلد

مطلب
عزل محمد باشا وولاية مصطفى باشا الصدر الاعظم وعزله أيضا وولاية أحمد باشا سيلان

وجاءت الاخبار من دار السلطنة بعزل محمد باشا عن الولاية وتعيين مصطفى باشا الصدر الاعظم بدله فدخل القاهرة فى أواخر السنة وأقام يتصرف فى الامور الى سنة أربع وسبعين ومائة وألف هجرية ثم نزل الى القبة متوجها الى جدة ليقيم بها ولم يقع فى أيامه شئ يذكر

وحضر

مطلب
عزل أحمد باشا كامل وولاية بكير باشا وموته وولاية حسن باشا

وحضر بعده أحمد باشا كامل المعروف بسيلان ودخل القاهرة فى أواخر سنة أربع وسبعين فلما استقرت به الولاية صار يشدد فى الاحكام وينزل فى كل يوم لمعرفة أخبار الناس وأحوالهم ويكشف على أرزاق الامراء ومصادر أموال الخزينة السلطانية وغير ذلك وكان شهما شديد العناد فخافه الامراء وخشوا عاقبة أعماله فاجتمعوا وتشاوروا فى أمره فاتحدت كلمتهم على خلعه وصاروا يراقبون الفرص حتى دبروا أمرهم وركبوا عليه يوما فخلعوه وكان مصطفى باشا الوالى المعزول لم يزل بالقاهرة يتأهب للسفر الى جدة فساروا اليه وأصعدوه الى قلعة الجبل وسلموه زمام الامور وشكوا الى دار السلطنة ما وقع وسيروا بشكواهم الشيخ عبد الباسط السنديونى فلما وصلت شكواهم الى صدر الدولة وهو يومئذ محمد راغب باشا سير أحمد باشا المذكور الى ولاية كندية وسير مصطفى باشا الى ولاية حلب ووجه بكير باشا والى حلب واليا على مصر فحضر الى القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فلم يتصرف الا زهاء شهرين ومات مبطونا سنة خمس وسبعين ومائة وألف ودفن بالقرافة فجاءت الاخبار بولاية حسن باشا وقدم الى القاهرة فى أواخر سنة ست وسبعين فكان محجورا عليه لا كلمة له والأمر يومئذ لعلى بيك بلاط فانه بعد موت على بيك الكبير وتشريد كبار عصابته كما سبق ظهر شأن على بيك بلاط وارتفعت كلمته فجمع أصحابه وأعطاهم المناصب العالية وسلمهم زمام الأمور كغيره من الأمراء الذين تقبل عليهم الرياسة مسرعة وشاع ذكره ونما صيته فلما رأى عبد الرحمن بيك كتخدا الذى هو ابن أستاذ على بيك بلاط ما ناله على بيك من الشهرة ورفعة القدر انطوى على ممالأته ومال الى مصادقته ليقوى به على أرباب الرياسة وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه وجعل على بيك من هذا الحين يمهد الأمور ويذلل العقبات ثم استكثر من شراء المماليك وبدأ فى مصادرة الناس وأعمل الحيلة على أخذ الأموال من أصحاب البيوتات والأعيان لأقل سبب ٭ وكان يخشى جانب بعض من بيدهم الرياسة مثل عبد الرحمن كتخدا ابن أستاذه وعلى كتخدا الخربطلى وعمر جاويش الشاورية ورضوان جربجى الرزاز وغيرهم فلما استتب قدمه فى المنصب وتمكن وقوى جأشه ركب يوما فى مماليكه وأتباعه وهجم بهم على أبواب القلعة وأجلوا عنها من كانوا بها من أصحاب وأتباع من ذكروا فامتلكوها واحتل قومه بها فخاف الأمراء عند ذلك وانكمشوا فلم يمكنهم من عمل شئ وقبض فى الحال على عبد الرحمن كتخدا وأبعده الى الأقطار الحجازية وأبعد باقيهم جميعا الى الأقاليم البحرية فأخاف الناس خروج عبد الرحمن بيك كتخدا الى منفاه فانه كان ذا هيبة ووقار وحرمة كبيرة وقد ارتفعت به كلمة الانكشارية وظهروا على طائفة العزب وكان له عز وأبهة ومماليك وأتباع وجند وغير ذلك من الاخلاط حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم فلم يحصل شئ من ذلك سوى ما نزل بالناس من الدهشة والتعجب وأبعد بعد ذلك صالح بيك الى مدينة غزة فلم يقم بها الا أياما حتى أرسل اليه بعض الجنود فحملته من غزة الى رشيد فبقى فيها ثم رتب له ما ينفقه بحسب

الحاجة فلبث برشيد مدة فلما جاء الخبر بعزل حسن باشا الوالى وتعيين حمزة باشا بدله أرسل على بيك جماعة من أتباعه ليصلوا صالح بيك المذكور من رشيد الى دمياط كى لا يجتمع بحمزة باشا اذا حضر الى رشيد فوصلت الى صالح بيك الاخبار بقيام أولئك الاتباع فأسرع وركب فى نفر قليل وأسرى ليلا الى جهة البحيرة فأقام بها ماشاء الله ثم ذهب من خلف جبل الفيوم الى الاقاليم القبلية فوصل الى منية ابن خصيب فأقام بها واجتمع عليه خلق كثير ممن شردهم على بيك بلاط فابتنى له أبنية وعمل متاريس ومحال للدفاع وكان له معرفة وصداقة مع شيخ عربان تلك النواحى وطوائف الهوارة وسكان أكثر البلاد الجارية فى اقطاعاته فاجتمع عليه الكثير منهم وقدموا اليه التقادم والذخيرة ومايحتاج اليه وتترس فى منية ابن خصيب وهو آمن مما يخشى فلم يجسر على بيك على قتاله ولم يناوشه الحرب خوفا من اتساع الخرق واستفحال الخطب

مطلب
عزل حسن باشا وولايه حمزة باشا

ودخل حمزة باشا الوالى الجديد القاهرة فى أخريات سنة تسع وسبعين ومائة وألف هجرية وصعد الى قلعة الجبل فنزل حسن باشا قاصدا السفر فكانت ولاية حسين باشا المذكور نحو ثلاث سنين * ولما استقر بحمزة باشا المنصب وأخذ يتصرف فى الامور بقدر الاستطاعة شكوا اليه أمر صالح بيك وتترسه فى منية ابن خصيب واضراره بالناس ومنعه لورود الغلال وأموال الخزينة السلطانية وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى فرسم بقتاله فبعثوا له طائفة من الجنود مع أحد الأمراء المدعو حسين بيك كشكش وولوه أيضا الامارة على اقليم جرجا وسافر معه عدة أمراء أخر فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم صالح بك وهرب الى شرقى أولاد يحيى فأقام حسين بيك كشكش بالمنية أياما يتأهب للسير الى جرجا مركز امارته فبينما هو على أهبة الرحيل اذ ورد عليه مرسوم من على بيك بلاط بالتبعيد الى جهة قد عينها له فكاد حسين بيك يتميز غيظا وركب من فوره فى مماليكه وأتباعه وأمرائه وحضر الى القاهرة فوصلها ليلا فوجد الباب الموصل الى قناطر السباع مغلقا فطرقه فلم يفتحوا له فكسره ودخل بمن معه وذهب الى بيته وبقى الامر بينه وبين على بيك بلاط على المسالمة أياما * واتفق لعلى بيك بلاط أن حسين بيك المذكور طلب فى غضون هذه الايام من عبد الله الحكيم طبيب الأمراء أن يصنع له معجونا صالحا للباه فأخبر الطبيب بذلك على بيك بلاط فأمره بأن يدس له فيه سما ففعل وذهب به الى حسين بيك وبالغ له فى فوائده فقال له لابأس به ولكنى أحب أن تأكل أنت منه أولا فتلجلج الطبيب واضطرب فأمر به حسين بك فقتلوه بين يديه وعلم أنها من عزيمة على بيك بلاط فتأكدت بينهما الوحشة وأضمر كل منهما لصاحبه السوء وتوافق على بيك مع أصحابه على الغدر بحسين بيك أو اخراجه فوافقوه ظاهرا واشتغل حسين بيك أيضا باخراج على بيك أو الغدر به وجمع الى كلمته كثيرا من قومه فلما كان ذات يوم ركب وركبوا ومعهم المدافع والبنادق وساروا الى بيت على بيك فصوبوا أفواه المدافع نحوه فأرسل على بيك لاصحابه يستنجدهم فلم يأته أحد وخذلوه

فشق عليه الأمر واستعظمه جدا وأرسل الى أصحاب حسين بيك يسألهم عن مرادهم فحضر اليه منهم من يأمره بالركوب والخروج من الديار حالا فقام لساعته وركب وخرج من بيته فسلموه الى من يوصله الى منفاه بالديار الشامية ومعه مماليكه وأتباعه وكان ذلك فى أواخر رمضان سنة تسع وسبعين فأنزلوه بالعادلية ثلاثة أيام حتى حاسبوه وحاسبوا أتباعه على ماهو عليهم وهم محاطون بالجند والسلاح والمدافع حتى فرغوا واستخلصوا مابقى وسافروا الى غزة

وكانت العادة فيمن ينفى من الامراء بديار مصر أنه اذا خرج من الديار لم يخلوا سبيله حتى يستصفوا ماعليه وسار صحبة على بيك المذكور جميع أصحابه وكبار قومه وعزلوا من لم يسافر منهم من منصبه * وما كادت تستقر الامور وتسكن الفتنة حتى جاء الخبر برجوع صالح بيك من شرق أولاد يحيى الى منية ابن خصيب واستقراره فيها وتحصينها فجيشوا لقتاله جيشا عظيما فبرز بعضه الى جهة البساتين وبينماهم على هذا الحال من تجييش الجيوش واعداد آلات الحرب والاشتغال بأمر القتال مع صالح بيك اذ رجع على بيك بلاط وأصحابه من غزة فلم يشعر أحد برجوعهم ودخلوا القاهرة ليلا ونزل على بيك بيت حسين بيك كشكش ونزل باقى من كانوا معه فى بيوت أخر فلما علم حسين بيك بقدومه على هذه الصورة جمع اليه أصحابه بجهة الآثار المعروفة بأثر النبي وشاورهم فى الامر فاختلفت كلمتهم وتباينت أغراضهم فمنهم من أشار بتبعيده الى جدة ومن أشار بقتله ومن أشار بغير ذلك ثم عادوا فاتحدوا على أن يرسلوه الى جدة وأرسلوا اليه من يلزمه بالخروج والسفر فقال لا أخرج أبدا من بيت سيدى الا اذا كان الى الجهة البحرية فرضوا بذلك واتفقوا على أن يعطوه النوسات اقطاعا وأن يذهب اليها فرضى وذهب الى النوسات وأقام بها وأرسلوا أصحابه والذين كانوا معه الى أسيوط وجهاتها وكان بها خليل بيك الاسيوطى فتعرفوا به وتقربوا اليه وصادقوه فأعانهم ومدّ لهم يد المساعدة فتيسرت أمورهم وراجت أحوالهم ولبثوا هنالك ماشاء الله

وعاد حسين بيك بعد تبعيد على بيك وأصحابه الى تدبير أمر الجيش وارساله لقتال صالح بيك كما تقدم القول فسار الى منية ابن خصيب والتقى الجمعان واقتتلا فانهزمت العساكر وانفشلت فأرسلوا له جيشا آخر وأميره حسن بيك جوجو وكان حسن بيك المذكور ميالا فى الباطن الى مخالفة حسين بيك وأصحابه فلم يقاتل الا بالأمر الخفيف ورجع بالعسكر كأنه مهزوم مذعور فأرسلوا جيشا آخر فكانت الحرب بينهم سجالا ثم رجعوا فلم يروا بدا من مصالحة صالح بيك فخابروه فى الصلح واستقرت القاعدة بينهم على أنه يذهب بمن معه الى جرجا فتكون له التزاما ويقيم بها بشرط أن يدفع الاموال ويرسل الغلال فى حينها ويقوم بجميع المطاليب وكان ذلك فى شهر جمادى الاولى سنة ثمانين ومائة وألف * أما على بيك بلاط فانه لم يمض عليه بالنوسات الا القليل من الايام حتى تخيلوا أن حسن بيك الازبكاوى يراسله ويطلعه على عوراتهم فقاموا عليه فى ثانى شعبان من السنة وقتلوه بقصر العينى ورسموا بنفى أصحابه الى الاقاليم البحرية وخشوا عاقبة بقاء على بيك بلاط بالنوسات فأرسلوا اليه خليل بيك المعروف بالسكران فحمله



الى مدينة السويس ليسيره الى جدة من القلزم وأنزله باحدى السفن وسلمه الى ربانها فكانت الريح غير صالحة فبقيت السفينة تنتظر اعتدال الريح فرجع خليل بيك الى القاهرة

وجاءت أيام عيد الافطار فركب الامراء فى ثانى يوم شوال الى قراميدان ليهنؤا حمزة باشا بالعيد وكان معتاد الرسوم فى مثل هذه الاعياد والمواسم أن كبار الامراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز فيصعدون الى قلعة الجبل ويسيرون أمام الباشا على الاقدام من باب السراى الى جامع الناصر بن قلاوون فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثم يقبلون طرف ثيابه وينزلون الى بيوتهم فيهنى بعضهم بعضا على رسمهم واصطلاحهم وينزل الباشا ثانى يوم الى كشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور والطنافس واستعد فراشو الباشا بالقهوة وأطباق الحلوى والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ثم يأتى الدفتردار وأمير الحاج والامراء والصناجق والاختيارية وكتخدا الانكشارية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والاودة باشية والجربجية ويعيدون عليه بالترتيب على قدر مراتبهم ثم ينصرفون *

فلما حضروا فى ذلك اليوم وهنؤا الباشا وخرجوا الى دهليز القصر يريدون الانصراف الى بيوتهم برز لهم طائفة من الجند وسيوفهم بأيديهم مسلولة وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم وأطلقوا البنادق وأعملوا فيهم السيوف فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بضربة سيف فى وجهه وأصيب حسين بيك كشكش بطلق نارى فى خاصرته وجرح كثيرون جراحا بليغة فعند ذلك ارتفعت الاصوات وعلت الجلبة وصاح الامراء بمماليكهم وأتباعهم النجدتهم فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم وحالوا بينهم وبين المتوامرين حتى تسلقوا من حائط البستان وركبوا خيولهم وهم لا يصدقون بالنجاة وأركبوا عثمان بيك وهو يصيح الى باب العزب وقد قطع السيف وجهه وفمه فذهبوا به الى باب العزب وأنزلوه فلم يلبث الاهنيهة ومات فحملوه الى بيته وجهزوه ودفنوه ولم يمت ممن جرحوا أحد غيره وباتوا على ذلك وأصبحوا فاجتمعوا وصعدوا الى الابواب وأرسلوا الى حمزة باشا يأمرونه بالنزول من القلعة على عجل فنزل من ساعته الى بيت أحمد بيك كشك بقوصون ومر بباب العزب فوقف له حسين بيك كشكش وسبه سبا فاحشا وخاطبه ببذى القول وفحش الكلام فلم يجبه بشئ ثم رتبوا أمورهم وسلموا بعض الوظائف المهمة لمن يعتمدون عليه واستكشفوا خفى هذه الحادثة فتبينوا أنها كانت باغراء من حمزة باشا وقيل بل هى خليقة على بيك بلاط فانه مابرح منذ تبعيده الى النوسات يراسل حسن بيك جوجو ويكاتبه سرا ومازالا على هذا الحال حتى تم التدبير لحسن بيك واستحضر طائفة من الجلفية وأطلعهم على مافى نفسه فوافقوه فأخفاهم فى بيته أياما كثيرة وقد دبروا أن يكون ايقاعهم بالامراء فى أول يوم العيد وذهبوا الى الكشك بقراميدان فى ذلك اليوم وكانوا نحو الاربعين فاختلفت عندئذ كلمتهم وانتقضوا ثم عادوا فاتفقوا على

ان

أن يتموا الأمر فى ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفرقوا على ذلك وقد انحلت رابطتهم الأربعة فانهم ثبتوا على هذا الاتفاق وساروا فى ثانى يوم الى الدهليز وضربوا من صادفوه بالسيوف والبنادق

وبطل من هذا اليوم أمر العيد من قراميدان وتهدم القصر وخرب وكذلك البستان وذهبت نضارته وبعد وقوع هذا الحادث سيروا من يتكشف خبر على بيك بلاط وهل أقلعت به السفينة الى جدة فوجدوه بالسويس فردوه وأركبوه مع اتباعه ومماليكه الى القاهرة ومروا به من طريق الجبل وذهبوا الى جهة شرق اطفيح ثم الى أسيوط * فلما استقر به المقام اجتمع عليه المبعدون كافة وطوائف الهوارة وأخلاط أخر كثيرة فراسل صالح بيك بمنية ابن خصيب يريد الانضمام اليه بمن معه من هؤلاء الاخلاط فلم يرض صالح بيك ونفر منه فجعل يخادعه ويساره وأرسل اليه خليل بيك الخربطلى أحد المبعدين يكلمه فى ذلك ومازال به حتى جنح لطلبه واجتمع به بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف وكتبت بذلك حجة وكان العهد بينهما أنه اذا تم لهما الامر أخذ صالح بيك الاقاليم القبلية بتمامها قيد حياته وأرسلوا بما وقع الاتفاق عليه الى شيخ العرب همام فبل فسرّ بذلك ورضى به ارضاء لصالح بيك وأمدهما بالعطايا والمال والرجال واجتمع عليهم جميع المتشردين من الغز والاجناد والهوارة والابطال فصار لهم جيش عظيم فساروا الى منية ابن خصيب وكان بها خليل بيك السكران عاملا فلما علم بقدومهم رحل عنها وجاء القاهرة هاربا فاستقر على بيك بلاط وصالح بيك ومن معهما بالمنية وبنوا حولها الاسوار والابراج وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطرق على المسافرين برا وبحرا وأرسل على بيك بلاط الى ذى الفقار بيك وكان مبعدا بالمنصورة ومعه جماعة من الكشاف يستقدمه الى المنية بمن معه فارتحل من المنصورة ليلا الى المنية فلما وردت الاخبار الى القاهرة بما فعله على بيك وصالح بيك وانهما فى عدة عظيمة جدا خافوا شرهما وخشوا عاقبة فعلهما فاجتمعوا جميعا وبينهم الشيخ الحفناوى شيخ الوقت يومئذ وتشاوروا فى الامر وطال بينهم الاخذ والرد ثم اتفقوا على أن يرسلوا لهما عسكرا لقتالهما فقام الشيخ الحفناوى وخطأ رأيهم واستنقصه وأطال الكلام على ماأصبحت فيه البلاد من الضنك والاضمحلال بأسباب توالى الفتن وتعاقب الحروب والمحن وقال ماذا عليكم لوأرجعتم على بيك وصالحتموه فيأتى ويقيم فى بيته آمنا مطمئنا فقالوا ان لم نذهب لقتاله أتى هو لقتالنا بخيله ورجله قال لاتأتوا شيأ حتى أكاتبه ويأتينى منه الجواب وقام وكتب له يوبخه ويزجره تارة وينصحه أخرى وينهاه عن فعل مالا تحمد عاقبته وبعث اليه بالخطاب فلم يلبث الشيخ بعد ذلك الا أياما ومرض ورمى بالدمومات فشاع يومئذ أنهم أعطوه سما ليتنالوا أغراضهم من قتال على بيك وصالح بيك ووردت فى هذه الاثناء الاخبار بعزل حمزة باشا وهو فى سجنه لا كلمة له كما تقدم القول وتولية محمد باشا راقم فقام اليه الملاقون ودخل القاهرة فى غرة ربيع الثانى سنة احدى وثمانين ومائة وألف هجرية فسافر حمزة باشا الى بلاد الروم فكان لبثه بمصر سنتين وشهرا

مطلب
عزل حمزة باشا وولاية محمد باشا راقم

وعاد الامراء بعد دخول محمد راقم باشا الى جمع الجموع وتجهيز معدات القتال للعمل على على بيك بلاط وصالح بيك وكلموا محمد باشا فى أمرهما وأعلموه بأسباب خروجهما وموّهوا عليه الحال وأخذوا منه مرسوما بالقتال وسيروا حسين بيك كشكش ومعه عسكر جرار فطلب حسين بيك النفقة فلم يجدوا فى الخزينة شيأ من الاموال فجعلوا يصادرون التجار ويستصفون أموالهم وطلبوا أمراء البهار المعروفين بالتواخيد وألزموهم بدفع مال البهار معجلا فادّعوا الاعسار فهددوهم وأخذوا جميع ماعندهم من مال ومتاع ثم سار حسين بيك بعسكره والتقى الفريقان بناحية بياضة تجاه بنى سويف فاقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت عساكر حسين بيك شرهزيمة وانفشلوا وقتل كثير من أمراء العسكر ورجع المنهزمون الى القاهرة يوم السبت سابع عشرى الشهر وهم فى أسوإ حال * وأصبح يوم الأحد فطلعوا الى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا مرسوما باعادة القتال وبأخذ مائتى كيس من مال الخزينة السلطانية نفقة الجند فامتنع الباشا من ذلك فراجعوه فلم يرض وبينماهم ينازعونه فى ذلك اذ جاء يوم الاثنين الخبر بوصول على بيك وصالح بيك ومن معهما الى ناحية غمازة وكان حسن بيك جوجو ومن معه من الامراء نازلين بخيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا وانزعج خليل بيك وحسين بيك ومن معهما من الجند والعسكر وتحققوا أن لاقبل لهم بقتال على بيك بلاط وأن لابدّ من زوال دولتهم * وأرسل الباشا الى أصحاب الوجاقات بملازمة كل وجاق لبابه فوصل على بيك وأصحابه الى البساتين فلم يروا فيها أحدا وتسلل خليل بيك وحسين بيك وأصحابهما وطلعوا الى الابواب فوجدوها مقفلة فرجعوا الى قراميدان وأقاموا بها ساعة ثم رجعوا على أعقابهم وقد خرج الكثير فى تلك الليلة من الامراء هاربين الى حيث على بيك وصالح بيك وفى مقدمتهم حسن بيك جوجو ومن انضم اليه من الامراء والاجناد وهرب خليل بيك شيخ البلد يومئذ وجميع أتباعه وأعوانه ومماليكه وحسين بيك كشكش وأتباعه وأعوانه وكانوا عدة كبيرة * وأصبح يوم الخميس فخرج الاعيان وغيرهم لملاقاة على بيك وصالح بيك ومن جاء معهما من الامراء فدخلا القاهرة فى ذلك اليوم ومعهما جميع الذين كانوا مبعدين ولبثا الى يوم الأحد ثم طلعا ومعهما باقى الامراء المبعدين والذين تخلفوا عن الذاهبين الى الديوان بقلعة الجبل فخلع الباشا على علىّ بيك خلعة الرضا وقرره شيخا للبلد وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى اماراتهم واستقر المنصب بعلى بيك فى امارة مصر ورياستها وظهر نبله وعلت كلمته حتى ساعدته الاقدار وملك الديار المصرية والاقطار الحجازية والبلاد الشامية كما سيأتى بيان هذا كله فى محله ان شاء الله تعالى

وتاقت نفسه « وان النفس لأمارة بالسوء » الى الانتقام من بعض الامراء وأعيان البلد وتبعيدهم فرأى أن لا قبل له بذلك خوفا من حسن بيك جوجو وأنه مادام حيا لايصفو له الحال فأخذ من هذا الحين يدبر على قتله وأطلع بعض خواصه على مافى سره فهوّنوا له الأمر وتعهدوا له بالعمل فلما كانت ليلة الثلاثاء ثامن رجب سنة احدى وثمانين ومائة وألف حضر

حسن بيك جوجو ومعه آخر اسمه على بيك جن وآخر اسمه محمد بيك أبو الذهب وأيوب
بيك الى بيت على بيك بلاط لزيارته فلبثوا عنده برهة من الليل يتصادقون ثم قام حسن بيك
ومعه على بيك جن وركبا ومعهما الامراء المذكورون ونفر من أصحاب على بيك يسايرونهم
وهم المتكفلون بالقتل فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشاورى خلف جامع قوصون
جردوا سيوفهم وطعنوا حسن بيك فقتلوه وقتلوا معه على جن وتركوهما ورجعوا فاخبروا
على بيك بلاط بما جرى فسرّ سرورا عظيما وبات وأصبح على بيك المذكور مالكا لجميع
الابواب لاراد لكلمته ولا يد فوق يده فلما صفا له الوقت ودانت له الامور أبعد كثيرا من
الامراء والاعيان والوجهاء وشرّدهم فى الاقاليم القبلية والبحرية وضيق على كل من كان
يتوسم فيه سمة الانكار فخافه الناس وهابه الامراء وعمت شهرته واتسعت صولته وجعل
يتصرف فى الامور كما يشاء * وبينما هو على هذا الحال من تتبع الخصوم وقطع دابر
المخالفين اذ جاءه الخبر برجوع حسين بيك كشكش وخليل بيك من جهة غزة وهما فى
جموع كثيرة للغاية وأخلاط من الجند والعسكر يريدون القتال والزحف على الديار المصرية
فاكبر هذا الامر جدا وجيش لقتالهم جيشا ضخما للغاية فى البر والبحر واجتمع الفريقان
عند الديرس والجراح من بلاد المنصورة وكان حسين بيك كشكش وأصحابه قد عرّجوا
أولا الى دمياط فنهبوا وسلبوا شيأ كثيرا ثم حضروا الى المنصورة ففعلوا كذلك فلما التقى
الجيشان واقتتلا انهزم أصحاب على بيك بلاط وانفشلوا وولوا راجعين وقتل منهم عدة كبيرة
من الامراء والجاويشية ولم يزالوا فى هزيمتهم الى أن وصلوا دجوة فلما جاء الخبر بذلك
اهتم له على بيك ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج الى قبة باب النصر خارج القاهرة
وجمع أمراء العسكر كافة والعلماء وأرباب السجاجيد ورسم أن كل من كان من الجند
وأصحاب الوجاقات يبادر بالتأهب للخروج أو يخرج بدلا عنه واحدا واهتم كذلك على بيك
بجمع العسكر وإعداد معدّات الحرب فجمع جيشا عظيما وسلم لواءه الى محمد بيك أبى الذهب
فسار أبو الذهب من فوره والتقى بمن بقى من العساكر المتشردين فضمهم الى عسكره وسار
بهم فى طلب حسين بيك وخليل بيك وكانا قد نزلا باقليم الغربية وساروا سيرا حثيثا يريدون
القاهرة ليدخلوها فلاقتهم جيوش أبى الذهب بمدينة طنتدا وهم معسكرون فيها فأحاط أبو
الذهب وعسكره بالمدينة من كل جانب فوقع الحرب بين الفريقين ولم يزل القتال قائما حتى
فرغ ماعندهم من الذخيرة وقلت الازواد فأرسلوا الى أبى الذهب يطلبون الامان فأمنهم
وبطل القتال وكاتبهم أبو الذهب وخادعهم وتعهد لهم باسترضاء على بيك فانخدعوا وانحلت
عزائمهم وتفرقت كلمتهم وباتوا ليلتهم تلك على بساط الطمان * فلما كان ثانى يوم أرسل أبو
الذهب الى حسين بيك كشكش يستدعيه الى معسكره ليتكلم معه فى أمر الصلح فسار اليه
وليس معه سوى خليل بيك السكران أحد أتباعه فلما وصلا ودخلا مجلسه لم يجداه فجلسا
برهة لطيفة ينتظرانه واذا بجماعة من العسكر قد دخلت عليهما وضربتهما بالسيوف حتى

ماتا وجاء فى أثرهما حسن بيك شبكة ولم يعلم بما جرى لأستاذه حسين بيك فلما اقترب من العسكر داخله الخوف وشعر برجفة فأراد الرجوع فعاقه رجل سائس اسمه مرزوق وضربه بنبوت فوقع الى الارض فلحقه أحد الجند واحتز رأسه ٭ وجاء الخبر الى خليل بيك الكبير ومن معه بما جرى على حسين بيك وأتباعه فخافوا خوفا عظيما وذهبوا الى ضريح السيد أحمد البدوى والتجؤا الى قبره وأيقنوا أنهم لاحقون باخوانهم وأرسل أبوالذهب الى على بيك بلاط يستشيره فى أمر خليل بيك ومن معه فرسم بتبعيده الى الاسكندرية فقبض عليه وبعث به اليها فلم يلبث بها الا أياما وقتلوه خنقا ورجع أبوالذهب ومن معه ودخلوا المدينة من باب النصر فى موكب عظيم وأمامهم رؤس القتلى محمولة فى صوان من الفضة والخدم أمامها يقولون «صلوا على محمد» وكانت عدة تلك الرؤس ستا وهى رأس حسين بيك وخليل بيك السكران وحسن بيك شبكة وحمزة بيك واسماعيل بيك أبومدفع وسليمان أغا الوالى وكان دخولهم على هذه الصورة فى يوم الجمعة سابع عشرى المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية

واشتد على بيك بلاط على من بقى من الامراء المخالفين وأبعد منهم عدة كثيرة الى الصعيد الاعلى وأخرى الى الاقطار الحجازية وقبض على أولاد سعد خادم ضريح السيد أحمد البدوى وصادرهم وأخذ أموالهم وكانت كثيرة وأبعدهم عن طنطا وأرسل آخر بدلهم اسمه الحاج حسن عبد المعطى وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة وأبطل عنها مظالم أولاد الخادم والحمل والقشالين والحرامية والصيادين وضمان المومسات وغير ذلك من أنواع المغارم التى كانت مفروضة عليها وبلغ على بيك شهرة عظيمة وكبر اسمه فى دار السلطنة العثمانية فارسل اليه السلطان هدية قفطانا وسيفا صحبة رسول مخصوص بمرسوم سلطانى فتقاطر الامراء لتهنئته ونزل الباشا الى بيته وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين فداخل صالح بيك من ذلك بعض الحسد وآنس منه على بيك بعض الوحشة فأضمر له على بيك السوء وعزم أن يعجل به قبل أن تستفحل الوحشة فيعجل هو به وكاشف بعض رجاله على ما يريده بصالح بيك فهونوا عليه الامر وتعهدوا له بالعمل فلما جاء صالح بيك الى بيت على بيك ليهنئه بهدية السلطان وقفل راجعا الى بيته ركب معه محمد بيك تابع على بيك وآخرون من الامراء أتباع على بيك وساروا فى ركابه وخلفهم بعض الجند والاتباع فلما صاروا فى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بيك ومن معه قليلا عن صالح بيك وصاح محمد بيك بخادمه ونهره وسبه وجرد سيفه بسرعة غريبة كأنه يريد قتله وطعن به صالح بيك فاخترط بقية من كانوا معه سيوفهم وضربوه فسقط عن جواده الى الارض ميتا وتركوه وصعدوا من فورهم الى قلعة الجبل فلما استقر بهم المقام أخذتهم نشوة الظفر بصالح بيك فجعلوا يتحدثون فى أمر قتله وما فعله كل منهم وعابوا أحدهم أحمد بيك بشناق حيث لم يسرع فى اخراج سيفه وأحجم

عن

عن الطعن والضرب كما فعلوا هم فقال انى ضربتـه كما فعلتم فكذبوه وقالوا أرنا سيفك ان كنت صادقا فلم يفعل وخاف أن يخبروا على بيك بلاط بما وقع منه فيقتله ثم انصرفوا وبات هو ليلتـه يدبر أمرا لخلاصه فلم ير له سبيلا غير الفرار الى أرض الله الواسعة وأصبح فأخبر زوجته بما عزم عليه وشدد عليها أن لاتخبر بخبره أحـدا حتى يصل الى الاسكندرية ثم قام وتزيا بزى المغاربة وسار من ساعته وجدّ فى السير من ناحيـة شلقان فأتت السعاة وأخبرت على بيك بخبره فرسم لحاكم الاسكندرية بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك حيث كان قد نزل باحدى السفن القاصدة بلاد الروم وكان من أمره بعد ذلك ما كان مما سيذكر فى حينه وأحمد بيك هذا هو أحمد باشا الجزار الشهير الذى ملك عكا وتولى الشام وامارة الحاج الشامى وطار صيته فى الممالك شرقا وغربا فساء على بيك فراره وخشى عاقبة أمره

واتسعت كلة على بيك وكبرت هيبته فسـقطت حرمة محمد باشا الوالى فى جانب حرمتـه وذهب اعتباره وصار مغـلوبا على أمره ليس له من الولاية سوى الاسم فخاف على نفسـه وأخذ يدبر على قتل على بيك وأعمل فى ذلك جهده وكاشف كتخداه عبدالله بيك بما فى خاطره فلم يكتم سره بل أعلم على بيك به وكشف عما ينويه له محمد باشا فلما علم على بيك بذلك أصبح فملك الابواب والرميلة وحوالى قلعة الجبل والمحجر وأرسل الى الباشا يلزمه بالنزول من القلعة فنزل من باب الميـدان الى بيت أحمد بيك كشك ولبث فيه محجورا عليه تخفره العسكر وتولى على بيك النيابة وجعل يتصرف فكثرت مصادرته الناس فى أموالهم ومتاعهم بلا فرق ولاتمييز فكانت هذه السنة السيئة من مبتكراته من يوم نشأته ثم صارت سنة لمن يأتى بعده * وتاقت نفسه بعيـد ذلك الى الولاية على الشام أيضا فعمل على ذلك وهيأ هدية نفيسة الغاية وخيولا مصرية جيادا وبعث بها الى السلطان وبعض رجال الدولة وكتب يشتكى من عثمان بيك ابن العظم والى الشام ويطلب من دار السلطنة عزله لقبوله المنفيين من أمراء مصر وانضمامهم اليـه والاخـذ بقولهم فى جميع أعماله وبالغ فى الشكوى واستفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر وعلم محمد باشا الوالى به فكان يتحزن ويتوجع ولاقبل له على عمل شئ ومازال على هذا الحال من الحجر والضيق حتى مات فى المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائةوألف هجرية بقصر عبـد الرحمن كتخدا بشاطئ النيـل حيث كان مسجونا لم يخرج منـه منـذ أنزل من قلعة الجبـل وقيل كان موته مسموما فدفن بالقرافة الصغرى عند مدفن الباشاوات بالقرب من الامام الشافعى ولم يحتفلوا بجنازته

واجتمع الامراء المبعـدون الى الاقاليم القبليـة على اختـلاف درجاتهـم بشيخ العرب همام لعله يعاونهم على العود الى ديارهم فأشار عليهم بالترفع الى أسـيوط وأخذها عنوة وأن يقيموا بها ولم يسمح لهم بالمقام عنـده خوفا من على بيك بلاط ووفاء بما بينهـما من العهد فارتحلوا جميعا من عنده ونزعوا نحو أسـيوط وكانوا عدة كبيرة واجتمع عليهـم أيضا طوائف الهوارة وأخلاط من الناس ممن لاشاغل لهم وكان بمدينة أسيوط فى هذا الحين من قبل على



بيك بلاط عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف وقد رمموا أسوار البلد وحصنوها تحصينا عظيما
فلما وصلوا اليها ووجدوها على هذه الحال من المنعة والتحصين جعلوا يتلصصون الى أن اتصل
قوم منهم فى جنح الليل ببوّابة البلد ومعهم خرق ملوثة بالقار والكبريت والزيت وأوقدوا
فيها النيران فاشتعل الباب فهجموا على المدينة هجمة رجل واحد فلم يكن لهم بهم طاقة
لكثرتهم وملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها من العساكر والكشاف وجاءت
الاخبار بذلك الى على بيك فهاله الامر واستعظمه وجيش لهم جيشا عظيما وسيره مع
ابراهيم بيك بلفيه ومحمد بيك أبو شنب وعلى بيك الطنطاوى وبالغ فى ارسال الذخيرة والميرة
وغيرها فلما صاروا على مقربة من أسيوط خيموا عند جزيرة منقباط وعلم من بأسيوط بحضورهم
فخافوا وتشاوروا فى الامر فاتفقت كلمتهم على أن يركبوا ليلا ويدهموا عسكر على بيك فركبوا
فى ساعة معلومة بينهم وسار بهم الدليل فى طرق الجبل فضلّ بهم وأسرى واياهم حتى
تجاوزوا المكان المقصود بنحو الساعتين فخافوا وعلموا فوات الوقت وأن القوم متى علموا
بخروجهم ملكوا المدينة من غير ممانع قبل رجوعهم فما وسعهم الا الذهاب الى المعسكر
ومصادمتهم على أى حال كان فلم يصلوهم الا بعد طلوع الشمس وتيقظ القوم واستعدّوا لهم
والتحموا معهم وهم قليلون فوقع القتال واشتد الجلاد وبذلوا جهدهم فى الطعن والضرب
وبرز رجل منهم يريد محمد بيك أبو شنب فبرز له محمد بيك وهو يقول لبيك هاأنا هاأنا
فقصده جماعة منهم وقاتلوه وقاتلهم حتى قتل وحمى الوطيس وكثر الصياح وارتفع الغبار
وانكشف عن هزيمة أهل الثورة ونصرة أصحاب على بيك وكانت هذه الوقعة الهائلة عند
جبانة مدينة أسيوط فتمزقوا وتفرقوا أيدى سبأ ثم عاد من بقى وانضم الى كبار الهوارة وملك
أصحاب على بيك مدينة أسيوط واحتلوها ولبثوا بها أياما ثم ترفعوا لقتال شيخ العرب همام
وكبار الهوارة ومن انضم اليهم من المهزومين فاتحد كبار الهوارة مع الامراء المهزومين
واستعدوا للقاء عسكر على بيك فراسل محمد بك اسماعيل أبو عبد الله ابن عم همام واستماله
ومناه ووعده برياسة الصعيد عوضا عن عمه همام ان هو خذل قومه وتخلى عن القتال معهم
وما زال به حتى ركن لقوله وصدق تمويهاته وتثاقل عن القتال وخذل قومه ومن كان معهم
من الامراء فانفشلوا وتمزقوا كل ممزق وخاف شيخ العرب همام شر العاقبة فارتحل عن
فرشوط وانحدر على بعد ثلاثة أيام منها ثم مرض أياما قلائل ثم مات كمدا وحزنا على ماجرى
وسار محمد بيك بالجند الى فرشوط فدخلها من غير ممانع ونهب مافيها وأخذوا جميع ما كان
بدور همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال فزالت دولة همام المذكور من الاقاليم
القبلية من ذلك الحين ثم سار محمد بيك بعد ذلك من فرشوط يريد القاهرة فحضر اليه
درويش ولد همام بعد موت أبيه مستجيرا فأحضره معه الى القاهرة فلبث بها أياما حتى
رضى عنه على بيك وأعاده الى فرشوط تحت عهود عاهدها له قبل السفر • أما محمد بيك أبو
الذهب فانه لم يلبث بالقاهرة الا أياما قلائل بعد عوده ظافرا منصورا حتى وقعت بينه وبين

أستاذه على بيك وحشه فخرج منها مغضبا الى الاقاليم القبلية ولحق بدرويش بن همام وأقام عنده فخلت البلاد شرقا وغربا لعلى بيك ومماليكه واستتبت كلمته وعمت الآفاق شهرته وتفرغ لقطع شأفة المنفيين فى الثغور كدمياط ورشيد والاسكندرية والمنصورة وغيرها ووكل بجماعة من قومه بذلك فكانوا يذهبون الى تلك الجهات واحدة فواحدة فيقيمون بها أياما ويقتلون من بها من أولئك المبعدين خنقا ثم ينتقلون لغيرها حتى أفنوهم ولم يبقوا منهم أحدا وخاف الناس على بيك خوفا عظيما فاتفق أنه دخل يصلى يوما بجامع الداودية فصعد خطيب الجامع وخطب ثم دعا للسلطان ولعلى بيك بالنصر والتأييد فلما انقضت الصلاة وقام على بيك يريد الانصراف استدعى الخطيب وقال له من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك انى سلطان وكان الخطيب يغلب عليه البله فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر على بيك الغيظ وأمر به فضربوه بالعصى وتركوه فركب حمارا لشدة ما أصابه من الضرب وسار الى بيته وهو يصيح فى الطريق « بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ » وأكثر من الصياح على هذا الحال فتبعه العامة الى أن دخل بيته فلما علم على بيك بذلك خاف العاقبة فأرسل الى الشيخ كسوة سنية وبعض دنانير واستعطفه لما وقع منه * وبعد أيام جاء الخبر بولاية الوزير محمد باشا الاورفلى بدلا من محمد باشا راقم الذى مات كما تقدم القول فحضر على البر فى أبهة وكبكبة عظيمة وقصد الى قلعة الجبل وذلك فى أواخر سنة اثنين وثمانين ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف بقدر الاستطاعة الى سنة ثلاث وثمانين ثم عزل وتولى بعده الوزير أحمد باشا فأتى من الاقطار الحجازية الى السويس بالقلزم ودخل القاهرة فى موكب حافل وهو متوعك ولم يصعد قلعة الجبل وسكن بدرب الحجر أشهرا ثم اشتد به مرضه فمات فى السنة المذكورة

مطلب
ولاية محمد باشا الاورفلى
ثم عزله وولاية الوزير أحمد
باشا

واشتدت رغبة على بيك بلاط فى الغزو وفتح المدن والامصار لاسيما البلاد الشامية والحجاز وقد تقدم القول انه كتب الى دار السلطنة يشتكى من ابن العظم ويرميه بالسوء فكانت رسله لاتنكف عن استطلاع اخبار الشام والحجاز وكان يتمنى لو أن الله ييسر له فتحهما فبينما هو على هذا الحال بين الرجاء والتمنى واستطلاع أخبار تلك الاصقاع اذ قدم الى القاهرة فى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين ومائة وألف هجرية الشريف عبد الله من أشراف مكة وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة فى امارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب على الشريف أحمد واستقل بالامارة وخرج الشريف عبد الله هاربا الى دار السلطنة مستنجدا فرسم السلطان الى على بيك بلاط بمساعدته واعادة الامارة اليه كما كانت فأنزله على بيك منزلا رحبا وأكرم وفادته وفرح فرحا عظيما ورتب له المرتبات من مأكول ومشروب وأمر بتجهيز الذخائر ومعدات الحرب وملأ بيوت الأمراء الذين قتلوا بالذخيرة وآلات القتال والمؤن واستعرض أصناف العسكر من ترك ومغاربة وشوام ومتاولة ودروز وحضارمة وعمانية وسودان وحبشان ودلاة وغير ذلك وأرسل معهم طوائف

فى المقـدمات وأنزل المشاة منهم الى القلزم فى السفن وسار بقية الجند فى صفر من السنة بعد
دخول الحاج فى تجمل زائد وكبكبة عظيمة ومعهم محمد بيك أبو الذهب وبعض كبار الامراء وسار
معهم الشريف عبدالله وقد ودعه على بيك وطيب نفسه فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا
على الينبع فانتصر المصريون على العرب نصرة مؤزرة وهزموهم شر هزيمة وقتلوا خلقا كثيرا
من الاشراف وقتلوا وزير الينبع العامل عليها من قبل الشريف ثم سار محمد بيك بعسكره حتى
اقتربوا من سواد مكة فخرج عليهم قوم الشريف أحمد وأصحابه فقاتلهم وانتصر عليهم ودخل
مكة عنوة فخرج الشريف منها هاربا فأباحها ثلاثة أيام فنهبوا مافيها ونهبوا بيت الشريف
وبيوت أصحابه وأخذوا شيأ كثيرا الغاية من متاع وأموال وجواهر وحلى ونفائس وغير ذلك
وأجلس الشريف عبدالله فى منصب إمارة مكة وولى حسين بيك أحد الامراء المصريين على
ولاية جدة عوضا عن واليها من قبل الدولة وأقام أبو الذهب أياما بمكة حتى استتب قدم الشريف
عبدالله ثم سار بعسكره يريد القاهرة ووصلت الاخبار بذلك فخرج لملاقاته الملاقون بالعقبة فلما
جاء الخبر بوصوله إليها خرج الأمراء الى بركة الحاج والدار الحمراء لانتظاره فدخل فى أوائل شهر
رجب من السنة وقدم القاهرة فى ثامنه فى موكب عظيم للغاية وأتى اليه العلماء وأعيان
البلاد وقصده الشعراء بالقصائد والتهانى فعلت شهرة على بيك بالاقطار الحجازية وطار صيته
فى الآفاق • ولما تكامل ورود عسكره من غزوة الحجاز عزم على أن يوجه بهم لغزو الشام
فبدأ بأن أرسل يمهد الطرق أمامهم وكان بغزة شيخ لعربانها اسمه طبط طاغية شديد المراس
وكان يكره على بيك ويتمنى خذلانه وزوال دولته فسير اليه على بيك رجلا من أعوانه اسمه
عبد الرحمن أغا ووسم له بقتله فسار الى غزة فى نفر من الجند ولم يزل يتحيل حتى ظفر به
وقتله هو واخوته وأولاده وقد كان عقبة كبرى فى طريق الشام ثم استكثر على بيك من
جمع طوائف الجند واعداد معدات القتال والمؤن والذخائر وجيش جيشا ضخما وسلمه الى
اسمعيل بيك ومعه عدة من الامراء فبرزوا الى العادلية بالآلات والاحمال والخيام وأقاموا
بها أياما ثم ارتحلوا الى الشام وسار خلفهم جيش آخر بحرا ومقدمه سليمان بيك والتقى الجمعان
فقامت الحرب على ساقها بين الطرفين واشتدت وحمى وطيسها فتابع على بيك ارسال المدد
من جند وسلاح ومؤن وذخيرة فى البر والبحر حتى نفد ماعنده والطلب متواصل فعمد الى
مصادرة الناس وأخذ أموالهم بأرذل الطرق وأخس الوسائل وفرض على القرى أموالا وقرر
على كل طائفة مائة ريال وثلاثة ريال حتى الطريق فضج الناس وتعطلت أسباب الرزق
وهاجر البعض وطلب من قبط مصر مائة ألف ريال ومن يهودها أربعين ألفا وضيق وشدد
وهدد وبالغ فى الوعيد فأخذها جميعها

وسير بعد ذلك جيشا آخر كامل العدد والعدد الى يافا فحاصرها وضيق عليها وما زال منع
الواصل اليها متتابعا حتى فتحت وأخذت عنوة ثم ركبوا على باقى المدن والقرى وقاتلوا من
بهما من النواب والولاة وهزموهم ففروا من وجوههم واستولى المصريون على جميع الديار

الشامية
٦

الشامية الى حلب وطار صيت على بيك وملأ الآفاق فداخله الغرور وتاقت نفسه الى الغزو والفتوح فأرسل الى محمد بيك أبى الذهب يأمره بتولية الامراء الذين معه المناصب والولايات على البلاد التى ملكوها وأن يستمر على الغزو والفتوح ويتجاوز الحدود ويستولى على كل ما يصادفه من الممالك والبلدان الى حيث شاء الله وهو يتابع ارسال المدد اليه من مال ورجال فجمع أبو الذهب من معه من الامراء والاقران وكبار الجند وشاورهم فى الامر أخبرهم بما يريده على بيك فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وطال الجدال بينهم ثم اتفقوا على الرجوع بجميع العسكر الى مصر وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وساروا من يومهم فجاؤا القاهرة فى رجب من السنة ودخلوها على خلاف مارسم به على بيك فساءه فعلهم واستعظمه جدا وبقى الأمر على السكوت أياما ثم تكلم على بيك مع أبى الذهب فى أمر رجوعه الى الديار الشامية لفتح كل ما تيسر له فتحه من مدنها وأمصارها وشدد عليه فى ذلك فأظهر محمد بيك عين السخط وعدم الرضا وعارض فى الأمر كثيرا فصمم على بيك وقال لابد من السفر فبدأت بينهما الوحشة باطنا من هذا الحين وأخذت فى الازدياد يوما عن يوم وجعل كل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها * فلما كانت ليلة الرابع من شوال من السنة دس على بيك بلاط الى على بيك الطنطاوى وآخرين معه أن يغتالوا محمد بيك أبو الذهب ويقتلوه على كل حال فركبوا عليه فى تلك الليلة وأحاطوا بداره ووقفت العساكر بأسلحتها فى الطريق فلما أحس محمد بيك بحضورهم ركب من فوره وخرج من بينهم راكبا والسيف بيده وخلفه خواصه وبعض الاتباع وذهب الى البساتين ثم ارتحل منها الى الصعيد وعلم من بالأقاليم القبلية من الأمراء المبعدين بحضوره على هذا الحال فساروا اليه وقدموا له ماعندهم من مال ورجال وقدم له أيوب بيك أحد رفاقه هدايا من خيل وأقمشة وخيام وغيرها وقد وضع محمد بيك المذكور بالطريق عيونا وأرصادا لتأتى له بأخبار القادمين عليه من مصر فأحضروا له يوما رجلا يحمل مكاتبة من على بيك بلاط الى أيوب بيك يأمره بها ويستحثه على سرعة قتل أبى الذهب على أى حال كان ويعده بامارته وبلاده وغير ذلك فلما قرأ المكاتبة أكرم الرجل وناوله اياها وقال له اذهب وائتنى بجوابه ولك عندى غاية الاكرام فذهب الرجل وغاب ثم عاد بالجواب وناوله الى محمد بيك فقرأه فاذا هو يذكر فيه أنه باذل ما فى الوسع وهو يراقب الفرص لينتهزها فتحقق محمد بيك خبث طوية أيوب بيك فجمع اليه خاصته وأمراءه وأعلمهم بالخبر وأمرهم بالاستعداد والتأهب وأنه اذا حضر أيوب بيك اليه أخذ الامراء نظراءهم من قوم أيوب بيك وتحفظوا عليهم * فلما حضر اليه أيوب بيك جلس معه فى خلوة فقال له أبو الذهب بدا لى أن أسألك هل نحن مقيمون على الاخاء والمصافاة والصداقة والعهد الذى تعاهدنا عليه بالشام قال نعم وزيادة قال ومن نكث وخان اليمين ونقض العهد قال يقطع لسانه الذى حلف به ويمينه التى وضعها على المصحف فقال له بلغنى أنه أتاك كتاب من عند أستاذنا على بيك فقال لا فقال لعل ذلك صحيح وقد كتبت له



الجواب أيضا قال لم يكن ذلك أبدا ولو أتانى منه خطاب لأطلعتك عليه ولا يصح أن أكتمه عنك أو أرد له جوابا فأخرج له الجواب واستحضر لذلك الرسول فسقط فى يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فقال له أبو الذهب لا يصح أن تكون من نفاق فقم واذهب الى أستاذك واجتمع به فلما خرج قبضوا عليه وأنزلوه الى مركب وأحاطوا بوطاقه وأسبابه فتفرقت عنه جموعه ثم أمر محمد بيك أحد رجاله فذهبوا وقطعوا يده ثم وضعوا صنارة فى لسانه وجذبوه ليقطعوه كما حكم هو بذلك فأفلت منهم ورمى بنفسه الى الماء فغرق ومات فأخرجوه وغسلوه ودفنوه

ولما فاض الخبر بما وقع لايوب بك تحقق الناس استفحال الوحشة بين أبى الذهب وأستاذه على بيك وأقبل الامراء والاجناد المنفيون اليه ودخلوا تحت لوائه واجتمع اليه جميع اتباع القاسمية والهوارة الذين شردهم على بك وسلب نعمتهم فأكرمهم وأنعم عليهم وواساهم وقلدهم الخدم والمناصب فتقيدوا بخدمته وبذلوا جهدهم فى طاعته وأخلصوا له النية فلما وردت الاخبار بذلك الى القاهرة نزل بعلى بيك بلاط من القهر والغيظ المكظوم مالا يوصف وجعل يجيش الجيوش ويعد المعدات وسير اسمعيل بيك أحد اتباعه بجيش عظيم فى البر والبحر وذلك فى أواخر ذى القعدة من السنة فلما التقى الجمعان لم يقع بينهما من القتال الا شئ خفيف جدا ثم انضم اسمعيل بيك بأكثر جنده الى جند محمد بيك وصاروا جميعا على قلب رجل واحد فاشتد الامر بعلى بيك ولاحت عليه لوائح الغم وكاد يموت قهرا وغما وعاد الى جمع العساكر والاكثار من السلاح ومعدات الحرب وسير سبعة من الصناجق قال أحد الكتاب وكلهم مزلقون أى مترفهون متنعمون وضم الى كل منهم عساكر وطوائف ومماليك وأتباعا وبرز بنفسه الى جهة البساتين ورسم بعلى المتاريس من النيل الى طريق الجبل ووضع عليها المدافع وسارت العساكر ومعها على بيك الطنطاوى وبقية الامراء فى منتصف المحرم افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف فالتقى الجمعان فى الطريق حيث كان أبو الذهب وقومه منحدرين الى القاهرة واقتتلا عند بياضة أمام بنى سويف ووقعت بينهما مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة عسكر على بيك فساق أبو الذهب خلفهم بأصحابه وهم يمانعون عن أنفسهم حتى عبروا النيل ووصلوا الى دير الطين وكان على بيك بلاط مقيما به فلما رأى أصحابه مقبلين على هذا الحال من الهزيمة والفشل اشتد قهره وتحير فى أمره ولكنه أظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام الى الغروب على هذا الحال وقد تفرقت عنه عساكره من المغاربة وغيرهم ووصل محمد بيك الى شاطئ النيل المقابل لدير الطين ونصب صيوانه وخيامه تجاه صيوان وخيام على بيك فنظر اليها على بيك وقلبه يحترق بنار الغيظ ثم ركب عند الغروب ودخل من باب القرافة وطلع الى باب العزب فلبث برهة من الليل ثم نزل الى بيته وقد عقد النية على الفرار فحمل أحماله وأمواله وعياله وخرج سائرا الى الشام وذلك فى ليلة خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثمانين وسار معه على بيك الطنطاوى

وجميع صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوائفه * وأصبح يوم الخميس سادس عشرينه فعلم محمد بيك ابو الذهب بخروج على بيك ومن معه فعبر محمد بيك النيل الى الجانب الشرقى وأمر فأوقدوا النار فى دير الطين ودمروه تدميرا بعد نهبه ثم دخل المدينة بلا ممانع ونادى أصحاب الشرطة على أتباع على بيك بلاط بان لايؤويهم أحد فكانت مدة غيبة محمد بك عن مصر سبعين يوما * فلما استقربه المنصب أرسل فقتل عبد الله كتخدا الباشا ونادى بابطال السكة التى كان ضربها على بيك باسمه وكانت قروشا وأنصاف قروش وكلها من النحاس قد صنعها المعلم رزق أحد قبط مصر وجعل يتصرف فى الامور وينظر فى مصالح البلاد ويعطى المناصب ويفرق الوظائف وغير ذلك * وبينما هو على هذا الحال من النقض والابرام اذ جاءه الخبر بخروج على بيك بلاط من الشام فى جيش عظيم يريد قتال محمد بيك فتهيأ محمد بيك للقائه وبرز بخيامه جهة العادلية ونصب صيوانه فأقام يومين حتى تكامل خروج العسكر وجاء الخبر بوصول علىّ بيك بجنوده الى الصالحية فارتحل محمد بيك فى خامس صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية فى جيش عظيم للغاية فالتقيا بالصالحية واقتتلا قتالا عنيفا جدا فكانت الدائرة على علىّ بيك وأصحابه واصابته جراحة فى وجهه فسقط عن جواده فاحتاطوا به وجاؤا به الى مخيم محمد بيك فخرج اليه محمد بيك وتلقاه بأحسن لقاء وقبل يده وأخذ بيده حتى أجلسه بصيوانه وجلس بين يديه وكان القتلى فى هذه الموقعة كثيرين للغاية وقد قتل بينهم على بيك الطنطاوى وسليمان كتخدا وعمر جاويش وغيرهم من كبار جند علىّ بيك بلاط وكانت هذه الموقعة فى يوم الجمعة ثامن شهر صفر من السنة ثم قفل محمد بيك راجعا بعسكره الى القاهرة ومعه أستاذه علىّ بيك بلاط وأنزله فى بيته الكائن بالازبكية بدرب عبد الحق وحضر الاطباء لعلاجه فلم يلبث الا سبعة أيام ومات قيل انه سم فى جراحته ودفن عند أسلافه بالقرافة وزال وزالت دولته العظيمة * قال أصحاب الاخبار وكان شهما شجاعا مقداما فى الحروب داهية طاغية شديد البطش صعب المراس ثابت الجنان سريع الخاطر والانتقام فخلا الجو لمحمد بيك أبى الذهب واتسعت من هذا الحين شهرته وعلت كلمته واستثبت قدمه فى منصب الرياسة أوكادت * وجاء الخبر بعد هذا الحادث بقليل بولاية الوزير خليل باشا على ديار مصر فدخل القاهرة فى تاسع عشر ربيع من سنة سبع وثمانين (١) وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وكان وصوله من طريق دمياط فجلس فى ثانى يوم للناس فدخل عليه أرباب الديوان وأصحاب الوظائف فخلع عليهم الخلع المعتادة وجعل يتصرف فى الامور كما سيذكر مفصلا فى محله

مطلب
ولاية الوزير خليل باشا

(١) لم أجد فيما راجعته من مذكرات أصحاب التاريخ التى جمعت منها هذا المؤلف اسما لمن تولى مصر من الباشاوات بعد الوزير أحمد باشا الذى قدم من الحجاز فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية الى ولاية خليل باشا هذا التى هى سنة سبع وثمانين فصارت المدة الخالية زهاء خمس سنين والله أعلم اه مؤلفه

قال بعض أهل التاريخ واشتدت رغبة السلطان مصطفى فى رد ما أخذه المحاربون من المدن والامصار وجيش لذلك جيشا عظيما وعزم على الخروج به الى الدانوب فلم يتمكن لمرض أصابه ولازم الفراش فاشتدت به علته فلما أحس بقرب أجله استدعى اليه أخاه عبد الحميد وأوصاه بولده سليم وكان قاصرا ثم مات فى سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وكانت له عناية ومعرفة تامة بالعلوم الرياضية محبا لاهل العلم وله مؤلفات فى الرياضة تعرف باسمه وكان شهما حازما مهيبا أعماله مشهورة للغاية

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية بعد ان أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بيك بلاط على النصارى شدة عظيمة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال كما تقدم القول فانبث أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا مالا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والاحجار الكريمة بأبخس الاثمان وعوته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة وهو من رهبان دير انبا بولا واسمه سمعان من بلدة قلوصنا وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

ولما مات السلطان مصطفى تولى الملك بعده أخوه السلطان عبد الحميد بن السلطان أحمد

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالامر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد وبويع له بالملك يوم موت أخيه سنة ثمان وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ خمسون سنة أمضى منها أربعا وأربعين فى السجن محجورا عليه لايجتمع عليه الا بعض الغلمان والاتباع ولايدرى من أحوال الدنيا شيأ فلم تكن فيه الاهلية لسياسة البلاد ولا القدرة على تدبير أمور المملكة فى ذلك الحين وقد كانت الاخطار تتهددها من كل جانب بسبب الحروب القائمة عليها من الداخل والخارج وكان السلطان مصطفى قبل موته قد جيش جيشا عظيما للزحف به على الروس واسترداد ما أخذ من أملاكه فاخترمته المنية قبل ذلك كما تقدم فلما تولى السلطنة السلطان عبد الحميد أمر بانفاذ جيش السلطان مصطفى وبالغ جدا فى تنظيمه وأعد له كل مايحتاجه من ذخيرة وميرة وأسلحة وكراع وكان زهاء أربعمائة ألف وسلم لواءه الى الصدر الاعظم فساروا والتقوا بجيوش الروس واقتتلوا فدب الفشل فى العساكر العثمانية وانحصروا فى مدينة شوملة لسوء تدبير الصدر

الاعظم

الاعظم
المدر أ
من الطر
للرخص
اعطاه الـ
الروسية ا
وتمكنت
وبناء على
في جلب
أ كابر الد
والتاروالاه
نار الفتنة
سهل علي
المستقبل
قيصرتهم
لنفقة الحر
منها وما
نضارة دول
السلطان
وجاء
وتولته
لخضر مصـ
وقيل أنه
للبحث
معلق با
والاسمار ر

ولما ا
نفسه الى غ
وبرز بخيله
التنمرة وا

الاعظم وفساد رأيه فحاصرهم الروس وضيقوا عليهم جدا وكادوا يقتلونهم عن بكرة أبيهم فرأى الصدر أن يراسل قائد العساكر الروسية فى طلب الصلح فوافقه القائد على ذلك اذ كان كل من الطرفين يرى ان لاقبل له على اطالة زمن الحرب فعقدوا مجلسا فى مدينة بكرش وحرر المرخص العثمانى عهدا وأرسل صورته الى دار السلطنة وكان محصل مافى العهد المذكور اعطاء الحرية التامة للتتار وبقاء قلعة بكرش وبكى قلعة فى يد الروس وحرية سير السفن الروسية التجارية فى البحرين الابيض و الاسود فرضيت دولة الروس بشروط هذا العهد وتمسكت بها لاسيما ماجاء فيها من اعطاء التتار حرية فقد كان ذلك ماتتمناه وتسعى فى الحصول عليه وبناء على ذلك تساهلت هى أيضا للدولة العثمانية فى كثير من الامور ولكنها كانت طفيفة فى جانب مانالته هى * ولما شاع خبر هذا الصلح فى دار السلطنة هاج الناس وماجوا وخشى أكابر الدولة شر العاقبة وأنكروا قبول منح الحرية للقريم وسير السفن فى البحرين وقالوا الحرب والنار ولا هذا العار * قال بعض كتاب الاخبار وكان قصد الروس من منح الحرية للتتار انما هو ايقاد نار الفتنة فى القريم وبث روح التعصب والفساد كما فعلوا فى لهستان من قبل فاذا تم لهم ذلك سهل عليهم الاستيلاء عليها كما استولوا على ايالتى قزان واندرخان قال ولم يمنعهم من العمل للمستقبل ماهو واقع من الخلل والارتباك الداخلى وعدم استقامة الاحوال فانه لما أخذت قيصرتهم كاترينة فى ادخال أولاد الناس فى صفوف الجند وأكثرت من المغارم والمكوس لنفقة الحروب أبغض الناس الحرب ونفرت قلوبهم منه وتولى الخراب على الكثير من مدنها وبلدانها وضج الناس وابتهلوا الى الله بزوال ملكها وأخذت من هذا الحين تذبل نضارة دولة آل عثمان وكادت تزول سلطتها من وراء الدانوب زوالا تاما فاشتد الامر على السلطان عبد الحميد وأعظمه جدا وكان منه ماسيذكر فى محله

مطلب
عزل الوزير خليل باشا وولاية مصطفى باشا النابلسى

وجاء الامر عقب ولاية السلطان عبد الحميد بقليل بعزل الوزير خليل باشا من ولاية مصر وتوليته على جدة وقيام الوزير مصطفى باشا النابلسى من دار السلطنة ليتولى على مصر فحضر مصطفى باشا الى القاهرة فى أواخر جمادى الثانية من السنة وطلع الى قلعة الجبل وقيل انه سكن ببركة الفيل * والثانى أصح * وجعل يتصرف فى الامور فلم يقو على ذلك حيث كانت الكلمة والتصرف للامير الكبير محمد بيك أبى الذهب وأصحابه وكان وصول مصطفى باشا الى القاهرة والوقت فى هدو والحال فى سكون والقلوب مطمئنة والاقوات كثيرة والاسعار رخية ولكن كما قال الشاعر

وما الدهر فى حال السكون بساكن * ولكنه مستجمع لوثوب

ولما اطمأن قلب الامير محمد بيك بسكون الحال بعد موت استاذه على بيك بلاط تاقت نفسه الى غزو الشام واستخلاص مابيد الظاهر عمر و من المدن والبلدان فجيش لذلك عسكرا عظيما وبرز بخيامه الى العادلية وفرق الاموال على الامراء والعسكر وسيرهم فى البر والبحر وأنزل الذخيرة والمبرة وأكثر من المدافع والقنابل الكبيرة وسار بنفسه مع هذا الجيش فى أوائل

المحرم افتتاح سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية وسلم الامارة ونيابة الغيبة بمصر الى
ابراهيم بيك أحد كبار مماليكه ثم ترك بقية الامراء ولم يصحبه منهم الا القليل فلما وصل مدينة
غزة وشاع خبر وصوله خاف أهل البلاد ولم يظهروا امامه وتحصن أهل يافا وتحصن كذلك
الظاهر عمرو بعكا فلما وصل محمد بيك الى يافا حاصرها وضيق عليها وشدد فامتنعوا عليه
وحاربوه من وراء السور وحاربهم ورمى عليهم بالمدافع والمكاحل و واصل الرمى عدة أيام
وليالى فكانوا يصعدون على الاسوار ويسبون المصريين وأميرهم سبا قبيحا فلم يزل المصريون
يوالون الرمى بالقنابل حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل صوب وحدب وملكوها
ونهبوها وقبضوا على أهلها وقيدوهم بالحبال والحديد وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم
مقتلة عظيمة ثم جمعوا الاسرى خارج البلد وذبحوهم ذبح الغنم ولم يميزوا بين صنوف
الناس وبنوا من رؤس القتلى عدة صوامع و وجوهها بارزة والرياح تسف عليها التراب
ثم ارتحل عنها طالبا عكا فلما بلغ الظاهر عمرا ما وقع لاهل يافا اشتد خوفه وخرج من عكا
هاربا وتركها وحصونها فوصل اليها محمد بك ودخلها من غير ممانع وأذعنت له باقى البلاد
وأطاعته وهى صاغرة ● فلما دانت له مصر والشام أرسل اسمعيل أغا الى دار الخلافة
بهدايا وأموال عظيمة جدا ملتمسا امارة مصر والشام وكان السلطان يخشى استقلال محمد
بيك بملك البلاد والخروج عن طاعته فأجابه على الفور الى ماطلب وأرسل اليه مع رسوله
تقاليد الولاية والخلع والبيرق والداقم وجاءت له الاخبار بذلك ووردت عليه البشائر بتمام
الامر فوافاه ذلك يوم دخوله عكا فامتلأ فرحا فحم بدنه فى الحال فأقام محموما ثلاثة أيام
ومات ليلة الاربعاء ثامن ربيع الثانى من السنة و وافى خبر موته دار السلطنة قبل
قيام الرسول الذى كان يحمل التقاليد فانتقض الامر وردت التقاليد وفرح السلطان بموته
● وكان قد جمع اليه قبل موته الامراء ومقدمى الاجناد وأعلمهم بعزمه على السير الى
الامام وفتح مايفتح الله به عليه من المدن والبلدان فشق الامر عليهم جدا اذ كانوا قد سئموا
الحرب والابتعاد عن الاوطان فلم يحاوروه بشئ خوفا منه ● قال ناقل هذه الرواية وأقمنا على
مانحن عليه من الغم والكمد الثلاثة الايام التى مرض فيها وأكثرنا لايعلم بمرضه ولا يدخل
اليه الا بعض خواصه ولم يذكروا مرضه الا فى اليوم الثالث قالوا انه منحرف المزاج فلما
كان فى صبح الليلة التى مات فيها نظرنا الى صيوانه وقد انهدم ركنه وأولاد الخزنة فى حركة ثم
زاد الحال وجرد السيوف بعضهم على بعضهم بسبب المال وظهر أمر موته وارتبك العسكر
وحضر مراد بيك فكفهم عما هم عليه وجمع كبراءهم فى الحال وشاورهم فاتفق رأيهم على
الرحيل الى مصر فقاموا وقد غسلوا جثته وكفنوها ولفوها فى أقمشة ثخينة وحملوها على
عربة وساروا طالبين الديار المصرية فدخلناها بعد ستة عشر يوما وكان دخولنا فى ليلة
الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الثانى فارادوا دفن الجثة بالقرافة فحضر الشيخ الصعيدى
وأشار بدفنه فى مدرسته تجاه الازهر فحفروا له قبرا بالليوان الصغير الشرقى و بنوه ليلا فلما

اصبحوا

أصبحوا خرجوا بجنازته من بيته الذى بقوصون ومشى امامه المشايخ والعلماء والامراء وجميع الاحزاب وأولاد المكاتب وامام نعشه مجامر العنبر والعود لاخفاء رائحة نتنه حتى واروه التراب اه واستقر أتباعه أمراء البلاد المشار اليهم فى الحل والعقد ومقدماهم ابراهيم بيك ومراد بيك وكانت عدتهم ستة عشر أميرا

مطلب
عزل مصطفى باشا وولاية الوزير ابراهيم باشا عرب كرلى وموته وولاية محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير

ووردت الاخبار بعزل مصطفى باشا النابلسى و ولاية الوزير ابراهيم باشا عرب كرلى فدخل القاهرة وسافر مصطفى باشا فى أواخر جمادى الثانية سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية الى جدة ومات بالمدينة وكان وصول ابراهيم باشا المذكور الى القاهرة رابع شعبان سنة تسع وثمانين فنزل بامبابه وأقام بها ولم يكن له من الولاية سوى الاسم فقط والتصرف لابراهيم بيك ومراد بيك ومازال بامبابه حتى مرض ومات فدفن بالامام الشافعى وتولى بعده الوزير محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير فدخل القاهرة فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الاول سنة تسعين فكان كمن سبقه محجورا عليه فى جميع أحماله ليس له من الولاية الا الاسم فقط والتوقيع على القصص والجلوس فى صدر الديوان ٭ ولم تكن لتسكن الفتن بموت على بيك بلاط واسمعيل بيك الكبير حتى ظهرت فتنة أخرى بالجامع الازهر واشتدت نارها وارتفع لهيبها وكان سبب ذلك ان طائفة من المغاربة المجاورين بالازهر آل اليهم مكان موقوف فطلبوا استلامه واستغلاله فمانع واضع اليد وطعن فى الدعوى واستعان بالامير يوسف بيك من الامراء المقدمين ودافع عن المكان المذكور فرفع المغاربة أمره الى القاضى وترافعوا امامه فظهر الامر على خلاف مايشاء يوسف بيك فحنق لذلك ووسمهم بالغش وارتكاب الباطل وأرسل جماعة من أصحابه ليقبضوا على الشيخ عباس أحد المغاربة العاملين فى هذه القضية فطردهم المجاورون وسبوهم ولم يمكنوهم منه وأخبروا الشيخ الدردير بما جرى فكتب الشيخ الى يوسف بيك يمنعه من التعرض لاهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى وأرسل المكاتبة صحبة اثنين من المشايخ فلما قرأ الرسالة غضب وأمر بالاثنين فقبضوا عليهما وأودعوهما السجن فوصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا فى صبح ثانى يوم وأبطلوا الدروس والاذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة و صعد الصغار على المنارات يكثرون من الصياح والدعاء على الامراء وأصحابهم وأغلق أهل الاسواق القريبة الحوانيت وبلغ الامراء الخبر فأرسلوا الى يوسف بيك فأطلق المسجونين وأرسل ابراهيم بيك الى المشايخ بملازمة الهدو والسكون فلم يلتفتوا لقوله وسبوا رسوله فحضر الاغا الى الغورية ونادى بالامان وفتح الحوانيت فبلغ مجاورى المغاربة ذلك فذهب اليه جماعة منهم وتبعهم العامة والغوغاء وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الاغا ورجموا بالحجارة فركب الاغا عليهم وركبت مماليكه والسيوف بايديهم فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة وجرح منهم ومن العامة كذلك وبقى الهرج الى ثانى يوم فحضر اسمعيل بيك والشيخ السادات وعلى كتخدا الجاويشية وحسن أغا أغاة المتفرقات وغيرهم ونزلوا بالاشرفية وأرسلوا الى الجامع بانفضاض

الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا وطلبوا الجماكى والمرتبات المتأخرة فرجعوا وأصبحوا والهرج فى ازدياد فعاد اسمعيل بيك ومعه الشيخ السادات وجلسا بالجامع المؤيد وأرسل الى المشايخ على يد الشيخ ابراهيم السندوبى بان اسمعيل بيك المشار اليه قد تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء جميع حوائجهم وقبول فتواهم واعتبارها معمولا بها على كل حال مع صرف جماكيهم وجميع مرتباتهم المتأخرة وان الضامن له فى ذلك الشيخ السادات فلما وصل الشيخ السندوبى ومعه الكتاب قرأه الشيخ عبد الرحمن العريشى على رؤس الملا وهو قائم على الاقدام فلما سمعوه أكثروا الهرج والجلبة وعلت أصواتهم وقالوا لانقبل بذلك وترددت الرسل بين الفريقين بطول النهار ثم وقع الصلح وفتحت أبواب الجامع وعادت أموره الى ما كانت عليه و بعثوا لهم فى ثانى يوم مبلغا برسم الجماكى وقد اشترطوا عدم مرور الاغا والوالى والمحتسب من حارة الازهر وغير ذلك من الاشتراطات التى لم يتم منها شئ البتة * ولما سكنت الفتنة تتبع الاغا كل من كان له يد فيها من أولاد البلد فجعل يقبض عليهم واحدا فواحدا ويقتلهم خنقا وتغريقا ودفنا تحت التراب

ووقعت الوحشة بعد هذا الحادث بقليل بين اسمعيل بيك وبين مراد بيك الكبير لاسباب يطول شرحها فخرج اسمعيل بك مغضبا يريد العادلية مرتحلا عن مصر فخرج خلفه ابراهيم بيك الكبير وطيب خاطره وأرجعه فعاد وهو فى غيظ ولبث أياما والوحشة ضاربة أطنابها بينه وبين مراد بيك فعمد مراد بيك الى قتله واتفق مع جماعة من قومه على ان يركبوا عليه و يقتلوه فى بيته وعينوا لذلك يوما معلوما فعلم اسمعيل بيك بخفى سرهم وخاف على نفسه فحمل أثقاله وجمع متاعه وركب فى الصباح الى العادلية وجلس بالازبكية وركب مراد بيك ومر بمنزل اسمعيل بيك ليعرف خبره فوجده قد خرج الى الازبكية وكان ابراهيم بيك الكبير قد ذهب فى هذا اليوم الى قصر العينى فبلغه خبر خروج اسمعيل بيك فخشى عاقبة خروجه وشاع الخبر بذلك فخرج خلفه كثير من الامراء الناقين على مراد بيك وابراهيم بيك وكانت عدتهم خمسة أمراء ولحقوا به بالعادلية وعلم ابراهيم بيك ومراد بيك بذلك فركبا لساعتهما وركب معهما بعض الامراء من خواصهما وصعدوا الى قلعة الجبل وملكوا الابواب واستفاض الخبر فكثر الهرج وتوارد الامراء الى الرميلة واضطربت المدينة و أغلق الناس الدكاكين وأقفلت أبواب البيوت وانقطع الناس عن الخروج واستمروا على ذلك أربعة أيام بلياليها وخرج الكثير من أهل القلعة سرا ولحقوا بالامير اسمعيل بيك ويوسف بيك ومن معهما فأرسل لذلك أهل القلعة ابراهيم أغا الوالى فجلس بباب النصر لمنع خروج من يريد الالتحاق بأصحاب اسمعيل بيك وأغلق الباب ونزل الباشا الى باب العزب فحضر قاسم كتخدا أمين البحرين وعبد الرحمن أغا وهما من أصحاب الامير اسمعيل بيك ومعهما آخرون الى باب النصر وفتحوا الباب عنوة وطردوا الوالى ومن كان معه وملكوا الباب فأرسلوا لهما جماعة من العسكر المغاربة فاقتتل الفريقان وتفرق أصحاب اسمعيل بيك وجرح كثير من

المغاربة

المغاربة وانتشر أصحاب اسمعيل بيك حوالى القاهرة ومصر وسارت طائفة منهم الى بولاق القاهرة فصادفوا فريقا من العسكر يحمل علوفة الخيل التى بالمعسكر فهجموا عليهم وفرقوهم وأخذوا ما كان معهم من فول وتبن وتوجه فريق منهم أيضا الى المقطم فاشتد الحال وعظمت الفتنة وخاف الباشا شر العاقبة فسعى فى تدارك الامر قبل استفحال الخطب وأرسل الى اسمعيل بيك فى طلب الصلح فلم يقبل فراجعه وأرسل ولده اليه وكتخداه مرارا فلم يقبل

ودخل فى ثانى يوم عبد الرحمن أغا من باب النصر ومر من وسط المدينة وامامه المنادى ينادى على أصحاب الحوانيت برفع بضائعهم والتصدر فرفع الناس مابقى منها ولم يزل سائرا حتى وصل الى باب زويلة ونزل بجامع المؤيد ورتب عسكرا هنالك على السقائف والاسبلة ثم سار من هنالك فى جند كثير الى باب زويلة ومنه الى الدرب الاحمر الى جامع المردانى وزحفوا الى التبانة وعملوا متاريس بالقرب من المحجر ووضعوا بها عسكرا وكذلك فعلوا بناحية سويقة العزى فنزل اليهم بعض الجند الذين بالقلعة وأطلقوا عليهم النيران فدفعوهم برمى البنادق وقطعوا الطرق على من كانوا بالقلعة الى مابعد عصر اليوم فنزل اليهم بعض الفرسان المدرعة فحملوا عليهم وهزموهم أيضا وقتلوا منهم جماعة ورجع من بقى منهم الى القلعة على أعقابهم وما دخل غروب اليوم حتى انفصل عن القلعة جميع العسكر المغاربة وحلوا سلاحهم وانحدروا وانضموا الى من كانوا بالمحجر من أصحاب اسمعيل بيك ولاحت على أصحاب ابراهيم بيك ومراد بيك لوائح الخذلان وأصبحوا وقد دخل جماعة كثيرة من أصحاب اسمعيل بيك الى المدينة ورابطوا فى جميع الجهات حتى انحصر من بقلعة الجبل ولم يبق لخلاصهم سبيل وأخذوا ينقبون الاسوار فلما أحسوا بذلك وأيقنوا بالهزيمة انحدر ابراهيم بيك ومراد بيك وجماعة من الامراء ليلا من باب الميدان وذهبوا جهة البساتين الى الاقاليم القبلية وتخلف منهم جماعة فخرجوا الى اسمعيل بيك وخليل بيك وطلبوا الامان فلما شاع خبر هروب ابراهيم بيك ومراد بيك هجم المرابطون بالمحجر وسوق السلاح على الرميلة ونهبوا جميع خيامهم التى كانت بها وبالميدان ولم يتركوا شيأ حتى ولاجمال الباشا ودخل اسمعيل بيك ويوسف بيك بعد العصر من ذلك اليوم من باب النصر فى عدة من الجند والمماليك والاتباع وسارا الى بيوتهما وأصبح ثانى يوم فسار عبد الرحمن أغا فى الشوارع ونادى بالأمان والبيع والشراء فزال عن الناس بعض الخوف

* ولما كان يوم الأحد ثانى عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة احدى وتسعين صعد اسمعيل بيك ويوسف بيك الى الديوان فى كبكبة وزينة فخلع عليهما الباشا خلعتى سمور وولى اسمعيل بيك مشيخة البلد بدل ابراهيم بيك فتصرف وجعل يفرق المناصب العالية بين أصحابه وأصحاب يوسف بيك واتباعهما وقبضوا على الكثير من الامراء وأصحاب الوظائف على عهد ابراهيم بيك وأبعدوهم الى أقاصى البلاد ولم يلبث اسمعيل بيك ويوسف بيك طويلا على الاخاء والمودة حتى

قامت بينهما الشحناء وتبـدل ودهما جفاء فجعـل اسمعيل بيك يتدبر فى قتل يوسف بيك وما زال على هـذا العزم حتى أرسـل اليـه جماعة من اتباعـه الاخصاء ليقتلوه فى بيتـه فدخلوا عليه فوجدوه جالسا بالمقعد المطل على البركة فجلس أحـدهم أمامه وجلس آخرون على شمـاله وجماعة بقوا واقفين يحادثونه ساعة لطيفة فى أمر من الامور وتناقشوا مع بعض بحدة فتأخر عنهم الواقفون من المماليك والاجناد فسحب أحدهم وهو عبد الرحمن بيك خنجرا وطعن به يوسف بيك فهم يوسف بيك ليدفع عن نفسه فداس على فروة من كان جالسا بجانبه فسقط على ظهره فقاموا عليه جميعا وضربوه بسيوفهم وأطلق أحـدهم طبنجة على الواقفين من الخدم والاتباع ففروا من امامهم فنزلوا مسرعين من القبطون الموصل الى البركة وركبوا وذهبوا الى اسمعيل بيك وأخبروه بالخبر فركب فى الحال وصعد الى قلعة الجبل وأرسل الى الباشا وكان بقصر العينى يتنزه فركب من هناك وصـعد الى القلعة وجلس بباب العزب مع اسمعيل بيك فلما بلغ أصحاب خليل بيك واتباعه خبر موت أستاذهم تلك الليلة ركبوا وخرجوا من المدينة يريدون الصعيد فاركب اسمعيل بيك خلفهم جماعة فلم يدركوهم فأرسل الى من تخلف منهـم فاختفوا ثم خرجوا ولحقوا بمن فر * وجاءت الاخبار فى هـذه الاثناء بعـزل محمد باشا العزتلى وولية الوزير اسمعيل باشا فدخل القاهرة فى يوم الاثنين سادس ذى القعدة من السنة وصعد الى قلعة الجبـل فى موكب حافل ودخل عليه اسمعيـل بيك الكبير وباقى الامراء فخلع على اسمعيـل بيك خلعة سمور وأقره على مشيخة البلد وتدبير الدولة والتصرف فى الامور فرسم اسمعيل بيك بعـد ذلك بجمع العسكر والجنود لقتال من هرب من أصحاب يوسف بيك ومن انضم اليهم من الامراء الهاربين بالاقاليم القبلية واهتم بذلك وسلم قيادة هذه الحملة الى اسمعيل بيك الصـغير وبرز العسكر الى البساتين ونصبوا خيامهم أياما ثم ساروا فى البر والبحـر فالتقى الجمعان عنـد بياضة تجاه بنى سويف واقتتـلا قتالا عنيفا انكشف عن هزيمة أصحاب اسمعيـل بيك وتمزيق جمعهم فرجعوا الى القاهـرة على الاعقاب ودخلوها فى أسوإ حال وأخذت جميع خيامهم وأسلحتهم ومراكبهم وكانت نيفا وخمسمائة وكان مقـدم عسكر اسمعيل بيك فى حراقة صـغيرة فلما انهزم العسكر انحدر الى القاهرة وكذلك بقيـة الامراء انحدروا فيما لحقوه من المراكب وكان اسمعيل بيك بالفسطاط فلما علم بخبر حضورهم على هـذا الحال من الهزيمة حزن حزنا كبيرا وأحس بزوال دولتـه ونزل الباشا من قلعـة الجبـل وخرج الى الآثار ونادوا فى الناس بالنفـير العام فخـرج القاضى والمشايخ والتجار وأرباب الصنائع والمغاربة وأهل الحارات كافة وأغلقت الاسواق حتى ملؤا الفضاء فلما عاين ذلك اسمعيل بيك وعلم انهم يحتاجون الى المـال والميرة فضلا عن الذخيرة اختار منهـم طائفة المغاربة والترك وصرف من بقى من العامة وأرباب الحرف والمشايخ وأصحاب الاشاير والفقراء ووصـل الامراء من الصعيد الى حلوان وتعلقت آمالهم بالاستيلاء على مصر والقاهرة بعد تلك النصرة العظيمة التى انتصروها فأرسل اليهم اسمعيل بيك جيشا عظيما من الترك والمغاربة

مطلب
عزل محمـد باشا العزتلى
وولاية الوزير اسمعيل باشا

ومعهم

ومعهم المدافع الكبيرة فنصبوا متاريسهم مابين التبين وحلوان تجاه العدو وركب فى ليلتها اسمعيل بيك وأمراؤه وأجناده وكان الباشا قد استحضر من ثغر دمياط مركبا حربيا يحمل خمسا وعشرين مدفعا وكان ريانه ذا خبرة تامة بالحرب وفنونه اسمه حسن الغاوى فأقلع به ليلا تجاه المعسكر واندفع حتى تجاوز مراكب العدو وأطلق المدافع على معسكرهم برا وعلى مراكبهم بحرا وساق جميع المراكب بما فيها واشتد الجلاد بين الفريقين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الامراء أعداء اسمعيل بيك وانهزموا شر هزيمة وهرب ابراهيم بيك الكبير ولم يظهر مراد بيك الكبير بسبب جراحته وهم أصحاب اسمعيل بيك على خيامهم ومعسكرهم فنهبوه بجميعه وفر من بقى منهم الى الاقاليم القبلية فساقوا خلفهم فلم يدركوهم ودخل اسمعيل بيك بعساكره القاهرة منصورا مؤيدا ولم تكن لهم هذه النصرة فى حساب فكان رجوعهم فى يوم الاربعاء غرة شعبان من السنة

واستوحش اسمعيل بيك الكبير من اسمعيل بيك الصغير بعد ذلك حيث ظهر عليه فى أحكامه وأوامره فكان كلما أصدر أمرا عارضه فيه ورده عنه بل عمل على خلافه حتى ظهرت كلمته وعلت وتزاحم الناس على بابه وأقبل اليه أصحاب الظلامات والدعاوى وانضم اليه الكثير من الكشاف والامراء وحدثته نفسه بالانفراد والاستقلال بحكم البلاد فآنس ذلك منه اسمعيل بيك الكبير فتركه وشأنه وأظهر انه رمد بعينيه وانقطع عن الخروج من أول شهر رمضان ثم خرج فى أواخره الى زيارة السيد أحمد البدوى ثم رجع وجمع اليه خواصه وشاورهم فى أمر قتل اسمعيل بيك الصغير وكاشفهم بما فى نفسه فاتفقوا على قتله ودبروا لذلك تدبيرا * فلما كان ليلة التاسع والعشرين من رمضان ركبوا فى آخر الليل ومعهم طائفة من العساكر والاجناد وأحاطوا ببيت اسمعيل بيك المذكور فأحس بهم وركب فى مماليكه وخرج فوجد الطرق كلها مزدحمة بالجند فدخل من عطفة الفرن يريد الفرار وخرج الى قنطرة عمر شاه فوجد الجند امامه وخلفه فصار يقاتلهم ويدفع عن نفسه من عطفة الى عطفة حتى وصل الى عطفة البيدق وقد أصيب بضربة سيف على كتفه وسقطت عمامته وصار حاسر الرأس والدم يسيل منه الى أن وصل تجاه درب عبد الحق بالازبكية فلقيه عثمان بيك أحد خواص اسمعيل بيك الكبير فرده وسقط عن فرسه فاحتاطوا به ونزل على دكان أحد السوقة وهو فى أسوإ حال فعصبوا رأسه بعمامة رجل جمال كان فى الطريق وحمله عثمان بيك الى بيته وتركه وذهب الى اسمعيل بيك فأخبره بخبره فخلع عليه فروة سمور وأعطاه فرسا مرختا وأمر الوالى فذهب اليه وقتله خنقا ثم وضعوه فى تابوت وأرسلوه الى بيت صغير كان له فبقى به الى الصباح فأخرجوه ودفنوه بغير احتفال بجنازته * ورسم اسمعيل بيك بالقبض على أشياع اسمعيل بيك المقتول وأنصاره وابعادهم الى أقاصى البلاد فأبعدوا منهم جماعة كثيرة وصادروهم وقتلوا منهم آخرين بعضهم ببولاق القاهرة وبعضهم بغيرها * ولم يطمئن قلب اسمعيل بيك الكبير بموت اسمعيل بيك الصغير وتشريد أنصاره حتى جاءه الخبر باشتداد ازر



الامراء الهاربين فى الاقليم القبلى واستفحال أمرهم وانهم تملكوا جميع البلاد التى من جرجا الى فوق وقبضوا الخراج ومنعوا ارسال الغلال فأخذ اسمعيل بيك فى تجييش الجيوش وإعداد المعدات وضرب لذلك المغارم على القرى فجعل على كل قرية منها ثلثمائة ريال وأمر جميع الامراء بالتأهب والاستعداد للخروج وخرج هو الى دير الطين بريد السفر وكذلك رسم الباشا لجميع الامراء وأرباب المناصب العسكرية فخرجوا جميعا ونصبوا خيامهم عند معادى الخبيرى ونزل الباشا من قلعة الجبل وجلس بقصر العينى وساروا وسار معهم اسمعيل بيك وقد ترك بالقاهرة جماعة من الامراء من خواصه الذين يعتمد عليهم ورسم لمقادم الابواب بأن يطوفوا فكانوا يطوفون بالاجناد فى الحارات ليلا ونهارا فلما وصل اسمعيل بيك بعسكره الى منية ابن خصيب لم يجد للعدو بها أثرا وعلم انهم ساروا الى مدينة أسيوط ومعهم اسمعيل أبو على أحد كبار الهوارة فسار لقتالهم وبينما هو يجد السير الى أسيوط جاءه الخبر من القاهرة باتحاد جماعة من الامراء الذين تركهم بها لتدبير أمورها على الانضمام الى ابراهيم بيك ومراد بيك وكان زعيم هذه العصابة حسن بيك الجداوى ومعه جميع أصحابه ووافقهم على ذلك أيضا حسن بيك سوق السلاح وأحمد بيك شنن وأصحاب القلاع بأسرهم فلما تحقق ماوراء ذلك هاله الامر جدا وركب من ساعته بمن معه وانحدر يريد القاهرة وجدّ حتى دخلها فلم يشعروا الا وهو فى وسطهم وبات ليلته وأصبح فأمر بمنع المعادى من التعدية وصعد فى ثانى يوم الى قلعة الجبل وعقد الديوان بحضرة الباشا فاجتمع جميع الامراء وأرباب الوجاقات والمشايخ وتكلموا فى أمر قتال الهاربين وفيما ظهر من الفتنة بالقاهرة وطال الكلام بينهم فلم يتفقوا على أمر ما وتفرقوا وأخذوا فى توزيع متاعهم وقد اضطربت أحوالهم وأصبح اسمعيل بيك وقد جمع تجار البهار والمباشرين من الاقباط وطلب منهم مالا قرضة لنفقة الحرب وشدد فى الطلب وأرهب وتوعد * وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بوصول طلائع أصحاب ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك الى البساتين وأن قد وصل بعضهم الى الجيزة فلما تحقق ذلك وقد كان على أهبة الفرار أمر اتباعه بحمل متاعه والخروج به خفية وخرجوا تباعا من بعد العصر الى الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء رابع عشر المحرم من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية ونزلوا بالعادلية وخرج معه جميع خواصه من الامراء والمماليك والاتباع وبات الناس تلك الليلة فى وجل ماعليه من مزيد وأصبحوا فعلموا بخروجهم فاندفعت عند ذلك العامة على بيوتهم ونهبوا ماوجدوه فيها أما هم فانهم ساروا فى صبح اليوم قاصدين الديار الشامية وزالت دولة اسمعيل بيك المذكور فكانت مدة تصرفه فى الامارة على مصر فى هذه المرة ستة أشهر وأياما لاغير

وعلم ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك بخبر خروج اسمعيل بيك من القاهرة فعبر مراد بيك ومصطفى بيك وآخرون النيل فى ذلك اليوم الى مصر القديمة ومروا من وسط المدينة ونودى

بالامان

بالامان وأرسل ابراهيم بيك يطلب من الباشا الامر بدخولهم القاهرة فأرسله اليه صحبة وله وكتخداه فدخل ابراهيم بيك وبات ليلته تلك بقصر العيني وكذلك بقية الامراء ثم ركب ابراهيم بيك الى بيته ومعه اسمعيل أبوعلى أحد كبار الهوارة وأصبحا وقد صعدا الى قلعة الجبل فقابلهما الباشا وخلع عليهما خلع القدوم ثم استدعى الباشا ابراهيم بيك ثانية وخلع عليه وأقامه فى منصب مشيخة البلد كما كان من قبل فلما استقرت بها سلم الوظائف العالية الى أصحابه وخواصه فانقسم من هذا اليوم الامراء بمصر الى قسمين الاول أصحاب حسن بيك الجداوى ومن كان معه من الامراء الذين نكثوا العهد مع اسمعيل بيك الكبير وانضموا الى عصابة ابراهيم بيك ومراد بيك كما تقدم وسمى هذا القسم بالعلوية والثانى أصحاب ابراهيم بيك ومراد بيك الاولين وسمى بالمحمدية فكان فريق العلوية شامخ الانف على المحمدية يرى المنة لنفسه والفضيلة لانه لولا مانعا منه من الانحراف وخذله اسمعيل بيك مادخل المحمدية قط الى مصر ولاعادت اليهم الامور فكان المحمدية لايتصرفون فى أمر من الامور الا باذن من العلوية وبرأيهم فكانوا مغلوبين على أمرهم مجبورا على تصرفهم * واتفق ان حضر بعد قليل من الايام ابراهيم بيك أوده باشى وهو ممن كانوا هربوا الى غزة مع اسمعيل بيك الكبير وكان قد طلب الاجازة بالرجوع فأذنوا له فدخل بيته واعتزل عن الناس ولبث منكمشا أياما ثم لم يلبث بعدها الا قليلا حتى اتهمه رضوان بيك بالموالسة وانه انما هو جاسوس من قبل اسمعيل بيك وعمل على تبعيده فاستجار أوده باشى المذكور بمراد بيك والتجأ اليه فطمن خاطره وخفف عنه وهون عليه فحزل ذلك ساكنا فى قلوب العلوية وفشت الوحشة بينهم وبين المحمدية وأخذت تزداد يوما عن يوم الى أن خرج مراد بيك يوما ومعه بعض خواصه الى ضرب النشاب فجعل يكلمهم فى أمر العلوية وتصديهم لسائر الامور وتغلبهم عليها وغير ذلك ويظهر الغيظ والكمد فبينما هو على هذا الحال اذ أقبل عليه عبد الرحمن بيك وعلى بيك الحبشى وهما من العلوية وجلسا عنده برهة فلما أرادوا الانصراف أشار مراد بيك الى بعض أتباعه بأن اقتلهما فوثب عليهما وطعن عبد الرحمن بيك فقتله وهرب الحبشى واختفى فى بعض الاشجار فمروا به ولم ينظروه فركب مسرعا ودخل على حسن بيك الجداوى وأخبره بما جرى فجمع حسن بيك أصحابه وخواصه وجميع الامراء المتحدين معه وشاورهم فى الامر فاتفقت كلمتهم على القتال والتترس فى بيت الجداوى فتترسوا به وعملوا متاريس أيضا بباب زويلة وناحية باب الخرق والسروجية والقنطرة الجديدة وجاء الخبر الى مراد بيك بما هم عليه من التأهب للقتال فجمع أصحابه وخواصه وكانوا عدة كبيرة وركب ابراهيم بيك الكبير من قبة العزب وصعد الى قلعة الجبل وملك الابواب وصوب المدافع نحو بيت الجداوى بالداودية وانتشبت الحرب بينهم طول النهار فأغلقت الاسواق وأقفلت كافة الدكاكين وباتوا على ذلك ليلة الاحد وأصبحوا واطلاق المدافع والبنادق متتابع وهم يزحفون على بعضهم تارة ويتقهقرون أخرى وينقبون البيوت على من يكون داخلها منهم

فسقطت بسبب ذلك عدة دور وتهدمت بأصحابها فمات خلق كثير تحت الردم وكثر النهب والحريق والقتل واختل النظام فتطاولت أيدى العامة الى أصحاب البيوت وقام الخصم على خصمه فقتله من غير مراقب ولا ممانع وتسلق جماعة من المحمدية من الخليج وصعدوا الى جامع الجين من بين المتاريس وقصدوا بيت عبد الرحمن أغا من خلف وملكوه ووضعوا عليه المدافع ورموا بها على بيت الجداوى تباعا فأيقن العلوية بالغلبة وأحسوا بالهزيمة فركبوا وخرجوا من باب زويلة الى باب النصر فركب خلفهم المحمدية وأعملوا فى أقفيتهم السيف فقتلوا منهم خلقا ومات أغلب كبارهم وهرب حسن بيك الجداوى ورضوان بيك وكان ذلك وقت القائلة من يوم الاحد وكان يوما شديد الحر ولم يمت أحد من المحمدية بجراحة سوى مصطفى بيك الكبير بعد أيام قلائل

وسار حسن بيك ورضوان بك فى طائفة قليلة على وجوههم هائمين فخرج عليهم جماعة من العربان وقاتلوهم قتالا شديدا ومزقوهم فتخلص رضوان بيك وذهب بخاصته الى شبين الكوم وتتبع العربان اثر حسن بيك الجداوى وضيقوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وأخذوا ما معه وجردوه وشدوا وثاقه ثم قادوه بينهم ماشيا على أقدامه وهو حاف وأرسلوا الى الامراء بمصر من يخبرهم بخبره فبعث اليه ابراهيم بيك بن يستحضره فسار معه حتى دخل القاهرة ثم أفلت منه وسار الى بولاق ودخل الى بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فرجع الرسول وأخبر بذلك فركبت طائفة من المحمدية وذهبوا الى دار الشيخ الدمنهورى وطلبوه فامتنع من تسليمه فلم يجسروا على أخذه قهرا واشتد به الخوف فصعد الى سطح البيت وتسلق الى سطح آخر ولم يزل حتى نزل بالقرب من وكالة الكتان فصادف بعض المماليك فضربه وأخذ حصانه وركبه وذهب مسرعا يريد النجاة فشاع خبر هربه فركبت الجند خلفه وسدوا عليه المسالك وهو يدافع ولم ير للوصول الى الفضاء سبيلا فعاد الى المدينة ثانيا وذهب الى بيت ابراهيم بيك وكان جالسا مع مراد بيك فاستجار بابراهيم بيك فأجاره وأمنه ولبث فى بيته خمسة أيام وهو مفقود الشعور فلما أفاق وحسنت حاله رموا له بالذهاب الى جدة وبعثوا به الى السويس فى محفة فلما نزل بالمركب وأقلعت به طلب من ربانها أن يذهب به الى القصير فامتنع الربان من ذلك فتهدده بالقتل فسار به وأنزله هناك فترفع الى الصعيد واختفى خبره ثم أمر ابراهيم بيك ومراد بيك بتبعيد من بقى من العلوية فأبعدوهم الى رشيد ودمياط وشبين وغيرها ثم سيروا جماعة فقتلوهم جميعا ولم يبقوا على أحد منهم * ولم تكد تسكن الفتنة حتى أحس ابراهيم بيك الكبير بانحراف من الباشا وتدليس مع اسمعيل بيك الكبير فاجتمع بمراد بيك وكلمه فى ذلك فاتفقت كلمتهما على تنزيله من قلعة الجبل والحجر عليه فأرسلوا له أرباب الوجاقات يأمرونه بذلك وان يسكن فى بيت حسن بيك الجداوى بالداودية فامتنع فأمر ابراهيم بيك الجند بالركوب عليه فطلعوا الى حوش القلعة فلما علم الباشا بحضورهم خاف ونزل من ساعته الى الداودية فأنزلوا خلفه خدمه ومتاعه فى ذلك اليوم

وهو

وهو يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر

مطلب
خلع الوزير اسمعيل باشا وولاية اسمعيل باشا الثانى

وجاء الخبر بولاية اسمعيل باشا (لعله اسمعيل باشا الثانى) فذهب اليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب المناصب فحضر فى يوم السبت خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين وبات بامبابه ليلته تلك ثم أقام بالعادلية الى يوم الثلاثاء ودخل بالموكب من باب النصر ومر بالقاهرة وصعد الى القلعة فى الكبكبة المعتادة ولم تكن الاحوال على مايرام من الهدء والطمأنينة فلم يبرم أمرا ولم يأت عملا اذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لابراهيم بيك الكبير ومراد بيك ولم يستقر بالباشا المقام حتى جاءه الخبر باستفحال أمر حسن بيك ورضوان بيك بالاقليم القبلى وانهما جمعا جموعا كبيرة واشدروا الى جرجا وانضم لهم من العربان أولاد همام والجعافرة واسمعيل أبو على وانهم سينحدرون الى مصر فكلم الباشا ابراهيم بيك ومراد بيك فى ذلك فأعلماه بالخبر وجعلوا من هذا الحين يجيشون الجيوش ويعدون المعدات وسيروها مع أيوب بيك الصغير وسار خلفهم كذلك مراد بيك فلما وصلوا جرجا رجع حسن بيك بمن معه الى الوراء فأقام مراد بيك بالعسكر فى جرجا الى أوائل رجب من السنة وأخذ يعمل الحيلة حتى قبض على اسمعيل أبو على أحد مشايخ العرب وقتله ونهب ماله وعبيده ثم رجع الى القاهرة واختفى خبر حسن بيك وأصحابه بعد ذلك ولم يعلم لهم مستقر ووافق وصول مراد بيك الى القاهرة من هذه الغزوة الصغيرة أوان خروج الحاج فتولى الامارة عليه وأخذ يتأهب فكثرت الطلبات وجمع الاموال والاحتياج للجمال والبغال والحمير فكانوا يأخذون بغال الناس ومن وجدوه راكبا على بغلة أنزلوه عنها وأخذوها بلا ثمن وان كان من أصحاب المظهر دفعوا له ثمنا زهيدا فضج الناس وأخفوا دوابهم حتى سافر ركب الحاج وخرج مراد بيك فى كبكبة وزينة وخرج معه عدة كبيرة من الامراء والصناجق ومشوا فى ركابه وبعد خروج الحاج بأيام قليلة جاء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بخلع اسمعيل باشا عن ولاية مصر وقيامه الى جدة وتولية ابراهيم باشا والى جدة واليا على مصر فنزل اسمعيل باشا من يومه من قلعة الجبل وسكن بمصر القديمة شهرا ثم تحول الى العادلية ليسير منها الى السويس ويذهب الى جدة فقدر الله بموت ابراهيم باشا فى جدة فجاء الى اسمعيل باشا مرسوم السلطان ببقائه على ولاية مصر ففرح بذلك وقد كان لايود الخروج منها وركب فى موكبه وطلع الى القلعة فى كبكبة وابهة زائدة ودخل اليها من باب الجبل فلما استقر به المنصب تاقت نفسه الى التصرف والانفراد بالامر فنهاه ابراهيم بيك عن ذلك فأظهر الطاعة ولكنه كان يعمل على خلاف ذلك جهد الاستطاعة فنهاه ابراهيم بيك ثانية وثالثة فلم يرعو فأرسل يأمره بالنزول من قلعة الجبل فلم ير بدا من الطاعة ونزل الى مصر القديمة ولبث بها وتولى ابراهيم بيك النيابة فكانت مدة ولايته الثانية ثمانية أشهر تنقص ثلاثة أيام وهو من أصحاب القلم وكبار الكتاب فى دار السلطنة قال بعض أهل التاريخ وكان مراد بيك الكبير من مماليكه

مطلب
ورود الامر السلطانى بعزل اسمعيل باشا ثم رجوعه الى الولاية ثانى

فباعه لبعض التجار معاوضة وحضر الى مصر ورافقته العناية والعناية صدف حتى صار أمير البلاد وكبيرها وحضر سيده هذا فى أيام امارته فلم يراع له حرمة وعزله من الولاية لاسباب لم تعلم ولكنه كان يتأدب معه كثيرا ويهابه ويذكر سيادته عليه وكان اسمعيل باشا هذا رئيسا عاقلا ذا رأى وتدبير * وجاء عقب ذلك بأيام مراد بيك ودخل بالحجاج وهم فى أسوإ حال مما قاسوه بالطريق من العربان فقد فعلوا معهم مالا خير فيه وسدوا عليهم الطرق وأخذوا منهم كل ماوصلت اليه أيديهم من الدواب والمتاع وأعقب دخولهم ورود الاخبار بظهور حسن بيك ورضوان بيك ثانية واستفحال أمرهما وانضمام الكثير من الجند والعسكر والعرب وغيرهم من اتباع اسمعيل بيك الكبير الى جموعهم فخاف ابراهيم بيك ومراد بيك شر العاقبة وجمعا جيشا ضخما وسار به مراد بيك ومعه بعض الامراء من خواصه وطلبوا الاموال وصادروا الكثير من التجار وأصحاب المظاهر وجمعوا المراكب وبرزوا بخيامهم الى جهة البساتين فجاءهم الخبر بحضور اسمعيل بيك الكبير من الديار الرومية خفية الى الاقاليم القبلية فانزعج مراد بيك من هذا الخبر وأكبره وسار مسرعا بعسكره الى الصعيد فكان كلما اقترب من مقامهم رحلوا الى آخر واذا حل بعسكره فى محلة حلوا هم كذلك قباله ولبثوا على هذا الحال أشهرا ولم يقع بين الفريقين حرب ولا قتال ثم خابروه فى الصلح فرضى به وتقررت القاعدة بينهم على اعطاء اخميم لاسمعيل بيك الكبير مع جميع أعمالها وقناوقوص واعمالهما الى حسن بيك واسنا الى رضوان بيك فلما تم الصلح على هذه القاعدة أرسل اليهم الهدايا والتقادم ورجع بعسكره الى القاهرة ومعه ابراهيم بيك قشطة صهر اسمعيل بيك الكبير وسليم بيك أحد صناجقه رهنا على عدم التظاهر والخروج فكانت مدة غيبة اسمعيل بيك ثمانية أشهر وأياما

مطلب
عزل اسمعيل باشا وولاية محمد باشا

وبقى اسمعيل باشا الوالى معتقلا فى دار بمصر القديمة حتى جاء الخبر بولاية محمد باشا ملك فدخل محمد باشا القاهرة أواخر صفر سنة خمس وتسعين ومائة وألف وصعد الى قلعة الجبل وخرج اسمعيل باشا من حبسه وسار الى الديار الرومية فلم يكن لمحمد باشا من حظ الولاية أكثر مما لغيره اذ كان كلاهما بالنظر فى الامور والتصرف فى الولاية وأحوال الدولة رأى من ابراهيم بك خصما عنيدا ومانعا لايتحول فلازم الانكماش واتبع سنة أسلافه واقتصر على ما بيده من التوقيع على المراسيم الديوانية بدون بحث ولا تنقيب *وأعلمه مراد بك بعزمه على الخروج الى بلاد الشرقية وقراها فأجازه ذلك كارها فسار الى بلاد الشرقية وطافها وضرب على أهلها المغارم الثقيلة والاموال الكثيرة والكلف الباهظة وصادر الموسرين منهم وحول عليهم أصحاب الجباية وأعوان المغارم حتى ضج الناس واستغاثوا ورفعوا أصواتهم باللعن والسب ثم نزل الى الغربية وفعل بها كذلك ثم الى المنوفية ثم الى غيرها فكان تطوافه بالبلاد على هذا الحال أشد هولا من هول الطاعون وأصعب على أهل البلاد * وتمكن سليم بيك وابراهيم بيك قشطة صهر اسمعيل بيك الكبير فى غيبة

مراد

مراديبك هذه من الاتفاق مع جماعة من الامراء الذين ضاقت بهم الاسباب واشتدت عليهم الخطوب على الفرار والهروب فخرجوا ليلا على الهجن و برد الخيل وهم نحو الثمانين وساروا الى الصعيد وأصبح الخبر شائعا بذلك فارتبك ابراهيم بيك ونادى الاغا والوالى فى الناس بترك المشى بعد العشاء وملازمة الناس لبيوتها فخاف الناس وكثر اللغط وتنوعت الاقوال وكادت تتعطل أسباب الرزق وتتوقف المعاملات واشتد الخوف بالناس حتى انهم أغلقوا حوانيتهم نهارا ولم تسكن الخواطر حتى شاع خبر طلب محمد باشا ملك الى دار السلطنة ليتولى صدارة الدولة وكانه هو الباعث على هذا الخوف والاضطراب فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم فى منتصف شعبان من السنة وأقام بقصر العينى بقية شعبان وسافر الى الاسكندرية فى غرة رمضان فكانت مدة ولايته ثلاثة عشر شهرا ونصفا وهاداه جميع الامراء بالهدايا النفيسة وكان من أفاضل العلماء متضلعا من الفنون والآداب وكان شيخا جليلا متواضعا لابأس به ٭ وقدم على باشا القصاب واليا ودخل القاهرة فى أواسط رمضان أوفى عاشر شوال وصعد الى قلعة الجبل مارا من الصليبة خلافا لعادة أسلافه فلما استقر به المقام تحجب عن الناس الا القليل ولم يتعرض لشئ من أمور الدولة وقد زاده تحجبا وامتناعا اللغط المستمر والاقوال الشائعة برجوع اسمعيل بيك الكبير ومن معه الى شق عصا الطاعة وتطواف الوالى كل قليل من الايام يكرر المناداة على الناس ويشدد بملازمة بيوتهم ليلا ٭ وانحرفت خواطر الامراء والصناجق الذين بمصر على ابراهيم بيك ومراد بيك من فعالهما ولا سيما فعال مراد بيك وبدت منهم أمارات الوحشة فخرج منهم أيضا جماعة كثيرة ولحقوا باسمعيل بيك بالصعيد ولم يبالوا بوعيد مراد بيك ولا بتهديده فكبر خوفه مع ابراهيم بك وأخذا فى جمع العساكر واعداد آلات الحرب وعزم مراد بيك على الخروج بهذه الحملة فطلب الاموال وقبض على مساتير الناس والتجار وحبسهم وصادرهم فى أموالهم وأخذ مابايديهم فجمع من المال ماجاوز الحد وكانت مغارم القبطة فى هذه المرة شيأ كثيرا جدا ثم برز بخيامه فى منتصف ربيع الآخر من السنة أى سنة سبع وتسعين الى جهة البساتين وخرج معه جماعة من الامراء وساروا الى الصعيد فلما صاروا على مقربة من العدو فشل أصحاب اسمعيل بيك وانصرمت حزمتهم وتركهم رضوان بيك وجاء الى مراد بيك طائعا فقبله وأبقاه عنده وقد تشتتت بانفصاله عنهم عصابتهم وتمزق شملها وساروا الى الجهات القبلية فرجع مراد بيك الى القاهرة وسلم قيادة العسكر الى ثلاثة من الامراء وهم مصطفى بيك وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الاشقر فلم يستقر به المقام بالقاهرة حتى وقف على سر مؤامرة أخرى من بعض أمرائه وأمراء ابراهيم بيك ومماليكه ومماليك ابراهيم بيك فعاجلهم بالنفى والتشريد بعضهم الى المنصورة والمحلة وبعضهم الى السرو ورأس الخليج والبحيرة وغيرها وكان بينهم ابراهيم أغا الوالى

مطلب
عزل محمد باشا ملك وولاية
على باشا القصاب

وجاء فى غضون هذا الحادث الخبر بخلع على باشا القصاب و ولاية محمد باشا

مطلب
عزل على باشا القصاب
وحضور محمد باشا
السلحدار وقيل الصابونجى
واليا

السلحدار وقبل محمد باشا الصابونجي فنزل علي باشا من قلعة الجبل الى قصر العيني وأقام به ينتظر حضور محمد باشا فحضر كتخداه ومعه مرسوم بالنيابة الى ابراهيم بيك وخلعه فتولى ابراهيم بيك النيابة وجعل يتصرف في جميع الامور ووقع على القصص وغيرذلك ووصل الخبر بذلك الى جميع الامراء المنفيين بالمنصورة والمحلة ورأس الخليج وغيرها فاجتمعوا وساروا ومعا الى الاقليم القبلي يريدون اللحاق باسمعيل بيك ومن معه فأرسل عند ذلك ابراهيم بيك فرمانا الى عثمان بيك الشرقاوي باستقرارهما كاعلى جرجا وقد كان ترك مراد بيك مع العسكر على ماتقدم بيانه وشدد عليه بمراقبته الاحوال ومنع تظاهر الامراء المذكورين فتكفل عثمان بيك بذلك وجعل يتصرف في الامور أياما كانت فيها رسل اسمعيل بيك ومن معه لايتكفون عن الاجتماع به والتكلم معه في أمر انضمامه الى عصابتهم وما زالوا به حتى انضم اليهم فتقوى جانبهم واجتمعت به كلمتهم فلما علم ابراهيم بيك بذلك هاله الامر واستعظمه الى الغاية وأرسل الى كبارهم يؤمنهم ويمنيهم بالاماني الكبيرة ويستميلهم الى عقد الصلح فامتنعوا فطلب ابراهيم بيك حضور عثمان بيك الشرقاوي ومصطفى بك فامتنعا أيضا وقالا لانحضر الا اذا عاد اخواننا الى مناصبهم وعادت اليهم اقطاعاتهم وأرزاقهم والا دافعنا عنهم حتى يقضي الله بيننا فخشي ابراهيم بيك ومراد بيك العاقبة وجهزا لذلك عسكرا عظيما وجعلوا يفتشون بيوت جميع الامراء المبعدين ويأخذون كل مافيها فكان شيأ كثيرا من غلال ومتاع ثم برز ابراهيم بيك بخيامه مع العسكر يريد المسير لقتال الخوارج وجمعوا سائر مراكب النقل وأوقفوها وجمعوا جميع الملتزمين وأصحاب المزارع وأخذوا منهم أموالا جزيلة وسار ابراهيم بيك بالعسكر في كبكبة وتجمل فلما اقترب من الاعداء راسلهم وطلبهم الى الصلح فأجابوه اليه وتقررت القاعدة بينهم على رجوعهم الى القاهرة واعادة اقطاعاتهم اليهم فحضروا جميعا في سادس عشر ذي القعدة من السنة فساء هذا الصلح مراد بيك ولم يرض عنه ولكنه كظم غيظه وسار الى زيارة ابراهيم بيك ولم يزر أحدا منهم فسعى ابراهيم بيك في اصلاح ذات البين فلم ينجح وكبر الامر على مراد بيك فأخذ في جمع أرزاقه ومتاعه وأثقال بيته حتى تم له ذلك ثم خرج الى جزيرة الذهب فتبعه كشافه وأتباعه ومماليكه وأرسل الى بولاق القاهرة وأخذ منها أرزا وغلالا وشعيرا و بقسماطا وغير ذلك فسير اليه ابراهيم بيك بعض أخصائه ليمنعوه عن الرحيل فلم يقبل وعبر النيل الى الشرق وسار الى الصعيد وتبعه أصحابه وأتباعه ومماليكه وأحماله في البر والبحر فنزل في منية ابن خصيب واتخذها له مقرا واتفق أن حضر في هذه الاثناء محمد باشا الوالي الجديد فأنزلوه في قصر عبد الرحمن كتخدا على النيل فأقام به يومين ثم صعد الى قلعة الجبل في موكب وسار على باشا القصاب الى دار السلطنة فلما استقر بالوالي المقام وعلم بما جرى مابين ابراهيم بيك ومراد بيك تكلم مع ابراهيم بيك في شأن ذلك وحثه على ارجاع مراد بيك فنزل ابراهيم بيك من ساعته وجمع اليه الامراء فاتفقوا على أن يرسلوا اليه محمد أفندي البكري والشيخ أبا الانوار والشيخ السادات والشيخ أحمد العروسي شيخ الجامع الازهر

يومئذ

ويشدد ليرجعوه عن عزمه و يهونوا عليه أمر الصلح فساروا اليه واجتمعوا به وكلموه فاعتذر وقال انه لم يخرج من القاهرة الا هاربا خوفا على حياته فان ضمنوا له عدم مسه بضرر عاد معهم بشرط أن يحلفوا له الأيمان فلم يجيبوه الى اليمين وقالوا نضمن الراحة لك ولهم عسى ان ترتاح العباد فصرفهم على ذلك فرجعوا وأخبروا بما جرى ولم يمض على رجوعهم الا أيام حتى انحدر مراد بيك الى الجيزة فى جموع كثيرة جدا من الغز والاجناد والعربان والغوغاء فهال ابراهيم بيك أمر حضوره وجمع أصحابه وجميع الامراء وحضر بهم الى ناحية معادى الخبيرى قبالة مراد بيك وأصحابه وأرسل اليه بعض الامراء فى حراقة ليكلموه فى الصلح ويسألوه عن جميع طلباته فلم يأذن لهم بالدخول عليه فرجعوا وكان الباشا قد أرسل كتخداه أيضا مع اسمعيل أفندى الخلوتى فى حراقة أخرى ليلحقا بمن ذهبوا الى مراد بيك ويهونا عليه الامر فلم تصل بهما الحراقة الى منتصف النهر حتى صادفتهم الحراقة الاولى راجعة بمن فيها فتبعاها فأطلق عليهما أصحاب مراد بيك مدفعا فاخطأهما فأسرعا بالرجوع وهما لا يصدقان بالنجاة ورأى ذلك ابراهيم بيك فغضب جدا وأمر بالمدافع فأطلقت على معسكر مراد بيك فأطلق كذلك مراد بيك مدافعه واستمر الطلق متتابعا بين الفريقين ولم يعبر فريق الى الآخر وعجزت المعادى جميعها فى الجانبين واستمر الحال على ذلك عشرين يوما واشتد الخطب وضج الناس وتعطلت الاسباب ووقفت الاسواق وتعطلت الطرق برا وبحرا وكثر تعدى الاشقياء والمفسدين وتطاولت أيدى اللصوص وغلت الاسعار وقل وجود الغلال وأفحش قوم مراد بيك فى النهب والسلب من بلاد الجيزة وأكلوا المزروعات فلم يتركوا على وجه الارض عودا أخضر وعين مراد بيك بعض الكشاف والاتباع يطوفون البلاد ويجمعون الخراج و يقضون الكلف والغرامات من أصحاب المزارع واعتقد الناس تمام الظفر لمراد بيك وأصحابه واشتد خوف الامراء بمصر منه وتحدث الناس بعزم ابراهيم بيك على الهروب فكبر خوف أهل مصر والقاهرة وكادوا يتفرقون أشتاتا فلما كان يوم الخميس أمر ابراهيم بيك برمى المدافع تباعا فلبثوا اليوم بطوله يوالون الرمى بلا انقطاع فلما خيم الظلام أمر بالكف عن ذلك وعبر خمسة من أمرائه ليلا الى الجانب الثانى من النيل وساروا تحت جنح الظلام فقابلهم طائفة من عسكر مراد بيك فأطلق الامراء عليهم بنادقهم فولوا منهزمين فملكوا مكانهم واحتلوه وكان على مقربة من بولاق التكرور وعبر آخرون ومعهم مدفعان وجعلوا يزحفون قليلا قليلا حتى صاروا على مقربة من معسكر مراد بيك وأطلقوا عليه المدافع وو الوا اطلاقها فلم يجبهم أحد فباتوا على ذلك وهم فى تحذر وتتابع بهم عسكرهم وخيولهم فلما ظهر نور الصباح نظروا فلم يروا أحدا فى معسكر مراد بيك وقد رحلوا وتركوا جميع أثقالهم ومدافعهم فساروا اليه واحتلوه وعبر رجال ابراهيم بيك وساقوا خلف مراد بيك وأصحابه الى حد الشيمى فلم يدركوهم فأقاموا بأرض الجيزة أربعة أيام ثم رجعوا وجازوا بالقاهرة

ورأى ابراهيم بيك ان بقاء الحال على هذا الوصف مجلبة للدمار ووسيلة للبوار فأراد مصالحة مراد بيك فأرسل لذلك اثنين من كبار أصحابه قال بعض الكتاب وكان الحامل له على طلب الصلح واستمالة مراد بيك اليه ما رآه من تحزب عثمان بيك الشرقاوى وعدة من الامراء ضده وعقدهم النية على الانتقاض عليه وقد استخفوا به وقعدوا له بالمرصاد فأخذ الحذر منهم ثم حضر بعد أيام كتخدا مراد بيك واجتمع بابراهيم بيك ثم عاد فأرسل ابراهيم بيك معه ولده مرزوق بيك وهو طفل صغير قد حملته مرضعته فلما وصل الطفل الى مراد بيك جنح للصلح ومال اليه وقدم للطفل هدية سنية وتقادم جليلة منها بقرة ولابنتها رأسان وعاد مرزوق بيك مع مرضعته ومعه كتخدا مراد بيك ثم عاد الكتخدا وشاع الخبر بقرب قدوم مراد بيك فاجتمع الامراء عند ابراهيم بيك وخوفوه من حضور مراد بيك وعدم سكونه فخالفهم وعاهدهم أنه ان لم يعتدل يكون الجميع يدا واحدة عليه * فلما كان يوم الجمعة وصل مراد بيك الى معادة فركب ابراهيم بيك وقت القائلة فى جماعة وخرج الى ناحية البساتين ثم رجع من الليل وصعد الى قلعة الجبل وملك الابواب ومدرسة السلطان حسن والرميلة والصليبة والتبانة وأرسل الى عثمان الشرقاوى وأيوب بيك ومصطفى بيك وسليمان بيك وابراهيم أغا الوالى بأن يخرجوا على الفور من مصر وعين لهم دمياط والمنصورة وفارسكور ليذهبوا اليها فامتنعوا وأظهروا العصيان وأخلدوا الى التترس والقتال فلم يروا لذلك سبيلا حيث ملك ابراهيم بيك القلعة وجميع المواقع الحصينة وقد بدأت جموع مراد بيك بالدخول الى القاهرة فلم يروا بدا من الخروج وساروا الى القليوبية ودخل مراد بيك فى كبكبة وسار الى زيارة الامام الشافعى فبلغه هنالك خبر تبعيد الشرقاوى ومن معه وقد كان يبغضه بغضا ما عليه من مزيد فأسرع وسار من فوره خلف قلعة الجبل ونزل الى الصحراء وحث السير حتى أدرك قناطر أبى المنجا ونزل عليها وأرسل خلف الشرقاوى ومن معه طائفة من العسكر فأدركوهم عند شبرا شهاب وناوشوهم القتال وأدركهم مراد بيك فالتطموا فكبا بمراد بيك فرسه وكاد يهلك فأدركه أصحابه ووقعت بين الفريقين مقاتلة خفيفة ثم رجع مراد بيك ومن معه الى القاهرة وسار الامراء الخمسة المذكورون وعبروا الى وردان وكان معهم رجل من كبار العرب اسمه طرهونة يدلهم على الطريق الموصلة الى الصعيد فسار بهم فى طريق مقفرة وعرة ليس فيها ماء ولا نبات يوما وليلة حتى كادوا يهلكون من العطش وانقطع عنهم جماعة ممن تبعهم وكانوا ينقطعون عنهم كلما اشتد بهم الظمأ حتى اقتربوا من سقاره ورأوا أنفسهم على مقربة من الاهرام فضاق خناقهم وأيقنوا بالوقوع فى مخالب العطب فطلبوا هجنا ليركبوها وتركوا أثقالهم ومن معهم فقام عليهم الاتباع ونهبوا الاثقال والاحمال وتفرقوا عنهم فتعطلوا وأناخوا مطاياهم وأسرع مملوك من مماليك الشرقاوى على فرس وحضر الى مراد بيك وكان بالروضة فأعلمه بخبرهم فأرسل لهم طائفة من الجند فلم تجدهم وقد كانوا رحلوا الى جهة أخرى خوفا من وقوعهم فى أيدى مراد بك واغتم الناس غما شديدا عند ما شاع خبر هروبهم الى الاقليم

القبلى لما ينجم عن ذلك من تعطيل ورود الاقوات مع القحط والغلاء المستحوذ على البلد وبات الناس تلك الليلة وأصبحوا يوم الاربعاء حادى عشرى رجب سنة ثمان وتسعين وقد شاع الخبر بالقبض عليهم وكان من أمرهم أنهم لما وصلوا الى ناحية الاهرام ووجدوا أنفسهم على مقربة من مصر تواروا قليلا وطلبوا من الدليل أن ينظر لهم طريقا يسلكون منها فركب الدليل وانطلق الى مراد بيك وأعلمه بمكانهم فأرسل لهم جماعة ليقبضوا عليهم فأحسوا بهم فركبوا هجنا وتركوا أثقالهم وولوا هاربين وكان أصحاب مراد بيك قد أكمنوا لهم كمنا فلما مروا بالكمين خرج عليهم ومسك بزمام هجنهم من غير ضرب ولا قتال وحضروا بهم الى مراد بيك بجزيرة الذهب فباتوا عنده ليلتهم وأصبحوا فأنزلوهم بالمراكب كل بمفرده تخفرهم المماليك والاجناد وأبعدوهم الى الاقاليم البحرية فلبثوا بها زمانا يسيرا ثم راسل بعضهم بعضا واتفقوا على الهروب الى الصعيد فهرب بعضهم وقبض على بعضهم فشددوا فى تنكيلهم

واتفق بعد ذلك بقليل خروج الحاج الى الاقطار الحجازية فأمروا عليه الامير مصطفى بيك الكبير فخرج فى موكب حافل للغاية وبرز بخيامه الى بركة الحاج ينتظر مابقى من مال الصرة فطال عليه الانتظار فذهب الى ابراهيم بيك وطالبه بالمال فأحاله على مراد بيك فامتنع مراد بيك وأكثر أمير الحاج من الالحاح على مراد بيك فلم يسع مراد بيك الا الدفع وعلم أنها مكيدة من ابراهيم بيك فخرج الى قصره بالروضة مغضبا وأرسل فى الحال الى الامراء المنفيين والهاربين بالصعيد أن يتأهبوا فلما علم ابراهيم بيك بذلك أرسل يستعطفه وترددت الرسل بينهما ونظر ابراهيم بيك فلم يجد حوله أحدا من قومه ورفاقه وقد تركوه وذهبوا الى مراد بيك فساءه ذلك جدا وركب الى الرميلة ووقف بها ساعة حتى سارت أحماله وأثقاله صحبة عثمان بيك الاشقر وعلى بيك أباظه يريد الصعيد وسار هو بعد ذلك من خلف الجبل وليس له من الاتباع سوى على أغا كتخدا الجاويشية وعلى أغا مستحفظان المحتسب وصناجقه الاربعة فلما بلغ مراد بيك خبر ركوبه على هذه الصورة ركب خلفه برهة من الليل ثم رجع وأصبح وهو منفرد بحكم البلاد فسر بذلك كثيرا وجعل يولى المناصب العالية لمن شاء من قومه واستقدم بعض الامراء المنفيين وقلدهم بعض المناصب ونادى مناديه بالامان وأخرج الغلال المخزونة لتباع على الناس وقد كان اشتد بهم الجوع وعظم أمر مراد بيك وعلت كلمته فلم يترك للوالى شيأ يتصرف فيه بل زاد فى الحجر عليه اذ كان يبغضه لميله الى ابراهيم بيك عليه واتفق أن قدم فى هذه الاثناء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بتقرير محمد باشا الوالى المذكور على ولاية مصر سنة أخرى فظن الباشا بلوغ الامل فطلب جميع الامراء الى الديوان ليقرأ عليهم ذلك المرسوم كالعادة فلم يجبه أحد منهم وأهمل ذلك مراد بيك ولم يلتفت اليه فكرر الباشا الطلب فلم يسمعوا قوله فساءه ذلك وأغضبه وأرسل الى مراد بيك يعاتبه ويسفه رأيه فأرسل اليه مراد بيك فى الحال بأمره

بالنزول من القلعة فامتنع فأرسل جماعة من أتباعه فأنزلوه قهرا الى قصر العيني محجورا عليه وتولى مراد بيك النيابة وعلق الاستار فكانت ولاية محمد باشا المذكور أحد عشر شهرا سوى الخمسة أشهر التى أقامها بثغر الاسكندرية وكانت أيامه كلها شدائد ومحنا وخطوبا واحنا وجوعا وغلاء وزيادة ونقصا فى النيل وغير ذلك

ولما استقر المنصب بمراد بيك وتم له الامر أكثر من طلب الاموال وتفريد المغارم على البلاد فلما لم يبق فيها شئ حول الطلب على الملتزمين وبعث لهم المعينين فى البيوت فاحتاج الكثير منهم الى بيع متاعه ودوره ومواشيه بسبب ذلك ثم تطاولت أيدى عمال مراد بيك الى المواريث فكان اذا مات أحد أحاطوا بمتروكاته سواء كان له وارث أولا قال بعض كتاب الاخبار وصار بيت مال المسلمين من هذا الحين منصبا من المناصب الديوانية التى يتولاها الناس بجملة من المال فى كل شهر ولا يعارض فيما يفعل فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلايا وانقطعت الطرق وكثرت عربدة الاشقياء والغوغاء ومنعت السبل الا بالخفارة ورحل الفلاحون من بلادهم لقصور النيل وشرق الارض والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وانتشروا فى جوف المدينة بأولادهم ونسائهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره ثم اشتد بهم الحال فأكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال قال فكان اذا خرج من المدينة حمار ميت تزاحموا عليه وتضاربوا وقطعوه وأخذوه بل منهم من كان يأكل منه نيئا من شدة الجوع ومات كثير من فقراء المدينة أيضا جوعا وعز الدرهم والدينار فى أيدى الناس وقل التعامل الا بما يؤكل اه ثم وردت الغلال من الديار الشامية والرومية فانفرجت الازمة بعد الشدة وبيع الاردب منها بألف وثلثمائة نصف فضة وأرسل شريف مكة الى المشايخ والعلماء يتشكى من انقطاع ورود غلال الحرمين فلم يلتفتوا اليه ولا ردوا عليه جوابا فكانت جميع هذه البلايا والمحن ضربة شديدة على هامة مراد بيك وسببا فى عجزه عن القيام بتدبير البلاد وسياستها لاسيما وقد كان ابراهيم بيك الكبير له بالمرصاد فلما أحس بعجزه وأيقن أن لا قبل له على تولى أمور البلاد أرسل الى ابراهيم بيك الشيخ الدردير وآخرين معه ليكلموه فى أمر الصلح ورجوعه الى القاهرة على ما يحب فساروا اليه وكلموه وبعد جدال قبل الصلح والعود الى القاهرة بشرط رجوعه الى مشيخة البلد ورجوع على أغا كتخدا الجاويشية الى منصبه فلما رجع الرسل وأخبروا بما يسأله ابراهيم بيك جمع مراد بيك الامراء وأصحاب المناصب العالية وقرأ عليهم شروط ابراهيم بيك فأذعنوا لها وأحلوها محل القبول وأعادوا الرسل بالاجابة فلما وصلوا اليه عاد فانتقض وطلب طلبات أخرى جديدة فعاد الشيخ الدردير ومن معه وأخبروا بانتقاض ابراهيم بيك فلم ير مراد بيك بدا من معاودته وأرسل اليه ثانيا أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير ليهونا عليه فلما وصلا الى بنى سويف أرسلا فاستقدما اليهما سليمان بيك الاغا وعثمان بيك الاشقر ثم ساروا جميعا الى ابراهيم بيك وتكلموا معه فى الصلح فأجابهم وساروا جميعا الى

منية

منية ابن خصيب ثم انحدروا منها الى مصر فدخلوها فى يوم الاثنين رابع ربيع الثانى سنة تسع وتسعين ومائة وألف وحطوا رحالهم عند معادى الخبيرى فعبر اليهم مراد بيك فى عدة كبيرة من الامراء والوجاقلية والمشايخ وعانق مراد بيك ابراهيم بيك وبكى ثم عبروا جميعا النيل الى مصر ودخل ابراهيم بيك بيته ودخل معه مراد بيك ولبثا معا حصة طويلة فأقام ثلاثة أيام ثم جاءه مرسوم الباشا بالاستقرار على مشيخة البلد ومع المرسوم خلعة الولاية فلبسها بحضرة مراد بيك والمشايخ فقام عند ذلك مراد بيك وقبل يده وكذلك بقية الامراء وردت الوظائف الى أصحابها وأخذ ابراهيم بيك من يومه يتصرف فى الامور وينظر فى مصالح الرعية فتزاحم أرباب الخصومات على بابه ورفعت اليه القصص فأمر ونهى وأعطى ومنع وقسم المناصب بين ذويها

وأعقب رجوع ابراهيم بيك الى القاهرة حصول طاعون شديد فأخذ فى الاشتداد يوما عن يوم وكثر بسببه الموات فخرج الناس من مصر والقاهرة الى الضواحى والقرى فرارا منه فلحق بهم واشتد وسقط الناس فى الشوارع والطرقات واهتم ابراهيم بيك بدفن الموتى فشدد على الوالى وأعوانه فكانوا يطوفون فى النهار والليل ويحملون الموتى من الطرق على ظهور الدواب ويدفنونهم بغير غسل ولا كفن عشرات عشرات وطالت مدته فكانت ثقيلة للغاية حتى قدر الله فارتفع وعاد الناس الى القاهرة وتناسوا أمره وكان عدد من مات لا يكاد يدخل تحت الحصر وأعقب زوال الطاعون ورود الخبر من دار السلطنة بخلع محمد باشا وولاية آخر اسمه محمد يكن باشا فلما وصل الى الاسكندرية ومر بشوارعها يريد التفرج وقف له العامة بالطريق وصاحوا فى وجهه وسبوا حاكم الاسكندرية وقصوا أعماله ونادوا عليه بالويل وكان قد وقع بينهم وبينه فتنة كبرى وذلك ان أحد أتباعه وقع بينه وبين أحد العامة مشاجرة أدت الى الملاكمة فتطاول تابع الحاكم وضرب الرجل فقتله فاجتمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكثرت الغوغاء وجاؤا المقتول على نعش الى مقر الحاكم وشكوا له ماوقع من تابعه فحوّل وجهه عنهم ولم يلتفت الى شكواهم فألحوا عليه فأمر أعوانه بطردهم فثاروا وقبضوا عليه وأنزلوه من ديوانه وأركبوه على حمار بالاكف عرضا وهو حاسر الرأس وعلا الصياح وطافوا به بجميع شوارع المدينة على هذا الحال وهم يضربونه ويصفعونه بالنعال ويلطخون وجهه بالطين فكان يوما عبوسا أقفلت فيه جميع الدكاكين وسدت الابواب وانكمش الناس فى بيوتهم وتطاولت أيدى الحرافيش الى الخطف والسرقة وفعل مالا خير فيه وما زالوا على هذا الحال اليوم كله حتى سقط الحاكم بين أيديهم فتركوه وتفرقوا فجاء أتباعه وحملوه فلبث أياما كثيرة حتى تراجعت اليه صحته فلما كثر صياحهم فى وجه الباشا سأل عن السبب فحدثوه بخبر ماجرى للحاكم فانقبض وهوّن عليهم ووعدهم خيرا ثم نزل من يومه على إحدى السفن يريد القاهرة ووصل الى امبابه فبات ليلته وأصبح فذهب اليه الامراء وأصحاب الوظائف وعبروا معه النيل الى قصر العينى فلبث به

مطلب
عزل محمد باشا وولاية محمد يكن باشا

ثلاثة أيام ثم ركب فى موكبه وصعد الى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب سأل مراد بيك عن مال الخزينة السلطانية وطلب منه سرعة ارساله فأظهر العناية بذلك وسار فى جماعة من كشافه ومماليكه وأتباعه الى الغربية وجعل يطالب أهلها بالاموال وقد فرض عليهم منها شيأ كثيرا فضلا عن الكلف الخارجية وغير ذلك فكان المعينون للطلب اذا استوفوا شيأ من ذلك طلبوا حق الطريق فان تأخرت قرية أو بلدة فى أداء شئ من ذلك قاموا عليها ونهبوها وربما قتلوا منها اناسا ولم يزل مراد بيك وأصحابه على هذا الحال حتى وصلوا الى رشيد فقرروا على أهلها جملة من المال وكذلك على التجار واشتد الطلب وعين على الاسكندرية أحد كشافه وضرب عليها كذلك مائة ألف ريال نقرة وقيد معه بعض الجباة فعاثوا وشددوا وضيقوا وأمرهم بهدم جميع كنائس الاسكندرية فهدموا منها عدة كنائس وهرب التجار وسافروا الى الديار الشامية والرومية وغيرهما فرارا من الطلبات المتتابعة ثم أقفل راجعا بمن معه الى الدقهلية ففعلوا بها مافعلوه برشيد والاسكندرية ثم إلى الشرقية وغيرها وقد أخش كشافه بمصر والقاهرة فى تعقب الناس وسلب أموالهم ومصادرة أصحاب البيوت ● وهجموا يوماء لى بيت شخص اسمه أحمد سالم الجزار متولى رياسة دراويش الشيخ البيومى فنهبوه ولم يبقوا به شيأ البتة فثار لذلك أهل الحسينية وحضروا الى الجامع الازهر وهم فى ضجة وامامهم طبول ودفوف فاجتمع عليهم جماعة كثيرة من العامة والسوقة وبأيديهم المساوق والعصى وذهبوا الى الشيخ الدردير وشكوا إليه فشجعهم وحرضهم على التظاهر والخروج فساروا من الجامع وقد أقفلوا أبوابه وصعد منهم جماعة على المنارات وجعلوا يضجون ويضربون بالطبول ثم انتشروا فى الاسواق وهم فى صياح وجلبة وأغلقوا الحوانيت قال بعض كتاب الاخبار ومناهم الشيخ الدردير بالركوب معهم فى غد ومعه أهل الاطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة لنهب البيوت أو أن يموتوا شهداء فلما كان بعد المغرب جاء سليم أغا مستحفظان ومحمد كتخدا ابراهيم بيك وجلسوا فى الغورية ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وكلموه فى الامر وقد خافوا من تضاعف الخطب واستفحال الفتنة ووعدوه برد جميع ماأخذ من بيوت الحسينية واجراء مافيه المصلحة للعميان والمجاورين بالأزهر وبعد جدال تقررت القاعدة بينهم على ماذكر وسكنت الفتنة وعادت الامور الى سابق مجراها

ولما لم يرسلوا الى الخزينة السلطانية مالها من الاموال رغما عن كثرة الطلب أمر السلطان بتسيير بعض مراكب الحرب الى الاسكندرية ورسولا مخصوصا معه مرسوم سلطانى خطابا الى الامراء فى شأن ذلك فدخل الرسول القاهرة وسلم المرسوم الى ابراهيم بيك فجمع اليه مراد بيك وبقية الامراء وتكلموا فى الامر طويلا فلم يتفقوا على شئ وطال اجتماعهم أياما على غير جدوى فبينما هم على هذا الحال اذ جاءهم الخبر بحضور مراكب أخرى الى ثغر دمياط وعلى احدى تلك المراكب أحد كبار البحر المدعو حسن باشا فخاف الامراء وارتبكوا فى أمرهم وشاع الخبر فتحدث الناس به وكثر اللغط فركب سليم أغا مستحفظان

ونادى فى الاسواق على الروم والقليونجية والترك المقيمين بمصر بأن يرحلوا الى بلادهم بلا
مهل ومن وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بلا معاودة فأثر هذا النداء فى الناس وتزايد خوفهم
وأرسل ابراهيم بيك اثنين من كبار أمرائه الى رشيد لمخابرتها ولكى يتصالحا مع عرب الهنادى
على أن يكونوا عونا لهم عند مسيس الحاجة ثم كتبوا قصة ليرفعوها الى دار السلطنة تتضمن
أنه لم يكن من مانع يمنع ارسال أموال الخزينة السلطانية سوى كساد الحال وتعطيل
أسباب التجارة والزراعة وانهم سيبذلون جهد الاستطاعة فى ارسالها فى العاجل القريب
• فلما كانت ليلة الخميس عاشر رمضان سنة مائتين وألف هجرية ركب ابراهيم بيك ومعه
مراد بيك وجماعة من الامراء ومشايخ الوقت ودخلوا على الباشا بمقره فأعلموه بصورة ماوقع
الاتفاق عليه وطلبوا وساطته بينهم وبين الباب العالى وانهم من الآن يقومون بترتيب
الامور وتنظيم الاحوال على ماتشاؤه الدولة فكان طورا يمنيهم وأخرى يقبح فعالهم ثم بعد
أخذ ورد وافقهم على ارسال قصتهم وسير بها كتخداه وانصرف الامراء وهم لايدرون ماستكون
عاقبة حضور تلك السفن • وجاءهم الخبر بعد أيام قلائل من حاكم رشيد بأن قد نزل فريق
من العساكر العثمانية المنتظمة بالاسلحة وآلات الحرب الى البر ومعهم قائد من كبار القواد
وانه لم يعرف شيأ من عزمهم فكبر خوف ابراهيم بيك ومراد بيك وهالهما حضور العساكر
فشددا فى جمع غلال الحرمين وغلال الانبار وجمع أموال الخزينة السلطانية وبالغا فى
التشديد وألزما المعلم ابراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر يومئذ بجمع ذلك وبعثوا سفراء الى
حسن باشا أمير سفن الحرب من المشايخ والعلماء والوجاقلية ومعهم هدية مائة فرق من البن
اليمنى ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية وتفاصيل كثيرة وعودا وعنبرا وغير ذلك فسافروا
فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان من السنة فلم يكادوا يبلغون الاسكندرية حتى قدم الى
القاهرة رسول من قبل تلك السفن واجتمع بابراهيم بيك قبل وعاتبه وقال كيف تبعثون
بسفارة الى الامير فى طلب الصفح عما وقع والعفو عما فات وقد أخذتم أهبتكم للحرب
والقتال وأكثرتم من جمع الاسلحة والكراع فقال ابراهيم بيك معاذ الله أن نحارب رجال
دولتنا وأمناء سلطاننا على عساكره وجنوده وهب أنا فعلنا فقد تبنا وندمنا ورجعنا الى الحق
فقال وكيف ذلك وقد بعثتم منذ أيام بقوم قد طافوا البلاد فضربوا على أهلها المغارم الثقيلة
والمكوس الفادحة وجمعوا الغلال وضربوا على كل بلد اردبين من بن القوة وهذا الصنف
غريب عن زراعة البلاد حتى ضج الناس وهربوا وتركوا البلاد خاوية على عروشها وهاهم
يموتون جوعا وبردا على الجسور وسواحل الترع وقد أقلق القبطان صوت صراخهم فقال
مراد بيوقد كان حاضرا ليس فى الامر شئ من ذلك وماهى الاوشاية من الاعداء يقصدون
بها ابعادنا عن رحمة سلطاننا ورضائه وها أنت قد رأيت أن لامدافع عندنا ولابنادق ولا أثر
للاستعداد ولله الحمد • قال بعض الكتاب ولم يكن القول من رسول أمير السفن بتطواف
الامراء فى البلاد وأخذ الكلف والمغارم جزافا فانه لما سافر الامراء الاثنان اللذان بعث بهما

ابراهيم بيك لخفارة رشيد وسافر معهما أتباعهما وبعض الجند والمماليك مروا بالبلاد وطلبوا هذه الكلف والمغارم وحرقوا و ودان لعدم اذعان أهلها للطلب فضج الناس وذهبوا الى العسكر العثمانى وشكوا الى مقدم العسكر ماألم بهم فهوّن عليهم وكتب لهم فرمانا برفع الخراج عنهم سنتين ثم سار مقدم العسكر المشار اليه من الاسكندرية الى رشيد فى أبهة وجلالة وكتب عدة فرامين بالعربية الى مشايخ البلاد وأعيانها ومشايخ العربان وأصحاب الكلمة من أهالى المدن يقول فيها مانصه

صدر هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من دوان حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم عالى الهمم وناصر المظلوم على الظالم مولانا العزيز غازى حسن باشا سرعسكر السفر البحرى المنصور حالا ودونانمة هماون أيدت سيادته السنية وزادت رتبته العلية الى المشايخ وعمد البلاد ومشايخ العرب المقيمين بديار مصر وفقهم الله تعالى • تفهمكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ماهو واقع بالقطر المصرى من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وان سبب هذا خائنو الدين ابراهيم بيك ومراد بيك وأتباعهما فتعينا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعساكره المنصورة بحرا لرفع الظلم ولايقاع الانتقام من المذكورين وتعين عليهم عساكر منصورة برا بسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا الى ثغر الاسكندرية ثم الى رشيد فى سادس عشر رمضان سنة مائتين وألف حررنا لكم هذا الفرمان لتحضروا وتقابلونا ثم ترجعوا الى أوطانكم مجبورين مسرورين ان شاء الله تعالى فحين وصوله اليكم تعملوا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم اه

فلما علم ابراهيم بيك ومراد بيك بما جاء فى ذلك الفرمان من الوعيد والتهديد كبر خوفهما وكادا يسقطان فى أيديهما واجتمعوا بأصحابهما وتشاوروا فرأوا ان الخرق قد اتسع والوحشة قد استفحلت والقتال لابد منه فاستقر رأيهم على العصيان والخروج عن طاعة السلطان وكان النيل قد أخذ فى الزيادة فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد بدؤا فى جمع العساكر وتجنيد الجند واعداد معدات الحرب واتفقوا على أن يسيروا هذا الجيش مع مراد بيك الى مدينة فوة فيمنعوا الطريق ثم يرسلوا الى حسن باشا المشار اليه خطابا يعلمونه بانهم شارعون فى عمل الحساب والقيام بغلاق المطلوب للدولة ويسألونه الرجوع الى دار السلطنة فان امتثل فيها والا فالحرب • وجمعوا السفن وعبوا الذخيرة ونقلوا متاعهم وأثاثهم ورياشهم الى بيوت أخرى صغيرة بجهة المشهد الحسينى والشنوانى والازهر وأمروا بغلق الاسواق ليلا والكف عن الختمات والقرا آت فى ليالى رمضان فكثر عند ذلك اللغط وتزايد الهرج وخاف الناس سوء العاقبة وظهرت على مراد بيك وابراهيم بيك وأصحابهما لوائح الخذلان وبرز مراد بيك بعسكره الى ناحية بولاق وعبروا النيل ليلا الى انبابه ونصبوا معسكرهم وخرج مع مراد بيك مصطفى بيك الداودية ومحمد بيك الالفى وحسين بيك الشفت ويحيى بيك وعثمان بيك الأغا وعثمان بيك

الشرقاوى وعثمان بيك الاشقر فسارهم ابراهيم بيك الكبير مودعا وعانق كلا منهم وعاد الى القاهرة وسار مراد بيك قاصدا فوة وأصبح ابراهيم بيك وقد عاد رسله الذين ساروا الى أمير سفن الحرب العثمانية وقالوا انهم اجتمعوا عليه ثلاث مرات الاولى عند وصولهم فقابلهم بالاعزاز وأكرم وفادتهم وأنزلهم بمكان ورتب لهم المأكل والمشرب فى الافطار والسحور ثم دعاهم فى ثانى يوم وكلمهم قليلا فى أمر البلاد ومايكابده أهلها من جور الحكام وظلم الولاة والحروب المستمرة وانه قدم ليعاقب الظالم قال راوى هذه الحكاية فقال الشيخ العروسى يامولانا رعية مصر ضعفاء وبيوت الامراء مختلطة ببيوت الاهالى وهذه طامة كبرى فقال لاتخشوا من شئ فان أول ماأوصانى مولانا أوصانى بالرعية وقال ان الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعتك ماأودعنيه الله تعالى ثم قال كيف ترضون أن يملككم عشرون أو ثلاثون عبدا كانوا كفارا وترضونهم حكاما عليكم يسومونكم العذاب والظلم ولماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم فأجابه اسمعيل افندى الخلوتى وقال هؤلاء يامولاى عصبة شديدة البأس وكلهم يد واحدة فغضب الامير من قوله ونهره وقال ويحك أترهبنى بيأسهم وشدتهم فاستدرك وقال أعنى بذلك يامولاى أنفسنا لانهم أضعفوا الرعية فحول وجهه عنهم ساعة ثم صرفهم قالوا والثالثة كانت فى يوم جمعة بعد الصلاة فاستأذنوه فى الانصراف فقال فى غد أكتب لكم مرسوما للرعية فتقرؤنه جهارا فى الجامع الازهر فاعتذر الشيخ العروسى وقال تشتد الفتنة يامولاى فقبل عذره وقال يكفى الاستفاضة ثم عوقهم يومين آخرين ثم كتب لهم مكاتبات وسلمها الى أحدهم سليمان بيك الشاورى وسرحهم فودعوه ورجعوا وحدثوا بما جرى • أما رسول ابراهيم بيك الذى سار بالهدية الى مقدم العسكر الشاهانى والمكاتبة كما تقدم فانه لما وصل الى الاسكندرية قبض عليه مقدم العسكر المشار اليه وعوقه عن السفر الى دار السلطنة وأخذ منه المكاتبة ثم سرحه فعاد الى القاهرة وأخبر بما جرى له

• ووزع مقدم العسكر المذكور عدة مراسيم على مشايخ البلاد وكبار القرى وقد كانت هذه المراسيم وردت اليه من دار السلطنة خطابا الى المشايخ والاعيان فشاع خبرها وتحدث الناس بها وبالغوا وهولوا وأرجفوا وقالوا لم يبق الا الحرب والقتال فركب ابراهيم بيك عندئذ واجتمع بالشيخ العروسى والشيخ الدردير والشيخ البكرى وكلمهم فى أمر العامة وأراجيفهم وحثهم على مراقبة أحوالهم ولزوم حضهم على ملازمة الهدء والسكينة وأبلغهم خبر انتصار عسكر مراد بيك على بعض العساكر العثمانية بعد قتال عسى أن تهدأ الخواطر وتطمئن القلوب مع أنه لم يحصل شئ من ذلك الى يومها • وجعل ابراهيم بيك يوالى ارسال المدد والمؤن والاسلحة الى مراد بيك فكانوا يمرون بها من وسط المدينة ليراها الناس ويعجبوا بها

وبينماهم على هذا الحال من المواربة واخفاء الحقائق اذ رست ببولاق مصر سفينة من السفن التى كانت تتبع عسكر مراد بيك فى النيل وفيها كثير من المرضى والجرحى من العسكر والمماليك والوجاقلية فتسابق الناس لاستطلاع أحوالهم ومعرفة حقيقة أخبارهم



فأخبروا بهزيمة مرادبيك وعساكره وتمزيق شملهم ‌• وذلك انه لما وصل مراد بيك الى الرحمانية عبر سليمان بيك الاغا وعثمان بيك الشرقاوى والالفى النيل الى البر الشرقى وساروا فوقع بينهم نزاع أدى الى الخلف فراجع بعضهم بعضا فكان ذلك أول الفشل ثم تقدموا الى محلة العلويين وكان بها فريق من العساكر الشاهانية فأخلوا عنها فدخلوا اليها وملكوها وأرسلوا الى مرادبيك فى طلب المدد فرسم الى بعض الامراء أن يعبروا النيل لامدادهم فامتنعوا فأكبر مراد بيك ذلك وأعظمه وسير بدلهم جماعة من العربان ثم أمر بالركوب فركب من ركب وتأخر من تأخر وسار العسكر جميعه يريدون فوة فصادفهم فى طريقهم فريق من العساكر الشاهانية وراء المتاريس فخافوا من التقدم الى الامام لوعر الطريق وضيقه وكثرة المساقى والمزارع وكان فى مقدمة العساكر المصرية سليمان بيك أحد كبار الجند فلما صاروا على مقربة من متاريس عسكر السلطان وجهت العساكر السلطانية أفواه بنادقهم نحو سليمان بيك المذكور ومن معه فانذعر ورجع مسرعا الى الوراء فكبا به فرسه وسقط فحصلت فى جموعه ضجة وظنوها هزيمة فرجعوا جميعا القهقرى فتبعهم العربان الذين كانوا معهم وأخذوا منهم ماقدروا على أخذه من متاع وسلاح فعبروا النيل وكان مراد بيك محتملا بمن معه فى مكان ضيق وعر المسالك فأشاروا عليه بتركه والارتحال الى غيره واجتمعوا وهم على يقين من الهزيمة فكانوا يتخيلون ان العساكر السلطانية سائرة خلفهم ومن أمامهم لتذيقهم مر العطب ومازالوا على هذا الحال من الخوف والطيرة حتى خيم الليل فساروا تحت جنح الظلام و رجعوا القهقرى وطارت الاخبار بذلك فى مصر والقاهرة فعم الخوف جميع الاهالى وصاروا يضطربون من كل شئ و يتطيرون من كل شئ فكان اذا صاح صبى ياأماه ظنوا صياحه مقتلة واذا نادى مناد على شئ قالوا هى عربنة

‌• واتفق أن مملوكا أراد الركوب على حمار أحد المكارية فازدحم عليه الحمارة على عادتهم وتراكضوا خلفه ناحية الصاغة فظن الناس أنها وقعة وان العدو على أبواب الصاغة فتراكضوا جماعة خلف جماعة وصاحت الصغار فاضطرب أصحاب الحوانيت وأسرعوا فى غلق حوانيتهم بالاشرافية والغورية والعقادين الى باب زويلة وغيره من الجهات القريبة ثم ظهر بعد ذلك أن لاشئ البتة فعاد الناس الى أشغالهم ‌• ووصل فى غروب ذلك اليوم كثير من الجرحى والمرضى من عسكر مرادبيك ومماليكه وطوائفه فزاد الارجاف واشتد القلق ونزل الباشا من القلعة الى باب العزب واستقر به وهم ابراهيم بيك بأخذ أبواب القلعة فلم يفلح وأرسل الباشا بطلب قاضى القضاة والمشايخ فى تلك الليلة فصعد اليه بعضهم وتأخر البعض الى الصباح فصعدوا جميعا وصعدت كذلك طوائف الوجاقلية ورفع الباشا البيرق على باب العزب ونزل جاويش مستحفظان وجاويش العزب وأمامهما المناداة على العساكر والاجناد والطائعين كافة لله تعالى وللسلطان أن يأتوا تحت البيرق فخرج جميع العساكر والاجناد والتجار وأهل خان الخليلى وعامة الناس على اختلافهم حتى امتلأت الرميلة وقراميدان من الخلائق

وارسل

وأرسل الباشا يستحث أمير السفن العثمانية فى القدوم وكان فى عزمه التربص الى خروج الحاج فيأتى الى القاهرة ومعه العساكر البرية أيضا فأخذ يتأهب للحضور ووردت الاخبار بذلك الى ابراهيم بيك

ولما رأى ابراهيم بيك تسابق الناس الى الطاعة واجتماعهم بقراميدان والرميلة وغيرهما أخذ فى نقل أمتعته من ثقيل وخفيف الى دوره الصغيرة واحتجب عن الناس الا القليل وتركه الامراء كافة وطلعوا الى الباشا يطلبون الامان فكان الرجل منهم يأتى الى باب العزب فيطرقه وينادى فلان يطلب الامان ويكرر النداء وينتظر واقفا على أقدامه برهة طويلة حتى يأتيه فرمان بالامان فيدخل بغير سلاح خاضعا ويبقى مع من بالقلعة أما الصغير منهم فانه بمجرد ما يعطى له الامان ينحدر الى الرميلة أو قراميدان ويبقى مع من هم بها وكان الذين طلبوا الأمان من كبار الامراء جماعة كثيرة وكذلك من الغز والاجناد ولما تكامل حضور من حضر من المشايخ والعلماء الطالعين أبرز الباشا خطا سلطانيا وقرأه عليهم وهو يتضمن الحث على سرعة ارسال ابراهيم بيك ومراد بيك الى دار السلطنة وتأمين كل من يطلب الامان أو غير ذلك وبعد تلاوة ذلك المرسوم أقر بعض أصحاب الوظائف العالية فى مناصبهم وفرق بقية الوظائف بينهم ونزلوا الى المدينة ونادوا بالامان والبيع والشراء ونادوا كذلك فى الناس بالانصراف الى بيوتهم بشرط الاجابة عند الطلب ولم يبق الا المحافظون على الابواب وأصحاب الرتب ▪ أما مراد بيك فانه حضر فى ثانى يوم هذا الحادث الى جهة انبابة وبات ليلته تلك وقام غلسا الى جزيرة الذهب وركب ابراهيم بيك فى تلك الليلة وذهب أيضا الى الآثار ونادى المنادى فى ثانى يوم بصعود الناس الى قراميدان والرميلة فصعدوا أفواجا أفواجا وكثر زحامهم فنودى فيهم بالامان وملازمة الهدء والسكون ▪ وتخيل الباشا من ابراهيم بيك أمير الحاج وقد كان ممن طلب الامان فرسم له عند ذلك بالنزول الى بيته فنزل من القلعة الى جامع السلطان حسن وأقام به فأرسل اليه الباشا بالذهاب الى بيته فذهب واجتمع ببعض الامراء فى تلك الليلة سرا وأصبحوا فخرج سليمان بيك وأيوب بيك الكبير والصغير وهم ممن طلبوا الامان أيضا فأجيبوا اليه وساروا الى مضرب النشاب وركب ابراهيم بيك أمير الحاج وذهب الى بولاق ليأخذ جمال المناخ المعدة لخدمة الحاج فمنعه من أخذها عسكر المغاربة فرجع الى مضرب النشاب فلما جاء الخبر بذلك الى الباشا بعث اليهم رسولا ومعه مرسوم خطاب لهم بأن يرجعوا الى بيوتهم وأن لا يجتمعوا أبدا على هذه الصورة فزقوا المرسوم وضربوا الرسول وأقاموا على هذا الحال أياما بالمصاطب فاجتمعت عليهم عند ذلك طوائفهم وركبوا ولحقوا بمن خرج قبلهم فاضطربت البلد وظن الناس صعودهم الى المقطم بالمدافع ليطلقوها على المدينة والقلعة وأغلق الناس حوانيتهم فركب الباشا بعد صلاة الجمعة وركب كذلك قاندأغا ومعهما كثير من المماليك والعسكر يحملون البنادق والقرابين ووصلوا الى الرميلة ورموا بالبنادق على جماعة الامراء وأطلقوا

عليهم المدافع فانحدر المتحزبون الى الصليبية ثم الى باب زويلة ومروا بالغورية والاشرفية وبين القصرين وطلعوا من باب النصر وامامهم المنادى ينادى امان واطمئنان حكم مادرم ابراهيم بيك ومراد بيك وحكم الباشا بطال فلما سمع الناس ذلك ورأوا اجتماع الامراء على هذه الصورة انزعجوا وأغلقوا الدكاكين وهاجوا وماجوا وعلم الباشا بخروجهم على هذه الصورة فأمر بتحصنوا القلعة والمحمودية والسلطان حسن ونادى الاغا فى الجند والعسكر بالصعود الى قلعة الجبل فصعدوا وجعل كل فريق يتأهب للحرب والقتال وعم الخبر مصر والقاهرة فانتشر عند ذلك الاشقياء فى الطرق والحارات ينهبون المارة وتطاولت أيديهم الى القتل فى رابعة النهار وانقطعت الطرق حتى الى بولاق القاهرة ومصر القديمة وركب ابراهيم بيك وحسين بيك فى نفر وأتوا الى مناخ الجمال ليأخذوا جمال الحاج فدفعهم المغاربة فعربدوا فى ذلك الصقع عربدة لاتوصف وطلعوا بعد العشاء وباتوا فى السبيل الذى على رأس الرميلة وشدد الباشا فى طلب العسكر وأنفق عليهم نفقة عظيمة فكثر ورودهم الى قلعة الجبل وفى مواقع المتاريس والحصون واشتد الكرب بالناس وضاق خناقهم وكان الصياح لاينقطع فى كل يوم فى أطراف الحارات من قحة اللصوص وتسلط النشالين ودخولهم البيوت ليلا وقتالهم مع أصحابها نهارا وشاع فى هذه الاثناء خبر وصول بعض مراكب حرب الدولة الى شلقان ومجيء حسن باشا مقدم العسكر السلطانى ففرح الناس وصعدوا الى المنارات وأعالى الاسطحة ينظرون الى النيل فلم يروا شيأ فى ذلك اليوم فاشتد الانتظار وزاغت الابصار فلما كان بعد عصر اليوم سمع صوت مدافع على بعد فأجابتها مدافع القلعة ففرحوا واستبشروا وحصل بعض الاطمئنان وصعدوا الى المنارات فرأوا عدة مراكب ونقاير رست على بولاق القاهرة فسروا سرورا ماعليه من مزيد وضجوا ضجيج الفرح فارتجت الارض من ضجيجهم وكان مراد بيك وجماعة من أمرائه قد ذهبوا الى بولاق وشرعوا فى عمل المتاريس جهة السبتية وأحضروا عدة مدافع وجمعوا أخشابا وشيأ كثيرا من حطب الذرة وزنابيل وغير ذلك فبينماهم يشتغلون فى إحكام تلك المتاريس اذ دهمتهم مراكب حسن باشا تجاه المتاريس فتركوها وولوا الادبار فضج الناس وصاح الصبيان صياح الهزء والفرح وخرجت النساء يزغردن واحتطن بمدافع مراد بيك وكسرن أخشابها وأخذنها الحريق

واجتمع ابراهيم بيك ومراد بيك وجميع الخوارج وكتبوا الى قاضى القضاة والمشايخ يظهرون التوبة والرجوع الى الطاعة فقرئت كتابتهم بحضرة محمد باشا يكن قال الراوى فقال سبحان الله كم يتوبون وكم يعودون فاكتبوا لهم جوابا معلقا على قدوم قبطان باشا فكتبوا لهم بذلك ووصل حسن باشا فى عشاء ليلة الاثنين ثانى عشر شوال سنة مائتين وألف فأطلقوا لقدومه المدافع من بولاق القاهرة وبات ليلته وأصبح فركب ودخل القاهرة من ناحية باب اللوق ونزل ببيت ابراهيم بيك الكبير بأتباعه وحاشيته وعسكره ووصل بعده الشيخ الاترم المغربى فى طائفة من المغاربة فنزل بهم ببيت يحيى بيك فسكن الحال واطمأنت

قلوب

قلوب الرعية وفتحت أبواب قلعة الجبل ونزل من بها وشاع الخبر بذهاب ابراهيم بيك ورفاقه
الى الاقليم القبلى من خلف الجبل فسارت خلفهم طوائف العسكر على ظهور السفن لقتالهم
فقبضوا على عدة مراكب مشحونة بالذخيرة والمؤن وأنفذ حسن باشا أمير السفن رسلا الى
اسمعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى يطلبهما الى مصر وكانا مبعدين بالاقليم القبلى
كما تقدم وجمع محمد باشا يكن من بقى من أهل الخير من الامراء وقلدهم المناصب
العالية وسلمهم الوظائف ورتب أمور البلاد ترتيبا محكما وأباح على ما قيل لعساكر الشاهانية
نهب بيوت الامراء الفارين فدخلوا بعضها وأخذوا ما وجدوه من أمتعة واثاث وتبعهم
العامة والحرافيش فبلغ ذلك مقدم العسكر فركب بنفسه وطاف المدينة وقبض على من
صادفه من العسكر وعلى من وجده فى تلك البيوت فقتل جماعة منهم ممن كانوا يحملون بعض
المنهوبات فانكفوا عن النهب ثم نزل من باب زويلة ومر بالغورية ودخل من عطفة الخياطين
على باب الازهر وذهب الى المشهد الحسينى فزاره وكان قد زاد اعجابه بنفسه أو وشى اليه
بعض الوشاة فأمر فنودى على النصارى بان لايركبوا الدواب المطهمة وأن لا يستخدموا
المسلمين ولا يشتروا الجوارى ولا العبيد ومن كان منهم عنده شئ من ذلك باعه أو اعتقه
وأن يلزموا زيهم الاصلى من شد الزنانير والزنوط فتسلط العامة عليهم وتتبعوهم بالايذاء ومن
وجدوه بغير زنار رجموه بالحجارة وحثوا التراب فى وجهه فانكمشوا وانكفوا عن الخروج أياما
وأرسل يطلب من قاضى القضاة احصاء ما أوقفه المعلم ابراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر
وشيد على الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملاك وغير ذلك ثم أحس بما وراء ذلك
من الفشل وظهور الفتنة فخاف واستدعى اليه المعلم ابراهيم وكلمه فى الامر فصالحه المعلم
ابراهيم على مبلغ عظيم من المال فأمر فنودى فيهم بالامان وعدم التعرض لهم بمكروه فعادوا
الى ما كانوا عليه وكان ما فعله بالقبط مشجعا لعساكر السلطانية على العود الى الخطف من
السوقة وأصحاب الحوانيت وكثر تعديهم على أهل الحرف مثل القهوجية والحمامية والمزينين
والخياطين وغيرهم فكان يأتى الرجل منهم الى الحمامى أو القهوجى أو الخياط ويخلع عنه
سلاحه ويعلقه على باب الحمام أو القهوة أو حانوت الخياط ويرسم رنكه فى ورقة أو على باب
دكان آخر وكأنه صار شريكه وفى حمايته ثم يذهب حيث شاء أو يجلس متى شاء ثم يأتى
فى آخر اليوم ويحاسبه ويقاسمه فى ربح يومه ذلك قيل وهذه عادتهم اذا ملكوا بلدا ذهب
كل ذى حرفة الى حرفته التى كان يحترفها فى بلده ويشارك ابن تلك البلد فيها فثقل على
أهل مصر هذا الفعل وشكوا للباشا واستغاثوا فنودى بابطال هذه المحنة ومن أتاه عسكرى
يشاركه أو يأخذ منه شيأ بغير حق قبض عليه وضرب وأتى به الى الحكام ثم طاف الوالى وقبض
على كل من وجده منهم بالحمامات والقهاوى وطردهم ونهرهم فلم ينكفوا الا بعد حين
ورسم حسن باشا أمير السفن فجمعت ودائع جميع الامراء وأموالهم المحفوظة عند
الناس واحضرت زوجات ابراهيم بيك الكبير وأخذ ما كان عندهن من مال وحلى وغيره



وكذلك زوجات مراد بيك وقبضوا على خفراء الحارات ليدلوا على البيوت التى فيها تلك الودائع فلم يتركوا محلا الا فتشوه وأخذوا مافيه ونودى فى الاسواق بان من كان عنده وديعة أوشئ من متاع الامراء الخارجين ولم يظهره فى ثلاثة ايام أهدر دمه من غير معاودة وجروا على زوجات ابراهيم بيك ومراد بيك بيت كتخدا أياما كثيرة فتشفع فيهن العلماء والمشايخ فلم يفرج عنهن واستحضر النخاسين والدلالين وأخرجوا جوارى ابراهيم بيك وباقى الامراء بيضا وسودا وأحباشا ونودى عليهن بالبيع والشراء فى حوش البيت فبيعوا بابخس الاثمان اشتراهن طوائف الضباط والعساكر السلطانية واشتد أمير السفن فى الغلظة وبالغ فى التهديد فأمر ببيع ولدى ابراهيم بيك الكبير وهما مرزوق بيك وعديلة هانم وضيق على زوجاته تضييقا عظيما فاجتمع للمشايخ وصعدوا الى قلعة الجبل وكلموا الوالى فى ذلك وقالوا هذا أمر لاترضاه الشريعة ولايجوز قطعا بيع الاحرار وطلبوا منه أن يراجع أمير السفن فى ذلك فقال لا قدرة لى على رد كلمته فاذهبوا أنتم اليه وكلموه قالوا ولابد من ان تذهب معنا فذهبوا جميعا وكلمه الشيخ السادات وقال يامولانا قد بعثك السلطان لتذب عن الشريعة المطهرة وتقيم الحدود وتقطع عرق الفساد وتمنع الظالم عن المظلوم لاان تهدم معالم الدين وتبيع الاحرار فلما سمع كلام الشيخ السادات اغتاظ وأشار الى أحد الكتاب ان اكتب أسماء هؤلاء المشايخ كى ابعث بها الى السلطان واعلمه بحالهم وتوقفهم فى سبيل أعمالى ثم التفت اليهم وقال لا أجد الآن للاقامة بين ظهرانيكم سبيلا وقد عزمت على الرجوع فليرسل اليكم مولانا السلطان آخر فتروا ماذا يفعل بكم أوما كفاكم انى فى كل يوم أقتل من عسكرى طائفة على أيسر شئ دفعا لاذاهم عن البلاد وأهلها وارهابا لمن لم يعرف الحدود ولو كان قائد هذه الجموع غيرى لنظرتم كيف كانت تفعل بالبيوت والاسواق والناس فخاف المشايخ وسقطوا فى أيديهم وتلجلج فصيحهم وقالوا انما نحن يامولانا شفيعون والواجب علينا قول الحق ثم انصرفوا وهم على أشد مايكون من الخجل

ولما كان يوم السبت غرة القعدة من السنة قدمت الى القاهرة الجيوش البرية ومعهم أميران اسمه عابدى باشا وآخر اسمه درويش باشا وهما مقدما الجيش المذكور فلاقاهم حسن باشا بالعادلية وسار معهم حتى دخلوا المدينة فى أبهة وجلالة وعسكروا بها فلم يحصل منهم إيذاء ولاعربدة بل كانوا اذا اشترى أحدهم شيأ نقد صاحبه ثمنه حالا وباتوا تلك الليلة بخيامهم عند سبيل قايتباى وأصبحوا وقد ركب عابدى باشا ودرويش باشا وساروا امام العسكر الى البساتين فمروا بالصحراء وباب الوزير وأجروا عليهم الرواتب من الخبز واللحم والارز وكأنه لما استقربهم المقام تاقت نفوسهم الى استخدام الجوارى كما فعل عسكر حسن باشا بجوارى الامراء المصريين وجوارى قبطة مصر فقد نودى بعد أيام على المسيحيين من أهل البلاد كافة باحضار ماعندهم من الجوارى ثم نزل العساكر بعد النداء وهجموا على بيوت المسيحيين واستخرجوا مافيها من الجوارى والعبيد فكان شيأ كثيرا وأحضروهم الى حسن باشا فباعهم الى العسكر بابخس الاثمان ثم صاروا يبيعونهم بالمرابحة فاذا أراد أحد أن يشترى جارية ذهب الى بيت الباشا وطلب

ذلك

ذلك فيعرض عليه الجوارى من مكان عند بيت النساء فاذا أعجبته جارية أو أكثر حضر صاحبها التى اشتراها فيضيره برأس ماله ويقول له وأنا آخذ مكسبى كذا فلا يزيد ولا ينقص فان أعجبه الثمن دفعه والا تركها وذهب ثم وقع التشديد على ذلك وأحضروا الدلالين والنخاسين واستدلوا منهم على من عنده واحدة من الجوارى فكانوا يفتشون بيوتهم دفعات متوالية حتى اشتد الكرب وعم الخطب ولم يقف حسن باشا المذكور عند هـذا الحد من الجور والعسف بل أمر بجمعوا المهندسين والبنائين ليدلوا على الخبايا والمطامير التى ربما يكونون قد أنشؤها للامراء والناس كافة فى بيوتهم فكان لا يشعر صاحب البيت وهو بجانب عياله الا وقد هجم عليه جماعة من العسكر ودخلوا البيت وأخذوا ينقبون الحيطان وينبشون الارض ويدخلون المحال بلا حياء فيأخذون ما يجدونه من فراش أو نحاس أو غير ذلك ويخرجون وصاحب البيت فى دهشة وجمود لا يدرى ما سبب حضورهم ولا ما أخذوه وهكذا حتى ضج الناس وعم الخوف وراجت السعاية وظهر شأن أصحاب الدسائس والفتن وعمت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم المغارم وطولبوا بخمسة وسبعين ألف ريال نقرة وأمر باحصاء جميع دورهم وملكهم فاحصيت فقرر عليها أجرة تدفع الى خزينة السلطان ثم ضرب عليهم غرامة أخرى قدرها خمسة آلاف كيس فضاقت عليهم الدنيا برحبها وباع الكثير منهم جميع ما عنده حتى ملابسه وملابس عياله وقرر على كل شخص منهم جزية جديدة قدرها دينار بلا فرق وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم وتتبع الديارات وأخذ كل ما وجده فيها من ودائع وقبض على المعلم واصف أحد عظماء القبط يومئذ ورئيس حسابات الديار المصرية وعليه جميع الايرادات والمصروفات فجلده وحبسه وطالبه بالاموال وكان المعلم واصف المشار اليه كاتبا حاسبا عاقلا حاد الذهن وقاد الذاكرة وكان يعرف التركية حق المعرفة وقبض أيضا على نساء المعلم ابراهيم الجوهرى وكن فى بيت حسن أغا كتخدا على بيك أمين الحساب وضيق عليهن فاعترفن ببعض الخبايا فأخرجوا منها أمتعة وأوانى ذهب وفضة وسروجا وغير ذلك فأخذها ولم يترك سراح النساء بل بقين تحت الحجر أياما كثيرة

وجاء الخبر بوصول ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك ومن معهما الى أسيوط وان السفن الحاملة للعساكر السلطانية سائرة خلفهم فبعث حسن باشا بسفن أخرى وعليها بعض طوائف الجند فسارت ولحقت بالاولى فلما صاروا امام اسيوط أطلقوا عليها المدافع تباعا فأجابتهم مدافع ابراهيم بيك ثم ترفع ابراهيم بيك ومن معه الى الجبانة فلم تتمكن السفن من اطلاق المدافع عليهم وبعثوا الى حسن باشا بذلك فعقد الديوان وجمع الامراء وقلد قاسم بيك أبو سيف ولاية جرجا وقيادة الاجناد والعساكر التى تقرر ارسالها مع عابدى باشا ودرويش باشا وعين معهم عدة كثيرة من الامراء ورسم بسرعة التجهيز والرحيل وصرف النفقة فأنفق هو على قومه فأعطى لكل أمير خمسة عشر ألف ريال والوجاقلية سبعة عشر ألف ريال وأنفق عابدى باشا فى عسكره فأعطى لكل نفر خمسة عشر قرشا فغضبت من ذلك طائفة الدلاة



واجتمعوا بأسرهم وخرجوا الى ناحية العادلية مغضبين يريدون الرجوع الى أوطانهم فانزعج الناس ولم يعرفوا ما الخبر فلما بلغ حسن باشا ما وقع ركب فى عسكره وسار الى العادلية يريد قتلهم فخرج معه بعض العساكر المصرية وركب كذلك عابدى باشا ولحق به عند قصر قايماز وكان هنالك أحمد باشا الجداوى فنزل اليه أيضا وأخذوا يستعطفونه ويسكنون غضبه وأرسلوا الى الدلاة فاسترضوهم وزادوا أعطيتهم وجعلوا لكل نفر أربعين قرشا فاذعنوا وأطاعوا وعادوا جميعا الى القاهرة ٭وخرج عابدى باشا ودرويش باشا بعسكريهما ونزلوا بالبساتين يومين ثم ارتحلوا الى الاقاليم القبلية فخرجت طوائف الوجاقلية أيضا ونزلوا بخيامهم فى البساتين ولبثوا أياما قلائل حتى جاء أحد كبار العساكر السلطانية من الشام ومعه طائفة من العسكر فنزلوا بالعادلية يوما ثم ساروا الى البساتين وقاموا منها الى الاقاليم القبلية فقامت معهم طوائف الوجاقلية ونودى بان لايتخلف أحد من العسكر ومن تثاقل قتل من غير معاودة

ولم يكن تسيير الجنود وإعداد معدات الحرب ليشغل حسن باشا أمير السفن عن كشف عورات الناس ومصادرتهم فى متاعهم وأموالهم وأخذ كل ما وصلت اليه يده وتفتيش مساكن أصحاب البيوتات العالية واخراج مافيها وقد دلوه على مكان ببيت المعلم ابراهيم الجوهرى مرتفع مهدوم الدرج وكان هذا المكان لولده مات فى عنفوان شبابه من نحو الستين سنة فلما مات هدمت والدته الدرج الذى يوصل اليه حزنا على ولدها وترك بما فيه فصعدوا اليه وأخرجوا منه شيأ كثيرا من فرش وأمتعة مزركشة وأوانى ذهبية وفضية وصينية وغير ذلك فاحضرت جميعها الى حسن باشا فباعها بالمزاد بين يديه فى عدة أيام وبالغ فى تفتيش البيوت والاصغاء لاهل السعاية والوشاة واشتدت رغبته فى قطع دابر ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما ومحو آثارهم فاجهد النفس وبالغ فى اتخاذ الطرق والوسائل وأكثر من المدد لعساكره الذين ذهبوا لقتالهم وكان فى كل يوم يبعث بالرسل لتأتى له بالاخبار فلما كان يوم الاربعاء عاشر ذى الحجة من السنة التى هو يوم عيد النحر وردت اليه الاخبار بوقوع موقعة عنيفة بين ابراهيم بيك والعساكر السلطانية لم يتم فيها الظفر لاحد من الطرفين فاغتاظ من ذلك جدا اذ كان يرجو انقضاء الامر قبل دخول فصل الشتاء وهبوط النيل وتعذر انحدار سفن الحرب فأمر عند ذلك بعدم فتح الترع التى كانت تفتح عادة بعد عيد الصليب كبحر أبى المنجا وبحر مويس والقرينين خوفا من نقص الماء وأرسل الى عابدى باشا ودرويش باشا ومن معهما من كبار العسكر يستحثهم ويستنهض هممهم الى الفتك بابراهيم بيك ومراد بيك فرد عليه عابدى باشا ردا حسنا وأرسل اليه أيضا بمكاتبة كانت وردت اليه من ابراهيم بيك ردا على خطاب كان بعث به عابدى باشا يقول فيه بعد كلام مانصه ٭ كم تخاطبوننا بالكفرة والمشركين والظلمة والعصاة مع اننا بحمد الله تعالى موحدون واسلامنا صحيح وحججنا بيت الله الحرام وتكفير المؤمن كفر ولسنا عصاة ولامخالفين وماخرجنا من مصر عجزا ولاجبنا عن الحرب الاطاعة للسلطان ولنائبه فانه أمرنا بالخروج تسكينا للفتنة وحقنا للدماء وقد وعدنا انه يسعى فى تقرير

قاعدة

قاعدة الصلح فخرجنا على هذا الشرط ولم نرض باشهار السلاح فى وجوهكم وتركنا بيوتنا
وعيالنا فى عرض السلطان ففعلتم بهم مافعلتم ونهبتم أموالنا وهتكتم اعراضنا وبعتم أولادنا
وأحرارنا وأمهات أولادنا وهذا الفعل ماسمعنا به حتى ولا فى بلاد الكفر وما كفاكم ذلك حتى
أخرجتم خلفنا العساكر ليخرجونا من بلاد الله الواسعة ويهددونا بكثرتهم وكم من فئة قليلة
غلبت فئة كثيرة باذن الله وأما عساكر مصر فأمرها فى الحرب والشجاعة مشهور فى سائر
الاقاليم والايام بيننا وكان الاولى لكم الاجتهاد والهمة فى استخلاص البلاد التى أخذها الكفار
واستولوا عليها مثل القرم والورن واسمعيل لا ان تأتوا هنا على هذه الصورة المنكرة وكتب غير
ذلك من اقوال اخرى ركيكة المبنى قد أضربنا عن ايرادها ۝ فأجابهم عابدى باشا ونقض عليهم
وزحف بعسكره فاشتبك بينهم القتال عند المنشية والتحم الفريقان فقتل منهم جملة كبيرة
وأبلى المصريون بلاء حسنا للغاية فتنحت عنهم العساكر السلطانية ناحية وهجم ابراهيم بيك
وأصحابه وألقوا بأنفسهم فى نيران الحرب وطلب كل غريمه ثم اندفع العثمانيون وظهر من شجاعة
عابدى باشا ماشهدت به الاعداء وأصابت اسمعيل بيك الكبير رصاصة فى فمه فخرجت من
صدغه فولى منهزما وألقى بنفسه الى النيل وركب فى حراقة صغيرة وانحدر الى مصر وكان حسن
باشا أكثر من استدعائه وهو بعده ويرجوه كتمان خبر طلبه فلما دخل القاهرة اجتمع بحسن
باشا برهة ثم ذهب الى بيت مملوكه على بيك جركس وقد خلع عليه حسن باشا خلعة سمور
وأصبح وقد شاع خبر حضوره على هذه الصورة فتحدث الناس فى أمره وكثر اللغط وأعقب
ذلك أيضا الاشاعة بهزيمة العساكر السلطانية وأرسل حسن باشا فى طلب طوائف العسكر الذين
بمدينة الاسكندرية وأرسل أيضا الى دار السلطنة بطلب المدد وحضر حسن بيك الجداوى ومعه
بعض الجند وقد أصيب بجراحة عظيمة فثبت بحضوره خبر هزيمة العساكر السلطانية وكذلك
حضر بقية الامراء وأكثرهم مصاب بجروح ثم وصل عابدى باشا أيضا ونزل بقصر العينى
أياما وهو محتجب عن الناس الا القليل من قومه ولم يظهر الالملاقاة الرسول الذى حضر من
دار السلطنة بمرسوم ولايته على مصر وخلع محمد باشا يكن وتسييره الى ديار بكر بدلا من
عابدى باشا وانتشر الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وعم الآفاق وجعل عابدى باشا ينقل
أمتعته الى بولاق القاهرة ويتأهب للصعود الى قلعة الجبل وذلك فى المحرم افتتاح سنة احدى
ومائتين وألف هجرية وسافر محمد باشا يكن الى مركز ولايته الجديدة فكانت مدة تصرفه
سنتين وبضعة أشهر وكان كريم الاخلاق عاقلا رزينا يكره الظلم ويبغض أهله فلذلك لم يكن
ليرضى عن أعمال حسن باشا أمير السفن بل كان ناقما عليه كثير التوجع مما أصاب الرعية
من عسفه وجوره ۝ وصعد عابدى باشا الى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الامور ويدبر مع
حسن باشا أمر الحرب مع الامراء المصريين فأكثر من ارسال المدد الى درويش باشا وبث
العيون والارصاد حول ابراهيم بيك ومن معه فجاءه الخبر يوما بانحدار ابراهيم بيك وجموعه
الى مصر واقتراب طلائعهم من بنى سويف وانه مات منهم عدة كبيرة من الامراء والكشاف

مطلب
عزل محمد باشا يكن وولاية
عابدى باشا

ولكن مازالت نفوسهم قوية على الحرب وقد أحبوا الموت فأزعجهم هذا الخبر واستعظمه ثم جاء بعد قليل رسول من قبل مراد بيك ومعه مكاتبة تتضمن طلب الصلح والالحاح بالكف عن القتال حقنا للدماء وانهم قد تابوا ورجعوا عما كانوا عليه ثم قالوا فان لم تجنحوا الى الصلح فليس بيننا وبينكم غير الحرب والقتال فلما وقف أمير السفن على مافى خطاب مراد بيك أسرع فى تسيير مابقى عنده من مراكب الحرب الى ناحية التبين فاصطفت هناك وأمر فعملوا متاريس وحفروا خندقا ووضعوا من المدافع عدة كثيرة وخرج رضوان بيك بليغيا وسليمان بيك الشابورى وعبد الرحمن بيك عثمان وبرزوا بخيامهم ناحية البساتين ليسيروا منها الى الصعيد وأتت الجواسيس فاخبروا بتربص ابراهيم بيك وجموعه بناحية بنى سويف ومراقبتهم الفرص فانفق حسن باشا فى العسكر ثلث نفقة وطلب من التجار قرضة لينفقها فشكوا من كساد الحال فشدد فى الطلب فأغلقوا حوانيتهم فهجم الجنود على بيوتهم ونهبوا ماوجدوه فيها وفرض على الاهالى مبلغا عظيما من المال فجمعوه بشق الانفس وطلب الخيول والبغال والحمير والجمال فأخذوا دواب الناس بلا ثمن وجمال السقائين كافة والمكارية فضج الناس وعجوا الى الله تعالى ووقع الصياح فى العامة والبكاء من نساء السقائين والمكارية وغيرهن وكثرت ولولتهن وطفن حاسرات يندبن فلم يلتفت اليهن ولا رد شيأ مما أخذ ووردت مكاتبة أخرى من ابراهيم بيك بطلب الصلح وحقن دماء المسلمين فجمع حسن باشا الامراء كافة وقرأها عليهم فأبوا جميعا الا القتال وبعد كلام أشار حسن بيك الجداوى بصرف طائفة المحمدية من العساكر تخوفا وتخيلا منهم اذ هم ميالون الى ابراهيم بيك وأصحابه فأجابه حسن باشا الى ذلك وأمر فجمعت منهم خيولهم وسروجهم فكان لذلك أثر مهم وكادت جيوشه لذلك تفشل فهاله الامر ووقف فى وسط الجند وقال مخاطبا لكبار العسكر قد أمنتكم فلا تكونوا من الخائنين واياكم والخدعة والاخذ بالوجوه فتتحازون الى الاعداء بغضا فينا أو تزلفا اليهم وحرصا على الجنسية فافقهوا واعلموا انكم ان فعلتم شيأ من ذلك خربت البلاد سبع سنين عقابا وجعلت الدماء فيها الى لبب الخيل ، ثم نادى المنادى بالتأهب وعدم تخلف أحد وطاف الأغا على العساكر والاجناد يخرجهم من أماكنهم ويقف على الخانات ويسأل عمن بها منهم ويحثهم على سرعة الخروج والالتصاق بالعسكر ، وعادت رسل ابراهيم بيك الى معاودة حسن باشا فى أمر الصلح وأحضروا معهم ابن أخ عابدى باشا وكان قد أسر مع بعض العساكر السلطانية فى الوقعة الاخيرة وأرسلوا معه منهوبات عابدى باشا وجميع الجواريح وقد أنفقوا على كل واحد منهم دينارا فلم يجبهم حسن باشا إلى الصلح الا بشرط خروجهم من الديار المصرية بعيالهم ونسائهم الى بلد يختارونها والا فالحرب والقتال فلما عادت الرسل بهذا البلاغ اتفقوا جميعا على الانحدار الى مصر واصلاء نار الحرب حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فانحدروا ووصلت طلائعهم الى أرض الجيزة وصاروا بين الرقق والجيزة وفرضوا الكلف

والمغارم

والمغارم ومؤنة العساكر على أهالى الجيزة فبرز عند ذلك اسمعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى بخيامهما الى ناحية طرا ومنعوا السفن والمعادى كافة وأرسوهم بالجانب الشرقى من النيل كى لايتمكن جموع ابراهيم بيك من العبور الى مصر ونودى على جميع طوائف المحمدية بالخروج والاجتماع تحت لواء اسمعيل بيك ومن تأخر عوقب وقبضوا على عدة كبيرة منهم ونهبوا بيوتهم وسجنوهم بقلعة الجبل فخرجوا جميعا من عساكر ومماليك واتباع وطلب اسمعيل بيك من تجار المدينة قرضا للنفقة فاعتذروا فادعى على تجار البن بمبلغ من المال قال هو باقى حساب له يوم كان قابضا على زمام مشيخة البلد فصالحوه على مبلغ أربعة آلاف ريال وجاء رسول من قبل ابراهيم بيك الى حسن باشا ينذره بالحرب والقتال ويعلمه بخروج جموع ابراهيم بيك وانحدارهم الى مصر فتعجب حسن باشا من ذلك ولم يعوق الرسول بل سرحه ونادى فى عسكره بالتأهب وخرج هو واسمعيل بيك وحسن بيك الجداوى وجميع الامراء وساروا الى نواحى البساتين ثم اجتاز بعض العساكر البحرية النيل الى انبابة وعملوا هنالك متاريس وخنادق وانحاز ابراهيم بيك ومراد بيك وجموعهما الى ناحية الاهرام باحمالهم وجعلوا يتربصون الفرص ويتبينون انتفاعها وقدسئمت نفوسهم الحياة على هذا الحال واتفق انه دخل المحمل والحاج القاهرة فى هذه الايام بعد أمور وقعت للحجاج فى الطريق يطول شرحها فسار حسن باشا وبعض الامراء لقائه وتحقق ماجرى على الحجاج فلما علم ابراهيم بيك بتغيب حسن باشا عن القاهرة زحف ليلا بجموعه على المتاريس التى بانبابة وهجموا عليها هجمة رجل واحد فصدهم أصحاب المتاريس وأطلقوا عليهم المدافع من البحر والبر وتابعوا الرمى من الفجر الى طلوع الشمس فرجع ابراهيم بيك وأصحابه الى مواقعهم من غير طائل ثم عادوا بعد ظهر اليوم فردوا على أعقابهم وارتحلوا الى دهشور وأقاموا بها أياما فساءت جموعهم وداخلهم الفشل وانسلخ منهم جماعة كثيرة وانحازوا الى العساكر البحرية فضاق ابراهيم بيك شر العاقبة وجنح الى اعادة الكلام فى أمر الصلح وكتب يطلب ان تعطى لهم بعض الجهات بالصعيد ليقيموا بها ويتعيشوا منها ويكفوا عن القتال فأجابه حسن باشا الى ذلك بشرط ان لايسمح بذلك الا لجماعة قليلة منهم ويحضر باقى الامراء والعسكر الى القاهرة ويقيموا بها فلم يرض ابراهيم بيك بذلك وترفعوا الى ناحية بنى سويف واستقروا بها فرجعت عنهم عند ذلك عرب الهنادى الذين كانوا معهم وفارقوهم وأخذت أحوالهم فى التأخر وشدد حسن باشا فى تسيير العساكر الى الصعيد فساروا فى خيل ومدافع وكثير من المعدات وسار خلفهم عابدى باشا ومعه لفيف الامراء وجاء الى حسن باشا المدد من عساكر السلطان من قبرص والقرمان وغيرهما فعسكروا فى البساتين ورسم حسن باشا فصنعوا ابراجا نقالة ومتاريس على اشكال مختلفة وسيرها خلف العساكر ثم وردت الاخبار بعد أيام بارتحال ابراهيم بيك ومن معه من بنى سويف الى أسيوط وان قد تخلف عنهم كثير من المماليك والاتباع فى نواحى منية ابن

خصيب وغيرها وجاء منهم جماعة الى القاهرة وحدثوا بأخبارهم وقد انضم جماعة من الامراء
الى معسكر عابدى باشا طائعين فأمنهم واستبقاهم ولما وصلت العساكر السلطانية الى
أسيوط ترفع ابراهيم بيك وجموعه الى طحطا وتترسوا بها وتأهبوا للقتال فسارت العساكر
خلفهم ثم انقطعت بعدذلك الاخبار حينا فخاف حسن باشا وتابع ارسال الرسل لاستطلاع
الاخبار ومعرفة ماحل بالعسكر فلم يرجع منهم من يخبر بالخبر وبقى الحال هكذا أياما ثم قدم
رسول ومعه مكتوب من عابدى باشا يخبر بوقوع الحرب فى يوم الجمعة ثامن عشرى ربيع
الآخر سنة احدى ومائتين ناحية الامير ضرار فكانت الهزيمة على ابراهيم بيك وجموعه
بعد ان أبلوا بلاء حسنا جدا وهزموا العساكر السلطانية هزيمتين وهجموا على الحصون
والمتاريس والابراج النقالة هجوم الاسود الضوارى فقتل منهم عدة كبيرة من الامراء
والاجناد والمماليك قال الراوى وكانت الحرب بيننا نحو ست ساعات مات فيها من العساكر
السلطانية عدة وافرة فلما علم حسن باشا بما ذكر سكن روعه وأمر فأطلقت المدافع من
قلعة الجبل نهارا والحراقات والالعاب النارية ليلا وطاف المبشرون على بيوت المشايخ
والاعيان يبشرونهم بنصر العساكر السلطانية فأتوا وهنؤا حسن باشا بهذا النصر وترفع
ابراهيم بيك ومن بقى من جموعه الى عقبة الهو ثم ساروا منها الى ابريم والعساكر فى اثرهم
تتخطفهم من خلف ثم عادت العساكر الى اسنا ونزلت بها وكتب عابدى باشا يسأل البقاء بمن
معه من العسكر والامراء باسنا أو الانحدار الى مصر فكتب له حسن باشا بالانحدار ومعه
اسمعيل بيك الكبير وباقى الامراء وترك حسن بيك ومحمد بيك المبدول ويحيى بيك
باسنا مع سائر العسكر فانحدر عابدى باشا والامراء المذكورون الى مصر فدخلوها فى يوم
الاحد حادى عشر رجب وصعد عابدى باشا الى قلعة الجبل من غير ابهة ولا كبكبة فلم
يستقر به المقام حتى جاءت الاخبار منبئة بزحف ابراهيم بيك وجموعه الى أسوان وانهم
عبروا النيل الى اسنا فأجلوا عنها من كان بها من العساكر واحتلوها وانحدروا الى جرجا
فارتحل عنها من بها من العساكر أيضا ورجعوا القهقرى فادهش حسن باشا هذا الخبر
وجمع اليه الامراء وأرباب المناصب وشاورهم فى الامر فاختلفت كلمتهم وتباينت أهواؤهم ثم
استقر رأيهم على ان يخابروهم فى الصلح بشرط انهم يقيمون فى البلاد التى كانت بيد اسمعيل
بيك الكبير وحسن بيك الجداوى وأن يرسلوا الى مصر أيوب بيك الكبير وايوب بيك الصغير
وعثمان بيك الاشقر وعثمان بيك المرادى ليقيموا بها رهائن وكتبوا بذلك مكاتبات وأرسلوها
صحبة الشيخ سليمان الفيومى وبعض الامراء فقبل ابراهيم بيك ومراد بيك هذا الصلح
وخضعوا لشروطه فأرسلوا أيوب بيك الكبير رهينة عن المماليك المحمدية وعثمان بيك الطنبرجى
عن مراد بيك وعبد الرحمن بيك عن ابراهيم بيك الكبير فلما تمثل هؤلاء بين يدى حسن باشا
سأل الامراء فى أمرهم فقالوا لم يحضر ممن طلب سوى ايوب بيك الكبير ولا سبيل للصلح
الا بتنفيذ شروطه فكتب حسن باشا بذلك ثانيا الى ابراهيم بيك ومراد بيك وأرسل اليهما

كتخداه

كتخداء فقبلوا بشرط اعطائهما بلادا زيادة حيث ان ماأعطى اليهما لم يكفهما فزادهم حسن
باشا خمسة بلاد أخر فلما استقرت القاعدة بينهم على ماذكر جاء الطلب الى حسن باشا
بسرعة الرجوع الى الدار السلطنة حيث انتشب القتال بين الدولة العلية والروس وقامت الحرب
على ساقها فجمع المشايخ وسائر الامراء وعابدى باشا فى مقره وقرأ عليهم مرسوم السلطان
بالطلب وطرف من أخبار الحرب مع الروس وتولى الروس على مابقى من بلاد القرم
وشنهم الغارة على كثير من أملاك السلطنة ثم ابرز مرسوما آخر يتضمن العفو عن ابراهيم
بيك ومراد بيك من القتل وبقاء ابراهيم بيك بقنا ومراد بيك باسنا وعدم التصريح لهما
بالعود الى مصر أبدا ثم أظهر عزمه على الركوب والسفر فى يوم الجمعة بعد صلاة الظهر
ثانى عشر ذى الحجة من السنة

فلما كان اليوم المذكور ركب جميع الامراء وسائر أرباب المناصب لوداعه فلما
تكامل حضورهم فى مقره أمر فقبضوا على جميع الامراء الرهائن وسلمهم الى اسمعيل بيك
وأمر فسلموا له أيضا عدة مدافع وكثيرامن آلات الحرب وقليونا صغيرا ورتب له جماعة من
العساكر السلطانية عددهم ألف وخمسمائة يقيمون بمصر ثم رحل الى الديار الرومية وأخذ
معه الامراء الرهائن ففرح الناس بارتحاله اذ لم يروا على يديه خيرا وقد ضاقت نفوسهم مما
ذاقوه من جوره وعسفه فانفرد اسمعيل بيك بامارة البلاد وعلت كلمته ونفذت اشارته وهابه
الامراء فوزع المناصب العالية بين قومه وأتباعه ومماليكه واستوزر محمد أغا البارودى
فأعانه على فعل مافى نفسه فتعقب زلات الناس وآخذ على صغائر الامور وكبائرها وشدد وهدد
فى طلب المغارم وفرضها على الناس على اختلاف أجناسهم فضجوا واستغاثوا واجتمعوا
وذهبوا الى الازهر وصلحوا من جور هذا النازل وحضر الشيخ العروسى فقاموا فى وجهه
وهموا بقفل أبواب الجامع فمنعهم من ذلك فصاحوا عليه وسبوه ومعبوه بينهم الى جهة
رواق الشوام فمنع عنه المجاورون وأدخلوه فى الرواق ودفعوا عنه الناس وأغلقوا عليه
الباب ومعه طائفة المتعممين وكتبوا كتابة بذلك الى اسمعيل بيك وأرسلوها اليه صحبة
الشيخ الفيومى فبعث جوابا بالعفو والامان وعدم المطالبة بتلك النوازل وانها انما هى قرض
من القادرين على دفعه فلما قرأ عليهم الجواب صاحوا هذه خدعة لانرضى بها أبدا فركب
الشيخ العروسى وحوله هذا الجمع العظيم والغوغاء والمجاورون ولا سيما العميان منهم وطائفة
من المجاورين تدفع الناس عن العروسى والعامة يصيحون عليه ويسبونه ويخاطبونه بفحش
القول الى أن وصل الى باب زويلة فنزل بجامع المؤيد وأرسل الى اسمعيل بيك يخبره بهذا
الحال فحنق اسمعيل بيك وظن انها مكيدة من الشيخ وانهم انما فعلوا ذلك باغراء منه
فأجابه الرسول وحلف له ان الشيخ برىء من ذلك ولا قصد له سوى الخلاص فأرسل لهم
بالامان ومعافاتهم من تلك المطالب فبلغهم الشيخ ذلك وأشار عليهم بالانصراف فأطاعوا
وانصرفوا ومضى على ذلك يومان ثم أمر اسمعيل بيك فانطلق المطالبون الى أهل الصاغة

والجواهرجية والنحاسين وطالبوهم بالمقرر عليهم فقاموا بوفائه صاغرين ثم طالبوا وكلاء الجلابة وتطرقوا الى مطالبة بقية الاهالى وأرباب الحرف كافة فكانت اثنتين وسبعين حرفة

ولم تكن لتستقر الراحة باسمعيل بيك بعد تلك الخطوب حتى جاءه الخبر بانتقاض ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الامراء وانهم زحفوا من أسيوط على منفلوط فهرب من كان بها من الجند والكشاف وجاؤا الى مصر وأخبروا بذلك فلما تحقق الخبر صعد اسمعيل بيك فى صبح اليوم الى قلعة الجبل وجمع الامراء وكبار الوجاقات والمشايخ وقص عليهم الخبر وقال هل يجوز قتالهم الآن فقال المشايخ يجوز قال حيث جاز قتالهم فقد وجبت النفقة من الخزينة السلطانية وحيث لاخزينة للسلطان فى هذه الديار فقد وجبت عليكم جميعا فضاقوا عند سماعهم هذا الكلام واعتذروا وأظهروا العجز وكساد الحال وضيق ذات اليد فلم يقبل منهم وشدد فى الطلب وهدد وبالغ فى الوعيد فطلبوا مهلة وعادوا الى الكلام فى هذا الموضوع فاتفقوا على أن يبلغوا دار السلطنة خبر انتقاضهم ورجوعهم الى العصيان وأن يكتبوا لهم أيضا انذارا وتحذيرا فان زحفوا على مصر قبل أن يأتى جواب الباب العالى قوتلوا والا تربصوا حتى يأتى الجواب واتفق فى هذه الاثناء حضور والى جدة اسمه محمد باشا بعسكر جرار ونزل بالسويس يريد ركوب السفن بعسكره الى جدة فكتبوا اليه أن يحضر بعسكره الى القاهرة وأمر اسمعيل بيك بغلق جميع أبواب المدينة الا باب النصر ووضع على الابواب طوائف الحراس وضربت المغارم على البلاد من أجل نفقة العسكر فجعلوا على كل بلد مائة دينار نقرة وعشرة عدا مايتبع ذلك من الكلف وقيدوا بتحصيلها قوما وجمعوا جميع مماليك واتباع الامراء الذين مع ابراهيم بيك وهم الذين تخلفوا بمصر والقاهرة فأخذوا ماوجدوه معهم من خيل وسلاح وأنزلوهم فى سفن الى الاسكندرية وحبسوهم فى برج هناك وشرع اسمعيل بيك فى اعداد معدات الحرب وجمع الذخيرة والمؤن واجتهد فى سبك القنابل واتقان المدافع وكان يباشر ذلك بنفسه فى كل يوم وبينما هو على هذا الحال اذ قدم رسول من قبل ابراهيم بيك ومعه مكتوب للامراء والمشايخ بمصر يكذب فيه ماعزى اليهم من نقض العهد والخروج ويقول ان الذى انتقض وعمل على خلاف العهد هو حسن باشا القبطان حيث أخذ معه الرهائن وأذاق الذرارى والنساء مضض الضيق فكتبوا له يلاطفونه ويهونون عليه حتى يتمكنوا من جمع العساكر والتأهب للقتال ولم يكتبوا له بما وقع الاتفاق عليه حتى جاءت منه مكاتبة أخرى بعزمه هو ومن معه على القتال ومبارزة الاعداء وجهها لوجه فجمع الباشا المشايخ والعلماء والامراء فى ديوانه وقرأ عليهم مكاتبة ابراهيم بيك فوقع فيهم الهرج وكثر القال والقيل فابرز لهم الباشا فتوى موقعا عليها من شيخ اسلام دار السلطنة أجاز فيها قتال ابراهيم بيك وجموعه ومحاربتهم ثم طلب منهم أن يفتوه هم كذلك بجواز الحرب والقتال ليدفع

اذاهم

أذاهم عن البلاد وأهلها فنزل المشايخ فى الحال من قلعة الجبل الى الجامع الازهر واجتمعوا جميعا وتظموا هذا السؤال

ماقولكم دام فضلكم فى جماعة أمراء وكشاف تغلبوا على البلاد المصرية وحصل منهم الفساد والافساد ومنعوا خراج السلطان وأكلوا حقوق الفقراء والحرمين ومنعوا زيارة النبى عليه الصلاة والسلام وقطعوا علوفات الفقراء وجماكى المستحقين والانبار وأرسل لهم السلطان يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوا ولم يمتثلوا وكرر عليهم أوامره فلم ينتهوا فعين عليهم عساكره وأخرجهم من البلاد ثم ان نائبه صالحهم وفرض لهم أماكن وعاهدهم على أن لايتعدوها حقنا للدماء وقطعا للنزاع وتسكينا للفتن وأخذ منهم رهائن على ذلك ورجع لمخدومه فعند ذلك تحركوا ثانيا وزحفوا على البلاد وسعوا فى ايقاع الفساد وقطعوا الطرق ونقضوا العهود فهل يجوز لنائب السلطان دفعهم وقتالهم بشرط عدم ازالة الضرر بالضرر أم كيف الحال ثم كتبوا الجواب يجوز قتالهم ودفعهم وانه يجب على كل مسلم المساعدة ورفعوا هذه الفتوى الى الباشا فكتب الباشا فرمانا بالقتال ونزل أغاة مستحفظان ونادى فى المدينة بقتال ابراهيم بيك ومن معه ونادى على أصحاب الوجاقات بملازمة أبوابهم وعلى العساكر والاجناد بالتأهب للرحيل الى الصعيد واتفق اسمعيل بيك على العسكر وكتب الباشا الى ابراهيم بيك يلزمه الرجوع الى مقره والخلود الى السكون وعدم نقض العهد ودفع الاموال المقررة على اقطاعاته واقطاعات بقية الامراء والا وجب قتالهم فلم يصل اليه هذا الكلام الا وقد زحف من طمطا الى منية ابن خصيب وقسم مراد بيك جميع البلاد التى مابين منية ابن خصيب ومصر على اتباعه ومماليكه والامراء الذين معه وصمم على الانحدار وإصلاء نار الحرب فلما علم الباشا بذلك فترت همته وضعفت عزيمته وقل اجتهاده فى جمع العساكر وترتيب الاجناد ثم بعثا الى الباشا ثانيا يقولان قد تركنا مصر وما فيها ولم نقصد الرجوع اليها واننا قد اتخذنا هذا الاقليم لنا مقرا فان قاتلتمونا عليه قاتلناكم الى النفس الاخير وان تركتمونا تركناكم ومصر ترتعون فيها وعقدنا معكم صلحا لاينفصل فان قبلتم ذلك فأرسلوا لنا بعض المشايخ والاختيارية نتفق معهم على مايحسن السكوت عليه فعقد الباشا الديوان وجمع جميع الامراء والمشايخ وأرباب الوجاقات وتشاوروا فى الامر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا لهما بقبول جميع طلباتهما بحيث انهما يبعثان من قبلهما أميرين كبيرين فيهما الكفاية لفض النزاع ثم يعودان ومعهما من يلزم من المشايخ والاختيارية فقبل ابراهيم بيك ومراد بيك بذلك بشرط أن يكون لهما من البلاد من أسيوط وما فوق وطلبا ارسال المشايخ فارسلوا لهما الشيخ محمد الامير واسمعيل أفندى الخلوتى ولم ينفصل الشيخ ومن معه عن مصر حتى جاء الارصاد فأخبروا بزحف ابراهيم بيك فى جموعه الى طمطا وانحداره منها الى بنى سويف وتأكد الخبر فخاف اسمعيل بيك الكبير وهاله الامر وأمر بخروج العسكر فاخرجوا الخيام والمدافع الى ناحية البساتين وعملوا المتاريس ناحية طرا

والمعصرة والجيزة وجمعوا البنائين والفعلة وحفروا الخنادق وبنوا أبراجا من الحجر وأسوارا لوضع المدافع والمتاريس على جانبي النيل شرقا وغربا وكبر خوف بعض الكشاف والعسكر من أصحاب اسمعيل بيك وهربوا الى حيث مراد بيك فأحاط اسمعيل بيك بدورهم ونهب مافيها وأخرج نساءهم حاسرات حفايا تشفيا وانتقاما وعاد الشيخ الأمير ومن معه وأخبروا بانحدار ابراهيم بيك في أربعين من أصحابه الى ناحية بني سويف ولبثه بها وانه عدل عن الاقامة بالصعيد ورغب الرجوع الى مصر فيعيش مع أصحابه ومن هم بها عيشة راضية هادئة وعفا الله عما سلف والا فالحرب والقتال فانزعج المشايخ عند سماع هذا الخبر واجتمعوا وصعدوا الى قلعة الجبل ودخلوا على الباشا فأدرك اسمعيل بيك ماوراء ذلك من الفشل والخيبة * قال بعض الكتاب * فزور مرسوما من السلطان بالحث على الخروج وقتال ابراهيم بيك وجموعه فلما استقر بالمشايخ المقام كلموا الباشا في أمر مجيء ابراهيم بيك فدخل عليهم اسمعيل بيك وأخبرهم بوصول المرسوم السلطاني فأمر به الباشا فقرئ فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وكادوا يفترقون على غير طائل ثم عادوا فاتفقوا على القتال فنودي في الحال على العسكر بالخروج وملازمة المتاريس ونودي في الاجناد كذلك بعد أخذهم النفقة فخرجت طوائفهم وملأت الحصون والمتاريس واشتد الامر على الناس فتعطلت الاسواق وارتفع الأمن وكثرت مخاوف الطرق خصوصا خارج أبواب مصر والقاهرة وتعطلت الاسفار وقل الوارد برا وبحرا واستقدم اسمعيل بيك عرب الهنادي فقدموا في جموع كثيرة وأخلاط عظيمة وانتشروا في الجهة الغربية من رشيد الى الجيزة فجعلوا ينهبون البلاد ويأكلون المزروعات ويوقفون السفن في النيل فيقتلون من بها ويأخذون أحمالها قيل انهم قتلوا في يوم واحد من بلدة النخيلة نيفا وثلثمائة انسان وكذلك كانت فعال عرب الشرق والجزيرة ببلاد الجانب الشرقي وجاء المدد من الشام بناء على طلب الباشا فحضر فريق من الارنؤد وكبيرهم اسمه اسمعيل باشا لخروج اسمعيل بيك لقائهم فدخلوا من باب النصر الى بولاق واستقروا بها فقدمت لكبيرهم التقادم والهدايا النفيسة من جميع الامراء ولبثوا على هذا الحال من الوقوف خلف المتاريس أياما حتى سئمت نفوسهم وانسحب الكثير منهم الى بيوتهم وكاد يتمزق جمعهم وقد وصل في هذه الاثناء طائفة من جموع ابراهيم بيك على مقربة من متاريس ناحية طرا وعزموا على ان يدهموا من بالمتاريس في الثالثة من الليل فسبق العين وأخبر اسمعيل بيك بذلك فانزعج وركب الامراء كافة وتوجهوا الى المتاريس وركب الوالي والاغاة وصاروا يفتشون الدروب والحارات ويخرجون الجند من بيوتهم الى الحصون والابراج و باتوا ليلتهم في هرج واضطراب وأصبحوا والمناداة متتابعة على الاهالي والعساكر والجند بالخروج فلما كان آخر النهار تحقق الخبر بأن ابراهيم بيك وقومه ترفعوا الى بياضة ثم الى الصعيد

وجاء في هذه الاثناء سفير من قبل قيصر الروس برسالة سرية الى ابراهيم بيك ومراد بيك

وترل

ونزل بالاسكندرية فأقام بها أياما وقد علم اسمعيل بيك بخبره فاستقدمه الى مصر بحيلة لطيفة وأولم له وليمة فاخرة فى قصر العينى ثم قبض عليه فى صباح تلك الليلة وصعد به الى قلعة الجبل وحبسه ومنع من الوصول اليه • قال بعض أصحاب التاريخ وكان سبب قدوم ذلك السفير انه لما كثر عبث الامراء المصريين بالبلاد وخرجوا عن طاعة السلطان رغب السلطان فى قطع شأفتهم ومحو أثرهم ولكنه كان فى شاغل عنهم بشن الروس الغارة على بلاده وحدود مملكته فكان كلما هم بارسال فريق من عسكره مددا لمن بمصر منهم قامت الروس وشنت الغارة على أملاكه فيحجم عن تسيير العسكر الى مصر ويوجهه بهم الى رد الروس وهكذا حتى أعياه الحال وكادت تضعف منه الآمال غير انه عزم عزما ثابتا على ان لايبقى لهم أثرا وأمر بجيشوا لذلك جيشا ضخما للغاية فلما علم قيصر الروس بذلك وكان من مصلحته ان تضطرم نارا لحرب بين الفريقين وتطول أيامها أرسل القيصر المشار اليه رسوله الى ابراهيم بيك ومراد بيك يخبرهما بقصد السلطان ويحثهما على جمع الكلمة والتكاتف وتحصين الحصون ومنع حسن باشا أمير السفن من النزول بعسكره الى مدينة الاسكندرية أو غيرها من بقية الثغور واجتمع قنصل الروس بابراهيم بيك قبل حضور أمير سفن السلطان وأخبره بخبره فلم يلتفت ابراهيم بيك يومئذ الى قوله فجاء أمير السفن المذكور فى عسكره وكان من أمره وما فعله مامر بيانه وكان لما اشتد الضيق بابراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما أرسلا الى القنصل يطلبانه فسار اليهما سرا فسألاه المدد فوعدهما ورجع الى الاسكندرية كما حضر وكاتب دولة الروس فى ذلك فأجابته الى ماسأل وأرسلت اليه عسكرا جرارا وبعض سفن حربية وقدم ذلك السفير ومعه كتاب القيصر الى الامراء وكان قد شاع خبر رجوعهم الى القاهرة فلما وصل السفير بالكتاب وجد الحال على عكس ما سمع فكاتب القيصر بصورة مارأى وانه وان كان الحكم فى البلاد الآن للدولة العثمانية الا أن بمصر من الامراء الذين هم على شاكلة ابراهيم بيك ومراد بيك عدة كثيرة وهم قاهرون للدولة غالبون على أمرها فاذا أمدهم القيصر بعسكره قاموا على الدولة وأخرجوها من البلاد واذهبوا سلطتها فكتب القيصر الى الامراء بمصر يقول مانصه • أيها الامراء قد بلغنا ان عبد الحميد الملك الغادر الخائن يريد بكم شرا ويسعى فى ايقاع الفتن بينكم رجاء ان يقتل بعضكم بعضا ثم لايبقى على من بقى منكم ويملك بلادكم ويفعل بها مافعل بغيرها من البلاد التى دمرها بظلمه وجوره فتيقظوا لانفسكم واطرحوا عنكم الخلاف واطردوا من يأتى اليكم من الترك وارفعوا على حصونكم وقلاعكم رايتنا واختاروا لكم رؤساء منكم وحصنوا ثغوركم وامنعوا من يصل اليكم من هذه الامة الا من أتى للرزق ولاتهابوه فنحن نكفيكم مؤنته وقلدوا من قبلكم ولاة وعمالا بالديار الشامية كما فعل ملوك مصر من قبلكم ويكون لنا الأمر ببلاد الساحل والواصل لكم كذا وكذا سفينة بها كذا وكذا من العسكر والمقاتلين وعندنا من المال والرجال ماتطلبون وزيادة على ماتظنون اه وجاء السفير بالخطاب ونزل بالاسكندرية وقبل بدمياط



وأنفذ الخبر سرا بوصوله وطلب الحضور الى القاهرة بنفسه فأعلم اسمعيل بيك الباشا بخبره سرا وأرسلوا اليه بالحضور فلما وصل الى شلقان خرج اليه اسمعيل بيك فى لطريقة كأنهم يشعر بقدمه وكأنه على العهد معه وأعد له منزلا ببولاق وأنزله به ليلا ثم اجتمع به ومعه على بيك وحسن بيك ورضوان بيك وكأنهم هم زعماء العصابة وقرؤا المكاتبة بينهم ولم يتموا قراءتها حتى جاءهم جماعة من اتباع الباشا فى طلب السفير وكان ذلك باشارة خفية بينهم وبين الباشا فركبوا معه الى القصر العينى وأرسل الباشا فى تلك الليلة الامر بحضور أهل الديوان فى صبحها فلما تكامل حضورهم أخرج الباشا تلك المكاتبة فقرئت عليهم قال الراوى لهذه الحكاية فشخصت عند ذلك الابصار ومدت الاعناق وتفرقت الاقوال وتباينت الاغراض ثم عادوا واتفقوا على أن يبعثوا بها الى دار السلطنة ففعلوا ووضعوا السفير المذكور بمكان فى قلعة الجبل وأسرعوا فى تسيير بعض سفن الحرب الى الصعيد للتشديد فى قتال ابراهيم بيك ومن معه * وكانت دولة الروس لاتنكف عن قتال الدولة العثمانية وتحريض جميع الايالات التابعة لها على الخروج وشق عصا الطاعة فانهابعد أن سيرت سفنها الى مصر وكتبت الى ابراهيم بيك ومراد بيك بما كتبته جعلت تدس الدسائس وتلقى الفتن فى بلاد القرم لتتمكن من احتلالها ووضع اليد عليها بحجة منع القلاقل والاضطرابات منها وما زالت على هذا الحال والدولة فى شاغل عنها حتى قام فريق من أهل القرم على أميرهم دولتكراى وخلعوه وأقاموا مكانه شاهين كراى فخالفهم فى ذلك الفريق الثانى وأبوا تعيينه فاشتد الخلاف بين الفريقين وقامت الفتنة وكانت كاترينة قيصرة الروس قد أقامت على حدود القرم زهاء سبعين ألف جندى وجعلتهم على قدم الاهبة والاستعداد فلما بدأت الوحشة تقع بين الحزبين أوعزت الى مقدم ذلك الجيش فدخل بلاد القرم بلا ممانع ولا معارض فتم لدولة الروس وقيصرتها ما كانت تتمناه وأصبحت وهى مالكة لجميع سواحل البحر الاسود من الجهة الشمالية فاستعظم السلطان هذا الامر وأكبره وهم بالحرب وعمد الى اعداد معدات القتال وأكثر من تجنيد الجند وتجهيز سفن الحرب فأشار عليه ملك الفرنسيس يومئذ بالتربص وعدم الاندفاع الى حرب لاتحمد عاقبتها وأعلمه بأن بين كاترينة وامبراطور النمسا معاهدة سرية على قتاله وتخريب مملكته ومحو أثرها من البسيطة فنظر السلطان فلم يرله قبلا على فتح أبواب هذه الحرب فجنح الى مشورة ملك الفرنسيس وغض الطرف عما فعلته الروس بالقرم بل واعترف لكاترينة بتملكها على تلك الايالات العظيمة فلم ترض كاترينه من السلطان بهذا الاذعان والسكوت وقد تحققت عجزه وتقاعده عن الحرب فمدت هى ويوسف الثانى امبراطور النمسا الى ايقاد نار الفتنة فى ايالتى الفلاخ والبغدان وبلاد اليونان وتوغير صدور مسيحى تلك الايالات على الدولة فأحس السلطان بما وراء ذلك وعلم انهما انما يريدان الحرب على كل حال فعاجلهما بها وسير الى سفير الروس فى دار السلطنة يطلب منه تقرير أمور لاترضاها كاترينه منها جعل الحق لمأمورى السلطان فى تفتيش جميع سفن الروس

التجارية التى تمر من بوغاز القسطنطينية فلم يقبل السفير شيأ من ذلك البتة فأمر السلطان عند ذلك فقبضوا عليه وسجنوه وساق العسكر فانتشبت الحرب بين الفريقين وخاف إمبراطور النمسا من ظفر العساكر السلطانية بالروس فسير الى مدينة بلغراد جيشا عظيما للاستيلاء عليها وادركت العساكر السلطانية فلم يفلح وعادت عساكره خاسرة وانتصرت عليهم العساكر السلطانية نصرة عظيمة وأدركت السلطان عبد الحميد منيته وهو على قدم القتال ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته زهاء ست عشرة سنة وأشهرا فتولى السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى

(الفصل الحادى والعشرون)

﴿فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى﴾

ثم قام بالامر بعد السلطان عبد الحميد ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى وبويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان عبد الحميد ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فتولى السلطنة وهى محفوفة بصنوف المكاره والعدو يتهددها بتمزيق شملها ويعمل على ابادتها من عالم الوجود فاشتدت لذلك عزيمة السلطان وجعل يعبى الجيوش و يعد المعدات ويكثر من المؤن والذخائر ويستحث العساكر على القتال ودفع العدو عن البلاد وكانت العساكر قد ملت وكرهت الحرب فساقها فالتقوا مع الروس وعساكر النمسا معا واقتتلوا قتالا عنيفا للغاية دام زهاء ستين يوما ثم انكشف عن هزيمة العساكر السلطانية واستيلاء الروس على أكثر مدن الفلاخ والبغدان وبساربيا واحتلوا مدينة بندر الشهيرة واحتل النمساويون بلغراد وقصدوا بلاد الصرب وغيرها ثم سارت بعد ذلك العساكر الروسية الى مدينة اسمعيل ونزلوا عليها وقاتلوها وكان بها الغازى حسن باشا بعسكر عظيم فقاتلوا عنها واشتد القتال بين الفريقين حتى فتحها الروس عنوة وأباحها قائدهم فاعمل فيها العسكر الذبح والنهب وأفحشوا فى ذلك جدا وجاء الخبر بما وقع فى المدينة المذكورة الى دار السلطنة فهاج الناس وماجوا وقاموا على ساق وقدم ونادوا بالويل والثبور على الغازى حسن باشا وطلبوا قتله أخذا بثار تلك النفوس البريئة فقتل واشتدت الحال على السلطان شدة بالغة وهاله اتحاد الروس مع النمساويين على قتاله وتحقق ان بقاء الحال على ذلك يدعو الى تمزيق مملكته وتمكن العدو منها فبالغ فى حشد الجيوش واعداد معدات الحرب واستنهاض همم كبار الجند وأمناء الحرب وبقى الحال على ذلك أياما حتى أتاح الله من الاسباب ما أوقف رحى القتال وشغل النمساويين بموت امبراطورهم فتوسطت عندذلك دولتا الانكليز وبروسيا بين المتحاربين فى أمر الصلح فتم على قاعدة تقررت

ذلك بعد أخذ ورد قد أضربنا عن ايراد تفصيلهما خوف الاطالة * وزاد اجتهاد اسمعيل بيك الكبير بعد القبض على سفير الروس وحبسه فى قلعة الجبل فى جمع العسكر ومعدات الحرب وأنشأ فى طرا قلعة على ضفة النيل وجعل بها مساكن عديدة ومخازن وحواصل وعمل الابراج والمتاريس والابنية ممتدة من قلعة الجبل الى سفحه وأخرج اليها المهمات والادوات وغير ذلك وأرسل الى دار السلطنة يطلب المدد * وارتحل اسمعيل باشا مقدم العساكر السلطانية بعسكره من بولاق الى الصعيد فتربص ابراهيم بيك وجوعه فى بلدة صول وعملوا بها سبعة متاريس فلما وصلت سفن عسكر السلطان الى المتراس الاول رشت قباله وأطلقت مدافعها تباعا فلم تصل الى من بالمتاريس فأطلقت عليها المتاريس ووالت الرمى بالقنابل فأحرقت بعضها حتى كادت تغرق بمن بقى فيها فخرج فريق من العساكر الذين بالسفن يريدون الهجوم على ذلك المتراس فدهمهم كمين من أصحاب ابراهيم بيك وأعمل فيهم القتل فقتل منهم خلق كثير وهرب من بقى الى السفن فأخذ أصحاب ابراهيم بيك رؤس القتلى ورفعوها على الرماح ليراها من بالسفن ومع ذلك فانهم أرسلوا الى الباشا فى طلب الصلح فلما جنح اليه الباشا ومن معه من الامراء عادوا فتمطلوا ولم يعطوا الرهائن فكبر هذا الامر على الباشا وشدد على مقدم الجيوش السلطانية بسرعة القتال وقطع شأفة هؤلاء الخوارج فمال القائد المذكور بعسكره الى ناحية صول وأخذ من فى السفن مما بقى من العسكر وحملوا على ابراهيم بيك وجوعه فى يوم الجمعة ثامن صفر من السنة أى سنة ثلاث ومائتين حملة رجل واحد فأجلوهم عن بعض المتاريس وقيل بل هم الذين أخلوا لهم فلما صارت العساكر السلطانية خلف ما أخذوه من تلك المتاريس خرج عليهم كمين من الخلف وأعمل السيف فى أقفيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة فتحصنت العساكر واشتبك القتال بين الفريقين يومى السبت والاحد وإطلاق المدافع متتابع ليلا ونهارا فكانت الحرب بينهم سجالا وكان كل من الفريقين يعمل الحيل وينصب الشباك ويكمن ليلا فيصدون الارصاد والعيون التى لا تغفل وكثر الموات فى الفريقين وانفصلوا على غير طائل وقدم المصابون الى القاهرة فارتجع لقدومهم الناس وخافوا عاقبة الهزيمة وتمكن ابراهيم بيك وأصحابه من مستقرهم وتربصوا مراقبة الاحوال * واحتاجت العساكر السلطانية الى النفقة فطلبوها من اسمعيل بيك فقررها على البلاد وضيق على أهلها فى جبايتها وعمل لها ديوانا فى بيت على بيك الدفتردار فضج الناس واستغاثوا بمشايخ الجامع الازهر ولا مجيص فلما علم ابراهيم بيك بالحاح العساكر السلطانية فى طلب النفقة واشتغال اسمعيل بيك بجمعها أرسل من قبله رسولا الى الباشا يكلمه فى أمر الصلح وقد أعيا عابدى باشا هذا الحال فعقد لذلك الديوان وجمع فيه جميع الامراء والمشايخ واستحضر بينهم رسول ابراهيم بيك وسأله عما يطلبه ابراهيم بيك وأصحابه فقال انهم يطلبون أن يكون لهم من أسيوط الى الصعيد الاعلى شرقا وغربا بشرط أن يقوموا بدفع الاموال الاميرية والغلال وأن يطلقوا سراح السفن والمسافرين بالغلال والاسباب وأنتم لا تمنعون عنهم الواردين بالاحتياجات الاما كان من آلات

الحرب

الحرب أومعدات القتال وبعد أن يتقرر الصلح على هــذه القاعدة يعرض منكم ومنهــم الى الدولة وتنتظرون مايكون فان جاء الجواب بالعفو والقبول أوتعيين مكان آخر لاقامتهــم فلا يجادلوا ولاينقضوا بشرط أن يطلعوا على ذات الامر الذى يرد بذلك فوافق الجميع على هــذه الطلبات وكتبوا بها جوابا وسـيروا به الرسول وآخرين معه * ووردت الاخبار فى هذه الاثناء بخلع عابدى باشا عن ولاية مصر وتولية اسمعيل بيك كتخدا حسن باشا أمير سفن البحر وفاض الخــبر بذلك فى مصر والقاهرة وسائر المدن فلما وصل المبعوثون الى ابراهيم بيك ومعهم المكاتبة على قاعدة ما وقع الاتفاق عليه إقرارا للصلح انتقض وقال لسنا على ثقة من نجاحنا مع عابدى باشـا والاعتماد على صلحه وقد بلغنا عزله عن ولاية البلاد فلانتقدم الى عقد الصلح معه الا اذا أتاه فرمان من السلطان بتأييد ولايتــه أوانّنا نتربص حتى يتولى الامر غيره ثم كتب جوابا بذلك وسلمه لمن جاءه من قبل عابدى باشا فغضب عابدى باشا وكاد يتميز من الغيظ وجمع اليه المشايخ والعلماء وقاضى القضاة والامراء وأطلعهم على الجواب فتحــيروا فى أمرهم وقالوا لابد من استمرار القتال حتى يرجعوا أويموتوا عن آخرهم * فقال الباشا قد عيــل صبرى وفرغ تدبيرى فلم يبق عندى الا أن أقبض عــلى جميع نسائهم وأسكنهم فى الوكائل وآخــذ جميع مافى بيوتهم وأبيعــه وأنفقه على العسكر وأكتب لهم بذلك وتوقعوا جميعكم على ما أكتبه فان خالفتمــونى فأنا تارك لكم البلاد وما فيهــا وأرحــل الى دار السلطنة فأعيش فيها هادئا مطمئنا ثم أخــذته رجفــة فقالوا جميعا لانخالف لك كلمة فافعــل ما أنت فاعل فكتبوا الى ابراهــيم بيك بذلك ووقع الباشا والعلماء والمشايخ والامراء كافة عــلى الكتابة ونادى الوالى والاغا بمصر والقاهرة بان من كان عنده وديعة لاحد من اتباع ابراهيم بيــك أوجميع من هم معه وأتباعهم ولم يردها لاصحابها عاجلا قتل من غير معاودة وكان ابراهيم بيك قد عمل جسرا من السفن ممتدا من الجانب الشرقى من النيل الى الجانب الغربى وعــبروا جميعا عليــه الى الجانب الغربى فلما وصل اليه الجواب بما ذكر خشى العاقبة وعلم ماسيلحق بالنســاء والذرارى فأرســل رسله الى الباشا بارتحاله مع من هم معه الى الصعيد الاعلى وعدم انحدارهم البتة الى مصر وانهم لايأنفون من عقد الصلح عــلى ما رسم به عابدى باشا والمشايخ فعاد الباشا وعقد لذلك ديوانه فأبلغت الرسل أرباب الديوان رسالتهم فرضوا بها وضمن الباشا غائلة ابراهيم بيك وأصحابه وضمن المشايخ غائلة اسمعيل بيــك الكبير وحرروا محضرا بذلك ووقعوا عليــه جميعا وأرسلوه صحبة مقدم الاختيارية وظهرت علامات الطاعة من ابراهيم بيك ومن معه اذ كسروا ذلك الجسر وسرحوا السفن بالانحدار فكثر توارد الغلال وغيرها وهبطت الاسعار وزال الغلاء واطمأن الفقراء * وقدم فى هذه الاثناء رسول من القسطنطينية يحمل ثلاثة كتب سلطانيــة فاصعده الباشا الى قلعــة الجبــل وأمر فعــقدوا الديوان وحضره المشايخ والعلماء والامراء والوجهاء وقرئت تلك الكتب فكان الاول منها بتقرير عابدى باشا واليا على مصر سنة ثــلاث ومائتــين والثانى بلزوم مقاتلة ابراهــيم بيــك ومراد بيــك حتى يرجعا الى الطاعــة أويموتا

والثالث بطلب تسيير سفير الروس الذى كان مسجونا بقلعة الجبل الى دار السلطنة فلما أتموا قراءة تلك الكتب اطلقت المدافع من قصر العينى وقلعة الجبل ومراكب العصر ببولاق وذاع الخبر بذلك شرقا وغربا وأصبح وقدطلع الباشا الى القلعة واستقر بها فجاء اليه المهنئون وأنزل سفير الروس وسيره الى الديار الرومية وبالغ فى التأهب والاستعداد لقتال ابراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا الى الطاعة أوانهما ومن معهما يموتون عن آخرهم فلم يتم له بعض الاستعداد حتى جاءه الامر بالعزل وولاية اسمعيل بيك ووصل رسول دار السلطنة فى العاشر من جمادى الآخرة عن طريق دمياط فنزل عابدى باشا من يومه الى قصر العينى ولبث به أياما ثم برز بخيامه الى بركة الحاج وسار منها الى ديار بكر وسار معه اسمعيل باشا مقدم العساكر السلطانية التى كانت فى قتال ابراهيم بيك

مطلب
عزل عابدى باشا وولاية اسمعيل باشا

ولما استقر باسمعيل باشا الوالى الجديد منصب الولاية أرسل الى ابراهيم بيك يطلب الغلال والمال بحكم قاعدة الاتفاق فلم يرد عليه جوابا ولم يرسل شيأ من ذلك فخاف اسمعيل بيك الكبير من انتقاض ابراهيم بيك ونزوله الى القاهرة بخيله ورجاله وهى خالية من العسكر والمرابطين فأرسل الى دار السلطنة فى طلب المدد فلم يكن بأسرع من ان أرسلوا اليه أخلاطا من الارنؤد وأهل الاناضول ممن لا كسب له وتراكم حضورهم فى هيآت مختلفة وأشكال متباينة فأنزلهم فى طرا ومصر القديمة والجيزة وبولاق وأجرى عليهم النفقات وجلب له النخاسون المماليك فاشترى منهم عدة كبيرة وخصهم بالغربية كل ذلك لحرص على مقاومة عدوه وتابع ارسال الهدايا النفيسة والاموال والتحف والخيول العربية وأنواع الاقمشة الفاخرة وغير ذلك الى دار السلطنة قصد استمالة جانب الدولة اليه وتقربا من رجال الحل والعقد بها وتحريضا اهم على بغض ابراهيم بيك ومن معه ومع ذلك فلم يكن ابراهيم لينكف عن بث العيون والارصاد حول اسمعيل بيك ومن معه ودس الدسائس واستمالة كل من يقدر على استمالته ومازال حتى تمكن بواسطة المعلم يوسف كساب الشامى معلم الجمارك يومئذ من الاتفاق مع أغاة جماعة الارنؤد المدعو صالح أغا على ان صالحا المذكور يسلم الى ابراهيم بيك جميع السفن السلطانية والقلاع التى بناحية طرا والجيزة نظير مبلغ من المال التزم به المعلم يوسف وكتب على نفسه تمسكا به فعلم اسمعيل بيك بخبر ذلك فقبض على المعلم يوسف وسأله فاعترف فأمر به فألقوه فى النيل فمات غرقا وأبعد صالح أغا عن ديار مصر وقيل بل قتله خفية فخابت بذلك مساعى ابراهيم بيك ورأى وجوب الترفع ومراقبة الفرص وان لاشئ أنجح من المطاولة كى تتفرق جموع اسمعيل بيك واخلاطه الذين جاء بهم من البلاد الرومية فلما طال لبث أولئك الأخلاط على هذا الحال بطروا وزاد عسفهم بأهالى بولاق ومصر القديمة والجيزة فضج الناس وملت نفوسهم وضجروا * وكان الاغا الوالى يخشى من انخلاد أهل الحسينية الى الفتنة والخروج عند أقل اشارة فكان يكثر التعدى عليهم بالضرب والحبس وأخذ الاموال ونهب البيوت لأقل سبب

اختصاصا

انخصاصا لهم وتذليلا واتفق انه قبض يوما على شيخ طائفة البيومية وكان له حرمة وافرة بين
أهل هذه الخطة فثار طوائفه على اتباع الوالى ومنعوه منهم وتجمعوا واجتمع عليهم خلق
كثير من تلك النواحى وساروا وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم جماعة يضربون بالطبول الى ان
وصلوا الى الجامع الازهر وقد أغلقوا الاسواق والدكاكين وصعد جماعة منهم على المنارات
يصيحون ويسبون اسمعيل بيك ومن معه وهيجوا من بالجامع من المدرسين فقام معهم
العميان وهموا بالخروج ليفسدوا فى الشوارع والاسواق فمنعهم المشايخ وركب الشيخ العروسى
واجتمع باسمعيل بيك وأخبره بخبر العامة وما يفعله الوالى بهم فاعتذر وقال لو كان الوالى
من اتباعى لخلعته الساعة ارضاء للعامة ولكنه تابع حسن بيك الجداوى وأرسل الى حسن
بيك يخبره بما وقع ويطلب خلع الوالى فلم يرض الجداوى وقال ان كان مراده الرفق بالرعية
فليخلع أولا الاغا تابعه ويخلع رضوان كتخدا المجنون من قلعة الجبل ويخرج مصطفى كاشف
من قلعة طرا ويصرف العساكر القليونجية والارنؤد الذين عاثوا فى الارض وملؤها فسادا
قال ذلك وخرج الى العادلية مغضبا وكان الوالى المذكور يركب فى كل يوم ويمر فى شوارع
المدينة بالقاهرة ومصر ليرى العامة أنه أكبر من أن يخشاهم فوقف له العامة بالطرق واجتمع
منهم خلق كثير ووقعت بينهم وبينه مقتلة قتل وجرح فيها كثير واشتد الهرج وكثر اجتماع
العامة جماعات يحملون القرابين والعصى والمساوق وامام كل جماعة منهم الطبول فركب
المشايخ كافة وساروا الى بيت البكرى فحضر اليهم اسمعيل بيك وطيب خاطرهم والتزم لهم بعزل
الوالى ومر الوالى فى ذلك الوقت على بيت البكرى فمنعه العامة وصاحوا فى وجهه وكادوا
يبطشون به فاستل سيفه وهجم عليهم وشق من وسطهم وذهب فى طريقه فزاد الحال بالعامة
وكثرت غوغاء الناس وعلت الضوضاء وسار جماعة منهم يأمرون الناس بغلق الحوانيت واجتمع
آخرون منهم بالازهر يضجون وينادون بالويل والثبور على الوالى وبقى الحال على ذلك ثلاثة
أيام فاجتمع اسمعيل بيك ببقية الامراء وشاورهم فى أمر العامة فاتفقوا على خلع الوالى والاغا
معا ونادوا فى الناس بذلك فهلل العامة وانصرفوا وانفضت الفتنة ۞ وعقب هذا الحادث بيومين
غامت السماء غيما عظيما مطبقا وصبت الامطار كأفواه القرب مع رعد شديد الصوت
وبرق هائل متتابع متصل يخطف الابصار واستمر ذلك ليلة الجمعة ويوم الجمعة والامطار لا تنقطع
حتى سقطت الدور القديمة فى عدة جهات ومات من كان بها من السكان وانحدر السيل من
الجبل شديدا حتى ملأ الصحراء وخارج باب النصر فهدمت المقابر وخسفت وانحدر السيل من
باب النصر فدخل المدينة وامتلأت الوكائل بالمياه وكذلك جامع الحاكم وسقطت عدة بيوت
من الحسينية وكان ذلك أمرا مريعا جدا فظن الناس انها تنقيل ونقمة من قبل الله سبحانه
وتعالى وانذار للامراء على مافعله الوالى بشيخ البيومية وما يفعلونه فى كل يوم بخلق الله وتكلموا
كثيرا فى هذا الامر حتى كاد الامراء يعتقدونه ولم تكد تجف الارض من مياه ذلك السيل
حتى ظهر الطاعون واشتد وكثر الموات فى الامراء والصناجق وأرباب الوجاقات والمماليك

فصار الظن عند الناس يقينا واشتد الطاعون شدة لم يسبق لها مثيل وكثر الموات كثرة بالغة فمات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والاجناد ومن امراء الالوف نحو الاثنى عشر أميرا ومات اسمعيل بيك الكبير شيخ البلد المشار اليه فكان لموته ضجة ورجة ووقع الموات أيضا فى طوائف العسكر الذين ببولاق ومصر القديمة والجيزة وعلى الخصوص منهم القليونجية والارنؤد فكانوا يحفرون الحفر بجانب أبى هريرة ويلقون الاموات فيها بلا غسل ولا كفن وكان يخرج من البيوتات الكبيرة فى جنازة واحدة الخمسة أو الستة نعوش معا لكثرة الموات وقيل العشرة أيضا وكثر تزاحم الناس على الحوانيت لاخذ المغسلين والمغسلات والنعوش لنقل الاموات واشتد الخوف بالناس شدة عظيمة وندر جدا من كان يصاب بالطاعون ولا يموت وندر ظهور الطعن فى الابدان ولم يكن يعم المصاب كما هى عادة الطاعون بل يكون الانسان جالسا فيرتعش ويبرد فيدثر فلا يفيق الا مختلطا ويموت من نهاره أو ثانى يوم وربما زاد أو نقص واستمر الحال هكذا شهرين الى أوائل رمضان سنة خمس ومائة وألف ثم ارتفع ولم يقع بعد ذلك الا قليلا نادرا وكان ختام انقضاضه موت الاغا والوالى فولوا غيرهما فماتا بعد ثلاثة أيام فولوا خلافهما فماتا أيضا فكان ذلك من غريب الاتفاق وأعجب ماسمع به

ولما مات اسمعيل بيك الكبير تنازع الرياسة حسن بيك الجداوى وعلى بيك الدفتر دار ووقع بينهما نزاع طويل الاهداب واشتد بينهما الخلاف ثم عادا فاتفقا بعد كلام طويل على تعيين عثمان بيك طبل تابع اسمعيل بيك المذكور فى مشيخة البلد واعطائه دار سيده ففعلوا ذلك قال بعض كتاب الاخبار وكأنهم تابوا عن ايذاء الرعية وكفوا عن احداث المغارم والكلف وقصرت أيديهم عن نهب البيوتات العامرة بعد الذى رأوه من فعل الطاعون بهم وفتكه فيهم فنادوا بابطال جميع ذلك وطاف المنادون أياما متوالية فاطمأنت قلوب الرعية قليلا وقالوا أفلح إن صدق * وورد الخبر عقب ذلك بقليل بخلع اسمعيل باشا الوالى عن مصر وتولية محمد عزت باشا الذى كان واليا على جدة فنزل اسمعيل باشا من قلعة الجبل الى قصر العينى وأنزل جميع أمتعته وتأهب للسفر الى موره حيث تقلد منصب ولا يتها فمنعه الامراء من ذلك حتى يحضر محمد باشا عزت ويرى فيما له وما عليه للخزينة فأبى اسمعيل باشا الا السفر فحجروا عليه بقصر العينى ووقف الحراس على أبوابه أياما حتى حضر محمد باشا عزت الى القاهرة فى شوال من السنة أى سنة خمس ومائتين ورست سفينته على بولاق فنزل لاستقباله الامراء كافة وركب معهم الى قصر العينى ثم ركب فى يوم الاثنين رابع الشهر وصعد الى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب نظر فى حساب اسمعيل باشا واستخلص ما كان فى ذمته ثم انزل متاعه بالسفن ولم تقلع من ساحل بولاق حتى ورد الخبر باعادة محاسبته على مال الخزينة واستخلاص ما أخذه منها فعوقوه واوقفوا سفنه حتى استصفوا ما عليه وسافر بعد ذلك بأيام قليلة* ولم يتمكن محمد عزت باشا من التصرف حتى جاءه

مطلب
عزل اسمعيل باشا وولاية محمد عزت باشا


الخبر

الخبر بتحرك ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك للقتال وعقدهما النية على الانحدار بمن معهما الى مصر ودخولها ان طوعا وان كرها وقد تحقق الامر اذ انحدر مراد بيك من الصعيد الى منية ابن خصيب وانتشرت جموعه فى المقدمة وعبر بعضهم النيل الى الشرق ووصلت طلائعهم الى العياط وتربص ابراهيم بيك بمنفلوط ينتظر ارتحال الحاج من القاهرة فينحدر اليها عاجلا بجموعه ومن معه من الامراء فأخذ محمد عزت باشا والامراء بمصر يتأهبون للقتال وأرسلوا على بيك الى طرا وآخر الى الجيزة وأخذوا فى الاهتمام وحفروا خندقا من النيل الى المتاريس وبالغوا التأهب وأكثروا من الحيطة فبينماهم على هذا الحال من الاهتمام والارصاد تنقل لهم أخبار مراد بيك وأصحابه اذ جاء عمر أفندى مكرم الاسيوطى بكتاب من ابراهيم بيك خطابا الى شيخ البلد والمشايخ والباشا فعقد الباشا ديوانه وقرئ الكتاب فكان حاصل ما فيه رغبتهم فى العودة الى مصر بعد هذه الغربة الطويلة والوعد منهم بملازمة الهدء والسكينة وعدم الخروج عن حد الطاعة وان قد جاءهم مرسوم من دار السلطنة على يد رسول مخصوص بالعفو عما سلف وان المشايخ يضمنون حسن سيرهم واستقامة أحوالهم فلما أتموا قراءة الكتاب سأل الباشا المشايخ ماذا تقولون فى هذا الطلب فقال الشيخ العروسى أصلح الله الامير ان كان الشقاق بينهم وبين أمرائنا المصريين الموجودين بين ظهرانينا فاننا نتربى عندهم وان كان ذلك بينهم وبين السلطان فالأمر لنائب مولانا السلطان فبعد جدال وقيل وقال اتفقوا جميعا على ان يكتبوا جوابا محصله ان طالب الصلح لابد أن يقدم الرسالة بذلك قبل أن يتحرك من مكانه وذكرتم انكم تائبون وقد تقدم منكم القول بالتوبة فلم نر لها أثرا على ان شرط التوبة رد المظالم وعدم اضرار خلق الله تعالى وأنتم لم تفعلوا ذلك ولم تدفعوا ماعليكم من مال الميرى فى هذه السنة فان كانت نواياكم ثابتة على الصلح وجب ان ترجعوا الى أماكنكم وترسلوا المال والغلال ونطلب لكم من مولانا السلطان العفو فان عفا عدتم الى دياركم والا فلا ووقع جميع من حضر على هذا الجواب وبعثوا به على يد السيد عمر ثم قرروا بعد ذلك نفى وتبعيد جميع اتباع ابراهيم بيك ومراد بيك الذين بالقاهرة ومصر فابعدوهم ووضعوا على أبواب المدينة الحراس والمرابطين ونادوا على العساكر والاجناد بالخروج الى طرا وملازمة المتاريس والخنادق وأشار الامراء على الباشا بالنزول من القلعة الى طرا وملازمة المتاريس فنزل وخرج اليها وخرج أيضا جميع الامراء وطاف الاغا والوالى وهما يناديان على الجند بأن لا يتخلفوا وقفل المرابطون بقلعة الجبل أبوابها وشددوا المراقبة وأتى الجواسيس فأخبروا ان مراد بيك وأصحابه على عزم الانحدار الى العادلية من خلف المقطم فأرسل الباشا بعض الامراء الى العادلية فعسكروا بها وأرسل أيضا الى عرب العائد فجاؤا الى العادلية ونزلوا بها فلما كان الليل تحول الباشا وجميع الامراء الى ناحية العادلية وأخذوا بعض المدافع وآلات الحرب والمؤنة وعملوا فيها المتاريس والخنادق فلم يكادوا يفرغون من عملهم حتى شاهدوا ابراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما منحدرين من الجبل الى العادلية فى أسوإ حال فهم الامراء المصريون

بالهجوم عليهم وأخذهم فى حالة التعب فمنعهم عثمان بيك أبو طبل من ذلك وثبط هممهم وقد كان على عهد مع ابراهيم بيك ومراد بيك بحضورهم فى هذا الحين ثم أمر فرجعت جميع آلات الحرب والذخيرة الى القاهرة ولبثوا واقفين على ظهور الخيل من غير ان يبدوا حراكا فتنع ابراهيم بيك وقومه وترفعوا عن مواقع المتاريس ونزلوا عند سبيل علام الراحة حتى بتكامل حضورهم ثم نصبوا خيامهم واستراحوا الى عصر اليوم كل ذلك وعثمان بيك والباشا ومن معهما لايبدون اشارة وركب ممن كانوا مع الباشا مصطفى كاشف كتخدا على بيك الذى هو مملوك محمد بيك الالفى وهو أحد الذين كانوا مع ابراهيم بيك الكبير وأخذ معه خمسة مماليك وانحاز الى أستاذه عسكر ابراهيم بيك وركب محمد بيك المبدول أيضا وانحاز باتباعه الى أستاذه ابراهيم بيك وكذلك فعل قاسم بيك فانحاز الى مراد بيك الكبير وكذلك مصطفى كاشف الغزاوى الذى هو أخو عثمان بيك طبل شيخ البلد واستوثق لاخيه فكتب اليه ابراهيم بيك بالحضور فلم يتمكن من الذهاب اليه الابعد العشاء الاخيرة حتى انفرد عن على بيك وحسن بيك الجداوى فلما فعل ذلك وفارقهما علما حقيقة الخبر وأحسا بانهما قد وقعا فى مخالب العطب فأغمى على على بيك ثم أفاق وركب مع حسن بيك الجداوى وأتباعهما وعدتهم ستة وبعض المماليك والخدم وذهبوا جميعا من خلف القلعة الى الاقاليم القبلية حيث كانت أخصامهما * فسبحان مقلب الاحوال وهادم بناء صروح تلك الا مال انه الواحد القهار * ولما التقى عثمان بيك بابراهيم بيك الكبير أجله كثيرا وأرسله مع ابنه مرزوق بيك الى مقر مراد بيك فسلم عليه وقد حضر أصحاب الوجاقات والاختيارية وأرباب المناصب للسلام وبدأ أتباعهم بالدخول الى القاهرة طول ليلة السبت حادى عشرى القعدة سنة خمس ومائتين وألف هجرية وأصبحوا فدخلت الاحمال والجمال والدواب فكانت شيأ كثيرا جدا ثم دخل ابراهيم بيك ومر بالمدينة ومعه امراؤه ومماليكه وأكثرهم لابسون الدروع ثم دخل بعده سليمان بيك الاغا وأخوه ابراهيم بيك الوالى ثم بقية الامراء ودخل مراد بيك من طريق الصحراء ونزل على الرميلة ومعه عثمان بيك الاسماعيلى الذى هو عثمان بيك أبو طبل شيخ البلد وجميع أمرائه ومماليكه واتباعه ودخلوا بيوتهم وكان فى أكثرها عائلات الامراء الذين هلكوا بالطاعون وبقى بها نساؤهم ومات أغلب نساء الذين كانوا بالاقاليم القبلية من الامراء فلما رجعوا وجدوها آهلة بالنساء والجوارى والخدم فتزوجوهن وجددوا فراشهم وعملوا أعراسهم ومن لم يكن له منهم بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما فيه من غير ممانع وكأن الله سبحانه قد أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأزواجهم وهى عبرة وتذكرة

وركب الاغا فى ثانى يوم ونادى على طوائف القليونجية والارنؤد والشوام بالرحيل عن مصر عاجلا وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بغير معاودة وتبعهم المماليك والجند فكانوا اذا رأوا أحدا منهم قبضوا عليه وأخذوا ما معه من السلاح وأشبعوه ضربا وكانت العامة تسخر بهم ثم صعد ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهم من الامراء الى

الباشا

الباشا بقلعة الجبل فقابلهم بالترحاب وخلع عليهم الخلع وكتب الى دار السلطنة يومئذ بكل
ماجرى ولم تكد تستقر بهم الراحة بعد تلك الخطوب المدلهمة حتى جاء الخبر بان حسن بيك
الجداوى وعلىّ بيك الذين فرا الى الصعيد قد ضبطا المراكب المنحدرة الى مصر باموال ومتاع
ابراهيم بيك وأخذا مافيها ومنعا من نزول الغلال وعبثا بالبلاد فاهتم ابراهيم بيك لذلك وجيش
جيشا وسلم قيادته الى ابراهيم بيك الوالى وقلد عثمان بيك المرادى ولاية الصعيد وسيرهما
للقبض على حسن بيك وعلى بيك المذكورين وبينماهم على هذا الحال قدم رسول من دار
السلطنة يحمل فرمانا بالعفو عن ابراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الامراء والجند
والاذن لهم بالرجوع الى مصر والبقاء فيها وكان ذلك بالتماس من محمد باشا عزت حيث كتب
الى الباب العالى يبالغ فيما ينجم عن بقائهم خارج مصر وفيما هم عليه من المنعة والقوة وفى
عجز الامراء الذين بمصر عن ردهم فعقدوا لذلك الديوان بقلعة الجبل فلما قرئ الفرمان أطلقت
المدافع وخلع عليهم الباشا خلع الرضا ونزلوا فزارهم العلماء والمشايخ والامراء وقدمت لهم
التقادم والهدايا واستقرت بابراهيم بيك ومراد بيك المناصب وبث ابراهيم بيك العيون
لتأتى له بخبر حسن بيك الجداوى وعلى بيك فجاؤا وأخبروا بانفصال حسن بيك عن علىّ بيك
وذهابه الى جدة عن طريق القصير فاطمأن قلبه وسكن روعه وأخذ فى تقسيم المناصب
بين أتباعه وأتباع مراد بيك فعزل وولى وأحكم الامور وفتح أبواب المغارم القديمة والفرض
والضرائب الفادحة وقلد أرباب الجباية وأصحاب المكوس وسيرهم الى القرى والارياف
فضلا عن المدن هذا والغلاء منشب أظفاره فى جوف البلاد لتقصير النيل فى عامه وعدم
وجود الغلال وقد تولد عن ذلك اختصاص الامراء بما وجد من الغلال فى بعض القرى
فنقلوه لانفسهم ووقع القحط فى البلاد فهام أهلها ودخلوا مصر والقاهرة طلبا للقوت فكانوا
يطوفون فى الازقة والحارات والشوارع طائفة خلف طائفة يضجون و يبكون من الجوع
وكانوا يلقون باطفالهم فى جوانب الجدران أمواتا من الجوع وكذلك كان يقع من أهالى
مصر والقاهرة ويموت منهم فى كل يوم خلق كثير وكان اذا وجد الاردب القمح يبيع بثمانية
عشر ريالا والشعير بخمسة عشر والفول بثلاثة عشر ريالا وكانت الاوقية الخبز بنصف فضة
واشتد القحط وكثر الصياح والعويل ليلا ونهارا فكانت لاتكاد تقع الارجل الا على خلائق
مطروحة بالازقة وكانوا اذا مات حمار أو فرس أخذوه وأكلوه نيئا ولو كان منتنا ثم زاد الحال
شدة فصاروا يخطفون الاطفال من أحضان امهاتهم ويأكلونهم فانكف الناس عن الخروج
باطفالهم وطال الحال على ذلك أياما حتى جاءت الغلال من الديار الرومية وتتابع ورودها
فكثرت وارتفع القحط فأكل الناس وشبعوا ووافق ورود هذه الغلال حصاد الذرة فعاد
الناس الى بلادهم وعمرت بعض القرى بعد خرابها فكانت شدة عظيمة للغاية وعلا النيل
ووفا فانحطت الاسعار وبورك فى ربى الغلال فكان الفدان الواحد ينتج غلة خمسة افدنة
و بلغ النيل زيادته المتوسطة وعم الماء غالب الارض فأحياها بعد الموات

ووصل فى هذا الحين الى ثغر الاسكندرية يوسف باشا صدر الدولة العثمانية يريد الاقطار الحجازية فاهتم ابراهيم بيك بشأنه جدا وأرسلوا اليه الملاقين وقدموا التعابى والتقادم الثمينة وهيؤا لمقامه قصر العينى وزينوه بأنواع البسط والفرش الفاخرة وأنزلوه به وغثلوا بين يديه فخلع على ابراهيم بيك ومراد بيك خلعة سنية وقدم لهما حصانين مسرجين مرختين وتخوف ابراهيم بيك من حضوره فى هذا الحين وترامت ظنونه الى المرمى البعيد فاعمل الحيلة ووضع لخفارته عبد الرحمن بيك الابراهيمى ومعه فريق من الجند فصعد الصدر المشار اليه بعد أيام الى قلعة الجبل باستدعاء من محمد باشا عزت ثم نزل الى مقره وأخذ ابراهيم بيك فى اعداد مايلزم لسفر الصدر المذكور من غلال وأرز وتعابى هندية وغير ذلك من الهدايا والنفائس خوفا من طول لبثه بمصر وافساد أمورهم وأعدوا له السفن بالسويس فركب فى أواسط جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان ومائتين والف هجرية فزالت مخاوف ابراهيم بيك ومراد بيك وعادا الى ما كانا عليه من إعمال الجهد فى تحصيل المغارم وتقرير المكوس والضرائب وغير ذلك وأكثروا من أعوان الجباية وبثوهم فى البلاد والقرى لايسايرون غنيا ولا يرحمون فقيرا * وجاء الخبر بتوجيه مسند الصدارة الى الوزير محمد باشا عزت والى مصر وتولية صالح باشا بدله فنزل محمد باشا من القلعة وسافر الى الاسكندرية فى صفر من السنة أى سنة تسع ومائتين وألف وأقام بالاسكندرية أياما حتى قدم صالح باشا فى العشرين من ربيع الاول ووصل تقليد الصدارة الى محمد باشا عزت وهو بالاسكندرية فنزل من فوره وسافر الى دار السلطنة وحضر صالح باشا الى القاهرة وصعد الى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وصعد الامراء والمشايخ للسلام عليه فقابلهم وأكرم لقاءهم وأراد التصرف فى الامور والنظر فى مصالح الخلق فلم يتمكن لتغلب ابراهيم بيك ومراد بيك واستقلالهما بالامر فالتزم التصبب والانكماش وبقى على هذا الحال عشرة أشهر حتى جاء الخبر بخلعه وتولية السيد أبى بكر باشا وذلك فى ذى الحجة من سنة عشر ومائتين وألف فنزل من قلعة الجبل الى قصر العينى وتأهب للرحيل وأقام به أياما قلائل ثم سار الى الاسكندرية فكانت مدة ولايته زهاء عشرة أشهر * وحضر السيد أبوبكر باشا من الاسكندرية الى القاهرة وركب فى الموكب المعتاد الى القلعة فى الخامس والعشرين من ربيع الاول سنة احدى عشرة ومائتين وألف هجرية فلم يكن له من حظ الولاية الا ما كان لغيره من الولاة فكان مغلوبا على أمره والكلمة لابراهيم بيك ومراد بيك والناس فى غم من الضرائب الفادحة والمغارم المتوالية والمكوس المتراكمة وضجيجهم مستمر وابتهالهم الى الله تعالى متواصل بزوال دولة الظالمين ومحو آثار القوم المفسدين وقد بلغت منهم الروح الحلقوم والعظم السكين فأرسل الله سبحانه على زمرة المماليك بونابارته قائد جيوش الفرنسيس فى عسكر عظيم فقهرهم وأباد سلطانهم حينا كما سيأتى بيان ذلك فى محله ان شاء الله

مطلب
عزل محمد عزت باشا وولاية صالح باشا

مطلب
عزل صالح باشا وولاية أبى بكر باشا

فصل

(فصـــــل)

فى

(نزول نابوليون بونابارتة بجيوشه على مصر وما جرى بعد ذلك من الحوادث والمحن)

لما عظمت دولة الفرنسيس وكبر سلطانها بما عاناته من الغزو وتدويخ الممالك على يدى قائد عسكرها العظيم بونابارته الكبير واتسعت كلمتها وعمت هيبتها مشرق الارض ومغربها بعد قتل لويس السادس عشر ملكها وقيام الحكومة الادارية فيها لم يبق من معاند لها ولا واقف فى وجهها كأفاله أصحاب الاخبار سوى دولة الانجليز فانها كانت لاتفتر أبدا بيذل كل مرتخص وغال فى سبيل اذهاب تلك السلطة ومحو تلك الهيبة وقطع شأفة ما استقر منها فى قلوب كبار الممالك والدول الذين علا هامتهم سيف بونابارته العظيم فأذلهم وأخضعهم وكان كلما عاهدت دولة الفرنسيس دولة بعد الغلبة عليها حقنا للدماء أو حفظا لحرمة الجوار حركها الانجليز ودفعوا بها الى نكث العهود ونقض الوعود وأمدوها بما تحتاجه لذلك من المال ومعدات القتال أوتاركت دولة أخرى أنهضها الانجليز الى القتال قبل انقضاء الاجل وحسنوا لها القبيح من هذا العمل فكان بونابارته من ذلك فى كمد دائم وحزن ملازم لاينكف عن تدبير الحيل وتعليل الامل بكسر شوكة هذا العدو الألد ومحق سلطانه من أدنى الاقطار الى أقصاها فكان مما دبره يومئذ نزع المملكة الهندية من يد الانجليز وبذل النفس والنفيس فى سبيل ذلك وكأنه رأى أن هذا الامر لايتم الا بنزوله بجيش عرمرم على مصر واستخلاصها من أيدى المماليك وجعلها رباطا لحركاته الحربية ومقرا لمناوشاته السياسية فجعل يفكر ويتدبر وهو قلق البال مضطرب الاحوال حتى اجتمع برجال الحكومة الافرنسية وهم المعروفون فى ذلك الوقت برجال الادارة وكاشفهم على مافى نفسه وبالغ فى الشكوى وأراهم أن لاسبيل الى الخلاص من مخالب هذا الاسد الرابض الا بارهابه وتذليله ومناهضته فى أرض الهند الواسعة فتفكر رجال الادارة فى ذلك حينا وأسلوه محلا عظيما فكانوا فيه بين إقدام وإحجام وخوف ورجاء فأنس منهم بونابارته ذلك فجعل يشجعهم ويستميلهم وكتب اليهم كتابا يقول ملخصل ترجمته

لستم تنكرون أيها السادة أن مصر أكثر المدن خصوبة وأكبرها عمرانا وانها انما كانت اهراء لاهل رومية وفى هذا الأوان لاهل القسطنطينية فان أرضها تنبت القمح والفول والارز وسائر أنواع البقول فضلا عن القطن وقصب السكر والكتان والنيلة والقنب والخيار شنبر والسنامكى والنطرون وفيها من الماشية أشكال ومن الطيور الداجنة ألوان فضلا عما فيها من الحمر والابل التى لا مثيل لها فى أقطار الارض ومصر كما لايخفاكم مركز متوسط بين قارتى آسية وأفريقية تؤمه القوافل من جزائر العرب والشام وسواحل الغرب

وبلاد الحبشة وربما جاءته من رأس الرجاء الصالح والنغال بأنواع المتاجر من الزبت والخشب والفحم والبن ومن الجوار والعبيد والصمغ والتبر والريش وسن الفيل والشالات والعطريات والاطياب وسائر صنوف المتاجر والمحصولات الهندية وقد كانت هذه المحصولات والارزاق العظيمة تأتى الى بلادنا قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح من طريق مصر فهى منذ القدم الطريق المأمون والسبيل الميمون مابين قارتى آسية وأوروبا وكانت تلك الارزاق والمحاصيل العظيمة تحط أحمالها قبلا عند مدينة برنيس على ساحل القلزم ثم تنقل منها حملا على ظهور الابل الى مدينة طيبة زهاء أربع وعشرين مرحلة ثم تسير منها فى النيل الى قارة أوروبا وكانت فى بعض الاحيان تنقل بحرا الى القصير ثم الى مدينة السويس ومنها على ظهور الابل الى منف فتأتينا كما هى وليعلم السادة رجال الادارة أننا لو فتحنا هذه الديار وأحسنا سياسة أهلها ودبرنا شؤنهم على ماتقتضيه مصلحتهم خمسين عاما فقط لعمرت البلاد وسعدت وزاد عدد أهلها أضعاف أضعاف ماهم عليه الآن وراجت محاصيل بلادنا فيها وفيما جاورها من الامصار وأغنتنا عن أمريكا وكفتنا مؤنة التعاقد معها وليعلم أيضا السادة رجال الادارة أنه اذا قدر القهر كوز قدمنا فى تلك الديار ووفقنا الى حسن ادارتها قصرت أيام الانجليز فى بلاد الهند وصار جلاؤهم عنها أمرا خفيفا فاننا نقيم الجند المرابطين على سواحل القلزم وننشئ المعاقل والحصون المنيعة وندخر فيها مانشاء من محاصيل تلك البلاد ونحول التجارة الهندية اليها على أهون مايكون واذا فرضنا بقاء الانجليز فى رأس الرجاء الصالح وقلنا باستحالة رحيلهم عنها فانه يكون من السهل علينا أن نباريهم ونفتح بين النيل والقلزم ترعة تذلل لنا المصاعب وتذهب عناءات المتاعب ونكون قد غلبنا الانجليز وقهرناهم وقبضنا على زمام تجارتهم بيد من حديد وعندى أن فتح هاته الترعة ليس بالامر الصعب فقد كانت جارية من قبل وآثارها باقية الى الآن * وفى فتح مصر وبسط يدنا عليها الطامة الكبرى على الانجليز والداهية الدهياء التى لابد وان تذهب بهم الى حضيض الذل والدمار اهـ

فلما وقف رجال الادارة على مافى خطابه هذا من البراهين الدامغة والحجج القوية حاروا فى أمرهم وخشوا شر العاقبة وقد كانوا يرون فى دولة الانجليز أمة قادرة غنية تضرب بحسام غناها ذات اليمين وذات الشمال كما كانوا يرون فى بونابارته هماما مقداما حسن السياسة والتدبير كبير المعرفة باحوال الممالك والامم فلما كان الخامس من شهر مارس سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية اتفق رجال الادارة مع بونابارته على تسيير حملة يقودها هو مع من يصطفيهم لنفسه من رجال الحرب ففرح بونابارته فرحا لايوصف وبقى السر مكتوما بينهم لايعلم به أحد البتة ثم جعل من هذا الحين يجيش الجيوش ويعد المعدات فاجتمع له أربعون ألفا من المقاتلين وأربعون قائدا من نخبة القواد أهل النجدة ومائة من المهندسين ومثلهم من أهل العلم بتخطيط الارض وأصحاب الكيميا والطبيعة ونحوها ومعهم مطبعة عربية وجماعة من الكتاب

والمترجمين

والمترجمين والاطباء والجراحين والكحالين ومثلهم من الصناع وأصحاب العمل والحفر والنقش وهيأ عمارة عظيمة لم ينقصها شئ ما من آلات الحرب والقتال وأميرها بروبس أحد كبار أمراء البحار وهى مؤلفة من مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة ومنها سفينة عظيمة للغاية اسمها الشرق تحمل مائة مدفع وعشرين مدفعا وممن صحب بونابارته فى هذه الحملة من كبار القواد كلابير ودزيه المشهوران وريتير وبون وبتو للمشاة والقائد مورات للفرسان ودومارتين لاصحاب المدافع وكفارلى للهندسين وتوجهت سفن الحرب بما عليها من المقاتلين البحرية وهم زهاء عشرة آلاف من أربع جهات متباعد بعضها عن بعض حتى لا يعلم بخبرها أحد من عيون الانجليز وخرجت معها السفن والشوانى التى كانت تحمل جيوش الحملة فكانت جملتها زهاء سبعمائة سفينة وسار معها بونابارته وحاشيته فى التاسع من مايو من السنة تمخر بهم السفن فى عرض البحر فأنفذ رجال الادارة الى دار السلطنة العثمانية (آلاتاليران) أحد كبار السياسة سفيرا من قبلهم ليكلم السلطان فى أمر حملة بونابارته هذه والاقرار عليها فسافر الى القسطنطينية ولم يعلم بخبره أحد البتة

ولما فاض الخبر بقيام تلك الجيوش العظيمة والمعدات الهائلة كثر تحدث الناس بها وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فمن قائل انها لقتال الانجليز وإبادة سلطانها ومن قائل بل انها لفتح المدن والامصار فى آسية وأفريقية ومن قائل غير ذلك وطارت الاخبار بذلك الى الآفاق فخاف الانجليز شر العاقبة وجعلوا يتدبرون فى الامر ويبالغون فى البحث والتجسس فلم يقفوا لهذه الحملة على جلية خبر فكبر عليهم هذا الامر وأعظموه وأنفذوا الامير نلسون أحد كبار البحر عندهم فى أسطول عظيم وعهدوا اليه أن يتتبع سفن بونابارته أينما حلت وأن لا يمكنها من عمل شئ البتة فسار نلسون بسفنه يمخر فى عرض البحار وقد ظن ان بونابارته انما خرج بجيوشه يريد مصر أو الشام فسار قاصدا مدينة الاسكندرية فأدركها يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية وسفنه أمامها وكان العامل عليها السيد محمد كريم أحد عظماء البلد ثم أنزل نلسون نفرا من عسكره فى زورق فطلعوا الى البر وطلبوا لقاء السيد محمد كريم فادخلوهم عليه ومعه بعض أعيان المدينة فسألهم عن حالهم وسبب حضورهم بتلك السفن الكثيرة فى ذلك الوقت فقالوا أتينا نبحث عن طوائف من الفرنسيس خرجوا فى عمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى اين يقصدون فربما دهموكم فلا تقدرون على ردهم ولا تتمكنون من منعهم ولذلك رأينا ان نرسو ههنا بمراكبنا لنحافظ على المدينة ومن فيها ولا نسألكم شيأ من المدد سوى الماء والزاد بثمنه فظن السيد محمد كريم انها خدعة وحيلة فقال هذه بلاد السلطان فليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فعادت رسل الانكليز بغير طائل وأقلعوا ليمتاروا فسير السيد محمد كريم الى كاشف البحيرة من يخبره بخبر تلك السفن ويأذنه بجمع العربان والاتيان بهم الى الاسكندرية للمحافظة عليها فلما شاعت هذه الاخبار بالقاهرة

ومصر خاف الناس وتحدثوا فى الامر كثيرا وأصحاب الحل والعقد فى شاغل عنه كأنهم فى مأمن من العاقبة أو أنهم على ثقة من الظفر والغلبة فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر المحرم وصلت العمارة الفرنسوية مياه الاسكندرية امام المدينة وأرسلت جماعة منهم يطلبون قنصل الفرنسيس وبعض أهل المدينة فذهبوا اليها فمنعوهم من العودة ولما جن الليل تحول من تلك العمارة بعض السفن الى ناحية العجمى وأبى قير وأنزلوا من بها من العسكر الى البر وكان برويس أمير السفن يعارض بونابارته فى ذلك ويمنع من نزول العساكر فى تلك الليلة خوفا من حادث يحدث فلم يلتفت بونابارته الى كلامه وقال لابد من نزول جميع العسكر فنزلوا ليلا وساروا نحو الاسكندرية فلم يصبح أهل المدينة الا والعساكر منتشرون حول المدينة انتشار الجراد فخرج الناس ومن انضم اليهم من الانكشارية والعربان وكاشف البحيرة ليقاتلوهم فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من طوائف العربان ورجع الاهالى الى التترس فى البيوت وخلف الحيطان ودخل الفرنسيس المدينة وانبث فيها الكثير من ذلك العدد فأيقن أهل الاسكندرية انهم مأخوذون على كل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الابراج من معدات الحرب فضلا عن المقاتلين مع كثرة العدو وغلبته فطلبوا الامان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ونودى فى المدينة بالامان ورفعت الاعلام الافرنسية على مابالمدينة من القلاع والحصون والابراج وأرسل بونابارته فى طلب أعيان الثغر والسيد محمد كريم فحضروا وهم فزعون وجلون ومثلوا بين يديه فلاطفهم وكلم السيد محمد كريم لحظة لطيفة ثم ألزمهم بجمع مابيد الاهالى من الاسلحة ومعدات القتال واحضاره اليه وأن يضعوا على صدورهم علامة هى على شكل زهرة مستديرة ذات ثلاثة ألوان احمر واسود وابيض وهى ألوان الراية الافرنسية وتسمى هذه العلامة عندهم جوكار ففعلوا وجعلت طوائف العسكر تطوف فى شوارع المدينة وبأيديهم البنادق والحراب وأخذ جماعة منهم يصلحون ماتهدم من الحصون ويرمون ماتخرب من الابراج وزحفت بقية الجيوش الى رشيد ودمنهور فهاجر أهلهما ونزحوا عنهما الى فوه ونواحيها فرسم بونابارته بتحرير منشور للاهالى كافة يؤمنهم فيه على اعراضهم وأموالهم ويطمن قلوبهم ويسكن روعهم فكان نص مافى ذلك المنشور

بسم الله الرحمن الرحيم لااله الا الله لاولد له ولا شريك له فى ملكه من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السرعسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم انه من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسوية ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأسفنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الاباظة والشراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لايوجد فى كرة الارض كلها فاما رب العالمين القادر على كل شئ فانه قد حكم بانقضاء دولتهم * ياأيها

المصريون

المصريون قد قيل لكم انى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالتكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انى ماقدمت اليكم الا لتخليص حقكم من يد الظالمين وانى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم * وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ حسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤف وعادل وحليم وبعونه تعالى من الآن فصاعدا لاييأس أحد من اهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ومن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم يدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها * وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك * أيها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنسوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنسوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك فان المماليك امتنعوا من الطاعة للسلطان غير ممتثلين لامره فما أطاعوا أصلا الا لطمع انفسهم طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم وطوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم اثر

(المادة الاولى) جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواقع التى يمر بها عسكر الفرنسوية فواجب عليها ان ترسل للسر عسكر من عندها وكيلا كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو أبيض وكحلى واحمر

(المادة الثانية) كل قرية تقوم على العسكر الفرنسوية تحرق بالنار

(المادة الثالثة) كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى تنصب صنجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه

(المادة الرابعة) المشايخ فى كل بلدة يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شئ منها

(المادة الخامسة) الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم

وعلى كل واحـد من أهالى البلدان ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية

تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٢ من اقامة الجمهورية الفرنساوية يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية انتهى بنصه

وسارت جيوش بونابارته سيرا حثيثا جدا فدخل فريق منهم الى فوه وآخر الى الرحمانية وعسكروا فيهما وفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر فانزعج الناس انزعاجا شديدا وعوّل أكثرهم على الفرار وجمع ابراهيم بيك ومراد بيك جميع الامراء بقصر العينى وكذلك العلماء والمشايخ وقاضى القضاة ونزل الباشا من قلعة الجبل وتكلموا فى هذا الامر وطال الاخذ والرد ثم اتفقوا على ان يكتبوا بخبر هذا الحادث الى دار السلطنة العثمانية وان يتجهز مراد بيك بالعسكر ويخرج للقتال وصد هذا العدو فكتبوا الى دار السلطنة وسيروا الكتاب مع مخصوص على البر وأخذوا فى الاستعداد وجمع آلات الحرب ومعدات القتال وجعلوا يصادرون الناس ويأخذون مايحتاجون اليه بغير ثمن ثم ارتحل مراد بيك عن القاهرة وبرز بخيامه الى الجسر الاسود فأقام به يومين حتى تكامل خروج العسكر وخرج معه على باشا الطرابلسى وآخر اسمه ناصف باشا وقد كانا مقيمين معه بالجيزة ومخصيصين به وأخذ عـدة كبيرة من المدافع وشيأ كثيرا من الذخيرة وسار برا فى الفرسان وسافرت العساكر المشاة بحرا بسفن الحرب الصغيرة وقد كانوا أخلاطا من القليونجية والاروام والمغاربة وحمل معه سلسلة عظيمة لوضعها على البوغاز عند برج مغيزل لتمنع سفن الفرنسيس من الدخول الى النيـل وظن ان الفرنسيس يطاولونه الحرب وهو يطاولهم كـذلك حتى تأتيه النجدة من جانب الدولة فكان الامر عـلى خلاف ماظنـه فانه لما دخل بونابارته مدينة الاسكندرية ورتب أموره فيها على مارأى فيه المصلحة سار بجيوشـه على الجانب الغربى من النيل سيرا حثيثا من غـير ممانع يطلب القاهرة وبث أمامه العيون والارصاد لتأتى اليه بخبر مراد بيك ومن معـه وكانوا اذا نزلوا على قرية أو بلد أو مدينـة رأوا من أهلها الطاعة والاخلاد الى السكينة وقـد بدأت الوحشـة بين سكان مصر والقاهرة وكثر الهرج والارجاف وانقطعت الطرق وأخـذت اللصوص فى كل لـيلة تطرق المـدينـة وانكف الناس عـن الخروج الى الاسواق بعـد الغروب فنادى الاغا والوالى بفتح الحوانيت ليلا وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين لاذهاب الوحشـة من القلوب والاستئناس وكشـف خبر الدخيـل على البلد اذا دخـل ولم يكن الا أيام قلائل من خروج عساكر بونابارته من مدينة الاسكندرية حتى التقوا بجيـوش مراد بيـك فى يوم الجمعة تاسع عشرى المحرم عند منية سلامة فاقتتل الفريقان فـلم تكن الا ساعـة حتى انهزم مراد بيـك بمن معـه وكان القتال هينا جـدا

ثم

ثم أطلق الفرنسيس مدافعهم على سفن مراد بيك فأحرقتها بما فيها من البارود وآلات الحرب والمؤن والذخيرة والعساكر فأزعج هذا المنظر المريع مراد بيك وهاله جدا فولى الفرار وتبعه عسكره ونزل المشاة منهم فيما بقى من السفن وأقلعوا بها الى بولاق ووصل بعضهم الى القاهرة وهم فى أسوإ حال فانزعج الناس واشتد الخوف وركب ابراهيم بيك الى ساحل بولاق وتبعه الباشا والعلماء والمشايخ والاعيان فتشاوروا فى عمل متاريس من شبرا الى بولاق وان يتولى الاقامة فيها ابراهيم بيك وأتباعه ومماليكه فأجابهم ابراهيم بيك الى ذلك واهتم له جدا وأحضر السفن الكبيرة والغلايين التى أنشأها حديثا وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع فكان جانبا النيل شرقا وغربا مشحونين بالعساكر والاجناد والمدافع وآلات الحرب والمتاريس * قال بعض كتاب الاخبار وكان العلماء من يوم خروج مراد بيك بجيوشه يجتمعون بالجامع الأزهر كل يوم يقرؤن البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الاحمدية والرفاعية والابراهيمية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الاشاير ويعملون الاذكار بالازهر وكذلك أطفال المكاتب كانوا يضجون فى كل يوم بياللطيف وكان الامراء فى وجل ماعليه من مزيد فكانوا ينقلون فى هذه المهلة أمتعتهم من بيوتهم وقصورهم الرحبة الى بيوت حقيرة غير معلومة وأرسلوا بعضها الى الارياف وتأهبوا للرحيل وكاد يتبعهم فى ذلك أكثر الاغنياء وأصحاب المقامات العالية ووقع النداء بالنفير العام لخروج الناس الى المتاريس وكرروا النداء فى كل يوم فأغلق الناس الحوانيت والاسواق وخرج الجميع الى بولاق القاهرة فكانت رجال كل طائفة من أرباب الصنائع يجتمعون وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم قيما يصرف عليهم ما يحتاجون له مما جمعوه من بعضهم من المال وكان البعض يتطوع بالانفاق على الآخرين ومنهم من جهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والذخيرة وغير ذلك واجتهد الناس اجتهادا عظيما وخرج الفقراء بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف الى قلعة الجبل فأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من قلعة الجبل الى بولاق القاهرة وأمامه وحوله الألوف المؤلفة من العامة وبأيديهم النبابيت والعصى والمساوق وهم يضربون بالطبول ويهللون ويكبرون وكانت شوارع القاهرة فى غاية الوحشة اذ كنت لاترى فيها أحدا سوى من فى بيوتها من النساء والاطفال وضعفاء الرجال وكانت الدكاكين كلها مقفلة نهارا وليلا وجلس العلماء والمشايخ بزاوية على بيك ببولاق القاهرة يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر وأرسل ابراهيم بيك الى العربان المجاورين لمصر ورسم لهم بان يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها واجتمع له أيضا كثير من عرب البحيرة والصعيد والجيزة والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم فكان الجمع يزداد فى كل يوم ويعظم الهول ويشتد الضيق بالفقراء لتعطل الاسباب واجتماع الناس فى صعيد واحد وانقطعت الطرق

وتعدى الناس بعضهم على بعض وجمع ابراهيم بيك جميع الفرنجة الذين بمصر والقاهرة فحبس بعضهم بقلعة الجبل وبعضهم ببيوت الامراء وفتشوا بيوتهم لعلهم يجدون فيها شيأ من السلاح أو آلات الحرب وكذلك فتشوا جميع بيوت الشوام والقبط والروم وجميع الكنائس والديارات والعامة لاترضى الا أن يقتلوا النصارى واليهود فمنعهم الحكام عنهم قال صاحب عجائب الآثار ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة اهـ

ولما كان يوم الجمعة سادس صفر وصل بونابارته بجيوشه الى الجسر الاسود فباتوا ليلتهم وأصبحوا فساروا الى أم دينار فوصلوها فى يومهم وقد كان الظن بهم ان يأتوا من جانبى النيل شرقا وغربا فلم يأتوا الا من الجانب الغربى ونظر بونابارته الى صفوف العدو على بين موقفه وهرم الجيزة الكبير على يساره فخاطب جنوده وقال أيها الابطال البواسل ان أرواح أناس قد مضى عليها خمسون قرنا تنظر اليكم من قة هذا الهرم العظيم وترقب حركاتكم فى قتال هؤلاء المماليك فافطنوا ثم رسم الى الجنرال دزه ان يسير بعسكره نحو اليمين وبقية العساكر نحو اليسار وكان الوقت وقت القائلة وقد خرج جماعة من عسكر ابراهيم بيك وقدموا نحو بشتيل فتلاقوا مع مقدم عسكر الجنرال دزه فكروا عليهم بالخيول فرماهم الفرنسيس بالبنادق رميا متتابعا وأبلى الفريقان بلاء حسنا فقتل جماعة كثيرة من كشاف محمد بيك الالفى ومماليكه وتعقبتهم عساكر الجنرال دزه فلما اقتربوا من متاريس مراد بيك تراى الفريقان بالمدافع وكان قد حضر من دمياط فريق من عسكر البحر الارنؤد فقاموا بالقتال من خلف المتاريس وساروا مع العساكر البرية فلما احتدم القتال وارتفعت أصوات المدافع ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح فى الجانب الشرقى من النيل ورفعوا أصواتهم ياربِ ويالطيف ويارجال الله وغير ذلك وشرع فريق من العسكر الذين بالجانب الشرقى فى العبور غربا فلم يتم عبورهم حتى تمت الهزيمة على المصريين وكانت الريح شديدة وأمواج النيل تتلاطم وفى قوة اضطرابها والرمال يرتفع غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد ان يفتح عينيه لشدتها وانقسم الفريق المقاتل من الفرنسيس الى شطرين بشكل مخصوص واقترب من متاريس مراد بيك فصارت المتاريس فى القلب والفرنسيس من الامام ومن الخلف ودقوا طبولهم ورموا بالبنادق والمدافع تباعا وقد اشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الاسماع من أصوات المدافع وبقى الحال هكذا نحو ثلاثة أرباع الساعة وانكشف عن هزيمة المصريين وغرق العدد العديد من فرسانهم فى النيل لاحاطة العدو بهم وظلام الوقت وأسر منهم خلق وملك الفرنسيس المتاريس جميعها وفر مراد بيك ومن معه هاربين الى الجيزة ثم جاء منزله فى حالة رديئة وقضى أشغاله وسار من فوره الى الصعيد الاعلى

ولما تمت هزيمة من كانوا يقاتلون بالجانب الغربى من النيل حول الفرنسيس أفواه مدافعهم الى الجانب الشرقى وتابعوا الرمى بها مع الرمى بالبنادق أيضا فتحقق من كان

بالجانب

بالجانب الشرقى من الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وكثر صياح العامة وتساقط بعضهم فوق بعض وداستهم سنابك خيل الفارين من الامراء والمماليك وفر ابراهيم بيك والباشا والامراء وجميع العسكر والاهالى كافة وتركوا جميع الاثقال والخيام ولم يأخذوا منها شيأ وذهب ابراهيم بيك والباشا الى العادلية ودخل الناس قبيل الغروب المدينة وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون الى الله من شر هذا اليوم العصيب فصارت النساء عند ذلك يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ويولولن فلما جن الظلام خرج الكثير من الناس خارج أبواب المدينة بنسائهم وأولادهم وخرج بعضهم هائما على وجهه لايرى للسلامة سبيلا غير مبال بترك الزوجة والولد واستمر الحال على هذا المنوال طول تلك الليلة وأصبحوا وقد أحاط بهم العربان من كل جانب فسلبوا ما كان معهم من متاع ولباس وأحمال فلم يتركوا لمن وقع فى أيديهم ما يستر به عورته أو يسد جوعه وعاد من الهاربين من لم يبعد عن أبواب المدينة فدخلوا عرايا نساء ورجالا حتى الاطفال والصبيان والبنات فكانت ليلة وصباحها من أشنع مارأته أعين المصريين جرى فيها من القتل والنهب وفضيحة النساء على اختلاف درجاتهن مالم يسمع بما يشابه بعضه فى تواريخ المتقدمين وأصبحوا وقد اجتمع العلماء والمشايخ بالجامع الازهر واتفقوا على ان يبعثوا بكتاب الى بونابارته بعسكره فى انبابه يسألونه فيه عن مراده وعما يسأله من الطلبات فكتبوا الكتاب وأرسلوه مع أحد المشايخ المغاربة فلما وصل الرسول وتمثل بين يدى بونابارته بش فى وجهه ولاطفه وقرأ الخطاب ثم التفت الى الرسول وقال وأين عظماء البلد ومشايخها ولم تأخروا عن الحضور لنرتب واياهم مايكون فيه الراحة لهم ولاهل بلادهم فقال نريد أمانكم فقال قد أمناكم وبعثنالكم به قبل الآن قال الرسول ولكن لتطمئن الناس أيضا فأمر بونابارته فكتب جوابا من معسكر الجيزة خطابا لاهل مصر اننا أرسلنا لكم قبل الآن كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم اننا ماحضرنا الا بقصد اذهاب دولة المماليك الذين أهانوا الفرنسيس وساموهم الخسف وقد تطاولت أيديهم الى سلب التجار ومال السلطان فلما حضرنا الى الجانب الغربى من النيل خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنابعضهم وأسرنا البعض ونحن فى طلبهم حتى لايبقى أحد منهم بالديار المصرية وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات وكامل الرعية فيكونون مطمئنين ساكنى الخواطر لاخوف عليهم اه ثم التفت الى الرسول وقال لترجمانه قل له انه لابد من حضور المشايخ والاعيان الينا لترتب ديوانا ننتخبه من سبعة من عقلاء الناس يدبرون الامور وينظرون فى مصالح الخلق ● فعاد الرسول وأخبر بجميع ماجرى فاطمأن الناس وسكنت خواطرهم وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ولم يبق من كبار المشايخ يومئذ غيرهم لفرارهم مع بعض الامراء وعبروا الى الجيزة فتلقاهم بونابارته وبش فى وجوههم وسألهم أأنتم كبار المشايخ فقالوا لا وانما كبار المشايخ قد هربوا فقال لأى سبب يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا ينظر فى مصالح الرعية ويقضى أمورها ويقوم بما تقتضيه الشريعة ثم أمر فكتبوا

عدة مكاتيب للمشايخ بالامان وسرعة العودة ثم قام الشيخ الصاوى ومن معه وعبروا الى مصر بعد العشاء الأخيرة فاطمأن الناس برجوعهم وأصبحوا فأرسلوا خطاب بونابارته للمشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى وبقية المشايخ ومن تبعهم من الاهالى الفارين من ناحية المطرية فتقوت قلوب الرعية برجوعهم ودخل معهم أيضا جماعة كبيرة من الحرافيش والاوباش الذين كانوا يقتفون الهاربين من الامراء والاهالى وقصدوا بيتى ابراهيم بيك الكبير ومراد بيك اللذين بخطة قوصون ونهبوا ما بهما وأحرقوهما بغير ممانع ونهبوا عدة بيوت أخرى من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من متاع وغيره وكانوا يبيعون ذلك فى الاسواق جهارا

ولما كان يوم الثلاثاء عاشر صفر عبر بونابارته النيل الى مصر فى فريق من عساكره ونزل فى بيت محمد بيك الالفى بخط الساكت الذى أنشأه وزخرفه وفرشه بأنواع البسط والفرش الثمينة ولم يسكن به الا أياما قلائل ثم رحل عنه عند وصول الاخبار بدخول الفرنسيس مدينة الاسكندرية فاحتله بونابارته وكأنه قد بنى وفرش له ولم يدرج فى المدينة من عسكر الفرنسيس الا نفر ومشوا بالاسواق من غير سلاح ومع غاية الحشمة والوقار فكانوا يبشون فى وجوه الناس ويضاحكونهم ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريالا ويأخذ البيضة بنصف فضة فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الاسعار وفتح أكثر السوقة الحوانيت والقهاوى ٭ وأرسل بونابارته بطلب المشايخ والاعيان فذهبوا اليه فلما استقر بهم المقام كلمهم فى اقامة عشرة من المشايخ للديوان وفصل الخصومات وقضاء مصالح الرعية فوقع اتفاقهم على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وانتظم فى عداد هذا المجلس أيضا محمد كتخدا أبو بكر باشا عامل السلطان على مصر وقاضى القضاة وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغاة مستحفظان وعلى آغا الشعراوى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وقد ألح المشايخ باعطاء هذه المناصب لمن ذكروا من المماليك خلافا لما أشار به بونابارته من تبعيد طوائف المماليك وعدم ادخالهم فى الوظائف العالية وأعلموا بونابارته بان سوقة مصر لايخافون الامن الترك ولايحكمهم سواهم ٭ قال صاحب عجائب الآثار وأقاموا ذا الفقار كتخدا محمد بيك كتخدا بونابارته والخواجه موسى كانوا وكيلا عن الفرنسيس المقيمين بمصر والخواجه حنا بنتو عن أرباب المجلس ٭ فلما استقر بأرباب هذا المجلس المقام رسم بونابارته فنادى الاغا والوالى فى شوارع مصر والقاهرة بالامان فلم تكن العامة لتكترث بهذا النداء وبقيت أكثر الدكاكين مقفلة والناس فى ريب من سكون الحال وكانوا لاجل أن يأمنوا شر الطارق من عسكر الفرنسيس يعلقون على أبوابهم الراية الافرنسية

أو يأخذون من معسكر الفرنسيس ورقة مكتوبة بالافرنسية يلصقونها على الباب ثم أمر بونابارته بتقليد الوظائف لمن يرون فيه الاهلية لذلك فقلدوا برتلين النصرانى الرومى كتخدا مستحفظان قال وهو الذى كانت تسميه العامة فرط الرمان فركب بموكبه المعتاد من بيت بونابارته وأمامه عدة من طوائف الجند مشاة بين يديه وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة وقد رتب الاربطة فى مراكز أخطاط مصر والقاهرة وسكن ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين وأخذه بما فيه من فرش ومتاع قبل وجوار وغير ذلك وكان برتلين هذا من أصحاب المدافع عند محمد بيك الالفى وقلدوا أحد الفرنجة أمانة البحرين وآخر أغاة الرسالة وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالازبكية قرب الرويعى وسكن به رئيس الديوان وسكن قائمقام مصر ببيت ابراهيم بيك الوالى المطل على بركة الفيل وسكن شيخ البلد ببيت ابراهيم بيك الكبير وآخر ببيت مراد بيك على رصيف الخشاب وسكن بوسليك مدير الحدود ببيت الشيخ البكرى القديم فكان يطلب الكتاب من القبط فى كل يوم ويسألهم عن دفاتر البلاد وحسابها وصريعاتها وغير ذلك * وأفرج بونابارته عن الاسرى من المماليك والاجناد المصرية بشفاعة أرباب الديوان فدخل الكثير منهم بالجامع الازهر وهم فى أسوإ حال وعليهم الثياب الزرق الرثة فكثوا يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين ويتكففون المارين وفى ذلك عبرة وتذكرة لقوم يعقلون * وجمعوا جميع الاسلحة وآلات الحرب وتتبعوا من كان عنده شئ من ذلك وأخرجوا الدفائن والودائع ودلهم طوائف الخدم على ودائع الامراء وأمتعتهم فأخرجوها وأخذوها الى بيت القائمقام فكانت شيأ كثيرا جدا وطلبوا قرضة من التجار المسلمين والقبط والشوام والفرنجة قدرها خمسمائة ألف ريال فطلبوا التخفيف فلم يرض بونابارته فقاموا بدفعها ودخلت العساكر الى المدينة فملؤا شوارعها وحاراتها وهم فى غاية الحشمة والوقار وكانوا يعاملون الناس بالرفق ويخاطبونهم باللين فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر واسرع السوقة الى فتح دكاكينهم وزال عنهم الخوف

وجاء الخبر بوصول الحجاج الى العقبة وقرب دخولهم الى مصر فذهب أرباب الديوان الى بونابارته وأخبروه بوصول أمير الحاج ومن معه من العساكر والاجناد وطلبوا منه اذنا له بالدخول هو ومن معه فامتنع ولم يسمح الا بدخوله فى قلة وان لاتدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر فكتب المشايخ الى أمير الحاج بأن يحضر الى الدار الحمراء ويتربص هناك حتى ينظر فى دخوله الى مصر فلم تصل اليه مكاتبة المشايخ حتى كاتبه ابراهيم بيك الكبير وحببه اليه الحضور الى بلبيس بمن معه من العسكر فساروا جميعا الى بلبيس وأقاموا بها أياما وكان ابراهيم بيك عند هروبه من مصر قد ذهب الى بلبيس وأقام بها وبعث النساء والذرارى الى القرين باقليم الشرقية فلما قدم عليه أمير الحاج بمن معه سار بهم الى المنصورة وقد تفرق جميع الحجاج الى بلادهم وعلم بونابارته بذلك فخرج فى جيش عظيم الى العادلية وسار الى أن وصلت طلائعه الخانكة وأبا زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنع أهلها

فقاتلوهم وهزموهم ونهبوا البلد وأحرقوها وارتحلوا الى بلبيس فملكوها بغير قتال ووصل الخبر
بذلك الى ابراهيم بيك الكبير ومن معه من الامراء وبعض الاعيان فركب ليلا بمن معه وترفع
الى القرين فتبعه بونابارته بجيوشه فسار ابراهيم بيك الى الصالحية وأنزل النساء والذرارى
فيها ومعهم متاعه وأقام عليهم طائفة من العرب تحرسهم فجاء أحد العربان وأخبر بونابارته
بموضع النساء والامتعة فسير بونابارته فريقا من الفرسان لاخذها فوقف ابراهيم بيك وأصحابه
فى طريق أولئك الفرسان واشتبك القتال بين الفريقين ساعة كادت تنهزم فيها الفرنسيس
لقلتهم واذا بالخبر جاء الى ابراهيم بيك بأن العرب على وشك أن يأخذوا الامتعة وجميع الاحمال
ففر وفر من كان معه على أثره وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالاحمال وأجلوا عنها العرب
وقتلوا منهم جماعة وساروا مسرعين الى قطيا فلم تدركهم الفرنسيس بعد ذلك وما زالوا
سائرين الى أن استقربهم المقام بغزة فعاد بونا بارته بجيوشه الى مصر وجعل ينظر فى الامور
ويرتب أحوال البلد وأكثر من طلب الكلف والمصالحات المنفقة على جيوشه الكثيرة وبينما
هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بقدوم عمارة الانكليز الى ناحية أبى قير مع نلسون أحد
أمراء البحر وأنها أحرقت جميع مراكبه وما فيها من آلات الحرب والذخيرة وغيره عند السد
وتحرير الخبر أنه لما خرج بونا بارته بمراكبه يريد الاسكندرية لم يسربها فى درب البحر
المعلوم خوفا من أن تلحقه مراكب الانكليز فسار خلفه ربان السفن الانجليزية ولحق
بالاسكندرية ليمنعه من النزول بها فكان من أمر حضوره وعدم ملاقاته بسفن بونا بارته
ماتقدم بيانه فرجع بمراكبه يمخر فى البحر لعله يعثر على سفن بونا بارته فيقاتلها أو يتبعها
حيثما سارت فدخلت مراكب بونا بارته الى أبى قير على يسار مدينة الاسكندرية عند غروب
الشمس وقيل بعد غروبها وألقت مرساها وكانت الريح على وشك الهروج والبحر كثير
الامواج فقال بونا بارته لربانه فلتنزل الجند حالا الى البر فقال كيف يامولاى والبحر فى هياج
والامواج فى شدة وماذا علينا ان بقينا الى الصباح فقال بونابارته لابد من خروج العسكر
بلامهل فأخرجت وأصبحوا فلم يبق فى المراكب الا ملاحوها فقط وسار بونا بارته من قوة الى
الاسكندرية ومنها الى رشيد ودمنهور والرحمانية قاصدا القاهرة كما تقدم لك وأما سفن الانجليز
فانه بعد أن أقلع بها نلسون من مياه الاسكندرية وسارت تمخر فى عرض البحار تبحث عن
بونا بارته وسفنه عادت مسرعة الى أبى قير فرأت سفن بونابارته راسية هناك فظنت أن بونابارته
وعسكره بها فأطلقت عليها المدافع وكانت السفن الفرنساوية راسية على خط واحد ممتدة
من الشمال الغربى الى الجنوب الغربى من أبى قير وربانها الاميرال برويس وكان برويس قد
أنزل من كل مركب منها فى ذلك اليوم خمسة عشر رجلا الى البر لحفر الفعلة الذين أتوا بهم
لحفر الآبار للاستقاء فلما شاهد الاميرال برويس سفن الانجليز قادمة استدعى عساكره الذين
بالبر وعقد مجلسا من ضباطه وتناجوا فى أمر القتال مع المراكب الانكليزية فأشاروا عليه
بالخروج الى ظهر البحر وملاقاتها بعيدا عن أبى قير دفعا للخطر فلم يذعن لمشورتهم وأبقى سفنه

فى مرساها وكان نلسون أمير السفن الانجليزية فى كد دائم وحزن ملازم بسبب عدم اهتدائه الى مقر السفن الفرنساوية فلما شاهدها عند أبى قير فرح وأخذ يدبر أمر قتالها قبل فسير بعض مراكبه الى التحرش فى مراكب الفرنسيس والدخول بينهم حتى يصلوا بالبر وأتى بما بقى من مراكبه أمام مراكب الفرنسيس وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وأطلق مدافعه على سفن الفرنسيس فاجابته مدافع الفرنسيس واشتبك القتال بين الفريقين وتتابع الرمى بالقنابل وعلا الدخان وقد دخل الليل فازداد الجو ظلاما على ظلامه وتحطم بعض المراكب الفرنسوية وأسر البعض الآخر فى قليل من الزمن وكان أميرال السفن الفرنسوية على ظهر أكبر مراكبه المسماة الشرق وبها نحو ألف من الملاحين وكان نلسون على ظهر إحدى بوارجه فأصابته رصاصة فى جبهته فحملوه الى غرفته وكذلك أصاب أميرال المراكب الفرنسوية شظية من قنبلة قطعته نصفين فحملوه ليستنزلوا به الى غرفته فأبى وأشار لهم ان أبقونى حتى أموت فى موقفى هذا واشتد القتال وعلت أصوات المدافع الى عنان السماء فلما كان بعد العشاء الاخيرة أصابت النار مخازن بارود مركب الفرنسيس الكبرى المسماة الشرق فأشعلتها فارتفعت بما فيها من الرجال والاموال والذخيرة والمدافع وآلات الحرب أذرعا كثيرة عن وجه الماء ثم هبطت الى قاع البحر وقد تمزقت كل ممزق ولم يبق لها من أثر ورأى حريقها أهل الاسكندرية ورشيد وغيرهما وبطل عندئذ القتال نحو ساعة ثم عاد نلسون يرمى بالقنابل تباعا على ما بقى من سفن الفرنسيس الى نحو ظهر اليوم الثانى حتى دمرها تدميرا وكان الجنرال كليبر فى هذا الحين محتلا بجيشه الاسكندرية فشاهد نيران الحريق وعلم بما جرى على السفن الفرنسوية من الحريق والدمار فهاله الامر وأزعجه جدا فبات هو ومن معه من العسكر على قدم الاستعداد فلم يغمض لهم جفن ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاء الخبر بما جرى وأقلعت سفن العمارة الانجليزية تمخر فى عرض البحار لا يعلم أحد اين يكون مرساها بعد هذا النصر العظيم

واغتم بونابارته غما شديدا مما حل بالعمارة الفرنسوية وكادت تفتر همته وتخمد عزيمته واصبح وهو بين منتطح عنزين فقد رجع الانجليز بسفنهم الى مياه الاسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس ويمنعون عنهم المدد وأطلقوا قنابل مدافعهم على سد ابى قير ليجرى فيه الماء الملح على أراضى البحيرة جميعها لتغرق جيوش بونابارته التى كانت منتشرة يومئذ فى تلك الاطراف فلم تلحق بهم ضررا وقيل بل ألحقت ببعضهم وقيل غير ذلك وكاتب بونابارته أحمد باشا الجزار عامل السلطان سليم يومئذ على الشام يستميله الى الخروج وشق عصا طاعة مولاه وتسليم البلاد لبونابارته وجعل يمنيه بالامانى الطويلة وسير اليه الرسل بذلك من نصارى الشوام ومسلميهم وهون عليه الامر وسار مع هؤلاء الرسل أحد الفرنسيس بهيئة متنكرة وزى التجار فلما قدم على عكا أمر الجزار بذلك الفرنسوى فنقلوه الى احدى السفن العائدة الى دمياط ولم يقابله وأمره بالرحيل حالا ولم يأخذ منه



واراحة أهلها من عناء هـذه المظالم وانتشالها من وهـدة هذه الدولة المقمة جهـلا وغباوة فقـدمت وأتاح الله لها النصر فبددت شمل المماليك ومزقتهم تمزيقا ومع هذا الانتصار فانها لم تعامل الرعيـة بالقسوة ولم تتعرض لشئ من أمورهـم الذاتية بمكروه وقـد وضعت دولة الفرنسيس فى مقدمات أعمالها الخطيرة فى هـذه الديار اصلاح الطرق وتأمين السـبل وحفر الخلجان والترع وتقريب المواصلات بين البلاد وبعضها وتوسيع نطاق التجارة وتعمير ماتخرب من البلاد ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك استجلابا لخواطر أهل البلاد وابقاء للذكر الحسن فعلى أهل البلد ترك الشغب والاخلاد الى السكون واخلاص المودة والاقلاع عن فعل مالا تحمد عاقبته ولم يكن المراد من استقدام من استقدموا من أهل البلاد وعمدها فى هذا اليوم الا ابلاغهم نوايا دولة الفرنـسيس نحو بلادهـم وأهلها وهى على يقين من أنهم يعدون لذلك يد المعونة ويبلغون سر عسكر الدولة الافرنسية بونابارته بما تحتاجه بلادهم من الاعمال الخطـيرة والمنافع الضرورية الى أن قال وانا نريد منكم الآن بامشايخ أن تختـاروا من بينكم واحدا يكون كبيركم وعليكم طاعته والاخلاد لاشارته ❁ فقال بعض الحاضرين تختار الشيخ الشرقاوى فقيل لهم وانما يكون ذلك بالقرعة فاقترعوا فظهرت القرعة للشيخ عبد الله الشرقاوى وما تم هذا الامر حتى غربت الشمس فأذنوا لهم بالانصراف وأن يعودوا فى غد وذهبوا فى ثانى يوم وانتخبوا بقية من وقع الاختيار عليهم لديوان مصر من أهالى البـلاد والمشايخ والقبط والشوام وتجار المسلمين ثم أخذ أعضاء هذا الديوان فى ترتيب أمور الحوادث والنظر فى المقررات على العقار والاملاك ورتبوا لذلك ترتيبا بأن جعلوا على الاعلى منها ثمانية فرانسة فى كل سنة وعلى الاوسط ستة وعلى الادنى ثلاثة وما كانت أجرته أقل من ريال فى الشهر فلا شئ عليه وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فنها ماجعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك أوراقا وألصقوها بالطرق والمفارق وأرسـلوا نسخا للاعيان وعينوا جماعة المهنـدسين ومعهم أشخاص لتقـدير أجرة كل ملك وعقار وشرعوا فى الاحصاء وطافوا بعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أصحابها فلما شاع خبر هذا العمل بين الناس استعظموه وانتبذ جماعة منهم وتناجوا فى ذلك ووافقهم عليه بعض المتعممين فاجتمع عند ذلك الكثير من الغوغاء من غـير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الاحد وهـم فى جمع عظيم وأظهروا ما كانوا قد أخفوه من الآلات والاسلحة وخرج رجل اسمه السيد بدر ومعه حرافيش خطة الحسينية وزمر الحارات الخارجة عن القاهرة وهـم فى صياح وضجيج عظيمين وينادون بأعلى أصواتهم نصر الله دين الاسـلام وساروا الى بيت قاضى القضاة فخشى العاقبة وخاف هذا الامر فأمر فاغلق خدامه الابواب ووقفوا امامها يمنعون هـذه القوم من الدنو منها فرجموا بيت القاضى بالحجارة واجتمع كذلك بالجامع الازهر عدد عـديد من أولئك السوقة والغوغاء ووصل الخبر الى الجنرال ديون حاكم البلد فركب على الفور فى عـدة من الفـرسان ومر بشارع الغـورية وعطف عـلى خط

الصنادقية

الصناديقية وذهب الى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام العظيم فهاله أمره وخرج من بين القصرين و باب الزهومة وكانت جميع هذه الخطط مزدحمة بأخلاط الاهالى فبادروا اليه وضربوه وأثخنوه جراحا وقتلوا بعض فرسانه ثم أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون وضبطوا عدة أماكن بالقاهرة مثل باب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وماحاذاها وهدموا مصاطب الدكاكين وجعلوا أحجارها متاريس ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واقتصر هذا الحادث على من بقلب القاهرة ولم يشاركهم فى هذا الخروج أحد من أهالى مصر القديمة ولا أهل بولاق ولا غيرهم من الاطراف فسار اليهم طائفة من الفرنسيس وظهروا من ناحية المناخلية وأطلقوا بنادقهم على المتاريس الكائنة بناحية الشوايين وقد كان بها طائفة من تجار ناحية القماحين المغاربة فقاتلتهم المغاربة قتالا شديدا وأجلوهم عن المناخلية وعند ذلك زاد الحال وكثر الزحف والزلزال وخرجت العامة الخروج التام وبالغوا فى الافساد وتطاولت أيديهم الى النهب وهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الروم والشوام وما جاورها من بيوت المسلمين وسلبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وباتوا تلك الليلة على ماهم عليه من النهب والخطف وأصبح الفرنسيس وقد رتبوا مدافعهم على تلال البرقية وقلعة الجبل ووقفوا ينتظرون اشارة بونابارته وكان بونابارته قد أرسل الى المشايخ خطابا يسألهم فيه رد العامة بالتى هى أحسن حقنا لدمائهم واستبقاء لارواحهم فلم تجبه المشايخ بشئ فأطال الانتظار فلم يردوا عليه وقد كثر رمى العامة بالبنادق وعبثهم بالمدينة وأحشوا فى النهب والخطف وما زالوا على هذا الحال الى مابعد الظهر فلما أعياه الانتظار أمر أصحاب المدافع فجعلوا يطلقون مدافعهم تباعا على البيوت والحارات وعلى الخصوص الجامع الازهر وما جاوره من المساكن فكانت القنابل تخرج من أفواهها كالمطر وقد دمرت تلك النواحى وخربتها تخريبا فخرج الناس والمجاورون على وجوههم وهم يضجون بأعلى أصواتهم يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف وخرجت النساء حاسرات وأولادهن فى أحضانهن وهن مولولات وتتابع الرمى بالقنابل من قلعة الجبل وتلال البرقية حتى تزعزعت أركان المدينة وكادت البلد تنخلع عن آخرها فلما اشتد الخطب وعظم الهول والكرب ركب المشايخ الى بونابارته واستغاثوا فعاتبهم واتهمهم بالخدعة والتقصير فاعتذروا وتلطفوا فى القول واستنهضوا مروأته فقبل عذرهم وأمر بالكف عن اطلاق المدافع فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان وتسامع الناس بذلك فاطمأنت قلوبهم وسكنت خواطرهم وكان قد أقبل الليل

أما أهل الحسينية ومن معهم من أهالى الاطراف فانهم لبثوا وراء المتاريس يتابعون الرمى حتى فرغ منهم البارود فانكفوا عن القتال وقد مات منهم العدد العديد بنيران الفرنسيس التى كانت تتساقط عليهم من كل جانب ثم انكف عنهم الفرنسيس وتركوهم وبعد هزيع من الليل دخلت العساكر الافرنسيه الى المدينة مشاة وفرسانا ومروا بالازقة والشوارع فلم يعثروا على أحد فهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة منهم باب

البرقية وساروا الى الغورية ثم كروا ورجعوا وتراسلوا أرسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع
الازهر وهم على ظهور الخيل وبينهم المشاة وعاثوا بالاروقة وكسروا ما وجدوه من القناديل
والمصابيح وأصبحوا وقد اصطف منهم فريق بباب الجامع وتفرقت طوائف منهم بتلك النواحى
واتخذوا السعى والتطواف بها منهاجا فخرج سكان تلك الخطة يهرعون وهم فى أسوإ حال
وكان الفرنسيس يسيرون بالشوارع ويفتشون كل من يمر بهم فمن امتنع قتلوه ثم أخذوا
يحملون القتلى من المسلمين والفرنسيس فكانوا كثيرين ومات فى هذه الثورة الجنرال بون
بجراحاته التى أصابته وهدموا مابقى من المتاريس ورفعوا ترابها وأحجارها وقيدوا برتلمان
بالعسس والبحث عن الاسلحة المخبأة فبث اعوانه فى أطراف المدينة وأكثر من الاساءة وبالغ
فى تنكيل المسلمين فقلا منهم المحبوس وكذلك فعل الاغا وأصبح يوم الاربعاء فركب
المشايخ كافة وذهبوا الى بونابارته وخاطبوه بالعفو ولاطفوه فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف
وطالبهم بأن يدلوه على المتعممين الذين أضرموا نار هذه الفتنة فغالطوه وأكثروا من المواربة
فقال ان لم تذكروهم لى الساعة فانى لاأعفو أبدا فالتمسوا منه اخراج العسكر من الجامع
فأجابهم الى ذلك وامر فاخرجوا ولم يبق سوى سبعين جعلوهم رباطا وبالغ بونابارته فى
البحث عن مثيرى هذه الفتنة من المتعممين فكانوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة
العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ
اسمعيل البراوى فأمر بونابارته فقبضوا عليهم وسجنوهم ببيت الشيخ البكرى ولم يعثروا
على السيد بدر المقدسى الذى جمع لوم الحسينية حيث فر هاربا الى الشام فخاف بقية
المشايخ خوفا ما عليه من مزيد وأكثروا من الذهاب الى بونابارته والتضرع اليه وطلب
فك سجن أولئك المشايخ فغولطوا وقد اتهم أيضا ابراهيم افندى كاتب البهار بانه جمع جمعا
لاثارة هذه الفتنة من المماليك المختفين عنده وقد أعطاهم شيأ كثيرا من الاسلحة والمساوق
والعصى وغيرها فقبضوا عليه وسجنوه ببيت الاغا ثم قبضوا على آخرين وسجنوهم بقلعة الجبل
واشتد البحث وتتبع المشاركين فى هذا الحادث فاشتد قلق المشايخ وركب الشيخ السادات
وبقية المشايخ الى بونابارته وتشفعوا وتخضعوا فلم يقبل واستمر القبض على الناس بأدنى شبهة
ورد بعضهم ما كان نهبه من بيوت النصارى والشوام وغيرهم أيام الثورة فكان شيأ كثيرا
وتطاير شرر هذه الفتنة الى جوف البلاد أيضا فقام بعض أهالى القرى والبلدان على كتائب
الفرنسيس المرابطين بها فقتلوهم وأظهروا الخروج والعصيان فاهتم بونابارته لذلك واستخدم
جماعة من المغاربة فى الجندية وسلم أمرهم لكبير اسمه عمر القلقجى من مغاربة الفحامين
وسيرهم الى تلك النواحى فقهروا الاهالى وظفروا بهم وساموهم الخسف وأسكنوا الفتنة وضربوا
بلدة عشما وقتلوا شيخها ونهبوا داره وأحضروا جميع أولاده واخوته فقتلوا جميعهم
ولم يبق منهم سوى ولد صغير قد أقاموه شيخا عوضا عن أبيه وسار برتلمان الى ناحية
الشرقية فى طلب من فر من أصحاب الفتنة فلم يدرك أحدا منهم فعاد الى سرياقوس بعسكره
ثم رجع الى القاهرة وقد دخل بعده رسول على هجين قادما من الديار الشامية ومعه

مكاتبات على شكل فرمان من أحمد باشا الجزار والى الشام وآخر من أبى بكر باشا الذى كان عامل مصر قبل دخول جيوش الفرنسيس وقد هرب الى الديار الشامية خطابا الى مصطفى أغا كتخدائه وخطابا آخر من ابراهيم بيك الكبير الى المشايخ حاصل مافيها بعد الاستهلال وذكر بعض الآيات القرآنية والاحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد والطعن على طائفة الفرنجة والحط عليهم وذكر عقائدهم وكذبهم وتحيلهم الحض على قتالهم والتخلص منهم وكذلك بقية المكاتبات فأخذها الكتخدا المذكور وذهب بها الى بونابارته فلما علم مافيها قال هى أحبولة من حبائل ابراهيم بيك بقصد ايقاع الفتنة واضرام نار الوحشة فاحذروا وانظروا فى عواقب الامور

وأخذ الفرنسيس من هذا الحين يشيدون الحصون ويرتبون المعاقل ويعدون الابراج العظيمة على التلال والآكام المحيطة بالبلد ووضعوا عليها المدافع وهدموا أماكن كثيرة بالجيزة وحصنوها تحصينا عظيما وكذلك مصر القديمة وشبرا وقد هدموا منها عدة جوامع منها الجوامع المجاورة لقنطرة انبابه ومسجد المقس المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب الحصر وقطعوا نخيل جهة الحلى وبولاق وخربوا دورا كثيرة وأخذوا مافيها من الاخشاب ثم ذهبت منهم طائفة بعد أيام الى منزل الشيخ البكرى فى نحو نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين فخرجوا واناهم فى وسط فريق من الجند وقد قبضوا عليهم وذهبوا بهم الى بيت حاكم المدينة بدرب الجماميز ثم عروهم من ثيابهم وصعدوا بهم الى قلعة الجبل وسجنوهم فلما أصبحوا أخرجوهم وقتلوهم برمى البنادق وألقوهم من السور خلف القلعة وخفى خبرهم عن أكثر الناس وركب فى ذلك اليوم بعض المشايخ الى مصطفى بيك كتخدا الباشا ليتشفعوا واياه لاولئك المشايخ فذهبوا الى بيت بونابارته وهم لايعلمون بموتهم فقابلهم ترجمانه بعين غامضة ثم تركهم فانصرفوا وأمر بونابارته فكتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها الى البلاد وأرسلوا منها صورا الى المشايخ وهى نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة وفيها نعوذ بالله من الفتن ماظهر منها وما بطن ونتبرأ الى الله من الساعين فى الارض فسادا نعرف أهل مصر قاطبة أنه حصل بعض الخلل فى المحروسة من بعض الجعيدية وأشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنسوية بعد ما كانوا أصحابا وأحبابا بالسوية وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية لانه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة للفقراء والمساكين ولولاه لكان العساكر أحرقوا جميع المدينة ونهبوا جميع الاموال وقتلوا كامل أهل مصر فعليكم أن لاتحركوا الفتنة ولاتطيعوا أمر المفسدين ولاتسمعوا كلام المنافقين ولاتتبعوا الاشرار ولاتكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لايقرؤن العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم فان الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم مايريد ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه



الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ونصيحتنا لكم أن لاتلقوا بأيديكم الى التهلكة واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم والدين النصيحة والسلام اه بنصه

ولما طار الخبر فى الآفاق بورود مكاتبات ابراهيم بيك والجزار وتكلم فى أمرها أهل البلاد وأكثروا اللغط بها خاف المشايخ من رجوع الحال الى ما كان عليه وقيام الفتنة فعمدوا الى تحرير منشور وأرسلوا عدة صور منه الى المدن والبلدان يقولون فيه * نصيحة من علماء الاسلام بمصر نخبركم يا أهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين أن ابراهيم بيك ومراد بيك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادّعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان وسبب ذلك انه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظا شديدا من العلماء والرعايا حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وأن يتركوا عيالهم وأوطانهم فارادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية وذلك لشدة ماحصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ولو كانوا فى هذه الاوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهارا مع أغوات معينين ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائما يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم أحباب لمولانا السلطان قائمون بنصرته وأصدقاء ملازمون لمودته وعشرته ومعونته يحبون من والاه ويبغضون من عاداه ولذلك بين الفرنساويين والموسكو غاية العداوة الشديدة ومن أجل هذا يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكوب ان شاء الله ولايبقون منهم بقية فننصحكم يا أهل الاقاليم المصرية أن لاتحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنسوية بشئ من أنواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية ولا تسمعوا كلام المفسدين ولاتطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولايصلحون والا فتصبحوا على مافعلتم نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا فى أوطانكم سالمين وعلى عيالكم وأموالكم آمنين مطمئنين لان حضرة سارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على انه لاينازع أحدا فى دين الاسلام ولايعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد فقد قال نبيه ورسوله الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الامم عليه أفضل الصلاة والسلام ختام اه ولصقوا نسخا من هذا المنشور بشوارع القاهرة وأرسلوا منها فى سائر البلاد * وشدد بونابارته فى اليقظة والالتفات وأكثر من العيون والجواسيس وأقام الجنرال استنك واليا على القاهرة بدل الجنرال بون واليها الذى قتل فى الفتنة كما تقدم القول فاطمأن الناس بعد ذلك وسكنت الاحوال وعادت

الامور

الامور الى سابق مجراها وأمر بونابارته فجعلوا يمهدون الطرق والعقبات ويسهلون المواصلات داخل المدينة وقد كانت معرقلة بالتلال الكبيرة والوديان العميقة والاشجار الكثيرة فردموا جميع الجهات التى حوالى بركة الازبكية وهدموا الاماكن المقابلة لبيت بونابارته حتى جعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الاخرى وردموا مكانها بالاتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدئا من بيت بونابارته الى قنطرة المغربى وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسرا عظيما ممتدا ممهدا مستويا على خط مستقيم من الازبكية الى بولاق وينقسم بقرب بولاق الى قسمين قسم الى طريق أبى العلاء وقسم يذهب الى جهة التباله وساحل النيل وبطريقه الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلاء وجامع الخطيرى الى ناحية المدابغ وحفروا فى جانبى ذلك الجسر جميعه خندقين وغرسوا بجانبيه الاشجار العظيمة واحدثوا طريقا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب حيث معمل الفواخير وردموا جسرا ممتدا ممهدا مستطيلا يبتدئ من الحد المذكور وينتهى الى جهة المذبح خارج الحسينية وأزالوا مايتخلل ذلك من الابنية والغيطان والاشجار والتلال وقطعوا جانبا كبيرا من التل الكبير المجاور لقنطرة الجاحد وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضا والابنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقا ممتدا من الازبكية الى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب بجهة العادلية على خط مستقيم من الجانبين وقيدوا بذلك ناسا منهم يتعهدون تلك الطرق وأنشؤا مطاحن هواء ومطاحن ماء وجعلوا فى الروضة مستشفى يسع خمسمائة مريض ومثله فى الاسكندرية ورشيد ودمياط وأنشؤا مدرسة بالقاهرة لابناء الفرنسيس المولودين بمصر وجريدتين بالافرنسية احداهما تسمى «كاد اجبسيان والثانية تسمى كوريه دى اجبت ومعامل للاقفال والاسلحة والمدافع وآلات الحرب وصناعة الورق والاقمشة وسائر مايلزم البلاد وفعلوا جميع هذه الاعمال العظيمة فى مدة يسيرة جدا مع همة غريبة وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج باب الحسينية قلعة ومنارته برجا ووضعوا على أسواره المدافع العظيمة وأسكنوا به عدة من العسكر وبنوا فى داخله عدة مساكن وكان هذا الجامع معطل الشعائر من مدة وقد باع نظاره منه انقاضا وعمدا كثيرة وعملوا عدة أبراج على تل العقارب بالناصرية ووضعوا فيها عدة آلات حربية وأفردوا لجماعة المدبرين والفلكيين منهم وأصحاب العلوم الرياضية كالفلك والهندسة والهيئة والنقوشات والكتاب والحساب وغيرهم من أرباب القلم حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ومابه من البيوت وجعلوا بيت حسن كاشف جركس فى تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم فى أوقات معينة من النهار وكان اذا دخلها أحد المصريين فرحوا به وأحسنوا لقاءه واذا أراد التفرج أطلعوه على ماأراد أو أراد المطالعة أعطوه ماأراد من الكتب ولا سيما الكتب التى تبهج البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفى

جلتها رسم صاحب الشريعة المحمدية ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم وكانوا يطلقون في كل يوم عند الزوال مدفعا

ولم ينكف بونابارته عن البحث عمن كان له يد في الفتنة من أهل البلاد وأعيانها فقبض على شيخ العرب سليمان الشواربي شيخ قليوب حيث عثروا على خطاب منسوب الى أهالي سرياقوس يحضهم على القيام والتأهب للفتك بالفرنسيس عند خروجهم من القاهرة مقهورين فسجنوه بقلعة الجبل وسار بونابارته على اثر ذلك ومعه طائفة من الجند والسيد أحمد المحروقي وابراهيم أفندي كاتب البهار وبعض المديرين والمهندسين والمعلم جرجس الجوهري والمعلم أنطون أبو طقية وغيرهم قاصدا مدينة السويس لامر لم يعلم سره فلما شاع بين أهل السويس خبر مقدمه هربوا كافة وتركوا البيوت قائمة على عروشها فنهبها العسكر وأخذوا ماوجدوه فيها من متاع وفرش فأبلغ بونابارته بعض من كانوا معه مافعله العسكر فرد جميع ماأخذوه ووعد برد مافقد أو دفع ثمنه وكان مدة لبثه بالسويس يركب في كل يوم ويطوف في حارات وشوارع المدينة وجهات الساحل ليلا ونهارا قيل وكان معه من الادم في هذه السفرة ثلاث دجاجات مقلية ملفوفة في ورقة وقليل من الخبز قال صاحب عجائب الآثار وليس معه طباخ ولا فراش ولا خيمة وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مرشوق في طرف حربته يتزود منه ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق في عنقه اه ثم سار من السويس الى الشرقية ودخل مدينة بلبيس وقبض على عدة كثيرة من عربان الشرقية وأولادهم من ذكور وإناث وبعث بهم الى القاهرة مع جماعة من العسكر وقام من بلبيس قاصدا القاهرة فمر بأبي زعبل فضرب أهلها وضرب كذلك أهل المنير وأمر فأخذت جميع مواشيهما ودخل القاهرة ليلا فلما كان الصباح أنزلوا شيخ العرب سليمان الشواربي ومعه ثلاثة عربان آخرون الى الرميلة ومعهم الآغا فقتلوهم ذبحا ثم سلموا جثة الشواربي ورأسه لقومه فحملوه في نعش وساروا به الى قليوب وفاض الخبر بذلك في مصر والقاهرة فخاف الناس وانكف أصحاب الفتنة وشدد بونابارته في تتبع خطوات مراد بيك الكبير وتسيير الجند خلفه اينما سار فكان مراد بيك كلما لحقت به عساكر بونابارته ترفع الى الصعيد حتى وصل بمن معه الى عقبة الهواء وقد داخلهم من لقاء الفرنسيس هيبة ورهبة فلم يقابلوهم وبونابارته يشدد في أمر قتالهم وقطع شأفتهم وقبض على كثير من التجار الترك والقليونجية المقيمين بالقاهرة ومصر بدلالة الآغا وسجنهم بقلعة الجبل وأخذوا ما كان لهم بوكالة ذي الفقار بالجمالية من متاع وغيره وجعلوا يفتشون على من بقي منهم بالقاهرة ومصر وبولاق وخصوصا من كان منهم في خدمة مراد بيك الكبير وجمعوا جميع الكريديين الذين كانوا في الخدمة العسكرية عند ابراهيم بيك ومراد بيك وأدخلوهم في صفوف العساكر الفرنساوية وزيوهم بزيهم وسير منهم طائفة خلف مراد بيك فلما تزايدت الشدة بمراد بيك ومن معه وضاقت عليهم الدنيا برحبها تخلى عنه علي باشا ونصوح باشا وسارا مع بعض اتباع ابراهيم بيك الكبير من خلف الجبل

الى

الى الشام فأمر بونابارته بتحصين تلك الأطراف فسار قوم من الفرنسيس وبنوا في قطية بعض الابراج والحصون ومهدوا فيها بعض العقبات وأكثروا من الاسلحة والذخيرة ومعدات القتال وأمر بونابارته بعد ذلك فقتلوا جميع من كان مسجونا من المماليك والاجناد التركية بقلعة الجبل وكانوا كثيرين وأخذوا في إعداد دواب النقل من جمال وبغال وحمير والتأهب لغزو الشام وقتال أحمد باشا الجزار واليها

ولما شاع بين أهل الحجاز خبر تملك الفرنسيس على ديار مصر وتصرفهم في أمور المسلمين هالهم هذا الامر واستعظموه جدا وقام فيهم مغربي اسمه الكيلاني من مجاوري مكة والمدينة وجعل يحض الناس على الجهاد واستخلاص البلاد من ايدى الفرنسيس فانزعج الناس وضجوا بالحرب وعجوا الى الله وجردوا الكعبة من استارها وجعل الكيلاني يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك فاستنهض بعض الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم وكانوا زهاء الستمائة وركبوا البحر الى القصير مع من انضم اليهم من أهل ينبع ونزلوا بالصعيد فانضم اليهم العدد العديد من أهله وبعض الترك والمغاربة الذين كانوا مع مراد بيك والكشاف والغز الذين هربوا بعد مقتلة انبابه وزحفوا على جرجا وكان بها الجنرال دزه بجيوشه يطارد مراد بيك ومن معه فلاقت جيوشه تلك الجموع واقتتل الفريقان فلم تثبت الترك والغز كعادتهم وانهزموا فتبعهم هوارة الصعيد والأوم المجتمعة من القرى وثبت الحجازيون برهة ثم اشتدت عليهم نيران الفرنسيس فتقهقروا ثم ولوا الادبار وترفع من هرب من الترك والمماليك الى اسنا ومعهم حسن بيك الجداوى وعثمان بيك تابعه وبلغ الخبر بذلك الى بونابارته وبلغ وقع فتأخر عن الخروج بعسكره الى غزو الشام وتربص حتى يرى ماسيكون من أمر الحجازيين وما زال الحجازيون يعاودون الكرة على الجنرال دزه وعساكره والحرب بينهم سجال حتى تمكن منهم وبدد جموعهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ومزقهم في شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وانقطع خبرهم ولم يظهر بعد ذلك منهم أحد ۞ ووردت البشائر بما أصابهم الى بونابارته فجعل يتأهب للخروج بجيشه وخرج في مستهل رمضان من السنة قاصدا الشام وسارت طوائفه طائفة بعد أخرى في أحمال ومهمات وكراع زائدة الغاية وعقد بونابارته قبل خروجه ديوانا جمع فيه العلماء والمشايخ والاعيان من النصارى والمسلمين وحدثهم بأمر خروجه بعسكره الى الشام ليقطع شأفة ابراهيم بيك الكبير ومن معه كما قطعت عساكره بمراد بيك ومن معه وأنه سيمهد الطرق ويجعلها في أمن ويفتح باب التجارة بين مصر والشام ترويجا لارزاق مصر وتوسيعا لنطاق ثروتها قال بونابارته ولا أغيب عنكم سوى شهر ثم أعود فابذل الجهد في تحسين أحوال البلاد وترتيب جميع أمورها على النحو المرغوب بعون الله ولا أطالبكم الا بالخلود الى السكينة وملازمة الهدوء ومراقبة أحوال العامة وحضهم على ملازمة السكون وعدم الاختلاط بالجند المقيمين بمصر والقاهرة وهذه وصيتي اليكم فاحفظوها فتعهدوا له بذلك ۞ وقد سلم زمام القاهرة الى الجنرال دوغا والصعيد الى الجنرال دزه

والاسكندرية الى الجنرال مرمون وخرج الى العادلية فى يوم الاحد خامس رمضان من السنة ومعه طوائف الجند وقاضى القضاة ومصطفى بيك كتخدا الباشا وبعض المشايخ والمديرين والمترجمين وغيرهم من أصحاب الوظائف العالية وترك عدة من العساكر بالقلاع والابراج التى أنشأها فلما وصل الى قلعة العريش قاتله من بها من العساكر وعدتهم نحو الالف بين مغاربة وارنؤد فحاصر القلعة وضيق على من بها فأرسلوا يطلبون المدد من غزة فجاء اليهم قاسم بيك أمير البحرين ومعه طائفة كبيرة فلم يتمكن من الوصول الى القلعة حيث هاجمه عساكر الفرنسيس وحالوا بينهم وبينها ثم كبسوا عليهم ليلا فقتل قاسم بيك وقتل معه خلق كثير وفر من بقى وهم النزر اليسير واشتد بونابارته فى حصار القلعة وضيق عليها من كل جانب فاستأمن من بقى فيها فأمنهم وأنزلهم من القلعة وأدخل منهم بجيوشه من رام الدخول والانتظام فى سلكهم وصرف من لم يقبل الى مصر تخفرهم طائفة من الفرنسيس ثم ارتحل الى العريش واحتلها وكتب كتابا الى أهل الشام ونصه

فرمان عام موجه من أمير الجيوش الى أهل الشام قاطبة بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين من طرف بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية الى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى نواحى غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى بعد السلام نعرفكم اننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم اننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم والى أى سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه والى أى سبب أيضا أرسل عساكره الى قلعة العريش وبذلك هجم على أراضى مصر فلا شك كان مراده اجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه فأما أنتم يا أهالى الاطراف المشار اليها فلم نقصد لكم أذية ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين وأخبروا من كان خارجا عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم فى محله ووطنه ومن قبلنا عليكم ثم عليكم الأمان الكافى والحماية التامة ولا احد يتعرض لكم فى مالكم ولا ما تملكه يدكم وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ما كانوا عليه وعلى الخصوص أن دين الاسلام لم يزل معززا ومعتبرا والجوامع عامرة بالصلاة وزيادة المؤمنين ان كل خير يأتى من الله تعالى وهو يعطى النصر لمن يشاء ولا يخفاكم أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا فبغدر باطل ولا نفع لهم به ولان كل مانضع فيه يدنا لابد من تمامه بالخير والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح والذى يتظاهر بالغدر يهلك ومن كل ما حصل تفهمون جيدا اننا نقمع أعداءنا ونعضد من يحبنا وعلى الخصوص لكوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين

وسار بجيوشه الى غزة فوصل فى ليلة التاسع عشر من رمضان الى خان يونس فباتوا لياتهم وعند الفجر ساروا الى غزة فشاهدوا قبل الظهر بقليل عساكر المماليك والجزار معسكرين أمامها فهاجوهم فلم تدافع عساكر المماليك الا بالامر الهين ثم ولوا جميعا الفرار فتبعهم الفرنسيس وقاتلوا مؤخرتهم قتالا يسيرا وبينما كانت العساكر الافرنسية تطارد جند

المماليك

المماليك انعطف الجنرال كليبر بجيوشه الى غزة فملكها واحتلها وأخذ مافيها من الذخائر والشعير والبقسماط وزهاء الاربعمائة قنطار بارود واثنى عشر مدفعا وعددا عظيما جدا من الخيام وغير ذلك من معدات الحرب وبعث الى القاهرة ببعض الرايات التى غنموها من قلعة العريش وغزة صحبة طائفة من الجند فدخلوا القاهرة فى كبكبة عظيمة وبأيدى بعضهم تلك الرايات ومروا من وسط المدينة الى الجامع الازهر فاصطفوا رجالا وركبانا بباب الجامع وضربوا طبولهم وأبواقهم ثم طلبوا شيخ الجامع فسلموه تلك الرايات وأمروه برفعها على منارات الجامع فنصبوا رايتين منها على المنارة الكبيرة وواحدة على منارة أخرى فلما رفعت تلك الرايات أطلقوا لها عدة مدافع من قلعة الجبل وكان ذلك ليلة عيد الفطر فلما كان عند الغروب أطلقوا عدة مدافع أيضا اعلاما بالعيد وطاف بعد العشاء أصحاب الشرطة ينادون بالأمان وخروج الناس على عادتهم لزيارة القبور بالقرافتين والاجتماع لصلاة العيد وأن يفعلوا جميع عوائدهم فى ذلك اليوم * وسارت جيوش بونابارته من غزة فى الثالث والعشرين من رمضان فوصلوا الى الرملة فى الخامس والعشرين منه فانجلت عنها عساكر الجزار وولوا هاربين فدخلها فريق من الفرنسيس وملكوا مافيها من الذخائر وآلات الحرب ثم قصدوا يافا فوصلت طلائع الجيش اليها فى الثامن والعشرين من رمضان ثم حاصروها شرقا وغربا فتم حصارها وشددوا عليها وسير بونابارته جيشا آخر الى عكا ليناوشها القتال حتى يأتى اليها بجميع عساكره وخندق حول يافا وعمل المتاريس ووضعوا عليها المدافع العظيمة فخرج عساكر الجزار للقتال وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة شديدة للغاية فلاقاهم عسكر الفرنسيس وصدموهم صدمة قوية فكروا راجعين الى المدينة وامتنعوا فى قلعتها فعند ذلك أرسل بونابارته خطابا الى والى يافا يعلمه بان الغرض من حضوره الى يافا انما هو قهر عسكر الجزار واخراجهم وأنه ان جنح الى التسليم بالرضا كان ذلك فيه مصلحة للبلد وأهلها وحقن للدماء وان أبى الا الحرب فلا يمضى الا قليل من الساعات حتى ينسف أسوار المدينة نسفا ويعمل السيف فى رقاب أهلها حتى لايبق بها أحد فلما علم الوالى بما فى الخطاب قبض على رسول بونابارته ووضعه فى السجن ولم يجب بونابارته بشئ فلما غاب الرسول وانقطع الامل من رجوعه أمر بونابارته فأطلقوا المدافع وتابعوا الرمى على المدينة بالقنابل وحمى الوطيس وارتفع الدخان الى عنان السماء واشتد الرمى فلم يمض قليل من الزمن حتى تعطلت مدافع حصون يافا وتواصل الرمى من متاريس الفرنسيس وما زالوا حتى تهدم بعض السور وحمل الفرنسيس حملة رجل واحد على السور فملكوا الابراج ودخلوا المدينة عنوة وأعملوا السيف فى أهلها واشتد الامر ونهب العسكر المدينة وأخذوا جميع ماصادفوه فكان يوم وليلة يشيب من هولهما الرضيع ثم أمر بونابارته بالكف عن القتل والنهب فكان الموتى لايكادون يدخلون تحت حصر * وكان بمدينة يافا عدد كبير من أهالى مصر ودمشق الشام وحلب وغيرها فرسم بونابارته برجوع كل فريق منهم الى وطنه سواء كان من المحاربين أو غير المحاربين



الغاية وامامهم الطبول وخلفهم المركبات والاحمال وساروا على هذا الحال الى أن دخل
بونابارته داره بالازبكية وأطلقوا عدة مدافع ❁ فلم تكد تستقر ببونابارته وجيوشه الراحة من
غزوة الشام وقيظ تلك العصارى حتى جاء الخبر بانحدار مراد بيك وأصحابه فرارا من
الفرنسيس ونزوله بدهشور أياما ثم ارتحاله منها الى نجع الطرانة ثم الى البحيرة من خلف
الجبل فأغضبه هذا الخبر وعبر النيل من فوره فى عسكره ونزل على نجع الطرانة ودهشور
وضربهما وأهلك منهما خلقا كثيرا جدا فعلم بعد ذلك ان مراد بيك عاد ثانيا الى الاقاليم
القبلية وان عثمان بيك الشرقاوى وسليمان أغا الوالى وآخرين مروا من خلف الجبل الى
ناحية الشرق فسير بونابارته لقتالهم برتلمان الرومى فى عسكر عظيم من أخلاط الروم والمماليك
والقبط والفرنجة فأدركوهم على مقربة من مدينة بلبيس وأتوهم من خلف الطريق المسلوك
فأخذوهم غيلة وكان فى هذا الحين عثمان بيك يغتسل فلما أحسوا به بادروا جميعا الى الفرار
وركبوا وركب عثمان بيك بقميص واحد وطاقية على رأسه وهربوا وتركوا ثيابهم ومتاعهم
وذخيرتهم وجميع ما كان معهم حتى قدور الطعام على النار ووجدوا على فراش عثمان بيك
مكاتيب من ابراهيم بيك الكبير يستدعيهم الى الحضور اليه بالشام ❁ وشاع الخبر عقب
ذلك بأيام بحضور مراكب كثيرة امام مدينة الاسكندرية وأبى قير وان بها كثيرا من
الجنود العثمانية فكثر لغط الناس وتحدثهم بهذا الامر وتحقق الخبر بخروج طوائف
الفرنسيس وعبورهم النيل الى الجيزة واهتمامهم باعداد مهمات الحرب وآلات القتال
ثم خروج بونابارته أيضا ومعه المعلم ابراهيم الجوهرى واهتم حنا بنتو متولى ساحل بولاق
بجمع المراكب وشحنها بالمعدات والذخيرة وغيرها وأقام بونابارته فى مخيمه بجانب الاهرام
حتى تكامل الجيش وسير المقدمة وركب هو فى ثانى يوم وهو الثلاثاء ثانى عشرى صفر
سنة أربع عشرة ومائتين قاصدا الاسكندرية فلم يكد يصل بجميع جيوشه الى البحيرة حتى
جاءته الاخبار بنزول فريق عظيم من العساكر العثمانية على أرض أبى قير يجد فى السير
يريد الوصول على عجل ❁ قال صاحب عجائب الآثار وكتب بونابارته الى أرباب الديوان بمصر
خطابا يقول فيه ❁ لااله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى محفل الديوان بمصر
المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته
بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الاشواق الزائدة اليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام
بهذا المكتوب اننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا الى اقليم البحيرة
لاجل ماترد راحة الرعايا المساكين ونقتص من أعدائنا الحاربين وقد وصلنا بالسلامة الى الرحمانية
وعفونا عفوا عموميا عن كامل أهل البحيرة حتى صار أهل الاقليم فى راحة تامة ونعمة
عامة وفى هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركبا صغارا وكبارا حتى ظهروا بثغر
الاسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب والكلل النازلة عليهم
فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبى قير وابتدؤا ينزلون فى البر وانا الآن تاركهم وقصدى

أن

أن يتكامل الجميع فى البر وأنزل عليهم افتسل من لايطيع وأخلى بالحياة الطائعين وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لاجل ان يكون فى ذلك شأن عظيم فى مدينة مصر والسبب فى مجىء هذه العمارة الى هذا القطر العظم بالاجتماع على المماليك والعربان لاجل نهب البلاد وخراب القطر المصرى وفى هذه العمارة خلق كثير من الموسكو الافرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبدالله ويؤمن برسول الله يكرهون الاسلام ولا يحترمون القرآن وهم نظرا لكرههم فى معتقدكم يجعلون الآلهة ثلاثة وان الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لاتعطى القوة وان كثرة الآلهة لاتنفع بل انه باطل لان الله تعالى هو الواحد الذى يعطى النصرة لمن يوحده هو الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين الماحق رأى المفسدين المشركين وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم انه أعطانى هذا الاقليم وقدر وحكم بحضورى عندكم لاجل تغييرى الامور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة انه لم يقدر الذين يعتقدون ان الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا فلم يقدروا أن يعملوا الذى عملناه ونحن المعتقدون وحدانية الاله ونعرف انه العزيز القادر القوى القاهر المدبر الكائنات والمحيط علما بالارضين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا مافى الآيات والكتب المنزلات ونخبركم بأن المسلمين كانوا بصحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبى عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام لان أعداء الاسلام لاينصرون الاسلام وياويل من كانت نصرته باعداء الله وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيدا أو يكون مسلما سالتهم المقادير للهلاك والتدمير مع الثقالة والرذالة وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب ويسمع فى حق الواحد الاحد والفرد الصمد من الكفار كل يوم تحريفا واحتقارا لاشك ان هذا المسلم فى هذا الحال أقبح من الكافر الاصلى فى الضلال نريد منكم يا أهل الديوان ان تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والامصار لاجل ان يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية فى سائر الاقاليم والبلاد لان البلد الذى يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفا عليهم ان نفعل فيهم مثل مافعلنا بأهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب سلوكهم المسالك القبيحة قاصصناهم والسلام تحريرا فى الرحمانية يوم الاحد خامس عشر صفر سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية انتهى بنصه قلت وفى هذا الخطاب ان كان صحيحا من النقد على بونابارته والتعييب ورميه بالغش والخديعة مايزرى ويحط بعظمته ويذهب بشهرته

وسار بونابارته بجيوشه حتى نزل على أبى قير واقتتل مع الجيوش العثمانية التى كانت بالقلاع قتالا عنيفا وما زال حتى قهرها واسترد منها ما أخذته من القلاع والحصون وأخذ مصطفى باشا أمير الجيوش العثمانية أسيرا وكذلك عثمان خجا الذى كان عاملا على رشيد على عهد

ابراهيم بيك الكبير وقتل من العساكر العثمانية خلقا كثيرا وغنم الفرنسيس من آلات الحرب والذخيرة والمؤن وغير ذلك مالا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل بونابارته راجعا بجيوشه ورايات النصر تخفق على رؤسهم فدخل القاهرة ليلة الاحد التاسع من ربيع الاول من السنة ومعه عدة كثيرة من أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضوره فى تلك الليلة فلم تصدق الناس ذلك وذهب جماعة ليتحققوا الخبر على جليته فشاهدوا الاسرى وقوفا فى وسط بركة الازبكية وبقوا كذلك الى ظهر اليوم ثم أرسلوا بعضهم الى جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية وأصعدوا باقيهم الى قلعة الجبل وبعثوا بمصطفى باشا الى الجيزة وسيروا عثمان كتخدا الى الاسكندرية فكان لهذا الحادث أثر مؤلم فى خواطر المصريين فقد كانوا يتمنون الخلاص على يدى أولئك المقاتلين فخابت منهم الآمال * ولما استقر بونابارته المقام أمر بعثمان كتخدا فنقل من الاسكندرية الى رشيد وادخلوه اليها فى طائفة من العسكر مكشوف الرأس حافى الاقدام وطافوا به حول البلد وهو على هذا الحال ثم ساروا به الى بيته الذى كان يسكنه قبل فراره الى القسطنطينية وأوقفوه امام بابه واحتزوا رأسه وعلقوها على إحدى نوافذ الدور الأعلى ليراها الناس كافة * وعاتب بونابارته أرباب الديوان بمصر على عدم ولائهم واخلاصهم للفرنسيس وخص بشديد العتاب الشيخ المهدى والشيخ الصاوى فلا طفاه وساراه حتى أزالا عنه ما كانا يخشيانه ولبث بونابارته يدبر الامور على مايشاء الى ان كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاول من السنة ركب من القاهرة وخرج خروج المسافر فى قلة من خواصه وسار الى الاسكندرية فلما نزل بها استقدم الجنرال منو وولاه قيادة الاسكندرية وولى الجنرال كلابير نيابة الغيبة بمصر وكتب له بذلك مرسوما ثم أعلم الاميرال جانتوم بعزمه فأعد له دارعتين عند العجمى فلما رتب أموره على ما أراد ركب ليلا فى قلة من خواصه ونزل باحدى الدارعتين وبات ليلته تلك وأقلع صباحا وقد تركوا خيولهم على البر ولم يعلم أحد بخبر قيامه الى عاصمة الفرنسيس حتى جاء كتابه الى الجنرال دوجيه بمصر فتلاه على أرباب المجلس فكان مضمونه قيام بونابارته من الاسكندرية الى باريز ليمهد لمهارته العصرية المسالك والعقبات التى أحدثتها سفن الانجليز فى سبيلها وانه لايتغيب عن مصر أكثر من ثلاثة أشهر وأنه أقام على مصر الجنرال كلابير نائب الغيبة فلما قرئ هذا الخطاب أخذ العجب من أرباب المجلس مأخذه وكادوا لايصدقونه لملازمة مراكب الانجليز مياه الاسكندرية صيفا وشتاء ومنعها جميع المواصلات بالاسكندرية فكرروا على الامير دوجيه السؤال فأكد لهم سفر بونابارته فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الاول من السنة وحضر الامير كلابير من معسكره بدمياط الى القاهرة ونزل فى مكان بونابارته ببيت الالفى بالازبكية فذهب المشايخ والاعيان وأرباب الديوان لزيارته فلم يروا منه صدرا رحبا ولا وجها باشا كما كانوا يرون من بونابارته وركب فى ثانى يوم فى موكب حافل للغاية وصعد الى قلعة الجبل وامامه طائفة كبيرة من القواصة بالعصى يأمرون الناس بالقيام اجلالا له وخلفه عدة كثيرة من الفرسان

والمشاة

والمشاة وطوائف الاجناد والوالى والآغا وغيرهما ولبث بالقلعة ساعة ثم رجع الى مقعده وكان رجلا حازما واسع التأمل كبير الفكر عظيم الخبرة بفنون السياسة والحرب فلما استقر به المنصب كتب الى أرباب الحل والعقد بباريز عاصمة الفرنسيس يقول ماترجمته

قد رحل بونابارته عن مصر الى باريز ولم يعلم بخبره أحد ولم أكن لأعلم بذلك الا بعد ان أتاني خطابه وقد علمت أنه أرسل بكتاب أيضا الى صدر الدولة العثمانية بعد علمه بوصول الصدر المشار اليه الى دمشق الشام ولا يخفا كم أنه لم يكن لنا عدوّ سوى المماليك فقط أما الآن فقد أصبح أعداؤنا غير المماليك وهم كل من دولة الانجليز والدولة العثمانية ودولة الروس وقدصارت جنودنا فى نصف العدد الذى احتلت به ديار مصر وهم مع ذلك متفرقون فى جوف البلاد من العريش والاسكندرية الى جزيرة اسوان وليس لديهم من معدات الحرب مايكفيهم لتعطيل معامل الاسلحة والبارود وكذلك ليس عندهم من الثياب مايقيهم من أمراض البلاد ولا مال عندنا بقدر الكفاية اذ خسرت الخزينة زهاء اثنى عشر ألف ألف من الفرنكات هذا وان كنا قد ضربنا المماليك ومزقنا جموعهم ولكن مابرح مراد بيك الكبير يقاتلنا فى الاقاليم القبلية فى عدة وافرة من الرجال وأخلاط الناس ولا سبيل الى التغلب عليه الا بعد أيام كثيرة وقد جاء صدر الدولة العثمانية من القسطنطينية الى دمشق الشام من أجل الزحف علينا وقتالنا فلا نعلم ماسيكون من وراء ذلك أما حصوننا وقلاعنا فلا تزيد فى قوتنا شيأ ومنها حصن العريش فانه لايدفع مهاجما وما الاسكندرية الا شبه معسكر تحيطه زريبة فلذلك أرى ان أنجح الوسائل وأفلحها أن تفتح المخابرة مع الدولة العثمانية عسى تتفق على مايكون فيه المصلحة فقد علمت اليوم أن عمارة عثمانية عظيمة رست أمام حصون دمياط اه

وجاء الخبر بانحدار مراد بيك الكبير الى الفيوم وعبثه بالبلاد وتكليف أهاليها بالمغارم والكلف فأرسل لقتاله عسكرا فساروا والتقوا معه ووقعت بينهم وقائع عدة ثم ترددت بين مراد بيك وبين الامير كلابير الرسل والمراسلات وتكلموا فى أمر الصلح فاتفقوا على شروط منها تقليد مراد بيك امارة الصعيد من قبل دولة الفرنسيس فوقعت بينهما هدنة على ذلك وكادت تتم لمراد بيك الامارة وتفرغ الامير كلابير الى غير ذلك فحصن الصالحية والقرين وبلبيس وأكثر فيهامن الاسلحة والذخيرة ورتب الاربطة وهيأ الحصون وحصن الابراج وبالغ فى ترتيبها فكانت الاخبار تزداد ورودا بتجمع العساكر السلطانية فى الديار الشامية وقرب حلولها بمصر لاخراج الفرنسيس منها واجلائهم عنها وكان لما سافر بونابارته الى باريز وترك الأمر فى مصر الى الامير كلابير طمعت الدولة العثمانية فى استخلاص البلد من أيدى الفرنسيس وزادها رغبة فى ذلك السير سدنى سمث أمير السفن الانجليزية فرسم السلطان الى يوسف باشا الصدر الاعظم يومئذ بالذهاب الى الشام ليجمع منها الجند والعسكر ويسير بهم برا الى مصر وسير جيشا آخر على ظهر العمارة الانجليزية ومعه كثير من ضباط الانجليز

وكبار الحرب فسارت العمارة بمن فيها حتى أتت دمياط ونزل من كان بها من العسكر في قلعة مقربة شرقي البوغاز فخرج الفرنسيس لقتالهم فحاصروهم وضربوهم حتى أجلوهم عنها وقد مات منهم خلق كثير ولم ينالوا من الفرنسيس أما يوسف باشا فانه لما نزل بالشام ومن معه من كبار السلطنة قيل انهم عسفوا في البلاد وضربوا على أهلها الضرائب الفادحة وجبوا الاموال كرها وعاثوا في الارض مفسدين فكانت شدة عظيمة على أهل الشام وما زالوا على هذا الحال حتى رحلوا عنها وجاؤا الى غزة في منتصف رجب من السنة ثم العريش وحاصروا من بها من الفرنسيس وقاتلوهم حتى ملكوا قلعتها في التاسع عشر من رجب المذكور وغنموا جميع ما كان بها من الذخيرة وآلات الحرب ودخل قائد الجيوش السلطانية وجماعة كبيرة من عسكره وبعض الامراء المصريين الى القلعة بعد انسحاب الفرنسيس منها ورفعوا عليها أعلامهم وضربوا طبولهم وأبواقهم فرحا بأخذها من أيدي الفرنسيس وكان الفرنسيس قد تركوا فيها جنديا عند مخازن البارود مختفيا فلما صاروا جميعا داخل القلعة ألهب البارود وكان شيأ كثيرا للغاية فزلزلت الارض في الحال زلزالها وتطايرت أبنية القلعة بمن فيها كافة فمزقتهم عن آخرهم وتطايرت أشلاؤهم الى عنان السماء ومات كثير من العساكر الذين كانوا خارجا عنها بما سقط عليهم من النيران والاحجار المتطايرة ولم يبق الا نفر قليل فكان حادثا مريعا جدا ومنظرا تقشعر منه الابدان وقد تغطى وجه الارض بالاشلاء والعظام والمشاشى المتفتتة وجاءت الاخبار الى الامير كلايبر فخرج بعسكره من القاهرة وسار مسرعا الى الصالحية وضم اليه من بقي من عسكر قلعة العريش وكان قبل دخول العساكر السلطانية الى قلعة العريش قد ترددت الرسل بين الفرنسيس والعثمانيين على يد أمير الدوارع الانجليزية بشأن تقرير الصلح على قاعدة صالحة الفريقين وجاءت مكاتبة من يوسف باشا الى مقدم الفرنسيس باستدعاء رجلين ليتشاور معهما على أمر يكون فيه المصلحة للفريقين فوجهوا اليه رئيس الكتاب بوسليك والامير دزه أمير جيوش الصعيد فسارا بحرا وغابا أياما افتتح في خلالها العثمانيون قلعة غزة والعريش وجاؤا الى الصالحية في الثاني والعشرين من شعبان من السنة ومعهم رئيس كتاب الدولة والدفتردار ثم حضروا جميعا الى القاهرة لتقرير الصلح وقد جنح الفريقان اليه حقنا للدماء وأظهر الفرنسيس من المسالمة ما أوثق معه جانبهم وزال عن رجال الدولة الخوف من مكرهم فحصل الاتفاق على مصالحة تضمنت اثنين وعشرين شرطا وهي معربة

قد صار الاتفاق مابين كل من الجنرال دزه والجنرال بوسليك مدير الحدود العام النائبين عن الجنرال كلايبر قائد عموم جيوش الفرنسيس بمصر من جهة وما بين سامي المقام مصطفى رشيد أفندي الدفتردار ومصطفى راسيه افندي رئيس الكتاب المفوضين بكمال التفويض من قبل حضرة الوزير يوسف باشا من جهة أخرى على ماهو آت

حقنا للدماء واستبقاء للنوع الانساني من غوائل الحروب وتوالي الخطوب قد رغب

ديوان الجمهورية الفرنساوية في عقد هــذا العهد باخلاء الديار المصرية من جميع الجيوش الفرنساوية رجاء أن تذهب الوحشــة الموجودة الآن مابــين المشيخة الفرنساوية والدولة العثمانية وتتوطدبه أيضا دعائم السلام في انحاء المغرب ولذلك قد صار التوقيع ممن ذكروا عــلى الشروط الآتيــة عهــدا وميثاقا كافلين باخــلاء الديار المذكورة من جميع جيوش المشيخة المشار اليها

الشرط الاول ✿ تنسحب العساكر والاجناد الفرنساوية بجميع أسلحتها ومهماتها وآلات حربها وذخيرتها الى ثغور الاسكندرية ورشيد وأبى قير ليسيروا منها على ظهور السفن التى ترد من جانب المشيخة وان لم توجــد فمن طرف الدولة العثمانية بقــدر الكفاية وقد تعين لذلك مدة شهر واحد وبعد مضى هذه الوعدة التى تبتدئ من تاريخ التوقيع على هــذه الشروط يحتل بقلعة الاسكندرية نائب من قبل الباب العالى ومعه خمسون شخصا

الثانى ✿ تحصل المهادنة مدة ثلاثة أشهر لايحصل فيها حرب بكامل الديار المصرية اعتبارا من تاريخ التوقيع على هــذا العقد واذا انقضت هــذه المدة قبل أن ترد السفن من طرف الدولة العثمانية اللازمة لنقل جميع العساكر جاز تمديدها لاجل تتمكن معه الدولة المشار اليها من اعداد السفن اللازمة لذلك ووجب محافظة كل من الفريقــين على مابيده من المواقع والحصون والقلاع منعا لما عساه ان يحدث من الفتن بأسباب دخول العساكر العثمانية أو من خروج الأهالى عن الطاعة

الثالث ✿ انسحاب الجيوش الفرنساوية وتسييرها يكون بأوامر وتعليمات كل من يعينه لذلك الباب العالى والامير كلابير أمــير الجيوش المشار اليها واذا وقع خــلاف بين الوكيلين المذكورين يكون فض هــذا الخلاف والحكم فيــه موكولا لمهدة الســير سدنى سمث أمير الموارع الانجليزية ويجب ان يتبع فى فضــه الأصول المقررة فى القوانين البحرية المرعيــة بالدولة الانجليزية

الرابع ✿ اخلاء كل من قطية والصالحية من جميع الجيوش الفرنساوية يكون فى بحر ثمانية أيام بالاقل وعشرة أيام بالاكثر من تاريخ التوقيع على هــذا العهد أما المنصورة فمن بعد خمسة عشر يوما وأما دمياط وبلبيس فمن بعد عشرين يوما والسويس تخلى كذلك قبل اخلاء مصر والقاهرة بستة أيام ولا تخلى البلدان والمحال الواقعــة فى الجهــة الشرقية من النيل الا فى اليوم العاشر من اخــلاء مصر والقاهرة وكذلك مصر السفلى لاتخلى بأجمعها الا بعد خمسة عشر يوما من التاريخ المذكور أما الجهة الغربية ومايتبعها فانها تبقى بيد الفرنساويس الى أن يتم جــلاء جميع العساكر من الصعيد ومصر والقاهرة ويجب ان تسلم كل جهة من جميع الجهات التى كانت مقاما للجيوش الفرنساوية بالحالة التى هى عليها

الخامس ✿ يصير اخلاء مصر والقاهرة بعدمضى أربعين يوما على الاقل وخمسة وأربعين على الاكثر اعتبارا من تاريخ التوقيع على هذا العهد ان أمكن ذلك

السادس ❁ يتعهد الباب العالى ان لايحصل للعساكر والاجناد الفرنساوية لدى انسحابهم من الجهات الغربية أدنى اهانة ولا أن يمسوا باقل ضرر بحيث يخرجون بكامل أسلحتهم وأمتعتهم وذخيرتهم بدون ان يلحق بأحد منهم اهانة لامن افراد الاهالى ولا من افراد العساكر العثمانية

السابع ❁ قياما بهذا الشرط ومنعا لما ربما ان يحدث يجب حتما تبعيد مواقع العساكر الاسلامية عن مواقع العساكر الفرنساوية بقدر الاستطاعة

الثامن ❁ اعتبارا من تاريخ التوقيع على هذا العهد يطلق سراح جميع المسجونين من تبعة الدولة العثمانية على اختلاف أجناسهم فى جميع انحاء القطر ما عدا من هم ببلاد الفرنسيس وكذلك يخلى سبيل جميع التبعة الفرنساوية المسجونين بكامل المدن والاساكل والبنادر العثمانية ويعفى عن جميع من دخل فى خدمة مراسلات وقناصل المشيخة الفرنساوية

التاسع ❁ اعادة املاك وأموال كل من رعايا الباب العالى ورعايا المشيخة الفرنساوية يناط برجال تنفيهم حكومة الدولتين لذلك بالاستانة بحيث يحصل الشروع فى اجراء ذلك عقب اخلاء مصر والقاهرة من العساكر الفرنساوية

العاشر ❁ يعفى عن كل له علاقة أيا كانت مع الجنود الفرنساوية من أهالى مصر على اختلاف مذاهبهم

الحادى عشر ❁ يعطى حتما للجنود الفرنساوية تذاكر المرور اللازمة إما من قبل الدولة العثمانية أومن قبل الدولتين المتحدتين معها وهما دولة الروس والدولة الانجليزية وكذلك لجميع السفن التى تحمل أولئك الجنود الى أوطانهم ببلاد الفرنسيس

الثانى عشر ❁ يتعهد الباب العالى والدولتان المتحدتان معه بأن لايحصل للجنود الفرنساوية مايكدر صفو راحتهم وكذلك يتعهد الجنرال كلابير أمير الجيوش الفرنساوية بأن لايحصل من قبل عساكره مالا يرضاه الباب العالى لا للسفن الحاملة لهم ولا للاساكل والثغور الخاصة بالباب العالى أو بالدولتين المتعاهدتين معه كما انه لايجوز للسفن المذكورة ان تعطف الى أى أسكلة غير الاساكل الفرنساوية الاعند الضرورة

الثالث عشر ❁ تنفيذا لهذا العهد وملاحظة لاخلاء الاقطار المصرية من جميع العساكر والاجناد الفرنساوية فى بحر المدة التى وقع الاتفاق عليها قد اتفق الباب العالى والدولتان المتحدتان معه على انه اذا قدم الى مصر فى خلال المدة المقررة للجلاء عنها سفن فرنساوية على غير علم من سفن الدولتين المتعاهدتين مع الباب العالى وجب قيامها على الفور بعد تزويدها بالماء والزاد ولزم رجوعها الى المواني الفرنساوية بلا مهل بناء على تذاكر المرور التى تعطى اليها من جانب الدولتين المتعاهدتين مع الباب العالى واذا تبين ان احدى تلك السفن تحتاج الى ترميم أو تصليح فى بعض آلاتها وجب مكثها حتى يتم تصليحها ثم تقوم الى المواني الفرنساوية بمجرد موافقة الرياح لسيرها

الرابع

الرابع عشر ﴿ يتعهد الجنرال كلابير أمير الجيوش الفرنساوية أن يبلغ ما وقع الاتفاق عليه الى أرباب الحل والعقد بفرانسا بحيث تعطى لمن يتعين لتوصيل هذه الاجناد تذكرة المرور المطلقة تسهيلا لوصول الخبر فى أمد قريب

الخامس عشر ﴿ حيث يلزم الجنود الفرنساوية الحصول على المؤن يوميا بمدة الثلاثة أشهر المعينة لجلائها عن البلاد وكذلك بمدة الثلاثة أشهر التى تبتدئ من يوم نزولهم بالمراكب الى يوم وصولهم فقد تعهد الباب العالى بأن يقدم لهم جميع ما يلزم من قمح ولحم وأرز وشعير وتبن بمقتضى القوائم التى تتقدم من أمراء العساكر المكلفين بذلك وما يكون قد أخذ من ذلك بعد التوقيع على عهد الجلاء يستبعد من مجموع تلك القوائم

السادس عشر ﴿ لا يجوز لامراء الجيوش الفرنساوية بعد التوقيع على عهدة الجلاء أن يضربوا على البلاد ضرائب أو يفرضوا عليها فروضا أيا كانت أو يحدثوا احداثات بل يكون للباب العالى دون غيره الحق فى جميع الضرائب والفرض المقررة اعتبارا من تاريخ التوقيع على العهد وكل ما تركته الجنود الفرنساوية بعد الجلاء من جمال أو هجن أو مدافع أو ذخيرة أو غير ذلك وكذلك الغلال التى تبقى بالاشوان من أصل الأموال المفروضة لغاية تاريخ التوقيع على عهد الجلاء فهذه كلها يصير تقديرها بمعرفة معينين من قبل الباب العالى على يد أمين البحر الانجليزى ومن يعينه الجنرال كلابير من قبله وبتعين ثمنها بحيث لا ينقص عن ثلاثة آلاف كيس وهو ماروى كفايته لنفقة الجند الى أن تصل الى أوطانها وفى حالة عدم بلوغ أثمان تلك الاشياء الى هذا القدر يجب على الباب العالى دفع العجز من طرفه بصفة قرضة وعلى حكومة الفرنسيس وفاء هذه القرضة اعتمادا على سندات الاستلام التى تكون قد اعطيت من الامير كلابير أمير الجيوش الى الباب العالى

السابع عشر ﴿ يدفع مبلغ الثلاثة آلاف كيس المذكور على الوجه الآتى بعد وهو خمسمائة كيس تدفع بعد مضى خمسة عشر يوما اعتبارا من تاريخ التوقيع على عقد الاتفاق بذلك وخمسمائة كيس أخرى تدفع بعد انقضاء ثلاثين يوما وبتمام الاربعين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما وعند تمام ستين يوما ثلثمائة كيس ويدفع أيضا عند تمام سبعين يوما ثلثمائة كيس وعند تمام ثمانين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما ويكون اعتبار مبلغ كل كيس من هذه الاكياس خمسمائة قرش عثمانى وعلى الباب العالى بعد التوقيع على نسختى هذا العقد أن يوجه من قبله الى مصر المحروسة وكافة المدن والبنادر التى تحتلها الآن الجيوش الفرنساوية مأمورين مخصوصين لاجل تسهيل أسباب الجلاء فى أمد مناسب بحيث اذا روى عدم كفاية مبلغ الثلاثة آلاف كيس لنقل الجند على الوجه المرغوب وجب على الباب العالى القيام بصرف ما يرى لزوم صرفه أيضا

الثامن عشر ﴿ جميع الاموال والضرائب التى تكون رجال الفرنسيس قد تحصلت عليها من



البلاد قبل العلم بالتوقيع على عهد الجلاء تقدر وتخصم من مبلغ الثلاثة آلاف كيس المتقدمة الذكر

التاسع عشر ❁ تسهيلا لاسباب الجلاء فى الاجل المضروب لا بأس من نقل الجند بالسفن الفرنساوية الراسية الآن بأساكل النيل من والى الاسكندرية ورشيد ودمياط

العشرون ❁ حفظا لسلامة الممالك الغربية ومنعا لنقل الوباء بالطاعون اليها بواسطة المرضى من الجنود الفرنساوية لاينقل أحد ممن يكون مصابا منهم بهذا المرض أو بغيره من الامراض الاخرى التى لايصح معها السفر بالبحر بل يبقون جميعا فى بيوت المرضى المعدة لهم تحت أمان الوزير الاعظم ومعالجة اطباء الفرنسيس فاذا شفوا من أمراضهم عوملوا فى الحل والترحال بما عوملت به بقية الجنود من قبل كما جاء فى أحكام الشرطين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الاتفاق وعلى أمير الجيوش الفرنساوية أنه عند ركوبهم المراكب للعود الى أوطانهم أن يشدد على ضباطهم غاية التشديد بأن لايسمحوا لهم بالنزول فى أى أسكلة من الاساكل التى هى فى طريقهم الا ما تجيز لهم الاطباء النزول فيها لقضاء مدة الحجر الصحى

الحادى والعشرون ❁ كل خلاف يحدث بعد عقد هذا الاتفاق ولم ينص عنه شئ بهذا الاتفاق يصير فضه بالطرق الحبية بين المأمورين الذين يعينهم الوزير الاعظم والجنرال كلايبر أمير الجيوش لهذا الغرض على وجه السرعة قياما بالجلاء فى الاجل المضروب

الثانى والعشرون ❁ لايعتبر هذا العهد نافذ المفعول الا بعد مضى ثمانية أيام من تاريخ التوقيع عليه من الفريقين بحيث بعد التوقيع عليه يجب مراعاته والعمل به

ورجع كلايبر أمير الجيوش الفرنساوية بعد ذلك من الصالحية الى العادلية ومعه رجل من رجال الدولة العثمانية اسمه محمد اغا فبعث بمحمد اغا المذكور الى القاهرة وأرسل الى المحتسب بأمره بأن يتلقاه ويكرم مثواه فلما كان بعد العشاء دخل محمد أغا الى القاهرة فى موكب فحصل فى الناس ضجة عظيمة وتزاحموا لمشاهدته وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف وقال صاحب عجائب الآثار وانطلقت النساء بالزغاريت من الطاقات واختلفت آراء الناس فى ذلك ولم يعلموا ماهو فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت حسن أغا بسويقة اللالا فأنزل هنالك فلما استقر به الجلوس ازدحم الناس والاعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس قال فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديوانا وجمع العلماء والوجاقلية وأعيان الناس وكبار النصارى من الاقباط والشوام فلما تكاملوا أبرز لهم فرمانا من الوزير فقرئ عليهم بالمجلس فدل مضمونه على انه أغات الجمارك أى المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الاقوات فيشتريها بالثمن الذى يقدره هو بمعرفة المحتسب ويودعه فى المخازن قال وأبرز فرمانا آخر قرئ بالمجلس مضمونه أن الوزير أقام مصطفى باشا الذى كان أسيرا بأبى قير وكيلا عنه

وقائمقامه بمصر الى حين حضوره وأن السيد أحمد المحروقى كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية وانفض المجلس على ذلك وأخذ السيد أحمد المحروقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الاسواق والحرف وشرعوا فى تحكير الاقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس قال ودهى الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين وكان أول قادم فيهم أمير المكوسات ومحكر الاقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم قال واجتهد السيد أحمد المحروقى فى توزيع ذلك وجمعه فى أيام قليلة فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله واخراجه عن طيب نفس وانشراح وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة قال كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم اه

وجاء مصطفى أغا من الجيزة وسكن بيت عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين وأرسل الوزير الفرمانات الى البلاد وعين المعينين والمباشرين لطلب الاموال والغلال والكلف من الاقاليم وأرسل الى البنادر وجعل فى كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة ووضعها بالمواصل * وجعل العامة وسفلاء العقول من أهالى القاهرة ومصر ينظرون الى الفرنسيس كافة بعين السخط والسخرية وتطاولوا عليهم بالسب والتحقير وصار فقهاء المكاتب وعلى الخصوص الصبيان منهم يجمعون الاطفال ويطوفون بهم فرقا وهم يجهرون للنصارى بالسباب وفحش القول وهذر الكلام ولم يملكوا أنفسهم صبرا حتى يتم الجلاء وينقضى الاجل المضروب فنقم الفرنسيس عليهم ذلك وأبغضوهم جدا وصاروا ينظرون الى جميع أهل البلاد بعين القلى ثم أخذوا فى أهبة الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا أكثر الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس وتدرج العساكر العثمانية فى الدخول الى القاهرة وصار فى كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة وجعلوا يشاركون الناس فى حرفهم وصنائعهم كالحامية والقهوجية والخياطين والحلاقين وغيرهم فشق الامر على أصحاب تلك الحرف والصنائع فاجتمعوا وذهبوا الى مصطفى باشا النائب عن الصدر الاعظم وشكوا من فعال العساكر العثمانية فلم يلتفت لشكواهم ثم قدم الوزير يوسف باشا الى مدينة بلبيس ونزل بها ومعه الامراء المصريون وأرسلوا الى مراد بيك الكبير بالحضور الى المعسكر العثمانى فاعتذر حيث كان يومئذ بالصعيد فلم يقبلوا عذره وشددوا عليه فى الحضور قيل فسأل فى ذلك كبير الفرنسيس سرا فأذن له وكان سفيره فى ذلك عثمان بيك البرديسى فحضر مع ابراهيم بيك الكبير واجتمع بالوزير يوسف باشا فخلع عليهما وعاد مراد بيك فخيم بجهة العادلية وحضر حسن أغا نزل أمين أحد رجال الدولة ودخل القاهرة فاخلى الفرنسيس عند حضوره قلعة الجبل وبقية القلاع والحصون التى أحدثوها ونزلوا منها فلم يحتلها أحد من العساكر العثمانية وأعرضوا عن

المحاذرة استخفافا بالأمر ودخل الكثير من الامراء والعساكر المصرية الذين كانوا فروا عند
دخول الفرنسيس وأرسل ابراهيم بيك الى السيد أحمد المحروقى يطلب بعض الثياب لمماليكه
فاخرجت لهم الخيام والتراتيب وهيأت نساء الامراء والجند احتياجاتهم ولازم الخدم
والفراشون الغدوّ والرواح الى مضارب ساداتهم وهم راكبون البغال والحمير الفارهة
وفى حجورهم تعالى الثياب والبقج المزركشة بالذهب والفضة وكذلك الخدم الذين يحملون
الحلوانات والاسمطة وهم يتفننون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن للنصارى
من أهل البلاد والفرنسيس بمرأى منهم ومسمع ولما استقر المقام بالوزير يوسف باشا فى مدينة
بلبيس وذلك فى أخريات رمضان من السنة بعث بنصوح باشا والامراء المصريين الى القاهرة
فوصلوا الى الخانكاه ثم الى المطرية وقدم درويش باشا الذى كان والى الصعيد على عهد
حسن باشا أمير البحر ونزل بالشيخ قمر أياما ثم سار الى الصعيد ومعه طائفة من الجند وكذلك
سارت طائفة أخرى الى السويس وأخرى الى المنصورة ودمياط وانبثوا فى البلاد شرقا وغربا
ودخلوا القاهرة جماعات صغيرة وجعلوا يطوفون بالشوارع وانبثت عساكرهم فى الازقة والحارات
يعبثون فيها ويشوشون على النساء والصبيان فلما كان فى اليوم السابع من شوال من السنة
أى سنة أربع عشرة ومائتين حدث أن تشاجر بعضهم مع بعض الجنود الفرنساوية فأدت
هذه المشاجرة الى الملاكمة والقبض بالاطواق ثم الى الضرب واشتد تألب العساكر السلطانية
وأفحشوا فى الضرب فقتل بينهم أحد الفرنسيس وفاض الخبر بذلك فى القاهرة فوقعت فى الناس
زعجة وأغلقوا الحوانيت وخاف العساكر السلطانية شر العاقبة فاسرعوا وترسوا ناحية
الجمالية وما والاها واجتمعوا جميعا فى تلك الانحاء خلف المتاريس التى أقاموها ووصل الخبر
بما وقع الى مقدم الجيوش الفرنساوية فجاءهم جماعة من الفرنسيس ووقع القتال
بينهم بالبنادق واشتد فقتل من الفريقين وباتوا ليلتهم وهم على أهبة الحرب والقتال فأصبحوا
وقد تداخل كبراؤهم فى الامر وأزالوا المتاريس وانكف الفريقان عن القتال وشدد مصطفى
باشا فى البحث على مثيرى هذه الفتنة فكانوا ستة فقبض عليهم وأمر بهم فقتلوا جهارا
وأرسل رؤسهم الى أمير الجيوش الفرنساوية فلم يطب خاطره وطلب سرعة خروج جميع
من دخل القاهرة ومصر من العساكر العثمانية حتى ينقضى الأجل المفروض واذا دخل
منهم أحد الى المدينة فبغير سلاحه فلم يسع مصطفى باشا الا الاذعان وأمر فنادوا على جميع
من كان فى مصر والقاهرة من الجنود العثمانية فخرجوا على الفور ووقف جماعة من العساكر
الفرنساوية خارج باب النصر رباطا فكان اذا أراد أحد من العساكر أو الاعيان من
العثمانيين الدخول الى المدينة ترجل عن دابته عند قربه منهم ونزع عنه جميع سلاحه ثم
يتركه عندهم ويدخل ومعه شخص أو شخصان موكلان به يمشيان أمامه حتى يقضى حاجته
ويرجع فاذا وصل الى العسكر المرابطين أعطوه سلاحه وظل الحال هكذا أياما وسافر فريق
من الجند الفرنساوية الى الاسكندرية بمتاعهم وأثقالهم وفيهم الامير دوريجيه النائب العام
والامير ديزه سر عساكر الصعيد والامير رئيس الكتاب ومدير الحدود ولبثوا بالاسكندرية

أياما

أياما قد تأهبوا فى خلالها الى ركوب السفن الى أوطانهم قيل فلما صاروا على ظهور السفن بدت لهم من سفن الانجليز اشارات الوحشة وعلامات الانتقام فاحجموا عن السير وبعثوا الى الامير كلابير يعلمونه بالخبر فأرسل الى الصدر الاعظم يعلمه بنوايا الانجليز نحو الجنود الفرنساوية ومخالفتهم لاحكام العهد فاجابه بجواب لم يرضه وأصبح زاحفا الى سطح الخانكاه وكان ذلك فى آخر المهلة المتفق عليها فى دخول الصدر الاعظم الى القاهرة وجلاء الفرنسيس عنها فلما رأى الامير كلابير ذلك طلب ثمانية أيام أخرى آجلة زيادة على أيام المهلة المقررة فأجيب الى ذلك ووصل الامراء المصريون وجيوش نصوح باشا وكثير من العساكر العثمانية الى ناحية المطرية وعسكروا هنالك وكان من الفرنسيس أن جعلوا الثمانية أيام التى طلبوها ظرفا لجمع عساكرهم وطوائفهم من البلاد القبلية والبحرية ونصبوا معسكرهم على ساحل النيل متصلا باطراف المدينة ممتدا من مصر القديمة الى شبرا وترددوا الى نواحى القلاع التى كانوا أنشؤها داخل البلد فلم يكن بها أحد من العساكر العثمانية فأخذوا فى رد آلات حربهم وذخيرتهم من بارود وقنابل ومدافع وغيره الى تلك القلاع ليلا ونهارا والناس يتعجبون من ذلك ومصطفى باشا نائب الصدر الاعظم ومن معه يشاهدون ذلك وهم فى شاغل عنه قيل وكان السبب فى ذلك هو ماظهر من سوء نوايا أمير العمارة الانجليزية بسفن الفرنسيس الحاملة لعسكرهم وان بعض أصدقاء الفرنسيس من جماعة الانجليز أبلغوهم أن الصدر الاعظم اتفق مع أمير العمارة الانجليزية على الاحاطة بسفن الفرنسيس اذا صارت على ظهر البحر فلما وقع ماسبقت الاشارة اليه تحقق الامير كلابير صحة الخبر وأرسل الى يوسف باشا الوزير فلم يجبه بجواب شاف بل أسرع فى الرحيل والقدوم الى مصر كما تقدم القول

وكان الفرنسيس عند ماتراسلوا وترددوا على معسكر يوسف باشا عرفوا عدد جنوده وأحوالهم وما هم عليه من القوة والضعف وتحققوا ضعفهم عن المقاومة وقد ردوا أدوات حربهم وجميع آلاتهم الى القلاع وحصنوا الجهات وأبقوا جماعة وقيدوا بتلك القلاع والحصون عدة من عسكرهم واستوثقوا من ذلك جيدا ثم خرج من بقى وهم السواد الاعظم الى ظاهر القاهرة عند قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحى ولم يبق فى المدينة منهم الا من كان بداخل القلاع ونفر ببيت الالفى بالازبكية وبعض بيوت أخرى من الجهة المذكورة ولبثوا الى العشرين من شوال من السنة ثم أرسل كلابير فى طلب مصطفى باشا وحسن أغا نزل امين فلما تمثلا بين يديه أمر فقبض عليهما وأرسلوهما الى الجيزة وسجنوهما بها فلما كان ثالث عشرى الشهر المذكور ركب الامير كلابير قبل طلوع الفجر وسار بعسكره ومدافعه وقد قسم العسكر الى قسمين قسم سار الى معسكر الوزير يوسف باشا وقسم سار الى من هم بالمطرية من الامراء المصريين والجند الذين معهم فلما صاروا على مقربة منهم رموهم بالبنادق وتابعوا الرمى بقنابل المدافع وأحدقوا بهم واشتدوا فى الرمى شدة بالغة فولوا الفرار منهزمين وتركوا خيامهم وجميع آلات حربهم وركب نصوح باشا ومن معه

من الامراء المصريين وطلبوا جهة القاهرة فتركهم كلابير ولم يلتفت لصدهم عنها وسار خلف الفارين الى الخانكاه وهو يعمل السيف فى أقفيتهم وقد نهبوا جميع مافى معسكرهم وأتلفوا المدافع وأخذوا جميع ماوجدوه من متاع وغيره ولحقوا بعسكر الصدر الاعظم فأرسل اليه كلابير يأمره بالرحيل فى مدة لاتتجاوز اربعا وعشرين ساعة فلم يسعه المخالفة وسار فسار خلفه كلابير بجيوشه وكان أكثر عساكر الصدر الاعظم متفرقة فى هذا اليوم فى انحاء القرى والبلدان لجمع المال ومفردات الفرض والتشديد على الرعية والتضييق عليهم فسمع أهالى القاهرة ومصر أصوات المدافع والبنادق فهاجوا وماجوا وتراكضوا الى أطراف البلد فصادفوا فى طريقهم بعض رعايا الفرنسيس فقتلوهم وذهبت جماعة منهم الى بركة الازبكية فنهبوا ماوجدوه فيها حيث كان معسكر الفرنسيس وجعلوا يكثرون من الجلبة والصياح وهم لايعرفون السبب الحامل لهم على ذلك سوى ما سمعوه من أصوات المدافع والبنادق وخرج السيد عمر نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقى قال صاحب عجائب الآثار وانضم اليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وكذلك حسين أغا شنن اخو أيوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة الناس وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل منهم السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاوباش وجعلوا يطوفون بالازقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق وخرج الكثير منهم الى خارج البلد على تلك الصورة فلما ارتفع النهار حضر بعض الاجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشئ لجهلهم أيضا حقيقة الحال قال ثم لم يزل الحال كذلك الى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة على الشرح المتقدم ذكره وخلفهم ابراهيم بيك الكبير ثم أخرى وخلفهم سليم أغا ثم أخرى وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بيك الجداوى وعثمان بيك المرادى وعثمان بيك الاشقر وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار وابراهيم كتخدا مراد بيك المعروف بالسنارى ومعهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا الى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعند ماسمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة الى حارة النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين فقفلوا النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ماقدر عليه من العساكر الفرنساوية والروم وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الاسلحة

والبارود

والبارود والمقاتلون اظلهم وقوع هذا الأمر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمى بالبنادق والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها وبات نصوح باشا وكتخدا الدولة وابراهيم بيك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوائف من العسكر بخط الجمالية بوكالة ذى الفقار فلما أصبح الصباح أرسلوا الى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة الفالية فعالجوها حتى فتحوها وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الامراء المصرية على أقدامهم وجروا امامهم الثلاثة مدافع وصحبوها الى الازبكية وضربوا بها على بيت الالفى وكان به بعض المرابطين من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمرت الحرب بين الفريقين الى آخر النهار ثم انكفت وباتوا ينادون بالسهر اه

وفى هذا اليوم وضع أهل القاهرة ومصر والعساكر المتاريس باطراف المدينة كلها وبجهة الازبكية وشرعوا فى بناء وترميم بعض جهات سور المدينة وبالغوا فى تحصينها بجهد الاستطاعة وبات الناس فى تلك الليلة خلف المتاريس فلما أظلم الليل عمد الفرنسيس الى اطلاق مدافعهم على المدينة وواصلوا اطلاق القنابل من القلاع وتابعوا الرمى على خط الجمالية لاجتماع الامراء والجند به وشددوا فامتلأ الجو بدخان البارود وتهدم الكثير من الوكائل والبيوت وكثر الصراخ من كل صوب وحدب وخرج الناس على وجوههم هائمين وعجز الامراء عن الدفاع واسكتت مدافع الفرنسيس ثم أجمع رأى الكبراء والرؤساء منهم على الخروج من المدينة فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم وجود آلات الحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع وفاض الخبر بذلك بين الناس فركب بعضهم بعضا وازدحمت تلك النواحى بالحمير والبغال والخيول والجمال المحملة بالاثقال وباتوا على تلك الصورة المحزنة ووصلت الاخبار بخروج الناس الى أهل خان الخليلى وبعض مغاربة الفحامين والغورية فجاؤا الى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعضدهم طائفة الانكشارية وعمدوا الى خيول الأمراء فحبسوها ببيوت القاضى والوكائل وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة أكثر الناس على مصاطب الحوانيت وبعض الاعيان فى بيوت أصحابهم بخط الجمالية وفى الازقة والحارات وكلهم على أهبة الخروج الى ظاهر المدينة وأصبح يوم السبت فتهيأ كبار الجند والجند كافة والكثير من سكان القاهرة ومصر ممن لاقدرة له على الحرب وساروا الى الازبكية فأقام بعضهم فى البيوت الخالية التى بها وأقام بجماعة أخرى خلف المتاريس واستحضروا عدة مدافع مما كان مدفونا فى بيوت الأمراء قال صاحب عجائب الآثار واستحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار يرمون بها على العدو بدل القنابل وجعلوا يرمون بها على بيت الامير كلابير بالازبكية ولبث عثمان كتخدا بوكالة ذى الفقار فكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنسوى أخذه وذهب به الى الجمالية عند عثمان بيك المذكور ويأخذ عليه البقشيش فحبس البعض حتى يفترى



عن أمره ويقتل البعض ظلما وربما تقتل العامة من تقتله وتأتى برأسه لتأخذ البقشيش وكذلك كل من قطع رأسا من رؤس الفرنسيس يذهب بها اما الى نصوح باشا بالازبكية واما الى عثمان بيك بالجمالية وبعد أيام أغلقوا باب القرافة وباب البرقية وبقية الابواب التى باطراف البلد وزاد الناس فى عمل المتاريس وفى الاحتراس والتحذر وجلس عثمان بيك الاشقر عند متاريس باب اللوق وناحية المدابغ وعثمان بيك طبل عند متاريس الحجر ومحمد بيك المبدول عند الشيخ ريحان ومحمد كاشف أيوب وأصحاب أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير عند الناصرية ومصطفى بيك الكبير بقناطر السباع وسليمان كاشف الجزاوى عند سوق السلاح وأولاد القرافة والعامة وزعر الحسينية والعطوف عند باب النصر مع طائفة من الانكشارية وباب الحديد وباب القرافة وطائفة خان الخليلى والجمالية عند باب البرقية المعروف الآن بالغريب ولم يبق أحد من أهل البلد الا وانضم الى من يقرب اليه من طوائف العسكر بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة باطراف البلد عند الابواب والمتاريس والاسوار وأقام بعض العساكر العثمانية ومعهم جماعة من الاهالى بالاسلحة عند الجمالية حتى اذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بفريق منهم ولم ينم أحد فى بيته الا الضعيف وكان ناصف باشا وابراهيم بيك الكبير ومن معهما من الانكشارية والارنؤد والدلاة وغيرهم مرابطين جهة الازبكية وناحية باب الهواء والرحبة الواسعة عند جامع أزبك والعتبة الزرقاء وأنشأ عثمان بيك كتخدا معملا للبارود ببيت قائد أغا بخط الخرنفش وأحضر الحدادين والنجارين والسباكين لسبك المدافع والقنابل واصلاح المدافع التى وجدت فى بيوت الامراء وعمل العجلات وما يلزم للقتال واهتم لذلك اهتماما عظيما وأرسلوا فاستحضروا بقية المدافع التى كانت بمعسكر المطرية وقد عطلتها عساكر الفرنسيس فكانوا كلما أدخلوا مدفعا أدخلوه بجمع عظيم من الاوباش والحرافيش والاطفال ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمات من مثل قولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان وغير ذلك اهـ

واشتدت عزيمة الامراء المصريين وبدا منهم غاية الهمة والاقدام وثابروا على القتال من خلف المتاريس وظهر رجل مغربى قيل انه الذى كان يقاتل الفرنسيس بالبحيرة واجتمع اليه طائفة من المغاربة ممن كان قدم مع الجيلانى الذى سبق الكلام عنه ففعل المغربى المذكور ما لا خير فيه من النهب والقتل والسبى وكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبسها ومعه جمع من العوام وأسافل الناس والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب وكانوا يقطعون رؤس الاطفال وبعض البنات طمعا فيما عليهن من الحلى وتتبع الناس عورات بعضهم وما دعتهم اليه النفس الامارة بالسوء واتهم الشيخ خليل البكرى بانه يسالم الفرنسيس ويرسل اليهم الاطعمة وغير ذلك فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض الاوباش من العامة ونهبوا داره

واخذوه

وأخذوه مع أولاده ونسائه وأحضروه الى الجمالية وهو ماش على أقدامه حاسر الرأس فكان العامة يخاطبونه بفحش القول ويكثرون من سبه ولعنه فلما مشاوه بين يدى عثمان كتخدا هاله أمره وطيب خاطره وسيره بنسائه الى دار بعض الاعيان وطلبت العساكر النفقة فبادر السيد أحمد المحروقى وبقية التجار وأصحاب المظاهر من الناس بالنفقة على الجند والامراء والمقاتلين من مأكل ومشرب وكذلك فعل جميع أهل القاهرة ومصر ❁ أما الفرنسيس فانهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالمدينة وبيت الالفى وما والاه من البيوت الخاصة بهم كل ذلك ولا يعلم أحد حقيقة الحال ولا ماجرى بالفرنسيس الذين ساروا مع كلابير خلف عسكر الصدر الاعظم يطاردونهم من بلد الى آخر واختلفت فى شأنهم الاقوال وكان الصدر الاعظم قد ترك ببلبيس فريقا من عسكره أوهم تخلفوا عنه بعد أن مزقت شملهم العساكر الفرنساوية فسارت اليهم طائفة من الفرنسيس وحاصرتهم وشددت عليهم وضيقت فاستأمنوا فأخرجوهم بغير سلاح وصرفوهم حيث شاؤا فذهبوا أشتاتا بالارياف يتكففون الناس ويأوون الى المساجد الخرب بحالات أكثرهم من العرى والجوع ولحق بعض الامراء المصريين بالصدر الاعظم عند الصالحية فعابوا عليه فعله وقبحوه وبالغوا فى سوء تدبيره وخاطبوه بيدىء الكلام وفحش القول فاعتذر وقال انه لم يكن عليه أهبة القتال لترك الاسلحة والكراع بقلعة العريش اعتمادا على ماتقرر بينه وبين مقدم الجيوش الفرنساوية من الصلح وانه لم يكن ليعتقد بقطعة الفرنسيس الى حد كشف ماديره عليهم مع أمير السفن الانجليزية عند ركوبهم السفن فطلب منه عثمان بيك أن يأمر بجمع الجنود الهائمة على وجهها كالابل وهو يسير بهم لقتال العدو فأجابه الى ذلك وخاطب العسكر وبذل لهم الرغائب فامتنعوا ولم يمتثل منهم الا المطيع وهم لايبلغون الالف وعادوا على إثرهم وجمعوا اليهم المتشردين منهم ورجعوا يريدون قتال الفرنسيس فنزلوا بوهدة على مقربة من القرين حيث كان الفرنسيس فى قلة يستكشفون مواقع العدو فقاموا عليهم بالنبابيت والحجارة فأصابوا ترجمان الامير كلابير وسقط على الارض وتسامع المسلمون فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنسيس عسكرهم فلحقوا بهم ووقع القتال بين الفريقين حتى حال بينهم الليل والفرنسيس يطاولونهم ثم انكف الفريقان وانحاز كل فريق الى ناحية فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط الفرنسيس بعسكر المسلمين فأصبح المسلمون وقد رأوا احاطة العسكر بهم من كل جانب فركب الفرسان وتبعهم المشاة وقاتلوا حتى اخترقوا صفوف العدو ونجا من نجا وهم قليلون وقتل خلق كثير ورجعوا الى الصالحية على إثرهم فلما رأى الصدر الاعظم ماحل بهؤلاء أيضا وقد كان يعلق الامل بفوزهم رحل الى الشام فيمن بقى أما مراد بيك الكبير فانه لما رأى هجوم الفرنسيس على من كانوا بالمطرية مع نصوح باشا وكان هو على مقربة من المقطم ركب من ساعته هو ومن معه ومروا بسفح الجبل وساروا الى دير الطين وعسكروا فيها لينظروا مايحصل بعساكر السلطان وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين وحافظ على عهده وولائه للفرنسيس واشتد الخوف والفزع بنصوح



باشا ومن معه من الامراء المصريين لما علموا بما أصاب الصدر الاعظم وجنوده وخارت منهم العزائم وذهب الصبر والجلد ولكنهم خافوا أيضا عاقبة صرف من اجتمع عليهم من العامة والحرافيش وأهل العطوف وأخلاط العسكر فكانوا يذيعون بينهم أخبارا ملفقة لاأصل لها ويمنون الناس بقرب حضور الصدر الاعظم بجيوشه المظفرة وتابعوا المناداة بالتركى والعربى بالتحريض والاجتهاد والحرص على الصبر والقتال وملاقاة العدو ❊ وبينما الناس على هذا الحال وتعلق الآمال بقرب عودة الصدر الاعظم وجيوشه اذ حضر فريق من الفرنسيس نجدة لاخوانهم الذين بالحصون والقلاع التى بداخل البلد ووقفت طائفة منهم خارج باب النصر وباب الحسينية ونهبوا زاوية الدمرداش وما حولها كقبة الغورى والمنيل وعسكروا على بعض التلول ورجع فى هذه الاثناء طائفة قليلة من عسكر الدولة وهم الذين كانوا بالقرى والارياف يقبضون الكلف والفرض بأمر الصدر الاعظم فلما صاروا عند أبواب المدينة دفعتهم طوائف الفرنسيس فدافعوا عن أنفسهم حتى تمكنوا من دخول المدينة ففرح الناس بقدومهم وتقوت نفوسهم فكانوا يقولون للناس انهم حاضرون مددا وأن سيأتى على اثرهم عشرة آلاف مقاتل من جيوش الصدر الاعظم لقطع شأفة العدو ❊ وقام ببولاق رجل اسمه الحاج مصطفى البشتيلى وجمع اليه طوائف السوقة وحرافيش السبتية فكانوا عدة وافرة وساروا نحو معسكر الفرنسيس الذى كان بساحل بولاق وهجموا على من كان به من المرابطين فقتلوا منهم من أدركوه ونهبوا جميع مافيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا الى المدينة وهم يتراحمون وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى لجيوش بونابارته وأخذوا منها ما قدروا على حمله وتترسوا حول بولاق واستطالوا على من كان بها من القبط والشوام فأوقعوا فيهم القتل والنهب وفعلوا مالا خير فيه فكان البلاء عاما والخطب شديدا جدا

ولما استوثق الامير كلابير من هزيمة الوزير يوسف باشا وعجزه عن الرجوع وهروبه الى الديار الشامية وضع بالصالحية رباطا من الفرنسيس وكذلك بالقرين وبلبيس وسار الى القاهرة وقد بلغه خبر دخول نصوح باشا اليها وماجرى على يديه من قتل ونهب وتخريب وتعييب وغير ذلك فوصلها بعد ثمانية أيام من ظهور الفتنة ودخل الى داره بالازبكية من غير ممانع اذ لم يقف فى طريقه أحد من الجند ولا من العامة وأمر فأحاط جنده بالقاهرة وبولاق من الخارج وشددوا فى الحصار فصار لايدخل اليها أحد ولايخرج منها أحد ومنعوا عنهما الوارد من الاطعمة ثم جعلوا يطلقون عليهما المدافع ويراسلون القنابل من أعلى التلال والقلاع ليلا ونهارا واشتدوا فى ذلك شدة بالغة وقد عدمت الاقوات وعز وجود الخبز وصار العساكر السلطانية الذين بالقاهرة يخطفون مايجدونه بأيدى الناس من المأكل وغلا سعر الماء المأخوذ من الآبار والاسبلة حتى بلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا اذ تعذر الوصول الى النيل ❊ قال صاحب عجائب الآثار وتكفل التجار ومساتير الناس والاعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم فألزموا الشيخ السادات بكلف الذين عند قناطر

السباع

السباع وأما أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتاوس وملطى فانهم طلبوا الامان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا فى دورهم وهم فى وسطهم وخافوا من نهب دورهم اذا خرجوا فارين فأرسلوا اليهم الأمان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والامراء وأعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقوب فانه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الاولى فكان معظم حرب حسن بيك الجداوى معه هذا والمناداة فى كل يوم بالعربية والتركية على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس قال واتهم مصطفى أغا مستحفظان بموالاة الفرنساوية وان فى بيته جماعة من الفرنسيس فهجم العساكر على داره بدرب الحجر فوجدوا أنفارا قليلة من الفرنسيس فقاتلوا ودافعوا عن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض على حمية حتى خلصوا الى الناصرية وأما الاغا فانهم قبضوا عليه وأحضروه بين يدى عثمان كتخدا ثم تسلمه الانكشارية وخنقوه ليلا بالوكالة التى عند باب النصر ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد واستقر عوضه جاهين كاشف الساكن بالحرنفش فاجتهد وشدد على الناس وكرر المناداة ومنعهم من دخول الدور وكل من وجده داخل داره مقته وضربه فكان الناس يبيتون بالازقة والاسواق حتى الامراء والاعيان وهلكت البهائم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والادريس بحيث صار ينادى على الحمار أو البغل المعدد الذى قيمته ثلاثون ريالا وأكثر بمائة نصف فضة أو ريال واحد أو أقل ولا يوجد من يشتريه وفى كل يوم يتضاعف الحال ويعظم الهول اهـ

وزحف المسلمون على رصيف الخشاب وترامى الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق مابينهم من الدور وكان اسمعيل كاشف الالفى قد تحصن ببيت أحمد أغا شويكار فى نفر من العسكر وقد كان الفرنسيس قبل الجلاء عنه عملوا به لغما بالبارود المدفون فلما استقروا به أشعل الفرنسيس اللغم فارتفع مافوقه من الابنية والناس الى عنان السماء واحترقوا جميعا ومات بينهم الالفى وانهدم ما كان حوله من البناء والدور والوكائل والمبانى العظيمة والقصور المطلة على بركة الازبكية واحترقت جميع البيوت الى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها الى الرحبة المقابلة لبيت الالفى مقر الامير كلابير وكذلك جميع خطة الفوالة وخطة الرويعى بالسباطين العظيمين ومافى ضمن ذلك من البيوت الى حد حارة النصارى فصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن فضعفت عند ذلك عزيمة نصوح باشا والامراء المصريين وكادوا يفشلون وأرسلوا الى مراد بيك الكبير يسألونه الاسراع فى نجدتهم بمن معه وألحوا عليه فأرسل يعتذر ويقول انه محافظ على الجهة التى هو فيها فأرسلوا اليه ليكشف لهم خبر الصدر الاعظم وما جرى عليه فأرسل يقول لهم اعلموا أن الفرنسيس اذا ظفروا بأحد من المسلمين فلا يقتلونه ولا يضربونه فاذا أحسنتم فافعلوا أنتم كذلك وخابر وهم فى الصلح فهو خير لكم وأبقى وانجلوا عن البلاد سالمين فخنق حسن بيك

الجداوى وعثمان بيك الاشقر وغيرهم من المسلمين عند سماعهم هـذا الكلام وسفهوا رأيه وقبحوا قوله ورموه بالموالاة للفرنسيس فأشار ابراهيم بيك الكبير بذهاب البرديسى اليه ومعه عثمان بيك الاشقر ليبينا له خلطه وشططه فذهبا ورجع عثمان بيك وقد تبـدلت أحواله وتغيرت أفكاره وذهبت عنـه تلك الحدة التى كانت تزعجه وجنح لرأى مراد بيك فداخلهم من ذلك الفتور وكاد يتولاهم الملل وقد اشتد الخطب وعظم البلاء وعم الكرب وتوالى سقوط القنابل عـلى الدور والمساكن من القلاع وكثر صـياح النساء فى البيوت وبكاء الصغار من الخوف والهلع والجوع ومات الكثير من النساء والاطفال والشـيوخ والحيوانات والطيور وغير ذلك تحت ردم الدور والمساكن التى سقطت وكان مقام الرجال بالازقة والاسواق ليلا ونهارا ومقام النساء والصبيان بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الابنية الى غير ذلك وكان المشايخ والسيد أحمد المحروقى والسيد عمر نقيب الاشراف يمـرون فى كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحضونهم على الجهاد وبقى الحال على هـذا الوصـف عشرة أيام كوامل وترددت الرسل من أصحاب مراد بيك الكبير بين الفرنسيس والامراء المصريين بشأن الصلح وجلاء جميع العساكر السلطانية عن البلاد فلم يتفقوا عـلى أمر ما فلما كان اليوم الثانى عشر أمر كلابير فأقاموا ببركة الازبكية فسطاطا لطيفا ورفعوا عليه علما وانكفوا عن الرمى فى تلك الليلة وأرسل كلابير يطلب المشايخ ليتكلم معهم فيما فيـه المصلحة فأمرهم نصوح باشا بالذهاب فسار اليـه جماعة منهم فلما استقر بهم المقام مع الامير كلابير عاتبهم على ماوقع ثم أمن جميع الرعيـة وعفا عما سلف بشرط خروج نصـوح باشا وجلاء جميع العساكر السلطانية وارتحالهم الى حيث الصدر الاعظم وعلى الفرنسيس النفقة عليهم بقـدر الكفاية وأما الجنود المصرية الذين أتوا معهـم فن شاء منهم الجلاء فله مالهـم ومن شاء البقاء بقى معـززا وان الجـرحى والمرضى من العساكر العثمانيـة ينزعون عنهـم أسلحتهم و يعالجون فمن تم برؤه منهم وشاء الاقامة فعززا أوالرحيل فله ما كان لاصحابه من الكلفة حتى يصـل الى وطنه فخرج المشايخ الى هـذا الصلح وتقررت القاعدة بينهم على ذلك ورجعوا فلما كان الغد شاع أمر الموادعة واستفاض أمر الصلح وعلم الانكشارية بخبره فقاموا على ساق وقدم وقالوا لايكون هذا أبدا وخرجوا وخرج العامة معهم وسبوا المشايخ وقبضوا على اثنين منهم وأوسعوهـما ضربا ورموا عمائمهما قال صاحب عجائب الآثار وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هـذا الفضول وشدد فى ذلك الرجل المغربى الملتف عليه اخـلاط العالم ونادى من عنـد نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنـه ضرب عنقه قال وكان السادات ببيت الصاوى فتعبر واحتال بأن يخرج وامامه شخص ينادى بقوله الزموا المتاريس ليتقى بذلك نفسه من العامة وكان قصد المغربى المذكور دوام الفتنة ليتوصل بها الى مايريده من النهب والسلب والتصور بصورة الامارة باجتماع الاوغاد عليـه وتكفـل

الناس

الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم اليه واشتطاطه فى المأكل مع فقد الناس لأدنى مايؤكل حتى انه كان اذا نزل جهة من جهات المدينة لاظهار أنه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول لا آكل الا الفراخ ويظهر انه صائم فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته فى هذه الشدة بطلب أخل المأكولات وما هو مفقود قال ثم هو مع ذلك لايغنى شيأ بل اذا دهم العدو تلك الجهة التى هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان دينه وسجيه اه

ولما وقع من الانكشارية والعامة هذا التظاهر ومانعوا فى امضاء الصلح لم ترد العلماء على الامير كلابير جوابا وأطلقوا مدافعهم على معسكر كلابير وأكثروا من اطلاق البنادق اعلانا بأنهم مازالوا على قدم الدفاع فأرسل كلابير يطلب الجواب فأجابه الباشا والكتخدا إن العسكر يرفضون كل صلح وهم يقولون لانرجع عن حرب الفرنسيس حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا فأرسل عند ذلك كلابير مكاتبة يقول فيها قد عجبنا من قولكم ان العساكر لم ترض بالصلح فكأن الامر بيدهم وكيف يكون الامير أميرا على جيش ولاينفذ أمره فيهم ثم أرسل كلابير رسولا الى أهل بولاق أيضا يطلبهم للصلح وترك الحرب ويحذرهم العاقبة فلم يذعنوا فكرر عليهم الطلب فكانوا لايزدادون الاعنادا فأرسل كلابير أحد فرسانه فطاف ينادى بالامان فقام عليه العامة وأنزلوه عن فرسه وقتلوه وظن الناس بالقاهرة ومصر وبولاق أن الفرنسيس انما يطلبون الصلح لعجزهم وعدم قدرتهم على استمرار القتال فلما علم كلابير بما فعلوه برسوله غضب وأمر فأطلقت عساكره المدافع على المدينة ووالوا الرمى بالقنابل من جميع الحصون والقلاع وراسلوا نيران البنادق واستمروا على هذا الحال الشديد الى يوم الخميس ثانى عشرى شوال من السنة فلما كان ضحوة هذا اليوم غامت السماء وأرعدت وأبرقت ثم أمطرت مدرارا وطالت وأظلمت الدنيا واشتد المطر وانفتحت أبواب السماء فانهمل السيل انهمالا عظيما لم يسبق له مثال وكثرت الاوحال وتعطلت الطرق بالقاهرة ومصر وبولاق فاشتغل الناس والعساكر بنزح المياه من بعض الطرق وحمل الاوحال تخفيفا لها فانتهز الفرنسيس هذه الفرصة المناسبة وهجموا على القاهرة وبولاق من كل ناحية وكبسوا من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريش وجهة بركة الرطلى وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة وكانوا يرمون القنابل من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ويزحفون وأمامهم المدافع وخلفهم المشاة بالبنادق يتابعون رميها وطائفة أخرى بأيديهم فتائل مغمسة بالنفوط والزيت والقطران وكعكات مدبرة تلتهب عند نزول الماء عليها فكانوا يلقونها ملتهبة بالسقائف وأبواب الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة والمسلمون يقاتلون قتال الابطال وانتقل الاغا وأغلب العامة الى تلك الجهات وزلزلوا فى ذلك اليوم زلزالا شديدا وهاج العامة وأكثر النساء من الصياح والولولة وتركن البيوت وخرجن حاسرات عن وجوههن فكانت النيران تأخذ كل من صادفته ثم هجموا هجمة رجل واحد على مدينة

بولاق من ناحيتى النيــل وبوابة أبى العلا فقاتل أهل بولاق وبذلوا الجهد حتى أحاطت بهم الفرنسيس احاطة السوار بالمعصم وأخــذوهم من كل جانب وأعملوا فيهــم السيف والتحريق فقتلوا فى هذا اليوم مالا يكاد يدخل تحت الحصر وملكوا بولاق عنوة وفعلوا بأهلها ماتشيب من هوله النواصى وصارت القتــلى مطروحة تدوسها سنابك الخيــل وأقدام الناس فى الازقة والطرقات واحــترق أكثر المدينــة من الدور والقصور المطلة على النيــل وخرج الناس على وجوههم هائمين الى الصعيد ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ومنعوا من يخــرج منها واستولوا على الخانات والوكائــل والحواصــل والودائع والبضائع وملكوا الدور ومافيها من متاع وأموال ونهبوا جميع ماعثروا عليه وصنعوا بكبارها وتجارها مالاخيرفيه وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ثالث عشرى شوال واختفى البشتيلى زعيم عصابة بولاق ففتشوا عليه وقبضوا عليه وعلى وكيله وجميع أنصاره وكبار العصابة كافة وسجنوهم وضيقوا عليهم عدة أيام ثم أطلقوهم ماعــدا البشتيلى وكبار عصابته وكان البشتيلى هذا قد بعث فى أيام الفتنة بخطاب الى عثمان كتخدا يقول فيه ان الكلب دعانا للصلح يريد كلابير فأبينا منه وأرسل الخطاب مع رجل ليوصله الى الكتخدا فوقع فى يد الامير كلابير قبل حركه ذلك الى فعل مافعله ببولاق ثم سلم البشتيلى الى أهل عصابته ووكلهم بقتله جزاء مافعل مما كان سببا لما حل بهم فأركبوه حمارا وطافوا به جميع انحاء بولاق ثم قتلوه بضرب النبابيت وألزم كلابير أهل بولاق بغرامة قدرها مائتا ألف ريال فأدوها وهم صاغرون

❁ أما أهالى القاهرة ومن فيها من العساكر العثمانيــة والامراء المصريين فانهــم جعــلوا يقاتلون ويدافعــون جيــوش الفرنسيس الى السادس والعشرين من شــوال حــتى ضــاق خناقهم وكادوا يهلكون من الجوع فضلا عن نيران العــدو فهجم الفرنسيس على المدينــة فى ذلك اليوم من ناحية باب الحديد وناحية كوم أبى الريش وقنطرة الحاجب وغيرها ودخــلوا البلد وهم يحرقون بالفتائل والنيران الموقدة ويجلون العساكر السلطانية عن المتاريس واحدا فواحدا الى أن وصــلوا الى ناحيــة قنطرة الخروب وناحيــة باب الحديد الى قرب الشعرية وزحفوا على المتاريس التى بها فوقعت الهزيمة على من كانوا بها من الامراء المصريين والجند فولوا الادبار وتبعهم العامة بالصــياح والولولة وملك الفرنسيس كوم أبى الريش وصعدوا الى أعلاه وصوبوا أفواه المدافع ناحيــة المسلمين والمسلمون من أســفل الكوم فعملت فيهم نيران المدافع مالايمكن وصفه وقتلت مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكان البرديسى ومصطفى كاشف الاشقر أصحاب مراد بيك يسعون بين نصوح باشا والامير كلابير فى المهادنة والكف عن القتال ويكثرون من الترداد بين الفريقين فلما شاهد نصوح باشا ماحل بعسكره من الفشل والموات جنح الى جميع مايطلبه الامير كلابير وألح فى طلب كف القتال وتقررت القاعدة بين الفريقين على ان الفرنسيس يمهلون نصوح باشا وجميع من معه من العثمانيين والامراء المصريين ثلاثة أيام حتى يتأهبوا للجلاء عن البلاد وجعلوا الخليج بالقاهرة حدا بين مقام الفريقين فى خــلال

ايام

أيام الهدنة وتركوا الحرب وأخمدوا النيران وأخذ العساكر السلطانية والمصرية والامراء من الفريقين في التأهب والاستعداد للجلاء وزودهم الاميركلابر بما لزم من مال وميرة ودواب للحمل وكتبوا بعقد الصلح دستورا من شروطه أن الفرنسيس يبقون عندهم عثمان بيك البرديسي وعثمان بيك الاشقر رهينة ويرسلون ثلاثة من كبار الفرنسيس يكونون مع الكتخدا حتى يصل بمن معه الى الصالحية وأن برافقهم ثمانمائة من جند كلابر ثم يعودوا ومعهم الرهائن وأن من شاء الخروج من أهل مصر فلا حرج عليه ماعدا عثمان بيك الاشقر فانه متى رجعت الرهائن يذهب هو والبرديسي ويلحقان بمراد بيك في الاقليم القبلي * وأمر كلابر بالرهائن من الفرنسيس فذهبوا الى وكالة ذى الفقار وأجلسوهم بجامع الجمالية بالجمالية مع نصوح باشا فلما رآهم العامة هاجوا وماجوا وأرادوا البطش بهم وهموا بقتل عثمان كتخدا فأغلق دونهم الباب ومنع نصوح باشا من دنو العامة من المسجد وركب المغربي الذى تقدم الكلام عنه وسار الى الحسينية وهو ينادى بالجهاد وقتل الكفار فحضر الى عثمان كتخدا من أهل الحسينية من سأله فى ذلك فنهاهم وحذرهم وأمرهم بمنع ذلك المغربي وركب كذلك المحروقي وأمامه بعض العامة ينادون بأن لاصلح ولا اتفاق ولازموا المناديس ومر على هذه الصورة بسوق الخشاب فقام عليه نزله أمين وأوقفه عن التطواف ومنعه من المناداة وفتح فى الحال باب خان ذى الفقار فخرج منه طائفة من الجند وبأيديهم العصى ففرقوا شمل العامة وفرقوا جمعهم وضربوهم بالعصى فانكشفوا وسكن الحال وكان نصوح باشا والامراء المصريون لما دخلوا القاهرة وضربوا على أهل البلاد المغارم وزادوا فى المكوس والمظالم وشددوا فى تحصيلها حتى من المشايخ وأرباب الطرق طالبوا أيضا الشيخ أبا الانوار السادات بمبلغ من المال وجاء السيد أحمد المحروقى بخطاب من كتخدا الدولة بشأن ذلك فاعتذر الشيخ وطلب المعافاة فلم يقبل المحروقى وأبى الا أخذ المقرر فشق الامر على الشيخ وأحزنه جدا قال صاحب عجائب الآثار فكتب له الشيخ تذكرة وصورتها حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وماهو من الظالمين ببعيد

وظننت انك عدتى أسطو بها * ويدى اذا اشتد الزمان وساعدى

فرميت منك بغير ما أملته * والمرء يشرق بالزلال البارد

أما بعد فقد نقضت عهدى وتركت مودة آل بيت جدى وأطعت الطغمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الشغلة فأعنتهم على البغى والجور وساعدت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور من الزامك الكبير والصغير والغنى والفقير باطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات وبالغ فى النهب والفساد غاية الغايات فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى فاستحكم الدمار والخراب ومنعت الاقوات وانقطعت الاسباب * فبذلك كان عسكركم مخذولا وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا كيف لا وأكابركم أضمرت السوء للرزقة فى تضييق معاشهم وأخذ مرتباتهم واتلاف

مابأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم * وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ثم فررتم فرار الفيران من السنور وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الامور * فواغوثاه واغوثاه أغثنا باغياث المستغيثين واحكم بعدلك باأرحم الراحمين اهـ

فلما وقع ما وقع لنصوح باشا وقومه من الامير كلابير فرح الشيخ بخذلانهم وفرح معه أيضا جماعة من المشايخ لخلاصهم من ظلم الجنود العثمانية وأمرائهم وخرجوا جميعا وخرج معهم ابراهيم بيك الكبير وأمراؤه ومماليكه والالفي وأصحابه ومعه السيد عمر مكرم النقيب والسيد أحمد المحروقي وكثيرون من أهل مصر والقاهرة وساروا الى الصالحية وسار معهم حسن بيك الجداوي وأصحابه ودخل الفرنسيس الى المدينة واستولوا على ما كان أعده العثمانيون من المدافع والقنابل والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ والاعيان عصر ذلك اليوم الى مقر الامير كلابير فلما استقر بهم المقام أبرز لهم ورقة مكتوبا فيها مانصه في النصرة لله الذي أمر من آتاه النصر باستعمال الشفقة مع الناس وبناء على ذلك فان أمير الجيوش الفرنساوية لايبخل بالعفو عن جميع الاهالي ولو أنهم شاركوا العثمانيين فيما ارتكبوه من جرائم القتل واراقة الدماء فعليهم اذن أن يشتغلوا بأمر معاشهم * ثم التفت الى المشايخ وقال لترجمانه قل لهم أن يأتوا الينا في غد عند قبة النصر فقاموا من عنده مطمئنين وطافوا بالاسواق وبين أيديهم أرباب المناداة ينادون بالامان العام وباتوا وأصبحوا فركبوا جميعا وذهبوا الى خارج باب النصر وخرج أرباب المناصب وكبراء القبط والشوام فلما تكامل حضورهم رتبوا موكبا وساروا ودخلوا من باب النصر وأمامهم القواصة يأمرون الناس بالقيام ثم عدد عظيم من الفرسان ثم المشاة وأمامهم الطبول والابواق ثم الاعيان والمشايخ والعلماء والامراء والوجاقلية وأتباعهم ثم الامير كلابير وخلفه الامير عثمان بيك البرديسي وعثمان بيك الاشقر وخلفهم طوائف الفرسان وبعد انقضاء الموكب زينت البلد ثلاثة أيام ثم أدب الجنرال كلابير ودعا جميع المشايخ والعلماء والامراء فلما فرغوا من الطعام خلع على الشيخ البكري خلعة عظيمة وقلد محمد أغا الطناني أغاة مستحفظان ثم انصرفوا ونادى الاغا بالامان في تلك الليلة وأصبحوا وقد دعا مراد بيك الكبير الامير كلابير وبطانته ومن معه من المقاتلين الى وليمة أعدها لهم بجزيرة الذهب فذهبوا اليه فبالغ مراد بيك في اكرام الامير كلابير وقدم له تقادم وهدايا نفيسة وكذلك لكل واحد من أركان حرب كلابير وقدم اليه أربعة آلاف رأس من الضأن وعجول البقر وخمول الجاموس وكان قد بعث بها درويش باشا الذي كان بالاقاليم القبلية اعانة الى نصوح باشا ومن معه من الامراء المصريين فسر الجنرال كلابير سرورا عظيما في ذلك اليوم وانشرح صدره وقلد مراد بيك إمارة الصعيد من جرجا الى اسنا ثم عاد راجعا الى داره بالازبكية

ولما كان في صبح يوم الجمعة ثامن الحجة من السنة أي سنة أربع عشرة ومائتين وألف حضر المشايخ والعلماء في زيهم وزينتهم الى بيت الامير كلابير باستدعاء من أجل ترتيب

الامور

الامور وتقسيم الوظائف والمناصب العالية فذهب كل وهو يؤمل بلوغه ماينبغى فلما دخلوا أجلسوهم فى مكان برهة طويلة ولم يحضر اليهم أحد وأهملوا ثم طلبوا الى مكان آخر فدخلوا وجلسوا وأهملوا حصة ثانية أطول من الاولى ثم خرج بعد ذلك الامير كلابير فى أصحابه ومعه ترجمانه فجلس وأصحابه حوله وكلم ترجمانه ثم بعد أن فرغ التفت الترجمان الى المشايخ والعلماء وقال يقول الجنرال انما قد احضرتم اليوم الى هنا من أجل أن تدفعوا الى خزينة الجيش الفرنساوى عشرة آلاف ألف ألف فرنك عبارة عن ألف ألف فرانسة منها خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألف فرانسة على الشيخ السادات خاصة وخمسون ألفا على الشيخ محمد بن الجوهرى وخمسون ألفا على أخيه الشيخ فتوح وخمسون ألفا على الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ العنانى ومائتان وخمسون ألفا نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العساكر العثمانية مثل المحروقى والسيد عمر مكرم وحسين أغا شنن ومابقى من المبلغ توزعونه على التجار والاهالى كل بلد ومايناسب حاله ويبقى منكم هنا خمسة عشر رجلا رهينة فاختاروا من يبقى * ثم قام كلابير من فوره ودخل مع أصحابه الى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب فاستلم فريق من الحراس الابواب ووقفوا دونها بالبنادق يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظر بعضهم الى بعض وهم فى دهشة وحيرة ولم يعاف من هذه الغرامة سوى الشيخ المهدى والشيخ البكرى واشتد بالمشايخ الامر ولم يزالوا على ذلك الى قريب العصر فأفرجوا عمن دخل معهم من خاملى الذكر وأخذ أرباب الديوان فى توزيع المطلوب وتدبيره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوه على الملتزمين وأرباب الحرف الدنيئة وجميع صنوف التجار وقضاة المحاكم وقد وضعوا الشيخ الصاوى والشيخ فتوح بن الجوهرى فى السجن وهرب الشيخ العنانى وكانت داره احترقت فضافوا غرامته على الشيخ السادات ووكلوا بالتحصيل المعلم يعقوب والقائمقام مع الخزنه دار لقبض المتحصل وتدبير الامور والرهونات وركب كلابير مع أصحابه وذهب الى الجيزة ونزل الشيخ السادات يريد الذهاب الى داره فسار معه عشرة من الفرنسيس وجلسوا على بابه الى نصف الليل فحضر اليه عشرة آخرون فأنزلوه من بيته وصعدوا به الى قلعة الجبل وسجنوه فى مكان فهاله هذا الامر وأزعجه جدا فأرسل الى عثمان بيك البرديسى مستغيثا به فركب الى الامير كلابير وكلمه فى أمره فقال كلابير أما القتل فلا نقتله لشفاعتك وأما المال فلابد منه ان طوعا وان كرها ثم أنزلوه من قلعة الجبل وسجنوه فى بيت القائمقام يومين ثم أصعدوه ثانيا الى القلعة وشددوا عليه وضيقوا فلما اشتد به الخطب طلب أن ينزلوه الى بيته ليسعى فى سداد المفروض فأنزل فباع متاعه وأثاث داره وماعنده من المال دفعة فلم يبلغ سوى أحد وعشرين ألف فرانسه لاغير ففتشوا جميع بيته ونبشوا أرضه فلم يعثروا فيه على شئ وكان قد نقل نساءه وولده الى مكان آخر وضيقوا على بقية المشايخ فى تحصيل المفروض فهرب البعض فنهبوا داره واسترحم البعض فخففوا عنه وأضافوا ماخففوه على الغرامة العامة وانبث الاعوان يطالبون الناس ويقبضون على من لم يدفع

ماعليه فاشتد بالناس هذا البلاء وعم الخوف والذل الحقير والعظيم وذهب الدرهم والدينار وعز وجدانهما فصاروا يأخذون المصوغات والامتعة بأبخس الاثمان حتى نفدت أيضا فأخذوا الدواب وخرج الناس من المدينة وأجلوا عنها الى القرى والارياف فرارا فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار

(مطلب)

(مقتل الجنرال كلايبر قائد الجيوش الفرنساوية وما جرى بعد قتله)

لما خرج نصوح باشا من مصر بعد عقد الصلح مع الامير كلايبر وانجلى عن البلاد من كان معه من العساكر السلطانية والامراء والصناجق المصريين ولحقوا جميعا بيوسف باشا صدر الدولة كبر هذا الامر عليهم واستعظموه فجعلوا ينظرون فى أمر الخلاص من شر الامير كلايبر ويتدبرون فى أمر قتله فأرسل أغاة الانكشارية الى حلب يطلب رجلا قادرا مقداما يجسر على قتل كلايبر ومناه بالعطايا الجزيلة والمناصب السامية والتحف الجليلة فحضر اليهم رجل اسمه سليمان الحلبى لم يبلغ من العمر سوى أربع وعشرين سنة فقربه الآغا ومناه بالعطايا إن هو قتل كلايبر فأقسم أنه يقتله وأخذ لذلك خنجرا وسار الى القاهرة ونزل بالجامع الازهر برواق الشوام عند جماعة من مجاورى الشوام له بهم سابق المعرفة ولبث ثلاثين يوما متتبع خطوات كلايبر أينما سار ثم كاشف ثلاثة من المجاورين بما عزم عليه من قتل كلايبر أحدهم اسمه السيد محمد المغربى والثانى اسمه السيد أحمد الوالى والثالث الشيخ عبد الله المغربى وكاشف آخر غيرهم أيضا اسمه السيد عبد القادر الغزى قيل فمنعوه من ذلك ونهوه فلم ينته فلما كان سادس المحرم افتتاح سنة خمس عشرة ومائتين وألف عبر الحلبى النيل الى الجيزة واجتمع بنفر من بحارة زورق كلايبر فسألهم عن كلايبر وعن محل وجوده واقامته وغير ذلك وأراهم أنه رجل غريب يريد الاجتماع به لأمر يهمه كلايبر فأعلموه بأن عادته أن يتجول فى بستان داره فى كل يوم حصة مقررة فتركهم ورجع الى مقره بالازهر وبات ليلته تلك وأصبح يوم سابع المحرم قاصدا الفتك بكلايبر وأعلم السيد محمد الغزى ومن معه بانه سيقتله فى ذلك اليوم وتأبط خنجره وخرج من الجامع وسار الى بيت كلايبر فعلم بخروجه الى الروضة فسار نحوها فصادفه عائدا الى داره بالازبكية فتبعه حتى وصل الى الدار فدخل كلايبر ولبث الحلبى يراقب الفرص حتى علم بنزول كلايبر الى بستانه على عادته فى كل يوم فتمكن من الدخول الى البستان من غير أن يشعر به أحد من الحراس فوجد كلايبر يتمشى ومعه المسيو بروتين كبير مهندسى الجيش فسار الحلبى نحوهما فوقف كلايبر وأشار اليه بيده أن ارجع فلم يرجع فقال له بالعربية مافيش وكررها فلم يرجع وأوهم أن له حاجة عند الجنرال فلما اقترب منه مد يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد اليه الجنرال يده فقبض عليها وضربه بخنجره

أربع ضربات متوالية فخرق بطنه وظهرت أمعاؤه وسقط الى الارض صارخا فصاح كبير المهندسين على الحرس فأسرع الحلبي نحوه وعاجله بضربة فضربه كبير المهندسين عدة ضربات بعصا كانت فى يده فهرب الحلبي واختفى فى مكان خرب بقرب سقاية هناك فسمع الحراس الصياح فدخلوا مسرعين فوجدوا الأمير كلابير مطروحا وبه بعض الرمق وكبير المهندسين ملقى بجانبه ولم يجدوا للقاتل أثرا فاضطربوا وهاجوا وماجوا ونفخوا فى البوق فاجتمع كثير منهم بين فرسان وركبان وذهب فريق الى القلاع وصوبوا أفواه المدافع نحو المدينة يريدون تدميرها وهلاك جميع من فيها وبحث الفرنسيس عن القاتل فوجدوه منزويا فى ناحية من البستان المجاور لبيت كلابير وقيل بل إن جارية سوداء كانت تنظر الى ما وقع من شباك بمنزل سيدها المطل على بستان بيت كلابير وقد رأت القاتل عند ما اختفى فى ذلك المكان فصاحت على الجند الذين كانوا يفتشون عليه ودلتهم على مكانه فقبضوا عليه وأمسكوا معه خنجره ملوثا بالدم ووجدوا بجانب جثة كلابير قطعة قماش مصبوغة باللون الاخضر هى من لباس القاتل قيل ولو لم تدل تلك السوداء على مكان القاتل لتهدمت المدينة بأسرها وقتل جميع من فيها بحد السيف ولما قبضوا عليه سألوه فى الحال عن اسمه وعمره وصنعته وبلده ومحل اقامته فاتضح انه حلبي واسمه سليمان ومهنته كاتب وقد جاء الى مصر يريد الاستخدام بطرف أحمد النجار وهو يأوى بالجامع الازهر وأنكر قتل الامير كلابير ودخوله الى البستان فشددوا عليه وضربوه فاعترف بارتكابه جناية القتل وبأن الذى ساقه الى ذلك أغاة الانكشارية حيث أطمعه فى العطايا الجزيلة والمناصب العالية إن هو فعل ذلك فاستحضروا كبار المشايخ وأخبروهم بخبر هذا الحادث وعوقوهم عندهم الى نصف الليل وألزموهم باحضار الاربعة مشايخ الذين يعلمون بعزم القاتل على فعل القتل فأحضروا ثلاثة وغاب عنهم رابعهم ونقلوا جثة الامير كلابير فكان بها أربعة جروح أهمها فى الجنب الايمن وكانت جثة المسيو بروتاين كبير المهندسين مطعونة ست طعنات أهمها بين ضلوع الجنب الايسر ثم عقدوا مجلسا لمحاكمة القاتل بعد تحقيق وتدقيق أضربنا عن ايرادهما صفحا فحكم عليه بقطع يده اليمنى ثم رفعه على خزوق بالتل المعروف بتل العقارب ويبقى كذلك حتى تأكل الطيور لحمه وأن ينفذ عليه هذا الحكم بعد دفن جثة كلابير بحيث يراه جميع من يمشى فى جنازة كلابير وحكم كذلك بقتل السيد عبد القادر الغزى وأخذ جميع ما يمتلكه لخزينة الجيش ورفع رأسه على بيته كى يرى للناظرين وبجانبه ورقة الحكم وحكموا على محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى بقطع رؤسهم ورفعها على خشب وحرق جثثهم بالنار على تل العقارب بمرأى من سليمان الحلبي ۞ ولما فرغوا من تحقيق مقتل الجنرال كلابير والحكم على قاتله وشركائه أخذوا يشتغلون بأمر دفن كلابير وكان ذلك بعد موته بثلاثة أيام وأقاموا بدله الجنرال جاك منو ونادوا ليلة الاربعاء خامس عشرى المحرم بتنظيف الطرق والشوارع وأصبحوا فاجتمع عسكرهم وأكابرهم وخرجوا بجنازة كلابير ركبانا ومشاة وقد وضعوا جثته فى تابوت



من رصاص ووضعوا التابوت على عربة يجرها أربعة أفراس وعلى التابوت قبعة الامير وسيفه والخنجر الذى قتل به وهو ملوث بدمه ورفعوا على العربة أربعة أعلام والموسيقى تصدح بأصوات الحزن والبنادق منكسة الى أسفل فلما خرج النعش من بيته أطلقوا له عدة مدافع وبنادق وساروا من بيت الازبكية على باب الخرق الى درب الجاميز الى جهة الناصرية فلما وصلوا الى تل العقارب حيث القلعة التى أنشؤها هنالك أطلقوا عدة مدافع وكانوا قد أحضروا سليمان الحلبى وشركاه فى الجناية وأوقفوهم عند القلعة تحرسهم الجند ليشاهدوا مشهد قتيلهم ثم ساروا بالجثة الى أن وصلوا باب قصر العينى فحملوا التابوت ووضعوه على ربوة صغيرة داخل تقفيصة كانوا أعدوها لذلك وعليها كساء أبيض ووقف عند بابها نفر من الجند بالبنادق ملازمين ليلا ونهارا ثم عاد الجمع فأوقف عند قلعة تل العقارب ونفذ الحكم على سليمان الحلبى وأصحابه على الوجه المتقدم فكان النظر مريعا فظيعا للغاية وعند مادنا الجلاد من سليمان ليقد يده اضطرب للغاية وجعل يلتفت يمنة ويسرة كأنه يطلب النجاة فلما رفعوه على الخشبة صاح واستغاث وجعل يكرر كلمات لامعنى لها ثم انصرف الناس وبقى جماعة من الجند حول الخازوق ولما كان ثانى يوم سار القائمقام والآغا الى الجامع الازهر وفتشوا جهاته وأروقته وزواياه بحضرة المشايخ ثم خرجا بمن معهما من الجند ثم عاد الجنرال ومعه القائمقام والآغا بعد أيام وطافوا به ودققوا فى تفتيشه وأمر الجنرال فنبشوا أرضه لاستخراج ماهو مدفون فيها من الاسلحة والودائع فأخذ المجاورون عند ذلك فى نقل أمتعتهم منه وكتبهم واخلاء الاروقة وأحصى الاغا المجاورين وكتب أسماءهم ورسم بأن لايبيت عندهم غريب ولا يؤوا اليهم أحدا مطلقا وأخرجوا منه المجاورين من طوائف الترك فتقدم الشيخ الشرقاوى ومن معه الى الجنرال يحالك فى قفل أبواب الجامع منعا للريبة ودفعا للظنون فأذن بذلك فقفلت ثم جمعوا أرباب الوجاقات وألزموهم بجمع ماعندهم من الاسلحة فجمعوها فكانت شيأ كثيرا جدا وجعلوا من هذا الحين يؤاخذون العامة بأقل سبب ويضيقون ويهددون ويبالغون فى النكاية تشفيا وانتقاما فأخذ بعض الناس يهاجرون الى القرى والارياف ومالوا الى الجلاء عن المدينة تخلصا مما يخشون فأمر عند ذلك الجنرال منو قطاف الاغا ينادى بعدم جلاء الناس ورجوع جميع من سافروا بعد خمسة عشر يوما والا نهبت بيوتهم من غير معاودة فرجعوا على أعقابهم صاغرين فضربوا عليهم غرامة أخرى قدرها أربعة آلاف ألف (لعلها فرنكات) فقرروا منها على العقار والدور مائتى ألف فرانسة على الملتزمين مائة وستين ألفا وعلى التجار مائتى ألف وعلى أرباب الحرف المستورين ستين ألفا وقسموا المدينة الى ثمانية أخطاط وجعلوا على كل خطة منها خمسة وعشرين ألف ريال ووكلوا مشايخ الحارات بقبض ذلك مع الامير الساكن فى تلك الخطة فضاق خناق الناس واشتد بهم الكرب وعجزوا عن السداد فتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة واحتجب الجنرال منو عن الناس وامتنع عن الاجتماع بالمسلمين وكذلك عظماء القواد واستوحشوا وزادوا فى تحصين القلاع

وجددوا

وجددوا منها عدة كثيرة و بنوا بها المخازن والمساكن وصهاريج الماء فى جميع انحاء القطر
حتى فى الصعيد وهدموا كثيرا من اخطاط الحسينية وخارج باب النصر وباب الفتوح من
الحارات والدور وغيرها وزادوا فى التنكيل بالأهالى وفى تذليلهم جزاء ما فعلوه

وبينما هم على هذا الحال من التضجر والتعب اذ قدم على أبى قير والاسكندرية عمارة
عظيمة من السفن الانجليزية وجعلت تغدو وتروح أياما وكان بها أيضا جماعة من
العساكر العثمانية فلما علم الفرنسيس بخبرها خرج فريق منهم يريد البحيرة والناس لاتعلم
ما هنالك واستحضر الوالى والمحتسب مشايخ الحارات والاخطاط وشددا فى التنبيه عليهم
بمراقبة السوقة وملاحظة أحوال العامة والتأكيد عليهم بالخلود الى السكينة وعدم التظاهر
بمظاهر الدين الموجبة لتوغير الصدور وظهور كامن الضغائن وبالغا فى النصيحة الغاية وأعلماهم
بأنهم هم المؤاخذون بذنوب العامة المسؤلون عنها ٭ وبينما كانت العمارة الانجليزية تغدو
وتروح فى عرض البحر بين أبى قير والاسكندرية وتمنع الوارد عنهما كانت العساكر العثمانية
تنحدر من الشام قاصدة ديار مصر ومعهم يوسف باشا صدر الدولة وما زالوا يجدون السير
حتى نزلوا على العريش وعسكروا بها أياما فسار لقائهم طائفة من الفرنسيس ومعهم آلات
الحرب الكثيرة ونزلوا بالصالحية وأقاموا بها أياما وخرج كذلك الجنرال منو فى نفر من أركان
حربه وطائفة من الجند الى البحيرة فلم يستقر بها حتى جاءه الخبر بنزول طائفة عظيمة من عسكر
سفن الحرب الانجليزية الى أرض أبى قير وقد كان لايظن ذلك فسار بمن معه من الجنود من
البحيرة الى انبابه وساروا منها الى مدينة الاسكندرية مسرعين ولحقت بهم طائفة أخرى
ممن هم بالقاهرة ومصر وبرح الخفاء وصارت الحرب أدنى من قاب قوسين وتحقق زحف
بعض مقدمات الجيوش السلطانية الى مقربة من العريش ووردت الاخبار بذلك الى الجنرال
فوريه نائب الغيبة فجمع اليه المشايخ وأرباب الديوان وأعلمهم بخبر وصول السفن الانجليزية
الى أبى قير والاسكندرية وزحف يوسف باشا الصدر الاعظم بعساكره الى العريش ووجوب
أخذ بعض المشايخ رهينة ما دامت الحرب قائمة بينهم وبين العدو فلم يروا بدا من
قبول ذلك بالطاعة و وقع الاختيار على أخذ الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ
الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم الى قلعة الجبل فى الساعة الرابعة من الليل وأنزلوهم
بجامع سارية ونقلوا اليهم أيضا الشيخ السادات وأمروا من بقى من أرباب الديوان وهم
أربعة مشايخ بأن يلازموا شيخ البلد ويداوموا على حض الرعية بالخلود الى السكون
وملازمة الطاعة واستحضروا كثيرا من الاعيان وأصحاب المناصب القديمة على عهد المماليك
وأصعدوهم الى قلعة الجبل رهائن وأكثروا من نقل الذخيرة والامتعة والصناديق والفرش
والاسلحة الى قلعة الجبل ليلا ونهارا ٭ وكان الجنرال منو لما تولى الرياسة لم يحسن التدبير ولم
يفلح فى سياسته لعدم خبرته بالتدابير العسكرية وتجرده عن الهيبة الشخصية فأبغضه كبار
الفرنسيس وقواد الجنود ومقتوه وكان منو قد أسلم ودعا نفسه عبد الله منو وتزوج احدى

بنات المسلمين وولدت له ولدا فسماه سليمان وسكن بخطة سيدنا الحسين وجعل يخالط العامة والسوقة بتلك الخطة ليستميلهم الى محبته وكان ديوان القاهرة الى ذلك الحين مؤلفا من المسلمين والنصارى كما رتبه بونابارته وكلابير من بعده فأخرج منهم النصارى وسلم الاحكام لمن بقى من المسلمين ومال الى جانبهم وبالغ فى استرضائهم وأخذ جباية الاموال من يد الاقباط وسلمها الى المسلمين وقد كانت بيد القبط من عهد عمرو بن العاص الى ذلك الحين ثم خلط وخبط وقلب نظام الهيئة الحاكمة وأفسد منها ما أصلحه الامير كلابير وعمل غير ذلك أيضا قال بعض أصحاب التاريخ وقد كان اسلام منو هذا خدعة من مكايد الفرنسيس وتغريرهم بالمسلمين ● قلت وقد اطلعت على صورة عقد زواج منو المذكور بجملة الموسوعات منقولة بالنور التمسي من سجل محكمة رشيد الشرعية فآثرت نقله هنا تتميما للفائدة التاريخية وهى بحضرة كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غزا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الاشراف حالا والامير محمد بدوى جوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمود اللوى المغربى وابراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد مينو وعبد الله بريره والحاج بدوى الشناوى واوذن اسمعيل السلانكلي وعلى جاويش كتخدا البيك دام كمالهم

بعد أن أقر واعترف مينو باشا صارى عسكر القطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما ● أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله عارفا معتقدا معناهما ومصدقا لمضمونهما تاركا لدين النصرانية والاديان الرديئة على الترتيب والولاء واعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعا طائعا مختارا من غير اكراه ولا اجبار بمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل اليهم وسمى نفسه عبدالله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك اشهادا شرعيا ثم بعد ذلك رغب عبدالله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب لذلك بعد ابرازه لفتيا شرعية لفظ سؤالها

ماقولكم دام فضلكم فى رجل أحب الاسلام وأهله ورغب فيهما تاركا لدين النصرانية ناطقا بكلمتى الشهادتين مصدقا على الوجه الاكمل ثم أراد أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج بها والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب ● وبأدناه ● الحمد لله حيث كان الحال ماشرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله أعلم ●

كتبه الفقير أحمد الخضرى الشافعى لطف الله به

وبأدناه ● الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقدا شرعيا مستوفيا لشرائطه الشرعية والله أعلم ●

كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه

و بأدناه

وبأدناه ۞ الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الاسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم ۞

كتبه الفقير محمد غرا المالكى غفر له الله وعفا عنه

لبمحضر كل ممن ذكروا أعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله وطلقها وانقضت عدتها منه شرعا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته ألفا ريال اثنان معاملة ومائة دينار ذهبا محبوبا فالحال لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين ابن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عددا بالمجلس بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعا والباقى الالفا ريال الاثنان حلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له ذلك ۞ وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم باذنها له فى ذلك بشهادة كل من أخيها لأمها السيد على الحاى ابن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد ابراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزوجا شرعيا قبله الزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسبما وكله صريحا بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين وعلى عبدالله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بعمل كسوة ألمشة شتاء وصيفا لائقين بحالهما وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد ان ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لاجهالة معها شرعا بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه حكما شرعيا فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف انتهى بنصه

وبعد أن تم عقد الزوجية بين الجنرال منو المذكور وزبيدة بنت محمد البواب على الوجه المتقدم حصل التعاقد بينهما أيضا على شروط وعهود يعيشان على مقتضاها معا وقد تسجلت بالطريقة الشرعية بسجل محكمة رشيد بعد تسجيل عقد الزوجية ونصه ۞ بحضرة كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بوى نقيب الاشراف والامير محمد بوى جوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمد الأزى المغربى وابراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بريره والحاج محمد الشناوى وأوزن اسمعيل التلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك ولوى جوسف ويكتور جوليان ضارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى جوسث دووى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا ضارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسواه لوى لويكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولويزى واولى باش حكيم القورنتينه دام كالهم ۞ صار التوافق والتراضى بين الحاج حسين ابن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفته وتوكيله عنها فيما



يذكر فيه بشهادة كل من اخيها لامها السيد على الحاى ابن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد ابراهيم ابنى السيد سليمان التقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحا بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرى شهر تاريخه أدناه على شروط تكون ويوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة باقرار الوكيلين المذكورين

الشرط الاول ۞ ان زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها فى سائر ماتملكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السديد

الثانى ۞ أن عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ماهو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها

الثالث ۞ عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحد منها بمائة وثمانين نصفا فضة فى نظير صداق زوجته المذكورة وان الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلم له ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة عقودات المسلمين

الرابع ۞ ان الزوج المذكور شرط على نفسه انه ان حصل بينه وبين زوجته فراق يدفع لها ألفى ريال اثنين معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه ملكا لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين

الخامس ۞ ان زبيدة الزوجة المذكورة ان كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الالفين ريال المذكورة ولا نصف فضة ما عدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها

السادس ۞ زبيدة لم تزل وارثة فى كل ما كانت ترثه شرعا

السابع ۞ ان زبيدة أقرت بنفسها انه اذا مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الالفين ريال المذكورة وليس لها موارثة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير ارثها الشرعى حسب رضاها بذلك

الثامن ۞ أنه ان مات الزوج المذكور وخلف أولادا من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين

التاسع ۞ ان الزوجة المذكورة ان ماتت وخلفت أولادا من زوجها المذكور فى حياته يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم

العاشر

العاشر ﴿ الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وان حصل تداع بسبب اختلاف تقام الدعوى على يد الحاكم الشرعى ان كان ببر مصر أو ببر الفرنساوية

الحادى عشر ﴿ عبد الله باشا منو وزوجته ان ماتا جميعا وخلفا أولادا تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنساوية والزوجين المذكورين بقصد أفضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظراء على أولادهما وان الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلهما الاقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط بفعلانها وقت الاحتياج اليها من غير اكراه ولا اجبار التزاما مرضيا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه فى سابع عشرى رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ه انتهى بنصه

وبقيت زبيدة فى عصمة الجنرال منو ولم تفارق رشيد مسقط رأسها وسكنها حتى أخذت رشيد من الفرنسيس وانجلوا عنها فسارت منها بالبحر فى المحرم افتتاح سنة ست عشرة ومائتين وألف مع أخيها السيد على الرشيدى أحد أعضاء الديوان بثغر رشيد الى الرحمانية ولبثت امامها أياما حتى نزل على الرحمانية القادمون من العساكر السلطانية والعساكر الانجليزية واحتاطوا قلعتها فسار السيد على بأخته زبيدة الى مصر ونزل بها ببيت الألفى بالازبكية أياما قلائل ثم صعد بها الى قلعة الجبل فأقامت بها وورد كتاب الجنرال منو على أعضاء الديوان بالقاهرة يوصيهم خيرا بها وبولده منها سليمان مراد ﴿وقال القائمقام توماس ولسن الانجليزى فى كتابه المسمى البعثة الانجليزية بمصر ماتعريبه، ولما كان سابع عشر يونيه سنة احدى وثمانمائة وألف ميلادية سلم الفرنسيس قلعة القاهرة بعد ان وقعوا على شروط الجلاء عن ديار مصر وخرج من بقى منهم وخرجت امرأة الجنرال منو تريد اللحاق بزوجها فعارض جماعة الترك فى ذلك وشددوا فى منعها وبالغوا فى التشديد فقام فى وجههم القائد بيلار وقال لابد من ذهابها وانا الكفيل بها والضامن لراحتها فخرجت مع من خرجوا اه وكان تزوج الفرنسيس على اختلاف درجاتهم بالمسلمات قد فشا وعم سائر المدن والقرى وكان حكام الاختطاط من الفرنسيس يلبسون نساءهم من المسلمات الازياء الفرنجية ويمشون معهن فى الاختطاط للنظر فى أمور الرعية والاحكام فكن يأمرن وينهين كأنهن الحكام وكانت تمشى المرأة منهن بنفسها أو معها بعض اترابها واضيافها على مثل زيها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس كما يفعلون عند مرور كبار الحكام بالطرق والشوارع وكن كثيرا مايأمرن أيضا وينهين فى الاحكام وكادت هذه المحنة تعم سائر البلاد لولا جلاء الفرنسيس عنها بقدوم العساكر السلطانية والعساكر الانجليزية ﴿ وبينما كان الفرنسيس يعدون المعدات ويسيرون العساكر الى أبى قير والاسكندرية ودمنهور

والرحمانية وغيرها لمنع تقدم الانجليز ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر واشتد شدة عظيمة فكثر الموات وتزايد يوما عن يوم وصار ينتقل من بلد الى آخر حتى بلغ الصعيد الاعلى وفتك باهله فتكا عظيما ومات به مراد بيك الكبير رابع الحجة سنة خمس عشرة ومائتين وألف وجاء الخبر بذلك الى القاهرة فأقام الفرنسيس بدله عثمان بيك الجوخدار المعروف بالطنبرجي وأقروه على إمرة الصعيد الاعلى ومات كثير ممن كان بقلعة الجبل من الامراء والاعيان الرهائن وكان مع اشتداد الطاعون وكثرة الموات لم ينكف الفرنسيس عن تعبئة الجنود وارسال المعدات وبذل الجهد فى منع جيوش الانجليز من التمكن من الاسكندرية وكان السير رلف أبركرومبى أمير العمارة الانجليزية قد تمكن من انزال جنوده خارج الاسكندرية وعملوا بعض المتاريس فكانت غاية فى المنعة والتحصين والتقت العساكر الفرنساوية بالعساكر الانجليزية وانتشبت الحرب بين الفريقين واقتتلا قتالا عنيفا اليوم بطوله فلم يظهر أحد منهما على الآخر ومع ضعف رأى الجنرال منو وقلة تدبيره وجهله بفنون الحرب وترتيب الصفوف فقد كانت خسائر الفرنسيس فى ذلك اليوم خمسمائة رجل وخسائر الانجليز مائة وألفا ورجع الفرنسيس الى الاسكندرية وأرسل الجنرال منو الى بونابرته يطلب المدد وكان قد وصل حسين باشا بجيوشه فأنزلهم بأبى قير فضعفت نفوس الفرنسيس وكادت تفتر عزائمهم ولكنهم تابعوا إرسال النجدات الى الاسكندرية وأبى قير وصار يخرج فى كل يوم طائفة من كبارهم وقوادهم الى الاسكندرية وخرج معهم المعلم ابراهيم الجوهرى وآخرون من عظماء القبط وكأنهم رهينة وزادوا فى تحصين مصر والقاهرة وعملوا خندقا عظيما بباب البرقية وأصبحوا بين عدوين الدين وخصمين عنيدين جنود الاعداء المحالفين والطاعون الذابح لرجالهم بغير سكين ولكنهم ثابروا على القتال بقلوب مائتة وعادوا لقتال الانجليز والانجليز من خلف المتاريس وأشار ضباط الفرنسيس على الجنرال منو بمهاجمة الانجليز من ناحية حصنهم الايمن اذ كان هو أقوى حصونهم وأمنعها فتردد فى الأمر ولم يقدم عليه الا فى ليل ذلك اليوم فلم يفلح ورجع بغير طائل فلما أصبحوا أعادوا الكرة على المتاريس وهجموا عليها ميمنة وميسرة وقيل بل هجموا عليها فجر اليوم الثانى وكانوا يودون أخذ الانجليز على حين غفلة ولكن الانجليز كانوا على أهبة واستعداد فانتشبت الحرب بين الفريقين وتتابعت أصوات المدافع وتراسل الرمى بالقنابل وزلزلوا وزاد الجو ظلاما على ظلامه ثم تقهقر الفرنسيس مجانبة فأدرك السير رلف أبركرومبى أمير السفن الانجليزية قصدهم من ذلك وخاف العاقبة فعزز ميمنة معسكره فعاد القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس وزلزلت الارض من أصوات المدافع وتساقط القنابل وجرح السير أبركرومبى بجراحة عظيمة ألقته على الارض ومازالت الحرب على ساقها الى ثانى يوم قبيل الظهر علا صوت بوق الفرنسيس بالكف عن القتال فعاد الفرنسيس الى معسكرهم وقد قتل منهم فى هذه الواقعة زهاء الالفين وأقام الانجليز وراء المتاريس وقد مات منهم زهاء المائتين وأربعين وجرح نحو

ألف

ألف ومائتين وخمسين ومات السير رلف أسبر كرومبى بجراحته بعد أيام قليلة فأقاموا الجنرال هتشنسون أميرا على سفن العمارة الانجليزية وتقدم حسين باشا قبطان بن معه من الجيوش السلطانية فأخذ منهم الجنرال هتشنسون أربعة آلاف مقاتل وضم اليهم فرقتين من الجنود الانجليزية وثمانية من المدافع وسيرهم مع الكولونيل سبنسر لاخذ مدينة رشيد وكان برشيد حامية قليلة من الفرنسيس فأرسل الجنرال منو يستطلع عدد هؤلاء الجنود فاعلم بانها أقل عددا مما هى فاستخف منو بها ولم يمد حامية رشيد فسار اليها الكولونيل سبنسر ودخلها بغير قتال ثم حول مدافعه على حصن هناك يسمى حصن جوليان وفيه نفر من الفرنسيس فضيق الانجليز عليهم وشددوا حتى استسلموا فأمنوهم وأخرجوهم من الحصن ولما جاءت الاخبار بذلك الى من كان بالرحمانية من الفرنسيس أرسلوا يطلبون المدد من الجنرال بيار قائد حامية القاهرة فاعتذر فكاتبوا فى ذلك منو فأمدهم بنفر قليل وملك الانجليز والعثمانيون مدينة رشيد ودمياط والمنصورة وما جاورها من القرى والبلدان فقويت عندئذ عزائمهم وتابعوا القتال وواولوا الزحف ومنعوا من وصول مراكب الفرنسيس الى الشطوط المصرية وأطلقوا مياه البحر الملح على الاراضى المجاورة للاسكندرية فأغرقتها وصارت لجة عظيمة الى يومنا هذا وما نعا من خروج عساكر الفرنسيس من الاسكندرية فلم يبق لهم من سبيل الامن ناحية العجمى الى البرية وقد وقف لهم فيه الانجليز ثم رجعوا الى الرحمانية فملكوها وأجلوا من كان بقلاعها من الفرنسيس وأخذوها وأخذوا جميع الحصون القريبة منها بجهة العطف وغيرها وذلك فى الخامس والعشرين من الحجة سنة ست عشرة

وبينما كان الانجليز يقاتلون عساكر الجنرال منو وغيرهم من بقية العساكر الفرنسوية كان يوسف باشا الصدر الأعظم ينتقل بجيوشه على طريق الفرنسيس من قرية الى أخرى ومن بلد الى آخر وهو لايدفع الا بالأمر الخفيف حتى احتل الشرقية وتربص بها أياما لجمع الكلف والمغارم فأبق الناس وحضر الكثير منهم فارين الى القاهرة وأخبروا بوصولهم فخرج الجنرال بيار لقتالهم وخرج معه القائمقام فقاتلهم العثمانيون فلم يثبت الفرنسيس أمامهم لقلتهم وكثرة عدد العثمانيين فقد كانوا ثلاثين ألفا وعساكر بيار لاتتجاوز الخمسة آلاف ورجع الفرنسيس مسرعين الى القاهرة وكتموا الأمر عن الناس ومنعت العساكر السلطانية دخول المأكولات الى المدينة فعزت الاقوات واجتهد الفرنسيس فى عمل الخنادق والمتاريس خارج المدينة وجهة القرافة وألقوا الاحجار العظيمة والمراكب الكبيرة فى مجرى النيل لتعطيل سفن العدو وكانت أوائل متاريسهم من باب الحديد ممتدة الى قنطرة الليمون الى قصر أفرنج أحمد الى السبتية الى مجرى النيل ووصلت طلائع الجيوش الانجليزية والعثمانية الى بلدة نادر عند رأس ترعة الفرعونية على الجانب الغربى من النيل ووصلت طلائع جيوش حسين قبطان باشا من الجانب الشرقى الى بنها العسل وطحلا بساحل النيل ونزل يوسف باشا صدر الدولة ناحية دجوه وما زال حتى وصل الى شلقان ووصل العساكر الانجليزية أيضا الى الوراريق



وزحفوا حتى جاؤا ناحية انبابه وعسكروا بها وسار العساكر العثمانية على الجانب الشرق من النيل ومراكب الذخيرة والمؤنة بين الفريقين حتى وصلوا الى منية السيرج ❊ ولما كان يوم الاحد الثانى من صفر من السنة أى سنة ست عشرة أطلق الانجليز المخيمون باراضى انبابه مدافعهم تباعا كأنهم يدعون الفرنسيس الى النزال فردت عليهم مدافع الفرنسيس من جميع القلاع والحصون وخرج فى ثانى يوم بعض الفرسان من الفرنسيس وقاتلوا فريق الانجليز والعثمانيين وقد شغلوا ساحلى النيل شرقا وغربا وبينهما فى النيل الذخيرة والمؤنة وظلت الفرسان تناوشهم القتال اليوم بطوله ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ورجع كل الى مأمنه واستمروا على هذا الحال الى اليوم السادس من صفر فزحفت العساكر العثمانية حتى قربوا من قبة النصر وكان فى مقدمتهم ابراهيم بيك الكبير فنزل بزاوية الشيخ دمرداش وأشرف بعض الجنود العثمانية على الجزارين الذين كانوا يومئذ بالمذبح من حائط المذبح وكان به ثلاثة من العساكر الفرنساوية فوقع بينهم مضاربة أصيب فيها أحد الثلاثة الفرنسيس فى ساقه ومات جزار يهودى فلما أحس من بقلعة الظاهر من الفرنسيس بذلك أطلقوا المدافع على معسكر العثمانيين وكذلك فعل من بقلعة نجم الدين والتل فاضروا بمقدمات العثمانيين ضررا عظيما وقتلت نيران المدافع منهم خلقا كثيرا وظل اطلاق المدافع مترسلا الى ما بعد عصر ذلك اليوم ثم انكف الفريقان وأصبحوا فاقتتلوا بالبنادق والمدافع اليوم كله ولم يتعد أحد الفريقين موقفه وأغلق الفرنسيس فى ذلك اليوم باب النصر وباب العدوى وشددوا فى الحبس وأكثر العسس من التطواف ليلا والاغا والوالى نهارا فكان الناس من الخوف سكارى وما هم بسكارى وزحف الانكليز أيضا من انبابه الى أن وصلوا ناحية الجيزة ومعهم كثير من الامراء المصريين وانتشروا فى الجهات القبلية من الجيزة ومنعوا المعادى من العبور الى البر الشرقى وانكف الفريقان عن القتال أياما تناجوا فيها على عقد شروط الصلح على قاعدة حافظة لحقوق الفريقين وكان الساعون فى ذلك حسين باشا القبطان وهتشنسون مقدم الجيوش الانجليزية وأفرجوا عمن كان أسيرا من العثمانيين بقلعة الجبل وأرسلوهم الى معسكر يوسف باشا وأفرجوا عن المشايخ وغيرهم الذين كانوا رهائن بالقلعة وأخذوا فى نقل أمتعتهم وبيع خيولهم وأنزلوا عدة مدافع من قلعة الجبل وقلعة البرقية وسار عثمان بيك البرديسى الى الصعيد ومعه مرسوم من صدر الدولة خطابا لأهالى الصعيد بالامان ووجوب ملازمة السكوت والخلود الى الطاعة ونزل يوسف باشا الى شبرا ومعه فريق من العساكر السلطانية فسار تجاههم من انبابه فريق من الانجليز ونصبوا هنالك جسرا وعبر الفريقان لزيارة بعضهما وتقررت قاعدة الصلح فى ثلاث عشرة مادة حاصل مافيها سرعة الجلاء عن مصر والقاهرة وجميع القلاع والحصون التى بهما فى مدة أقلها خمسون يوما وقيام عساكر الفرنسيس برا بجميع متاعهم وأثقالهم وكراعهم الى رشيد وعلى مقدم الانجليز النفقة من مؤنة ودواب للحمل ومراكب للنقل وسفن لحمل العساكر بالبحر الابيض وعلوفة الخيول ودواب الحمل التى تؤخذ من القاهرة

بحيث

بحيث لاتدخل تلك السفن من المواني الا ما كان منها للفرنسيس واذا أراد أحد المصريين على اختلاف مذاهبهم الخروج مع الجيوش الفرنساوية فلا مانع يمنعه مع المحافظة على ماله وعياله ولا جناح على من خدم الفرنسيس أو أشار على أحد بخدمتهم وان المرضى والجرحى منهم يبقون بمصر تحت العلاج بمعرفة أطباء الفرنسيس المعينين لذلك مع الاعتناء بأمرهم والقيام بجميع احتياجاتهم وان يبعث بكبيرين من كبراء الانجليز والعثمانيين الى مدينة طولون لعرض عقد الصلح وعلى كل من الفرنسيس والعثمانيين تسليم من عنده من الاسرى وابقاء رهائن من أكابر الفريقين حتى يتم الجلاء

ودخل بعض أكابر الانجليز الى القاهرة ومعهم بعض أكابر الفرنسيس لمشاهدة مافيها من الآثار والابنية وكذلك دخل بعض أكابر العثمانيين فزاروا تربة الامام الشافعي والمشهد الحسيني والشيخ عبد الوهاب الشعراني فكان كبراء الفرنسيس ينتظرونهم على الابواب مع التخشع والأدب وأصبحوا وقد انسحب من الفرنسيس السواد الاعظم ونودي في الاسواق بأن ستطلق المدافع في غد من جميع القلاع والحصون إجلالا لخروج جثة الامير كلايبر من أرض مصر فأطلقت في ثاني يوم من جميع الابراج والحصون تباعا وحملوا نعشه من قصر العيني وساروا به في كبكبة وأبهة عظيمة جدا وأخلوا قلعة الجبل في ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر من السنة أي سنة ست عشرة وكذلك بقية القلاع والحصون وأجلوا عنها تماما وذهبوا الى الجيزة والروضة وقصر العيني ولم يبق منهم أحد بالمدينة وبولاق ومصر القديمة والازبكية وتكاثر دخول العساكر السلطانية الى القاهرة ❁ قال صاحب عجائب الآثار ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير وصاروا يستقبلونهم بالسلام ويباركون لقدومهم والنساء يلقلقن بالسنتهن من الطيقان وفي الاسواق وقام للناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والاطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك وهؤلاء الداخلون دخلوا من ثقب الغريب المثقوب في السور وتسلقوا أيضا من ناحية العطوف والقرافة وأما باب النصر والعدوى فهما على حالهما مغلقان لم يأذنوا بفتحهما خوفا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة فيقع منهم القتل والضرر بالناس وباب الفتوح مسدود بالبناء فلما أضحى النهار حضر قبول وفتح باب النصر والعدوى وأجلس بهما جماعة من الانكشارية فدخل كثير من العساكر مشاة وركبانا أجناسا مختلفة ودخلت بلوكات الانكشارية وطافوا بالاسواق ووضعوا نشاناتهم ورنكهم على القهاوي والحوانيت والحمامات فانتعش أهل الاسواق من ذلك وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالاسواق وتواجدت البضائع وانحطت الاسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبطيخ وتعاطى بيع غالبها الاتراك والارنؤد فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبر والبحر ويشترونها منهم بالاسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأغلى الاثمان ووصلت مراكب من جهة بحري وفيها

البضائع الرومية والجيش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومى قال فلما كان قبل صلاة الجمعة واذابجاويشية وأغوات وعساكر وتلا ذلك حضرة يوسف باشا الصدر فشق من وسط المدينة وتوجه الى المسجد الحسينى فصلى فيه الجمعة وزار المشهد الحسينى ودعاه حضرة الشيخ السادات الى داره المجاورة للمشهد فأجابه فدخل معه وجلس هنيهة ثم ذهب الى الجامع الازهر فتفرج عليه وطاف بمقصورته وأروقته وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الكناسين والخدمة بدراهم وكذلك خدمة المشهد الحسينى ثم ركب راجعا الى وطاقه بناحية الحلى بشاطئ النيل وعملوا فى ذلك الوقت شنكا وضربوا مدافع كثيرة من العرضى والقلعة ودخل قلقات الانكشارية وجلسوا برؤس العطف والحارات وكل طائفة عندها بيرق ونادوا بالامان والبيع والشراء وطلب أولئك القلقات من أهل الاخطاط المال كل والمشارب والقهوات وألزموهم بذلك والمحاز الفرنساوية الى قصر العينى والروضة والجيزة الى حد قلعة الناصرية وفم الخليج وعليها بنديراتهم ووقف حرسهم عند حدهم يمنعون من يأوى الى جهتهم من العثمانية فلا عبر العثمانى الا الى الجهة الموصلة الى بولاق وأما اذا كان من أهل البلد فيمر حيث أراد وفى مدة اقامة المشار اليه بساحل الحلى ببولاق خرب عساكره ما قرب منهم من الابنية والسواقى والمتريز الذى صنعه الفرنساوية من حد باب الحديد الى الصر وأخذوا مابذلك من الاخشاب الكثيرة المتهدمة والاخشاب المضرة المرصوصة فوق المتريز وتحته فى الخندق فخربوا ذلك جميعه فى هذه المدة القليلة وذلك لاجل وقود النار والمطابخ اه

وتتابع دخول العساكر العثمانية الى المدينة وانتشروا فى أنحاء مصر والقاهرة واحتل بعضهم القلاع والحصون والطوابى التى كان بها جنود الفرنسيس ورفعوا عليها أعلامهم ماخلا الحصون والقلاع التى انحازت اليها طوائف الفرنسيس وهى من قصر العينى الى جهة الناصرية كما تقدم القول وعاث فريق الانكشارية فى المدينة يزاحمون أرباب الحرف والصنائع فى أرزاقهم ووضعوا أسلحتهم على أبواب الحوانيت كافة إشعارا لاصحابها من الحلاقين والخياطين والقهوجية بأنهم شركاؤهم فى كسبهم اليومى فامتعض السوقة وأصحاب الحوانيت وشكوا من ذلك فدخل أغاة الانكشارية ومر من وسط المدينة وخلفه بعض الصناجق المصريين وأمر باسلحة الانكشارية فرفعوها عن أبواب الحوانيت كافة الا القهاوى فشكا أصحابها فلم يلتفت اليهم ودخل أيضا فى ذلك اليوم كثير من الجند والعسكر المصرى ومعهم محمد باشا المعروف بأبى مرق وهو المترشح للولاية على مصر من جانب السلطنة وسكن ببيت الهياتم بالقرب من مشهد الحنفى ☼ واتفق فى يوم دخوله ان أحد العساكر السلطانية من الارنؤد كان بالجمالية فربه عرقسوسى فشرب منه قدحا ولم يعطه ثمنه فكلم العرقسوسى فى ذلك مقدم قلق الانكشارية المرابطين بالجمالية فأحضر ذلك الجندى وأمره بدفع ثمن

ماشربه فامتنع فنهره وأراد ضربه فأخرج الجندى غدارته وأطلقها على مقدم القلق فقتله وهرب الى حارة الجوانية ودخل الى إحدى الدور وامتنع فيها وصار يطلق غدارته على كل من يقصده فقتل خمسة من الجند واتفق أن مر اثنان من الارنؤد بتلك الخطة فقام عليهما نفر من الانكشارية وقتلوهما انتقاما ولما أعياهم أمر ذلك القاتل وتعذر عليهم ضبطه أحرقوا عليه الدار التى امتنع فيها فخرج هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه شر قتلة واشتد الخوف بأهل تلك الخطة فترك أكثرهم دورهم بما فيها وخرجوا على وجوههم ولم تكد تسكن الخواطر بسكون هذا الحادث حتى وقع آخر على مقربة من الخطة المذكورة فاشتد خوف الناس وتبدل فرحهم بخروج الفرنسيس حزنا وأسفا

مطلب
جلاء الجيوش الفرنساوية عن مصر والقاهرة وسائر الديار المصرية

وخرج طوائف الفرنسيس فى يوم الاربعاء رابع ربيع الاول من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية وأخلوا قصر العينى والروضة والجيزة وانحدروا الى الشمال من الوراريق وارتحل معهم أمير السفن العثمانية وعدد من الانجليز وجماعة كثيرة من الارنؤد وعثمان بيك الاشقر ومراد بيك الصغير وأحمد بيك الكيلارجى وأحمد بيك حسن من الامراء المصريين يريدون الاسكندرية لعرض الصلح أيضا على الجنرال منو قائد الجيوش الفرنساوية فلما وصلوا الى الاسكندرية كلموه فى أمر الصلح وعرضوا عليه شروطه التى وقع الاتفاق عليها فلم يقبل بها وأبى الا القتال فقاتلوه وحاصروا الاسكندرية وشددوا فى حصارها فكان العربان يدخلون الى الفرنسيس بالمؤن وغيرها من طريق مجهول واشتد القتال بين الفريقين وتراسل رمى القنابل وكان الانجليز والعثمانيون يهجمون فى كل يوم فلم ينالوا من الفرنسيس وطال الحرب وسئمت أنفس المقاتلين فخاف الانجليز والعثمانيون سوء العاقبة فصمموا على الهجوم وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة رجل واحد فقتل العدد العديد من جيوش حسين باشا أمير السفن العثمانية وكذلك قتل من الانجليز جماعة كثيرة وانجلت الواقعة عن جلاء الفرنسيس عن بعض متاريس ناحية العجمى فملكها الانجليز وعساكر المسلمين وقتل من الفرنسيس عدد ليس بقليل وكذلك من الامراء والصناجق المصريين وما زالوا على هذا الحال والحرب قائمة والقتال لاينفك حتى جاءت الى الجنرال منو رسل بونابارته بالاذعان الى الصلح والجلاء عن الاسكندرية فأجلوا عنها بشروط غاية فى الفخر وعزة النفس ونزلوا على ظهور السفن التى أتى لهم بها أمير الدوارع الانجليزية وساروا الى أوطانهم فى العشرة الأواخر من جمادى الاولى من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية فكانت مدة لبث الجنرال منو بمدينة الاسكندرية فى الحصار والقتال بعد خروج الفرنسيس جميعا ونزولهم بأبى قير وقيامهم الى أوطانهم شهرين وبضعة أيام ولم يعتبر جماعة الكتاب هذه المدة فى مدة تصرفهم فى البلاد بل عدتها أيام حصر وقتال ليس الا وقالوا ان مدة اقامتهم وتسلطهم لغاية جلائهم وخروجهم من القلاع هى ثلاث سنوات واحد عشر

يوما حيث نزلوا على انبابه والجيزة وغلبوا طوائف المماليك في يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية وكان انتقالهم وخروجهم من القلاع وجلاؤهم عن المدينة وانخلاعهم عن التصرف والحكم ليلة الجمعة الحادى والعشرين من صفر سنة ست عشر ومائتين وألف هجرية فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء من عباده

(فصل)

(في بقية مدة سلطنة السلطان سليم وما فيها من الحوادث والاخبار)

لما تم جلاء الفرنسيس عن القاهرة ومصر دخل الوزير يوسف باشا الى القاهرة يوم الخميس خامس ربيع الاول في موكب حافل للغاية وكان دخوله من باب النصر ومر من وسط المدينة وأمامه الجند المختلف من أرنؤد وانكشارية وشامية والامراء المصريين والمغاربة والقليونجية وطاهر باشا أمير العسكر الارنؤد وابراهيم باشا والى حلب ومحمد باشا أبو مرق والى مصر والكتبة ورئيس الكتاب وكتخدا الدولة وغيرهم من الخدم والحشم والاتباع وقاضي القضاة والنواب والعلماء المصريين ومشايخ التكايا والدراويش وامامه الملازمون بالبراقع والجاويشية والسعاة والجوخدارية وخلفه اثنان على يمينه ويساره ينثرون دراهم الفضة على رؤس الناس بالطريق ثم النوبة التركية وبعض المدافع وعربات الذخيرة وكانت الحصون والقلاع جميعها تطلق المدافع تباعا وما زال حتى نزل ببيت رشوان بيك بحارة عابدين فلما استقر به المقام جعل يتصرف في الامور ورسم بأن لاتدفع الاموال والعشور للملتزمين الا بمرسوم منه واهتم بترتيب ديوان الاعشار والمكوس و بالغ في ذلك فانقبض الناس وأخذتهم الطيرة من فعاله ولم يلبث حتى طلب قرضة من التجار قدرها مائة كيس وعشرة أكياس فاعتذروا فلم يقبل فاجتمع أصاغرهم عند بيته وصاحوا واستغاثوا ونادوا ارحمنا رحمك الله فرسم برفعها عنهم وتكليف أهل الميسرة منهم بها فدفعوها وهم صاغرون وشدد في تحصيل العشور فبلغ ماتحصل منه في بضعة أيام ستة عشر ألف كيس ولم يكن بأسرع من ان عاد العسكر على اختلاف أجناسهم الى العسف والجور والاختلاط بالسوقة وقال صاحب عجائب الآثار وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء في أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوقة وأرباب الحوانيت دراهم يأخذونها منهم في كل يوم ويأخذون من الخباز الخبز بغير ثمن وكذلك يشربون القهوة من القهاوى ويحتكرون

مايريدون من الاصناف ويبيعونها بأغلى الاثمان ولا يسرى عليهم حكم المحتسب وكذلك تسلطوا على الناس بالايذاء لادنى سبب وتعرضوا للسكان فى منازلهم فيأتى منهم أناس ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها فان لاطفهم الساكن وأعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه وان عاند سبوه وضربوه ولو عظيما وان شكا الى كبيرهم قوبل بالتبكيت ويقال له ألا تفسحون لاخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم وهم ضيوفكم أياما قليلة قال فما يسع المسكين الا أن يكلفهم بما قدر عليه وان أسعفته العناية وانصرفوا عنه بأى وجه فيأتى اليه خلافهم وان سكنوا دارا أخربوها قال وأما القلقات والانكشارية الذين تقيدوا بحارات النصارى فانهم كلفوهم أضعاف ما كلفوا به المسلمين فكانوا يطلبون منهم بعد كلف المأكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك وتسلط عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدى أولئك القلقات فكانوا يتخلصون منهم بما لزمهم بادنى شبهة ولا يعطون المدعى الا القليل من ذلك والمدعى يكتفى بما حصل له من التشفى والظفر بعدوه قال واذا تداعى شخص على شخص أو امرأة على زوجها ذهب معهم أتباع القلق الى المحكمة ان كانت الدعوة شرعية فاذا تمت الدعوة وأخذ القاضى محصوله يأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوة قال وعاد يوسف باشا فأطلق للملتزمين التصرف فى سنة خمس عشرة ليقضوا مالهم وما عليهم من البواقى ومال الميرى والمضاف ويدفعوا جميع ذلك الى الخزينة باوراق مختومة من ابراهيم بيك وعثمان بيك والقصد من ذلك اطمئنانهم بالجباية والرجاء بالتصرف فى المستقبل ووعدهم بذلك سنة تاريخه بعد دفعهم الحلوان مع ان الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا فى الاموال الميرية والخراج وجدوا ولاة الامور يقبضون سنة معجلة ونظروا فى الدفاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة ورأوا ان ذلك كان يقبض أثلاثا مع المراعاة فى رى الاراضى وعدمه فاختاروا الاصلح فى أسباب العمار وقالوا ليس من الانصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالاموال الاميرية ولا الفلاحين بالخراج فتنفس الفلاحون وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك * انتهى

وأخذ يوسف باشا الصدر الاعظم فى تدبير الامور كما يشاء فقسم الوظائف العالية والرتب السامية على من كان يتوسم فيهم سمة الطاعة والاخلاص وخلع محمد باشا أبو مرق عامل الدولة على مصر وولى مكانه محمد خسرو باشا وهو كتخدا حسين باشا أمير السفن الذى كان حضر لقتال مراد بيك وابراهيم بيك الكبير قبل قدوم الفرنسيس لمصر فكانت ولاية أبى مرق المذكور قصيرة جدا ولم يكن له فيها من الحكم سوى الاسم فقط وجعل يعمل الحيلة

على الفتك بجميع الامراء المصريين وقطع شأفتهم من مصر وعمل ديوانا وجمع اليه جميع أولئك الامراء والصناجق والاعيان على اختلافهم وأوهم أنه انما يريد المفاوضة معهم فى شؤن البلاد ومصالح الرعية فلما تكاملوا أمر فقبضوا فى الحال على ابراهيم بيك الكبير وبقية الامراء والصناجق وأصعدوهم الى قلعة الجبل ووضعوهم بسجن هناك فانزعج من حضر بالديوان وتفرقوا وهم لايصدقون بالنجاة وسير خلف محمد بيك الالفى بالصعيد طائفة من الجند ليقتلوه وكان قد عاث وعبث بالصعيد وأهلك الحرث والنسل وصادر الاغنياء والفقراء حتى المشايخ والعلماء وأخذ مافى بيت المال والاوقاف وكل ما وصلت اليه يده وسير جماعة آخرين للقبض على سليم أبى دياب وكان مقيما بالمنيل فلما علم بالخبر طلب الفرار وترك متاعه وأثقاله ووصل اليه الجند فلم يجدوه فنهبوا القرية وأخذوا جميع ما كان له فيها وتبعوه فلحقوا به ناحية طرا فقاتلهم وقاتلوه ومات خلق كثير من الفريقين ثم هرب فى نفر قليل جدا الى الصعيد من طريق الجبل وأقام طوائف الارنؤد بالاخطاط وخارج المدينة يقبضون على من يصادفونه من المماليك والاجناد ونودى فى ذلك اليوم على الرعية بالامان وملازمة السكون وأحاط العسكر بالامراء المعتقلين واختفى من بقى منهم فنادوا بالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم وكان لم يزل بالجيزة فريق من العساكر الانجليزية مخيم بها فذهب اليهم سليم بيك أبو دياب واستغاث بمقدمهم هتشنسون فأغاثه وأمنه وكلم يوسف باشا فى أمره ❁ وبينما كان يوسف باشا يعمل على ابادة من بقى من المماليك والصناجق الذين بمصر والقاهرة وغيرهما من البلدان كان حسين باشا أمير السفن يدبر الحيلة أيضا للقبض على من كان عنده بأبى قير من أولئك القوم فأحسوا بذلك وأوجسوا منه خيفة فكانوا لايذهبون اليه اذا دعاهم الا وهم حاملون أسلحتهم ومعهم العدد الكثير من المماليك والاتباع تخفرهم فكان يبش عند لقائهم ويظهر لهم الرفق والملاطفة ويستميلهم بزخرف القول الى أن دعاهم يوما الى ظهر سفينته لمأدبة أعدها لهم فذهبوا اليه بسلاحهم ومماليكهم على عادتهم فقابلهم بالترحاب وبالغ فى تعظيمهم فلما تكامل عددهم جاء اليه أحد أتباعه وأخبره بورود ساع من مصر ومعه مكاتيب من الصدر الاعظم فقام ليرى ذلك فما هو الا أن حضر الى المجلس أحمد مقدى عسكر السفينة وأعلمهم بأنه قد ورد مرسوم سلطانى فى تلك الساعة باستدعائهم الى دار السلطنة ثم أمرهم بنزع سلاحهم عنهم فقام فى الحال محمد بيك المنفوخ وسل سيفه وضربه فقتله فما وسع بقية الامراء الا أنهم فعلوا كذلك فقام عليهم من بالسفينة من العسكر واشتبك القتال بين الفريقين فقتل أكثر الامراء المصريين وقبضوا على من بقى منهم وأنزلوهم الى بعض السفن الا من فروا مجروحين وهم فى أسوإ حال وذهبوا الى معسكر الانجليز ملتجئين وكانوا لما أحسوا بعزم حسين باشا على اغتيالهم شكوا ذلك الى مقدم الجيوش الانجليزية ورغبوا اليه أن يذب عنهم ويقوم لنصرتهم فأمنهم

ووعدهم

ووعدهم وطيب خواطرهم فلما ذهب اليه من نجا منهم من القتل وأخبروه بما فعل
حسين باشا غضب جدا وانحاز بعسكره الى مدينة الاسكندرية وطردوا من كانوا بها من
العثمانيين وأغلقوا أبواب الابراج وأحاط منهم طائفة كبيرة بالبنادق والمدافع بحسين باشا
برا وبحرا وطلب الانجليز بروزه بعسكره لحربهم فلم يرض وقال لم يكن قط بيننا مايدعو الى
ذلك فحضر اليه قائد الانجليز وتكلم معه طويلا وصمم على أخذ من بقي من الامراء
المعتقلين فأطلقهم فأخذهم قائد الانجليز وأخذ جثث الاموات منهم ونقل مرضاهم الى
الاسكندرية وبات وأصبح فأخرج الاموات في مشهد حافل وسارت أمامهم طوائف الانجليز
في ابهة عظيمة وأرسل الى قائد جيوش الجيزة يعلمه بما وقع ويطلب منه إلزام يوسف باشا
بتسليم من عنده من الامراء المعتقلين فطالب القائد يوسف باشا بمن عنده من الامراء وألح
في الطلب فطاول وراوغ واستعمل الخداع واستدعاه اليه وخلع عليه خلعة سمور عظيمة
وشالنج من الجوهر يوضع على مقدمة الرأس ثم حمل المعتقلين كافة على تحرير كتاب الى القائد
المذكور يقولون فيه انهم أتباع السلطان وتحت طاعته ان شاء أبقاهم في اماراتهم وان
شاء قلدهم المناصب العالية في ولايات مملكته السلطانية وان شاء طلبهم يذهبون اليه ولا
دخل للانجليز فيما يجري عليهم من خير أو شر فأرسل القائد الى يوسف باشا يقول لاعبرة
بهذا الخطاب فان القوم مسجونون محجور عليهم في جميع تصرفاتهم لايعملون الا مايشاء
الوزير وأعوانه فأرسلوهم الينا لنخاطبهم ونعلم مافي خواطرهم فلما كانت ليلة الاثنين تاسع
رجب أحضر الصدر ابراهيم بيك ولاطفه وسايره وكلمه مع بقية الامراء المعتقلين وأعلمه
بأن سيرسله مع من هم معه الى قائد الجيوش الانجليزية بالجيزة فيقضوا يومهم هنالك ويخبروا
القائد بأنهم في راحة وأنهم طائعون لسلطانهم وخاضعون لكلمته وان الخطاب الذي بعثوا
به هو عن طيب خاطر منهم ولا اكراه لهم على تحريره فأظهر ابراهيم بيك عدم الرغبة في
الذهاب وبالغ في التمنع وقال كيف نتوجه اليهم وهم أعداء لنا ولديننا وكيف نذهب اليهم
على هذه الصورة فألح عليه الوزير وحالفه وحالف بقية الامراء على سرعة العودة ومناهم
بالاماني الطويلة فلما كان صبح يوم الاثنين نزلوا جميعهم من قلعة الجبل وعبروا النيل الى
الجيزة فتبعهم مماليكهم وأتباعهم وأخصاؤهم وأقاموا بالجيزة ولم يعودوا الى الوزير فلبث
الوزير ينتظرهم خمسة أيام وأرسل اليهم يدعوهم الى الرجوع حسب عهدهم فامتنعوا وجاهر
ابراهيم بيك بالعداوة ورمى الوزير بسوء النية وخبث الطوية فلما لم يرجعوا أمر الوزير فانعقد
الديوان ببيت الشيخ السادات واجتمع فيه جميع المشايخ والوجهاء وأصحاب المناصب العالية
وتكلموا فيما جرى من ابراهيم بيك ومخالفته للعهد وإصراره على عدم الرجوع وكتبوا له
خطابا بذلك وضمنوه النصيحة ووجوب الطاعة فأجاب هو ومن معه بأنهم مطيعون وانهم لم
يختاروا البقاء عند الانجليز الا خوفا مما يحل بهم كما حل باخوانهم بالاسكندرية وهم الآن



فى حق أحب الدول للخليفة الاعظم وأقربهم لمودته ثم لبثوا بالجيزة أياما وخرجوا بعد ذلك
الى جزيرة الذهب ونصبوا بها خيامهم أياما أيضا وأخذوا ماقدروا عليه من سلاح وكراع
وركبوا ليلا وترفعوا الى الصعيد من جانب النيل الغربى وتخلف عنهم بعضهم فلما علم
الصدر بخبر مسيرهم الى الصعيد اغتم غما شديدا وأمر فنودى بالامان على من بقى منهم
أو تخلف عنهم ان هم أتوا الى باب الوزير فلم يذهب اليه الا بعض المماليك والاتباع الذين
لا كسب لهم ولا عيش وانقطع خبرهم عن الناس فصرفهم،ولما كان يوم السبت ثالث شوال
سنة ست عشرة ومائتين وألف خرجت خيام الصدر الاعظم وأمتعته الى قبة النصر وقد
جاءه الامر بالرجوع الى دار السلطنة بمن معه من العساكر والاجناد ونادوا بخروج جميع
العساكر وجلائهم عن مصر والقاهرة وبقية المدن والقرى والارياف فى مدة ثلاثة أيام
آخرها يوم الاثنين فأخذوا فى الجلاء بأحمالهم وأثقالهم ودوابهم وفى يوم الاثنين خامس
شوال المذكور خرج يوسف باشا الى قبة النصر وتتابع خروج الاثقال والعساكر وطوائف
الجند فجعلوا عند خروجهم يعربدون ويخطفون أشياء الباعة فى الاسواق وكتب الوزير
فى يوم خروجه أوراقا تتضمن كف الناس عن الشر والخلود الى السكينة ورفع قصصهم
الى باب محمد باشا عامل السلطان على البلاد وأن يحافظوا على زيهم وقوانينهم القديمة
ويلازموا على الصلوات بالجماعة فى المساجد ويوقدون القناديل ليلا على البيوت والمساجد
والوكائل والخانات التى بالشوارع ولا يمر أحد من الجند والعسكر بعد الغروب وكذلك
الاهالى الا من كان معه فانوس أو سراج ويبيعون ويشترون بلا قيد ولا تقييد وأن لايخفى
أحد عنده عسكرا من العثمانيين وأن لايبقى منهم بعد جلاء الوزير أحد بمصر والقاهرة
ومن وجد منهم متخلفا بغير مرسوم فى يده عوقب بأشد العقاب وأن تبطل جميع القهاوى
المحدثة ولا يبقى منها الا ما كان قديم العهد ولايبيت أحد من العساكر فى قهوة ولا يبيعون
المسكرات وغير ذلك من الاوامر والنواهى ثم ركب الصدر من قبة النصر فى يوم السبت
عاشر شوال وقد سلم مقاليد الامور الى محمد باشا الوالى وسار الى الخانكاه وسار معه جميع
العساكر فوصلوا الى بلبيس وأقاموا بها أياما قلائل ثم ساروا منها الى طريق الشام

واستقر بمحمد باشا منصب الولاية فجعل يتصرف فى الامور وبالغ فى التدبير وضيق وشدد
وأرهب وأخذ بالشبهات وأكثر من العيون والارصاد فتزاحم على بابه أهل السعاية وتقرب
اليه أهل الوشاية فأكثر من القتل والصلب والضرب وزاد فى المغارم والمكوس وأحدث
الاحداثات والبدع فخافه الناس جدا وانكمش من كان يظنه فى بادئ الامر شيأ هينا وقد
تتبع الاعيان وأصحاب المظاهر بالمدن والبلدان فافنى منهم خلقا وطلب الامراء والمماليك
بمصر والقاهرة فاختفوا وتفرقوا فى الجهات وسير طائفة كبيرة من العسكر خلف ابراهيم بيك
الكبير ومن معه للقبض عليهم وأكثر من التفتيش والتجسس والتطواف بغير زيه لكشف

العورات

العورات وأقام على الاسكندرية حاكما اسمه خورشيد بيك وقيده بأخذ قلاعها وحصونها من جماعة الانجليز النازلين بها فسار اليهم وكلم مقدم الانجليز فى ذلك فجعل يماطل ويكثر من التسويف والتعليل أياما كثيرة حتى جاءهم الامر من كبير السياسة الانجليزية بلندن عاصمة بلادهم بالجلاء عن مصر فعبر مقدمهم وبعض قوادهم من انبابه الى مصر القديمة فتهيأ الباشا لملاقاتهم واصطف الجند عند بيته ووصل الانجليز الى الازبكية فقابلهم الباشا وأحسن لقاءهم وخلع عليهم وقدم لهم خيلا وهدايا نفيسة وأطلقوا عند ذلك مدافع كثيرة فلما كان يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة سبع عشرة اخلى الانجليز القلاع التى بالاسكندرية والحصون وعبر محمد باشا النيل الى انبابه ومعه طاهر باشا مقدم الجند الارنؤد ونحو الخمسين من أتباعه فقابله مقدم الجيوش الانجليزية بأحسن استقبال وقدم له بعض التقادم والهدايا ثم أخذ الانجليز فى الجلاء فعبر فريق منهم الى القاهرة وخيم بجزيرة بدران أياما ثم ساروا منها الى مدينة السويس وسار فريق آخر الى القصير على السفن العظيمة وخلت الجيزة منهم فى يوم الاثنين ثانى عشرى المحرم من السنة فتسلمها منهم نائب أمير السفن العثمانية ونزل بالقصر وأنزلوا بها بعض العساكر والاجناد المصرية وبقى بالاسكندرية طائفة من الانجليز بغير أجل محدود

وجاءت الاخبار بلقاء الجنود السلطانية الذين سيرهم محمد باشا الى الصعيد الاعلى بعساكر ابراهيم بيك الكبير فوقع بين الفريقين قتال شديد للغاية أياما ثم انجلى عن هزيمة العساكر السلطانية واتخذا لهم فقتل منهم جماعة كثيرة وتقوى المصريون بهذه النصرة العظيمة واشتدت ظهورهم وكان مقدم المصريين فى هذه الوقعة الألفى وقد لحق بهم جماعة من الفرنسيس ممن تخلفوا بمصر واجتمع اليهم أيضا عدة كبيرة من العساكر العثمانية طمعا فى بذلهم فاشتد الخطب على العثمانيين وأرسلوا يطلبون المدد فاهتم بذلك محمد باشا ورسم بخروج طاهر باشا بعسكره فبرز الى البساتين وعبر النيل وعسكر بالجانب الغربى من النيل وتبعته العساكر والاجناد بالذخيرة وآلات الحرب وكثرت عربدة الامراء المصريين بالصعيد واجتمع اليهم العدد العديد من الهوارة وغوغاء الحرف والعربان وزحفوا حتى وصلوا الى غربى اسيوط وخافهم العساكر العثمانية وداخلهم الرعب منهم وتحصن كل فريق فى مقره ولم تفعل نخوة النصر بابراهيم بيك والالفى وأصحابهما ماتفعله بجهلاء المحاربين ولم تقعدهما عن استعمال الحيلة فى طلب الصلح فكتبوا الى محمد باشا خطابا يشكون فيه مما أصابهم ويتوجعون مما لحقهم من الضيق وأنهم فى طاعة الله وطاعة السلطان ولم يكونوا ليتوقعوا هذا التبعيد والتشريد والقتل وماهم فيه من سوء المعاملة وقد خاطروا بارواحهم فى خدمة الدولة وقاتلوا مع العثمانيين وأبلوا مع الفرنسيس بلاء حسنا وماهم الا انهم يرغبون فى احدى خصال ثلاث إما أن يعطى لهم بلاد يقيمون بها بعيدين عن كل مظنة وريبة و إما أن ترسل اليهم نساؤهم ويبعث اليهم بعض السفن ليركبوها من القصير الى جدة فيقيمون بها أو يقيمون

بالحجاز واما ان تعين لهم نقطة يتربصون بها قدر خمسة أشهر حتى يرفعوا أمرهم الى دار
السلطنة ويأتيهم الجواب فلما جاء هذا الخطاب الى محمد باشا جمع العلماء والمشايخ وبعض
الوجهاء وتشاوروا فى الأمر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا بتأمين جميع الامراء والصناجق
الذين بالصعيد ويأذنوا لهم بالرجوع الى القاهرة ولهم ما لاخوانهم وأقرانهم وعليهم ما عليهم
ماعدا ابراهيم بيك والالفى والبرديسى وأبى دياب فانهم يبقون تحت الحجر حتى يخابروا فى
شأنهم الباب العالى ويأتى الجواب وأرسلوا بذلك الى ابراهيم بيك والالفى فلم يقبلوا با نفصال
أصحابهم عنهم وترفعوا الى الصعيد الاعلى وانتظروا ما سيكون ❁ ولبث طاهر باشا مخيما بعسكره
فى الجانب الغربى من النيل لايبدى حراكا وطال لبثه وثقل عليه مكثه وداخل جنده الملل
وكاد يتولاهم الفشل ومحمد باشا فى شاغل عنهم بمصادرة الناس وأخذ أموال أهل الميسرة
وتتبع أصحاب المظاهر بأضعف الشبهات فكان الرجل منهم لايمضى عليه بياض يومه الا وهو
فى حساب ما سيكون فى سواد ليله ولا فرق بين القبطى والمسلم اذ كانوا عنده كلهم فريسة
واحدة وأمر فقبضوا على ثلاثة من عظماء القبط وهم المعلم انطون أبوطقية والمعلم ابراهيم
زيدان والمعلم عبدالله بركات معلم الديوان فقتلهم وأرسل الدفتردار فختم على دورهم وأملاكهم
ونقلوا مافيها الى بيت الدفتردار ليباع فى المزاد فكان شيأ عظيما للغاية من أوانى الذهب
والفضة والاقمشة الهندية النفيسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف غير الجوارى والعبيد
قيل واستمر سوق المزاد فى ذلك عدة أيام ولما طال الحال على طاهر باشا وجنوده رجع الى
القاهرة وسرح بعض الجند واختلق الخبر القائل بتسيير طاهر باشا وجنوده لقتال ابراهيم بيك
ومن معه ❁ وبينما كان محمد باشا يسوم أهل مصر والقاهرة الخسف ويذيقهم من العذاب كان
نائبه على الاسكندرية يكثر من الاحداثات والمظالم والمكوس والمغارم ويضرب على أهلها
الضرائب الفادحة وكانت عساكره تفسد فى الارض وتهلك الحرث والنسل وتتعرض للناس
على ماقيل فى اعراضهم فعظم الخلل واستفحل أمره وشكى الناس حالهم لمقدم الانجليز
النازلين بالاسكندرية واستغاثوا به فكلم خورشيد بيك فى أمرهم وقبح مايفعله الجند بالرعية
وحذره سوء العاقبة وطاوله أياما فاتفق ان جماعة من أولئك العسكر هموا بالقبض على امرأة
فاستغاثت بنفر من الانجليز فى طريقها فمنعوها منهم فتضاربوا وانتصر كل فريق لصاحبه
واشتد القتال بينهم فقتل اثنان من الانجليز وهرب العثمانيون فنزل فى الحال مقدم الجيوش
الانجليزية وجمع عساكره وزحف بهم الى القلعة وأرسل الى خورشيد بيك بان اخرج
من القلعة الى خارج البلد للقتال فامتنع من ذلك فأمره بترك القلعة والتخلى عنها فلا طفه
وماطله فأنزله قهرا وأسكنه فى داره فى البلد ومنع العساكر السلطانية من حمل السلاح وشدد
فى مراقبتهم والحجر عليهم وتتبعهم أينما ساروا فسكنت خواطر الرعية واطمأنت قلوبهم بعد
الخوف ومالوا الى محبة الانجليز وتمنوا لو أنهم يملكون البلاد وأظهروا للعثمانيين عين المقت
والقلى وزالت هيبة خورشيد اركادت

وكان

وكان محمد باشا متولى الولاية على مصر مولعا بجمع عسكر وترتيبهم على نظام عسكر الفرنسيس فجمع خلقا كثيرا ممن جاء الى مصر من الاكراد يريد الخروج مع الحج وألبسهم ألبسة الجوخ الاحمر الضيقة القصيرة وأزناطا قصيرة من الجوخ الازرق وطراطير من صوف أحمر على أشكال ملابس الفرنسيس وقيد بتنظيمهم وتعليمهم نفرا من كبار الفرنسيس الذين تخلفوا عن الجلاء وكذلك ألبس عدة وافرة من العبيد السود الذين اغتصبهم من ساداتهم وجمع جميع المماليك الذين للامراء بمصر والقاهرة وبعض البلدان وألبسهم الملابس الفاخرة وأركبهم جياد الخيل وقيد بهم من الفرنسيس من يعلمهم الفروسية واستعمال السلاح وسماهم بالنظام الجديد واهتم بأمرهم اهتماما زائدا وشرع فى انشاء عمارة عظيمة على مقربة من مقره لسكنى أولئك العسكر سماها قشلاق النظام واهتم بهذا القشلاق اهتماما عظيما فكان يجلس بنفسه لملاحظة البنائين والنجارين وأصحاب الصنائع وقد ضرب خيمة لجلوسه فى كل يوم من الصباح الى غروب الشمس قال صاحب عجائب الآثار وضرب الباشا خيمة عند بيته بقرب الهدم يجلس فيها حصة كل يوم لمباشرة العمل وربما باشره بنفسه ونقل بعض الانقاض فلما عاينه الاغاوات والجوخدارية بادروا الى الشيل ونقل التراب بالغلقان فلما أشيع ذلك حضر طاهر باشا وأعيان العساكر فنقلوا أيضا وطلبوا المساعدة وحضر طائفة من ناحية الرميلة وعرب اليسار ومعهم طبول وزمور فسأل عن ذلك فقال له المحتسب ان هؤلاء من طوائف حضروا للمساعدة فشكرهم على ذلك وأمرهم بالذهاب فبقى منهم طائفة وأخذوا فى شيل التراب بالاغلاق ساعة والطبول تضرب لهم فانسر الباشا من ذلك وحسن القرناء للباشا المساعدة وان الناس تحب ذلك فرغبوا ذلك وأحضروا قوائم أرباب الحرف التى كتبت أيام فرض الفرنسيس ونبهوا عليهم بالحضور قال فأول ما بدؤا بالنصارى الاقباط فحضروا ويقدمهم رؤساؤهم جرجس الجوهرى وواصف وفلتاؤس ومعهم طبول وزمور وأحضر لهم أيضا مهتار باشا النوبة التركية وأنواع الآلات والمغنين حتى البرامكة بالرباب فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات وفى ثانى يوم حضر منهم أيضا كذلك طائفة قال ولما انقضت طوائف الاقباط حضر النصارى الشوام والاروام ثم طلبوا أرباب الحرف من المسلمين فكان يجتمع الطائفتان والثلاثة ويحضرون معهم عدة من الفعلة يستأجرونهم ويحضرون الى العمل ويتقدمهم الطبول والزمور والجرية وذلك خلاف ما رتبه مهتار باشا فيصير بذلك ضجة عظيمة مختلفة من نوبات تركية وطبول شامية ونقاقير كشوفية ودبادب حربية وآلات موسيقية وطبلات بلدية وربابات برمكية قال كل ذلك فى الشمس والغبار والعفار وزادوا فى الطنبور نغمة وهى أنهم بعد أن يفرغوا من الشغل ويأذنوا لهم فى الذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار باشا برسم البقشيش الى أولئك الطبالين والزمارين فيعطيهم النزر اليسير ويأخذ لنفسه الباقى وذلك بحسب رسمه واختياره فيأتى على الطائفة المائة قرش والخمسون قرشا ونحو ذلك فيركب فى ثانى يوم ويذهب الى خطتهم ويلزمهم باحضار الذى

قرره عليهم فيجمعونه من بعضهم ويدفعونه قال واذا حضرت طائفة ولم تقدم بين يديها هدية أو جعالة طولوا عليهم المدة وأتعبوهم ونهروهم واستضوهم فى الشغل ولو كانوا من ذوى الحرف المعتبرة كما وقع لتجار الغورية والحريرية واذا قدموا بين أيديهم شيأ خففوا عليهم وأكرموهم ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل وأجلسوهم بخيمة مهتار باشا وأحضر لهم الآلات والمغانى فضربت بين أيديهم كما وقع ذلك لليهود قال واستمر العمل بقية الشهر الماضى الى وقتنا هذا فاجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذالة وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الاعداء من النصارى وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام * انتهى

واستفحل أمر الامراء المصريين بالصعيد الأعلى وكثرت عصابتهم وظهرت كلمتهم واجتمعت اليهم طوائف كثيرة من الهوارة وأهالى الحوف الشرقى والغربى وقبائل العربان وقد تحصنوا عند الهو بسفح الجبل ولبثوا على هذا الحال أياما فبرز رجل من العثمانيين موصوف بالشجاعة والاقدام اسمه أجدر وأخذ معه ألفا من العساكر الموصوفة وسار اليهم يريد اغتيالهم فسبق العين الى الأمراء وأخبرهم بخبر الاجدر فلما توسط الاجدر وأصحابه سطح الجبل نظروا واذا بالمصريين قد أقبلوا فى ثلاث فرق وأحاطوا بهم فأطلق العثمانيون بنادقهم طلقة واحدة ونظروا واذا بهم فى وسطهم وتحت سيوف المصريين ففتكوا فيهم ولم ينج منهم الا القليل وأخذ الاجدر أسيرا فلما أحضروا الاجدر بين يدى الالفى قال له ولأى شئ سميت بالاجدر فقال هو اسم للافعى العظيمة وقد صرت الآن تحت ظل جمالك فافعل ماأنت أهله قال بلى ولكنى أرى اسمك قد زاد الى حد وجب خلع أسنانك ثم أمر به فخلعوا أسنانه جميعها ثم قتلوه وزحف المصريون من الهو الى بنى على ونزلوا عليها فنهبوا غلالها ومواشيها وقبضوا أموالها وكذلك الخوارشة وما جاور ذلك من البلاد فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وأخذ فى إعداد المدد من الرجال والذخيرة وآلات الحرب وسيرها الى الصعيد مع أحد الامراء (وهو محمد على سرجشمه) أحد مقدمى العساكر السلطانية وأرسل الى ابراهيم بيك الكبير مكاتبة بالامان والعود الى القاهرة والمقام بها لهم مالاخوانهم وعليهم ماعليهم فلما وصل رسول الباشا بالمكاتبة أحسنوا لقاءه وفض الالفى المكاتبة وقرأها ثم التفت الى الرسول فقال أما قولكم تذهب الى دار الخلافة ونقابل السلطان كى ينعم علينا فهذا لاوجه له ولارضاء أبدا فانه على تقدير أن فى نيته الاحسان فلم لايحسن ونحن هنا فى بلاده واحسانه لايتقيد بحضورنا لديه أما طلب اخواننا الى مصر فهم وشأنهم ان شاؤا أقاموا معنا على الرحب والسعة وان شاؤا رجعوا الى القاهرة وهم فى حل منا وأما قولكم انكم تعطوننا أقطاعا نعيش منه باسنا فهذا الاقطاع لايكفينا فان شاء أعطانا من أسيوط الى الصعيد الأعلى وعلينا أن نقوم بخراجها والا فالارض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شئنا ونأكل من رزق الله مايكفينا ومن أتى الينا حاربناه حتى يكون من أمرنا وأمركم

مايكون

مايكون فلما رجع الرسول بالجواب اغتم الباشا غما شديدا وركب من ساعته وأسرع فى تجهيز الجند وتسييرهم فعبروا النيل من الآثار الى الجانب الغربى فى عدة عظيمة وذخيرة وافرة وكان بعد انحدار رسول الباشا من معسكر المصريين أمر الألفى فكسروا قنطرة اللاهون وخيموا على مقربة منها وشرعوا فى قبض الاموال من بلاد الفيوم ومنع الوارد منها الى مصر فخاف أهل الفيوم ورحل الكثير منها الى القاهرة فكانوا ينامون بالازقة والحارات رجالا ونساء وأطفالا ولا يجدون مايقتاتون به فانزعج الباشا من هذا الحال واستعظمه وكان كلما سأل أحدا من الامراء المصريين القيام مع الجند المسافرين اعتذر وطلب العفو أو أظهر عدم الطاعة وخرج بعضهم خفية ولحق بالمصريين فلما تحقق الباشا ذلك زاد به القلق ورسم لطوائف العسكر أن يقيم منهم فريق بالقلاع التى على التلال ففعلوا ورفعوا عليها الاعلام العثمانية وأوقفوا الحراس على أبواب المدينة يمنعون من يخرج منها من الغز والكشاف أو من له علاقة مع المحاربين فكان من خرج من بولاق أوغيرها لايخرج الا بمرسوم من كتخدا الباشا وأمر الباشا بنهب بيوت المحاربين التى بالقاهرة ومصر فنهبوا مافيها من فرش ومتاع وغيره وحملوه الى بيته وتمكن ابراهيم بيك والالفى ومن معهما من جميع بلاد الفيوم فكانوا اذا دخلوا بلدة منها ورأوا من أهلها مقاومة أو عصيانا ركبوا عليها وقتلوا من فيها بحد السيف وأحرقوا دورها وسبوا نساءها فخضعت لهم جميع البلدان والقرى وأدوا لهم المغارم والفرض وأباحوا لهم أخذ الغلال والماشية وهم صاغرون وكان بمدينة الفيوم طائفة من الجنود السلطانية فلما رأوا من كثرة المصريين وفعالهم بأهل البلد تترسوا فى مواقعهم وأقاموا ينتظرون المدد وزحفت طلائع المصريين الى الجيزة وأخذوا منها الاموال والمغارم ووصلوا الى وردان وسار منهم جماعة الى ناحية الشرقية والمنصورة ومروا بحاكم الشرقية فلم يمنعهم وقد كانوا عدة قليلة فعلم الباشا بذلك وحقد عليه واستقدمه فحضر فأمر به فقتلوه ونهبوا داره وسبوا نساءه وعبر كتخدا الباشا النيل الى انبابه وعبر معه طوائف كثيرة من الجند ونصبوا خيامهم وجاء الخبر بوصول ابراهيم بيك ومن معه الى الجسر الاسود فأقاموا به أياما ثم ترفعوا الى المنصورية وبشتيل فخرج طاهر باشا وعبر النيل أيضا وعسكر بجنوده على مقربة من الوراريق ثم ساروا طائفة بعد طائفة وكان الامراء المصريون قد نزلوا على مقربة من دمنهور فلاقتهم العساكر السلطانية وناوشتهم القتال وهم فى قلة والعثمانيون فى كثرة زائدة وكان مع جماعة المصريين بعض كبار جند الانجليز جاؤا اليهم من الاسكندرية فلم يتأخر المصريون عن القتال وهجموا على فرسان العثمانيين هجمة الاسود وكان الانجليز ينظرون اليهم نظرة المتعجب فهزموهم وولوا الادبار وتركوا المشاة خلفهم فكر المصريون على المشاة أيضا فألقوا أسلحتهم وطلبوا الأمان فساقوهم وأخذوا مامعهم من أسلحة ومدافع وذخيرة وغير ذلك وقد تمزق شمل من بقى من العساكر السلطانية وتفرقوا أشتاتا وجاء الخبر بذلك الى محمد باشا فانزعج وقد كانت وردت عليه أوامر دار

السلطنة بسرعة اخراج ابراهيم بيك وأصحابه من الديار المصرية والا لحق به العطب فعمد الى تجييش جيش آخر وبالغ فى اتقانه وتنظيمه وعبوره النيل الى انبابه وانتقل طاهر باشا من انبابه بعساكره الى الجيزة وتترس بها ووصلت المجاريح والمرضى من العثمانيين وأكثر الباشا من تحذير أعيان ومشايخ البلاد من مسالمة الامراء المصريين أو التقرب اليهم وترفع فريق من الامراء المذكورين راجعا الى الصعيد وذهب جماعة منهم أيضا الى دار السلطنة فى احدى سفن الانجليز لطلب عفو السلطان ونزل محمد بيك الالفى مع طوائف الانجليز الذين كانوا بالاسكندرية يريد لندن عاصمة بلادهم اذ جاءهم الامر بالجلاء تماما عن الاسكندرية فرحلوا عنها فى يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من السنة أى سنة سبع عشر وما ئتين وألف هجرية ورجعت جميع العساكر السلطانية الذين كانوا بالبحيرة الى القاهرة ومصر وانتشروا فيها يطوفون فى الشوارع والحارات وطالبوا الباشا بجميع كيهم المتأخرة وقد كان قطع عنهم رواتبهم وعلوفاتهم لفراغ الخزينة وبغضه لهم لجبنهم وهزيمتهم فى الحروب فصار كبارهم يطالبون الباشا والدفتردار وهما يماطلان ويطاولان فاجتمع العساكر حول بيت الدفتردار وصاحوا عليه وتهددوه وشاع قيامهم لنهب أمتعة الناس فنقل أهل الغورية وغيرهم بضائعهم من الحوانيت وقفلوها أياما كثيرة وخافهم الناس وامتنعوا من الخروج الى الاسواق بعد الغروب فكانوا اذا انفردوا بأحد عروه من ثيابه فان مانعهم قتلوه وأكثروا من خطف النساء والغلمان ❁ قال صاحب عجائب الآثار ومر أربعة أشخاص من العساكر وأخذوا غلاما لرجل حلاق بخط بين السورين عند القنطرة الجديدة فعارضهم الاوسطى الحلاق فى أخذ الغلام فضربوا الحلاق وقتلوه ثم ذهبوا بالغلام الى دارهم بالخطة فقامت فى الناس ضجة وكرشة وحضر أغاة التبديل فطلبهم فكرنكوا بالدار وضربوا عليه البنادق من الطيقان فقتلوا من أتباعه ثمانية أنفار ولم يزالوا على ذلك الى ثانى يوم فركب الباشا فى التبديل ومر من هناك وأمر بالقبض عليهم فنقبوا عليهم من خلف الدار وقبضوا عليهم بعد ما قتلوا وجرحوا آخرين فقتلوهم شنقا ووجدوا بالدار مكانا خرابا أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأة مقتولة وبينهن من وجدوها وطفلها مذبوحا معها فى حضنها اهـ

واختل النظام من توالى هجمات الأمراء المصريين على البلاد وعيث الجنود السلطانية فيها وتجاوزهم الحدود فى القتل والنهب والتضريب والتعييب والفحش وغير ذلك فتطاولت أيدى العربان أيضا الى السلب ووقف كثير منهم فى طرق المارة يسلبون ما معهم ويقتلون من يمانعهم حتى زال الأمن وعم الخوف وانقطعت الطرق حتى فى نواحى المدينة وطريق بولاق القاهرة وغيرها وعجز محمد باشا وظهر ضعفه ثم جهز طائفة من الوجاقلية وسيرهم لقتال العربان فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا انجلى عن هزيمة الوجاقلية وتمزيق شملهم ثم ترفع العربان بعد هذه النصرة الى الجيزة وعاد من بقى من الوجاقلية ونجوا بجهة العادلية وجاء من كانوا بالبحيرة من الامراء المصريين الى منية ابن خصيب وأرسلوا الى حاكمها بأن يعبر

النيل هو ومن معه من العساكر العثمانية الى الجانب الشرقي لينزلوا بالمنية أياما يقضون فيها أشغالهم ثم يرحلون عنها فأبى عليهم ذلك وأمر فحصنوا البلد وزادوا في عمل المتاريس وأكثروا من المدافع وبينما هم على همتهم من التمنع والتحصين اذ أحاط بهم المصريون وقاتلوهم قتالا عنيفا أربعة أيام ليلا ونهارا حتى غلبوهم ودخلوا البلد عنوة وأعملوا فيها السيف وأحرقوا وخربوا وقتلوا خلقا كثيرا جدا من أهلها وجميع من كان بها من العثمانيين وتركوا النار تعمل فيها حتى صارت رمادا وأخذوا ما فيها من الأموال والمتاع والماشية وغير ذلك وأتوا بحاكمها الى ابراهيم بيك الكبير وقد كان من مماليك ابراهيم بيك وانفصل عنه ودخل في خدمة الباشا فلما مثل بين يدي أستاذه وبخه وبكته على أمره ضربوه بالنبابيت ثم كبلوه في الحديد وألقوه في صومعة ورحل ابراهيم بيك وأصحابه عن منية ابن خصيب الى الصعيد الاعلى وجاءت الاخبار الى محمد باشا بما جرى فزاد به القلق وضاقت الدنيا في وجهه وأرسل الى محمد علي سرجشمه يستحثه على قتال المصريين قبل ان يلحقوا بمدينة أسيوط فيفعلوا بها ما فعلوه بمنية ابن خصيب فاعتذر بخروج الجند عن طاعته بأسباب تأخير صرف جماكيهم وتهديدهم اياه بالقتل فألح عليه محمد باشا فبالغ في الاعتذار وقد كان على عهد مع ابراهيم بيك وأصحابه * فلما كان يوم الجمعة سابع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة ثار الجنود جميعا وحضروا الى بيت الدفتردار فاجتمع جماعة منهم بحوش الدار وقفلوا أبواب القيطون وأخرجوا من كان به من العسكر التابعين للدفتردار وصعد طائفة منهم فوقفوا بفسحة المكان الذي كان به الدفتردار ودخل عليه منهم أربعة فكلموه في أمر صرف جماكيهم ورد جميع مرتباتهم فلاطفهم وقال انه لم يجتمع عنده من المال سوى ستين ألف قرش فاما ان يأخذوها واما أن يصبروا أياما حتى يكمل لهم المطلوب فقالوا لابد من الصرف فكتب في الحال الى محمد باشا يطلب منه قرضة فأبى عليه ذلك وأرسل يقول لا أريد هؤلاء الاوباش الهمج في بلاد قد توليت حكمها فلا بد من خروجهم وارتحالهم عنها والا أعملت فيهم السيف وأفنيتهم عن آخرهم فأعاد اليه الرسول يقول أغثني فان الدار ملئت بالعساكر أعلى وأسفل فلما أخبره الرسول بذلك غضب وأمر بالمدافع فأخذوا يطلقونها من قلعة الجبل على بيت الدفتردار وراسلوا الرمي بالقنابل فتساقطت على الدار تساقط المطر واشتعلت الدار بما فيها وتهدم أكثرها والعساكر لاينفكون عنها واختفى الدفتردار تلك الليلة تحت درج البيت الى الصباح ونهب العساكر مافي الخزينة من الاموال ومافي الدار من فرش وبسط ومتاع ومر الوالي بالاسواق والشوارع ينادي في الناس برفع متاعهم والمحافظة على أنفسهم والتحذر فخاف الناس وأغلقوا الحوانيت والدروب وزاد تطيرهم وتخيلوا هجوم العساكر ونهب المدينة وجميع الدور ونادى المنادي معاشر الناس وأولاد البلد كل من عنده سلاح فليتقلده ويحمله واجتمعوا على شيخ مشايخ الحارات ليذهب بكم الى بيت الباشا وجاء الطلب بذلك أيضا الى تجار الغورية وتجار خان الخليلي وأهل طولون وشددوا في الطلب وحذروا من التخلف فسار بعض



الناس فقيدوهم بحفارة بيت الباشا وبيت ابن المحروقي المجاوراله فباتوا ليلتهم تلك وحضر الوالى عشاء تلك الليلة وطاف على الناس يحضهم على القيام لنصرة الباشا على الخوارج من الجند والعسكر فاجتمع بعض الاوباش والغوغاء بالعصى والمساوق وتحزبوا أحزابا وعملوا متاريس عند رأس الوراقين وجهة العقادين والمشهد الحسينى فلما دخل الليل بطل رمى القنابل من قلعة الجبل وأصبحوا وقد شرعوا فى الرمى فأطلق العسكر كذلك مدافعهم ووالوا الرمى على القلعة وتترسوا بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد على سرچشمة وكوم الشيخ سلامه وداخل الناس خوف عظيم من هذه الحادثة وبقى الحال على هذا الوصف ثلاثة أيام فلما كان يوم السبت رتب الباشا عساكره على طريقة الفرنسيس وخرجوا مشاة وركبانا ومروا حوالى البركة وانقسموا فرقتين فرقة أتت على رصيف الخشاب وفرقة على جهة باب الهواء ليأخذوا الارنؤد بينهم فلما وصلت فرقة ناحية رصيف الخشاب قاتلوا الارنؤد قتالا شديدا فانهزم الارنؤد من تلك الجهة وانحصروا جهة جامع أزبك فاشتبكوا فى القتال مع الفرقة الثانية وتحققوا الهزيمة والخذلان وكادوا يسقطون فى أيديهم فلما وصلت عساكر الباشا الى بيت الدفتردار والمحروقى وبيت نساء الباشا اشتغلوا بالنهب واخراج النساء وتركوا القتال وتقاسموا المنهوبات ففترت همة الفرقة الثانية من عساكر الباشا وانضموا فى الحال الى النهابين من إخوانهم فتقوت بذلك عزائم الارنؤد وكروا على من بقى من عسكر الباشا فهزموهم وأخذوا مراكزهم وأجلوهم عنها وظهر طاهر باشا وركب الى الرميلة وتقدم الى باب العزب فوجده مغلقا فعالج الطاقات الصغار التى فى حائط باب العزب القريبة من الارض المعدودة لرمى المدافع من أسفل ففتح بعضها ودخل منها بعض عسكره فتلاقوا مع الارنؤد المحافظين داخل الباب فخالفوا واتفقوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد ثم صعدوا الى القلعة فاتفقوا مع من بها من الارنؤد ودخلوا على الخزندار وطلبوا منه مفاتيح القلعة فمانعهم فشددوا عليه وهموا بقتله فسلمهم المفاتيح ففتحوا الابواب لطاهر باشا واعتقلوا الخزندار وأنزلوا من القلعة بعض المدافع والجبخانة الى الازبكية وتسلم القلعة طائفة منهم وتقيدت بخدمة المدافع فلم يشعر محمد باشا الوالى الا والقنابل تتساقط على بيته من قلعة الجبل فهاله الأمر وأزعجه جدا وعلم بما جرى فسقط فى يده ونزل طاهر باشا من قلعة الجبل ومر من وسط المدينة وهو يقول بنفسه مع المنادى أمان واطمئنان افتحوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا وما عليكم بأس وطاف يزور الاضرحة والمشايخ ورفع الناس المتاريس من الطرق وانكفوا عن التعرض للجند وأكثر الوالى من التطواف والنداء بالأمان والبيع والشراء فاطمأن الناس واستمر الحرب بين الفريقين يوم السبت واشتد ليلة الاحد طول الليل فلما أصبح النهار حتى زحف الارنؤد على جامع عثمان كتخدا وحارة النصارى وصعدوا التلال التى بناحية بولاق القاهرة وملكوا بولاق وهجموا على مناخ الجمال فقتلوا من به من العسكر وسارت طائفة منهم الى قصر العينى وقبضوا على من به من عبيد الباشا ونهبوا

بيت السيد أحمد المحروق وأخرجوا منه النساء حاسرات وكذلك نهبوا بيت الباشا الملاصق له ونهبوا بيت المعلم جرجس الجوهرى وأخذوا مافيه من النفائس والامتعة الثمينة وأشعلوا النار ببيت الباشا فالتهمت الاخشاب والاسقف وسرت الى جميع المساكن فركب الباشا فى مماليكه وخدمه ومعهم النساء والجوارى وخرج الى جزيرة بدران وكان خروجه قبيل أذان العصر من يوم الاحد تاسع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة فخرج خلفه جماعة من الارنؤد يريدون القبض عليه فكر عليهم وهزمهم مرتين أو ثلاثا

مطلب
طرد محمد باشا من الولاية وتولية طاهر باشا

وسكنت الفتنة بخروج محمد باشا وجلائه عن القاهرة الى العادلية وطاف الوالى والمحتسب وأغاة الانكشارية ينادون بالامان وفتح الدكاكين والعود الى البيع والشراء فكانت مدة ولاية محمد باشا المذكور على مصر سنة وثلاثة أشهر وأحدا وعشرين يوما * وكان سيئ التدبير لايحسن التصرف سفاكا للدماء جافى الطبع قليل التروى يضع الامور فى غير موضعها فيحسن على من لايستحق الاحسان ويبخل على من فى حاجة الى القوت وكان نفورا مختالا سهل الانقياد لقرناء السوء كثير المظالم ولم يزل فى طريقه الى أن نزل بقرب قليوب فى غروب يومه فاستراح وأسرى ليلا الى دجوة وأنزل الجوارى والمتاع فى بعض السفن الى بنها العسل وقد تخلف عنه أكثر قومه واجتمع الأغا والوجاقلية ببيت القاضى وتشاوروا فى اقامة طاهر باشا نائبا عن الدولة حتى تأتيه الولاية أو يأتى وال آخر جديد فاتفقوا على ذلك وذهبوا الى بيت طاهر باشا وألبسوه خلعة النيابة وحرروا محضرا بما وقع ورفعوه الى دار السلطنة فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور قبض على الكثير من الامراء والاعيان وصادرهم ثم اعتقلهم وكاتب ابراهيم بيك الكبير وأصحابه وسألهم الاقتراب من مصر حتى يدبر لهم الأمر فى رجوعهم وسير طائفة من الجند لقتال محمد باشا الوالى المخلوع فساروا خلفه وهو ينتقل من ناحية الى أخرى حتى نزل بالمنصورة يجبى خراجها وضرب على أهلها المغارم وقبض على من كان بها من أصحاب الجباية وأخذ الأموال منهم وكذلك فعل ببلاد الغربية ثم سار الى دمياط وقد تخلف عنه جميع أعوانه فلم يبق معه الابعض الاتباع والنساء والجوارى وبسط طاهر باشا يده على جميع الأمور وضيق على أصحاب الميسرة من الوجاقلية والقبط وضرب على القبط غرامة قدرها خمسمائة كيس وخص بهذه الغرامة جماعة الكتاب ثم اعتقل جماعة منهم وكذلك فعل باليهود وقتل من أعاظم القبط والشوام خلقا ونهب دورا كثيرة وبالغ فى استرضاء الارنؤد والتزلف اليهم فصرف لهم جماكيهم وأطلق علوفاتهم ورد عليهم الارزاق اليومية وقرب اليه كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وكان بقلعة الظاهر بيبرس طائفة من الانكشارية جاؤا بأسلحتهم وآلات حربهم من دار السلطنة يريدون الاقطار الحجازية لقتال الوهابيين ومن معهم من الخوارج من أهل مكة والمدينة ونزلوا بالقلعة المذكورة على عهد محمد باشا المخلوع حتى تتم معداتهم فيرحلون عن طريق القلزم والقصير فحدثت الفتنة وظهر أمر طاهر باشا وأصحابه وانقطعت عنهم العلوفات وقلت المؤن وضاق عليهم الحال وكان معهم

أحمد باشا والى المدينة فكلموه فى ذلك فطاولهم فذهب جماعة منهم الى طاهر باشا وطالبوه بالجامكى والعلوفات فأبى عليهم ذلك فراجعوه فلم يلتفت اليهم فأضمروا له السوء فلما كان يوم الاربعاء رابع صفر من السنة ركب جماعة منهم بعددهم وأسلحتهم وخلفهم بعض كبرائهم وذهبوا الى طاهر باشا وسألوه صرف الجامكى فأعرض عنهم وقال ليس لكم عندى منها شئ الا ما كان من يوم قبضى على زمام البلاد فقالوا حاشا أن يكون كذلك فقال اذهبوا الى محمد باشا وطالبوه بما كان فى أيامه فألحوا عليه فنهرهم وصاح بقومه ليخرجوهم فابتدره أحمد الانكشارية بضربة بسيفه اطاح رأسه فسقط من شباك المكان الى صحن الدار وجردوا جميعهم سيوفهم وأقبلوا على أتباعه وخدمه ومن كانوا فى البيت من الارنؤد فقتلوا منهم خلقا كثيرين واشتعلت النار بالبارود الذى كان بمخادع أتباعه ومماليكه فوقع الحريق والنهب فى الدور المجاورة وخرج الانكشارية وبأيديهم السيوف مسلولة ومعهم مانهبوه من المتاع وغيره فانزعج الناس وأغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وهم لايعلمون بالخبر ثم طاف الآغا والوالى بعد ساعة ونادوا بالأمان واجتماع جميع الانكشارية عند أحمد باشا والى المدينة المنورة لقتال الارنؤد وإخراجهم من البلاد فلما سمع الارنؤد بالمناداة تحزبوا واجتمعت طوائفهم عند الازبكية فكان الانكشارية اذا ظفروا بأحد من الارنؤد أخذوا ما معه من سلاح وقماش وربما قتلوه وكذلك كانت تفعل الارنؤد بالانكشارية وقد نهب الانكشارية جميع ماوجدوه فى بيت طاهر باشا من فرش وبسط وملبوس وغير ذلك وبقيت جثته ملقاة لايجسر أحد من أتباعه على الاقتراب منها وحملها وزالت دولته فكانت أيامه ستة وعشرين يوما ❊ قال صاحب عجائب الآثار وكان أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحية قليل الكلام فيه هوس وانسلاب يميل للمخلوبين والمجاذيب وأصحاب الشعوذة وقد عمل له خلوة بالشيخونية يبيت فيها كثيرا ويصعد على سطحها مع شيخه ويذكر معه اهـ ثم جمع أحمد باشا المشايخ والعلماء والوجهاء فى داره وكلمهم فيما وقع من طاهر باشا وأصحابه وانتدب جماعة منهم فساروا الى محمد على سرچشمه يسألونه الطاعة والخلود الى السكينة كى لايعرض نفسه ومن معه للبوار فقال لست أعرف لاحمد باشا سلطة على البلاد وما هو الا ضيف ثم يرتحل ولم أكن لاولى طاهر باشا وأجلسه على منصة الملك الا لأنه مبعوث من الدولة للمحافظة على الديار المصرية والجواب عندى ان أحمد باشا يرتحل عنا على الفور بعسكره وجنوده وله علينا المعاونة والمدد من مؤنة ودواب للحمل وسفن للسفر فأخبر المشايخ أحمد باشا بمقالة محمد على فأضمر له السوء وبدأ من هذا الحين يظهر محمد على وتعلو كلمته والانكشارية يقتلون وينهبون كل ماقدروا عليه من دور الناس والأمراء وتتبع الارنؤد وفتك بهم وعملوا بعض المتاريس ونادوا على الناس بالسهر والتحفظ وفتح الحوانيت ليلا والاكثار من الانوار وبات الناس على تخوفهم فلما أصبح يوم الخميس أرسل أحمد باشا يستدعى المشايخ والعلماء فذهبوا اليه فكلمهم فى جمع سائر الناس وخروجهم على طوائف الارنؤد فأجابوه الى ذلك وأرادوا الانصراف

مطلب
قتل طاهر باشا وتصرف أحمد باشا والى المدينة المنوره

فنعهم

فنعهم وقال حتى تأمروا العامة فقالوا هذا لايكون الا وشى بالجامع الازهر ومازالوا به حتى
خرجوا ولم يفعلوا شيأ مما أمر به فجمع اليه جميع الامراء العثمانيين وتشاوروا فى أمر الظفر
بمحمد على أيضا ومن بقى معه من الارنؤد وكان محمد على قد استقر بمن معه بقلعة الجبل
وأحكموا أمورهم وكاتب محمد على الامراء المصريين وكانوا على مقربة من الجيزة وانبابه فحضر
الى القاهرة بعض أتباعهم وطائفة قليلة من عسكرهم وشاع خبر وصولهم الى الجيزة فعبر
اليهم مماليكهم وبعض الكشاف من أصحابهم ثم قدم منهم جماعة فنزلوا بباب النصر وآخرون
بباب الفتوح وأرسل ابراهيم بيك الكبير خطابا الى أحمد باشا يقول فيه حيث قد علمنا
بموت طاهر باشا وأنت اليوم بين ظهرانينا فضم اليك من بقى من طوائف الارنؤد واياك أن
تقرب اليك أحدا من الانكشارية • فلما كان صباح ثانى يوم ذهب جماعة من الانكشارية
الى الرميلة يريدون قتال عسكر محمد على فأطلق عليهم أصحاب محمد على المدافع وتابعوا الرمى
فولى الانكشارية الادبار ورجعوا مسرعين الى بيت أحمد باشا فحول أصحاب القلعة رمى
القنابل على البيت رميا متراسلا فخاف الانكشارية وانحلت عزائمهم وتفرقوا عن أحمد باشا
وجاء الخبر بما جرى الى ابراهيم بيك فتقوت عزيمته وأرسل الى أحمد باشا يطلب منه قاتلى
طاهر باشا ويلزمه الخروج من القاهرة فى برهة لاتتجاوز الساعة الحادية عشرة من النهار ولا
يقيم بها الى الليل فلم يجد بدا من الامتثال وطلب دواب للحمل فلم يجد فركب فى عصر اليوم
وسار وتفرق عنه من كان معه من أعيان العثمانيين وذهبوا الى محمد على والتجؤا اليه
فأحسن لقاءهم وأنزلهم منزلا رحبا وخرج أحمد باشا وأتباعه مشاة بين يديه ومعه نفر قليل
من الانكشارية فوجد عند باب الفتوح من زحام عسكر الامراء المصريين والعربان
والهوارة ماأخافه فدخل بمن معه الى قلعة الظاهر بيبرس وأغلقوا أبوابها فتبعه جماعة من
الارنؤد ودخل داره جماعة فنهبوا مافيها من متاع وأثاث وأحاط بقلعة الظاهر آخرون
ليلتهم تلك وأصبحوا فضيقوا على أحمد باشا ومن معه وجعلوا يرمون على المحاصرين من
السور وهم كذلك يرمون عليهم من أسفل وجمعوا شيأ كثيرا من التراب وعملوا منها أكمة
وصعدوا عليها وصاروا يرمون عليهم من الخارج بالبنادق بقية النهار وطول الليل فلما أصبحوا
أنزلوا مدفعا من قلعة الجبل وجعلوا يطلقونه على قلعة الظاهر فأخربت قنابله وهدمت بعض
جدران القلعة فطلب الانكشارية الامان فأمنوهم ففتحوا الابواب وخرج أحمد باشا ومعه
اثنان من الانكشارية وهما قاتلا طاهر باشا فأخذوهم وعبروا بهم الى الجيزة ولبث من بقى
من الانكشارية داخل القلعة وحولهم الجند والعسكر ثم مضوا أحمد باشا بقصر العينى
وأبقوا قاتلى طاهر باشا بقصر الجيزة فتم بسجن أحمد باشا زوال دولته فكانت ولايته
بعد موت أحمد باشا طاهر يوما وليلة لاغير

واشتدت عزائم طوائف الارنؤد بهذا الظفر فكثر فسادهم فى الارض وقتلوا من الترك
وأصحاب خان الخليلى خلقا كثيرا وتتبعوا الناس وأخذوا بالشبهات وظهر نجم محمد على والتجأ

مطلب
طرد أحمد باشا والى المدينة
وتصرف ابراهيم بيك الكبير

اليه الامراء والاعيان فرارا من ايذاء طوائف الارنؤد وأتوا يوما بقاتلى طاهر باشا من قصر العينى الى الناصرية وضربوا أعناقهما فى وسط النهار وحملوا الرأسين الى زوجة طاهر باشا بالشيخونية ثم الى أخيه بقلعة الجبل وأخرجوا طوائف الانكشارية الذين كانوا بقلعة الظاهر وأخذوا جميع ما كان معهم من سلاح وكراع وبعثوا بهم الى الصالحية مع نفر من الارنؤد والعربان فمات أكثرهم جوعا وتفرق من بقى وتشردوا فى الجهات ● ولما كان يوم الاحد خامس عشرى صفر سنة ثمان عشرة نزل ابن أخى طاهر باشا من قلعة الجبل ونزل من كان معه من كبار الارنؤد وأعيانهم وعسكرهم ومتاعهم وما جمعوه من المنهوبات وكان شيأ كثيرا جدا وسلموا القلعة الى ابراهيم بيك الكبير وأصحابه ولم يبق بها من الارنؤد الا طائفة قليلة ومعها أحد كبارهم المدعو حسين قبطان وأخرجوا أحمد باشا والى المدينة من معقله بقصر العينى وسيروه الى الديار الرومية فى نفر من الانكشارية فلما استقر بابراهيم بيك المقام قسم الوظائف والمناصب العالية بين قومه وذويه باشارة محمد على ورتب الامور على ماأراد محمد على فأحكم ترتيبها فمال الامراء المصريون الى محمد على وأحبه العساكر وعلى عشورته العمال فى جميع البلاد وتقرب اليه الاعيان وتزلف اليه أرباب المناصب وتقرب منه المشايخ والعلماء ● وجاء الخبر الى ابراهيم بيك الكبير بنزول محمد باشا الوالى المعزول على مدينة دمياط وتغلبه على ماحولها من البلاد والقرى واعطاء الوظائف الى مماليكه وانضمام الكثير من الانكشارية الذين خرجوا من مصر والقاهرة الى لمومه مع الغوغاء وحرافيش البلاد والعربان فسير لقتاله البرديسى فى طائفة عظيمة من العساكر فوجده ممتنعا وقد عمل المتاريس والخنادق حول المدينة وضرب على الاهالى المغارم والفرض وبث المعينين لجمع الاموال من البلاد ونقل الغلال فهجم عليه البرديسى بخيله ورجله واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانهزم البرديسى وأصحابه عند القنطرة البيضاء من ضواحى دمياط وأجلوهم عن مواقفهم ثم عاد البرديسى وقد رتب عسكره وهجم على عساكر محمد باشا فانهزموا وانتصر البرديسى نصرة عظيمة وانخذلت عساكر محمد باشا وخامر بعضهم مع البرديسى وأشاروا عليه بالزحف على دمياط فزحف وراسل بعض كبار عسكر الباشا فأطمعوه فى الاستيلاء على المدينة بغير عناء فدبر عسكره وهجم على المدينة وقاتلها حتى دخلها عنوة وفتك فى عسكر الباشا بالقتل وتتبعوا خواصه وأتباعه فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا من خرج معه من أصحاب الوظائف ونهبوا المدينة وأسروا النساء والاطفال وافتضوا الابكار واستأسروا من شاؤا وفعلوا من القسوة ماتشيب لهوله الولدان ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أمتعة التجار التى كانت بها والتجأ محمد باشا الى بلدة القرية فأحاطوا به من كل جانب فطلب الامان فأمنوه فنزل من القرية وحضر الى البرديسى فقام عليه بعض الجند وخطفوا عمامته وهو فى الطريق وكادوا يفتكون به فلما رآه البرديسى ترجل عن جواده وتلقاه بالاعزاز والاكرام وألبسه عمامة وأنزله فى خيمة بجانب خيمته وسير الاخبار بما حصل الى ابراهيم بيك

فخرج

ففرح بذلك وفرح أصحابه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشري ربيع الاول أحضروا محمد باشا الى القاهرة ومعه المحافظون من الارنؤد والعساكر المصرية وليس معه من أتباعه سوى ستة مماليك فقط وقد تفرق باقيهم عنه فنزل بساحل بولاق وكان ابراهيم بيك قد حضر فى ذلك اليوم الى بولاق فلم يقابل محمد باشا وتشاغل عنه ثم حضر الى الباشا أحمد الكشاف وأركبه وساربه الى بيت ابراهيم بيك بحارة عابدين فلم يقابله فى ذلك اليوم أيضا فأخذوه الى بيت البرديسى فبات ليلته وأصبح فركب ابراهيم بيك الى قصر العينى وطلب محمد باشا فسار اليه وقابله وقد حضر الالفى وبقية الامراء المصريين ثم ركب ورجع الى بيت البرديسى وبقى محجورا عليه أياما ● فلما كان يوم السبت خامس عشري ربيع الاول طلب محمد باشا من سليم كاشف المحرجي المتولى حراسته أن يأذن له بالخروج الى الناصرية للرياضة فأرسل سليم كاشف الى ابراهيم بيك يسأله فى ذلك فأذن له فاركبه سليم كاشف بمماليكه وعدة أخرى من مماليك المحرجي فلما خرج الى خارج النصرية أطلق جواده وتبعه مماليكه من خلفه فظن مماليك المحرجي أنهم يتسابقون فلما غابوا عن أبصارهم ساقوا خلفهم وما زالوا كذلك وقد استل محمد باشا سيفه الى أن وصلوا الى الازبكية فقصد بيت أحمد بيك الارنؤدى فلما اقترب منه أطلق أحمد الجند غدارته على جواده فسقط الجواد وسقط محمد باشا امام الباب ودخل مسرعا على أحمد بيك ومن كان معه فلما رآه أحمد بيك على هذا الحال وبخه وقبض عليه وفتشوه فوجدوا معه من المال ماقدره ألف وخمسمائة دينار وكذلك أخذ ما كان مع مماليكه وقد كانوا أعدوا هذا المال ليكون لهم عونا على الهرب وجاء الخبر الى سليم كاشف المتولى حراسته فركب على مثل ذلك بباقى أتباعه واتصل الخبر بابراهيم بيك فأمر جميع الكشاف بالرجوع وأصعد طائفة منهم قلعة الجبل وتحفظ على أطراف المدينة وجاء سليم كاشف بمحمد باشا الى ابراهيم بيك بقصر العينى ومعهما أحمد بيك فخلع ابراهيم بيك على أحمد بيك فروة سمور وقدم له حصانا مسرجا ووكل بمحمد باشا من يخفره فى معقله

مطلب
منع تصرف ابراهيم بيك وولاية على باشا الطرابلسى

وجاءت الاخبار بولاية على باشا الطرابلسى ووصوله الى مدينة الاسكندرية فاستقربها ولم يتقدم الى القاهرة وأرسل الى ابراهيم بيك ومن معه يقبح مافعلوه من رجوعهم الى القاهرة وتصرفهم فى الامور بغير اذن السلطان لاسيما خروج الارنؤد وقتل طاهر باشا بخروج الانكشارية واخراج أحمد باشا وغير ذلك من الحوادث التى كانوا هم علة وقوعها فأرسلوا اليه يعتذرون ويظهرون الطاعة والولاء للسلطان وأن حضورهم لم يكن الا عن رضا الاهالى واستدعاء المشايخ والعلماء وتخوف ابراهيم بيك وأصحابه من على باشا المذكور وتحذروا وأقاموا ينتظرون ماسيكون من حضوره الى القاهرة ● وكان البرديسى فى غضون ذلك قد سار بعسكره من دمياط بعد أسر محمد باشا الى رشيد لقتال الحاج على باشا قبطان ومن معه من العساكر العثمانية وكان الارنؤد لما قاموا وخرجوا على محمد باشا جاء على

باشا قبطان المذكور فى نفر من العثمانيين ونزلوا على رشيد من البحر وتحصنوا بها حتى
صاروا فى منعة زائدة وجعل على باشا مقره ببرج مغيزل يراقب الفرص ليزحف على
القاهرة ويفتك بمن بها من أصحاب ابراهيم بيك وطوائف الارنؤد فوصل اليه البرديسى
بعسكره وقاتله قتالا شديدا نيفا وعشرين يوما وما زال حتى انتصر عليه وفتح البرج عنوة
وقبض على على باشا وعدة كبيرة من عسكره وأخرجوهم الى جهة الشرقية ليسيروا منها الى
الشام ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة فلما علم على باشا الطرابلسى وهو بالاسكندرية مافعله
البرديسى برشيد وكيف أخذ على باشا قبطان أسيرا خاف أن يعرج البرديسى وأصحابه الى
الاسكندرية فيفعلوا بها ما فعلوه برشيد فأمر بسد أبى قير فكسروه فجرى الماء الملح الى
الاراضى التى كانت جفت عنها منذ عهد قريب فى ذلك الحين وأغرقت القرى وأفسدت
المسالك على الاسكندرية واشتد الحال على أهلها وضاق بهم الكسب فرحلوا عنها الى جزائر
الحيط بكريت وقبرس ورودس وغيرها ولم يبق فيها الا الفقراء والعجائز فقلت وكان هذا السد
من أهم العمائر وأحكمها وأكبرها شهرة ولذلك كانت تتفقده الدول على مر الايام وتتعهده
بالعمارة واحكام الوضع وتخشى من تهدمه فلما اختلت الاحوال وكثر توالى القلاقل والاحن
واستولت الفوضى على البلاد وأهملت أسباب العمارات كافة انهار من هذا السد بعض
بنيانه فسال منه الماء الملح على المزارع والقرى الواقعة بين رشيد والاسكندرية فلم يتدارك
أولو الحل والعقد أمره لاستفحال الخلل فاستمر على هذا الحال والخرق يتسع حتى كادت
تنقطع الطرق بسبب الماء المنهمر منه واستمر على ذلك الى دخول الجيوش الفرنساوية
مصر فلما جاءت خلفهم سفن الانجليز أراد أميرها تعويق الفرنسيس عن الوصول الى
القاهرة بعد نزولهم بأبى قير فأطلق قنابل مدافعه على السد المذكور فكسر بعض بنيانه
واتسع خرقه فانهمر الماء على الاراضى حتى كاد يصل الى دمنهور واختلط بخليج الاشرفية
فغطى جميع وجه تلك الاراضى وأخرب القرى والبلاد وأتلف المزارع وانقطعت الطرق
حول مدينة الاسكندرية وامتنع دخول ماء النيل الى أهلها فلم يصل اليهم الا ما يصلهم
من جهة البحر فى السفن والنقائر أو ما خزنوه من مياه الامطار بالصهاريج وبعض العيون
المستعذبة ثم جاء رجل من مهندسى دار السلطنة اسمه صالح أفندى ومعه بعض
السفن تحمل الاخشاب العظيمة والآلات الضخمة برسم بناء السد المذكور فاستمر العمل
فى ذلك عاما ونصف عام حتى قارب التمام ففرح الناس بذلك واستبشر أهل القرى
والنواحى فما هو الا وقد وقعت هذه الحوادث واحتل على باشا قبطان ثغر رشيد وسار
البرديسى لقتاله وخاف على باشا الطرابلسى من حضور البرديسى وفعله بالاسكندرية ما فعله
برشيد فأمر فكسروا السد فانغمر وجه تلك الاراضى بالماء الملح فنزح أهل الاسكندرية
وتبدل عمارها خرابا

ووصل الحاج على باشا الى القاهرة أسيرا فأكرموا نزله ورتبوا له المرتبات من مأكول

ومشروب

ومشروب وأرسل البرديسى يطلب المدد فأمدوه فسار من رشيد الى دمنهور بعد ما رتب أمورها وحصن قلاعها وأبراجها ونهب ما فى بيوت الراحلين عنها واستقر بدمنهور أياما يدبر أمر الهجوم على الاسكندرية وكيفية الوصول اليها وطالت أيام مكثه فداخل جنوده الملل واعترى أمورهم الفتور والكسل فطالبوا البرديسى بجماكيهم وعلوفاتهم ولم يكن عنده منها شئ فخشى العاقبة ورجع الى القاهرة وقد مات منهم خلق كثير باسباب الجوع والحرب ودخل الجيزة فى السادس من جمادى الثانية فخرج الامراء والاعيان لملاقاته فلما أصبح يوم السبت سابعه عبر محمد على من جسر شمة النيل الى الجيزة وعبر معه طوائف الارنؤد الى مصر وكذلك البرديسى فخرج عليهم الفقراء وبأيديهم المقاطف والغلقات وصاحوا بمحمد على والبرديسى واستغاثوا وبكوا من الجوع فلاطفهم البرديسى وأصبح وقد بعث بمحمد على وخازنداره الى بولاق ومصر القديمة وأخرجوا جميع ما فيها من الغلال الى السواحل فاجتمع العالم الكثير من الرجال والنساء فامتاروا بحسب الحاجة واطمأن الناس واشترى الخبازون وفتحوا المخابز وكثر الخبز وشبع الفقراء فمالت قلوب الرعية الى البرديسى وأحبوه ٭ وأخذ البرديسى فى بناء الحصون والقلاع بجهة الناصرية وعند داره المعروفة بدار حسن كاشف شركس وأنشأ البوابات الكبيرة بجهة قنطرة السباع والمزار المعروف بكعب الاحبار فداخل الناس من ذلك الشكوك وخالجتهم الظنون فعمدوا الى تعمير الدور التى خربتها الحوادث المتراكمة والخطوب المتتابعة وضيقوا الشوارع عما كانت عليه من السعة والرحب وقد كانت الى ذلك الحين غاية فى السعة والانتظام وتناسب البناء وحسن وضعه كما هى الآن باكبر شوارع القاهرة ومصر وأحدثوا فيها الدروب الكثيرة والدعامات البارزة والسباطات وغير ذلك مما أذهب رونقها وجعل أغلبها ظلاما حتى فى رابعة النهار وزاد الحال وقلد أهل الاخطاط فعال بعضهم واهتموا لذلك اهتماما عظيما ونقل البرديسى جميع المدافع التى كانت بالازبكية ببيت الباشا الى تلك الحصون والابراج وعززها بالذخيرة الكثيرة والمهمات وآلات الحرب كل هذا وعلى باشا الطرابلسى العامل على مصر من قبل دار السلطنة لايتحرك من الاسكندرية ولا يأتى الى القاهرة وكانت كتبه لاتنقطع عن ابراهيم بيك والبرديسى مشحونة بالوعيد والتهديد ان لم يتركوا القاهرة ويرحلوا عنها الى الصعيد الاعلى حتى تأتى رسل دار السلطنة ويأمر السلطان بما يراه فلم يسمعا له كلمة ولا تبعا له اشارة وجعلوا يتصرفون فى البلاد تصرف المالك المطلق ٭ فلما كان يوم الاربعاء أول شعبان سنة ثمان عشرة قدم الى مصر كاتب ديوان على باشا الطرابلسى ومعه مرسوم السلطان بالعفو عن جميع الامراء المصريين اجابة لطلب صدر الدولة وعلى باشا الطرابلسى وأن يقيموا بمصر والقاهرة ولكل أمير منهم قايظ خمسة عشر كيسا وحلوان المحلول ثمان سنوات وان الاوسية والمضاف والبراني يضم الى جانب الخزينة وأن لا يكون التصرف فى جميع الامور والاحكام الا لعلى باشا والروزنامجى وأما الجمارك

والمقاطعات فالكلمة فيها للدفتردار الذى يعين لذلك من قبل الدولة فلما قرئ هذا المرسوم
بحضرة المشايخ والعلماء والوجهاء أظهروا البشر والسرور وأطلق لذلك عدة مدافع وكتبوا
الى على باشا يشكرونه ويطلبون منه الحضور الى القاهرة ليتولى أمور البلاد ويدبر أمر
خروج الحاج قبل فواته فسار على باشا من الاسكندرية برا الى القاهرة وعبر الالفى
بعسكره وكذلك بعض الامراء المصريين النيل الى انبابه وساروا منها الى مقربة من شلقان
ونزلوا بها فلما كان الباشا على مقربة منها أيضا نزل ببعض المزارع هو ومن معه من طوائف
الانكشارية وكانوا عدة كثيرة ممن خرج هاربا من مصر والقاهرة وكان يتبعه بالبحر نحو
ستين سفينة تحمل أثقاله ومتاعه وأتباعه وبعض العسكر فخرج اليه الالفى بعسكره ومحمد
على سرچشمه وأحمد بيك وأتباعه ونصبوا خيامهم وأنزلوا أثقالهم على مقربة من
معسكر الباشا فتكدر الباشا من ذلك وأرسل الى الالفى يقول كيف تقدمون على ان
تعسكروا بجندكم قبالة عسكرى وأنتم أتباع السلطان وأنا نائبه على هذه البلاد فأجابه
الالفى هذه منزلتنا ومحط عسكرنا ولم نفعل الا ما وجب فاشتد غيظ الباشا وتقهقر بعسكره
الى الوراء فانتقل محمد على وأحمد بيك بعسكرهما الى ناحية النيل وعسكروا هناك وأظهر
الألفى سوء النية والجفاء للباشا حتى قتلوا بعض أتباعه بمشهد منه مما كاد يقتله غما
قال بعض كتاب الاخبار وكان الحامل على ذلك أنه لما طال مكث على باشا بمدينة
الاسكندرية وقد أعيته الحيل فى رد جماح الامراء المصريين واكراههم على الجلاء عن مصر
الى الصعيد الاعلى ورأى ان لابد من المسير الى القاهرة والالتقاء بهم ووقوع مالا تحمد
عواقبه كاتب محمد على سرچشمه وكبار الارنؤد وغيرهم من قبائل العرب ومشايخ البلاد
يستميلهم ويعدهم ويمنيهم ان قاموا بذلك ويحذرهم من الانضمام الى أولئك الأمراء فنقل
الارنؤد ذلك الى ابراهيم بيك والبرديسى وأطلعوهما على رسائل الباشا واتفقوا على ان
يردوا عليه من كبار الارنؤد بالطاعة والرضوخ لأمره والقيام لنصرته اذا حضر الى القاهرة
حتى اذا خرج الأمراء للسلام عليه يكبسون عليهم هم وعسكره فيستأصلونهم والموعد
بشلقان وقد سهلوا له الامر وهونوا عليه الصعب فراجت عليه حيلتهم وسار من الاسكندرية
فى عدة وافرة من العسكر وحضر الى الرحمانية وأعاد مخابرتهم واستوثق منهم بعقود
على سرعة الحضور الى شلقان فسار اليها فرحا فلما صار على مقربة منها أمر فرتبوا المراكب
التى كانت تسير معه بالنيل ووضعوا عليها المدافع وعملوا المتاريس وحصنوا موقعهم فخرج
اليه الالفى كما تقدم بمن معه ونزل بخيامه أمام خيام الباشا وأرسل اليه بأن يتقهقر بعسكره
الى الوراء حتى تستقر القاعدة بينهما على أمر من الأمور فلم يجد الباشا بدا من ذلك
وطلب الارنؤد والعربان الذين عاهدهم فلم يجد منهم أحدا فاكبر هذا الأمر وتأخر الى زفيتة
ونزل بها وبينما هو على هذا الحال من الحركة والانتقال اذ انحدر حسين بيك الفرنجى أحد
الأمراء المصريين بعسكره فى بعض السفن بالنيل حتى صاروا خلف سفن الباشا وأحاطوا

بهم وأطلقوا عليهم القنابل والبنادق وساقوهم الى القاهرة واستأسروهم ثم ذهبوا بهم الى الجيزة وقد أعملوا السيف فيمن كان بها من الجند وقبضوا على مقدمهم المدعو مصطفى باشا وأخذوه أسيرا وأحاطوا بعسكر على باشا بناحية زفيته ومنعوا عنهم الواصل وكانوا اذا خرج أحد من عسكره يريد الذهاب الى جهة قبضوا عليه وقتلوه فاشتد حزن الباشا واضطرابه وأرسل الى الالفى من يكلمه فى ذلك فأرسل اليه الالفى يقول لم نكن لنعلم بخبر هذه الجيوش المخيمة حولك وبسبب اجتماعها الا من أحب الناس اليك وأطوعهم لكلمتك فلما رأينا من كثرة قومك وأسلحتك ومهماتك وآلات حربك قابلنا عملك بمثله وما عهدنا بالولاة اذا حضروا الينا الا أن يكون حضورهم فى قلة من الاتباع لا أن يأتوا فى جيش جرار وقد قيل لك ذلك لما صرت على نية المسير الينا فان شئت مسالمتنا فاصرف عنك هذه الاقوام وأتناق بطانتك لا غير على الرحب والسعة فقال لم يكن من أمر هذه الجيوش سوى الخروج الى الاقطار الحجازية مددا لشريف مكة وعونا له على قتال الوهابيين فاذا وصلنا بهم الى قلعة الجبل واستراحوا جهزناهم بما يلزم وسيرنا بهم الى الشريف فقيل له لم يبق فى القلعة من الابنية بعد تخريب الفرنسيس لها ما هو أهل لسكناك ولذلك فقد أعددنا قصر العينى مقرا لك ولأتباعك وحاشيتك واصرف عنك العسكر فيسيرون الى بركة الحاج ويلبثون هناك حتى تتم احتياجاتهم ويسيرون الى الاقطار الحجازية . وترددت الرسل بينه وبين الالفى أياما ثم حضر من قبل الباشا عابدى بيك مقدم الانكشارية واجتمع بالالفى وكلمه فاستماله الالفى لجانبهم ومناه بالامانى الطويلة وعاهده على الخذلان بالباشا والانضمام اليهم بمن معه من الجند وتحالفا على ذلك وتعاقدا فانصرف عابدى بيك ودبر أمره مع أصحابه فخلفوا له عين الطاعة وترك الباشا وشأنه فلما استوثق الالفى من عابدى بيك وأصحابه أرسل يقول للباشا قد طال القال والقيل بيننا ولم نهتد الى أمر من الامور فاما أن تأتى الينا فى بطانتك وحاشيتك على الرحب والسعة واما أن تبرز لقتالنا وضربوا للجواب موعدا فلما لم يأت الجواب زحف الالفى بعسكره وزحف بقية الأمراء بعساكرهم على معسكر الباشا وأحدقوا به من كل جانب فطلب الباشا عسكره ونادى فيهم بالخروج فلم يتحركوا وتثاقلوا فلما تحقق خذلانهم له ركب فى خاصته وذهب الى الألفى وترك خيامه وأثقاله فعند ذلك استقبله جميع الامراء بالاعزاز وأنزلوه فى خيمة أعدوها له على مقربة من خيمة البرديسى وحضر اليه جميع أرباب الديوان ونقلوا جميع متاعه وأثقاله الى قصر العينى وسيروا من كان معه من الجنود الى شرقية بلبيس ليسيروا منها الى الصالحية ثم انتقل جميع الأمراء المصريين مع الباشا الى منية السيرج وباتوا بها ليلتهم فلما كان منتصف الليل والناس جميعا نيام خرج من خيام الباشا فارس على فرس يعدو بسرعة فصهلت عند خروجه الخيل واضطرب من فى المعسكر فركب جماعة من العسكر وتراكضوا خلفه فلم يلحقوه فسألوا الباشا عنه فأنكر معرفته وقال لعله لص فتخوفوا منه وأخذتهم الطيرة فأجلسوا حول مضربه فى تلك



الليل عدة من المماليك بالاسلحة وأصبحوا وقد قبضوا على رجل على ظهر هجين من ناحية البساتين زعموا أنهم وجدوا معه كتابا من الباشا خطابا الى عثمان بيك حسن المقيم بجرجا يستقدمه الى القاهرة ليكون له عونا على الامراء المصريين ويمنيه بالأمانى الواسعة ويعده بتولية ادارة البلاد فلما كان يوم الاربعاء ثانى عشر شوال من السنة أى سنة ثمان عشرة بخمية الباشا دخل على رضوان أغا كتخدا البرديسى ومعه آخرون وجلسوا عنده فسألهم عن سبب حضورهم فقالوا أتينا لنسألك فيما اذا كنا على صلح تام مع الامير اليوم أم لا قال بلى فقال كتخدا البرديسى هلا كتبت الى أحد قبل ذلك كتابة قال لا فقال لعلك كتبت الى الصعيد شيأ قبل الآن قال لم يكن ذلك أبدا فأخرج له عند ذلك مكتوبا وناوله اياه فلما رآه قال نعم هذا مما كتبناه بالاسكندرية قبل الصلح فقالوا انا وجدناه بالامس مع رسولك وتاريخه يدل على تحريره فتلجلج فقاموا وقالوا له قم فقال الى أين قالوا الى غزة حيث لاأمان لنا معك بعد ذلك ولم يمهلوه لكلام يقوله أو لعذر يبديه وقدموا له فرسا وأركبوه عليه فرأى حوله عدة من الامراء على أهبة الذهاب معه فاضطرب جدا وقال ان صحبنى هؤلاء فليكونوا على بعد منى فى الحل والترحال فأجابوه الى ذلك وركب أتباعه على دواب الحمل وساروا وهم فى أسوإ حال وقد حجز البرديسى جميع أثقاله ومتاعه وذخيرته وأصبح يوم الخميس ثالث عشره فدخل الامراء والجند والعسكر من الارنؤد ومحمد على سرجشمه وجميع كبارهم وخلفهم الطبول والزمور أما الألفى فانه ركب على زفيته فضرب أهلها وأحرق البلد وعرج على أجهور فضربها كذلك وشرد من فيها وذهب الى نزلة عرب بلى بالجيزة فطرقهم فجأة وقتل منهم أناسا ونهب مواشيهم وخرب منازلهم وفعل كذلك بعدة بلاد أخرى لتحالفهم مع على باشا على قتال المصريين وتأهبهم لنصرته وسار المعينون مع على باشا فلم يصلوا على مقربة من القرين حتى مات حتف أنفه على ماقيل وقيل بل خنقوه قال بعض الكتاب وكان على باشا المذكور سيئ الخلق طاغية عنيدا جبارا نفورا معجبا بنفسه كثير المظالم مستبدا برأيه فعل بأهل الاسكندرية من الجور والظلم والمصادرة مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكان يقول لعسكره انى ان فتحت مصر ووطئت قدمى أرضها أبحتها لكم ثلاثا تفعلون بها ماتحبون وعاد الالفى الصغير من قتاله لعرب الجيزة ومعه كثير من الغنائم ونزل بقصره الذى أنشأه بالجيزة وتفرقت عنه عساكره ولم يبق معه الا القليل مع أمير المدافع ثم جاء الخبر من حاكم مدينة رشيد بوصول الالفى الكبير الذى كان قد سافر الى لندن عاصمة الانجليز كما سبقت الاشارة الى ذلك فلما علم ابراهيم بيك والبرديسى بخبر وصوله خافا منه وأيقنا بخيبة الامل لما له من الشهرة ونفوذ الكلمة فأضمرا له السوء ودبرا أمورهما وكتماها وكتب البرديسى الى مملوكه يحيى بيك حاكم رشيد يأمره بقتل الالفى بكل ماوصلت اليه حيلته وعبر هو النيل وعبر كذلك عدة من الامراء الى الجيزة وباتوا ليلتهم تلك بخيامهم وأظهروا أنهم يتأهبون للسفر فى آخر الليل مع الالفى الصغير للقاء الالفى الكبير وعبر أيضا حسين بيك الوشاش الالفى ونصب خيامه على مقربة من النيل فلما كان خامس ساعة

من تلك الليلة أرسلوا الى حسين بيك يطلبونه فحضر مع مماليكه وكانوا قد رتبوا جماعة منهم تأتى بخيل ومصابيح ومشاعل من طريق القصر الذى يسكنه الالفى الصغير فقالوا له أين خيلك فانا على أهبة الاسراء ليلا فى هذا الوقت الى لقاء أخينا الالفى وها هو أخوك الالفى الصغير قد ركب وهو مقبل الينا فنظر فرأى المشاعل والخيل فلم يشك فى صحة ذلك ولم يخطر بباله غدرهم له فأمر مماليكه أن يذهبوا ويأتوا بالخيل وبقى هو وحده ينتظر فرسه فخرج عليه نفر من الخباء وقتلوه بينهم وأرسلوا الى البرديسى بالخبر وكان محمد علىّ سرجشمه وأحمد بيك وبقية كبار الارنؤط قد عبروا الى الشاطئ الثانى من النيل وترفعوا ليلا وكمنوا ينتظرون الاشارة فلما علموا بالخبر زحفوا على قصر الالفى الصغير وأحاطوا به وقد ضموا اليهم مقدم أصحاب مدافع الالفى وأمير عسكره فعطل المدافع وأخذ محمد علىّ سرجشمه يدبر أمر احاطة القصر بطوائف الارنؤط الى آخر الليل فجاء الى الالفى من أيقظه من نومه وأعلمه بخبر قتل حسين بيك واحاطتهم بالقصر فتأهب للقتال وطلب أمير مدافعه فلم يجده وأعلموه بما فعل بالمدافع فركب فرسه وخرج وخرجت معه أتباعه ببعض المتاع والأموال فركب محمد علىّ سرجشمه وأحمد بيك ونفر من الارنؤط خلفه فلم يدركوه وقد اشتغل بقية العسكر بنهب القصر وأخذ جميع مافيه من أثاث ومتاع وهجموا على بيت كاتبه المعلم غالى ونهبوه وكذلك نهبوا جميع دور أتباعه ومماليكه وأخذوا ما كان عند كاتبه المذكور من الاموال ثم نهبوا جميع دور الجيزة وفعلوا بها ما فعلوه بدمياط من سبى النساء وفض الابكار وأصبح الناس فى القاهرة وهم لايعرفون شيأ مما وقع الا ماعلموه من صياح نساء وجوارى حسين بيك فى داره ❁ أما الالفى الكبير فانه لما وصل الى رشيد قابله حاكمها بغاية الابهة والاحتفال ولم يكن معه الا خاصة مماليكه وجوخداره تتمة ستة عشر ولم يقم برشيد سوى ليلة ضيفا عند أحد التجار وأنزل أمتعته فى سفن أربعة صغيرة وانتقل فى آخر الليل الى دار قنصل الانجليز وأصبح فأهدى اليه القنصل حراقة لطيفة فنزل بها وسار الى مصر فعاكسه الريح وكان لما جاء الخبر بوصوله الى مدينة رشيد سير الالفى الصغير لحضوره ذهابية فانحدرت من بولاق الى رشيد فلاقوه عند بلدة نادر بعد نصف الليل فلما أصبح نزل بالذهابية وسار الى منوف العلا فأقام بها يوما ثم سار والريح تعاكسه الى وقت الظهيرة فلاقاه عدة من الارنؤط المرسلين لقتاله فى أربع من السفن الصغيرة فى مضيق الترعة فسلم عليهم فردوا عليه السلام فسألهم بعض أتباعه الى أين ذاهبون قالوا نريد الالفى وقد تناجى الملاحون فعرف ملاحوا مركب الالفى ماجرى بمصر فأخبروا الالفى بالخبر فكذبه وقال هذا شئ لايكون أبدا وقد تغربت وركبت الاخطار وقضيت سنة بين ظهرانى الانجليز أعمل على تعزيز جانبهم واعلاء كلمتهم رغما عن مكايد رجال السلطنة ويعاملوننى بهذا القبيح فلعلها حادثة وقعت بينهم وبين طوائف العسكر ولم تمض الا ساعة أو نحوها حتى قيل له ان طائفة من الارنؤط أدركوا الحراقة خلف ونهبوا ما بها من أثقال ومتاع فكاد يسقط فى يده وتحقق الغدر وأنه مأخوذ



لامحالة فنزل باحدى السفن الصغيرة ونزل معه مماليكه كافة وأخذوا بالمجاذيف وهو يستحثهم حتى خرجوا من تلك الترعة الى ظهر النيل ولم يسر الا قليلا حتى لاقته طائفة أخرى في سفينتين ومعهم أحد أتباع البرديسي فلم ينظروا سفينة الالفي أو نظروها ولم يعرفوه فجعل يجد في السير حتى وصل الى شبرى الشهابية فنظر واذا بساع مقبل من مصر فطلبه وسأله فأعلمه أنه مرسل الى بيت سليمان كاشف البواب ليخبر بما جرى فعند ذلك تحقق الخبر ونزل الى البر وأمر بالسفينة فأغرقوها وسار في مماليكه على أقدامهم ولم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى ناحية قرانفيل ودخل الى نجع عرب الحويطات والتجأ الى امرأة منهم فأجارته وبات دعوته وأركبته فرسا وسيرت معه اثنين على الهجين الى ناحية الجبل فساروا الى الخانكاه ليلا ومماليكه خلفهم مشاة فلاقتهم طائفة من العربان فأحاطوا بهم فاشتغل المماليك بقتالهم فتركهم الالفي وسار مع أصحاب الهجين ومضى وقد سمع الجند القريبون منهم وفيهم البرديسي أصوات البنادق فأسرعوا اليهم وسألهم عن أستاذهم فقالوا قد كان معنا ثم تركنا وسار الى الجبل فأمر البرديسي جميع من كان معه من الجنود بأن يتفرقوا ويضبطوا جميع المسالك والطرقات ومن أدركه منهم يقتله في الحال فذهبوا خلفه وتفرقوا في كل صوب وناحية فلم يعثر به أحد ولحق به جماعة العربان الذين قاتلوا مماليكه وأرادوا القبض عليه فنثر عليهم ما كان معه من الذهب والجواهر وألقى عنه فروته السمور فاشتغلوا عنه فتركهم وسار وغاب أمره فجعلوا يبحثون عليه وانتشرت طوائفهم في الجهات شرقا وغربا وتتبعوا أقاربه وأتباعه ففر من فر وقبض على من قبض عليه وأدرك جماعة الارنؤد سفينته التي كانت تحمل متاعه وأثقاله وكان شيأ يجل عن الوصف من أموال وطرائف الانجليز وجوخ وأسلحة وجواهر أهداها له ملك الانجليز وأكابر دولته ومبلغا من المال لمشترى غلال لذمة ملك الانجليز ثم أغرقوا تلك السفن في النيل ❁ أما الالفي الصغير فانه سار من فوره الى الصعيد وفرّد على البلاد الفرد والكلف وطالبهم بها وشدد في الطلب فكان كل من عصاه أو توانى في الدفع نهبه وأحرقداره وشرد عياله فكتب ابراهيم بيك والبرديسي لكافة الامراء والحكام بالاقاليم بالاهتمام في القبض عليه وفي البحث والتفتيش على الالفي الكبير فأخذوا الناس بالشبهات وكثر الوشاة على أبوابهم فقتلوا بسبب الهاربين خلقا كثيرا وأخرجوا جماعة كثيرة على ظهور الخيل والهجين يتتبعون أثر الالفي الكبير وكلهم من أصحاب البرديسي وخواصه الذين عليهم معتمده وأصبح البرديسي ولم يبق حوله من أصحابه الا النزر اليسير

(مطلب)

(فتنة الارنؤد وظهور كلمة محمد علي سر چشمه)

ولم تكن هذه الحوادث المتراكمة والاحن المتوالية لتشغل جماعة الارنؤد عن طلب جماكيم

المتأخرة

المتأخرة وعلوفاتهم الموقوفة ولم يحصل عندهم محلها مانهبوه من متاع وأموال وغيره فى خلال تلك الحوادث فضلا عما كانوا يختطفونه فى كل يوم من المارة وأبناء السبيل فاجتمعوا يوما وذهبوا الى كبارهم فى طلب الجماكى فوجهوا بهم الى الامراء المصريين وطالبوهم ففرضوا لهم مائتى ألف ريال على اقباط مصر منها خمسون ألفا على المعلم غالى كاتب الالفى وثلاثون ألفا على تركى المعلم بقطر المحاسب كاتب البرديسى والمائة والعشرون موزعة عليهم فلم يكتفوا بذلك وتحزبوا فرقا وطافوا فى الشوارع والطرقات يختطفون ماباً يدى الناس ويغتصبون النساء بلا تحاش ولاخوف وقصدوا الصعود الى قلعة الجبل ليملكوها لكى يدمروا المدينة فلم يتمكنوا من ذلك واشتدت حركتهم وكثر تطوافهم فقتلوا ونهبوا وفعلوا مالاخير فيه يوما وليلة وأصبحوا فركب محمد على سرجشمه ونادى بالامان وجمع اليه كبار العسكر وأعلمهم بأن الامراء مهتمون بصرف الجماكى بواسطة تقرير فردة على الاهالى فأسكنوا هياج العسكر وقام الحروقى بجمع هذه الفردة وشرعوا فى الاحصاء وفرضوها على العقار والاملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر والنصف الثانى يدفعه صاحب الملك وطاف لذلك الكتاب والمهندسون ومع كل طائفة منهم نفر من الجند فنزل بالناس ما لايوصف من الغم مع ماهم فيه من القحط والغلاء فضجوا واستغاثوا وذهب جماعة من أصحاب الجباية الى باب الشعرية ودخلوا درب مصطفى فخرج اليهم الفقراء وصاحوا فى وجوههم وسبوا ورجموا بالاحجار وخرج النساء جماعات يصرخن ويولولن وبأيديهن دفوف وطبول يضربن عليها ويندبن ويتغنين ويقلن كلاما على الامراء مرتبا ويجاهرن بقولهن « ايش تاخذ من تفليسى يابرديسى » وصبغن أيديهن بالنيلة فاقتدى بهن غيرهن وخرج الرجال ومعهم الطبول والبيارق وأغلقوا الاسواق والوكائل وحضر الجمع الكثير الى الجامع الازهر فركب المشايخ معهم الى حيث الامراء وكلموهم فى الامر ثم رجعوا وأمامهم المناداة بابطال تلك الفردة فسكن الحال وخمدت نار هذه الفتنة ٭ قال صاحب عجائب الآثار وكانت هذه الفعلة من جملة الدسائس الشيطانية فان محمد على لما حرش العساكر على محمد باشا خسرو وأزال دولته وأوقع به ماأوقع بمعونة طاهر باشا والارنؤوط ثم بالاتراك عليه حتى أوقع به أيضا وظهر أمر أحمد باشا وعرف أنه ان تم له الامر وقويت شوكة الاتراك لايبقون عليه فعاجله وأزاله بمعونة الامراء المصريين واستمر معهم حتى أوقع باستراكهم قتل الدفتردار والكتخدا ثم محاربة محمد باشا بدمياط حتى أخذوه أسيرا ثم التصيل على على باشا الطرابلسى حتى أوقعه فى فخهم وأزالوه وقتلوه ونهبوه كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصا البرديسى فله تآخى معه وبرج كل منهما نفسه ولحس من دم الآخر فال واغتر به البرديسى وراجت سوقه عليه وصدقه وتعضد به واصطفاه دون خشداشينه وتحصن بعساكره وأقامهم حوله فى الابراج وفعل بمعونتهم ما فعله بالالفى واتباعه وشردهم وقص جناحه بيده وشرد البواقى وفرقهم فى النواحى فى طلبهم فعند ذلك استثقلوهم فى أعينهم وزالت هيبتهم من قلوبهم وعلموا

خيانتهم وسفهوا رأيهم واستضعفوا جانبهم وشمتوا عليهم وقصوا باب الشر بطلب العلوفة مع الاحجام خوفا من قيام أهل البلد معهم ولعلمهم بميلهم الباطنى اليهم فاضطروهم الى عمل هذه الفردة ونسب فعلها الى البرديسي فثارت العامة وحصل ماحصل وعند ذلك تبرأ محمد على من ذلك وساعدوهم فى دفعهم عنهم فملت قلوبهم اليهم ونسوا قبائحهم وابتهلوا الى الله فى ازالة الامراء وكرهوهم وجهروا بالدعاء عليهم وتحقق العسكر منهم ذلك قال وانحرف الامراء على الرعية باطنا بل أظهر البرديسي الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا الى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها عليهم ثلاث سنوات وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لاوامرنا اه

ورأى البرديسي من خروج أهل البلد والتهاب نار الفتنة ما أذهله وأخافه ومن عبث الارنؤوط وتطاول أيديهم الى النهب والسلب وخطف النساء والصبيان والمطالبة بالجماكى المتأخرة وعدم الوقوف عند حد مع الاستخفاف بأمره ماأذهب صبره وضاق معه صدره فاجتمع بالامراء واشتوروا ثم أخذوا يدبرون على العسكر فأرسلوا الى أصحابهم المتفرقين فى الجهات القبلية والبحرية يطلبونهم للحضور فأرسلوا الى حسين بيك الوالى ورستم بيك من الشرقية واسماعيل بيك ومحمد بيك المنفوخ ليأتيا من شرق الطفيح وقد كانوا جميعا يرصدون الالفى وينتظرونه واستقدموا حاكم الصعيد بمن حوله من الكشاف والامراء وحاكم رشيد وحاكم دمياط وأصعدوا محمد باشا المسجون الذى سبق الكلام عنه الى قلعة الجبل فأحس جماعة الارنؤوط بما وراء ذلك فبادروا واجتمعوا بالازبكية فى يوم الاحد ثامن عشرينه ثم ذهب جمع منهم الى ابراهيم بيك واحتاطوا ببيته بالداودية وكذلك بيت البرديسي بالناصرية وتفرقوا حول بيوت باقى الامراء والكشاف وغيرهم وكان ذلك وقت العصر فلما علم البرديسي باحاطة الارنؤوط لداره رتب أموره وأخذ معه أمواله وركب فى خاصته على الهجين وذهب الى ناحية مصر القديمة وكان الارنؤوط قد نقبوا نقبا من حائط الجنينة التى خلف داره ودخلوا منه الى الدار فوجدوا البرديسي قد خرج بمن معه من المماليك وبعض الجند والاتباع فقاتلوا من وجدوه ونهبوا مافى الدار من فرش ومتاع وخرجوا فعاثوا وأفسدوا وقتلوا وسبوا وتطاولت أيديهم أيضا الى بيوت الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت الفتنة وكثر صياح النساء وبكاء الاطفال فتحصن الناس فى البيوت ورموا بالاحجار من الشبابيك الى أن خيم ظلام الليل * فلما كانت الساعة السابعة من الليل أرسل محمد على سرجشمه طائفة من الارنؤوط الى قاضى القضاة ومعهم مرسوم السلطان بولاية أحمد خورشيد باشا حاكم الاسكندرية على ديار مصر ورسم للقاضى أن يجمع المشايخ والعلماء فى الصباح ليتلى عليهم ذلك المرسوم فاستغرب القاضى ذلك وامتنع من جمع العلماء والمشايخ نظرا لاشتداد الفتنة وتطواف جماعة الارنؤوط بالشوارع والطرقات وقتلهم لكل من وقع فى أيديهم وأصبحوا وقد اشتدت الحركة وكثر الرمى بالبنادق على بيوت الامراء فهرب الكثير منهم

وخرجوا على وجوههم وعلم ابراهيم بيك الكبير بخروج البرديسى فى مماليكه وأتباعه فخرج هو كذلك فيمن بقى من مماليكه وأتباعه ولم يزل سائرا حتى خرج الى الرميلة وقدهدم فى طريقه أربعة متاريس وأصيب بعض مماليكه وخيله وأتباعه وأصيب كذلك كتخداه عثمان عند باب العزب • وكان بعض الامراء المصريين قد تحوقوا بقلعة الجبل فتحصنوا بها ووجهوا أفواه المدافع نحو مواقع وبيوت الارنؤط وتابعوا الرمى بالقنابل عليها وعلى ناحية الازبكية وظلوا على هذا الحال الى الضحوة الكبرى فجاءهم الخبر بفرار ابراهيم بيك والبرديسى ومن أمكنه الفرار من بقية الامراء فركنوا هم كذلك الى الفرار وهموا بأخذ محمد باشا وعلى قبطان باشا وابراهيم باشا الذين كانوا فى حبوس القلعة السابق الكلام عليهم فلم تمكنهم العساكر المغاربة من ذلك فلما نزلوا من باب الجبل قام المغاربة ونهبوا مافى دار الضرب وعاثوا فى القلعة فأخذوا ما فى المخازن السلطانية وغيرها ثم صعد محمد على سرچشمه اليها فى نفر من الارنؤط وتسلمها من غير ممانع ولبث بها برهة ثم نزل منها وقد أنزل معه محمد خسرو باشا الذى كان معتقلا وأمامهم المناداة بالامان والاطمئنان وشاع خبر خروج محمد باشا خسرو من معقله ورجوعه الى مسند الولاية على مصر فخرج الاعيان والمشايخ لملاقاته وذهبوا الى بيت محمد على سرچشمه ليهنئوه فقابلهم ولاطفهم فكانت مدة حبسه ثمانية أشهر كاملة حيث جاء الى مصر بعد أسره فى دمياط فى آخر ربيع الاول وكان خروجه على يدى محمد على سرچشمه فى آخر يوم من ذى القعدة وظن محمد خسرو باشا أن قد أقبلت عليه السعادة بعد ادبارها فجعل يتصرف فى الامور ويعمل على تسكين خواطر الارنؤط ويشير على محمد على بعمل مايشاء فعله وهو فرح مسرور • فلما كانت ليلة الاربعاء ثانى المحرم افتتاح سنة تسع عشرة لم يشعر محمد خسرو باشا الاوقد دخل عليه جماعة من الارنؤط وقبضوا عليه وقبض جماعة أخرى على ابراهيم باشا ونزلوا بهما الى بولاق القاهرة وأنزلوهما فى احدى السفن وأحاطوهما بالسيوف والبنادق فانزعج خسرو باشا وقال الى أين ياقوم وقد صرت فى ذمة محمد على وأمانه فقالوا الى حيث يشاء الله فسقط فى يده وكانت ولايته فى هذه المرة أشبه بولاية أحمد باشا الذى تولى بعد موت طاهر باشا يوما ونصف يوم • قال بعض الكتاب وكان السبب فى تبعيد خسرو باشا على هذه الصورة بغض اخوة طاهر باشا اليه وحقدهم عليه فخشى محمد على عاقبة بقائه وأسرع فى تبعيده عن الديار المصرية فسكنت بتبعيده الفتنة وعادت الامور الى سابق مجراها وصعد عابدى بيك أخو طاهر باشا الى قلعة الجبل واستقر بها فى جمع كثير من الارنؤط ووردت الاخبار بقدوم أحمد خورشيد باشا وولايته على مصر فتأهب محمد على لملاقاته وبالغ فى ذلك حتى وصل الى القاهرة ودخل فى الموكب المعتاد ونزل بالدار التى أعدت له بالعادلية فلم يقم بها سوى يومين وانتقل منها الى دار محمد على بالازبكية ولم يكد يستقر به المنصب حتى شاع الخبر بظهور الالفى الكبير وقد كان مختفيا بشرقية بلبيس برأس الوادى عند شخص من العربان اسمه عشيبة فلم يزل عنده حتى زالت دولة البرديسى وتلاشت

مطلب
اخراج محمد خسرو باشا من معقله وتوليته الامارة على مصر بمعونة محمد على سرچشمه

مطلب
تبعيد محمد خسرو باشا وولاية أحمد خورشيد باشا

كلمته وتفرق أصحابه وانجلت الطرق من العيون والارصاد التى كانت تتبع الالفى فركب فى عدة من الهجانة ومروا من خلف الجبل وسار الى شرق اطفيح ونزل عند قبلة المعازه فلما علم محمد علىّ بخبره خافه وتطير منه وسير خلفه طائفة من الارنؤوط وعلم جميع الامراء الهاربين بظهور الالفى فجاؤا اليه واجتمعوا عليه عندالجيزة واجتمع اليهم العدد الكثير من عربان الهنادى والمماليك وقاتلوا من خرج اليهم من الارنؤوط فهزموهم شرهزيمة وكاد يستفحل أمرهم فركب عليهم محمد علىّ فى جماعة كثيرة وقاتلهم وأجلاهم عن الجيزة وقتل من العربان خلقا وشرّد من بقى منهم وقد قتل وجرح كذلك من عسكر محمد علىّ فترفع الامراء الى الصعيد وعاد محمد علىّ ظافرا فلم تكن الا أيام حتى عادوا الى الجيزة وعاثوا فيها وأهلكوا الحرث والنسل وانتشروا بها انتشار الجراد ونزلوا على انبابة وضربوا أهلها ونهبوا ماعندهم فخرجوا هائمين على وجوههم وعبروا النيل الى مصر والقاهرة فأخذ محمد علىّ فى جمع عساكره وعبروا النيل الى انبابة وعسكروا على مقربة منها وعملوا خندقا ومتاريس فزحف عليهم الامراء والعربان وهجموا على المتاريس هجمات متتابعة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة أبلى فيها الفريقان نحو نصف النهار ثم انجلت الحرب بينهم وترفع الامراء والعربان ولم يبلغوا من العساكر وقد قتل من الامراء عدة كثيرة ولم تكن الا أيام قليلة حتى عادوا ووصل فريق منهم الى قبة باب النصر والعادلية من خلف الجبل وجعلوا يغدون ويروحون خلف باب النصر من خارج و باب الفتوح والشيخ قمر والدمرداش ونهبوا الوايلى وجميع ماجاوره ودخلوا الدور وأخذوا مافيها فخرج أهل تلك الجهات على وجوههم ودخلوا الى القاهرة فرسم الباشا الى محمد علىّ بالخروج فى عسكره فخرجوا من باب النصر وعملوا المتاريس عند الباب المذكور فتفرق العربان والأمراء فى اقليم الشرقية والقليوبية وسار منهم طائفة الى بلبيس فحاصروا بها كاشف الشرقية يومين ثم دخلوها عنوة وقتلوا ونهبوا وقبضوا على الكاشف واثنين من كبار العسكر ثم حاصروا كاشف القليوبية وأخذوا أحماله ومتاعه وتركوه بعد قتال فهرب بمن بقى معه الى القاهرة وطلبوا مشايخ البلاد وألزموهم بالكلف وفرّدوا على القرى الفرد الشاقة وقيدوا بطلبها جماعة العربان فكان كل من استعظم الأمر أوعصى حاربوا قريته ونهبوها وسبوا نساءها وقتلوا أهلها وأحرقوا أجرانها فاشتد الكرب وعظم الخطب وسار محمد علىّ بعسكره خلفهم فوقعت بينه وبينهم وقائع وحروب مات فيها خلق من الفريقين ونزل من بقلعة الجبل من الارنؤوط للقتال فصعد اليها أحمد خورشيد باشا الوالى وسكن فيها بخدمه وأتباعه وأخذ يتصرف فى الأمور ويقرر الكلف والأموال على البلاد فضرب على أهل مصر والقاهرة خمسة آلاف كيس تفرق منها على أعيان القبط وعظمائهم ألف وخمسمائة وجملة أخرى على الملتزمين وثمانمائة كيس على بقية نساء الامراء المصريين الأحياء منهم والاموات فضج الناس وطلبوا التخفيف فلم ينالوه وطاف المعينون على بيوت نساء الأمراء يجمعون المقرر فكان اذا تأخرت احداهن أوطلبت المهلة أياما لازموا بابها وطالبوها عما يأكلون وعما يشربون وما يفرشون لجلوسهم

ونومهم

وقومهم فلا يسعها الا السعى والخلاص على أى حال كان ومع ماجمعه أحمد باشا من هذه الأموال الطائلة والمغارم الفادحة فانه لم يلتفت لشكوى طوائف الأرنؤط من تأخير صرف جماكيهم ولم يعطهم منها شيأ فذهب فريق منهم الى محمد على وأحمد بيك وكبارهم وشكوا اليهم فكلم محمد على أحمد باشا فى أمرهم فلم يصغ لقوله وطال الحال عليهم وهم لايكفون عن الشكوى فلما كان أحد الايام جاء منهم جماعة الى القاهرة يطالبون بما لهم وتربص آخرون بنواحى بهتيم وبلقس ومسطرد بعد أن أخرجوا أهلها منها ونهبوا مافيها من ماشية وغلال وغيرها وتترسوا فيها ونصبوا خيامهم على أسطحة دورها وعملوا بعض المتاريس خارجها ونصبوا عليها ماكان معهم من المدافع وكان اذا مر أحد رموا عليه بالبنادق فلم يجسر أحد من العسكر على الدنو منهم وسعت بينهم وبين أحمد باشا رسل الصلح فوعدهم بصرف جميع ماتأخر لهم فقالوا لاننفك عما نحن فيه حتى تأتونا بالمال هنا فأصبحوا وقد أرسل الباشا أوراقا الى أرباب الحرف والصنائع سموها تشابيه بطلب غرامة قدرها خمسمائة كيس وطاف المكلفون بجمعها فى الاخطاط فضج الناس وتحزبوا وصاحوا فى وجوه أصحاب الجباية واجتمع الجمع الكثير منهم وساروا الى الجامع الازهر فتبعتهم الغوغاء والصبيان وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم الطبول وشكوا أمرهم للمشايخ وقالوا قد بلغت الروح التراقى فلاطفهم المشايخ فلم يكفوا عما هم عليه وصعد جماعة على منارات المساجد وصاروا يصرخون ويسبون وينادون بالويل والثبور على الباشا وأعوانه * قال صاحب عجائب الآثار وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويضرعون ويضجون « بياللطيف » وأغلقوا جميع الاسواق والحوانيت ووصل الخبر الى الباشا وسمع صياحهم وضجيجهم من قلعة الجبل فأرسل يقول الى السيد عمر النقيب قد رفعنا الفردة عن الفقراء فبلغهم ذلك فأرسل يقول ان الجميع فقراء أوماكفى ماهم فيه من القحط والغلاء والوباء وعدم الامن على الاعراض والارواح حتى تطالبوهم بجوامك عسكركم فأمر الباشا الأغا فنزل ومعه عدة من العسكر وجلس بالغورية وهو يأمر الناس بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف فلم يلتفتوا لقوله وكان كلما شدد معهم فى القول صاحوا فى وجهه وضجوا وابتهلوا الى الله وما زالوا على هذا الحال حتى جاء رسول من عند الباشا ومعه مرسوم بابطال تلك الفردة وكف المعينين عن طلبها فسكنت عند ذلك الفتنة وتفرقت تلك الاحزاب وأصبحوا وقد فتحوا الحوانيت فعاد طوائف الأرنؤط الى المطالبة بجماكيهم وأكثروا من العبث فى المدينة وقطع من كان منهم مخيما بنفس الطرق على المارة ومنعوا السفن فسير الباشا جماعة من العساكر المصرية لقتالهم فلم يبلغوا منهم مأربا وانحاز المصريون الى ناحية شلقان بمن معهم من الجرحى والموتى فكانوا كثيرين جدا وأخرج فى هذه الوقعة عابدى بيك أخى طاهر باشا اهـ

وبينما كانت طوائف الأرنؤط تطالب بالمتأخر من جماكيها وعلوفاتها كان الأمراء المصريون ومن معهم يحاولون الدنو من مصر والقاهرة ويقبضون على من يصادفونه من الجند

والرعية ويسلبون المارة و وصلت بعض طلائعهم من عربان ومماليك الى خارج باب
النصر وظاهر الحسينية وناحية الزاوية الحمراء وجزيرة بدران جهة الحلى وعاثوا فى تلك
النواحى وحالوا بين من خرج من عسكر الباشا لقتال الأرنؤط و بين معسكرهم وظفروا بهم
ونالوا منهم وأخذوا جميع ما كان معهم من مؤنة وسلاح وذخيرة وجاء الخبر بذلك الى الباشا
فنزل من قلعة الجبل ومعه الجمع الكثير من الجند وسار الى بولاق ثم الى الزاوية الحمراء
وأمر بأبواب المدينة فأغلقت وقاتل من وجده منهم فلم يظفر فرجع على غير طائل وقد ترفع
المصريون الى مشتهر وبنها العسل ومعهم المنهوبات من متاع وماشية وغير ذلك وخرج
خلفهم محمد علىّ سرچشمه وحسن بيك حتى وصلوا الى قليوب فلم يظفروا بهم ورجعوا
على أعقابهم الى القاهرة وأرسل فى هذا الحين الألفى الكبير الى الباشا يطلب منه الاجازة
بحضوره الى مصر وأنه على مايعهده فيه من الاخلاص والولاء فأبى عليه ذلك وأرسل اليه
يقول ان كنت على ما عهدناه فيك من الولاء فالزم مقرك بجرجا التى قد أقطعناها البك ولا
تقدم الى القاهرة فى هذا الحين حتى نستقدمك عند الحاجة فلم يذعن الألفى لقوله وزحف هو
وعثمان بيك حسن ومن معهما من المماليك والاتباع وبعض الجند والكشاف فوصل الالفى
الى بنى سويف ووصل عثمان بيك قبالته بالجانب الشرقى من النيل وأرسل الألفى عند
وصوله خطابا الى المشايخ يقول قد حافظنا على ولائنا واستمسكنا بعروة الاخلاص الوثقى
ولازمنا ماأقطعنا اياه الباشا من البلاد ولم نتعدها الى الآن أما وقد مس نساءنا الضر
وأصبحت ذرارينا عرضة للتشريد بما ضرب عليهم من المغارم والكلف فلم نر بدّا من الانحدار
الى القاهرة رغما عن كل مانع حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فلما وصل الخطاب الى
المشايخ خافوا من كتمانه وأطلعوا الباشا عليه وسألوه الاجازة للالفى فأباها عليه وقال قدكان
نساؤهم بين ظهرانينا كما كانوا بين ظهرانى الفرنسيس وقد صادروهن وهم أعداء الدين واليوم
هن معنا فى قرار مكين لاخوف عليهن ولا تضييق فان عاد الألفى ومن معه الى مقرهم سعينا
فى اصلاح شأنهم وأرجعناهم الى عيالهم والاشردناهم وعملنا على قطع شأفتهم فانصرف المشايخ
وأمر الباشا محمد علىّ سرچشمة فخرج بعسكره الى ناحية الامام الليث وحفروا هناك
خندقا وعملوا متاريس وبالغوا فى احكامها وترتيبها وأكثروا من اخراج الاسلحه وآلات الحرب
وكان العدوّ أمامهم وقد سدّ على مصر والقاهرة من الجانبين القبلى والبحرى فكان أصحاب
ابراهيم بيك والبرديسى وطوائف الارنؤط يعيثون فى البلاد من شلقان الى جوف الشرقية
والغربية والمنوفية وجماعة الالفى يعيثون فيها من الصعيد الأعلى الى الجيزة وما جاورها
فعمت الفوضى وارتفع الأمن وخيفت المسالك وكثر القتل والنهب فى الليل والنهار وانضم
الجمع الكثير من طوائف الارنؤط الى الامراء المصريين فتقوت بهم عزائمهم وتطاولت أيديهم
الى كل فساد وشر و وصل أيضا الالفى الصغير بطوائفه الى انبابه وأراد الزحف على المدينة
فأطلق عساكر محمد علىّ عليهم المدافع من بولاق القاهرة ومراكب البحر ومنعتهم من الدنو

من

من المدينة واشتدت الأزمة واستحكمت على من بمصر والقاهرة حلقاتها وكثر تطير الباشا
وأخذه للناس بالشبهات فأكثر من الحبس والقتل بأضعف الاسباب حتى كادت تزول هيبته
وتضعف كلمته وانتقل محمد علىّ بعسكره الى بلدة طنط جهة براشيم التين وخلفه ببولاق
حسن بيك وعسكره فوقع بين محمد علىّ والامراء المصريين مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة
المصريين فترفعوا بعد الهزيمة عن براشيم التين فتبعهم بعساكره فترفعوا فعسكر تجاه البراشيم
ولبث أياما ثم انحدر منها الى القرافة بمصر ونزل على مقام عقبة بن عامر الجهنى وقاتل من
كان بتلك الجهة من أصحاب الالفى الكبير والصغير وأجلاهم عنها فساروا الى طرا وتحصنوا
بها وكانوا قد أخذوا برجها وتمكنوا مما حوله فكاتبهم محمد علىّ وطلب صلحهم وخدعهم
وأظهر لهم عجزه عن قتالهم فاغتروا وأبوا الا القتال فأتى محمد علىّ ليلا الى الباشا وأخذ منه
قدرا من المال ورجع الى أصحابه فأنفق عليهم فتقوت عزيمتهم فلما كانت الساعة الخامسة
من تلك الليلة ركب محمد علىّ فى نحو أربعة آلاف مابين فارس وراجل وساروا حتى اقتربوا
من حرس العدو فى آخر السادسة فترجلوا وقسموا أنفسهم الى ثلاث طوائف طائفة سارت
نحو الدير وطائفة سارت نحو المتاريس والثالثة نحو الخيل وقد كان صالح بيك الالفى الصغير
ومن معه فى سنة من النوم فلم يشعروا إلا وقد صدموهم صدمة شديدة فاستيقظ القوم
وبادروا الى الهرب والنجاة فأخذ أصحاب محمد علىّ الدير وملكوا الابراج وكان بها العساكر
العثمانية وقد أشرفوا على الاستئمان والتسليم وغنموا ماوجدوه من أسلحة وخيل وهجن
ومتاع وكان شيأ كثيرا وعاد محمد علىّ عند بزوغ الفجر بعساكره ومعه خمس رؤس وصعد الى
قلعة الجبل بالرؤس فخلع عليه الباشا فروة سمور وعلقوا تلك الرؤس على سبيل الرميلة فلم
تكن الأيام حتى عاد الالفى يشن الغارة على طرا وأبراجها وكذلك عاد ابراهيم بيك والبرديسى
وعسكرهما يشنون الغارة على قليوب وبنها وضواحى القاهرة جميعها ۞ فلما كان يوم الاحد
عاشر ربيع الثانى خرج محمد علىّ بعسكره وكذلك خرج عابدى بيك وحسن بيك الى شبرا
وقاتلوا حسين بيك المعروف بالافرنجى قتالا عنيفا وثابروا على رمى القنابل الى ضحوة النهار
ثم التحم الفريقان واشتد الجلاد بينهما الى مابعد نصف النهار وصبر الفريقان وقتل بينهما
خلق كثير من الارنؤط وطوائف المماليك وأكابر العسكر ثم انحاز كل الى معسكره وبعد هجعة
من الليل اجتمع العسكر من طوائف الانكشارية والارنؤط وغيرهم وزحفوا على متاريس
حسين بيك الافرنجى وكبسوها وكان بها حسين بيك وعلى بيك أيوب وعدد كثير من الجند
والمماليك ولم يمهلوهم حتى زحفوا على بقية المتاريس فملكوا منها متاريس شلقان وبسوس
وانهزم المصريون وارتحلوا الى الخانكاه وأبى زعبل ثم عادوا فجمعوا من تشرد منهم وساروا
من خلف المقطم الى الصعيد

وبعد أيام من وقوع هذه الحوادث سافر أخو طاهر باشا الى الديار الرومية وشاع الخبر
بارتحال محمد علىّ سر جشمه كذلك فتطير الناس من ذلك وأعقب هذه الاشاعة عبث العسكر



بالاهالى وتطوافهم فى الاسواق يخطفون مايشاؤن من السوقة وأصحاب الحوانيت فضلا عن
النساء وغيرهم فلما كان ثانى يوم مرّ محمد علىّ وخلفه عدة كبيرة من العسكر وهو ماش على
أقدامه وأمامه المناداة بالأمان وعود الأمور الى سابق مجراها فلم تطمئن قلوب الرعية بل زادوا
فى التحذر وكذلك تحذر طوائف الانكشارية لتعدى جماعة الارنؤط عليهم وقتل بعضهم
البعض فى الطرق والشوارع وفى وسط الاسواق جهارا ثم برز محمد علىّ بعد أيام بعسكره
الى ناحية البساتين ولبث بها أياما والمناداة فى كل يوم فى جميع العسكر بالخروج والاستعداد
لقتال الامراء المصريين ♦ فلما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سار محمد علىّ بعسكره الى
الصعيد وسار آخرون أيضا الى الاقاليم البحرية فالتقى محمد علىّ بالالفى الكبير وقومه عند
منية ابن خصيب فوقع بينهما القتال واتشبت الحرب وطالت أيامها فى البر والبحر وطلب
محمد علىّ المدد من الباشا فأمدّه وسير اليه كثيرا من الاسلحة ومعدّات القتال والمؤنة وانتشرت
عساكر الامراء المصريين حتى وصلت الى زاوية المصلوب وحاصروا من كانوا فى بوش
والفشن وبنى سويف وكذلك من بالفيوم ووصلت مقدّماتهم الى ناحية الجيزة وطلبوا من
أهالى تلك البلاد الكلف وضربوا عليهم المغارم كعادتهم وجبوها وأخذوا ماوجدوه فيها من
غلال وغيره فعبر كتخدا الباشا النيل الى الجيزة وحصن حدودها وعمل فيها المتاريس والخنادق
ورتب بها الجند المرابطين وبعد قتال عنيف بين الالفى ومحمد علىّ أياما كثيرة ارتحل الالفى
عن منية ابن خصيب وترفع فدخلها محمد علىّ بعسكره فلم يجد فيها شيأ لامن الذخيرة ولا من
المؤنة فاستقر بها حتى يأتيه أمر الباشا وطال القتال وقوتلت مصر والقاهرة من جميع
الجهات واشتدّ الكرب وعم الهول والخطب فشكا الباشا أمره الى الباب العالى وطلب منه
المدد فأمدّه بطائفة من الدلاة فدخلت الى القاهرة من العادلية فى سابع عشرى ذى الحجة
ختام سنة تسع عشرة ومائتين وألف وهم فى عدة وافرة ومعهم مقدم اسمه ابن سكور
عبد الله فأنزلوهم ناحية الفسطاط والآثار وناحية البساتين واهتم الباشا بأمرهم فرتب لهم
الجماكى الكثيرة والعلوفات الزائدة وبالغ فى تنظيم أمورهم وأكثر لهم من الاسلحة والكراع
وجعل ينظر لكل طائفة من الارنؤط والانكشارية وغيرهم دونهم فى الاهمية والاهتمام فلما
علم محمد علىّ وحسن باشا وهما فى منية ابن خصيب بخبر حضور أولئك الدلاة الى القاهرة
واهتمام الباشا بأمرهم وركونه اليهم دون بقية الجند وتقرب كبيرهم منه ووثوقه به تطيرا من
ذلك وأدركا ما خفى من نوايا الباشا وخشيا العاقبة فانسحبا بعسكرهما من منية ابن خصيب
ورجعا الى القاهرة فأغضب الباشا رجوعهما وجمع اليه المشايخ والوجاقلية وأرباب الديوان
وكلمهم فى أمر رجوع محمد علىّ وحسن باشا بغير اذن وتركهما القتال وقال انهما لم يرجعا
الالامر ينويان فعله فاما أن يرجعا لقتال الاعداء وإما أن يرحلا الى بلادهما قال وقد أتانى
كتاب بخط السلطان يفوض الىّ فيه أن أولى من أشاء وأعزل من أشاء وأعطى وأمنع من أشاء
فالمصلحة فى أن تبقوا عندى مع كبار الوجاقلية حتى نرى مايكون من وراء ذلك ثم رسم

بخروج

بخروج العسكر الدلاة المذكورين فخرجوا الى طرا والجيزة ومعهم بعض الانكشارية والارنؤط ومعهم المدافع وآلات الحرب والذخيرة والمؤنة فلم يكن بأسرع من أن نزل محمد علىّ وحسن باشا بعسكرهما الى طرا فلم يجسر الدلاة على ردّهم ولبثوا بطرا أياما ثم صاروا يدخلون المدينة خفية حتى تكامل دخولهم ودخل كذلك محمد علىّ وحسن باشا ونزلا فى بيوتهما فازعج دخولهما الباشا وأغضبه جدا ومنع المشايخ والوجاقلية من الذهاب الى محمد على فقامت من هذا الحين الوحشة بين الباشا ومحمد على وظهرت على كل منهما دلائل الانقباض وتحذر كل من صاحبه فأخذ محمد على فى التدبير على أحمد باشا وخلعه من الولاية وكذلك بدأت الوحشة بين جماعة الارنؤط والدلاة والانكشارية فكانوا على طرفى نقيض وكانت لاتمر ساعة من النهار الا ويقع التشاحن بين أفرادهم فى الحوارى والطرقات وزاد بهم الحال الى حد القتل وتعدّى فعلهم هذا الى المارة وأبناء السبيل وازدحمت طرق مصر والقاهرة باخلاطهم وعاث الدلاة بمصر القديمة فأخرجوا أهلها من دورهم وسكنوها بما فيها من أثاث ومتاع فخرج أهل مصر رجالا ونساء وجاؤا الى الازهر وصاحوا على المشايخ واستغاثوا فكلم المشايخ الباشا فى ذلك فرسم بخروج الدلاة على الفور وكتب مرسوما بذلك فلم يسمعوا قوله ولاأعاروه جانب الاعتبار فخوطب الباشا ثانيا فلم يأت شيأ فاجتمع العدد العديد من الصبيان الصغار وطافوا يصيحون فى الاسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت ويستصرخونهم فقام الناس على ساق وقدم ووصل الخبر بقيامهم الى الباشا فأرسل كتخداه الى الجامع الازهر فلم يجد به أحدا من المشايخ فسار الى بيت الشيخ الشرقاوى فرأى من تزاحم العامة وتطوافهم بالشوارع والطرقات ماأزعجه فرجع فرجمه الصبيان بالاحجار وسبوه ولعنوه وبقيت الحال كذلك الى يوم الجمعة عاشر صفر

(مطلب)

(ولاية محمد على على جدة وتوجيه رتبة الباشوية اليه وماجرى بسبب ذلك من الحوادث والمحن)

واتفق أن قدم فى هذا الحين قاصد من دار السلطنة ومعه تقليد لمحمد علىّ بولاية جدة فاستدعى الى قلعة الجبل ليتسلم التقليد فأبى وتأخر فترددت الرسل بينه وبين الباشا ومحمد على يشتد فى الامتناع وكأنه كان يخشى صعوده الى قلعة الجبل أوهو يكره الولاية على جدة ولايرضاها وبعد أخذ ورد وقع الاتفاق على أن ينزل أحمد باشا من القلعة الى بيت سعيد أغا ويخلع على محمد علىّ خلعة التقليد هناك فكان نزوله فى ذلك اليوم الذى قام فيه العامة فلما مر بين صفوف الغوغاء وزحام العامة صاحوا فى وجهه وقالوا « مايحصل لك ياباشا » فهاله أمرهم وأسرع بالدخول الى بيت سعيد أغا وحضر محمد علىّ وحسن باشا وعابدى بيك فقرئ عليهم فرمان التقليد وقد خوطب فيه «بمحمد علىّ باشا » ثم قام أحمد

بالاهالى وتطوانهم فى الاسواق يخطفون مايشاؤن من السوقة وأصحاب الحوانيت فضلا عن النساء وغيرهم فلما كان ثانى يوم مرّ محمد علىّ وخلفه عدة كبيرة من العسكر وهو ماش على أقدامه وأمامه المناداة بالأمان وعود الأمور الى سابق مجراها فلم تطمئن قلوب الرعية بل زادوا فى التحذر وكذلك تحذر طوائف الانكشارية لتعدى جماعة الارنؤط عليهم وقتل بعضهم البعض فى الطرق والشوارع وفى وسط الاسواق جهارا ثم برز محمد علىّ بعد أيام بعسكره الى ناحية البساتين ولبث بها أياما والمناداة فى كل يوم فى جميع العسكر بالخروج والاستعداد لقتال الامراء المصريين * فلما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سار محمد علىّ بعسكره الى الصعيد وسار آخرون أيضا الى الاقاليم البحرية فالتقى محمد علىّ بالالفى الكبير ولمومه عند منية ابن خصيب فوقع بينهما القتال وانتشبت الحرب وطالت أيامها فى البر والبحر وطلب محمد علىّ المدد من الباشا فأمده وسير اليه كثيرا من الاسلحة ومعدات القتال والمؤنة وانتشرت عساكر الامراء المصريين حتى وصلت الى زاوية المصلوب وحاصروا من كانوا فى بوش والفشن وبنى سويف وكذلك من بالفيوم ووصلت مقدماتهم الى ناحية الجيزة وطلبوا من أهالى تلك البلاد الكلف وضربوا عليهم المغارم كعادتهم وجبوها وأخذوا ماوجدوه فيها من غلال وغيره فعبر كتخدا الباشا النيل الى الجيزة وحصن حدودها وعمل فيها المتاريس والخنادق ورتب بها الجند المرابطين وبعد قتال عنيف بين الالفى ومحمد علىّ أياما كثيرة ارتحل الالفى عن منية ابن خصيب وترفع فدخلها محمد علىّ بعسكره فلم يجد فيها شيأ لامن الذخيرة ولا من المؤنة فاستقر بها حتى يأتيه أمر الباشا وطال القتال وقوتلت مصر والقاهرة من جميع الجهات واشتد الكرب وعم الهول والخطب فشكا الباشا أمره الى الباب العالى وطلب منه المدد فأمدّه بطائفة من الدلاة فدخلت الى القاهرة من العادلية فى سابع عشرى ذى الحجة ختام سنة تسع عشرة ومائتين وألف وهم فى عدة وافرة ومعهم مقدم اسمه ابن عسكور عبد الله فأنزلوهم ناحية الفسطاط والآثار وناحية البساتين واهتم الباشا بأمرهم فرتب لهم الجماكى الكثيرة والعلوفات الزائدة وبالغ فى تنظيم أمورهم وأكثر لهم من الاسلحة والكراع وجعل ينظر لكل طائفة من الارنؤط والانكشارية وغيرهم دونهم فى الاهمية والاهتمام فلما علم محمد علىّ وحسن باشا وهما فى منية ابن خصيب بخبر حضور أولئك الدلاة الى القاهرة واهتمام الباشا بأمرهم وركونه اليهم دون بقية الجند وتقرب كبيرهم منه ووثوقه به تطيرا من ذلك وأدركا ما خفى من نوايا الباشا وخشيا العاقبة فانسحبا بعسكرهما من منية ابن خصيب ورجعا الى القاهرة فأغضب الباشا رجوعهما وجمع اليه المشايخ والوجاقلية وأرباب الديوان وكلمهم فى أمر رجوع محمد علىّ وحسن باشا بغير اذن وتركهما القتال وقال انهما لم يرجعا الالامر ينويان فعله فاما أن يرجعا لقتال الاعداء وإما أن يرحلا الى بلادهما قال وقد أتانى كتاب بخط السلطان يفوض الىّ فيه أن أولى من أشاء وأعزل من أشاء وأعطى وأمنع من أشاء فالمصلحة فى أن تبقوا عندى مع كبار الوجاقلية حتى نرى مايكون من وراء ذلك ثم رسم

بخروج العسكر الدلاة المذكورين فخرجوا الى طرا والجيزة ومعهم بعض الانكشارية والارنؤط ومعهم المدافع وآلات الحرب والذخيرة والمؤنة فلم يكن بأسرع من أن نزل محمد علىّ وحسن باشا بعسكرهما الى طرا فلم يجسر الدلاة على ردهم ولبثوا بطرا أياما ثم صاروا يدخلون المدينة خفية حتى تكامل دخولهم ودخل كذلك محمد علىّ وحسن باشا ونزلا فى بيوتهما فانزعج دخولهما الباشا وأغضبه جدا ومنع المشايخ والوجاقلية من الذهاب الى محمد على فقامت من هذا الحين الوحشة بين الباشا ومحمد على وظهرت على كل منهما دلائل الانقباض وتحذر كل من صاحبه فأخذ محمد على فى التدبير على أحمد باشا وخلعه من الولاية وكذلك بدأت الوحشة بين جماعة الارنؤط والدلاة والانكشارية فكانوا على طرفى نقيض وكانت لاتمر ساعة من النهار الا ويقع التشاحن بين أفرادهم فى الحوارى والطرقات وزاد بهم الحال الى حد القتل وتعدّى فعلهم هذا الى المارة وأبناء السبيل وازدحمت طرق مصر والقاهرة باخلاطهم وعاث الدلاة بمصر القديمة فأخرجوا أهلها من دورهم وسكنوها بما فيها من أثاث ومتاع فخرج أهل مصر رجالا ونساء وجاؤا الى الازهر وصاحوا على المشايخ واستغاثوا فكلم المشايخ الباشا فى ذلك فرسم بخروج الدلاة على الفور وكتب مرسوما بذلك فلم يسمعوا قوله ولاأعاروه جانب الاعتبار فخوطب الباشا ثانيا فلم يأت شيأ فاجتمع العدد العديد من الصبيان الصغار وطافوا يصيحون فى الاسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت ويستصرخونهم فقام الناس على ساق وقدم ووصل الخبر بقيامهم الى الباشا فأرسل كتخداه الى الجامع الازهر فلم يجد به أحدا من المشايخ فسار الى بيت الشيخ الشرقاوى فرأى من تزاحم العامة وتطوافهم بالشوارع والطرقات ماأزعجه فرجع فرجمه الصبيان بالاحجار وسبوه ولعنوه وبقيت الحال كذلك الى يوم الجمعة عاشر صفر

(مطلب)

(ولاية محمد على على جدة وتوجيه رتبة الباشوية اليه وماجرى بسبب ذلك من الحوادث والمحن)

واتفق أن قدم فى هذا الحين قاصد من دار السلطنة ومعه تقليد لمحمد علىّ بولاية جدة فاستدعى الى قلعة الجبل ليتسلم التقليد فأبى وتأخر فترددت الرسل بينه وبين الباشا ومحمد على يشتد فى الامتناع وكأنه كان يخشى صعوده الى قلعة الجبل أوهو يكره الولاية على جدة ولايرضاها وبعد أخذ ورد وقع الاتفاق على أن ينزل أحمد باشا من القلعة الى بيت سعيد أغا ويخلع على محمد علىّ خلعة التقليد هنالك فكان نزوله فى ذلك اليوم الذى قام فيه العامة فلما مر بين صفوف الغوغاء وزحام العامة صاحوا فى وجهه وقالوا « مايحصل لك باشا » فهاله أمرهم وأسرع بالدخول الى بيت سعيد أغا وحضر محمد علىّ وحسن باشا وعابدى بيك فقرئ عليهم فرمان التقليد وقد خوطب فيه محمد علىّ باشا « ثم قام أحمد

مطلب
مافعله العامة والشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب مع محمد على باشا

باشا وخلع عليه خلعة التقليد وهى فروة وقاووق فلبسهما وركب يريد الانصراف فثار عليه العساكر وطالبوه بالجماكى والعلوفة فأحالهما على أحمد باشا وسار الى داره بالازبكية وخلفه بعض خواصه وجماعة من أتباعه فكان ينثر قطع الذهب ودراهم الفضة بطول الطريق ووقف العسكر لأحمد باشا ومنعوه من الركوب فلاطفهم حسن باشا ومناهم ولم يتمكن أحمد باشا من الصعود الى قلعة الجبل الا بعد منتصف الليل وغلقت الحوانيت والاسواق مقفلة والصبيان لاينكفون عن الصياح فى الشوارع والطرقات والاستغاثة والنداء «يالطيف» فلما كان يوم الأحد ثانى عشره ركب المشايخ الى بيت القاضى واجتمع به جماعة من المتعممين والعامة والصبيان وجعلوا يصرخون ويصيحون «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم» قال بعض كتاب الاخبار مع أنه لم يكن كاسلافه كثير الظلم والجور والعسف ولاسفاكا للدماء ومع ذلك فقد كثر الصياح وعلا الضجيج فكان منهم من يقول يالطيف ومنهم من يقول يارب يامتجلى أهلك طائفة العثمانلى ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك وطلبوا من القاضى أن يرسم باحضار أصحاب الحل والعقد من بطانة أحمد باشا لمجلس الشرع فاستحضروا وجلسوا بالمجلس الشرعى ووقع الجدال فاتفقوا على تحرير ورقة بجميع طلبات الرعية ففعلوا ذلك وذكروا فيها تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم للناس واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض الخراج معجلا وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوا هذه الورقة معهم ووعدوا القاضى بالجواب فى غد فأرسل الباشا فى تلك الليلة الى القاضى والمشايخ يستقدمهم اليه بقلعة الجبل فاشتوروا فى أمر ذهابهم فعلم محمد على باشا بذلك وخاف أن يكون بذهابهم الى الباشا خمود نار الفتنة وتفريق تلك الجموع * قال أصحاب الاخبار وهذا لايوافق مصلحته * فأرسل الى القاضى والمشايخ من يعلمهم بأن الباشا يريد الفتك بهم ان صعدوا الى قلعة الجبل فخافوا ولم يصعدوا اليه فى تلك الليلة فلما كان يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع العدد العديد من الغوغاء والعامة فمنعوهم من الدخول وأقفلوا الابواب وحضر بعض الامراء فركبوا جميعا وساروا الى محمد على باشا بحضرته وخلفهم العامة والصبيان فى صياح وضجيج فدخلوا عليه وقد كان على علم بماهم فاعلوه وقالوا له إنا لانريد أن يكون أحمد باشا واليا علينا وقد اجتمعنا اليوم لخلعه فان أطاع نجا وان خالف عاملناه بما كسبت يداه * فقال ومن تريدون * قالوا قد اخترناك بدلا منه بشروط * قيل فامتنع فألحوا عليه وأكثروا من الالحاح فرضى فأحضروا فروة سمور وقفطانا وكان السيد عمر النقيب قد أعدهما فألبسه اياهما هو والشيخ الشرقاوى وذلك عند عصر يوم الاربعاء سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ثم طاف المنادون ينادون بذلك تلك الليلة فى جميع أزقة وحارات وشوارع القاهرة ومصر وأصبحوا وقد سيروا الى أحمد باشا يخبرونه بذلك ويطلبون منه أن ينزل من قلعة الجبل فلم يهمه الامر ولم يكترث به وركب المشايخ فى الصباح ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم القرابين والعصى والمساوق وساروا الى بركة

الازبكية حيث بيت محمد على باشا وضجوا وصاحوا ونادوا بالويل على أحمد باشا وزادوا فى سبه ولعنه والسيد عمر النقيب يحرض الناس ويشجعهم على ماهم عليه من الجلبة فتحصن الباشا بقلعة الجبل وشحنها بالذخيرة والمؤنة والاسلحة الكثيرة وانضم اليه عمر بيك الارنؤدى وصالح أغا قوش بعساكرهما وأقاموا معه بقلعة الجبل فأرسل محمد على باشا الى عمر بيك وصالح أغا جماعة يذكرون لهما مااجتمع عليه رأى الجهور من عزل أحمد باشا وخلع طاعته من أعناقهم ويحذرهما من فعل شئ ينجم عنه خروج الرعية وفصل مالاخير فيه فأرسلا يقولان أرونا سندا شرعيا نرتكن عليه فى التخلى عنه فاجتمع المشايخ وجميع العلماء فى يوم الخميس سادس عشر صفر ببيت القاضى ونظموا سؤالا وكتب عليه المفتون بالعزل وأرسلوه اليهما فلم يقبلاه واستمرا على الخلاف فلم يلبثا طويلا حتى انحل عن الباشا طوائف الانكشارية وزاد هياج الرعية وأكثروا من التطواف ليلا ونهارا وهم ينادون بتنزيل أحمد باشا من قلعة الجبل.واستفحلت الفتنة وتطاير شررها الى القرى والارياف فجاء الجمع الكثير من أهلها ودخلوا الى القاهرة واختلطوا بالعامة وقيل استقدمهم الشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب لتعميم الفتنة وتعظيم أمرها ولازموا التطواف مع العامة والصياح والجلبة

وقدم فى هذه الاثناء محمد بيك الالفى ومن معه من الامراء والعسكر والعربان وانتشروا جهة الجيزة واستقر الالفى بالمنصورية على مقربة من الاهرام وانتشرت أتباعه جهة الجسر الاسود وأرسل مكاتبة الى السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى ومحمد على باشا يطلب أن يقرروا له جهة يتخذها مقرا له هو وأتباعه فكتبوا له أن يختار من البلاد مايشاء ويتأنى حتى تسكن الفتنة القائمة بمصر وشددوا على أحمد باشا الطلب فلم يلتفت الى قولهم فجعل السيد عمر يحض العامة على الاجتماع والتطواف وركب هو والمشايخ الى بيت محمد على باشا ومعهم أرباب الاشاير ومشايخ الطرق والعامة والملتزمون وبأيديهم الاسلحة والعصى والمساوق والنبابيت ولازموا التطواف ليلا فى الشوارع والحارات أحزابا وطوائف ومعهم المشاعل وهم فى ضجيج هائل ثم رسم محمد على باشا بمحاصرة قلعة الجبل وفرق عساكره فى جهات الرميلة والحطابة والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليبة وجلست طائفة منهم بالمحمودية والسلطان حسن وأنشؤا المتاريس فى تلك الجهات ومنعوا من يصعد أو ينزل من قلعة الجبل فأغلق عند ذلك أهل القلعة الابواب ووقفوا على الاسوار يسب بعضهم بعضا ويترامون بالبنادق وصعد جماعة من عسكر محمد على باشا على منارة جامع السلطان حسن وصاروا يرمون منها الى القلعة رميا متتابعا ومازالوا على هذا الحال الى ثانى عشرى صفر فركب السيد عمر النقيب والمشايخ ومعهم الجمع الكثير وساروا الى الازبكية ودخل المشايخ بيت محمد على باشا ووقف الجمع أمام البيت فلحق بهم العامة والعصب وطوائف الجند والملتزمين وعصب خارج المدينة وأهل الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة ومعهم الطبول والبيارق فوقفوا ساعة ثم رجعوا الى الجامع الازهر ثم عادوا الى الازبكية وهم فى

صياح وضجيج والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى يحضانهم على الهياج والصياح ثم خرج المشايخ من بيت محمد على باشا وذهبوا الى بيت حسن باشا أخى طاهر باشا ثم رجعوا واستمر الحال على هـذا الوصف الى ليلة الجمعة ❁ فلما كان بعد الغروب بقليل نزل جماعة من العسكر الذين بالقلعة من ناحية الرميلة وهجموا على المتاريس فصدهم أصحابها وتابعوا عليهم الرمى بالقنابل والبنادق وهكذا الى مابعد العشاء الاخيرة وخرج الاهالى بما معهم من الاسلحة والعصى فقاتلوا مع أصحاب المتاريس حتى أجلوا أصحاب القلعـة عن المتاريس فلما كان يوم الجمعة رابع عشرى صفر المذكور صعد عابدى بيك الى قلعة الجبل وغاب ساعة ثم فتحت أبوابها ونزل منها عمر بيـك وأمروا بالمتاريس فرفعت وتفرق من كان بها من المقاتلين وشاع خبر نزول أحمد باشا ولبثوا ثلاثا وهو لاينزل وقد كانت خدعة منهم اذ كانوا قد أشرفوا على الاستئمان لفراغ ماعندهم من الذخيرة ونفاد ما كان معهم من الزاد ففعلوا مافعلوه بواسطة عابدى بيك حتى تمكنوا من نقل المؤن والذخيرة وغيرها فى بحر هذه الهدنة وأنزلوا عابدى بيك أو هو نزل بنفسـه وعادوا الى الخلاف وامتنعوا من ترك القلعة وأغلقوا الابواب فزاد بالناس القلق والغم وعادوا الى التطواف وقيل بل أعادهم السـيد عمر النقيب الى ما كانوا عليـه من الهرج والصـياح والاسـتغاثة واسـتقدم السـيد عمر الجمع الكثير من قبائل عربان الشرق والغرب وأخذ محمد على باشا فى حصار القلعـة من بعـد عشاء ليلة الثـلاثاء وكثر الاهتمام فى صبحها بذلك وجمعوا الفعلة وأصـعدوا جماعة من الجنـد والعربان وغيرهـم الى المقطم وأصـعدوا بعض المدافع ورتبوا لهـم عـدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء وظنوا الظفر بأحمـد باشا ومن معـه وبينماهم على هـذا الحال من الاهتمام فى أمر الحصار والتضييق على أصحاب القلعة اذ تحرك العسكر وطالبوا محمد على باشا بالعلوفة والجماكى المتأخرة فطاولهم حتى ينزل أحمد باشا من القلعة فأبوا الا أخـذ مالهم فناهـم فتركوا المتاريس التى كانوا بها حوالى القلعة وتفرقوا فـذهب جماعة من العامة وأهل العطوف فتترسوا فى مواضعهم ورسم السيد عمر النقيب فانحاز أهالى كل خطة الى خطتهم وعملوا المتاريس على رؤس الحارات والشوارع ولازموا التطواف نهارا والقيام بأخطاطهم ليلا فتقوى أصحاب قلعة الجبل وتراسلوا الرمى بالقنابل على المتاريس فعملت بالمدينة والخطة القريبة منها فعلا رديا جدا ونزح أهلها الى الاطراف فرارا ❁ وكما كان جوف مصر والقاهرة يلتهب بنار الفتنة ويزداد فى كل يوم ضرامها كانت البلاد فى ضيق ماعليه من مزيد بسبب فعال الالفى الكبير ومن معه من لموم العربان فقد أفحشوا فى القتل والنهب والتخريب عمالم يسمع له مثيـل ولا وقع له نظير فنزح الناس عن البـلاد وهرعوا الى مصر والقـاهرة وهم فى أسوإ حال فامتلأت بهم الازقة فكانوا لايجدون مايأكلون ولا ما يشربون ومات منهم العدد العديد جوعا وعريا تحت أقدام الثائرين من العسكر والاهالى وكان المنظر فظيعا والخطب عظيما وخاف محمـد على باشا من سوء العاقبـة فأرسـل الى كبار عسكر الدلاة المعسكرين بقليوب يسـتقدمهم فحضروا اليه فكلمهم فى أمر الانضمام اليه فوافقوه فخلع

عليهم

عليهم الخلع السنية وأنفق عليهم وسيّرهم لقتال الالفى فارتحلوا الى قليوب خلف الالفى فصاروا كلما نزلوا ببلدة طلبوا من أهلها الكلف والمغارم وساموهم الخسف وعملوا معهم ما لم تعمله قوم الالفى فكانوا أشدّ هولا وأقوى نكالا وتقاعسوا فلم يلحقوا بالالفى

واشتدّ الخطب على من بمصر والقاهرة وطالت أيام الفتنة وتمنع الباشا وأصحابه بقلعة الجبل وأبوا التسليم وأهل البلد فى هياج وصياح وجلبة وكان بجهة الفسطاط من مقدمى عسكر الارنؤط مقدّم اسمه على باشا السلحدار قد خرج بعسكره عن مخالفة محمد على باشا بأسباب الجماكى والعلوفة فعمل على باشا المذكور على الوصول بأحمد باشا الوالى بقلعة الجبل وما زال حتى تمكن من نقب سور القلعة من ناحية عرب اليسار وسعت بينه وبين أحمد باشا الرسل وصار يمدّ أحمد باشا وأصحابه بالذخيرة والمؤنة من الميرة والاغنام وقرب الماء وكل ما يحتاجون اليه ولبث على هذا الحال أياما ثم دبر هو وأحمد باشا على الهجوم على المتاريس ليلا من ناحية الصليبة وان أصحاب القلعة يوالون فى وقت الهجوم اطلاق القنابل على المتاريس من ناحية الازبكية وجامع الازهر وجوف المدينة وقدتم الامر بينهما على ذلك فأصبحوا وقد أرسلوا الى السيد عمر النقيب يخادعونه ويطلبون السعى فى اطفاء نار الفتنة وعمل مافيه المصلحة للاهالى والجند قبل وأرادوا بذلك تثبيط همم أصحاب المتاريس واشغالهم بأمر الصلح عن الدفاع فسبق من أعلمهم بسرهم وما عقدوا النية عليه فأرسل السيد عمر الى أصحاب المتاريس من الاهالى والجند وكذلك أصحاب الاربطة وحثهم واستنهض هممهم وحذرهم فاستعدوا وراقبوا فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا الى القلعة ومعها بعض الخدم والاتباع ونفر من الجند فخرج عليهم حجاج الخضرى زعيم عصابة الرميلة بمن معه من سكان الرميلة فقاتلوهم وظفروا بهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا اثنين وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم الى بيت السيد عمر النقيب فبعث بهم الى محمد على باشا فأمر بهم فقطعوا رقابهم فلما علم من بقلعة الجبل ماحل بأصحابهم رموا فى الحال بالقنابل على المدينة وبيت محمد على باشا وبيت حسن باشا وناحية الازهر ووالوا الرمى ولم يزالوا على هذا الحال من أول النهار الى ما بعد الظهر ثم عادوا ورموا من العشاء الى سادس ساعة من الليل فلم يجبهم أحد من أصحاب المتاريس ولا المرابطين بالمقطم وأصبحوا يوم الاحد وهم يتابعون الرمى طول النهار وكذلك ليلة الاثنين ويوم الاثنين الى يوم الخميس بطل الرمى ثم عادوا اليه فى يوم السبت وقد تهدم العدد العديد من الدور والرباع بخط الازهر وعلى مقربة من الازبكية فنزح أهل خطة الازهر الى بولاق القاهرة والحسينية فرارا من النيران المتراسلة على دورهم ۞ واتفق أن حضر من الاسكندرية فى هذه الاثناء طائفة من عسكر الانجليز ونزلوا ضيوفا عند قنصل دولتهم فكانوا يجتمعون كثيرا بمحمد على باشا ولبثوا على هذا الحال أياما ثم طافوا يوما مع عسكر محمد على باشا بالمدينة والفسطاط وحول الاسوار وقلعة الجبل وكان بناحية قلعة الفرنسيس التى بقنطرة الليمون مدفع كبير فرسم محمد على باشا بنقله فنقلوه الى باب الوزير

حيث مجرى السيل وقيدوا به جماعة من أولئك الانجليز فرموا به على برج القلعة وكذلك رمى المرابطون بالجبل وتتابع الرمى وتراسلت القنابل فخربت وأحرقت وأبادت وأهلكت وفعلت بالناس والمبانى مالا يمكن وصفه واشتد الكرب بالناس وعم الويل والبلاء الرفيع والوضيع فنزح الناس الى القرى والكفور وأكثر المشايخ والعلماء والوجهاء من الاجتماع بمحمد على باشا والعامة وقوف بأبواب المشايخ يضجون من قفل الاسواق وامتناع باعة الخبز من فتح دكاكينهم والمشايخ يلاطفونهم والسيد عمر النقيب لاينكف عن تحريضهم خوفا من سكون الفتنة واخماد نارها قبل بلوغ محمد على باشا ما يتمناه من الولاية على الديار المصرية وكان لما اجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء ونادوا بولاية محمدعلى باشا وألبسوه القاووق والقفطان كتبوا بذلك محضرا وأرسلوه الى الباب العالى وتقدموا الى السلطان فى تولية محمد على باشا على ولاية مصر وألحوا فى الطلب وبالغوا فى الشكوى من فساد الامور وما تقاسيه الرعية بأسباب مظالم الولاة وتصرفهم بالعسف والفجور ولغوا مسالك أحمد باشا الوالى وطلبوا خلعه

فلما كان يوم الاثنين رابع ربيع الآخر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية قدم رسول من دار السلطنة بفرمان الولاية الى محمد على باشا وشاع خبر وصوله الى بولاق فهرع المشايخ والعلماء وأصحاب الوظائف للقائه وتسابق العامة وكثرت الغوغاء فى الشوارع والطرقات وبأيديهم السيوف والمساوق والعصى وهم فى ضجيج هائل وصياح متتابع فركب رسول السلطان وركب خلفه المشايخ وأرباب الوظائف وساروا فسار العامة أمامهم وهم يضربون الطبول والزمور ويضجون بكلماتهم التى تعودوا على الضجيج بها وما زالوا حتى أتوا الازبكية فنزل رسول السلطان ببيت محمد على باشا وأقام برهة لطيفة ثم أمر فانتظم المجلس وحضر المشايخ والعلماء كافة والوجهاء وأرباب المناصب العالية والوجاقلية وكثر الجمع فقرئ الفرمان فكان يتضمن الامر بخلع أحمد باشا من منصب الولاية وتوجيهها الى محمد على باشا اعتبارا من اليوم العشرين من ربيع الاول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية اجابة لطلب المشايخ والعلماء والاعيان وان أحمد باشا الوالى ينجلى عاجلا عن القاهرة الى مدينة الاسكندرية ويبقى بها حتى يأتيه أمر السلطان فما أتم القارئ كلامه حتى ضج الناس بالدعاء للسلطان وعلت أصواتهم واشتدت بينهم الجلبة ولبثوا على هذا الحال ساعة ثم انصرفوا وباتوا وأصبحوا ورمى القنابل من قلعة الجبل متتابع وكذلك من الابراج والمعاقل والمتاريس ثم بطل الرمى بعد ظهر اليوم وبقى المحاصرون لاينفكون عن حصارها ومنع الواصل اليها وأرسلوا الى أحمد باشا صورة ماورد من السلطان من أمر خلعه وتولية محمدعلى باشا وطلبوا منه أن ينزل من قلعة الجبل ويرحل الى الاسكندرية فامتنع وطلب الاجتماع برسول السلطان فلم يرض الرسول وأبى الاجتماع به فاجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء وذهبوا الى محمد على باشا وقالوا له مابالك لاتدع عن الرعية حمل السلاح وقد توليت الامر فاعمل بتدبيرك على اخراج أحمد باشا من

عزل أحمد باشا وولاية محمدعلى باشا

القلعة

القلعة واقبض على زمام الامور فنحن من اليوم رعيتك وقد تركنا لك الحل والعقد فتصرّف ❁ وأصبحوا وقد فتحوا أبواب الازهر بعد غلقها أياما وطاف الوالى ومعه جماعة من المتعممين ينادون بالامان وإلقاء السلاح وعود العامة الى أشغالهم وملازمة أصحاب الحوانيت حوانيتهم فخاف الناس من ذلك وتطيروا وظنوا فتك العسكر بهم ان هم ألقوا عنهم السلاح فامتنعوا وتترسوا فى الازقة والحارات ورجموا بعض أصحاب الوالى بالاحجار وصاحوا فى وجوههم فشدد الوالى فى المناداة ورجوع الناس الى أشغالهم نهارا ومراقبة الحوادث ليلا وجاءت الاخبار فى هذه الاثناء بقدوم الامراء المطرودين من الاقاليم القبلية الى جهة طرا والبساتين وأنهم على أهبة القتال فركب محمد على باشا فى نفر من الجند ومعه حسن باشا وأخوه عابدى بيك وساروا الى جهة البساتين والتقوا بالامراء المصريين وقاتلوهم فتقهقر الامراء وترفعوا ثانيا الى الصعيد فوقف محمد على باشا بمن معه من الجند أمامهم أياما ثم عاد الى القاهرة كل هذا وأحمد باشا المعزول متترس بقلعة الجبل لاينزل منها ولا يعترف بولاية محمد على باشا وكلما سألوه فى أن ينزل زاد فى النفور وتقوى فى التترس فلما كان اليوم خامس عشرى ربيع الثانى من السنة أى سنة عشرين حضر رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم الى أحمد باشا بترك قلعة الجبل والجلاء الى مدينة الاسكندرية حتى يرد عليه أمر السلطان فأرسلوا الى أحمد باشا ذلك المرسوم فأبى النزول وقال حتى يأتى الىّ رسول أمير المؤمنين ويشافهنى فى الامر فصعد اليه الرسول وما زال الحال هكذا أياما والناس فى خوف من انتشاب الحرب الى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الاولى نزل أحمد باشا من باب الجبل الى بيت مصطفى أغا الوكيل ونزل من كان معه من الجند ثم خرج الى جهة باب النصر ومر من خارجه الى جهة الخروبى وذهب الى بولاق وأقام بمنزل السيد عمر النقيب وتسلم أصحاب محمد على باشا قلعة الجبل وأقام أحمد باشا ببولاق أياما ثم رحل عنها الى الاسكندرية باتباعه ومتاعه وعياله فكانت مدة تصرفه سنة ونحوا من ثلاثة أشهر

الى هنا تم الجزء الثالث من تاريخنا الكافى ويليه ان شاء الله تعالى

الجزء الرابع وأوله ترجمة حال محمد على باشا ثم أخبار ولايته

وأخبار من تولاها بعده من ذريته الى وفاة

ساكن الجنان المرحوم

محمد توفيق باشا

الاول

م

(اســـــتلفات)

قد وقع خطأ فى نقل ترجمة حال ومدة ولاية بعض بطاركة المتأصلين فى هـذا الجزء من أيام يوحنا سادس تسعيهم الى أيام مرقس السادس بعـد المائة لتكرار أسمائهم وتشابهها وخطأ ترتيب الاوراق التى نقلنا عنها فـرأينا أن ننبـه الى ذلك ونعيـد هنـا ترتيب أسماء وأيام هـذا العدد منهم على الوجه الاصح اعتبارا من سلطنة السلطان سليمان الثانى تاركين ماجاء منها على ترتيبه الاول أى من سلطنة السلطان سليمان المشار اليه الى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بدون مساس فانه لم يؤثر بشئ على ترتيب أيام وحوادث وأخبار الملوك والولاة والحكام الذين تجمعهـم صحائف هـذا الجزء ولا على ترتيب حوادث وأيام ما سبقه من الاجزاء ولله المنة والحمد ۞ وعلى كل حال فهو خطأ أرجو أولى الفضل والادب أن يسبلوا عليه ذيل المغفرة ويتنازلوا بقبول ما أبديه من المعذرة فقد كانت عودتى الى خدمة وطنى العزيز وتوالى أسفارى وعدم استقرارى خصوصا فى الوقت الذى تناولت فيه أيدى الطباعـين ملازم هـذا الجزء حائلا دون استعادة تلاوة بعض ملازمـه التى قد اعتورها هـذا السهو فكانت عثرة فى أسـلوب ترتيب أسماء هؤلاء الناس الذى وفقناه على قاعدة ماهو بيانه الى أيام يوحنا هذا سادس تسعيهم والعصمة لله وحده

سلطنة السلطان سليمان خان الثانى	ومات فى أيام السلطان سليمان خان الثانى غبريال بطرك المتأصلين بعد أن تمم ثلاثا وأربعين سنة وقد عمر فى أيامه دير انبا انطانيوس ودير انبابولا بالجبل الشرقى من النيل باقليم بخسويف والبهنسا واشتد عليه الولاة والعمال فانكمش حينا وكان راهبا من دير السريان واسمه روفائيل فأقيم بعده يوحنا وهو سادس تسعيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله
سلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع	ومات فى أيام السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أتم خمس عشرة سنة وكانت أيامـه كلها شدائد ألزمـه العمال وأصحاب جباية الاموال بجمع الجزية من الاقباط لجمعها كارها جزينا واشتدوا عليه بسببها فكانت محنـة كبرى قاسى النـاس فى أثنائها من الجور والعسف اشكالا وبموته قام بعده غبريال وهو سابع تسعيهم واسمه شنوده من بلدة ببين وكان راهبا بدير انبا بشوى ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد

ومات فى سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام احدى عشرة سنة وكانت أيامه كلها هدوًا وسكينة ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده مرقس ثامن تسعيهم وأصله من بلدة البياضية وكان عالما ورعا تقيا محبا للخير صبورا على المكاره اشتد العمال فى أيامه على القبط شدة عظيمة فكان يكثر من التطواف بين الناس ويحضهم على الصبر والسكون حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ومات بعد أن قام احدى عشرة سنة فأقيم بعده يوحنا تاسع تسعيهم وأصله من بلدة ملوى بصعيد مصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

سلطنة السلطان محمود خان الاول

ومات فى سلطنة السلطان محمود خان الاول يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده متاوس المتم للمائة وأصله من بلدة طوخ فلبث خمس سنوات أو ستا لم يقع فيها شئ يذكر ومات فأقيم بعده مرقس الحادى بعد المائة وأصله من بلدة بجهورة بالاقاليم الوسطى من صعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان

ومات فى سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات وكان حازما شديد البأس صبورا على المكاره قوى الحجة لم يقع فى أيامه شئ يذكر فأقيم بعده متاوس وهو الثانى بعد المائة وأصله من بلدة مير واسمه جرجس وكان راهبا بدير البراموس وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد

ومات فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيامه نقل دار البطركية من حارة زويلة الى حارة الروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا ورعا عالما فأقيم بعده يوحنا الثالث بعد المائة واسمه ابراهيم من رهبان دير أنطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد	ومات فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنين وأربعين سنة وكان عالما فاضلا تقيا ورعا أعاد فى أيامه عمارة دير انبا بولا ورمم مبانى بعض الديارات الأخرى وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كانت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس الرابع بعد المائة واسمه مرجان من رهبان دير انبا بولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان دير انبا بولا ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله
سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى	ومات فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بك بلاط على المسيحيين شدة بالغة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال فانبثت أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا ونهبوا مالا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والاحجار الكريمة بأبخس الاثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة واسمه سمعان من دير انبا بولا وأصله من بلدة فاوصنه وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

الى هنا قد تم تصويب ما قد وجد ساقطا سهوا من أسماء وأخبار أيام أولئك البطاركة فى هذا الجزء والله سبحانه الهادى الى الصواب

تصـــويب

الجزء الثالث

صحيفة	سطر	خطـــــا	صــواب
٣	٦	اكتسبوا	اكتسبوا
١٠	٢٣	..	على
١٥	٢٥	..	ميلادية
١٧	١	بحث	تحت
٢٠	٢٣	وسقط	وسقطوا
٣٩	١	الممالك	والممالك
٥٢	١٢	سطبة	حظية
٥٩	٩	من	..
٦١	٢٧	للثائرين	للثائرين
٦٥	٤	الفسا	النساء
٧٤	٦	حسنة	حسنة
٩٤	١٤	ولما	لما
٩٥	١٢	تثاقلوا	تثاقلوا
٩٨	١٣	غايته	عنايته
٩٨	١٤	حق	حتى
٩٨	١٩	بتم	تتم
٩٨	٣٠	ولما	وهم
١٠٠	٦	غنموا	عقموا
١٠٢	٦	كان	وكان
١٠٦	٧	..	باشا
١٠٨	١٥	المجاد	المجاد
١١٠	٣٠	وكانت	وكان
١١٤	٥	بريجي	جوريجي
١١٤	٢٢	طزيق	طريق
١٢٠	٦	اعلا	اعلمه
١٢٠	١٨	وصرح له	وسرحه

تابع تصويب
الجزء الثالث

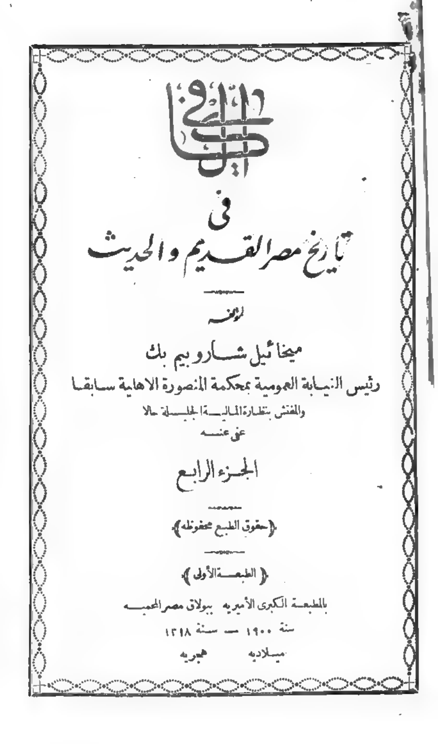
صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٢٢	٣	يفحصر	يفحص
١٢٧	٩	تجهروا	تجهزوا
١٢٧	٢٢	باكر	باكير
١٣١	٥	عليه	..
١٣٢	٩	تنويها	تنويها
١٣٧	٢٧	ثلاثاء	ثلاث
١٣٩	١٢	بتصرف	يتصرف
١٤١	١	جاه	جاء
١٤٥	٢٢	الداوريه	الداودية
١٥٤	٢٢	يختل	خذل
١٥٥	١٥	وقصد	وصعد
١٥٥	٣١	معهم	منهم
١٧٤	٣١	والشيخ	شيخ
١٨٥	٣٠	وتخبيل	وتخيل
١٩١	١٨	بندينة	بمدينة
١٩١	٣١	غدة	عدة
١٩٩	١٣	ققصل	فنصل
٢١٢	١	النفال	السنفال
٢١٩	٢٨	غيرهم	غيرهما
٢٢٨	٦	الثور	الثورة
٢٣٣	٥	غزو	لغزو
٢٣٦	٦	فلم	ولم
٢٣٨	١٠	به	بهم
٢٥٣	١٣	يبدى	يبذى
٢٥٣	١٤	عليه	على
٢٥٣	٢٢	انحاذ	انحاز

تابع تصـــويب

الجـــزء الثـالث

صحيفة	سطر	خطـــأ	صـــواب
٢٥٦	١	غيرهم	غيرهما
٢٦٤	١٠	النظر	المنظر
٢٦٩	١٤	الديون	الديوان
٢٧٣	٢٤	فى	فى
٢٧٦	١٠	المصريين	المصريين
٢٨٠	٢٠	يبيعون	يبيعون
٢٩٠	٢٨	وقتك	والفتك
٢٩٨	٥	بخيمة الباشا دخل	دخل بخيمة الباشا
٣١٥	١٢	اليوم	..

﴿ تم التصويب والخطأ ﴾



الكافي

في

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الرابع

(الطبعة الأولى)

بالمطبعة الكبرى الأميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٩٠٠ — سنة ١٣١٨

ميلاديه هجريه



الكافي

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الرابع

﴿ حقوق الطبع محفوظه ﴾

﴿ الطبعة الاولى ﴾

بالمطبعة الكبرى الأميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٩٠٠ ــ سنة ١٣١٨

ميلاديه هجريه

(بالقسم الادبى)



وصل

(فى ترجمة محمد على باشا)

هو محمد على بن ابراهيم ولد فى بلدة قاوله التابعة للروم ايلى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكان أبوه من صغار مقدمى العسكر وقيل انه كان شيخ خفراء البلد وهو الصحيح ولما بلغ محمد على الرابعة من عمره مات أبوه فتولى حضانته عمه طوسون فأقام عنده ماشاء الله ثم جاء مرسوم السلطان الى والى قاوله بقتل طوسون المذكور فقتل وكان محمد على الى هذا الحين لم يبلغ أشده فأخذه أحد أعيان البلد واسمه براواسطه فأقام عنده حقيرا مهانا وكان كلما شب شبت معه الاحزان وظل على هذا الحال حينا حتى ضاقت نفسه وتاقت الى الاسفار فى طلب الرزق فسار فى أرض الله الواسعة الفضاء وأجهد النفس فى تحمل الجوع والعناء فقاسى من الشدائد مالا يحتمل • ومما حكاه عن نفسه أنه قال كنت أتمنى أن الله سبحانه وتعالى يدفع عنى هذه الشدائد و يرحنى مما ألاقيه من الضنك والذل فكنت أجهد النفس فى طلب العيش على قدر الحاجة وكان يمر بى اليوم واليومان أطوى الأرض سائرا على أقدامى لاأذوق مناما ولا أسيغ طعاما وكانت الارض وطائى والسماء غطائى واتفق أنى سافرت على ظهر مركب أريد أرض الله الواسعة فى طلب العيش فخرجت ريح شديدة فارتفعت الامواج وعلت وأزبد البحر وهاج وألقى مركبنا على الصخور فتحطمت وغرق كل من فيها فتركنى رفاقى وطلعوا الى بعض الجزائر القريبة وبقيت أنا عرضة للأمواج تتلاعب تارة

وتهبط

وتهبط بى أخرى وتستقبلنى الصخور فتدق عظمى وتدمى جسدى حتى يسر الله لى الوصول الى تلك الجزيرة سالما وقد صارت اليوم من بعض أملاكى فسبحان المعطى بغير حساب اه قوله * وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العيش حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر فدخل فى خدمة العسكرية وظهرت عليه علامات الشهامة وشدة البأس فقيده الوالى بجباية الأموال وجمع الخراج ومال اليه وأحبه وولاه رتبة البلكباشية قال بعض الكتاب وقد زوجه احدى قريباته وقيل غير ذلك فولدت له خمسا من بنين وبنات وهم ابراهيم وطوسون واسماعيل وزهره وزينب فلما كبرت عائلته وقل ماله ترك خدمة العسكرية واتخذ حانوتا يبيع فيه التبغ ﴿الدخان﴾ فيسر الله له الحال وبسط له فى الرزق وكانت قد بلغت منه الشجاعة مبلغا عظيما فكان اذا تعذر على الوالى القبض على جان سيره اليه محمد على فيأتى به صاغرا فهابه الناس جدا وأجله رفاقه وشهدوا له بالبسالة وعلو الهمة ولبث على هذا الحال حينا فلما أغار بونابارته بجيوش الفرنسيس على ديار مصر وكبر ذلك على السلطان سليم جيش لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل الى والى مقدونية فى طلب النجدة فبعث والى مقدونية الى برا واسطه وكان قد تولى على ولاية قاوله بأن يجهز لقتال الفرنسيس مائة مقاتل فجهزهم وجعل مقدمهم ولده عليا ورسم لمحمد علىّ بان يكون فى ركابه وجاءهم حسن باشا أمير سفن الدولة بسفينة فركبوها فسارت بهم الى أبى قير وأنزلتهم هناك فقاتلهم الفرنسيس قتالا عنيفا وظفروا بهم فخاف علىّ المذكور ورجع بالذى بقى معه من عسكره وأقام محمد على فى نفر قليل ممن مال الى البقاء معه فأعجب حسن باشا فعله وقلده رتبة البكباشية على من كان معه من العساكر وضم اليه طائفة أخرى فسار بهم مع العمارة الانجليزية والجيوش العثمانية التى جاءت مع يوسف باشا الصدر الاعظم لقتال الفرنسيس فأبلى محمد على فى قتالهم بلاء حسنا ولما استقر بهم المقام بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيس عنها قاتل الامراء المصريين وكانت له معهم وقائع مذكورة

واتفق أن حضر بعيد ذلك خسرو باشا أحد كبار عسكر السلطان لقتال الامراء المصريين والمماليك وقطع شأفة من بقى منهم وانقاذ البلاد من أيديهم فوقعت بينه وبين محمد على مناظرات كثيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبرت حتى كاد خسرو باشا ينفشل ويسقط فى يده ثم عاد فتمكن من نكاية محمد على وسد عليه مسالك التقدم وقفل دونه أبواب الفلاح وجعل يراقب أموره ويرصد أعماله فخافه محمد على وخشى العاقبة وجعل يستميل اليه طوائف الارنؤط ويتزلف حتى مالوا اليه وأحبوه فاستوثق لنفسه فولوه وظيفة ﴿قابى ولك باشى﴾ وهى فى عرفهم رتبة حرس السراى فهابه خسرو باشا وعاد الى مسايرته وأدناه منه وقربه من مجلسه وبقيا على ذلك حينا ثم ولاه منصب سرچشمه ولعلها مقدم أربعة آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمه وعلت كلمته ومال اليه الناس وتعلقت به آمال العسكر لاسيما طوائف الارنؤط فخضعوا له وأطاعوا أمره وعملوا باشارته فخذل خسرو

باشا وتحذر منه وتخشى عاقبة ظهوره فلما عصى الامراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا
وانحدر الى القاهرة من كان منهم بالصعيد الاعلى سير لقتالهم عسكرا من العثمانيين ورسم الى
محمد على بالخروج فى جنده لنجدة العساكر السلطانية فخرج كارها فلما احتدمت نار القتال
بين الفريقين تأخر محمد على عن نجدة العثمانيين وخذلهم فانتصر عليهم الامراء المصريون
نصرة عظيمة وأعملوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله
محمد على فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرمانا بذلك واستدعاه
ليلة الى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده الى القلعة فى تلك الليلة فتمارض
وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالمتأخر من جماكيهم وعلوفاتهم فتحزبوا وشددوا فى الطلب
وركبوا على خسرو باشا وقاتلوه فانهزم وفر الى دمياط فى نفر من أتباعه فأقاموا فى
الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمى عسكر الأرنؤط فلم تكن الأيام قلائل حتى قام
عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقد امت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واستبدت الشطوب
وكثر السلب والنهب وهتك النساء فى الشوارع والطرقات واشتد الامر شدة بالغة
ووقع من الحوادث ما مر بك بيانه فى محله مفصلا فكان لمحمد على فى اضرام نار هذه
الفتن اليد الطولى وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرقاوى والسيد عمر نقيب الاشراف وخلا
لمحمد على الجو بموت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الارنؤط طوع أمره فلما آنس
منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب
الوظائف العالية فانحازوا اليه ولبوا دعوته وتقدموا الى دار السلطنة العثمانية فى طلب
توليته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جدة كما أشرنا الى ذلك بقصد ابعاده
عن ديار مصر وتفريق شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطرا على الدولة من جماعة
الامراء المصريين فلم يتعجل بالسفر وتقاعس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات
العسكر وكان المشايخ والعلماء فى خلال هذه الفترة يكثرون من الالحاح على دار السلطنة
بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون اليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور
والعسف وقد أضرموا نار الفتنة بمصر والقاهرة وأثاروا العامة أياما فخرجوا على أحمد باشا
خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاصروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند
والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها فى محلها * وطالت أيام الفتنة والرسل تتردد
ما بين دار السلطنة ومصر والحرب والقتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية
محمد على اعتبارا من العشرين من ربيع الاول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم
يستقر به المنصب الا فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الاولى سنة عشرين امتنع أحمد باشا بقلعة
الجبل وعدم اعترافه بصحة ولاية محمد على باشا حتى وفد عليه رسول الدولة بمرسوم السلطان
يأمره فيه بترك قلعة الجبل والجلاء عنها الى الاسكندرية فنزل وسار الى الاسكندرية على
ما تقدم بك بيانه

(فصل)

(فصــــــل)

(فيما وقع فى أيامه من الحوادث والانباء الى ولاية ولده الامير ابراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد على باشا جعل يتصرف فى الامور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأييد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جماكيهم فضرب على قبط مصر قرضا وقسمه على كبرائهم فكان ذلك أول قرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيما للغاية وبث الاعوان لقبضه فعاثوا وفعلوا مالا خير فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهرى معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وحبسهم ببيت كتخدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الالفى بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد فى طلب الحساب وفرض عليه مبلغا عظيما من المال فباع ما كان عنده من أثاث ومتاع ووفى بعض ما طولب به فلم يخل عنه وبقى معتقلا أياما والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف فحسد الامراء المصريون محمد على باشا على ماوصل اليه من علو الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه فخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد فى طلب الاموال وفى جمع الخراج وبث أصحاب الجباية فجابوا البلاد شرقا وغربا ونزلوا على القرى وجمعوا منها ماقدروا على جمعه ثم أخذ فى تدبير أمور العسكر وصرف الجماكى والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وسير الى زعماء الامراء المصريين الذين كانوا بالاقاليم القبلية والبحرية يدعوهم الى ترك القتال والعود الى طاعة السلطان فشطوا فى الطلب وبالغوا فلم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحدروا بخيلهم ورجلهم الى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمغارم وانضم اليهم من كان بها من قومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم الى ناحية المذبح وكسروا باب الحسينية ودخلوا من باب الفتوح وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقاقير وجمال وأحمال وساروا من بين القصرين حتى جاؤا الاشرفية فاندهش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحال وما زالوا حتى وصلوا الى عطفة الخراطين فافترقوا الى فرقتين ودخل جماعة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومروا بالجامع الأزهر الى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى فامتنع السيد عمر من لقائهم فدخلوا الى بيت الشيخ الشرقاوى وأتى اليهم السيد عمر فطلبوا منه النجدة وخروج العامة معهم لقتال محمد على باشا فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فركبوا وخرجوا من باب البرقية وكان قد وصل خبرهم الى محمد على باشا فأرسل فى أثرهم حسن بك الارنؤطى فى عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم • أما الفريق الثانى منه فانه جعل يتقدم حتى وصل الى باب زويلة وسار قليلا

الى جهة الدرب الأحمر فلاقاهم العسكر المرابطون هناك وأطلقوا عليهم البنادق فرجعوا القهقرى الى جهة باب زويلة وهموا بالدخول الى جامع المؤيد والتحصن به فمانعهم المغاربة الساكنون هناك وأطلق عليهم المرابطون نيرانهم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جأش المرابطين بجهة الدرب الاحمر عند سماعهم أصوات البنادق وتنبه غيرهم أيضا فاجتمعوا لمعاونة بعضهم فلما شاهد الامراء المصريون ما حل بأصحابهم من تساقط النيران عليهم من كل صوب وحدب ولوا الفرار فتبعهم العسكر يضربون فى أقفيتهم فلم يزالوا فى سيرهم الى النحاسين وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين و بوابة الخراطين و بوابة البندقانيين فانقلبوا الى ما بين القصرين فلاقاهم فريق من عسكر محمد على باشا وأطلقوا عليهم البنادق فوقعوا بين نارين فانفشلوا وسقطوا فى أيديهم وترجلوا عن خيلهم ودخل منهم جماعة الى جامع البرقوقية وذهب آخرون بخيلهم الى باب النصر فوجدوه مغلقا فنزلوا أيضا عن الخيل ودخلوا العطوف وتسوّروا الاسوار وتسلقوا الجدران الى خارج باب النصر وتفرق منهم جماعة اختفوا فى الحارات و بعض الوكائل والبيوت فأحاط العسكر بمن دخلوا جامع البرقوقية وأحرقوا باب الجامع وقبضوا على من كان به وجردوهم من ثيابهم وأخذوا ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقى مكبلين بالحديد وهم فى أسوء حال وساروا بهم الى بيت محمد على باشا بالازبكية وكان على أهبة الركوب فلما أقوابين يديه رؤس القتلى سكن جاشه وفرح كثيرا وكان ممن قبض عليه من الامراء أحمد بيك تابع البرديسى أمير دمياط وحسن شبكة وآخرون فلما مثل أحمد بيك بين يدى محمد على باشا قال له أولم تدريا أحمد عاقبة الخروج فقال أعطونى ماء فأمر محمد على باشا ففكوا قيوده وأتوه بماء ليشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجند وفى حزامه خنجر فخطف الخنجر من حزامه وهم بقتل محمد على باشا وقد جرح عدة من العسكر فتكاثروا عليه وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وساقوا الباقين الى المحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم ‌ه قلت ‌ه وكانت هذه أول وقعة وقعت بين الامراء المصريين وعسكر محمد على باشا بعد وصول فرمان السلطان بولايته على ديار مصر ‌ه وزاد من هذا الحين تعذر محمد على باشا وأصحابه من هجمات الامراء المصريين وسير عابدى بيك فى عسكر عظيم لقتالهم فنزل عابدى بيك على طرا والتقى مع من كان بها منهم فكان بها ابراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وأصحابهما فاقتتلوا قتالا شديدا فى البر والبحر وأبلى ابراهيم بيك وأصحابه فى هذه الحرب بلاء حسنا فانهزم عابدى بيك ومن معه وقتل من عسكره خلق كثير وعاد من بقى الى ناحية الفسطاط وقد غرقت بعض سفنهم فتقوت بذلك عزيمة ابراهيم بيك ونشر جوعه فى البلاد فعاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء والاولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمد على باشا اثنين من أصحابه الى ابراهيم بيك ليخاطباه فى أمر الصلح فلم يجب اليه وشط فى الطلب ‌ه وحضر جماعة من أصحاب الألفى الى جهة سقارة والجيزة وعاثوا فيها أيضا وطلبوا منها الكلف

والاموال

والأموال وبلغ الصائح القاهرة فنادى محمد علي باشا بخروج سائر الجند والعسكر فخرجوا مشاة وركبانا وركب معهم محمد علي باشا في أبهة وجلالة وعبروا النيل الى الجيزة ليلا ولم تطلع الشمس الا وكل أمير قد وقف على أصحابه وجاء الخبر بقرب العدو من محطتهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عسكر محمد علي باشا فانهزموا وولوا الادبار فتبعوهم وأعملوا السيف في أقفيتهم واشتدوا عليهم شدة بالغة * فبينما هم كذلك اذ خرج عليهم كامن من خلف فوقع بينهم الضرب وحمل أحمد مقدمي عسكر محمد علي باشا بمن معه على الاعداء فقتلوه محمد علي فأحاطوا به وأخذوه أسيرا هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحال حتى تقهقر عسكر محمد علي باشا ورجع من بقي منهم الى ناحية الفسطاط وترفع المصريون الى ناحية بياض وبني سويف فكانت وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنابك الخيل

ولم تكن الا أيام حتى رجع المصريون في أول المحرم افتتاح سنة احدى وعشرين في جمع كثير من العربان ولموم أهل الحرف ونزلوا بناحية جزيرة الهواء فأزعج حضورهم محمد علي باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالا شديدا فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا الى العدو وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الارنؤطي فأرسل الى محمد علي باشا يستنجده ويخبره بما وقع فهاله الخبر وأزعجه فجمع جيشا عظيما وسيره نجدة الى حسن باشا وعين المرابطين بانبابة وطرا وشدد عليهم في ملازمة المعاقل ونادى في جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الاسلحة وآلات الحرب وجاء الى القاهرة كثيرون من الجرحى ونادوا بعدم الخروج الى الاسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت الى حمل السلاح والسهر والتصرز وملازمة الازقة نهارا والاسطحة ليلا وسار عابدي بيك بعسكره خلف لموم الالفي الى الفيوم فلم يجد بها أحدا منهم فاحتلها بعسكره ثم ترك بها رباطا وعاد لنجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرقق وتوالت رسائل الالفي الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد علي باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد علي باشا أصحابه في الامر فقرروا اقطاع الالفي بلاد الجيزة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذي حضر بخطابه واحتاج الالفي وأصحابه وهم في انتظار الجواب الى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبة فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والاطفال وفعلوا ما لاخير فيه ثم تفرقوا في البلاد وعاثوا ووصلت طلائعهم الى المنوفية ففعلوا بها من القتل والنهب ما لا يوصف وانضم اليهم جماعة من عساكر محمد علي باشا فتقوت شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد علي باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيأ كثيرا من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه في العسكر بالخروج وضرب النفقة فرضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جدا ووردت الاخبار بقيام

الالفى وزحفه من جهة الجسر الاسود والطرانة الى ناحية الجيزة نخرج لقتاله طائفة من العساكر فوصل الالفى الى دمنهور فوجدها ممتنعة فحاصرها فقاتلته قتالاً شديدا فسار عنها قليلا وعسكر على بعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد على باشا فسيره اليه فقام من بنى سويف الى منية ابن خصيب فى جمع كثير وقاتل من كان بها من الامراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسنا وسارت طائفة أخرى الى دمنهور لاجلاء الالفى عنها وظن محمد على باشا الظفر باعدائه فى هذه الحلة واستبشر الناس بذلك أيضا وجعلوا يعلون الآمال بقرب زوال هذه المحن والخطوب المتتابعة * فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ومائتين وألف جاء الخبر من حاكم الاسكندرية بقدوم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيس ومع هذا الجيش وال جديد لمصر بدلا من محمد على باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر الى الدفتردار أولا فسيره الى السيد عمر النقيب فجاء السيد عمر وركبا معا الى محمد على باشا وأعلماه بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته الالسنة فبذل الوالى والمحتسب جهد الاستطاعة فى اخفاء الخبر كى لايصل الى الامراء المصريين فلم يقدرا وقد سار المبشرون الى الالفى وهو على سواد البحيرة وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنظم ففرح وسر سرورا لا يوصف وطير الكتب بذلك الى الآفاق فزاد فى مصر والقاهرة الهرج وكثر القال والقيل ولبث الناس على هذه الحال الى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فقدم الى القاهرة رسول من قبل أمير تلك السفن فسير محمد على باشا جماعة لتلقائه وأنزله فى بيت الروزنامجى فأقام يومى السبت والاحد واجتمع بمحمد على باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما من الحديث وجعل محمد على باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلات الحرب ومعدات القتال وجمع الحدادين والنجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع اليه مقدمى العسكر وأصحاب الوظائف العالية فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وتحققوا عصيان محمد على باشا وخروجه على السلطان وأرسل محمد على باشا الى السيد عمر النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة بعزله وولاية موسى باشا قال وسبب ذلك أن الامراء المصريين تقدموا الى الباب العالى فى طلب العفو عنهم وعودهم الى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الارنؤط وجلائهم عن البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وارسال غلالهما ودفع الخزينة وتأمين السابلة فأجيبوا الى سؤالهم على هذه الشروط وان المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم بذلك فلما سمع من حضر هذا الكلام سكتوا جميعا ولم ينطقوا ببنت شفة ثم انصرفوا واشتدت عزيمة محمد على باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ فى الاستعداد والاستكثار من آلات الحرب والتطواف فى الشوارع والصعود والنزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثانية ومعهم ديوان أفندى وتكلموا فى ذلك

الامر

الامر طويلا فاتفقوا على أن يرفعوا الى الباب العالى قصة ينكرون عليه فيها ما يراد فعله
من خلع محمد على باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾
الرؤف الحليم الحمد لله ذى الجلالة على جميع الشؤن والاحوال نرفع اليك أكفا من بحر جودك
مغترفه وتتوجه الى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفه أن يديم بهجة
الزمان ورونق عنوان اليمن والامان بدوام وزير تخضع لمهابته الرقاب وتدنو لهيبته
سطوة المهمات الصعاب منتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالب من كل
سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الأمور الصدر الاعظم أدام الله دعائم
العز ببقائه وفسح للانام فى أيامه محفوظا بعناية الرب الكريم محفوظا بآيات القرآن
العظيم آمين ٭ أما بعد رفع المقصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فاننا
نهى لمسامعكم العلية وشيم أخلاقكم المرضية بأنه قد قدم حضرة الدستور الاكرم
والمشير الأفخم مدبر مهمات الاسكلات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا
الى ثغر الاسكندرية فأرسل كتخدا البوابين سعيد أغا ومعه الامر الشريف الواجب
القبول والتشريف المعنون بالرسم الهمايونى العالى دامت مسراته على ممر الدهور
والأعوام والايام والليالى فأوضح مكنونه وأفصح مضمونه أنه قد تطاولت العداوة بين
الوزير محمد على باشا وبين الامراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال
ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سوابق العادات والحال أنه ينبغى تقديم ذلك على
سائر المطلوبات وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك الكامل
الرعية بالاقاليم المصرية الدمار والاضمحلال وأنهت الامراء المصرية هذه الكيفية
لحضرة السدة السنية وانهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال
وعوائد ومهمات واخراج أمير الحاج على حكم أسلوب المتقدمين مع الامتثال لكامل مايرد
من الاوامر الشريفة الى ولاة الأمور بالديار المصرية وأنهم يقومون فى كل سنة بدفع
الأموال الأميرية الى خزينة الدولة العلية ان حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية
والرضا بدخولهم مصر المحمية والتمسوا من حضرة الدولة قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم
فأصدرتم لهم الامر الهمايونى الشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار اليه
لتقرر العداوة معه ووجهتم له ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصر الى الوزير موسى باشا
وقبلتم توبتهم وأن العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة
مولانا الخاقان يكفلون بلوغ المأمولات المرضيه ان تعهدوا بهم وكفلوهم تحصل لهم المساعدة
الكلية حكم التماسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية فأمركم مطاع وواجب
القبول والاتباع غير أننا نلتمس من شيم الاخلاق المرضيه والمراحم العليه العفو عن
تعهدنا وكفالتنا لهم فان شرط الكفيل قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما
تقدم من الافعال الشهيرة والاحوال والمنظورات الكثيرة التى منها خيانة المرحوم السيد

على باشا والى مصر سابقا بعد واقعة ميرميران طاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد الروميه وسلب الأموال بغير أوجه شرعيه والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الامر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خصوصا ما وقع فى العام الماضى من اقدامهم على مصر المحمية وهجومهم عليها فى وقت الظهيرة فجلاهم عنها حضرة المشار اليه وقتل منهم جماعة كثيره فكانت وقعة شهيره فهذا شئ لا ينكر فحينئذ لا يمكننا التكفل والتعهد لاننا لانطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ونرجو عدم المؤاخذة فى الامور التى لا قدرة لنا عليها لاننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم.فأنتم خلفاء الله على خليقته وأمناؤه على بريته ونحن ممتثلون لولاة أموركم فى جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية على حكم الامر من رب البرية فى قوله سبحانه وتعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله فان حصل منهم خلاف ذلك نكل الأمر فيهم الى مالك الممالك لان أهل مصر قوم ضعاف وقال عليه الصلاة والسلام أهل مصر الجند الضعيف فما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته وقال أيضا وكل راع مسؤل عن رعيته يوم القيامة » ونفيد أيضا حضرة المسامع العلية من خصوص القرض والسلف التى حصل منها الثقلة للاهالى من حضرة محسوبكم الوزير محمد على باشا فانه اضطر اليها لاجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الاشقياء والمفسدين والطغاة المتمردين امتثالا لأوامر الدولة العلية فى دفعهم والخروج من حقهم واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد رغبة فى حلول أنظار الدولة العلية فالامر مفوض اليكم والملك أمانة تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدة السلطان مع رفعة ترتمع بها فى النفوس عظمته وسطوة تسرى بها فى القلوب مهابته وأن يبقى دولته على الانام وأن يحسن المبدأ والختام بجاه سيدنا محمد خير البريه وآله وصحبه ذوى المناقب الوفيه » انتهى بنصه

وكتبوا هذا المحضر نسختين احداهما برسم أميرسفن الحرب الراسية بمينا الاسكندرية والاخرى برسم السلطان ووقع المشايخ والعلماء عليهما وأرسلا مع مخصوص فلم يصل رسولهم الى مدينة الاسكندرية الا وقد وصل الى بولاق سلحدار الوزير فنزل بها فى ليلة الاثنين ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة ثم حضر الى بيت محمد على باشا وأصبح وقد بعث الى جميع المشايخ خطابا ومثله الى الشيخ السادات وثالثا الى السيد عمر النقيب من أميرسفن الحرب وكلها تتضمن الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك واقامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلا منه وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للاوامر والاجتهاد فى المعاونة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمياط ومعه حسن باشا حاكم جرجا وجميع من كان معهما من الجند بلا مهل فلما علموا بالامر قاموا جميعا

وركبوا فى عصر اليوم واجتمعوا بمحمد على باشا وتناجوا فى الامر طويلا ثم انصرفوا وفى الغد سير اليهم بصورة عريضة يكتبونها ردا على خطاب أمير تلك السفن فكتبوها وسيروا بها اليه وهى تتضمن الاسترحام وعدم القدرة على كفالة الامراء وطلب منع الضرر الذى لابد وأن يترتب على ارغام العسكر على الخروج بعد الاستيطان وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى وأخذ محمد على باشا فى الاهبة والاستعداد لقتال الالفى وأمر فخرج العساكر الى بولاق وعبروا النيل الى الجيزة ونادى فى الجند والوجاقلية بسرعة الخروج وعدم التخلف وأنزل كثيرا من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هو أيضا النيل الى انبابه واستقدم اليه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخدمة الجند * فلما وصل الى امير سفن الحرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكتب الى محمد على باشا يستحثه على ترك مصر والجلاء عنها الى دمياط قبل فلم يبال محمد على باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معدات الحرب حتى تحقق الناس عصيانه فلما كان ثانى عشر جمادى الاولى من السنة وردت الاخبار بوصول موسى باشا الوالى الجديد الى مدينة الاسكندرية وحضر الى القاهرة أحد أعوانه بكتاب الى الدفتردار بان يكون قائما مقامه مسؤلا عن الاموال وحقوق الخزينة السلطانية فلم يقبل الدفتردار ذلك وكان الالفى لم يزل بالجيزة يبعث الى أمير السفن الحربية بالاخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل اليه ثلاثين حصانا منها عشرة برخوتها ومن الغنم أربعة آلاف رأس وجملة أبقار وجواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والثياب والاقمشة برسم كبار أتباعه فغضب محمد على من فعله هذا وخاف عاقبته وعجل فى تسيير الجند لقتاله فنزلوا تجاه الرحمانية فلما أحس الالفى بحضورهم سار اليهم بقومه وقاتلهم قتالا عنيفا انجلى عن هزيمة عسكر محمد على باشا ولم يزالوا فى هزيمتهم الى البحر فألقوا بأنفسهم وهرب كتخدا محمد على باشا وطاهر باشا الى ناحية المنوفية وعبروا النيل واستولى الالفى على ما تركوه من سلاح وكراع وكان شيأ كثيرا وأرسل بمن أسر منهم الى أمير سفن الحرب وجاءت الاخبار بذلك الى محمد على باشا فخرج الى انبابه وطاف الوالى وأصحاب الدرك ينادون على العسكر بالخروج ووصل من بقى من عسكر طاهر باشا الى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فمنعوا من النزول وسارت بهم السفن الى امبابه وباتوا وأصبحوا وقد عادوا الى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا الى امبابه وكان قد أرسل اليه محمد على باشا بعد انهزام جيشه أن لايعود الى القاهرة وأن يرحل عنه الى رشيد فلم يصل الى رشيد حتى رسم اليه بالرجوع الى الرحمانية لاجلاء الالفى عنها فرجع الى الرحمانية ومعه بعض الجند فلما التقى الجمعان انهزم عسكر طاهر باشا ورجعوا القهقرى ومازالوا فى هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا الى امبابه ورجع الالفى الى حصار دمنهور والتضييق على من كانوا بها وجاءت الاخبار من أمير السفن الى الالفى بالتشديد فى قتال من بها حتى يستأمنوا وطال القتال واشتد فى جميع الجهات وترددت الرسل بين أمير السفن والالفى



والامراء المقيمين بالصعيد وطالت المخابرة بينهم وطلب أمير السفن حضور الامراء من الصعيد الى الاسكندرية ليتشاوروا فى الامر فلم يحضروا اذ منعهم البرديسى من ذلك لما بينه وبين الالفى من الشحناء وكان الالفى هو الذى استقدم أمير تلك السفن بسفنه الى مينا الاسكندرية وعمل على خلع محمد على باشا بوساطة الانجليز بدون مشورة الامراء المصريين فلما لم يحضروا الى الاسكندرية علم أمير السفن ما بينهم من البغضاء والشحناء وما هم عليه من تفريق الكلمة فتحقق أنهم لايفلحون وأنه لايصح له الاستيثاق منهم ولا الاخذ بمشورتهم فنبذهم وأرسل الى محمد على باشا مكتوبا يحييه واستوثق منه فتعهد له محمد على باشا بجميع الالتزامات والتعهدات التى عينها الالفى وكتب بذلك عرضا ووقع عليه من المشايخ والاختيارية والوجاقلية وأرسله مع ولده ابراهيم وأرسل معه هدية فاخرة للغاية وخيلا وأقمشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كتخدا أمير السفن المذكور الى ساحل بولاق فاطلقوا لقدومه عدة مدافع وأرسلوا له فى صبح ثانى يوم خيولا صحبة الامير طوسون ولد محمد على باشا فركب فى موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقرئ مرسوم أمير السفن ببقاء محمد على باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التى منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمين وايصال العلائف والغلال لاربابها على النسق القديم وان لايدخل فى دائرة تصرفه ثغور رشيد ودمياط والاسكندرية بل تبقى ايراداتها من الجمارك حقا للخزينة السلطانية فلما تمت قراءة ذلك المرسوم أطلقوا عدة مدافع وطاف المبشرون على بيوت الامراء والاعيان وأقلع الامير بسفنه الى دار السلطنة ومعه موسى باشا والامير ابراهيم ولد محمد على باشا فى يوم السبت خامس شعبان وتفوت عزيمة محمد على باشا فجعل يتأهب لقتال الالفى واجلائه عن دمنهور والرحمانية فلم يتم خروج العسكر لقتاله حتى جاء هو وقومه الى الجيزة وانتشرت قومه ببلادها فكانت كثيرة جدا فأسرع محمد على باشا فى اخراج الجند وعبر بهم النيل الى امبابه وسير فريقا منهم الى الاخصاص فالتقى بأصحاب الالفى واقتتلوا قتالا عنيفا فتقهقرت عساكر محمد على باشا وانحازوا الى الكفور والقرى وأصبحوا وقد نودى فى عسكر الالفى بالرحيل الى شبرامنت فساروا فى يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكانوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيس فأعجب محمد على باشا نظامهم ورأى الالفى قرما عنيدا فأمر ببقاء أصحابه على قدم الدفاع فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر جماعة من العربان وأخبروا محمد على باشا بموت الالفى فى يوم وصوله الى شبرامنت نزل به خلط دموى فتقايأ ثم مات من ساعته ناحية المحرقة على مقربة من دهشور وان مماليكه أجمعوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما أوصى الالفى عند موته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد على وكذلك تركهم كثير من العسكر فلم يصدق محمد على باشا هذا الخبر وشاع فتحدث الناس به وهم بين مصدق ومكذب وسير محمد على باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رسله حتى جاءه الخبر أيضا بموت عثمان

بيك

بيك البرديسى بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب ببنى عدى وكلاهما من كبار الامراء الفارين
بالاقاليم القبلية وزعماء العصابة ثم عادت رسل محمد على باشا وأكدوا له موت الالفى فسر
بذلك سرورا لا يوصف وقال لمن كان معه من بطانته يوم وصول هذا الخبر اليه
اليوم طاب لى ملك مصر فلا خوف علىّ * وأرسل الى كبار جيش الالفى يخابرهم
فى الصلح ويمنيهم بالاماني العظيمة فلم يقبلوا الا بما كان يطلبه أستاذهم من المزايا
والاقطاعات وان يدخل ضمن هذا العهد أيضا جميع الامراء المقيمين بالصعيد وهم ابراهيم
بيك وعثمان بيك حسن فخرج محمد على باشا بجنده وعبر النيل الى الجيزة وخيم على
مقربة من ساقية مكى وسير من يخابر الامراء المصريين فى الصلح وكف القتال واستدعى
ولد الشيخ الامير وولد الشيخ العروسى والسيد محمد الدواخلى وسيرهم سفراء لتقرير
قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الالفى وعسكره ببلاد الجيزة يعيثون ويفسدون
ويطالبون أهلها بالكلف والمغارم وهم يستغيثون وليس من مجيب * وكان الالفى داهية طاغية
حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسورا صبورا على الخطوب مقداما فى
الحروب وكان قد جلبه بعض النخاسين الى مصر فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون
فأقام عنده أياما فلم تعجبه أوصافه اذ كان مماجنا سفيها فطلب منه أن يبيعه فباعه الى
آخر اسمه سليم أغا الغزاوى المعروف بتيمورلنك فأقام عنده حينا ثم أهداه الى مراد بيك
فأعطاه بدله ألف اردب من الغلال فسمى من ذلك الحين بالألفى وكان جميلا حسن الصورة
فأحبه مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعتقه وجعله كاشفا للشرقية فظهر أمره وعرفه الناس
وكان صعب المراس قوى الشكيمة وكان له جار اسمه على أغا المتوكلى فدخل عنده يوما
وترجاه فى أمر فوعده بقضائه ثم أحجم عنه فدخل عليه يوما فى بيته وعاتبه فغضب الألفى
وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبابيت ضربا مبرحا وحملوه الى بيته فمات فى ثانى
يوم فشكى أهله الالفى الى استاذه مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه الى البحيرة فعاث فى
فوة ومطوبس وبارنبال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكلف والمغارم
فشكوه الى مراد بيك فأرسل اليه يتهدده ان عاد الى مثل ذلك * واتفق فى هذه الاثناء ان
وقع التشاحن بين الامراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الاغا وأخاه ابراهيم بيك ومصطفى
بيك فأرسل اليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك الى الاسكندرية ثم يعود الى القاهرة
ففعل ورجع الى القاهرة فقلدوه صنجقا وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية
واشتهر من هذا الحين بالغلظة والخشونة فخافه الناس وتحاشوا بأسه وبنى له دارا رحبة
بقيصون واشترى المماليك والجوارى وأمر من مماليكه الامراء والكشاف فنشؤا على أخلاق
أستاذهم وتطبعوا بطباعه من التعدى والعسف والفجور والتزم باقطاع فرشوط وغيرها من
بلاد الصعيد ومن الاقليم البحرى محلة دمنه ومليج وزوبر وغيرها ولما تولى امارة الشرقية
خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم فى أموالهم وماشيتهم وفرض على مشايخ

القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته الى أن قدم حسن باشا الجزايرلى الى مصر فخرج الالفى المذكور مع حاشيته وأصحابه الى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا فى أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الاربع سنوات ولما عاد الى الشرقية شوهد منه بعض السكون والتأنى ومالت نفسه الى مطالعة العلوم والنظر فى الفلكيات والهندسة وتعلق بالزايرجات وأشكال الرمل وأحكام النجوم وقرب اليه أهل العلم بها واقتنى كتبا عظيمة فى أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد الى القاهرة ونزل بداره القديمة وترك الامارة وعكف على العلوم واكتفى بما عنده من الاراضى والاقطاعات ولبث على هذه الحال حينا فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتقرونه فالتزم الاوسط وانتقل الى دار أخرى ثم عاد الى الاكثار من شراء المماليك حتى بلغت مماليكه زهاء الالف عدا من كان منهم فى الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالازبكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع البسط الفاخرة والتحف العظيمة التى أهداه بها جماعة الفرنجة وجعل خلفها بستانا عظيما للغاية وسكن بهذه الدار فى أواخر شعبان سنة اثنتى عشرة وهنأه الشعراء ونظم الشيخ حسن العطار تاريخا لقاعة جلوسه فى بيتين على أسكفة باب القاعة وهما

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة * محاسنها للعين تزداد بالالف
على بابها قال السرور مؤرخا * سماء سعاداتى تجدد بالالفى

١٠١ ٥٤٦ ٤٢١ ١٤٤

سنة ١٢١٣

فلما كان شهر رمضان أنار الدار المذكورة بالانوار الكثيرة وازدحمت خيول الامراء على بابه وأتى اليه المهنؤن من كل صوب ومازال على هذه الحال الى منتصف رمضان ثم بدا له السفر الى الشرقية فأبطلوا الوقدة وأطفؤا تلك السرج والشموع فكان ذلك فألا وكانت مدة لبثه بهذه الدار ستة عشر يوما فانه ما تغيب بالشرقية الا قليلا حتى احتل بونابارته بجيوشه ديار مصر وساق الامراء المصريين سوق الماشية الى الاقاليم القبلية كما مر بك بيانه فى محله * وكان للالفى مع الفرنسيس تاريخ يذكر ووقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كتائبهم الى أن جاءت الجيوش العثمانية الى حدود مصر من ناحية الشام فسار الى الصدر الاعظم قائد هذه الجيوش وقدم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أياما ثم رجع وترفع الى الصعيد ثم انحدر منها الى الشام والفرنسيس يرصدونه

ولما دخل الصدر الاعظم مصر بمن معه من الجنود وانتقض الصلح بينه وبين الفرنسيس على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الالفى فى قومه وقاتل الفرنسيس قتال الابطال وخالف مراد بيك فى الصلح مع الفرنسيس واستمر على قتاله معهم وما زال الى أن تم الصلح ثانيا وخرج مع الصدر الاعظم وجيوشه الى الديار الشامية ثم رجع

الى

الى شرقية بلبيس ثم جاء الى القاهرة وأقام بها مع بقية الامراء بعد دخول الانجليز وخروج الفرنسيس وكان فى مدة اقامته معهم شديد التحرز كثير التطير وجعل يتقرب من كاتب يد الوزير حتى مال اليه وأحبه فكلمه فى الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير امارة الصعيد بشرط قيامه بالغلال والاموال فى كل عام من غير تأخير ولما كان الالفى كثير الحشم والاتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب فى تبعيده عن القاهرة وفى تمزيق شمل عصابة الامراء أجابه الى طلبه ورسم له بالامارة فسار من فوره بجميع أتباعه ومماليكه وعسكره وجدّ فى السير فلما شاع الخبر جاء الى الوزير من قبح له هذا العمل وأشار عليه بنقضه فندم الوزير وسير من يستحضره فلم يلحقوا به وقد وصل الى مدينة أسيوط وأرسل الى الوزير الاموال والغلال وهدايا أخرى من أغنام وعبيد وخصيان وغير ذلك ولم يمض على قيامه الى الصعيد الا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الانجليز الى الاسكندرية وكذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للمصريين الفخاخ وأرسل القبطان يطلب جماعة منهم فلما قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وحبسهم وجرى ما هو مسطور فى محله وأرسلوا طاهر باشا لقتال الالفى فى عسكر جرار وحصلت المضايقة وقتل من قتل ولجأ الكثيرون الى معسكر الانجليز بامبابه وهرب جميع الامراء الى الصعيد فقاتل عنهم الالفى قتال الابطال فى عدة وقائع تذكر ثم سافر مع الانجليز الى لوندره عاصمة مملكتهم وغاب بها سنة وشهرا وبعض أيام وجرى فى غيابه من الحوادث ما قد ذكر فى محله بالتفصيل

ولما تولى محمد على باشا على مصر كان يخشى الالفى ويهابه كثيرا فوقع بينهما من الحروب ما مر بك بيانه فى محله وبالغ الالفى فى الشكوى من محمد على باشا الى دار السلطنة العثمانية والى دولة الانجليز حتى كان ما كان من حضور أمير سفن الدولة وعزل محمد على باشا وتولية موسى باشا مما قد ذكر فى محله فلما سافر أمير تلك السفن وتأيدت ولاية محمد على باشا اشتد بغض الالفى له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب الى دولة الانجليز يستنجدها على قتال محمد على باشا فلم تجب طلبه ثم عادت فكتبت اليه توعده بنجدة مؤلفة من ستة آلاف مقاتل فتربص ناحية دمنهور وبقى ينتظر ثلاثة أشهر فلم يأته أحد ولما طال به المقام وعيل صبر قومه وقد ضجروا من الجدب سار بهم الى الجيزة يريد الصعيد فخرج عليه محمد على باشا بعسكره فارتحل الى شبرامنت * قال بعض الكتاب * فلما صار على مقربة من قناطرها نزل على ربوة هنالك وجلس عليها وقد زاد به الهاجس والقهر ونظر الى جهة مصر وقال مخاطبا لها * ويلك أيتها القاهرة انظرى الى أولادك وهم حولك يمزقون كل ممزق انظرى فقد استوطنك أجلاف الترك واليهود وأراذل الارنؤط وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك * انظرى * انظرى * انظرى * قال الراوى لهذه العبارة ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وتقيأ فى الحال دما

ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الامر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمه على طوائف المماليك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم ، قال ثم جمع اليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصاهم بالالفة والتصافي وأن يحذروا من مخادعة عدوهم فهو قرم عنيد وأوصاهم أنه اذا مات يحملوه الى البهنسا ويدفنونه بجوار قبور الشهداء فمات فى تلك الليلة وهى ليلة الاربعاء تاسع عشر ذى القعدة فحملوه على بعير وساروا به الى البهنسا ودفنوه هنالك وكان جليلا مهيبا محتشما بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتباعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لايخالفون له كلمة وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم فكانما هو مربى بين ظهرانيهم يقومون ويقعدون لأمره وهو مع ذلك يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ويقتل منهم وقد تزوج من بناتهم كثيرا ولم يبق منهن فى عصمته غير واحدة كانت غاية فى الجمال فمات عنها ولما شاع خبر موته بين العربان اجتمعت بناتهم وصرن يندبنه بكلام عجيب فكانت تتناقله أرباب المغانى فتغنى به على آلات الطرب

وبعد موت الالفى بنحو الاربعين يوما وصلت نجدة الانجليز الى ثغر الاسكندرية ونزلوا الى البر فبلغهم خبر موته فأرسلوا رسلهم الى جماعة الامراء المصريين يطلبونهم الى الحضور ليتكلموا معهم فيما فيه المصلحة وفى ردهم الى مناصبهم وارجاع اقطاعاتهم الى ما كانت عليه وكان محمد على باشا بقتالهم بالصعيد فلما علم بذلك خابرهم فى الصلح وأمر بتحصين الثغور وترميم القلاع وقيد بذلك جماعة من كبار العسكر وخشى عاقبة حضور الانجليز الى الاسكندرية وقد كان حضورهم فى عمارة عظيمة ونزل الانجليز بالاسكندرية وأرسل مقدمهم الى حاكمها يطلب تمكين العساكر البحرية من دخول الابراج للدفاع عن الثغر بحجة أن جيوش الفرنسيس عائدة لاخذ المدينة عنوة فلم يقبل الحاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الابراج وترددت الرسل بين أميرال السفن الانجليزية وحاكم المدينة ومقدم العسكر المرابطين بالحصون والقلاع وشدد الاميرال فى الطلب وضرب للحاكم أجلا أربعا وعشرين ساعة فان أصر على الاباء والعناد ضربت الحصون والقلاع بالقنابل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتخدا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الانجليزية فجمع اليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاوروا فى الامر فاتفقوا على ابلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنهاضه الى سرعة الحضور الى القاهرة عن معه من الحمار بين فسيروا له الاخبار بجميع ما جرى وشددوا عليه فى الحضور فلما انقضى الاجل المضروب بين الانجليز وحاكم الاسكندرية وهو فى الممانعة أطلقوا على الحصون المدافع ورموا الابراج بالقنابل الهائلة فهدموا ركنا من البرج الكبير وكذا هدموا الابراج الصغار وجانبا عظيما من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمنوهم ودخلت العساكر الابراج وانتشرت فى المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الاسطول الى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن

أمين

أمين أغا حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والاجناد وكتب له عهدا بأن لا تسكن عسكر الانجليز فى البيوت قهرا عن أصحابها بل بالأجرة والتراضى ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الانجليز حالا ومن أراد السفر بحرا فليسافر فى خفارتهم الى أى جهة شاءها الا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لايتكلفون للاسطول بشئ من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ماهى عليه من الفصل فى دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينظر الانجليز فى دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعايا الدول الاجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شئ من الرسوم الجمركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف فى المائة

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الانجليز الابراج والحصون وكاد يسقط فى أمره وكتب الى كتخداه بأن يعجل بجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد فى ذلك * وسارت طائفة من الجنود الانجليزية من الاسكندرية الى رشيد لاحتلالها وكان من بها من المرابطين والاهالى على يقظة تامة بالازقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الانجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحدب فارتبك الانجليز وألقوا مابأيديهم من الاسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا اليهم وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفر جماعة منهم الى ناحية دمنهور وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقى أسيرا وأرسلوا السعاة الى القاهرة بالبشائر ثم أرسلوا الاسرى مع رؤس القتلى من الانجليز * ونادى شيخ الجامع فى طلبة العلم والمجاورين بالازهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد فى الانجليز وشدد السيد عمر النقيب فى ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغطهم واجتمع المشايخ والامراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعا عن البلاد فاتفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيس عند باب الحديد واعتنوا باصلاحه قدر الاستطاعة وأكثروا من جمع الاسلحة والكراع وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الاهالى للدفاع فلما علم أميرال الاسطول بما حل بعسكره فى رشيد سير بعض السفن من مياه الاسكندرية الى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستنجدون كتخدا الباشا ويقولون عجل فقد أصبح العدو بنفسه على الابواب وطيروا الخبر بذلك الى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رسله الى الامراء المصريين يستحثهم على الصلح ويستميلهم الى الاستعداد لطرد العدو الزاحف اليهم وما زالوا بهم أياما وهم بين اقبال وادبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا الى الصلح فاستوثق منهم وتركهم وانحدر بجيوشه الى القاهرة ودخلها ليلا فلما أصبح جمع اليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخابرهم فى أمر جلاء الانجليز وقد جاء الخبر بوصولهم الى رشيد واستيلائهم على كوم الافراح وأبى

منصور واستمرار اطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستصدون المشايخ فطلب محمد على باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الاهالى فرضة لنفقة الجند قدرها ألف كيس وأخذ فى تجييش الجيوش ونادى فى العسكر بعدم التخلف والخروج لدفع العدو وخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بيك وعمر بيك وسار فى طائفة عظيمة من الجند وأرسل الى الامراء بالاقاليم القبلية يستنهضهم ويستقدمهم لقتال الانجليز ويذكر لهم العهد الذى تعهد لهم به ويقول قد صارت الانجليز على الابواب فعجلوا بالحضور لدفعهم والا فعلى الاسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسنا على ثقة من عداوة الانجليز لسلطاننا حتى نقاتلهم وكانوا قد حضروا لنجدتنا بناء على طلب الالفى ثم انحدروا الى منية ابن خصيب وتربصوا بها وعاد محمد على باشا بعد تعبيته أياما بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج الى الجهاد ويستنفرهم فلم تكن الأيام قلائل حتى جاءت الاخبار بهزيمة الانجليز وجلائهم عن أبى منصور ومتاريس رشيد والحماد وقد أسر منهم عدة عظيمة وانحاز من بقى منهم الى الاسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سد أبى قير فانهمل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول الاسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر الاسرى من الانجليز الى القاهرة فأصعدوهم الى قلعة الجبل فكانوا زهاء الاربعمائة بينهم بعض كبار القواد ففرح الناس بهزيمتهم وتقوت عزائم الجند المصرى وحضر أيضا يس بيك أحد أمراء المصريين بعساكره وأقام بالجيزة على عهد الصلح الذى تقرر بينه وبين محمد على باشا ففرح محمد على باشا بقدومه وخلع عليه خلع الرضا وأعطاه ماطلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الانجليز فعسكر بقومه بظاهر بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد على باشا فأتوا اليه من كل صوب وحدب وكبر جيشه واتسعت كلمته فمالت نفسه الى طلب الرياسة والخروج على محمد على باشا فبث الجباة فى بلاد القليوبية تجمع له الاموال والمغارم والكلف فأحس محمد على باشا بما وراء ذلك وأرسل اليه يطلب سرعة قيامه لقتال الانجليز والمحافظة على العهد فتقاعس وشغل أمره محمد على باشا فأخذ فى التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين اليه وحل عرى رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى فى عسكر الارناؤط بالخروج جميعا فخرجوا الى ناحية السبتية والخندق وحالوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد على باشا فى طائفة من خواصه وخرج الى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل الى يس بيك يقول اما أن تستمر على الطاعة وتصرف عنك هذه اللوم وتخرج لقتال الانجليز وأما أنك ترحل الى بلادك بلا مهل والا فانا واصل اليك ومحاربك فخاف يس بيك وانحلت عزائم قومه وتفرق عنه أكثرهم * فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه الى أين يريد فركبوا جميعا وساروا قليلا تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم الى ناحية لايعلم له مقر ولم يزل يس فى سراه بمن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير

خلفه

خلفه محمد على باشا طائفة من الجند لقتاله أما هو فانه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين وخطفوا النساء ونهبوا الاجران وأخذوا ما كان فيها وفعلوا وغير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدوم العسكر ارتحل الى صول والبرنبل ونزل ابراهيم بيك الكبير وعساكره أيضا على بنى سويف وأرسل يعلم محمد على باشا بقدومه فلم يلتفت محمد على باشا الى ذلك ولم يهمه ورسم بترميم القلاع والحصون التى كانت للفرنسيس أيام حلولهم بمصر وبالغ فى التشديد بذلك وقيد بعض مقدمى العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلاتلية وبعض المرتزقة من الترك فجهزهم محمد على باشا بالسلاح ومعدات القتال ونادى فمن كان بمصر والقاهرة من العساكر والاجناد بالخروج الى انبابه وخرج هو فاجتمع حوله وطاقه طوائف العسكر فلما كان يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف أمر بالارتحال فساروا فى أبهة وكبكبة عظيمة الى ناحية البحيرة وتربص محمد على باشا بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الاسكندرية وبعث سفراء الى مقدم الانجليز يفاوضونه فى أمر الصلح فجعل السفراء يترددون بين الفريقين أياما ثم حضر الى معسكر محمد على باشا نفر من الانجليز واحتفلوا به الى نصف النهار فلما كان يوم الجمعة غرة رجب الفرد من السنة تقررت بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استحضر الى الاسكندرية من كان بمصر من أسراء الانجليز وردوا الى معسكرهم وحضر لزيارة محمد على باشا بمعسكره أمير سفن الانجليز فى نفر من قواده فأكرم محمد على باشا وفادته وأطلق لقدومهم عدة مدافع وقدم لهم خيولا وهدايا نفيسة وأقمشة هندية وشيلانا كشميرية ثم ركب معهم فى قلة من قومه وساروا الى بيت أمير الجيوش الانجليزية فأكرموا محمد على باشا وقدموا له الهدايا والطرف من أفخر الصنائع ثم أتموا التوقيع على عقد الصلح وسلموا المدينة وفكوا من كان عندهم من أسرى رشيد وانسحبوا من الابراج والحصون الى مراكب البحر ۞ ولبث محمد على باشا بالاسكندرية وقد باتت داخلة فى حكمه بعد أن كانت مع سائر الثغور فى حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم الى ذلك الحين وما زال بها حتى قدم الى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية فخرج العلماء والامراء لقائه وأطلقت لقدومه المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليال ورجع معه حسن باشا طاهر وسليمان أغا وكثير من العساكر والاجناد

وما استقر به المقام حتى جعل ينظر فى ترتيب أمور البلاد ويعمل على ازالة الوحشة التى بينه وبين من بقى من الامراء المصريين فسير اليهم من يستميلهم ويحبب لهم ترك القتال والانضمام الى حاشية محمد على فنهم من مال الى المصالحة ومنهم من تجافى وشطط فى الطلب وكانت لم تزل الدسائس والفتن قائمة بين الجند وأصحاب الكلمة فيهم ۞ فلما كان



يوم الاثنين ثالث عشرى شعبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الارنؤط والعساكر الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائفهم فوعدهم فقالوا لانصبر فلاطفهم فتجاقوا وأطلقوا بنادقهم مرارا وأصروا على طلب العلائف ثم انصرفوا وتفرقوا فى القاهرة ومصر فخاف الناس وتطيروا وأرسل السيد عمر الى أهل الغورية والعقادين والاسواق يأمرهم برفع بضائعهم من الحوانيت ففعلوا وأغلقوها فلما كان قبيل الغروب وصل الى بيت محمد على باشا فريق آخر من الدلاتلية وطالبوا أيضا بالعلائف وأطلقوا كذلك بنادقهم على من بباب محمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليهم النار فجرحوا منهم عددا فانكفوا ورجعوا وبات الناس متخوفين وأصبح يوم الثلاثاء والحال فى اضطراب وقد نقلت أمتعة محمد على باشا فى تلك الليلة الى قلعة الجبل وصعد هو كذلك الى القلعة وأرسل الى رجب أغا أحمد مقدمى الارنؤط من يلزمه بالخروج الى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العصيان وتترس هو وفريق من جنده فى بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكر محمد على باشا قتال ثلاثة أيام ثم تخلى عن سفر رجب أغا قهرا الى الديار الرومية ❊ قال بعض كتاب الاخبار ❊ ونزل محمد على باشا وطاف بالمدينة ومر بناحية سويقة المعزى سائرا الى بيت يلبغا وهنالك المكتب الذى فوق السبيل بين الطريقين تجاه من يأتى من تلك الناحية فصعد الى ذلك المكتب اثنان من الجند يرصد ان محمد على باشا فى مروره فلما أتى مقابلا لذلك المكتب أطلقا عليه بارودتين فأخطأتاه وأصابت احدى الرصاصتين فرس أحد الملازمين حوله فسقط فترجل محمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجاش ووقف على مصطبة حانوت هنالك وأمر بالقبض على الجنديين فقبضوا عليهما فأمر باخراجهما الى الديار الرومية فأخرجوهما فى الحال ❊ وعاد الى مخابرة الامراء المصريين فأول من أذعن منهم للصلح شاهين بيك الألفى فحضر ونزل بدهشور ومعه هدايا عظيمة من ابراهيم بيك الكبير ومحمد بيك المرادى المعروف بالمنفوخ برسم محمد على باشا وهى نحو الثلاثين حصانا من جياد الخيل ومائة قنطار من قهوة ومائة قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سوداء فلما وصل شاهين بيك الى دهشور وحضر من أعلم محمد على باشا بحضوره أرسل معهم هدية عظيمة ورافقهم ولده وكاتب سره ثم انتقل شاهين بيك الى شبرامنت واستلم الجيزة بعد ذلك والقصر وما حوله وما به من المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا اقليم البهنسا وعشر بلاد من بلاد الجيزة وكتب له بذلك تقاسيط ديوانية وضم له كشوفية البحيرة الى الاسكندرية وأطلق له التصرف فى جميع ذلك بلا معارض وأكثر من مكاتبة الامراء بالصعيد وسلم لهم أمر مقاتلة بس بيك الذى هرب الى الصعيد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فانحاز الى منية ابن خصيب وقد نهبت أحماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولومه وكاد يسقط فى يده

ولما كان الثالث والعشرون من شوال من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ورد فرمان السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب واعداد الجند والسلاح لقتال

الوهابيين

الوهابيين الخارجين بالحجاز ففرضوا لذلك فرضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد على باشا بعمارة أسوار وقلاع الاسكندرية وأبى قير والسويس ورشيد ودمياط وبالغ فى العمل وقيد به جماعة وأرسل الى من كانوا يقاتلون يس بيك أن يشددوا فى حصاره ويمنعوا الواصل الى مقره ففعلوا وبالغوا فى التشديد فخابرهم يس بيك فى الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستأمن وصرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر الى بولاق وصعد الى قلعة الجبل فعوّقه محمد على باشا وأراد الفتك به فقام من الامراء من ترامى على أقدام محمد على باشا فرسم باخراجه الى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله الى ثغر دمياط ومنها الى جزيرة قبرص

واشتغل السلطان عن مصر فى هذا الحين بقيام الفتنة فى القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك أنه لما أعياه أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضررا عليها من الاعداء عمد الى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيس واستقدم لذلك قائدا من كبار قواد الفرنسيس ففاز ونجح وتم له الامر أو كاد فلما أحست طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجردوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرموا نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنظمة وشددوا فى الطلب فأجابهم السلطان الى ذلك كله فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا فى الطلب فأجابهم اطفاء لنار الفتنة ولكى يتمكن من دفع العدو المحدق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبون الى السكون سير الصدر الاعظم الى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضا بارجاع بعض الولايات التى شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائمقامية الصدارة وكان مصطفى باشا هذا من أعداء النظام الجديد وكان قد مات فى هذه الاثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على ادخال النظام الجديد فى عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم يكره ذلك النظام ويعده بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على ابطاله وتحالفوا على ذلك فدسوا الدسائس وأيقظوا الفتنة النائمة وأضرموا نارها فالتهبت وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الاعداء فمات منهم خلق كثير واجتمع كثير من العساكر المرتزقة وقدموا عليهم مقدما منهم فسار بهم حتى أتوا الى المكان المعروف ﴿بايت ميدان﴾ وقد انضم اليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فأتوا بقدور طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهى عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على ادخال ذلك النظام فى عسكره الى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم فى الطريق قبل أن يصلوا بهم الى الميدان ولم يكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة قائمة مدة يومين



حتى أفتى المفتى بخلع السلطان سليم فى الحادى والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية وقال (لايصلح للملك من يدخل عادات الفرنجة فى بلاد المسلمين والله أعلم) ففرح العسكر بذلك ونادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه فى احدى السرايات محجورا عليه فكانت سلطنته زهاء العشرين سنة

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام فى الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم على ماتقدم بيانه جميعه فى محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهبا بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبدالحميد)

ثم قام بالامر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد بويع له بالملك يوم خلع عمه فى حادى عشرى ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للمفتى ومن معه من مبغضى النظام الجديد فتصرفوا فى جميع الامور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف لغير مستحقيها وسلموا مقاليد القلاع والحصون الى مقدم الجند الذين ثاروا على السلطان فسكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه * ووصل الخبر بما جرى الى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقهرهم وقاموا على الصدر الاعظم فقتلوه وولوا بدله جلبى مصطفى باشا فسرى الفساد الى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على أمورها وعبث بها الاغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائمقام الصدارة فخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره ليس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للمفتى ومقدم الجند أصحاب الفتنة فخلع نفسه ورحل عن القسطنطينية الى مدينة روستجق ونزل فى جوار حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغبا فى النظام الجديد وقد جيش منه جيشا عظيما وكان من أنصار السلطان سليم ميالا الى اعادته الى عرش الملك فلما استجاربه طاهر باشا قويت آماله بارجاع السلطان الى عرشه فسير الى الصدر الاعظم وأصحاب الحل والعقد من يكلمهم فى الأمر ويستميلهم الى الغدر بالمفتى ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا الى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الاعظم بقتل

مقدم

مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمى الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل فى هذه الاثناء الى ضواحى القسطنطينية فى جيشه المنظم وصار عسكره على مقربة من الابواب فلما علم السلطان مصطفى بحضوره خشى العاقبة ورسم بخلع المفتى وأمر فنادى فى الجند أصحاب الثورة بالانصراف الى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار الى شئ من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم بكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا الى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجوبا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى فى الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضروه ميتا الى حيث السلطان مصطفى فقال سلوه الى هذا وأشار الى البيرقدار وقال (هاهو سلطانك الذى تطلبه منا اليوم) فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مرا وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكثر ضجيجهم واشتدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه فى المكان الذى قتل به السلطان سليم وذلك فى الخامس من جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لاخيه السلطان محمود الثانى وهو فى عنفوان الشباب وغضاضة السن

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى سلطنة السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان مصطفى أخوه السلطان محمود الثانى بويع له بالملك يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية ووردت الاخبار بذلك الى مصر فقام محمد على باشا بمظاهر الاحتفال وزينت المدينة ثلاث ليال وخطبوا له على المنابر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واستوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقدار وسلمه ختم الصدارة وصرفه فى جميع الامور فأحكم السياسة وأحسن التدبير وجعل يعمل على اخضاع طوائف الانكشارية وايقافهم عند حدهم فجمع يوما جميع كبار الدولة وأصحاب المناصب العالية والعلماء والمشايخ وعقد مجلسا حافلا وكلمهم فيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعدم وقوفهم عند حد رسومهم وعاداتهم القديمة وبالغ فى الشكوى وعظم فى المساوى وسألهم اجتماع الكلمة على دفع هذا الفساد ومنع تطاول أيدى أولئك القوم الى العبث بمصالح الدولة التى استحوذ عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه الى ذلك ووافقوه على أخذ فتوى من مفتى دار السلطنة

لايستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وقال تعالى « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو يا ابن عباس أو ياعبد القادر زاعما أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله الا أن يتوب من ذلك ، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجئ الى غير الله فهو أيضا مشرك ، وماذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه « ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وهو الذى قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم باخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصح ذلك أى التشفيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى فى كتابه ، أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » وقوله تعالى « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون » اذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الامر فاعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا ، القاعدة الثانية ، أنهم يقولون ما نرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » وقال الله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لايهدى من هو كاذب كفار » واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة ، وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا » ورسول الله لم يفرق بين من عبد الاصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله واذا عرفت هذه القاعدة ، فاعرف القاعدة الرابعة ، وهى أنهم يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » وأهل زماننا يخلصون الدعاء فى الشدائد لغير الله

فاذا عرفت هذا • فاعرف القاعدة الخامسة • وهى أن المشركين فى زمان النبى أخف شركا من عقلاء مشركى زماننا لان أولئك يخلصون لله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم فى الشدائد والرخاء • والله أعلم بالصواب انتهى بنصه

ووردت الاخبار بخروج الصدر الاعظم يوسف باشا من دار السلطنة فى جيش عظيم لقتال الوهابيين وخروج آخر اسمه سليمان باشامن مدينة بغداد فى عسكر أيضا لقتالهم فجعل محمد على باشا يتأهب للخروج ورسم بتحصين قلاع القلزم وتعبيتها بالاسلحة وآلات الحرب وأكثر فيها من المؤنة والماء وقيد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشأ على ساحل بولاق معملا لمد السفن وصنعة النجارة سماه الترسخانة وعمل السفن والشوانى الكبيرة وجمع لذلك الصناع والنجارين والحدادين فكانوا يهيؤن الاخشاب ويصلحونها ويحملونها على ظهور الجمال الى السويس فيضمون بعضها الى بعض وينزلونها الى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفن كبيرة وعدة سفن صغيرة وشحنوها بالآلات والمهمات الحربية فصارت على أهبة السفر الى الاقطار الحجازية وأظهر محمد على باشا الاهتمام بهذه الحالة • فبينما هو على هذا الحال من جمع الجند وآلات الحرب اذ جاءه الخبر بانحدار الامراء المصريين الى الجيزة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومعهم كثير من العربان والهوارة ولموم أخر وأنهم يريدون حضور محمد على باشا لملاقاة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمد على الى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحدا من قبله فى ذلك اليوم فساء ذلك ابراهيم بيك الكبير وعدها اهانة له ولاصحابه ومن حضر معه على العهد من الامراء فلما كان ثانى يوم عبر شاهين بيك الالفى الى شبرى واجتمع بمحمد على باشا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثم نزل من عنده وعبر النيل الى الجيزة وأمر فنقلوا متاعه وجميع أثاثه ونساءه وسيرهن الى الفيوم ونسى محاسن القصر الذى كان يسكنه بالجيزة وانضم الى ابراهيم بيك الكبير وبقية الامراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع اليه مماليكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خيامهم ورتبوا الامر بينهم وقسموا مواقف الحرب والقتال واختص كل فريق منهم بجهة وجاء الخبر بذلك الى محمد على باشا فسير اليهم بلاطفهم ويطيب خواطرهم فلم يقبلوا وتجافوا وأغلظوا فى القول ورموه بالخديعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج اليهم أيضا من كان مختفيا من العساكر والاجناد المصريين وعبروا النيل الى الجيزة فكثرت لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد على باشا الامر وخشى العاقبة فأخذ فى التجهيز ونادى فى عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو فى مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاقة وتحصن الامراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد على باشا ولبثوا على هذا الحال الى ثانى يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون الى ناحية دهشور وزنين فأمسك عليهم محمد على باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشدد فى المنع وبث العيون والارصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا اليه خاضعين



فأحسن اليهم وردهم الى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنبل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وانقسم الامراء المصريون الى قسمين قسم عبر النيل الى شرق اطفيح وقسم قفل راجعا الى الجيزة لقتال المرابطين بها وابعادهم عنها فلم ينالوا منهم أربا وجعل محمد على باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الامراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تخلوا عن شاهين وانحازوا الى عسكر محمد على باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزالت لذلك هيبته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة اليه والانضمام الى عسكره وقام عليه أهل البلاد التى كانوا يمرون بها ومنعوهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطردوا المعينين لذلك من قبله وكادت تتلاشى سطوته وتتفرق كلمة من كانوا معه وأحس محمد على باشا بانصرام حزمتهم فشدد فى مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحدب وارتحل بعساكره من الجيزة ومعه ولده الامير طوسون الى جزيرة الذهب ثم ساروا منها الى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاربين انسحب من جموعهم العدد الكثير وانحازوا اليه وقدموا له الطاعة ❁ فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا فاستظهرت عساكر محمد على باشا على الامراء وأبلوا فيهم بلاء حسنا فترفع الامراء الى الصعيد وتبعتهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الالفى أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتتابعت انتصارات محمد على باشا وضعفت عزيمة الامراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا الى الصعيد وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بقدوم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحى القاهرة فانحدر محمد على باشا الى القاهرة على عجل وصعد الى قلعة الجبل وطلب اليه الرسول فقابله برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب فى سرعة قتال الوهابيين والتعجيل فى تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد على باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فاجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أياما حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادتهم الى ولده الامير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الامراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة فى قلعة الجبل ليركبوا فى غد بتجملاتهم وزينتهم ويسيروا أمام موكب الامير طوسون عند خروجه بعسكره الى مدينة السويس

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الامراء والكشاف وصعدوا الى قلعة الجبل فى مماليكهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزينتهم ودخل الامراء منهم على محمد على باشا وتحادثوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والايناس ثم أمر فسار الموكب على الوضع الذى رتبوه فكانت طائفة الدلاة فى المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر

مطلب
قتل أمراء العسكر
المعروفة بقتل الغز

المشاة

المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد على باشا قد أطلع حسن باشا وصالح جوق والكتخدا على مافى نفسه من الغدر بالامراء المصريين وقطع شأفتهم وأسر بذلك أيضا فى صبح اليوم ابراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العزب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح جوق فأغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا فى الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر من الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب مابين الباب الاعلى الذى يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة الى الباب الاسفل * وهو مشاهد الى يومنا هذا * وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التى بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب هم الامراء بالرجوع الى الوراء فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذهم ضرب البنادق من خلفهم أيضا واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العسكر الواقفون بالاعالى فأطلقوا نيرانهم أيضا فلما نظروا ماحل بهم سقطوا فى أيديهم وارتبكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقتحم شاهين بيك الالفى وسليمان بيك البواب فى عدة من مماليكهم راجعين الى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة وساروا والسيوف فى أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الاعمدة وهى قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برمى البنادق وأصيب شاهين بيك وسقط على الارض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها الى محمد على باشا وكان محمد على باشا عند ماساروا بالموكب قد دخل الى بيت الحريم وهرب سليمان بيك البواب وتساق الى حائط البرج الكبير فأصابوه برمى الرصاص فسقط فاحتزوا رأسه أيضا وهرب كثير الى بيت الامير طوسون مستجيرين فلحقوهم وقتلوهم وأسرف العسكر فى القتل وتتبعوا الشاردين فى نواحى القلعة وقبضوا على من لم يكن فى الموكب أيضا وقتلوهم فى تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفا للغاية والارض مغطاة بالجثث والاسلحة وثياب القتلى * وأخذوا الى كشاف الاقاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف المماليك وفوض محمد على باشا أمر ذلك الى كتخداه فبالغ فى البحث والتفتيش عليهم بالجهات القبلية والمصرية ونزلت العساكر الى بيوت الامراء فنهبوا مافيها وسبوا النساء وأخذوا فى القتل واخراج المخدرات حاسرات الرؤس وركب محمد على باشا ونزل من قلعة الجبل فى ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه طائفة السقاشية والجاويشية بزينتهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على فرس وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة أسرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل من يضبط ومعه شئ من المنهوبات فانكف الجند وامتنعوا * وسير الكشاف برؤس القتلى من المماليك ممن كانوا بالمدائن والقرى بالاقاليم القبلية والبحرية فكانت شيأ كثيرا جدا * قال بعض الكتاب * فلم ينج من طوائف الالفية الا اثنان وهما أحمد بيك زوج ابنة ابراهيم بيك الكبير فقد كان غائبا فى بلدة بوش وثانيهما أمين بيك



وقيل انه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الاعمدة الى ميدان الرميلة فمات جواده ونجا هو وهرب الى الديار الشامية فكانت عدة من مات من المماليك فى هذه الوقعة زهاء الاربعمائة ومن الاتباع والكشاف وغيرهم زهاء السبعمائة وبينهم مرزوق بيك بن ابراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيما وطلبت جثته فأخرجوها من بين القتلى فدفنت فى مدفن أعدته له ※ ووصل الخبر بما وقع للامراء المصريين الى أحمد بيك الالفى وهو ببوش فسار من فوره الى الصعيد الاعلى واجتمع بمن فيه من الامراء وأعلم ابراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق فحزن حزنا عظيما ولبسوا جميعا السواد وجلسوا للعزاء ومازال القتل متتابعا فيمن يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقا وغربا وفى أصحاب البيوتات القديمة منهم حتى كادوا يمحون أثرهم فأرسل ابراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد على باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التى يعيشون فيها فلم يرد عليهم جوابا وأرسل لقتالهم مصطفى بيك فى طائفة كبيرة من عسكر الارنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهابيين وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لابنه لواء الامير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الاحد سادس ربيع الاول سنة ست وعشرين نزل الامير طوسون بجيشه من قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر ببركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد على باشا الى السويس وقد سير ما كان فى ميناها من السفن ومراكب الحرب فسارت الى الينبع وتقاتلت مع من بها من الوهابيين ونالت منهم ثم سار الامير طوسون بجيشه من البركة فى يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا فى السابع من شوال الى بندر المويلح وعيدوا العيد بعقابر شعيب يوم السبت ثم ساروا الى الينبع وملكوها من غير قتال وساروا الى منزلة الصفراء والجديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متاريس فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلقوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثابروا عليه يوما وليلة ثم انجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقرى واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة سفن فلحقوا بها وتزاحموا عليها وتفرقت دواب الحمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع و رجع الامير طوسون الى ينبع بعد تغيبه يوما عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث بينبع أربعة وعشرين يوما حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا الى الوراء ومازالوا حتى وصلوا الى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناهم الوصب فنزلوا بها ووردت الاخبار بما حصل الى محمد على باشا فلم يتزعزع ولم تفتر له همة ونادى فى العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد فى النداء وبرز الى ضواحى القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونا بارته الخازندار فساروا الى الينبع ليرابطوا بها وجيش جيشا آخر وعقد لواءه لصالح بيك السلحدار وجعل معه جماعة من الكشاف

واستقدم

واستقدم من كان مع الامير طوسون فحضروا فأمرهم بالجلاء عن مصر والرحيل الى بلادهم
فلم تسعهم المخالفة وخرجوا فى عدة كبيرة من العساكر الارنؤط وخرج بنفسه لقتال
الوهابيين والاخذ بثأر من مات من رجاله فسار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر
وأخوه عابدين بيك فلم يسر مرحلة عن القاهرة حتى وردت اليه الاخبار فى ثانى يوم
باستيلاء من بقى من المصريين على عقبة الصفراء والجديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا
فيها أحدا من الوهابيين ففرح بذلك وسار الى السويس ولبث فيها أياما وقد عدل
عن المسير الى الحجاز فعجل بتسيير الجيوش التى كانت معه برا وأنزل طائفة منهم بالسفن
والشوانى وسير كذلك مصطفى بيك والى باشا بجميع عساكر الدلاتلية ومعهم شئ كثير من
المؤن وآلات الحرب وعاد الى مصر فلما دخل القاهرة وردت اليه الاخبار بوصول عساكره
الى المدينة وأنهم نزلوا بفنائها وقد أحضر المبشر بهذا الخبر مفاتيح المدينة فزينت
لذلك البلد ثلاث ليال أولها يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين
وألف هجرية فأرسل المفاتيح مع رسول مخصوص الى دار السلطنة

وبينما كان بعض عساكره يقاتل الوهابيين ويسترد منهم ماملكوه من بلاد الحجاز كان
البعض الآخر يطارد أيضا من بقى من الامراء المصريين حتى أجلوهم عن الصعيد وما زالوا
على أثرهم حتى ترفعوا الى النوبة ودخلوا ابريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك
وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوهم ومازال يشدد فى تتبعهم بالقتل والتشريد حتى أمن
شرهم فأمر ولده ابراهيم على جميع الاقاليم القبلية وأطلق له فيها التصرف وأخذ هو فى
تدبير أمور البلاد فأكثر من المشروعات المهمة والاعمال المفيدة كحفر الترع وترميم
الجسور وانشاء الحصون والمعاقل بمدينة الاسكندرية * وبعضها باق الى هذا اليوم * وأنشأ
المعامل العظيمة لمد السفن ومراكب الحرب وهيأ عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع
وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مددا الى ولده الامير طوسون وكان يظن ذهاب شوكة
الوهابيين وسقوط كلمة زعيمهم الامير سعود وقد كان الامير سعود هذا قد انكف عن
قتال عساكر الامير طوسون حينا وترفع بقومه الى بعض الجبال ولكنه عاد فى سنة ثمان
وعشرين ومائتين وألف فهاجمهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طرابای شرق مكة فملكها
وكانت شدة القيظ قد فعلت بالعسكر المصرى فعلا رديئا جدا ثم سار الى المدينة وملك
جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأثخن فى النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر
المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وقفل راجعا الى
الوراء قبضوا عليه وقتلوه و وصلت الاخبار بما جرى فشق الأمر على محمد على باشا
وأعظمه وجيش جيشا عظيما وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة ثمان
وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركة الحاج ثم سار منها الى السويس فلاقاه المبشرون
فى الطريق وبشروه بسقوط عثمان المضايفى فى أسر الامير طوسون وكان المضايفى هذا قد

خرج فى قوم كثيرة لقتال من بالطائف من العسكر المصرى فبرز اليه الشريف غالب بالعسكر المصرى وطوائف العربان وقاتلوه واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضايفى فنزل عنه واختلط بالعسكر فلم يعرفوه فخرج من بينهم هاربا فصادفه جماعة من جند الشريف غالب فعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدى الشريف أمر فقيدوه بالحديد وسير به الى الامير طوسون * قال بعض كتاب الاخبار * والمضايفى هذا زوج أخت الشريف خرج عنه وانضم الى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذى يستميل لهم طوائف العربان فنما لذلك أمره واشتهر ذكره فدوخ المدن وفتح منها عدة كثيرة وافتتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا

ولما وصل محمد على باشا الى ينبع سير طلائع عسكره الى المدينة فناوشوا من كان حولها من أصحاب الوهابى وأجلوهم عنها فنزل عليها محمد على باشا وأدى فريضة الحج ثم أخذ فى تدبير أمور الحملة ومال الى الشريف غالب وأظهر له الولاء والمحبة فانخدع الشريف وبقى معه على ذلك أياما ثم قبض عليه هو وثلاثة من أولاده وسيرهم مع نفر من الجند الى جدة وأنزلوهم باحدى السفن فأقلعت بهم الى مصر عن طريق القصير * قال بعض الكتاب * وتحرير الخبر أنه لما وصل محمد على باشا الى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الايمان فى جوف الكعبة بأن لايخونن أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على ايذائه فكان بعد ذلك يذهب كل منهما الى الآخر فى قلة من أصحابه واستمرا على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوما من ذى القعدة فلما كان أحد الايام دعا الامير طوسون الشريف غالب الى بيته فأتاه فى قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والاجناد ما رابه فصعد متخوفا فلما استقر به المجلس حضر عابدين بيك فى نفر من الجند وصعد الى المجلس ودنا من الشريف وأخذ خنجره من منطقته وقال له قم قد بعث سيدنا ومولانا أمير المؤمنين فى طلبك الى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لى أشغال أقضيها فى ثلاثة أيام فقال لاسبيل الى ذلك وقد أعددنا لك سفينة لتحملك فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول تحزبوا وأسرعوا الى الابراج التى هى مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد على باشا يتهددهم بحرق المدينة ان هم فعلوا شيأ وأرسل الشريف كذلك ينهاهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف الثلاثة فى بيت له فأرسل اليهم محمد على باشا أحد خواص الشريف ومازال يخادعهم حتى انخدع كبيرهم فنزل بهم متضعفا الى مكان وفى الحال استحضر محمد على باشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده امارة مكة ونودى بذلك وطيروا خبره الى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة أيام ثم أنزل الى سفينة فسارت به الى القصير ومنها الى القاهرة فاستقبله كتخدا الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدومه المدافع وأنزلوه ببيت السيد المحروقى أياما ثم

أعدوا له دارا أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابه تحرسه ثم قدم بعده أيضا ولد أخيه الشريف عبدالله بن الشريف سرور مبعدا منفيا فأنزلوه فى دار مخصوصة محجورا عليه ولم يجتمع بعمه ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة فكادت لذلك تنصرف عن الامير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف غالب وتقاعسوا عن القتال معه وفترت هممهم وانفشلوا وهاجر الكثير منهم ومن الاشراف وانضموا الى الوهابيين وقاتلوا جيوش الامير طوسون قتالا عنيفا وأبلوا بلاء حسنا فوقع بأسباب ذلك فى الحرمين غلاء شديد وقل الوارد من الحبوب والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء الى الجبال فكانت شدة عظيمة جدا ❊ ومات فى هذه الاثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبدالله مكانه وكان يظن انفشالهم بعد موته ووردت الاخبار بذلك الى الامير طوسون ففرح وأمر عسا كره فزحفوا الى ناحية (قنفده) وحاربوا عليها أياما كثيرة حتى قصدوها واستولوا عليها ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب فى أسر المصريين فحضر منها قاصد يخبر بوجوب جمع ماأخذ من الشريف ورده اليه من متاع ومال وذخائر وكان محمد على باشا قد أرسل الى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسجتين من لؤلؤ فاستحضرهما معه ذلك القاصد وردهما للشريف فلما كان يوم السبت تاسع عشرى شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب الى بولاق بنسائه وأولاده وغلمانه وعبيده فسافروا مع القاصد الى دمياط ومنها الى سلانيك وأرسل محمد على باشا فى طلب الشريف عبد الله بن سرور الى الديار الحجازية وكانوا قد شددوا فى الحجر والتضييق عليه وكان لما حضر الى مصر وأقام محجورا عليه أياما رأى كتخدا بيك عدم المانع من اخلاء سبيله يغدو ويروح فى الشوارع وعند المعارف والاحباب واستمر على هذا الحال شهرا ثم زينت له نفسه الفرار فاختفى أياما فأزعج كتخدا بيك فراره واستحضر سائر مشايخ الحارات وشدد عليهم فى احضاره وبث العيون والارصاد واهتم لهذا الامر جدا فلما كانت ليلة السبت ثامن عشرى رجب سنة تسع وعشرين حضروا به فى وقت الغروب الى بيت السيد المحروقى فسلمه الى كتخدا بيك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو ومن معه من ذلك الوقت ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب الى سلانيك وسافر عبد الله المذكور الى الديار الحجازية

ورأى محمد على باشا أنه لابد من مصالحة الاشراف واسترضائهم كى تنصرم أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طالت أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجح وتودد اليه وأظهر له غاية الاخلاص وأمده بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سببا فى ظفر جيوش الامير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد على باشا وقد دانت اليه الامور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك الى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان باضافة الديار الحجازية الى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد على باشا فرحا عظيما وطير الخبر بذلك الى الآفاق ولبث

بالحجاز يدبر الامر و يحسن حال جيش الامير طوسون حتى أصلح ماأراد وقفل راجعا الى مصر ودخلها فى ليلة الجمعة خامس عشرى رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والاتباع وبعض الجند فتسابق الناس الى رفع التقادم والهدايا اليه وقد احتجب عن الخروج أياما ثم خرج وصعد الى قلعة الجبل وأخذ فى اعداد مالزم لعساكر الامير طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالغ فى ذلك كثيرا والناس فى ريب وظنة لايدرون ماسيكون من وراء هذا الاهتمام وعمد الى تنظيم هيئة الجندية وتنسيقها على نسق عسكر الفرنسيس فشاور مقدمى الجند فى ذلك وجعل يستميلهم الى رأيه فلم يقبلوا فأمر بعسكر ولده اسمعيل وكلهم من المرتزقة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفا وأعلمهم بقصده من ترتيبهم على نسق عسكر الفرنسيس فلم تعجبهم مقالته وأكبروا الامر جدا وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وباتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضا بعض كبارهم ❀ فلما كانت ليلة الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند فى ولمة وبينهم محو بيك وعبد الله أغا سارى جه وحسن أغا الارزنجلى فتناجوا فيما يريده محمد على باشا وفيما تقرر بين الاحزاب من الغدر به فأجمع رأيهم واتفقوا على الركوب عليه فى تلك الليلة واغتياله قبل أن يستشعر بالامر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر فى بيته الذى بالازبكية وتحالفوا على ذلك واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا الى ما كانوا عليه فى مجلسهم فغافلهم عابدين بيك وتركهم فى أنسهم ولهوهم وخرج متنكرا مسرعا الى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع الى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيأ وأسرع محمد على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب الى ناحية البركة الناصرية ومرمى النشاب وصعد الى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجند فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم على دار محمد على باشا فمانعهم المرابطون واشتد بينهم رمى البنادق فقتل منهم عدة ولم ينالوا غرضا فساروا الى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا اليها واجتمعوا بالرميلة وقراميدان وتحيروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لايدرون ماذا يفعلون ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فنزلوا من وسط قصبة رضوان على الصليبة والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون ما فيها وقد كان الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم طلبا للسلامة وانضم الى الثائرين من بقى طائعا من الجند وعمت الفوضى وبادروا جميعا الى النهب والخطف وشاركهم العامة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم الى داخل باب زويلة وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا مافيها من أموال وبضائع ومضوا فى سيرهم الى العقادين والغورية والاشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة الى سوق مرجوش فكسروا

مطلب
العزم على قتل محمد على باشا ونهب دكاكين تجار المدينة

أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا مافيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلى وأرادوا مد يد النهب فثارت عليهم طائفة الاتراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم ومنعوهم وقام عليهم أيضا طائفة المغاربة بالفحامين وحارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التى على رؤس الحارات وجلس عند كل باب جماعة ومن فوقها آخرون من أهل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل اليهم ووصلت طائفة الى خان الحمزاوى فعالجوا بابه حتى كسروا الخوخة التى بالباب وعبروا الخان وكسروا حواصل التجار كافة ونهبوا ماوجدوه من الاقمشة الهندية والشامية والمقصبات وتبعهم فى ذلك الخدم والعامة وأخرجوا مافى الدكاكين والحواصل من الاموال وأنواع البضائع وكان القوى منهم يعدو على الضعيف فيأخذ مامعه و يقتل بعضهم بعضا وكسروا أبواب الحوانيت التى خارج الخان بالخطة وأخرجوا مافيها من التحف والاوانى الصينية والبلور وأنواع الزجاج وكذلك فعلوا بسوق البندقانيين وكثر خلفهم النهابون والغوغاء واستباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنكاها بالرعية قال بعض الكتاب وقدتم هذا كله فى ظرف مدة لاتتجاوز الخمس ساعات وذلك من قبيل صلاة الجمعة الى قبيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة فى ذلك اليوم وأغلقت المساجد بداخل المدينة وأخذ الناس حذرهم وتسلحوا وأغلقوا البوابات وسهروا الليالى وأقاموا على الحذر والخوف ۞ وأصبح يوم السبت تاسع عشرى شعبان موافقا لآخر يوم من شهر أبيب وقد أوفى النيل أذرعه وكان فى ذلك اليوم أيضا رؤية هلال رمضان فلم يعمل فيه شئ من المراسم المعتادة لقيام الفتنة فلما سكن الحال رسم محمد على باشا باحصاء مانهبه العسكر وتقويمه لرده لاصحابه من ماله فطلع اليه كبار العسكر يعتذرون ويتنصلون من تبعة ما فعله الجند فرسم لهم بجمع ما يمكن جمعه من النهابين ففعلوا وشقوا فى وسط المدينة ونادوا بالامان فلم تطمئن خواطر الرعية ونزل كتخدا بيك وجلس عند جامع الغورية ورسم لاهل الاسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها على عادتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد على باشا يتدبر فى أمر أولئك العسكر ويعمل على تفريق شملهم فاستعمل مع بعض كبارهم المسايرة وقربهم من مجلسه وتزلف اليهم بجهد الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم الى الرتب السامية ولم يعجل فى عمله بل لازم التأنى والصبر ۞ فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة احدى وثلاثين أمر أولاده بالخروج بمن معهم من العساكر والاجناد الى ظاهر المدينة والاقامة على أهبة السفر وأسر اليهم مافى ضميره من قتل كبار الفتنة وزعماء هاته العصابة وخاطب أمراء العسكر فى الخروج فخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وأصحب مع ولده الامير طوسون رجلا من خواصه اسمه أحمد أغا المعروف بى المدلى ووكل الى الامير طوسون تدبير أمر قتل القوم فأخذ الامير طوسون فى التدبير وعمل الحيلة وبدأ بمحو بيك

وهو أعظمهم قدرا وأكثرهم جندا وأخذ فى استمالة عسكره وابعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محو بيك الا القليل فلما تمكن من ذلك وصار قتله أمرا مقضيا أرسل اليه يدعوه لمشورة فعلم أحمد أغا المنجورجى بما وراء ذلك فذهب اليه وأسر اليه بما يراد به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محو بيك من فوره وذهب الى كبار الدلاة مستجيرا فشفعوا فيه عند محمد على باشا وقد علم محمد على بما فعله أحمد أغا فأمر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثته ملقاة يوما كاملا وتحرز كبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الحيرة فأقام الامير طوسون بعسكره أياما حتى رسم له أبوه بالرجوع الى الحجاز فعاد اليها بعسكره وسير الى الشريف عبدالله بن مسعود الذى تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخابره فى الصلح وطالت المخابرة بينهما الى أن تقررت القاعدة على مايحبان فحضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الامير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان الى مصر وأبلغا محمد على باشا ماتقرر بينهم وبين الامير طوسون ثم رجعا * فلما كان اليوم الاول من ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلاثين وصل الامير طوسون الى السويس وأتى الى القاهرة فزينوا لقدومه المدينة وعملوا له موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبلخانات وشعار الوزارة وطلع الى قلعة الجبل وأقام بها الى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر الى الاسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد الى مصر وقد ولاه أبوه قيادة الجند الاتراك والدلاة وأطلق له التصرف فى تدبيرهم * وكان محمد على باشا فى خلال هذه المحن والخطوب مثابرا على مساحة الاراضى وضبط الرزق والاحباس وتعميم الفلاحة وانشاء الترع والجسور واحداث المعامل النافعة وغرس الاشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس واحياء العلوم على اختلافها ولا سيما الطب والهندسة والفلك وعمل السفن والمعاقل والحصون وقد بذل النفيس فى اعادة السدّ الممتد الموصل الى الاسكندرية وهو سد أبى قير فقد كان اتسع أمره وتخرب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الاراضى وأغرق القرى وخرب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول فى أمره ولم يزل يتزايد فى التهور وزحف المياه المالحة على الاراضى حتى دخلت الى خليج الاشرفية التى تمتلئ منه صهاريج الاسكندرية المعروف الآن بترعة المحمودية فلما اعتنى محمد على باشا بتشييد الاسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعاقلها وأنزل بها العمارات اعتنى أيضا بأمر السد المذكور وأرسل اليه المباشرين والقوّام والعمال والفعلة والنجارين والبنائين والاخشاب وآلات الحديد والاحجار والمؤن حتى تممه وكان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الازمان وقيد به بعض المهندسين والعمال ومازالوا به الى هذا الحين

مطلب موت الامير طوسون وقيام الامير ابراهيم بقتال أهل الحجاز بعده

واتفق أن ظهر الطاعون بمصر فى هذه السنة أى سنة احدى وثلاثين واشتد وكثر الموت فى الناس وكان الامير طوسون قد ذهب الى رشيد وعاد منها الى قصره فى برنبال

فق

فى ليلة وصوله الى القصر أصابه الطاعون فتملل نحو العشر ساعات ومات ليلة الاحد سابع شهر ذى القعدة من السنة فكفنوه ووضعوه داخل صندوق ووصلوا به فى سفينة منتصف ليلة الاربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على اخباره فذهب اليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك فلما علم بوصوله ليلا استنكر حضوره فى ذلك الوقت فسأله عن سبب حضوره وعن ولده الامير طوسون فقال انه حضر متوعكا الى شبرا فركب فى الحال محمد على باشا طرادة وانحدر الى شبرا وصعد الى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول أين هو أين هو فلم يقدر أحمد على اخباره بالخبر وكانوا قد ذهبوا به وهو فى السفينة الى بولاق ورسوا عند الترسخانة وأقبل كتخدا بيك على محمد على باشا فرآه يبكى فانزعج انزعاجا شديدا وكاد يقع مغشيا عليه ونزل سفينة وأتى الى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكى بكاء مرا فلما أصبحوا ساروا بالنعش فى مشهد حافل للغاية وصلوا عليه بجامع المؤمنين ثم ذهبوا به الى المدفن الذى أعده أبوه لموتاه وكان محمد على باشا يسير بجانب النعش وعيناه شاخصتان اليه والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته الا بعد دفنه فوجدت عليه وجدا عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوما وجلسوا للعزاء عند قبره ومات وهو فى مقتبل الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيما بطلا شجاعا جوادا كريما يحب المصريين وله هيبة فى قلوب العسكر زائدة وكان محبوبا عند الناس فكانوا يرجون ولايته بعد أبيه ويأبى الله الا ما يريد وطار خبر موته الى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا الى الخروج ثانية الا القليل من كبارهم وجاء الخبر بذلك فجهز محمد على باشا لردهم ولده الامير ابراهيم وجيش له جيشا عظيما وعددا من مراكب الحرب والشوانى الكبيرة فسار وقاتل الشريف عبد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل فى أهلها القتل والنهب وتغلغل فى جوف البلاد وغاب عن أبيه خبره فانزعج وبعث بطائفة أخرى من العساكر والاجناد وبالغ فى المدد برا وبحرا ثم وردت الانباء بوصول الامير ابراهيم الى ناحية اسمها (المسوتان) وانه قاتل الوهابيين فيها قتالا شديدا كان له فيه الظفر وقد أسر منهم عدة رجال وأخذ خياما كثيرة ومدفعين وقبض على زعيم من زعمائهم اسمه (عتيبة) ثم سار بعساكره الى ناحية الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقاتل عليها قتالا عظيما فخرج منها الشريف هاربا الى الدرعية فتبعه العسكر وقضوا كل ما صادفهم فى طريقهم من المدن والبنادر حتى أتوا الدرعية فحاصروها وقاتلوها قتالا عنيفا ومنعوا عنها الواصل وأحاطوا بها أياما كثيرة وضيقوا عليها وشددوا ٭ واتفق أن سار الامير ابراهيم بجماعة من عسكره الى بعض الجبال لاستكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين من الدرعية فتغيب أياما فلما أحس المرابطون فى الدرعية بغيابه خرجوا وقاتلوا عساكره حتى أجلوهم وأخذوا خيامهم وآلات حربهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء الخبر الى الامير ابراهيم فكر راجعا ولكنه لم ينل من الوهابيين فأخذ فى تدبير جيشه وجمع

من تمرد منه وطلب من أبيه المدد فأمده بمدة عظيمة من المشاة والفرسان وعدة من مراكب الحرب فتقوى جند الامير ابراهيم فأعاد الكرة على الشريف عبد الله وأصحابه واشتد فى قتالهم فقتل الشريف حمودة أصابته جراحة وهو فى ساحة القتال ناحية الدرعية وضيق على من بقى فيها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عبد الله وسيره أسيرا الى مصر (قال بعض كتاب الاخبار) فلما مثل بين يدى محمد على باشا قام له اجلالا وأجلسه بجانبه ولاطفه وقال له « ماهذه المطاولة » فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ولدى ابراهيم قال ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ماقدره الله فقال سأشفع فيك عند الخليفة ان شاء الله فقال ماقدر سوف يكون « فألبسه خلعة وانصرف من عنده الى بيت اسمعيل باشا ببولاق ولبث أياما ثم سيروه الى دار الخلافة مع طائفة من الجند تخفره وأرسل الامير ابراهيم فريقا من عسكره ومقدمه خليل باشا لفتح يمن الحجاز فقاتلها قتالا عنيفا حتى تغلب عليها وفتحها عنوة فلما وصلت الاخبار بذلك الى دار السلطنة سر السلطان بذلك سرورا عظيما وأرسل الى محمد على باشا وولده الامير ابراهيم الهدايا النفيسة والتحف الغالية وخلع عليهما خلع الرضا « وحضر الى مصر من بقى من الوهابيين وسقط فى قبضة الامير ابراهيم فكانوا زهاء الاربعمائة مابين رجال ونساء وأولاد فاسكنوهم بالمكان المعروف بالقشلة بالازبكية وبينهم ابن الشريف عبد الله بن مسعود وقد كان أبوه قتل فى دار السلطنة بعد وصوله اليها بقليل فلم يجبر عليهم فعلم الناس منهم أن يمن الحجاز لم تؤخذ عنوة قالوا لانه لما مات حموده شيخها وولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلما سار خليل باشا لقتاله أخلى له البلد واعتزل فى حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربته كما فعل أبوه وترددت بينهم الرسل وما زال به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى اليه فى قلة فقبض عليه وسيره الى مصر أسيرا « وعاد الامير ابراهيم من الاقطار الحجازية فى حادى عشرى صفر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف عن طريق القصير ودخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطلحان السليمى فى شعار الوزراء وصعد بالموكب الى قلعة الجبل ثم عاد الى مقره بالروضة وقد تزاحم على بابه المهنئون ومدحه الشعراء وقدمت له الهدايا والاعلاق النفيسة وظهرت من هذا الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والامراء

مطلب اصلاح ترعة الاشرفية

ونظر محمد على باشا الى مايقاسيه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلة المواصلات فرسم بتصليح الترعة الموصلة الى مدينة الاسكندرية المعروفة بالاشرفية فقيد بها العمال والمباشرين والمهندسين فأخذوا فى حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت فى أخريات ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب الى رشيد والاسكندرية بالارزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحا عظيما وسافر بها محمد على باشا وأعجبه وصفها وسماها فى ذلك اليوم المحمودية وهى من أجل الاعمال النافعة والمآثر الباقية الى يومنا هذا

ولما

مطلب
فتح السودان
وتدويخ أمرائه
وترتيب جيش على
نظام عسكر
الفرنسيس

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الامراء المصريين وقطع شأفة المماليك والغوغاء
من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الحجازية والقبض على زعمائهم وأصحاب الكلمة
فيهم وعجز من بقى منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصرى عمد محمد على باشا الى فتح
السودان وقوى عزمه على الاغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماما زائدا
فى تجييش الجيوش واعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الامير اسمعيل مقدم هذه
الغزوة وبالغ فى تجهيزه بجميع مايلزم وضم الى جيشه كثيرا من العربان فصار جيشا فخما
للغاية وسارت طلائعه فى أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الامير اسماعيل فى
ذى القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الذاهبة الى الدارفور
وعمو بيك وغيرهم واستقر محمد كتخدا لاظ بأسنا التى هى اسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب
الحمل وكان محمد على باشا الى هذا الحين شديد الرغبة فى انشاء جيش من أولاد الناس على
نظام عسكر الفرنسيس وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الامير
اسمعيل الى غزوة السودان فعمد الى تنفيذ ما فى نفسه وخاطب أهالى البلاد بأن من يشاء
أن يدخل فى خدمة الدولة بصفة جندى يصرف له كذا من العلوفة وكذا من السلاح وكذا
من الالبسة بشرط أن يكون فى سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم
البصر فليسجل اسمه فى الدفتر الذى أعد لذلك عند مشايخ البلاد وكان الناس جميعا ميالين
الى مساواتهم بطوائف الجند فرارا من ايذائهم فتسابقوا الى الدخول طوعا وافتخر بعضهم
على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا الى تسجيل أسمائهم فكان اذا اجتمع فى
البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سيروا بهم الى بنى عدى من مديرية أسيوط حيث كان محمد
كتخدا لاظ أوغلى فيسلمهم الى الموكلين بتعليمهم وكان محمد على باشا قد رسم بأخذ جماعة
من مماليك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختاروا منهم من توسموا فيه النجابة واستقدم
اليهم ضابطا من عظماء الفرنسيس اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور فى تعليمهم
العلوم العسكرية حتى تخرجوا ونبغوا وولوا هم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم
من أهل البلاد الا النزر اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكمل نظامهم
على نحو ما أرادوا وفرح محمد على باشا بهم فرحا عظيما وأمر فسيروهم مع من خرج من الجند
الى السودان فى شعبان سنة خمس وثلاثين فقطعوا الشلالات ومروا بشندى والمتمة
وأخضعوا كل ما صادفهم فى طريقهم من القرى والبلدان وهم لا يدافعون الا بالامر الخفيف
ثم ساروا الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقاتلتهم
قتالا غير طويل حتى استأمنت فدخل العساكر سنار التى هى عاصمة الكردفان وعسكروا بها
ورتبوا أمورهم ثم سار الامير اسماعيل عن سنار الى فيزوغلى فى طائفة من عسكره ليكشف
حقائق تلك البقاع ويعرف ما فيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا
فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فارسل يطلب المدد فأتت اليه نجدة من ثلاثة

آلاف مقاتل ومقدمهم أحمد بيك الدفتردار فقويت عزيمة الامير اسمعيل وترك الدفتردار يدبر الامور فى كردفان وسار هو الى المتمة فى عسكر ثم عبر النيل الى شندى ونزل بها وكان بها سلطان اسمه (نمر) وكان عاتيا شديد البأس جبارا فاستحضره الامير اسمعيل وضرب عليه الكلف وقرر عليه شيأ كثيرا من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب وألفى مقاتل فى أجل لايتجاوز الخمسة أيام فاستعظم نمر هذا الامر وبالغ فى الشكوى والاستعطاف ومازال بالامير اسمعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب ثم سأله أن يمد له الاجل فغضب عند ذلك الامير اسمعيل وكان بيده شبق الدخان فضرب نمرا به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج نمر من عنده وهو مضمر له السوء فلما كان المساء من تلك الليلة أكثر نمر من استحضار التبن علفا للجمال ودواب الخيل والحطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفوفا حول العسكر بعضه يتصل ببعض فكان شيأ كثيرا جدا ثم أتى الى مقر الامير اسمعيل فى سرب من العبيد يضربون الطبول وينفخون فى قرون الحيوانات كالمزامير و يرقصون فأعجب الامير اسمعيل منظرهم وطرب أصحابه منهم وما زالوا على هذا الحال الى منتصف الليل وقد اجتمعت الغوغاء وعلت الضوضاء واشتدت الطبول وعلت أصوات القرون فأمر نمر طائفة منهم فأشعلوا النار فى التبن وذلك الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراب تمنع الخارج فاندلع لسان اللهيب وعلا وأظلم الجو فأعملوا السيوف فى أعناق الجند فهموا بالفرار فلم يتمكنوا فاحترق من احترق ومات الامير اسمعيل بالحريق وهو بين طائفة من مماليكه وأصحابه ولم يبق من العسكر ديار ولانافخ نار وساق أصحاب نمر سلبهم الى شندى واتصل الخبر بالدفتردار وهو بدارفور فقام من فوره وسار الى شندى وأقسم انه ليهلك عشرين ألفا فداء لاسمعيل فلما نزل عليها لاقاه نمر بأصحابه فقاتلهم بمن معه من العسكر وظفر بنمر وقتله وأعمل السيف فى أصحابه وأفحش فى القتل وأسرف فى الانتقام ولم يحنث فى يمينه فهابه الناس واتسعت شهرته الى أقاصى السودان فانكمش أصحاب الفتن وظل يدبر الامور ويأمر وينهى ويخضع الكبار من السود الى سنة أربعين ومائتين وألف هجرية حتى جاءه الامر من محمد على باشا بالتخلى عنها والانحدار الى القاهرة فانحدر وتولى مكانه رستم بيك فحذا حذوه وأكثر من الوعيد والتهديد حتى خضعت له جميع الاهالى ودانت له سائر الامور

مطلب انشاء المدارس الحربية ومعامل الاسلحة والبارود

واشتدت رغبة محمد على باشا بعد فتح السودان فى اتقان نظام عسكره على نسق عسكر الفرنسيس فأنشأ مدرسة للمشاة فى الخانقاه وأخرى للفرسان بالجيزة فى بيت مراد بيك الكبير واستحضر لهما أشهر أساتذة الفرنجة وأنشأ أيضا مدرسة لاصحاب المدافع وأسس معامل البارود وصب المدافع وعمل البنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند على اختلافها وسلم الى الكولونيل سيف الذى هو سليمان باشا الفرنسوى زمام تدبيرها ووكل لعهدته جميع أمور الجندية وجعله رأس جميع مقدميها فبالغ سليمان باشا

ف

في تعززها واتقان نظامها فلم يمض عليها الا القليل حتى صارت جندا عظيما مدربا مغازيا واسع الاصابة موفقا مظفرا أينما سار * ونقل الناقلون الى السلطان خبر ما وصل اليه محمد على باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه للاقطار السودانية نخشى السلطان عاقبة أفعال محمد على باشا وظن به السوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لايقدر على أن يأتي معه أمرا لقيام الفتنة في جميع الايالات التابعة لمملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الاحزاب لاسيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها و يلا وأعظمها خرابا وأنكاها بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شئ كثير للغاية فكانت كلما طالت استعرت نارها واشتد أوارها وقويت ظهور الثائرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاتلوا قتال المستقتلين حتى أعيا السلطان أمرهم وداخل عساكره الملل وخشى عاقبة ذلك (قال أصحاب التاريخ) لما

مطلب خلود اليونان الى الثورة وطلب الاستقلال

نهض اليونان الى طلب الاستقلال والخروج عن تابعية السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الامر لايتم لهم الا ببث الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لايتم أيضا الا بتثقيف أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فتألب كبراؤهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم الى بلاد الفرنجة لتلقي العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى اذا عادوا الى أوطانهم بما عرفوه من معارف أولئك القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمي الامة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضايق الاسر والاسترقاق الى بحبوحة الحرية والمساواة فنجحوا في ذلك وأنشؤا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جدا وكان أهمها عملا وأشدها خطرا الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الاخوية وكان مقر هذه الجمعية أولا بمدينة أودسا ثم انتقلت الى مدينة كيف وكلتاهما من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها الى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية * وكان القيصر اسكندر الاول ابن القيصر بولس قيصر الروس يد قوية في تعضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليوناني وتعزيز مطالبه تنكيلا بالدولة العثمانية ولكي لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولايبطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الاكبر التي أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الاوروباوية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار الساسة الشرقية والغربية لاسيما عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار اليها وزوالها معقودين بأطراف تلك الوصية رأيت انه لابأس بايرادها هنا كما جاءت في ترجمة تاريخ العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت اليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التي من هذا القبيل أن يقفل دونها بجميع أبواب الوصول قال

(وصية بطرس قيصر الروسية)

(البند الاول) من اللزوم أن تقاد العساكر دائما الى الحرب وينبغى للامة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لاجل اصلاح المالية وتوفيرها وان كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آنا بآن وعلى هذه الصورة ينبغى لروسيه أن تتخذ من الصلح والامان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لاجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها

(البند الثانى) فى وقت الحرب ينبغى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والاقوام الذين هم أكثر معلومات فى أوروبا وكذلك فى زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضا و يلزم الاعتناء بما يجعل الامة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث انها لا تضيع سعيا فى تحصيل الحسنات المخصوصة بمملكتها

(البند الثالث) عند سنوح الفرصة ينبغى وضع اليد والمداخلة فى جميع الامور والمصالح الجارية فى أوروبا وفى اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص فى وقوعات ممالك المانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها

(البند الرابع) ينبغى استعمال أصول الرشوة لاجل القاء الفساد والبغضاء والحسد دائما فى داخلية ممالك « ٤ » وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الامة ببذل المال واكتساب النفوذ فى مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة فى انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الامة ينبغى حينئذ دخول عساكر روسيه الى داخل البلاد لحمايتهم والتعصب لهم باقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك الى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الاقامة وعند ما تظهر مخالفة فى ذلك من طرف الدولة المجاورة فلاجل اخماد نار الفتنة موقتا ينبغى أن نقاسم المخالفين فى ممالك « ٤ » ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التى تكون أعطيت لهم

(البند الخامس) ينبغى الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الامكان ثم نسعى فى اغتنام وسيلة لاستكمال الباقى منها ولا نتوصل الى ذلك الا بوجه تضطر فيه تلك الدولة الى أن تعلن الحرب على دولة الروسيه وتهاجمها والذى يلزم أولا هو أن تصرف المساعى والهمة لالقاء الفساد والنفرة دائما بين أسوج والدانيمرقه بحيث أن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين

(البند السادس) يجب على الاسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائما من بنات العائلة الملوكية الالمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم فى

المنافع

المنافع اذ بهـذه الصورة يمكـن اجراء نفوذهـم فى داخـل المانيا ويربطون أيضـا الممالك المذكورة بجهة منافعنا ومصالحنا

(البند السابع) ان دولة انجلترا هـى الدولة الاكثر احتياجا الينا فى أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جـدا أيضا فى أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معـها فى أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالاخشاب وسائر الاشياء الى انجلترا وجلب الذهب من عندهـم الى ممالكنـا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متمادبا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن فى ممالكنا

(البند الثامن) على الروسيين أن ينتشروا يوما فيوما شمالا فى سواحل بحر البلطيق وجنوبا فى سواحل البحر الاحر

(البند التاسع) ينبغى التقرب بقـدر الامكان من استانبول والهنـد وحيث انه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم احـداث المحاربات المتتابعـة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الايرانيـة وينبغى ضـبط البحر الاسود شيأ فشيأ وذلك لاجل انشاء دار صناعات بحرية والاستيلاء على بحـر البلطيق أيضا لانه ألزم موقع لحصول المقصود والتعجيل بضـعف بل بزوال دولة ايران لنتمكن من الوصول الى خليج البصرة وربما نتمكن من اعادة تجار الممالك الشرقية القديمة الى بلاد الشام والوصول منها الى بلاد الهنـد التى هـى بمثابة مخزن الدنيـا وبهـذه الوسيلة نستغنى عن ذهب انجلترا

(البنـد العاشر) ينبغى الاهتمام بالحصول عـلى الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار اليها من جهـة ما تبتغى اجراء من النفوذ فى المستقبل فى بلاد المانيا وأما باطنها فينبغى لنا أن نسعى فى تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام المانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاسـتمداد من دولة روسـيه ومن اللازم اجراء نوع من حماية الدولة المذكورة بصورة يتسـنى لنا فيها الحكم على تلك الدول فى المستقبل

(البند الحادى عشر) ينبغى تحـريض العائـلة المالكة فى استوريا على طرد الاتراك وتبعيدهـم من خطة الروم ايلى وحينما نستولى على اسـتانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة اسـتوريا حربا أونسكن حسدها ومراقبتها لنا باعطائها حصـة صغيرة من الاماكن التى نكون قـد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها

(البند الثانى عشر) ينبغى أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هـم من مذهب الروم المنكرين رياسة البابا الروحية والمنتشرين فى بلاد المجر والممالك العثمانية وفى جنوبى ممالك « له » ونجعلهـم أن يتخذوا دولة روسـيا مرجعـا ومعينا لهـم ومن اللازم قبـل

كل شئ احـداث رياسة مذهبية حتى تتمكن من اجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهـذه الواسطة لاكتساب أصـدقاء كثيرين ذوى غـيرة نسـتعين بهـم فى ولاية كل أعدائنا

(البنـد الثالث عشر) حـين ما يصـبح الاسوجيون متشتتين والايرانيون مغـلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانيـة مضبوطة أيضا حينئـذ نجمع معسكراتنا فى محـل واحـد مع المحافظة على البحـر الاسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولا لدولة فرنسا كيفيـة مقاسمات حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة استوريا ونعرض ذلك على كل من الدولتين المشار اليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جـدا لقبول ذلك وحيث انه لا بد من أن احداهـما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مداراة واحترام كل منهما ونجعـل من كان منهما قابلا بما عرضنـاه عليهما واسـطة لتشكيل الاخرى وبذا تكون دولة روسيه حينئذ قد ضبطت جميع الممالك الشرقيـة ويكون مثـل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثـة الدخول فى يد تصرفهـا فعنـدـه يسهل علينا أن نقهر ونشكل كـلا بعـد أى دولة بقيت فى الميدان من الدولتين المذكورتين

(البند الرابع عشر) على فرض الحال ان كلا من الدولتين المشار اليهـما لم يقبل بما عرضنه عليهـما روسـيه فينبغى حينئذ لروسـيه أن تصرف الافكار لمراقبة ما يحـدث من النزاع والخلاف بينهما فاذا وقع ذلك فلا بد أن يحصـل تعب الطرفين ويشتبك هـذا الامر مع الآخر وفى ذلك الوقت يجب على روسـيه أن تنتظر الفرصـة العظيمـة وتسوق حالا معسكراتها المجتمعة أولا بأول على المانيا فتهجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمـين كليين من السفن أحدهـما من بحر أزاق المملوء بالعسـاكر الوافرة المجتمعة من أقوام الاناضول المتنوعة والثانى من ليمان ارخانكل الكائنة فى البحر المنجمد الشمالى فتسير هـذه السفن وتمـر فى البحـر الابيض والبحـر المحيط الشمالى مع الاسطول المرتب فى البحر الاسود وبحـر البلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا وأما المانيا فانها تكون اذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرنا تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التى تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير ه انتهت بنصها (قلت) ولا يقع فى ملكه الا ما يشاء

وانتشر سر جمعيـة الهيتيرى المذكـورة بـين جميع الجنس اليونانى المقيم ببـلاد المورة وغيرهـما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سـبع وثلاثين ومائتـين وألف هجـرية حـتى بلغ عـدد أعضائها العاملـين فيها نيفا وعشرين ألفا ممن يقدرون على حمل السلاح ولا يرهبون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة فى يانيا وخرج واليها المسمى على باشا عن طاعـة السلطان واشتغلت العسـاكر السلطانية بقتـاله نهض أعضاء تلك الجمعية نهضة الاسـد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المرابطة فى حصونهم وقلاعهـم وأعملوا فيهـم القتل واشـتدت الفتنة وعمت وتمكن زعماء العصابة من الاستيلاء

على

على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة واهتم لها اهتماما عظيما فلما سكنت فتنة يانيا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا فى عسكر عظيم لاخضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة فقاتلوه قتالا عنيفا وانتصروا عليه نصرة مؤزرة فى مضيق الترموبيل ومزقوا شمل عساكره كل ممزق وتمكنوا من اضرام النار فى جميع سفن حرب الدولة العثمانية التى كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صاقز فمات فى الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صاقز وساموس وغيرهما واستخلصتها من أيدى أصحاب الفتنة فأفحش عسكرها فى القتل والنهب وسبى النساء والاطفال وارتكاب أنواع الفظائع والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميرا فلما جاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الاعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصا بعد أن قام سفراء الدول فى دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الاعظم مافعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبى النساء والاطفال فى صاقز وغيرها فعمد الى استعمال الحيلة وأخذ فى التدبير وسير الى محمد على باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وارجاعهم الى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بتلك الديار المصرية والاقطار الحجازية وأرسل اليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا الى ذلك وأعد القتال زهاء السبعة عشر ألفا من المشاة المصريين وعددا من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسوى فساروا الى مدينة الاسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا فى ذى القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية الى رودس فلبثوا بها أياما ثم رحل عنها الامير ابراهيم الى كريد وترك سليمان باشا فى طائفة من العسكر فلما وصل الى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار الى سواحل المورة يريد انزال جنوده بها فلم يتمكن وقاتله أصحاب الفتنة قتالا عنيفا للغاية وكان الى ذلك الحين لم يبق للدولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار ابراهيم باشا بعسكره الى مينا مودون وأنزلهم الى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الاهبة والاستعداد للقاء العسكر المصرى بما عندهم من الرجال والذخائر والاموال وآلات الحرب التى كانت ترد اليهم من أهل اليوروبا محبى تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت فى ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبى اليونان وانتظم فى عداد أعضائها كثير من الامراء والكبراء فكانوا يرسلون الى أصحاب الفتنة بالاموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم فى سلكها الشاعر الفرنسوى المسمى فيكتور هوجو والناظم كازيمير دلافين فجعلا يقولان الاشعار والقصائد الحماسية فى تلك الحروب ويبالغان فى وصف مايقاسيه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع فى قلوب أهل النخوة والمروءة فتجرد الكثير منهم الى التطوع وبذل النفس فى عتق تلك الامة وجاءهم أيضا واشتطون

مطلب
ولاية محمد على باشا
على المورة وكريد
ومقاتلة من بهما
من الخوارج

ابن واشنطون محرر بلاد أمريكا واللورد بيرون الشاعر الانجليزى متطوعين حبا فى تعميم الحرية
وانتصارا للضعيف على القوى ففاز اليونان وتقوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية
فى عدة وقائع واستخلصوا كثيرا من القلاع والحصون التى كانت تسكنها عساكر الدولة
العثمانية ولم يستقر بالامير ابراهيم فى مودون المقام حتى جاءه الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون
وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير لنجدتها طائفة من عسكره وسار هو فى طائفة لحصار
مدينة ناورين فنزل عليها وشدد فى حصارها وضيق ومازال بها حتى فتحها ودخلها عنوة فى
سلخ شوال سنة احدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار الى مدينة كالاماتا ففتحها أيضا
ودخل مدينة تريبولتا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطانى نازلا فى هذا الحين
على مدينة يسولونجى محاصرا فاستعصى عليه الفتح وأعيته الحيل فسير الى الامير ابراهيم
يستقدمه لنجدته فسار اليه فيمن معه من العسكر المصرى ونزل عليها وقاتلها قتالا شديدا
وبالغ سليمان باشا الفرنسوى فى حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد اليها من
البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصرى
والعثمانى ظافرين فأعملوا فيمن وجدوه بها القتل وغنموا منها شيأ كثيرا من المؤن والذخيرة
وآلات الحرب * ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى زحفت العساكر
السلطانية على مدينة أثينا وقاتلت عليها حتى فتحتها واحتلت قلعتها الشهيرة وكان بها الامير
كوشران القائد البحرى الانكليزى مقدم الجيوش اليونانية فى تلك الثورة فأعمل العسكر
السلطانى السيف فيمن وجدوه بها من العسكر والمتطوعة وأثخنوا فى القتل والتخريب
وبينما هم على هذا الحال والامير ابراهيم يتأهب لرد ما بقى فى أيدى أصحاب الفتنة اذ مات
اسكندر الاول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا الاول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد
الى معاكسة الدولة العثمانية وطالبها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها
وتسيير عسكره الى بعض الايالات التابعة لها فأجابته الى ماطلب وعقدت معه معاهدة
سميت بمعاهدة « آق قرمان » فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة فى البحر الاسود
والعبور من البوغازين بلا معارضة ولاتفتيش على ما فى سفنها وأن لاتحتل العساكر السلطانية
الا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو فى حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثيرا من
الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بادارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب
حكام كل من الفلاخ والبغدان لمدة سبع سنين ولايصح للدولة العثمانية عزلهما الا باقرار
من قيصر الروس * ومع ما كان فى هذه المعاهدة من الحيف والجور بالدولة العثمانية لم تربا من
قبولها تفاديا من فتح أبواب الحرب فى ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل
دس الى جميع الدول الكبرى بان يتوسطوا مابين السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فكلم
سفير الانجليز الصدر الاعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى مما تلاقيه أهل مورة من العسكرين
العثمانى والمصرى وألح فى الطلب فلم يلتفت السلطان الى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا

الى

الى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملكا الانجليز والفرنسيس وتعاهدوا على اكراه السلطان على منح اليونان استقلالهم الادارى وعليهم الجزية فى كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد تقوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلا لا يتجاوز ثلاثين يوما لا يقع فيها حرب ولاجلاد فلما علم السلطان بما فى هذا العهد غضب وأبى الا القتال حتى يرجعوا الى الطاعة وسير الى خورشيد باشا بالالحاح فى قتال الثائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبثت الدول الثلاثة تراقب فوات الاجل المضروب فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حربهم الى سواحل اليونان وكتبوا الى الامير ابراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت الى قولهم وقال حتى يأتى فرمان السلطان وسير الخبر بذلك الى دار السلطنة فاجتمعت سفن الاحزاب فى مينا ناورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت فى المنع ثم لم تلبث ان أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية وراسلت الرمى بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجو وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الاخبار بما وقع الى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الامر وكتب الى جميع الايالات التابعة الى مملكته يحذرهم من مقاصد الدول عموما ودولة الروس خصوصا ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعا عن الاسلام وأهله وأن يقوموا يدا واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وعجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره فى صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الامير ابراهيم انه لاقبل له على قتال الاحزاب بعد حرق أعظم السفن التى كانت معه فكتب الى أبيه بما جرى بخلاء الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود الى مصر فخرج بمن معه وعاد على مابقى من السفن المصرية الى مدينة الاسكندرية ثم وقع بعد ذلك ماوقع بين الدولة العثمانية والاحزاب فعقدوا محفلا فى لندن عاصمة الانجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما فى نفسه فلم يهمهم ذلك وقرروا ما شاؤا من سلخ بلاد اليونان من تابعية الدولة فانسلخت من ذلك الحين واستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل الى الخزينة السلطانية فى كل عام واشتغل السلطان بحرب الروس عن اخضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فترددت رسل السلطان فى طلب الصلح وبعد أخذ ورد تقررت القاعدة بينهما على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق واعتراف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التى تقررت فى محفل لندن عاصمة الانجليز

مطلب تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيس

وكان الى هذا الحين قد تمكن السلطان من ابادة جميع طوائف الانكشارية

وطوائف السلامدارية والعلوفه جيه وأراح الدولة من شرهم ﴿ قال أصحاب التاريخ ﴾ لما رأى السلطان أن لاقبل لهؤلاء الاخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتمدنة المنتظمة لاسيما فى الحروب الاخيرة عمد الى تنظيم عسكر على نسق العسكر الاوروبى ولمجرد لمعاداة كل من يخالفه فى ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمى جميع طوائف الانكشارية ومفتى دار السلطنة وكان ممن لايبغضون النظام الجديد فقام الصدر الاعظم بينهم خطيبا وتكلم فى أمر الانكشارية كثيرا وحض القوم على نصرة الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الاعداء والذب عن بيضة الاسلام فوافقوا جميعا على عمل مافيه المصلحة للامة والبلاد وحرروا محضرا بذلك وأفتى مفتى دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعا وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمى الانكشارية فلما شرعوا فى العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على مافعله كبارهم وأكثروا من التألب والاجتماع وتأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنتظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يراجمون العسكر المنتظم فى أوقات تمرينهم و يعاكسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك الى السلطان فأغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان وتأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقصدوه وتقدموا الى السلطان فى طلب قتالهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج الى ﴿ آت ميدان ﴾ فخرجوا وأمامهم العلم المشار اليه وخرج معهم أيضا كثير من العلماء والمشايخ وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنة والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم فى ضجيج وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع الحاملة السواد بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل وراسلوا الرمى واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا الى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوبوا أفواه المدافع نحو المنازل واشتدوا فى الرمى عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع لهيبها وتطاير شررها ومازالت النيران فى اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية وبات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بابطال زيهم واصطلاحاتهم وجميع مايتعلق بهم من جميع الايالات التابعة لمملكته ونودى بذلك فى الشوارع وطيروا الخبر بما جرى الى الآفاق وكتب الى جميع العمال بالقبض على كل من يجدوه منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل فى كل فج وتتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم الامن طال عمره فاختفى عن العيون والارصاد ٭ وجاءت الاخبار بما وقع بطوائف الانكشارية الى محمد على باشا فعادت همته الى ماكانت عليه قبل حرب مورة من تجنيد الجنود واتقان نظام العسكر والاكثار من الآلات والكراع

وانشاء

وانشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشوانى النقل بدل التى أحرقتها سفن الاحزاب وأقام البنايات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لحمل المؤن والذخيرة وغير ذلك فاتصلت أخبار هذا كله بالسلطان فحقد على محمد على باشا لما يعلمه من ميله الى الخروج ورغبته فى الاستبداد بملك الديار المصرية مع عجز السلطان عن رده وارجاعه الى الطاعة ان هو عمد الى ذلك وجعل يراقب الامور و يتودد الى محمد على باشا بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة * قال بعض الكتاب * وكان تأهب محمد على باشا واستعداده فى هذه المرة انما هو للزحف على الديار الشامية وضمها الى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من الخلفاء والسلاطين وكان شديد الرغبة فى ذلك جدا فاتفق أن بعض الملتزمين من أهل مصر هربوا الى عكا ونزلوا فى جوار عبد الله باشا الجزار واليها فرارا من محمد على باشا لدين عليهم وقيل فرارا من الفرض والطلبات المتتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد على باشا الى الجزار يقول له اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم الىّ فانه لا يصح أن تمنعهم عنى فاستعظم الجزار هذا الامر من محمد على باشا وأرسل اليه يوبخه ويشنع عليه ويقول لست خادما على بابك حتى تتصرف فى أمرى واياك أن تخاطبنى فى هذا الامر ثانيا فشق هذا الكلام على محمد على باشا وأقسم الايمان الغلاظ أن يسير عسكره الى عكا لقتال الجزار و يضم جميع البلاد الشامية الى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين * فلما كان سادس عشرى جمادى الاولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد عكا ومقدمها الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسوى وكان عددها زهاء أربعة وعشرين ألفا فساروا الى الصالحية فالعريش فغزة وركب الامير ابراهيم وحاشيته السفن الى يافا فلم يدرك يافا حتى استولت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار بهم الى عكا فنزل عليها سادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه أمامها ورمى عليها بالقنابل وواصل الرمى وشدد فخرج الجزار فى عسكر عظيم وقاتلوا قتالا عنيفا فمات منهم خلق كثير وعادوا الى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الاسوار وطالت الحرب واشتد الحصار ومنع الامير ابراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر الى سادس عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهجموا عليها واقتحموا أسوارها وحصونها فاستأمن من كان بها من العسكر الشامى والعثمانى فأمنهم ودخل بعسكره البلد فكاد العسكر يستبيحونها فلم يمكنهم الامير ابراهيم من ذلك وقيل أباحها ثلاثة أيام فأعمل عسكره فيمن بها السيف * فلما كان اليوم الثانى وصل الامير عباس حلمى ابن الامير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهوارة اعانة للعسكر المصرى فسيرهم الامير ابراهيم الى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا و بيروت واشتدت عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الامير ابراهيم الكتب الى البلاد كافة يدعوهم الى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية

مطلب
ما اتصل لمحمد على
باشا من العلل لفتح
باب الحرب على
الشامات والتغلغل
فى قلب آسيه

وكتب كذلك الى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول

تعلمون أن فى بيت المقدس كثيرا من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحج اليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى الينا هؤلاء عما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم فضلا عما أنتم فارضوه عليهم من الكلف والمغارم الفادحة غير ناظرين الا الى مافيه ارضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدنيئة والفعال الرديئة لاترضاها النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من اقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا من يذهبون زائرين بجر الشريعة شيأ من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموهم الصغار بدفع المال فان أطعتم أحسنتم لانفسكم وان خالفتم أسأتم عليها والسلام عليكم ورحمة الله

وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان فاغتم وكاد يسقط فى أمره وكانت قد جرت عادة الباب العالى أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التى تحصل فى هيئة الحكومة فى كل سنة فى اليوم الاول من العيد الاكبر فجاء فى صدر الجدول الذى نشر فى تلك السنة مامعناه قد رأينا أن لانقطع بتوجيه ولايات مصر وجدة وكريد حتى يأتى الى بابنا العالى جواب محمد على باشا على ما أرسلناه اليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبه من الخروج والعصيان على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التى سار فيها هو وابراهيم ولده ورجوعه الى حد التأدب وقهره بقدر ما تصل اليه القدرة ان شاء الله * ثم رسم للوزير عثمان باشا بالخروج فى جيش عظيم لقتال الامير ابراهيم واستخلاص مابيده من بلاد الدولة لاسيما منها مدينة عكا وقهره بجهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب الى الامير ابراهيم يدعوه فيها الى طاعة خليفته وسلطانه ويحذره من عاقبة الخروج وشق عصا الطاعة فلم يلتفت الامير ابراهيم الى شئ من ذلك وترددت الرسل بين العسكرين أياما على غير طائل ثم زحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهزم الوزير عثمان باشا بعسكره شر هزيمة وأخذتهم سيوف المصريين من كل صوب وحدب فرقت شملهم وولى من بقى منهم مدحورا فغنم المصريون ما كان فى معسكرهم من كراع ومتاع ورحل الامير ابراهيم المسير بعسكره بعد هذه النصرة الى مدينة حمص يريد حصارها والتضييق عليها ولحق الوزير من ذلك بحمص يجمع من بقى من عسكره وسار بهم خلف العسكر المصرى يتخطف ساقته ويناوشهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقاتلوه فهزموه ثانية وأعملوا فى جنده السيف ففروا ووصلت الاخبار بما جرى الى دار السلطنة فهال السلطان هذا الحال وأزعجه فأنفذ الى عامله على حمص بالثبات وقتال العسكر

المصرى

مطلب
تسليم محمد على باشا
والى حمص الى الامير
ابراهيم وصدور
فرمان السلطان
بعزل محمد على باشا
وولاية حسين باشا
سرعسكر الدولة بدله

المصرى ما استطاع ووصل الامير ابراهيم بجيشه ورجاله الى حمص فى سابع ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه والى محمد باشا بعسكره واقتتل الفريقان قتالا شديدا * قال بعض الكتاب * كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حمص الى الامير ابراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاهد مع الامير ابراهيم على ما لم يصل أحد الى معرفته فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستلم الامير ابراهيم حمصا ورتب أمورها على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشا الى حلب فاستسلمت اليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت اليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الحمل ويسير عنها الى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع الى دار السلطنة كاد السلطان يتميز غيظا وجهز حسين باشا سرعسكر الدولة فى جيش عظيم ورسم له بالخروج الى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة * كذا ولا أعلم ما هى ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال * وسلمه فرمان الولاية بيده وترجمته

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية الى فخر الامراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا بلغه الله ما شا وأسبل عليه بساط اليمن والامان وأفاض عليه سجال العدل والاحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغا وأورده من موارد الامن شرابا سائغا سنجق التشيرمان وأمير بحرية الاناضول الموجه اليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها ــ أما بعد ــ لايخفى على من نهمه أخبار دولتنا العلية وما هى عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقا بعد أن كان فردا من آحاد الرعية لايعرف له حسب ولا نسب قد تدرج الى أوج المعالى وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى فنظرنا اليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والاتضاع وكنا نظن انه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء ولكنه لدناءة أصله وخسة نفسه قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من اثارة الفتن وتهيج القلاقل والاحن ودس الدسائس الشيطانية بين عمال وولاة ايالاتنا الشاهانية حتى استمال اليه الكثير ممن كنا نعتمد عليهم ونركن فى جميع الامور المهمة اليهم وقد أقلق راحة أهالى البانيا والروم ايلى بشن الغارة على بلادهم والاكثار من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب يتولاها وكثيرا ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وفاوض مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة انه لم تخف عنا خافية قط وكثيرا ما دس الى عبد الله باشا

والى عكا الخاص فى طاعتنا ووسوس اليه وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس حتى فتنه أو كاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهما من العداوة والشحناء ماقامت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء ابراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور فى عسكر جرار الى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها وقاتلها ولم يبال بما أرسلناه اليه من الرسائل المفعمة بالنصح والاسترضاء ولم يعد عن غيه وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم نعجل بمؤاخذته ولم نتسرع بمعاقبته وطاولناه حقنا للدماء ورحمة بعباد الله الذين عهدت العناية الربانية الينا رعايتهم وعسى أن يجد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن والتمادى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع الى جادة الحق بعد هذا الزيغ والضلال والمروق عن الدين ويتوب ويستغفر عما جنت يداه وقد فسحنا الى ذلك المارق الاجل على يرتدع أما الآن وقد آن الاوان وحل القضاء الذى لا مفر له منه فلم يبق من باعث على التهاون والاغضاء ولكنا مع ذلك نعفو عمن يأتى الى بابنا طائعا لائذا مقرا بالذنب ممن شاركوه فى غيابة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم وقد أصدرنا فرماننا هذا العلى الشان بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد والحبشة اليك مع مايتبعها ورسمنا لك بنزعها من أيدى أولئك المارقين وانا لعلى يقين بحسن خبرتك ودرايتك بجميع الامور وبسالتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وبركة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم تسير بالعسكر المنصور الى حلب ثم تنحدر الى ديار مصر فتنزع جميع البلاد من أيدى أولئك الخائنين واذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب و يرجع الى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده واتق الله وأخلص النية يجعل الله لك من كل شدة مخرجا والسلام * فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفا بين فارس وراجل وتباطأ فى سيره حتى تمكن الامير ابراهيم من ترتيب عسكره على مايشاء وتأهب للقاء العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك الى محمد على باشا فجعل يبالغ فى التأهب والاستعداد وأيقن بان قد بلغ الحزم السكين واستعصى الوئام فلم يبق الا الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه و بين خليفته وهو أحكم الحاكمين * ووصلت طلائع عسكر السلطان الى مقربة من حلب فخرج لقتالهم الامير ابراهيم فى عسكره وقاتلهم وصبر على قتالهم حتى ظفر بهم و بدد شملهم ثم ساق بخيله ورجله حتى دخل حلب واحتلها فتفرق من بقى من العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك الى حسين باشا فتقهقر بمن بقى معه وتحصن فى مضيق بيلان أهم مضايق جبال الطورس وعلم الامير ابراهيم بخبره وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا وما زالا حتى تمت هزيمة العسكر السلطانى فغنم الامير ابراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتتبع من

مطلب
هزيمة عسكر
السلطان عند حلب

بقى منهم حتى نزلوا سفنهم التى كانت راسية فى مينا الاسكندرونة ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بما حل بعسكر السلطان فحزن واغتم وعم الخبر وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال أمر الفتنة فى إيالات الدولة العثمانية واشتغال الدولة بالحروب والخطوب المتتابعة فتطمع دولة النمسا فى ارجاع المجر الى سلطتها وتلحقها بمملكتها وكانت تلاحظ مع الحزم والتأنى الحوادث الجارية فى أوربا فأرسلت يومئذ الى محمد على باشا تتهدده بتسيير جندها مع العسكر السلطانى لقتاله ان هو لم يرجع الى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها فى ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والاشفاق الى الخليفة فكتبت الى قنصلها الجنرال بديار مصر بان انسحب من الاسكندرية واقطع كل علاقة مع محمد على باشا فانسحب فلم يلتفت محمد على باشا الى شئ من ذلك البتة واشتدت رغبته فى هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الايالات وتدمير معالم الخلافة وكتب الى ولده ابراهيم بالالحاح فى القتال وأن يعجل بالفتح ما استطاع وان يتقدم بعد ذلك الى الامام ما قدر فتغلغل الامير ابراهيم فى جوف الاناضول فكتب السلطان الى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع ان لم تبادر الى ايقاف محمد على عند حده وترجيع عساكره عن التغلغل فى جوف أملاك السلطنة العثمانية فكتبت دولتا الفرنسيس والانجليز الى محمد على باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحتا عليه بايقاف تيار هذه المحنة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين ❁ وأنفذ يومئذ قيصر الروس الامير مورايف أحد كبار قومه الى محمد على باشا ليكلمه فى ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيس الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيس أيضا الى الامير ابراهيم يقول ❁ كتابى اليك سرسك الله ورسل السلام يخاطبون أباك فى وضع حد لهذه القلاقل والمحن المترتبة على تلك الحرب القائمة فقد آن للباب العالى أن يطلب حقن دماء خلق الله الذين عهدت رعايتهم اليه وسيصل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولا الى أبيك ومعه شروط الصلح التى رضيها السلطان بناء على اشارة دولة الفرنسيس التى لم يبق فى وسعها السكوت عن هذه القلاقل التى عمت جميع المشرق أو كادت بسبب الحرب القائمة بين أبيك وسلطانه ولنا جميعا الامل بان ما جبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر فى عواقب الامور يكونان سببا فى قبوله الصلح وترك الخصام فيشير اليك بايقاف عسكرك عن التوغل فى قلب الشام والروم واطفاء نار الوغى حتى يأتيك الامر بما كان وما سيكون ❁ واعلم هداك الله أنك مسؤل أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكرك فى داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتيك الخبر والسلام

مطلب
ما كتبه السلطان
الى الدول من عزمه
على محالفة الروس
وتهديدها باهم بذلك

وكان الامير ابراهيم فى هذه الاونة ينتقل بجيوشه من مكان الى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه أن يسير اصد الامير ابراهيم سفينة حربية

وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيس بذلك فارسلت الى السلطان تتهدده بمساعدتها للعساكر المصرية ان هو عاقد الروس على شئ من ذلك ❊ ووصل في هذه الاثناء الجنرال مورايف رسول القيصر الى الاسكندرية وكلم محمد على باشا في أمر الصلح فحاول محمد على باشا وطاول وأظهر الشدة وخاطب الجنرال مورايف بغلظة وحدة فغضب الجنرال مورايف وعمد الى التهديد فضرب الى محمد على باشا أجلا فخشى محمد على باشا شر العاقبة وكتب الى ولده الامير ابراهيم يقول ❊ اذا أتاك كتابي باية أرض فقف حتى يأتيك رسولى ثم أعلم مورايف بما كتبه فطير مورايف الخبر بذلك الى الآفاق ففرح السلطان ولم تتمكن دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت في هذه الاونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أى جهة شاءتها بخيلها ورجالها أو سفن حربها في أى وقت شاءت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة (خونكار اسكله سي) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولاسيما دولتا الفرنسيس والانجليز فسعتا جهد الاستطاعة في ابطالها فلم تفلحا وخابت مساعيهما وخافت دولة الفرنسيس من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة فجعلت تراقب الفرص واشتدت عزيمة السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب ويستعد ويستعمل الحيلة في المماطلة الوقت بين أخذ ورد ليتمكن من لم شعث جنوده وجمع ماتفرق في تلك الاصقاع من أعلامه ❊ واتفق أن قدمت الى دار السلطنة في هذه الاثناء زهره هانم أرملة الامير اسمعيل ثالث أولاد محمد على باشا ابنة عارف أفندى قاضى عسكر ولاية آسيه وكان شيخ الاسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها قال بعض كتاب الاخبار ولم يكن ذهاب تلك السيدة الى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان يظن الكثير من الناس وانما كانت رسول محمد على باشا في التقرب من كبار السلطنة ومقدمى الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المابين بما لابيها من النفوذ والكلمة المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياما لم يخف فيها على عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان في خلال ذلك يكثر من مناجاة الدول في أمر ارجاع محمد على باشا الى الطاعة ويستفزهم الى الاخذ بناصر الحق وازهاق الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأيا حاول فيه وطاول ورد عليهم ردا جميلا وسألهم التوسع في النصح (قال الراوى) كل ذلك ليتمكن من الفرص المناسبة لاغراضه وقدمت بعيد قليل من الاسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الاميرة زهرة هانم فارسلت تستأذن السلطان في ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن الى رجال السفينة بشئ من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزى باشا أحد رجال سفن الحرب فلما ألقت النيل مرساها وعلم محمد على باشا بقدم فوزى باشا تغافل عنه ولم يظهر شيأ من الاهتمام به وأوعز الى حبيب أفندى أن يتلقاه ويكرم مثواه فانزله حبيب أفندى منزلا رحبا

ورتب

ورتب له المأكل والمشرب على أحسن مايكون ولبث على هذه الحال أياما لم ير فيها محمد على باشا ولا علم من أمره شيأ حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام الى القاهرة والالتقاء بمحمد على باشا ومناجاته فى أمر الصلح وفى العدول عما يغضب خليفته وسلطانه وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزى باشا وطلب أن يبدوا فيها رأيهم ليعمل هو به فقام برتو باشا وعارض فى ذلك كثيرا وقال يا أمير المؤمنين والله مامثل فوزى باشا فى مصر الا مثل الحمل الصغير الذى ذهب الى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو يا أمير المؤمنين أكبر من كل كبيرة والرأى أن ترسل اليه صارم أفندى مهردار الخارجية فهو ابن بجدتها وأخو نجدتها فأعجب السلطان رأيه وسير فى الحال بطلب فوزى باشا وكان فوزى باشا الى هذا الحين قد اجتمع بمحمد على باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ما أكبر معه العود الى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقر به فى دار السلطنة المقام حتى أرسل الى محمد على باشا يقول ايالك وخفض الجناح الى من سيقدم اليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع اليك فأتفق وايالك على مافيه المصلحة لبلادك انشاء الله تعالى

مطلب
مقدم صارم أفندى على محمد على باشا ليخابره فى الصلح

ووصل صارم أفندى الى القاهرة مع بعض الخدم والاتباع فاكرم محمد على باشا وفادته وبالغ فى الحفاوة به وأنزله منزلا عظيما فجعل صارم أفندى يغدو ويروح الى مقر محمد على باشا ويكلمه فى الرجوع الى طاعة سلطانه ومحمد على باشا تارة يظهر اللين وأخرى يظهر الشدة وآونة يشكو مما يلاقيه من أفاعيل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجلد فسأله صارم أفندى يوما قائلا أما آن لك أن تخلص النية وتمثل بين يدى خليفتك وسلطانك فتتعاقد معه على ما ترضيانه فاعتذر محمد على باشا وقال نفعل ان شاء الله اذا آذنت الفرص • قال الراوى لهذا الخبر ويعجبنى من محمد على ماقاله يوما لاحد كبار الاجانب وكان من أصدقائه هلا علمت بخبر جنون القيصر نقولا قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زورا وبهتانا فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من الغرابة بمكان فقال وعندى أنه ليس فى الامر شئ من ذلك فان جلالة السلطان متبوعى الاعظم أجن بكثير من نقولا اذ هو يدعو محمد على ذلك الشيخ الذى حنكته التجارب وهذبته المحن والنوائب الى المثول بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة قال ثم ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه وطال مكث صارم أفندى بالقاهرة وهو ومحمد على باشا كل يوم فى أخذ ورد وقد قال يوما لمحمد على باشا سيعطيك سلطانك ولاية مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك ان أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأقلعت عن عدائه فلم يلتفت محمد على باشا الى قوله فقال ويوليك أيضا ولاية عكا وطرابلس أوصيدا وطرابلس بشرط أن تعيد الى حكومة سلطانك سائر ماأخذته من الشام فلم يقبل وقال لابد من بقاء سائر مافتحته عساكرى فى يدى وفى يد ذريتى من بعدى فاذا تم ذلك قمت بارسال الاتاوة فى حينها الى الخزينة السلطانية ووفيت

طاعة سلطانى حقها فعاد صارم أفندى بعد أيام الى دار السلطنة ولم يمض على وصوله الا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد على باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية فى عقبه من بعده الارشد فالارشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج الى الخزينة السلطانية فى آجاله وخفض جناح الطاعة الى متبوعه وولى أمره فى السر والعلانية * وفى بعض الروايات انه لما عاد صارم أفندى الى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد على باشا من الاخذ والرد رسم السلطان فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتمليك محمد على باشا ديار مصر وكريد وتولية ولده الامير ابراهيم ولاية جدة وتسليمه رياسة الحرم المكى مع ضم الشام الى مصر وجعلها ارثا لذريته من بعده قال الرواى وجاء الى مصر صارم أفندى أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد على باشا بالاسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مثواه وأظهر له غاية المجاملة والتلطف وقال له انما نعطى الى بلاد الشام الى طوروس كما نعطى لذريتى من بعدى قال فراجعه صارم أفندى وقال هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تتكفوا عن اراقة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد على باشا لا سبيل الى غير ما أقول ولا مصلحة لى الا فى الذى أنا طالبه فقال صارم أفندى والمصلحة عندى أن تمتثل بين يدى سلطانك فيهون الامر وتنفرج هذه الازمة فقال نفعل ان شاء الله فعاد صارم أفندى الى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد على باشا شئ * قال وقد كان صارم أفندى هذا يحمل معه عند ذهابه الى مصر عقد الصلح الذى كان وقع الاتفاق عليه فى بلد كوتاهيه التى هى مقر الامير ابراهيم وعساكره يومئذ * قلت * ومع بحثى عن معاهدة كوتاهيه هذه لعلى أعرف لها تفصيلا اذ هى من أهم الملفات التاريخية لحروب محمد على باشا مع دار السلطنة لم أجد لها أثرا ولم أقف لها على خبر فى مؤلفات أصحاب التآليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير تيتسا الفرنسوى الذى تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التى دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أنى وجدت فى مؤلفه المشار اليه صحيفة ٣٥٠ ما نمر به * ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذى وقع بين الباب العالى ومحمد على باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التى سميت باسم كوتاهيه وهى المدينة الكائنة بآسيه الصغرى وعندى أن لا أثر البتة لهذه المعاهدة ولم يحصل مطلقا غاية ما وقع أن السلطان أرسل الى محمد على باشا بعض الفرمانات والخطوط الهمايونية فعلم منها محمد على باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منحه اياه من البلاد والامتيازات الاخرى التى اقتضاها يومئذ الحال قال ثم بعد أن تبادل الفريقان الاخذ والرد انحسمت الاسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حينا من الدهر انتهى * وأرسل محمد على باشا من فوره الى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندى يقول

ليس

ليس فيما رسم به السلطان شئ مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وانه يبقى الحالة الراهنة على ما هى عليه من عدم قبول شئ من ذلك البتة وسير الى ولده الامير ابراهيم بالتأهب والاستعداد الى اصلاء نار الحرب ثانيا وعدم الوقوف عند حد ، ووصلت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فأعظم السلطان الامر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر فى أمر عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانعقد المجلس فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف فحضر فيه ثلاثة من المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الاسئلة الآتية اليه

مطلب عقد المجلس الشرعى بدار السلطنة والحكم بعصاوة محمد على باشا وولده ابراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت

ما الذى جاء به الشرع الشريف من الامر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين

الجواب عن ذلك ، قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره بجهد الاستطاعة

ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن اليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الاحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدرا وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة الدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين

الجواب عن ذلك ، يجرد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو الى طيور الفلاة وهذا جزاؤه فى الدنيا وفى الآخرة الخزى والنار الآكلة

هل يكون الخليفة مسؤلا بدم ذلك المارق أمام الله والناس

الجواب عن ذلك ، لاجناح عليه ولا تثريب فانه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف

ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وحده ، حيث ثبت خروج محمد على وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولا بتجريد محمد على وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلا مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان اه

وجاء الخبر الى محمد على باشا بما جرى فى دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت اليه وسير

الكتب الى والده ابراهيم بالاكثار من الحصون والقلاع على خط جبال الطوروس التي هي مفتاح الشامات من جهة آسيه وامتنع من حمل الخراج الى الخزينة السلطانية وشدد في تعبية الجيوش واعداد المعدات وسير كثيرا من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة الى والده فسعى سفراء السلطان لدى الدول الكبرى في وساطتهن في الامر والعمل على ايقاف محمد علي باشا عند حده وكانت دول أوروبا تعرف انه اذا اشتدت نار الوغى بين محمد علي باشا وسلطانه وتم لمحمد علي باشا مايتمناه من تغلغل عسكره في داخلية آسيه وضم أكثر بلدانها الى مملكته التي يريد الاستقلال بها وجعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس الى العمل بمقتضى معاهدة خنكارا سكله سي فتنشب أظفارها في جوف المملكة العثمانية وتنال منها غنما فيستعصى على الدول ارجاع الشئ الى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك * فكتبت دولة الفرنسيس على يدي البارون روسين متولي أعمال خارجيتها الى محمد علي باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشؤومة بعد أن عرف قدرك وتحقق أن لاقبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور وبحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاقد عليه مع قيصر الروس وقد سير اليه بايقاف ارسال تلك النجدة التي كان يطلبها لقتال ولدك وود لو لم يكن قد تسرع في الامر ولكن القيصر لم يلتفت الى شئ من ذلك ورسم فأتت الى بوغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فألقت مرساها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضورها ان أنت أبيت الصلح وصممت على القتال فاحذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعليل ولا تفتح لخصوم الدولة بابا يلجون به الاضرار بها وأنت هداك الله شريك لسلطانك في السراء والضراء وسيقدم عليك خليل باشا مبعوثا من قبل السلطان ومعه شروط الصلح التي تقررت قاعدتها فلا تأباها عليه ولا تشط في الطلب فتدفع بدولة الروس الى ابتلاع مملكة سلطانك واذكر أنك ان عاقدت سلطانك على الصلح حقنت دماء قومك وعلمت مافيه المصلحة لبلادك فعجل بتسيير رسلك الى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ماتنازل لك عنه فقد عفا عنك وولاك حكم عكا وجميع أراضي بيت المقدس والشام ونابلس واياك والطمع فانه يجلب عليك وعلى بلادك وبالا ونكالا واعلم أن دولة الفرنسيس التي هذبت رجالك وعلمت فنون الحرب لابطالك هي التي أشارت بعقد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعدة الواصلة اليك وأرسلتني الى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هوى النفس وسيصل الى مقرك السامي كتابي هذا على يد كبير تشريفات ديواني فأكرم وفادته كما عودتنا الجميل والسلام

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والانجليز الى محمد علي باشا على يدي قنصليهما تهددانه بأشد مايكون من التهديد ان هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانه وأرسلت اليه دولة الروس تقول أيضا ان لم تعدل عن غيك وتنكف عن عدائك وترجع الى طاعة سلطانك

علمت

مطلب
ما كتبه محمد على باشا الى صاحب سياسة الفرنسيس

عملت بمقتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفعلت ما تسؤلك عقباه ومالم تطق عليه صبرا اذا لم تعجل دولتا الفرنسيس والانجليز بحصر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن حربهما وتضيقا عليها تضييقا ثم واياك والشطط فى دعواك بعد الذى تنازل لك عنه خليفتك فالله الله فى نفسك وأهلك وولدك والسلام

فكتب محمد على باشا الى صاحب سياسة الفرنسيس يقول ۞ أما بعد فقد وافانى كتابك الشريف على يدى كبير تشريفات مقرك المنيف وقد ذكرت فيه انه بمقتضى قاعدة الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى حكم ولاية عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخرى أجل ويعلم الله من ذكرها وانه يلزمنى بعد ذلك استرجاع جميع جنودى من بلاد الاناضول والمبادرة الى عقد رباط الصلح مع سلطانى فاذا أبيت ذلك قامت دولة الفرنسيس بخيلها ورجلها لتذيقنى وجميع أهل بلادى مر النكال ۞ أعاذنا الله معاشر المصريين من ذلك ولقد بلغنى رسولك هداه الله أنى ان لم أبادر الى قبول تلك الشروط الجائرة وأحلها محل السمع والطاعة سيرت الىّ دولتا الفرنسيس والانجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشحونة بالرجال لتكرهنى على الطاعة والتسليم ۞ فقل لى بحقك كيف جاز لكم اكراهى وأى شرع من شرائع الأمم المتمدنة أحل لكم هذه الفعال أوترضى أمة الفرنسيس أم التمدن ومهد الحرية والتفنن أن أترك بلادا فتحتها بالسيف والجهاد والكفاح والجلاد قضية مسلمة اعلم أن قومى وسائر أهل بلادى هم طوع أمرى واقفون عند حد اشارتى فلا شئ عندى أقرب من أن أقود بنفسى جيوشى تلك المظفرة وأسيرها لفتح جميع بلاد الاناضول والروم ايلى وأبذل النفس والنفيس فى ضم كلما استطعت ضمه الى مملكتى ما دام فىّ قطرة من دم وثق بانى قد وطنت النفس على ذلك فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وانى لأعجب كيف تشدد علىّ النكير وتكرهنى على ترك بلاد قد حكمتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فتحها جيوشى أصعب المصاعب وأتعب المتاعب وأريقت فيها الدماء الكثيرة وضاعت الخزائن الوفيرة وعلم أهل المعمور شرقا وغربا شهامة رجالى وبسالة أبطالى ونبالة مقصدى واستبشر الناس طرا بأنى سأوفق ان شاء الله تعالى الى فتح جميع بلاد الدولة العثمانية وآمال منها قبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك أن تشير بترك مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لاتفارقنى أبدا ولا أفارقها الا بمفارقة الروح للجسد فاتقه باعدالك الله واعدل ولا تكن من المجحفين واذكر أن المروءة لاترضى بذلك من وطن النفس على القيام بخدمة الشرق عموما ودولة آل عثمان خصوصا والسلام

(قال بعض الكتاب) ثم لم ير محمد على باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدا من العدول عن طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام الى طلب الولاية بالتوريث فى عقبه من بعده وأن يكون حكمه فى ذلك كحكم ولاة بغداد وعلى باشا والى يانيا وسير الكتب الى سفراء الدول وكلم سفير الفرنسيس فى ذلك طويلا فلما لم يرمنهم أذنا صاغية عمد الى

مطلب
ما كتبه محمد على باشا يهدد به الدول

التهديد * وكتب اليهم ثانية يقول كتابى اليكم بالأنصار الانسانية وعهدى بكم الوفاء وحسن الاخلاص والولاء وانى والله لأدرى ما علة هذا الجفاء مهلا مهلا مابالكم تجافيتم بعد ذلك العطف والتلطف فان كنتم ترون فى طلبى الاستقلال علة مافى بدى شططا وغمطا لانعمد عقباه فقد عدلت عنه الى طلب الولاية وجعلها ميراثا بعدى الى ولدى ولا اخالكم تكرون على ذلك أيضا بعد الذى تحققتموه من أمرى فان شئتم فعلتم ذلك والافدون استيلائى الى سلطانى على يدكم خرط القتاد ولا لوم على ولا تثريب اذا جاهرت بالذى أبتغيه وحافظت على مابيدى من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلا ورأيت كثيرا وخير لشيخ مثلى أن يموت عزيزا موقرا من أن يموت حقيرا مرذولا وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيأ يتعدى مصلحة أوروبا السياسية ولم أسأل ماهو من العنت والخيلاء فى شئ فمالكم تراوغوننى مراوغة ماأنزل الله بها من سلطان أتكونى على غير دين المسيحية لاأظن ذلك و يعلم الله فان المروءة والشهامة تأبيان الاضرار بمن لايبغى الا الى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده ولقد أكثرت من الشكوى ولم أشف عنكم ماوطنت النفس على عله فلم يبق الاأن أقول علانية انى عاهدت النفس أخيرا على الخوض فى معامع الحرب والجلاد حتى الموت فان فازت الدول بالانتصار وألحقت بى وبعسكرى البوار فهذا لايزيدها شرفا ولا يكسبها غنما اذأنها أكبر من ذلك كثيرا وان أتاح الله سبحانه لى الظفر ووفقنى الى سبل الغلبة والنصر أريت الدول عاقبة هذا الامر وأنبأتها بما لم تطق عليه الصبر وكم فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة باذن الله والسلام

مطلب
احتفال السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه وهدية محمد على باشا

واتفق فى غضون هذه الحوادث أن احتفل السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه على خليل باشا أحد كبار رجال الدولة فعمل لذلك الافراح والولائم وأتت اليه هدايا الملوك والسلاطين والولاة من كل صوب وحدب فأرسل اليه كذلك محمد على باشا شيأ كثيرا من الاعلاق النفيسة والتحاف الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان بها الا كاحتفال الدائن بأخذ ماله فى ذمة مدينه ولم يرد على محمد على باشا ردا جميلا فامتعض محمد على باشا من ذلك وعاد الى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم فى وجهه فكلم وكلاء الدول السلطان فى وضع حد لهذا النزاع والخصام يكون من ورائه فصل الخطاب والكف عن اراقة تلك الدماء هدرا فأجابهم بأحسن جواب وأخذ على نفسه هذا العمل وهجر سرايه المعروفة بسراى استافروى فرارا من الطاعون الذى دخلها بالعدوى من بعض الشيلان الكاشميرية التى جاءته هدية من قاضى القضاة بمصر ومنع رجال دولته من التداخل فى أمر حل هذه المشاكل ولم يشرك معه فى حلها سوى سعيد بيك كاتم أسراره الاول وواصف أفندى كاتم أسراره الثانى وجعلت رسله تتردد على مقر سفير الفرنسيس وطال الاخذ والرد فى تقرير قاعدة لتنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها الى محمد على باشا ثم الى ذريته من بعده ميراثا للارشد فالارشد وعن ولاية الشامات مقيدة

ببعض

مطلب
ضرب الجزية على أهل حوران ولبنان

بيعض القيود اللازمة لحفظ حقوق المتبوع على التابع وألح سفير دولة الفرنسيس فى ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح ❁ وكتب محمد على باشا الى ولده الامير ابراهيم يأمره بالتأهب والاستعداد لاصلاء نار الحرب فى الاقرب العاجل فجعل الامير ابراهيم يتأهب وقد بالغ فى ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس منهم بالشر والخروج عن الطاعة فالزمهم الصغار واشتد فى تذليلهم وعمت الجزية سائر أهل تلك الاصقاع وقد كان عمال السلطان قبلا لايفرضونها الا على اليهود والنصارى دون المسلمين فعم القلق من أقرب البلاد الى أقصاها وبدت اشارات العصيان وعلم الامير ابراهيم بحضور جماعة من عيون السلطان وانهم يجوبون البلاد ويحضون الناس على الخروج واضرام نار الفتنة فبالغ فى الحيطة والتحرز وبلغ جيشه الذى جمعه فى هذا الحين زهاء ثمانية عشر ألفا ❁ وجعل السلطان يكثر أيضا من حشد الجيوش وبعث المعدات ويرسل الجند تباعا الى حدود الشامات وقلب آسيه وسلم قيادتها الى حافظ باشا أحد كبار الحرب وعمد الى الاضرار بمحمد على باشا ماليا أيضا فعاقد دولة الانجليز على يد رشيد باشا واللورد بونسنبى على منع احتكار الحاصيل المصرية فكبر هذا الامر على محمد على باشا وكاد يسقط فى يده لحاجته الى المال لنفقة الجنود وجعل يفكر فى تجديد المخابرات مع الباب العالى مباشرة مبتعدا مااستطاع عن وساطة الدول سادا دون ذلك كل منفذ وباب ❁ قال

مطلب
سفر محمد على باشا الى السودان فى طلب معادن الذهب

بعض الكتاب وكان يرى انه فى حاجة الى المال الذى هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل الى بلاد السنار فى طلب معادن الذهب حتى اذا فاز منها ببلوغ الارب أعطى ووهب وقهر وغلب وقلب الى تلك الدول ظهر المجن بعد الذى عاناه بسببهم من المكايد والمحن وقال آخرون بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث وتفريج تلك الازمة التى استحكمت حلقاتها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتى الروس والانجليز عدوا لدودا وخصما مشاغبا كنودا وأن رجوعه القهقرى بعد ذلك التشامخ والتعاظم يكون نقطة سوداء فى صحيفة أيامه فعمد الى تلك الرحلة وعقد النية على انه ان عاد سالما لايظهر فى ميدان ذلك المعترك بمظهر البادئ بالشر الا اذا اضطره الخصم الى القبض بكلتى يديه على جمر هذا الجمر ● وكان معه فى هذه الحملة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الارض من الفرنسيس وغيرهم وجماعة من الكتاب القبط والملتزمين والخدم والاتباع وجاهد من مشاق الاسفار مالا يقدر عليه الا القليل فلما وصل الى سنار جاءه مشايخ القبائل وأمراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيرا من الاماء والعبيد والخصيان وسن الفيل والريش والعطريات فأكرم لقاءهم وبالغ فى الحفاوة بهم وسادهم فيما هم عليه ووعدهم خيرا ان هو ظفر بأمنيته من تدويخ سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الارض فى

أنحاء السنار يحوبون الصحارى والقفار علهم يهتدون الى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا الى ذلك البتة سوى ما عثروا عليه من بعض الزمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الامر وسار عن السنار وقد ترك بها جماعة من المهندسين والعمال والكتاب وأصحاب طبقات الارض وهو على عزم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فعلم بخبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتحايا المعتاد ارسالها فى كل عام الى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدومه وأغضى عنه وكأنه لا يعلم من أمره شيأ فأرسل اليه النائب يقول « أمير المؤمنين يقرئك السلام ويخصك بالتحية والاكرام ويقول عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثا بعد الذى علمته من اغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يرد عليه أياما ثم أرسل اليه كتابا يقول فيه لست فى استعداد لقتالك الآن فارحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور الا العود خائبا مقهورا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين الى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب واصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغرا وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التأنى وترك العجلة والاخذ بأسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الامور الى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين التبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بعض الكتاب وقد كان خسرو هذا من ألد أعداء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان واليا على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بسببه بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أياما كثيرة حتى خلعه محمد على باشا وأخرجه من مصر خاسرا مقهورا وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لامراء فيه أن خسرو باشا مع قيامه بزعامة حزب السلم كان يرجو قهر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول ان دمر محمد على وقهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أتمنى أن يحيق به جزاء له على خلعى من ولاية مصر واخراجى منها قهرا وان ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كى يحيق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والشنار والخزى والبوار

وعلت فى غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران ولبنان وكثر ضجيجهم ونادوا بالخلاص من نير عبودية الامير ابراهيم وجور عسكره وقدمت رسلهم الى دار السلطنة يطلبون المدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الامير ابراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبثت عصاباتهم فى القرى والبلدان يدعون الناس الى شق

مطلب
انقسام رجال الدولة العثمانية وعدم اتفاقهم على استمرار القتال مع محمد على باشا

مطلب
خروج أهل الشام وانتشار الفتنة

مطلب
قيام محمد على باشا الى يافا لتسكين الفتنة

شق عصا الطاعة فهبوا جميعا الى الثورة فأرسل الامير ابراهيم الى أبيه بالاسكندرية يستنجده فسار محمد على باشا من فوره الى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتحف الفاخرة فلما ألقت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا اليه فأحسن لقاءهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التحف الغالية وبالغ فى استمالتهم فمالوا اليه وعاهدوه فأرسل الى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرد أصحاب الفتنة وشدد عليه فى ذلك وبالغ فى توبيخه وتعزيره استرضاء لاصحاب العهد فخرج الامير ابراهيم بعسكره وحارب أصحاب الفتنة وقاتلهم قتالا عنيفا حتى دوخهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أياما كثيرة ثم عادوا فطلبوا الامان فأمنهم وركب كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة وأرجع أهلها الى الطاعة وسير جماعة من عسكره الى اللاذقية فبينما هم فى طريقهم اذ خرج عليهم أهل الناصرة ثانية فنالوا منهم قتلا وجرحا وتشريدا فرجع من بقى الى حيث الامير ابراهيم فكبر عليه هذا الامر وأخذ فى التدبير على أهل الناصرة وعاهد الامير بشير الشهابى على الذب والدفاع فجيش الامير بشير عسكرا لقتال أهل الناصرة وقدم عليهم ولده الامير خليل وجيش كذلك الامير ابراهيم جيشا آخر وسلم قيادته الى الامير خليل فسار بهم الى الناصرة وقاتل من بها فوقعت بينهم عدة وقائع كانت الحرب فيها سجالا وما زال الامير يقاتل والمدد يأتيه تباعا حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم وقبض على كبارهم وسلمهم الى الامير ابراهيم فنكل بهم وقتلهم وبالغ فى التصدر واستئصال أسباب الفتنة فرسم بجمع ما فى أيدى الشاميين من سلاح وآلة حرب وشدد فى ذلك وتوعد وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكبسون الدور ويحفرون الفسحات ويهدمون الجدران ويخرجون ما فيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيأ كثيرا فخافه الشاميون وانكمشوا وانمحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشامات فلم يتركهم بل عمد الى اذلالهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الحمل وأدخل الشبان من أولادهم فى مصاف الجند وسيرهم الى أقصى البلاد فكان عمله هذا من أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم كذلك فيرجعون الى الطاعة وقد تراكمت الشكاوى من ذلك على الباب العالى فأبلغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج ابراهيم وعسكره من الشامات وجلائهم عنها بغير معاودة والا فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار فراجعته دولة الفرنسيس وكذلك فعلت دولة الروس آخذة فى هذه الاونة برأى كبير ساستها المسيو روبوتانوف • قال أصحاب التاريخ فقد كان هذا الرجل من فحول أصحاب السياسة ومقدمى رجال الرياسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسنبى سفير الانجليز من المواربة والدهاء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد الى تغيير خطة سياسة دولته من

المكابرة والمعاندة الى المساهلة والمجاملة واتبعتهما فى ذلك أيضا دولتا روسيا والنمسا وأكثروا جميعا من الاخذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحاول ويظهر خلاف ما يبطن حتى خشى حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد الى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فلم يفلح لمكانته وقربه من السلطان فعدل عن ذلك الى طلب تحقيق حالة الشامات وما اذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التى لايعلم عاقبتها الا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارها وسير سعيد باشا ناظر الحربية الى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية الى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعله وقلت عندهم المؤن وفشت بينهم الامراض وكثر الموات وسامت حالهم وبدت منهم اشارات الخروج وشق عصا الطاعة فكان حافظ باشا مقدمهم يخشى عاقبة ذلك ويلح على السلطان بطلب الاذن بفتح باب الحرب والزحف بعساكره لقتال الامير ابراهيم فأجابه السلطان الى ذلك وسير اليه ثلاثة من كبار قواد الجيوش البروسياويه وبينهم البارون ملتكه الشهير ليكونوا له عونا على العمل فسار حافظ باشا بعسكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهم اسمعيل باشا وسارت على أكمل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الامير ابراهيم قد سار عن حلب الى حوران ليرى المزارع وغرس الاشجار الكثيرة التى أشار بغرسها فى تلك الاصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل الى قواد عسكره يستحثهم على التأهب والاستعداد وجمع اليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الانحاء واستحلفهم على الطاعة والولاء فحلفوا له الايمان الغلاظ وكان ممن حضر معه فى ذلك اليوم سليمان باشا الفرنسوى فقال له أيها الامير خفف عنك فوالله إما أن ندخل دار السلطنة فى هذه المرة بعسكرنا المنصور واما أن نعود الى ديارنا مدحورين خاسرين فسر الامير ابراهيم عند سماعه هذا الكلام وقال باركت ياسليمان والله لن يكون الا دخولنا باذنه تعالى ظافرين غانمين * وأحاطت العساكر السلطانية بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب وحدب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلد والولوج منها الى المفاوز الموصلة الى مدينة أطنة وجاءت كتب السلطان الى عزت محمد باشا والى انجور بتجييش الجيوش واعداد المعدات مددا عند مسيس الحاجة وسار كل من والى بغداد ووالى الموصل فى عسكر عظيم مددا الى حافظ باشا قال بعض الكتاب ولم يكن سير هذين الاميرين بعسكرهما الا لامداد الامير ابراهيم ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الامير ابراهيم فى خلال هذه الحركة وتعبية تلك الجيوش الجرارة ساكن القلب هادئ اللب وهو مع ذلك يعلم أن جيوش السلطان التى جاءت لقتاله فى هذه المرة زهاء المائة ألف وخمسين ألفا فضلا عما وصل أيضا من سفن الحرب الكبيرة والشوانى المشحونة بالمدافع والمقاتلين وجعل يرتب جيوشه ويرسلها الى مواقف القتال فسارت منها طائفة الى مرعش وأخرى من أصحاب المدافع الى عنتاب لرد أهلها الى الطاعة فانهم

لما أحسوا بقرب العساكر السلطانية منهم ثاروا على عمال الامير ابراهيم وشاغبوهم وسارت طائفة أخرى من الفرسان وأصحاب المدافع الى حماة ومعهم جماعة من عربان الهنادى ومقدمهم قفطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضا وانضمت الى العسكر المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لنفقة الجند واحتياجات العسكر فزاد فى فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف والصنائع والكتاب والملتزمين وبالغ فى جمعها وبث الجباة والمأمورين يجوبون البلاد شرقا وغربا فى طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضا سائر ما كان مودعا من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج الى بعض المدن مثل طنطا والمحلة وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها لبعض الجباة والمأمورين على جمع المال وكتب الى الامير ابراهيم يقول • لاتعجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعا لامها جما حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم

وكان الى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف باهل تلك الاطراف من عبث الجيوش العثمانية واهلاكهم الحرث والنسل • وقدم طاهر باشا رسولا من قبل السلطان الى حافظ باشا مقدم العسكر السلطانى يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب واصلاء نار الوغى وكانت عيون الامير ابراهيم تنقل اليه الاخبار فأعلموه بخبر ماهى عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فاتخذ حلب مقرا لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثانية على السمع والطاعة فحلفوا فجبا أهلها الجزية سلفا فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستقرضهم قرضا قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه اياه فكان ماخص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفا وسير لحراسة بعلبك ومنع القادم من العساكر العثمانية الى حوران ولبنان طائفة من الارناؤط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كى يخلدوا الى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيوخهم ومدبرى أمورهم وأعاد اليهم ماكان قد جمعه منهم من الاسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عريان أحد كبارهم ومقدى حزبهم عينا ليراقب أحوالهم ويحرس دروبهم وبالغ جدا فى الحيطة والتحرز من أهل تلك الاطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال

ووردت كتب الدول الى وكلائهم بالاسكندرية بان يعاودوا محمد على باشا فى كف ولده عن الزحف والقتال ❀ قال بعض الكتاب • وكان كتاب كبير ساسة الروس فى ذلك الى

مطلب
اتخاذ حلب مقرا لحركة العساكر المصرية واستحلاف أهلها على السمع والطاعة

مطلب
عود قناصل الدول الى مكالمة محمد على باشا فى الصلح وما كان من وراء ذلك

قنصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكان محمد على باشا فى هذه الاثناء يجوب البلاد وقد وصل الى مدينة دمياط فسار اليه قنصل الروس وأبلغه الرسالة وأخبره بخبر كتب الدول الى وكلائها فغضب محمد على باشا وعاد من فوره الى الاسكندرية فاجتمع اليه سائر القناصل وجعلوا يكلمونه فى الاقلاع عن كل هذا العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى للصلح قال فامتعض محمد على باشا وقال ما بالكم تسعون فى الاضرار بى وباهلى وولدى وما بالكم تضربون على يدى وتطلقون يد السلطان يقتل من شاء ويخرب ماشاء ويحرق ماشاء أولم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بينى وبينه والله لن أرجع عن الحرب والقتال ولن ترجع عساكرى عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بينى وبينه وهو أحكم الحاكمين • فجعل القناصل عند ذلك يخففون عليه حتى سكن بعض مابه ورسم الى كاتب سره أن يكتب الى الدول شيأ عما هم بصدده فكتب يقول • قد خاطبنى قناصل الدول العظمى بما جاءهم من الكتب فى أمر تقرير قاعدة للصلح بينى وبين سلطانى فلم أر بدا من العود الى اعلامكم بما قد وطنت النفس على عمله آخذا بمشورتكم فان عادت العساكر السلطانية الذين عبروا الفرات وأصبحوا على مقربة من المعسكر المصرى الى حيث أتوا وتم ذلك فى الاقرب العاجل سيرت الى ولدى بايقاف عسكره ورجوعه الى دمشق مع حاشيته وأركان حربه وان خرجت سائر العساكر السلطانية وانجلت عن الديار الشامية استوقفت سائر جيوشى واستقدمت ولدى الى مصر فاذا تكفلت لنا الدول بالمحافظة على السلام وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريث أولادى من بعدى ملك مابيدى من البلاد فانى لاأحجم عن استقدام بعض جيوشى الى مصر ولا آنف من العود الى المخابرة مع سلطانى فى تقرير قاعدة للصلح واضحة الاركان لايبقى من ورائها باقية والسلام • قال بعض الكتاب • كل هذا والسلطان يظهر الى سفراء الدول خلاف مايبطن فكان من جهة يقول انه مابرح يطاول محمد على باشا وولده ويدفعهما عن بلاده بالتى هى أحسن ومن أخرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانتقال من بلد الى آخر بعلل وأسباب مختلفة وقد أنشب الموت أظافره فى العساكر السلطانية فأهلك منهم خلقا كثيرا ولحق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل فريق من العساكر فى مضيق من الجبال وعر المسالك ولبثوا فيه لايتحركون أياما • قال الراوى فلو كان الامير ابراهيم نازلهم فى ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لأتى على آخرهم ولكنه لم يفعل حقنا للدماء ولكى لايقال انه البادى بالشر وشاع خبر ذلك فى دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا فى ذلك فلم يروا منه جنوحا الى المسالمة ولا ميلا الى المكالمة وكثر اللغط بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسنبى سفير الانجليز ميل الى معاداة محمد على باشا وأوعز الى قنصل الانجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان فى تقليد الجنرال سكراتودسكى البروسياوى قيادة الجيوش

العثمانية

العثمانية فى هذه الحملة فلما شاع خبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسياوى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا الدار ولا هذا العار الذى يلحق بنا اذا ظل الرجل فى خدمة جيوشنا وكان هذا الجنرال قد تجنس بالجنسية الانجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشدد فى المنع تخاف السلطان شر العاقبة ولم يوافق على طلب اللورد بونسنبى وانبثت العساكر السلطانية فى أنحاء الشامات فعاثت وأفسدت واجتمع اليها أهل البطالة والفساد وأتت اليها الاحزاب من كل صوب وحدب ووصلت طائفة من الفرسان الى ناحية (مزار) على قيد فرسخين من نصيبين وأرسل مقدم هذه الطائفة الى عامل السلطان على (أرول) فى طلب الرجوع الى طاعة سلطانه وترك الامير ابراهيم وشأنه فأجابه الى ذلك وعلم الامير ابراهيم بخبره فرسم الى محمد محبون بك بالمسير بمن معه من العساكر والعربان الى تل باشر فسار اليه ثالث عشر ربيع الاول من السنة وكثر احتلال الجنود العثمانية لكثير من القرى والبلدان الداخلة فى ولاية عنتاب والتقى والى (أرول) بمقدم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى فى السمع والطاعة اليه وأشار عليه بجمع مشايخ ذلك الصعيد ففعل فكلمهم فى الخروج عن طاعة الامير ابراهيم فأجابوه الى ذلك فأعطاهم الاسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم الى قتال العسكر المصرى ومع كل هذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول ان أمير المؤمنين جانح الى السلم كاره للحرب وانه على ما هو عليه من التأنى وترك التسرع حتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه

وكبر كيد الامير ابراهيم فلم يبق فى امكانه السكوت لاسيما وقد انبثت العساكر السلطانية حوله وجاؤا الى مواقع عسكره من كل صوب فارسل الى سليمان باشا الفرنسوى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب فى جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا بمن معه وبينما الامير ابراهيم فى طريقه اذ جاءه الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رابطا عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شر هزيمة وأسر منهم جماعة كثيرة وتفرق شمل من بقى منهم فأزعجه هذا الخبر وسار سيرا حثيثا يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المابين السلطانى فى خلال هذه المشاغبات يكثرون من الضجيج والعجيج الى الدول من شر فعال محمد على باشا وولده ابراهيم وامتناعه من حمل الخراج الى الخزينة السلطانية ويقولون انه ما برح يظهر الى سلطانه كل بغض وعداء بتجييشه الجيوش واعداده المعدات بعد أن صفح عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة الى وكلاء الدول كتابا يقول فيه * قد آن لكم أن تروا ما يراه أمير المؤمنين من لزوم حل عقدة هذه المشاكل والاحن التى قوضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفحل شر هذا الامر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداس بقدميه هامة الخلافة وزعزع أركانها وبلغت به

القمة مبلغها والجسارة منتهاها فلم يبق فى وسع الباب العالى الاغضاء بعد هذا كله ٭ وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث الى الاسكندرية سفراء يعرضون على محمد على الرجوع الى طاعة خليفته وسلطانه فان أذعن عفا الله عما سلف وان امتنع وكابر فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار ٭ ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الانجليز التى وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدها ان شاء الله أمرا مقضيا ٭ وبعد فأمير المؤمنين يسأل الدول المتصابة أن تبدى جهدها فى اقناع ذلك التابع بالاذعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح الى مالا تحمد عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن نوايا الدول المتصابة وميلهن الى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التى لم يبق فى وسع أحد النظر الى تيارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفحاله والسلام

ووردت على محمد على باشا فى هذه الاثناء الاخبار من ولده الأمير ابراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التحرز لكى لا تتهمه الدول بسوء القصد بعد الذى هم فيه من الاخذ والرد فلم يصل اليه الجواب حتى جاءه الخبر بوصول رجل اسمه موستتبك بك فى طائفة كبيرة من عساكر الكراداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موستتبك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواقف المصريين فكبر أمره على الامير ابراهيم وركب فى طائفة من المصريين لقتاله وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان الى شق عصا الطاعة وتألبوا جميعا على قتال المصريين واجلائهم عن البلاد ووصلت طلائع لموم موستتبك الى عنتاب وبها طائفة من العساكر المصرية فخرج أهل البلد لقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الامير ابراهيم فى اجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا فى رابع عشرى ربيع الاول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا الى المقاتلين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها والى مرعش وقد خرج عن طاعة الامير ابراهيم باغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف فى البلد وفيما هو فيها من مال وكراع ٭ فلما كان سابع عشرى ربيع المذكور عبر حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه بخمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما ترا أى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعا فلم تلتفت اليها العساكر المصرية وكتب فى الحال الأمير ابراهيم الى مقدم عسكر السلطان يقول ٭ انا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الاخذ والرد فى شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثمانى فى طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين (بولابتك) وكيف استبحتم ارسال موستتبك بك فى جيش جرار من الاكراد ليعاونوا أهالى (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم

مطلب
ما كتبه الامير ابراهيم الى حافظ باشا مقدم العساكر العثمانية وما كان بعد ذلك

الحاج

الحاج عمر أوغلى الى الكراداغ لايقاظ الفتنة النائمة وهاجمتم عربانتا الهنادى المرابطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالاسلحة ومعدات الحرب ليقاتلونا ورسمتم الى سليمان باشا العثمانى بدخول عنتاب والقتال عنها مااستطاع ولم تقفوا عند هذا الحد من التعدى وخرق حرمة العهد حتى زحفتم علينا بخيلكم ورجلكم وأطلقتم علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التأنى والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المتصابة الى التهور والاندفاع الى اصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسلطاننا والدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالكم ضرب من العجز أو شئ من الجبن حاشا ثم حاشا فان كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس بأصحابك فأعلن الحرب جهارا وناد بالجهاد علانية وسترى منا ان شاء الله أسودا بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حسابا للقاء الابطال فقد عيل منهم الصبر وهذا كتابى واصل اليك على يد محمود بك أحد مقدمى أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فلما علم حافظ باشا ما فى جواب الامير ابراهيم كتب اليه يقول * ألفيت كتابك مفعما بعبارات الطاعة واشارات الخضوع الى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف فى أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهال الى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهيا زاهرا موفقا مدى الدهور والاعوام وبعد فانك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وان هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل والا كانت مروقا وعصيانا فان كنت قد وطنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد مجنون بك فى جماعة من العربان وكيف أذنت طلائع عسكرك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجروهم الى القتال فكل هذه الامور قد جعلتنا فى ريب من اخلاصك ودفعت بنا الى مناوشتك القتال فان أنت رجعت وتبت وندمت على ما فعلت فعليك الامان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

* ولم يصل كتاب حافظ باشا الى الأمير ابراهيم حتى جاءه الخبر أيضا بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهى مؤلفة من عدة شوانى كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لامندوحة عنها ولا فرار قط منها فسير الأمير ابراهيم الخبر بذلك الى أبيه وطلب المدد واستسرع النجدة فكتب اليه أبوه فى ثامن عشرى ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول * جاءنى كتابك وعندى الخبر اليقين بما يلاقيه عسكرنا من الحيف وما هو مشاهد فى كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليم حافظ باشا لاهل الشقاوة الخوارج وبثهم فى المدن والقرى لاهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التغاضى أخذا بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف



عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على مافيه المصلحة فلم يفعل فاذا أتاك كتابى هذا فسر على بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحرا وأوقع به وبعسكره ما استطعت وسر من فورك الى (كوليك) بوغاز ومن هنالك الى ملاطيا وقربوت وعرفة وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لاعليك والسلام ورحمة الله وبركاته

وجعل محمد على باشا يجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب لنجدة ولده وأقام المرابطين على الحدود وبث العيون وظهرت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت قلعة الجبل بمرور دواب الحمل ومصب المدافع والاثقال وطير قناصل الدول الخبر بذلك الى الآفاق فاهتمت له دولة الفرنسيس وسيرت على الاثر رسولين أحدهما الى محمد على باشا واسمه المسيو كاليه وثانيهما الى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الاسرار بما اقتضاه الحال ۔ واتفق أن قدم محمد على باشا الى مدينة الاسكندرية ليباشر بنفسه ارسال المدد الى ولده الامير ابراهيم فقدم عليه المسيو كاليه فى نفر من الكتاب والحشم والاتباع فأكرم محمد على باشا مقدمه وبالغ فى الحفاوة به فكلم محمد على باشا فى أمر الكف عن القتال والتأنى فى الحركة حتى يتم تقرير قاعدة الصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة فامتنع محمد على باشا من ذلك وقال لابد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه فى الطلب وبالغ فى استرضاء محمد على باشا وطاوله أياما ثم عاوده فأجابه ورسم الى خسرو أفندى بقبول وساطة دولة الفرنسيس وساطة فعلية فى جعل حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للصلح وأن يكتب الى الامير ابراهيم بأن يبقى حيث هو مقيم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسرو أفندى سفينة مصرية يريدان الشام والالتقاء بالامير ابراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملا بالكتاب الوارد اليه من محمد على باشا وقصد ناحية مزار الواقعة بجنوب شرقى نصيبين ونزل على قيد فراسخ من محلة العساكر السلطانية ❁ قال بعض كتاب الاخبار ❁ فاضطرب عند ذلك مقدم العساكر السلطانية ورسم لمقدمى عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعا على المصريين مع ماهم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك المصريون مدافعهم وتراسلت قنابلهم قال فخاف عند ذلك جماعة الترك وولى منهم فيلق الحرس الفرار فنادى عند ذلك النفير على المصريين بالزحف على مزار فالتصقوا بأسوارها قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطىء الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله وأخافه فرسم الى كبار عسكره بأن لايبدؤا بالقتال وأن يحصنوا الفرص فلما رأى الامير ابراهيم احجامهم سار بعسكره وعبر الساجور ونزل على الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر السلطانية قد بلغت الى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الركبان وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على

مطلب
قدوم المسيو كاليه مندوب دولة الفرنسيس الى مصر ومكالمة محمد على باشا فى تقرير قاعدة الصلح

الاربعين الفا عدا أصحاب الخدم * قال بعض كتاب الاخبار وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها ينقصها شئ من الصفات العسكرية كالدربة على الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهيئة لاسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقيها من الاغرار الصنائع الذين لاخلاق لهم فكان حافظ باشا لذلك فى قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة فى كل لحظة تمر فى النهار

وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الامير ابراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال قد علمتم أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخار لغاية الآن فلم يبق عليكم الا أن تكللوا هذه الاعمال باكليل حسن الختام واعلموا أنكم لن تنالوا ذلك الا ببذل المهج فبكم اعزاز الوطن وبموتكم حياته وخير لنا أن نموت لحياة الوطن من أن نحيا لذله وشقائه فالله سبحانه حوالينا لاعلينا وهو حسبنا ونعم النصير * فصاح عند ذلك جماعة الضباط الله الله ولاحول ولا قوة الا بالله وباتوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر فى كبس المصريين ليلا وأخذهم على غرة فرسم الى اسمعيل باشا أحد كبار العسكر بالاسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن ينزلوا على ميسرة المصريين حتى اذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصلوهم نارا حامية قال الزاوى فلم يشعر المصريون الا ونيران الترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قنابلهم على خيمتى الامير ابراهيم وسليمان باشا الفرنسوى فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يتمزقون كل ممزق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا الى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الامير ابراهيم يتفرس فى مواقف العساكر السلطانية فاذا هم على مرتفع من الارض تحيط به أخاديد كأنها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية فى ذلك اليوم حرجة للغاية معرضة لنيران مدافع العدو فكبر عليه هذا الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الاجانب ما أدهشه وأخافه فرسم الى سليمان باشا الفرنسوى بترتيب الصفوف واحكام مواقع الوقوف ونادى فى العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والنزال فأنس من بعضهم شيأ من العصيان فجعل يسوقهم الى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتحمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الارض من هول ذلك اليوم العصيب وثبت الترك الثبات العجيب ونكلوا بالمصريين تنكيلا حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة فى عرض الارض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين فتفرقت الجنود التركية أشتاتا وفر حافظ باشا الى مدينة مرعش فاستولى المصريون على ما فى معسكر الترك من متاع وكراع وكثير من الخيام ودواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفا من الاتراك ووجد الامير ابراهيم فى خيمة

مطلب
هزيمة المصريين
ابلاغ انتصارهم
على العدو

حافظ باشا سائر الكتب التي كانت تأتيه من السلطان بالاسراع في الزحف والقتال وقطع شأفة المصريين

وكان السلطان قد بعث أيضا الى أمير سفن حرب الدولة بالاقلاع الى مدينة الاسكندرية وثلّ حصونها ومعاقلها بقنابل المدافع وعدم البراح من مياهها حتى يقبض على محمد على باشا ويأتي به الى دار السلطنة مكبلا بالاغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرساها عند كريد أياما كثيرة ترددت في خلالها الرسل بين أميرها ومحمد على باشا قيل فخدعه محمد على باشا واستماله وهاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشوانى بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرساها عينا الاسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والاجناد الى المدينة وقد سلموا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا الا أياما قلائل حتى فرقوهم في البلاد شرقا وغربا وأنزلوا أمير تلك السفن في بيت مخرم بك ثم نقل بعد أيام الى دار مخصوصة وجرت عليه الارزاق في كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة في قال بعض الكتاب وكانت حجة أمير تلك السفن في التسليم على هذه الصورة تأخير جماكى العسكر وقطع بعض المرتبات ❊ ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسيس الذى تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد على باشا الى حلب فلاقاه واليها وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترك فسار مجدّا يريد لقاء الامير ابراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الامير ابراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والظفر رسم الى مجبور بك بأن يسير بمن معه من العربان الى عزتة ويقاتل من بها ويفتحها والى عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل ماعكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو في طائفة أخرى من العساكر والاجناد في سادس عشر ربيع الثانى يريد عنتاب لاخضاعها وارجاعها الى الطاعة ونزل عليها بجيشه ورجله فخرج اليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فات فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت نارها أشد عليهم من نار الحروب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه الى معسكر الامير ابراهيم فأحسن الامير لقاءه وبالغ في اكرامه فبات ليلته وعند الصباح سلم الى الامير ابراهيم كتاب أبيه ثم تقدم اليه في الكف عن القتال وترك الامر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الامير ابراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فألح عليه المسيو كاليه وجعل يهوّن عليه الامر وهو لايزداد الاعنادا ونفورا واختلف الكتاب في الذى دفع بالامير ابراهيم الى عدم الاذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فمن قائل ان ذلك كان بايعاز من أبيه على يد سامى بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الامير ابراهيم على الزحف والقتال ونادى في عسكره بحضرة المسيو كاليه بالمسير وعبور جبال الطوروس واصلاء نار الحرب ماستطاعوا اليها سبيلا فمانعه المسيو كاليه وما زال به حتى رسم

مطلب
استمالة محمد على باشا الى أمير سفن حرب الدولة وأخذ سائر السفن غنيمة بلا حرب ولا قتال

الى ..

الى كبار جنده بأن لا يتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه مع ذلك لم ينكف عن تدويخ ولو جامع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد الثابتة على طاعة السلطان وسير الى أبيه كتابا يقول « جاءنى أمركم الكريم على يد المسيو كاليه أحد كبار ديوان السياسة الافرنسية والذى أحيطكم به علما أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر السلطانية على مدينة عنتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على ازعاجها وسيرت جيوشنا المظفرة الى مواقع العدو فوافى أمركم الكريم بالكف عن القتال وترك الحرب والنزال الى حين ولما كان الصعيد الذى قد نزلناه ليس فيه من المؤن والزاد ما يكفى بحاجة العسكر ولا من الكلا ما يفى بمؤنة دواب الحمل وخيول الفرسان وكان بقاؤنا فيه أشد خطرا علينا من لقاء العدو وكان أقرب بلد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء فقد سرنا اليه فشاهدنا من تأهب العدو واستعداده لصدنا واصلائنا نارا حامية ما اضطرنا الى تركه والمسير نحو عنتاب ومرعش وهذا مادفع بنا الى التقدم الى الامام والسلام ورحمة الله وبركاته » وأما المسيو فوتز رسول دولة الفرنسيس الى دار السلطنة فانه لم يفلح فى رسالته ولم يتمكن من اقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أياما لم ينل فيها مأربا فاستعان باللورد بونسنبى سفير الانجليز بدار السلطنة فلم يعنه واتهم السلطان دولة الفرنسيس بالتحزب مع محمد على باشا والعمل على ارغام السلطان وفعل كل ما يحط بقدر الدولة ويذهب بكرامتها

واشتد الضيق بالامير ابراهيم وعسكره وأحدقت بهم العساكر السلطانية من كل صوب وحدب فخاف شر العاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركة واستضعفه أهل الاطراف فجعلوا يتخطفون مؤخرة جنده فساق بعسكره يريد التغلغل فى قلب الاناضول واختراق جبال الطورس واحتل اقليم أطنة وماوراءه الى مدينة قونية ووردت الاخبار بذلك الى السلطان فكاد يسقط فى يده وكبر كيده وهم بتسيير رشيد باشا صدر الدولة فى عسكر لرد الامير ابراهيم فسار رشيد باشا فى عسكره يريد اللحاق بقونية والدفاع عنها وجاء الخبر بذلك الى الامير ابراهيم فجمع جيشا عظيما من الشأم والروم وعجل بالمسير يريد القسطنطينية لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجمعان عند قونية واشتبك القتال بينهما وتراسلت القنابل واشتعلت النيران وعلت أصوات المدافع وتكاثف الدخان فلم تكن الا فترة بين الزوال والغروب حتى تمت هزيمة العساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشيد باشا أسيرا فى يدى الامير ابراهيم وكذلك أسر جماعة كثيرة من مقدمى العساكر التركية فكانت هذه الوقعة من أنحس الوقائع وأشدها هولا على السلطان ، واختلف الكتاب وأصحاب التاريخ يومئذ فى كيفية سقوط رشيد باشا فى قبضة الامير ابراهيم فمن قائل ان ذلك كان باتفاق بينهما ومن قائل بل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية فى ذلك اليوم وحصانة موقفهم ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشد الوقع فى

مطلب
وقوع رشيد باشا
صدر الدولة أسيرا
فى يد الامير ابراهيم
وتمزيق شمل
عسكره وما كان
من وراء ذلك

النفوس وسار الامير ابراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه ارسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد ابراهيم وايقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبحوا هذا الرأى وقالوا لاتحل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر الى محمد على باشا فجعل يبالغ فى الشكوى ويتظلم فى البلوى ويكاتب الدول فى هذا الامر وظهر على أثر ذلك حركة فى دار السلطنة وتكلم الناس كثيرا فخاف السلطان شر العاقبة وعاد الى مخابرة محمد على باشا فى عقد الصلح وسير فى الحال خليل باشا قبطان باشا قبلا الى مصر وفوض اليه الاتفاق على مافيه المصلحة وكتب الى سفير الروس يعلمه بان الحالة الآن لاتستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على ارجاع الجنرال موراويف الروسى عن عزم الذهاب الى ديار مصر والالتقاء بمحمد على باشا فلم يفلح ودخل موراويف الى الاسكندرية كاشارة قيصر الروس فعمد السلطان حينئذ الى ملاطفة دولة الفرنسيس واستمالها الى التحرير أولا الى محمد على باشا بوجوب المحافظة على مبادى الصلح وأسباب السلم التى قد تعهد بالمحافظة عليها وثانيا الى الامير ابراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغلغل بجيوشه فى جوف البلاد وقد كان الامير ابراهيم الى ذلك الحين لم يكتم عن الناس خطة تسيير جنوده ولم يخف عن الملا أنه سائر نحو قوطاهيه وبروسا ومنها الى اسقودار ليجمع هنالك مجلسا من كبار علماء الاسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجبا لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيس ورجوعه الى طلب معاونة دولة الروس فسير فى الحال كتبه الى القيصر بأن يمده عند الطلب بعشرين ألفا من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعمارة ساوتابول البحرية فعلم سفير الفرنسيس بذلك فكتب الى الامير ابراهيم فى الحال يقول اياك ومبارحة قونية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك مبلغه وجاء الخبر عما فعله السلطان الى محمد على باشا فكتب الى ولده يقول اذا أتاك كتابى وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحركن لك قدما حتى يأتيك آخر * وكان الامير ابراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة قوطاهيه وأرسل محمد على باشا الى السلطان والى دولة الفرنسيس يخبرهما بخبر ما كتبه الى ولده الامير ابراهيم ويقول للباب العالى ان الحامل لولدى على الانحدار الى قوطاهيه انما هى حاجته الى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التى لم توجد فى قونية وما زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عاد سفير الروس الذى كان ذهب للالتقاء بمحمد على باشا الى دار السلطنة يحمل بشائر الطمأنينة والسلام حيث أبلغ الباب العالى أن محمد على باشا صرح بخضوعه وطاعته لسلطانه وأنه عبد لمولاه وقد عقد النية عقدا وثيقا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشا على أمر الصلح بتاتا * قال بعض الكتاب ولم يستعمل الجنرال موراويف فى كلامه مع محمد على باشا شيأ من الشدة التى أقسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيأ من هذر الكلام كما كانت تقتضيه رسالته

ولكنه

ولكنه كان اذا اجتمع به لاطفه وهوّن عليه أمر الصلح وحببه اليه ويقول له ان مولاى القيصر يعلم ماأنت عليه من شرف المبدإ ونبالة المقصد ومكارم الاخلاق فلا تكن سببا فى زلزلةموقف سلطانك ولا تعمل على فساد ملكه ولا تحدث فى الاسلام حدثا الى أن تحمد عاقبته واتق الله فى نفسك وولدك وعسكرك * ووصلت كتب محمد على باشا الى ولده بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الامر على ماتشاؤه الاقدار *

وما شاعت الانباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمسا كتاب من بابا روميه يسأله الوساطة بين محمد على باشا وسلطانه وكفه عن اراقة الدماء هدرا وكأنه لم يعلم بخبر ماوقع الاتفاق عليه بين محمد على باشا والجنرال موراو يف مندوب الروس فأرسل القنصل الى محمد على باشا خطابا فى المعنى محشوا بالتهديد والوعيد فلم يلتفت محمد على باشا اليه ولم يخلع القنصل فى شئ البتة

مطلب قدوم مندوب الباب العالى الى مصر بفرمان العفو عن محمد على باشا وولده

ووصل خليل باشا مندوب الباب العالى الى مصر بحمل الفرمان السلطانى بالعفو عن محمد على باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التى أعطيت الى محمد على باشا وهى ولاية عكا وطرابلس الشام ونابلس وأراضى بيت المقدس فلاقاه محمد على باشا وسائر رجال حكومته بالحفاوة والتعظيم وأنزله منزلا رحبا وقدم له التقادم من التحف والاعلاق النفيسة ورتب له المرتبات من المأكول والمشروب ثم رسم بقراءة الفرمان فلم يعجبه ماجاء فيه من الامتيازات حيث لم تكن شاملة لسائر الشامات ولا لولاية آطنه فكلم خليل باشا فى ذلك وطال بينهما الاخذ والرد أياما حتى تم الاتفاق على نوال محمد على باشا سائر ماطلبه وسير خليل باشا الكتب بما وقع الاتفاق عليه الى دار السلطنة * قال بعض الكتاب ومع ذلك فقد كان السلطان فى ريب من العاقبة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونة دولة الروس ولم ينكف عن مكالمة وكيلها فى ذلك من حين الى حين * قال وكان الحامل له على ذلك كثرة ارجاف الامير ابراهيم وارساله البعوث الى بلاد آسية لدس الدسائس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا طاعة السلطان ولم يمض الا القليل من الايام حتى عاد الصدر الاعظم وكتب الى الدول الكبرى يقول ان أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق فى امكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس والاستنجاد بعسكره على اخراج الامير ابراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة فى الاقرب العاجل واتفق أن وصل فى عشية ذلك اليوم الى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيس وقد علم بما سير به الصدر الاعظم من الكتب الى الدول فاجتمع به وخاطبه فى الامر طويلا وحببه اليه أن يكتب الى دولة الروس بعدم الحاجة الى ارسال سفن الحرب بعد أن أسفرت مأمورية خليل باشا عن طاعة محمد على باشا ورجوعه الى مجاملة سلطانه فوعده الصدر الاعظم وعدا جميلا وقال لابد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الامر عليه

مطلب حصول العمارة الروسية الى البوسفور مددا الى السلطان

وبينما كان مندوب الفرنسيس يراقب ماسيكون من وراء اجتماع المجلس اذ وصلت العمارة الروسية تمخر فى عباب البحار وألقت مرساها أمام البوسفور فكانت عشر قطع كبار

من الطراز الاول وكانت بعض سفن الحرب الافرنسية راسية هناك كطلب سفير الفرنسيس فلما رأى ربانها تلك السفن والشوانى الروسية هاله أمر حضورها وسير فى الحال الى صدر الدولة يقول نظرا للانقلاب السريع الذى طرأ فى هذه الأونة وتغيير الاحوال عن سابق مجراها صار يعز على البقاء بما معى من السفن ان لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أتت وأ كثرت رسله من التردد على الباب العالى فى طلب الجواب فكتب اليه السلطان يقول ＊ كتابى اليك أعزك الله وعواصل الاضطراب والقلق المستحوذين على مملكتى تشخص لمام عينى ذلك الود القديم الذى يربط بلادى بمملكة الفرنسيس وتدفع بى الى طلب المعونة والمدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيس الفخيمة فان أنت هداك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيس بأن يكون عقد رباط الصلح بينى وبين مستوى محمد على على قاعدة الشروط التى بلغها اليه خليل باشا عجلت بارجاع العساكر الروسية ورد سفنها الحربية والسلام ＊ فأجابه ربان السفن الافرنسية الى ذلك ثم بسع السلطان وشد الا معاودة ربان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالرجوع فما أقلعت تلك السفن حتى سير أميرسفن حرب الفرنسيس دسونين على عجل أحدهما الى محمد على باشا ليقهره على ارسال كتبه الى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب وثانيهما الى الامير ابراهيم ليلزمه بسرعة العودة الى مصر والكف عن كل عداء مع ولاة وعمال السلطان وكتب كبير سياسة الفرنسيس أيضا الى قنصلهم بمصر يقول أن شدد على محمد باشا بالاذعان وقبول شروط الصلح التى وصلت اليه على يدى خليل باشا فان أطاع وأذعن فيها والا فلا مندوحة عن اكراهه

قال كبير السياسة المذكور فى كتاب بعث به الى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كلام طويل ＊ ومن تصفح أدوار هذه الأزمة ＊ يعنى بها الازمة القائمة مابين محمد على باشا وسلطانه ＊ مع عدم التحيز حكم بنزاهة دولة الفرنسيس عن الغرض وطهارة ذمتها من أدران التشيع وتحقق نبالة مقصدها فى سائر أدوار هذه الازمة التى اختلط فيها الحابل بالنابل وكادت تذهب بالشرق الادنى الى مهواة الدمار قال ولما كانت دولة الفرنسيس قد أخذت على عهدتها اصلاح ذات البين والتوفيق بين مصلحة الطرفين لم يبق فى وسعها العدول ولا ترك الامور هدفا للحوادث ولا غرضا للغاية الطامحة ولو تطوح بها الامر الى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فانها لاتلوى عنان الجهد ولا تتقهقر أمام هاتيك العواقب التى قد حسبت لها ألف حساب اه

مطلب تعاقد الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب المابين مع سفير الفرنسيس على كيفية ارجاع محمد على باشا الى طاعة سلطانه

ورسم السلطان بعد ذلك الى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب مابينه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيس على ارجاع محمد على باشا الى طاعة سلطانه فتعاقدا فى شوال من السنة على شروط حاصل مافيها قبول الباب العالى تداخل دولة الفرنسيس بواسطة سفيرها البارون روفارن فى أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالى قبول محمد على باشا

بالامتيازات

بالامتيازات التى منحه اياها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانة العامرة وبشرط رجوع محمد على باشا الى الطاعة والاخلاص لمتبوعه وان هذه الامتيازات لاتتعدى ولايته على عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيس بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالى بأن يقرر ويعلن عدوله عن قبول أوطلب كل مدد أجنبى أومساعدة مادية يراد بها الاضرار بمحمد على باشا * وشاع الخبر بما وقع الاتفاق عليه مابين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيس وعزم دولة الفرنسيس على قهر محمد على باشا وارغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس فى الامر كثيرا وكتب سفير الانجليز الى الامير ابراهيم يقول * كانى اليك وعندى العلم اليقين بما رضيه سلطانك من تقرير قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطوبخانة السلطانية فامتلأ قلبى فرحا وتحققت آمالى بأنك ستنكف عن تلك الحرب المشؤمة التى كادت تدك معالم المدنية وأنك ترفع سيفك ان شاء الله عن هامة تلك الارجاء التى قد تولاها الخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أباك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير اليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوجى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب اليك بذلك فى الاقرب العاجل وقد ورد الامر من لدن امبراطور الفرنسيس الى سفيره لدى الباب العالى بالمسير مع رشيد بك الى الاسكندرية ليشرح لابيك وخامة العاقبة ان هو أغضب دولة الفرنسيس برفض الصلح على قاعدة مافى الفرمان أما دولة الانجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لابيك ولا أشك فى أنه لايجهل التأثير الذى يحصل للحكومة الانجليزية ان هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التى تكون من وراء هذا الرفض وانى لا إخالك أيها الامير ممن يأبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام

مطلب
صدور فرمان السلطان بالعفو عن محمد على باشا وولده وتوجيه ماتقدم توجيهه اليهما من الرتب والقاب الشرف

وطير السلطان الخبر الى الآفاق بالعفو عن محمد على باشا و ولده الامير ابراهيم و بتوجيه ماتقدم توجيهه اليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرمانا يقول فيه * حيث ان محمد على باشا وولده قد عادا الى طاعة سلطانهما وأبديا من الاخلاص مالم يبق معه موضع لريب فى حسن المآل ان شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت ارادتنا السلطانية ومراحمنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأييد ولاية أحدهما محمد على باشا على كريد والديار المصرية كاتماله وأحسنا اليه أيضا بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع امارة الحج ونيابة أشقودره ولينا ولده رياسة الحرمين الشريفين مع صنجقية جده وقارنا انماله بالاحسان عليه أيضا بولاية أطنة وملحقاتها وعهدنا اليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل الى اسداء المعروف والاحسان نعلن أصحاب الكلمة وأولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الاناضول أن يغضوا الطرف عما

وقع من سكان تلك المحالات من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لايتعرضوا لأحد لافى روحه ولافى ماله ولافى عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته ارادتنا الشاهانية وسمحت به تعطفاتنا الخاقانية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الرفيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكنى الخواطر قريرى النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات الى ما فيه خيرهم واصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملازم ولكى يكون فى علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحيين واسلام ماشملهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الارادة متوجهة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كى يبسط الكل أكف الضراعة والابتهال الى المولى ذى الجلال والاكرام بدوام دولتنا وتأييد سدتنا واعزاز شوكتنا بمنه وكرمه اه

فلما شاع خبر هذا الفرمان وذاع رفع الامير ابراهيم الى الباب العالى عريضة ضمنها أبلغ مايكون من عبارات الشكران والامتنان الى أن قال وبعلم مولاى أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد مابرح على ما يعلمه فيه مولاه من الطاعة والولاء لسدتكم العلية لاسيما وقد قلدنى المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولانى تفضلا منه وتكرما حكم ولاية أطنه وجباية خراجها فلم يبق فى النفس بعد ذلك شئ والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكف الضراعة والابتهال بان يديم أيام ملككم غرة فى جبين الدهر وليعلم مولاى أنى قد وطنت النفس على خدمة الاعتاب الشريفة بما فى الطاقة والله خير مسؤل يوفقنى الى طاعتكم بمنه وكرمه انه السميع المجيب ﴿ قال بعض الكتاب ومع هذا فانه لم يمض القليل من الايام حتى جاءت الاخبار الى دار السلطنة تنبئ بزحف الامير ابراهيم بجيوشه وآلات حربه الى قلب آسية وانه ترك قونية وهو على قدم المسير الى بروصاء فاندهش السلطان من سماع هذه الانباء وظنها مبالغة ووقيعة فلم تكن الا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك الى الباب العالى فسير السلطان فى الحال الى سفير الفرنسيس من يكلمه فى أمر ذلك فاندهش السفير وكتب الى الامير ابراهيم يقبح مافعله و يحذره شر العاقبة ويمنعه من التغلغل فى داخلية البلاد فرد عليه الامير ابراهيم يقول ان الحاجة الى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شئ من ذلك البتة بقونية وانقاء برد الشتاء وتفشى الامراض فى الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير الى بروصاء وانا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لامير المومنين ووالقفين عند حد مارسمه لنا محمد على باشا فلا تصغوا الى وشاية الواشين ولا تلتفتوا الى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فان العدو مابرح يدس السم فى الدسم ويتمنى لو أن الدهر رمى كياننا بالعدم فالله الله والسلام

مطلب اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك

واشتدت فى هذه الاثناء علة السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطربت

أحوال

أحوال السلطنة أو كادت وكثر تحدث الناس فى أسباب علته فمن قائل انها ذات الجنب ومن قائل انها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل انه السل وكانت أخباره كل يوم فى شأن والباب العالى يكثر من نشر بشائر سلامته وعافيته والناس لايصدقون ذلك فانعقد مجلس فى السراى السلطانية من خسرو باشا وخليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضبابك وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله اذا جاءت منية السلطان على عجل وكانت رسل والدة السلطان وولى عهده يغدون ويروحون الى مقر السلطان وبعد أخذ ورد بين أصحاب المجلس وقع الاتفاق على أن يكتبوا الى قبطان باشا سفن الحرب بأن لايبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الامير ابراهيم بايقاف رحى الحرب حتى تأتيهما الاخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط فى يده وطارت الاخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدد الاطباء فى عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الاول وقيل سادس عشر به سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية مات وحيدا فى مخدعه فكانت سلطنته زهاء احدى وثلاثين سنة وعمره أربعا وخمسين سنة على المشهور ❁ قال بعض الكتاب ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكا مهيبا مقداما عالى الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالامور صبورا على الشدائد محبا الرعية ميالا الى العمارة عادلا بعيدا عن العسف والجور ولكنه كان قليل الحظ حسن الخط غير موفق كأن الدهر عدوه مغالبا على أمره بحكم الايام فقد خرج فى أيامه كثير من الايالات مابين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والاصبهانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيس وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرغ الجهد فى اصلاح الامور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق الى ذلك لسوء حظه ونكد طالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستا وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الاجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لاسباب نقموها عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريكية الى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهبا بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريكية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة الى الازبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حينئذ مقرا لبطاركة المتأصلين الى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقوريوس وكان راهبا بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

الفصل الثانى والعشرون

(فى سلطنة السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبد المجيد بويع له بالملك يوم موت أبيه سادس عشرى ربيع الاول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاها والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والامور فى ضيق وتكالب ودول أوروبا فى اقدام واحجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لاينكف عن طلب العمل بمعاهدة خونكار اسكله سى التى تعاقد فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل مايمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه الى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية الى محمد على باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية فى الحرب القائمة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيس والانجليز تكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان فى أن يكون له عليهما سابقة ولا فائدة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيس والانجليز والنمسا والبروسيا يعملون على مافيه استمالة دولة الروس الى جانبهم ومازالوا حتى أوعز القيصر الى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتباحثوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد على باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والانجليز برد جميع مافتحه محمد على باشا من البلاد الشامية الى الدولة وأن لايعطى اليه الاديار مصر فقط فعارضهما فى ذلك سفيرا الفرنسيس والروس وقالا لابل يعطى اليه ملك مصر وايالات الشام الاربع وطال الجدال بينهم وما زالوا فى أخذ ورد حتى وافق سفير البروسيا سفيرى النمسا والانجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفيرى الفرنسيس والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لايعطى الى محمد على باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما افتتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دولى اما فى عاصمة النمسا واما فى عاصمة الانجليز لاتمام ما بقى متعلقا بمصر فلم تصادف اشارته قبولا وعارضه سفيرا الفرنسيس والانجليز وكذلك سفير الروس وقال ان مولاى القيصر لايقبل أن يكون لمؤتمر دولى حق تجديد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لايتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسكله سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم ايالات الدولة اذا لم ينكف الامير ابراهيم عن القتال والتغلغل فى قلب بلاد الدولة فهال سفيرى الفرنسيس والانجليز هذا الطلب وخافا شر عاقبته وطلبا من صدر الدولة أن يجيز لمراكب الحرب الانجليزية والفرنسوية العبور من بوغاز الدردنيل لمنع تعديات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيرت دولة الانجليز الى القسطنطينية احدى مراكب حربها

المسماة ستو بفورد للمخابرة مع السلطان فى ذلك وكثر القيل والقال وساء بقية السفراء مافعله سفير الانجليز وتجرد سفير الروس الى المقاومة والاصرار على ماطلبه وسير الى صدر الدولة يقول ان أباح السلطان لمراكب الانجليز والفرنسيس العبور من الدردنيل قطعت كل علاقة بين حكومتى ودار السلطنة وخرجت من القسطنطينية بلا مهل * وكانت مراكب الانجليز والفرنسيس على مقربة من البوغاز تنتظر ما يرد اليها من الاخبار * وأرسلت دولة النمسا الى عاصمتى الفرنسيس والانجليز تقول ان ما فعله سفيرا كما من الشدة والعنت لا يكون من ورائه الا فصم عروة الاتحاد وقيام الحرب على قدم وساق ولذلك فهى تصمم على الانسحاب من دائرة ذلك التحالف اذا بقى الحال هكذا وتكون مطلقة اليدين فيما تنوى فعله * وكان السلطان ميالا الى اجابة طلب مبعوث الانجليز فكان خسرو باشا يحبب اليه ذلك فلما اشتد الخصام بين مندوبى الدول وكبرت الفتنة خشى السلطان العاقبة فلم يجب مطالب مبعوث الانجليز وأوعز الى الصدر الاعظم بان يخابر الدولتين فى أمر ابعاد مراكبهما عن الدردنيل ففعل ففشلوا جميعا وتفرقت كلمتهم وذهب كل الى مذهب وتعطلت المخابرة أياما كثيرة

مطلب
عزم دولة الانجليز على اكراه محمد على باشا على رد جميع ما أخذه واشتداد الخلاف بينها وبين دولة الفرنسيس بسبب ذلك

فلما كان شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية سيرت دولة الانجليز رسولا من قبلها اسمه اللورد بونسنبى الى دار السلطنة العثمانية يقول للسلطان ان دولة الانجليز متأهبة لان تكره محمد على باشا على رد جميع ما اغتصبه من المراكب العثمانية وترغمه الى الطاعة والاخلاد الى جميع مطالب السلطان بشرط أن تدخل مراكب الحرب الانجليزية الى بوغاز القسطنطينية لدفع الروس اذا اعتدوا على بلاد الدولة فساء ذلك دولة الفرنسيس واستعظمته وأوعزت الى أمير مراكب حربها الراسية فى بحر الروم بان لا يعاون مراكب الانجليز على قتال محمد على باشا ولا يشترك معها فى أى عمل كان وأن يكون دائما على قدم التأهب والاستعداد وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق فعم الخوف وظن الناس أن الحرب بين الدولتين الانجليزية والافرنسية صارت على قاب قوسين أو أدنى وأخذت بقية الدول حذرها وكتبت دولة النمسا تقول إنها تأبى التداخل فى هذه المسألة بعد أن خابت سعيا فى عقد المؤتمر الذى أشارت به وجاهرت دولة الفرنسيس بميلها الى الذب عن محمد على باشا وتعضيده فى جميع مطالبه وقالت لابد من اعطائه ولايتى مصر والشام له ولذريته من بعده واقليمى أطنه وطرسوس له مدة حياته فخالفتها فى ذلك دولة الانجليز وقالت لا يعطى اليه الا ولاية مصر فقط وأصرت على ذلك فلما رأت من دولة الفرنسيس قرما عنيدا عادت الى مسايرتها وأشارت باعطائه أيضا النصف القبلى من بلاد الشام مدة حياته واشترطت أن لا تكون مدينة عكا داخلة فى ذلك النصف فأبت دولة فرنسا عليها ذلك وألحت بقبول مطالبها اذ المصلحة فيها للطرفين وطال الاخذ والرد بين الدولتين أياما فكان لا ينكف فيها رسول الانجليز عن استمالة سفراء الدول الأخرى الى الاخذ بمشورته

حتى ظفر وفاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تقولان إنهما توافقان على ما أشار به رسول الانجليز وتعضدان مطالبه فى السر والجهر

وكانت دولة الروس الى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين دولتى الانجليز والفرنسيس واختلاف الغاية سيرت الى عاصمة الانجليز رسولا اسمه البارون دى برونو يقول ان دولة الروس تترك للانجليز حرية العمل فى مصر ولا تأنف من مساعدتهم على اخضاع محمد على باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش فى مدينة سينوب الواقعة على شاطئ البحر الاسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة القسطنطينية اذا زحف عليها الامير ابراهيم بعساكره فمال اللورد بالمرستون كبير سياسة الانجليز يومئذ الى ذلك واستحسنه وحسبه من مسببات الفوز والغلبة وهم بانفاذه فرأى من استنكار كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد له واستقباحهم اياه ما أقعده فيما ولى الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال الى المواربة وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر فى أمر تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعاهدة خونكار اسكله سى من حماية جميع بلاد الدولة العثمانية فاذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقد معه على ما فيه المصلحة فلم يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز الى رسوله بمبارحة عاصمة الانجليز فرحل عنها وتعطلت المخابرة وأعرضت عنها جميع الدول ✱ وعلم محمد على باشا بما تنوى له دولة الانجليز من السوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وارجاعه الى طاعة السلطان ومساعدة جميع الدول لها الا دولة الفرنسيس وان لا قدرة لدولة الفرنسيس على الدفاع عنه ومعاداة جميع هاته الدول فعمد الى التأهب والاستعداد وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز الى سليمان باشا الفرنسوى بتقوية الحصون والقلاع الشامية جهد الاستطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتكليف جميع أهل الشام بحمل السلاح والتدرب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة واستقدم جميع العساكر المصرية التى كانت فى نجد والحجاز وأهمل شأن تلك الاصقاع وأطلق سراح محمد بن عون شريف مكة وقد كان محجورا عليه بالقاهرة فسار الى مكة وجعل يتصرف فى أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ الى ولده الامير ابراهيم بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الامير ابراهيم فى ذلك وبث العيون والارصاد وحاسب أهل الشام على الذرة والبرة فانكمشوا وانكفوا وأخلد كبارهم الى الطاعة خوفا من جبروته وبقى الحال هكذا الى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية واذا بدولة النمسا قد عادت الى الالحاح بطلب عقد المؤتمر فى مدينة فينا لفض جميع المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لاغراض الدول وسببا لوقوع التخاصم بينهم فأجابتها الدول حينئذ الى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الانجليز وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيس فلم يتفقوا على

مطلب
تأهب محمد على باشا للقتال بعد أن علم بتألب الدول عليه مع السلطان ماعدا دولة الفرنسيس

حال

قيام تيرس كبير سياسة الفرنسيس لنصرة محمد على باشا وتعاقد الدول على العمل ضد محمد على باشا

حال من الاحوال وأصرت كل من دولتى الفرنسيس والانجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخابرة ووقفت عند حدها الذى كانت عليه * واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولى الموسيو تيرس رياسة الحكومة الفرنسوية وكان يكره أن تحل المسئلة المصرية جميع الدول ويرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقر به المنصب حتى سير الى السلطان من يعلمه بوجوب ترك ايالات الشام ومصر الى محمد على باشا وذريته من بعده ويتوعده بقيام دولة الفرنسيس للذب والدفاع عن محمد على باشا ان أبى عليه ذلك وسير أيضا الى محمد على باشا يمنيه بالامانى الطويلة ويحضه على نبذ مطالب دولة الانجليز وعدم الالتفات اليها وان يثابر على الجد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وانه سيأتيه المدد من عسكر الفرنسيس اذا هم الانجليز باكراهه على قبول مالا يحب فتقوت عزائم محمد على باشا قليلا ولكنه كان يحسب ما وراء تألب بقية الدول على معاكسته فكان كثير الوساوس شديد الهواجس بعيد النظر فى العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الانجليز بما فعله تيرس صاحب سياسة الفرنسيس تجرد الى المقاومة وعمد الى اغراء دولة الروس والنمسا وبروسيا على التحالف معه على صد اغارات الامير ابراهيم ورد جميع ماأخذه من البلاد الشامية وارجاعه الى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أفلح وتعاقدوا معا على هذا العهد

أولا — الزام محمد على باشا بارجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلى من ولاية الشام دون مدينة عكا

ثانيا — محاصرة السفن الانجليزية والسفن النمساوية لموانى الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الامير ابراهيم والخروج على العساكر المصرية لاشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين

ثالثا — دخول سفن روسية وانجليزية ونمساوية الى بوغاز القسطنطينية للذب عن المدينة اذا اتصلت بها العساكر المصرية

رابعا — عدم جواز عبور سفن احدى الدول المذكورات بوغاز القسطنطينية مادام الامن مستتبا فى المدينة

خامسا — وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد فى مدة لاتتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق فى مدينة لندن

وأضافوا الى هذا العقد صكا موقعا عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على اعطائه الى محمد على باشا من الحقوق * قال بعض كتاب الاخبار * وعز على كبير سياسة الانجليز الصبر فعمد الى دس الدسائس واثارة الفتن بين أهل لبنان وأوعز الى سفيرهم بدار السلطنة أن يعجل فى ذلك فسير السفير ترجمانه المدعو (وود) الى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياما حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الامير ابراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وحمل المؤن للجند فركب الامير ابراهيم وسليمان باشا الفرنسوى والامير عباس

على أهل الثورة وقاتلوهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم الى الطاعة صاغرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفؤا نار الثورة وبالغ سليمان باشا فى تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشحنها بالمؤن والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتأهب لصد الاعداء برا وبحرا وأرسل الى محمد على باشا يطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الانجليز بذلك وأوعز الى الامير نابير من أمراء سفن الحرب الانجليزية بالوقوف بسفنه فى طريق الشام والاسكندرية واحراق كل ما يلاقيه من السفن المصرية وأسر ما يمكن أسره منها فأحس كبير السياسة الفرنسوية بذلك فسير فى الحال مركبا الى مدينة بيروت لتخبر قائد الجيوش المصرية بالخبر وجاء النبأ الى محمد على باشا فأزعجه واسترجع ما كان قد سيره من تلك السفن ووصلت السفن الانجليزية مع نابير الى الاسكندرية فلم تعترض طريقها على واحدة من السفن المصرية

ولما كان خامس عشر جمادى الاولى سنة ست وخمسين ومائتين والف هجرية تم توقيع الاحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولا بها من ذلك اليوم ولم يمض عليها شهر حتى أبلغها قناصل الدول المتعاهدة الى محمد على باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من اعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم ترد الى مملكة السلطان بعد موته وضربوا له أجلا عشرة أيام قيل فأزعجه هذا الحال وأحزنه ومضى الاجل المضروب فلم يجب الا بالسلب والامتناع وعدم التسليم فى شئ مما تطلبه الاحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضا فى أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشئ سوى ولاية مصر فكبر غيظه وراجعهم فى الكلام فقالوا لا سبيل الى غير ذلك وقد أمهلنا لك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجبهم فسيروا الاخبار بذلك الى دار السلطنة ولما ضربوا له الاجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس فى دار شيخ الاسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتناجوا فى امتناع محمد على باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد على باشا من الشام وخلعه وقرئت هذه الفتوى فى سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى الى محمد على باشا فأرسل الى السلطان يقبح ما أفتى به شيخ الاسلام ويقول أما ولاية مصر فهى من حقوقى وحقوق أولادى الوراثية وأما الشام فلا أتخلى عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الاموال الطائلة

مطلب اطلاق سفن الانجليز القنابل على بيروت وسائر السواحل الشامية وما كان من وراء ذلك

وجاء الامر الى نابير أمير سفن الحرب الانجليزية بالتأهب لاطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشامية وأخذها من أيدى المصريين فسار بسفنه قاصدا بيروت وأخذ فى طريقه كل ما صادفه من مراكب التجارة المصرية ولحق به أيضا الاميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقتهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء

سنة

ستة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الانجليزية ومقدمها الاميرال واكر وأرسى نابيير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل الى سليمان باشا الفرنسوى مقدم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلى عن المدينة والجلاء عنها وسير الى من بعكا يخبرهم بذلك أيضا وطير الاخبار الى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد على باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الامير ابراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد فى تحصين القلاع والحصون ويبعث البعوث الى بقية الثغور للحض على اليقظة والالتفات وأرسل محمد على باشا الى الموسيو تيرس كبير السياسة الفرنسوية يستنهضه الى الوساطة فى الأمر والرجوع بالاحزاب الى اللين وترك الشدة فتجرد الموسيو تيرس الى ذلك وبالغ فى الارهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش ويعد المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد على باشا * قال بعض كتاب الاخبار ولكنه رأى أنه فى حاجة الى شئ من السلاح والذخيرة لفراغ المخازن منها يومئذ وانه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكاد يسقط فى أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيس فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعاله ونادوا بالويل والثبور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث حرض محمد على باشا على مقاومة الاحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزؤن ويسخرون به ويصيحون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأنزل نفسه عن منصب الرياسة واعتزل موقف هذه السياسة فى سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين والف هجرية وجاء الأمر الى أمير سفن الحرب الفرنساوية التى كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود الى جزائر اليونان ثم الى بلاد الفرنسيس فأقلعت من فورها وتركت الشام ومصر هدفا لرمى قنابل سفن الاحزاب فعد ذلك لدولة الفرنسيس من الغلطات المسودة لوجه تاريخ حسناتها فى ديار مصر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عنه ظهور الثورة العرابية كما سيتلى عليك فى محله ان شاء الله

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدمت سفن نابيير الانجليزى نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراسلت الرمى خلفة ثم انكفت وأرسل نابيير الى سليمان باشا الفرنسوى يقول له أن تخل عن الحصون وانجل بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل اليه سليمان يقول لن تدخلوها الا خرابا بلقعا ولم نسلم لكم فيها وفينا رجل وكان قد سير الى الامير ابراهيم فى بعلبك أن ينحدر الى بيروت بمن معه من العساكر والاجناد فحضر ونصب خيامه ظاهر بيروت وباتوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت فى القتال شدة بالغة حتى أحرقت



المدينة ودكت أسوارها وتقدم الارشيدوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والاجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء اشارة الى أنه بيت المرضى فلم يحفل بها وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حتى دكه على من به من المرضى ولم تأخذه شفقة ولا حنان وهم يقولون بأنهم أنصار المروءة واخوان الرحمة وتمكن نابيير من تنزيل طائفة من العساكر العثمانية والانجليزية الى بيروت وسير بعض السفن الى عكا وبقية الثغور فدمرتها بنيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حامية * وانتقض أهل الشام ولبنان وخان الامير بشير الشهابي العهد واليمين الذى حلفه للامير ابراهيم فاشتدت نار الفتنة وعمت جميع البلاد وصار المصريون بين منتطع عزين وتساقطت عليهم نيران الاعداء من البر والبحر فانجلى من بقى منهم عما كان بأيديهم من القلاع والحصون وخرجوا وهم فى أسوء حال لامؤن ولا زاد ولا دواب لحمل الا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فاشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا جميع ما كان معهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الاشجار وما صادفوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموات بالحميات الخبيثة وما زالوا يجدّون السير ويدافعون عن ساقهم والعدو من خلفهم حتى وصلوا الى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا مرارة التعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الاقلام ولا تحيط بنعته الاوهام وتركوا تلك الديار التى ترطب أديمها بدماء اخوانهم حينا من الدهر * وسار نابيير بست من سفنه الكبار الى الاسكندرية ورسا أمام مقر محمد على باشا برأس التين وأرسل اليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التى تقررت بمعاهدة كوتاهيه فأبى محمد على باشا ذلك فأغلظ نابيير فى القول وشدد فى الطلب وتهدده بحرق الاسكندرية و بخلعه من منصب الولاية على مصر أيضا ان هو أصر على الامتناع والعناد وضرب له أجلا ضيقا وأرسل يقول ان مضى الاجل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الامر على محمد على باشا وأحزنه جدا وترددت الرسل بينه وبين محمد على باشا عسى أن يصلوا الى أمر فيه المصلحة فلم يفلحوا وأبى نابيير الا ما أراد فأجابه محمد على باشا الى ما طلب فأقلع نابيير بسفنه راجعا الى دار السلطنة وعاد محمد على باشا الى الشكوى فرفع أمره الى دولتى الفرنسيس والروس وشكا مما فعله نابيير فعمدت الدولتان الى ابطال ذلك العقد وعملتا جهد الاستطاعة على احباط مساعى دولة الانجليز نظرا لتفردها بالعمل وتجاوزها حد الوساطة وشددتا فى ذلك وكادت الروس تتحد مع الفرنسيس على ما فيه الاضرار بالدولة العثمانية فخشى السلطان شر العاقبة وعمد الى الملاطفة والمجاملة وأنفذ الى محمد على باشا بأن تكون ولاية مصر فى عقبه وللسلطان أن يختار منهم الاليق فامتنع محمد على باشا من قبول ذلك أولا ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائيا وتم الاتفاق

فلما

مطلب
وصول فرمان السلطان الى محمد على باشا بجعل ولاية الديار المصرية فى عقبه وتحديد حقوق الولاية وماجاء بعده من الفرمانات

فلما كان حادى عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك الى مصر فأبلغته قناصل الدول الى باغوص بيك ناظر الخارجية يومئذ ونصه

قد رأينا بسرور ماعرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لايجعلان عندنا ريبا بأنكم قادرون بما لكم من الغيرة والحكمة فى ادارة شؤن ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة ونظرا لتعطفاتنا الملوكية ونقتنا بكم فلا بد أنكم تقدرون احساساتنا اليكم حق قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزايا التى التزمتم بها الى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود المبينة بالخريطة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الاعظم وقد منحنا كم فضلا عن ذلك الولاية بطريق التوارث بالشروط الآتية

عند ما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة فى حق أولاده أيضا الى ما شاء الله فاذا انقرضت ذريتكم الذكور فلا حق لاولاد بناتكم الذكور فى الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالارث من بعدكم وجب عليه الحضور الى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل وال منه لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانه وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أوتلك التى سيجرى العمل بها فى جميع ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أوالتى ستعقد فى مستقبل الايام بين بابنا العالى والدول المتحابة يجب العمل بها جميعها فى ولاية مصر أيضا وتحصيل جميع الاموال والضرائب المفروضة على أهل مصر باسمنا الملوكانى

ولكى لايكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للضار والضرائب الغير القانونية يجب أن تنظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل الى خزينة بابنا العالى العامرة ربع الايرادات الناتجة من جميع الرسوم الجمركية ومن بقية الضرائب التى تتحصل فى سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شئ البتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والادارة والعسكرية ونفقات الوالى وأثمان الغلال التى تقوم مصر بتسييرها فى كل عام الى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أداؤه على هذا الوجه مدة خمس سنوات تبتدئ من عام سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ويصح تعديل ذلك بطريقة أخرى فى مستقبل الايام تكون أكثر موافقة لحالة الايالة المصرية ونوع الظروف والمناسبات التى تطرأ عليها

ولما كان من واجب بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات فى كل عام وكيفية تحصيلها لاسيما تحصيل العشورى منها وجباية بقية الضرائب وكان الوصول الى معرفة هذا كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال ايالة مصر فينظر فى ذلك فيما بعد وسيتقرر ما يوافق ارادتنا السلطانية ونظرا لاهمية طريقة سك النقود ووجوب تقرير قاعدة ثابتة لهذا الامر المهم كى لا يحدث فيها خلاف لامن جهة العيار ولا من جهة القيمة فقد اقتضت ارادتنا السلطانية أن تكون جميع النقود من الذهب والفضة التى يجوز لايالة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى الضربخانة السلطانية العامرة سواء كانت فى العيار أوفى الشكل ولا يكون لايالة مصر فى أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفا من الجند للمحافظة على داخلية البلاد بحيث لايجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيأ البتة غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هى معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية ايالاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى فى خدمة الجندية بايالتكم ماهو مقرر ومتبع فى كافة ممالكنا المحروسة وهى بعد أن تخدم الجند خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها فى ايالة مصر بحيث ينتخب ممن يكون فى الخدمة حالا بعد الذين أمضوا تلك المدة عشرين ألفا فيبقى منهم ثمانية عشر ألفا بمصر والالفان الباقيان يرسلان الى الاستانة لاداء مدة خدمتهم وحيث ان خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفا واجب استبداله سنويا فيطلب فى كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة فى نظام العسكرية عند سحب القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الانسانية ونزاهة القصد والسرعة المقتضية فى هذه الاحوال فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى ممن ينتخبون حديثا ويرسل منهم أربعمائة الى الاستانة فمن أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أوبدار السلطنة عاد الى بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهواءها ربما يستلزم أن تكون أقمشة ملابس عسكرها غير أقمشة ملابس عسكرنا المنصور فلا بأس بذلك انما يراعى جيدا أن لاتختلف هيئة الملابس والعلائم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرنا المظفر وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن تكون كملابس و رايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان البر والبحر الى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فرجع الامر فيه الى ارادتنا الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشئ سفنا حربية الا باذننا الخصوصى • ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراثة مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة آنفا فاذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغيا لاعمل له وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكانى لتعرفوا أنتم وذريتكم قدر ماجبلنا عليه

من

من الاحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفا وتمنعوا عن أهل مصر كل مايكرهونه وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم وتجتنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا السلطانية مع اخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولابتها لكم اه

وورد مع هذا الفرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار الى محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته الى السلطنة العثمانية فيوليها السلطان لمن يشاء ونصه ﴿ حيث قد ثبتم على ولاية مصر بمقتضى ماهو واضح بفرماننا السلطانى الصادر اليكم ووافق ارادتنا الشاهانية توريث ذريتكم من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضا فضلا عن ولاية ديار مصر ايالات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير توارث فبناء على ماهو معهود فيكم من الحكمة والاختبار وما أمرتم به من التمسك بهما تقومون بادارة هذه الايالات وترتيب جميع شؤنها بما ينطبق على عدالتنا ويوافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب السعادة لسائر الرعية وترسلوا فى كل سنة الى بابنا العالى قائمة ببيان الايرادات السنوية جميعها

وحيث انه فى غالب الاحيان يصير الهجوم من العساكر والاجناد على القرى والبلدان بتلك الاصقاع فيأخذون منها مايقدرون على أخذه من الشبان الذكور والاناث ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعلوفاتهم فهذه الفعال فضلا عما يترتب على استمرارها من انقراض أهالى تلك الديار فانها من الامور المخالفة للشريعة الاسلامية المطهرة وكذلك أيضا ماهو شائع ومستعمل فى جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة النساء فانه من أفظع الامور التى لاتنطبق على ارادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادئ العدل والانسانية التى هى من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى فعليكم مداركة جميع هذه الامور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها فى المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقى المأمورين الموجودين الآن بديار مصر الا من وصلوا منها بمراكبنا الحربية فاستملوا وكما قلنا بفرماننا السلطانى المرسل اليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البرية والبحرية لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من ارسال جدول باسماء من رتبتم من ضابطات العسكر المصرى الى بابنا العالى لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبهم هذا ماالقتضته ارادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا السامية السلطانية فعليكم المبادرة فى العمل بمقتضاه اه

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على مافيها من الحيف والقهر وذل النفس بعد الذى ناله عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب الى الدول يشكو

من جور هاته الشروط وشدة مافيها من الحجر والتضييق وبسأئها الوساطة فى تحديد شروط الوراثة وجعلها لاكبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله قدرا يحمل فى كل عام الى الخزينة السلطانية ومنحه حق اعطاء الرتب وألقاب الشرف لضابطان البريين والبحريين الى رتبة الميرالاى فأجابته الدول الى ذلك وخابرت السلطان فى الامر فأجابها الى ماطلبت وسير الى محمد على باشا الفرمان بذلك فى عاشر جمادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ونصه

ان الحضرة الفخيمة السلطانية تلقت ماعطفت عليها به الدول المحالفة من النصائح فى هذه الواقعة أيضا ولذلك قد منحت محمد على باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية بشرط انقياده الانقياد التام الى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتى ستبرم فى مستقبل الايام فيما بين سلطتنا العثمانية والدول المحالفة * قد صار مسند ولاية ديار مصر من الآن فصاعدا ينتقل بالارث من محمد على باشا الى أولاده وأولاد أولاده الذكور بكيفية أن يتولاه الارشد فالارشد فيقلده الباب العالى مسند الولاية كلما خلا هذا المسند من وال وقد تنازلت سدتنا الملوكانية عن أخذ ربع ايرادات الايالة المصرية مقابلة تقرير مبلغ فى كل سنة يحمل الى خزينتنا السلطانية خراجا وهذا المبلغ سيقرر فيما بعد مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب حالة ايرادات البلاد كما وانه من الآن فصاعدا صار من المرخص لمحمد على باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضابطان البرية والبحرية الى رتبة الاميرالاى فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالى أما ما يتعلق بادارة الايالة الداخلية التى يجب أن تكون على مثال الادارة الجارية فى جميع ممالكنا المحروسة فهو وان كان محمد على باشا لم يتكلم عنها بشئ حسبما يقتضيه الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة المحالفة ولكن لكى لايدع الباب العالى سبيلا للدول المحالفة بالتضرر منه كما لوحدث أن وقع من محمد على باشا فى مستقبل الايام أمور مخالفة لوجه مهم من الاوجه المستندة على المعاهدة المحكى عنها قد تقرر أن تطلب أولا الايضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم كتابة اه فقبلت الدول المحالفة هذا التصور وأشارت بتأييده فجاء الفرمان بذلك الى محمدعلى باشا ثم ورد فرمان آخر فى غرة جمادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية آلاف كيس خراجا يحمل فى كل عام الى الخزينة السلطانية ووقفت المخابرات بين محمد على باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد

مطلب وصول سيف ونيشان هدية من السلطان الى محمد على باشا

فلما كان رابع عشرى شعبان سنة سبع وخمسين قدم الى القاهرة رسول من دار السلطنة يحمل سيفا ونيشانا عاليا هدية من السلطان الى محمدعلى باشا فأنزلوه فى سراى شبرى واحتفلوا لملاقاته احتفالا شائقا وعملوا لذلك تشريفا بقلعة الجبل فى خامس عشرى الشهر اجتمع فيه جميع الامراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء * قال بعض كتاب

الاخبار

الاخبار ولم تكن هذه الهدايا لتذهب ما علق بخاطر محمد على باشا من فعال رجال دار السلطنة ولا ما داخله من الحقد على كبير سياسة الانجليز والبغض لهذه الدولة فقد علمت حتى نالت منه وسلخت عنه الشام والحجاز وغيرهما ولم تبق له الاولاية مصر والنوبة وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين فتحوا تلك الاصقاع ودوّخوها هدرا وانحصرت حدود مملكته وضاقت حلقة سلطنته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل الى الخزينة السلطانية فى كل عام وقل عدد عساكره الى ثمانية عشر ألفا لايلبسون الازى العسكر السلطانى وقيدوا علاقته مع سائر الدول الاجنبية بقيود منها أنه لايجوز عقد عهود أواستدانة شئ من المال الابأمر من دار السلطنة ولا يعطى شيأ من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار الا الى الدرجة الثانية للملكيين ورتبة أميرالاى للعسكريين نحسر بعصابتهم مالم يكن له فى حساب وقد كانوا يريدون اخضاعه وارجاعه الى طاعة سلطانه بغير عهد ولا شرط * قال وسعوا فى حرمان ذريته من تولى منصب الولاية من بعده تشفيا وانتقاما لامور نقموها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحد مشايخ العربان مع أرض أخرى متصلة بها بمبلغ من المال وأنشؤا بها حصنا عظيما لعلمهم ماسيكون لتلك الارض من الاهمية فى مستقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمد على باشا بالفتح الى خليج فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الاصقاع خاف الانجليز على مالهم من الاملاك الواقعة على شطوط البحر الاحمر فكتبوا الى محمد على باشا بان ينفذ الى عسكره النازلين على تلك الجزيرة بالانجلاء عنها خوفا من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الانجليز النازلين بتلك الجزيرة فيكرهونهم على الجلاء عنها فأبى محمد على باشا عليهم ذلك فبقيت فى حوزة جنوده تابعة لمملكته حتى تنازل عنها الى سلطانه مع مكة والمدينة وجميع الديار الحجازية بغير عهد ولاشرط ۞ قال الراوى لهذه الحادثة ونقموا على محمد على باشا أشياء أخرى غير هذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون الى فعاله بعين المقت والحسد ويخشون عاقبة ظهوره فلم يكفوا عنه حتى أذلوه وأقعدوه عن كل عمل فانكف عن الغزو والفتح ووقف عند حد العناية باصلاح شؤن مملكته وترتيب أمورها على ماتقتضيه مصلحة العباد والبلاد وسالم سلطانه وخليفته وخفض له جناح الطاعة وأظهر له غاية الاخلاص والولاء وسير ولده الامير محمد سعيد الى دار السلطنة ليرفع اليه فروض الاخلاص فنال الامير محمد من السلطان غاية الالتفات وحسن الوفادة فلما استأذنه بالرجوع الى مصر أذن له وأهداه كثيرا من الهدايا والتحف النفيسة والتحالى الثمينة وأحسن الى من كانوا معه من الخدم والحشم والاتباع فكان لهذا الصنيع وقع حسن عند محمد على باشا فتجرد الى الاصلاح ۞ وكانت الحوادث المتوالية والمحن المتراكمة قد أنهكت البلاد وكادت تذهب مابقى بها من آثار العمران فعمد الى انشاء المعامل وضبط الصنائع واحتكر تجارة جميع الاصناف ودوائر الحياكة وجعل لكل شئ ديوانا وكتابا وجعل لكل

مطلب
كف محمد على باشا عن الحرب والعناية باصلاح شؤن مملكته

ديوان لما يتحصل من غلات البلاد سواحل بكل بلد يأتى اليها الزراعون بما يتحصل عندهم بثمن مقدر فيخصم منه ماعليه من الخراج ويباع مابقى الى تجار الاجانب الذين كانوا يأتون الى ديار مصر ليمتاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى للكتان ومثلها لسائر أصناف الاقشة من المقصبات والاجواخ ونحوها ونظم الشوارع ومهد الطرق وابتنى المبانى العظيمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالاسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد أتى بسفن الحرب والدوارع من البلاد الاجنبية وأنشأ بها أيضا مدرسة لعلم البحار وأتى لها بالاساتذة من ديار الانجليز والفرنسيس واستقدم زهاء الالف وخمسمائة من فلاحى الفرنسيس وفرقهم فى البلاد البحرية والقبلية ليعلموا أهلها طرق الزراعة ويبثوا بينهم محبة وخدمة الارض ويكثروا من زراعة شجرة البن واستقدم المسيو جوميل الفرنسوى لزراعة القطن وقد كانت الى ذلك الحين هملا مهملا لايعرفون لها طريقا ففاز ونجح وكبرت زراعته واتسعت وأتى بنبات النيلة والافيون وأكثر من غرس الاشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنائن والبساتين العظيمة فى جزيرة الروضة وشبرى والازبكية وبالغ فى الاهتمام بأمر الطب وأتى له بالطبيب الشهير العلامة كلوت الفرنسوى فأنشأ مدرسة لذلك وأخرى للقوابل وعهد بادارتها الى الست جوت الفرنساوية وأخرى للطب البيطرى وسلم ادارتها الى المسيو هامون الفرنسوى وأنشأ ديارا لمرضى العسكر وأهل البلاد على أحسن مايكون من النظافة والنظام وجعلها تحت نظر المسيو دوساب والمسيو لبها وقد كان الطب الى هذا الحين كغيره هملا مهملا وسقطا مرذولا ليس بين أهل البلاد من يعرفه بل كانوا لايعولون الا على ماتصفه العجائز ولا يرضون الا بأقوال المشعوذين والدجالين فكانوا اذا مرض أحدهم ذهب أهله فطرقوا له الودع والفول وقاسوا الاثر وحسبوا النجم فكل ماقاله لهم الدجال صدقوه واعتمدوا عليه ثم يكتبون له الاحجبة والتعاويذ والصور بطاقات الطويلة العريضة التى ربما بلغ طول ورقتها ضعفى طول المريض وربما أضعافا ويبخرونه باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسة ونسج العنكبوت والشب الابيض والميعة وغير ذلك ويعلقوا عليه الخرزات وكان لهم عناية عجيبة بالاحجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرئ من داء فللعين خرزة حمراء يسمونها البقلة وللرقبة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقبة ولهم أحجار يحكونها للفزعة والحمى يسمونها حجر الشفاء فاذا لسع أحدهم حكوا له الخرتيت وسقوه ماءه أو وضعوا له على موضع اللسعة فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك من التمائم والاحجبة وخيطان الصوف وعظام الاموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أواصبع الكافر ❁ ومن اهمال أمر الصحة يومئذ اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقاهرة شيأ كثيرا مثل مقبرة السيدة زينب ومقبرة القاصد والشيخ عبد الله والشيخ ريحان وغيرهم بل كان الكثير من الناس يدفنون موتاهم فى حيشان البيوت وفى المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة ❁ ووقع فى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وباء شديد فأمات خلقا كثيرا حتى ان الاموات كانت

تشاهد

تشاهد ملقاة بالازقة والحارات وبجانب جدران البيوت فى الشوارع ثم انتقل الى الماشية فأهلك منها شيأ يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله

قال بعض الكتاب ﴿ وكما كان الطب مهملا فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد على باشا بالمسيو لينان الفرنسوى فأكثر من بناء القناطر والجسور وسهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسى الفرنسيس المدعو المسيو موجيل وهى من أكبر الاعمال الهندسية وأشرفها وهى مفتاح النيل ومغلقه عند فرعيه الشرقى والغربى وعليها حساب رى الاقليم البحرى ونصف الاقليم القبلى وكان مع موجيل هذا جماعة من مهندسى الفرنسيس فأظهروا فى وضع هذه القناطر أسرار الهندسة ودقائق صنعة البناء وكانت ديار مصر الى هذا الحين قد فقدت صناعها المهرة وأمست وهى فى حاجة الى كل شئ لاسيما العمارة ٭ أما اهمال النظافة فقد كان شاملا مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادر على اختلافها وكانت القاذورات تلقى بجوانب الحارات وعلى أبواب الازقة وتحت الاسبطة وفى أركان الجدران وكان ماينشأ من الهدم والاتربة ان اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالا فاذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحاب من التراب نتن الرائحة كريه الشم يورث الامراض المعدية الوبائية فأين سرحت الطرف فى البلد ترى المجذوم والمجدور والابرص والاعمى وغير ذلك من بقية الامراض ٭ وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام قذرة فلا تتمكن الشمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل مافيها من النتن ولا الرياح من تجفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فتحدث الامراض الجلدية كالحكة والاجذية وغيرها كل هذه الادران قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فخبئت له حسنات لايمحيها كرور الايام ونال عليها ان شاء الله خير الجزاء من بارئ الانام

مطلب ماأصاب البلاد من الضربات السماوية فى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية

ولما كانت سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فعمها وأهلك زرعها حتى ورق الاشجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غطا وجه الارض فوقع الغلاء وقل وارد الغلال واشتد الضيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فرارا من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا ائتنوا فى البلاد لجبايتها بأمر من الامير ابراهيم فكانوا اذا نزح أهل بلد أضافوا ماعليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشددوا على أهلها فى الطلب وبالغوا فى ايذائهم فضاق خناق أهل البلاد وارتفع ضجيجهم وعجيجهم وأصبحوا وهم بين منتظع كبشين اذهاب الحرث والنسل وايذاء أصحاب الجباية فكادوا يشقون عصا الطاعة ويخرجون على عمال الخراج وكان محمد على باشا يومئذ بالاسكندرية فلما علم بالخبر اضطرب قيل فأصابه بسبب ذلك نوع من الهذيان

وتحقق أن ذلك من فعال الامير ابراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس التين الى بيت محرم بك عند المحمودية وأقام هناك أياما وهو يخلط فى القول ويكثر من النداء على بعض الخدم ويقول يا الله قد خانى القوم فأيقظوا الفتنة وأبغضوا الناس فىّ وبقى على هذا أياما والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من الاسكندرية الى القاهرة فى نفر من الاتباع ونزل بقصره بشبرى فأتى اليه أصحاب الوظائف ورجال الدولة فعنفهم وزاد فى توبيخهم رحمة بالرعية فلم يجسر أحد على معاودته

مطلب زيارة محمد على باشا دار السلطنة وما لقيه من حفاوة السلطان به

وتاقت نفس السلطان عبد المجيد لرؤية محمد على باشا فدعاه للحضور الى دار السلطنة فلبى دعوته وسار فى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والاتباع ونزل ضيفا على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد على باشا ثم تمثل بين يدى السلطان فرحب به كثيرا فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفعه وأجلسه بجانبه ولاطفه جدا وحادثه ساعة * قال بعض الكتاب * واتفق أنه كان يحادث السلطان يوما فقال له فى أثناء الحديث حفظت يابنى وأحسنت * ثم استدرك أن هذا الخطاب لا يليق بأمير المؤمنين فقال ليعف مولاى عن زلة عبده فان حتى لابناء مصر قد أجرى على لسانى مخاطبة الكبير منهم والصغير بيا بنى * فتبسم السلطان وقال لا بأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبث فى دار السلطنة زهاء ثلاثين يوما أنفق فيها من المال ألف ألف قرش ماعدا الهدايا النفيسة والتحابى الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها الى قوله مسقط رأسه فمكث بها أياما وأنشأ بها مدرسة للفقراء ودارا للمساكين ورحل عنها راجعا الى الاسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحا عظيما ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والكثير من المدن وأقام يدبر الامر ويتصرف حتى كثر هذيانه وقل ادراكه فكان لا ينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان سريع الغضب يكره أن يرى ولده الامير ابراهيم فاذا رآه اضطرب وظهر على وجهه الغضب فأنفذ الامير ابراهيم الى دار السلطنة يخبر بامر أبيه وما وصلت اليه حالته ويعلم أهل المابين بوجوب تخليه عن المنصب فاجابه السلطان الى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاءه الفرمان بذلك فقرئ بقلعة الجبل فى مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر الى الآفاق ونقل محمد على باشا الى الاسكندرية وكانت أحب البلاد اليه وقد كثر خلطه وكبرت علته

فلما كان ثالث عشر جمادى الاولى سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فى ولاية عباس حلمى باشا الاول مات محمد على باشا وله من العمر ثلاث وثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد فى صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ فى جنازته ونقل نعشه الى القاهرة مع التجلة والتكريم فى مشهد حافل جدا ودفن بالمقصورة التى ابتناها لنفسه فى جامعه الذى أنشأه بقلعة الجبل ولم يكن قد تم بناؤه فحزن عليه أهل القاهرة وسائر البلاد حزنا عظيما لاجتماع القلوب على محبته * وكان رحمه الله أبيض اللون

مشربا

مشربا بحمرة عالى الجبهة أصلعها أسود العينين متوسط القامة جميل الهيئة مع هيبة ووداعة سريع الحركة كثير التفكر اذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابوليون بونابارته بسيط الملبس لايحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والجلب ميالا الى مسامرة كبار الجند ورجال الحرب لاسيما منهم سليمان باشا الفرنسوى فانه كان يحبه ويجله * قال بعض الكتاب فكان سليمان باشا يقول لم أتعلق بمحبة أحد غير ثلاثة أبى وبونابارته ومحمد على باشا وكان محمد على باشا اذا جلس فى مجلسه لايتقلد السلاح بل يجلس وفى يده علبة السعوط والسبحة وكان سليم القلب سريع التأثر لايعرف الكظم سريع الانقياد كريم النفس أبيها محب العطاء واسع التدبير محبا للاطلاع على أخبار الامم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام باحوال الرعية قليل العزم دينا صحيح الاسلام محبا للنصارى لاسيما القبط أهل البلاد قرب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا فى خدمته وخدمة البلاد فسلم اليهم مقاليد الدواوين وصرفهم فى ماوراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الاجانب عموما يسمونه محيي ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف المماليك رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم

(مطلب)

فى ولاية الامير ابراهيم باشا ابن محمد على باشا

لما اشتدت علة محمد على باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده ابراهيم باشا الى دار السلطنة يعلمهم بما آلت اليه حالة أبيه و يسألهم الاجازة بتنزيله عن منصب الولاية وتقليده عن حكم البلاد فجاءه الامر بذلك فى جمادى الاولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف فى الامور بالوكالة عن أبيه حتى يأتيه فرمان التولية فلما كان منتصف شعبان من السنة قدم الى القاهرة مظلوم بيك أحد رجال دار السلطنة ومعه الفرمان بولاية ابراهيم باشا فقرئ فى ثامن عشر شعبان بقلعة الجبل فى محفل حافل من كبار الدولة والعلماء والمشايخ والكبراء ودقت البشائر وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما كان شهر رمضان سافر ابراهيم باشا الى دار السلطنة ليقبل الاعتاب على حكم ما فى فرمان الولاية فاكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبث أياما ثم عاد فوصل الاسكندرية فى عاشر شوال من السنة وهو يشكو من مرض فى الباطن ومازال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية فلازم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوما ودفن بالامام الشافعى وكان جليل القدر مهيبا حازما واسع الفكر عظيم التدبير شديد البطش سريع الغضب جبارا قرما عنيدا صبورا على الحروب جسورا راسخ القلب موفقا يحسبه العدو بألف مقاتل فى قومه * وكان لما عاد من حروبه

في آسية الصغرى وتم عقد الصلح بين محمد على باشا وسلطانه عزم على السفر الى بلاد الفرنسيس للاطلاع على مافيها من فنون القتال وأسرار الحروب فسار معه سليمان باشا الفرنسوى ورافقهما الدوق نيمورس والامير جوانڤيل فلما وصل الى عاصمة الفرنسيس قوبل بغاية التجلة والاعتبار وكان ينتظره أحد كبار الاسطبل الملوكى وقيل أحد كبار الدولة ومعه فرس عربى مطهم بسرج من السروج الكليمانية قد أعد لركوبه فقدمه اليه فركبه وسار بين مظاهر الاحتفال والاحتفاء وكان هذا الفرس لابراهيم باشا وقد شاهد معه جميع الوقائع والحروب فى الشام وآسية الصغرى ودخل به مدينة نصيبين ظافرا منصورا بعد فتكه بالعسكر السلطانى فسيّره محمد على باشا بعد ذلك هدية الى قصر التويلرى بعاصمة الفرنسيس ومعه تسعة من السوّاس المصريين ولبث ابراهيم باشا بباريز أياما أولمت له فيها الولائم العظيمة وكانوا يضعون له فى كل مادبة أو وليمة كرسيا موجها الى جهة الشرق اشارة الى انه نابغة الشرق ومحيى دياره بعد الاندراس وكانت آلات الطرب والموسيقات تكرر بحضرته نغمات النصر وتردد أدوار الظفر والألحان الحماسية اشارة الى الوقائع والحروب التى اشتهر بها وفاز فيها بالنصر والغلبة ۞ وجال فى باريز وشاهد مافيها من الغرائب وتصدق على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسيرت اليه ملكة الانجليز تدعوه لزيارة بلادها فاعتذر ولم يشا الذهاب لبغضه لكبار الانجليز و بارح ديار الفرنسيس الى عاصمة البرتغال فاحسن ملكها وفادته واحتفل لقدومه احتفالا شائقا وأهداه نيشان الصليب الاكبر ثم عاد الى مصر وعاد فى ركابه سليمان باشا ۞ وقد سمعت بعض الناس يقولون ان سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالا الى الثورة وقلب هيئة الحكومات فلما اشتهر خبره بين كبار الفرنسيس خافوا منه فأقصوه الى البلاد البعيدة فجاء هاربا الى مصر ودخل فى خدمة محمد على باشا وتقلب فى الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية والالقاب السامية واعتنق الديانة الاسلامية تزلفا واسترضاء فجعلت أبحث عن ترجمة حاله وأسأل عن صدق أخباره من كانوا معه وساروا فى ركابه الى معامع الحروب ومشاهد القتال فلم أعرف منهم الا ماعرفه العامة وتحدثوا به وما زلت أبحث حتى عثرت على ترجمته لاحد كتاب الفرنسيس فنقلتها عنه وهى ۞ هو سيف بن أوكتاف جوزيف انثلم الطيمان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا فى أوائل شهر ابريل سنة سبع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة احدى ومائتين وألف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس طاغية قاسى القلب يلقب بالتركى لقساوته وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعا بالحروب ميالا الى الغزو والجهاد والخوض فى معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار الى طولون احدى أعمال فرنسا ودخل فى خدمة بحريتها متطوعا وأقام بها خمس سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثانية البحرية المدفعية ولبث بها زهاء سنتين ثم تاقت نفسه الى الانخراط فى سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال فى

مطلب
فى من هو سليمان
باشا الفرنسوى

البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلانتيكى مرات كثيرة وزار جزائر الارخبيل ثم عاد الى ليون لجراحة أصابته فى ذراعه الايسر فى حرب ترافلغار وأقام مع أبويه أياما كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدو له مشاجرة أدت الى المبارزة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوه وقتله وفر هاربا من ليون الى ايطاليا خوفا من العقاب ودخل فى عسكريتها جنديا فى الفرقة السادسة التى كان يقودها الكولونيل باجول ولبث على هذا الحال حينا ولما كان من نظام دولة ايطاليا العسكرى فى ذلك الحين تعليم الفرسان الايطالية جميع حركات المشاة أيضا قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فاتسعت شهرته * فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة الايطالية لان يكون قائدا لجيوشها التى ساقتها الى القتال فى واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى فى تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرار الحروب وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه فى احدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الارض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق نارى ثم حمل أسيرا الى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ماشاء الله حتى شفيت جراحته ونقه من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم بأحوال سيف فمال اليه وامتدح بسالته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدم جميع الفرسان فظهر نبله واشتد أمره وحاز نياشين الشرف فى معامع الحروب وكاد أن يسقط فى يد العدو فى واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفى منها فقلده القيصر قائمقامية قيادة الجيوش الروسية وفى سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات القوزاقية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولم يكن ليسمح له بها رئيسه الجنرال بيره فزاد اعجاب رجال حرب الروس به وقدروه قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت اليهما جوارحه فصار بين اقدام واحجام حتى علم بونا بارته من أمره ما أعجبه فانفذ اليه بالحضور الى عاصمة الفرنسيس فلبى اشارته وأتى مسرعا الى باريز فأكرم بونا بارته لقاءه وأدخله فى خدمة الجيوش الفرنسوية فسار سيرة حسنة للغاية وبالغ فى الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر فى خدمة برينة شهرة عظيمة للغاية فمال اليه بونابارته وأحبه ومنحه رتبة القائمقام * ورافق المارشال بروشى قائد جيوش الفرنساوية فى واقعة وأترلو الانجليزية فنال شهرة عظيمة ثم تغيب عن ساحة الحرب فدارت فى غيبته الدائرة على الفرنسيس فانهزموا شر هزيمة وكان له بعد ذلك فى حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وفاز وانتصر ونال من العدو ونظفر فنال رتبة الكولونيل أى أمير الاى مع نيشان الافتخار * فلما سقط بونا بارته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الامير سيف هذا المصاب وحزن على بونا بارته حزنا عظيما واعتزل الجندية ومال الى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة فى أراضى الجرنبل وجعل يفلح حينا ثم تاقت نفسه الى الخوض فى عباب الحروب ومشاهد القتال وكأنه

أقسم أن لايموت الاشهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده و بين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار الى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيس فمر سيف فى طريقه بالاسكندرية ولبث بها أياما فأعجبه هواؤها وحن الى البقاء فيها وعدل عن الذهاب الى ملك فارس وكان يعرف بالاسكندرية تاجرا من كبار الفرنسيس فقصده وكاشفه على ما فى نفسه من الميل الى خدمة محمد على باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيس وكان محمد على باشا ميالا الى ذلك جدا فلما علم بأخبار الكولونيل سيف وعرف مبالغ شهرته فى تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته واقدامه وتمكنه من الفنون الحربية مال اليه وأدخله فى خدمته وسلم اليه مقاليد كافة الامور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الارنؤد والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصرى يومئذ غاية الجفاء والشدة فكانوا يخاطبونه بفحش القول وبنا دونه بالكافر واشتد بغضهم اليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد على باشا باخراجه من ديار مصر والا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا الى جماعة منهم ممن دخل فى نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرب العسكر يوما و يعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتغافل الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ماهو عليه من لين الجانب ودماثة الاخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامرهم فنجح بعض النجاح ولكنهم عادوا فاطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فتبسم وصاح عليهم لابأس عليكم يارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطرى بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد على باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبث يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لاخضاعهم جيشا من خمسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيرا من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفريقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدمرونها عن آخرها فانفذ السلطان الى محمد على باشا فى رابع عشر جمادى الاولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم ويمنيه بالامانى الكثيرة ويخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه بمبيد طغام الكفار وبعده بضم مورة الى ولاية مصر ان هو دوخها وأرجعها الى الطاعة وكان يوسف بوغوص بيك الارمنى متوليا يومئذ رياسة الخارجية والتجارة وكتابة سر محمد على باشا فلما اطلع على ما فى فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم الى محمد على باشا وهو يقول (ليضع الله بيده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك بجميع العالم فاتك أهل لذلك يابونابارته أفريقة) فسير محمد على باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الامير ابراهيم باشا وكان الكولونيل سيف فى هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الاسلامى وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية فسار مع الامير ابراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فنون

القتال

القتال وأسرار الحروب ما شهدت به الاعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغا عظيما وأحبه محمد علي باشا ثم كان منه ما كان في حروب الشام وآسية الصغرى وزحفه بالعسكر المصري على أبواب القسطنطينية وأسره للصدر الاعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعاقل التى كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الاعمال الخطيرة التى قل أن يأتى غيره بمثلها في ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم في بحبوحة الهناء حتى مات ودفن ببستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة

وكان ابراهيم باشا مولعا بالزراعة وفلاحة الارض فضم الى أملاكه أجود الاراضي وأخصبها بالاقليمين القبلي والبحرى وزينها بغرس الاشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالغ في ترتيبها وبذل النفيس في اصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها وغت * قالوا وكان شديد البأس على الفلاحين جافي الطبع حازما مقترا يحاسب على الذرة والبرة ولا يترك لاحد منهم مثقال ذرة فكان أبوه يكره منه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله في آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت مادة رزقه اتساعا عظيما وخلف ثلاثة بنين هم أحمد واسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والحظيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولايته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان اليه بالولاية فتولى الامر بعده ولد أخيه عباس باشا الاول ابن طوسون بن محمد على باشا

(مطلب)

ولاية عباس باشا ابن الامير طوسون باشا

كان عباس باشا يوم موت عمه ابراهيم بالديار الحجازية فارا من وجه عمه اذ كان يمقته كثيرا ويريد البطش به لامور نقمها عليه وقيل بل ذهب لاداء مناسك الحج والاول أشهر فاستقدموه ورفعوا أمر ولايته الى دار السلطنة فورد الفرمان بولايته في سابع عشرى ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه الى قلعة الجبل في موكب حافل وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة ممن يعتمد عليهم ويميل بالطبع اليهم وأقصى أصحاب الرأى وأهل الشورى واختص بقوم غيرهم فسلم اليهم مقاليد الامور وتدبير مهام الرعية فعملوا لانفسهم واشتدت في هذا الحين الفتنة بين قيصر الروس والسلطان عبد المجيد وكبرت الوحشة بين الفريقين * قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيس حق حماية جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التى تمت ما بين الملك لويس الخامس عشر ملك الفرنسيس والسلطان محمد خان سنة ثلاث وخمسين

مطلب
وقوع الحرب بين السلطان ودولة الروس ومساعدة الانجليز والفرنسيس للسلطان على قتال الروس

ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعمائة وألف ميلادية على ما تقدم لك بيانه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ٭ وكانت دولة الروس تكره ذلك وتسعى فى تعضيد جانب جماعة الأرثوذكس واعلاء كلمتهم فوق كلمة أصحاب الكثلكة لاسيما فى بيت المقدس وتشتد رغبتها كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدى قسوس الكاثوليك واعطائها الى قسوس الارثوذكس فجعلت تراقب الفرص وتتبين انتفاعها حتى رأت اشتغال دولة الفرنسيس باخماد نار ثورتها الداخلية ثم بالحروب التى أثارها بونابارته على جميع الممالك الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة بما لاتقدر معه على الذب عن أهل الكثلكة فعمدت الى نزع جميع ما بأيدى الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها الى جماعة الارثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا يتصرفون حتى تولى ناپوليون الثالث رياسة جمهور الفرنسيس الثانية فرأى من اهتمام أهل الكثلكة بهذا الامر ما أعجبه وزين له مخابرة السلطان فى ارجاع تلك الحقوق والامتيازات الى ما كانت عليه حسب المعاهدات والعقود القديمة فطال الاخذ والرد ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على انتخاب عدة من كبار المذاهب وأئمة الدين لينظروا فى مزاعم الخصمين ويقرروا فيها أمرا باتا فأطالت العدة البحث والتنقيب ولبث الحال على ذلك أياما كثيرة ثم حكمت برد جميع الكنائس والديارات الى جماعة الكاثوليك ببيت المقدس وبرد بعض الامتيازات والحقوق الاخرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا فى شهر جمادى الاولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى فى شهر فبراير سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فعارضت دولة الروس فى نفاذ هذا الصك وهدد قيصرها السلطان بالحرب والقتال ان هو رسم بتنفيذه وطالب ناپوليون السلطان بتنفيذ حكم العدة ورد ما أخذ من جماعة الكاثوليك وشدد فى الطلب فأصبح السلطان وهو بين متنطع عنزين ولكنه عاد فرسم بتنفيذ حكم العدة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة فى فتح أبواب الحرب والتعجيل فى قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد الى استعمال الشدة وسير الى دار السلطنة الامير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليكلم السلطان فى عدم جواز العمل بما قضت به العدة وعدم مس ما بأيدى الارثوذكس من الكنائس والديارات فوصل الى دار السلطنة فى ثامن جمادى الاولى سنة تسع وستين ٭ قال بعض الكتاب فاحتفل لقائه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالغوا فى اجلاله وتعظيمه استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين فنزل فى دار سفير الروس أياما لايقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جمادى المذكور سار الى مقر صدر الدولة وهو فى زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكلمه فى أمر الكنائس ببيت المقدس وقال ان مولاى القيصر لايطيق الصبر على ما يلاقيه أهل الارثوذكسية من أصحاب الكثلكة ولايسمح بتنفيذ حكم العدة الدينية وقد سيرنى الى

هنا لا كلكم فى الامر فان أنتم فعلتم ماأحب فبها ونعمت والا فالسيف يحكم بيننا وبينكم
وطير الخبر بذلك الى القيصر فجعل القيصر يستطلع ما سيكون من دولة الانجليز ان هو
ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفير الانجليز فى ذلك وفيما اذا كانت دولة الانجليز
تعاضده على قتال السلطان « قال » فاذا هى فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد
السلطنة العثمانية وأرجعناها الى ما كانت عليه من الذل والصغار تساهلت معها وأنلتها
أخذ الديار المصرية وجزيرة كريد وتخلصنا جميعا من مكايد هذا القرم العنيد فخابر سفير
الانجليز دولته فى ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم فى الشرق
ودخول القسطنطينية فى عداد أملاكهم فيشاركون الانجليز فى ملك البحار ويزاحمونهم
على نيل الاوطار

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فكلم دولتى الانجليز
والفرنسيس فى أمره فتجرد نابوليون الثالث للعداوة وزين لدولة الانجليز التحالف على قتال
الروس وايقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى المواثيق القديمة وما زال بها حتى
مالت الى الحرب خوفا على هندها فسير فى الحال بعض سفن الحرب الفرنسوية الى اليونان
فألقت مرساها فى فرضة سلامين احدى الجزر اليونانية ولبثت تراقب الحوادث ورسمت
كذلك دولة الانجليز الى سفن حربها الراسية فى مينا مالطه بان تكون على قدم التأهب
والاستعداد وكان الامير منشيكوف الروسى فى غضون ذلك يتردد على الباب العالى فى
طلب تجديد معاهدة خونكار أسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية
جميع طوائف الارثوذكس الذين فى بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويمنيه
بالامانى البعيدة ثم رسم باعادة رشيد باشا الصدر المعزول الى منصب الصدارة وهو من أعداء
الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعا للدسائس
والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد الى الدفاع ووقف فى وجه الامير منشيكوف وأبى
عليه كلما طلبه فاستعظم الامير منشيكوف هذا الامر وأنفذ الى الباب العالى بلاغا فى شعبان
سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاه القيصر وضرب للصدر الاعظم أجلا
خمسة أيام فلما انقضى الاجل المضروب أمده بثمانية أيام أخر فانقضت ولم ينل من الباب
العالى جوابا » وكان السلطان لما ورد اليه بلاغ الامير منشيكوف طير خبره الى عاصمتى
الانجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة فى الامر حقنا للدماء فسيرتا فى الحال سفنهما
الحربية نحو الدردنيل وعلم الامير منشيكوف بذلك فكتب الى صدر الدولة فى تاسع
عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما
كان خامس عشرى الشهر المذكور جاءت الاخبار باجتياز الامير كورتشاكوف الروسى
بعساكره نهر البروت واحتلاله مقاطعة الدانوب فسير اليه السلطان من يسأله الجلاء وعدم
مجاوزة الحدود فلم يلتفت الى ذلك ونادى فى عسكره بالتأهب ووردت الاخبار

بذلك أيضا الى عاصمتى الفرنسيس والانجليز فاجتازت سفنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة امبراطور النمسا له فى هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلائق الودية وما للقيصر عليه من الايادى البيضاء لاسيما بعد قيام الفتنة فى بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان امبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها الا الطامة الكبرى على مملكته ان نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد الى استعمال المواربة وخابر الدول جميعا فى عقد مؤتمر بمدينة ويانا لاصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول الى ذلك وتم انعقاد المؤتمر فى سلخ ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدة بين مبعوثى كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فاذ عنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من المواربة والتعقيد ولم يقبلها الباب العالى وفضل الحرب على هذا السلم المحفوف بصنوف المكاره فانحل المؤتمر على غير طائل وكان الامير كورتشاكوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن فى خلال هذه الفترة من احتلال ولايتى الفلاق والبغدان والتحصن فى حصونهما فانفذ اليه السلطان باخلائهما وضرب له أجلا خمسة عشر يوما ورسم الى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فعبر الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين

واستخف الامير كورتشاكوف بقدر الجيوش العثمانية التى عبرت الطونة فلم ينجل عن مواقعه وزاد فى التحصن والاستعداد فسار اليه عمر باشا وقاتله قتالا عنيفا وطال القتال أياما ثم انكشف عن هزيمة كورتشاكوف شر هزيمة وجلائه عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤزرة وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضا الى عبده باشا أحد مقدمى العسكر السلطانى بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قفقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياما ثم توقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والامطار فهال القيصر هذا الامر وأزعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب ان اشتركت فيها أيضا عساكر الفرنسيس والانجليز وطلب المدد من امبراطور النمسا فلم يجبه خوفا من شر العاقبة فسير القيصر الى دولتى الفرنسيس والانجليز يسألهما عدم دخول مراكبهما الحربية الى البحر الاسود وتربصها عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم اجراء شئ من الحرب والقتال بالبحر المذكور فبقيت مراكب الدولتين لاتتحرك من مكانها أياما وظن السلطان وقوف رحى الحرب حتى ينقضى الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الاسود راسية فى مينا سانوب فلم يشعر أميرها الا وقد داهمته مراكب الروس وأحاطت بمراكبه من كل جانب وأطلقت عليها القنابل تباعا فسقط فى أمره واختبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد رمى مراكب الروس وتراسلت القنابل حتى دمرت جميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فأبلغه الصدر الى

سفراء

سفراء الدول لجاء الامر على الاثر الى السفن الفرنسوية والانجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الاسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدنو من موانى السلطنة العثمانية باجتيازه وسارت تمخر فى طوله وعرضه وأرسل السلطان الى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصرى فبعث اليه عباس باشا بجيش ضخم كامل العدد وأرسل الى الخزينة السلطانية شيأ من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انفشاله حبا فى الاستقلال على مصر والخروج من تابعية السلطنة فلم تساعده الايام ولم ينل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت فى عدة مواقع كبيرة وأبلت بلاء حسنا ووردت الاوامر من قيصر الروس الى سفيريه بعاصمتى الفرنسيس والانجليز بالشخوص الى عاصمة الروس وقطع العلائق السياسية فانسحبا ووقع الاتفاق بين دولتى الفرنسيس والانجليز والسلطان على قتال الروس وتقررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيس الى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كاملى العدد وكذلك دولة الانجليز تسير خمسة وعشرين ألفا ليتألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتنكف عن القتال صاغرة فاذا تم لهم النصر عادت العساكر الافرنسية والانجليزية وتركت الدولة العثمانية وشأنها تتصرف فى بلادها وترتب أمورها على ماقيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الافرنسية ومقدمها المارشال دى سنت أرنو والجيوش الانجليزية ومقدمها اللورد رجلان ومعهم شئ كثير من المؤن والذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة قاصدة دار السلطنة العثمانية فلم تكد تصل اليها حتى قامت الحرب على ساقها بين مراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا * قال بعض الكتاب وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الاحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرمتهم فى بلاد عدوتها فسيرت دولة الانجليز بعض السفن الحربية التى لها بالبحر الاسود لنقل قنصل الانجليز ومن معه من الرعايا الانجليزيين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع وراسلوا الرمى بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهال هذا الامر أمير السفن الانجليزية واتفق مع أمير السفن الافرنسية على الاخذ بالثار ان لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفح ويقوم بالترضية وضربا له أجلا أربعا وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم الى ذلك ولم يجعل طلبهما محلا فسارت جميع السفن فى شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمى عليها بالقنابل تباعا حتى دمرتها تدميرا والتهمت النيران جانبا منها ثم تركتها وسارت نحو سباستبول ودعت مراكب الحرب الروسية للنزال فلم تبرز لنزالها فسارت على الفور بعض السفن الافرنسية والانجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الواقعة على البحر الاسود فأنفذ القيصر المارشال بسكيفتش فى جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبره وسار نحو



مدينة سلستريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطانى لايتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فسارت الجيوش المتحالفة الى وارنه لنجدة موسى باشا ومن معه فمات موسى باشا قبل أن ينجدوه وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصار فانجلى بعسكره عن المدينة فتبعته العساكر العثمانية وجعلت تتخطف ساقته حتى تجاوز نهر الطونة وما زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار فى مأمن من نيران العسكر السلطانى فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة وتشاوروا فى أمر القتال مع العدو وكان الطاعون قد تفشى فى حدود السلطنة العثمانية وكثر فيها الموات فاتفقت كلمتهم على النزول على سباستبول ومحاصرتها وعدم الجلاء عنها حتى يدكوا أسوارها دكا وسيروا فى المحرم افتتاح سنة احدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيس والانجليز والترك والمصريين فكانوا زهاء ستين ألفا كاملى العدد فنزلوا عليها ولم يستقر بهم المقام حتى التهبت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشفت عن هزيمة الروس ونصرة الفرنساويين نصرة مؤزرة وأخذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا الى فتح مينا بلكلاوا ليجعلوها مأمنا لسفنهم التى كانت تأتى اليهم بالمؤن والذخائر ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقاتلوها يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أياما فتمكنت فيها جماعة الروس من تحصين سباستبول تحصينا منيعا وبالغت فى ذلك من البر والبحر حتى صارت لاترام

وسارت جيوش الاحزاب نحو سباستبول وقد تفشت فيهم الحميات فكثر الموات بينهم ومنهم المارشال سانت أرنو مقدم الجيوش الافرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سباستبول فنقلوا جثته الى عاصمة الفرنسيس باحتفال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كانروبر فحاصروا سباستبول ورموا عليها بالقنابل فى أوائل صفر سنة احدى وسبعين ولبثوا يواصلون الرمى ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجموا عليها هجمة رجل واحد فلم ينالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين وتبعتهم طائفة من العساكر الروسية وقاتلتهم قتالا عنيفا ثم عادت ولم تظفر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفريقين سجالا حتى دخل الشتاء فكثر الموات فى عسكر الاحزاب وتفشت بينهم الامراض فأوقفوا رمى القتال ولبثوا على قدم الحصار فعمدت العساكر الروسية الى تقوية ماتشعث من الحصون وترميم ماتهدم منها حتى عادت الى ما كانت عليه من المنعة وخاف رجال سياسة الفرنسيس والانجليز من اتحاد امبراطور النمسا مع قيصر الروس على الحرب والقتال فتزداد هذه الحرب وبلا وتعظم مصيبتها لاسيما وقد كانوا يرون فى الروس خصما عنيدا وقرما صبورا على القتال فعمدوا الى استمالة امبراطور النمسا وحببوا اليه الاتفاق معهم على مافيه المصلحة لبلاده أيضا فوافقهم

على

على ذلك وكان بينه وبين فردريك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة الا بعد رضا الآخر فخابره امبراطور النمسا فى ذلك وزين له الاشتراك معه على مافيه المصلحة لبلاده فلم يلتفت الى شئ من أقواله فاتفق الاحزاب على محاربة قيصر الروس فى الصلح وكف القتال على قاعدة هى عدم انفراد القيصر بحماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية وعدم التعرض لحماية الفلاق والبغدان واباحة المرور لجميع مراكب الدول فى نهر الطونة وتعديل المعاهدات المتعلقة بالمرور فى بوغازات القسطنطينية لاسيما منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وكلموا سفير الروس بعاصمة النمسا فى ذلك فطلب المهلة حتى يأتيه أمر القيصر فأمهلوه واشتغلوا بالتأهب والاستعداد لاضرام نار الحرب اذا ولى الشتاء وجاء الصيف وبينماهم على هذا الحال اذ هاجم الروس مدينة أوباتوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا وصبر كل فريق على القتال فمات خلق كثير ومات سليمان باشا مقدم العسكر المصرى فى هذه الموقعة ثم انكشف القتال عن هزيمة الروس وردهم على أعقابهم خاسرين ووردت الاخبار بذلك الى معسكر الاحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباستبول والالحاح فى قتالها وأكثروا من جمع الاسلحة والكراع فلم يمض على ذلك الا أيام حتى مرض القيصر واشتد به مرضه ومات فى جمادى الثانية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرمى اذ ولى الملك بعد موت القيصر المشار اليه ابنه اسكندر الثانى ولم يستقر به المنصب حتى جعل يتأهب للزحف على مواقع الاحزاب ويكثر من حشد الجيوش واعداد معدات القتال فلما أنس الاحزاب منه ذلك زينوا الى ملك ساردينيا التى هى اليوم مملكة ايطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حتى سير جيشا عظيما من عسكره الى حصار سباستبول وتحالف على الذب والقتال فقويت عزيمة الاحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانت بينهم سجالا ثم تمكنت جيوش الاحزاب من احتلال مدينة كريش وبوغاز بريكوب ومدخل بحرأزاق فأغروا حصار سباستبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الاحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس وتلح فى قتالهم من البر والبحر فانتصروا فى عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة فى حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال ماك مهون الفرنسوى عنوة فى خامس عشر ذى الحجة سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباستبول وضاقت عليها المسالك وانقطع المدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمها عن آخرها ودكها دكا فدخلتها عساكر الاحزاب فى ثانى يوم مخفوقة

ودخل الشتاء فوقفت رحى الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغلبة وعدم القدرة على دفع جيوش الاحزاب بعد خراب سباستبول فعمدت الى الموادعة وتودد القيصر

اسكندر الى امبراطور النمسا فكلم الامبراطور الدول المتحالفة فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال وحقن الدماء المهدرة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول الى ذلك وقرروا القاعدة بينهم على مافيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم اليها وطلب عقد مؤتمر فى باريس عاصمة الفرنسيس لتقرير أمر الصلح نهائيا فاجابوه الى ذلك أيضا وانعقد المؤتمر ووالى الاجتماع أياما حتى تم الصلح بينهم وتسطر فى أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة اضافية صار التوقيع عليها من جميع مبعوثى الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعيد ذلك رفع الحصار عن جميع الموانى والثغور الروسية وانسحاب جميع عساكر الاحزاب من بلاد القرم فى أجل لايتجاوز الستة أشهر وأن تخلى دولة النمسا عن ولايتى الفلاق والبغدان فى بحر ثلاثة أشهر وكذلك تخلى الروس عن مدينة قرص وقلعتها وتردها الى الاملاك السلطانية فى بحر ثلاثة أشهر وعاد من بقى من العساكر المصرية الى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ماكان من الفتن والارهاصات الداخلية وخروج بعض الايالات عن طاعة السلطان ونوالها شبه الاستقلال بتعضيد دول أوروبا لها مما لامحل له هنا خوف الاطالة

وكثر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الوشاية فاخذ بقولهم وعمل بمشورتهم واشتدت رغبته فى معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فانفذ لذلك جماعة فكانوا يأتون اليه بالاخبار المقلقة والحوادث المكدرة ليباعدوا بينه وبين الناس فتطير وأخذ حذره وأكثر من شراء المماليك الجلب والاماء السود وأقام طوائف الترك على بابه يحرسونه نهارا وطوائف المماليك يخفرونه ليلا وكان شديد البغض لاهله وعمومته وعلى الخصوص منهم أولاد ابراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ فى تنكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد أتباعهم وحاشيتهم وأقصى القائمين باشغالهم الى سنار وفيزوغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لايحصلون على طعام يوم لحبس أرزاقهم وانكمشوا وقل ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورميهم بالتهم الكاذبة ومع ذلك فقد كانت عيونه وأرصاده لاتفارق أبوابهم ساعة ووقع بينه وبين عمه الامير محمد سعيد من النفرة والشحناء مالم يبق معه الا القتال فادعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصا الطاعة واتهم أعيان البحيرة وبعض مشايخ عربان أولاد على بنصرته فاعمل فيهم القتل والتشريد والتبعيد الى أقاصى السودان وبالغ فى تخريب دورهم ومحو آثار منازلهم فاختفى من بقى منهم ونزحوا الى الشام والحجاز وألزم عمه بالمكث فى الاسكندرية وعدم دخوله القاهرة وبث حوله العيون والارصاد فضاقت على الامير محمد سعيد المذاهب واستعبد بعض رجال الدولة وكبار النزلاء من الاجانب فلم يفلح لشدة بأس عباس باشا وعظم هيبته فى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت بعباس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال الى سكنى البيداء والجبال فابتنى له قصرا بالدار البيضاء بطريق السويس وآخر بسفح الجبل الاحمر خارج باب الحسينية سماه العباسية نسبة الى اسمه فكان اذا ذهب الى أحدهما أقام به

أياما

أياما لايصل اليه الا المقربون من قومه وابتنى مبانى أخرى كثيرة كالحلمية وغيرها عنيل شيمه ورسم ببناء دار بظاهر بركة الازبكية بجوار جامع الكخيا فشرعوا فى العمل وبدؤا ببناء السور من الحجر الاحمر وجمعوا لذلك البنائين والنحاتين والنجارين والخشابين والفعلة ووكل بهم جماعة من الترك يحملون العصى والاسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد جده محمد على باشا فاتفق أن مر الامير ابراهيم باشا يوما بالازبكية فسمع من صياح العمال وجلبتهم ماأدهشه فسأل عن ذلك فقيل له انهم عمال فى بناء الدار التى ينشئها الامير عباس فسار نحوها فرأى من كثرة أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعمل ما هاله وأحزنه فسير فى الحال الى الامير عباس من يعلمه بترك هذا العمل وصرف أولئك العمال بالتى هى نخاف الامير عباس وصرفهم وترك البناء فى ذلك المكان ولم يتم منه الا بعض السور من الجانب الشرقى فرسم الامير ابراهيم بجعله مناخا للجمال المرتبين لخدمة الدولة وبقى كذلك الى أيام اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا فأزاله وأنشأ فى جانب منه النزل المعروف باللوكاندة الجديدة وأمر ببيع الباقى منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمها ترتيبا وتنسيقا * وكان شديد البغض للاجانب جبارا على الرعية سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين اليه ميالا الى الوشاية وايقاع الفتنة بين أصحاب الوظائف حذرا من تآلفهم واتحادهم على مايخشاه وكان مثل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فى الاكثار من شراء المماليك ووقوفهم على بابه وتزيينهم بأفخر الملابس وكان ركبهم جياد الخيل بالسروج المطهمة وأنشأ فرقة منهم ومن أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على زى الجند سماها الاورطة المفروزة فكانوا هم حراس أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم اغضائه عن الصغائر كثير التخيل لايمكن أحدا من الدنو منه حيثما سار فكان يمشى وحوله طوائف الترك فاذا رأوا من أحد ريبة فى طريقهم مالوا عليه وأوجعوه ضربا بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند عرب الهنادى بالشرقية * قال جماعة وتزوج باحدى بناتهم وكانت غاية فى الجمال وعندى أنها فرية ماأنزل الله بها من سلطان * وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولداله ليربوه على طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هى الحقيقة بلا مراء وكان قربه منهم باعثا لهم على التمرد والشقاوة فاذلوا أهل الشرقية وتطاولت أيديهم الى سلب أموالهم ونهب زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم يقفوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروعات المغارم والكلف الفادحة من مال وغلال فاذا تعذر جمعها عاثوا فى البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا يدفع بهم كل قليل من الزمان الى قتال عربان البحيرة ليلهيهم الى عمه الامير محمد سعيد ثم لم يلبث على موالاتهم طويلا حتى عاد فنكد بهم وأهلك كبارهم وشرد نساءهم ونهب زروعاتهم على يدى رستم بيسك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة * وأبطل فى يوم

واحمد جميع معامل القطن والكتان والاقمشة والاجواخ والحرير والقصبات التى أنشأها جده محمد على باشا وشرّد من كان بها من الصناع والعمال ﷺ قال بعض الكتاب ﷺ وقد تم ذلك باغراء من الجنرال ميرى قنصل جنرال الانجليز فكان فعله هذا من أشد الفعال المحزنة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلاتها وقلة معداتها والاعتماد فى حركتها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار ومنذ وتعذر وصولها الى حد الكمال التى هى عليه المعامل اليوم كافلة باحتياجات البلاد وقد أحيت من الصنائع ماأماته الايام وأذهبه جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم وسهلت على أهل البلاد سبل الكسب والتعليم فعاش فى ظلها العدد العديد وترامت آمالهم فيها الى المرمى البعيد ولو بقيت الى يومنا هذا لكان لها من الشهرة مايغنى البلاد عن كثير من المصنوعات الاجنبية على اختلافها وأمست وهى مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر فى مصنوعاتها ولكنها أصبحت فلم تكن شيأ مذكورا

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم اليه قنصل جنرال الانجليز فى تعمير الطريق من باب الحسينية الى مدينة السويس تسهيلا لنقل السواح من الانجليز الذين كانوا يأتون من السويس على عجلات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وقيد بعض الترك بهذا العمل فأفحشوا فى الجور وايذاء خلق الله حتى أتموه فى عهد قريب ﷺ وعمر فى سنة ست وستين مسجد السيدة سكينة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الاحمر وجدد كذلك جامع العشماوى بشارع العشماوى بالازبكية فاعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه منه وتقدم اليه الجنرال ميرى قنصل الانجليز فى انشاء خط حديدى أيضا بين الاسكندرية والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة الانجليز وهندها وما زال به وهو يمنيه بالامانى البعيدة حتى رسم بانشائهما فكان مد محور الخط فى تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية ﷺ وحجت أمه فخرجت من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجند وخلفه الخدم والحشم والغلمان والاتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيأ كثيرا وفعلت كذلك بمكة وغيرهما وعادت الى القاهرة فأولم لها الولائم العظيمة وأطعم وكسى أولاد المكاتب والايتام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الاولياء وأقام المقرئين والفقهاء يتلون القرآن فى دارها أياما وزارها جميع الامراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية من النساء وقدموا لها الهدايا والتحايا النفيسة

وكان كثير التساؤل عن مستقبل الامور ثابت الاعتقاد فى صحة الكهانة والعرافة والزايرجات فأدنى منه جماعة من أصحابها وقربهم وسألهم عما يكون فى أيامه من الحوادث والكوائن وما سيقع اليه من خير أو شر فأبهموا عليه الأمر فهددهم فقالوا انا نخاف عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون فى شكل كذا وكذا قيل فاضطرب وزاد

خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزايرجات بجموعهم وأقصوهم الى أعالى السنار والدارفور فتطاولت عند ذلك أيدى أعوانه الى خيار الناس من كل ملة فكان صاحب الوجاهة لايشعر الا وقد كبس داره جماعة من الترك فيحملونه مقيدا بالحديد الى حيث لايدرى ويرجمون فيبحثون عما فى داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ماوصلت اليه أيديهم من حلى ومتاع فكثر لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فانكمشوا وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمته اذ كان من المحتم على كل خادم أن يبلغ شيخه فى كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل اليه من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت الا وهو بين يدى صاحب الشرطة يسأله عما قاله فى ليلته أو فعله فى صباح يومه فاذا أنكر أتى اليه بألف دليل من أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان اذا أغضب المخدوم خادمه أو أغلظ عليه فى القول وشى به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى * وكان يحب اقتناء المعزى والنعاج وكبار الكباش للمضاربة والحمام والسباع والقيلة والضباع وجياد الخيل وكان شديد العناية بها ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للاتيان بها من أقاصى البلاد كالهند والعراق واليمن ونجد وبغداد وكان شديد البغض النصرانية ناقما على النصارى لاسيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبالغ فى تذليلهم وأتى للمباشرين منهم بطائفة من الاحداث الاغرار وأبناء المكاتب يجعلهم فى وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختل نظام المصالح الديوانية وتطرق الفساد الى جميع الاعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت * قيل واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر اخراجهم من وطنهم وتبعيدهم الى أقاصى السودان وأرسل الى الاستاذ الشيخ الباجورى شيخ الاسلام يومئذ يسأله فى ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لاتنكفه على قال وما هو يا أمير قال انى أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى الى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدبيرا فما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى النصارى تعنى يا أمير ان كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الاسلام طارئ ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته الى اليوم الآخر وان كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين فى بلادك فانى أخاف اذا فعلت بهم شرا أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسيس * قيل فغضب عباس باشا ونادى خذوه عنى فقام الشيخ وهو يقول اى ويعلم الله اى ويعلم الله * وكان اذا أبغض أحد من بطانته آخر أيا كانت درجته قال له ان فلانا (يريد خصمه) فيه شئ من الاوصاف التى قال عنها فلان صاحب الزايرجة وفلان صاحب تخت الرمل فلا يشعر ذلك المبغوض الا وقد دخل عليه طائفة من الترك فيأخذونه الى حيث لايعود فكان الرجل أية كانت وجاهته يقضى بياض يومه فى حساب ما سيكون فى سواد ليله فكان اذا غضب على أحد غضب

الناس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكالمه الصديق خوفا من العيون فاشتد الخوف بالناس الى حد القنوط والياس

قال أحد كتاب الاخبار فتجردوا للعداوة وابتهلوا الى الله وتوجهوا اليه بقلوبهم واتفق انه خرج من القاهرة فى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره ببنها العسل على النيل كعادته وهو قصر قد أنشأه على مقربة من تل تريب قيل موضع قصر المقوقس عظيم قبطة مصر وأقام به أياما مع بطانته وكثير من الخدم والحشم والاتباع وطائفة من الغلمان فلما كانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تآمر أولئك الغلمان على قتله فدبروا الامر وأحكموا التدبير وتولى قتله أربعة منهم وقيل ستة والاول أصح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم انما خرجوا يريدون القاهرة لامر أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الظهر قريبا ولم يدر أحد بما جرى عليه واتفق أن مر فى ذلك اليوم ببنها أحمد باشا يكن يريد بالذهاب الى اقطاعاته بالمنصورة فلما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع الى الديوان وسأل عنه فقيل له انه نائم فلبث ينتظره ساعة حتى أذن الظهر ثم قرب العصر ولم يظهر خبر فأوجس أحمد باشا خوفا وقال دلونى على حجرة نومه فدلوه عليها فطرق بابها فلم يجبه أحد فتابع الطرق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فاذا هو ملق على فراشه فأمر من كان معه بكتمان الخبر واستدعى كبير الخصيان وقال له الباشا يأمر بذهاب جميع النساء الى القاهرة فى هذه الساعة فنزلوا ونزل رجال ديوانه الخاص وجميع الخدم والحشم والاتباع وجماعة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عباس باشا ثيابه وأعد عربته ولم يعلم بالخبر الا القليل فلما أذنت العشاء أنزلوه من حجرته محمولا على الايدى وأجلسوه فى عربته كأن به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا الى القاهرة فى الكبكبة المعتادة وأنزلوه بقصره بالحلمية وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الامير محمد سعيد بالاسكندرية مجهورا عليه فوردت عليه فى صباح ذلك اليوم رسائل التهانى وأرسلوا اليه يستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون اليه والعائشون فى نعمته وأبطؤا فى دفنه فلم تخرج جنازته الا بعد الظهر وكان اليوم شديد القيظ فسارت جنازته فى نفر من خواصه وبعض الجند ومرت من الغورية فالنحاسين والناس فى دهشة لايصدقون بموته ثم طيروا الخبر الى محمد سعيد باشا واستقدموه ليتولى الولاية فرحل عن الاسكندرية يريد القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله

(مطلب)

ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير

لما ورد الخبر الى الامير محمد سعيد باشا بموت عباس باشا قيل انه اندهش وكاد أن

لايصدقه

لايصدقه لولا ترادف رسائل التهانى عليه من كل فج وصوب فجمع اليه قناصل الدول وسار بهم من الاسكندرية يريد القاهرة فعلم فى الطريق أن ألفى باشا أحد أخصاء عباس باشا تعاهد مع أمير جند قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعيد باشا من دخولها واستقدام الامير الهامى ولد عباس باشا من الديار الاوروباوية وكان قد سافر اليها من أيام وتحالفا على ذلك فلما دخل سعيد باشا القاهرة لاقاه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ وساروا فى ركابه الى قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض كبار الاجانب ففتح لهم أمير جندها الابواب وقابله الجند بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدعاء اليه وبثت البشائر وطيروا الخبر بولايته الى الآفاق ففرح الناس فرحا عظيما قيل فلم يمض على ألفى باشا بياض يومه ذلك حتى مات غما وقيل خوفا مما فعل فتولاها الامير محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا فى عشرى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التدبير وأحكم السياسة ورتب أمور البلاد على مافيه المصلحة لاهلها ورد جميع الاطيان التى كانت أعطيت الى كبار المأمورين وأرباب الدولة على عهد ابراهيم باشا وعباس باشا الى أصحابها من الفلاحين وأبطل الكثير من المكوس والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم والاحدوثات التى كادت تدهس البلاد منذ ولاية ابراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات والبقايا من الاموال الاميرية عن الفلاحين ورد المتشردين منهم الى أوطانهم وأمن الطرق وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الاسعار فأثرى الفلاح وحسن حاله واتسعت مادة رزقه فأسرف وبالغ فى السفه حتى لم يبق ولم يذر

وكان يحب الجندية ويعجب بها جدا فبالغ فى تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم الملابس الفاخرة وسلحهم بالاسلحة المتقنة وجمع اليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من السود فكانت على أكمل هيئة وأجمل نظام فكان اذا سار الى بلد سار جميع الجنود فى ركابه وخلفها المكاحل والمدافع ودواب الحمل كأنها زاحفة للحرب والقتال واذا عاد عادت على هذه الصورة من الكبكبة ونزلت بالخيام ظاهر القاهرة ومصر القديمة أو دخلت الى منازل الجند كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقر بها المقام حتى يأتيها الامر بالرحيل الى مريوط أو ادفينة أو بنى سويف أو غيرها فكانوا دائما على قدم الاهبة والاستعداد لاتفتر لهم همة ولا تخمد لهم عزيمة وكان مع حبه الجند وشدة تعلقه بهم شديد البطش فنا كا بمن تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كأحسن عساكر الدنيا طاعة وخفة ونظاما وملبسا ومأكلا ومشربا

مطلب عصاوة عربان منية ابن خصيب وماجرى لهم

وظهر فى أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل والتشريد * قال بعض كتاب الاخبار وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم فى مصاف الجند فيكون لهم مالهم وعليهم ماعليهم وأنفذ

الى مدير منية ابن خصيب باحضائهم فجمع المدير كبارهم وأصحاب الرأى منهم وكلمهم في الامر فامتنعوا وقالوا لاسبيل الى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد على باشا الكبير الى هذا الحين فلا يصح ادخال أولادنا فى مصاف العسكر واذهاب ماباديبنا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير فى ذلك فامتنعوا فالح عليهم فتجافوا وخاطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوقوهم ورفع أمرهم الى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك قبل وكان يبغضهم بغضا شديدا لميل عباس باشا اليهم وتحريضهم على قتال عربان أولاد على نكاية بسعيد باشا كما تقدم القول فأنفذ الى مدير منية ابن خصيب يقول لاسبيل الى غير ماسيرت به اليك فاياك والتقاعس واهمال هذا الامر فشدد المدير فى الطلب وألح على أولئك المشايخ فطلبوا مهلة فأمهلهم وسرحهم وضرب لهم أجلا فساروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا اليه وجاء الخبر بذلك الى محمد سعيد باشا فكاد يتميز غيظا ونادى فى عسكره بالرحيل الى منية ابن خصيب وبنى سويف فساروا وركبوا على أولئك العربان وقاتلوهم أياما كثيرة فترفع العربان الى الجبل الشرقى وبعضهم الى الجبل الغربى فتبعهم الجند وأعملوا فيهم القتل فقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا النساء والاولاد والبنات وأتوا بهم الى مدينة الفيوم وبنى سويف فكانوا يعطونهم الى أصحاب البيوت كالاماء والعبيد وقبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعوهم السجون وكان الجند اذا كبسوا حيا من أحياء أولئك القوم وجدوا البيوت قاعا صفصفا ليس فيها الا ماثقل حمله وبخس ثمنه فيأخذونه فاذا ابتعدوا عنها قليلا وجدوا الاطفال مطروحين مثقلين بالرمل كى لايقدرون على الزحف فيموتون حيث وضعتهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم الى بنى سويف والفيوم وغيرهما ويعطونهم الى أهل الخير فيكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عباس باشا واسعى الكلمة عظيمى الصولة كبيرى الاهابة فعاثوا فى البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحرث والنسل وأمر سعيد باشا فأعملوا فيهم القتل والشنق والتمزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لاسيما يعقوب بيك مدير بنى سويف فأفحش فى قتلهم وبالغ فى البحث عنهم وتتبعهم أينما ساروا وخرب منازلهم وشرد من بقى منهم الى أقاصى الشام والحجاز فاختفى من لم يتمكن من الفرار فى القرى والكفور وتزيا بزى العامة والفلاحين وتكلم بكلامهم وترك مايلتزمه العرب فى كلامهم من الترخيم وكسر آخر الكلم وقد كان الفقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالمتهم ويحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لايرى السلامة الا بالالتجاء الى أصغر بيوت الفلاحين ❊ واشتد الخوف بأهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق فاختفوا فأمنت السبل وسلكت المسالك واشتدت يقظة أهل البلاد فأقاموا الخفراء على الحدود ورؤس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتى من مربوط الى أقاصى الصعيد الاعلى برا من غير رفيق فلا تجد فى طريقها من يعترضها فى مالها أو عرضها أو يسألها من أين أو الى أين وكبرت هيبة سعيد باشا فى أعين أهل البلاد كافة فانكفوا عن

ابذاء

ابذاء بعضهم وعكف كل على مهنته وحرفته وصنعته فحسنت حالهم وكثرت أموالهم وغزرت مادتهم ونمت زروعاتهم ودرت الارزاق فأكلوا وشربوا وشبعوا ولبسوا مالم يأكلوا ولم يشربوا ولم يلبسوا فى أيامهم الغابرة * ونظر الى مستقبل موظفى الحكومة وأرباب الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم اذا تقاعدوا عن الخدمة ورسم فى خامس ربيع الثانى سنة احدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل المزايا التى لا يعادلها شئ عند جميع موظفى الدولة وهو معمول به الى يومنا الذى نحن فيه حتى أصدر اسمعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته فى مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون * وأنشأ القلعة القائمة على بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده فى ثالث عشرى جمادى الآخرة من السنة وبالغ فى تنظيمها حتى جاءت من أحسن المبانى وأتقنها وقد زالت محاسنها وتشعث بعض بنائها فأزالها اليوم جماعة الانجليز ولم يبقوا منها حجرا على حجر * ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهيضة بالقاهرة ومصر واشتدت فكثر الموات فى الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن مات نيفا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحص فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من هاجر من أهالى القاهرة ومصر فرارا من الموت * وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعه بك من منفاه بالديار السودانية حيث كان أبعده عباس باشا لوشاية الواشين وسلمه مقاليد تلك المدارس فأفلحت وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد

وقدم فى ولايته الشهير فرديناند دى لسبس الفرنسوى الى القاهرة وكله فى حفر خليج يصل البحر الابيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس الى ما يجاور الاشتوم المعروف باشتوم الجميل على ساحل البحر الابيض المتوسط وألح على سعيد باشا فى ذلك فاستكبر سعيد باشا هذا العمل وعده رابع المستحيلات وطاول دى لسبس ومناه فاشتدت عزيمة دى لسبس وشدد فى الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا وتواردت على سعيد باشا الرسائل تترى بعضها طعنا فى أعمال دى لسبس وبعضها استهزاء بمشروعه وسخرية به * قال أحد الكتاب وأكثرت دولة الانجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف أخبارها يلقبون دى لسبس بالسنة حداد ويبالغون فى الهجاء والسخرية فمنهم من سماه سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو اسكندر المقدونى ابن فلبس ومنهم من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا فى أيامهم الى ايصال البحرين ببعضهما ولم يبق لعلهم أثر على ما كان لهم من بعد الصيت واتساع الكلمة وتذليلهم الصعاب ومع هذا كله لم يثن لدى لسبس عزم ولم تفترله همة وثابر على الالحاح فوعده سعيد باشا ومناه فرفع اليه فى ثانى عشرى صفر سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا

يقول فيه

يامولاى — لقد طالما اشتغل عظماء العالم بأسره لاسيما ملوك مصر الأولين بأمر ايصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قيل عن سيزوستريس فرعون مصر الشهير والاسكندر المقدونى وقيصر ملك رومية وعمرو بن العاص وبونابارته والملك محمد على باشا أنهم قد بذلوا جهدهم فى سبيل انجاز هذا المشروع الخطير وقد تم لبعضهم ماأراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمر بالنيل وبقيت هذه الترعة مدة غير طويلة فى منتصف القرن التاسع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعد ذلك وأعاد هذا الاتصال فبقى زهاء أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة فى أيام خلفاء الاسكندر المقدونى على ديار مصر ولبث الحال على ذلك الى القرن الرابع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب وطمها حينا حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ باطراف هذا الامر العظيم ونهض الى استرجاع ذلك الاتصال ففاز ونجح وجرى الماء فيه فعبرته السفن مائة وثلاثين سنة وانقسام القوم وتوالى البلايا والمحن علاه التراب فطم وامتنع سير السفن منه

ولما دخل الشهير بونابارته بجيوشه ديار مصر وشاهد بعين رأسه موقع ذلك الاتصال ود لو استطاع ارجاعه فينال شهرة عظيمة لايمحوها كرور الايام والسنين وعمد الى تشكيل عمدة من كبار المهندسين وأماثل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الاوروباوية لينظر فى انجاز هذه الامنية وسألهم اذا كان فى الامكان ارجاع ذلك الاتصال بشرط أن لايمر بالنيل فاجابوه الى ذلك ورفع الى مقامه أحدهم الموسيو لوبير تقريرا عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونابارته صاح قائلا انه لعمل يستحق مزيد العناية والاهتمام ويجب على انجازه ولكن من أين لى النفقة الآن ومدى خاليه فعسى أن يأتى يوم تعود فيه السلطنة العثمانية الى سابق مجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال فيخلد ذكرها على ممر الاعوام فها قد آن يامولاى الاوان وجاء اليوم الذى قال عنه الشهير بونابارته نعم ان العمل خطير ولكن انجازه سيكون داعيا الى ظهور شأن السلطنة العثمانية ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتنقطع ألسنة القائلين بقرب سقوطها وزوال مجدها ويرجعون فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذى لايرد ويخلد لها الذكر الحسن فى بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدنية والعمران ۞ ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا على الذب عن الاستانة وحفظها مقرا للسلطنة العثمانية والذود عن ذمارها ورغبتها فى بقاء السلطنة المشار اليها زاهية زاهرة موفقة معززة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند أى حادث بالنفس والنفيس وركوبها على عدوها لقتاله وارجاعه الى الطاعة والخلود الى السكون انما هذا كله نظرا لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذى

يفصل

يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد احداهن عليه فتصبح هى المالكة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المتفق عليها بين الدول الغربية التى يهم العالم بأسره حفظها بين الدول الكبرى * ولعمرى اذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاتف سائر الدول على معاونة السلطنة العثمانية والاهتمام بأمرها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم بأسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربى والشرقى بالجمع بين البحرين فلا بد وأن يزداد شأنها علوا وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة اذ تصبح مفاتيح العالم بأسره فى يدها ولا خوف عليها فانه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حرا مباحا للجميع سواء وجعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها اذ هى صاحبة الدار * وقد كان الموسيو لوبير من نحو الخمسين سنة قدر عدد الفعلة اللازمين للعمل فى الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلا لانجازه زهاء أربع سنين وقوم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليونا من الفرنكات وقال انه يمكن اتصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيو طلابوت الذى سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سيرت بهم الجمعية الفرنسوية التى تأسست بفرانسا من نحو العشر سنين للنظر فى هذا الموضوع فقد ترامى له جعل الترعة المذكورة واصلة من مدينة السويس الى الاسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر النفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليونا من الفرنكات ونحو عشرين مليونا أخرى لعمل مينا ورصيف بمدينة السويس وأما لينان بيك الموظف بخدمة الحكومة المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترع وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن اعادة الاتصال المذكور بحثا مدققا مع ما هو عليه من الدراية والخبرة المشهود له بهما فى جميع الدول فتراءى له صلاحية مد ترعة بحيث تمر ببحيرة التمساح وان يعمل بالبحيرة المذكورة مينا ترسى فيها السفن الآتية من بيلوز التى هى آتية الى البحر الأحمر أو من السويس الى البحر الأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليس بيك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أيبك قد كان رفع الى أيبك رحمه الله مشروع حفر ذلك الاتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسما عن ذلك بقلم العلامة لينان بيك المشار اليه وموجيل بيك مهندس أشغال القناطر الخيرية والكبارى والجسور المصرية وما من هؤلاء الا وكان يطنب لوالدك المبرور فى مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فانه فى سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى الكونت دى والوسكى الذى كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيو كاليس المومى اليه وكلمه فى أمر هذا الاتصال فرفع اليه كاليس تقريرا بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث ونمعن النظر مع التأمل فى جميع آراء



أولئك العلماء الافاضل والمهندسين الاماثل مع مراعاة أن هذا المشروع المهم قابل للانجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسدها وأصوبها وأقواها حجة وبرهانا فنعمل به وليعلم مولاى حفظه الله أن الموانع والمرابك والعقبات التى طالما أقلقت القدماء وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين انجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أو كلها فان تحمل الصعاب مع الصبر والجلد فى سبيل انجاز هذا الامر الخطير لهو من أوجب المواجب بل من أسمى المطالب بق اذا علينا أن نتطرق فى أمر النفقة وهذه أيضا ليست بالأمر البعيد فانه لايصعب على أولى الحزم والعزم حل عقدتها على أحسن ما يرام اذ ستكون ارادات ذلك الاتصال أضعاف أضعاف ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لى مولاى أدامه الله بأن آتى اليه بالبيان الآتى بعد فيتضح لسموه أن المصاريف التى يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيأ فى جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على اعادته فضلا عن كونه سيقصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الاستاذ الشهير والجيولوجى الماهر الموسيو كورديه

أشهر مدن أوروبا وأمريكا	المسافة مابين المدن المذكورة الى بومباى		الفرق بين الطريقين بالفرسخ	
	من المحيط الاطلانتيكى	من طريق الاتصال الجديد		
قسطنطينية	٦١٠٠	١٨٠٠	٤٣٠٠	بالفرسخ
مالطا	٥٨٠٠	٢٠٦٢	٣٧٧٨	»
تريستا	٥٩٦٠	٢٣٤٠	٣٦٢٠	»
مارسيليا	٥٦٥٠	٢٣٧٤	٣٢٧٦	»
كاديش	٥٢٠٠	٢٢٣٤	٢٩٧٦	»
ليسبون	٥٣٥٠	٢٥٠٠	٢٨٥٠	»
بوردو	٥٦٥٠	٢٨٠٠	٢٨٥٠	»
هافر	٥٨٠٠	٢٨٢٤	٢٩٧٦	»
لوندرا	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠	»
ليفربول	٥٩٠٠	٣٠٥٠	٢٨٥٠	»
آمستردام	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠	»
سان بطرس برج	٦٥٥٠	٢٧٠٠	٢٨٥٠	»
نيويورك	٦٢٠٠	٣٧٦١	٢٤٣٩	»
نيوفيل أورلانس	٦٤٥٠	٣٧٢٤	٢٧٢٦	»

ولقد

ولقد وافق على هذا التقدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقة ضبطه وقرروا بأنه يهم
جدا سائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعالم بأسره اعادة هذا الاتصال * وليعلم مولاى
أن لا عمل فى بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فائدة ولا أجمل شأنا من هذا العمل العظيم
فليعمل مولاى على ذكر اسمه فى مصاف أولئك الذين تملكوا على ديار مصر وينجز هذا
المشروع فى أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غيره من قبل وتسعد الأمة المصرية
فتجبه نحوها الابصار وتمد اليها الاعناق وينادى باسم مولاى فى سائر أنحاء المعمورة ويخلد
ذكره فى بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة القدر مالم ينله الفراعنة الذين شادوا
الاهرام والهيا كل الضخمة التى لا فائدة فيها للنوع الانسانى كالفائدة المترتبة على اعادة
ذلك الاتصال وانما هى مبان تدل على القدرة البشرية التى سخرت كل نوع لخلقها
واظهار مجدها * ومن فوائد هذا الاتصال العظيمة التى لا ينكرها مكابر تسهيل طريق
الحج الى بيت الله الحرام وتعلق الناس بفن الملاحة وتسيير السفن واتقان السباحة فى
أرض البحار فيتسع نطاق التجارة وتنفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع
ذلك جميع البلاد الواقعة على ساحل القلزم وخليج العجم وشرق أفريقيا ومملكة سيام وشنين
واليابان ومملكة الصين البالغ عدد سكانها زهاء أربعمائة مليون فضلا عن جزائر فيلبين
وأوستراليا وجميع جزاير البحر الابيض المتوسط التى هاجر اليها الكثير من الاوروباويين
فتجرى المواصلات بينها جميعها وتسعد حالها

هذا ولقد ظهر من الاحصاآت المدققة أن ما تنقله السفن الاوروباوية فى كل سنة
عن طريق رأس الرجا الصالح ورأس هورون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة فاذا سارت
هذه السفن بطريق خليج العجم وترعة السويس المراد انشاؤها زاد نقلها عن ذلك زيادة
عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليونا من الفرنكات باعتبار عشرة
فرنكات عن كل طونلاطه وربما زاد الدخل عن ذلك كلما انتظم سير السفن بالترعة
المذكورة وحسنت الملاحة فيها * ويجب مراعاة أن اعادة هذا الاتصال بين البحرين يهم
جدا دولة الانجليز التى هى سيدة البحار وأغنى سائر العالم مالا وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة
فى تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض أهل السياسة يقولون ان اعادة هذا الاتصال
تضر جدا بمصالح الانجليز وتحط بها لانها تقرب العالم بعضه الى بعض وتوسع نطاق ملاحة
جميع الدول على أن الانجليز لا يحبون تقدم غيرهم فى شئ من ذلك البتة ويميلون الى
أن يروا أنفسهم السابقين فى كل شئ والراجحين لكل شئ ولذا أصبح هذا البحث الدقيق
الشغل الشاغل لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الاسباب الباعثة على تأجيل
الشروع فى هذا العمل الجليل ولو تأمل أصحاب هذا الرأى فيما جاء فى المعاهدات التى
أبرمت بين دول فرنسا وانجلترا والباب العالى فى هذا الشأن اتفقوا أن الامر على غير
ما يتوهمون وعلموا أن دولة انجلترا تملك أهم وأعظم بوغازات العالم بأسره مثل جبل طارق

ومالطا وجزاير الارخبيل وعدن وغير ذلك فى الهند وسنغافور وأوستراليا فلا يضر بشئ من مصالحها ارجاع ذلك الاتصال فاذا سمح مولاى بالأخذ بأطراف هذا العمل لايسع دولتى الفرنسيس والانجليز الا الاذعان والموافقة على حفر مستطيل لايتجاوز طوله ثلاثين فرسخا ولعمر الحق من ينظر الى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقا الى رؤياه برزخا يجمع مابين البحرين أما مدّ خط حديدى من مدينة الاسكندرية الى مدينة السويس كما تمنت ذلك الدولة الانجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لايأتى بالفائدة المطلوبة الا اذا كان المراد منه مساعدة الملاحة فى الاتصال المذكور

واذا نظرنا الى دولة النمسا فلا نراها تبدى اعتراضا على هذا العمل لانها أباحت حرية الملاحة فى نهر الطونة والسوبليانا فلا سبيل لها الى غير الاذعان والقبول وكذلك دولة الجبر لا ترى فى هذا العمل سوى زيادة أهمية مينا تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فتتم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا تجد بدا من معاونتنا وهى على أتم مايكون من حسن الرضا والقبول * وان قيل ان دولة الروسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لايكون لانها تودّ ظهوره وهى الآن فى غناء عن أن تعارضنا لا سيما وجلالة قيصرها قد فاز بكل ما تاقت اليه نفسه فافسح لكل بلاد دخلت فى دائرة حكومته طرق التمدن والعمران فاذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه الى أقاصى الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتنفتح لهم أبواب الرزق وتسعد أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوما عن يوم بين الولايات المتحدة الامريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات اسبانيا مع جزائر الفلبين وهولاندا مع جاوا والصومال وبرنيو ودولة ايطاليا الشهيرة قديما مع اليونان وبالاجمال يسر العالم بأسره سرورا عظيما يوم يعم خبر الشروع فى هذا العمل العظيم * وانى أعد مولاى حرسه الله بأنى سأبذل جهد المجتهد فى الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدى والسلام

فاستحسن سعيد باشا هذا المشروع وأحله محل القبول وبعد التأمل والبحث الطويل أجاب الموسيو دى لسبس الى الأخذ فى أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ اليه اجازة تتضمن اثنتى عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع فى حق الاراضى الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة فى الاموال اللازمة للنفقة والارباح الناتجة من الملاحة فيه وفى تسمية شركة لذلك وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التى يستلزمها هذا العمل العظيم * ولما كان لايتأتى الجزم بالشروع فى هذا العمل عقب اعطاء هذه الاجازة لموسيو دى لسبس الا من بعد مخابرة دار السلطنة العثمانية فى ذلك والحصول على رخصة البراءة السلطانية أو عزم سعيد باشا

الى

الى الموسيو دى لسبس بالشخوص الى دار السلطنة ليخابر صدر الدولة فى هذا الأمر فسار اليها فكان بينه وبين الصدر الاعظم أخذ ورد أياما كثيرة وورد مرسوم الصدر الاعظم الى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمنين ولزوم التأنى والتروى فيه قبل انفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجال الدولة ومبحث أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرح للموسيو دى لسبس بالشخوص الى حيث شاء حتى يأتيه أمر السلطان

وجاء المسيو دى لسبس الى القاهرة غير قانط ولاضعيف الأمل ولبث بها أياما يغدو ويروح على مقر سعيد باشا ثم سار الى بلاد الفرنسيس ليعدّ المعدات ويجمع المال للنفقة فكثر تحدث كبار الدول فى هذا الأمر واندفعت أصحاب صحف أخبارهم تبدى وتعيد كل حسب ماتغلبه عليه أهواؤه وما يلائم مصلحة بلاده ووقف الوشاة على باب السلطان يدسون الدسائس ويحركون مافى صدور أهل الحل والعقد ويعملون على ابطال هذا المشروع فلم يكن بأسرع من أن عاد دى لسبس ومعه جماعات المهندسين والرسام والبنائين والغواصين وصناع الآلات ومعلمى طبقات الأرض والمعادن وشرعوا فى العمل فرسم محمد سعيد باشا فى سادس عشر ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفا من أهالى البلاد بالمناوبة فى حفر ذلك الاتصال ووكل مديرى الجهات بجمعهم وتسييرهم فكانت شدة عظيمة للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلوهم وتمكن العدو من عدوه وشمت الغريم بغريمه وكادت تتعطل أسباب الفلاحة اذ هاجر الكثير من أهل البلاد ونزحوا من أوطانهم فرارا من هذه المحنة الكبرى * وسار دى لسبس فى العمل سيرا حثيثا غير مبال بعدم رضا السلطان ولا هياب من العاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال من بيلوز على البحر الابيض التى على أرضها الآن مدينة بورسعيد الى مدينة السويس فتبعهم الباعون على اختلافهم وأصحاب القهاوى والحانات وأهل الخلاعة والقصف فعمرت تلك الاصقاع وصارت آهلة باخلاط الناس من الروم والترك والفرنجة والمصريين وغيرهم ممن جاء من البلاد البعيدة فى طلب الرزق واهتم رجال الدولة باستتباب الامن فى تلك الانحاء فرتبوا لها العسس والشرطة لا ينكفون عن التطواف ليلا ولانهارا وقام سعيد باشا بجميع تعهداته التى تعهد بها الى دى لسبس ماديا وأدبيا فاندهش العالم بأسره وكان من وراء ذلك ماسيتلى عليك فى محله ان شاء الله

وبينما كانت الاحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة اذ جاء الخبر بزحف نجاشى الحبشة على بعض الاملاك المصرية الواقعة على الحدود وشنه الغارة عليها وأنه نهب أهلها وساق مواشيهم وأسر منهم خلقا فهال سعيد باشا هذا الامر وأزعجه فجند جندا عظيما لقتال النجاشى وعزم على اقتاله وكان الى هذا الحين لم يرتق كيرلس بطرك المتأصلين مسند البطريكية بل كان مطرانا ووكيلا للدار البطريكية بعد موت بطرس البطرك وكان



بين كيرولس ونجاشي الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فانه كان سفيرا من قبل بطرس الى النجاشي وقد نزل في جواره أياما كثيرة * والحبشان يجلون بطارقة القبط ويخضعون لسلطتهم الدينية خضوعا عظيما ويعتقدون أن البطرك انما هو أقرب جميع المخلوقات الى نوع الملائكة والارواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لايقربون من مقامه ولاينظرون اليه فاذا نظروا اضطرارا فبطرف خاشع مطرق.وبعد أن تأهب سعيد باشا للسير لقتال النجاشي عاد فحسب ما وراء هذه الحالة فخاف العاقبة وظهر أن ماء النيل آخذ في الهبوط في غير أوانه فخاف الناس وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فسلك سعيد باشا في الامر مسلك التأني وشاور أصحاب الفكر فاشاروا بانفاذ رسل الى النجاشي يكون كيرولس مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكلم كيرولس في الامر فأجابه الى ذلك فرسم سعيد باشا بجهزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت اذا مرت باخرتهم باحدى المديريات أطلقوا لها المدافع اجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجين والجمال حتى بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشي بقدوم كيرولس ومن معه فخف لملاقاتهم وسار اليهم في أربعين ألفا من الجند فلما اقترب من المحلة التي كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاسر الرأس فقام كيرولس للقائه فقبل النجاشي يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجند حوله حتى دخل بجدلة تخت الملك ومنذ وشاع خبر مجيء كيرولس في جميع أرض الحبشة ففرحوا فرحا عظيما ودقت البشائر وأقيمت الصلاة في جميع الكنائس وبالغ النجاشي في اكرامه وقد كان يتمنى لو أنه يراه كي يمسحه ملكا على جميع ملوك الحبشة كما كانت تمسح أبناء بني اسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان الى هذا الحين لم يعتبر النجاشي نفسه ملكا على سائر ملوك الحبشة اذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام حتى سأله النجاشي أن يمسحه فأجابه الى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة والأمراء وسائر قواد الجند والوجهاء والاعيان من أقاصي الحبشة الى بجدلة وأقيمت الولائم والافراح في كل صوب وحدب أياما ثم مسحه بين الملوك والامراء وقواد الجند وصفوف العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح تيودوروس النجاشي بذلك فرحا لايوصف وكان في بجدلة نفر من الانجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالانجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشي بعمل المدافع وصنع الاسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال اليهم وأحبهم وأباح لهم التجول في جوف البلاد فجالوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبثوا تعاليمهم حتى كادت تعم تعاليمهم جميع البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التي هي أم الكنيسة الحبشية فكبر هذا الامر على مطران الحبشة وخشي العاقبة فعمد الى ايقاف هؤلاء المرسلين عند حدهم فلم

بغلع وقـد كـبر شأنهم واتسعت كلمتهـم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس شكى اليه المطران بما تلاقيه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقـدم الى النجاشى فى تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليـدهم فأجابه كيرولس الى ذلك ولما تمت الافراح جمع النجاشى ورجع من حضر من الملوك والامراء والقواد والجند الى أوطانهم كلم كيرولس النجاشى فى سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يرد ما أخذه من بلاد مصر وأن يقلع عما يفعله فى الحدود منعا لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحقنا للدماء الـتى حرم الله سفكها فاذعن النجاشى وأجابه الى كل ما طلبه ورسم فكتبوا الى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه كيرولس بغـير شرط ولا تقييد ففـرح كيرولس بذلك وكلمه أيضـا فى أمر المرسلين الانجليز وزين له تسيرهم الى أوطانهم فقال انما هم عندى لعمل المدافع وتدريب عسكرى على القتال فقال كـيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقـد زال ولله المنـة والحمد ما كان بينك وبين والى مصر من الوحشة والنفور فان كنت فى حاجة الى صـناع لآلات الحـرب أو الى من يدرب عسكرك أتيت لك من مصر بمن لاتحتاج معهم الى غيرهم فقال النجاشى هـذا ما أبغيه ثم رسم باخراج من كان فى البلاد من جماعة الانجليـز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشـق عليهم الامر جدا واستعظموه وصمموا على الانتقام

وكتب كيرولس الى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله أن يسـير اليه بطائفة من الصناع والمعلمين وعـلم قنصل جنرال الانجليز بمصر بالخبر فعمد الى الاخذ بالثار والانتقام من كيرولس جزاء ما فعـله بجماعـة المرسلين فدخل على سـعيد باشا بعقره وقال قد علمت أن كيرولس مطران القبط سأل مولاى أن يبعث الى نجاشى الحبشـة ببعض صناع آلات الحرب ومعلمى الجنـد فقـال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاى يجهل أن عنـد القبط كتابا يعتقدون صحة مافيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر فى يوم معلوم عنـدهم فيأخذونها عنوة قال لاعـلم لى بذلك ولعـله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك ولكنى أتقدم الى مولاى فى أن يأخذ حذره من كيرولس فانه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر فقال قال الراوى لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وترامت الى المرمى البعيد وجمع اليه رجال ديوانه وأهل الدولة وشاورهم فى الامر فأشاروا بالقتال واعداد الجند والعسكر فرسم بالتأهب والاستعداد وكتب الى كيرولس يعيب عليه مافعله ويقول قد أفرطت وتجاوزت حـد المصالحة فعجل بالحضور ۰ وقام فى جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها فى سادس عشري جمادى الاولى سـنة ثلاث وسبعين وما ئتين وألف هجرية ۰ قال الراوى فلما تمت حيلة الانجليز بقيام سعيد باشا بعسكره الى حدود الحبشان دسوا الى النجاشى من أعلمه بأن قـدوم كيرولس الى بلادك انما هو لمنعك من اعـداد جندك وآلات حربك لتـذب عن مملكتك من اغارة والى مصر وقد أتى الى السود ان ليركب عليك بخيله ورجله فيأخذ ملكك ويذهب سلطانك وأنت آمن مطمئن وقد سـير اليك أيضـا مع كيرولس كساء مسمم النسيج

حتى اذا لبسته تسمم جسدك ومت من يومك وكان مع ماأتى به كيرولس من الهدايا والتحف
النفيسة والتعابى الثمينة برنس من الجوخ الاحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون
فهال النجاشى هذا الامر وأزعجه جدا وأنفذ من يستكشف له خبر مجىء سعيد باشا الى
الخرطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراحا
وأمر بكيرولس فسجنوه فى مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكل
به جماعة من خواصه يراقبونه فى الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسراره ووكل جماعة
آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكيرولس لايعلم بالخبر ولا يدرى ما هذا الامر
ثم لم يلبث أن نادى فى عسكره بالخروج وكثرت المناداة فى كل يوم فخرجت طوائف الجند
مشاة وركبانا فكانت شيأ كثيرا للغاية وصاروا على قدم الرحيل الى حيث يلتقون بالعدو
• ورأى النجاشى أنه اذا ترك كيرولس معتقلا وسار بعسكره للقتال تمكن كيرولس من الخروج
فيمسح أحد بيت الملك أو أحد كبار قواد الجند ملكا فتذهب سلطنته وتسقط بيعته
وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عنزين فعزم على أن لايتركه فكان اذا سار
من بلد الى آخر ساقه معه فى حلقة من الحراس ونفر من الخواص واذا نزل بعسكره للراحة
استدعاه وجعل يؤنبه و يعنفه بفحش الكلام ويقول أو هذه فعالك يا امام النصرانية
فشق هذا الامر على كيرولس وأحزنه جدا وأخذ فى التدبير فكان كلما كلموا الملك فى أمره
زاد غضبا وغيظا فلبث كيرولس على هذه الحال من الشدة أياما طوالا الى أن تمكن
من لقاء أم الملك وكانت تقية صاحبة دين وورع فشكى اليها مايلاقيه من ولدها وقص عليها
خبره واستجار بها وسألها أن تصلح ولدها بحقيقة الحال فاجابته الى ذلك وكلمت النجاشى
واستعطفته أن يجمع اليه رجال دولته ويشاورهم فى أمر كيرولس فلم ير بدا من طاعتها
وجمع كبار قومه ورجال دولته وقص عليهم ما علمه من أمر قدوم كيرولس الى البلاد ثم
أمر بحضوره فاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا الى الخرطوم بعسكره وسبب
وضع الكساء المسمم بين الهدايا التى قدمها الى الملك فوقف بين أيديهم والدمع ينحدر على
لحيته وبالغ فى بيان الحقائق وأكثر من مدح سعيد باشا وبالغ فى اخلاصه وولائه للنجاشى
وجميع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن ابداعه حتى بش الملك وزال عنه بعض الغضب
فقال كيرولس وأما الكساء فهو هدية الباشا اليك أيها الملك العظيم فلا يأخذ نك ريب
فى أمره ولا تصدق ما أخبرك به الوشاة وما أنا الا أخلص الناس فى الأمانة وأقرب الى
طاعة الله فلا آخذ بالوجوه ولا أبيع الآجلة بالعاجلة فان كنت فى ريب من أمر هذا
الكساء فأذن لى حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيتحقق لك الأمر فاستحسن الملك مقالته
وأمر بالكساء فأتوا به وألبسوه اياه على لحمه و وكل به من يحرسه يومين كاملين فلم يصبه ضرر
فاستغرب الملك من ذلك وأمر بمجىء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكساء ووكل به

من

من بحرسه ثلاثة أيام فلم يصبه شئ البتة فالتفت الملك الى قومه وقال ماذا تقولون قالوا هى فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا الى كيرولس فليجعلنا فى حل مما وقع فقال بقى علينا أن نسأله ارجاع سعيد باشا الى مقره فان فعل شكرناه وكنا له من الحسنين ثم أرسل الى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجانبه فقال هل لك أن تكتب الى سعيد باشا بالانحدار بعسكره الى تخت بلاده ويكفينا واياه شر القتال فان فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما سلف قال سأفعل الساعة ان شاء الله وكتب من فوره الى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتيما لقاعدة الصلح التى تقررت مع النجاشى وسير بالكتاب مع نفر من كبار الحبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب الى كيرولس ٭ قد رحلنا عن الخرطوم الى القاهرة فبلغوا عنا الملك خالص المودة وأعلموه أنا مازلنا على حسن الولاء والمحبة ٭ فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فرحا لايوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسر الرأس حافى الاقدام وانكب على يديه يقبلهما فقبل كيرولس رأسه وساعده وأمر الملك فدقت البشائر وأقيمت الافراح وأولمت الولائم ونودى فى العسكر بالخروج فخرجوا أفواجا ومروا بالمكان الذى كان به كيرولس والنجاشى وصاحوا بأصوات التهليل وأمر النجاشى فجىء اليه بورقة العهد الذى رسم بعقده مع سعيد باشا فوقع عليها وهو بين كبار قومه ورجال دولته وأرسلت والدة النجاشى الى كيرولس هدية نفيسة للغاية وكذلك الامراء وكبار القواد وزاروه وقبلوا أقدامه وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين وأتوا اليه من كل صوب وحدب ثم استأذن الملك فى الشخوص الى مصر فجهزه بمال وأرسل معه كثيرا من الهدايا النفيسة وسير معه وزيرا من كبار وزرائه وكتابا الى سعيد باشا فلما وصل كيرولس الى الاسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفال وأنزلوا وزير النجاشى بدار الضيافة الخاصة وقدرفع الى سعيد باشا كتاب الملك والعهد والهدايا ولبث أياما كثيرة لم يرفيها سعيد باشا غير المرة الاولى ثم استأذن بالانصراف فأذن له وأرسل معه بعض الهدايا والتحف وجوابا الى الملك

وأحس كيرولس بعيد رحيل وزير النجاشى بغيظ محمد سعيد باشا منه واعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقر سعيد باشا لعله يعرف شيأ من الامر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلى الحقيقة ويظهر الصدق لذى عينين ٭ واتفق بعد أيام أن خرج كيرولس الى دير انطونيوس بالجبل الشرقى ومعه بطركا الروم والأرمن الاورثوذكس ليقضوا فيه أياما ترويحا للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بنى سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياما حتى تأتى القافلة فيخرجوا معها ٭ قال الراوى لهذا الحديث ٭ وعلم قنصل الانجليز بخبر قيامهم ونزولهم بعزبة الرهبان ببوش فسار الى مقر سعيد باشا ودس اليه بأن كيرولس انما ذهب الى الدير عن معه من البطاركة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الاورثوذكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة



القبطيــة تحــت حماية دولة الروس فاذا تم له ذلك أصبح مسـند الولاية المصرية على شـفا جرف تحيط به الاخطار من كل جانب * قيل فانذهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفـذ الى مـدير بنى سويف يقول * سر الى كيرولس بطرك القبط وقـل له أن يأتى الينا عاجلا فانا فى حاجـة الى حضوره فسار اليه بعزبة بوش وأبلغـه الرسالة فقال انى ذاهب مع رفاق الى الدير بالجبـل الشرق فاذا عدنا ان شاء الله ذهبت اليـه ومثلت بـين يديه فقال المـدير اكتب بذلك فأخـذ كـيرولس ورقـة وكتب مقالته هـذه فبعث بها المدير الى سعيد باشا فاشـتد غيظه ثم كان من خبر كيرولس وماجرى له بعيد ذلك ماسيـذكر فى محـله ان شاء الله تعالى

ولم تكن لتشغل محمد سـعيد باشا عند مانزل على الخرطوم الحرب المنتظر وقوعها بينـه وبين نجاشى الحبشة عن النظـر فى شؤن الرعية واصـلاح ماأفسـدته أيدى الحكام والعمال من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وابطال بعض المكـوس فأنفـذ الى جميع عماله على السـودان فى سلخ جمادى الثانية سـنة ثلاث وسـبعين مرسوما يقول فيه * ليس منكم من يجهـل ما ألاقيـه من التعب فى سبيل احياء مااندرس من معالم المـدنية والعمـران وايراد كافة صنوف الرعيـة موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاسـتعباد ومع ذلك فانى لما قـدمت الى هـذه الاصقاع شاهـدت بعين رأسى مايلاقيـه أهلها من الضنك والفاقـة وسمعت باذنى صوت أنينهـم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهـل الغنى منهـم فضلا عن الفقير وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهـم فى كثـير من الاعمال التى لاقدرة لهم على القيام بها والاتجار فى أولادهم وبناتهـم كالسـلعة فى الاسواق فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لاسيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهجرون من أوطانهـم الى أقاصى البلاد هربا من هـذه الكوارث والمحن المـتراكم بعضها فوق بعض فلذلك قـد عقدت النية على جعـل الخراج قـدرا يناسب حالة البـلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهـد المجتهد فى اصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء لملاقاتى من أهـل البلاد على اختلاف مراتبهم وسألتهم أن يؤمروا عليهـم أميرا يختارونه من بينهم ممن يسـتبشرون بامارته ويتوسمون فيـه الخير للبلاد ويحصل على يديه السـكينة والخلود الى الطاعـة وأن يقدروا مبلغ الخـراج الذى يسهل عليهم القيـام به بلا كلفة ولا مشـقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن يربط على كل سـقاية خراجا قدره مائتان وخمسون قرشا فى كل سنة فلم يحبق ذلك منهم لكثرته مع حاجـة البلاد الى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان من أرض الجزائر خمسـة وعشرون قـرشا أما أراضى العـلو فعشرون قرشا لاغـير فكان لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعيـة وفرحوا فرحا لايوصف وأخلدوا الى السـكون والطاعة وهنأ بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمـون من هاجر منهـم وترك الاوطان

ولما

ولما وصلت الى الخرطوم جاءنى أولئك المشايخ والاعيان فأحسنت لقاءهم وأكرمت مثواهم وطيبت خواطرهم مما لم يسبق له مثيل عليكم تقتدون بى وانى لم أقلدكم المناصب الا لتكونوا عونى على استتباب الأمن واصلاح أمور الرعية فاياكم والعسف والجور ولاتجبوا الخراج الا فى الاوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لازرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها الى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ماوقع عليه الاتفاق ارفعوه الىّ ثم أحصوا جميع الكشاف والجند الموكلين بجباية الخراج واخلعوهم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم فى مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية فى كل خمس وعشرين سقاية هذا وحيث ان لأولئك المشايخ والاعيان بيوتا ينزل عليها كل طارق وقاصد فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة فى كل مائة فدان واذا ابتاعت الحكومة شيأ من أهالى البلاد لزمها أن تنقدهم ثمنه حالا بزيادة اثنين فى المائة عما تشترى به الاهالى بعضها من البعض الآخر واياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء

وحيث يوجد فى هذه البلاد من الاخشاب الصالحة للعمار ومد السفن والحريق وغيره شيأ كثيرا فاشتروا منه من الاهالى كل ماتيسر وسيروا به الى القاهرة وانقدوهم الثمن معجلا وعلموهم الصنائع والفنون وانشاء المبانى المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الاشجار بالشوارع والطرقات واذا أعطيتم أحدا أرضا للفلاحة من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التى أنتم فى دائرة اختصاصها واذا عاد من هاجر الى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة اليه وجب ردها اذا لم يمض على انصابه خمس عشرة سنة وارفعوا عن الاهالى جميع المتأخرات لغاية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل فدان أربعمائة قصبة وان كل قصبة ثلاثة أمتار فقط واياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء اهـ

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحا عظيما وعاد منهم من هاجر ورحل عن الاوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم الى مقر سعيدباشا يقبلون أعتابه ويدعون له بخير ويعلمونه بانهم قد أصبحوا على قدم الطاعة والخلود الى الدعاء بدوام ملكه وتأييد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم بانجاز كل مايتمنونه من الخير لبلادهم

وكان ميالا جدا الى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة الى قلب السودان فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن الضار فى النيل بين الصعيدين فكانت من أكبر أسباب العمران وأدى الى رحيل الكثير من الاجانب الى تلك الاطراف * وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا يرضى بالقليل من كل شئ ولا يتطلع الى ما فى أيدى الرعية ولم يظلم أحدا قط وكان اذا علم بظلامة



أحد هاج وعاقب من تكب هذه الظلامة لاسيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد
التعصب لأحد الاديان لايفرق بينهم ولايفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت
اليه جميع القلوب وكان لايملك دارا لنفسه فان جميع ما ابتناه جعله ملكا للخزينة
❁ وسار فى عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس فى رابع عشره
وركب من يومه الباخرة المسماة نجد وزار الحرمين وتصدق فى مكة والمدينة وأطعم وفرق
أموالا كثيرة وقام من المدينة فى سادس شعبان فوصل ينبع فى ثالث عشره وسار منها الى
مدينة السويس فوصلها فى سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت
البشائر وزينوا له مصر والقاهرة ثلاث ليال فكانت كلها أفراحا ❁ وكان بينه وبين
نابوليون امبراطور الفرنسيس محبة كبيرة وكانا على وفاق فى كثير من الأمور فابغضه لذلك
كبار سياسة الانجليز وعملوا على نكايته وتذليله ❁ قال بعض الكتاب فدسوا الى السلطان
أنه انما يسالم نابوليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعية دار السلطنة
وكانت المملكة العثمانية يومئذ فى غاية الارتباك والخبال لخروج الكثير من ايالاتها
كالجبل الاسود والبوسنه والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال
مع تعرض الدول الكبرى الى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن فى سبيل اصلاح
الاحوال وارجاع الامور الى سابق مجراها فكانت اذا عمدت الى اخماد فتنة فى احدى
الايالات ظهرت ثورة فى أخرى واذا تجردت الى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان
كبار سياسة الدول يهولون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسمونها بالغفلة والجفاء
فسعت وبذلت المهج فى سبيل اخماد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من اعادة
السكينة الى ربوع الهرسك وبوسنه واصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة
كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال
الاعداء وكادت تمتد نار الفتنة الى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ عالى باشا الامر
بحكمة منه وخلع والى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفريق النصارى فسكنت
الفتنة وعادت الأمور الى ما كانت عليه وشدد الصدر الاعظم فى مراقبة الاحوال
واستطلاع الاخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضا بمدينة جدة فقام من بها
من المسلمين وركبوا على النصارى فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بحد
السيف وجرحوا قنصل الفرنسيس وكاتبه بجراحة عظيمة وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر
بذلك الى دار السلطنة فاهتم له الصدر الاعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتماما عظيما وسيرا
فى الحال فريقا من الجند ومقدمه اسمعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب
هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار اسمعيل باشا قاصدا جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول
الكبرى بالأمر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتا الفرنسيس والانجليز
الى بعض سفن حربهما بالشخوص الى جدة ورميها بالقنابل تباعا حتى تدكها دكا وأعلنتا

الباب العالى بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله * وكان لما وصل الخبر بما جرى فى مدينة جدة الى عامل السلطان على مكة سار من فوره الى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتبعيد ورفع أمرهم الى دار السلطنة ولبث ينتظر الجواب فوصلت فى هذه الاثناء احدى سفن الحرب الانجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير الى العامل على مكة يطلب التعجيل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلا أربعا وعشرين ساعة فاعاد اليه الجواب لاأعمل عملا حتى يأتينى أمر السلطان فلما مضى الاجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعا واشتد الرمى وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقى بها حجرا على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحدب اذ وصل اسمعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثمانى فكلم ربان السفينة الانجليزية فى الكف عن رمى القنابل فأجابه الى ذلك وأنزل من معه من العسكر وكذلك أنزل اسمعيل باشا عسكره الى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الاخشاب وبالغوا فى التمثيل بهم فزالت الفتنة ولم يبق لها أثر

وكانت هذه الدسائس وأشباهها موجبة لحيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلموه بخبر مسالمة سعيد باشا لنابوليون ودسوا اليه أنه انما يتودد الى نابوليون ليكون له عونا على الخروج والاستقلال بملك مصر خشى العاقبة والبلاد باب الحرمين وطريق الحج الى بيت الله فبث العيون ليأتوا اليه بالاخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية لحاجة فى النفس فأخلد الى السكينة مع التصفير والالتفات وما زالت الأمور بينهما على مايرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات فى سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يوما

ومات فى أيامه بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقيا ورعا زاهدا متقشفا محبا للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه متكئا على المطالعة ولا يجلس الا على الارض ولا يلبس الا الصوف الخشن ولا ينام الا على حصير من القش بعيد الغضب اذا تكلم فمع التأدب والحشمة ولا ينظر الى وجه سامعه وكان قد استقدمه ابراهيم باشا الى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالغ فى تعظيمه ثم أعاده الى القاهرة * قيل ولما احتضر سأله بعض كبار الامة عمن يخلفه فى المنصب فرفع عينيه الى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عزبة بوش فاستقدموه عاجلا وكان قد كتب اليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن احضر ولا تبطئ فانى فى حاجة اليك * وكان لايتعرض الى أمر من أمور السياسة ولايجتمع بأحد من ولاة الامور



واذا سار فى الطريق أرخى على وجهه لثاما أسود * مات فى ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود الى القاهرة الا فى تاسع عشرى رمضان من السنة أى بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يوما فقد كان رسوله الى الرسا على ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذى كان بين الحبشة ودار البطريكية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان الكائن بأرض بيت المقدس * وتحرير الخبر أن للقبط بأرض بيت المقدس ديرا عظيما يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى اليه جماعة من الحبشان المتوطنين ببيت المقدس كسائر الاغراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى الى المخاصمة ثم الى الملاكمة فلم يسع الرهبان الا اخراج أولئك الحبشان خارج الدير المذكور وسد أبوابه فى وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم الى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضا وكأنه قد كبر مصابهم على قنصل الانجليز ببيت المقدس فتجرد للاخذ بناصرهم وبالغ فى تعضيدهم لأمر لم تصل الينا معرفته فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا ان الذى أنشأه هو أحد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخول النصرانية بأرض مصر وانما السلطان للحبشان وقال القبط غير ذلك وان الذى بناه هو الاسعد أحد عظماء القبط فى خلافة محمد المهدى ثالث خلفاء بنى العباس وقد كان الخليفة المشار اليه أحسن الى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكور ورسم ببنائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السلطان اجلالا للخليفة المهدى وتعظيما واشتد الخلاف وتحرجت الامور بين الفريقين فأوعز قنصل الانجليز ببيت المقدس الى جماعة الحبشان برفع تظلم منهم الى دار السلطنة العثمانية فسار نفر منهم الى القسطنطينية ووردت كتب النجاشى فى ذلك الى بطرس البطرك فرسم بطرس الى مطران بيت المقدس بفض هذا الخلاف بالتى هى أحسن فبذل المطران الجهد فى اقناع جماعة الحبشان فلم يفلح واستفحل الامر وتعذر الوئام وكبر التحامل على الفريقين وقنصل الانجليز لا يقف عند حد فلما أعيا بطرس البطرك الحال وخشى سوء المآل استقدم داود رئيس عزبة بوش التى هى مفتاح دير انطونيوس بالجبل الشرقى ورسم له بالذهاب الى الحبشة سفيرا الى الرسا على لفض الخلاف الواقع بسبب ذلك الدير وكان لداود المذكور اقبال وحسن سياسة فسار فى نفر والتقى بالرسا على وكلمه فى الأمر قال بعض الكتاب فلم يفلح لسعاية قنصل الانجليز وطال مقامه على غير طائل فجاءه اليه الطلب فى أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم الى النجاشى فى ذلك فلم يأذن له وعوّقه أياما أخر ثم سرحه فوصل القاهرة فى تاسع عشرى رمضان فكانت مدة لبثه عند النجاشى سنة وبضعة أشهر وكان وصوله الى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلا قاه الناس باحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطريكية

ضيفا

ضيفا ولبث بها أياما على الرحب والسعة ثم اجتمع كبار الملة وأصحاب الرأى فيهم وتشاوروا فى اقامــة داود خلفا لبطرس فاتفقت كلمتهم على ذلك وكان الامر يومئـذ الى عباس باشا حلمى والى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا الى عباس باشا رقعة بطلب اقامة داود مكان بطرس البطرك . قال أحد كتاب الاخبار فطاولهم وسأل أصحاب الزايرجات عما يرونه فى اقامة داود بطركا فأرجفوا وهوّلوا وقالوا نكد ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وتفريق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد فى السؤال فلم يروا فى حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئـذ ديوانى اسمه جاد أفنـدى عونى وهو جاد شحمه فاستدعاه كتخدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لاسبيـل الى ولاية داود منصب البطريكية فان أبوا الا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كتخـدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فمنهم من قال لانختار غير داود ومنهم من طلب الانبا يوساب أسقف اخميم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الانبا اثنا سيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الاهواء وكثر التحزب وتوالى الاجتماع فى الليل والنهار ولبثوا على هذه الحال أياما وجاد أفندى يغدو و يروح على كتخدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم

فلما كانت الحزمة تنصرم ونار الوحشة بين الاحزاب تضطرم قام أنصار داود ولجؤا الى المستر ليدر أحد مرسلى جمعية التبشير الانجليزية واستنجدوه فكلم قنصل الانجليز فى ذلك والقنصل كلم عباس باشا فطاوله فألح عليه فناه وطال الحال والناس يذهبون فى كل يوم الى بيت القنصل ويسألونه التعجيل . واتفق أن قدم فى هذه الاثناء رسول من قبل نجاشى الحبشة ومعه كثير من التحف والهدايا النفيسة الى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشى لم يصل الينا علم مافيه فأنزلوه فى دار الضيافة فلم يمض على حضوره الا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعا كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود انما سار الى النجاشى ليستنجده وكثر تحدث الناس فى هذا الامر فلما كان فى أحد الايام جاء الى دار البطريكية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه الى النجاشى وما كان بينه وبين النجاشى من القيل والقال وعما هى رسالة بطرس البطريرك الى النجاشى وظلوا على هذه الحال أياما ثم رسم عباس باشا بحمل داود الى مجلس الاحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس فى كل يوم المرة والمرتين و يشددون عليه فى السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ اللب لاينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم باخراج جميع مباشرى الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجوهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم الى سنار ودارفور و بالغ فى تذليل من لم يمكن الاستغناء عنهم فكانوا لضيق الحال ونفاد مابأيديهم يشترون المصالح الديوانية بالمناقصة وكثر

ذهاب أنصار داود الى بيت المستر ميرى قنصل جنرال الانجليز يستفزونه الى الاخذ بناصرهم وعباس باشا لايزداد الا اباء وعنادا ثم سير كتخدا الباشا يوما فى طلب جاد أفندى ورسموا له بأن يختاروا آخر غير داود خلفا لبطرس وأن يجعلوا فى ذلك كى لايبقى لوساطة القنصل محل فقام جاد أفندى واجتمع من ساعته بجميع الاساقفة وأخبرهم بما يريده كتخدا الباشا وقال لهم اختاروا واحدا من بينكم يكفينا مؤنة التطويل فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وذهب كل الى مذهب ثم طال بينهم الكلام واشتد اللدد والخصام ففشا سرهم وانكشف خفى أمرهم وتفرقوا فى ليلتهم تلك على غير طائل وأصبحوا وقد اجتمعوا وبينهم جاد أفندى وتكلموا فى الامر وبعد أخذ ورد اتفقت كلمتهم على مبايعة الانبا يوساب أسقف اخيم وكتبوا عهدا بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر فلما كانت الليلة الاولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع جميع الاساقفة بدار البطريكية فتبعتهم الغوغاء سرا ومعهم صاحبهم يوساب وجاد أفندى ونفر من أقاربه وأغلقوا الابواب وأقاموا الحجاب بحريمهم ورفعوا الصلاة وبينما هم على هذه الحال اذ برز أحمق من عرفان المكاتب اسمه بنى وجعل يطوف فى الازقة والحارات المجاورة لدار البطريكية وينادى بأعلى صوته هبوا ياقوم فقد قضى الامر اليوم ياقوم هاهم يبايعون الليلة انبا يوساب فان تغافلتم ندمتم وان نشطتم غنمتم ياقوم قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة بادروا قبل الفوات هدا كم الله هدا كم الله * ومازال يكرر النداء ويكثر من الصياح والتطواف حتى استيقظ الناس وهبوا من نومهم وهم لايدرون ما الخبر وهرعوا الى دار البطريكية فتبعتهم الغوغاء واقتحموا الابواب وعلت الضوضاء وكثر الصياح وهب جماعة من الحبشان كانوا نياما بدار البطريكية وسألوا عن الخبر فزينوا لهم اخراج الاساقفة من المسجد فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمساوق واقتحموا المكان الذى كان به جمع الاساقفة ورسول الباشا وهم لايعرفون حقيقة الخبر فكسروا الابواب وفرقوا شمل جميع الحجاب وصاحوا فى وجوه الاساقفة وأخرجوهم قسرا فعلت أصوات العامة وكثر الصياح ووقع بينهم الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمس فى الماء أوعرج به الى عنان السماء وظل جماعة الحبشان والناس يغدون ويروحون أمام دار البطريكية حتى مطلع الفجر فتفرقوا وانصرف جمعهم

وقد بدأ التعصب يدب فى صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظهرت علائم اليأس فذهب قنصل الانجليز الى عباس باشا وأخبره بما جرى وبالغ فى الامر وهوّل فى سوء العاقبة وأشار الى ماسيكون من وراء الاباءة والمنع لخاف عباس باشا ورسم باقامة داود وكيلا لدار البطريكية فرضى القنصل ورضى سائر القبط بذلك وقالوا ان أول الغيث قطر فلما كان خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسومه بذلك فأقاموا الصلاة سرا خوفا من قيام جماعة الحبشان اذ كانوا لايحبون داود ولا يرضونه بطركا فما كادت الصلاة تتم حتى برح

الخفاء

الخلفه وشاع الخبر فاجتمع الحبشان بالمسجد فلحق بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقتحموا الابواب وبأيديهم العصى والمساوق وصاحوا فى وجوه المصلين وأكثروا من شتمهم وسبهم ثم تماسكوا بالاطواق ووقع الضرب واللكم وكثر الصياح وعلت الاصوات واشتدت الجلبة وتطايرت العمائم عن الرؤس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب الاساقفة واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فانكفوا وسكنت الفتنة وقد كان لايظن أنها تسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على اقامة داود خلفا لبطرس فلما كان يوم الاحد التالى اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبايعوه جهارا وسموه كيرولسا وولوه مطرانا على كرسى مصر ووكيلا للكرسى البطريكى فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع الخلاف فتفرقت الكلمة وتحزبت الاحزاب وذهب كل الى مذهب فى أمر كيرولس وكبرت الوحشة بينه وبين فريق منهم وقد كانوا هم مقدمى القوم وأصحاب الكلمة فيهم فحجروا عليه فى جميع تصرفاته ومنعوه من النظر فى شؤن الملة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان اذا أراد النوم لايجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا واذا جاع لايطعم الا ماقدموه اليه واذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لايألو جهدا فى تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح فى ضم الكل الى الكل فصاروا على الخير أعوانا وفى ذات الله اخوانا وطرحوا عنهم الخلاف وعادوا الى الاستنجاد بقنصل جنرال الانجليز على تولية كيرولس منصب البطريكية فأجابهم الى ذلك ومازال بعباس باشا حتى رسم فى سلخ شعبان من السنة أى سنة سبعين ومائتين وألف هجرية بولايته

فلما كان تاسع رمضان بايعه الاساقفة فى أبهة زائدة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق وفرحوا بولايته ووفد عليه المهنؤن من كل صوب وحدب ولم يمض على ارتقائه منصب البطريكية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايرجات وأحلوه محلا * ولما استقر بكيرولس المنصب جمع اليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة وأصلح ما أفسده التعاقد فمال الناس جميعا اليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فعمد الى اخراج سلالة قدماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوى الرذالة الى أوج المعارف والتمدن وصروح التعلم والتفنن فأنشأ لهم المدارس وأتى لها بكبار الاساتذة والمعلمين من الفرنسيس والانجليز والايطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المعدات والادوات والكتب المرتبة وغير ذلك * وكان المشار اليهم فى تعليم الاطفال يومئذ جماعة من العميان يعرفون باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما أحسوا بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الخيبة وسد أبواب الرزق فى وجوههم فتجردوا الى العداوة وايقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحضون آباء الاولاد وأمهاتهم على العصيان وشق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون أولادكم بأيديكم الى التهلكة وصاحبكم كيرولس قد عاقد الدولة على أن يجند لها من أولادكم ألوفا لتدفع بهم الى حيث لا يعلم

الا الله وكان اذا وصل الى دار البطريكية شئ من الكتب أو معدات التعليم ولولوا وقالوا هذه البنادق وآلات الحرب وملابس الصيف وأحذية الشتاء تأتى على عجل وكان الناس كافة كما هو اليوم يكرهون الجندية ويخافون التجنيد خوفا ما عليه من مزيد فاعتقدوا صحة الخبر وأخذتهم الطيرة وكرهوا عمل كيرولس وتجردوا لمقاومته وجماعة العرفان لايكفون عن التطواف وحض الناس على مقاومته * أقول وقد كنت واخوتى نتعلم العربية عند أحد أولئك العريفان ولى من العمر يومئذ السابعة فبينما نحن يوما نرقب حضوره كالعادة اذ أقبل يهرول فى ثيابه ويده على كتف أحد الصبيان فقمنا اجلالا اليه وأقبلنا جميعا نقبل يده فجلس ثم أخذ قنابل قنابل الزق المفتوح أو البق المسلوخ وأخرج علبة السعوط فحشا خياشيمه حشوا حتى تأوه وعطس ثم عطس وسعل وتفل يمنة ويسرة وضرب الارض بعصاه فطار غبارها وتساقط على رؤسنا تساقط المطر وصاح لاحول ولا قوة الا بالله ثم قال أف لكم ولعنا لوالديكم فلسوف تلقون غدا ما تلقون فقد استسلم آباؤكم الى الترهات وزخرف القول فضلوا وألقوكم بأيديهم الى التهلكة فبئس المصير بئس المصير ثم عاد فحشا خياشيمه بالسعوط وصاح اقرؤا ارفعوا أصواتكم ثم اشتد به السعال حتى كاد يغمى عليه فلما أفاق قال ها ها هيه أسمعنى صوتك * كرر لوحتك * اسكت ياابن النجار * اخسأ ياشقى * اخرس ياشيطان * لاتمض أذن أخيك ياابن الصائغ قم وأفرغ مافى خياشيمك ياابن يوسف صه ياأحدب ياأبا الرأسين ياأبا ذباب وما زال على هذه الحال من النداء والصياح والجلبة والسب والشتم ونحن فى جلبة وضجيج حتى نعس ونام واشتد غطيطه ونحن كالحلقة حوله ندفع عنه الذباب ونطرد الكلاب الداخلة علينا من الباب فلما سكنت قلوبنا بنومه أقبلنا على معلمنا الذى كان يكتب لنا الالواح ويصفر لنا زعيف النخل ضرامشا فجلس عليه فسألناه عما أصاب العريف فى يومه فقال هو بخير وعافية ولكنه فى شاغل مما أتاه كيرولس البطريرك فانه على عزم أن يجمع جميع أبناء الملة ويضعهم فى دار أنشأها بالقبلة وسماها (دار العلوم) وقد عين لدخول التلامذة فيها يوم كذا ونودى بذلك فى الناس اليوم بالكنيسة الكبرى فدعونا وهذا الكلام وارفعوا أصواتكم قبل أن يرفع العريف رأسه فعلت الاصوات واشتدت الجلبة

وأحس كيرولس بما وراء تطواف أولئك العريفان من الفشل فاستعمل الحيلة وأحسن التدبير فجمعهم اليه وطيب خواطرهم وأناط بهم التعاليم الابتدائية وأفرغ على مائدته وأفرز لكل منهم محلا بدار المدرسة الكبرى ورتب لهم الجماكى والمرتبات وأخذ عليهم العهود ومهد لهم طريقا للتعليم وجعل لامتحان تلامذتهم أياما معدودة فى كل ستة شهور فمن وجد منهم ناجحا ضم الى صفوف المدرسة فلم يمض على ذلك الا القليل حتى دخل من هؤلاء فى صفوف المدرسة نيف وتسعون تلميذا ومائة ممن كانوا خارجا وظهرت عليهم علامات النجابة ودلائل الفلاح فتكلموا بالانجليزية والافرنسية والايطالية والقبطية وجودوا

العربية

العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان ونبغوا ونجحوا نجاحا عظيما ثم أنشأ بعيد ذلك مدرسة ثانية بالمحلة المعروفة بحارة السقايين فكان شديد الولع بها وكان في نهاية كل سنة يولم الولائم العظيمة ويدعو كبار القوم والوجهاء والعلماء لامتحان التلامذة ثم يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب وعد الموائد الفاخرة وكان اذا سمع من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعها أواستكبرها على قائلها لصغره وعدم بلوغه حد النقد فرح به فرحا عظيما واستعادها مرارا وأخبر بها كل من يراه في يومه فيقول سمعت اليوم فلان بن فلان يقول كيت وكيت فسرني جدا ادراكه وتحقق لي نجاحه ان شاء الله ٭ ووجه عنايته الى ترميم المعابد واعادة ما تخرب منها فأعادها الى ما كانت عليه وأنشأ بالمحلة المعروفة بحارة السقايين كنيسة وقد كان الى ذلك الحين يصعب جدا انشاء الكنائس تمسكا بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الأمور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشأ أيضا الكنيسة الكبرى بالقبيلة على نظام أشهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ دارا للطباعة وسماها باسمه وسلم أمر تدبيرها لجماعة من أبناء المدارس فأحسنوه وأتقنوا صنعة الطباعة فطبعوا فيها كثيرا من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها في دار مخصوصة قد أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالغلط والتحريف فصححوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن ما يرام ورتب الطقس الاكليريكي وهذب الزي الشماسي فجاء حسنا مقبولا جاريا الى يومنا الذي نحن فيه وأحيا اللغة القبطية بعد مواتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة الانكليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت الى آخر أيامه من أهم اللغات التي تتكلم بها أبناء المدارس وكان ميالا الى تعليم البنات وتهذيبهن الى حد يكن فيه معينات لازواجهن ومربيات لاولادهن فصادف من المقاومة في ذلك اشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال أربه من ذلك

ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب مارماه به الانكليز من سعيه وولعه الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حماية الدولة الروسية كما تقدم بيان هذا كله في محله ما أوجب تخوفه ملتكاشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال الدولة وكأنه كان يخشى وقوع أمر يتهدده ولكن

ولا يمنعك الطير شيأ أردته ٭ فقد خط بالاقلام ما كنت لاقيا

وطالت أيام عزلته ورسل القيصر تعوده كل قليل وتخابره في أمر اتحاد الكنيستين القبطية والروسية وعندي أنها حقيقة لا يصح انكارها فقد كانت من أعظم رغائب كيرولس وهو أكثر الناس تعلقا بها وأشدهم تمسكا بأهدابها وقد بذل في الوصول اليها النفيس وتقرب ممن أشاروا عليه بذلك جهد الاستطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد



الكثيستين أدنى من قاب قوسين بل أمرا مقضيا ❁ فلما كان فى أحد الايام جاء اليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه الى الديوان لأمر لايتم الا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتى هى فعاد اليه ثانية وثالثة فلم يرجدا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فلازم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فاتوا اليه بطبيب فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأته حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ فى علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة من سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية ودفن بتربته التى ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبلة ودفن معه حظ القبط جميعا وحظ بنيهم من بعدهم وحزن الناس عليه حزنا عظيما فكانت مدته خمس سنين الا أياما رحمه الله رحمة واسعة

❁ قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبو زقالى من قسم صومعة شغلاق باقليم اخميم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القرية الى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفوفا تقيا ورعا محبا للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالا الى العزلة والانفراد شديد الرغبة فى معرفة أخبار الصالحين مولعا بأهل العلم آوى اليه كثيرا من أهل الفضل من جماعة القسيسين والرهبان وانكب على تلقى العلوم الدينية ثم تاقت نفسه الى الرهبنة والتعبد وهم بالرحيل عن وطنه فمنعه من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هاربا فى عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية الى دير أنطونيوس الاعلى بالجبل الشرقى ولبس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوبا موقرا يشار اليه فى المهمات ❁ فلما كانت سنة خمس وخمسين ارتقى الى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت اليه القلوب وأحبه الناس وفى سلخ جمادى الاولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطرك وولاه الوكالة على الاحباس والاوقاف فدبر أمورها وأحسن تدبيرها وأكمل نظامها وعرفه الناس فمالوا اليه وتقربوا منه فرأوه شهما حازما واسع الدراية يقظا نشيطا وقورا حسن السياسة ميالا الى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة فى احياء ما اندرس من معالم مدنية الامة القبطية والارتقاء بها الى درجات الرفعة والتقدم ❁ وفى أخريات سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية ولاه بطرس البطرك الرياسة على دير أنطونيوس الاعلى فأحسن التدبير ورتب الامور على أحسن مايرام وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية فافترق فى أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ولبثت أياما حتى تمكن من اخماد نارها وبقى رئيسا تسع سنين أولها سنة سبع وخمسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسيره الى الحبشة رسولا الى النجاشى كما تقدم القول

وكان

وكان رحمه الله عظيم التهجد يتظاهر بحسن الملبس وهو لايلبس على جسده الا أخشن الوبر يظهر الاعتناء بعظائم الامور وهو غاية فى العفة والتقشف حليم بعيد الغضب شديد على جماعة الرهبان لايبيح لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم النفس أبيها رزين خبير بالامور وعوته خلا الكرسى زهاء سبع سنين كان يدبر الامر فيها مرقس مطران البحيرة ثم قام بعده ديمتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه ميخائيل وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله ان شاء الله تعالى

(الفصل الثالث والعشرون)

فى خلافة السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود خان

ثم قام بالامر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز خان بن السلطان محمود خان بويع له بالملك يوم موت أخيه سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأتت بذلك الاخبار الى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وورد الى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرئ فى ديوان الغورى بقلعة الجبل ولما استقرت به السلطنة نظر الى أمور الدولة من أبوابها وأجهد النفس فى ترتيبها وقد كانت الحروب القائمة عليها أعلتها وأذهبت رونقها وبهجتها حتى كاد العدو ينشب أظفاره فى جوفها فبالغ فى اصلاح ماأفسدته الايام وعزز جانبها وجند لها الجند الكثير وأنشأ مراكب الحرب وسفن الطراد وحصن الحصون والقلاع بأنواع الاسلحة الثقيلة فعلت كلمته وكبرت فى أعين الخصوم هيبته وتقرب منه الاسكندر الثانى قيصر الروس وتحبب اليه وسالمه وأخذ بقوله وعمل بمشورته حتى كاد ينفضح ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الانجليز شر ذلك وأحسوا بما وراءه من تنكيس أعلامهم فى قلب آسية وداخل أبواب هندهم فبذلوا النفيس وتقربوا الى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس فى دار السلطنة ببذل المال واعطاء العطايا العظيمة وما زالوا يحيلون بأبناء البلاد جنة وسمرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم تركية الفتاة وأمدوها بالمال فنمت وعظمت وكثر عددها وانضم اليها الكثير من فحول الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوالين فكتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا فى الخليفة السلطان عبد العزيز ماقال مالك فى الخمر ورموه بالمروق عن الدين ووسموه بموالاة الروس أعداء المسلمين وأكثروا من التقريع والوقيعة بعالى باشا الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وأهل الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القحة الى حد كانت رسائلهم المشحونة

بالسب والشتم وفحش القول تلق فى مخادع الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وقد وصلوا الى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيس وعاصمة الانجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفحال أمرها واتساع كلمتها حتى كان من أمرها بعد ذلك ماسيتلى عليك فى محله * ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والاخلاص ماكان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد المجيد فقد كانت الوحشة لم تزل قائمة مابين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لاسيما الصدر الاعظم عالى باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالاة السلطان وأقربهم الى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتة ومع ذلك لم تتمكن رجال الدولة من استغلاطه ولا مؤاخذته بأمر من الامور السياسية لافى الداخل ولا فى الخارج ولا هبت الفتنة بسبب ذلك نار فى جميع أيامه لاشتغالهم عنه بالكثير من الكوائن والمحن الداخلية فكان فى مأمن من كيدهم وفى حوز من شرهم يعطيهم من طرف اللسان حلاوة * ومات فى أيام محمد سعيد باشا الامير أحمد أكبر أولاد ابراهيم باشا بن محمد على باشا مات غريقا فى النيل بين كفر الزيات وكفر العيس بالاقليم الغربية فى يوم عيد أضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالاسكندرية وقد دخل عيد الاضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من المتحكمين والجنديين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الامراء من ذرية محمد على باشا لعمل تشريف العيد بمقره بالاسكندرية فعمل التشريف فى ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع الى القاهرة وكان جسر كفر الزيات الحديدى الموصل لخط السكة الحديد بما بين الاسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه الى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والوابورات جسرا متحركا على ظهر سفينة تسرى النيل بالبخار فكان اذا وصل المسافرون الى كفر العيس من الاسكندرية وقف القطار هنالك فيأتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتصقا بضفة النيل ويدفعون على ظهره عددا معلوما من العربات ويقيدون عجلاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضا الى أن يرسو ملتصقا بالجانب الثانى فيدفعون بما عليه من العربات بمن فيها من المسافرين الى الخط الحديدى الموصل الى القاهرة أو بالعكس الى الاسكندرية وكان ممن ركب فى قطار ذلك اليوم يريد الرجوع الى القاهرة الامير أحمد بن ابراهيم باشا والامير عبد الحليم بن محمد على باشا وبعض الباشاوات مثل آدهم باشا وغيرهم ونزل أيضا الامير اسمعيل وأخوه الامير مصطفى فاضل أخوا الامير أحمد ولكنهما عادا فنزلا من القطار قبل أن يسير من الاسكندرية بايعاز من أحد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار الى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين الى ظهر ذلك الجسر وقد كان فى احداها الامير أحمد والامير عبد الحليم

وغيرهما من الباشاوات قيل انهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خالوا وأتوا بغيرها من خلفها فلطمت الأولى فتحركت واندفعت الى الامام فسقطت جميعها فى النيل وغرقت وكان الامير أحمد شابا جميلا قوى الجسم ضخما كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فات غريقا أما الامير عبد الحليم فانه لما سقطت العربة التى هو بها تخلص بنفسه من نافذتها الى البحر فعاونه بعض أصحاب السفن التى كانت هنالك وأخرجوه حيا ومات أدهم باشا وجميع من كانوا بالعربة مع الامير أحمد فكان المنظر مروعا والمشهد محزنا وقد كثر صياح العامة وولولت النساء وانتشرت مماليك الامير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جثته وأتوا بجماعة من صيادى السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضا من بقية الاموات وجاؤا به الى القاهرة وغسلوه فى بيته الذى بجانب القصر العالى ثم دفنوه فى ثانى يوم فى مشهد حافل الغاية وتحدث الناس كثيرا فى أمر موته فقالوا انه أغرق بأمر من سعيد باشا كى لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكى تنتقل الوراثة بموته الى أخيه الامير اسمعيل * قلت وقد حدثنى أحد مماليك الامير أحمد قال جاء الامر من سعيد باشا الى مولاى الامير وهو بالقاهرة بخصوصه الى الاسكندرية للحضور فى تشريف عيد أضحى سنة ثمان وسبعين فقمنا فى صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا الى الاسكندرية قبل المساء بقليل وبتنا ليلتنا تلك والامير ساكن البال رائق الحال وأصبحنا وقد دعانى فدخلت عليه فرأيت الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاى ماباله يبكى وقد كنا بالأمس على أحسن ما يكون من السرور وصفاء البال قال رأيت البارحة فى نومى كأنى واياك على شرافة هذا المنزل نريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل فى طلبنا جماعة من العبيد السود فما وقع بصرهم علينا حتى هجموا علىّ هجمة الاسود الضوارى وأخذوا جميعا بيدى ورجلى وألقوا بى فى تيار النيل فقمت مذعورا من نومى وتعوذت بالله ونمت فجاءنى هاتف يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولما ذا قال قد أتت المنية فلا مفر فقمت مذعورا وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فنمت فاذا بشخص فى زى الفقراء وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب منى وقال قم يا أحمد فقلت ومن أنت يرحمك الله قال رسول ملك الموت فقمت باكيا من ساعتى كما ترى * قال فقلت يا مولاى هذه أضغاث أحلام وقد أتعبك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت على التشريف فقام ولبس كسوة التشريف وركب وهو فى قلق واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا بفرقة من فرقات العسكر قاموا اجلالا وتعظيما ونفخوا فى البوق فيبكى ويذرف الدمع فلما انقضت ساعة التشريف قال لابد من السفر الساعة فقلت يامولاى ارحم نفسك ودعنا نبيت الليلة هنا فقال لابل نسير الى القاهرة عسى الله يفرج كربى فركبنا القطار وركب معنا جميع الامراء من ذرية محمد على باشا فلم يكن باسرع من أن دخل أحد رجال ديوان سعيد باشا وهمس فى أذن الامير اسمعيل فالتفت الى أحمد أتباعه وقال أنزلوا

مثاقى فقـد عدلت عن السفر فقال له أخوه الامير مصطفى فاضـل ان كان ولابد من بقائك اليوم فانى مرافقك ونزلا معا وتركانا فسار بنا القطار حتى وصلنا الى كفر العيس وكان من أمر غرقنا ماسارت بذكره الركبان وعرفه القاصى والدان فالله الله ولاحول ولا قوة الابالله اه

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فانه مات سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر ينايرسنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية * قال بعض الكتاب من القريبين لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء خبر ذلك الى الامير اسمعيل وهو بالقاهرة سـار الى الاسكندرية أحـد المقربين اليه من جماعة الفرنسيس واسمه ديرفيولرسل اليه باخبار سـعيد باشا فى كل يوم ومناه بالاماتى الكثيرة والعطاء الجزيل ان هو بعث اليه بخبر وفاته فلبث دير فيور بالاسكندرية أياما يرسل فيها الاخبار الى الامير اسمعيل باشا فلما كان صباح تاسع عشرينايرأرسل اليه يقول أعدوا البيت فقد عزم الساكن على الرحيل * يشير بذلك الى قرب مفارقة سـعيد باشا لهذه الدار الدنيا وتأهب اسمعيل باشا للدخول فيها * فلما جاء هذا الخبر فرح به كثيرا ولبث ينتظر ما سيكون من وراء ذلك حتى جاء الخبر بموته فسير الى الاسكندرية من يجهزه ويدفنه هنالك وكان جميع أرباب الديوان الخاص قد حضروا الى القاهرة ولم يبق منهم بالاسكندرية الانفر قليل مع محمد شريف باشا الذى لم يفارقه طرفة عين قبل وكان سـعيد باشا قد أوصى بان يدفنوه فى القاهرة وقيـل فى الاسكندرية فحزن عليه الناس كثيرا لاسيما أهل الاسكندرية وأقامت النساء عليه المناحات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يوما مشهودا وكانت ولايته زهاء تسع سنين وقيل ثمان سنين وتسعة أشهر وستة أيام وعمره اثنتين وأربعين سنة رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه فردوس جنانه

(مطلب)

ولاية اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد على باشا

بويع فى اليوم الذى مات فيه محمد سعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الامير اسمعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد على باشا بايعه فى قلعة الجبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البشائر وطيروا الخبر الى الآفاق وزينت جميع المدن والبنادر ثلاث ليال وأقيمت الافراح والولائم وبولغ فى ذلك مبالغة زائدة جدا وفرقت والدته فى ذلك اليوم من الهدايا والتحائف النفيسة الى أرباب الدولة والعلماء والمشايخ شيأ كثيرا وأقامت الادعية فى المساجد أياما ورممت بتوبيتهم بعض أضرحة الاولياء والصالحين من مالها تفاؤلا واستزادة للنعمة فلما استقرت به الولاية وجاء

فرمان

فزمان السلطان عمد الى تغيير الكثير من عادات البلاد والاحداثات المتبعة وتصرف فى الامور ونظر فى ترتيب موارد الايرادات نظرة الراغب فى المزيد فضبط الخراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الجباة والعمال والقباض والرقباء وتقرب كثيرا من رجال السلطنة وأهل المابين واتخذ له من كبارهم أخلاء يعتمد عليهم فى عظائم الامور وأجزل عطاءهم فمهدوا له العقبات وذللوا له الصعاب وفتحوا له من الآمال والأماني أوسع الابواب وحببوا الى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فمال الى ذلك ووردت الاخبار بعزمه على الحضور فى نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ اسمعيل باشا فى الاستعداد لقدومه وأنفق النفقة الواسعة فى اعداد معدات الولائم ولوازم الافراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماما عظيما فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان الى مدينة الاسكندرية على باخرة عظيمة يخفرها الاسطول العثمانى الحربى وفريق من العسكر وكان فى انتظاره فى الاسكندرية اسمعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقوبل فى أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال لملك من ملوك المشرق والمغرب وسار فى شوارع المدينة والشعب يتربين يديه وكان فى ركابه مراد افندى وعبد الحميد افندى ابنا السلطان عبد المجيد خان ورشاد افندى ويوسف عز الدين أفندى والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الاسكندرية الى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبى الطريق من الاسكندرية الى القاهرة فلما دخل اليها قوبل بأحسن ماقوبل به فى الاسكندرية وشق من وسط المدينة فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع الى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقرا بها فزينوه بأنواع الحرائر والمقصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على مآذن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسينى والزينبى والنفيسى وغيرها فكان اذا مر بالناس وقفوا صفوفا اجلالا وتعظيما فينظر اليهم يمنة ويسرة نظرة لطيفة وهى كناية عن السلام فى عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة اذا رأوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر اليهم كأنه يحييهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهى حالة لم يرها السلطان فى بلاده فانه اذا مر بالناس يوم خروجه للصلاة مثلا أو فى أيام المواكب أطرقوا بأبصارهم الى الارض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت

مطلب
مجىء السلطان
عبد العزيز الى ديار
مصر

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الازهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الاضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف الا القليل وكان اذا ركب سارت خلف عربته الجنائب السلطانية وطائفة الحرس السلطانى بالعمائم البيض والبرانس الحرير الابيض وفى أيديهم القرابينات على شكل جميل للغاية

ولبث بالقاهرة أياما ثم سار الى الاسكندرية وركب منها الى دار السلطنة وتبعه الاسطول الحربى والسفن التى تحمل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحا وولائم عند العامة ومن لاخلاق لهم، وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه الى مصر وقد أخذتهم الطيرة اذ لم يسبق لاحد من سلاطين آل عثمان بعد السلطان سليم الفاتح دخول أرض مصر وكبر خوفهم وقد أخذوا باقوال أصحاب الزايرجات فتوامت ظنونهم الى المرمى البعيد فلما كانت سنة احدى وثمانين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سنة ثمانين ظهر الوباء فى البقر واشتد وعم بجميع البلاد شرقا وغربا ولم يترك قرية ولا كفرا الا ودخله واشتد شدة بالغة حتى كاد يفنى جميع البقر وقل وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس الدهن والزيت فأمر اسمعيل باشا فاستحضروا من البلاد الاجنبية كالنمسا والمجر ونواحى الاناضول السمن وهو فى غاية الرداءة والنتن وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجانا فكانوا يتزاحمون على الوكائل ومخازن التوزيع بالانحطاط وهم فى ضجيج وجلبة تصم الآذان واستمر الحال هكذا أياما كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد الى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكد ينقضى هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت الاسعار وانقطع وارد القمح واشتد الطلب فلم يجد الفقراء له أثرا لا فى سواحل بولاق ولا فى مصر القديمة ولا فى جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء فى الاسواق يحملن المقاطف لعلهن يجدن من يبيعهن قمحا أو دقيقا وعلم اسمعيل باشا بما عليه الناس من الضرر فهاله الامر وأزعجه ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فأتوا له بشئ كثير منهما وفرقوه فى الوكايل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين فى الصباح والمساء ونادوا فى الناس بذلك ففرحوا وتزاحموا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تزاحم الجياع واستمروا على هذا الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الاقاليم القبلية وملأت مخازن التجار وأشوان الدولة وعم الوارد منها الاقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن القلوب حتى ظهر الوباء فى الناس ثانى عشر المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية واشتد الموات شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمة ثم عم جميع البلاد شرقا وغربا فكانت الفقراء تموت بجانب جدران البيوت وفى الازقة والحارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث الى المقابر وبالغ محافظ المدينة فى نظافتها فلم يرتفع الوباء واستمر على شدته الى رابع عشرى ربيع الثانى فمات خلق كثير ثم ارتفع وقد نزح الكثير من الاجانب وأهل البلاد الى الديار الخارجية فرارا من الموت وخلط الناس وخبطوا وقالوا ان هذه الكوائن انما هى ناجمة عن دخول السلطان الى مصر اذ لم يسبق لذلك مثيل منذ فتحها السلطان سليم بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة وتشاءموا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامه وأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات والمنجمين كعادتهم عند وقوع الشدائد وضجوا وعجوا وابتهلوا الى الله تعالى وتوجهوا اليه بقلوبهم وقد أحصوا من مات فكان زهاء المائة

الف

ألف نسمة

وما انقطع الوباء وسكنت الخواطر حتى جعل اسمعيل باشا يتصرف فى أمور الدولة بحسب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع دى لسبس فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد فى حفر ذلك الاتصال كما كان العهد بين سعيد باشا ودى لسبس واستعان اسمعيل باشا على ابطال هذا الحدث بالسلطان فكتب الى الباب العالى يقول

ان عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه فى عمل قد أضر بالحرث والنسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوعز الى أصحاب صحف الاخبار المصرية فهبت من نومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة الى ابطال هذا العمل والاخذ بأسباب الحزم ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان الى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة بجواز عمل ذلك الاتصال بعد أن سار دى لسبس الى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكلم الصدر الاعظم فى ذلك مرارا فكتب عالى باشا الى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيس فى شأن ذلك يقول ● غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثيرا من أنفس أوقاتها فى بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ومع كونها تود من صميم القلب انجاز هذا المشروع الخطير والعمل المهم بالاتحاد مع الدولتين البحريتين العظيمتين لعلمها بأهمية وخطارة هذا الاتصال الا أنه قد ورد على الباب العالى فى هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها ابداء رأى أمير المؤمنين فى هذا الامر ويحزننى جدا أن أرى انه قد بدئ وكاد أن يتم عمل ذلك الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الامور بين الباب العالى والدول المتحالفة معه كما يعز على أيضا ايقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزيل الفائدة كبير الاهمية على أنى مع ذلك أقول انه لا يمكن للدولة العلية على أى حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال الا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالى على جعله حرا مستقلا تحت رعاية حكومة البلاد التى هو فيها بمثابة بوغاز البوسفور والدردنيل فى دار السلطنة العثمانية لاسيما وقد تكلفت تلك البلاد أعنى البلاد المصرية بتشغيل زهاء عشرين ألفا من أهلها فى حفر هذا الاتصال عونة وسخرة مع سبق النشر والاعلان بابطال هذه العادة الخشنة التى يأباها العدل والشرف ومما يحول دون اعتراف الباب العالى بتتميم عمل ذلك الاتصال ما جاء فى عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسيو دى لسبس صاحب ذلك المشروع حيث بعد محمد سعيد باشا الموسيو المشار اليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة جميع الاراضى التى تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة وعلى ذلك لم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع وبحيرة التمساح

ومدينة بور سعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة أمير المؤمنين وهو أمر لاتحمد عواقبه ولا اخالكم تنكرون على القول بأنه مامن حكومة رزقها الله حسن النظر فى عواقب الامور ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هذه الشروط المقمة جورا وخذلانا لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث محمد سعيد باشا بصورة منها الى الباب العالى وهو يعلم حرسه الله ما وراء ذلك من تعيير سائر الامم لحكومته ورميها بالقصور والمروق عن جادة الحق فان أجازه فانما يجيزه بعد قبول هاته الخصال الثلاث

الاولى منها جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الاحوال

الثانية رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد

الثالثة العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شئ من الاراضى لشركة هذا الاتصال الا ما كان لازما لانشاء معاملها وورشها فقط

فاذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى البلاد وسهل التصديق على بقية الشروط المدونة بالعقد * فالذى نسألكم اياه الآن هو أخذ رأى الدولتين المتحالفتين أعنى بهما دولتى الفرنسيس والانجليز عما يليق عمله الآن أيليق منح شركة حفر هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لايكون من ورائها الا هضم حقوق رعايا الدولة العلية واذهاب ثروة البلاد واضمحلالها وضياع كثير مما نالته من شبه استقلالها وهل يوافق انه اذا لم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عهدتها بالاتفاق مع عاملها على ديار مصر انجاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليه من مالها أوتسلمه لشركة أخرى بشروط وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته اذ كان اندفاعها الى العمل بغير اجازة ولا مسوغ أفيدونا الجواب * ووردت الاخبار بهذا المعنى الى اسمعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب الى الموسيو دى لسبس يقول

لا يليق بنا أن تخفى عليك معرفة انه لما كان ماكان من الخلاف فى أمر عمل اتصال البحر الابيض بالبحر الاحمر قد كنا خابرنا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى أن يفتينا فى الامر بحقائق ما منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخابرة مع شركة الاتصال المذكور والاتفاق معها على جميع التغيرات المراد ادخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع المرحوم محمد سعيد باشا وابطال ما فيها مما كان سببا لحصول الاجلة وعدم قبوله لغاية الآن * ولااخالك تجهل انى مذ وليت الاحكام الى هذا الحين لم يكن عندى من المشاغل شئ

يعادل

يعادل هذه المسئلة وكان الذى لم يقبله الباب العالى وهو عائق فيه للآن كل الممانعة أمرين الاول تسخير أهل البلاد فى ذلك العمل والثانى تنازل الحكومة عن منفعة الاراضى الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور فلاجل أن لايزداد الامر اشكالا والاحوال بيننا جدالا قد رسمت الى نوبار باشا بحل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومع أعضاء الشركة وانى لواثق بانك تبادر الى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة النية كى لا يقع بسبب ذلك فى مستقبل الايام مالا تحمد عقباه وقد ضرب لنا الباب العالى أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فان مضى الاجل ولم نتفق على أمر يحسن السكوت عليه لم يعد اذ ذاك فى وسعى أن أعيد الكلام مع دار السلطنة فتدخل المسئلة فى دور جديد مع الباب العالى ويعز الوفاق ومعاذ الله أن نصل الى هذا الحد * وسترون أن الذى رسمته الى نوبار باشا ليخابرك عنه لم أراع فيه سوى راحة الرعية ورفع المضار عنهم مع انجاز مشروعكم على النمط المرغوب هذا وقد جاءنى مرسوم أمير المؤمنين بان أبادر الى تبليغ مقره الكريم حالة ماهو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض المراد جعله حسابا لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لايكون الاتصال المذكور قابلا لسير السفن الحربية فان أمير المؤمنين حرسه الله لاشئ أحب اليه من المحافظة على السلم واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول اه * فاجتمع نوبار باشا بعد أيام مع الموسيو دى لسبس وسأله الموافقة على تقليل عدد العاملين فى حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين ألفا الى ستة آلاف ونفقة فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يوميا والتنازل عن جميع الاراضى المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة الى تاريخ عقد هذا الاتفاق مع قيامها أيضا بجميع نفقة الترعة المراد انشاؤها من النيل الى جوار الاتصال فطال بين الفريقين الاخذ والرد واشتد الجدال وكاد يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم على غير طائل فرفع اسمعيل باشا الامر الى نابوليون امبراطور الفرنسيس وتقرب منه وتزلف اليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار نابوليون بوجوب تقرب الفريقين واصلاح ذات البين وأقام لذلك عدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب الشريعة بعاصمة الفرنسيس ورسم لهم بالتخفيف وحسم أسباب النزاع بالتى هى أحسن فتم الوفاق على ماشاءه اسمعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الاراضى التى كانت الشركة تتنازع فيها وبنفقة الترعة الحلوة التى أنشئت ممتدة من النيل فكان ما أنفق على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف ألف وخمسمائة ألف قرش وورد فرمان السلطان فى ثانى عشر القعدة سنة اثنتين وثمانين وألف هجرية بقبول كل ماوقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل البلاد وزالت عنهم تلك المحنة وحسبت مكرمة الى اسمعيل باشا على مر الايام

مطلب
سعى اسمعيل باشا
فى حصر ولاية مصر
فى ذريته دون ذرية
محمد على باشا

وكان اسمعيل باشا قد سبر غور رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة بعد أن

تم له ما أراد فى أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من يوم توليه مسند الولاية فى نزع حقوق الوراثة المحصورة فى ذرية محمد على باشا بمقتضى الفرمان السلطانى المؤرخ فى شهر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف وجعلها فى عقبه من بعده أى فى الارشد من ولده فى عقب ولده * قال بعض أهل التحقيق * وقد كانت رغبته فى ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه الشديد لاخيه الامير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الامير عبد الحليم ابن محمد على باشا من الولاية بعد الامير مصطفى فاضل فسعى فى دار السلطنة وأنفق الاموال الطائلة وأجزل العطاء لارباب الدولة وتزلف الى أصحاب الحل والعقد ورجال المابين وهادى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام ثم جعل يدبر على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص الى الباب العالى يشكو من أفاعيل عزاها اليهما وقال انهما كادا له وعملا على قتله وكان أخوه قد نزل فى جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب وتوعد فانكمش عمه بعقره بشبرى بضواحى القاهرة وانزوى عن الناس فزاد فى التضييق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين اليه ومزق أتباعه وضبط أكثر أرزاقه وحبس غلاته وبالغ فى نكايته حتى أخرجه مدحورا الى دار السلطنة فنزل على أصحاب المابين مستجيرا فلم يجدوا له يدا قد بسطوها الى عمه فأقام يراقب الفرص لعل الله يأتيه بالفرج القريب ومازال اسمعيل باشا يكثر السعى ويجهد النفس ويبذل النفيس حتى مال السلطان الى طلبه وحقق أمنيته ورسم فى ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد وراثية تنتقل من اسمعيل باشا الى أكبر أولاده ثم للارشد من عقب ولده وجاء الفرمان بذلك الى القاهرة ففرح اسمعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعلت الولائم والمآدب وأكثر رجال الدولة من عمل الافراح وتصدقت والدة اسمعيل باشا وأطعمت وفرقت الهدايا على المشايخ والعلماء وكست أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالى بعد قليل من الايام انه لم يصدد فى فرمانه الخطة الواجب اتباعها عند ما يكون الوارث لكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن فى اغفال ذلك تعقيدا واشكالا فسير فى ثانى صفر من السنة الى مصر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الاقوال فى شأنه وترامت الظنون الى المرمى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما فى ذلك الفرمان وتناقلته أصحاب صحف الاخبار على اختلافها

وبدأت من هذا الحين تعلو كلمة اسمعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة الى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الامير مصطفى فاضل وعمه الامير عبد الحليم وتمكن من مخانق رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة فاشتدت عزيمته ومالت نفسه الى التشبه بكبار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما فى ذلك من استرضاء الناقمين من كبار الدول الاوروباوية فرسم فى شعبان من السنة أى

سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بتشكيل مجلس شورى البلاد على نسق وترتيب مجالس الأمم المتمدنة والحكومات الدستورية المقيدة وبالغ فى الامر وطير الخبر بذلك الى الآفاق وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر ذلك المجلس وقالوا هو من مقدمات الاصلاح ومبادى الفلاح وانتقال البلاد من دور الخشونة والهمجية الى دور العمران والمدنية ﴿ قال بعض الكتاب ﴾ ولم يكن فى الامر شئ من ذلك البتة فانه ماتم اجتماع أعضائه وجعلوا يتطرون فى مصالح البلاد حتى زادت الضرائب وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم وانبث أصحاب الجباية شرقا وغربا واشتدوا على الرعية شدة بالغة ونواب الامة لا يعرفون من مواجب النيابة غير الطاعة لمن قال من كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكانوا حملا ثقيلا على عاتق أهل البلاد وسدا قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فنهض عند ذلك بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية الى الطعن وتجردوا الى التعييب ورموا نواب الامة بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيآت مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية والاشكال السخرية وحذروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوفوهم من سوء المصير فلم يضعف هذا كله لاسمعيل باشا عزما ولا وقف به عند حد لمكانته عند رجال السلطنة وأصحاب الكلمة فى المابين وكان كلما زاد أصحاب صحف الاخبار فى التقريع والتعييب زاد هو أيضا فى التقرب الى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف العظيمة فيقضون له كل مافى نفسه ✱ واشتدت رغبته فى التسمى باسم لم يسم به أحد ممن تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقبه بعزيز مصر وأن يرسل له خطا بذلك فطاوله السلطان ومناه فكثرت رسائله الى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق فجاءه الخبر بأن السلطان قد لقبه بلقب خديو وهو أحكم مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لاحد نوال مثلها من الوزراء وكبار القوم فان لقب عزيز مصر انما هو دون لقب خديو اذ كان يوسف ابن يعقوب عليهما السلام عزيز مصر أى وزيرها والأمين على خزائنها ففرح بهذه البشرى وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الاول من السنة جاء فرمان السلطان بذلك على يدى أحد القرناء السلطانية فقرئ فى محفل حافل للغاية ودقت البشائر وطيروا الاخبار الى الآفاق ودعوا للسلطان فى جميع المساجد بالقاهرة ومصر والاقاليم القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو اسمعيل من هذا الحين بعد التقييد واتسعت وحل له فعل مالم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الاجنبية والقروض مع أصحاب الاموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل المكوس وفعل كل مايختار من غير معاودة ولم يمض على ذلك الا اليسير حتى مالت به النفس الى الاستزادة وتاقت الى الاستقلال بملك الديار المصرية فعمد الى تنظيم الجند والاكثار من معدات الحرب وحصن

الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بثغر دمياط ورشيد وأبى قير ومعامل البارود والفشنك والبنادق والمكاحل وملابس الجند والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشترى الكثير من البنادق الجديدة المستعملة فى جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الامريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل فى جيوش الممالك الاجنبية وأكثر من التزلف الى نابوليون امبراطور الفرنسيس وهو يومئذ صاحب الكلمة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لسبس فاتح خليج السويس ليكون رسوله فى المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تخف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما فى نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم الى عالى باشا الصدر الاعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون فى شئ وكان صفاء الود الذى بين الخديو والصدر المشار اليه قد تكدر لاسباب لم تصل الينا معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبث العيون الى مصر وجعل يراقب الحوادث ويسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبرة

واتفق فى هذا الحين أن قدم الى دار السلطنة داعى نابوليون امبراطور الفرنسيس يدعو السلطان الى الوليمة المزمع اعمالها فى عاصمة الفرنسيس عند فتح المعرض الذى أقيم فيها وقد دعا اليه الامبراطور كثيرا من الملوك والامراء والخديو اسمعيل فسار الخديو من الاسكندرية فى سابع صفر ووصل السلطان الى باريز فى تاسع عشره فقوبل باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بها زهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المابين فكلمه الامبراطور فى أمر الخلاف الواقع بين الباب العالى والخديو وهوّن عليه الامر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان الى دار الخلافة فى سادس ربيع الثانى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياما فعرفه من حضر الى باريز من الملوك وأولاد الملوك والامراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف اليهم وبالغ فى التظاهر بمظاهر كبار الملوك فأنفق وأهدى وأجزل العطاء وحبب اليهم الحضور الى مصر عند عمل الافراح لفتح خليج السويس فمنهم من أجاب الى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد الى الاسكندرية وأقام بها أياما يدبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء فرأى أن مصر ليس فيها من محال اللعب واللهو ما فى أصغر بلاد الفرنجة كمراسح التشخيص ومواقف المغانى وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البلاد ولم تره فعاد الى القاهرة ورسم الى بعض المقربين اليه من الاجانب بانشاء مرسحين على نفقة الخزينة فأقام أحدهما على بقايا بناء السراى المعروفة بسراى ثلاثة وليه وهى منزل أحمد طاهر باشا بن طاهر باشا الكبير وسموه باسم الكوميديا والثانى على يسار الاول وسموه باسم (الاوبرا) وبالغوا فى تزيينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف والنقوش البديعة وأتوا اليهما من الديار الاوروباوية

بجماعة

بجماعة المتخصصين والمتخصصات والمغنين والمغنيات وأساتذة هذا الفن وعملوا لهم من الملبوس والحلى الفاخرة شيأ يكاد أن لا يدخل تحت الحصر ورتبوا لهم الجماكى والمرتبات الواسعة ورسم الى شركة ترعة السويس بأن تنشئ على نفقة الخزينة أيضا دارا فى مدينة الاسماعيلية لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والامراء والكبراء فأنشأتها فكان ما أنفق عليها زهاء ثمانين ألفا ذهبا * فلما حل الاجل المضروب لاقامة تلك الافراح والولائم وكان الاتصال بين البحرين الأبيض والاحمر قد تم وجرى الماء بينهما مختلطا وهو كاف لحمل البواخر والسفن التى تشق عبابه سير الخديو رسله الى الديار الاوروباوية بدعون ملوكها وأمراءها الى تلك الافراح فلقوا من جميعهم الرضا وقد أخذ فى الأهبة والاستعداد ورسم بخروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية بخيامهم وطبولهم وزمورهم وخيلهم ومأكولهم ومشروبهم فخيموا بمدينة الاسماعيلية وهى احدى المدن التى أنشئت على شاطئ الترعة على قيد بعض فراسخ من قرية العباسة وأمر بجمعوا سائر المغنين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختلاف أنواعها وعملوا الزينة على أشكال متنوعة يعجز اللسان والقلم عن وصفها ورتبوا الحراقات والاشكال النارية ووضعوا الرايات الخاصة بمملكة كل ملك وأمير دعى الى هذه الافراح وجاءت الى مدينة الاسماعيلية طوائف العساكر والاجناد بالمدافع وآلات الحرب الكاملة وكثير من الزوارق والسفن الصغيرة المزينة بأحسن الزينة وتقاطرت اليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وفحول الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور على اختلافها وتراكمت أحمال المأكول والمشروب بحالة يقصر عن وصفها اللسان والقلم

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الافراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا الصدر الاعظم يخابر الدول الكبرى فى أمر تعدى الخديو على حقوق أمير المؤمنين واستصغاره لواجبات التابعية وأنه اذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب من الانسان فكيف ساغ للخديو أن يتولى أمرا من أهم الامور وأكبرها بغير اجازة وأنه ليس من الكياسة ولا من حسن السياسة فى شئ أن تذهب الضيوف الى دار أمير المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ كرامة مملكته وشرف كرسى سلطنته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع * قال بعض كتاب الاخبار وكان قد بلغ الباب العالى أن الخديو انما يريد بهذه الافراح واستدعاء ملوك الدول وكبار الممالك لبس شعار السلطنة على ديار مصر والخروج من تابعية السلطان فهال السلطان هذا الامر وأزعجه جدا ورسم الى الصدر الاعظم بمداركة الخطب قبل استفحاله وشدد فى ذلك فكلم الصدر الاعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أحجم بعض الملوك عن الذهاب وبعضهم أناب عنه ولى عهده أو أحد قرابته وانفشلوا أوكادوا ولاحت بشائر الظفر للصدر الاعظم فكبر الامر على الخديو واستعظمه وشكى حاله الى نابوليون واستنجده

فتكلم نابليون الصدر الاعظم فى ذلك وشدد وهدد وما زال الامر بين أخذ ورد أياما
حتى تقررت القاعدة على أن كل من شاه من الملوك والامراء اجابة دعوة الخديو وجب
عليه أن يعرّج على دار الخلافة قبل ذهابه الى مصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صاحب
الدعوة ثم يسير الى مصر بعد ذلك على الرحب والسعة وأن الخليفة أن ينيب عنه من
شاء فى هذه الولائم لتقديم مراسم التهانى باسمه الشاهانى وترفع لمن حضر واجبات الشكر
وحقوق الضيافة فأناب السلطان عنه مبعوث دولة الانجليز وزوده بما شاء مما لم تصل
الينا معرفته

فلما كان ثانى شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف هجرية قدم الوافدون
تتقدمهم أوجنيه امبراطورة الفرنسيس وامبراطور النمسا والمجر مع ولى عهده وولى عهد
ملك ايطاليا وكثير من الامراء والكبراء وولى عهد البروسيا فباتوا ليلة فى مدينة بور سعيد
بين مظاهر الانس والسرور وأصبحوا وقد ركبوا السفن ومعهم طوائف الحرس والخدم
والحشم وأكابر ممالكهم ونزلوا الاسماعيلية وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث
الانجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا ليلتهم ورأوا من اتقان نظام الوليمة وحسن
ترتيبها مالم يجر على مثال سابق وكانت الموائد تمد تباعا فى الخيام والصواوين والسفن
والاماكن التى أعدت لذلك والمدعوون يتعاقبون عليها فوجا بعد فوج واستمر الحال على
ذلك زهاء أربع عشرة ساعة * قال بعض كتاب الاخبار * فأعجب الملوك ذلك جدا بل
أدهشهم وجعلهم فى حيرة وأصبحوا رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعا فى مجلس أعد
لهم وبينهم أوجنيه امبراطورة الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها ورئيس أركان حرب الجيوش
الافرنسية فقامت فيهم الخطباء والفصحاء فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا فى الاطراء
ولم يتم الخطيب كلامه حتى وقف فى وسطهم مبعوث الانجليز وقد كان لا يظن وصوله فى
هذا الحين فختم الخطيب خطابه بالثناء على الخديوى وامتدح من حسن لقائه وكرم أخلاقه
فصاح رسول الانجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فتبعه من حضر
بالدعاء جهارا فأطلقت السفن مدافعها تباعا وأطلقت كذلك مدافع البر وهتف الجند
بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحدب وعلا الصياح واشتد
التهليل ودقت الطبول والاعيان والمشايخ وأرباب الطرق طبولهم وهتفوا جميعا بالدعاء ومرت
السفن بالخليج تباعا بعضها آت من البحر الابيض المتوسط وبعضها من البحر الاحمر وهى
مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام مدينة الاسماعيلية بعضها خلف بعض
وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالى الصوارى وما زالوا على هذه الحال حتى تم
عبورها فكان مشهدا من أعجب المشاهد وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن مافيه
وقد كان ماأنفق من مال الخزينة على هذه الولائم والافراح ماقدره ألفا ألف ذهبا ماعدا
الهدايا والتقادم النفيسة التى أهداها الخديو من ماله وهى كثيرة جدا * ورجع من

حضرمن الملوك والامراء ولم يبق الا أوجنيه امبراطورة الفرنسيس ومن معها من الحشم والاتباع وبعض الامراء لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدها فبالغ الخديو فى اكرامها ولازم ركابها حيثما سارت وجعل الامير حسين ثانى أولاده فى خدمتها وطاف معها الخديو جميع ضواحى القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والاهرام وسقارة وغيرها على ظهور الخيل وأراها جميع العادات المصرية فى المأكول والملبوس وفى الاعراس والولائم وفى تمشيط العروس وجلوتها وتخطيرها وغير ذلك بأن زوج بعض حظياته الى بعض رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الاعراس على أحسن مايكون من الابهة والعظمة الشرقية ثم سارت أوجنيه من القاهرة تريد الصعيد فسار الامير حسين فى ركابها وخصص الخديو لخدمتها ست عشرة باخرة تمخر فى النيل صعودا وهبوطا فكان بعضها لحمل الحشم والاتباع وبعضها لجلب المأكل والمشرب فى كل يوم من القاهرة وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوما صرف فيها من الاموال شيأ كثيرا ثم عادت ولبثت بالقاهرة أياما قلائل ثم سارت راجعة الى عاصمة الفرنسيس ومعها من التحف والهدايا الفاخرة والاعلاق الثمينة مالا يكاد يدخل تحت الحصر ويجل عن الوصف

ولما فرغ الخديو من ولائم ترعة السويس وأفراحها عاد الى التفكر فى أمر توسيع دائرة خديويته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الارساليات العلمية والعسكرية الى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائد أهلها وأميالهم وغير ذلك واهتم بتحصين فرضتى سواكن ومصوع الواقعتين على ساحل القلزم وقد كان تقدم الى السلطان فى ضمهما الى خديوية مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية فى مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة الى الخزينة السلطانية وابلاغه الى سبعمائة وخمسين ألفا من الجنيهات فأعطاه اياها السلطان فحصن سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المرابطين من العسكر المصرى وفعل كذلك بمصوع ثم تأهبت عساكره وشنت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشا عظيما الى جوف السودان والدارفور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعاثت جنوده فى تلك الاصقاع وأعملت فيمن عصاها السيف ففتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا بأسهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوة والبأس وبث بينهم جباة الاموال من أهل الخشونة والقوة ووكل بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الآهلة بالانسان والحيوان والضرع والزرع منفى لاصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمال والولاة الضرائب الفادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والفلاحين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلوهم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل تقصير * وكان ممن سيرهم الى جوف بلاد الحبشان لمعرفة أحوالها والتقرب من بعض



كبار رجالها رجاء الغنم رجل غساوى الاصل اسمه مشنجر فتغلغل مشنجر هذا فيها وغاب خبره حينا ثم عاد حاملا شيأ من محاصيل البلاد وزين للخديو التغلب عليها وضمها الى مملكته وقد كانت الفتنة يومئذ قائمة بين ملوكها وأمرائها والخلل ضارب فيها أطنابه قبل وأقسم مشنجر للخديو بأغلظ الايمان أنه يملكها ويدوخها بنفر من العسكر المصرى وشئ من النفقة فأعجب الخديو رأيه ومال اليه ومازال مشنجر يتردد على أبواب الخديو حتى ولاه المحافظة على فرضة مصوع التى هى مفتاح أرض الحبشان البحرى وأعطاه رتبة البيكوية فسار مشنجر اليها واستقر بها وجعل يدبر فى فتح البلاد وقرب اليه بعض مشايخ السواحل واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم الى دس الدسائس وايقاظ الفتنة ما استطاعوا ولبث على هذا الحال حينا ثم استقدمه الخديو الى القاهرة وعوقه أياما ثم أعاده وأنفذ اليه جيشا خفيفا معقودا لواؤه الى ارندروب بيك الامريكانى أحد مقدمى الحرب الذين أتى بهم الخديو للخدمة فى الجيش المصرى ورسم له بالزحف على البلاد وفتحها وأقام مكانه فى المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمنى الحتد لابأس به فخرج مشنجر بالعسكر من مصوع فى يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيرا بطيئا وجعل يستميل فى طريقه مشايخ القبائل الضاربة فى الطرق والمسالك وقرب منه شيخ قبيلة الحماسيين وبالغ فى التودد اليه ومناه بالامانى الكثيرة فلازم الشيخ ركابه خديعة ومكرا وسار معه وهو على قدم السمع والطاعة ومشنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير الى أراكيل بيك يعلمه بالخبر فكتب أراكيل الى الخديو يبشره بذلك * وتاقت نفس أراكيل الى الخروج والغزو مع مشنجر ليشاطره النصر ويشاركه فى الغنم فسار عن مصوع ولحق بالحملة وساروا جميعا وعيون الضباشى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لايشعرون فلما بلغوا بلدة (جندت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع مشنجر فى هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والاتباع كأنهم ذاهبون الى عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فبينما هم نيام على فراش الاطمئنان اذ دب عليهم جماعة الحبشان فى منتصف الليل الآخر وأحاطوا بالخيام احاطة السوار بالمعصم ودخلت جماعة أخرى فى وسط الخيام وأعملوا فى العسكر السيف فهب العسكر من نومهم مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأثخنوا فيهم قتلا وطعنا حتى أفنوهم أو كادوا ودخلوا على مشنجر فى سرادقه فذبحوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح الشاة ونهبوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شابا جميلا حسن الشمائل عاقلا ذكيا مولعا بالمعالى وقتلوا كذلك ارندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجرى بين الخيام جريان المياه وأخذوا جميع ماوجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب للحمل ورجعوا ظافرين غانمين

وعاد من بقى من العسكر الى مصوع فى أسوء حال من العرى والجوع وكلهم مثخن

بالجراح

بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر الى الخديو فهاله وأزعجه ❊ قال بعض الكتاب وأقسم بالايمان الغلاظ أن لاترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخ نار ورسم الى راتب باشا أحد مقدمى العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند واعداد المعدات وشدد وبالغ فى ذلك وكان قد عاد فى هذه الاثناء من الديار الاوربا وية الامير حسن ثالث أولاد الخديو وقد تعلم الفنون الحربية وخدم فى عسكر الانجليز وعسكر الالمان حينا

فلما كان شوال من سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف رسم الخديو بخروج العساكر والاجناد وتسييرهم الى مصوع فسار أولا عثمان رفقى باشا أحد مقدمى العسكر من الشراكسة على رأس آلايين الى مصوع ونزل بها أياما ثم لحقهم الجيش كله فى ذى القعدة من السنة فى ثالث عشره ولبثوا بها جميعا زهاء أربعين يوما حتى تكامل وصول مؤنتهم ودواب حملهم وذخيرتهم وآلات حربهم ووصل أيضا الامير حسن ومن معه من أركان حربه ومقدمهم الجنرال لورنج الامريكانى المعروف بأبى ذراع لبتر ذراعه الايسر ثم بعد أن رتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للزحف سار فى مقدمتهم عثمان رفقى باشا بمن معه من العسكر الى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهى تبعد مسيرة يوم للمجد المسافر ويومين للراكب البطىء وسار بقية الجيش بسلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع فى يوم الاثنين سابع عشرى ذى الحجة من السنة فلم تغرب عليهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا على بلدة (ينعض) فباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن مايكون من الهيئة والترتيب فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أحمالهم يوم الاربعاء وباتوا ليلة الخميس وفى الصباح الذى هو أول المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين ساروا الى (عدرسه) فنزلوا عليها فى غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحوا يريدون بلدة (قيح خور) التى يقال لها أيضا (قياخور) وباتوا بها ثم أصبحوا سائرين نحو (قرع) فبلغوها فى ضحوة يوم السبت ثالث المحرم المذكور وقياخور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبشان فرسم السردار الى أركان حربه بتهيئة مكان لنزول العسكر فأنزلوهم غربى البلد ودقوا خيامهم ورتبوا دوابهم وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشؤا قلعة على ذلك الاستحكام على أحسن ما يكون من الوضع والنظام وخندقوا حولها خندقا على أعظم ما يكون من العمق وسموا هذه القلعة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع الى قياخور وأزالوا مايتخلله من العقبات وحفروا بعض الآبار للارتواء وانبث جماعة منهم بين الحبشان لشراء الشعير لمؤنة الدواب والدقيق والعسل فاشتروا من ذلك شيأ كثيرا وآخرون لاستراق سمع الاخبار عن النجاشى يوحنا ومن معه من العساكر والاجناد وقد سار عن (عدوة) تخت مملكته يريد الالتقاء بالعساكر المصرية والقتال معهم وما زال ينتقل بخيله ورجله من بلد الى بلد حتى وصل الى ناحيتين يقال لاحداهما (دنبه) والاخرى (لمزه) وهما يبعدان عن المعسكر المصرى زهاء ست ساعات فتربص هنالك ❊ وجعل الامير حسن يراسل كبار

الحبشان وأمراءهم ويستميلهم الى طاعة أبيه ويمنيهم بالاماني الكثيرة فكان أول من مال
الى ذلك (لج برو) عظيم (عد شاله) فحضر الى معسكر المصريين فى نفر من الجند والاتباع
فأكرم الامير حسن وفادته وأهداه شيأ من الملابس وشقق الحرير وهذا الرجل من أهل العصاوة
وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية فى واقعة ارندروب وجاءهم أيضا (دجاج) ولد
تكاثيل صاحب الحاسيين فى جيش عظيم وطبول ورايات فلاقاه الامير حسن ومقدمو عسكره
وأحسنوا لقاءه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلان الكشميرية وشقق الحرير والمقصبات
وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصرى يوما وليلة وأطلقوا
لقدومه بعض المدافع وحادثه الامير حسن فيما هم بصدده * وولد تكاثيل هذا من دهاة
الحبشان وأصحاب الكلمة فيهم واجتمع حول المعسكر المصرى بذلك الصقع الكثير من السوقة
وأصحاب السلع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعير والسمن والعسل واللبن والدجاج
والبقر والخيول والبغال والضأن والمعز فكانوا يبيعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا
مدة لبثهم بغير قتال شديدى التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الشراكسة شديدى
القسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدة على أصغر
الصغائر * قالوا لكى لا ينفشلوا * ويلقونهم فى أضيق الحبوس عند أقل حادثة فكانت أيام
هذه الحلة على صغار الضباط المصريين من أتعس الايام وأشدها ويلا * وكانت عيون الامير
حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشى وعسكره فى كل يوم أشكالا حتى أتت فأخبرت
بان النجاشى على أهبة الزحف بخيله ورجله فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى
سنة ثلاث وتسعين فنادى راتب باشا فى العسكر المصرى بالتأهب والاستعداد لملاقاة العدو
فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشى عن دنبه ولزه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه
ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين
مشاة وفرسان وجماعة من أصحاب المكاحل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ
منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما
على قدم وساق واشتد الطعن والنزال وحمى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع
الدخان الى عنان السماء فاظلم الجو والتقت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف
فأظهر الحبشان القهقرى والرجوع فتبعهم العسكر المصرى ومازالوا يتقهقرون والمصريون
من خلفهم يصلونهم نارا حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خورا هنالك وطلعوا على
قطعة من اليبس توصل الى خور ثان وكلاهما يجرى فيه الماء والحبشان من أمامهم يثنا ويشونهم
القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة الا وقد أخذ الحبشان المصريين
من خلفهم يعملون فى أقفيتهم السيوف والحراب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالطعن
والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة للقتال بغير احتياط ولا مدد وربما
كان ذلك لحكمة لا يعلمها الا العارفون بفنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان

الحبشان

الحبشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الامير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند الغور الاول فى جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من حاشيته والعدوّ فى أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصرى أىّ انفشال واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا جماعة بطلقون المدافع على من كانوا خارج الحصن و والوا الرمى بأشد ما يكون فكانت قنابل المدافع تكنس الاجسام من العسكريين كنسا بل فعلت بالمصريين فعلا تنفطر له الاكباد وتتمزق من هوله القلوب وما زال الرمى متواصلا الى قرب الزوال فتفرق من بقى من الحبشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمى القنابل وقد امتلأ ذلك الوادى بالجثث والجرحى من العسكريين وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره وكان المنظر مزعجا للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا على ذلك أياما

ووقع فى أسر الحبشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب * قال أحمد رفعت بيك مقدم كتاب هذه الحملة فى رسالته التى ألفها باسم * جبر الكسر فى الخلاص من الاسر * وقد كان وقع فى أسر الحبشان فى هذه الواقعة ووفقه الله تعالى الى عقد رباط الصلح مع النجاشى ما نصه * وقد حضر الينا والحرب قائمة ضابطان من ضوارينا يستطلعان حال القلعة اذ ربما يكون قد دهمتها جنود الاعداء وعلمنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كان لى فى القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندى أحد أصحابنا بقصد التوجه به الى مخدومه لتوصيل ماء اليه فناديت الخادم أن ارجع فلم يرجع وكان قصدى بذلك أن يوجد جوادى بجانبى حتى اذا فاجأتنا الاعداء بالهجوم واضطرتنا الحال الى مغادرة القلعة ألفيت الجواد بجانبى ونجوت به مع الناجين * قال ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع لى يستحضره ويحجزه فلم يعد هو أيضا فاشتد حنقى وزاد غيظى وخرجت من القلعة ماشيا ومعى قرينتة وجحضانة بقصد مايكنى سعيا على الحصول على جوادى وطمعا فى مشاهدة الحرب ومشارفة القتال وقد ظننت انه اذا حصلت هزيمة لعسكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتياط بالمدد كما شاهدت ذلك فى محاربة كريد فأكون مابين ذلك قد تمكنت من العود الى القلعة غيرأن الامر كان بخلاف ذلك اذ لم يكن لعساكرنا مدد ولا احتياط على حسب القواعد الحربية وماكنت أظن هذا الامر ولا أتخيل حصوله * ولما أخذت فى السير وبعدت عن القلعة بمسافة ألف وخمسمائة متر تقريبا وجدت حسن أفندى أحد الكاتب معى حاضرا خلق على قدميه ثم رأيت حضرة محمد على بيك الحكيم راكبا بعير ومعه خادمه وشاهدت خادم محمد بيك جبر الميرالاى راكبا على بعير محمل ماء لتوصيله الى مخدومه فأمر محمد على بيك الحكيم خادم محمد بيك جبر بالنزول عن البعير كى أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القرينتة للخادم

المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القرينة للخادم من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا برهة لم نشعر الا والعجاج الثائر يغشانا شيأ فشيأ وقد رأيت وقتئذ شابين من عساكرنا راجعين بهرولة فسألتهما عن السبب فقالا ان عساكرنا انهزموا ولما أردت الرجوع بالجبير قصر من الاسعاف ثم حرن وعمد الى التقدم مجفلا عن الرجوع فلم أجد سبيلا سوى الترجل فنزلت عنه ولسان حالى يقول

أنل قدمى ظهر الارض انى * رأيت الارض أثبت منك ظهرا

وقصدت العود ماشيا ولكن هيهات اذ بعدت المسافة ولم يمكنى الجرى قال أما الكاتب فاندهش واندهل وقال هات يدك ثم افترق منى الى الجبل وقد رأيت محمد على بيك الحكيم راجعا بجواده وما لبثنا حتى وافتنا خيالة العدو فى الحال تؤم القلعة بالهجوم فأحاطت بنا احاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين القلعة سدا محكما ثم أقعدنى أحد فرسان العدو فعمد الشابان المنهزمان الى ضربه فقال لهما أمان فكفا أيديهما عنه فعاد الى وجذبنى من يدى فتخلصت منه بالعنف وأنا من السلاح أعزل فصوب نحوى بندقيته ولم يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه اياها من باب الارهاب ثم عمد الى سيفه وضربنى به ضربة جاءت خلف أذنى اليسرى فأسالت الدم فى الحال غير أنى لم أشعر بها الا عند نزول الدم على ملابسى لما اعترانى من الدهش والاندهال وشتات الذهن وتفرق البال ثم شفع الضربة الاولى بثانية صادفتنى خلف العنق وكانت خفيفة الوطأة هينة التأثير قائلا * كيدن * ومعناها بالحبشية اذهب وهنا انجلت حكمة سبق تسليمى القرينة للخادم المتقدم ذكره اذ لو كنت حاملا لبعض السلاح لظننى الفارس محاربا وابتدرنى بالقتال والكفاح * قال ولما كانت خيالتنا عائدة بالهجوم على القلعة طار عنى الفارس المذكور خائفا وجلا فاختفيت فى شجر المرسين فلما سلم منهم عاد الى فأدركنى بمنى وعتبنى وقهرنى على القيام وكانت النيران فى أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على العدو صدا لهجماته وردا لغاراته فأخذ العدو فى القهقرى ونزل حينئذ الفارس الذى أمسك بى عن جواده اتقاء الاصابة بالمقذوفات النارية راجعا الى الوراء مختفيا فى سيره مشيرا الىّ بالاقتداء به حتى أسلم من الاصابة وكنت أشاهد بعض عساكر العدو وبعض عساكرنا الذين اختلطوا بهم فى ملتحم الهجوم ومزدحم الرجعى يصابون بالرصاص فيخرون على الغبراء مضرجين بالدماء وقد أفضت بنا القهقرى الى نفق بالجبل فأوينا اليه وتوارينا به وكانت حينئذ تمر على رؤسنا مقذوفات المدافع فتتصدم بالجبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجل أخذ الآسر المذكور يمشى بى على مهل حتى وصلنا الى نهير فاغترف لى منه ما بيده وسقانى وبعد أن شربت شرع فى سلب ما علىّ من الثياب فأخذ منى أولا البالطو وكان ملطخا بالدم وعلقه بعنق جواده وبعد ذلك سرنا حتى جئنا الى ميدان واسع وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة نهارا تقريبا فرأيت هنالك جموعا شتى ولم يمكنى أن أتبين فى الحال هذا الميدان الذى

أعهده من قبل وذلك بسبب ما أصابنى من الدهشة والفرق ووجدت هنالك جملة أسارى
من عساكرنا وقد سأل الآسر المذكور أحدهم عما اذا كنت أميرا من الامراء أوغير ذلك
فأخبره وكان لايعرف أننى منهم مستدلا على ذلك بزيى وهيئتى ثم رمق الآسر ساعتى
وسلسلتها وأراد سلبهما فأخرجت ختمى من السلسلة بحيث لايرانى وأخفيته فى جيب البنطلون
لتعلق به اذ هو عندى من منذ ثلاث وعشرين سنة فأخذ منى الساعة والسلسلة
وعلقهما بعنقه وصار يدور حولى راكبا ويقول كلاما لم أفهمه قيل لى فيما بعد انه عبارة عن
تزغه بشجاعته وذكر حسبه ونسبه واتيانه بأسير وبعد ذلك وصل بى الى محل فى هذا الميدان
وأخذ يفتش على زملائه فلم يجد منهم أحدا وكان ذلك وقت الغروب وقد عرفت هذا
الميدان وهو المكان شرق (قدرع) الذى كنا اتخذناه معسكرا لنا فى أول الامر اذ وجدت
فى المكان الذى كنت فيه قطع ورق مما كنت أكتب فيه بختمى فقلت سبحان من أحلنى بهذا
المكان أسيرا وقد كنت فيه البارحة أميرا ولعلى منيت بالاسر لحكمة مستورة علمها عند
الله الى أن قال وفى صباح يوم الخميس ثالث عشر صفر رأيت عساكر العدو يحتشدون
زمرا وأفواجا على هيئة القولات واحتفزوا التوجه الى القلعة ثم ساروا ولم يخلفوا فى
معسكرهم سوى الاسراء والنساء والصبيان وقد أوثقوا الاسراء وبعد برهة سمعنا صوت
البنادق والمدافع منبئة بانتشاب المحاربة واشتداد المضاربة وحمى الوطيس بين الفريقين
فانطلقت النساء الموجودات بالمعسكر عند اذ يصحن قائلات أبيت أبيت وهى كلمة تضرع
ومعناه ياسيدى وكن يسجدن على الارض ويأخذن التراب ويذرونه على رؤسهن
وهذا بجمعه طلبا للنصر والتماسا للظفر وبعد ساعتين تقريبا عاد قوشو آسرى وعلمت من
حاله انفشال أمرهم وخيبة أمالهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالتعاقب الى آخر النهار
وسيماهم الحزن والاكدار الى أن قال ولم يمكن العدو أن يتغلب على الاستحكام فى محاربة
يوم الخميس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوبا مع كونه كرر الهجوم على الاستحكام
دفعات متعددة من أول النهار الى آخره حالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة
ونصف تقريبا من العساكر فلو أن السبع أورطات يعنى كامل العساكر التى ساقوها
لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت به ولحقها الثلاث أورطات التى كانت فى
قياخور لتكوّن من ذلك قوة عظيمة فى الاستحكام ولا نهزم جيش العدو شر هزيمة
ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا الى النقطة التى أخذها العدو
معسكرا ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيا
لكسره وتبديد جموعه قال وحصول الامر بخلاف ذلك نشأ من تفرق الكلمة
وتباين الآراء لان جناب السردار رأى أن تتحصن العساكر فى الاستحكام وتلحق بها
الاورطات التى كانت بقياخور ورأى الغير ولعله الامير حسن خروج العساكر لمقابلة

العدو وبقاء جزء منه بالقلعة مع عدم اخلاء قباخور من العساكر خشية انقطاع خط المواصلات ✽ الى أن قال ✽ ولكن اذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فان صاحب ذلك الرأى يريد (الاميرحسن) لم يراع فيه التدبير اللازم حتى اننا ما كنا نعلم بسبب عدم الاستكشاف أن كانت مقذوفات مدافعنا تصل الى معسكر العدو أم لا وما علمنا وصولها الا بعد أن غادر جيش العدو هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها الى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعى ولا يصح ايجاد العساكر فى مكان على يمينه جبل يمكن صعود العدو فيه واشرافه عليهم وحول أطرافه خور يحيط به يمنع الرجعة فانه لما اصطفت عساكرنا فى ذلك المكان وأقبل عليهم جيش العدو رموه بمقذوفات المدافع والبنادق فما وسعه الا الهبوط الى الخور والسير منه بحيث لم تره عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه الى ذروة الجبل فتسلط على يمين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا الى الرجعى منعه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافعنا بحيواناته وانكبت جملة من عساكرنا فيه على بعضهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهزيمة ووقوع فوج من عساكرنا فى أسر العدو اه

ولما لم تتمكن الحبشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فدفنوهم ونقلوا جرحاهم ثم دقت طبولهم بالرحيل فانقلبوا فى الحال على من عندهم من الاسرى فقتلوا منهم خنقا وذبحا وأفحشوا فى ذلك جدا ثم ساروا أفواجا وهم فى عدة كثيرة بكراعهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (القلبه) وعسكروا بها فلما كان يوم السبت أرسل الملك فى طلب أحمد بيك رفعت وقد أخذ منه الجهد والتعب وبلبلة البال مأخذا عظيما فقام وسار مع رسول الملك وصحبتهما الآسر لأحمد بيك وهما يقولان له أمان أمان ويفهمانه أنه ذاهب الى حيث الجبانى يكلمه فى شئ من أمر الصلح والكف عن الحرب ✽ قال أحمد بيك فلما وصلنا الى ساحة الملك وجدت الآسر سعيد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السعود له واذا هى كنيسة الملك وهى مصنوعة من جوخ أحمر أما خيمته التى يقيم فيها فمن قماش أبيض قال وبعد برهة طلبت اليه وكان أول من قابلنى على باب خيمته شخص يعرف قليلا من العربية وحينئذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحقير ولم يبق لديه الا عمه المدعو رأس سرايه فقال لى ذلك الشخص الذى قابلنى أأنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شئ فقلت نعم ولما دخلت فى الخيمة ألفيت الملك متلثما حتى لا يمكننى من معرفة صورته وقيل لى فيما بعد ان من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الاجنبى المعادى خوفا من أن يعرفه فيفتك به عند سنوح الفرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمرة عارى الرأس مضفور الشعر مستطيل الوجه عسلى

العينين

العينين ضخم الانف بارز الاسنان حافى الاقدام نظيف الملابس وعليه منها جلابية ولباس وفوطة متشح بها وكان جالسا على سرير عضر بب وعلى يمينه مخدة وعلى يساره أخرى وهما كبيرتا الجرم من نوع الشامة المستعملة قديما وأمامه على الارض كلبان وقد وقف بجانبه الشخص الذى دخل معى وسألنى عن وظيفتى ثانيا وكان اذ ذاك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استحضر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصار يترجم بينى وبينه

فسألنى الملك بواسطة ترجمانه قائلا ما سبب حضوركم وما القصد منه قلت ان القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والالفة بين الفريقين ولما أرسل اليكم أرندروب بيك أحد النواب المدعو محمد عبد الرحيم للمفاوضة فى هذا الصدد سجنتموه على أن الرسول لايسجن ولا يهان فقال نحن لم نأمر بسجنه الا لكونه قال ان الخديو يريد الاستيلاء على ما بين مصوع الى المأرب ومن العادة أن من يريد المفاوضة فى هذه المسائل لاياتى ومعه العساكر فأرندروب بيك حضر الى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلاينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فان كان قال ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيك بعساكر فمن المعلوم أن أراضى الحبشة عبارة عن وديان ضيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجول فيها بالانفراد فالعساكر التى أرسلت مع أرندروب بيك لم تكن الا للمحافظة عليه فى أثناء الطريق واتصال خط المواصلة والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقى العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر اليه والى من معه حتى لا يكلفوا جناب الملك بشئ ما فقال ولو أن كلامك من هذا القبيل غير أنى عارف ببواطن الامور وهل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم ولكن أخذه الاميرفأمر الملك حينئذ باحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندى من طلائع السرور وتباشير الحبور الى أن قال * ولما خرجت من عند الملك أجلسونى فى خيمة معدة لحفظ الاسلحة الخاصة به وهى عبارة عن درق وحراب وبعض أمتعة فطلبت قرطاسا وقلما ودواة فاحضروا لى ذلك مع كاتب يدعى مسق من أقباط مصر يشبه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافى الاقدام وفى خلال ذلك كنت قعدت بمعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفنى أن اسمه دسته وطلب منى الوعد بأن لاأنساه من البر والاحسان اذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لى من باب الاكرام بعضا من العسلية فتناولته مطمئنا فرحا وقلت لمن فى الخيمة (تحلسوا) ومعناها باللغة الحبشية اخرجوا وقصدى بذلك اخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تعجبا من اخراجهم مع كونهم هم أصحاب المحل ثم أخذت القرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك الى جناب السردار حسن باشا وذكرت فيه



انى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الانفم ولكن حال دون هذه الامنيـة تمويهات مشنجر باشا محافظ مصوع وبشه الا كاذيب حتى بقى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لايرضى الله ولا الناس ولم ندر ماهو المقصد والمرام من حضوركم بالجنود الى بلادنا فالاولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الامر الذى نحن فيه الى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولاتبديل ولامحو ولااثبات ثم عرض على الملك فختمه وحررت منى كتابا تركى العبارة الى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القبيل مع الاختصار وختمته بملتفات نظره الى ضرورة حسم هذه المشكلة بالحسنى

وقامت رسل النجاشى بالكتاب الى المعسكر المصرى وسلموه الى الامير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعدة يحسن الوقوف عندها فقالوا انما نحن أتينا نحمل خطاب الملك لا أن نناجيكم فى أمر الصلح فرسم الامير حسن بأن يكتبوا الى النجاشى بأن يرسل اليهم رجلا مفوضا من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أياما كثيرة وسار فى عسكره عن (أقلبه) الى ناحية دواريه احدى بلاد الحماسين وهى التى وصلت اليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبلاد الحبشة وتعطلت المخابرة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك الى الامير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الامير حسن ما فى هذا الجواب سأل الرسول أن يبدى رأيه فى أمر الصلح فقال لم يأذن لى مولاى بالكلام فى شئ من ذلك فكبر الامر على الامير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد فجاءته طائفة من الجند فأمد بها المرابطين فى قياخور ولبث ينتظر ما سيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بعسر يحملها السلك البرقى وكذلك كتب أبيه وكلها فى معنى ماهم فيه *

واشتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميل كبارهم الى اعادة الكرة على العسكر المصرى مازاده قلقا وانزعاجا فسير الى راتب باشا سرا يسأله تعجيل طلب الصلح وتلافى الخطب قبل استفحاله وعدم التطوح الى اعادة الحرب التى لا تؤمن عاقبتها على حالة أن النجاشى موصوف بالحنان والرفق كارها لاراقة الدماء راغبا فى المسالمة والتودد فأجابه راتب باشا الى ذلك وحثه على عقد رباط الصلح والاسراع فى عمله قبل دخول الشتاء واشتداده على العسكر المصرى ومناه بالامانى الكثيرة ان هو عجل فى العمل فتقدم أحمد رفعت بيك الى النجاشى فى طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة للطرفين وما زال به حتى ألانه واستماله وهون عليه الامر فرسم له النجاشى بطلب أحد زعماء العسكر المصرى يكلمه فى شئ من ذلك فسير أحمد رفعت بيك الى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهم وضمن هو سلامته وعدم مس المبعوث بضرر لم

تكن

تكن الا أيام حتى جاءت الاخبار بقرب وصول على أفندى الروبى أحمد مقدمى الفرسان المصريين وأحمد أفندى عبد الغفار وبوز باشى من الاقباط مبعوثين لعقد شروط الصلح والكف عن القتال فرسم النجاشى بالاستعداد والتأهب فما لهم نخرج لقائهم زهاء الالفين من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللغط فى معسكرهم بقرب وصول المبعوثين فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشى ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشى مع بعض الامراء الذين هم فى ركاب الملك فأحسن النجاشى لقاءهم ورحب بهم كثيرا ورسم بنزولهم على الرحب والسعة فأنزلوهم فى خيمة أعدت لهم وقدموا لهم شيأ من المأكل والمشرب ولبثوا يومين يتكلمون فى قاعدة الصلح ثم اتفقوا على أن يرسل الملك رسولا من قبله الى معسكر المصريين فسير معهم رجلا اسمه (ليكا منكاس ورق) وهو من قرناء الملك فغاب ليكامنكاس ورق أياما وعاد ومعه شئ من الهدايا والتحف ومبعوثو الامير حسن المفوضون بعقد رباط الصلح فتناجوا فى ذلك أياما فكان ماطلبه المصريون من الحبشان رد سائر المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفتح أبواب التجارة مابين أملاك مصر والحبشة فكره النجاشى منهم ذلك وأنكره وقال لاسبيل الى رد شئ من الاسلحة البتة اللهم الا اذا كان ماقدره خمسمائة بندقية لاغير فألح رسل الامير حسن فى الطلب وجعلوا يهونون على النجاشى الامر فأخذته ثورة الغضب وقال لاسبيل الى رد شئ وقد أخذتم من بلادنا ما نهبت ومنوع بغير مسوغ شرعى وممنوع هى مينا الديار الحبشية ومفتاحها البحرى فلا سبيل قط الى شئ مما تطلبون وما كنا لنتوقع من تحديكم أن يناوينا الشر على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعاله هذه ما هدرتموه من دم أولئك الابرياء فالله عليكم شهيد ثم أعرض عن رسل الامير فأخرجوهم عنه وباتوا وأصبحوا وهم محل الاعراض والازدراء بعد الذى لقوه من التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن باعراض النجاشى عنهم وعدم الالتفات الى شئ مما طلبوه وأن النجاشى لايسلم فى شئ من السلاح والمتاع ولا رد شئ مما غنمته عساكره البتة سوى ارجاع الاسرى والتعاقد على المحبة والولاء وفتح طريق التجارة بين المملكتين فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع والقبول فرسم النجاشى باحصاء الاسرى وردهم جميعا فنادى مناديه فى العسكر بذلك فاجتمع الاسرى حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان بينهم بيكباشى أمريكى اسمه دو رهاس فالتفت اليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه يحييهم تحية الوداع فخرجوا فسار أمامهم أصحاب الطبول والزمور يضربون بطبولهم و يعزفون بزاميرهم والحبشان من نساء ورجال على جانبى الطريق حتى دخلوا الى المعسكر المصرى سالمين

وعاد الامير حسن بمن بقى من حاشيته وبطانته و بعض مقدمى العساكر المصرية من جماعة الشراكسة الى القاهرة ثم لحقهم طائفة من العسكر وبقيت طائفة أخرى بعضها بقياخور و بعضها بعد رسة وبعزه وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا الى القاهرة



وحل عليهم جماعة الباشبوزق والعربان وبقى راتب باشا معهم حتى يأتيه مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه فى احدى السفن التجارية وأنزلوا مابقى من المدافع والاسلحة والمهمات فى ثلاث سفن كبيرة وبينما هى تسير قاصدة السويس اصطدمت احداها المسماة دنقله بصخر فى الماء فغرقت بما عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر الى مدينة السويس فسيروهم على الأثر الى رأس الوادى فأقاموا بها أياما ثم سرحوهم فعادوا الى أوطانهم فكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتى النصر لمن يشاء من عباده

وكان الخديو منذ ولايته ميالا الى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الامم المتمدنة والدول الكبرى فى الترتيب والنظام وتنسيق المبانى وتوسيع الطرق وغرس الاشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ فى هذا الامر ورتب له ديوانا مخصوصا وقيد به جماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة فى توسيع الطرق وانشاء المبانى وعمل المراسح ومحال اللعب العمومية وغرس الاشجار الكبيرة وانشاء الحدائق والمنتزهات البديعة وانارة الشوارع بالانوار الغازية على ترتيب غريب وفرشوا الارض بالحصا الأحمر وكسوها بالرمل الاصفر وهدموا الكثير من الدور والوكائل القديمة والجوامع والاضرحة والتكايا توسيعا للطرقات وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيأ كثيرا فكانت هذه الاعمال وغيرها مما سيتلى عليك بعضه سببا فى اختلال الخزينة ونضوب الايراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار الى الاستدانة من أصحاب الاموال بالربا الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الاولى التى مدت اليها يدها بعد ولاية اسمعيل باشا ولم تكن استدانت شيأ من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبتاع بها سهاما من شركة خليج السويس فكثرت من هذا الحين معاملة أصحاب الاموال الخزينة وانبسطت أيديهم فأعطوا ومطلوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقربوا وتلطفوا فى المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضا باسم أملاكه وزروعاته الخصوصية فأعطوه فاستزاد فزادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكك الحديد الزراعية والابنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمنتزهات الغريبة وبالغ فى أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوج أولاده وبناته وعمل لهم الافراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والتحف الجليلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة وواحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة المتفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمبانى الفاخرة فى باب اللوق وخطة الاسماعيلية والقبة والجيزة وبولاق التكرور وزوج الكثير من جواريه وسراريه الى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبنى لهن الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر

الاوانى

الأوانى ورتب لهن الجماكى والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف

وكان اذا نضب الايراد وأمحلت الخزينة وعز الدرهم عمد الى الاستدانة وضرب المغارم وتكثير المكوس وفرض الفرض على البلاد شرقا وغربا واعادة أشكال المكوس الغريبة التى كانت على عهد ملوك دولة الشرا كسة الثانية وما زال على هذه الحال من السرف والارغال وأصحاب الاموال تطاوله وهو يمنيهم بالأمانى البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وجباة الاموال تجوب البلاد شرقا وغربا وأصحاب الاموال من اليهود والروم تتبعهم فاذا تعذر على الممول سد مطالب أصحاب الجباية أخذوا ماوجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرابين بأبخس الاثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم الويل واشتد الكرب واستفحل الخطب وعز الخلاص * ولم تكن هذه المحن لتقعد الخديوى عن اعطاء نفسه كل مااشتهاه اذ سار فى سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل ما كان بينهما من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لقاءه وبالغ فى اكرامه فأقام فى قسطنطينية أشهرا أنفق فيها من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرب من صدر الدولة وكبار السلطنة وأزال ماكان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولائم الكثيرة وأهدى لهم الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم اليه من عاصمة الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المرابى الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان وعشرون ألف ألف من الجنيهات أى ثمانية وعشرون مليونا ذهبا بحجة وفاء جميع ماعلى الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى فى شؤن البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا القرض أن لايدفع ملتزمه للخزينة معجلا سوى ستة آلاف ألف نقدا وأن يعطى بالباقى أوراقا * هى المعروفة فى عرف أصحاب الاموال بالسندات الاسمية * فقام أوبنهايم بهذا الشرط ووفى الى خزينة الخديوى هذا المال فى آجاله فلم يهتم له الخديوى وتقدم الى أمير المؤمنين فى قبول ثلاثة آلاف ألف منه اعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان ذلك ورسم بحمل المال الى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوى العود الى القاهرة وفى خزينته شئ مما بقى من ذلك المال فعمد الى شراء الجوارى الحسان والجواهر الثمينة والاعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان ولبة لم يسبق لها مثال جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الالعاب النارية والانوار والفرش والمأكول والمشروب مالا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولمت كذلك والدته لوالدة السلطان ولبمة أخرى وقدمت لها من التحاف والاعلاق الثمينة مالا يمكن وصفه قال بعض كتاب الاخبار وتحقق لهما فى تلك الليلة أنهما من أقرباء بعضهما تجتمعان فى جد واحد ففرحتا بذلك فرحا عظيما وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما فى كل يوم رسل التحية والتسليم ولبث الخديوى

بعد ذلك أياما كلها أفراح ومواسم ثم تقدم الى السلطان فى أن يسرحه بالانصراف فسرحه فوصل الاسكندرية فى أوائل ربيع الثانى من السنة فزينت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله اليها ودقت البشائر وزاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورود فرمان السلطان بتأييد سائر الفرمانات السابقة مع اضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لرتبة الخديوية اليه وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ولم تمض الا أيام حتى قرئ الفرمان فى محفل حافل بديوان السلطان الملك الغورى بقلعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والامراء والكبراء والمشايخ والعلماء فكان ماق الفرمان المذكور بعد الديباجة المعلومة مانصه

قد نظرنا بعين الاهتمام الى طلبك باصدار خط سلطانى يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح المرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الارثية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ فى المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها عدا ما يتضمنه مما سيأتى بعد ويكون دائما نافذا مرعى الاجراء

مطلب فرمان السلطان القاضى بنقل وراثة الخديوية من عقب محمد على باشا الى ذرية اسمعيل باشا

ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة فى فرماننا الصادر ثانى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوئ كرسيها الى كبير أبنائه ومن هذا الى أكبر أبنائه أيضا وهلم جرا علما بان ذلك أدنى الى المصلحة وأرشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطافى الذى صرت له أهلا بحسن سعيك واستقا منك واجتهادك وأمانتك وانباتا لذلك أجعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده فاذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لاكبر اخوته أو لاكبر بنى أخيه الاكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغى أن تكون الوصاية فى حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية

اذا توفى الخديوى وكان كبير ولده قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة وأما اذا كان الخديوى المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفيتها وذوى ادارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الأوصياء يقبضون اذ ذاك على أزمة الاعمال عقب وفاة الخديوى ثم ينهون ذلك الى الباب ليثبتهم فى مناصبهم ولكن اذا توفى الخديوى بغير وصية وكان ابنه قاصرا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش الاقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون الخديوى وصيا باجماع الآراء لا بالأغلبية فاذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية

لارفعهما

لأرفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعا أمور الخديوية ويعرضون بذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما أنه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصاية قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أى فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لا تغير فى الصورة الثانية وأما اذا توفى الوصى أوأحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول أحد أعضاء المجلس وبدل الثانى أحد ذوات الحكومة وبمجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن ادارة أى مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها مالا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والمواقع وأمزجة السكان وطباعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أومن قبل الحكومة مع الاجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضا الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الاجنبية فى أمور المسالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الاجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للاخلال بمعاهدات الدول السياسية

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الامور المالية فقد أعطيت له الرخصة فى عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق وهو أهم الامور وأحوجها الى العناية من أقدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيقها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أوتقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاى والملكية الى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كالاعلام التى لعساكرنا



السلطانية بلا فرق ولا تمييز ولا يجوز للخديوى مصر أن ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففى استطاعته أن ينشئها متى شاء

ولاجل اعلان الاحكام السابق بيانها وتأييدها قد أصدرنا اليكم هذا الفرمان الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأعطى لكم متمما ومعدلا وشارحا للخطوط الشريفة والاوامر المنيفة الصادرة الى هذا التاريخ سواء كانت فى وراثة الحكومة المصرية وفى كيفية الوصاية أو فى ادارة الامور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط أن تكون أحكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الاجراء على ممر الازمان قائمة مقام أحكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته ارادتنا السلطانية فينبغى أن تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة الى تنظيم الادارة على محور الاستقامة والى الاخذ بأسباب وقاية الرعية واصلاح شؤونها وتأييد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغيرة والاستقامة وحسن الاخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا أحكام الشروط الواردة فى هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على الديار المصرية سنويا فى أوقاتها المعينة الى خزينتنا العامرة السلطانية على القوانين والقواعد المرعية انتهى بنصه

وظل الخديوى سائرا على ما يهواه من السرف وتمهيد العقبات أمام أصحاب الاموال حتى تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأثقلوهم بالديون التى لا خلاص لهم منها ونال أموال قرض الثمانى وعشرين ألف ألف ما نال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة فى عرفهم بالديون السائرة الى حد لا يمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الايراد والخديوى مع ذلك لا ينكف عن انشاء المبانى الواسعة والقصور المشيدة والحدائق الناضرة والتغالى فى أسباب الزينة والترف والاتيان بعجائب المقتنيات من بلاد الهند والصين غير مبال بما وراء هذا كله * وكان المتولى النظر على الخزينة فى هذا الحين المشير اسمعيل صديق باشا فاعمل الفكرة فى رأب هذه الصدوع فلم يكن فى الامكان اصلاح ما كان واشتدت الأزمة واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجماكى والمرتبات والعلوفات ولا سيما جماكى الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاحموا على أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير اسمعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأى فعمد الى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخلطون ويخبطون ويمنون غيرهم بالامانى الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكمش أصحاب الاموال وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم اليها واشتد الطلب على المشير اسمعيل صديق باشا وقد سدت فى وجهه أبواب الحيل ولج الخديوى باصلاح الحال تعاميا وتغريرا ورسم ببيع سندات خليج السويس التى كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم الخزينة كما تقدم القول وساومها مع قنصل جنرال الانجليز وكاشفه فى شرائها باسم دولته

مطلب بيع سندات خليج السويس الى دولة الانجليز

فأجابه الى ذلك وعجل بشرائها كى لايسبقه اليه ذلك قنصل جنرال الفرنسيس * فلما كان أوائل سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم الى المشير اسمعيل صديق باشا بتسليم تلك السندات الى المستر بورج قنصل الانجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخزينة وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار اليه فقضيت فى تسليمها أياما فكنت أرى من الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها الى عاصمة الانجليز على ظهر دارعة حربية استقدمت من الهند لهذا الغرض مالم يكن لأحد فى حساب وفرح كبار ساسة الانجليز بشراء تلك السندات فرحا عظيما وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى الامر ففصلوا وقاموا وألبسوه ثوب الاطراء والمدح وعدوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا يقرعون الخديوى ويندّدون به ويرمونه بالخيانة ويسمون المشير اسمعيل صديق باشا بالتغرير وظلوا على هذه الحال أياما كثيرة لم تكن لتهدأ فيها أيضا خواطر أصحاب الديون السائرة ولا اتفق لهم عزم عن الالحاح فى طلب الوفاء * واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الانجليز من التقريع والتنديد الى تحريض صاحب سياستهم على التداخل فى الامر والاخذ بناصر أصحاب الديون والبحث فى الاسباب المترتب عليها اختلال الخزينة ونضب الايرادات وأطالوا الكلام فى ذلك وبالغوا فلم يمض الا القليل حتى وردت الاخبار بقيام مبعوث من الانجليز يريد القاهرة اسمه المستر (كيف) وهو مزوّد بشئ من الاسرار فاهتم الخديوى لحضوره وأمر فأعدوا قصر النزهة من ضواحى القاهرة لنزوله ورتبوا له أصناف المأكول والمشروب وبعض الخدم والحشم فلما وصل الى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر فاستراح قليلا ثم زار الخديوى بمقره بعابدين فأحسن الخديوى لقاءه وأولم له فى تلك الليلة ثم لم يلبث أياما حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا ان كيف هذا جاء ومعه أوامر بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف المخبا من أعمال الخديوى والحامل له على السرف وانفاق الاموال الطائلة التى استدانها باسم الخزينة فى حين أن الخزينة لم تأخذ منها الا القليل وأما العلانية فهى البحث فى حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الايراد والمصرف منذ تولى الولاية والاسباب الحاملة الى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة عليها الى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير اسمعيل صديق باشا الى ذلك المبعوث فكنت أؤدى رسالة كل منهما الى صاحبه وأحمل الى (كيف) الصكوك والاوراق الديوانية التى كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلا عاقلا رزينا واسع المعرفة وكان اذا طلب شيأ من الصكوك أو الاوراق نقبه تنقيبا فلا يتركه حتى يأتى على مافيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر الى عاصمة الانجليز فظن الناس أنه عاد صفر اليدين والامر على غير ذلك فانه لم ينكف عن البحث والاستقصاء والاتيان على جميع الامور من أبوابها حتى عرف مالم يعرفه أقرب الناس من

مطلب
حضور كيف رسولا
من قبل الانجليز للبحث
والتنقيب عن الخزينة

مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألنى المشير اسمعيل صديق باشا عما استطلعته من أعمال كيف ونواياه مدة مكثى معه فأعلمته بما عرفته وكاشفته بما استكشفته فظن أن فى الخبر اطراء ومبالغة وان الرجل سار عنا وهو لايعرف شيأ من عوراتنا * وما جاء الخبر بوصوله الى عاصمة بلاده حتى أرسل كبير سياسة الانجليز الى الخديوى يستنهضه الى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الاحوال بسبب استبداد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتد على المشير اسمعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج معجلا ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الاخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزمة بأكثر مما كانت عليه وبقى الحال هكذا حينا وشاع الخبر بتكدر خاطر السلطان على الخديوى بسبب مايلاقيه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب صحف الاخبار الانجليزية فى ذلك وبالغوا وهولوا * فلما كان سابع عشرى ربيع الثانى سير السلطان سرياورانه الى مصر ومعه خط شريف باستحسان مساعى الخديوى لدى الذات الشاهانية ومحظوظيتها منها مع احالة فرضة زيلع وملحقاتها على الخديوية المصرية مقابلة خمسة عشر ألف جنيه عثمانى تضاف الى الخراج الذى يحمل الى الخزينة السلطانية فى كل سنة فبالغ الخديوى فى الاحتفال بقراءة هذا الخط وطير الخبر به الى الآفاق فاستعظم الانجليز هذا الامر وكبر عليهم جدا وتجرد كبارهم الى المقاومة وثار واكبار ساسة الفرنسيس فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لاصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيس ميالين الى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الانجليز الى ماطلبوا وكتبوا الى الخديوى يسألونه التعجيل فى فض هذه الأزمة بالتى هى أحسن ويحذرونه شر العاقبة فشاهم وبقى الحال هكذا أياما كثيرة

مطلب
حضور فرمان من السلطان باستحسان عمل الخديوى اسمعيل

وعاد أصحاب الديون الى الوقوف على باب المشير اسمعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشئ منه فلم يظفروا فعمدوا الى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الامر الى دولهم فظهرت لوائح الشدة وبانت دلائل الوحشة وجاء الخبر الى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيس والانجليز على تسيير رسولين الى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيس والانجليز وتحدث الناس فى هذا الامر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران الى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد ببركة الازبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى الا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لايكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وان جميع طلباتهما المتعلقة بمأموريتهما انما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الامر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الانجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسوى اسمه جوبير

مطلب
حضور جوشن الانجليزى وجوبير الفرنسيس لتحقيق ديون البلاد

وبالغ

وبالغ جوشن ورفيقه فى البحث والاستقصاء عن موارد الايراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصحص الحق وبان ولم يمض على ذلك الا القليل حتى رفعا الى الخديوى محضرا بما رأياه من أوجه الاصلاح وهى «اقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والآخر انجليزى وتقسيم أعمال الخزينة الى قسمين قسم للايراد ويرأسه الانجليزى وقسم للصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه الا الاذعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر الى القاهرة ذلك الذى تولى على الايراد واسمه المستر رومين وحضر أيضا الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزينة وأمرا ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذا ما فى يد المشير اسمعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة الا الاسم فقط ثم رفعا الى الخديوى محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك الى رجل من الانجليز يديرها على ما فيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى وثانيهم انجليزى وثالثهم مصرى يختصون باشغال السكك الحديدية غير تابعين الا الى جهة واحدة هى نظارة الاشغال العمومية فرأى الخديوى أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه ان تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الامر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الايراد من قبضته فلا يعود فى امكانه الحصول على شئ مما كان فعمد الى المراوغة والتطويل وسير الى جوشن ورفيقه يعلمهما بان مصلحة البلاد وعادات أهلها لاتجيز تسليم الامور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير اسمعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالمته وألح جوشن فى الطلب وطال الاخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد الخديوى واصراره على الاباءة تجرد للعداوة وأظهر ما كان يخفيه من الحقد فكان يدخل على الخديوى بغيره بلا تأدب ولا احتفال ويخاطبه بخمش القول ويتهدده بافشاء ما علمه من خفى سره » قال بعض الكتاب « وأرسل اليه يوما رقعة يقول فيها « لقد كنت أتمنى أن لاتعدو بى مأموريتى الى حد توجيه السؤال الى شخصك الكريم عن أمر يهم دولة الانجليز معرفته ولكنى أرى نفسى مع زميلى مضطرين الى سؤالك أين صرفت الاربعة عشر مليون جنيه الباقية من قرض الخزينة والايراد السنوى من عهد المرحوم محمد سعيد باشا الى هذا الحين » قال فلما اطلع الخديوى على هذا السؤال اضطرب وكبر عليه الامر فجعل يرعد ويزبد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع اليه رجال الدولة وأصحاب الحل والعقد من العاملين والمتقاعدين وبينهم ولده الامير حسين وهو يومئذ فى منصب تفتيش الاقاليم وشاورهم فى الامر فتكلموا فيه كثيرا ثم استقر رأيهم على تكليف المشير اسمعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشير بينهم فى تلك الليلة فكتب الخديوى الى جوشن بذلك واستدعى اليه المشير اسمعيل صديق باشا ورسم له بالجواب على سؤال جوشن فامتنع وقال لاجواب عندى البتة فشدد عليه وقال لابد من الجواب فقال ان كان ولا بد فلا جواب عندى سوى قول الحق والتزام جانب الصدق وهذه كتبك ومراسيمك تنبئك عما فعلته بتلك

الأموال وما بددته في الحل والترحال قال فاستعظم الخديوي هذا الكلام واضطرب منه أيّ اضطراب وراجع المشير فقال لاسبيل الى غير ذلك * وعاد رسول الخديوي ومعه جواب من جوشن يقول لاحاجة لنا البتة الى السؤال من اسمعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العهد ولانطلب الجواب الا من شخصك فجمع الخديوي اليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضر معهم في ذلك اليوم أيضا المشير اسمعيل صديق باشا وتناجوا في الامر طويلا ثم انفض اجتماعهم على مالم تصل الينا معرفته * فلما كانت الساعة الثالثة من ليلة الخميس حادي عشري شوال من السنة أي سنة ثلاث وتسعين حضر الى مقر الخديوي بعابدين أحد أتباع المشير اسمعيل صديق باشا ومعه مكاتبة برسم خيري باشا المهردار وسلمه اياها ففضها واذا هي خطاب الى شخص الخديوي غاية في الشدة وفي بيان ماأصاب خزينة البلاد من الاضمحلال وماحل بالرعية من الضنك وسوء الحال باسباب أفاعيل الخديوي وأنه هو بريء من كل تبعة مترتبة على كثرة الاستدانة والنفقة بغير حساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الامر لمن بيده سبحانه وتعالى تدبير سائر الامور فدخل خيري باشا على الخديوي وناوله الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح عليّ به الساعة فسار اليه خيري باشا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء اليه طونينو بيك أحد رجال التشريفات فامتنع أيضا فارسل اليه أحد نشأت بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء اليه خيري باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قاما معا وسارا الى مقر الخديوي بعابدين فلما دخل على الخديوي أحسن لقاه وبش في وجهه وعاتبه وتلطف في عتابه ثم مازحه وقضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشير اسمعيل صديق باشا من عنده في نحو الساعة الثالثة ليلا وفي ثاني يوم الجمعة صباحا جاءه رسول الخديوي يدعوه كالعادة فسار معه الى عابدين وصعد الى مقر الخديوي فلم يلبث الا قليلا حتى جاءت عربة الخديوي أمام سلم الديوان وحولها طوائف الحرس على عادتهم ثم انحدر الخديوي ومعه المشير اسمعيل صديق باشا وركبا معا فسارت العربة بهما في الساعة الرابعة نهارا من الطريق الموصل الى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى

وعقد الخديوي في تلك الليلة مجلسا بقصره بعابدين اجتمع فيه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ ومفتي الديار المصرية وتكلموا في أمر المشير اسمعيل صديق باشا وأسندوا اليه فعل مالايحل من العصيان والكيد على الخديوي وحرروا محضرا بذلك وحكموا بتبعيده الى دنقلة احدى مدائن السودان ووقعوا جميعا على ذلك المحضر فلم يعلم الناس الى هذا اليوم شيأ مما جاء فيه غير مانقلناه وقد قفلت دونه من تلك الساعة أبواب الوصول * حدثني صاحب لي قال أوظننت صدق الخبر القائل بتسيير المشير اسمعيل صديق باشا الى دنقلة وموته بها مبطونا * قلت نعم هو الصدق الذي لامراء فيه فقال اعلم أنه لما ركب الخديوي مع المشير

العربة

العربة من رحبة عابدين سارت بهما والجند تخفرها الى قصر النيل وكان به الامير حسن وناؤه يومئذ فلما وقفت بهما عند السلاملك التفت الخديو الى المشير وقال تبقى هنا قليلا حتى أزور ولدى وأرجع اليك فنزل المشير وجلس برهة لطيفة واذا بالامير حسن قد أقبل وهو يتلكأ في مشيته وسلم فقام المشير اجلالا له وحياه فنظر الامير اليه وقال قد رسم الخديو الساعة بالترسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتى الباخرة التى ستقلك الى دنقلة مبعدا فقال وما سبب ذلك يامولاى وأى ذنب جنيته وأنا أصدق الناس في خدمة أبيك وأشفقهم عليه وأطوعهم لاشارته فقال لست أدرى ويعلم الله هل لك من حاجة تسألنيها ففاضت عينا المشير بالدمع وقال لاشئ أسألك وانما أسأل الله الرحمة بى ثم نادى بأعلى صوته * ياغياث أغث عبدك وسكت وكانوا قد دبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولها الجند تحرسها وقد أنزلوا اليها بعض المأكول والمشروب والمفروش وجماعة من الخدم والاتباع وطائفة من الجند ومقدمهم اسحق بيك أحد الضباط الشراكسة ثم عاد الامير حسن وخلفه الامير حسين ودخلا على المشير فوجداه هادئ اللب ساكن القلب فقال له الامير حسن قم فقد تم كل شئ فهم يريد القيام فلم يقدر فأمسك الامير حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه الى اسحق بيك مقدم العسكر المكلفين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمى باشا محافظ المدينة يومئذ

قال الراوى لهذه العبارة وسمعت ممن يدعى أنه رأى المشير وهو خارج من المكان بين الاميرين حسن وحسين أن الامير حسين لما رأى جبنه وخور عزيمته لطمه على وجهه وقال له لقد خانتك الايام يالئيم فانذهب * قال وعندى أنه لم يحصل شئ من ذلك فقد كان لوقوع هذا الامر الغريب في ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه الى الباخرة أحاط بها الجند من كل جانب وأوصدوا جميع مابها من الشبابيك وأرسوها في وسط النيل فكان المشير يصيح وينادى كل قليل كأنه في غرفة نومه ثم كثر هذيانه واشتدت جلبته وما زالت الباخرة في مرساها والناس يسمعون صياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسارت ببطء قاصدة الاقليم القبلى ولم تسر قيد ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفى صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة الى الصعيد وقد طيروا الخبر الى الآفاق بعدم دنو أحد منها ولا خروج أحد منها الى البر فسارت في عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس في ريب من صحة الخبر حتى وصلت الى أسوان فنزل من الباخرة رجل على رأسه شملة من صوف وركب على جمل وساروا به على هذه الحال الى دنقلة ونزلوا بها أياما قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشير مبطونا وعملوا محضرا بذلك بشهادة قاضى دنقلة ومديرها وبعض مأمورى الحكومة فيها وعادوا الى القاهرة وقد شوهد في سبابة اسحق بيك اليمنى جراحة عظيمة فشاع خبر تلك الجراحة وتحدث الناس في أمرها وقالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد

رحمه الله تعالى رحمة واسعة * قال وأصبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به الى نسائه فقام الصياح واشتد العويل والبكاء وهرعت جميع النساء العائشات فى نعمته الى دوره وأقن الصياح والندب فاشتدت الجلبة وعلت الاصوات فكانت ساعة تنفطر من هولها الاكباد وجاء رجال دوان الخديوى الخاص ونفر من قومه الذين اصطفاهم لنفسه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع مافى الدور من تحف وأعلاق وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بونات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ماوجدوه من الامتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوهن على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذراريه الى دار فى خطة التبانة تحت قلعة الجبل وشردوا مماليكه وغلمانه وخصيانه وأقصوا بعضهم الى أقاصى السنار والدارفور وضيقوا على خزنداره واثنتين معها ليدللن على خبايا المشير وأمواله ونقلوهن الى سراى الزعفران بالعباسية فلم يعترفن بشئ وقلن ان جميع ما كان له قد نقله أعوان الخديوى وأتباعه * وجاء أصحاب بيت المال فأحصوا مابقى من فرش وبسط وغير ذلك وضبطوه وبالغوا فى الضبط والحصر فقام كل من كان له دين على المشير يطالب بما له وقد استبدل درهمه بدينار واشتد الطلب من كل صوب وحدب فعينوا لحل حساب تركته عمدة من أصحاب الوظائف فأحصوا مالأصحاب تلك الديون وسماوه وادعى الامير حسين ثانى أولاد الخديوى بأن للخزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد ولى نظارة الخزينة بعد خلع المشير فأجابته العمدة الى ماطلب وجعلوا يبيعون ما أحصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومقاعد وكراسى وأوانى فاخرة وغير ذلك فاشتراها بعض صغار الناس وبعض السوقة بأبخس الاثمان وطالوا على هذه الحال أياما ربح فيها من ربح وخسر من خسر وقليلون و يعلم الله هم الخاسرون وانقضى الامر وقد جمع ماترك من متاع و زروع ودور وهى من أحسن الدور وأفخرها وأوسعها وأجملها زينة فأعطى الخديو واحدة منها الى المشير محمد شريف باشا فانتقل اليها بعياله ورمم بجعل الاثنتين الاخر بين مقرا لبعض دواوين الحكومة فأنزلوا فيهما الخارجية والحقانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها الى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

قلت وقد كان بين المشير اسمعيل صديق باشا وبين أحد رجال دار الندوة الانجليزية مودة وصحبة كبيرة فكان اذا أتى الرجل الى القاهرة أيام الشتاء تبديلا للهواء على عادة كبار الانجليز لازم المشير وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر الى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وجوبير فاجتمع بالمشير اسمعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعثة جوشن ورفيقه وقد كنت ومشد ترجمانهما و كاشفه على كثير من المسائل المهمة التى لامحل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالتى

هى

هى فقال له المشير انى عزمت على خلع نفسى وترك منصبى فيوليه الخديو من يشاء من أولاده فان منهم من يزاحمنى عليه أشد المزاحمة قال ومن هو قال هو الامير حسين فاذا تخليت عن المنصب واعتزلته وجاءنى الطلب من جوشنكم * يريد جوشن الانجليز * وسألنى عما أعلمه من أمر المسرف والايراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه الا فاعل ذلك أطلعته على ماظهر من الامر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى مذ تولى الى هذا الحين فيخف عنى ما ألاقيه من اضطراب الحال وبلبلة البال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برحمة منه * فقال له أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وانى أراه داهية غادرا خداعا يظهر غير مايبطن فقال لم يبق فى قدرته فعل شئ من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فانا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلىّ ماعليه * فقال الرجل لايغرنك هذا الامر فسلطانك فى شاغل عنك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المدلهمة فلا تعجل فى الامر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم افترقا على ذلك فلما رفع المشير قصته الى الخديوى وقد تهدده فيها بتبليغ جوشن جميع مايعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير الى صاحبه المشار اليه فجاء فقال لى قل له انى خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أر لى خلاصا الا فيما فعلت فماذا تقول * فبهت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال قد قضى الأمر وغدر بك صاحبك فقال لى قل له لاتخش من ذلك فانه غالب على أمره ثم افترقا على ذلك فلما شاع الخبر بتبعيد المشير الى دنقلة ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير الى الباخرة ودخل على الخديوى وتقدم اليه فى أن لايصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فانه مابرح منذ أنزلوه الى الباخرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فربما عجلت بموته فخرج من عنده حزينا * واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجه كاسف البال فرد علىّ السلام وقال قتل صاحبى و يعلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لايصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحققت أنه مات لامحالة

وتقدم الامير حسين الى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير اسمعيل صديق باشا فولاه اياه فلم يستقر به حتى جعل يعزل ويولى ويتصرف فى صغير الامور وكبيرها ولم يقدر على ارجاع جوشن ورفيقه عن عزمهما من اقامة موظفى الجمارك والسكك الحديدية كما شاآ وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديو بدا من الاذعان ورسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضا اقامة مراقبين من جانب الدولتين الانجليزية والفرنسوية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم



أمرا الا بمشورتهما ولايعمل عملا الا برأيهما بحيث يبقى منصبهما دائما لايتزعزع واقامة عدة من جميع الدول يكون من اختصاصها اجراء جميع الاعمال المتعلقة بديون الخزينة ومراقبة تحصيل الاموال الاميرية وصرفها الى أصحاب الديون فى آجال ضربت لذلك فرسم الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغرا وحضرت العدة الى القاهرة فأنشؤا لها مكانا مخصوصا سموه « صندوق الدين » وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون فى الامور فجمعوا اليهم جميع ايراد المديريات والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا على جميع الاعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ماأراد عادا الى بلادهما يظنان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هوآت وقام أصحاب صحف الاخبار من الانجليز والفرنسيس يثنون عليهما بكل لسان ويقولون انهما انما أقاما بحكمة منهما دون تطاول يد الخديوى الى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن فى الامر شئ من ذلك البتة اذعاد الخديو الى العبث بموارد الايراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها ما شاء من الاموال الى خزائن ز ر وعاته وبعضها الى خزينته الخاصة وأعضاء صندوق الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومرتباتهم الفادحة التى لم تكن تخطر لاحدهم على خاطر ولم يمض على ذلك الترتيب والنظام الجوشنى الجو بيرى سوى بضعة أشهر حتى ظهر العجز فى الايراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفا ذهبا وتعذر القيام بمطالب أصحاب الديون السائرة فى آجالها وعادت الازمة بأشد مما كانت عليه تتزاحم أصحاب تلك الديون على أبواب الخزينة وأ كثروا الالحاح واللجاج وصاح بعضهم فى وجه الامير حسين وخاطبه بيذئ الكلام وفحش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة فحكمت وشددت فى التنفيذ وحجزت على الكثير من موارد الحكومة وأملاكها فاشتد الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت الامور خبالا واشكالا وأنفذت دولة الانجليز الى المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخديوى فى الامر و يسأله سرعة القيام بمطالب أرباب تلك الديون قبل استفحال الخطب وتفاقم الضرر فلم يلتفت الخديو الى ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت اليه من أموال الخزينة وبقى الحال هكذا أياما قد وقف فيها دولاب التجارة وضاقت على أهل البلاد مسالك الرزق

مطلب المؤامرة على قتل السلطان عبدالعزيز

و بينما كانت الازمة فى مصر تشتد والحال فى ارتباك وخبال كانت الفتنة فى دار السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان يعملون على خلعه ويحزبون الاحزاب و يهيئون العصب و يفتحون للفتنة أوسع الابواب « قال بعض الكتاب » وتحرير الخبر « أنه لما أحس السلطان بمكايد الانجليز واتخاذهم رجال الدولة وكبار السلطنة آلة صماء فى أيديهم يهددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تقدما نحو أملاكهم الهندية أو تعطيلا لرواج تجارتهم الاسيوية فتخسر السلطنة العثمانية باسباب ذلك من الرجال والاموال والبلدان مالا يمكن معه بقاء عين أوأثر لمملكة آل عثمان

فقطن

ففطن الى الأمر وهمّ بمداركة الخطر ومال عن معاضدة الانجليز وأبغض سياستهم بغضا شديدا وتقرّب من قيصر الروس على يد سفيره الامير أغناتيف ففرح القيصر بذلك وتحبب الى السلطان وترددت بينهما رسل المودّة والتسليم وتكاثرت رسائل المحبة وتناسيا مابين الأمّتين من العداوة القديمة وتعاهدا على كبح جماح الانجليز وابعادهم عن أن ينالوا من السلطنة العثمانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبرا لذلك تدبيرا حسنا للغاية فعلمت عيون سفير الانجليز بالخبر وأعلمته به فخافه جدا وسربه الى كبير سياستهم فجادته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فبث العيون والارصاد حول الامير أغناتيف وتجرد الى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشتريهم بالذهب الرنان ثم كلمهم فى التدبير على خلع السلطان والتخلص منه فالوا اليه وباعوا آخرتهم بأبخس الاثمان وكان ممن وافقه على ذلك نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا الصدر الاعظم وعونى باشا وقيصرلى أحمد باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام ومدحت باشا رئيس شورى الدولة وبقى هذا السر مكتوما بينهم حينا كانوا يحزبون فيه الاحزاب ويهيؤن لايقاد نار هذه الفتنة أعظم الاسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الامر بعد ذلك الى محمد رشدى باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام وانضم الى عصابتهم أيضا السلطانة والدة مراد أفندى بكر أولاد السلطان عبد الحميد وجماعة من المابين وبعض كبار جند الحرس وهم نجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الانجليز عهد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الاعظم الى الادعاء على السلطان بالدعاوى العريضة واتهمه بمحالفة العدو والتفريط فى أعظم حقوق الامة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الاسلامية الى الضياع والتعاقد مع قيصر الروس على ادخال جيش من الروس فى قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وانه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جماعة الفرنجة فى عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع الى شيخ الاسلام هذا السؤال وهو

اذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لاقدرة له على سياسة الامة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة فى ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية الى حد لاتطيق الامة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالامور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضررا فهلا يصح خلع بيعته

﴿الجواب﴾ يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عونى باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الاسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصابة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد المجيد خان فأنفذ الصدر الاعظم الى أمير



سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لمقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض نوافذ مقره فاستغربه وسير الى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس فى الامر مايستوجب الخوف وانما هى مناورات لابد منها وعلم الصدر الاعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشيا أن يفتضح أمرهم ويتضح ماخفى من سرهم فلما كانت الساعة الثانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصابة فى باب السرعسكرية وخرج رديف باشا فى ألفين وخمسمائة من الجند وأحاطوا بسراى السلطان احاطة السوار بالمعصم وتسلم سليمان باشا حراسة أبوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عونى باشا فى عربة وسار الى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه فى العربة وهو لا يدرى ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصلا الى باب السرعسكرية لاقاهما شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب وأخذا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحل والعقد وكبار الجند وقوفا على الاقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسى وحوله زعماء العصابة وتولى جماعة من العسكر حراسة الابواب كى لا يخرج ممن حضر أحد وقام شيخ الاسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الامراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجند وهو مع ذلك لايتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفزع ووصل الخبر الى رديف باشا بتمام البيعة الى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز الا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجند فاضطرب واستكبر الامر جدا وقال كيف تأتون الىّ فى هذه الساعة بغير اذن فقال رديف باشا أتينا لنخبرك بأن الامة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح فى وجوههم فقال له رديف باشا انظر من الطاق فنظر واذا بالجند قد أحاطت بمقره ومدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال أو أنتم فاعلون بى شيأ الساعة فقالوا لا وانما سنقوم بحراسة أبوابك حتى ينقل بك الى سراى طوب قبو وفى نحو الساعة الحادية عشرة ليلا أطلقت المدافع من البر والبحر ونادى المنادون فى الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحدب الى باب السرعسكرية وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره الى سراى طوب قبو فذهبت معه السلطانة والدته وولده يوسف عز الدين أفندى وباقى أولاده ونساؤه فأقامت والدته فى حجرة بجانب حجرته خوفا عليه من فعال الاعداء وقد وكلوا بحراسة السراى نفرا من الجند ومعهم نجيب بيك وعلى بيك وهما من أصحاب الفتنة * قال أحد كتاب الأخبار * ولما تم نقل السلطان عبد العزيز الى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومدحت باشا ونورى باشا وبقية أصحاب

الفتنة

الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبد العزيز وأرسلوا الى نجيب بيك وعلى بيك فى أمر ذلك

واشتد القلق بالسلطان عبد العزيز من بقائه فى سراى طوب قبو وتطير من ذلك فكتب فى عاشر جمادى الاولى الى ابن أخيه السلطان مراد يقول « بعد اتكالى على الله سبحانه قد وجهت اعتمادى عليك فأرفع اليك مراسم التهانى بارتقائك تخت السلطنة وأبين لك مابى من الاسف على أنى لم أقدر على القيام بخدمة الامة كما تبغى ولكنى أؤمل أنك تبلغ هذا الارب وانك لاتنسى انى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المملكة والذب عن شرفها وأوصيك أن تذكر أن من صيرنى الى ما أنا فيه الآن اغاهم الجند الذين سلحتهم أنا بيدى وحيث انى كنت كثير الرفق بالمظلومين ميالا الى معاملتهم بالمعروف فأرغب اليك أن تأذن بنقلى من هذا المكان الضيق الذى أنا فيه الآن الى مكان آخر وانى أهنئ نفسى بانتقال الخلافة الى ذرية أخى السلطان عبد المجيد خان » فرسم السلطان مراد بنقله الى سراى أخرى فلم يمكث بها غير بياض يومه ذلك وفى المساء أدخل نجيب بيك وعلى بيك المتوليان حراسة المكان جماعة هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى وأربعة من الخصيان الى مقر السلطان وأخفوهم عن الناس فلما كانت الساعة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسمه فخرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغا فتقدم فخرى بيك وأمسك بكتفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا على ساقيه وتقدم مصطفى البهلوان وأمسك بأحد ذراعيه وقطع أوردته بمقراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصيح ويستغيث حتى خرج جميع دمه ومات فلفوا جثته بقميص أبيض وحملوها الى حجرة قهوة رجال الحرس السلطانى وألقوها على حصيرة كانت هنالك وقد شاهدت بعض ماحل بالسلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستغاثت فصاح لصياحها سائر الجوارى واشتد الصياح والعويل وعلت الضوضاء وكانت والدة السلطان قد خرجت من حجرتها لقضاء حاجة فجاءت مسرعة لترى ماحل بولدها وفلذة كبدها فلم يمكنوها من ذلك وأخذوا فى حمل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأعلاق ثمينة الى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان وباتوا على تلك الحالة وأصبحوا وقد حضر الى محل الجثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سفارات الدول وطبيب سفارة الانجليز ومار كو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغيرهما من كبار الاطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحثوا عما فيها فاختلفت كلمتهم وتحاجوا وطال بينهم الجدال وقال طبيب سفارة الانجليز ان السلطان هو القاتل لنفسه ووافقه على ذلك بعض الاطباء وقال رئيس المدرسة الطبية بل قتل عمدا ووافقه على قوله بعض الاطباء واشتد الجدال بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على



الابانة وقد شوهد فى جثة السلطان طعنة خنجر فى جانبه الايسر وبعض خدوش فى فمه وذهاب احدى أسنانه بضربة شديدة على فمه واشتد اللجاج بين جماعة الاطباء ساعة ثم أشاروا بدفن السلطان فدفنوه فى مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ الا أنه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الاخبار الروسية وقالوا وعادوا وبالغوا فى الشكوى نخاف رجال الدولة وخشوا العاقبة فأشاعوا أن قد أصاب السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية فى بغاز المدينة ترسل رمى القنابل على العدو واشتد به هذا التخيل الى حد أذهب نومه فى الليلة التالية لخلعه وأصبح فذهب الى الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل الى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر الشبابيك والابواب ففعلن فتركهن وخرج الى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد الخروج من الباب الموصل الى الجسر وفى يده غدارة فمنعه الموكل بحراسة الباب فتهدده بتلك الغدارة ثم عاد الى حجرته وقد اشتدت به الاعراض وكثر هذيانه فصار يتخيل أن عدوا هاجم عليه فيصيح على الجند والحراس بان تطارده وعلى السفن بان تمنعه قالوا ثم طلب من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومرآة ليهندم لحيته فاحضرتهما له من والدته وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائه وجلس معه برهة فجعل يقص عليه خبر العدو الذى كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفى أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه الايمن ففهم الرجل عنعه فلم يقدر فأسرع الى والدة السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان فى الحال وأقفل الباب وجميع شبابيك المكان وقطع عرق ذراعه الايسر أيضا ونام على فراشه حتى خرج دمه ومات * ويروون عنه غير ذلك أيضا مما لا يسعنا ايراده هنا * وعظمت الفتنة بعد موت السلطان عبد العزيز وكاد يتطاير شررها الى سائر الايالات وتظاهر جماعة من أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المحمود فى دار السلطنة بالتشيع اليه والرغبة فى الاخذ بثاره نخاف أصحاب الفتنة وبالغوا فى الحيطة وعملوا على تفريق القوم ما استطاعوا وأوعزوا الى بعض أصحاب صحف الاخبار التركية فحملوا على السلطان عبد العزيز حملة منكرة ورموه بالمروق عن الدين واذهاب كرامة سائر المسلمين ووسموه بالخبال وذهاب العقل وأكثروا من الجلبة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة فى حل مما فعلوه * ومما سيتلى عليك من تحقيق حادث خلع السلطان عبد العزيز وموته وما جرى فى شأن ذلك فى خلافة السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القولين اصح وأى الجتين أقوى وأشد فحكم اما لاصحاب الفتنة واما عليهم والله يحكم بينهم وهو أحكم الحاكمين

مات السلطان فكانت مدة سلطنته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنتان

وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا الى خير الرعية وايراد البلاد موارد التقدم والعمران بعيد العسف غير متعصب ولامشاغب مبغضا للانجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهد الاستطاعة فلم يبلغ مأربا ومات شهيد جرأته رحمه الله برحمته الواسعة

ومات فى أيامه ديمتريوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهما عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ فى وضعها على النحو الذى نحاه كيرلس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسى بعده أشهرا ثم أقيم كيرلس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة تزمنت باقليم بنى سويف واسمه يوحنا من رهبان دير البراموس ببرية شيهات وهو بطرك المتأصلين الآن وله من الاعمال المبرورة والآثار المشكورة ماسيذكر فى محله ان شاء الله

الفصل الرابع والعشرون

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالامر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بويع بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته الابضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قيل وكثر هذيانه فكان يميل الى العزلة والانفراد ويخاف من كل شئ ويضطرب لاقل شئ يراه أو يسمع به * وكان ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز ياور لركابه فى أيام أبيه اسمه حسين بيك ابن اسمعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا الى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديد البأس جبارا وحسين عونى باشا السرعسكر يعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقائه فى دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسييره الى بغداد ليتولى رياسة فريق ممن بها من العسكر السلطانى وأرسل اليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبسه فحبسوه أياما ثم عاد فأظهر الطاعة والرغبة فى الرحيل الى بغداد وطلب مهلة يومين فأمهلوه فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الاولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عونى باشا وسأل عنه فقيل له انه فى بيت مدحت باشا فسار الى بيت مدحت وسأل الخدم عن عونى باشا فقالوا انه مع بقية الوكلاء فى مجلس مخصوص فأعلمهم بان معه تلغرافا يتعلق بباب السرعسكرية يريد توصيله الى عونى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد الى حيث



مجلس الوكلاء وأراد الدخول فمنعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال سالم أغا خادم الصدر الاعظم فقال ادع الىّ خادم عونى باشا فانى فى حاجة الى لقاء مولاه الساعة فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك فى الحال الى المكان الذى فيه الوكلاء وقصد حسين عونى باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابتاه فقام ليدفع عن نفسه فانخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد باشا فأصابه فى عنقه فمات لساعته ومال على قيصرلى أحمد باشا أمير سفن الحرب فضلم وأمسكه بيده فأثخنه بالجراح وقد تمكن قيصرلى أحمد باشا وبقية الوكلاء من الهرب الى بيت النساء وأغلقوا دونهم الابواب وجاء أحمد أغا خادم الصدر الاعظم مسرعا وهجم على حسين بيك ليقبض عليه فصرعه حسين بيك قتيلا وقصد كسر الباب الذى حال بينه وبين بقية الوكلاء فلم يفلح فجعل يكسر المصابيح وأخذ شمعة ليوقد بها الاستاركى يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر اذ جاءت طائفة من العسكر وكبسوا عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكرى بيك ياور ركاب الصدر الاعظم وزجوه ليلته تلك فى السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل شنقا * فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجند وعلقوه على شجرة فى ميدان بايزيد وبقى معلقا الى يوم الاثنين * قال بعض الكتاب وكان عند عمل الصفيق معه ساكن القلب هادئ اللب لم تأخذه أخذة من الخوف وكان يظهر الاسف على من مات من ضباط العسكر والعسكر و يقول وددت لو أنى أذقت قيصرلى أحمد باشا أيضا كأس المنون كما ذاقها عونى وراشد * وتحدث الناس بما فعله حسين بيك فاختلفت الاقوال وتباينت ثم عادوا فاجتمعت كلمتهم على انه انما فعل ذلك بهم انتقاما لقتلهم السلطان عبد العزيز واتصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفه فيل واشتد هذيانه وتغيرت أحواله واضطربت فكان لايعرف أحدا ولا يميز بين الضار والنافع وكان الصدر الاعظم يخفى حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل رزين وتعمل على اخفاء حقيقة أمره ولا تقرب منه أحدا فلما طال تحجبه عن الناس لاسيما عن قناصل الدول وقد اشتدت به علته استحضروا له طبيبا نمساويا اسمه ليدزورف قداشتهر بمداواة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجتمعت كلمة الوزراء وكبار الدولة على خلعه وكتبوا الى خير الله أفندى شيخ الاسلام سؤالا فى معنى ذلك وهو

اذا جنّ امام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة من عهدته (الجواب) يصح والله أعلم * كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه * واجتمع الوزراء فى يوم الاربعاء عاشر شعبان وقرروا خلع بيعته والبيعة لاخيه السلطان عبد الحميد فخلعوه فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة أيام لاغير ووردت الاخبار بما وقع له الى القاهرة

فكان

فكان الخديو فى شاغل عنها بما هو فيه من نكد الحال وبلبلة البلبال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيام دولة الانجليز لنصرتهم كما ستراه فى محله ان شاء الله تعالى

الفصل الخامس والعشرون

﴿ فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد ﴾

وقام بالامر بعد خلع السلطان مراد أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد خان وبويع بالملك فى يوم الخميس حادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وَلى السلطنة والملك فى ارتباك والفتنة قائمة والعمالات فى اضطراب فعمد الى سن القوانين والنظامات الدستورية الحافظة لحقوق جميع الرعية على التساوى بلا فرق ولا تمييز وكان التفريق بينهم يومئذ قد أخذ مأخذه حتى تمزقت جامعتهم وتفرقت كلمتهم وعمل التقاطع فيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السياسية من ذلك مالم تنله بحد السيف وكرات المدافع ورسم فى خامس شوال سنة ثلاث وتسعين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هيئتين احداهما ينتخب أعضاءها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعوثان والثانية تنتخب أعضاءها الحكومة وتسمى بمجلس الاعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمد رشيد باشا فخلعه وولاها أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفذ اليه صورة من القانون الاساسى الذى أنشئ لجميع الاصلاحات الواجب العمل بها فى جميع ماوراء الباب * قال بعض الكتاب وكان هذا القانون يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فرسم بنشره والعمل به من يومه فى جميع أنحاء المملكة وأصدر فرمانا بذلك فى سابع ذى الحجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنوف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسى المبعوثان والاعيان وابطال مصادرة الناس فى أموالهم وترك القسوة والتعذيب فى تحقيق الجرائم ومنع السخرة والعونة وعدم عزل القضاة الا بحكم شرعى وتعيين مواجب العمال والولاة وجعل التعليم اجباريا واعطاء الحرية للمطبوعات وغير ذلك مما لا يسعنا ايراده هنا مفصلا * قال بعض الرواة فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصدارة حتى داخله الغرور وجعل يعمل على خلع السلطان عبد الحميد وارجاع السلطان مراد الى تخت الملك ويسعى فى فصل الخلافة الاسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عربية فيمن بقى من قريش من أشراف مكة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فأشارت الى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والابهام * قلت وهذه سياسة غلادستون زعيم الاحرار بديار الانجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيرا ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان واعطائه الى من بقى من قريش أو لمن يصلح للامامة من غير قريش وكان عربيا

فلما أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين
بخلع أحمد مدحت باشا وتنزيله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد
أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لاغير * قال بعض كتاب الاخبار ولم
يبعد مدحت باشا عن دار الخلافة حتى تحركت إمارتا الصرب والجبل الاسود وجعلتا
تحشد الجيوش وتعد المعدات وتدرب العساكر والاجناد على فنون القتال وقدم جماعة من
ضباط عسكر الروس فتطوعوا فى خدمة جيوش الامارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون
الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخم على الحدود فلما تم للامارتين
ماأراد تا سير كل من نقولا وميلان أميرى الامارتين الى دار السلطنة يطلبان كثيرا من
المطالب الطويلة العريضة فابى عليهما السلطان جميع ماطلباه وكثر الاخذ والرد بين الطرفين
وأصر كل منهم على مزاعمه فاجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود
وزحفت على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطانى من كل صوب وحدب
ومقدمهم الغازى عثمان باشا وعبد الكريم باشا السرعسكر وقاتلوهم حتى هزموهم
شر هزيمة ثم سارت طائفة من العسكر السلطانى الى مدينة مينا شيوار ففتحوها عنوة وساروا
الى مدينتى عالكيناس ود بجراد ليقاتلوهما فلم ينالوا منهما لحصانتهما ومنعتهما فرحلوا عنهما
وعبروا نهر موراوا فلم يشعر العدو الاوهم قد صاروا على الشاطئ الايسر من النهر وساروا
يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربيين هذا الأمر وأزعجهم جدا لخلو
المدينة عمن يدافع عنها ويقاتل دونها فعبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطانى
فوقفوا لقتالهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشلوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم الى الفرار
من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لايمانعهم فى طريقهم ممانع وجاء
الخبر بذلك الى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سير الى سفراء الدول بدار الخلافة فى
طلب الوساطة بينه وبين الباب العالى خوف الهزيمة والعار فكلموا السلطان فى ذلك
فناهم وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الاخبار بذلك الى
السفراء فقاموا وقعدوا وشددوا فى الطلب فسير السلطان الى مقدم عساكره بالكف
عن القتال حتى يأتيه الأمر وفتح سفراء الدول باب المخابرة فى أمر الصلح وكثر الاخذ
والرد وترددت السفراء على الباب العالى أياما والقلوب فى اضطراب فأبى الباب العالى امضاء
الصلح الاعلى ثلاث خصال * الاولى حضور أمير الصرب الى دار السلطنة وتقديمه
مواجب الخضوع والتذلل لعرش السدة الشاهانية * الثانية أن تحتل الجيوش
السلطانية ثانيا جميع القلاع التى كانت الدولة سمحت لامارة الصرب باحتلالها مؤقتا فى
سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية * الثالثة ابطال الرديف من ايالة الصرب وأن
لاتجيش الايالة من الآن عسكرا الا عشرة آلاف فقط وبطاريتين من أصحاب المدافع
لحفظ الأمن فى الداخل فلم يرض الدول هذا الطلب واتفقوا معا على اكراه الباب العالى

على

على ارجاع حالة الصرب والجبل الاسود الى ماكانت عليه قبل الحرب وتأسيس ادارة وطنية مستقلة فى البوسنيه والهرسك لتراقب مأمورى الحكومة وكذلك فى البلغار وأنفذ اللورد دربى صاحب سياسة الانجليز يومئذ الى الباب العالى مكاتبة بذلك وأوعز الى سفيره فى دار السلطنة بأن يلح فى الطلب فبالغ السفير فى ذلك فلم يلتفت السلطان الى قوله وأوعز الى مقدم الجيوش المحاربة باعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدويخ العدو ويرجعه الى ماكان عليه من الطاعة فزحفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشرنايف الروسى ومعظم العسكر الصربى فقاتلوهم قتالا عنيفا ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دلجراد فدخلتها طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة

وطار الخبر بذلك الى الآفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماما عظيما وأنفذ صاحب سياسة الروس الى سفيره فى دار السلطنة بطلب ايقاف رحى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الاسود مدة شهرين فان لم يجب الباب العالى الى ذلك انقطع حبل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلا ثمانيا وأربعين ساعة فأجاب الباب العالى الى ذلك كارها وقد أحس بتأهب الروس للقتال واضرام نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لاسيما دولة الانجليز فغار صاحب سياستها كبار ساسة الدول فى عقد مؤتمر فى دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التى صارت على قاب قوسين فاجابته الدول الى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها الى دار السلطنة وقررت كثيرا من الطلبات التى لايطيق الباب العالى الصبر عليها ولا الاذعان لها ثم اجتمع جمعهم فى سراى البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا فى الامر كثيرا وطال اجتماعهم أياما على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الاديان كافة فلما تم اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثى الدول فاستعظموها وقالوا هى مذلة وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل الى قبولها وفى المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم فى الامر فقالوا جميعا الحرب والنار ولا هذا الخزى والعار وكثرت جلبتهم وعلت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطروا بذلك محضرا فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ الى أصحاب المؤتمر فكبر عليهم ورحلوا عن دار السلطنة ولم يقابل منهم أحد أمير المؤمنين كما جرت العادة بذلك واختلط الحال على كبار ساسة الدول واختبط واستعصى عليهم حل هذه العقدة وقد رأوا من الباب العالى عنادا وتصميما وكانوا لايتوقعون منه غير الطاعة والاذعان فجعلوا يمنون الروس بالأمانى البعيدة ويهونون عليهم الأمر * فبينما هم على هذه الحال اذ عاقدت الدولة العثمانية الامارة



الصربيـة على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقان وشاع الخبر بذلك فخشيت دولة الروس العاقبة وفطنت الى الامر وتحققت أنها ان لم تبادر الى اشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبـل أن تعاقد أمير الجبل الاسود الصلح أيضا انفشل الروس وسقطوا فى أمرهم فحض القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قبل استفحاله فاجابته الى ذلك وأرسلت الى دار السلطنة انذارا تتهدد فيـه الباب العالى بأن تتركه وشأنه مع دولة الروس ان هو أصر على الاباءة والعناد فرد عليهم القول ردا جميلا وصمم على مطالبه كلها فتجرد قيصر الروس عندئذ الى التأهب والاستعداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثر من نقل المؤن والذخيرة وأنفذ الى منـدوب الباب العالى فى عاصمـة الروس بان يرجع الى سـلطانه وبانه قد أعلن بالحرب والقتال فسار المندوب الى دار الســلطنة فـا وصـل الخبر الى الباب العالى وتناقله الناس حتى قاموا وقعـدوا واشـتد بينهم الهرج وتودى فى جميع العسـكر بالخروج وأفتى شيخ الاسلام بانه قـد حق على كل مسلم الغزو والجهاد وبان يضاف الى ألقاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غازى عملا بحديث صاحب الشريعة القائل ﷺ من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ﷺ

وورد الطلب من الباب العالى الى الخديوى بارسال مدد من العسكر المصرى ليسير مع العسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الامـير حسن ثالث أولاده ومعـه جماعـة من كبار الضباط الشراكسة فحملتهم بعض السفن الى دار السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطانى فى عدة مواقع ٭ قال بعض كتاب الاخبار ٭ وقد أبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس فى عـدة وقائع واشتد القتال بين الفريقين وحمى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتال وقيل بل كانوا يدفعون بالامر الخفيف ثم ألحوا فى القتال فاحتلوا مـدينة ترنوه ثم مدينة بنكوبلى وسار الجنرال جوركوا فى عسكره فاحتل مضايق البلقان الـتى هى أبواب مضيق شبكا واشـتدوا عـلى العساكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك الى دار السـلطنة فكثر خوف النـاس وعظم اضطرابهم واشـتد قلقهم وهم الكثـير منهم بالجلاء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان فى جمادى الأولى من السنة أى سـنة أربع وتسعـين بجعـل دار السلطنة تحت الاحكام العرفية فانكمش النـاس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدو على المدينة فى كل لحظة واشتـد الروس فى القتـال والنصر ملازم لهـم وجاؤا لحصار مـدينة بلفنه وكان بها عثمان باشا فى ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير الى دار السلطنة فى طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشـديد الحصار وألح فى الطلب ووردت رسائله تـترى على ديوان الحـرب مفعمة بالحض والاستنهاض فـلم يلتفتوا الى ندائه والروس تشـدد فى حصار المـدينة يوما عن يوم فكان عثمان باشا يقاتلهم فى كل يوم من وراء الاسوار كى يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المـدينة لعلهم يفتحونها فـلم يتمكنوا حتى تم لهـم حصارها

فضيقوا

فضيقوا وشددوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الاخبار بذلك الى السلطان فكبر عليه الامر ورسم بخلع عبد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رياسة ديوان الحرب لظهور خيانته وسوء تدبيره وخلعوا أيضا جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم لخيانتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفى والتبعيد وأكثروا من التغيير والتبديل فى مراكز الجند ومواقف القتال استدراكا لما فات وسيروا المدد الى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول اليه لاحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحدب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس على مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولى عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وارجاع العدو فاقتتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حصل بعسكره فسار من فوره فى قلة الى ميدان القتال وقيل بل جاء جريدة وسير الى أمير الجبل الاسود يسأله العون والمدد فجاءه فى نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الاسلحة والكراع وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفا للغاية وانتصروا عليهم فى عدة وقائع واشتدوا فى حصار بلفنه شدة بالغة وألحوا فى قتال من بها من العساكر فكانوا لاينكفون عن الرمى عليها فى الليل والنهار ومازال الرمى من الفريقين متراسلا حتى نفد ماعند العساكر السلطانية من المؤن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقى من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجمة العدو فاما أنهم يموتون جميعا شهداء الدفاع عن ملجا الخلافة أوانهم يسلمون فخرجوا جميعا واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصليهم نارا حامية حتى أصابت عثمان باشا مقدمهم جراحة فى ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضا ميتا وشاع خبر موته بين الجند فانفشلوا وسقطوا فى أمرهم وهموا بالرجوع الى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدو بها ورميه بالقنابل عليهم تباعا فصاروا بين نارين فلم يروا بدا من التسليم فألقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا الى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابله أحد كبار ضباط الروس وبالغ فى اجلاله وتعظيمه ونقله فى احدى العربات الى مدينة بلفنه وبينما هو فى الطريق قابله الغرندوق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلما عليه وبالغا فى ملاطفته اظهارا لفضله واكبارا لشهامته

وتقوت عزيمة الروس لسقوط بلفنه فى أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يقتصون كل ما صادفهم فى طريقهم من الحصون والقلاع فخرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالى من العهد ونهض الى معاونة الروس بالرجال والمال فاشتد الامر على الباب العالى وسدت فى وجه العساكر السلطانية أبواب الفلاح وتولاهم الفشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فأنفذ السلطان الى الدول الكبرى فى الوساطة بينه وبين قيصر الروس فطاولوه ولم يهتموا الى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والامطار وهم مع ذلك لم ينكفوا



وسارت جيوش الروس تريد الاغارة على بلاد البلغار والروملي الشرقية وتقدم الجنرال جوركوا بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفيه تحت البلقان واحتلها ثم سار الى مدينة فليبه واحتلها أيضا وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوبلف الى مدينة أدرنه فقاتلت من بها واحتلتها عنوة ولبثوا فى هذه المدن أياما حتى أصلحوا حالهم وساروا فى كثرة يريدون دار السلطنة فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم أو يناوشهم الحرب نخلو الطريق حتى صاروا على أبوابها وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة فى عدة وافرة كانت عساكر الجبل الاسود تقاتل مدينة انتيبارى حتى ملكتها وسارت حتى وصلت الى ضواحى أشقودره ودخلت أيضا العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الاعداء بمعظم بلاد الدولة من كل صوب وحدب وقد زاد الامر وبلا وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم عن أوطانهم ونزولهم على دار السلطنة وهم فى أسوء حال من العرى والجوع فملؤا شوارع المدينة وحاراتها واهتم الباب العالى بمأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ووقودهم لوقر البرد وتبرع أهل البر والاحسان بالمال النفقة واهتموا لذلك اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت بينهم الحميات الخبيثة وكثر فيهم الموات واشتد فكانوا يموتون بجانب الجدران وعلى أبواب بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة الى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه فى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها ابطال الحرب وحقن الدماء فساروا الى قزانلق والتقوا بالغراندوق وكلموه فى الامر فأجابهم الى ذلك وسار بهم الى مدينة أدرنة وقد سير الى القيصر فى طلب اجازته بعقد شروط الصلح فأجابه فأمضى معهم عهدا فى المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الادارى لامارة البلغار والاستقلال السياسى لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الاسود وأعطاهم بعض أملاك من أملاك السلطنة وتكليف الخزينة السلطانية بنفقة الحرب فان لم تدفعها عينا أعطت بها قلاعا أوحصونا من قلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة وتؤدى فى العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها الى المرمى البعيد لا سيما دولة النمسا فانها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ امبراطورها الى الدول فى طلب عقد مؤتمر لينظر فى شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على دولة الانجليز فى ذلك فأجابته الى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكانت الروس فى الامر فطاول القيصر وحاول ولم يبلغ الدول شيأ مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالى وقد كان رأى وساطة الدول وعدم تداخلهم فى أمر الصلح وطال الاخذ والرد بين الدول وبعضهم أياما فازعج الدول امتناع القيصر وعدم اجابة طلبهم وكثر القيل والقال واختلط عليهم الحال وكثرت الاشاعة بدخول الروس فى دار السلطنة وعمدت دولة الانجليز الى

استعمال

استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حربها الى دار السلطنة لمنع الروس من الدنو من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورست أمام المدينة فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغطهم وتحدثهم فى هذا الامر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعيبون على أصحاب الحل والعقد سوء تدبيرهم ويرمونهم بالمروق عن الدين فرسم السلطان بنفيهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهب نار الفتنة فى جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فجعل يكثر من العزل والتولية فى مناصب الدولة وخلع الصدر الاعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد حمدى باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضا وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين فى هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل فى خامس عشرى ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الازمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة

فلما كان سابع عشر جمادى الاولى قام رجل بخارى الاصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصابة التى كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى اسمعيل وسماها باسم (جون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الاموال الطائلة فكان لها فى قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الامير مصطفى فاضل باشا هذا يتمنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان بأشهر وعمد صعاوى هذا الى ايقاد نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد واعادة السلطان مراد الى منصب الخلافة وكان فى دار السلطنة زهاء مائة وخمسين ألفا من المهاجرين وكلهم ناقمون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيبا وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار فى جماعة منهم فى ذلك اليوم الى سراى جراغان التى هى مقر السلطان مراد واقتحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسله طبنجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العامة فتراع الناس من كل صوب وحدب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوقة دخول الروس الى المدينة واعمالهم السيف فى أهلها فتسابقوا الى غلق حوانيتهم وهرعوا الى بيوتهم يدفعون عنها ايذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطانى الى سراى جراغان وكبست على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم الا من طال عمره ومات صعاوى وصالح بك مقدما هذه الفتنة وجاء الامر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجوارى والغلمان فقبضوا عليهم ونقلوهم الى سراى السلطان عبد الحميد محجورا عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى

ثلاثة أيام حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار فى دوائر الباب العالى فاشتعلت اشتعالا عظيما واندلع لسان لهيبها الى عنان السماء فأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الاحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرهاوأبادت جميع مافيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رياسة الوكلاء فخلع فى سابع عشرى جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد اليه لقب صدر أعظم فلم يكد يستقر به المنصب بضعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا

ولما دخلت سفن حرب الانجليز ورست أمام القسطنطينية كاتقدم القول عظم أمرها على الروس وعدوه اهانةلهم وتحقيرا فأنفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينية فى طلب دخول طائفة من عسكره الى المدينة وشدد فى ذلك فمانعته دولة الانجليز وطال الاخذ والرد بين الروس وبقية الدول أياما وجاء الغراندوق نقولا الى أدرنه قبل انتهاءالهدنة فسير اليه السلطان نامق باشا ليكلمه فى منع دخول عساكره الى المدينة فلم يقبل الا بشرط أن تحتل مقدمة جيوشه خط بيوك جكمجه وكوجك جكمجه من ضواحى القسطنطينية وأن تنسحب العساكر السلطانية الى ماوراء ذلك مع جعل مركز المخابرات فى قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمرة وكان لم يعرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق الى قرية سان اسطفانوس فى ألف مقاتل ونزل بهاوصار يأتى اليه المدد فى كل يوم حتى بلغت عساكره بالقرية المذكورة زهاء عشرين ألفا وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجدال بين الفريقين أياما وكان رسول القيصر فى عقد هذا الصلح الأمير اغناتيف وهو من دهاة السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب الدولة ظهر المجن فسطر شروطا غاية فى الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التوقيع عليها فطلبوا مهلة فلم يقبل وضرب لهم أجلا فان انقضى ذلك الأجل سارت العساكر النازلة فى سان اسطفانوس الى القسطنطينية ودخلتها عنوة فراجعه رسل السلطان فلم يقبل وكان ذلك الاجل الثالث من شهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان ينقبون فى تلك الشروط كىلا يحل الاجل المضروب الا وقد أتوا على آخرها فلما كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صفر سنة خمس وتسعين جمع الغراندوق نقولا جيوشه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض اجلالا لعيد القيصر ولبث ينتظر مايكون من رسل السلطان فلما أبطأ عليه الجواب سار الى حيث رسل السلطان وطلب منهم الجواب فى تلك الساعة والاسارت جميع جيوشه الى دار السلطنة بلا مهل فهال الرسل هذا الامر وما زال الأمير اغناتيف يتهددهم حتى تم توقيعهم على الشروط ولحق اغناتيف بالغراندوق ومعه شروط الصلح وكان الغراندوق ممتطيا جواده أمام العساكر وحوله جماعة من كبار الجند والحرس فناوله اغناتيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حوله من كبار العسكر فصاح العسكر جميعا بأصوات الفرح وترجل جميع ضباط الجند عن خيولهم وخروا

على

على الارض سجدا لله عز وجل الذى أتاح لهم هذا النصر المبين وجاء أحد القسيسين فصلى بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعا سجود وطير الغراندوق الخبر الى القيصر عاجلا ففرح فرحا لايوصف ووردت على الغراندوق رسائل التهانى من كل فج عميق ﴿ وكان مما أخذ عهدا وميثاقا بين الدولتين بعد تلك الحروب الهائلة واشتهر بمعاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتى ترجمته بعد ﴿ ان حضرة قيصر الروسيه وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين لاجل تحرير مقدمات الصلح رغبة فى تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة والامنية فيما بعد وطلبا لحصول فوائد المسالمة والراحة العمومية حالا فالمرخصان اللذان نصبهما القيصر أحدهما (الكونت نقولا اغناتيف) وهو حائز رتبة أمير اللواء ياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى وعنده نشان روسى مرصع وهو نيشان صان عكسا ندر نويسكى ونياشين أجنبية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة الأمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان صانت آن من الطبقة الاولى مع السيوف المختصة به وعدة من النياشين الروسية والاجنبية والمرخصان اللذان عينهما حضرة السلطان أحدهما (صفوت باشا) ناظر الأمور الخارجية الحامل النيشان العثمانى المرصع والنيشان المجيدى وكلاهما من الطبقة الاولى والنياشين الاجنبية المتنوعة والثانى (سعد الله بيك) سفير الدولة العلية فى مركز امبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدى من الطبقة الأولى والنيشان العثمانى من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحررات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجودها مطابقة للاصول والعادات قرروا المواد الآتى ذكرها فيما بينهم

المادة الاولى ﴿ انه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبر وزيجه على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد فى الاستانة الى (غوربتو ويلكه) والحد الجديد يستطيل الى (غاجقه) وعلى هذا (توركيا غاجقو) تبقى فى تصرف الجبل الاسود وتمتد الحدود أيضا من مجمع أنهر (بيوه وتاره) وتمر من نهر (درين) الى جهة الشمال وتنتهى الى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (ليم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدئ من نهر (ليم) الى (بريرة بوله) ومن (روستراق الى سوق بلانيا) وبيهود وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامعة لروغوه بلاوا وكوونزه الى باقلى ومن رؤس جبال قوبريونيق وباباور وبور وحذاء حدود بلاد الارناؤط الى أعلى ذروة جبل (روقلتى) ومن هذه النقطة الى (كنيب بيسقاشيق) وينتهى الحد على الخط المستقيم الى عين الماء فى جيستى هوتى وينفصل فيما بين جيستى هوتى وجيستى قاستراتى ويتجاوز ماء أشقوره الى أن ينتهى لنهر بويانه وهكذا مع النهر الى مصبه فى

تخصيص الاراضى وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساسا
فى قطع الحدود * وخط الحدود يبتدئ من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نغره الى سلسلة
الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من نهرد بوجيجه الى درينسة غرب قوما نوه وقوچانى
وقلقان ولن الى جبل قوارب ومن هنالك يمر من نهرد بوجيجه الى درينة ويلتفت الى جهة
الجنوب الى حدود غرب قضاه (اخوى) حتى ينتهى الى جبل ليناس ومنه يمر من غربى
كوريجة واستادره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماه قاستريا و يلتصق بنهر موغليتجه
و يسير مع النهر الى يكيجه ويمر عن نهر واراد يكيجه ومن مصب نهر واراد وقرية غاليقو
الى قراء يارغه وصارى كوى وهنالك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه بشيك كل الى مصب
نهرى أستروما وقره صو ومن السواحل الى بوروكل ويمتد الى الشمال الغربى و يمر على
سلسلة جبل رودوب الى جبلى جالتبسه وأوشوه ويمر من جبال أشك قولاج وجيباون وقره
قولاس وجبقلر الى نهر أرده ويلتفت الى جهة الجنوب ويمر من قرامسو كوتلى وقره حمزه
وارتاد كوى وأقارجى وأبضه الى تكه دره سى فى قرب أدرنه ومن تكه دره سى وجورلى دره
سى الى لوله برغوث ومن هنا وعن نهر جوجق دره الى قرية سوركن ومنها الى التلال ويقطع
حكيم طابيه سى حتى يتصل بساحل البحر الاسود ويبتدئ أيضا من صقالبة السواحل ويمر
من شمال حدود لواء طولجى ومن فرق راسوه الى نهر الطونة

المادة السابعة ﴿ ان أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الاهالى بالحرية التامة والباب
العالى يثبته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوربا الجالسين على
سرير الملك للامارة المذكورة وحينما تخل الامارة كذلك يكون انتخاب الامير الجديد على هذا
المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الامير أن يجتمع مجلس مشيرى
الصقالبة اما فى قلبه واما فى طرنوه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسيه وفى حضور
مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقا لامثالها
أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد
مصالحة أدرنه وعند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالى من
المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضا احالة
تأسيس هذه الادارة الجديدة فى البلغارستان مع مايلزم من النظر فى صور اجرائها لعهدة
مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيه من هنا الى سنتين وفى انقضاء السنة الاولى من
تأسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيه والباب العالى
ودول أوربا يكون للدول المشار اليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسيه

المادة الثامنة ﴿ ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هنا للاقامة فى البلغارستان
وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هنالك بمعرفة الحكومة المحلية وان الباب العالى له حق أن
يتصرف فى الادوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار اخلاؤها من العساكر بموجب

سند

سند المتاركة الذى تحرر فى حادى ثلاثين كانون الثانى والآلات الحربية الكائنة فى مدينتى شمنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية فى البلغارستان مقيمة الى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلا باعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسية وان مدة اقامة عساكر الروسية فى البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هنالك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون ألفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات فى المملكتين فى شطوط البحر الاسود من جهة وارنه وبرغوس وفى مدة اقامتها هنالك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

المادة التاسعة ❦ ان المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان ايفاؤه للدولة العلية يسلم الى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسية والدولة العلية وسائر الدول وذلك فى انتهاء السنة الاولى من ابتداء اجراء أصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لايراد البلاد والاراضى التى تكون فى ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية الى شركة سكة الحديد فى طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة المذكورة ومع الباب العالى وادارة الشركة المذكورة ومسئلة السكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وادارة الشركة

المادة العاشرة ❦ ان الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخيرة من الطريق المعينة فى داخل البلغارستان الى الايالات العثمانية التى وراء البلغارستان ولاجل عدم وقوع مشاكل فى هذا الخصوص وتأمين الايجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالى والامارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة الى ثلاثة أشهر فى ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبوزق والجراكسة والعساكر المعاونة وللباب العالى كذلك أن يتعاطى البوسطة من طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف فى مخابراته فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما فى المدة والشروط المحررة أعلاه

المادة الحادية عشرة ❦ ان المسلمين وغيرهم من أصحاب الاملاك اذا أرادوا الاقامة فى خارج الامارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوضوا أمر ادارتها الى من يريدونه ثم ان مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسية ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرف الاملاك وفى منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون فى ظرف سنتين والاملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه

النفع الزائد لجهة الباب العالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة فى السنتين المذكورتين والأراضى التى تبقى بدون صاحب عند انتقاض السنتين يصير طرحها فى المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع الى أيتام وأرامل المصابين فى الأحوال الاخيرة من المسلمين والمسيحيين

المادة الثانية عشرة ❊ ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعا ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة ما مطلقا ولا يجوز وجود سفن حربية فى مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة فى أمور الضبط فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على أصلها

المادة الثالثة عشرة ❊ ان الباب العالى يتعهد بتنظيف البحر فى مضيق سنه وارجاعه الى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتجار بسبب منع مرور السفن من نهر الطونه مدة الحرب وسيصير خصم خمسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة الى الباب العالى لاجل هذا الامر

المادة الرابعة عشرة ❊ ان الاصلاحات التى تبلغت الى مرخص الباب العالى فى أول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغى حالا وضعها فى موقع الاجراء فى بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستقرر فيما بين دولتى الروسيه وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الاموال المتربه وأن لا يؤخذ شئ من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها فى الاحتياجات المحلية ويسد بها عوز الاهالى والعيال الذين أصيبوا فى الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذى يلزم على الاهالى دفعه فى كل سنة الى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتى الروسيه وأوستريا

المادة الخامسة عشرة ❊ يتعهد الباب العالى باجراء أحكام النظام الاساسى الذى وضع فى سنة ثمان وستين وستمائة وألف المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالى الذى بينوه مقدما ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد فى ترحاله وبانيه وفى سائر جهات الروم ايلى التى ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالى المحلية فى كل ايالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالى وهو يتذاكر مع دولة الروسية فى ذلك

المادة السادسة عشرة ❊ ان خروج عساكر الروسيه من الارمنستان وارجاع تلك البلاد الى الدولة العلية يمكن أن يفضى الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالى حالا باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية فى الولايات التى سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الاكراد والجراكسه

المادة السابعة عشرة ❊ ان الباب العالى سيعلن العفو العمومى عن المتهمين فى الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

المادة

المادة الثامنة عشرة ﴿ ان الباب العالى يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ماينه وكلاء الدول المتوسطة فى خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعى

المادة التاسعة عشرة ﴿ ان مبالغ التضمينات الحربية التى طلبها حضرة قيصر الروسيه هى فى مقابلة الاضرار والخسائر التى تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالى قد تعهد بدفعها فى هاته المبالغ أولا ـ تسعمائة مليون روبل فى مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التالفة وثانيا ـ أربعمائة مليون روبل لاجل الاضرار الحاصلة فى سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفى انواع البضائع التجارية وفى طرق الحديد وثالثا ـ مائة مليون روبل فى مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس ورابعا ـ عشرة ملايين روبل لاجل الخسائر التى حصلت لتبعة الروسية المقيمين فى الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد وأربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة وأربعين مليونا ومائتين وسبعة عشر ألفا وثلثمائة وأحدا وتسعين ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف * هذا وان القيصر المشار اليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل فى مقاصدها التى توجهت عنها فى هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الاراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة أولا ـ لواء طولجى يعنى قضاء كيليا وسنه ومحموديه وايساقجى وباجين وبابا طاغى وخرسوه وكوستنجه ومجيديه والجزائر الكائنة فى نهر طونه قد تركتها الدولة العلية جميعا الا أن الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التى أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من أراضى كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التى يصطادون بها السمك فى النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسيه ومن حكومة المملكتين فى برهة سنة واحدة اعتبارا من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة ثانيا ـ اردهان وقرص وباطوم وبايزيد مع الاراضى المحاذية لها الى جبل جوغانلى سيصير تسليمها الى دولة روسيه وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يبتدئ الخط الفاصل من الجبال التى فيما بين المياه الجارية والمنصبة فى نهر حوبا وجوروق ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة فى جنوب قضاء وارتوين ومن جوار قريتى والات وبشاكت ومن فوق درونيسك وكنى وهوجسه زاد ويحقين صاغ ومن الجبال الفاصلة للمياه التى تختلط بنهرى تورتم وجوروق ومن فوق قسراه يالى وحين ولم كلدسا الى أن ينتهى لنهر تورتم ومن هنالك يمر من سيوى طاغ ومن مضيق سيورى طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت الى وجهة الجنوب حتى يصل الى زوين ومن زوين يمر من غربى طريق أردوست خراسان الى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيلجمان ومنها يمر من جبل ترپا ومن قرية خمير ومن أون رست مسافة



ومن تلال طاندور ومن جنوب وادى بايزيد وينتهى فى الجهة الجنوبية من قازلى كول وهذا المحل هو الحد الفاصل قديما فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضى دولة ايران وإن الاراضى التى صار الحاقها بمالك الروسية ومذكورة فى الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصير تعيين حدودها قطعيا بمعرفة مأمور من طرف الروسية ومأمور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الاراضى وأسباب تأمين حسن الادارة

ثالثا * إن الاراضى التى صار تركها للدولة الروسية كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقى من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عدا العشرة ملايين روبل التى هى فى مقابلة خسائر تبعة الروسية وتأسيساتها فستتفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها

رابعا * إن العشرة ملايين روبل التى تخص التبعة الروسية ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا . أعنى أن سفارة الروسية فى الاستانة تجرى التدقيقات اللازمة بهذا الشأن على طلبات أرباب الشأن وتعرض الكيفية على الباب العالى وهو يجرى التسوية على مقتضى تبليغات السفارة

المادة العشرون * إن الباب العالى يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعا فى حسم الدعاوى المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسية وأنه اذا اقتضى الامر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الاعلامات

المادة الحادية والعشرون * إن أهالى البلاد التى سلمت الى الروسية إن أرادوا الهجرة منها لهم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة فى ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة فالذين لايبيعون أملاكهم فى هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون فى حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة . والاملاك الاميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الاصول التى يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية فى بحر السنين المذكورة وهما يتممان ايضاه كيفية نقل الادوات الحربية الموجودة فى المحلات التى هى الآن فى يد الروس سواء كانت من البلاد التى سلمت الى دولة الروسية أو غيرها

المادة الثانية والعشرون * ان القسيسين والزوار الذين يسكنون أو يسيحون فى الممالك العثمانية فى الروم ايلى والاناطول من تبعة الروسية سينالون الحقوق والامتيازات التى ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة فى الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الاشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون فى الاماكن المقدسة وبالخصوص فى اينوروز فهم حائزون حقوقهم التى كانوا حائزين عليها فى السابق ويحفظون الديارات الثلاثة الكائنة فى اينوروز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديارات والموسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هنالك سوية

المادة الثالثة والعشرون * إن المعاهدات والمقاولات التى كانت موجودة فيما بين

الدولة

الدولة العلية والروسية المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعة الروسية المقيمين فى بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغى ان تجرى أحكامها كما فى السابق وان دولتى الروسية والعثمانية قد أعادتا العلاقات الى سابق مجراها قبل هذه الحرب فى الامور التجارية وغيرها فيقتضى إحكام عرى المعاهدات والمقاولات المذكورة ماعدا المواد التى نسختها هاته المعاهدة

المادة الرابعة والعشرون ● ان خليج الاستانة وخليج جناق قلعه سواء كان فى زمن الحرب أوزمن الصلح يكون مفتوحا للسفن التجارية التى تريد المرور منه الى بلاد الروسية من الدول التى تكون على الحيادة والباب العالى ليس له من بعد هذا أن يستبد بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاق المخالف لمضمون معاهدة باريز التى صار امضاؤها فى رابع ابريل سنة ١٨٥٦ سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف

المادة الخامسة والعشرون ● ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة فى أوربا بالروم ايلى ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعى الى ثلاثة أشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم أن يأتوا الى الاساكل الموجودة فى البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب فى السفائن التى تحضرها أوتستأجرها دولة الروسية حتى لا يكونوا مجبورين على تحديد مدة الاقامة فى الممالك العثمانية وفى رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعى بستة أشهر ولهم أن يأتوا الى طرابزون لأجل الركوب فى السفن ومن هنالك يسافرون الى القريم أو القوقاز

المادة السادسة والعشرون ● ان قواعد الادارة والاوامر التى وضعتها دولة الروسية فى البلاد التى دخلتها عساكرها والتى ينبغى تسليمها الى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين قيام العساكر منها وليس للباب العالى المشاركة فى الاحكام ولا لعساكر العثمانية الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا فان أمير عساكر الروسية يخبر الضابط الذى يعينه الباب العالى عن سفر عساكر الروسية وليس للباب العالى أن يجرى الاحكام من قبل أن تسلم له القلاع والايالات

المادة السابعة والعشرون ● ان الباب العالى لا يجازى أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية فى زمن الحرب وليس لمأمورى الدولة العلية أن يمنعوا أويوقفوا أحدا من الاهالى الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية

المادة الثامنة والعشرون ● ان أسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت ملاحظة مأمورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطى مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون الى أودسة وسواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية فى ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسطا بموجب الدفتر الذى يحرره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الاسرى فيما بين حكومتى رومانيا والصرب وامارة الجبل الأسود فيصير



اجراؤها على هذا الأساس الا انه يصير تنزيل العدد الذى تستلمه الدولة العلية من العدد الذى تستلمه من الأسرى

المادة التاسعة والعشرون ● ان حضرة امبراطور الروسية والحضرة السلطانية سيثبتون هذه المعاهدة ووثائق الاتفاق تكون معاطاتها فى سان بطرسبورج فى ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك ان أمكن وكذلك يجرى التصديق رسميا على الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية فى المعاهدات العلية وان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطى المعاهدة تعدان أنفسهما رسميا بانهما متعهدتان بأن مرخصى الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتى تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقمها صاحب الجوائب) ثم جاء بعد ذلك مانصه ● ان معاهدة مقدمة الصلح التى صار امضاؤها فى هذا اليوم أعنى فى تاسع عشر شعبان وثالث اذار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهو بها فى الجملة الاخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزأ متمما للمعاهدة المذكورة وهى

ان الذين يقيمون أو يسيحون فى الممالك العثمانية من أهالى البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى

قال بعض كتاب الاخبار ● فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الانجليز فانها أصبحت وكأن الطير على رؤس كبار ساستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا الى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويرمون دولة الروس بالمخادعة والمكر ويتوثبون لأسبيل الى ترك بوسنه وهرسك مضغة لينة لغيرنا ولا بد من أخذ حينا سلانيك لتحفظنا عن تريستا التى أكثرت ايطاليا تهديدنا ووعيدنا بسببها وكتب كبير ساسة الانجليز الى دولة الروس يقول ان كل حل تأتيه الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف المبرمة فى عاصمة الفرنسيس لا يعتمل به الا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول فى عقد مؤتمر فى مدينة برلين عاصمة الالمان للنظر فى مدعياتها فأجابتها الى ذلك واشترطت دولة الانجليز ان يكون لاعضاء هذا المؤتمر حق النظر فى جميع مواد معاهدة سان استفانوس والاتيان عليها مع سائر أبوابها فما نعت دولة الروس فى ذلك وشددت فى المنع وعظم الخلاف بين الروس والانجليز واستفحل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر اهتمام الانجليز بحشد الجنود واعداد معدات القتال وجعل سفن حربهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية الى الجزيرة المذكورة كى يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة اليهم وبالغت دولة الروس كذلك فى حشد الجنود وتسليح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتصطدم بها سفن تجارة الانجليز عند

انتشاب الحروب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة فى البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا فى الجبال فعز على الروس ارجاعهم الى الطاعة وعمت الفتنة جميع البلغارستان ونواحى صوفيا الى حدود الصرب واشتدت وبقى الحال هكذا أياما ومراكب حرب الانجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشت الأمراض فى عسكر الروس ووقع فى الجند الموات فكبر الامر على القيصر وسير الى خاله امبراطور الألمان فى الوساطة بينه وبين الانجليز وأنفذ الى سفيره بعاصمة الانجليز فى ذلك أيضا فانفتح باب المخابرة فى الصلح والوقوف عند حد يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والانجليز على عقد المؤتمر فى برلين عاصمة الالمان كطلب دولة النمسا وكتبوا الى البرنس بسمارك كبير سياسة الألمان فى أمر ذلك فانفذ الى بقية الدول بان تبعث سفراء من قبلهم بجانب سفرائهم الى برلين بعد أخذ ورد وانعقد المؤتمر وتكلموا فى معاهدة سان اسطفانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها قال بعض الكتاب * وقال اللورد بيكنسفيلد كبير سياسة الانجليز يومئذ ولماذا لاتنسحب العساكر الروسية عن ضواحى دار السلطنة العثمانية فاجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تنسحب السفن الانجليزية من مياه القسطنطينية فعارضه بيكنسفيلد فى ذلك ورد عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما النقد وكاد ينحل عقد المؤتمر لولا وساطة بسمارك وحسن سياسته * ومازال المؤتمر يوالى جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا فى عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين وهى تحتوى على أربع وستين مادة قد أضربنا عن ايرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنه والهرسك الى دولة النمسا والمجر تسليما لا رد بعده واعطاء اليونانية جزأ من أراضى الدولة العلية توسيعا لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الاسود واعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتيفارى المهمة الواقعة على بحر الأدرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزأ من الاملاك العثمانية اسوة بغيرها أما دولة الانجليز فانها لم تكتف من الغنيمة بالاياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط وعهود قد اضربنا عن ايرادها هنا وانقضت تلك الحروب المشؤمة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والاراضى ما كاد أن يختل أركانها بل يقوض بنيانها ويمحى ما بقى من آثار مجدها القديم والامر يومئذ لله الواحد القهار

ولما عادت الامور الى سابق مجراها أظهر السلطان ميله الى موالاة الروس ومحبته لمصيرهم وكرهه لسياسة الانجليز ثم عمد الى قطع شأفة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمنتمين الى الانجليز من كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتضييق مقتل عمه



السلطان عبدالعزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد في تلك الفتنة وشدد في الامر وقيد بذلك جماعة من كبار الحفا ثم قبضوا على كل من ظهرت تهمته في ارتكاب هذه الجناية • قال أحمد الكاتب فكانوا خمسة عشر شخصا منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج احمد آغا ونجيب بيك وعلى بيك ونورى باشا ومحمد جلال الدين باشا أصهار السلطان عبد المجيد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام والسلطانة والدة السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لمحاكمتهم فأتى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تيمستوقل خوستو فوتيادى يونانى الجنس عثمانى التبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمنى واسمه اسكندر افندى والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التى عهد اليها النظر فى هذه الدعوى سروري افندى رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذى تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر فى قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الاخبار فلما استقر بمن حضروا المقام نودى على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب سور مائلة على بعد من سراية يلدز فحضر أولا مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج احمد آغا ونجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا وكان المدعى العمومى اسمه لطيف بيك فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ فى تعريف المتهمين وقد عرض النصيحة للمحامين الذين انتدبوا للدفاع عنهم ثم أشار بتلاوة المثبت فى صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله افندى باشكاتب الدائرة واستمر فى تلاوة هذه الاوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاصل مافيها

انه بعد خلع السلطان مراد وجلوس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراى السلطانية وبحث فى أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صغار المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا ففحص عن سبب ترتيب هذا المعاش لهم فعلم انه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج احمد آغا فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا ان محمد جلال الدين باشا ونورى باشا أصهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياهم على فعل القتل وان محمود باشا زودهم بما يلزم فعله وزادهم علما به نورى باشا وشدد عليهم بكتمان الامر بأيمان القسامة وقد وافق على اجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من محمد رشدى باشا الصدر الاعظم ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الاسلام فانهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعه فرمانا بان لايقع فى داخلية

السلطنة

السلطنة وتأريخها شيء الا بأمر هذه الهيئة فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عبد العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتآمرين كان من قصدهم أيضا اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعا الى مأدبة أعدها جلال الدين باشا فى قصبة فى آدالى بك أوغلى فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب الى تلك الناحية ● وبناء على ما ظهر فى هذه القضية حكمت النظارة (لعلها دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم محمد جلال الدين باشا ونورى باشا ومدحت باشا ومحمد رشدى باشا وخير الله افندى شيخ الاسلام والسلطانة والدة السلطان مراد بالاشغال الشاقة الى أمد طبقا للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضا وبأن يعافى من ذلك لاختلال عقله وحكمت بالقتل على فخرى بك ومصطفى الجزايرلى ومصطفى البهلوان والحاج احمد أغا ونجيب بك وعلى بك وسعيد بك ورضا بك طبقا للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات ● وبعد تلاوة الاوراق نخص سروزى افندى الرئيس الدعاوى وأخذ فى استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولا فقال

قد استدعانى محمد جلال الدين باشا يوما وقال لى انه رتب لى مائة ليرة عثمانية فى كل شهر ولرفيقى مصطفى الجزايرلى أيضا على ان تقوم بمهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بمقرض أعده لنا ثم استدعانى نورى باشا أنا ورفيقى وأوصانا بما ذكر وبالغ فى الوصية وشدد علينا فى الامر وقال لم يبق لنا حيلة سوى الخلاص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا واستحلفنا على كتمان السر فحلفنا فناولنا كلامنا ثلاثين ليرة عثمانية فلما كان عصر اليوم أدخلنى نجيب بك وعلى بك الضابطان اللذان كانا يحرسان السراى باوزطة كوى أنا ورفاقى وأربعة من الخصيان الى مقر السلطان عبد العزيز فقتلناه بحضرة فخرى بك وهو الذى قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا قبضا على ساقيه بعنف وشدة كى لا يستطيع الخلاص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثانى وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث وكان نجيب بك وعلى بك فى هذا الحين يحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نحبه حملوا جثته وهى ملفوفة ببعض الثياب ووضعت فى حجرة قهوة وجاق الحرس على حصير من القش كانت هناك

فسأله الرئيس — أصحيح ما قيل ان السلطان كان به رمق من الحياة حين نقل به الى الحرس فقال البهلوان لا علم لى بذلك غير أنى أظن أنه كان قد مات وشبع موتا

فالتفت الرئيس الى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم ينكر من فعله شيئا ثم سأل مصطفى الجزايرلى فتلعثم وتلون واختلفت أقواله عما اعترف به فى التحقيق الابتدائى ثم قال ان ما قلته من أن نورى باشا قد حلفنا اليمين بأن نقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ منى فان نورى باشا لم يأمرنا بشئ من ذلك بل أوصانا بأن نخدم السلطان أحسن خدمة وان نقترب من مقامه ان شاء أن نكون بحضرته وأن نعتنى بحراسة مقره غاية الاعتناء



فعلناعبا أوصانا به الى ان قتل السلطان نفسه ـ فقال الرئيس ـ أولم تشترك مع رفاقك في قتل السلطان فقال حاشا فقد كنت وقت قتله في أسفل الدائرة فلما سمعت الضوضاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت ان السلطان قد قتل فقال الرئيس قد خالفت ما اعترفت به في التحقيق الاول فقال اخطأت مرادي أن أقول سمعت الضوضاء فتوهمت حريقا في السراي فهرولت اليها فقالوا لي ان السلطان قتل نفسه

فنظر الرئيس الى فخري بك وسأله فقص ماوقع من السلطان عبد العزيز وانتقاله الى طوب قبو واقامته بها بعد أن كتب ورقة الى السلطان مراد وهو في سراي شراغان ثم قال ـ ان السلطان عبد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان فقد رأى حزمة في أرض الجنينة لتذويب الكلس فاضطرب منها وقال انها من علامات السوء ودلائل النحس ثم سمع طلق مدفع فقال ان أهل البلاد انقسموا الى حزبين وهاهم يتضاربون من أجله ـ قال ـ وكان السلطان يقول انه لابد من ان يقتل كما قتل السلطان سليم واتفق أن رأى نفرا من الجند يدخنون السيجار تحت شبابيك السراي فجعل يشتمهم ويعزرهم على كفرهم بالاحسان ـ ورأى مركبا حربية آتية لتسير تجاه قصره فصاح مناديا بانهم لايلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره ـ قال ـ وفي تلك المدة دعيت الى حوش أورطه كوى حيث كان نجيب بك وعلي بك فاشعراني بان عندهم ثلاثة أشخاص لابد من ادخالهم الى مقر السلطان تنفيذا للارادة الشاهانية وان هؤلاء الاشخاص مأذونون بنقل بعض المتاع من السراي ففارقتهما ولكن اضطررت بعد ذلك الى الاذعان فدخلوا وقد رجعت الى مقر السلطان فكنت أرى علامات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراي يلتهب نارا وان الاعداء أوقدوا فيه النار عمدا وقد طلب مرآة ومقصا لكي يهندم لحيته وكنت أمرت أن لايعطى شيأ ولكن بالرغم عني أعطوه ما طلب فانزوى في مخدعه وقفل بابه فحضرت احدى جواري والدته وجعلت تنظر من الطاق لتعرف ما الذي يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسرعت الى الدائرة فوجدته مطروحا غريقا في دمه ـ فقال الرئيس ـ قد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فهل أخذت ذلك السيف ـ فقال نعم ولكن وضعته مع بقية الاشياء التي أخذت بأمر الذات السلطانية ـ فقال الرئيس ـ لمن سلمته ـ فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس ـ الرئيس ـ من هو هذا الحارس ـ لا أعرف اسمه

الرئيس ـ قد نظروك مساء وأنت تتكلم في موضع الجرس مع جلال الدين باشا وحسين عوني باشا ونوري باشا

نعم ـ قد كانوا استدعوني ليتحدثوا معي بشأن خدام السراي

الرئيس ـ لمن سلمت السيف ـ لا أعرف ـ لا يخطر لعاقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتـل السلطان فأنكره وأكد أنه قتـل نفسه ــ قال ــ وقد كنت مكلفا بحراسة متاع السلطان المأخوذ من السراى ففى ليـلة هذه الحادثة ذهبت الى سراى دولمه بغچـه حيث تقابلت مع جـلال الدين باشا وأخذت منـه سلسلة من ذهب وساعـة ثم رجعت الى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخـدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر السلطان مراد فقضيت ليلتى تلك بغاية الطمأنينة وبينما أنا راقد فى الليـل اذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت ان السلطان قتل نفسه

الرئيس ــ ان بعض المتهمين قالوا انك كنت قائما بالباب عند ما كانوا يباشرون فعل القتـل ــ فقال ــ ليس ذلك بصحيح ــ فالتفت الرئيس الى محمود باشا وقال قد ظهر انه بعـد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكانى كانت تشكلت هيئـة فى السراى بارادة سلطانيـة فصار من المحتم ان كل شئ يقع فى البلد لا يكون الا باشارة هـذه الهيئـة فهلا كنت عضوا عامـلا فيها ــ فقال محمود باشا لا علم لى بوجود هـذه الهيئـة ولم أكن من أعضائها ٭ نعم انه فى ثانى يوم جلوس السلطان مراد توجهت الى السراى فكلفونى بقبول منصب احـدى الوزارات وفى اليوم التـالى بقيت فى السراى ولا أعلم البتة بهـذه الهيئة ــ فقال الرئيس ــ لقـد صرح أدهم أفندى ونورى باشا بما يخالف ذلك ــ فقال محمود باشا كذبا فيما قالا

الرئيس ــ علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز الى سراى طوپ قپو طلب منك أن تنقل اليه جميع أمتعته وعهد اليك أيضا المحافظة عليه حـين نقله بعـد ذلك الى سراى قرية فأنت حينئذ الذى حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر فقال حاشا حاشا وكلا لم يعهد الى بان أخفر السلطان فى مقره ــ فقال الرئيس ــ وأين كنت يا ترى ليلة مقتـل السلطان ــ فقال كنت فى دارى بالفنـدقلى الى أن توجهت الى محمد رشدى باشا ــ فقال الرئيس ــ محمد رشـدى باشا يكذبك فانهم قد تطرقوا ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة فى الحرس تتكلم مع فخرى بك ونجيب بك وعلى بك ــ فقال لم يحصل شئ من ذلك البتـة ــ فقال الرئيس ــ الشهود عليك كثيرون وذكر له أسماء الشهود ــ فقال محمود باشا كلهـم يكذبون فيما يدعون ــ فقال الرئيس ــ قد تطرقت القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر ــ فقال محمود باشا قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه ــ فقال الرئيس ــ هل توجهت الى محـل الحادثة عنـد ما علمت بها ــ فقال لالا ــ قال الرئيس ــ ومن أين اذا علمت بهذه التفاصيل ــ فقال علمت بها من صحف الاخبار التى تكلمت عنها

فالتفت الرئيس الى نورى باشا وقال من الذى دعاك ماريشال السراى أى أمير أمراء جنـد الحرس السلطانى ــ فقال السـلطان مراد هو الذى دعانى بهـذا الاسم ــ فقال

الرئيس ـ قد شكلت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة فى السراى فمن يا ترى كانت هذه الهيئة مؤلفة ـ فقال نورى باشا كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله افندى شيخ الاسلام وكنت أنا من أعضائها أيضا ـ فقال الرئيس ـ اذا ما هى الاعمال التى نيطت بتلك الهيئة ـ فقال هى جميع الاشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لايقع فى الدولة شئ بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان ـ الرئيس ـ ومن الذى بعث بالثلاثة رجال الى مقر السلطان عبد العزيز ـ فقال أرسلهم المابينجى سعيد باشا حيث أتى بهم الىّ بأمر سلطانى وبما أنى مارشال السراى كان لابد من مخابرتى فى جميع الامور فأرسلتهم بصفة كونهم خدمة الى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة مااستطاعوا ـ الرئيس ـ هل أعطيتهم تعليمات سرية * باشا فانى أدخلتهم فى مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ ـ الرئيس ـ كيف هذا مع ان مصطفى الجزايرلى قد قرر خلاف ما ذكرت وقال انك طلبت منهم كتمان السر وانك حلفتهم بيمين القسامة * ليس ذلك بصحيح البتة ـ الرئيس ـ هل توجهت الى محل القتل ـ نعم عندما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحصا طبيا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الاطباء

فتقدم محمود باشا وأنكر أقوال نورى باشا وكرر القول بأنه لا يعلم البتة بتشكيل تلك الهيئة ـ فقال الرئيس ـ كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نورى باشا بمصطفى الپهلوان ـ فقال انى لم أر الپهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمس عشرة سنة فى ناحية جاملجة وأوصيت نورى باشا به ولم يكن فى خدمتى أويتردد علىّ قط قبل الآن

ثم دخل مدحت باشا وبيده مفكرات ودفاتر وأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت اليه الأعناق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسى كان أمامه ـ فقال له الرئيس ـ يتلو عليك الكاتب الآن ما يتعلق بك مما ورد فى أوراق الدعوى ـ فأجاب مدحت قائلا قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول انى أعد نفسى سعيدا اذ دعيت لأبرئ نفسى من تبعة جناية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء اذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بأمورهم فتصرفوا بنوع من العجلة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحترام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محاكمة علنية وهى خطوة عظيمة نحو الحرية فما تم مقاله حتى جعل الكاتب يتلو مرسوم الاحالة وأوراق الدعوى وقبل أن تتم تلاوة

جميع الاوراق عاد مدحت باشا الى سياق مقالته الاولى فقاطعه الرئيس وقال يجب عليك
السكوت فان ادارة المحكمة هى من خصائص الرئيس لا المتهم ثم قال له قل ما تعلمه من أمر
الهيئة التى كانت فى السراى فقال لاعلم لى بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن
مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمور الدولة وانى كنت أحد أعضائه ولم نؤمر
بقتل السلطان عبدالعزيز فقال الرئيس من الذى أمر بأن يؤخذ من السلطان المخلوع
سيف السلطان سليم فقال مدحت باشا أنهى بذلك بعد الخلع فقال الرئيس نعم قال قد أمر
بعد نقله الى سراى طوقبو أن يبعد عنه كل نوع من الاسلحة ولم يكن لذلك من سبب سوى
الخوف على حياته ـ الرئيس ـ متى تمت وفاة السلطان فقال مدحت باشا يوم الاحد توجهت
الى الباب العالى لاحضر الجلسة التى كان مزمعا عقدها فوصلت اليه ولم أجد أحدا فسألت
عن الخبر فقيل لى ان المستشار سعيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا فسألته عن سبب
غياب الوزراء فأخبرنى بالحادثة فراعنى الخبر بل كدرنى جدا خصوصا وقد خطر ببالى وتشتد
مايترتب على ذلك من مؤاخذة الكثير من خلق الله فى هذه الحادثة بمجرد الشبهة
ـ الرئيس ـ لكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك فقال مدحت ليس لتكذيبه
عندى أهمية فبعد أن سمعت هذا الخبر بارحت الباب العالى وسرت الى دوله بقجه قاصدا
حرس أورطة كوى حيث كان هنالك جماعة الوزراء وجم من العلماء وغيرهم من أهل المراتب
وتسعة عشر طبيبا فكلهم قالوا لى مع نخرى بك ان السلطان قتل نفسه فلم يسعنى الا التصديق
كسائر من سمع الخبر من الحراس ـ الرئيس ـ قالوا انهم وجدوا عدا الجروح التى كانت
فى ذراعيه جرحا آخر فوق ثديه الشمال وآثارا أخرى شديدة تدل على أنه قتل مقهورا
وحيث انك كنت فى ذلك الحين وزيرا فكان من واجباتك أن تأمر بالفحص فى أمر قتله
فقال مدحت اذا اعتبرتمونى لاجل ذلك مسؤلا وجب اذا جعل جميع الوزراء الآخرين
مسؤلين مثلى ولكنى لست أراهم قائمين بجانبى فى هذا الموقف حتى أقتسم بينى وبينهم
مسؤلية عدم أمرهم باجراء الفحص ـ الرئيس ـ هل كان فى السلطان رمق من الحياة عند
مانقلت جثته الى وجاق قهوة الحرس * فقال مدحت لاعلم لى البتة بذلك ـ الرئيس ـ كيف
ومحمد رشدى باشا لايقول ماتقوله أنت الآن فقال مدحت ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدى
باشا أمورا أخرى كثيرة من هذا القبيل ـ الرئيس ـ ان المجلس يرغب أن يسألك أيضا عن
الاسباب التى حملتك على الالتجاء الى دار قونصلية فرانسا * فقال مدحت باشا هذه الحادثة
تحتاج للتفصيل ولكنى مع ذلك أقول انه قد كانت وردت لى مكاتبات من الاستانة تعلمنى
بكل ما كان يقال فى حقى وكشفت لى عن التهمة التى رميت بها فى ظروف لايطمئن معها
قلبى ثم لم ألبث أن رأيت فى صباح ذات يوم معاون الحضرة السلطانية وصل الى أزمير ثم
أتى القوناق وجعل فى الحال يراسل السراى السلطانية برسائل الارقام وقد أبلغنى بذلك
رجال البوليس السرى الذى كنت أنشأته هنالك فعلمت أن ذلك الامر يختص بى ذاتيا ثم بعد

وصول هذا المعاون بايام قلائل علمت أيضا بوصول مأمور عسكري وهو على بيك رجل على شاكلة وفطرة شركسلي حسن وادعى أنه انما جاء لاجل أن يرتقي الى رتبة ميرالاى وان لباسه الرسمي لم يكمل لغاية حضوره الى أزمير ولذلك أتى بغير لباس عسكري ثم جعل بعد أيام من وصوله يتكلم بما لا يليق وينسب لى أمورا قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى بلغنى أنهم عازمون على القبض علىّ وفى تلك الليلة نفسها رأيت انه قد أحاط بمنزلى ثلاثمائة جندى فداخلنى من الخوف ما ألجأنى الى عدم التأخر عن السير حتى لا تنالنى هذه الحراب المشرعة ولا أقع فى أيدى رجال على بك المذكور ولهـذا السبب خرجت من باب الجنينة وركبت أول عربة وجـدتها وسرت الى المحلة الاورباوية فاول باب وجـدته مفتوحا كان باب دار قونصلية دولة الفرنسيس فدخلتها وانى لأ كذب كل التكذيب ما قيـل من أنى فتحت بابا فى الجنينـة عمدا لهذا الغرض قبـل بخمسة أيام كما أنى برىء من اتهامى بانى هيأت العربة فى تلك الليلة قبل الامر

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقـفل الجلسـة وانه لدى افتتاحها تسمع شهادة كثير من الشهود ولما كان اليوم الثانى افتتحت الجلسة بعد الظهر وجلس القضاة وأخذ فى تلاوة طلب المدعى العمومى وقرار المجلس المشـتمل على الحكم على مصطفى البهلوان وحاجى محمـد ومصـطفى الجزايرلى ونجرى بك بان لهم اليد فى قتل السلطان وعلى محمود باشا ونورى باشا وعلى بك ونجيب بك وعزت بك بانهم شركاء فدافع عنهم المحامون وقال بعضهم أمام هيئـة المحكمة انهم يرفعون دعواهـم أمام محكمة التمييز وقال البعض الآخر انهم يسـلمون أمرهم لحلم ورحمة الذات السـلطانية وكذلك طلب المحامى عن محمود باشا تخفيف الحكم عليه ثم قام الاعضاء واختلوا برهة ثم عادوا وقرروا الحكم على سبعة من المتهمين بالقتل طبقا للمادة المائة وخمس عشرة من القانون العثمانى وهـم مصطفى البهـلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى ونجرى بيك ومحمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وحكموا على سعيد بيك وعزت بيك بعشر سـنين فى الاشـغال الشاقة وكان هـذا الحكم بموافقة جميع الآراء خلا الحكم على محمود باشا ونورى باشا فانه كان بالاغلبية ثم أخرجوا جميع المتهمين من قاعة الجلسـة وعاد القضاة بعـد ذلك فحكموا على مدحت باشا ولم يحضر بين القضاة سرورى أفنـدى فانه قـد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعته عن نفســه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليـه طلب المدعى العمومى القاضى بقتله لاشتراكه فى مقتل السـلطان عبـد العزيز ثم سأله الرئيس هل عنـدك شئ من الملحوظات تقوله لهيئة المحكمة فقال ان عندى كلاما طويلا فى طريقة المحاكمة والسـير الذى سارت به فأجابه الرئيس بأن هـذا ليس له فى هـذه الهيئة من محل وأمره بالسـكوت فقام شهرى أفنـدى المحامى عن مدحت باشا وقال ان موكلى مدحت باشا يطلب استئناف الدعوى فقام القضـاة واختـلوا مليا ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء

بالقتل

بالقتل لاشتراكه فى قتل السلطان عبد العزيز وبعد أن تلى عليه الحكم قال له الرئيس انه لابد من تقديم تقرير الاستئناف فى ظرف ثمانية أيام * فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقتل اندفع أصحاب صحف الاخبار الانجليزية يهولون ويهددون ويرمون رجال السلطنة العثمانية بالعسف والجور وقام أحد خطباء الانجليز يطلب من حكومته باسم الانسانية وبشرف الامة الانجليزية التداخل فى أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بحياته التى هى ثمينة عندهم وجعل يبالغ فى الاطراء ويعدد مناقب مدحت وماله من الايادى البيضاء على الدولة الانجليزية فرد عليه أحد رجال السياسة وقال متهكما * خفف عنك يا صاح ولا تجزع فان رجال حكومتنا عافاهم الله لم يبخلوا بان أنفذوا الى دوفرين سفيرنا فى دار السلطنة العثمانية بالوساطة فى استصدار فرمان من السلطان بالعفو عن مدحت ومحمود جلال الدين ونورى باشا فانهم قد دافعوا كثيرا عن السياسة الانجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قابضين على زمام الحكومة لاسيما مدحت قال ولا إخالك تنكر على القول بان قومك الانجليز أصلح الله حالهم يحبون مدحت حبهم لانفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسند الصدارة بل أعمل سفيركم هناك الجهد حتى ولاه على الشام وكم شدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالويل والثبور ولو لم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذى كان قابضا على زمام الحكم فى بلادك يومئذ لأرانا من دسائسه فى تلك الاصقاع عجائب غرائب بل المبكى والمضحك فتأمل عافاك الله واحكم ان كنت من المنصفين اه

ورفع مدحت باشا الى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها انى وان كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عند ما ظهرت منه الرغبة فى عزل الوزراء وتسليم البلاد والامة وادخال جيش روسى فى دار الخلافة الاسلامية ولكنى لم أعمل على موته ولم أشترك فى ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه الا على خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول شهيدان * فلم يلتفت السلطان الى كلامه ولم يسمح بتخفيف العقوبة عليه (قال بعض كتاب الاخبار) وقد نسب أصحاب صحف أخبار الانجليز ما وقع لقاتلى السلطان عبد العزيز من الشدة ثم الحكم عليهم بهاته العقوبات الى دسائس الروس واتساع كلمتهم فى دار السلطنة العثمانية فتحركت لذلك خواطر العامة والخاصة من الانجليز وقاموا وقعدوا وطلبوا منع تنفيذ الاحكام على مدحت ورفقائه كأنهم انجليز أولاد انجليز ثم قام خطباؤهم فى دار ندوتهم ينادون واتمدناه وانسانيتاه وامرحمتاه فوقعت عند ذلك بينهم ضجة حمل فيها أهل اليمين على أهل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الاصوات وطال الجدال واشتد الهياج واحتدم النكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤسهم الا وهم على بينة مما سيكون ولم يمض على ذلك الا القليل حتى شاع الخبر بصدور فرمان السلطان باستبدال حكم القتل على مدحت ورفقائه بالنفى والتبعيد الى الاقطار الحجازية * فلما كان تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين عبرت من ترعة السويس سفينة عثمانية حربية اسمها (عز الدين) تحمل مدحت

ورفقاءه قاصدة جدة ولم ترس بالمينا بل دخلت من البوغاز وسارت الى السويس مسرعة فاغضب قيصر الروس هذا الامر وعلم أنه من أفاعيل دولة الانجليز فاضمرلها السوء وعمد الى معاكستها فى أواسط آسيا وتنكيس أعلامها فى جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره المنصور الى قلب التركمان تك وحدود الافغان التى هى حصن الانجليز الاكبرالحائل بين غارات الروس وبين هندهم ففعل ذلك الجيش فعاله وتغلغل فى جوف البلاد وأرهب وهدد وأخضع الخصوم وذلل الصعاب فكادت قلوب الانجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضاقت عليهم المذاهب فكادوا يسقطون فى أمرهم • وبينما كان القيصر ينظر الى ظفر جنوده فى تلك الاصقاع نظرة الساهر على الاخذ بالثار اذ تحركت طوائف الناهلست وهم طائفة العدميين وقيل حركتهم أيدى الانجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكايد وتبعوه أينما سار بالآلات الجهنمية قصد اذهاب روحه فتحفظ وبث العيون والارصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ فى تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغة حتى خيل له أنه فى مأمن من شرها • واتفق أنه ذهب بعد ظهر الحادى عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين الى مشاهدة معرض الجنود على عادته فبينما هو عائد الى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قنبلة محشوة بالمواد الالتهابية فسقطت القنبلة تحت عجلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا ممن كان معه فأسرع هو ونزل من العربة فرارا ولكن لم تصل أقدامه الى الارض حتى سقطت بين رجليه قنبلة أخرى فخلعتهما معا فسقط وأغمى عليه لايبدى ولايعيد فأسرع الجند فى نقله الى السراى وهو لاينطق بكلمة ولبث ثلاث ساعات ونصفا فى نزع شديد حتى فارق الحياة وقدمات أيضا بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد فى القبض على مرتكبي هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالابوف ومكاوف وصوفيا بروسوكا وألقتهم فى السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولى العهد قيصرا على الروس وبايعوه البيعة العامة ثم دفنوا القيصر فى مشهد وأخذوا فى محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعا بالقتل • ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر اسكندر الثانى الذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة الانجليزية رحمهما الله تعالى فهو الغفور التواب

مطلب رجوع دولة الانجليز الى تهديد الخديوى اسمعيل

وعادت دولة الانجليز وكانها قد تفرغت الى تهديد الخديوى اسمعيل وارغامه على وفاء سائر الديون الصغيرة التى حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت الى قونصلها المستر فيفيان أن يشدد فى طلب ذلك والخديوى يحاول ويطاول • واتفق فى هذه الاثناء أن تغيرت هيئة حكومة الفرنسيس بهيئة أخرى كان فيها المسيو وادنجتون وزيرا للامور الخارجية فنظر هذا المسيو الى ماهو واقع من الخديوى بعين القلا والرجل من دم انجليزى أقام سفيرا للفرنسيس بدار الانجليز أعواما كثيرة فيصح أن يقال عنه انه انكليزى بحت فكتب فى صفر سنة خمس وتسعين الى وزير الانجليز يعلمه بما آلت اليه الحالة

بمصر



مطلب
امتناع الوزير شريف باشا من الحضور أمام هيئة التحقيق وخلعه لنفسه من المنصب

عصر ويستفزه الى الاخذ بالاحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين الفريقين متتابعة حتى تقررت القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التفتيش يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التى اتخذت للنظر فى حالة خزينة البلاد وأرباب الديون وكلموا الخديوى فى ذلك ومازالوا به حتى رسم فى سادس عشرى ربيع الاول سنة خمس وتسعين أى فى غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برياسة المسيو فردينند دلسبس فاتح خليج السويس ووكالة أحد رجال الانجليز المسمى ريفرس ويلصون فلم يتسن للرئيس الحضور فى جلسات المجلس لاسباب سياسية لم نصل الى معرفة الصحيح منها فأخذ المجلس فى العمل تحت رياسة ويلصون الانجليزى وجعل يبالغ فى البحث والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفى الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه * وكان الوزير محمد شريف باشا فى هذا الحين فى منصب وزارتى الخارجية والحقانية فسير اليه ويلصون يستدعيه يوما لسؤاله أمام المجلس عن شئ يريده فاستعظم الوزير هذا الامر وأكبره وامتنع من الذهاب فكبر ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديو وكيلا ثانيا لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من الحضور أمام هيئة المجلس قيل ان مصطفى رياض باشا جعل يزين الى ويلصون الاصرار على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والبرة فشدد ويلصون فى الطلب ومال على الوزير شريف باشا وقال لابد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع وقال لاسبيل الى ذلك وطال بين الفريقين الاخذ والرد وتداخل فى الامر قناصل الدول واشتدت الازمة واتسع الخرق فلم يسع الوزير الا التخلى عن منصبه فاعتزله ولم يرض بالذل والصغار فرسم الخديو باقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بايعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياما وأحست دولة الانجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت باقامة ويلصون رئيسا فأجابها الخديو الى ذلك وأناب عن هيئة الحكومة فى ذلك المجلس بطرس بيك غالى وهو يومئذ كاتم أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون فى البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الامور من أبوابها وكتبوا بما علموه من حالة البلاد والخزينة والديون محضرا ذكروا فيه أمورا كثيرة كان أهم مافيها أن جميع ما اتخذ من التحوطات قبلا وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لاحقيقة لها البتة وما هى الا من قبيل النقش على الماء وأن لاسبيل الا الى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير قاعدة لها ثابتة الاركان لايعتورها شئ من الزور و البهتان وكلموا الخديوى فى ذلك فاظهر غاية الميل ومزيد الرغبة وسهل لهم الامر ما استطاع وعمل بما أشاروا به بجهد الاستطاعة

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجريه أى شهر

مطلب تشكيل الوزارة المختلطة وخلع الوزراء المصريين

أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الانجليز الى الخديو بخلع الوزراء وتنزيلهم كافة عن مناصبهم فخلعهم طائعا فرسمت له بتأليف وزارة أخرى من ويلصون رجلها ودى بلينار الفرنساوى الذى كان ممن جاءوا للنظر فى أمر ديون الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نوبار باشا فأجابها الى ذلك وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الانجليزى لوزارة المالية ودى بلينار الفرنسيسى للاشغال العمومية ومصطفى رياض باشا للداخلية وأخذت على الخديو العهود بان لايأتى عملا الا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأيا الا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية وصادق أصحاب سياسة الفرنسيس والانجليز على هذه العهود وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها وظنوا سكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق وأعقب ذلك أن استدانت الخزينة قرضا جديدا قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحد كبار أغنياء الانجليز المسمى روشيلد وجعلت جميع اقطاعات الخديو واقطاعات عائلته على اختلافها رهنا لوفاء هذا القرض وعقدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشؤا ديوانا مخصوصا فتولى ربه ادارة عمل تلك الاقطاعات وجمع أموالها وتدبير شؤنها وكانوا ثلاثة انجليزى وفرنساوى ومصرى واشترطت دولتا الانجليز والفرنسيس عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه الا بعد رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مأمن من كل حادث ولم تقفا عند هذا الحد بل طلبتا أيضا اقامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة على جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع مالا يلائم منها مصلحة أصحاب الديون وخزينة البلاد وراسلت دولة الانجليز الخديو فى ذلك على يد المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر وأظهرت للخديو غاية التجمل والملاطفة فأبى الخديو عليها ذلك فالح عليه القونصل وأكثر من الالحاح والترداد على مقر الخديو فأكبر الخديو هذا الامر وأحزنه وقال للقونصل يوما ماهذا الالحاح وقد كنا والانجليز يشيرون علينا اشارة الصاحب الودود فأصبحنا وهم يتهددوننا تهديد العدو الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو يراوغه ويحاوله

وسار الوزراء فى أعمالهم سيرا حثيثا وأظهر ويلصون همة ورغبة زائدة فى تخفيف المصارفات عن عاتق أهل البلاد والتزام جانب الاقتصاد والحزم جهد الاستطاعة قيل وكلم الخديوى فى ذلك فاستحسنه وحبب اليه العمل به وقد كانت الخزينة الى هذا الحين فارغة والجبايات معطلة لاسيما مرتبات سائر الجند والعسكر وعلوفات كبارهم وقد مضى عليهم زهاء عشرين شهرا لايحصلون على فضة ولانحاس فعمد ويلصون عندذلك الى الاتيان على أوجه الاقتصاد من أبوابها فحسب ودقق وصرف من الجند والعسكر زهاء الالفين الى أوطانهم تخفيفا على الخزينة وجعل ينظر فى جميع مصر وفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك أمراء الجند وكبارهم واستعظموه وشكوا منه الى مقدمهم وتزاحموا على أبواب ويلصون والوزير نوبار باشا يطلبون صرف جوامكهم الموقوفة ومرتباتهم المتأخرة وهما يعدانهم

ويهونان

مطلب تحزب طوائف الضباط واهانتهم الوزير نوبار باشا ومن معه

ويهوّنان عليهم فكانوا لايزدادون الاالحاحا وتشديدا فى الطلب

فلما كان خامس عشرى صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثامن عشر فبراير سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمع نيف وأربعمائة من صغار الضباط وساروا وهم متجمون بالسلاح ومروا برحبة عابدين حتى أتوا شارع الدواوين فى نحو الظهر وتفرقوا فى أنحائه يرقبون مرور ويلصون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كمال بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلجم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا فى وجهه لايحل لك ياظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا أعطنا جماكينا الساعة فجعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار عولاء فتراكم خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلجم الخيل وعادوا به الى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصون ولم يشعر به أحد من المتآمرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصياح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وتراكم الناس فاغلق أصحاب البيوت القريبة أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا الى الديوان ووقفوا على الابواب يحرسونها ووصل الخبر بما جرى الى مقر الخديو فجاء وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادئ البال كأن لاخوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا باصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلمهم فى الامر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخاطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جماكيهم وسائر مرتباتهم المتأخرة ان هم عادوا الى منازلهم فصاحوا لاسبيل الى ذلك فالموت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد فى ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وعجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلمهم فلم ينصرفوا فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم الى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فمانعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض بالبعض واشتد اللكم والضرب فأسرع الخديوى وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار الى مقره وجمع اليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلمهم فى الامر طويلا وبالغ فى الشكوى الى أن قال للقناصل قد صرت عاجزا عن درء كل ما يحدث فى داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة ان لم تعد الى السلطة التى سلبتها منى هيئة الوزارة الجديدة وانى لاأرى من المناسب قط بعد وقوع ماوقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا قابضا على زمام الحكومة وقد رأيتم ظهور الفتنة وتحزب طوائف الجند على مالم يسبق له مثال قبل فاستعظم القناصل هذا الامر ولم يبق عند أحدهم شك فى أن الخديو هو الذى هيأ هذه الفتنة وأضرم نارها لغاية فى

مطلب شكوى الخديوى من الوزراء وتصميمه على خلع الوزير نوبار باشا وويلصون الانجليزى

نفسه واشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد فى طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم ويطعن فى شخص ويلصون الانجليزى ويرميه ببغض البلاد وأهلها وانه عامل على تخريبها وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الازهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصون والوزير نوبار باشا من الاضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانية على حدود الشريعة المحمدية المطهرة وتقدم الشيخ البكرى بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبعين ألفا من الدراويش هم أرباب الاشاير والطرق ومشايخ الدهاليد وأصحاب العكاكيز والمتعممين يشكون مما أصاب البلاد وأهلها من سوء فعال ويلصون والوزير نوبار باشا * وتكلم مع الخديوى فى ذلك وأكثر من التردد على مقره * قال بعض الكتاب فكان اذا اجتمع عند الخديو قناصل الدول أو بعض كبار الاجانب أرسل فى الحال الى الشيخ البكرى فيدخل على الخديو فيقوم له الخديو اجلالا ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم مع الرهبة والوقار فاذا خرج نظر الخديو الى الحاضرين وقال هذا هو كبير الاسلام وشيخ مشايخ الدراويش وان فى خدمته وتحت أمره واشارته سبعين ألفا من الدراويش وهو اليوم يطالبنى بحقوق الامة فلا أدرى ما ستكون عاقبة الامر معه * ونادى بعض العلماء على منابر الجوامع بتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعضيده للنصرانية وأهلها ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويلصون ويشكرون عليه ما ناله من ضعف حال البلاد واختلال موارد الايراد وذهاب ما فى خزينتها من الاموال وأرسل صاحب شرطة القاهرة الى مصطفى رياض باشا يقول * دبر الخلاص أمرا فان البغض اليك فى ازدياد ولذلك فانى غير مسؤل عما سيحيق بك اذا لم تغادر البلاد فانى أرى الخطب شديد والخلاص بعيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأزعجه جدا * ورأى الوزير نوبار بعيد ذلك استحالة بقائه فى منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه فى ذلك مصطفى رياض باشا وبقى ويلصون الانجليز ودى بلينار الفرنسيس فى القاهرة ينتظران الأمر من دولتيهما وفر مصطفى رياض باشا من وجه الخديو الى الديار الاوربياوية خوفا من البطش به * ولما تم تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو الى تشكيل وزارة برأسها أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك الى دولتى الفرنسيس والانجليز فوافقتاه على كره واشترطتا أنه ان حدث أى حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم الا على شخص الخديو فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رياسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشتداد الأزمة واستحكام حلقات الضيق باختلال الخزينة فخلع رابع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع ابريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وأقيم بدله الوزير محمد شريف باشا * قال بعض الكتاب وقد كان لم يصل لأحد من الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم الا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على زمام الاعمال فتنحوا عن المراكز وهم صاغرون وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما علمت

مطلب رجوع وزارة الوزير شريف باشا بعد وزارة الامير محمد توفيق وما كان من وراء ذلك

دولتا

دولتا الانجليز والفرنسيس عما جرى خلافا للعهد فالهما الأمر وحرك منهما ساكنا فأوعزتا الى وكيليهما بالقاهرة أن يكلما الخديو ويحذراه سوء العاقبة فلم يلتفت لقولهما وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فزيد فى عدد العساكر والاجناد الى ستين ألفا وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالغ فى التأهب والاستعداد قيل وأوعز الى بعض أصحاب صحف الأخبار فنقلوا خبر ذلك محشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا يا لثارات الدائنين يا لثارات حاملى السندات ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضا فى تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين بابطال جميع النظامات والتعديلات التى كانت تقررت للخزينة سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملاءمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياستى الفرنسيس والانجليز للذب والدفاع وعمدوا الى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا الى سفيريهم بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى ويستطلعا أفكاره وكلموا فى ذلك أيضا بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الالمان فسير بسمارك الى دار السلطنة فى طلب خلع الخديو تلافيا للخطر قبل استفحاله فاشتدت عزائم الانجليز حينئذ وتقدموا الى السلطان فى تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وظنوا أنهم ان فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الأمير وأبيضهن يدا فلا يصح له بعد ذلك أن ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم اشارة ● وأحس الخديو اسمعيل بذلك فبث العيون فى دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المابين فأتت اليه الأخبار بعضها يناقض بعضا وطال الأخذ والرد بين سفراء الانجليز والفرنسيس وصدر الدولة واشتدت الأزمة فى سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيس الى مصر وكيلا لها اسمه تريكو وأوعزت اليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت اليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحقير والاستخفاف وطورا بالارهاب والتهويل ويطلب منه التخلى عن منصب الخديوية وكان قونصل الانجليز فى ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجدّ فى استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كى لا تتمكن الدول الثلاث من خلعه ● وبينما هو على هذه الحال اذ ورد عليه الخبر من ابراهام باشا كابوكتخداه بدار السعادة بان السلطان أبى على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر الى الآفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الاخبار فى سواد ليله تنبئ بانه ان لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سلبه إياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أىّ اضطراب وكاد يسقط فى يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيس بدار السلطنة العثمانية الى تريكو بأن يلح على الخديو بالتعجيل فى خلع نفسه والتنازل لولده اذ صارت تولية الامير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك فى تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحدثهم فيه وجمع اليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه إبراهيم باشا

مطلب

وطوائف المشايخ والعلماء والاعيان ونواب الأمة وتناجوا فى الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الامور واشتد قلق الخديو وفارقته تلك الجبة وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أى ليلة خامس عشر جونيو سار قونصلا الفرنسيس والانجليز الى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرر فى دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الامير محمد توفيق وحدثاه بعزم السلطان على اعادة حقوق الوراثة الى ذرية محمد على باشا وتولية الأمير عبد الحليم إن أصر الخديو على الاباءة والعناد ثم قاموا جميعا وقد مضى من الليل أكثره وساروا الى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فمانع فى ذلك كبير الخصيان وقال كيف أفتح لكم الابواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعه الوزير فلم يقبل فصاح به وقال ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته ٭ فبينماهم على هذه الحال مع كبير الخصيان اذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلا باغلاق الأبواب فصعد الوزير ومن معه ولاقاهم الخديو بلباس النوم فكلموه طويلا فى أمر تخليه عن المنصب طوعا قبل تنزيله كرها وألح الوزير عليه فى ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذى جاءه من كاتم تخداه بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدال واشتد اللجاج فقال الخديو لا أتنازل حتى يأتينى أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الاجل وبلوغ نهاية الامل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو الى سفير الفرنسيس بدار السلطنة يخبره عما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد الى خيرى باشا المهردار مرسوم السلطان على جناح البرق خطابا الى الخديو بخلعه من منصب الخديوية فاضطرب خيرى باشا ولم يجسر على اخبار الخديو بخبره وظل باهتا حائرا فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فاعلمه خيرى باشا بالخبر فقال ولما ذا لم ترفعه لمولاك فقال لا أجسر على الدخول عليه الآن فقال قم وادخل معى فقام ودخلا معا وفى يد خيرى باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال ما هذا الذى أتيتمانى به الساعة فقال الوزير هو خبر ورد من دار السلطنة فمدّ الخديو يده وأخذه ونظر الى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفرار ولبث برهة لا ينطق ببنت شفة ثم نظر الى الوزير وقال علىّ بولدى توفيق الساعة ٭ وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا فى أمر خلع الخديو وفيما هو جار بين الدول ودار السلطنة العثمانية فى شأن ذلك وكان الأمير محمد توفيق يومئذ نازلا بسراى الاسمعيلية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الأمة والمشايخ اليه فأكبر الخديو هذا الامر ورسم بنقل الأمير محمد توفيق من سراى الاسمعيلية الى سراى القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بقصره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقى محجورا عليه حتى سير الخديو فى طلبه فى تلك الليلة فأتوا به الى سراى الاسمعيلية وأوقفوا الحراس على بابه يمنعون من أراد الدخول عليه فسار اليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به الى عابدين فلما مثل بين يدى أبيه قام له اجلالا ٭ وهى أول مرة قام له ٭ فتقدم

مطلب
مجىء الامر السلطانى بخلع الخديو اسمعيل وتولية ولده الامير محمد توفيق وما كان بعد ذلك

الامير

الأمير وقبل يده فأذن له بالجلوس فجلس وهو ينظر اليه نظرة البائس الحزين * وقال له يابنى
لقد اقتضت ارادة الله سبحانه وتعالى وارادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد
فأوصيك يابنى باخوتك وسائر الآل برا واعلم أنى سائر عنك آسف لعجزى عن ازالة جميع
ما ستلقاه فى أعمالك من المصاعب والمتاعب على أنى واثق بحزمك فاتبع يابنى رأى ذوى
شوراك وعش سعيدا لا كما عاش أبوك * فبكى الأمير توفيق عند سماعه هذا الكلام
وبكى سائر الحاضرين وشاع الخبر فى القاهرة ومصر القديمة بخلع الخديو وولاية ولده الأمير
محمد توفيق وطير الخبر بذلك الى الآفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به الى مقره
بالاسمعيلية ثم تركه وعاد الى عابدين فوجد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسيسى
فدخل الوزير على اسمعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهم اليه وكلمهم فى أمر تخليه عن
المنصب لولده الأمير توفيق وفى ميله الى العزلة ما بقى من أيامه وكان الى هذه الساعة لم
يخطر على باله قط أنهم سيبعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة قهرا فتقدم
اليه عند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه
الاسراع فى جمع مايشاء من متاعه لينقلوه الى البلد التى يختارها قيل فاصفر لونه وتلجلج
لسانه وعض على اصبعه ندما على ما بدا منه من التخلى عن المنصب قبل ان يستوثق
لنفسه ونظر الى تريكو وقال يعلم الله ان هذا التبعيد ما كان لى فى خلد ثم جعل يمانع
وأغلظ على تريكو فى القول وتجافى فى الرد فجعل الحاضرون يلاطفونه ويهونون عليه
ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حتى عاد وطلب كثيرا من المطالب فأجابوه الى جميعها ثم
قال أطلب مائة ألف ذهبا النفقة وباخرة لخدمتى وأن آخذ معى جميع مقتنياتى ومن يريد
الخروج معى من نسائى والجوارى والحاشية والاتباع وجميع الامتعة وأن أقيم فى جزيرة
أزمير احدى جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتبادلوا معه بجهد الاستطاعة
وقامت بشأن ذلك المخابرات ما بين قناصل الدول بمصر والسفراء بدار السلطنة والناس فى
القاهرة فى خوف عظيم يحسبون للعاقبة ألف حساب

مطلب
رحيل الخديو
اسمعيل عن وطنه
ومسقط رأسه
وسكنه

وأخذ أتباعه فى نقل المتاع والصناديق من عابدين والجيزة والجزيرة الى بولاق التكرور
وطاف جماعة الخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالخبر وهم فى بكاء ونحيب فخرج
النساء فى ذلك اليوم وتزاحمن على أبواب عابدين وهن باكيات مولولات رافعات أصوات
النحيب وخرج أيضا نساء اسمعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودعات فكان يوما
شره قطرير وفى اليوم الثانى الذى هو سادس رجب وسادس عشرى يونيو وقبل شروق
الشمس غصت رحبة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين
والعلماء والمشايخ والاعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع اسمعيل باشا والعائشين
فى نعمته وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال الى الساعة الثالثة عربى
فحضر الامير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا الى مقر اسمعيل باشا فلاقاهم والدمع ينحدر

على خديه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحثه على الخروج فقام من فوره
وهو لا يتكلم واقتحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الامير توفيق وخلفه ولداه حسن
وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية
وغيرهم من طوائف الخدم والحشم فلما انتهى الى باب السراى وقف على آخر الدرج
لحظة لطيفة كأنه يودع الدار ومن فيها فتقدم اليه قاضى القضاة وقبل طرف أثوابه وهو
ينتحب بالبكاء فانحنى اليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم اليه الوزير محمد شريف
باشا وصافحه فتبعه فى ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده
الامير توفيق وركب فى عربة ثانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه
الجم الغفير صاح النساء من شبابيك السراى واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت
أصوات الرجال أيضا بالبكاء واشتد الهرج والمرج وتراع جماعة الخصيان والجاويشية حول
عربته وهم يبكون ويولولون « على من تركتنا ياسيدنا » « من أوصيته بنا ياسيدنا » وكان
اذا مرت عربته ببيت من بيوت جواريه فتحن الشبابيك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن
وكدن يلقين بانفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل الى محطة
السكة الحديد وكانوا قد أعدوا لملاقاته فريقا من الجند فنزل الامير توفيق وأمسك بيد أبيه
وأنزله ومر من بين صفوف الجند تحيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى فدخل
الى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت الى ولده الامير توفيق يريد أن
يخاطبه فخنقه البكاء فضمه الى صدره وقبله وبكى بكاء مرا فقبل الامير يده ووقف بجانبه
طارق العين والتفت اسمعيل باشا الى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودعهم فلم يقدر فصعد
الى عربة القطار فسار به الى الاسكندرية وأنزله بالقبارى حيث كان ينتظره زورق خصوصى
فركب وسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة
المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولداه حسن وحسين وجميع نسائه
وجواريه وأتباعه وغلمانه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة
الى ربان الباخرة مرسوما وأمره أن لايفض ختامه حتى يبعد عن الاسكندرية فراسخ قبل
وهو يتضمن منع تنزيل اسمعيل باشا ومن معه بأى جهة من أملاك السلطنة العثمانية
والمسير به الى أى جهة شاءها من الممالك الاجنبية فلما أعلمه الربان بذلك قال نسير الى
مدينة نابولى احدى أعمال دولة ايطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مرساها
وكان ملك ايطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبالغ فى إكرامه والاحتفال به
فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوما ❁ ومن عجيب الاتفاق أنه تولاها فى شهر
رجب واعتزلها فى شهر رجب فسبحان من لازوال لملكه ولا اذلال لجبروته سبحانه فهو المعز
المذل لايهدى من عاداه ولايضل من استهداه انه التواب العظيم

مطلب

مطلب

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جناح البرق خطابا الى الامير محمد توفيق باشا يقول

بناء على أن الخطة المصرية هى من الاجزاء المتممة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار انما هى تأمين أسباب الترق وحفظ الامن والعمارة فى الممالك — وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة الخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية — وبناء على تزايد أهمية ما حصل فى القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى اسمعيل باشا — ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الاصالتانيه من الرشد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجا الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون الى استحصال أسباب الأمنية والرفاهة لصنوف الاهالى وادارة أمور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العالية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئهال صفا نيتكم — وبناء على الفرمان العلى الشان الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التى صار شرح حدودها — وبناء على ما كتب بالتلغراف الى حضرة المشار اليه اسمعيل باشا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التلغراف لكى يعلن حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان وأهل المملكة جميعا وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجيهة الى أثر استحقاق اصفا نيتكم لتجرى التنظيمات والترقيات مبدأ وتقدمة ويصير تكرار الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى اهداء لوازم التهنئة لحضرتكم أيها الخديو المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الامر انتهى

فلما كانت الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس صعد الخديو الى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة زائدة واحتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالا عظيما ودخل عليه رجال الدولة وكبار الحكومة والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيون ووكلاء الدول كافة وطوائف ضباط الجند فهنؤه وتزاحمت ذوات البيوتات على باب والدته وأتت اليه رسائل التهانى تباعا من كل صوب وفرح الناس جميعا بولايته ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولمت والدته وأطعمت وكست بعض الفقراء وتصدقت وكتب الخديو الى الصدر الأعظم يقول

وصل ليـد التبجيـل تلغرافكم السامى الآمر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن الحكومة المصرية وتوجيـه مقام الخـديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانيـة لعهـدة رقيقكم هما من مقتضى عالى ارادته السنية السلطانية وبالحقيقة ان تكرم حضرة صاحب الخـلافة الاقدس الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهدة هذا العبـد كان دليلا على جليل المبانى وركنا بالفخر لايعادله ثان على وجود عبدكم مشمولا بفيض النظر الملوكانى وبما أننى مهما بذلت من الوسع والمقـدرة لايفاء ذرة من التشكرات المفروضة على هـذه العنايات والآلاء أرى ذاتى عاجزا بالكليـة عن حق الايفاء والاداء فلـذا رفعت الى مقر اجابة الرب القدير أكف الادعية الخيرية ببقاء عمر وعافيـة وارتقاء شأن وشوكة الحضرة السلطانية مشفوعة بتكرار الدعوات المستجابة بدوام موفقية خلافتكم وبمقتضى منيف ارادة الجناب الســلطانى السنية قد صعدت الى قلعة مصر فى الساعـة العاشرة من يوم الخميس وهنالك قد أعلنت الكيفية لجميع من حضر من العلماء والاشراف والوجوه والاعيان والرؤساء الروحانيين والمأمورين الاجانب ولكافة الاهالى وأطلقت المدافع ثم أخذت بزمام الحكومة وبدأت بظليل ظل الحضرة السنية الملوكانية فى مباشرة أمور الخديوية عالما علم اليقين أن سلامة الخـديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعيـة للسلطنة السنية وان بقاءها لا يقوم الا بالصداقة والاخـلاص لذات السنية الملوكانية فأستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام لاستحصال راحة ورفاهيـة أهالى مصر وسكانها والملتمس عرض ذلك لعالى أعتاب الحضرة السـنية السـلطانية متخذا ذلك وسيلة لاستبقاء توجيهات خلافتكم العلية وفى جميع الاحوال الارادة والفرمان لحضرة من له الامر انتهى

ولما استقر بالخديو المنصب رسم الى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة الوزارة فرتبها على ماشاء ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند الى أوطانهم فصرفوا ولم يبق من الجند العامل سوى اثنى عشر ألفا فبـدأت دلائل الاصلاح وظهرت اشارات الفلاح ففرح الناس فرحا عظيما ورفع الكثير من الاجانب المستوطنين بالاسكندرية والقاهرة على اختلاف أجناسهم العرائض الى وكلاء حكوماتهم بالاطراء والمدح للهيئة الحاكمة ويشكرون لها أخـذها بأطراف الهمة وسيرها على سنن الاصـلاح ورجوعهم فى منع تعرض أبناء جلدتهم الى عمـل الحكومة وترك تدبير أمور البـلاد الى أهلها قالوا لأنهم أعلم الناس بها وأعرفهم بحاجاتها فاشتدت عنـد ذلك عزائم المصريين وعمـد الوزير الى الاتيان على جميع أوجه الاصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الامور وإحكام نظامها ه وكان الى هذا الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقـد جاء الخبر بان رجال السلطنة العثمانية وأهل المابين الهمايونى على طرفى نقيض فان بعضهم يعمـل على تقليـل امتيازات مصر الممنوحة لها من أيام محمـد على باشا الكبير وان السلطان ميال الى ذلك نخشى الوزير محمـد شريف

باشا

باشا العاقبة وكلم وكيلى الفرنسيس والانجليز فى الامر فكتبا الى كبيرى السياسة الافرنسيسية والانجليزية فى ذلك فكلما الباب العالى وشددا فى الطلب وطال الأخذ والرد بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانيــة حزما وثباتا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمة أنصار الامير عبد الحليم بن محمد على باشا وبذلوا النفيس فى استمالة رجال المابين نخاف سفيرا الفرنسيس والانجليز بدار السلطنة شر عاقبة هــذه الحال وأعلا الفكرة وأكثرا التردد على الباب العالى وما زالا حتى تقررت القاعــدة بينهما وبين الصدر الاعظم على تسيير سفير مخصوص ومعــه فرمان الولاية فطيروا الخبر بذلك الى القاهرة فزال عن الوزير محمـد شريف باشا ما كان يخشاه

فلما كان ثالث عشرى شعبان سـنة ست وتسـعين ومائتين وألف هجرية وصلت الى مدينــة الاسكندرية الباخرة عز الدين السلطانيــة وعليها الامــير على فؤاد بيك كاتب أول المابين يحمل الفرمان المشار اليه فأنزل فى سراى رأس التين فى تلك الليلة وقدم الى القاهرة فى رابع عشريه فأنزل مع حاشيته بقصر النزهــة بشبرا من ضواحى القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالغوا فى اجــلاله وتعظيمه وطيروا الخبر بقدومه وفى صبح الخميس خامس عشريه هرع الناس الى قلعة الجبل وتقاطر اليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهــم بلباس الزينــة والتشريف وصــعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والأعيان واصطفت الجند تباعا من صليبة ابن طولون وطريق محمد على الى ديوان السلطان الغورى بقلعة الجبل وفى نحو الساعة الثانية صباحا صـعد الخديو راكبا فى عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمـد شريف باشا وأمامه على فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى ومر من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفــير ودوى المدافع حتى صــعد الى الديوان فلما استقر به المقام تقــدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناوله اياه فأخــذه وقبله ورفعه الى رأسه ثم ناوله الى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضا وارتقى مكانا مرتفعا أعدّ له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا

الدستور الأكرم والمعظم الخديوى الأفخم المحــترم نظام العالم وناظم مناظم الأمم مــدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب ممهــد بنيان الدولة والاقبــال مشــيد أركان السعادة والاجــلال مرتب مراتب الخــلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الحائز لرتبــة الصدارة الجليلة فعــلا الحامل لنيشاننا الهمايونى العثمانى المرصع ونيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى «توفيق باشا» أدام الله اجلاله وضاعف اقتداره واقباله

انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على انفصال اسمعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سـ١٢٩٦ـنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العليــة

مطلب
ورود فــرمان الولاية على يدى فؤادبك كاتب أول المابين

ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقوفا ومعلومات بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد ـ وحيث انكم أكبر أولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العلى الشان المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية

ان كافة ايرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر أيضا من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات فخديو مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة ـ وأيضا خديو مصر مأذون بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب بشرط عدم خلل معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى ـ وأيضا يكون حائزا التصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع الداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها ـ وحيث إن الامتيازات التى أعطيت الى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا ـ ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين الف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه ـ وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لامنية ايالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزاد مقدار العساكر بالصورة

التى

التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونياشين عسكرنا الشاهاني ويباح لخديو مصر أن يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أمير آلاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديو مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن والحصول على رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية — ومن اللزوم رعاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها — وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر والموشح أعلاه بخطنا الهمايوني وهو مرسل صحبة افتخار الاعالى والاعاظم ونخار الاكابر والافاخم فؤاد بيك باشكاتب المابين الهمايوني ومن أعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارتقى مكانه الشيخ سليم عمر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأدعية للخليفة ورجال دولته وللخديو ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند باصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديو بموكبه الى مقر عابدين فانصرف الجميع وتزاحم الكبراء والامراء ورجال الدولة في ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الامراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليال وأطلقت المدافع من قلعة الجبل في الاوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيرا ❁ وسار الخديو في الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفرق الصدقات على المساكين والمنقطعين وبالغ في الاحسان فلم يرد سائلا ولم يمتنع مستعطيا وتقدم اليه الوزير محمد شريف باشا في رفع الخراج عن جميع الاراضي المأخوذة للمنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيأ كثيرا وتقدم اليه أيضا في طلب كثير من الامور النافعة للبلاد وأهلها فأجابه اليها فتعلقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدو والطمأنينة ورواج الاعمال أياما والناس في فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلى عنه طائعا في الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد واختلفت الاقوال في الاسباب فمن قائل انه تخلى لخلاف بينه و بين قونصلي الانجليز والفرنسيس ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيس لأمور نقمها عليه ومن قائل بل بايعاز من دولة الانجليز اذ كانت ترى منه قرما عنيدا شديد الرأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحس بذلك فبادر هو بخلع نفسه ومن قائل غير ذلك وعندي أن القول الأخير أرجح بل أصح فحزن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كيسا حازما صائب الرأي شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل الى نصرة المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرين وأصحاب الوشاية ميالا الى بث روح الحرية والمساواة بين صنوف الرعية وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو اسمعيل وبذل جهد المجتهد في بثها

مطلب تخلي الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرياسة وما اشتهر به بين الناس

فى جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعه الى الخديوى اسمعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد وفك قيود الرعية فتململ ولم يقبل فألح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرياسة يومئذ ان هو أصر على الاباءة ثم حدث فى ذلك الحين من الكوائن ما كان سببا لترك ذلك القانون فى زوايا الاهمال فلما تولى الخديوية الامير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرياسة اليه أحسن الظن بمخدومه وأخلص له النية * قال بعض كتاب الاخبار فأبان له عما فى الشورى من الخير والبركة وجعل يحبب اليه العمل بها فمال الى رأيه ودعاه الى سن قانون لايمس حقوقه الذاتية ولا يذهب شيأ من سلطته الوراثية فرفع اليه القانون الذى كان أنشأه على عهد أبيه اسمعيل قال فاستشار رجال ديوانه فى جواز العمل به فقصروا له ذلك وموهوا عليه الحقائق وهولوا فى العاقبة فاعرض عنه فراجعه الوزير فلم يرض فانزل نفسه عن منصب الرياسة فى الثلاثين من شعبان كما تقدم القول (قلت) وهذا قول آخر فى أسباب تخليه عن منصبه وعندى أنه قول لاصحة له والاول أصح * وكان مصطفى رياض باشا الى هذا الحين نزيل الديار الاورباوية وكان قد فر هاربا من وجه إسمعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم القول فارسل اليه الخديو يستقدمه ويستحثه على الحضور ليوليه مسند الرياسة وأقام هيئة وزراء مؤقتة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشاوذو الفقار باشا ومصطفى فهمى باشا ومحمد مرعشلى باشا وعثمان رفقى باشا وعلى ابراهيم باشا فتحدث الناس فى أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيروا من توليته مسند الرياسة وخشوا عاقبته لما يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغطهم فى ذلك فلما كان سابع عشرى رمضان قدم رياض باشا الى القاهرة فبالغ الخديوى فى اكرامه ولبث أياما يغدو ويروح الى مقر الخديوى والناس فى تخوف كأن على رؤسهم الطير ثم شاع أن استقدامه بعد ذلك التبعيد انما كان بايعاز من دولة الانجليز والحاح من قونصلها بمصر * قال بعض كتاب الاخبار ونحرير الخبر أنه لما سار الى لندن عاصمة الانجليز بعيد فراره من القاهرة اجتمع به ويلصون الذى كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد إسمعيل باشا وشكى اليه حاله وما لاقاه من مضض التضييق وذل التبعيد عن الآل والوطن فقربه ويلصون من كبار ساسة الانجليز واستمالهم اليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من اسمعيل باشا * قال الراوى فسأله بعضهم قائلا ماذا تفعل اذا أرجعناك الى ديار مصر وولیناك منصب الرياسة قال أكفل لكم تعضيد سيادتكم واعلاء كلمتكم والعمل فى سائر الاحوال بحسب اشارتكم فوعدوه بذلك ان هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع الخديوى على ارجاعه وتوليته فاحس الوزير محمد شريف باشا بذلك فخلع نفسه وأفرغ لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الانجليز وقد زاد الناس اعتقادا فى صدق هذا النبا ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية أمر توليته منصب الرياسة وامتداحهم لكفاءته وحسن سياسته وقدرته على تدبير الامور على أحسن ما يكون

وقد

وقد تطرف بهم الاطراء الى القول بانه على عزم أن يرفع الى مقام الخديوى قبل تولية المنصب ثلاثة مطالب لابد منها ولا مندوحة عنها الاول جعل هيئة الحكومة دستورية أو مشورية بان تؤلف من وزراء مسؤلين ولا يكون أمير البلاد مسؤلا عن أىّ خلل يحدث فى الخزينة أو فى ادارة البلاد الثانى عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة الا بحكم يصدر عليه الثالث أن لا يترأس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل منهم حرية ابداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بان هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض باشا لانهم يعرفونه عدوًّا للشورى * قلت وقد سبق لاصحاب هذه الصحف طلب تقرير هاته الامور على عهد اسمعيل باشا فخضوا جوشن وجوبير يوم كانا بديار مصر على تقريرها واكراه اسمعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سببا فى خلع اسمعيل باشا وتبعيده

مطلب
تولية رياض باشا الرياسة للمرة الاولى

فلما كان رابع شوال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم الخديوى الى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكلها على نحو ما أراد ووافقه الخديوى على تشكيلها فتزاحمت على بابه أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية ومأمورى الحكومة وذوى الغايات والمطامع فامر ونهى وتقدم الى الخديوى فى اقامة المراقبين الماليين الانجليزى والفرنسوى اللذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله فاجابه الى ما طلب ورسم به فجاء من قبل دولة الانجليز أحد رجالها واسمه الماجور بارنج وجاء من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيودى بلينار وهو الذى كان متوليا نظارة الاشغال العمومية على عهد اسمعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الاعمال فبحثا ونقبا وأنبا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذا فى اصلاح ما فسد من أحوالها ورتبا لاصحاب الديون نظاما كافلا بحفظ حقوقهم وعينا لجباية الاموال آجالا يجبون فيها الخراج وقد كانت الى ذلك الحين هملا مهملا وأبطلا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبدع المستحدثة وقررا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وايرادها ومصرفها ونظرا فى جميع أوجه الاصلاح من أبوابها وقيدا الاعمال باللوائح والنظامات المرتبة على نسق ما فى بلاد الامم المتمدنة ونظرا الى فلاحى البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الاب الشفيق فهوّنا عليهم كل أمر شاق * وبينما كان المراقبان يعملان على ما فيه المصلحة للبلاد وأهلها كان الرئيس مصطفى رياض باشا يعمل أيضا على تعزيز مقامه واعلاء كلمته وبسط يده على جميع الامور واحاطته علما بالصغير منها والكبير فتطرق به حب هذه الاثرة الى التعدى على حقوق الخديوى وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى اشارته وكان الخديوى منذ تولى المنصب قد جعل يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار تلطفا منه واحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندد به ونهاه عن التمادى عليه فلم يلتفت الخديوى الى قوله فأكبر الرئيس هذا الامر من الخديوى وكتب فى رابع عشرى ذى القعدة

من السنة الى جميع دواوين الحكومة يقول • انه لاعبرة قط لهذه الرتب فى أمرالجنا كى والمرتبات فى جميع الخدامات الملكية فساء الخديوى ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما فى نفسه فزاد فى الاحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقرر قرارهم على أن لايعطى شئ من ألقاب الشرف والنياشين الى مأمورى الحكومة وموظفيها أيا كانت درجته الا بعد الطلب من مجلس الوزراء ورفع هذا القرار الى الخديوى ليصادق عليه فكبر الامر عليه وأزعجه فطاول وحاول أياما وراجع الرئيس ثم أدرك ماسيكون من وراء ذلك من الفشل واستفحال الخطب ان هو أصر على الامتناع فوقع على القرار كارها فكان هذا الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض ومن معه ورأى الخديوى بعد ذلك من الرئيس غلظة وجفاء فتأهب للتجول فى أنحاء القطر والترفع الى الاقاليم القبلية ترويحا للنفس من شر هذا الحال • فلما كان صبح الخميس تاسع عشرى صفر من السنة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية تحرك ركبه وسار قاصدا الاقاليم القبلية ومعه آل بيته وحاشيته وأتباعه وغلمانه ورجال ديوانه الخاص فاستعد أهل البلاد للقائه وفرحوا بحضوره اليهم فرحا لايوصف وأظهروا من الاخلاص والتلطف للقائه مالايكاد يصدقه العقل فزينوا البلاد بالانوار والرايات والرياحين والازهار وقابلوه بالطبول والزمور واطلاق البنادق بين ضجيج الفرح وأصوات الدعاء والابتهال الى الله فكان اذا نزل ببلد هرع أهلها رجالا ونساء وأطفالا وقابلوه بالدعاء وبالغوافى تعظيمه فكان يقابلهم بالبشاشة والترحاب ويعد لهم الموائد ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولايرد لهم سائلا وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط فلما استقر بها ركبه كتب الى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول

مطلب
فاتحة الخلاف
ومبدأ الشقاق بين
الخديوى والرئيس
مصطفى رياض باشا

• أنا الآن بأسيوط وليس فى الامكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الاهالى من الجيزة الى هذا المكان من عظم الفرح والمسرة وحسن الترحيب بنا ولا شك أن مثل هذه الافراح والمسرات لاتصدر الا عن الثقة العمومية ولاتوجد الثقة الا بوجود العدالة والاستقامة ويرى أن الرعية الآن آملة فينا وائقة بنا • تلك نعمة الهية عظيمة المقدار توجب علينا الاستمرار على نهج منهج العدالة والامانة لتزداد الرعية حبا لنا وثقة بنا جعل الله القدير اجتهادنا بالفلاح • ثم رجع الى القاهرة فى كبكبته وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه وسار منها الى الاقاليم البحرية فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولموا لقدومه الولائم والافراح وبالغوا فى ذلك بما لايكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعا الى القاهرة وقد بلغه من أخبار الرئيس مصطفى رياض باشا واستهتاره بالامور وتحامله على منصب الخديوية وشخص الخديوى ما أنساه تلك الولائم والافراح فجعل عند ذلك يراقب الاحوال والرئيس لايلوى عنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتزاحم على بابه أصحاب السعاية وتقرب من مجلسه أهل النميمة والوشاية واشتد على كل من آنس منه جأشا فهابه الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع اسمعيل باشا منه

شرا اذ مال على بعضهم يريد الانتقام واشتد عليهم شدة بالغة فهالهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم الى بعض وتألبوا مع الفريق شاهين باشا كنج الذى كان رئيس ديوان الجند على عهد اسمعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بما هم عليه سير الى شاهين باشا يتهدده ويقول ان لم تقلع عما أنت عليه ساءت حالك وكذب فألك ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس اليه فكبر الامر على شاهين باشا وأرسل الى اسمعيل باشا يعلمه بما آلت اليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقتل الرئيس مصطفى رياض باشا فجنب اليه اسمعيل باشا ترك تابعية السلطنة العثمانية والالتجاء الى دولة ايطاليا فمال شاهين الى ذلك فرارا من ايذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فمانع (قال بعض الكتاب) وحرض بعض مشايخ البلاد التى بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على اسمعيل باشا فى التعجيل فوردت اليه أوراق التابعية فقام من فوره وحصر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث اليه برزقها فى حينه وتأهب للرحيل الى مدينة نابولى حيث يقيم اسمعيل باشا فكبر الامر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير الى قونصل دولة ايطاليا فى ذلك فلم يفلح * فلما كان خامس رجب قام شاهين من القاهرة الى الاسكندرية يريد الذهاب الى نابولى فجمع الرئيس فى صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهيأ قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبه وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود الى ديار مصر منعا مؤبدا ثم رفع هذا القرار الى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس فى الطلب فوقع عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول الى شاهين باشا فأعطاه اياه وهو على ظهر السفينة التى كانت قائمة ذلك اليوم الى مدينة نابولى * حدثنى صاحب لى قال كنت فى ذلك اليوم على ظهر السفينة التى كان بها شاهين باشا وكنت مودعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولى احدى أعمال ايطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون باصلاح متاع السفر اذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب بادية على وجهه فتقدم الى شاهين باشا وناوله ورقة مختومة ففضها وقرأ ما فيها وهو هادئ اللب ساكن القلب ثم التفت الى ذلك المأمور وقال قل للرئيس أصلح الله حاله انى فاعل ما أراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت الينا وقال وهو يتبسم تالله لو بغى جبل على جبل لدك الباغى قال صاحبى فقلت جعلت فداك هل هى وصية يجب العمل بها فقال بل هى فرية يجب أن تخلد فى بطون التواريخ ليعلم صاغر عن كابر كيف تحكم تقاسى مصر وأهلها من الجور والاستعباد * قال صاحبى فخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلت عن حديثه بحديثى مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فنظرت الى شاهين باشا لعله يعيد علينا

مطلب
الحكم بتبعيد شاهين باشا وتجريده من رتبه وألقابه

حديث مافى تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شئ وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت وأنافى خوف ظانا أن قدوصل خبرى الى الرئيس فرجعت الى القاهرة ولازمت دارى أياما حتى سكن جاشى واطمأن قلبى ولم يقدر الله على بمكروه اه * قلت وقد عدّ فرار شاهين باشا وخليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى والحاقهما باسمعيل باشا ذنبا لايغفر اذ عقد الرئيس مصطفى رياض باشا فى ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتناجوا فى ذلك طويلا وبعد أخذ ورد تقررت القاعدة بينهم على نزع سراى عابدين مع مايتبعها من الابنية وغيرها من جميع الملحقات وسراى الاسماعيلية وملحقاتها ومايتبعها من الابنية وسراى القصر العالى وملحقاتها وما يتبعها والمكان الكائن بمصر القاهرة بخط الاسماعيلية وملحقاته المعروف بمخزن الموبليات ومطبعة بولاق وملحقاتها مع مايتبعها من الآلات والمهمات والابنية واصطبلات بولاق وسراى الجزيرة مع مايتبعها من الابنية والجنينة البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فدانا والاراضى التى تتبعها وقدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فدانا وجميع الملحقات الكائنة بالجيزة وسراى الجيزة وما يتبعها من الابنية والجنينة والاراضى من جميع الملحقات التى قدرها خمسمائة فدان وسبعة عشر فدانا والنزل والكشك والحامات الكائنة بمدينة حلوان وجنينة النزهة القديمة المعروفة بجنينة باستريه بالاسكندرية على ترعة المحمودية وسراى الرمل بالاسكندرية وجميع مايتبعها من الابنية والشكنات والاصطبلات وغيرها من الملحقات الكائنة بالرمل وسراى دفينة وما يتبعها بمديرية البحيرة وسراى المنصورة ومايتبعها وسراى الروضة وسراى المنيا (أى منية ابن خصيب) من ملكية اسمعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا لانه قد تبين لهم أن بناء البعض وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولانها لازمة جميعها للمنافع العمومية أو لاقامة خديوى مصر ولانها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك * فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس وتحدثوا به وقد كانوا لايظنون وقوعه من الرئيس ثم أعقب ذلك أيضا أن سير الرئيس الى ربان السفينة المسماة المحروسة التى كان اسمعيل باشا اتخذها مسكنا لنسائه أمام مدينة نابولى بان يسرع الكرة الى الاسكندرية بالسفينة والاعدّ تأخيره عن الحضور عصيانا وتمردا وكتب بذلك أيضا الى اسمعيل باشا فكبر الامر على اسمعيل باشا وأحزنه جدا ولم يسعه الا اعادة السفينة ومن شاء الرجوع الى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له دارا بنابولى وأسكن بها من بقى من جواريه ونسائه وأرسل الى الخديو توفيق فى ذلك وعاتبه وبالغ فى الشكوى من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والالتفات

مطلب الاحتفال برفع قانون التصفية الى مقام الخديوى

وكانت لجنة التصفية الى هذا الحين قد أتمت أعمالها على وجه ماتقدم بيانه وعملت بها دستورا سمته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به * فلما كان يوم السبت تاسع شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة الى الاسكندرية وصعدوا الى مقر الخديوى بسراى رأس التين فتقدم اليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصافحهم جميعا ثم خاطبه ويلصون بعبارات التهانى وقص عليه مجمل ماعملته اللجنة فاجابه الخديوى بعبارات التلطف

وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الاولى وكذلك ناول كلا من بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو برا ولى والمسيودى بوغاز والمسيو تريكو والمسيو بتجره والمسيو ليرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك النيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال تلك اللجنة وبعد انصرافهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الاولى وعلى المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى أيضا وأحسن كذلك بعدة رتب ونياشين الى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بقصره برأس التين وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلا وخارجا فأتت الى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهانى من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة الى رحبة السراى طوائف الجند مابين مشاة وركبان بالطبول رافعين بايديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا الى أن وصلوا الى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة ينتظرونهم فاصطفوا هنالك وبعد برهة لطيفة نادوا باصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا الى ميدان المنشية فوقفوا هنالك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الاشاير والطرق تتقدمهم المشاعل والانوار والطبول والزمور والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم الى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكان كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويعجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزدانا بالانوار وكذلك جميع السفن الراسية فى المينا وقد سار عدد من قوارب البحر يحمل الجماهير من الناس وكانت مزدانه بالانوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فانتهوا الى مقر الخديوى وهم يعزفون ويضربون الطبول الى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فاطلقت شنكات البارود والحراريق والالعاب النارية أمام السراى ومن باخرة الخديوى الخصوصية وباخرتى محمد على ومصر واستمرت كذلك الى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا الى مديرى الاقاليم فوردت رسائل التهانى ركاما من سائر البلاد

وكان أول شئ بدئ به من نفقات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهبا على ضريبة الاطيان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الاراضى وبعضها قالوا وستبقى هذه الضريبة معمولا بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزينة فلم يتم توزيعها حتى انبث أصحاب الجباية يعيثون فى البلاد لجمعها فشق هذا الامر على أصحاب تلك الاطيان وشكوا منه وتزاحموا على باب الرئيس فنهاهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقررا فى ضرائب الاطيان العشورية وأن لا يكون بينها وبين

الضرائب الاصلية فرق وأن جميع الاطيان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الاساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الاطيان الميرية التى تنقل من الآن فصاعدا من حيازة الميرى لحيازة أخرى تعتبر أطيان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة المناسبة لها فأتت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتد انقباض الناس من فعال الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الاشاعة بقرب خلعه وتنزيله عن منصب الرياسة * وأعقب ذلك أيضا أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما يلاقون من عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية واستعاضتهم بآخرين من جماعة الشراكسة بغير سبب * قالوا * سوى الميل الى الجنسية ورغبته فى تبعيد أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا الى الرئيس مصطفى رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياما فلم يروا منه التفاتا وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم حاجة العيال فكانوا يجتمعون فى كل ليلة فى دار محمد أفندى فنى رئيس المترجمين بديوان الخزينة يتناجون فى أمرهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ماتعانيه أهل البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية فاتصل به خبر اجتماعهم فبث حولهم العيون والارصاد وهم لايشعرون فلما كانوا فى احدى الليالى يتناجون فى حوادث يومهم ذلك اذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة ومأمور من مأمورى الضابطة وقبضوا عليهم جميعا وساقوهم الى المحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا فنقلوهم الى سجن قلعة الجبل ورسم الرئيس فهيؤا لمحاكمتهم مجلسا حربيا وشددوا عليهم وضيقوا فكثر تحدث الناس فى ذلك وتطاولت ألسنتهم الى التقريع والسباب فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين حكموا على محمد أفندى فنى صاحب البيت بالطرد من خدامات الحكومة والسجن بقلعة الجبل سنتين وحكموا على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية * واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالغوا التضييق عليهم وخلعوا الكثير منهم بغير موجب ولاسبب واستودعوهم بربع الجاكى فكانوا نيفا وألف ضابط وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع فى أطفالهم عمله فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم ببعض بالايمان والعهود وانضم الى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين لاسيما من ثقلت عليهم يد الرئيس * حدثنى صاحب لى قال لما ظهرت علامات الفتنة وكادت تبدو اشارات الخروج وأحس الخديوى بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان اذا شدد عليه الخديوى وحذره وألقى عليه التبعة ذهب الى قونصل الانجليز وشكى اليه واستعان به على الخديوى فبلغ من نفوذ القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولى من يشاء من مأمورى الحكومة وأرباب الوظائف وأتى بجماعة من قومه فأدخلهم فى خدمة الحكومة وسد بهم أبواب الرزق فى

مطلب
أول شكوى لضباط الجند مما يلاقونه من عثمان رفقى باشا

وجوه أهل البلاد وجاراه فى ذلك قونصل الفرنسيس فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخالف لهما كلمة ولا ينبذ لهما طاعة وظل على هذه الحال والخديوى لا يرى للخلاص سبيلا

مطلب
ظهور الوحشة بين المراقب الفرنسوى وقونصل جنراله وظهور عصابة الجند

ورأى المسيو دى بلينار مراقب الفرنسيس من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته وتطاول يده الى أعمال الحكومة والعبث بمنصب المراقبة ماأزعجه وبلبل أفكاره فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك وحذره من سوء العاقبة ثم جعل يمانع فى تداخل القونصل ويعمل على ايقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقم عليه وناواه الخصام فقامت بين الاثنين قائمة الشحناء واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال الى جانب القونصل فكبر بغض المراقب له أيضا واستفحل بينهما الخلاف واستعصى الوئام ❁ وبينما كان الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون النفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصيهم عن مناصبهم ويولى بدلهم جماعة الشراكسة وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار وكان له منزلة وحرمة بين قومه فما شاع خبر عزله حتى انضم اليه جماعة الضباط المعزولين وجعلوا يجتمعون فى كل ليلة فى داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون اليه فى أمورهم وتدبير شؤنهم فوقع اختيارهم على أحد أمراء الجند المدعو أحمد بيك عرابى أمير جند الالاى الرابع فلبى دعوتهم وتجرد لنجدتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على مايناسب مصلحتهم ❁ قلت وأحمد عرابى بيك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده فى ليلة السبت ثالث عشرى جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية وقيل ولد فى صفر عام سبع وخمسين فى قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزنه على بعد بعض فراسخ من الزقازيق أنشأها محمد على باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين يقال ان أجداد أحمد عرابى هذا منهم وأقطعهم بعض الاراضى لزرعها واستغلالها رزقة بلا مال الى أجل فكان ماأصاب أبو أحمد المدعو عرابى من تلك الارض ستة أفدنة سوادا فكانت مادة حياتهم ومنبع تعيشهم فلما بلغ أحمد عرابى أشده سلمه أبوه الى قبطى اسمه المعلم مخاييل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلازمه زهاء خمس سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه فى مصاف طلبة العلم بالجامع الازهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فلبث به زهاء الاربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد الى قريته وأقام مع والديه الى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ الى العسكرية قهرا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قريته بالمعسكر جاويش بروجى لسعيد باشا اسمه حسن حلى له كلمة مسموعة فتقرب منه أحمد عرابى ولازمه واحتسب عليه فأحبه وعمل على مساعدته فرقى بواسطته الحربية بلوك أمين للبلوك السابع من الارطة الرابعة من آلاى المشاة الاول وكان يعرف بين الجند يومئذ بالشيخ أحمد عرابى فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى الى

رتبة ملازم ثم الى رتبة يوزباشى فى سنة أربع وسبعين ثم الى رتبة الصاغقسول أغاسى والبيكباشى الى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى العروجى رتبة القائمقام ومات فبكاه أحمد عرابى بكاء مرا وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طيب الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبث على هذا الحال حينا ثم اعتزل الخدمة حينا أيضا ثم عاد اليها فى أوائل ولاية اسمعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبث بها الى أن وقعت بينه وبين خسرو باشا أحد كبار الضباط الشراكسة خصومة فعهدوا لمحاكمة أحمد عرابى مجلسا حربيا فحكم عليه بالحبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيئة المحكمة بالمروق عن جادة العدل والاخذ بالوجوه فرفعوا أمره الى اسمعيل باشا فأمر بابعاده عن الخدمة العسكرية فابعدوه وبالغوا فى تذليله فكبر عليه الامر وعظم بغضه لطائفة الشراكسة ولبث مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخير فى شأنه فادخلوه فى خدمة الدائرة الحلمية وهى دائرة الامير الهامى باشا ولد عباس باشا الاول فأحسن الخدمة واستمال اليه كبار الدائرة فزوجوه بابنة مرضعة الامير الهامى وهى أخت حرم الخديوى محمد توفيق باشا بالرضاع ولما كانت سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوى اسمعيل بسبب زوجته فأعاده الى خدمة الجندية فلم يستقر به المنصب حتى جعل يبث بين الضباط من المصريين روح الالفة والاتحاد ويقرب بعضهم الى بعض حتى صاروا على قلب رجل واحد فلما تولى الخديوية الامير محمد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العسكرية والملكية بنياشين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الحظ يومئذ أحمد عرابى فنال رتبة الميرالاى وكان ذلك فى رجب سنة ست وتسعين واتفق فى هذا الحين أن شرع عثمان رفقى باشا كبير دوان الجند فى سن قانون للقرعة العسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحد من الجند الى الرتب العالية حيث قضى على العسكرى أن يبقى فى الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب الى بلده امداديا ويبقى هكذا مدة خمس سنوات أخرى و يأتى الى مركز المديرية شهرين فى كل سنة لمباشرة التمرينات العسكرية وبعد مضى الخمس سنوات يقيم فى بلده بغير عمل ويسمى احتياطيا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمحى اسمه من دفاتر الجندية فلما ذاع خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسة وانقبض له الضباط المصريون وعلموا بانه انما سن هذا القانون على هذا المبدا لحرمانهم من الرتب وجعلهم جندا تحت تسلط جماعة الترك والشراكسة واختصاص هؤلاء بالرتب والمناصب العالية فجعلوا يقصون العمل به وشكوا من فعال عثمان رفقى باشا وكان بين الباشا المذكور وبين على فهمى المعروف بعلى الديب أمير آلاى جند الحرس الخديوى وعبد العال حلمى المعروف بعبدالعال أبى حشيش نفور ووحشة لامور لم تصل الى معرفتها فاجتمع على فهمى وعبد العال وأحمد عبد الغفار باحمد عرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القانون وفى فعال

عثمان

عثمان رفقى باشا ثم تحالفوا وتعاهـدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحـد ثم أصبحوا وقـد جمع كل من عنـده من الضـباط والصف ضـباط وخطب فيهم خطب الحث والتهـييج ضدجـاعة الشراكـسة وقبح لهم فعال عثمان رفقى باشا ثم استحلفهم على السـيف والمصحف بان يكونوا يدا واحدة وقلبا واحـدا على مساعدة أمراء الألايات الثلاثة فى عملهم والمحافظـة على أرواحهم اذا قصـدوا بسوء وبعد أن تم ذلك كتب كل من ضـباط الالايات عريضـة يطلبون فيها بعض المطالب الذين هم فى حاجة اليها فأخذ أحـمد عرابى العرائض الثلاثة وأبقاها عنده ورفع هو عريضة أخرى الى الرئيس مصطفى رياض باشايقول

مطلب تحالف الضـباط المصريـين على السيف والمصحف وانتداب أحمد عرابى الزعامة ورفعه عريضة بالطعن فى عثمان باشا رفقى

مقدم هذا لاعتاب دولتكم بغاية كل خضوع ضباط الجهادية وما نعرض عنه أفندم انه لما أشرقت بحمد الله أنوار شمس الحضرة التوفيقيـة وأينعت بالعـدل فى أرجاء ديارنا المصرية تنشر العدل ألويته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضـيق الاستبداد الذى طالما استولى على بلادنا عدة أجيال يعاملنا بانواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى على ذلك وسألناه التوفيق لتشييد دعائم أركان العدل والانصاف محفوفة برياض الحرية المبنية على المساواة فى الحقوق بين الرعية لكن لما أحيل على سـعادة عثمان رفقى باشا نظارة الجهادية رأينا سـعادته يعامل ضـابطان الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لنا الحرمان والاضرار كاننا الاعداء الالداء وكأن الله سبحانه وتعالى يطلب منه ظلم المصريين والاجحاف بحقوقهم مقتفيا فى ذلك أثر راتب باشا فى آخر العهد السابق من تهييج الافكار واثارة الفتن التى تكون سببا فى توقيف حركة الاصـلاح الادارى قصد أن يتمكن مما ساقته اليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض البلايا حتى آل الامر لحرمان أغلبنا من خدمة وطننا مع استعدادنا وتأهلنا وعدم تأخرنا عن ترقوا فى الخدمة بوجه امتياز على مابهم من العلل ولا موجب لترقيهم سوى كونهم أقارب ومحاسيب من لهم فى العسكرية النفوذ المطلق وبرهاننا على ذلك أنه موجود بديوان الجهادية فوق الالف ضابط بقلم المستودعين لم يكن فيهم أحـد من غير الوطنيين وهذا مضاد للمساواة ومجحف بالحقوق هذا ومن بعـد أن تبين لسعادته تسكين الخواطر واسـتقامة الاحوال كبر ذلك عليه وقصـد تهييج الافكار باصدار أمره المبنى على الاستبداد والاستعباد برفت أحد قائمقامى السوارى المسمى أحمد عبد الغفار بيك بصورة تهكم بغير محاكمة قانونيـة وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبالنا وأورثنا عـدم الأمن والاطمئنان وصرنا متوقعـين الايقاع بنا واحدا بعد واحد مادام سعادة المشار اليه فى مسند نظارة الجهادية الذى لا تسمح القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته ومما يؤيد تلك القوانـين مسألتا كنج جاهين وحافظ باشا وبعد ذلك ينظر فى أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهـم معنا فى العلوم والآداب العسكرية وغـيرها وما أثر دولتكم فى تسـكين حركة الخواطر وبث روح العـدل والمساواة اتباعا لمبـدا الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام بواجبات الشـكر

الحقيق والامر لمن له الامر انتهى

فلما علم الرئيس مصطفى رياض باشا بما فى هذه العريضة كبر عليه الامر ونقم على أحمد بيك عرابى وجمع اليه فى الحال هيئة مجلس الوزراء وعقد مجلسهم وبينهم عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند وتكلموا فى الامر طويلا فطال بينهم الاخذ والرد ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل وعلم الخديو بالخبر فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره سوء العاقبة وأشار بالتأنى وترك العجلة ورسم بالمجاملة والتلطف وترك القسوة والعنف فلم يعجب الرئيس منه ذلك وتجرد الى المقاومة وعمد الى التهديد فبث العيون وشدد فى النكير والضباط لايستنكفون عن التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس * فلما كان صبح الثلاثاء ثالث ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وتسعين اجتمع الرئيس مصطفى رياض باشا ببقية الوزراء فى جلسة خصوصية وكلمهم فى أمر أحمد عرابى بيك ومن معه من جماعة الضباط فاتفقوا بعد جدال على تشكيل مجلس عسكرى من كبار الشراكسة لمحاكمة كل من له يد فى تأسيس عصابتهم وتشكيل محكمة أخرى من بعض الموظفين الملكيين لمحاكمة من انضم اليهم من الاهلين وقد أخذ عثمان رفقى باشا على عهدته تنفيذ مايتعلق بزعماء العصابة وقام من ساعته وذهب الى مقر ديوانه بقصر النيل وجمع اليه رجال مجلسه الحربى وكلهم من الشراكسة فتكلموا فى الامر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا فى الحال ثلاثة أوامر الى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمى المعروف بعلى الديب أميرجند الحرس الخديوى وأحمد عرابى بيك أميرجند الآلاى الرابع وعبد العال حلمى بيك المعروف بابى حشيش أمير الجند السودانى يستدعونهم الى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الاميرة جميلة هانم أخت الخديوى فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ماوقع الاتفاق عليه ومع ذلك فانهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا الى قصر النيل ومعهم من يأتى بالخبر الى أصحابهم اذا حل بهم مايكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفقى باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم الى حيث المجلس العسكرى فلما وقفوا بين أيدى رجال المجلس التفت اليهم خسرو باشا أحد الاعضاء وقال قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكرى بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من محل العسكرية فاخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلموها . فقال أحمد عرابى بيك قد سمعنا ماتقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لنكون على علم بما جنينا ونعرف ماذا كان حكمكم هذا ينطبق على ماجاءت به أحكام القوانين العسكرية أو ... فقاطعه أحد رجال المجلس بان قال ومن أين أتيتم لانفسكم حق هذا النظر وكيف تطلبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم

مطلب
تشكيل المجلس العسكرى للحكم على عرابى بيك ومن معه من كبار العسكر

الساعة واذهبوا بهم الى حيث أمرناكم فخلع الامراء عنهم سيوفهم وسلموها وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم الى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم فى سجن منفردا تخفره الجند وبعض كبار الجراكسة وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوى برحبة عابدين وكان محمد أفندى عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حبس الامراء نادى فى جنده بالخروج فخرجوا جميعا بأسلحتهم وعددهم فاعترضه خورشيد بك يسمى قائمقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت الى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه فى احدى الحجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند الى قصر النيل وهم فى ضجة وجلبة وبلغ الخديوى الخبر فاشرف على الجند من شرافة السلاملك ورسم الى الفريق راشد حسنى باشا بمنعهم من الذهاب الى قصر النيل فلم يتمكن فأمر بروجى قرا قول السراى بان ينفخ فى البوق مناديا لجماعة الضباط أن احضروا أمام الخديوى فلم يلتفت أحد لندائه وظلوا سائرين وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا أبواب قصر النيل فمانعهم بعض الجند النازلين هنالك فلم يلتفتوا اليهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفقى باشا وكان عثمان باشا قد علم بخبر مجيء الجند فأمر بالابواب فأغلقت فلما رأى الجند أن الابواب مقفلة صاحوا ودمدموا وكسروها واقتحموها عنوة وهم يكثرون من الشتم واللعن وبادروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وفتشوا على عثمان رفقى باشا يريدون البطش به فلم يعثروا له على أثر وكان قد خرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل ملابس العسكر فقام اليه ناظرها الماس بك وأخذ بيده وأدخله أحد المخازن وستره عن الاعين ببعض الاكياس الفارغة فتوارى هنالك فلما لم يجدوه اقتحموا سجون الامراء الثلاثة وأخرجوهم وساروا بهم الى مقر الحرس الخديوى حملا على الايدى وهم حاسرون الرؤس والناس خلفهم فى ضجة وجلبة عظيمتين

ووصل الخبر الى الخديوى بما جرى فاضطرب وأى اضطراب وسير فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحضروا فرسم بذهابهم الى قصر النيل ليتداركوا الامر قبل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعهم الامراء الثلاثة وهم ينفخون فى البوق وخلفهم العامة فى ضجة عظيمة فعادوا مسرعين الى مقر الخديوى وأعلموه بالخبر ولم يكد يقربهم المقام حتى أحاط الجند بالسراى احاطة السوار بالمعصم وقد طار الخبر فى هذه الاثناء الى معسكر طرا والعباسية فحضر منهما على الفور فرقتان بالبنادق والحراب وانضمتا الى جند الحرس ورفعوا أصواتهم على الاثر ونادوا بالويل والثبور على عثمان رفقى باشا وأشياعه وطلبوا خلعه من منصبه وأكثروا من الضجيج والصياح فسير اليهم الخديوى يقول هونوا عليكم فسنرى فيما تطلبون الساعة فضجوا عند ذلك بالدعاء للخديوى ثلاثا وقد هرع الناس عند سماعهم الضجيج وأتوا الى رحبة عابدين من كل فج عميق وتزاحموا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضاء وصاح الصبيان (الله ينصر السلطان) واجتمعت

الغوغاء وكثر الهرج والمرج وحضر قناصل الدول الى مقر الخديوى وهم فى دهشة واضطراب وكان أحمد عرابى بك قد أرسل اليهم فى الحال يعلمهم بالحادثة ويطمن خواطرهم من نحو رعاياهم وأتباعهم ويقول لهم انه لاعلاقة لهذه الحركة قط بالامور السياسية

ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا فى الامر طويلا ثم استدعوا أحمد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيرا وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال انا لا اطلب الآن سوى خلع عثمان رفقى باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا فى الامر طويلا ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الامراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أحمد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بما جرى ووقع الاتفاق عليه ونادى فى العسكر بالمسير فهتفوا جميعا بأصوات الدعاء ثلاثا وانسحبوا الى معسكر عابدين والموزيق تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب ومدخن بقصبة دخانه وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبد العال بك الى طرا وسار أحمد عرابى بك بعسكره الى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رياسة ديوان الجند بدلا من عثمان رفقى باشا المعزول فانحاز جميع الامراء ومقدمى الجند اليه وتقربوا منه ليكون لهم عونا فأعجبه ذلك منهم ومال اليهم وتقدم الى الخديوى فى طلب العفو عنهم جميعا وما زال به حتى أجابه الى ذلك

مطلب تولية محمود باشا البارودى رئاسته ديوان الجند وما كان

فلما كان يوم السبت عشرى ربيع الاول رسم الخديوى بحضورهم جميعا الى مقره بعابدين فحضروا فى الساعة الخامسة وفى مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما مثلوا بين يديه قام فيهم خطيبا يقول « انكم تعلمون حق العلم ماعندى من الميل والمحبة للعساكر والالتفات الى شؤنهم من يوم استلامى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدى من أنهم متحدون معى على مقاصدى الحسنة التى هى دوام حفظ الامنية واستقامة الاحوال الادارية فى هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الاسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت ومع ذلك فانى قد عفوت ولم يبق فى قلبى من آثارها شئ بالكلية فيلزمكم من الآن فصاعدا أن لا تشتغلوا بشئ خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعيى واجتهادى متجه الى اصلاح الاحوال وتحسين الامور وهيئة النظار الحاضرة متحدة معى فى هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة فى تتميم مايجب من الاصلاحات اللازمة وليس بخاف عليكم ماتم بهذا القطر من الاصلاحات المالية والادارية فى ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر ابداء الشكر واظهار المسرة وحاصل ماأقول لكم ان العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعى فى أداء واجباتهم والامتثال لولى أمرهم وانى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بان أكمل الصفات العسكرية هى الاستقامة والامتثال فى جميع الامور والاحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتجعلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور اه فلما أتم خطابه هتفوا

جميعا

جميعا بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الامراء الثلاثة الى قونصلي الفرنسيس والانجليز وتكلموا معهما فيما هم عليه من السكينة والتمسك بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هنالك قط مايدعو الى القلق أو الاضطراب ولله در من قال

فلا يعجبك الطيرشيأ أردته ۞ فقد خط بالاقلام ما كنت لاقيا

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديو من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفقي باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية فجعل يرقب الفرص ليوقع بالامراء الثلاثة وصار يكيد لهم كيدا والبارودى يعمل على مافيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يخيب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لانجاح له ولا فلاح الا بالخلاص من البارودى فعمد الى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وافشاء اسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيس بحوادث البلاد قبل اذاعتها قيل وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيس وتحبب اليه فأحبه ومال اليه انتقاما من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديو وقع مصاحبة البارودى للقونصل وكتب الى رئيس جمهور الفرنسيس يشكو من فعال القونصل ويعيب تداخله فى أعمال الحكومة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييبا وأكثروا من اللوم والتقريع بدولة الفرنسيس لتركها قونصلها يعمل على إثارة الخواطر وبلبلة الافكار وأعانهم المراقب الفرنسوى على ذلك أيضا لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاحمة على النفوذ ۞ ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيس نزلاء القاهرة والاسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل أبات بالاسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء فى ذلك اليوم وهم يقصون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضرا وبعثوا به الى مجلس نواب بلادهم وسألوهم أن لايعيروا شكوى الرئيس ووشاية المراقب جانب الالتفات وان يستبقوا القونصل فى منصبه كى لا يهدموا بأيديهم ما بناه القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكلمة فلم يكد يصل خطابهم الى عاصمة الفرنسيس حتى جاء الطلب الى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وماجوا ورفعوا عريضة ثانية الى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة فى غاية ربيع الاول من السنة فشيعه العدد العديد من الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التى نزل بها راجعا الى بلاده وفرح أصحاب صحف الاخبار الانجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشتراك فى مؤامرة الجند وخروج الامراء الثلاثة وقالوا انه هو الذى حضهم على شق عصا الطاعة نكاية بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس وأغلظوا فى الرد وتجافوا

مطلب اشتداد الخلاف مابين قونصل الفرنسيس والرئيس مصطفى رياض باشا وما كان من وراء ذلك

فى القول وقامت بينهم حرب الاقلام على قدم وساق واشتد الغيظ باصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسيو جاكن وألف لجنة أوعصابة سماها العصابة الوقتية المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس بأرض الفراعنة وكتب الى كبير جمهور الفرنسيس يقول انى بصفتى رئيس اللجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس فى ديار مصر أطلب بالحاح أن تنظروا بعين الالتفات الى العريضة التى بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور فى رابع ربيع الثانى اعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيس نزلاء مصر والاسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الالوان الثلاثة يعنى الراية الافرنسية بالنزل المعروف بنزل أبات بالاسكندرية لاقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيس عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فلبى القوم دعوته وتزاحموا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والفصحاء ورموا الرئيس بالخيانة لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا فى السب والتعييب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة ثالثة الى كبير جمهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشى العاقبة وقد أحس بوشك رجوع القونصل الى منصبه فتقدم الى الخديو فى التحرير الى كبير جمهور الفرنسيس بمنع رجوع القونصل الى ديار مصر كى لا يتكدر صفاء المودة بين البلدين فأجابه الخديو الى ذلك وكتب

مطلب القبض على أحد الضباط الشراكسة وهو يستكتب ضباط الجند السودانى بالشكوى من عبد العال بيك حشيش

ولم يكد يطمئن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل الى منصبه حتى قام زعماء عصابة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم فى دار البارودى وطاف أعوانهم يرجفون ذلك لان عبد العال بيك حشيش أمير الجند السودانى قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السودانى يحضهم التوقيع منهم على محضر قالوا انه مرفوع عن لسان جميع الضباط والجند بانهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديو عما سلف من طاعتهم لأميرهم واخراجهم اياه من قصر النيل قالوا وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديو يومئذ هو الذى استقدم اليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسعمائة جنيه ذهبا عينا وأوصاه أن يبذل جهد المجتهد فى التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط فى نظير ذلك ثلاثة جنيهات وللجندى جنيه وله هو فى مقابلة ذلك الرفعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه فى ذلك أونباشى أى كبير عشرة من الجنود فوافقه الاونباشى ووعده ثم تركه وذهب الى القائمقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وفتشه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعا فكبله بالحديد وألقاه فى الحال بالسجن وضيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القائمقام فى الحال الى عبد العال بيك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها الى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بعسكر وحسبة عابدين وأرسلوا الى البارودى باشا فجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا فى الأمر

ثم قام البارودى ودخل على الرئيس وأعلمه بما جرى فلم يهتم به ولم يلتفت اليه فساء البارودى ذلك وذهب الى الخديو وحدثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده عن القاهرة فسار الى أرض له بالاقليم البحرى وخمدت بتبعيده نار الفتنة وسكنت خواطر زعماء العصابة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجد والحزامة فتقدموا الى البارودى فى ترتيب سائر أمور الجندية على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والتطرق عالة الترق والجماكى والمرتبات وسن قانون يكون اليه المرجع فى تقدم كل عسكرى وواجباته وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الاصلاح فأجابهم البارودى الى ذلك وكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى الامر فحاول وطاول والبارودى يلح فى الطلب فلما أعيته الحيلة سأل الخديو فى ذلك فكلم الخديو الرئيس فلم يلتفت وأصر على الاباءة فرسم الخديو بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا وبلنش باشا واسمعيل كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبرناردى بيك والمستر جولد اسمث مفتش الدائرة السنية وغيرهم من الضباط لينظروا فى طلبات زعماء الجند ويقدروها قدرها فاجتمعوا ووالوا الاجتماع أياما ثم رفعوا الى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينوا فيه لزوم تقليل العسكر العامل وجعلوا حدا للترق فى الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا انه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا فى الخدمات الملكية والدواوين العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الاقرار على هاته القاعدة فأجابهم الى ذلك كارها ورفعها الى الخديو فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت بجماكيهم وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودى وعلت منزلته واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا الى طاعته والاجتماع عند اشارته الا نفرا من الضباط فسعى فى عزلهم وتولية أنصاره مكانهم

مطلب طلب زعماء الجند من البارودى سن قانون للجندية يكون المرجع اليه

ورأى البارودى بعد هذا كله ضرورة الجمع ما بين زعماء العصابة والرئيس مصطفى رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفرج * فلما كان حادى عشرى جمادى الاولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا اليها جميع الوزراء والمراقبين الانجليزى والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودى وخطب فيهم فكان ما قاله * هذه ليلة أنس دعتنا الى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف تذكارا لمآثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزيمتها الى اصلاح أحوال الاهالى جميعا وتعميم العدل فيهم وايصال كل لما يستحقه فقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديونا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما اذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل وما ذلك الا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ـ الى أن قال ـ ولا ريب فان هذه النعم يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك الا اذا قرناها بالشكر عليها فقد قالوا الشكر سياج النعم وحقيقته أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباتها

معضدا لجميع مقاصدها خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم وعلى ذلك لابد أن نناءى جميعا فليحيى الجناب الخديوى أطال الله بقاءه • فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا لطوائف الضباط ــ الى أن قال ــ ان محسنات العدل ووجوه الاصلاح التى امتازت بها أيامكم الجناب الخديوى فى هذه الاوطان أمر معلوم يعد تعداده من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة الى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الاصلاح ــ الى ان قال ــ وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت اليكم وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة فاذا بادأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر اليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالكم أن تؤدوا ما عليكم وهو طاعة ولى الامر الذى هو السبب الاعظم فى جميع هذه الخيرات ــ الى ان قال ــ وعلينا جميعا أن نبتهل الى الله تعالى ببقاء الخديو وتأييد عزه وأن ننادى بلسان الحال فليعش الجناب الخديوى فأجابه الحاضرون على ذلك

مطلب فى عمد أحمد عرابى بيك الى استمالة أهل البلاد

﴿قلت﴾ ولم تكن هذه المآدب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب مافى نفوس زعماء العصابة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقال من همتهم فى العمل على خلعه والتخلص منه فانه لما تمكن أحمد عرابى بيك من طاعة جميع الجند ومحبة سائر الضباط عمد الى استمالة أهل البلاد وعمدها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعوث فكانوا يجوبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون فى صدورهم نار البغض للرئيس وأعوانه وتخلى به الخروج الى أن كتب الى عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على أيدى رسله يقول ﴿ ان الوزارة الرياضية يعنى الهيئة التى يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على مافيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الاراضى الكثيرة للاجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم واعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على اكتافكم فضلا عن أنها رممت برفع الاحجار الطبيعية الموجودة ببوغاز اسكندرية لتتمكن سفن الاجانب من الدخول الى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا واضرابنا عن هذا كله يعد من الجبن والعجز والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يامعاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل اجحاف بحقوقكم والذود عنها جهد الاستطاعة ولايخفاكم أن هذا لايتم الا بتنزيل وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجلس نواب البلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة اليكم على يد حاملها والغاية منها جعلى نائبا عنكم فى كل مايتعلق باحوال البلاد • فأجابه الى ذلك كثير من عمد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الاراضى واتفق فى غضون ذلك أن قام الخديو وحاشيته

ورجال

ورجال ديوانه الى مدينة الاسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته فى كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة فخلا الجو لزعماء العصابة فأكثر رسلهم من التطواف على بيوت الاعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس ويحضونهم على تعضيد العصابة والأخذ بيد زعمائها * وظهر فى هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى فى كل ليلة بشكل جلى حتى لضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأولون ظهوره الى رموز واشارات شتى ويقولون ان هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لاتتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا اليه جميع الوقائع والحوادث التى وقعت فى غير ديار مصر وتكلم أصحاب صحف الاخبار عن هذا النجم فقالوا انه النجم ذاو الذنب الذى سبق فتكلم عنه المعلم مبل الفلكى الشهير فقال انه تظهر فى سنة ست وسبعمائة وألف ميلادية وشاهده فى سنة سبع وثمانمائة والف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ * ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الاقدمين تنبأ بان العالم باسره سينقرض نهارا فى رابع عشرى نوفمبر سنة اثنين وثمانين وثمانمائة والف ميلادية يعنى فى ثانى المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية قال وتستمر الاحوال من هذا التاريخ الى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما يأتى كل يوم منها بداهية دهياء وأن النوع البشرى ينقرض فى اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذى هو يوم عيد القديس نيقولاوس النصرانى عندهم بعد أن يشاهد الكثير من هذه النوازل الطامة التى منها تلاشى أسملاك جميع البحار وان يوم البعث والنشور يكون فى ثامن ديسمبر بحيث لايستغرق الا يوما واحدا قال المتنبئ ثم يعود بعد ذلك كل الى وظائفه العادية اه ﴿ قلت ﴾ فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيون الليالى وهم على أسطحة البيوت مولولين وكانت لاتمضى لحظة الا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل الى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة فى المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم فى بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أوانى النحاس ويضجون ويعجون ويقولون باللطيف باللطيف فاذا سألهم سائل عن ذلك قالوا الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب ظاهر للعيان * وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير فى هيئة الحكومة أو كرسى الخلافة والولاة وغير ذلك * وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا ارجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الأراجيف الباطلة والاشاعات الكاذبة ويستفزونهم الى الخروج عن طاعة ولاة الامور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بان ما كان فى البلاد من الضنك والخراب واعمال الارض انما هو من فعال الرئيس وبغضه للاهالى

ورغبته فى تسليم البلاد للانجليز حتى صدقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعمت هذه الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجم عنها أن كره أهلها سائر الاجانب المستوطنين فى البلاد وطمعت نفوسهم فى أموالهم وأرزاقهم فكان اذا استدان أحد دينا من أحد هؤلاء التجار وحل أجله ماطل وحاول وطلب المهلة فاذا شدد عليه الطلب أنكر الدين وهدد صاحبه وتوعده فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت معاملتهم لاهل البلاد ونزح الكثير منهم الى المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الارزاق ومحاصيل البلاد لخوف المشترين من الاجانب وتعذرت الجباية وقلت حيلة أصحابها وذهب الأمن من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على المديرين ومأمورى الحكومة بمراقبة الاحوال ومنع هذه القلاقل وابقاف تيار الفتنة فلم يفلحوا لفساد أخلاق العامة وميل أهل البلاد الى الاباطيل والاخذ باقوال الاولياء والمشايخ والمكاشفين من رجال الوقت وأصحاب الزايرجات التى كان يذيعها ضباط الجند بين أهل البلاد

مطلب قيام جند الاسكندرية بسبب موت أحدهم بصدمة من عربة أجنبى

وبينما كانت أفكار العامة فى اضطراب وقلوبهم تتقد غيظا من النزلاء ويتمنون لو أنهم يبطشون بهم جميعا اذ حدث بمدينة الاسكندرية أن جنديا من مرابطى القلاع كان سائرا بميدان المنشية فصدمته عربة لاحد النزلاء فسقط ميتا فى الحال فرآه بعض رفاقه فأسرعوا اليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قبس فى الماء أو عرج به الى عنان السماء فحملوا جثة رفيقهم وساروا بها الى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من السوقة والغوغاء وهم فى صياح وجلبة فاذا مروا بأجنبى أوسعوه شتما وسبا وتهديدا وكثر صياح الغوغاء وتخطفهم الاشياء من حوانيت الناس فخاف الناس العاقبة وأغلقوا حوانيتهم وشاع الخبر فتلاحق بهؤلاء الجند نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخذ الجثة منهم فمانعوا وأبوا إلا الصعود بها الى مقر الخديو وما زالوا سائرين بين صياح العامة وولولة النساء حتى دخلوا حوش رأس التين ووضعوا جثة رفيقهم تجاه شباك مجلس الخديو وصاحوا نصرك الله يا أفندينا ما يحل للنصارى قتلنا فى أيامك ائت لنا بصاحب العربة يا أفندينا نصرك الله على أعداء الدين فأشرف الخديو فى الحال من الطاق ولاطفهم وهوّن عليهم ووعدهم ورسم بحمل الجثة الى دار صاحب الشرطة فصاحوا ما يحصل ذلك يا أفندينا النصارى النصارى تقتلهم جميعا فأرسل اليهم بعض ضباط حرسه يطمنون خواطرهم ويهوّنون عليهم فلم ينكفوا عن النداء والصياح وحضر فى هذه الاثناء صاحب الشرطة ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهرا وساروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك الى القاهرة فبالغ الناس فيه وخلطوا وخبطوا حتى قالوا انه قد قامت الحرب بين الجند والطوائف الافرنجية بشوارع الاسكندرية والأمر يومئذ على غير ذلك فقد قبض صاحب الشرطة على رفاق ذلك الجندى وألقاهم فى السجن أياما ثم حكموا عليهم بالعقاب الشديد

فلما

فلما شاع خبر الحكم عليهم تحركت جند الاسكندرية وأظهروا غاية السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثر تطوافهم فى ذلك اليوم فى الازقة والحارات التى تسكنها الطوائف الافرنجية فعم الخوف جميع سكان الاسكندرية وجاء الخبر الى البارودى فأبلغه الرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فرية أوهو من أراجيف زعماء العصابة التى مابرحوا يذيعونها للتهويل والارهاب

مطلب تطواف عبدالله نديم على أهل البلاد يستنصرهم لرجال عصابة الجند

وأوعز فى هذا الحين أحمد عرابى بيك الى رجل من أهل البلاد اسمه عبد الله نديم صاحب صحيفة من صحف الاخبار اسمها (التنكيت والتبكيت) أن يجوب الاقاليم القبلية والبحرية ويدعو الناس الى نصرة زعماء العصابة ويستفزهم الى طلب تشكيل مجلس نواب البلاد كما كان على عهد اسمعيل باشا لينالوا بواسطته مالم يقدروا على نواله الآن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبد الله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قوالا سهل العبارات عذب المنطق مفلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميال أهلها فطفق يجوب المدن والبنادر والقرى ويخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وما حل بالبلاد على أيامهم من الويل والخراب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال اليه خلق كثير من الاعيان والوجهاء من كل صوب وحدب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاة الامور ومن بيدهم زمام الاحكام الى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطنى وعاد عبد الله بذلك المحضر الى القاهرة وسلمه الى أحمد بيك عرابى ففرح به وتقوت عزائم زعماء العصابة فنهضوا الى طلب الشئ الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل الى ثلاثين ألفا — وجعل زمام الجيش وادارة جميع أموره بيد أمراء الآلايات دون غيرهم — وزيادة جماكى العسكر — وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا فى حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه الى الرئيس على يدى البارودى فحرك ذلك ساكنا من قلب الرئيس ولكنه جعل يطاول ويحاول وعنى البارودى والبارودى لاينكف عن الطلب ولم تفتر له عزيمة وبلغت منه الشدة ومبلغها قيل فكاشف الخديو على ماخفى من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس انما يعمل منذ اليوم الذى عفا فيه الخديو عن الجند وزعماء العصابة على سلب امتيازات الخديو واذهاب حقوقه الذاتية وأطلعه على كثير من الأمور الخفية التى لم تكن تخطر له على بال

• قال الراوى فاندهش الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه اليه وحقده عليه ولكنه اعتصم بحبل التأنى ورسم بان لاتعقد هيئة مجلس الوزراء الا برئاسته وأن لا يقع شئ الا بعد مشورته وأن لا يأتى الرئيس عملا الا بعد التصديق عليه

مطلب
تقرب البارودى من المراقب الفرنسوى وقونصل جنرال الفرنسيس وما كان من وراء ذلك

منه فأجابه الرئيس بالسمع والطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان اذا أطلع الخديو على شئ أخفى عنه أشياء واذا أخبره بامر ستر عنه امورا والخديو يتغافل ويظهر الصبر والتجلد وبقى الحال على هذا المنوال أياما

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسوى واستماله فمال اليه وقربه من المسيو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسيس الذى جاء خلفا للمسيو دى رنج المعزول الذى تقدم لنا الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس مصطفى رياض باشا * قال بعض الكتاب وتحابوا وتوادوا فرأوا من الخديو عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن للخديو يدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصابة انتقاما من الرئيس للاسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى الى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الامر على الرئيس وشكا الى قونصل جنرال الانجليز ما يلاقيه من المراقب وقونصل الفرنسيس والبارودى وزعماء العصابة * قيل فهون عليه القونصل وشدد عزيمته وحسن له الاصرار على الاباءة * قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة ان القونصل انما أراد بذلك استشداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومانع البارودى وأغلظ له فى القول فقابله البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز الى زعماء العصابة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل والقاء خطب التهديد على لسان عبد الله صاحب (التنكيت والتبكيت) وكثر الاخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكلم قناصل الدول الخديو فى ذلك فأرسل الخديو فى سادس عشر رمضان يستقدم الرئيس وجميع الوزراء الى الاسكندرية فساروا اليه وانعقد مجلسهم فى ساعة وصولهم فكلمهم الخديو فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند وعرض بذكر أعمال الرئيس وتجافيه وحطه من مقام الخديو وقال لا بد من تنزيل الوزراء وخلعهم جميعا وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد شريف باشا كى تخمد نار هذه الفتنة وترجع الامور الى سابق مجراها وشدد فى ذلك وعنف الرئيس * قال الراوى لهذا الخبر فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس واصفر لونه وقال لست بمتخل عن منصبى ولا أنا بمنزل نفسى وفى بقية من الرمق بل لن أعترف بما يطلبه الخديو من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معايبه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من السوء للبلاد وأهلها فكثر بينهم الأخذ والرد واشتد الحد لخليج الرئيس وضعفت حجته وفاز البارودى أوكاد فكبر الأمر على قونصل جنرال الانجليز وقد كان حضر مجلسهم وهم يتصاحون فانتصر للرئيس وبالغ فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتا وحزما وتقدم الى الخديو فى قبول تنازله عن منصبه وألح على الخديو وترامى على أقدامه وقال والله لن يجمع بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديو الى ذلك ورسم

في

فى الحال بتقليد الامير داود باشا ابن الأمير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك فى نحو الساعة السابعة عربى من تلك الليلة وفى النفوس مافيها * وفرح الرئيس مصطفى رياض باشا بخلع البارودى وظن انفشال أصحاب الحركة وانصرام حزمتهم فقرب اليه الامير داود واستحثه على عدم التهاون حتى بصغائر الامور فشدد الامير على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلا فى بيوت بعضهم وحرر بذلك منشورا وأوعد كل من يخالف بالتبعيد الى أقاصى السودان فلم يرتدوا وظلوا على ماهم عليه من الخروج ليلا وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ الى الدراملى صاحب شحنة القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلا فطاف الدراملى ليلا ونهارا فلم يفلح اذ كانوا يتهددونه ويتوعدونه بالقتل وكان اذا هم بعمل شئ علموا به قبل الشروع فيه وسدوا عليه جميع أبوابه فلما أعنته الحيل تمارض وطلب التخلى عن منصبه فأزالوه وولوا مكانه عبد القادر باشا أحد أمراء الجند على عهد اسمعيل باشا فدبر وجعل يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضا اذ عصاه أصحاب الشرطة ونبذوا كلمه وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدبيره واتهمه ضباط الجند بانه انما يطوف حول دار أحمد عرابى ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فصدقوا به وخلطوا وخبطوا فخاف عبد القادر باشا شر العاقبة ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكلم الأمير داود الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فاستعظم الامر ولم يطق الصبر على مر هذا الجر ورسم بالتشديد وعدم الكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين

وبينما الناس فى شاغل بالحوادث المترادفة والبلايا المتراسلة اذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الاول غير أنه صار ضعيف الضوء لايكاد ينظر الا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيرا لا يتجاوز الست درجات ولايظهر جدا لشدة ارتفاعه فى الشمال الغربى بأسفل الدب الاكبر ومع ذلك فقد كان ينظر فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا الى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا الى التخوف والتطير وجعلوا يحيون الليالى على الاسطحة ورؤس الجدران يرصدونه وهم فى ضجة وولولة وابتهال الى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها مايستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم فى خامس عشرى رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية

مطلب ورود الخبر من عامل السودان بظهور كذاب يدعى المهدوية

فلما كان سابع عشريه وردت الاخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدى المنتظر على رأس القرن الثانى عشر من الهجرة المحمدية واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى عديرية آبا الكائنة بالنيل الابيض وهى مستقر المهدى المذكور ليأتوا به الى مقر الوالى وقد تنبه على مقدمهم بان لايسير اليه الا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره فى الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدى وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش متجمين بالرماح

والبنادق فأوعز مقدم العسكر الى العسكر بان يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا جمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا لانضرب قوما فقراء ولا نقاومهم لانهم من الدراويش فأحس الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نيفا ومائة عسكرى وستة من الضباط وفرّ من بقى والتجؤا الى النيل * ولما رجع أصحاب المهدى اليه ظافرين اشتد ظهره وتقوت عزيمته وبث الدعاة فى البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة وأهالى الجبال وكثرت لمومه فعبر بهم الى الجانب الغربى وظهر من هذا الحين أمره وعلت كلمته ثم دخل بلدة جبال تقلى احدى بلدان مديرية كردفان بأراضى البقارة وجعل بها مقره وطير الخبر الى الآفاق يدعو الناس الى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة الكفرة الملحدين فجمع الوالى عندذلك لقتاله جماعة من الباشيبوزق والجند وسيرهم الى فاشوده ليسيروا منها غربا والوالى يومئذ رؤف باشا وأرسل الى القاهرة فى طلب المدد من الرجال ومعدات الحرب فسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم الى الامير داود بان يسير اليه طائفة من مرابطى قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عرابى بك النازلين بالعباسية فأحس زعماء العصابة بما وراء ذلك فبثوا أعوانهم يشيعون تكذيب خبر الفتنة بالسودان و يقولون انها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لابد منها عند خروج أصحاب الجباية لجمع الخراج فشدد الامير داود فى طلب خروج العسكر والمعدات فامتنع كبارهم وبالغوا فى الامتناع وتجرد عبد الله صاحب (التنكيت والتبكيت) للذب والدفاع وكثر بين الفريقين الاخذ والرد فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا المستر ماليت قونصل جنرال الانجليز فى ذلك واستعان به فأعانه وتقدم الى الخديو فى طلب صرف جميع الجند الى أوطانهم عليها تسقط كلمة أحمد عرابى و يذهب نفوذ زعماء العصابة فرسم الخديو بذلك الى الأمير داود فجمع الأمير داود كبار الجند من جماعة الشراكسة وكلمهم فى الامر فأجابوه بالسمع والطاعة ولكنهم لم يفلحوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعة والرفض فعملوا على استرضائهم فلم يتمكنوا وكان الامر على غير ماير يدون * فلما أعيتهم الحيل وكاد يخيب منهم الرجاء والامل كتب الأمير داود مرسوما فى ثالث عشر شوال الى جميع طوائف الضباط ينهاهم عن الاجتماع ويحذرهم من شر العاقبة وطاف فى ليلة تحريره ذلك المرسوم على بيوت الضباط ليرى ما سيكون من أمرهم فرآها غاصة بجماهيرهم وهم فى هرج وجلبة فأصبح وقد كتب اليه عبد العال بيك أمير الجند السودانى يطعن فى مرسومه ويعيب قوله ويرمى الهيئة الحاكمة بالجور والعنف و يقول ان هذا النهى مما لايصح الامتثال اليه اذ هو مخالف للقوانين العسكرية وارادة أمير البلاد ومقتضيات الملة الحنيفية وأن تعاضد الجند واتحاد العسكر فى أمورهم وتقوية عزائمهم بالتزاور وتآلفهم وتجمعهم فى أعمالهم كل ذلك عنصر القوة والنظام العسكرى فى كل أمة وملة ولاسبيل الى النهى عنه فاستعظم الأمير داود هذا الجواب وأكبر ما فيه من الغلظة والتعنيف وقام من ساعته وسار الى قصر النيل وجمع

ضباط

ضباط الفرسان المرابطين هناك وجعل يستميلهم ويمنيهم بالامانى العظيمة وما زال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استحلف ضباط الالاى الخامس النازلين بمدينة الاسكندرية وضباط الحرس الخديوى وظن اخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم الى أحمد عرابى بالقيام بجميع عسكره الى مدينة رشيد والى جند قلعة الجبل بالقيام الى دمياط وأنفذ الى مقدم جند دمياط أن يأتى بعسكره الى مدينة الاسكندرية والى مقدم جند الاسكندرية بالحضور الى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابى وجند قلعة الجبل الى رشيد ودمياط * فلما وصل مرسوم الامير داود الى مقدم جند القلعة بالانحدار الى رشيد وكان ممن لايميلون الى أحمد عرابى وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلا عليهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر الى رشيد فقالوا لانخرج فراجعهم فعنفوه وانحدر بجماعة منهم وأعلموا زعماء العصابة بما جرى فخافوا العاقبة وجمعوا فى الحال بجميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى وقام فيهم أحمد عرابى خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاضد وما فيهما من الخير والامن على الارواح ثم استحلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الاعداء والاحتراس على موارد ارادته من أيدى الطامع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع فى كل الامور اليه * وانفض مجلسهم فكتب أحمد عرابى بك الى الأمير داود يقول قد تحقق لنا ولعموم ضابطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمركم الى الآلاى السادس بالتوجه الى الاسكندرية بدون باعث ولاسبب يقتضى ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمكن من الغدر بمن هم محافظون على الطاعة والاخلاص ولاذنب لهم سوى طلب الاصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لانسلم أنفسنا الى الموت وأن كافة الآلايات ستجتمع يوم تاريخه فى الساعة التاسعة نهارا بميدان عابدين للنظر فى حل تلك المسائل بحيث ان هذه الآلايات لاتتحرك من موضعها الا اذا حصل التأمين الكافى لسن قانون عادل يوقف كل انسان عند حده وسنشعر وكلاء الدول الاجنبية بما يلزم اه بنصه

مطلب كيف كان اجتماع العسكر بميدان عابدين وما كان من وراء ذلك

وكتب الى قناصل الدول أيضا يقول أتشرف بان أحيط علم جنابكم أنه من أول شهر فبراير سنة احدى وثمانين أى من وقت ابتداء الفتنة التى أحدثها عثمان رفقى باشا الى الآن قد مضى فوق السبعة أشهر وفى كل هذه المدة تقاسى العسكرية أتعابا وتحمل مصائب ونوازل وتهديدات وتتوقع القتل والاعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصائب حادثة يوسف باشا كامل وكيل الحضرة الخديوية ونازلة فريج بك السودانى وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس * قلت وهاتان الحادثتان لم أذكرهما لعدم أهميتهما

يومئذ ❁ ونحن مع كل ذلك نسعى فى تحسين الحال وقطع المفاسد بالحكمة والتدبير رغبة فى الحصول على الراحة العمومية وحقن الدماء والمحافظة على كافة تبعة الدول المتحابة ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد الى أن شرع فى تجزئة الجيش المصرى وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا الى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذى يترتب عليه حفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة الى تحرير هذا لجنابكم لتعلموا باننا متمسكون بالمحافظة على حقوق التبعة الاورباوية واقبلوا مزيد الاحترام اهـ

فلما وقف الأمير داود على ما فى خطاب أحمد عرابى بك تكدر وقام من فوره ودخل على الخديوى بعابدين وكان الخديوى قد عاد من الاسكندرية منذ أيام وحدثه بخبر تحزب جميع الضباط وما فى خطاب أحمد عرابى بك فسير الخديوى فى الحال فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الانجليزى لغياب ماليت قونصلهم الجنرال فحضروا فعقد مجلسا وتناجوا فى الامر طويلا وكثر بينهم الاخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا عليه جميع أفعاله وبينما هم على هذه الحال اذ حضر من يعلم الخديوى بان حرس سراى القبة التى هى مقر نساء الخديوى قد انضموا الى عسكر العباسية وتركوا مراكزهم فظهرت عند ذلك على وجوه جميع الحاضرين علامات الدهشة والخوف واشتد بهم القلق وانفض مجلسهم على حال لم تصل الينا معرفته الى الآن ❁ وفى نحو الساعة السادسة نهارا عاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومعه سائر الوزراء فعقدوا مجلسهم ثانية وتكلموا فى الامر وبينهم كولفن المراقب الانجليزى فتقدم كولفن الى الخديوى فى ابلاغ المسيو سنكوفيش قونصل جنرال الفرنسيس بخبر هذا الحادث اذ كان فى هذا اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فاعلم الخديوى بان جند الحرس وجند الآلاى الثانى على قدم الاستعداد لارغام جند أحمد عرابى وارجاعهم الى الطاعة وانه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين الى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم واخلاصهم فساروا جميعا الى المعسكر وبرز لهم الخديوى ووقف فى وسط الضباط وسألهم الطاعة فصاحوا جميعا بكلمة الاخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه الى قلعة الجبل ودعا اليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم اليه بأن يسير الى أحمد عرابى بك من يخبره بأن لا يتحرك بجنده ولا يأتى الى ميدان عابدين بشئ من المدافع وفى هذه الاثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت قونصل جنرال الانجليز فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فوره من القلعة وبعث بها الى عاصمة الانجليز على جناح البرق ولما صار الخديوى ومن معه فى جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والاخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والثبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعه من منصب الرياسة عاجلا فقال الخديوى

ما السبب

ماالسبب فى نبذكم الاوامر فقالوا حاشا أن نخالف لاميرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون فى طاعته فالتفت الى ابراهيم بك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال ابراهيم بك لم يكن من سبب لنبذ الاوامر سوى اغراء فوده حسن هذا البكباشى وأشار اليه فتقدم نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطواقه وجذبه اليه وقال له أمثلك من يعصى أمير البلاد ويمانع فى اجراء ماأشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل بهذلك نفخ أحمد أصحاب البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حرابهم على أفواه البنادق وأحاطوا بالخديوى ومن معه احاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت جلبتهم ونادوا أطلق ضابطنا أطلقه نخلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤس الحراب فالتفت الخديوى الى الجند وقال ألست خديويكم وولى أمركم قالوا بلى قال هل تأخر لاحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهرتم بهذا العصيان وفعلتم ما أنتم فاعلوه قالوا والله إنا مطيعون لك لانخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولانريد سوى خلع الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوى وانحدر وانحدر من كان معه على عجل * قيل وبينماهم منحدرون أشار الرئيس والمستركولفن على الخديوى بأن ينحدر الى عابدين قبل أن يصل الى ميدانها أحمد عرابى ومن معه من الجند فامتنع وأصر على الذهاب الى العباسية على غير الطريق المسلوك حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه وقد غطى الغبار وجهه ولحيته وابتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية فى أقل من ساعة ودخل محلة الجند فلم ير فيها ديارا ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا الى عابدين * وأما أحمد عرابى بك فانه لما صارت الساعة الثامنة عربى نهارا نادى فنفخوا فى البوق واصطف الجند وحملوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يجرون اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والاجناد من العباسية فى نفس الساعة التى دخل فيها الخديوى قلعة الجبل فقد أرسل اليه ضباط القلعة يعلمونه بوصول ركب الخديوى اليهم وكذلك أرسلوا الى عبد العال بك مقدم الجند السودانى بعسكره بطرا فتحرك فى الحال عبد العال بجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا بميدان محمد على ثم صعدوا الى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء ويلقوهم فى سجن القلعة وفى رواية ليقبضوا على الخديوى وعندى أن الاول أصح فقد أكد بعض العارفين أن الخديوى كان على اتفاق مع زعماء العصابة الى هذا الحين فلم يكن من موجب لذن للقبض عليه ولما لم يجدوا أحدا بالقلعة كروا راجعين الى رحبة عابدين فالتقوا هنالك بجند العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك الى حيث أحمد عرابى وبقية الضباط وتعانقوا ثم تصافحوا وتساروا لحظة ثم وقف كل فى مقدمة عسكره وسيفه بيده مسلول وقد اجتمع حولهم من العامة مالايحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وماوصل جند عبد العال بك حتى نفخ البوق نفخات متتابعة فعلت الضوضاء عند ذلك وكثر صياح

العامة وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وتزاحموا وتراى بعضهم فوق بعض ظنا منهم أن البوق اغايد عوا الجند الى اطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق ينادى جند الحرس الخديوى للخروج من معسكرهم فخرجوا فى الحال يحملون البنادق والحراب ومروا بين الصفوف ودخلوا السراى وأمامهم مقدمهم على بيك الديب وأحاطوا بالسراى من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدنو منها وهم فى غاية الهدو والسكينة * أما الخديوى فانه لما وصل الى رأس الطريق الموصل الى ميدان عابدين و رأى الميدان غاصا بالجند والخيل والمدافع والخلق الكثير من العامة وهم فى ولولة وخوف عرّج الى طريق أخرى ودخل السراى من باب صغير أمام الجناح الذى بالجانب القبلى من السراى وكان معه فى مركبته كولفن المراقب الانجليزى وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فنزل وسار نحو الباب الغربى الموصل الى الميدان حيث الجند والخيل فتقدم اليه فى الحال رضا باشا وأعلمه بان جند قلعة الجبل قد انضموا أيضا الى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن الى الخديوى عندئذ وقال اذا تقدم نحولك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه الى غمده ويتبعك فاذا فعل تقدم أنت الى رأس كل فريق من الجند ومره بالانصراف فتقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار اليهما بالسلام فسلما بالاحترام والتجلة والوقار فقال لهم مالكم قد نبذتم طاعتى وعصيتم أمرى فقالوا حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال انصرفوا وسأبذل جهد الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى انى واخوانى وجميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يامولاى وكلنا لانبرح من هذا الموقف حتى تجزلنا ما طلبناه فقال له الخديوى رد سيفك الى غمده فأجاب سمعا وطاعة وناول الخديوى ورقة وقال هذه يامولاى ملحقة بمقترحات الوطن وبنيه فأخذها الخديو وقفل راجعا الى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطرحه فى السجن كما أشار بذلك المراقب الانجليزى فلم يقتحم الخديوى الدرج حتى جاءه من يقول ان جند الحرس انضموا أيضا الى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد الى مقره فلما استوى به المقام أمر فعقدوا هيئة مجلس الوزارة وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت — أولا عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف — ثانيا جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفا طبقا للفرمان الصادر فى شأن ذلك — ثالثا تشكيل مجلس نواب البلاد على ماكان عليه فلما طرق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طبل هذا الكلام كاد يتميز غيظا وقال كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لاسيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الانجليز والفرنسيس فلا يصح التعرض لهم بشئ البتة الابعد استشارة الدولتين فقال الخديوى وأنا أرى أيضا ان الوزير محمد شريف باشا لايريد أن تكون له الرياسة على هيئة تكون كالآلة الصماء فى أيدي

الجند

الجنـد أما من جهـة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجند بطلب تشكيله وكذلك جعـل عـدد العسكر العامـل ثمانية عشر ألفا مما يثقـل حمله على عاتق الخزينـة وليس فى الامر الآن مايسـتلزم هـذه الزيادة * فكثر عند ذلك الاخـذ والرد بـين الوزراء والخـديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الاغراض وتفرقت الاهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم انه لايخلع نفسـه وفيه بقيـة من الحياة فعنفـه بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له انك أنت محدث هذه الثورة وموقد نار هاته الفتنة وكانك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية فى نفسك فاغلظ عليهم فى الرد وشدد فى الامتناع فراجعه الخديوى فامتنع أيضا فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قونصل جنرال الانجليز ليسأل أحمد عرابى بيك عن رغائبه وكان أحمـد عرابى واقفا وحوله كتيبة من الجند تحرسه على شكل قلعة فدنا منه المستر كوكسن وقال * قد تقرر خلع الوزراء الآن ولكن لاينقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجند وتنفض هاته الجموع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا * الوزير محمد شريف باشا * فقال كوكسن ويحكم انى أرى أن الاجمل صرف الجنـد الساعة والا كنتم سبب ضياع وطنكم وعيالكم فان الخليفـة أمير المؤمنين ودولتى الانجليز والفرنسيس لايرضون عن جعل حكم هذه البلاد فى قبضة جنودها انصرفوا فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمـد شريف باشا فرجـع كوكسـن الى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد وقال ان الخديوى رسم باحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى يأتيه الاذن من أمير المؤمنين فاصرفوا الجنـد وفضوا هذا التظاهر فقال أحمد عرابى بيك أما احالة نظر هـذه المشكلة على دار الخلافة الاسلامية فلا بأس به وأما صرف الجنـد فلا سبيل اليه قبل أن يعطى لنا الخـديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه واقامة الوزير محمد شريف باشا بدله فقال كوكسن ان كنت تخشى شيـأ من انصراف الجند فانا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم وجميع مالكم من الرتب وألقاب الشرف فضحك أحمد عرابى وقال ويلك فمنك كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت غريب نازل بلادنا التى هى فى حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الاجانب وصيانة أموالهـم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الانجليز ولا أظنك تجهـل أن دولتى الانجليز والفرنسيس مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير اسمعيل صديق باشا لم يدفعا عنه مرارة تلك الكاس التى شربها قهرا فعند ذلك سكت كوكسن وعاد الى المجلس ولم يعد ثالثة الا ومعه كولفن المراقب وخيرى باشا المهردار و بيـده خيرى باشا مرسوم الخديو الى الوزير محمـد شريف باشا بتوليته منصب الرياسة وتشكيل هيئة الوزراء على مايشاء * فلما دنوا من موقف أحمد عرابى أخذ القونصـل المرسوم ودفعه الى أحمد عرابى وقال هاهو ماتطلبه فأعطه بيدك الى الوزير محمد شريف باشا ومر الجند بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعى أحمد عرابى

مطلب
خلع الرئيس مصطفى رياض باشا وماكان عند ولاية الوزير محمد شريف باشا

للثول بين يدى الخديوى فدخل أحمد عرابى الى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق فنفخ فيه تباعا فصاح الجند جميعا بصوت واحد (أفندمز جوق يشا) ثلاثا فظن الناس عند ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق الا اطلاق المدافع فتراموا وارتفعت أصواتهم بالصياح وتساقط بعضهم فوق بعض وكثر بكاؤهم فنفخ البوق ثانيـة وثالثة فسار أولا جند عبد العال بيك الشاحية طرا ثم جنـد قصر النيل ثم جند العباسية وكان فى مقدمة جند العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفى وسطها أحمد عرابى بك وخلفه جماعة من الضباط يحملون السـيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المـدافع وخلفهـم نساء العامة والسوقـة وهن يزغرتن ويغنـين الاغانى الريفيـة ويصحن فى كل لحظة ويقلن الله ينصرك ياعرابى ياسـند الولايا الله ينصرك

وسير الخديوى فى الحال بعد انفضاض الجمع خبر هذا الحادث الجدار السلطنة فأتاه الجواب من صدر الدولة يستحثه على استدراك الخطب قبل استفحاله وأرسل فى نحو السـاعة الخامسة ليلا الى الاسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة الحضرة فى قطار مخصوص هو وآل بيتـه وخدمه وحشمه وأتباعه فوصـل القاهرة فى فجر السبت سادس عشرى شوال ودخل على الخديوى ولبث بحضرته طويلا ولم يحدث فى تلك الليلة شئ مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزعانف الفرنجة فقد كان أصحاب الشرطة ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف فى الازقة والحارات وأصحاب الدركات ينادون بعضهم على بعض تباعا ورتب أحمد عرابى بك جماعة من الجند يطوفون ويمنعون العامة من التجمع فى الطرق والقهاوى على عاداتهم وألبس كثيرا من صغار الضباط ملابس العامة فكانوا يعبرون بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس فى فرح ماعليه من مزيد وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد شريف باشا الى مقر الخديوى بعابدين وعقد مجلسا حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم فى هذا اليوم فى الاسكندرية وبعضهم فى طنطا وحضر فى هذا المجلس أيضا مقدمو العسكر فتكلم الوزير محمـد شريف باشا فى طلبات زعماء الجند وتباحثوا كثيرا فعلق الوزير قبوله منصب الرياسة على خلع أمراء الالايات الثلاثة من مناصبهم وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقهـم الذاتية ولسائر الجند بنوال العفو عما فرط ولزوم انسحاب جنـد العباسـية وطرا الى رأس الوادى ودمياط فلم يرض مقـدمو العسكر بذلك وقالوا انما نحن نطلب أن يتولى رياسـة ديوان الجنـد رجـل من أهـل البلاد لا شركسى ولا من العائلة الخـديوية وأن لابد من ابلاغ عـدد الجنـود العاملة الى ثمانية عشر ألفا وأن يشـكل مجلس شورى البـلاد كما كان على أيام الخـديوى اسمعيـل باشا فطال بينهـم الاخـذ والرد وكـثرت الضوضـاء ثم انفض مجلسـهم على غـير طائل وشاع الخـبر بما كان فتطير الناس وخافوا وكـثرت الاراجيف وتنوعت الاشاعات فمن قائل ان مراكب حرب

الانجليز

الانجليز والفرنسيس آتية للاسكندرية لاخضاع زعماء الجند وارجاعهم الى الطاعة ومن قائل لابل ان عسكر السلطان صارت على مقربة من العريش وهى آتية لمعاونة زعماء الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساآل الناس بعضهم لبعض وأصبحوا فأرسل الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا يلح عليه بقبول منصب الرياسة وتوسط فى ذلك أيضا قناصل الدول فامتنع وقال لاسبيل الى ذلك حتى تنسحب جميع العساكر الى رأس الوادى ودمياط وينزل أمراء الجند الثلاثة عن منصبهم فانقسم الناس فى أمره يومئذ الى فريقين فريق كان يصوب آراءه ويستحسنها غاية الاستحسان مشيرا بذلك الى عزة نفسه ونزاهتها عن الاغراض الذاتية التى تصحب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن وفريق كان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شئ فكان عليه أن يلبى الداعى ويأخذ بأطراف الحزم مع أجل المساعى فيفض المشكلة بحكمته المشهورة وينقذ البلاد وأهلها من البلايا التى وقعت فيها وكان لكل من الفريقين دليل وبرهان وعندى أن القول الثانى أفضل وقد ظن بعض الناس أن تردده فى قبول منصب الرياسة مبنى على رغبته فى اماتة الوقت والمطاولة حتى تصل الى الاسكندرية مراكب الحرب السلطانية وظن آخرون أنه لايقبل هذا المنصب حتى تحصل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الانجليزى والفرنساوى عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنساوى من الوحشة والنفور • قلت ولم يكن الوزير على هذا الجانب من الافراط والتفريط فانه معروف بين جميع أهل البلاد بالتنزه عن الاغراض الذاتية مشهور بلين العريكة وسلامة النية فلا تميله الاغراض ولا تغير المناصب من أخلاقه شيأ ولا يسير الا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة للبلاد وأهلها وفوق ذلك فهو ليس بذى طمع مع احدى الدول الطامعة فى البلاد كغيره ممن تولوا الرياسة ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الامة وأبا الاصلاح ومحيى روح المساواة بين صنوف الرعية • ولما طال امتناعه أوعز الخديوى الى قناصل الدول والعلماء والرؤساء الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه الى قبول المنصب ففعلوا وزادوا فى استعطافه ورفع اليه العلماء وعمد البلاد ووجهاؤها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلا بأختامهم وأسمائهم وهم زهاء الستة آلاف ذكروا فيه أنهم كافلون وضامنون طاعة أمراء العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم الى تكدير صفو الراحة وامتثالهم لاشارة الوزير وغير ذلك من أقوال اللين والتلطف فلم يسعه بعد ذلك الا القبول وقام من ساعته ودخل على الخديو بمقره بالاسماعيلية ولبث بحضرته لحظة ثم كر راجعا الى داره فلقيه وفد من مقدمى العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف درجاتهم فدفعوه اليه فقبله ولا طفهم وأظهر لهم غاية البشر والايناس وقرأه واذا هم يقولون فيه

نحن ضباط الجيش المصرى نعتقد الاعتقاد التام فى حسن صداقة وغيرة دولتكم وخلوص

طويتكم وسلامة نيتكم فى خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعى فى رفاهية أهله ولهذا ولكوننا جميعا نحب تقدم وطننا العزيز فنلتمس من دولتكم قبول مسند رياسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب نظار الدواوين ممن يكونون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام باعباء خدمة الوطن العزيز واعلانا لصداقتنا وانقيادنا لاوامر الحكومة التى تصدر فى صالحنا العمومى قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول اه * فما فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ماكان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمى باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا للمالية واسمعيل أيوب باشا للاشغال ومحمود باشا البارودى للجهادية والحربية وقدرى بك للحقانية وأضاف الى مسند الرياسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لايوصف واطمأنت قلوبهم بعد الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهانى على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحدب وأحدس مصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرياسة لاسيما وقد كثر اللغط وعمت الاشاعة بان زعماء الجند يطلبون محاكمته على ما ارتكبه من الجور والعسف وتخريب البيوت العامرة وتبعيد الكثير من أبناء البلاد الى أقاصى السودان والدارفور بلا موجب فخاف وتقدم الى الخديوى فى أن يسرحه بالخروج الى الديار الاجنبية كما فعل عند خلعه على أيام الخديو اسمعيل فسرحه بشفاعة قونصل الانجليز والمستر كولفن المراقب فرحل عن القاهرة مساء الثلاثاء تاسع عشر شوال الى الاسكندرية ثم سار عنها فى ثانى يوم الى مدينة نيس احدى مدن بلاد الفرنسيس فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام واحدى عشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشرة ساعة بالاسكندرية وطير الخديوى الخبر بجميع ماجرى الى دار السلطنة فجاءه الجواب فى ثالث عشرى شوال يهنئه بما حصل و يسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محمد شريف باشا يتصرف فى الامور بعزمه وحزمه المعلومين و ينظر الى مصالح الخلق من أبوابها الحقة * وجاء الى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الاهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الالف والخمسمائة من عمد البلاد وكبارها احداهما برسم الوزير محمد شريف باشا ومضمونها ان جميع من وقعوا عليها كافلون بانه لايقع فى المستقبل من الجيوش المصرية شئ تأباه الهيئة الحاكمة وانهم فرحون فرحا ماعليه من مزيد حيث تنازل وقبل مسند الرياسة لانهم يعتقدون أن قبوله هذا هو الوسيلة العظمى فى اطمئنان الخواطر وسكون النفوس وثانيتهما برسم الخديوى ومضمونها طلب تشكيل مجلس النواب حيث انه هو الواسطة الكبرى للاصلاح الذى توجهت اليه آمال جميع الاهلين وكان بين هذه الجموع التى حضرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فوقف وقال مخاطبا الوزير محمد شريف باشا * انى أعرض على مسامع دولتكم

مطلب قبول الوزير شريف باشا تشكيل الوزارة بعد امتناع

ان

أن هؤلاء الوجهاء والنبلاء قدتقاولوا بين أيدى مراحمكم ليظهروا ماعندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسندالرياسة الجليل فانهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقيقى لاجراء الاصلاح الذى كثيراما أملوه ولم يرضوا أنهم متكفلون بالجيوش المصرية الذين هم فى الحقيقة أبناؤهم واخوانهم وليلتمسوا من مكارمكم مايعلمونه فى سمو أفكاركم من بث روح الحرية فى البلاد والمساواة بين أصناف الرعية وحيث ان دولتكم على هذه الافكار السامية فهذا الجمع يلتمس من كرمكم بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن تمدوا اليهم ساعد المساعدة القوى وتسعفوهم بما علموه فى همتكم من الاقدام وقوة العزيمة وان مساعدتهم على نوال ماطلبوه لاتتحقق الا بان تكون دولتكم الواسطة العظمى فى رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب الى الجناب الخديوى المعظم أعزه الله وليست هذه باول مارآه الناس من حبكم لبث روح الحرية فى البلاد فان أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل مافيه الخير والمنفعة لهذه الاوطان اه فاجابه الوزير بما شف عن اخلاصه فى مساعدتهم وانه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تتقدم به البلاد لاسيما فى تشكيل مجلس شورى النواب فانصرفوا وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فوردت على الوزير فى هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الاجانب والاهلين وأرسل اليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام قارئا من وجه مصطفى رياض باشا تاريخا على جناح البرق يؤرخ به عوده الى منصب الرياسة وهو

فهذه التهنئة تاريخها * نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات تترى ووقف بعض الشعراء على بابه * وسمعت شطر بيت لاحد أدباء القاهرة يؤرخ به رياسة المشار اليه وكأنه كان يعرّض باعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الاول وهو

* الدهر حر والوزير شريف * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينظر فى طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وقانون القواعد الاساسية الذى يليه قانون الترقى وقانون الضمائم والامتيازات والاعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها الى الخديوى فصادق عليها وعمم بتنفيذها والعمل بها اعتبارا من ثامن عشرى شوال ففرح الجند بذلك فرحا لايوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة وكانت هذه القوانين غاية فى السهولة والاعتدال لاشئ فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة البلاد ولم يعدل الى هذا الحين ما الذى حمل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعيينها والامتناع من العمل بها بعد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ماأراد ولولم يقع منه فى

أيام رياسته شئ من الجفاء والشدة مع مقدمى الجند سوى اصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكن فان أعمال زعماء العصابة كانت لغاية اليوم الذى تقررت فيه هذه القوانين غاية فى الخطل والخلل بل هى كأعمال صبيان المكاتب ليس فيها مايوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوبة بالاغراض التى لابد وأن تفضى بصاحبها يوما الى الوقوع فى الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله فى ذلك كمثل رجل سلم لآخر سيفا باترا على حين لايملك عصا واستحلفه أن لايتقلده الامتى بلغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعد أيام أن ضيق عليه وبالغ فى اذلاله وسامه الخسف فلم يشعر الا وذلك السيف يكاد يعمل فى عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه أوأنت فاعل قال كيف لا وقد استحلفتنى وهذا السيف سيفك الذى سلمتنيه فندم ولكن لم ينفع الندم

مطلب رفع ظلامات أهل المحبوس الى الوزير

وسار الوزير محمد شريف باشا فى النظر فى أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثا فكثر توارد القصص والظلامات على ديوانه من أهل المحبوس التى ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لاقل ذنب وأصغر شبهة فكان اذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك المحبوس وأطفالهم بأثوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتساقطت الظلامات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الانجليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس واستعظموا البلوى ونادوا بالعدالة باللانسانية فكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد اليها تفتيش جميع المحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون وسيرت دولة الانجليز أحد مقدمى جنودها الى القاهرة ليشارك اللجنة فى أعمالها وكلم القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع فى حضوره فبحثت اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمى بعض المصالح والدواوين كالطرد والحرمان من الخدامات والتبعيد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضا جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والحقير والغنى والفقير حتى غصت بهم المحبوس وضاقت على اتساعها وأبعد الكثير منهم الى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الاربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا الى أوطانهم على نفقة الخزينة * وبينما الناس فى شاغل بحوادث أصحاب الظلامات ومن أهلكتهم

مطلب حضور وفد السلطان الى القاهرة وما كان من وراء ذلك

المحبوس اذجاء الخبر من دار السلطنة فى ثامن ذى القعدة الى ديوان الخديوى الخاص بقيام احدى سفن حرب الدولة الى الاسكندرية وعليها أربعة من مأمورى الدولة وهم على نظامى باشا المعتمد الاول الموكول اليه البحث فى أمر تظاهر أحمد عرابى بيك وأصحابه وعلى فؤاد بيك المعتمد الثانى الموكول اليه النظر فى الامور السياسية وله حق الاشتراك فى المخابرات التى تقع بين مصر والدول الكبرى وراتب باشا وصفر أفندى وهما من ياوران الخليفة

أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضا التهانى للخديوى على ماأظهره من الحزم وحسن السياسة فى حل تظاهر الجند وتسكين قلوب الرعية ويقول انى أرسلت اليك فى مركب حربية من مراكبنا السلطانية بعض المأمورين من ياوراننا الخاص سيكونون لك عونا على حل هذا الاشكال وفض الخلاف بالتى هى أحسن ومنع حدوث مثل هذه القلاقل مرة ثانية فلما شاع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم فى الحال بانحدار عبد العال بيك بعسكره السود الى مدينة دمياط فانحدر فى نفس اليوم الذى جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقد شيعه على المحطة العدد العديد من ضباط الجند والوجهاء والاعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابى بيك والبارودى فقبل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطبا للجمع أيها الاخوان * انا نودعكم والقلوب معكم وكلة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا وثقوا بعزمكم ولا تطاوعوا الوشاة فيما يفترونه علينا كما أننا لانسمع من واش كلاما واعلموا أننا فى تيار أفكار ان لم نحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد والا هلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوى وطهارة رجاله الفخام فنحن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضى العمر فى طاعتهم والله الحفيظ على وعليكم وهو على كل شئ قدير

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتى الطائف والتنكيت والتبكيت وقال مخاطبا الجند حماة البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم اليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق ولايلحقكم فى ادراكها لاحق ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهما فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر بآثركم الآتى من أبنائنا فقد حيى الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى فان الامة جسد والجند روح ولاحياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول

اليكم ردّ الامر وهو عظيم	فانى بكم طول الزمان رحيم
اذا لم تكونوا للخطوب وللورى	فمن أين يأتى للديار نعيم
وان الفتى ان لم ينازل زمانه	تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا عنان الخيل نحو متيم	تقلبه بين البيوت نسيم
وشدّوا له الاطراف من كل وجهة	فشدود أطراف الجهات قويم
اذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة	فليس لمغلول اليدين حريم
وان لم تكن للعائذين حماية	فانت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة من مبايعة أهل النصرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون

بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الاوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوى وتأييد ملكه وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل مايذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخدش الشرف فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ثم التفت الى عبد العال بيك وقال هـذا أخوكم الحر يودعكم ويسير باخوانكم الى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهـدتم الانفس فى إحكامه فقـد

زالت موانعنا التى * كانت تجر الى الفساد والانس دار رحيقه * بين الجيوش أولى الرشاد

لا تعمر الدنيا اذا * لم تترك الخلق العناد فالارض تنبت زرعها * لحيـاتنا بالاتحـاد

ومن محاسنكم التى تفتخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم لاوامر الحكومة وامتثالكم لاشارتها وربط قلوبكم بمحبة مولانا الخديوى ورجاله الكرام خصوصا هذا الرئيس البر الرؤف القائم بخدمة الامة وبلادها وأحسن مايؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الاوطان اهـ

فما ختم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحـد رضينا بالموت فى حفظ الاوطان ووقاية أميرنا من كل ماءس سلطته * ثم سار القطار قاصدا دمياط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند فى المحلة التى أعدت لهم وزار عبـد العال بيك جميع وجهاء البلد وأعيانها وعملوا له الولائم والختمات وتوددوا اليـه وتقربوا منه جهد الاستطاعة فلما جاء الخبر الى القاهـرة بان قد استقر بعبـد العال بيك وجنـده المقام رسم الوزير محمد شريف باشا الى أحمد عـرابى بان يخـرج بجنـده الى رأس الوادى فنادى فيهم بالخروج فخرجوا يوم الخميس ثالث عشر ذى القـعدة وأمامهم أحمد عرابى بك على فرس وحوله كوكبة من الضباط على ظهور الخيـل والسيوف بأيديهم مسلولة وساروا من وسط المدينـة الى المقام الحسينى فلما اقتربوا منـه ترجل أحمد عرابى بيك وترجل معه جماعة من الضباط ودخل الى المقام ومعه بيرق الآلاى وطاف حول الضريح مرارا كثيرة وهو يقرأ بعض الاحزاب ثم خرج وركب هو ومن معه وساروا قاصدين محطة السكة الحـديد وكان جنـد الحرس الخـديوى مصطفا على جانبى الطريق وبأيدى ضباطـه باقات الورد والزهور وكذلك بعض العامـة وكانت الطرق غاصـة بجماهـير الناس من الرجال والنساء والصبيان فلما اقترب أحمد عرابى بيك من المحطة هتف الناس هتافا عظيما وعزفت الموسيقى وترامت عليه ضمات الزهور من كل جانب وكان فى انتظاره كبار الضباط وبعض أعيان القاهرة وعمد بعض البلاد وقد فرشوا له الارض بالزهور والرياحـين وأوراق الشجر فترجـل عن جواده ووقف برهـة لطيفة وحوله جماعة من مقدمى الجنـد وهم على بيك الديب مقدم الحرس الخديوى وعلى بيك يوسف مقدم جند قلعة الجبل الذى تولى بدل ابراهيم بيك حيـدر وطلبة بيك عصمت مقدم جند قصر النيل الذى تولى بدل شوقى بيك وقبل أن يتحرك به وبعسكره القطار التفت الى من كانوا حوله وجعـل يحضهم على الاتحاد والتعاون وعـدم تفريق الكلمة مع صفاء القلوب واخلاص النية عند كل عمل ثم تقدم عبد الله صاحب الطائف وخطب فحض وحث

وبالغ

وبالغ فى التنكيت والتبكيت حتى أخذ بالعقول وكاد يبكى الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادى فلما وصل مدينة الزقازيق التى هى كرسى القرية التى ولد فيها أحمد عرابى بيك هرع اليه الكثير من مشايخ البلدان والعمد والاعيان يحمل بعضهم أغصان الشجر وبعضهم سعف النخل وبعضهم الزهور والرياحين وهم فى ضجة وجلبة عظيمة فأشرف عليهم من نافذة العربة فصاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأشار الى صاحب الطائف فتكلم وبالغ فى الحث ثم تكلم هو كذلك فتزامت عليه الزهور والرياحين من كل جانب وعلت الاصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مسرعا الى رأس الوادى

واتفق انه وصل فى هذا اليوم رجال الوفد القادمون من دار السلطنة الى مدينة الاسكندرية ودخلت مركبهم المينا فسلمت فرد عليها بعض الحصون السلام وكان الخديوى قد رسم الى ذى الفقار باشا فانحدر الى الاسكندرية للقاء رجال الوفد فأنزلوهم فى سراى رأس التين فأكلوا وشربوا وركبوا الى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوى الخاص وكان فى ركابهم فريق من العسكر وجماعة من أصحاب الشرطة ومحافظ المدينة وصاحب شرطتها فسار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا فى الساعة الثانية ليلا وساروا الى قصر النزهة حيث أعد لهم وكانت عدتهم ستة وهم على نظامى باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندى وسيف الله أفندى والشيخ أحمد أسعد أفندى متولى الفراشة بالحرمين الشريفين عدا الخدم والحشم والاتباع فانهم كثيرون وكان جميع ضباط الباخرة التى جاءت بهم من ضباط القصر الشاهانى وقد بقى معهم اثنا عشر شخصا لم ينزلوا الى البر وهم من الحرس السلطانى المكلفين بمراقبة رجال الوفد • ولما كان صباح الجمعة رابع عشر ذى القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوى بمقره بالاسماعيلية فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبالغ فى تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل الينا معرفته أو كما قال بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية انهم أبلغوا الخديوى تسليمات الذات السلطانية وأعربوا عما لها من تمام المسرة والرضا عن همة الخديوى فى حفظ الامنية وأن المقصود من حضورهم انما هو اظهار ما للذات الملوكانية من الوثوق والاعتماد على الجناب الخديوى وتأييد نفوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مركزه قالوا فعند ذلك نطق الخديوى بآيات الخضوع وأدى واجبات الشكر للذات الشاهانية على حسن عنايتها ثم دعا لها بتخليد ملكها وتمكين قوتها وبعد ذلك انصرفوا • فلما جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوى فى كبكبته وزار رجال الوفد بقصر النزهة ولبث معهم برهة ثم كر راجعا الى الاسماعيلية فبات حضور رجال هذا الوفد مع طلب الامة انشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شئ وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم الى الخديوى فى خامس عشر ذى القعدة فى طلب التصديق على انشاء المجلس على قاعدة قد قررها فصادق الخديوى عليها راضيا ورسم بافتتاحه فى غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك

مطلب
التقاء رجال الوفد بالخديوى فى مقره وذهابه اليهم

فشرح الناس كثيرا وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والاعيان بالقاهرة ومصر يبشرونهم وتكلم أصحاب صحف الاخبار المحلية عن الفوائد العظيمة التى تنجم عن انشاء هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا فى الاطراء وقالوا انه لهو من المحسنات بل من المعجزات التى لايقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الاتيان بها لاسيما فى إبان هذه الظروف المهمة والخطوب المدلهمة

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة ونظاراتها ثم ساروا الى ديوان الجند بقصر النيل فاصطفت لقدومهم جميع العساكر وكان محمود باشا البارودى واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل على نظامى باشا أخذ البارودى بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استدعى اليه طلبة بيك وجميع القائمقامات والبيكباشية فألقى عليهم خطابا بالتركية فترجمه البارودى بالعربية فكان هكذا ❊ إن الجناب الخديوى الاكرم منزلة رفيعة من الحب وحسن الرعاية عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأييد مركزه وبعضد نفوذه وسلطته ولدس يخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوى هو الوكيل المفوض عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فمن أطاع الجناب الخديوى وامتثل أوامره وانقاد لاحكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء فى محكم القرآن من قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ومن خالف الجناب الخديوى فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن ــ نعوذ بالله من ذلك ❊ فنحن معشر العساكر يلزمنا فى كل حال أن نطيع ونذعن لولى الأمر وان لانتردد أو نتهاون فى القيام بما نكلف به من الأوامر وأن لا نبحث عن موجبها ولا نسأل عن أسباب ما نكلف به من الأوامر وانما علينا أن نمتثل كل ما أمرنا به ونجرى على مقتضاه وقد أمضيت فى خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية فى المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امتثالا لأوامر مولانا وسلطاننا واعلاء لكلمة ديننا ودفاعا عن عموم أوطاننا فأوصيكم أن تتمسكوا بالطاعة وتقيموا على الانقياد وتلزموا حدود كم المعروفة فلا يعرف الصغير الا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير الا الأعلى منه رتبة وهكذا لايعرف الاكبير درجة بعد درجة الى الانتهاء ❊ و بعد أن ختم مقالته هذه ودعهم وانصرف مع من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب ومعه فؤاد بيك وزار بعض المدارس العليا والوزير محمد شريف باشا قبل وأعلماه بأنه لم يكن فى عزمهما التداخل فى شئ من أمور البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجال الوفد انما هى تقديم مراسيم التهانى للجناب الخديوى على ما أظهره من الحزم وأصالة الرأى فخاطبهما الوزير عن عادات البلاد وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم الى الهدو والسكينة وعدم الاندفاع الى ما يكدر صفو راحتهم ثم انصرفوا وأمر الخديو فزارهم كثير من الوجهاء والاعيان وشيخ الاسلام وبعض

العلماء

مطلب
تخوف قونصل
جنرال الانجليز من
حضور الوفد السلطاني

العلماء ومشايخ الطرق وبالغوا فى اجلال رجال الوفد وتعظيمهم

وحسب قونصل جنرال الانجليز بمصر ماوراء حسن وفادة على نظامى باشا ومن معه وتقرب أهل البلاد منهم فجعل يراقب الحوادث ويستطلع الاخبار ويكثر من الذهاب تارة الى مقر الخديو وأخرى الى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا الى مقر البارودى وبث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة يستنشقون نسمات تلك الأخبار وكأنه آنس منهم بعض الشئ فكتب به الى اللورد جرانفل كبير السياسة الانجليزية يومئذ فسير هذا اللورد الى الباب العالى يطلب سرعة استرجاع رجال الوفد وجلائهم عن الكنانة واستنجد بكبير سياسة الفرنسيس وهو يومئذ المسيو بارتلى سنتهلار فأنجده وجعلا يشددان الطلب وضربا لجلاء الوفد أجلا وأوعزا الى أصحاب صحف اخبارهم فهاجوا وماجوا ونادوا بالحرب والقتال وخبطوا وخلطوا فى القول وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فمن قائل ان الوفد انما دخل أرض الكنانة يتابعه من السر ما لا يعلمه الا المقتربون من أبواب السلطان ومن قائل بل هم يتأبطون جميع الفرامين والخطوط الهمايونية الصادرة من عهد محمد على باشا الكبير الى أيام الخديو توفيق لغاية خفية وسر مكتوم وتناهى ببعضهم الخلط الى القول بان رئيس الوفد قام من دار السلطنة الى مصر ومعه فرمان مخصوص لايليق التكلم عنه حتى ينجلى الصبح لذى عينين ﴿قلت﴾ يريدون فرمانا بعزل الخديو توفيق وتولية الامير عبد الحليم بن محمد على باشا وجعلوا يقولون غير ذلك من الأراجيف فقام أصحاب صحف الاخبار التركية يفندون تلك المزاعم ويرمون أصحاب صحف الانجليز والفرنسيس بسوء النية وخبث الطوية ويقولون انما مصر بلد إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع اذا سير الى تابعه يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتد من أحواله وطال الأخذ والرد على غير جدوى والسلطان لا يلتفت الى أقوال صاحبى سياسة الانجليز والفرنسيس فعمد عند ذلك صاحب سياسة الفرنسيس الى التهديد وسير إحدى مراكب حربهم الى مدينة الاسكندرية وكانت من أضخم سفنهم واسمها آلما فوصلت ليلة تاسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج البوغاز وأصبحت فدخلت الى المرسى وسلمت على الطوابى باطلاق مدافعها فردت عليها طوابى رأس التين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة مدافع من العيار الكبير والطراز الجديد * وشاع خبر قدومها ووصل الى القاهرة فخاف الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكأن السلطان قد أحس بما وراء ذلك فجاء الخبر الى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فتأهبوا للرحيل ولما كان ثالث عشرى ذى القعدة تمثل على نظامى باشا وفؤاد بيك ورجال الوفد بين يدى الخديو وأبلغاه أن أمير المؤمنين قد أحسن عليه بنيشان الامتياز وأن من شأن توجيه هذا النيشان أن الخليفة يضعه بيده على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بملابس التشريف قيل فأظهر الخديو الخضوع

والطاعة وقال سأتشرف ان شاء الله بالمثول لدى سيدى ومولاى أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد ثم تقدم اليه فخرى بيك ربان باخرة الوفد وأبلغه بان قد ورد اليه مرسوم السلطان بالعود الى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفى الساعة الثالثة من صباح ثانى يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظامى باشا وفؤاد بيك الى مقر الخديو بالاسمعيلية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهيؤا قطاره المخصوص فركبوا الى محطة السكة الحديد وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفى الحكومة فى انتظارهم فركبوا القطار وسار بهم الى الاسكندرية ونزلوا بسراى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جند الاسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظامى باشا وخطب خطابا وجيزا معناه أنه عند وصوله الى مقر الخلافة العظمى لابد أن يبشر اخوانهم العسكر المنصور هنالك بأن لهم فى مصر اخوانا لايرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديو ثم نزلوا الى السفينة ورحلوا الى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وجهته فى ذلك عزمه على السفر الى الاقطار الحجازية * فأقام أياما يتراوح بين القاهرة والاسكندرية لايعلم أحد من أمره شيأ ثم رحل الى السويس ومر بمدينة الزقازيق قصبة الشرقية فلاقاه فى محطتها أحمد عرابى بيك وكأنه كان فى انتظاره فركب معه فى عربة القطار ولبثا معا الى ان بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودعه ونزل فسار القطار الهوينا وكان على يسار طريق القطار جميع جند أحمد عرابى ومعهم الموسيق فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيق بنشيد السلام السلطانى وضج الجند باصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شباك العربة وحياهم باشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابى على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهو يهلل بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسربه سرورا عظيما وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابى على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد فى التبعيد بينهما * وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من مينا الاسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية انجليزية اسمها انشيل قادمة من مالطه وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالاسكندرية يومين ثم خرجت فى سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المراكب الفرنساوية * وتشوف الناس يومئذ الى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد الى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الاخبار وأكثروا من شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة الى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل أو الصبى من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التيمس الانجليزية أولصاحب الديبا الافرنسية أولغيرهما من صحف الأخبار الاجنبية وهم فى ضجة وحوقلة وعم هذا الحال السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزياتين والحلاقين * وقدرأيت يوما صبيا

مطلب
ابلاغ فخرى بيك ربان باخرة الوفد للخديو خبر قيام الوفد الى دار السلطنة كأمر السلطان

مطلب
التقاء كامل باشا أحد رجال الوفد بأحمد عرابى بيك

فى حانوت لرجل يبيع البقل وبيده صحيفة من صحف الاخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوقة وهم محدقون بالصبى وهو يقرأ عليهم ما نصه * قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والانجليز أن يعلماه مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على ارسال المركبين الحربيتين الى مدينة الاسكندرية فأجاباه بان ليس المقصود من ارسالهما ارغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وانما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فاذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضا انتهى * فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل فى أذن الآخر وصاح أحدهم قائلا وهلا ترى فى هذه الورقة أيضا ان الانجليز والفرنسيس يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاؤا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيس على قومهم بالحذر والالتفات الى ماعساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور فقلب الصبى الصحيفة يمنة ويسرة وتأمل فيها وقال صدقت ياعماه ومن الذى أعلمك بهذا الخبر فقال سمعت فلانا الحلاق الساعة يقول انه سمعه من أحد موظفى الحكومة * فقلت فى نفسى ان الله بالعاقبة عليم

ووصل رجال الوفد الى دار السلطنة فاندهش كبار ساسة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازما أو تعلقا بين وجود مبعوثيه فى بلاد هى تابعة له وبين ارسال دولتى الانجليز والفرنسيس مركبيهما الحربيتين الى مدينة الاسكندرية فكاد سفير الانجليز فى دار السلطنة يتميز غيظا من عجزه عن ادراك جميع هاته المعميات التى لم تكن تخطر له على بال وقد أشار الى ذلك صاحب جريدة الدالى نيوز الانجليزية فى كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان « عبد الحميد » وما فعله عند ارسال وفده الى مصر مما لم يعرفه أحد الى يوم رجوع رجال الوفد الى القسطنطينية * وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم الى القسطنطينية الى استطلاع ماسيكون من أمر تشكيل مجلس شورى نواب البلاد وقد رسم الوزير محمد شريف باشا الى مديرى الجهات ومحافظيها باستدعاء أهالى البلاد الى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يحث الناس على التدبر وأن لا ينتخبوا إلا من عهد بالصدق وعرف فيما بين العموم بالفطانة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد والاهتداء الى طرقها الحقيقية وتحققت منه العفة والاستقامة قديما وحديثا — قال — فمن وجد بهذه الصفات انتخبوه غير مراعين الى الشهرة والظهور ومن وجدتموه على ماينافض هذه الاخلاق فابتعدوا عنه وانبذوه وان كان أثرى المثرين فما طار الخبر بذلك الى الآفاق حتى غصت دواوين الحكومة بالوجهاء والاعيان والمثرين من أهل القرى واختلفت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتباينت أغراضهم حتى كادوا يفتتنون وتعذر على المديرين والمحافظين عمل الانتخاب والوزير يستحثهم ويحضهم على الاخذ بأطراف الحزم وأن لا يراعوا الا المصلحة العامة ولا ينظروا

مطلب
تشكيل مجلس
نواب البلاد وهو
أحد مطالب
جماعة الضباط

مطلب ما كان من سياسة قونصل جنرال الانجليز فى أمر تشكيل مجلس شورى النواب

الا الى الاوسع معرفة من قومهم والأقوى ادراكا والأنفذ بصيرة والأكثر اطلاعا والأعرف باحوال بلاده وحكوماتها فى الماضى والحاضر فاطمأنت عندذلك القلوب وتم الانتخاب أو كاد * قال بعض الكتاب فكبر هذا الامر على المستر مالت قونصل جنرال الانجليز واستعظمه لا لأنه من الأهمية عنده فى شئ ولكن لاعتباره اياه أنه هو المحور الذى ستدور عليه رحا أعماله فعمد الى ملازمة الخديو وأكثر من مجالسته فكان اذا رأى منه تسرعا فى تحديد أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذى أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ فى النصيحة وهوّل فى العاقبة وأظهر من جانب القسوة حنوّا واشفاقا واذا رأى منه بعد ذلك تباطؤا فى العمل وإغضاء ذهب الى البارودى وشكا اليه من تغاضى الخديو وابطائه وحض البارودى على الثبات والحزم وعدم التخلى عن زعماء العصابة حتى يدركوا منشودهم فلم يخرج من عند البارودى وأصحابه الا وهم فى ضجة وجلبة وهياج فاذا كثرت جلبتهم وعظم ضجيجهم ورموا الخديو بسوء النية وبالغوا فى تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض ويغضب ذهب اليه مالت ولاطفه وهوّن عليه الأمر ومناه بالأمانى الطويلة العريضة فاذا آنس منه سكون الخاطر والخلود الى المساهلة عرج به الى الوقيعة وشذ فى القول وعظم البلوى وحذر من العاقبة حتى يتخيل للخديو أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم الفلاح فيرجع الى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودى وأصحابه الى الاستغاثة بقونصلى الفرنسيس والانجليز – قال – وهكذا كان حال الخديو وزعماء العصابة من اليوم الذى بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على سرعة الانتخاب * وكان من وراء ذلك ان تطاولت أيدى رجال العصابة العسكرية الى العبث بعمل الانتخاب فجعل عبد الله صاحب الطائف يجوب البلاد ويستميل الناس الى انتخاب المحازبين لرجال العصابة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيره والدقهلية والقليوبية وغيرهم من أهالى المدن القبلية * فلما كان عاشر ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وتسعين قدم أحمد عرابى الى القاهرة وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك حلمى وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت ظنونهم وقالوا انهما انما قد حضرا لاكراه الهيئة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر لغطهم فكانوا اذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق قالوا انهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى أو شاهدوا زحاما على حانوت قالوا انه باشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون اليه أو سمعوا مؤذنا ينادى حى على الفلاح قالوا انما هو يدعو الناس الى التعاون والتعاضد أو سمعوا امرأة تولول على صبى ضل اسمه أحمد قالوا انما هى تستغيث باحمد عرابى بيك لدفع ظلامتها وكشف غمتها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد فكانت اذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى أو أحمد عرابى لاسيما أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال وتكلم أصحاب صحف الانجليز والفرنسيس فى أمر مجىء أحمد عرابى وعبد العال

حلمى

حشيش الى القاهرة وفصلوا وقاسوا وخاطوا نخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة واستقدم سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتوه فى ثانى عشر ذى الحجة المذكور * ولما تم انتخاب سائر الاعضاء ولم يبق الا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرياسة وطالت أيام الاختلاف فتباينت الاغراض وتفرقت الاهواء وعادوا الى ما كانوا عليه من الخلط والخبط وكثرت أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم فى شوارع المدينة ولبثوا على هذه الحال أياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم القبلية وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصابة وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة الى دمياط ورأس الوادى ولم تكد تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك الى مقر عسكرهما حتى عاد الارجاف بقيام العسكر على كافة النزلاء الذين بالاسكندرية وإعمال السيف فى رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة * وتحرر الخبر أنهم وجدوا فى سادس عشر المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا فى الطريق وكان أول من رأى جثته رجلا ايطاليا فذهب الرجل الى مقر محافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلما شاع الخبر وعلمه أصحاب ذلك الشرطى ظنوا أن الايطالى هو القاتل فهاجوا وماجوا وجالوا بنادقهم وثاروا والايطالى فاختبأ فى مقر المحافظ فأرادوه عنوة واقتحموا المكان وهم فى ضجيج هائل وذهب جماعة منهم الى موضع القتيل فحملوه وأتوا به أمام مقر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلبوا الايطالى للبطش به فاجتمعت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وتزاحم الناس على أبواب الديوان يريدون الدخول فنزل اليهم المحافظ وجعل يلاطفهم وأمر بالقتيل ليحمل ويدفن فامتنعوا وصاحوا فى وجهه وقالوا لايحل لك ذلك يامسلم أحضر لنا النصرانى الساعة لنبطش به والا ذهبنا بالجثة الى القاهرة فاشتد اللدد وخاف الناس واختفى الاجانب وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وارسل المحافظ الى الوزير محمد شريف باشا يعلمه بالخبر فاستعظم الامر جدا وسير الى المحافظ يستحثه الى مداركة الامر وكتب الى صاحب الشرطة يقول لازموا السكينة وسيقدم عليكم وفد لتحقيق الحادثة فبذل المحافظ وصاحب الشرطة جهد الاستطاعة حتى فرقوا تلك الجموع وحملوا الجثة وواروها التراب ليلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى خوف ماعليه من مزيد فلما كان اليوم الثانى قدم الى الاسكندرية وفد الوزير محمد شريف باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للايطالى ذنبا ولا جناية فاخلوا سبيله وقد ثبت ان القاتل للشرطى نفر من أهله لسر بينهم فسكنت الفتنة واطمأنت قلوب الخلق

ولم تكن لتتمكن الهيئة الحاكمة الى هذا الحين من تسيير المدد الى السودان لقتال مدعى المهدوية وقد وردت الاخبار من والى السودان وهو رؤف باشا فى ثالث صفر من السنة تنبئ باستفحال أمر مدعى المهدوية واعلاء كلمته وأنه عاد فخرج على من وجده من العسكر المصرى فقتل منهم زهاء الثلثمائة ونهب متاعهم وسلاحهم فلما شاع خبر نصرته

مطلب الاختلاف فيمن يتولى رئاسة مجلس نواب البلاد

مطلب مقتل أحد أصحاب الشرطة بمدينة الاسكندرية وخروج العسكر عن الطاعة

مطلب ورود الخبر باستفحال أمر مدعى المهدوية بالسودان

بين شكان الجبال اعتقدوا صحة دعواه فتبعه خلق كثير من العربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثير ممن لم ينضموا اليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والانعام والريش وسن الفيل واستلبوا ما في خزائن مراكز الحكومة فلم يبقوا ولم يذروا ووصل الخبر بذلك الى أهل الخرطوم وتجارها فحصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها الى أسوان بالصعيد الأعلى فكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكراع وقدم الى القاهرة طوائف التجار من الاقطار السودانية ما بين أهلين وأجانب فرارا من نار الثورة وايذاء مدعي المهدوية وأصحابه فتحدثوا بخبر ما وصلت اليه لوم المدعي وما يفعله أصحابه من القتل والنهب واحراق المدن والقرى وذبح الاطفال على صدور الأمهات واهلاك الحرث والنسل وكثر انحدار السفن ومراكب النقل الى أسيوط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمل أرزاق التجار وانقطع ارسال البضائع الى السودان وتعطلت سائر أسباب الرزق بتلك الاصقاع فلم يبق عند الناس شك في صحة خبر المتمهدي وقد كانوا الى هذا الحين يظنون ان القول بظهوره انما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته ليتمكن بذلك من تمزيق شمل عصابة الجند والتفريق بين كبارها وأطالوا الكلام في أمره أياما ثم تناسوه بحديث مجلس شورى النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبعهم في ذلك أصحاب صحف الاخبار المحلية وأكثروا من حض الوزير محمد شريف باشا على سرعة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم ٭ فلما كان الخامس من صفر افتتح المجلس

مطلب افتتاح مجلس شورى النواب

فكان يوما مشهودا أخذ الناس منذ شروق الشمس يتواردون عشرات عشرات الى صوب المقام حتى غصت حجرات المكان بالوفود من أهل البلاد والاجانب وامتلأت دوائر قاعة المجلس بالوجهاء والمعتبرين ثم جاء الاعضاء بملابس الزينة والتشريف فجلسوا واصطف في الفسحة الخارجية فرقتان من الجند ولم يلبثوا الا قليلا حتى أقبل الخديو في عربته يصحبه الوزير محمد شريف باشا وأمامهما أحمد خيري باشا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوي فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوي فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قاعة الاستراحة ولبث لحظة ثم انتقل في نحو الساعة السادسة الى قاعة المجلس ووقف في صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ ما نصه

أبدي لحضرات النواب ممنونيتي من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن الاهالي في الامور العائدة عليهم بالنفع وفي علم الجميع أني من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تاخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة فاما الآن فنحمد الله تعالى على مايسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالي بقدر الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا

منشوف

متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون علما أن بجل مقاصدى ومساعى حكومتى هو راحة الاهالى ورفاهيتهم وانتظام أمورهم بتعميم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا منهجى واضح مستقيم وعليه سيرى منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس ان يكون مساعدا للحكومة فى هذه الامور كلها خالصا مخلصا فى خدمة الوطن مخصصة أفكاره وهذا كرته فى المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو أهم شئ فى هذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأنى وحسن التبصر وأن نكون يدا واحدة فى اتمام الاعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله حسن الصلاح انه ولى التوفيق

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلا أدام الله توفيقنا المعظم فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخديو بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس فى الانصراف فلم يبق الاهيئة المجلس فأمر رئيسهم فقعدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى ● ونصلى ونسلم على نبيه المأمور بالشورى ● والآمر بها وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الارادة مما لم يزدكم الا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من صفاء النية ● وكريم العنصر وسلامة الطوية ● والارتياح الى المصلحة الوطنية ● وقد اجتمعتم فى هذا المقام الرفيع بعناية الجناب الخديوى العالى ورجال حكومته السنية للنظر فى أمور أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة اعيانه ونبهائه فواجباتكم من هذا القبيل تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الوطن العزيز محتاج الى الاصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لاسباب المنافع الكلية فما عليكم الا السعى والاجتهاد لنوال المراد ولكنكم لاتجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ وذمما لازمة الرعاية وأنا قد أمرنا شرعا بحفظ العهد ورعى الذمم فمن تلك شدة الارتباط وصلة التابعية للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية وعرفت منا الاخلاص فلا بد من ثباتنا على هذا الحال بالنظر اليها ولاشك أن تقدمنا واستقامة أمورنا وتأييد أمور الشورى فينا يسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة التى تكون جزأ من قوتها الكلية ● وان الذمم والمواثيق هى علاقاتنا المالية والتجارية مع الدول العظمى فهذه الذمم واجبة الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المودة التى بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الاعتقاد برغبتها فى انتظام أمورنا وميلها الى كل ما

يعود علينا بالنفع كما صرح بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفى المنشورات الرسمية فاذا حفظنا تلك العهود وراعينا تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شئ من الواجبات لزمنا الاخذ باسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفع ويدرأ عنا الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا اليه ويحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلونا موضع ثقتهم واعتمادهم فوجهوا إخوانى هممكم فى السعى بالحكمة والاعتدال والتبصر والثبات فمن جدّ وجد ومن سار على الدرب وصل فنسأل الله العظيم حسن البداية والنهاية

ثم انفض مجلسهم وتفرقوا ولما كانت الساعة التاسعة من تاسع الشهر المذكور وفد على مقر الخديو بالاسمعيلية عشرة من نواب البلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذى افتتح به الخديو المجلس فمثلوا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب * بعد حمد الله على توفيقه وارشاده * والصلاة والسلام على من اصطفى من عباده * نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن معاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جميعها فى تقديم واجب الشكر لهذا الجناب الخديوى الفخيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذى انتضيه بنطقه الشريف اظهارا لمقصده الجليل من حيز القوة الى عالم الفعل واجابة لرغبة الأمة ونظرا لمصلحة العامة بعد أن أزالت العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل همة الخديو التى زلت لها صعاب المسائل * وخضعت لها رقاب المشاكل * حتى صفا الوقت واطمأنت الحال * ودنا المنى وانقادت الآمال * ولقد شنف أسماعنا * وأنعش أرواحنا * ذلك النطق الكريم * وملك انشدتنا سرورا وطربا بما تضمن من الافصاح عما عرفناه لولى النعمة والغناء من نزاهة ونبالة القصد حتى لقد نطقت السرائر بما بدا من نسمات السرور فلم تدع بالألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحبب اليها تحبب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق الا أن نبذل غاية مافى السعة ونأتى جهد الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى انتدبتنا للنظر فى منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين فى ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تحسن بعناية الله مغبته وتحمد بيمن التوفيق غايته ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة لارشاد والسداد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد مالنا من روابط التبعية للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علاقتنا الادارية مع الدول الاجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين الى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجناب الخديوى الفخيم ويديم لاوطاننا به النفع العميم أدام الله توفيقها على أحسن مايرام ويلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين

والتأموا

والتأموا بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكلوا لجنة لتنظر فى أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه وقد كان ذلك القانون هو الذى أنشأه الخديو اسمعيل وقرر كل قسم نوابا عنه فى تلك اللجنة فاخذوا بأطراف العمل وساروا فيه سيراحثيثا فلما كان ثانى عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا الى مقر النواب ورفع لهم القانون الاساسى لاعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الافكار فى مواده وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب — إنى لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سرورى من الحضور بينكم فى هذا اليوم الذى أعده مبدأ لعصر جديد ان شاء الله يعود على هذا القطر بالتقدم والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات تراأى لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة فى نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجودا يومئذ وقد أجرى فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق اتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإنى لأجد نفسى سعيدا حيث ان أفكارى فى هذا الخصوص ما كانت الا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الافكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم واجتمعتم فلنهنئ القطر على ذلك ولنهنئ أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائهما مصدرا لكل خير ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لاتلائم أفكارنا جميعا قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذى رفعته أخيرا للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لاتكون مطلقة بالكلية حتى يعمم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيأ فشيأ لكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى ابداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى وجه وأى صنف كانوا وصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء آرائكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة مالم يكن بتصديق واقرار منكم وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسؤلين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقكم والغاية فانه لم يحجر عليكم فى شئ ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم انما لايخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات ليست

خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لتظرها أو لنظر النواب حاشا لانه يجب علينا قبل كل شئ القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشئ ما حتى نصلح خللنا ونزداد ثقة العموم بنا ونكتسب أمنية الحكومات الاجنبية ومتى رأت مناثك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن اخلاص بدون مساعدتها فتتخلص شيأ فشيأ مما نحن فيه وانى لواثق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لابد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعون للدولة ومصالحنا مرتبطة بصوالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا فحقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعا بدوام الذات الشاهانية وتأييد دولته العلية التى منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث ان الثمرة المقصودة من اجتماع المجلس وهى نفع البلاد لايمكن الحصول عليها الا بعد التصديق على لائحة اجرا آته فالمأمول من حضراتكم المبادرة بنظرها حتى اننا نشرع فى الاعمال النافعة المهمة ولكون من تتمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للادارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل أمر يجرونه خارج عن حدودهم أومخالف القوانين واللوائح فى أثناء تأدية وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وهاهو مقدم للمجلس المأمول أيضا الاسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وان شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولا وفعلا لما يكون فيه الاصلاح آمين آمين بجاه خاتم النبيين * فأمّن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف

مطلب مفاد ما فى قانون الانتخاب

وكان مفاد القانون الذى رفعه اليهم فى ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيته يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون العمومى وان مدة النيابة لاأقل من خمس سنين وان النواب يكونون أحرارا فى الاعمال واذا ارتكب أحدهم جريمة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه الا باذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضا أن النائب ينوب عن الجهة التى استنابته خصوصا وعن مصالح البلاد كلها عموما و يكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التئامه الا بأمر يصدر من الخديوى على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل فى ادارة أشغاله الا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستنيبوا عنهم فى الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الادارة أوأحد كبار الموظفين فى دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل مايسئلون عنه من قبل المجلس اللهم الا فيما هو من خصوصياته واذا اختلف مجلس الامة ومجلس الوزراء فى أمر من الامور جاز للخديوى حل عقد مجلس الامة ويأمر بانتخاب سواه لمدة أربعة أشهر فاذا صدق مجلس الامة بعد الانتخاب الثانى على ما كان قرره الاعضاء السابقون كان قراره هو النافذ ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الامة ثانية فى كل مدته ولمجلس الامة أن يتداول فى اللوائح والقوانين والضرائب وفى كل أمر تعرضه عليه

الهيئة

الهيئة الحاكمة وله أن يرى فى ميزانية الخزينة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لا يمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فاذا جمعت ضريبة غير المقرر فى القوانين المالية عوقب جامعها بأشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثانى من التئامه ويجب أن تكون موضحة التوضيح الكافى وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك الى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولا يجوز للمجلس التداخل فى أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين وما يتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة فى المجلس الا اذا حضر ثلثا الاعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الاغلبية تامة أما قرار مسؤلية النظار فيكون باغلبية من ثلاثة أرباع الحاضرين * هذا هو ملخص ما فى ذلك القانون أتيت به تتميما للفائدة المقصودة

مطلب

تولية أحمد عرابى وكالة ديوان الجند وورود لائحة الدولتين للخديو

وفرح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأناروا فى تلك الليلة منارات المساجد بالانوار الكثيرة وأقيمت الادعية على المنابر وهنأ الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابى بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لاسيما أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع الى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والاعيان والعمد وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطرئون على بابه وأتته الهدايا من الضأن والارز والسمن والعسل والسكر والبن والقهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعمدها وتزاحموا على بابه يرجون لقاءه ويتمنون طلعته ولبث الحال هكذا يومين وخرج فى تاسع عشره يريد مقر الخديوى ليقبل الاعتاب على العادة المألوفة فى مثل ذلك فقابله الخديوى بالبشاشة والترحاب وأحسن لقاءه ولم يخرج من عنده حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيس ورفعا الى الخديوى ورقتان هما فى عرف أهل السياسة (لائحة) وقالا انهما متحدتان فى المعنى والمبنى وقد بعثت بهما الدولتان يعدان الخديوى فيهما بالمساعدة والاعانة على قضاء كل ما يروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبر هاته اللائحة فتعجب الناس وكثر تحدثهم به وداخل ضباط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا فى الامر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أن البارودى يكلم هيئة مجلس النظار فى ذلك فاجتمع البارودى بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخديوى وعقدوا لذلك مجلسا وتكلموا فى معنى ما جاء فى تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتحدت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها الى الباب العالى ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة الى دار السلطنة وكأن القونصلين قد أحسا بما وراء ذلك فتقدما الى الخديوى والوزير محمد شريف باشا فى طلب الجواب وألحا فى الطلب فرسم الخديوى الى الوزير باعطاء الجواب فطاول فشدد الخديوى فى ذلك فكبر الامر على الوزير وطال بينهما الاخذ والرد فاحتجب الوزير فى بيته أياما فذهب اليه قونصل الفرنسيس فى صبح حادى عشرى صفر وطلب الجواب وألح فى الطلب فقال الوزير

لاجواب عندى على ذلك البتة والبلاد آمنة مطمئنة فاذا وقع فيها مايكدر صفوالراحة كانت الدولة العليـة أولى بالذب عنها فهى صاحبـة السيادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد فقال القونصل لاسبيل الى غير ماتطلبه دولتا الفرنسيس والانجليز فقال الوزير لم أعرف الى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللائحة ولذلك فانى أستوضح منك مشـكلاتها قبل اعطاء الجواب فقام القونصل وتركه ٭ وكلم قونصل جنرال الانجليز كبير سياستهم فيما يسأله الوزير محمد شريف باشا من فك أسرار ومشـكلات تلك اللائحـة فرسم له بسؤال الوزير عما يريده ففعل وأبلغ ماأعطى بيانه ولبث ينتظر الجواب ٭ وبينما كان الوزير محمد شريف باشا يراقب الحوادث ويطمن القلوب الراجفة ويعمل على منع الاراجيف وازالة القلاقل اذ كتب صاحب صحيفة التيمس الانجليـزية عبارة طويـلة سماها باسم لائحـة الحزب الوطنى وضمنها فصولا وأبوابا لايسعنا ايرادها هنا وعزا تحريرها وتنميقها الى أحمد عرابى بيك وبالغ فى مدحها واستحسانها فكبر هذا الامر على الوزير واستعظمه وعمل على تكذيبه واذهاب ماعلق منه بالاذهان ٭ وقد كان لما تظاهر أحمد عرابى بيك بزعامة العصابة وتمكن من خلع الرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرياسة أحدقت به عيون أهل السياسة من الانجليز وكثر تواردهم عليه وتزلفهم اليه رغبة منهـم فى معرفة قدر ادراكه ومبلغ علمه بعوائد الامم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكأنهم كانوا يرون فى ظهوره وخروجه مفتاحا لمغالق آمالهم فسيروا له من دهاتهـم وحملة أسرارهم جماعة جعلوا يسايرونه ويبالغون فى الاطراء عليه ويخاطبونه بأنواع التجلة والتكريم ويقولون له انك لمن أعاظم الرجال وأقطاب أهل السياسة وانك لرجل الحرية ومنقذ البلاد وأهلها من وهدة الذل والعبودية وأنت العون والسند وأنت الملجأ والملاذ وغير ذلك من صـنوف التضليل والتغرير حتى استهووه وتطوحوا به وكان ممن لازمه ملازمة الظل من دهاة هؤلاء القوم طاغيتان أحـدهما اسمه وليم جربجورى وثانيهما اسمه بلانت فاستهوياه وغررا به تغريرا وزينا له كل عـمل وحرضاه على فعل كل خارجة لاسيما منهـما بلانت فانه تمكن من أحمـد عرابى وأخـذ بمجامع قلبه وكاشفه على ماخـفى من سريرتـه الى ديار مصر التى انما هى سلخ الكنانة عن تابعيـة دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد مملكة عربية اسلامية يدخل تحت لوائها سائر بلاد العرب من عراق ويمن وحجاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعـة من بقاع الارض التى تحتلها العرب وبالغ فى المدح والاطراء ٭ قال أحد المقربين الى أحمد عرابى ٭ وما زال ذلك الطاغية باحمد حتى تاقت نفسـه الى طلب المعالى رخيصـة وخضع له وعمل بمشورته فتجرد عنـد ذلك هو ورفيقه جريجورى على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الاراجيف المزعجة وجعلا يرسلانها الى صحفهم السيارة على لسان عرابى وشيعته حتى كادا ينكران متبوعية مصر لدار السـلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الانجليز ترددها مشفوعة بالمدح والاطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان اه قال جماعة وزين بلانت ورفيقه الى أحمد عرابى مخابرة شريف مكة وغيره

مطلب
ملازمة جريجورى
وبلانت الانجليزيين
لاحمد عرابى

من

من كبار العرب فى هذا الامر وفى استنهاضهم الى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور
الحركة بعصر قيل وسير الى السنوسى بطرابلس الغرب يستقدمه الى القاهرة ليكون له
عونا على بلوغ الارب وبعث الى كبار مسلمى الهند يشاورهم فى الامر فظهرت عندئذ حركة
الخواطر وبدت اشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغرير باحمد عرابى
مبلغا عظيما فكانا اذا سمعا أحمد عرابى يقول فى حديثه مع آخر ان نفرا من الجند أصابتهم
اليوم تخمة تستلزم نقلهم الى المستشفى كتبا الى أصحاب صحف الانجليز يقولان أشار أحمد
عرابى بيك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم الى الجهة
الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة * واذا سمعاه يقول
زرت اليوم ضريح ولى الله العتريس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعالى دعاء صالحا و بشرنى
بانى من أهل الجنة * كتبا يقولان علمنا ممن يوثق بحديثه أن قد طاف أحمد عرابى بيك
على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين حثوا الجند على التعاون والتعاضد
واعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة الى طاعة خلافة عربية تعمل
بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الاقاو يل فكانت هذه الترهات والاضاليل داعية الى كثرة
القال والقيل وحاملة الى طيرة الناس وتخوفهم وتآلهم * قلت * و بلانت هذا رجل
طويل القامة يبلغ الخمسة والاربعين من العمر قد نزل بالقاهرة أعواما يتقرب من بعض
العلماء والمشايخ وأرباب الوظائف العالية و يتظاهر بمحبته الى العرب وميله الى عاداتهم
وطباعهم وحريتهم وحبهم للاستقلال ومقته للذل والاسترقاق وولوعه بلغتهم وغير ذلك فاغتر
الكثير منهم بظاهر أمره وأدنوه من مجالسهم فجلس وتصدر واستفرغ مافى صدورهم من
حيث لايشعرون حتى عرف مبلغ علمهم ولبث بين ظهرانيهم يكاتب رؤساء قبائل عرب
العراق واليمن والحجاز وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد
فى سنة من النوم لا يعرفون من أمره سوى أنه من سواح الانجليز الذين دأبهم البحث عن
الآثار القديمة ومعرفة طبقات الارض وقد اتخذ عين شمس له مقرا ومازال حتى ظهرت
الفتنة بالقاهرة وقام أحمد عرابى ومن معه يطالبون بمطالبهم الطويلة ففرح بلانت وتجرد
الى العمل وتقرب من أحمد عرابى وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضهم على الاخذ
باطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سيتلى عليك فى محله ان شاء الله تعالى

مطلب
استعلام السلطان
من الدولتين عن
داعى ارسال اللائحة

وكان لما بعث الوزير محمد شريف باشا بصورة من لائحة الدولتين الى الباب العالى كما
تقدم القول أرسل السلطان الى كبيرى السياسة الانجليزية والافرنسية يستعلم عن السبب
الحامل على ارسال تلك اللائحة ويحتج عليهما فى ذلك فكتبا اليه يقولان انهما لاينازعان فى
تبعية ديار مصر الى مقام الخلافة العظمى ولكنهما عزمتا على تأييد سلطة الخديوى وحفظ
مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزينة كما هى بدون مساس فأحس السلطان بما
وراء ذلك من اشتداد الازمة واستفحال الخطب اذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل

أحمد عرابى سرا على يدى أحمد القرناه وكأنه رسم له بحشد الجنود والتأهب للقتال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحمد عرابى الى طلب زيادة عدد الجنود العاملة الى ثمانية عشر ألفا وألح فى الطلب وشدد على البارودى فى ذلك فنادوا فى البلاد بخروج سائر العساكر وجاءت الكتب بذلك الى المديرين والمحافظين فانحدرت العساكر أفواجا الى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أو كادت وانبثوا فى الاسواق فخاف طوائف الاجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أنه ماوراء هذا الزحام الا حصول الطعن وامتشاق الحسام فنزح الكثير منهم الى الاسكندرية وطارت الاخبار الى الآفاق بمجيء العسكر الى القاهرة فهول أصحاب الصحف الانجليزية وبالغوا فى الامر ونهوا قومهم عن الاختلاط بالمسلمين وبجانبتهم

مطلب الخلاف بين الحكومة ونواب البلاد على تخويلهم حق نظر ميزانية الخزينة

وبينما كان الجند يأتون الى القاهرة تباعا والناس فى شاغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفى نقيض فى أمر تخويلهم حق النظر فى ميزانية الخزينة ومصروفات المصالح وقد طال بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم الى مجلس النظار يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحوير والتعديل لاسيما ما كان متعلقا بامر الميزانية فطاولهم المجلس ومناهم فأبوا الا مايقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول أعاد مجلس النظار الى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول ان وكيلى الدولة الانجليزية والافرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب فى تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدلها مجلس النظار وأن يترك البند المتعلق بالميزانية الى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائى فى أمر الميزانية ليتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخابرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة الى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الامر واستعظموه واجتمعوا فى بيت محمد سلطان باشا الرئيس وظلوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون فى العمل الى أن اتحدت كلمتهم على أن لايجيبوا طلب الحكومة ولا يعملوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب الى اللجنة التى كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشترطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعدل منها ماترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائزا بجميع أحكامه * وفى صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب الى مقر الخديوى بالاسماعيلية ليطلبوا تنفيذ ماقرروه فمروا فى طريقهم ببيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال هذا لايصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا الى مقر الخديوى وتقدموا اليه فى قبول لائحتهم والعمل بما قرروه فيها والا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرياسة وتحقق الوزير مافى عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم فخشى العاقبة وعمد الى المواربة وعين للوساطة بينهم

بطرس

مطلب
تمكن بطرس بيك غالى من تعديل بعض طلبات نواب البلاد

بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالامر وسلك مسالك الجد والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان اذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم الى الغرض وسوس لهم خناس العصابة فيرجعون ناكصين وهم أشد عنادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أوكادت عمد الى مجامع العصابة فدخلها وما زال بكبارها وأصحاب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل بعض مواد القانون التى لاعلاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على ماهى عليه ۞ وعظم الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الانجليز والفرنسيس اليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم يبح اشتراك نواب البلاد فى تقرير ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرّان أن أمر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان مايتطلبه الآن مجلس النواب لنبعث به الى أصحاب الحل والعقد فى بلادنا ليروا فيه رأيهم ۞ فجمع الوزير فى اليوم الثانى مجلس الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا فى طلب القونصلين فتكلموا فى ذلك كثيرا وطال الاخذ والرد حتى علت الاصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب الا ما أرادوا من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع اليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريف باشا رئيس التصوير وشواربى بيك وأمين بيك الشمسى ومحمد بيك سليمان وأباظه بيك وأحمد أفندى محمود وابراهيم أفندى الوكيل وأحمد أفندى عبد الغفار وأعادوا البحث والجدال فى أمر الميزانية وفى نص الفقرة المختصة بها فى القانون (قلت) وكان نصها ۞ متى تعادلت الآراء استشير مجلس الامة فاذا صدق على قرار لجنة التصوير وأصرت الحكومة على رفض ذلك ولم تستعف الوزراء فض المجلس وجاز حينئذ أن تسحب المبالغ الضرورية لسير الادارة وتوقفت الميزانية الى أن يلتئم مجلس النواب الجديد فاذا صدقت لجنته على قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا اه فلم يتم لهم فى ذلك اليوم أمر ولم ينفض لهم نزاع فانصرفوا وعادوا فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا الى بيت الوزير ولبثوا يتنازعون الى مابعد نصف الليل ولكنهم لم يهتدوا الى أمرما فعند ذلك نهض الوزير وقال بعد كلام ۞ وحيث اننا لم نصل مع توالى الاجتماع الى حل عقدة هذا الاشكال صار المتعين علىّ المخابرة فى ذلك مع قونصلى الانجليز والفرنسيس اذ هى من المسائل الخاصة بهما وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمستر مالت قونصل الانجليز وتحادثا فى الامر فدخل عليهما قونصل الفرنسيس فتكلموا فى ذلك طويلا وتكلموا أيضا فيما لم تصل الينا معرفته الى هذا الحين وسير الخديوى الى سلطان باشا يستحثه على استمالة النواب وتركهم لهذا الشغب فأرسل يعتذر ويقول انه لم يقو على استمالتهم لانهم جميعا فى طاعة عصابة الجند وفى قبضة أحمد عرابى وأن لاسبيل الى عدولهم الا باستمالة زعماء

العصابة واسترضا ئهم وهذا مما لايقوى عليه هو أيضا فرسم الخديوى باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا فى سراى عابدين وبينهم سائر النواب وجعلوا يتجادلون فى أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجدال وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوئام وانفض مجلسهم على غير طائل.

مطلب دخول احدى سفن الحرب العثمانية الى مدينة الاسكندرية وما كان من وراء ذلك

واتفق أن دخلت فى هذا اليوم الى مينا الاسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة فجاء الخبر بدخولها وتحدث الناس به كثيرا وجزم بعضهم أن مع ربانها أوراقا من بسيم أفندى أحد قرناء السلطان مخاطبة الى أحمد عرابى وقال البعض ان الربان المذكور جاء خفية من الاسكندرية الى القاهرة ونزل بالنزل المعروف بلوقاندة أورينتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب حمارا واستتر برداء من أكسية جند البحر وسار الى بيت أحمد عرابى بباب اللوق ولبث معه ساعة ثم رجع من فوره الى الاسكندرية وشاع الخبر بذلك فطيره الناس الى الآفاق وبالغوا فى نقله على عادتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب الى المديرين والمحافظين وسائر مأمورى الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الاشاعات وعدم الاخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال ان هذه السفينة وان كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن الا فى خدمة والى الشام وانها لما قامت من مرساها قاصدة احدى الموانى العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها الى سواحل مصر فلجأت الى مينا الاسكندرية فرارا من الانواء ونظرا لكون بعض آلاتها تعطلت بأسباب مالاقته ستلبث أياما حتى تصلح ماتعطل منها فى هاويس الاسكندرية ثم ترجع * فلم تبطل هذه الاقوال الاشاعة ولم تنكف الناس عن القال والقيل ولاسيما الاحزاب وضباط الجند * قلت * وكان لمجىء تلك السفينة فى هذا الحين أى بعد رفع الدولتين لائحتهما التى تقدم الكلام عليها سر خفى وقصد منوى عليه وكان السلطان وجميع قرنائه وأرباب شوراه وأصحاب الكلمة فى بابه وامامه الشيخ أحمد أفندى أسعد يعتقدون أن فى ظهور أحمد عرابى وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالاقاليم القبلية فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية الى ماكانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيتولى الباب العالى التصرف فيها كتصرفه فى بقية الايالات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابى والبارودى من ارسال كتب التلطف ورسائل التأدب الى الباب العالى عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبى الانجليز والفرنسيس فكثر لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابى بواسطة بسيم أفندى من قرناء السلطان وجاءته الرسائل تترى بما لم تصل الينا معرفته الى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت اليهم * وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالى معلقة بالمحال وهم فى تغرير وضلال قد كان سعاة الانجليز لاينكفون عن التقرب من أحمد عرابى وأصحابه

وكبار

*وكبار ساستهم يعملون ليس على إسلاخ مصر عن تابعية الخلافة العثمانية فقط بل وعلى ازالة ملك آل عثمان من قارتى آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية لينالهم مايرغبون وهذه هى سياسة غلادستون شيخ الاحرار من الاحزاب الانجليزية منذ حداثته فكانوا كلما تقربوا من أحمد عرابى مال عطفا اليهم وعمل بقولهم وأخذ عشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعراق وتقرب من السنوسى وتحبب الى شريف مكة ودعاهم الى نصرته وجماعة الانجليز يظنون ان قد تم الامر لشيخ سياستهم غلادستون على يدى أحمد عرابى ، وكان الخديوى اسمعيل باشا يرى أيضا أن فى ظهور أحمد عرابى واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو الى كرسى الخديوية فجعل يراسل أحمد عرابى ويمنيه بالامانى الكثيرة ثم عمد الى الاستعانة ببعض كبار الانجليز فهاداهم بالهدايا العظيمة والتحف الجليلة قيل فكان أحمد عرابى يظهر له الطاعة ويتلطف معه فى الجواب ويموّن عليه الامر حتى ظن اسمعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال ، وكما كان اسمعيل باشا يمنى النفس بقرب عودته الى منصب الخديوية على يدى أحمد عرابى بك وأشياعه كان الامير عبد الحليم ابن محمد على باشا يتقرب أيضا من أحمد عرابى ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستفزه الى نصرته برد تاج الوراثة اليه ، قال بعض الكتاب واغراه بالرشا والبرطيل واشتد أمله وكبر رجاؤه بتحزب بعض رجال المابين الهمايونى اليه فكان أحمد عرابى يسايره ويتلطف فى الرد عليه ويمنيه بالامانى الكثيرة حتى اختلط الامر على أحمد عرابى وطاش منه الرجاء وحار وقد كان فى خلده أن لا يعمل الا لنفسه ولا يجاهد الا فى اعلاء كلمته وارتقائه منصب الخديوية بماله من المكانة عند أهل البلاد والمحبة فى قلوب العساكر والاجناد والهيبة عند كبار الناس وعظمائهم كما فعل محمد على باشا الكبير ، قال جماعة وقد كانت هذه الآمال أيضا لاتفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك فى موضعه فكان مثلهم فى ذلك كمثل صبى فى يده مرآة يوجهها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الارض ومعه فتية يتزاحمون ويترامون على ذلك الضوء فكل منهم يظن أنه أصاب منه شيأ وهم لايفقدون لحركة ذلك الضوء بتحريك الصبى المرآة

مطلب عودة النواب الى تنفيذ لائحتهم وما كان من وراء ذلك

وعاد نواب البلاد الى طلب تنفيذ لائحتهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم الى مقر ديوان الداخلية ورفعوا الى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا ان تأخير تنفيذها جالب للفشل فانا عقدنا النية على أن لاندع هذا اليوم يمضى بغير قبولها أو رفضها فجعل الوزير يلاطفهم ويهوّن عليهم ثم قال لهم تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم أتعرض لشئ من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها على أنى مازلت لا أتحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على مارأيتموه فى أمر الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن فقالوا ان هذا من خصائصك ولادخل للدول

فيه بل لاموجب لتوقفهم فانها مسئلة لاتمس مالهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة فقال الوزير لاسبيل الى ذلك البتة فقال جماعة منهم إنا نأسف جدا أن يصادق لنا على اللائحة غيرك يعنون بذلك اكراهه على التخلي عن منصبه * ثم انصرفوا وساروا الى مقر الخديوي بعابدين وتمثلوا بين يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا انا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله الى اصلاحه ولهذه الغاية قد منح مولانا الامة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا الى الوزير محمد شريف باشا أن يوقع عليها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشئ مما في العقود الدولية فقال الخديوي اذا كانت هيئة الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون حينئذ قالوا نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لاتأبى التصديق والعمل معنا فوعدهم باعطاء الجواب في غد فانصرفوا ولبث الوزير بعد خروج نواب البلاد يفكر في الامر ويضرب أخماسا في أسداس ثم قام ودخل على الخديوي وجعل يتناجى معه فيما لم تصل الينا معرفته وحضر قونصلا الانجليز والفرنسيس الى مقر الخديوي ودار بينهم الحديث فاشتد الجدال وطال القيل والقال فوقف الوزير وقال قد خلعت نفسي واعتزلت منصب الرياسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوي الى ذلك بحضرة القونصلين وانصرفوا جميعا وفي نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الاول من السنة استقدم الخديوي الخمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنفيذ لائحة مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باشا عن الرياسة فاختاروا من يتولاها فقالوا الاوجه ان تتعدى على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره فقال لابد من ذلك فامتنعوا وبقى الحال على ذلك الى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم الخديوي وسألهم أن يختاروا من يصلح للرياسة فقالوا نختار اليوم محمود باشا البارودي رئيس ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا الى بيت البارودي وانتظم مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتناجوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب فاختاروا جماعة ممن لايخالفون لهم كلمة وكأنهم أرسلوا الى الخديو يعلمونه بذلك فلما كان بعد ظهر اليوم بعث الخديوي مع أحد رجال ديوانه الخاص الى محمود باشا البارودي مرسوما يقول فيه حيث دعت الاحوال لانفصال محمد شريف باشا بناء على استعفائه واقتضى الحال لانتخاب بديل عنه يكون متأهلا ولائقا لمقام الرياسة ومن المسلم عندي أنك أهل لذلك لما اتصفت به من كمال الدراية وحلية الصدق والاستقامة فقد انتخبتك لهذا المقام الخطير وقلدتك رياسة النظار فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظار اللازم وجودها معك وحيث ان غاية قصدي ونهاية أملي انما هو السعي وصرف الجهد لما فيه عمارة وسعادة الوطن واصلاح أحواله فأملي فيك القيام بهذه المساعي الحسنة وفقنا الله جميعا لما به الاصلاح والنجاح انتهى

فلما وصل الكتاب الى البارودي فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع في

مطلب استعفاء الوزير شريف باشا وتولية محمود باشا البارودي بدله

الحال الى الخديوى عريضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحقانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية واسمعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للاشغال وعبد الله فكرى باشا للمعارف وحسن شريعى باشا للاوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الانجليز والفرنسيس وكلمهما فى هذا الامر طويلا ثم صدق على هذا الانتخاب وأضاف الى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضا وجاء الوزراء وتمثلوا بحضرة الخديوى بسراى عابدين فخاطبهم طويلا فيما لم تصل الينا معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع اسمعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرياسة لم يكن الا بسبب بند الميزانية فأجابه الخديوى الى ذلك وقام بقية النظار وساروا الى بيت البارودى فعقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوفد عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطابا طويلا فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة ثم ساروا بعد ذلك جميعا الى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طلبة عصمت بيك أمير جند قصر النيل فألقى طلبة خطابا بين فيه تعلق جميع أفراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا الى ديوان الداخلية حيث البارودى والى مصر والفة الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكبة زائدة * وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسؤلية الوزراء أمامهم على طرفى نقيض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخولته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساهل وعدم فصم عرى الوفاق بينهم وبين هيئة الحكومة والاطائن المجلس عن الغرض وضل عن الغاية وكان الآخرون يرون أن فى اكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ماتقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاهما تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد وقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شدائد الديون وذل الاستدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وتنقيلهم بأحمال الضرائب والمكوس والمغارم وثانيتهما تعديل موارد الايراد وترتيبها على نمط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الامن ويرتفع الظلم والاعتساف وتتزايد العمارة فتعظم ثقة الاجانب بأهل البلاد ويجل قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يطاولها نسر ولا يغتالها أسد (اشارة الى دولتى الفرنسيس والانجليز) وكان هذا الرأى لفريق من زعماء العصابة أيضا فاستمالوا اليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وتمسك كل فريق بمذهبه فاشتد الخلاف يومئذ واستفحل فادرك زعماء العصابة ماوراء ذلك وتجردوا لمقاومة أصحاب الرأى الاول وحذروهم وهددوهم فكان اذا تخلف أحدهم

في بيته لسلة لايشعر الاوقد دخل عليه نفر من الجند فيوسعونه شتما وسبا ويتوعدونه بالتبعيد الى أقاصي الدار فور وربما توعدوه بالقتل ان هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخوف وأخذ من قلوبهم مأخذه فانضموا الى بقية النواب وصاروا أشد طاعة وأكثر تزلما الى أصحاب الزعامة فقويت عزيمة أولئك الزعماء فخلع كل منهم رداء المواربة وأظهروا ما كانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالي باستلام زمام حكم البلاد والتصرف في أمور الرعية فجعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة ولم يراعوا أن البلاد في حاجة الى مثل الوزير محمد شريف باشا اذ أعماهم الغرض وتملك عليهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون في صدور النواب ويزينون لهم كل عاطل حتى تجرد النواب يومئذ الى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشر كما تقدم القول ففعلوا مافعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومس الذمم فأنزل نفسه كما تقدم وكان ماكان من تقليد البارودى منصب الرياسة فلم يكن ليخفى على الناس يومئذ أن في طلب نواب البلاد تقليد البارودى هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقه البراهين ولولم يكن في الامر سوى اتحاد أصحاب الزعامة على تقسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل اليهم لكفى

ولما استقر بالبارودى منصب الرياسة فرح قومه وعم السرور أعوانه والمتقربين من بابه فمنهم من أولم ومنهم من أدب ومنهم من تصدق ودفع النذور وحذا حذوهم نواب البلاد فأكثروا من الولائم والمآدب وكان ممن توسع من النواب في مأدبته أحمد محمود صاحب نيابة الصيرة حيث دعا اليها البارودى وأحمد عرابي وسائر الوزراء وجميع نواب البلاد وكبار الجند ولفيف العلماء وبعض الوجهاء وكثيرا من موظفي الحكومة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتقى صاحب البيت منبر الخطابة فتكلم طويلا وذكر في كلامه ماعاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس الى تلك الليلة وعرض بذكر وساطة بطرس بك غالي بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقدم بيانه في حينه وكان معهم في تلك الليلة مقبل الخطيب ولا الحاكم تجهلون أيها السادة أننا لما قمنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطالبنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الذمم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطا من اخواننا الذين يدعون الوطنية ويتظاهرون بمحبة الوطن فقام بالامر وأدى على ماقاه الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعززنا وآخر يباكتنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعدنا برتب الشرف ونياشين الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وانا جميعا على قلب رجل واحد في خدمة الوطن وبنيه

مطلب ماكان من وراء تقليد البارودى منصب الرياسة

ولما كان تاسع عشر ربيع الاول اجتمع الوزراء بعد الظهر بسراى عابدين وعقدوا مجلسهم بحضرة الخديوى وتكلموا في قانون مجلس نواب البلاد فتقرر العمل به بدون تغيير حتى في بند الميزانية ثم تلى بينهم أيضا الجواب على اللائحة التي كان رفعها قونصلا الانجليز والفرنسيس

الى

الى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر ارساله الى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا وفى ثانى عشرى ربيع المذكور سار البارودى الى مقر نواب البلاد وسلم الى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النوّاب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا * وقد قرأت فى ذلك اليوم فى احدى صحف الاخبار الانجليزية صورة مكاتبة بعث بها أحد كبار الانجليز بعاصمتهم على جناح البرق الى أحمد عرابى بيك يقول فيها * تقدّموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الامة الانجليزية فانها لاتروم الاتأييد مذهبكم القائل بحب الرأفة بفلاح بلادكم * أى ثم فلتسقط أقوال الباخسين للاعمال المالية باختلاق الاكاذيب ولتعش الامة المصرية لتحيا الامة المصرية * وشاع خبر هذا الانجليزى ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونقشوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها الى الاحزاب والمتقربين وهؤلاء كانوا يتلونها على الناس محشوّة بالخلط والتحريف وسقط القول فكان منهم من يقول * اى والله قد جاء اليوم الى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الانجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه انها فرحة القلب قريرة العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصابة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلاد وانها لم تكن لتعلم الى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهى ساخطة على من كان السبب فى ابعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها * فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوّج بتاج الملكة * فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرته منقوشا بماء الذهب وأحسن الالوان التى لم ترعينى لها مثيلا * فيقول الرابع انكم جميعا فى ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع مافيه باذنيه أنه على شكل كراسة مغشاة من الخارج بالديباج الاحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم * فاذا قيل لهم قد نقلت أصحاب صحف الاخبار هذا النبأ وليس هو فى شئ مما تذكرون قالوا هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير مايسمعون وظل الحال هكذا أياما وبينما كانت الافراح والولائم لنواب البلاد والبارودى قائمة على ساق تحرك المراقبان الانجليزى والفرنساوى ورفعا الى الخديوى محررا سياسيا

احتجاجا فيه على الحكومة حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخزينة وخولتهم المراقبة على جميع مايتعلق بانواع الايراد والمنصرف فكان مما قالاه فيه ماتعريبه * ولما انتشرت الاوامر الخديوية بتنظيم سلطة المراقبين وخصا نفسهما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص الخديوى بالاصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريق الوكالة والنيابة وعا أن حق المراقبين العموميين هو قاصر على ابداء النصيحة واعطاء المشورة فكان المتعين اذا التمسك بنصيحتهما واعتبارهما بما يحق لهما من الاعتبار والمراعاة فلذلك تحققت الآمال وأصبحت خزينة البلاد فى غاية الضبط والسداد بعد أن كانت فى غاية الخلل والارتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلا حتى تزحزحت تلك القوة المادية من موضعها وانتقلت الى

مطلب
احتجاج المراقبين
على ما أباحته
الحكومة لنواب
البلاد

مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأسر هذا الفريق جميع النواب فهم لايعملون عملا الا بمشورته فهذا التغيير العظيم الذى طرأ على نظام البلاد أحدث تأثيرا مهما حيث كان دبيبه تدريجيا مبتدئا من شهر فبراير سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية الذى هو تاريخ قيام الثورة وخروج الجند وزعزعة سلطة الخديوى ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة فى القهقرى والانحطاط يوما عن يوم الى هذا الحد وكان من نواب البلاد الذين كانوا على عهد اسمعيل باشا مقيدين بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أحمال الديون الثقيلة أن قاموا فى هذا الحين يطالبون بحقوق غير ملائمة لحالة البلاد ولهيئتها الاجتماعية وتمادى بهم الحال الى اكراه الخديوى على خلع الوزارة التى كان معتمده عليها وألزموه بواسطة جماعة من كبار ضباط الجند بتسليم رئيس ديوان الجهادية زمام رياسة الوزراء حتى انحطت بذلك سلطته وصارت هملا مهملا وكان لم يبق لشخص الخديوى وجود وحيث قد بلغت هذه الاحوال حدها فصار لاجهتنا كشيرا معرفة ماذا كان المراد التعرض أيضا لسلطة المراقبين واختصاصهما أولا لاسيما وانها قد أصبحت اليوم منحطة العرى بأسباب عدم امكانهما الاشتغال مع الخديوى ولا مع وزرائه الذين أقيموا فى هذا المنصب جزافا لاولامع نواب البلاد والجند العاملين معهم فان الخديوى وهؤلاء الوزراء ليسوا مسؤلين أمام الرأى العام والدول الاجنبية عن الطرق والاسباب التى عارض فيها المراقبان ودوناها فى مراسيم سينشرانها عاجلا الى أن قالا ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الادبية هو شخص الخديوى والوزراء أما الآن فلابد وأن تصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقاهم نواب البلاد وفريق رؤس الجند فان الوزراء الذين هم على هذه الصورة لايكون اذعانهم الالرؤس الجند ونواب البلاد اذ لولاهم ماكانوا ولقد تم هذا الامر حيث عقدت الوزارة الحالية النية على تخويل مجلس النواب حقا فى نظر الميزانية ولم تكترث بمعارضة المراقبين معارضة رسمية فى هذا الامر ولاننسى أن السبب الذى أوجب سقوط وزارة الوزير شريف باشا هو مراعاتها عدم معارضة حكومتى الانجليز والفرنسيس فيما طلبه مجلس النواب من أن يخول له حق النظر فى الميزانية فصار اذا قبول الوزارة الحالية لهذه الامور واخراجها الى حيز الفعل هو بمنزلة قبول مايمكن ارتكابه من انتهاك حرمة نفوذ دولتى الفرنسيس والانجليز ونجم عن ذلك ازالة نفوذ المراقبين اللذين لاسلطة لهما الا بسلطة حكومتيهما هذا ولايليق التعامى عن الاسباب التى لابد وأن تدك أس الاصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها فى داخلية البلاد منذ السنتين فان الدماء مجلبة التغرير وقصارى الامر أنه ليس ببعيد وقوع الخلل فى الاحوال المالية التى قامت بترتيبها واصلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية اهـ

فلما وقف الخديوى على ما فى هذا الخطاب تملل وسربه الى البارودى فلم يكترث به ولا أعاره جانب الالتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس فى نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء اذا عقدوا مجلسهم للتطرق فى

مطلب
وكان الوزراء اذا عقدوا مجلسهم لايحضره المراقبان

أمور

أمور البلاد لم يدعوا المراقبين للحضور فيه كعادتهم فاذا سأل المراقبان عن السبب قيل لهما ان الوزراء انما هم ينظرون فى الاحوال الادارية والامور الداخلية التى لاعلاقة لها بالاشغال المالية فاصبح للمراقبان بعد هذا عملا مهملا بل سقطا مرذلا وشاع الخبر بذلك وتناقله أصحاب الصحف المحلية والاجنبية فكثر تساآل كبار حكومتى الفرنسيس والانجليز وشديدنهم الاخذ والرد وقام خطباؤهم وقولهم يقلبون لنواب البلاد ظهر المجن وكثر اللغط بعدذلك وعمت الاشاعة بقرب وصول بعض مراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية الى مينا الاسكندرية فبالغ العامة فى التحدث بهذا الخبر وأجم أصحاب صحف الاخبار عن تكذيبه نخاف عقلاء الناس وتطيروا منه فلما كان اليوم الاول من ربيع الثانى وصلت الاخبار الى القاهرة بقدوم سفن حربية افرنسية وانجليزية الى مدينة بورسعيد فزاد تخوف الناس واختلفوا فى أسباب حضور تلك السفن وكثر تحدثهم فى أمرها فبالغوا فى وصفها واختلفوا فى عددها فمن قائل انها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودى فى ذلك الى قونصل جنرال الفرنسيس فأجابه بأن ليس فى الامر مايدعو الى الاضطراب وانما هى سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهى معدة لنقل الجنود الذين قضوا مدة الخدمة العسكرية فى تلك الاقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتنكف الناس عن التحدث فى أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغط أيضا بحركة الملك يوحنا نجاشى الحبشة ونزوله على حدود مصر الشرقية وتضييقه على أهلها واحراقه الكثير من قراها ومزارعها وغير ذلك واشتد اللغط وكثر الارجاف أياما حتى وردت الانباء الصحيحة بانه لعصيان أهالى قرية من قرى أرض البورى التى تبعد عن مصوع مسافة يومين عن دفع الضرائب لاصحاب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أن لايجبوا الضرائب الا بواسطة الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف من البقر وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الحمير وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلا وأسروا أحد عشر فأذاع هذا الخبر أصحاب صحف الاخبار وتوسعوا فى الكلام على عادات الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبروتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب تلك القلاقل وتبطل الاراجيف

مطلب
وصول بعض سفن الحرب الانجليزية ولا فرنسية الى بورسعيد

وأشار البارودى بابطال تسيير الجند الذين كانوا على أهبة السفر الى السودان لردع صاحب المهدوية فأوقفوا وصرفوا وأشاعوا أن القوة التى هى فى بلاد السودان كافية لحصر المتمهدى فى جبل هناك ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فصدق الناس الاشاعة أو كادوا فلم تكن الا أيام حتى وردت الانباء الصحيحة باستفحال أمر المهدى وتزايد جيوشه وخضوع الكثير من المدن والقرى اليه وقيام الحركة بين أهالى الدرفور وكردفان وغيرهما قالوا وبلغت لمومه الى هذا الحين مبلغا عظيما فكان اذا نزل على بلد ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف فى أهلها حتى يأتى

مطلب
العدول عن تسيير العسكر لقتال مدعى المهدوية وما كان من وراء ذلك

على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لنصرته فتقدم ولم ير أمامه ممانعا وبث الدعاة فى الاطراف حتى فى مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم صاغرين وكبر الخوف بالسواد الاعظم من أهل كوردفان وسنار والخرطوم فانجلوا عنها فرارا من بطشه فتعطلت أسباب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الامن من تلك الاصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم الى مدينة أسيوط ومنع تجار القاهرة من ارسال شئ من البضائع على ظهور السفن الى مدينة أسيوط كعادتهم ووصل الى القاهرة ومصر بعض النازحين عن السودان وظهرت الحركة فلم تبق للريب محلا واتفق أن حضر فى هذا الحين الى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا مابين راكب وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودى فلما رآهم العامة على هذه الحال ظنوا أنهم رسل مدعى المهدوية وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا الى ديوان الداخلية وصعد جماعة منهم الى مقر البارودى فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد أن لاتضيع علينا حقوقنا التى ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بمقتضى فرمانات محمد على باشا الكبير مقابلة خفارتنا للحدود ومنع العدو من الوصول اليها فقال وماذا تبتغون الآن وهذه قضية رآها من كانوا فى خطتى من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قياما بالمصلحة العامة فقالوا لانرضى أن يؤخذ منا رجال للجند النظامى ولا أن تخرج قومنا للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل الى التخلى عنها مادامت البادية بادية ونحن حارسوها فهوّن عليهم البارودى الامر ولاطفهم فانصرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس تلك الهواجس والأوهام وحضر فى هذه الأثناء أيضا عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى من مدينة دمياط الى القاهرة ولازم أحمد عرابى بيك أياما فاشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم وقالوا ان حضوره فى ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان انما هو مترتب على أن تكون مراكب العدو قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق الا الرمى بالقنابل وكان حضور عبد العال بيك فى ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابى ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار فقد كانت القاعدة من القدم أن لايتولى رياسة ديوان الجند الامن حاز رتبة الفريق ليتمكن من سياسة الأمور وحفظ نظام سائر الضباط وكبار الجند وقد تولاها أحمد عرابى بيك وهو لهذا الحين لم يعط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ماهم عليه من الرتب الصغيرة خاف أحمد عرابى من أنه اذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه ثم أبغضوه وعملوا على نكايته وادلاله فسعى فى طلب عبد العال فقدم الى القاهرة ولبث بها أياما حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أماكن اقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شاؤا إبعادهم من صغار الضباط وادخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود الى طاعتهم والعمل

باشارتهم

مطلب
امتناع الخديو من اعطاء بعض كبار العسكر شيأ من رتب الشرف ونياشين الاعتبار وما كان من وراء ذلك

بشاراتهم • ثم رفعوا الى الخديو ورقة باسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفوهم وتقدم اليه أحمد عرابى فى طلب اعطائهم بعض الرتب والنياشين فلم يعجب الخديو ذلك اذ رأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعه أحمد عرابى بيك وهوّن عليه الأمر فامتنع وجعل يطاول أياما • وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم اذا رأوا من الخديو مطاولة فى أمر يبتغونه أشاعوا أنه انما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصومهم فيكثرون حينئذ من الاجتماع والتطواف ويبثون الأراجيف ويختلقون الأكاذيب والترهات فان عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم والا تمادوا حتى يتاح لهم الظفر فلما تحققوا إصراره على الامتناع من اجابة طلب أحمد عرابى بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى وأشاع أنه قد دس اليه السم فى اللبن • قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ذات ليلة عند أحد اخوانه اذ عاد الى بيته فقالت له الجارية التى كانت تعدّ له الشاى واللبن فى كل يوم صباحا انها تركت المحل لحظة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذى فيه اللبن مكشوفا ولون اللبن متغيرا قال فبحث فى الوعاء فوجد فى راسبه مادة فأبقاها الى الصباح واستحضر طبيبا عارفا فحلل تلك المادة فاذا بها زرنيخ كاف لقتل نفس فأكثر واتهم فى هذا العمل غلاما يبلغ السابعة عشرة وهو يهتم بتربيته فى بيته فقبض عليه وأتى به الى مقر جند الحرس الخديوى برحبة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه الفاعل باغراء محمد بيك ابن اسمعيل بيك ابن أبى بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاما شركسيا من مماليك الخديو رفيقا له فى المكتب أعطاه ذلك الزرنيخ وأوصاه بوضعه فى وعاء اللبن ففعل رجاء خلاصه من وصاية عبد العال بيك وحيازته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام الى صاحب شرطة المدينة فأودع فى السجن حتى تظهر الحقيقة • ولم ينتشر خبر هذا الحادث العجيب حتى جعل ضباط الجند يفدون على دار عبد العال بيك عشرات عشرات لهنئوه بالسلامة وهرع اليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفى الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه فى استكشاف سر هذا الحادث واستجلاء الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسى ووضعه بالسجن واستنطاقه أيضا دفعا للشك والظنون وسير الى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص ليبلغه شدة كدره من وقوع هذه الحادثة ويهنئه بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الطائف الكلام فى هذا الحادث وبالغ فى مدح تلك السوداء التى كانت سببا فى نجاة عبد العال كما كانوا يزعمون فهاداها جميع ضباط الجند بالحلى والملابس وكان اسمها تشريفا فجعلوا يصيحون تشريف تشريف وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة ويعرضون بذكر الخديو وعداوته لجماعة الضباط وأصحاب الزعامة منهم حتى أجابهم الى ما يطلبون وأعطى كبارهم من الرتب ونياشين الافتخار ما كانوا يسألون فنال أحمد عرابى بيك وعلى بيك الديب أمير جند الحرس وعبد العال بيك حشيش أمير الجند السودانى لقب ميرلواء وهى رتبة

الباشوية وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فهرع الى دار أحمد عرابى العلماء والكبراء والوجهاء وتزاحم على بابه الشعراء وغصت حجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت اليه رسائل التهانى من عدد البلاد ومشايخها و تجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالمأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب فى ذلك اليوم وزين داره وأتت اليه طوائف أرباب الاشاير وأصحاب العكاكيز والمتعممين بطبولهم وزمورهم وكاساتهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون ضجيج الاستحسان ويهتفون هتاف التشريك وزاره فى غروب ذلك اليوم سائر رجال الحكومة الملكيين والعسكريين والرؤساء الروحانيين ومحررى صحف الاخبار المحلية والاجنبية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة ايطاليا وغيره ممن كانوا يكثرون التردد عليه لامور لم تصل الى معرفتها وما زالت داره محطا للمهنئين وكعبة للشعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع على باشا الديب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الأجنبية لاسيما منها الانجليزية ونادوا وا حرباه ان لم تتداركه دولتا الانجليز والفرنسيس الخلل الذى كاد يهبط بمصر الى حضيض الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار ساستهم على الاخذ باطراف العمل و وجوب تغيير منهج السياسة الذى اتخذته الدولتان منذ ظهور ثورة الجند الى هذا الحين فأكثر قونصل الانجليز من الغدو والرواح الى مقر الخديو للمكالمة فى الأمر

مطلب تنزيل المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى لنفسه من منصب المراقبة وما كان بعد ذلك

واتفق فى ثالث عشرى ربيع الثانى أن تقدم المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى الى الخديو فى قبول تخليه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو الى ذلك بغير معاودة فانحدر من فوره الى الاسكندرية ومعه عياله بريد عاصمة الفرنسيس فلما شاع خبر انسحابه من منصبه فرح أصحاب الزعامة وبالغوا فى الأسباب وعزوها لأنفسهم وقالوا انما هى معجزة من معجزاتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يطنب فى مديح أحمد عرابى باشا و يثنى على همة رجال العصابة أولى العزم ويقول « قد آن وانه الوقت الذى لابد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعوث الجائعة الذين لا يهمهم الا اشباع بطونهم واختلف الناس فى أسباب عودة الرجل الى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعى الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغاية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون الى المرمى البعيد وكثر تحدث الناس فى هذا الامر فمن قائل ان لاستعفائه غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيس باتخاذها فلا يلبث أن يرجع الينا وفى وعائه شئ من السم والدسم ومن قائل بل كان استعفاؤه ارضاء لأصحاب سياسة الانجليز اذ هم يعتبرون أن بقاءه فى منصبه باعث على فصم عرى الاتحاد وقطع رباط الوفاق الذى عقدته الدولتان لان الرجل شهم حازم جرىء حريص على نفوذه قوال فعال لاتأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الانجليزى على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأى « قال أصحاب هذا المذهب فلما كان دى بلينار هذا لا يعمل الالمصلحة بلاده خاصة

ميالا

ميالا الى التفرد بالعمل وكان المراقب الانجليزى لايقوى ولن يقوى على مجاراته استقدمته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشدّ رباط الوفاق وعزمت على استبداله بآخر أقل غيرة وأكثر صبرا * ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شئ من هذا كله وانما هى فلتة من فلتات السياسة الافرنسية التى ما وراءها الا الخيبة والعدم حيث لا ينفع الندم * وعندى أن لاستعفاء دى بلينار هذا سببا آخر لعله الصحيح أو ما يقرب منه وذلك انه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرنساوية وخطيبها المفلق وقامت بعدها وزارة فريسينيه وكانت سياسة دى بلينار هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكياسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينيه مشوبة بالضعف وعدم الثبات محفوفة بضوضاء المكاره من الأحزاب لاسيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع الى رغائب الانجليز منهم الى مصلحة وطنهم أدرك دى بلينار ما وراء بقائه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهيبة لاسيما وقد كان واقعا يومئذ بين منتطح عنزين عداء الفرنسيس الذين بمصر وتقبيحهم لاعماله جزاء مابدا منه لغوتصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه وبغض رجال الحكومة اليه فعمد الى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم الى كبير سياسة الفرنسيس والخديو فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغنيمة بالاياب * ولم تكد تهدأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنساوى حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة وزحفه بالجند الكثير على حدود مصر وعقده النية على اضرام نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخلطوا وخبطوا كعادتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان * وتحرر الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرقى السودان أرسل الى ديوان الخديو يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قسيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قيروت ومعهم عشرة رجال آخرون خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع الىّ كبيرهم كتابا من النجاشى يقول فيه * باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله الخ

مطلب حضور جماعة من الحبشان بهدية من النجاشى الى الخديو

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها الى حضرة المحب المكرم علاء الدين باشا

نخبركم اننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزون كمال الصحة والعافية متمتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات لوذية وأنه مرسل لكم بانجابنا الباشا هدية وهى حصان من جياد الخيل اشارة الى التودد والمحبة والسلام اه * وكان مع ذلك الوفد أيضا هدايا أخرى بعضها الى بطرك القبط بديار مصر وبعضها الى الخديو وهى عبارة عن عشرة كئم من الفضة المموّهة بالذهب ونيشانين من الذهب الخالص وثمان درقات وكيسة من الزاد وزهاء الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب الى الخديو وكانت

مطلب ظهور الخبر بارفضاض مجلس نواب البلاد وما كان من وراء ذلك

وجدة جميع رجال الوفد البيت المقدس ليلبثوا فيه ما شاء الله ● فلما تحقق الخبر بقدوم أوائك الحشاب ومثولهم بين يدى الخديو ثم نزولهم بدار البطريكية القبطية بالقبيلة بطلت الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب البلاد اذ ظهرت الاشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب الى بلادهم وقد تناقلها أصحاب صحف الاخبار فما لبث ان بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صحفهم مشحونة بالتقبيح والتعييب و لاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الاجانب الذين فى خدمة الحكومة يسخرون أيضا بالنواب ويهزؤن بأعمالهم فكانوا اذا قابل أحدهم رفيقه فى طريقه أو فى مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أومساء الخير مثلا ● اننا نودع نواب الأمة الوطنيين ـ الوداع للنواب الوطنيين ـ وغير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء فحرك هذا كله ساكنا فى قلوب ضباط الجند فجعلوا يطوفون بالشوارع والطرقات ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الاجانب فانكمشوا وانكفوا عن الاجتماع فى المنتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية يهونون الأمر على أهل البلاد ويلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الاطراء على النواب فكتب أحدهم فى وداع النواب يقول ● وداع يزيد النفوس وجدا ● وبعد يقيد القلوب قربا ● وانفصال لا يؤثر فى المشارب الا اتصالا ● وافتراق لايوجب فى المبادى الا اتحادا ● وداع لنواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت بما فى قلوب الأحبة من الثناء والدعاء مشكورين مأجورين مرجوا عودهم بالمهابة والاجلال والتوفيق والاقبال ان شاء الله اه فلما كان ثانى جمادى الاولى من السنة أى سنة تسع وتسعين فى نحو الساعة الخامسة العربية صباحا قدم محمود باشا البارودى الى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو بارفضاض المجلس فدخل عليهم وسلم ووقف بينهم موقف الخطيب وقال إن المدة القصيرة التى أقمتموها والاعمال الكثيرة التى تشرعتموها تدل على شدة ميلكم الى الاصلاح ورغبتكم فى تقدم الوطن العزيز ● وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المعين لارفضاض المجلس بمقتضى لائحته الأساسية فقد أتيت بالأصالة عن نفسى و بالنيابة عن اخوانى لأشكر مساعيكم المحمودة وأرغب اليكم ان تشغلوا أفكاركم فى مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التى ستوضع فى العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة ● قال وهذا هو الامر الكريم الناطق بارفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه اليكم والله المسؤل فى توفيقنا جميعا لخدمة الوطن العزيز

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس النواب يقول ● انا نشكر الجناب الخديوى المعظم عنايته باستنابة عطوفتكم فى ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا فى العام القابل لتتميم المقاصد الخيرية والمنافع العامة التى منع قصر الوقت فى هذا الاجتماع من اخراجها الى عالم الفعل كما نسأله أن يؤيد الاتحاد ويزيد تألف القلوب لنكون يدا واحدة وقلبا واحدا

على

على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج اليه من الاصلاح آمين * فأمن النواب جميعا على هذا القول ثم ودعهم البارودى وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا الى مقر الخديو بسراى عابدين لوداعه فقابلهم وخاطبهم قائلا * ان اجتهادكم فى خدمة الوطن واهتمامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع القبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلو الهمة وصدق العزيمة فى خدمة الامة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية فى مدة انفضاض المجلس الى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضع لديكم موضع النظر فى العام القابل لتأتوا ان شاء الله على ما فى بقى من الاصلاح لوطننا العزيز وانى أستودعكم الله شاكرا الله سبحانه وتعالى أن وفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأنه كما أحسن الحال بحسن المآل آمين * فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول * نسأل الله تأييد الجناب المعظم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يبقيه للامة والوطن موئلا أمينا فتحصل فى ظله الامانى وتكمل المنافع العمومية وتدوم قوة الاتحاد بين أركان البلاد ولا غرو فى ذلك فانه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفت همتهم اليه من أوجه الاصلاح ومهد لهم جانب العناية فى البداية والنهاية * ثم بعد ذلك قدم الكاتب الخاص الى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم الى كل منهم المرسوم الموجه اليه بيده فكان مافيه

قدوة الوجوه المعتمدين والاعيان المنتخبين حضرة فلان زيد إقباله ودام كماله انّ من الامور التى أثبتتها التجارب من سوالف الازمان حتى صارت جلية عند ذوى البصائر والاذهان ووصلت الى درجة الاستغناء عن اقامة دليل وبرهان أن السبب الاقوى فى تقدم الامم والوسيلة العظمى لانتظام الاحوال على الوجه الاتم هو التشاور فى الامور وتبادل الافكار والمبادلة فى الآراء والانظار ولا شك أن هذه هى أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحرينا طريق الصواب واخترنا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الاهالى أعضاءه بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الاعضاء المبعوثين فى مذاكرة ما يلزم من الامور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالاهلية وعرض ذلك علينا فقوبل بالقبول والاستحسان لدينا فاصدرنا اليك هذا الرقيم اعلانا بأنك ممن حاز شرف العضوية مدة خمس سنين فى ذلك المجلس الكريم فنرجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثا لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقدم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام بلادنا وأمصارنا وأن يكون سببا لنوال الفلاح وكمال الاصلاح انه ولى التوفيق اه فانصرفوا من عنده شاكرين وأولم لهم البارودى وليمة فاخرة فحذا حذوه بعض أعيان القاهرة ثم سافر من سافر منهم وبقى من بقى فكتب صاحب جريدة مصر هذه الابيات مودعا لهم بها قال

ودعتهم وبنفسى من مآثرهم * آثار حمد أقامت بعد مارحلوا



أكارم إن همو عن ناظرى انفصلوا * فذكرهم أبدا بالفكر متصل
لهم منازل حب فى القلوب فهم * بها مقيمون إن ساروا وإن نزلوا
فحبذاهم من قوم أماثل فى * أمثالهم بالمعالى يضرب المثل
وحبذا القول ما قالوه عن رشد * وحبذا الفعل فى الاصلاح ما فعلوا
ضنوا بأوطانهم وهى التى بذلوا * فى حبها النفس ثم الجود والجذل

مطلب اكتشاف مؤامرة جماعة الضباط الشراكسة على قتل كبار عصابة الجند

وكان الناس يظنون أنه بانفضاض هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك القلاقل المتتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الخواطر الراجفة وتنكف أصحاب الزعامة عن اختلاق المشاكل والاراجيف * فبينما هم على هذا الجانب من الظنون اذ قامت قيامة أصحاب الزعامة ورفعوا الى الخديو فى خامس عشرى جمادى الاولى شكوى تتضمن أن عصابة سرية من جماعة الضباط الشراكسة الذين اختيروا لقتال مدعى المهدوية بالسودان قامت للفتك باحمد عرابى باشا وانهم أعدوا له كمينا فى مفارق بعض الطرق لاخذه غيلة وجعلوا يبالغون ويهولون فكبر الامر على الخديو ورسم بكشف الحقيقة وبث أحمد عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط الشراكسة وتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم وألقوهم فى سجن قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وهيؤا لتحقيق هذا الحادث مجلسا عسكريا مؤلفا من عشرين عضوا بينهم على بيك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش وانقسم هذا المجلس الى قسمين احدهما لعمل النهار والثانى لعمل الليل وقبضوا على كثير من الشراكسة وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاتى بيك وآخرين معه فكانت عدتهم نيفا وأربعين فاشتد الخوف باصحاب البيوتات من جماعة الترك والشراكسة وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تاسع عشرى الشهر انعقد مجلسهم العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين قالوا فتحقق أن الذى هيأ هذه العصابة هو راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد اسمعيل باشا فى بيت أحمد افندى راشد أحد الضباط الشراكسة بحارة الرزناجية القديمة وكان ذلك على علم من محمد افندى طلعت ويوسف نجاتى بيك ومحمد نيازى افندى وأمين شكرى افندى وسالم شوقى افندى وعمر افندى رحمى المعاون بديوان الضابطة ومحمد شفيق افندى ومحمد افندى فؤاد الملازم بالمخالفات وأحمد فهيم افندى وخليل حسنى افندى ورشوان افندى ونجيب افندى المقيم مع شفيق افندى وأحمد افندى وصفى الملازم بالمخالفات قالوا وتحالفت هذه العصابة على السيف والكتاب وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتقوى عزائمهم وتطمئن قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الايام محمود افندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا مجلسا وأعلموا الصغار من جماعة الضباط الشراكسة بان أول شئ يعمله رجال العصابة هو أنهم يرفعون الى الخديو عريضة يطلبون فيها رد حقوقهم اليهم ورفع يد الاستعباد عنهم ولم يطلعوا أحدا من أولئك الاصاغر يومئذ على سر المقصد الاعدائى الذى تحالف عليه

كبارهم فانضم اليهم كثير من الاصاغر ومالوا الى تعضيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة والخمسين فكتبت أسماؤهم فى ورقة وأعطيت الى أحمد أفندى راشد صاحب الدار

واتفق أن قدم من الاسكندرية خليل أفندى حلمى أحد كبار العصابة فاجتمع بجماعة منهم فأبلغهم أنه قد انضم الى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهد الاستطاعة اذا ظلوا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكانهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم فى بيت أحمد أفندى راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندى الكردى فانضم اليهم عندئذ حسن أفندى الكردى ورجب أفندى ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على الاجتماع فى ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى وعبد الله أفندى الكردى رؤساء موكلين يدير كل واحد منهم خمسين رجلا ويأخذ عليهم العهد بأن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا واذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى يموتوا جميعا فاذا اتسع نطاق العصابة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العالية مثل محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقى وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها فوضت الرياسة الى الاكبر من جماعة الشراكسة أوالترك واتفقوا جميعا على أن يجتمعوا فى مقام السيدة زينب ليتحالفوا ويجددوا يمين القسامة هنالك ويظهروا ماأسروه من الاسرار عن بعضهم من قتل أحمد عرابى وكل من يناويهم الشر أو يقف فى سبيلهم هذا فلما عرضت الرياسة على عبد الله الكردى أباها وقال انى أحس بالقوم بانقباض فى صدرى واضطراب فى قلبى ورجفة فى جسمى من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العاقبة فاعفونى حتى تتمكن العصابة من انفاذ مقاصدها ويعظم شأنها فاذا تم لها الامر وقامت على قدم الدفاع أتيت لها بخمسمائة من الباشبوزق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه الى ذلك وكلفوه بأن يبلغ مبادى عصابتهم الى بعض كبار الشراكسة ليكونوا لهم عونا عند الحاجة فاجتمع بكثير منهم وعاد فأخبر رجال العصابة بأنه لم ير من أولئك الكبار الا غاية الجبن والانكماش ثم انفصل عبد الله الكردى عن رجال العصابة لاسباب فكادت تنفشل وتتفرق كلمتهم لولا أن رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى أدركاها بهمة منهما حيث جمعا أفراد العصابة الذين كانوا عقدوا جلستهم تلك فى بيت أحمد أفندى فهيم الكائن بالقوطية واتفقوا على أن يأخذوا كل من انتظم فى سلك العصابة الى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود ويتحالفوا على اخراجه الى حيز الفعل حتى لاتنفصم عقدتهم قبل ادراك مأربهم فلما انكشف السر وعلم به بعض صغار الضباط الشراكسة ذهب أحدهم المدعو على رمزى وأخبر بعض أصحاب أحمد عرابى وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابى الامر ورسم فقبضوا على أكثرهم فى الحال وتتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج الحبوس * حدثنى صاحب لى قال * ماظهر خبر عصابة الشراكسة وتناقله الناس حتى كثر تطواف الجند بالشوارع والحارات وجعلوا يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشراكسة

جاسرى الرؤس حافى الاقدام فيزجونهم فى الحبوس بقشلاق جوس الخديو برحبة عابدين والناس خلفهم يتزاحمون وهم فى دهشة وحيرة فكنت لاتسمع فى تلك البيوت الاعويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوه الشيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكلوا به من يذيقه مر العذاب فكان الواحد منهم يقضى بياض يومه وسواد ليله واقفا على قدميه وأمامه الموكل به فاذا أغمض الجفن لكمه أووخزه فينتبه وعيناه تذرفان الدمع فاذا خر على الارض أو سقط مغشيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيسترحم وليس من يرحم ٭ قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل مايحتاج اليه المسجون كجرة للماء مثلا أو صحفة للطعام أوحصيرة للرقاد أومصباح للضوء وكان ضجيجهم لاينقطع وعبراتهم مترسلة فأثر هذا الحال فى الكثير من جند الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوا يخرجون عن طاعة كبارهم فلم ينتبه رجال المجلس العسكرى الا وجند الحرس على أهبة التخلى عنهم فتداركوا الامر وعجلوا بالعقاب فجاروا وظلموا وأغمضوا جفن الطمان على وسادة الانتقام فلا حول ولا قوة الا بالله ٭ قلت وطار خبر هذا الحادث الى الآفاق فأرسل السلطان فى خامس جمادى الآخرة الى الخديوى يسأل عن ذلك وكتب أحمد الشراكسة الى احدى صحف الاخبار الاجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هى مسقط رؤسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من علومها وفنونها أشكالا فقمنا بواجب شكرها وأخلصنا فى خدمتها أعواما طوالا و بذلنا النفس والنفيس فى تلبية داعى تقدمها ودافعنا عن مجدها باقتحام الحروب الروسية وتجشم الخطوب الهائلة الدموية نخدمها خدمة الابن البار بابويه وما زلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد فى صدور أهل البغى والفساد فرموا بعضنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التى حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسته وكبلوهم فى قيود الظلم وألقوا بهم فى حبوس الهوان وأذاقوهم مضض اللكم والوخز وأليم الاخذ والرد وحرموهم لذة الرقاد وأحرقوا منهم الاكباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنوه ولا خطا ارتكبوه فالله حسبنا ونعم الوكيل الى أن قال وحيث ضاقت بنا أرض هذه البلاد وقد أصبحنا مضغة فى أفواه قوم لايخشون يوم المعاد فقد عزمنا على الرحيل الى الدنيا واسعة الفضاء وقد عينا أنفسنا لخدمة أمير المؤمنين لاغير والسلام اه فأعجب الناس بهذه المقالة وحنوا الى جماعة الشراكسة وعابوا على زعماء عصابة الجند فعالهم ٭ فلما كان حادى عشر جمادى الآخرة حكم المجلس العسكرى على هؤلاء الضباط بالنفى والتبعيد المؤبد الى أقاصى السودان وكانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونياشينهم وأن يكونوا متفرقين فى أنحاء السودان بعيدين عن مصر كالمدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدهم من كافة حقوقهم المدنية وحكموا على راتب باشا السردار الذى عد زعيم هذه العصابة بالتجريد من رتبه العسكرية وامتيازاته ونياشينه

مطلب
ورود مرسوم السلطان بالاستعلام عن كيفية مؤامرة الشراكسة

مطلب
الحكم على جماعة الشراكسة وما كان من وراء ذلك

وحرمانه

وحرمانه من العود الى ديار مصر بحيث اذا عاد اليها لقى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس العسكرى فى حكمه ان الخديوى اسمعيل هو سبب هذه الحركة العدوانية والباعث عليها مستعينا فى بثها بالمرتبات التى تصرف اليه فى كل سنة من خزينة البلاد فقرر أن يكون الخديو توفيق ولهيئة الحكومة حق التطرق قطع هذه المرتبات والغائها ورفعوا هذا الحكم للخديو ليرسم بتنفيذه وكان الذى رفعه هو محمود باشا البارودى وقيل على باشا الروبى والاول أصح فلما وقف الخديوى على مافيه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقبل فكلم فى ذلك أحمد عرابى فأظهر غاية الشدة وبالغ فى الجفاء فجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتمكن من استرضاء أصحاب الزعامة فلما أعياه الحال تجرد الى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل حكم التبعيد الى أقاصى السودان بالتبعيد عن ديار مصر حيث يشاء المبعدون مع حفظ رتبهم ونياشينهم ولم يتعرض الى مرتبات أبيه فلما برز الامر من ديوانه على هذه الصورة كبر ظهوره على البارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظا وراجعا الخديو فأبى الا ما رسمه فألح عليه البارودى فامتنع وشدد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكثرت الفتنة وتراجعت أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانبثت العيون حول مقر الخديوى قيل وهدد البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتفت الخديوى الى ذلك ولم يحتفل به * حدثنى أحد المقربين من البارودى قال وتاقت نفس البارودى والنفس أمارة بالسوء الى ارتقاء منصة الخديوية المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع اليه جماعة من أهل التاريخ وكاشف بعضهم على مافى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسبه فأتاه أحدهم بشجرة كثيرة الفروع ينتهى أصلها الى السلطان الملك الاشرف طومان باى وقيل الى السلطان الملك قانصوه الغورى فاشتد عند ذلك ظهوره وكثرت آماله اهـ * قلت ومع بحثى عن حقيقة هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالادلة القاطعة وفريق ينكره ويقول انه فرية على البارودى لاأنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب الى الصدق وأبعد عن الشماتة والحط من مقام البارودى *قالوا وتجرد البارودى الى العداوة فلم يطق الخديوى الصبر على ذلك وقد علم بما فى نفس البارودى فراسل السلطان فى أمره وأعلمه بخبره فورد اليه الجواب باستعمال الحزامة والتأنى والاتيان على سائر الامور من أبوابها فاطمأن عند ذلك الخديوى ورسم الى جماعة الشراكسة بالخروج الى حيث شاؤا فخرجوا جميعا الى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد

مطلب
واستقدم البارودى نواب البلاد بغير اجازة من الخديوى

وسير البارودى الى نواب البلاد يستحثهم على الحضور الى القاهرة فحضروا جميعا وانعقد مجلسهم بغير اجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودى ما وقع من الخديوى وبالغ فى الشكوى واشتد عليه بأمور منها مؤامرة جماعة الشراكسة على قتل أحمد عرابى وتبعيد الحرمة عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر من سراى عابدين وقيام ابراهيم أغا التنجى الى الشام بمأمورية سرية وارسال ثابت باشا

الى دار السلطنة بغير موجب ولاسبب ظاهر وسعى الخديوى خلف اذهاب حقوق البلاد وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفرامانات السلطانية وغير ذلك من التهم التى ما أنزل الله بها من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا فى الامر وجعلوا يقومون ويقعدون واطال على ما هو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودى الشاغل له عن حوادث السودان وخروج المهدى واتساع كلمته بين قبائل تلك الاصقاع وعجز رؤف باشا عامل السودان عن ايقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد ونداءه المتواصل ولم تكن لتخفى يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقد وصل جماعة كثيرة من تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومتاعهم وأخبروا بجميع حوادث صاحب المهدوية وقصوا على الناس القصص والانباء وحدثوا عن عجز رؤف باشا وأصحابه وقالوا ان نار الفتنة لم تضطرم الا بيد سلاطين بك أحد مديرى ولايات الدارفور بما أعطاه الى العربان من بنادق الحكومة وذخائر الحرب فكثر تحدث الناس فى ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون ما وراءها والله من وراء كل حساب * حدثنى صاحب لى قال حدثنى من لا أشك عندى فى صدق حديثه قال ما تعاقد كبير السياسة الانجليزية مع الخديوى اسمعيل عام ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية على ابطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطالبه بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس اليه الرقباء من قومه فساروا الى أرض السودان وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها الى أقصاها و يبحثون فى عادات أهلها وطباعهم وأميالهم والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والادواء الناجعة فى استمالة أعصى القبائل وأشدها بأسا ثم عمدوا الى تخطيط الاراضى ومعرفة ما فيها من الدروب والمسالك والعقبات والمرابط ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها وتربة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها عددا ولم يتركوا شيأ تدعو اليه الحاجة الا وأحصوه وكان ممن سير به من الانجليز كبير من مقدمى جندهم اسمه غوردون فقدم الى القاهرة ولبث أياما لم يفارق فيها باب الخديوى اسمعيل ثم رحل الى السودان باسم مراقب منع الاتجار فى الرقيق فلم يلبث أن صار حاكم شرق السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الاحمر ثم حكمدار جميع أرض السودان وخط الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتحفه بنياشين الشرف فعظمت هيبته وعلت كلمته ونزع الى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم والمكوس ورفع ما تأخر من الاموال الاميرية عن مشايخ القبائل ولبث فى خرطوم السودان يأمر وينهى ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء بلا راد ولا ممانع فنزح فى أيامه الى أرض السودان كثير من الاجانب وأهل التجارة فراجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل الى تلك الاصقاع أيضا رجل اسمه سلاطين قيل انه نمساوى الجنس وقيل ايطالى والاول أصح وقيل ان الخديوى اسمعيل هو الذى سيره الى السودان فى خدمة واليها اسمعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب فى المناصب الديوانية ويترفع

مطلب كيف أنشب الانجليز أظفارهم فى السودان وكيف خرج المهدى

الى درجات الحكام والمديرين حتى قيض الله له من ولاه ولاية صغيرة من أعمال الدار فور
فنشط عند ذلك من عقال وهب من خمول وأخذت كلمته من هذا الحين فى الظهور فلما
تولى السودان غوردون الانجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص فى خدمته وأجهد النفس
فى طاعته فنال وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بضع سنين ورجع الى
بلاده وهو أعلم من وطئ هذه الارض بعادات أهلها وطباعهم وأميالهم وعدة مافيها من
قبائل العربان وقد بدأت فى أيامه تدب روح الحرية فى صدور كبار أشد القبائل بأسا
وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الابيض احدى بلاد
الدارفور اسمه محمد أحمد فادعى المهدوية وتظاهر بمظاهر النساك وتزيا بزى الصالحين واتخذ
له خلوة ورباطا وجمع اليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو واياهم
من مظاهر التقشف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر
ذكره ومال اليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الادرة والدخن والبقر والضأن وتفرقوا
منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الابرار ويحدثهم باخبار الصالحين
ويحذرهم من قرب الساعة ودنو الاجل ويقول اذا عم دين الاسلام واتحدت كلمة سائر
المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان ومازال على هذه الحال
حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدارفور فبلغ عدد من لازم خدمته
ولاذ الى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤف باشا معالم الخروج
وتحزب بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج
فرفع أصحاب الجباية الامر الى رؤف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت الى ذلك ولم
يحفل به فتورك من هذا الحين محمد أحمد فى تخت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث الدعاة
الى بلاد الدار فور يدعون الخلق الى طاعته ويستميلونهم الى طريقته ويستنهضونهم الى
نجدته واستخلاص البلاد من أيدى الكفرة المارقين فمال اليه ناس كثيرون جدا من أهل
تلك الاصقاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الانجليز من قبل وواصلوا رباطه بالهدايا
والتحف وصاروا يحجون اليه فى أيام معلومة من كل شهر ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة
فأوعز أصحاب الحل والعقد الى رؤف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن يواصل هيئة
الحكومة باصح الاخبار فأرسل رؤف نفرا من الجند لايبلغون المائتين وضابطين من صغار
الضباط الى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا فحصا فلما صاروا على
مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فرقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وقتلوهم
حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الادبار وركنوا الى الفرار فاخبروا بما حل
بأصحابهم * قال المحدث * فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤف ساكنا ولم يستنهض له
همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لايزيدون عن الذين ماتوا وشدد عليهم فى
الاتيان بمحمد أحمد حيا وكان المهدى بعد أن ظفر أصحابه بجند رؤف وسلبوا ما كان

معهم من ذخيرة ومتاع قد ترفع بهم الى الجبال وسير فى طلب النجدة من بعض القبائل فاجتمع لنجدته كثير من السود الابطال وتوجهوا للقاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقين رحى الحرب والقتال فظفرت لموم صاحب المهدوية وانتصرت على أصحاب الوالى نصرة مؤزرة وأبادوهم بحد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدى فهاوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهدويته وقاموا فى الجبال لنصرته وتواردت على رباطه الهدايا وكثرت عنده المؤن فاحبه أصحابه وأخلصوا له الخدمة وبالغوا فى طاعته فوقع الوالى فى الخبال وبلبلة البلبال وكتب الى حكام الدارفور يستفزهم الى ايقاف تيار هاته الفتنة فكان أول من لب نداءه سلاطين بيك حيث جمع نفرا من العربان وقلدهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسيرهم الى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به الفلك وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تفوت بقوم سلاطين ومعدات حربهم عزيمة صاحب المهدوية وكبرت شهرته وكادت تتم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هذا الحين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وادخر وغلب وقهر وفاز وانتصر ورتب قومه على أحسن ترتيب وسمى منهم أمراء الجيوش وكبار المئات والامناء على بيت مال المسلمين وبالغ فى التظاهر بمظاهر الاولياء والصالحين بل الانبياء المقربين وسن لاصحابه سنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأتمرون بأمره ويقومون عند اشارته ، قال محدثى كل هذا ورؤف باشا كان كن ضرب على سمعه وبصره ، ثم تنهد وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال ولسوف يأتى يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس مختلطة بالرؤس يوم تنطبق فيه السنابك على السنابك وتلتقى البنادق بالبنادق والالوف تفتك بالالوف والسيوف تخابط السيوف فالله الله ولا حول ولا قوة الا بالله ، قلت وكأن رؤف باشا خشى عاقبة اخفاء الحقائق فجاء منه الخبر الى أولى الامر مفصلا بما هنالك من اشتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطاعة فسيروا اليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا اليه يقصون فعاله ويتوعدونه بالعقاب الشديد وجعلوا يواصلون ارسال المؤن والذخيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لاقبل له على اطفاء نار هذه الفتنة خلعوه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبد القادر باشا أحد كبار الجند على أيام الخديو اسمعيل فسار الى الخرطوم فى نفر من الاتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا

مطلب
ورفع قونصلا الانجليز والفرنسيس لائحة الى الخديوى

وبينما الناس فى شاغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفعله أصحاب المهدى فى كل يوم من القتل والنهب وسبى النساء والاطفال رفع قونصلا الانجليز والفرنسيس فى حادى عشر جمادى الآخرة الى الخديوى لائحة تتضمن وجوب ايقاف زعماء العصابة ونواب البلاد عند حد عدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والاقلاع عن كل ما من شأنه اثارة الخواطر ووقوع القلاقل والاضطرابات والاوجب التداخل القوى وايقاف كل عند حده فاستقدم الخديوى عند ذلك البارودى وأعطاه تلك اللائحة



فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا مافيها وعدوه عارا وشنارا وجعلوا يوالون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة الى الباب العالى ويسألونه سرعة التداخل فى الامر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب الى الخديوى ويحذره من التكلم فى أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الاذن من أمير المؤمنين* واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد للاجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول الى البارودى وأحمد عرابى فى ذلك فهوّنا عليهم الامر وتكفلا بالامن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للاجانب قلب ولم يسكن لهم جاش ونزح الكثير منهم الى أوطانهم وغير أوطانهم فرارا مما كانوا يتوقعون وكثر اللغط بقرب وصول مراكب حرب الدولتين الى ثغر الاسكندرية تارة وبقيام مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى وقد بلغت الوحشة بين الخديوى والبارودى حدها وتفاقم الشر بين الفريقين • فلما كان أحد الايام أرسل الخديوى أحد رجال ديوانه الى البارودى يقول له تخل عن مسند الرياسة واعتزلها والا أزلناك عنها قهرا وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم فى بيت البارودى وتناجوا فيما بينهم ثم سيروا اليه يقولون اننا لاننزل عن مناصبنا ولو أكرهنا على ذلك واننا نعتبر كل أمر يصدر فى هذا الصدد بمثابة تهديد للامن العام وتكدير لكأس الراحة فاذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الايذاء بالاجانب النازلين بيننا كان الخديوى مسؤلا عن جميع مايحدث دون غيره قيل فكبر هذا الكلام على الخديوى حتى كاد يتميز غيظا فلما كان اليوم الثانى الذى هو خامس عشرى جمادى الآخرة انقطع البارودى وبقية النظار عن الذهاب الى نظاراتهم واجتمع نواب البلاد فى بيت مقدمهم محمد سلطان باشا ولبثوا ساعة يتحدثون فى أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا الى بيت البارودى ولبثوا فيه طويلا وجاءهم أيضا بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والاعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا فى ذلك وأكثر قونصلا الانجليز والفرنسيس الغدو والرواح بين مقر البارودى وسلطان باشا ثم جمع اليه البارودى سائر الوزراء ونواب البلاد وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وأغلقوا عليهم الابواب وأوقفوا الحجاب قال بعض المتقربين اليهم وتكلموا فى خلع الخديوى وتنزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كأن أمره بيدهم أو روحه من عندهم وطال بينهم الجدال وكثر القيل والقال فكانوا اذا أتوا على أمر وهموا بتنفيذه قام من بينهم من يقبحه ويحذرهم عاقبته فيرجعون عنه الى غيره ومازالوا حتى أعياهم الحال وقلت منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الاشغال وترك الامور وشأنها والقاء تبعة جميع مايحدث من الخلل أو مايقع من سفك الدماء والفتك بالاجانب والنزلاء فى قلب البلاد على شخص الخديوى وأرسل البارودى فى الحال فى طلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه بعض النواب فاعلمه بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب الى مقر الخديوى ويعلمه بالخبر وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة عربى نهارا فراجعه محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الاخذ والرد الى الساعة

الرابعة عربى ليلا فقام محمد سلطان باشا وسار الى مقر الخديوى ولبث عنده الى الساعة
السادسة ثم عاد الى بيت البارودى واختلى معه الى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما
من الحديث مالم تصل الينا معرفته الى هذا الحين ثم انصرفوا جميعا وباتوا ليلتهم تلك
وأصبحوا وقد جمع البارودى سائر الوزراء وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وبعض العلماء
والمشايخ والاعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمون فيما وقع عليه الاتفاق بالامس فعلت أصواتهم
وقامت بينهم الضوضاء وتفرقت كلمتهم فارسل البارودى يطلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه
جماعة من نواب البلاد فلم يستقر بهم المقام حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيس وطلبا
من البارودى وأحمد عرابى أن يعطيا لهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتيهما بسوء
والذب عن أرواحهم وأموالهم عند مسيس الحاجة فاجاباهما الى ذلك ثم طفق البارودى
يقص على القونصلين مافعله الخديوى مما يعكس مشروعات الامة ويصغر من قدر نواب
البلاد وماوراء غايته من تعديل حكم المجلس العسكرى وتعضيده لجماعة الضباط الشراكسة
وارساله ثابت باشا الى دار السلطنة لدس الدسائس واذهاب امتيازات البلاد فتكلم
القونصلان مع البارودى وأحمد عرابى ومحمد سلطان باشا طويلا وأخذا على عهدتهما
ازالة مافى الصدور واذهاب ماعلق فى الخواطر وارجاع الحالة الى ما كانت عليه من المودة
والصفاء * وقاما من ساعتهما ودخلا على الخديو وكلماه قيل فشكى اليهما ما يلاقيه من
البارودى وأصحابه فما زالا به حتى هونا عليه وخففا عنه وزال بعض مابه من الغضب

مطلب
اشتداد الازمة بين الخديوى والوزراء وما كان من وراء ذلك

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جمادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولفيف
النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودى وأصحابه فى بيته الكائن بشارع عابدين
وتكلموا فى أمر الصلح وفى رجوع البارودى الى معاطاة أشغال منصبه رحمة بالناس ودفعا
لشماتة الاعداء وظلوا على هذا الحال الى أن صارت الساعة الثانية عربى ليلا فقام محمد
سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا الى الخديوى فى طلب العفو وحسم
أسباب الشقاق فلم يقبل وقال لابد من خلع البارودى من مسند الرياسة فخرج محمد سلطان
باشا ومن معه من النواب وعادوا الى بيت البارودى وأخبروا بما جرى فقال البارودى
نتخلى كلنا عن مناصبنا ونلقى تبعة مايحصل من الاخطار على عاتق الخديوى وطال بينهم
الكلام ساعة ثم عاد النواب الى مقر الخديوى وتقدموا اليه فى قبول تنزيل البارودى فقط
بشرط أن يتولى الرياسة مصطفى باشا فهمى فاجابهم الخديوى الى ذلك فساروا الى مصطفى
فهمى باشا وكلموه فى الامر فامتنع وشدد فى الامتناع وقال لاأتولاها والحال على ماهو عليه
من الشدة والخصام فعادت عند ذلك الامور الى ما كانت عليه بل زادت خبالا واشكالا
وتعطلت الاشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الحيرة وعجز محمد
سلطان باشا أو كاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط فى
الشوارع والحارات وانبث الجند فى أطراف القاهرة وأكثر صاحب شرطة المدينة

من

من التطواف والمراقبة وبقى الحال هكذا الى سابع عشرى جمادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لفيف العلماء والوجهاء وجماعة من الكبراء والاعيان واستوروا ثم سار نفر منهم الى مقر الخديوى بسراى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه الى العفو عما فات وهو لايلتفت الى قولهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاد ينسى مافات وأجابهم الى ماطلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمرون وينهون وطيروا الخبر الى الآفاق بزوال الخلاف وعود الامور الى سابق مجراها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يمض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الإسكندرية مساء الجمعة غرة رجب الفرد مدرعة من مدرعات الحرب الانجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثانيه اثنتان انجليزيتان وثلاث افرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للحصون فردت عليها الحصون السلام وبلغ الخبر بذلك الى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كبيرة فاشتد الخوف بالاجانب ونزح الكثير منهم من الاسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر حضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الاشغال بالاسكندرية * فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان الى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الانجليز والفرنسيس يطلبان فيه أولا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم خروج أحمد عرابى من ديار مصر الى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبه ومرتباته وحفظها عليه وتبعيد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى الى الاقاليم القبلية أو البحرية مع حفظ رتبهم وألقابهم على ماهى عليه فان لم يتم ذلك بالتى هى وجب تنفيذه كرها فاستعظم البارودى مافى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فسأله القونصلان فقال لاشأن للدول الاوروباوية معنا فى مثل هذه الاحوال وانما نحن تابعون لسلطان فاذا شئن فليخابرن سلطاننا وماذلك علينا ببعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتيه سفن حرب الدولتين فيفعل مابدا له فكثر اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قشلاق الحرس الخديوى وكثر تطواف الجند فى الازقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا الى الوساطة بين الفريقين فلم يفلح ولم ينجع له عمل واشتدت الازمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خلعه لنفسه من منصب الرياسة غاية التبعة ونهاية المسؤلية على الخديوى أمام الدول الاجنبية فخلع نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا واحتج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا ورسم اليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فراجعه فأصر على الامتناع ولازم بيته فسار اليه قونصل الانجليز وكلمه فى الامر فلم يقبل فأراه خبرا واردا اليه من صاحب السياسة الانجليزية وترجمته بودنا لو يقبل شريف باشا رياسة الوزراء فتؤكدوا له أننا نعضده ونؤيده بجهد

الاستطاعة فقال لا الكم ولا الكرامة والله ما توليتها وهى على شفا جرف تتجاذبها الاهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طلبه بيك عصمت الى مقر الخديو بسراى عابدين وكانهم يريدون به السوء فرسم الخديو بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والاعيان والوجهاء فكلم الخديو الوزير فى قبوله منصب الرئاسة وألح عليه فى ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والأعيان والوجهاء فقال أتولاها بشرط تنفيذ ما فى لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابى من البلاد فعند ذلك قام طلبه عصمت وقال إنا فى طاعة أولى الامر ولكننا لانقبل ما فى تلك اللائحة ولا حق للدولتين فى طلب ذلك منا اذ هى أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل

مطلب ماجرى لنواب البلاد من أحمد عرابى فى بيت محمد سلطان باشا

وظهرت بعد خروج طلبه من مجلس الخديو حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الاسكندرية بان الجنود المرابطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على دوائهم غير أحمد عرابى وانه ان مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع الى منصبه لايكونون مسؤلين عما يحصل بالاسكندرية فازداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابى فى هذا اليوم على مراكز الجند بمعاقل العباسية وطره وقصر النيل وقلعة الجبل وفى غروب اليوم أرسل الى محمد سلطان باشا فى طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا فى بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابى فى نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابى فوقف فى وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوى وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديو ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقبح ما وقع من الخديو ويعدد مساويه ومعايبه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابى مابالكم لاتسمعون وكأنكم خشب مسندة ان كنتم لاتنادون بخلعه فنحن قد خلعناه قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر فى مجلسهم تلك الليلة الشيخ العراوى مفتى الحقانية فقام ورد على أحمد عرابى وكاد أن يوقفه فتقدم اليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجيته فرقها فصاح الشيخ فى وجهه وصاح بجميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم انه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديو من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشبابيك وعلا الصراخ فى بيت نساء سلطان باشا ظنا منهن بانه مات ذبحا وتراع الاتباع ليروا ماحل بساداتهم والجند تدفعهم عن الأبواب ومازالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح الى نحو الساعة السادسة ليلا نخرج أحمد عرابى ومن معه وهم يرعدون ويزبدون

كان

كأن بهم مساحين الجن وعلم الخديو بما جرى فى بيت محمد سلطان باشا فى تلك الليلة فارسل الى الباب العالى وديوان المابين الهمايونى يقول ان الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وان مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى اليه الجواب بأن قد رسم خلافة الخليفة أمير المؤمنين بارسال وفد ليرى فى الامر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديو بدا من استبقاء الوزراء فى مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتى وفد السلطان فعاد أحمد عرابى الى تعاطى الاشغال وكتب الى سائر قناصل الدول يطمئنهم و يضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والأجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضا ولم تطلب العصابة الوطنية ونواب البلاد الا أمورا ثلاثة • الاول منها اهانة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب • وثانيها وضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء • وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتى الانجليز والفرنسيس خصوصا وسائر الدول عموما الا بواسطة دائرة السلطنة العثمانية • وبلغ هذا الكلام الدول فاكبرته وأعظمته جدا وكتبت دولة الانجليز الى قونصلها بمصر تقول انها لا تألو جهدا فى الذب عن مقام الخديو والدفاع عن نفوذه ما استطاعت

مطلب فى قدوم المشير درويش باشا

فلما كان عشرون من رجب دخل مينا الاسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل فى سراى راس التين برهة لطيفة ثم ركب منها الى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر الى القاهرة فكان فى انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الاصطبل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الشرطة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد وباب البحر والاطراف وتراجعوا أمام الجند وهم يضجون ويصيحون ببذىء القول وفحش الكلام وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون باصوات مزعجة نصر الله دين الاسلام أهلك الله دين الكفار أتاكم الموت يا كفار أتاكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السباب واللعن واشارات السخرية والاستهزاء • قيل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك فقالوا له هذه علامة التامة اذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار بصرفهم فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض وايذاء المارة من الاجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير الى المكان الذى أعد له فوقفوا أمام بابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى شاغل مما عساه ان يحدث بسبب حضور درويش باشا واقامته على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكالمة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلا وكانوا اذا أغلظوا فى القول

مع أحمد عرابى وعابوا ماوقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودى قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وما هى الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع فى جوف البلاد ولله الحمد مايكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أياما على غير جدوى

وكان منذ قدمت سفن حرب الدولتين الى مدينة الاسكندرية قد أخذ الاجانب يغدون عليها أفواجا أفواجا وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لايخشون بجوارها جارا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الاسكندرية وحسبوه اهانة لهم واذلالا وظنوا ان الاجانب انما يريدون باهل البلاد الشر فاظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الاجانب فكان اذا كلم الواحد منهم أجنبيا هز له الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الاجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماؤهم بعض الاقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان ❊ قيل وشاوروا فى ذلك أميرى مراكب حرب الانجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وارسلوا رجلا منهم الى القناصل بالقاهرة ليسألهم فى ذلك أيضا فلم يوافقوا عليه واشتد تحذر الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الاجانب فى الليل وامتنع جلوسهم فى محلات اللهو واغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية ❊ فلما كان يوم الاحد

مطلب
حصول المقتلة التى عرفت بمقتلة حادى عشر جونيو وما كان من وراء ذلك

سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيو سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الاجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الاسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع ابراهيم وبايديهم العصىّ والهراوى والمساوق وحطب الوقود وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكأنهم كانوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالاجانب ضربا وقتلا فتراجع الناس الى الحوانيت والبيوت وتسابق الاجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا اذا رأوا أجنبيا تراموا خلفه ونزلوا بالعصى والهراوى على أم رأسه حتى يسقط ميتا فيأخذون مامعه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أفحشوا فى القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب مافيها فكثر الصياح من أقصى المدينة الى أقصاها واشتد البكاء والعويل وضاقت الارض فى وجه الاجانب ولجأ بعضهم الى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظة بسنابك البنادق فقتلوهم عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطافت الغوغاء جميع حارات الاجانب فكان اذا رأى الاجنبى نفرا من هؤلاء الاخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه فى الحال وتخاذلت قدماه فاذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماه فيعدو عدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصىّ والنبابيت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات فى ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الاجانب ووجهائهم ❊ وكان مقدم جند الاسكندرية يومئذ سليمان بيك داود فأرسل

اليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة فى طلب المدد من الجند ليستعين بهم على ايقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض فى ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فارسل سليمان بيك يقول لادخل لى فى شئ من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الاخبار الى القاهرة عما وقع فورد الامر من أحمد عرابى بقيام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع واخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت الى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وتمزقت الجموع وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر بجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرقات وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلثمائة قتيل وقيل غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس الى تعاطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الابناء على آبائهم متتابع فكانت حادثة بالها من حادثة لم يسبق لها مثيل الا فى دولة المماليك الثانية وقيام العامة على نابليون بالقاهرة ♦ ولما علم من بمصر والقاهرة بما وقع بالاسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابق كل من له أهل أو ولد بالاسكندرية الى موارد الاخبار يسألون وعم الخوف والاضطراب وباتوا وهم فى كد ملازم وأصبحوا وقد اجتمع سائر قناصل الدول ودخلوا على المشير درويش باشا وكلموه فى الامر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه باضرام نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسؤل عن كل ماجرى اذ لولا حضورك فى هذه الظروف ماأريقت هذه الدماء الزكية ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صيانة أرواح جميع الاجانب الذين فى داخل البلاد فاضطرب المشير وأشار بعقد مجلس فى سراى عابدين للمداولة فى الأمر فعقدوه وحضر فيه الخديو ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكبار رجال الحكومة وسائر قناصل الدول فتقررت القاعدة بينهم بعد أخذ ورد على التكفل لقناصل الدول بحفظ أرواح وأموال سائر الاجانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقيامه بتنفيذ كل ما يصدر اليه متعلقا بالامن فاجابهم أحمد عرابى الى ذلك وتكفل لهم درويش باشا بجميع ماطلبوه وبملاحظة طاعة الخديو والقيام بجميع أوامره فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وقام أحمد عرابى من فوره وأرسل الى سائر المديرين والمحافظين بمنع اجتماعات الجند أينما كانوا وكتب الى سليمان بيك داود مقدم جند الاسكندرية يحثه الى الالتفات ومنع وقوع شئ من الحوادث والقلاقل وبذل العناية فى ملازمة جند الاسكندرية لحدود الطاعة والامتثال

ورسم الخديو بتحقيق أسباب هذه المذبحة ومحاكمة كل من كان له يد فيها وشكل لذلك مجلس مخصوص برأسه عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كثر فى هذا الحين رحيل الاجانب عن الاسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عشرات ومئات الى السواحل طلبا للفرار والنجاة وكثر تواردهم حتى لم يبق منهم أحد فى المدن والقرى ونزح أيضا العدد العديد ممن كان منهم بالقاهرة وقام



الخديو الى الاسكندرية فى سادس عشرى رجب ومعه درويش باشا ورجال ديوانه الخاص فلما نزل بقصره برأس التين استدعى اليه قناصل الدول وحادثهم فى أمر الفتنة وطيب نفوسهم وكلمهم كذلك درويش باشا وعتب عليهم وبقى قونصلا الانجليز والفرنسيس بالقاهرة ولم يحضرا مع الخديو الى الاسكندرية الا باجازة من حكومتيهما بعد أيام فلما قدما الى الاسكندرية أوعزا الى سائر قناصل الدول بالتشديد على رعاياهم بالجلاء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالناس ونزل من بقى من الاجانب الى السفن الراسية أمام الاسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها بجاليتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع

حدثنى صاحب لى كان لا يفارق باب الخديو فى هذه الايام قال دخل المراقب الانجليزى يوما على الخديو وقال له هل يمكن الاعتماد على ما يقوله للمشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى فى الخدمة عند مسيس الحاجة قال فتأفف الخديو وقال أنى يكون لنا ذلك ولم نر منهم الى الآن الا العسف على انى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف الا باستنجاد أمير المؤمنين فيرسل الينا فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند مسيس الحاجة ولم أر فى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيا وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيأ مذكورا ● وبلغت هذه الاقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا الى الخديو فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تفلح فى تدارك الخطر قبل استفحاله فاجابهم الى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه ● ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة اسمعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فاستغرب الناس هذا الامر وكثر تحدثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم الى الخديو فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الاخيرة الا من كان لهم يد فى مذبحة الاسكندرية وقال للخديو انما نريد بذلك تطييب القلوب المتنافرة فيعود الامن وتزول المخاوف وترجع الاحوال الى سابق مجراها فاجابه الخديو الى ذلك ثم جعل راغب باشا يشتد فى تحقيق حادثة الاسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى انحاء البلاد فجاؤا بالكثير من السوقة والغوغاء والحمالين والشيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة فاسرهم فالقوهم فى حبوس الاسكندرية حتى غصت بهم وضاقت وجعل الخديو يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها تطمينا للقلوب وتسكينا للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء الاجانب عن البلاد متتابعا

مطلب
تشكيل وزارة اسمعيل راغب باشا وماجرى بعدذلك

وتقدمت الدول الاوروباوية على يد سفرائها الى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار

السلطنة للبحث فى أنجع الادوية الحاسمة لاسباب الفتنة بديار مصر وايقاف أصحابها عند حدهم وشددوا على الباب العالى فى طلب ذلك فامتنع وقال ليس فى الامر شئ مما تخافون والانباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الامن ورجوع سائر الامور الى سابق مجراها فأبى كبار سياسة الانجليز الا عقد ذلك المؤتمر والباب العالى يماطل ويحاول ثم استعان بدول الروسيا والمانيا وايطاليا فاعانوه وقاموا لنصرته خوفا من مطامع الانجليز فى مصر فآنست دولة الانجليز منهم ذلك وكتبت تقول انها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر مع سائر الدول أن لا تعمل قط على فصم عرى الصداقة التى بينها وبين الباب العالى ولا تعمل على ضم شئ من أراضيه الى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط فى الحصول على شئ من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها فى ذلك بقية الدول فانحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالى فأصر على الامتناع فلم تلتفت اليه الدول وعقدت المؤتمر فى قسطنطينية فى سابع شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين فلم يحضره أحد من جانب الباب العالى فتقررت القاعدة بينهم على ان الحكومات التى وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا السجل وتوكول (يعنى المحضر السامى) تتعهد أنها لا تقصد قط اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات ما لا يكون لغيرها من رعايا الدول الاخرى فى مصر وذلك فى جميع المسائل التى حصل التوافق عليها بينها واشتراكها فى المخابرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة ● وجعل الانجليز من هذا اليوم يمتنون المعدات ويجهزون الجنود ويحملون سفن حربهم على قدم الاستعداد ثم دعوا بقية الدول الى الاشتراك معهم فى عمل يكون من ورائه إرهاب أصحاب الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أوانهم يسيرون معا الى الاسكندرية فريقا من الجنود والعساكر لارجاع الأمن والراحة الى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك ولكنها تغافلت لاسباب لم تصل اليها معرفتنا لغاية الآن ● فلما رأت منهن هذا الاحجام أوعزت الى قونسلها بمصر وهو المستر مالت فتمارض ونزل الى احدى سفن الحرب الانجليزية الراسية أمام الاسكندرية ولبث بها أياما والناس يتساءلون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر بذهابه الى برندزى احدى موانى البحر الابيض فدهشت الناس به كثيرا وأخذتهم الحيرة وقالوا ان قيامه فى هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق المدافع على حصون الاسكندرية ● وبينما كان مالت قونصل جنرال الانجليز بعيدا عن مقره ومقيمته منزويا فى برندزى كأنه لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير الانجليز فى دار السلطنة يغرر بالباب العالى ويزين لرجال المابين استرضاء أحمد عرابى باهدائه شيأ من نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فاحسن السلطان على أحمد عرابى بالنيشان المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك الى القاهرة ففرح أحمد عرابى وأصحابه وظنوا أن ذلك من دلائل رضاء السلطان وارتياحه الى ما هم عليه من مخالفة الخديو والدولتين ولم يعلموا ما فى ذلك من

الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الانعام وفصلوا فيه وقاسوا وخاطوا فنقل أصحاب الصحف الانجليزية ونادوا بالويل والثبور وقالوا انه لبرهان جديد على عداء السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعن كبار سياستهم على احباط اعمال المؤتمر الدولى وتقدموا الى بقية الدول فى رفع لائحة الى الباب العالى يطلبون فيها إما أن يسير جنوده الى مصر لاخماد نار الفتنة وارجاع الامور الى سابق مجراها وإما أن يترك الدول ترى رأيها فى ذلك فامتنع الباب العالى وقال لا داعى لارسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الانجليز امتناعه ووافق مافى نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان الى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا فى الحال الى أمير سفن حربهم الراسية أمام الاسكندرية أن ينتحل أقل العلل والاسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون الاسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابى قد قدم من القاهرة الى الاسكندرية فى حاشيته وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المقربين اليه فاستقروا بالترسخانة وكان فى حصون الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن الى أحمد عرابى يقول ان الجنود المصرية آخذة فى تحصين سائر القلاع والقاء الاحجار الكبيرة فى مدخل المينا ليسدوه ويمنعوا المدد فيحصر الاسطول وان فى تحصين الحصون وتقوية الاستحكامات مع وقوف سفن دولة الانجليز أمامها عارا وتحقيرا فان لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعى وأصليتها نارا حامية * وكان طلبه عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولى أمر ذلك فكتب الى أمير السفن يقول ليس فى الأمر شئ مما تقول وان حصوننا وقلاعنا هى فى حالة لاتستدعى عملا ما فعاود سيمور الكلام وأغلظ فى القول وقال لا بد من جلاء العساكر المصرية عن طابيتى الانفوشى والبرج واحتلال الجنود الانجليزية لهما فلم يجبه طلبة الى ذلك أيضا فجعل سيمور يهدد عساكر الحصون ليلا بأنوار الكهرباء التى كانت تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف الابصار وتهتز لها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الاسكندرية الى القرى والارياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابى فى الشوارع والطرقات وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق وأرسل سيمور الى الخديو على يدى كولفن مراقب الانجليز يقول له اترك المدينة وانزل الى احدى السفن كى لا يصيبك شئ مما عسى أن يحصل بأسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل وقال عار علىّ أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياى المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال لا يحسن لى أن أتركهم فى وقت الشدة ولا يجمل أن أترك بلادى فى ساعة الضيق * وتداخل قناصل الدول فى الامر وسعوا فى الصلح بين سيمور العصر وعرابى البرفلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهم فى كل يوم بطلب جديد فاذا امتنع أحمد عرابى من تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابى محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء والفجور وقال عن سيمور انه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها وانه أهان المصريين

واحتقرهم

واحتقرهم ولم يراع للهيئة الحاكمة حرمة ولا اعتبارا ولذلك وجبت مقاومته بجهد الاستطاعة وانه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد الى أحمد عرابى ومن معه من كبار الجند المصرى ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قبل ودخلوا بها على الخديو أيضا فلم ير بدا من التوقيع عليها ثم أرسلوا هذه الورقة الى سيمور البحر وسير فى الحال أحمد عرابى الى سائر المديرين والمحافظين يعلمهم بان يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لارسال المدد من المال والرجال عند الطلب وأكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخرة ومعدات الحرب فلما كان يوم الاحد ثانى عشرى شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديو بقصره برأس التين وقال ان الامير على عزم اطلاق المدافع على الحصون فى صبح الثلاثاء رابع عشرى الشهر وقد جئت أسألكم أن تنتقلوا من سراى راس التين الى سراى الرمل تحرزا مما عساه أن يحصل من رمى القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناوله خطابا يقول فيه * انك أنت المطالب بحياة الخديو وعليك تبعة جميع مايحصل لشخصه فاحذر العاقبة والسلام * وفى صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل الى راغب باشا رئيس الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكاتبة يقول فيها * حينئذ انسحب قونصلنا من الديار المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التى كانت بين حكومة جلالة ملكة الانجليز والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان * فلما شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الارتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام الاسكندرية واشتد الهرج والمرج فى الشوارع والطرقات وأغلق فى ذلك اليوم مابقى من حوانيت الاجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة الى بابى رشيد وسدره فارين الى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيس فى مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيس فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تساؤل الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل ان خروجها كان لخلاف وقع بين أميرى الاسطولين ومن قائل بل بين الدولتين ومن قائل لكره الفرنسيس اقتال المصريين وغير ذلك من الحدس والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيس هذا الأمر وعدوه فلتة من فلتات سياستهم المعروفة بالطيش والخفة وقالوا سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيس على ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذرهم وامتناعهم من الخروج من دورهم فى الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية

مطلب
اطلاق سفن سيمور
مدافعها على قلاع
وحصون الاسكندرية

ولما كانت الساعة الاولى من يوم الثلاثاء رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية أى صباح الحادى عشر من يوليو سنة اثنين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية صوب سيمور أفواه مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل اطلاقا متتابعا

فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمى من الفريقين ووصلت قنابل السفن الى القلاع والحصون والبيوت وضواحى المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا فلما اشتد الرمى وكانت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الاطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان اذا هم الجندى بتصويب مدافعه نحو سفن الانجليز هللوا وصاحوا ونادوا ياأهل بيت رسول الله • يامتبولى يا أباصيرى • ياسيدى ياقوت ياعرشى • وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الاشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطئ البحر بناحية السيالة وصاروا يضجون باعلى أصواتهم بياالطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم احدى تلك السفن شيأ من القنابل الصغيرة تباعا ففرقتهم وأهلكتهم عن آخرهم الا من كان بعيدا واشتد الرمى من السفن وتراسل فاتصلت نيران احدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطه فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والتصقت لحومهم وما بقى من عظامهم بجدران القلعة فكان لها منظر تتفطر من رؤيته القلوب وتتفتت من هوله الاكباد ومازال الرمى متراسلا من السفن والحصون وأحمد عرابى لايخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشئ مما هو جار فى غيرها من بقية القلاع قيل وكان لاهم له فى ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الاوراد وتحريك أصبعيه على مسبحة كانت بيده • وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد تخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمى القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالابل الآبقة فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكتت أصواتها وظهر على ما بقى من القلاع رايات بيضاء اشارة الى الكف وطلب الامان فانكفت السفن عن الرمى وخرج حينئذ أحمد عرابى من مخبئه وسار الى مقر الخديو بسراى الرمل فسأله الخديو عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوة الا بالله فلم يبق فى قدرتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن • فلما سمع الخديو هذا الكلام كبر عليه الامر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا واسمعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد اسمعيل باشا وفريديكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم اليه وعقد فى الحال مجلسا منهم وكلمهم فى الامر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبه بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا الى سيمور أمير السفن ليخابره فى الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديو بان سيمور يطلب ان تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة والا فانه

يعاود

يعاود الرمى بالقنابل بعيد الظهر قال فسألته مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فامر الخديو عند ذلك بالمجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لايسمح قط للخديوية المصرية الترخيص فى نزول جنود أجنبيـة فى قلاعها ولاحصونها بغير اذن من الباب العالى وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه الى سيمور السفن

مطلب جلاء الجند والناس عن الاسكندرية وماحصل بالنساء والاطفال من جراء ذلك

وأخذ من بقى من جند القلاع والحصون فى الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا مافيها من جثث الاموات والذخيرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقيـة العساكر من معاقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد الى ناحية الملاحة وبحيـر النواتيـة وتتابعوا فى الخروج الليـل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقـدم جند الاسكندرية ورسم الى بعض الفرسان بالنداء فى الناس بالخروج من المدينة عاجـلا ومن تخلف حـل به مايكره فكثر النـداء فى الحارات والشوارع وهب الناس من نومهـم وكأن على رؤسهم الطـير وخرجوا هائمين وهـم حفاة حاسرو الرؤس • فكانت الاطفال تبكى وتصيح والامهات يولولن والرجال تتسابق وتتزاحم وهم فى دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لايحملن من متاعهن سوى المآزر وما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثونهن الى الخروج من الباب الجـديد وينادون عليهـن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس الا وقد غصت رحبات الباب الجـديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والاطفال وهم فى أسوإ حال وكـثر الزحام واختلط الناس بعضـهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا اليـه وانتشر العربان حول تلك الاطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت اليه أيديهم فعـلا عند ذلك الصياح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهن بالرجوع الى المدينة على مافيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكن اذ بانت طلائع زمر الاخـلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والميـدان والسكة الجـديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات والفاخر الملبوسات وأثمن الجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينـة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجل عن الحصر وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين وأكثرهم ملطخ بالدم • وكان لما أخذ الناس فى الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهـم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تطاولت أيدى العامة الى سرقة بعض الشئ من ذلك ولم تكد تصـل اليـه أيدى البعض الآخر حتى برز سليمان بيك داود فى ميدان محمد على قبـل ونادى فى الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها واضرام النار فى المدينـة حتى تصـير رمادا وأكثر من النـداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرائر والمقصبات وأصناف الاقمشة الغالية والمجوهرات والمصوغات وكل ماوصلت اليه أيديهم وكان الرجل منهم اذا حمل شيأ من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله

الاستطاعة فقال لا لكم ولا لكرامة والله ما توليتها وهى على شفا جرف تتجاذبها الاهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طلبه بك عصمت الى مقر الخديو بسراى عابدين وكانهم يريدون به السوء فرسم الخديو بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والاعيان والوجهاء فكلم الخديو الوزير فى قبوله منصب الرئاسة وألح عليه فى ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والأعيان والوجهاء فقال أتولاها بشرط تنفيذ ما فى لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابى من البلاد فعند ذلك قام طلبه عصمت وقال إنا فى طاعة أولى الامر ولكننا لانقبل ما فى تلك اللائحة ولا حق للدولتين فى طلب ذلك منا اذ هى أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل

مطلب ماجرى لنواب البلاد من أحمد عرابى فى بيت محمد سلطان باشا

وظهرت بعد خروج طلبه من مجلس الخديو حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الاسكندرية بان الجنود المرابطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير أحمد عرابى وانه ان مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع الى منصبه لايكونون مسؤلين عما يحصل بالاسكندرية فازداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابى فى هذا اليوم على مراكز الجند بمعاقل العباسية وطره وقصر النيل وقلعة الجبل وفى غروب اليوم أرسل الى محمد سلطان باشا فى طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا فى بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابى فى نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابى فوقف فى وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوى وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديو ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقبح ما وقع من الخديو ويعدد مساويه ومعايبه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فلما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابى مابالكم لاتسمعون وكأنكم خشب مسندة ان كنتم لاتنادون بخلعه فنحن قد خلعناه قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر فى مجلسهم تلك الليلة الشيخ الصراوى مفتى الحقانية فقام ورد على أحمد عرابى وكاد أن يوقفه فتقدم اليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجيته فمزقها فصاح الشيخ فى وجهه وصاح بجميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم انه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديو من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشبابيك وعلا الصراخ فى بيت نساء سلطان باشا ظنا منهن بانه مات ذبحا وتزاحم الاتباع ليروا ماحل بساداتهم والجند تدفعهم عن الأبواب ومازالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح الى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابى ومن معه وهم يرعدون ويزبدون

كان

كأن بهم مسا من الجن وعلم الخديو بما جرى فى بيت محمد سلطان باشا فى تلك الليلة فارسل الى الباب العالى وديوان المابين الهمايونى يقول ان الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وان مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى اليه الجواب بأن قد رسم خلالة الخليفة أمير المؤمنين بارسال وفد ليرى فى الامر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديو بدا من استبقاء الوزراء فى مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتى وفد السلطان فعاد أحمد عرابى الى تعاطى الاشغال وكتب الى سائر قناصل الدول يطمنهم ويضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والأجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضا ولم تطلب العصابة الوطنية ونواب البلاد الا أمورا ثلاثة • الاول منها اعادة لائحة الدولتين كما حدث مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب • وثانيها وضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء • وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتى الانجليز والفرنسيس خصوصا وسائر الدول عموما الا بواسطة دار السلطنة العثمانية • وبلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتبت دولة الانجليز الى قونصلها بمصر تقول انها لا تألو جهدا فى الذب عن مقام الخديو والدفاع عن نفوذه ما استطاعت

مطلب قدوم المشير درويش باشا

فلما كان عشرون من رجب دخل مينا الاسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل فى سراى راس التين برهة لطيفة ثم ركب منها الى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر الى القاهرة فكان فى انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الاصطبل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الشرطة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد وباب البحر والاطراف وتراعوا أمام الجند وهم يضجون ويصيحون ببذىء القول ونفش الكلام وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون باصوات مزعجة نصر الله دين الاسلام أهلك الله دين الكفار أتاكم الموت يا كفار أتاكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السباب واللعن واشارات السخرية والاستهزاء • قيل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك فقالوا له هذه عادة العامة اذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار بصرفهم فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض وايذاء المارة من الاجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير الى المكان الذى أعد له فوقفوا أمام بابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى شاغل مما عساه ان يحدث بسبب حضور درويش باشا واقبائه على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكالمة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلا وكانوا اذا أغلظوا فى القول

مع أحمد عرابى وعابوا ماوقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودى قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وما هى الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع فى جوف البلاد وقد الجد مايكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أياما على غير جدوى

وكان مذ قدمت سفن حرب الدولتين الى مدينة الاسكندرية قد أخذ الاجانب يفدون عليها أفواجا أفواجا وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لايخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الاسكندرية وحسبوه اهانة لهم واذلالا وظنوا ان الاجانب انما يريدون بأهل البلاد الشر فاظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الاجانب فكان اذا كلم الواحد منهم أجنبيا هزله الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الاجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستقدم عظماؤهم بعض الاقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان * قيل وشاوروا فى ذلك أميرى مراكب حرب الانجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وارسلوا رجلا منهم الى القناصل بالقاهرة ليسألهم فى ذلك أيضا فلم يوافقوا عليه واشتد تحذر الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الاجانب فى الليل وامتنع جلوسهم فى محلات اللهو واغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة الغاية * فلما كان يوم الاحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيو سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الاجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الاسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع ابراهيم وبايديهم العصى والهراوى والمساوق وحطب الوقود وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكأنهم كانوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالاجانب ضربا وقتلا فتراجع الناس الى الحوانيت والبيوت وتسابق الاجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا اذا رأوا أجنبيا تراجعوا خلفه ونزلوا بالعصى والهراوى على أم رأسه حتى يسقط ميتا فيأخذون مامعه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أخشوا فى القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب مافيها فكثر الصياح من أقصى المدينة الى أقصاها واشتد البكاء والعويل وضاقت الارض فى وجه الاجانب ولجأ بعضهم الى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظة بسنابك البنادق فقتلوهم عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطافت الغوغاء جميع حارات الاجانب فكان اذا رأى الاجنبى نفرا من هؤلاء الاخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه فى الحال وتخاذلت قدماه فاذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماه فيعدو عدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصى والنبابيت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات فى ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الاجانب ووجهائهم * وكان مقدم جند الاسكندرية يومئذ سليمان بيك داود فأرسل

مطلب
حصول المقتلة التى عرفت بمقتلة حادى عشر جونيو وما كان من وراء ذلك

اليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة فى طلب المدد من الجند ليستعين بهم على ايقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض فى ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فارسل سليمان بيك يقول لا دخل لى فى شئ من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الاخبار الى القاهرة بما وقع فورد الامر من أحمد عرابى بقيام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع واخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت الى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وتعزقت الاوم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر بجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرقات وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلثمائة قتيل وقيل غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس الى تعاطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الابناء على آبائهم متتابع فكانت حادثة بالها من حادثة لم يسبق لها مثيل الا فى دولة المماليك الثانية وقيام العامة على نابليون بالقاهرة ❁ ولما علم من بمصر والقاهرة بما وقع بالاسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابق كل من له أهل أو ولد بالاسكندرية الى موارد الاخبار يسألون وعم الخوف والاضطراب وباتوا وهم فى كد ملازم وأصبحوا وقد اجتمع سائر قناصل الدول ودخلوا على المشير درويش باشا وكلموه فى الامر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه باضرام نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسؤل عن كل ماجرى اذ لولا حضورك فى هذه الظروف ماأريقت هذه الدماء الزكية ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صيانة أرواح جميع الاجانب الذين فى داخل البلاد قبل فاضطرب المشير وأشار بعقد مجلس فى سراى عابدين للمداولة فى الأمر فعقدوه وحضر فيه الخديو ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكبار رجال الحكومة وسائر قناصل الدول فتقررت القاعدة بينهم بعد أخذ ورد على التكفل لقناصل الدول بحفظ أرواح وأموال سائر الاجانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقيامه بتنفيذ كل ما يصدر اليه متعلقا بالامن فاجابهم أحمد عرابى الى ذلك وتكفل لهم درويش باشا بجميع ماطلبوه وبملاحظة طاعة الخديو والقيام بجميع أوامره فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وقام أحمد عرابى من فوره وأرسل الى سائر المديرين والحافظين بمنع اجتماعات الجند أينما كانوا وكتب الى سليمان بيك داود مقدم جند الاسكندرية يحثه الى الالتفات ومنع وقوع شئ من الحوادث والقلاقل وبذل العناية فى ملازمة جند الاسكندرية لحدود الطاعة والامتثال

ورسم الخديو بتحقيق أسباب هذه المذبحة ومحاكمة كل من كان له يد فيها وشكل لذلك مجلس مخصوص رأسه عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كثر فى هذا الحين رحيل الاجانب عن الاسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عشرات ومئات الى السواحل طلبا للفرار والنجاة وكثر توارد هم حتى لم يبق منهم أحد فى المدن والقرى ونزح أيضا العدد العديد ممن كان منهم بالقاهرة وقام

الخديو الى الإسكندرية فى سادس عشرى رجب ومعه درويش باشا ورجال ديوانه الخاص فلما نزل بقصره برأس التين استدعى اليه قناصل الدول وحادثهم فى أمر الفتنة وطيب نفوسهم وكلمهم كذلك درويش باشا وهوّن عليهم وبقى قونصلا الانجليز والفرنسيس بالقاهرة ولم يحضرا مع الخديو الى الاسكندرية الا باجازة من حكومتيهما بعد أيام فلما قدما الى الاسكندرية أوعزا الى سائر قناصل الدول بالتشديد على رعاياهم بالجلاء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالناس ونزل من بقى من الاجانب الى السفن الراسية أمام الاسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها فجاءتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع

حدثنى صاحب لى كان لا يفارق باب الخديو فى هذه الايام قال دخل المراقب الانجليزى يوما على الخديو وقال له هل يمكن الاعتماد على ما يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى فى الخدمة عند مسيس الحاجة قال فتأفف الخديو وقال أنى يكون لنا ذلك ولم نر منهم الى الآن الا العسف على انى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف الا باستنجاد أمير المؤمنين فيرسل الينا فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند مسيس الحاجة ولم أر فى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيا وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيأ مذكورا • وشاعت هذه الاقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا الى الخديو فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تفلح فى تدارك الخطر قبل استفحاله فاجابهم الى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه * ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة اسمعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فاستغرب الناس هذا الامر وكثر تحدثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم الى الخديو فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الاخيرة الا من كان لهم يد فى مذبحة الاسكندرية وقال للخديو انما نريد بذلك تطييب القلوب المتنافرة فيعود الامن وتزول المخاوف وترجع الاحوال الى سابق مجراها فاجابه الخديو الى ذلك ثم جعل راغب باشا يشتد فى تحقيق حادثة الاسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى انحاء البلاد فجاؤا بالكثير من السوقة والغوغاء والحمالين والشيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة فاسرهم فالقوهم فى حبوس الاسكندرية حتى غصت بهم وضاقت وجعل الخديو يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها تطمينا للقلوب وتسكينا للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء الاجانب عن البلاد متتابعا

مطلب
تشكيل وزارة اسمعيل راغب باشا وماجرى بعد ذلك

وتقدمت الدول الاوروباوية على يد سفرائها الى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار

السلطنة البحث فى أنجع الادوية الحاسمة لاسباب الفتنة بديار مصر وايقاف أصحابها عند حدهم وشددوا على الباب العالى فى طلب ذلك فامتنع وقال ليس فى الامر شئ مما تخافون والانباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الامن ورجوع سائر الامور الى سابق مجراها فلى كثر سياسة الانجليز الا عقد ذلك المؤتمر والباب العالى يماطل ويحاول ثم استعان بدول الروسيا والمانيا وايطاليا فاعانوه وقاموا لنصرته خوفا من مطامع الانجليز فى مصر فلما نست دولة الانجليز منهم ذلك وكتبت تقول انها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر مع سائر الدول أن لا تعمل قط على فصم عرى الصداقة التى بينها وبين الباب العالى ولا تعمل على ضم شئ من أراضيه الى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط فى الحصول على شئ من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها فى ذلك بقية الدول فانحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالى فأصر على الامتناع فلم تلتفت اليه الدول وعقدت المؤتمر فى قسطنطينية فى سابع شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين فلم يحضره أحد من جانب الباب العالى فتقررت القاعدة بينهم على ان الحكومات التى وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا السجل وتوكول (يعنى المحضر السياسى) تتعهد أنها لاتقصد قط لاغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات مالا يكون لغيرها من رعايا الدول الاخرى فى مصر وذلك فى جميع المسائل التى حصل التوافق عليها بينها واشتراكها فى المخابرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة • وجعل الانجليز من هذا اليوم يمدون المعدات ويجهزون الجنود ويعدون سفن حربهم على قدم الاستعداد ثم دعوا بقية الدول الى الاشتراك معهم فى عمل يكون من ورائه ارهاب أصحاب الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أوانهم يسيرون معا الى الاسكندرية فريقا من الجنود والعساكر لارجاع الأمن والراحة الى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك ولكنها تغافلت لاسباب لم تصل اليها معرفتنا لغاية الآن • فلما رأت منهن هذا الاحجام أوعزت الى قونسلها بمصر وهو المستر مالت فمارض ونزل الى احدى سفن الحرب الانجليزية الراسية أمام الاسكندرية ولبث بها أياما والناس يتساءلون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر بقيامه الى برندزى احدى موانى البحر الابيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الحيرة وقالوا ان قيامه فى هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة اشهار الحرب على البلاد واطلاق المدافع على حصون الاسكندرية • وبينما كان مالت قونسل جنرال الانجليز بعيدا عن مقره وطيفته منزويا فى برندزى كأن لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير الانجليز فى دار السلطنة يغرر بالباب العالى ويزين لرجال المابين استرضاء أحمد عرابى باهدائه شيأ من نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فأحسن السلطان على أحمد عرابى بالنيشان المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك الى القاهرة ففرح أحمد عرابى وأصحابه وظنوا أن ذلك من دلائل رضاء السلطان وارتياحه الى ما هم عليه من مخالفة الخديو والدولتين ولم يعلموا ما فى ذلك من

الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الانعام وفصلوا فيه وقاسوا وخاطوا فتقـول أصحاب الصحف الانجليزية ونادوا بالويل والثبور وقالوا انه لبرهان جديد على عداء السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعن كبار سياستهم على احباط اعمال المؤتمر الدولى وتقدموا الى بقية الدول فى رفع لائحة الى الباب العـالى يطلبون فيها إما أن يسير جنوده الى مصر لاخماد نار الفتنة وارجاع الامور الى ساق مجراها وإما أن يترك الدول ترى رأيها فى ذلك فامتنع الباب العالى وقال لا داعى لارسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الانجليز امتناعه ووافق مافى نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان الى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعـزوا فى الحال الى أمير سفن حربهم الراسية أمام الاسكندرية أن ينتحل أقل العلل والاسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون الاسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابى قد قدم من القاهرة الى الاسكندرية فى حاشيته وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المقربين اليه فاستقروا بالترسخانة وكان فى حصون الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن الى أحمد عرابى يقول ان الجنود المصرية آخـذة فى تحصين سائر القـلاع والقاء الاحجار الكبيرة فى مدخـل المينا ليسدوه ويمنعوا المـدد فيحصر الاسطول وان فى تحصـين الحصون وتقـوية الاستحكامات مع وقـوف سفن دولة الانجلـيز أمامها عارا وتحقيرا فان لم تكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعى وأصليتها نارا حامية ٭ وكان طلبه عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولى أمر ذلك فكتب الى أمير السفن يقول ليس فى الأمر شئ مما تقول وان حصوننا وقلاعنا هى فى حالة لاتستدعى عمـلا ما فعاود سيمور الكلام وأغلـظ فى القول وقال لا بد من جلاء العساكر المصرية عن طابيتى الانفوشى والبرج واحتلال الجنود الانجليزية لهما فلم يجبه طلبة الى ذلك أيضا فجعـل سيمور يهـدد عساكر الحصون ليـلا بانوار الكهرباء التى كانت تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف الابصار وتهتز لها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشـتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الاسكندرية الى القرى والارياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابى فى الشوارع والطرقات وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق وأرسـل سيمور الى الخديو على يدى كولفن مراقب الانجليـز يقول له اترك المدينة وانزل الى احدى السفن كى لا يصيبك شئ مما عسى أن يحصل باسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل وقال عار علىّ أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياى المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال لا يحـل لى أن أترككم فى وقت الشـدة ولا يجمل أن أترك بلادى فى ساعة الضيق ٭ وتداخل قناصل الدول فى الامر وسعوا فى الصلح بين سيمور البحر وعرابى البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهـم فى كل يوم بطلب جـديد فاذا امتنع أحمـد عرابى من تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابى محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعـداء والفجور وقال عن سـيمور انه مثال الظـلم والعـداء للبـلاد وأهلها وانه أهان المصريين

واحتقرهم ولم يراع للهيئة الحاكمة حرمة ولا اعتبارا ولذلك وجبت مقاومته جهد الاستطاعة وانه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد الى أحمد عرابى ومن معه من كبار الجند المصرى ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قبل ودخلوا بها على الخديو أيضا فلم ير بدا من التوقيع عليها ثم أرسلوا هذه الورقة الى سيمور البحر وسير فى الحال أحمد عرابى الى سائر المديرين والمحافظين يعلمهم بان يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لارسال المدد من المال والرجال عند الطلب وأكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخيرة ومعدات الحرب فلما كان يوم الاحد ثانى عشرى شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديو بقصره برأس التين وقال ان الامير على عزم اطلاق المدافع على الحصون فى صبح الثلاثاء رابع عشرى الشهر وقد جئت أسألكم أن تنتقلوا من سراى راس التين الى سراى الرمل تحرزا مما عساه أن يحصل من رمى القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناوله خطابا يقول فيه * انك أنت المطالب بحياة الخديو وعليك تبعة جميع ما يحصل لشخصه فاحذر العاقبة والسلام * وفى صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل الى راغب باشا رئيس الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكاتبة يقول فيها * حيث قد انسحب قونصلنا من الديار المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التى كانت بين حكومة جلالة ملكة الانجليز والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان * فلما شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الارتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام الاسكندرية واشتد الهرج والمرج فى الشوارع والطرقات وأغلق فى ذلك اليوم ما بقى من حوانيت الاجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة الى بابى رشيد وسدره قاصدين الى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيس فى مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيس فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تساؤل الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل ان خروجها كان لخلاف وقع بين أميرى الاسطولين ومن قائل بل بين الدولتين ومن قائل لكره الفرنسيس قتال المصريين وغير ذلك من الحدس والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيس هذا الأمر وعدوه فلتة من فلتات سياستهم المعروفة بالطيش والخفة وقالوا سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيس على ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذرهم وامتناعهم من الخروج من دورهم فى الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية

مطلب
اطلاق سفن سيمور
مدافعها على قلاع
وحصون الاسكندرية

ولما كانت الساعة الاولى من يوم الثلاثاء رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية أى صباح الحادى عشر من يوليو سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية صوب سيمور أفواه مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل اطلاقا متتابعا

فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمى من الفريقين ووصلت قنابل السفن الى القلاع والحصون والبيوت وضواحى المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا دكا فلما اشتد الرمى وكادت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الاطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان اذا هم الجندى بتصويب مدفعه نحو سفن الانجليز هللوا وصاحوا ونادوا باعلى صوتهم يارسول الله • ياشيخنا يا ابا العباس يا ابيرى • ياسيدى ياقوت ياعرشى • وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الاشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطئ البحر بناحية السيالة وصاروا يصيحون باعلى أصواتهم ياالطيف الله أكبر الله أكبر وهم يلوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم احدى تلك السفن شيأ من القنابل الصغيرة تباعا ففرقتهم وأهلكتهم عن آخرهم الا من كان بعيدا واشتد الرمى من السفن وترامى فاتصلت نيران احدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة فكان لها منظر تتفطر من رؤيته القلوب وتتفتت من هوله الاكباد وما زال الرمى متواصلا من السفن والحصون وأحمد عرابى لايخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشئ مما هو جار فى غيرها من بقية القلاع قيل وكان لاهم له فى ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الاوراد وتحريك أصبعيه على مسبحة كانت بيده • وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد تخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمى القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالابل الآبقة فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكتت أصواتها وظهر على ما بقى من القلاع رايات بيضاء اشارة الى الكف وطلب الامان فانكفت السفن عن الرمى وخرج حينئذ أحمد عرابى من مخبئه وسار الى مقر الخديو بسراى الرمل فسأله الخديو عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوة الا بالله فلم يبق فى قدرتنا أن نقاوم فاما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن • فلما سمع الخديو هذا الكلام كبر عليه الامر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا واسمعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد اسمعيل باشا وفرديكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم اليه وعقد فى الحال مجلسا منهم وكلمهم فى الامر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبه بيك عصمت أحد أصحاب الرتب رسولا الى سيمور أمير السفن ليخابره فى الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديو بان سيمور يطلب ان تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة والا فانه

يعاود

يعاود الرمى بالقنابل بعيد الظهر قال فسأله مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فاحس الخديو عند ذلك بالمجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لايسمح قط للخديوية المصرية الترخيص فى نزول جنود أجنبية فى قلاعها ولاحصونها بغير اذن من الباب العالى وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه الى سيمور السفن

مطلب جلاء الجند والناس عن الاسكندرية وماحصل بالنساء والاطفال من جراء ذلك

وأخذ من بقى من جند القلاع والحصون فى الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا مافيها من جثث الاموات والذخرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معاقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد الى ناحية الملاحة وجسر النواتية وتتابعوا فى الخروج الليل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقدم جند الاسكندرية ورسم الى بعض الفرسان بالنداء فى الناس بالخروج من المدينة عاجلا ومن تخلف حل به مايكره فكثر النداء فى الحارات والشوارع وهب الناس من نومهم وكأن على رؤسهم الطير وخرجوا هائمين وهم حفاة حاسرو الرؤس * فكانت الاطفال تبكى وتصيح والامهات يولولن والرجال تتسابق وتتزاحم وهم فى دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لايحملن من متاعهن سوى المآزر وما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثونهن الى الخروج من الباب الجديد وينادون عليهن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس الا وقد غصت رحبات الباب الجديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والاطفال وهم فى أسوإ حال وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا اليه وانتشر العربان حول تلك الاطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت اليه أيديهم فعلا عند ذلك الصياح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهن بالرجوع الى المدينة على مافيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكن اذ بانت طلائع زمر الاخلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والميدان والسكة الجديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات والخمر الملبوسات وأثمن الجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجل عن الحصر وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين وأكثرهم ملطخ بالدم * وكان لما أخذ الناس فى الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تطاولت أيدى العامة الى سرقة بعض الشئ من ذلك ولم تكد تصل اليه أيدى البعض الآخر حتى برز سليمان بيك داود فى ميدان محمد على فيل ونادى فى الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها واضرام النار فى المدينة حتى تصير رمادا وأكثر من النداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرائر والمقصبات وأصناف الاقمشة الغالية والمجوهرات والمصوغات وكل ماوصلت اليه أيديهم وكان الرجل منهم اذا حمل شيأ من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله

ويأخذ ما معه وربما اقتتل الاثنان أو الثلاثة منهم على شئ لايستحق بعض قروش وانحدر العربان من السيوف والرمل والمندرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا فى المدينة انبثات الجراد فقتلوا ونهبوا وفسقوا بالأبكار والامهات قسرا وعاثوا فيمن خرج من الناس الى الباب الجديد وخطفوا ما وجدوه من حلى وملبوس وقتلوا بعض النساء باطلاق البنادق والرجال بطعن الرماح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفوا وأطلقوا بنادقهم على من كان يقاومهم وكان المشهد مريعا جدا والخطب شديدا للغاية فلما كان بعد الظهر بساعة أضرموا النار فى الكثير من بيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميدان وفى تلك الوكائل العظيمة والمبانى الشهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر الى عنان السماء وأظلم الجو وامتلأ بالدخان واسود وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند يطوفون ويزيدون النار اضراما باراقة زيت البترول على ما لم يشتد منها لهيبه والعامة يسيرون بين النار وهم يحملون المنهوبات والناس فى بكاء ونحيب والاطفال والنساء يلتهبون عطشا ويصيحون الماء الماء * ودخل الليل فكان المنظر أشد هولا وازعاجا فقد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة وبقى الجند والنهابة على ماهم عليه من القتل والنهب والعبث بالابكار والنساء كرها الى صباح اليوم الثانى فاخذوا فى الجلاء عن المدينة وخرج معهم من لم يبق معه شئ يخاف عليه وتبعهم من كانوا بالباب الجديد فرارا من العربان الضاربين حولهم كالوحوش الخاطفة وأمر أحمد عرابى فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فيها الناس الى سائر البنادر والقرى لحد القاهرة وأرسل فى يوم الحريق أصحاب الزعامة الى مقر الخديو بسراى الرمل جماعة من الفرسان يبلغ عددهم زهاء الاربعمائة فارس وبعض أصحاب الشرطة فأحاطوا به من كل جانب وعلم الخديو بخبر ذلك فأرسل يسأل عن سبب حضورهم فقال مقدمهم انما جئنا لحراسة الذات الخديوية والمحافظة عليها * قال بعض الكتاب ولم يكن الامر كذلك فقد كان حضورهم لاضرام النار فى السراى وقتل كل من يخرج فارا منها وظلوا واقفين الى قبيل الغروب ثم سارت جماعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين وخمسين فسير عند ذلك الخديو الى منيب افندى مقدمهم يدعوه الى الطاعة ومراعاة الذمة والعهد فاذعن وتمثل بين يدى الخديو وأقسم أنه يموت بين يديه وجعل يكلم الجند حتى أطاعوا أيضا وحلفوا يمين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديو وقاموا بخفارته

مطلب ارسال سيمور الى الخديو فى طلب تركه مقره والاقامة باحدى سفن الحرب

ودخل فى ذلك اليوم على الخديو محافظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من اضرام النار بالمدينة ونهب حوانيت التجار وانحدار العربان من الاطراف وما فعلوه من القتل والنهب والعبث بالابكار وما الناس عليه من الشدة بسبب اكراههم على الخروج من المدينة فبكى الخديو وطرق كفا لكف ورسم الى اسمعيل باشا كامل والى الزبير باشا بالانحدار ومنع العامة من النهب ورد العربان الى منازلهم فانحدرا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يفلحا * وأرسل سيمور البحر فى سادس عشرى شعبان يعلم الخديو بانه على عزم أن ينزل بعض عسكره الى سراى رأس

التين لحراستها ويطلب اليه أن يأتى الى احدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديو وقال انى أفضل البقاء فى مقرى برأس التين بين رعاياى الأمناء على البقاء فى سفينة الاميرال وانحدر من ساعته من سراى الرمل فى عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاويشية دوائه وساروا بين أطلال القصور والمبانى التى دمرتها النيران فلما رآه العامة ظنوا أنه أحمد عرابى عائد لقتال الانجليز فصاحوا الله ينصرك يا عرابى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الاميرال سيمور فى نفر من الجنود الانجليزية يبلغون الثلثمائة مقاتل وأصعدوه الى السراى فجلس وجلس معه سيمور يتحادثان فيما لم تصل الينا معرفته لغاية الآن * فلما كان غروب اليوم نزل أيضا من كان على ظهور السفن من وكلاء الدول وصعدوا الى مقر الخديو وهنؤه بالسلامة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره الى البر ورسم لهم بالتطواف فى المدينة فجعلوا يطوفون فى الشوارع والحارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا اذا رأوا أحدا من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلتقط مابقى من النهابة رموه بالبنادق وشددوا فى ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان الى ثانى يوم الحريق لم يبق فى المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر الا انسحب الى جهة النواتية وامتدوا منه الى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقى فيها يضرعون الى الله من هول ذلك اليوم العصيب

﴿ وقد نظمت قرائح بعض الادباء فى حريق هذه المدينة الآهلة القصائد الرنانة فمنها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها ﴾

اسكندرية هذه أحلام	أوقد قضت فيما نرى الايام
ما هذه الاحوال بالثغر الغنى	حارت بها الافكار والأوهام
أتكون قاعا بلقعا منشسبة	ان العمارة بعدها لحرام
أوتنظر العينان أبهج بلدة	أضحت رمادا والسماء قتام
أحرقت أعرابى ثغر بلادنا	والله قد حاطت بك الآثام
باليت شعرى ما اقترفت فانه	ماسام هذا الفعل قبلك حام
فنقول من فرط الهنا أهل العنا	اسكندرية هذه أحلام

انتهى باختصار

﴿ وقال أحد الادباء أيضا فى هذا المعنى ﴾

تفطر القلب من حزن ولاعجبا	والدمع فاض على الخدين منسكبا
اسكندرية ماهذا الخراب وكم	من نكبة بك قد حلت فوا حربا
قتل وموت وتدمير مهاجرة	سلب ونهب وكف للنساء سبا



قد كنت راقصة مثل العروس وها ... أصبحت ثكلى فلا حظا ولا طربا
وكنت بالامس مثل الشمس مشرقة ... فناه كل ضياء عنك واحتجبا
ماهـذه الحال في يوم وليلتـه ... يحل فيك مصاب قط ماكتبا
يبكيك دان وقاص والدموع دم ... وقد كوت نارك الاهلين والغربا

(وقال طيب الذكر أديب أفندى اسحق في ذلك أيضا)

عج بى على تلك الطلول ونادى ... أنى تحمل أهل هـذا النادى
هل صادهم شرك الردى فأبادهم ... صرف أناخ على ثمود وعاد
أم غادروا الاوطان في أوطانهم ... مذ حاذروا غدر الزمان العادى
وسل الرسوم وان خلت عنهم وما ... فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادى
خلفتـه في حبهم ميتا فهـل ... أحياه أم حياه أهـل ودادى
أم حاوره ديف صبرى والمنى ... وتجلدى وتعللى ورقادى
أم غادروه رفيق وجدى والضنى ... وتلهفى وتذللى وسهادى
باوارد الاسكندرية طامعا ... عنـقع الاصـدار والايراد
أقصورها خفيت عن الانظار أم ... آثار قصرى في القفار بوادى
أم تدمر قد دمرت وعمورة ... ماعمرت أم دار ذى الاوتاد
هذى عروس الشرق ماتت فاكتسى ... حزنا عليها الغرب ثوب حداد
بالامس كانت والبياض دثارها ... واليوم صارت أرضها بسواد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت ... والخوف منه مبعد القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت ... ما ان بها من مورد للصادى
كانت مراتع نعمة فغدت وما ... فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر يسعد أهلها ... فأصابها بالاهل والاسعاد
كانت وكنا لا ينام حسودنا ... صارت وصرنا راحة الحساد
كانت وما نخشى بوادر ضدها ... فغدت ترى بهجة الاضداد
قامت على أقوى العماد تزين ما ... تحت السما ورفعت بغير عماد
فأبادها جهـل خوق مابدا ... مثـل له من حاضر أو بادى
جهل الذى رام الامانى وهى فى ... قمم الجبال وكان دون الوادى
وعـدا ومالق الثعالب عمره ... يبغى اقتحام عرائن الآساد
وسعى الى الشورى ولكن خالها ... لما تهتك برقع استبداد
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا ... لما تساوى حزبه بفساد
وقد ادعى فى عسفه حرية ... يامن رأى حرية استعباد
والى الاخاء دعا فنال بفعله ... من قومه مالم ينله العادى

شقيت

شقيت برئته الجموع وطالما ... أشقت جموعا زلة الافراد
وتلاه فى سبل الغواية معشر ... زلوا وضلوا حيث ضل الهادى
غرسوا الجناية فى الجنون فما جنوا ... مما جنوه غير شوك قتاد
وسعوا فسادا فى البلاد كأنهم ... والحادثات أتوا على ميعاد
خلعوا الشعار المستعار من الحيا ... فتقمصوا عارا الى الآباد
وتخيلوا أن الطريق خلت لهم ... فسعوا فكان العدل بالمرصاد
فأتاهم رعد المدافع مبرقا ... فنبوا عن الابراق والارعاد
وسطوا على المستأمنين خيانة ... لم تشف منهم غاية الاحقاد
ورموا بنارهم الديار وبددوا ... ما استجمعت من طارف وتلاد
نكر عرفنا منه أن لبعضهم ... نز اللصوص وبزة الاجناد
ونقيصة يسعى بها أبناؤهم ... لمقابر الآباء والاجداد
أسفا على تلك القصور فانها ... كانت منى الوراد والرواد
أسفا على من قاده استسماؤه ... للفاتكين ولم يجد من قاد
أسفا على قوم أتاهم فجأة ... صوت المنادى بالبلاء ينادى
فتسارعوا طلب النجاة من الردى ... بنفوسهم والاهل والاولاد
ياهولها من ساعة مرت بما ... زهقت به الارواح م الاجساد
كم حامل خرجت بها محمولة ... فوق الكواهل أو على الاعواد
ومصونة نفسا تقول لصحبها ... ياليتنى قدمت قبل ولادى
لطفت بآثار الولاد ومادرت ... جسدا تاطخ قبله بجساد
دمياء مايديه لمس حريره ... طفل قريب العهد بالميلاد
ومعمر لم يبق فى الدنيا له ... غير السكينة من منى ومراد
ومريض قوم غاب عنه طبيبه ... وجفاه أنس الاهل والعواد
خرجوا وهم لايهتدون سبيلهم ... والنائبات روائح وغوادى
ودموعهم والنار فى أحشائهم ... حلت محل مزادهم والزاد
فكأنهم ابل يبدو نالها ... ألم السغوب وحاد عنها الحادى
تعلو وتهبط جانحات لا ترى ... من بلغة فى أنجدو وهاد
أوأنهم قصدوا الصبوح فجاءهم ... فى فجأة منهم طريد طراد
شهد الوبال ولم يجد من منجد ... فأغذ فى الاتهام والانجاد
فتفرقوا والهول ملء قلوبهم ... يقتادهم زمرا بغير قياد
أوأنهم أهل القبور تيقظوا ... سحرا بنفخ الصور بعد رقاد
نشروا عراة واجفين فيومهم ... يوم المعاد أتى بلا ميعاد

والنار موقدة سرت من خلفهم فكأنها حيات بطن الوادى
والجند شرّدهم قتال عدوّهم فرقا فلم يتجلدوا لجلاد
ونضوا على أهل السبيل بواترا فى الحرب ماتضبث من الاغماد
قد حدّبت شفراتها لكنها كانت على الاعداء غير حداد
ولربعاد منهم فى رعدة ماان تسلم بصائد الرعاد
سكنت فرائسه على نهب الحمى من قبل تسكن رعدة الصياد
ومرأس حيث الجواد وخلفه مما حباه النهب حمل جواد
عدم الرباط فشده بنجاده وأتى معسكره بغير نجاد
فهم اللصوص وان هم قد أوهموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم مالم يحق فى عهدنا ببلاد
عيبت فلولا السابقون ومجدهم وبقاء من ولدوا من الامجاد
ومسوّد ملك أمير عادل أدبى بضرده على الاعداد
وعصابة كانت قلائد فضلهم أبهى من الاطواق فى الاجياد
لم تلف فى مصر ومصر عزيزة من قائل هذى البلاد بلادى
الا وقد ولى الشريف أمورها فلها بحول الله خير معاد
مولى له فى النفع رغبة طامع وعن المضرة عفة الزهاد
وهو الذى يخبا ليوم كريهة وسداد ثغر من طريق سداد
واذا بدا من ليل خطب رأيه أزرى بنور الكوكب الوقاد
ياحائز المجد الرفيع وجامع الـ ـفضل الصديع وواحد الآحاد
ياجالب النعم العظام ورافع الـ ـنقم الجسام وموئل القصاد

الى أن قال

بيضت بالنعماء أيامى وما حالت فأصبغ عرفها بسواد
وبلوتنى فرأيتنى صادقا ماشاب ورد صلاحه بفساد
وحبيتنى والنائبات ملمة ونصرت ضعفى والزمان معادى
وظهرت فيك بكل مدح صادق صرف وما جرى كين رماد
وقد اعتذرت وماورا متنصلى فى القلب غير أمانة ووداد
فاذا صفوت فذاك غاية مقصدى واذا رضيت فذاك كل مرادى
ياصبح كل مؤمل يانجح كل توسل يامورد الامداد
لولاك ماأحييت ليلى ضاربا فى الشعر بالاسباب والاوتاد
وصفا لما يجرى الدموع أقله ويقل فيه تفتت الاكباد
فلقد هجرت الشعر لما أن رى ضعف السليقة سوقه بكساد

واستامه

واستامه من لبس يفرق بين ما   يفنى ويبقى عالى الانشاد
لكن رأيتك بالبصيرى جامعا   نقد البصير ودقة النقاد
فنظمته نظم الفرائد مثلما   نظمت لديك قلائد الارفاد

الى أن قال

زعموا بان سريرتى قد كدرت   فلمن يصافى بالجميل يصادى
فبعثت صافى الشعر يثبت صفوها   ولو استطعت جعلت فيه فؤادى

انتهى

مطلب
تأهب أحمد عرابى وأصحابه لقتال الانجليز فى البر

وأخذ أحمد عرابى وأصحابه فى التأهب والاستعداد للقتال فأرسل فى طلب الجند ومعدات الحرب من مؤن وذخيرة وسير فى طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون والجواسيس الى أطراف الاسكندرية ليأتونه بالاخبار وأرسل الى القاهرة مكاتبة يقول فيها * اننا سنقاتل الانجليز دفاعا عن الدين والوطن فجعلوا بالمدد وثابروا على الدعاء للعسكر المظفر فعلم الخديوى بذلك فأرسل اليه يأمره بالامساك عن جمع الجند واعداد المعدات ويقول له لاخصومة قط بين بلادنا والدولة الانجليزية وان أمير سفن الحرب يقول انه على أهبة تسليم المدينة متى تم ترتيب القوة الحافظة لها واستتب الامن فيها وسأل أحمد عرابى أن يسرع بالحضور الى رأس التين ليكلمه فى الامر * وكان لما خرج أحمد عرابى من الاسكندرية بعد تلك الخطوب والقطوب المدلهمة ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الاجانب وبينهم المستر بلانت الانجليزى الذى سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابى اذ ورد خطاب الخديوى بما ذكر فأراه الى بلانت وشاوره فى الامر * قال بعض الكتاب فقبح له بلانت العمل بمشورة الخديوى وحبب اليه مقاتلة الانجليز حتى يذعنوا وقال ان الانجليز ليس لهم عسكر برى منتظم يقدر على مقاومة العساكر المصرية وان الدول كافة لاتترك الانجليز وشأنهم فى هذه البلاد فهن للانجليز بالمرصاد فاياك وأن تخدعك ظواهر الخديوى وأمير السفن وثابر على القتال حتى يعلموا أن فى هذه البلاد رجالا * قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت وتغريرا فاغتر أحمد عرابى وهان عليه كل خطب وكتب الى الخديوى يقول انى لم أقاتل السفن الانجليزية بجند القلاع الا بعد أن صدر لى بذلك قرار مجلس الوزراء فاذا كان أمير السفن قد رغب الآن فى الصلح بعد انتشاب القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب لاينفى كون الحرب قائمة بيننا وبينه وانى لاأرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد والحكومة فاذا أراد الامير تسليم المدينة فليسلمها وليجل بسحب مراكبه عن الاسكندرية أما الاستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولا بد منها حفظا لشرف البلاد مادامت السفن الانجليزية على سواحلها قال ولا يمكننى الرجوع الى الاسكندرية وألقى بيدى الى التهلكة مادام الانجليز بالاسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء الى مقره بكفر الدوار ليتشاوروا فكبر الامر على الخديوى ومنع من ارسال أحد الى كفر الدوار وراجع أحمد عرابى وشدد

مطلب
خداع بلانت الانجليزى لاحمد عرابى واغرائه على قتال الانجليز

فى ذلك فلم يلتفت أحمد عرابى الى قوله وتجرد الى العداوة والبغضاء وأرسل فى الحال الى يعقوب سامى باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخديوى ومن معه ويرميه بالتهم الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول انه هو الذى جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وانه يطلب لذلك عقد مجلس من علماء الازهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والاعيان ليروا رأيهم فى خلع الخديوى وتولية من يصلح لتدبير شؤن البلاد فجمع يعقوب سامى باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والاعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم فى غرة رمضان برئاسة حسين دراملى باشا الذى كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أحمد عرابى وكان المكان غاصا بجماهير الناس حتى السوقة والغوغاء وأسافل القوم فما أتم القارئ كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يقبحون مافعله الخديو ويرمونه بالمروق وكان بينهم الشيخ عليش المغربى الازهرى شيخ المالكية فوقف فى وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه ياقوم قد خلعناه الله أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثر عندذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحوقل وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا الى الاسكندرية وفدا ليرى أولا مايدعيه الخديوى على زعماء العصابة عموما وأحمد عرابى خصوصا وثانيا ليحقق ماذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الاخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورؤف باشا وأحمد بيك السيوفى والشيخ سعيد بيك الشماشى والشيخ على نايل والشيخ حسن كبوه فساروا الى كفر الدوار واجتمعوا بأحمد عرابى وحدثوه بما جرى فسرحهم الى الاسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها الا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدى الخديوى وقصوا عليه جميع ماوقع فساءه الامر ورسم بخلع أحمد عرابى من منصب الوزارة وطير الخبر بذلك الى الآفاق وكتب الى دار السلطنة يخبر بعصيان أحمد عرابى وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ماينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان فى هذه الاثناء قد ورد مرسوم السلطان الى درويش باشا ومن معه بالعود الى دار السلطنة بناء على تغير الحال ونوال سفير الانجليز من المابين مأربا فعادوا وكأنهم عافاهم الله لم يحضروا الا لتضرب الانجليز حصون الاسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكأن أحمد عرابى يعلم سر بعثتهم فلم يطع الخديوى كلمة وقد أخذ فى اعداد معدات الحرب والنخوة وبالغ فى جمع العساكر والاجناد وانشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحة الاسكندرية وعالج سد ترعة الاسكندرية ليمنع الماء عنها فلم يفلح وسير الى القاهرة يشدد فى طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين وقد وصل الى القاهرة مرسوم الخديوى بخلع أحمد عرابى من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رحى أعماله وتنصرم حزمة آماله فأدرك يعقوب سامى ماوراء ذلك وجمع سائر من حضروا فى المجلس المنعقد فى غرة رمضان وتلا عليهم مارسم به الخديوى من خلع أحمد عرابى وتنزيله فاختلفت عند ذلك

مطلب
وصول مرسوم الخديوى الى القاهرة بخلع أحمد عرابى وما كان من وراء ذلك

ذلك كلهم وتفرقت أغراضهم وعلت بينهم الضوضاء وكان بينهم جماعة من كبار الضباط وصغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك الجمع من الهرج واختلاف الكلمة وأدركوا أن السواد الاعظم منهم ميال الى خلع أحمد عرابى كما رسم الخديوى قاموا وصاحوا فى وجوه الناس وارتفعت أصواتهم بسب الخديوى وتقبيح فعاله ونادوا القتال القتال مادام الانجليز فى قلب البلاد ثم أكثروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الانجليز فانكمش سائر الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم ان مالوا الى خلع أحمد عرابى والعمل بمرسوم الخديوى أخذتهم سيوف الضباط وحراب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيهم على استبقاء أحمد عرابى فى منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد مادامت مراكب حرب الانجليز أمام الاسكندرية وعدم الالتفات الى مارسم به الخديوى فطير يعقوب سامى الخبر بذلك الى الآفاق وعلم به الخديوى فاحزنه جدا ورسم ثانية بخلع أحمد عرابى وعصيانه وسير الكتب بذلك الى القاهرة وسائر المدن والبنادر فمنع الضباط وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون الناس على بغض الخديوى ويسمونه بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل البلاد يخطبون فى الناس ويحضونهم على معاونة زعماء العصابة والاخذ بناصر مقدمهم أحمد عرابى وقام بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الاشعار الحماسية والقصائد المهيجة من ذلك قصيدة لاحد علماء الازهر يقول فى مطلعها

لعمرك ليس ذا وقت التصابى ولاوقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوى ولا وقت التغافل والتغابى
ولا وقت التشبب فى سليمى ولا وقت التشاغل بالرباب

الى أن قال

ولكن ذا زمان الجد وافى وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت ليس فيه يليق الا اقامة بالقلاع وبالطوابى
ووقت فيه الاستعداد فرض لتنفيذ الأوامر من عرابى

الى أن قال

وفى مصر لقد طمعوا ومصر بكم والله أمنع من عقاب

وقال فيها

وقوموا بالثبات على الاعادى وقولوا فيهم فصل الخطاب
وان سألوكم من بعد هذا فما غير المدافع من جواب

الى أن قال

وقولوا ياعرابى مر بأمر تراه فأنت ذو الامر المجاب
ودم لوزارة لسواك تأبى وان وصلت اليك بلا طلاب
وقولوا ياعرابى دم رئيسا لحزب النصر محفوظ الجناب

﴿ ونظم آخر قصيدة فى هذا المعنى قال فى مطلعها ﴾

نوال المعالى من طعان الكتائب ونيل الأمانى من ثمار المتاعب

وقهـــر الاعادى بالتــــدبر أوّلا وبعد باشهار السيوف القواضب

الى أن قال

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عموا الى اليوم من اضلالهم فى غياهب

ومنها قوله

ومسن كعــرابى فى الـبرايا وحزبه أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وغير ذلك من الشعر والنثر شئ كثير لا يسعنا ايراده هنا وسير أحمد عرابى جماعة من الفرسان وأخرى من المشاة الى ناحيـة المندرة ووكلهم باسـتطلاع أخبـار الانجليز فلم يبلغوها حتى خرج عليهـم جماعة من عسكر الانجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهـم وتغلبوا عليهـم فانهزم الانجليز وولوا الادبار فأعمل المصريون فى أقفيتهم السيف ثم عادوا فى ثانى يوم وقاتلوا حتى أجلوا المصريين عن مواقفهم فسـير أحمـد عرابى فى طلب المدد من المال والرجال ومـد الحصون والقلاع من الرمل الى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحته خندقا فاصلا مابين الخط والفضاء وقد جعل فى هذا الفضاء عدة كثيرة من القلاع وكان خط الدفاع الاول ممايلى المحـلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمـل الى البيضاء وجعل ماوراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فبلغت عـدة هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعيـة زهاء الخمسمائة وكذلك فى المسافة الواقعـة مابين كفر الدوار وأبى حمص وكان بين أبى حمص ومدينـة دمنهور تل كبير مرتفع فحصنوه وجعلوه معقلا يقيهم عند الحاجة اذا تقهقروا الى الوراء وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها جماعة من الجنـد ووكلهـم بتسيير المؤن وتوصيل المدد الى كفر الدوار ، ورأى سيمور من استعداد أحمد عرابى وتأهبـه للقتال وقطعه لجميع المواصـلات مع الاسـكندرية مالم يكن يتوقعه فأرسـل الى عاصمـة الانجليز فى طلب النجـدة ورسم فـدوا سلكا تلغرافيا تحت البحر من الاسـكندرية الى بور سعيد وجاء المدد من المشاة والفـرسان وأصحاب المدافع على ظهور السـفن من قبرص وجبـل طارق ومالطه والهند وكأنهم كانوا جميعا على قيد فرسخ من مدينـة الاسكندرية وجعلت حكومـة الانجليز تبالغ فى التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا راغبة فى مشاورتهن ولا مبالة الى مشاركتهن وقد أعدت من المال لنفقة هذه الحرب مائتى ألف ألف وثـلاثمـائة ألف من الذهب وكان ماجاء الى سيمور من الجنـد ألفين وأربعمائة من الفرسان وثلاثة عشر ألفا من المشـاة وألفا وسبعمائة من أصحاب المـدافع وثـلاثة آلاف وسبعمائة مابين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشا احتياطيا قـدره ثلاثة آلاف ومائة مقاتل وكان المقدم على هذه الحملة قائدا اسمه الجنرال جارنت ولسلى وآخر اسمه أوبيا ومعهما

مطلب طلب سيمور النجدة من عاصمة الانجليز

آخرون من الامراء والقواد فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الاسكندرية أخذوا فى ترميم ماتهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الجديد وما تداعى الى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة السكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالغوا فى تحصين المدينة لمنع الواصل اليها وسارت طائفة منهم الى الملاحة فقطعت خط السكة الحديد الموصل الى الاسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة

مطلب مناقشة الباب العالى والدول فى خصوص ارسال عساكر سلطانية الى مصر

ووقع بين الباب العالى ودولة الانجليز وبقية الدول مناقشة وجدال فى أمر ارسال عساكر عثمانية أو عساكر مختلطة من الانجليز والفرنسيس والايطاليين الى مصر ما استغرق الايام الكثيرة ولكنها كلها كانت مما حكة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والانجليز والفرنسيس يظهر للآخر خلاف مايبطن ويقول غير مايفعل ثم عادت دولة الانجليز وشددت على سعيد باشا مندوب الباب العالى فى تلك المفاوضة وأعلمته بأنها لاتسمح قط بأن تطأ أقدام الجنود العثمانية أرض الكنانة وأنها قد أخذت على نفسها ارجاع الحالة الى ما كانت عليه من الهدو والسكينة وتأييد مركز الخديوى بكل ماتصل اليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الانجليز فى ذلك * فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقاة سفير الانجليز وانكف عن مناقشته فى الامر فجعل السفير يفكر فى ذلك فما هو الا أن جاءه الخبر فى ثانى يوم بقيام سفينتين كبيرتين من سفن النقل العثمانية وعليهما جماعة كثيرة من العسكر العثمانى وكان قيامهما من دار السلطنة تحت جنح الليل وفيهما أيضا كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قد قام بعدهما أيضا فى نفس تلك الليلة مركبان أخريان احداهما الى ازمير وثانيتهما الى الدردانيل وفى ثالث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجند وآلات الحرب وقامت أخرى فى خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب الى صورا باى بمياه جزيرة كريد وكانت فى نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبة القيام الى جهة غير معلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قد رسم بجعل جميع هذه القوات تحت امرة درويش باشا وآخرين من كبار القواد العثمانية فتأهب هؤلاء للقيام على ظهر الباخرة عز الدين الى سلانيك ثم يسيروا منها ليلتقوا بالجند اما بمياه رودس أو مياه صورا باى فخشى سفير الانجليز عاقبة ذلك وأزعجه الخبر وسير الى كبير سياستهم يعلمه بالامر فلم يكن بأسرع من أن جاء الامر الى سيمور أميرال سفن الحرب الراسية أمام الاسكندرية يقول * اذا جاءتكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالاسكندرية وبور سعيد وأى جهة من الموانى المصرية واحذروا ما استطعتم وأعلموا مقدمى العساكر السلطانية مع غاية الرقة والتلطف بأن يرجعوا فورا الى جزيرة كريد أو الى أى جهة يشاؤنها واياكم والتغافل * فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم فى سلك الدفاع وأبلغ سفير الانجليز خبر ذلك الى سعيد باشا مندوب الباب العالى فراجعه سعيد باشا وقال ان

السلطان رسم بتسيير عسكره وهو يكفل بارجاع الامور الى سابق مجراها من الامن وصفاء الحال وسيرسم أيضا بعصيان أحمد عرابي واعتباره خارجا عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب اذا للتعرض لمراكب الدولة اذا وصلت الى الموانى المصرية التى هى جزء من بلاد السلطنة فقال السفير قد ذهبت الفرص وطاش الغرض ولم يبق من حاجة الى شئ من ذلك البتة وقد سارت الجنود الانجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالامس قد أصبح عندنا اليوم أمرا مقضيا فراجعه سعيد باشا فلم يقبل فقال له قد قبلت الدولة سائر مقترحات الدول بشأن ارسال العساكر السلطانية وبسائر الحدود والاختصاصات التى حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ماترى الدول لزوم اجرائه أيضا لارجاع الامور الى ماكانت عليه فقال السفير لاسبيل الى ذلك وقد نفذ المقدور فكبر الامر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحوال الباب العالى وكثر توارد الجنود الانجليزية على مدينة الاسكندرية وقدم اليها فى خامس عشرى رمضان الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الانجليز وهو أحد مقدمى العساكر وأخذوا فى تحصين بعض القلاع والحصون وتعبية المؤن والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وبجر النواتية وكفر الدوار مناوشة خفيفة ونشر ولسلى مقدم العساكر الانجليزية منشورا يقول فيه * لم تأت الجنود الانجليزية الى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وانما حضورهم لردع العصاة وايقاف تيار الفتنة الى حد ارجاع الهدو والسكينة الى سابق مجراهما وتأييد سلطة الخديوى جهد الاستطاعة * ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور فى مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيأ كثيرا

مطلب ابتداء القتال مابين الانجليز والمصريين

ولما كان خامس شوال انتشب القتال مابين طليعة العرابيين وبعض الجنود الانجليزية عند كفر الدوار وطال زهاء الساعتين ثم انجلى عن هزيمة العرابيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالا وباتوا وأصبحوا فاقتتلوا قتالا عنيفا فأظهر العرابيون بسالة زائدة وكادوا يستظهرون على الانجليز فطلب مقدمهم المدد فجاءه على قطارات السكة الحديد من الاسكندرية واشتد الرمى من الجانبين بالقنابل والرصاص شدة بالغة ثم افترقوا وقد تحرز كل فريق فى موقفه وكان مقدم العرابيين فى هذه المواقع طلبة عصمت وأصبحوا ولم يتقدم الفريقان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتى الى الاسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبة عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التصديق ولم يعيروها جانب الالتفات ونزل من كان على ظهور السفن الراسية أمام الاسكندرية من الاجانب على اختلاف أجناسهم الى المدينة ودارت رحى الاعمال فى دواوين الحكومة وباشر أرباب الوظائف وظائفهم على قدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكول ونفد ما كان موجودا منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيها صغار الناس على اختلافهم الى رحبة سراى رأس التين وهم يضجون

ويصون

ويجعون فهال الخديوى أمرهم ورسم باطعامهم وشدد فى ذلك فرتبوا لهم مشارد الثريد بالارز
واللحم مرتين فى كل يوم وكان الخديوى يلاحظ اطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من
مجلسه وشدد الانجليز فى المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف فى النهار والليل ومنعوا
من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس الا من كان معه كلمة سر الليل وهى
كلمة كان يتفق عليها فى غروب كل ليلة ليعبر بها من يتلقاها وكانوا يقبضون على كل من يرونه
سائرا بغير مصباح ولو كان يعرف سر الليل وأفحشوا فى رمى الناس بالرصاص لاقل سبب
وكان اذا رأى أحد المرابطين أحدا فى الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هات)
ومعناها قف فان لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعنى صاحب أو رفيق رماه بالرصاص
فيسقط ميتا واذا رأوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه يلتقط مابقى
من المنهوبات فيقتلونه فى الحال برمى البنادق فخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم
قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة ● وتقدم اسمعيل راغب باشا الى الخديوى فى
قبول خلعه نفسه من منصب رياسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم الى الوزير محمد شريف
باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هو مسند الرياسة فأذعن وأطاع ● وكان لماطير البرق الخبر
الى الديار الاوروباوية بخروج عرابى وأصحابه عن طاعة الخديوى واشهاره الحرب على
الانجليز وبقاء الخديوى مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الاسكندرية وكان مصطفى رياض
باشا يومئذ باحدى مدن الفرنسيس فلما من وجه زعماء العصابة على ماتقدم بيانه فى محله عاد
من فوره الى الاسكندرية وتمثل بين يدى الخديوى مسترحما فعفا الخديوى عنه ورسم له
بتولى نظارة الداخلية ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا
أحلوها محلا وجدوا فى ارسال المدد الى كفر الدوار وهم يشيعون فى كل يوم أخبار هزيمة الانجليز
ووقوع الموات فيهم وسير أحمد عرابى الى المديرين والمحافظين فى طلب حشد الجند من خفراء
البلاد وتسييرهم الى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ماخص البحيرة
ألفا ومائة واثنين وسبعين والقليوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين
والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين
والجيزة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائة وخمسة وتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة
وستين ومنية ابن خصيب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسيوط ألفين وثلاثمائة وخمسة
وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة واسنا ألفا وأربعمائة
واثنين وستين فكان جميعهم خمسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ
فى الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلمونه من سوء العاقبة وسوء المصير
وجاءت الاخبار بذلك الى أحمد عرابى وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الامر
واستعظمه وعاود الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد فى المساجد يحضون
الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الارجاف والتهويل وقام بمدينة أسيوط رجل

مطلب
استقالة اسمعيل
راغب باشا من منصب
الوزارة وتوليتها للوزير
محمد شريف باشا

اسمه الشيخ على المليجى بجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزهم الى التطوع
فى سبيل طاعة أحمد عرابى وخطب فيهم يوما يقول

الحمد لله الذى جعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الامم * وعوذها العناية والنصر اذا العدو بها ألم * لا اله الا هو لا عز لنا الا به الى يوم الدين * فهو المختص باعانة من هاجر فى سبيله وكلف عزمه وسعيه * لقوله تعالى ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ونحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم * ونتوب اليه من جميع الآثام اذا انجرّ بها القلم * ونسأله اللطف والاعانة على الكافرين * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له * المتعالى عن المشاركة والمشاكلة * وعن أن يحتاج لمشارك له فى إعانة من خرجوا من بلادهم متطوعين * وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله * وذروة سنام المجد وتاجه واكليله * رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين * اللهم صل وسلم على هذا النبى العظيم * والرسول السيد السند الكريم * سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للمؤمنين وبان أثر الذل على الخائنين * وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فياعباد الله لا خفاء أنه قد مرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم * وما ذلك الا لعدم الحمية الاسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم * اذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين * والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم * اذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالاخذ فى أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم * وصاروا باذلين الهمة فى التوصل لما يبعد الامة عن التشويش ولما يكونون به آمنين * اذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه فى مدافعة من كانوا فى تشويش الأمة أول سبب * وباع نفسه هو وجيشه للجهاد فى سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب * كل ذلك لحفظ الوطن واعلاء كلمة الدين * فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين * واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا فى كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره * فنعم السيد الآمر ونعم من امتثل أمره * وتأمل فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين * فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه واشترى آخرته وباع دنياه فى سبيل الله * وتباشر بقوله تعالى فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين * فأقبلوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب الخجل والكسل * وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله قبل اقتراب الاجل * وزودوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتقاعدين * فمن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة فى الانفاق على من تبرع بنفسه

لمفع

لدفع الاعادى * وصارت شهامة الاسلام على وجهه وجميع أعضائه تنادى * وجعل قوته قوله تعالى « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين » فمن لم يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق * ومن دين الحق مارق * وغافل عن قوله تعالى « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى قال من انتدب خارجا فى سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى وايمانا برسلى فهو ضامن على الله عز وجل إما أن يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله الجنة وإما أن يسيح فى ضمان الله وإن طالت غيبته حتى يرده الله الى أهله مع ما نال من أجر أوغنيمة وعلى الله قصد السبيل » ۞ وجاراه فى ذلك أيضا آخر اسمه الشيخ محمود ابراهيم من اهالى أسيوط فخطب يقول ـ حمدا لمن جعل أعلام الملة المحمديه * على كواهل أعلام الامة العربيه * وحرسها بشهب ثاقبات * لرجم شياطين أهل البغى والغوايات * وصلاة وسلاما على من كان اذا أراد غزوا ورّى به * ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصادق آرائه * وعلى آله الذين أقاموا أنفسهم أسوارا لحرمة الدين * ومن تبعهم فى الحاماة من كل حر لعرضه يصون ﴿ أما بعد ﴾ فان الانجليز قد طاشت عقولهم * وعميت بصائرهم * فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها * وساقوا الينا من زيف المعارضات خسيسها * وقابلوا عيشنا بخداع * وفتشوا أكتافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع * ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان * وفينا لهم بعقد الذمة والامان * فعاملناهم بالحسنى * وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا * فلما صحت أبدانهم * وعمرت أوطانهم * لم يقنعوا بذلك * بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك * فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب * فخربوا بيوتهم بايديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب * وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء * والله يؤيد بنصره من يشاء * حيث أقام ناظرا بعين الشرع ناظر * لم يخش فى الله لومة لائم أوزجر زاجر * فقابل كتائب الضلال * وأذاقهم كأس النكال * وقام خطيبنا يدعو الى دعوة الحق * اذ كان من أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق * فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد * فى قطع جيش الضلالة والعناد * فأقبلوا اليه من كل فج عميق أفواجا * بالمال والنفس فرادى وأزواجا * فعند ذلك دهى الانجليز مادهاها * حيث لم يكن فى حسابها ماعراها * فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه بـ(يبعث الله على رأس كل مائة سنة) فان البشائر دلت عليه * حتى يمزق الباغون كل ممزق * ويحيا المندوب والمفروض بهذا الموفق * وتموت البدع التى اسودّ القطر بظلماتها * ويختنق شارق الظلم بادرجاتها * فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافر * جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين باعدائنا فى المبدا والآخر آمين

مطلب ارتحال سيمور بسفن الحرب عن الاسكندرية الى بورسعيد وما كان بعد ذلك

وجاء الأمر الى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدم القول

فرحل سيمور بسفنه من الاسكندرية الى بورسعيد وألقى مرساها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن التفسل أمام الاسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه الى بوغاز بورسعيد رأى هنالك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بان فيها من الديناميت والمواد الالتهابية ما يكفى لسد البوغاز فى أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس الى أصحاب الزعامة فتحرز سيمور منها وباتوا ليلتهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة ليلتهم فى جلبة وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور الى الربان يقول ما هذه الحركة وما داعى تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتمونا فقال الربان هى حركة لابد منها أمام السفن الاجنبية فأرسل اليه ثانية يقول كف والا ألحقتك والمركب الى قاع البحر وارع حرمة سفن الحرب الانجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فانكمش الربان وخاف • وقدمت الى بورسعيد بعض الطرادات الافرنسية والالمانية والايطالية تخفر السواحل يمنة ويسرة وحضرت مدرعة كبيرة انجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فمانع أصحاب البوغاز من الفرنسيس فى دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست فى بركة التمساح وكان فيها من الضباط مائة واثنان وأربعون ومن العساكر والاجناد عدد كثير • قيل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل الى دار السلطنة ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مرساها أمام مدينة الاسمعيلية • وكانت الحرب الى هذا الحين قائمة ما بين العرابيين والانجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الامامية بلا انقطاع حتى أتت الاخبار الى أحمد عرابى بوصول مراكب الحرب الى مدينة بورسعيد ونزول جيوش ولسلى بمدينة الاسمعيلية فسار من كفر الدوار الى التل الكبير ومعه جماعة من الضباط وطائفة من الحرس فلما وصل قطاره الى مدينة الزقازيق خف لملاقاته العمد والاعيان والمشايخ وأرباب الطرق والاشاير وموظفو الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقابل لها فاجتمع عند ذلك زعانف الناس حول الكشك واشتد زحامهم وعلا الضجيج وكثر الصياح بكلمات وعبارات قد لفقوها على قدر عقولهم من مثل العسكر فى الطوابى • الله ينصرك ياعرابى • يامولانا ياعزيز • أهلك عسكر الانجليز • ياسيمور ياوش القملة • من قال لك تعمل دى العملة • وغير ذلك من بذىء القول وفحش الكلام ولبث على هذا الحال برهة ثم قام ودخل عربة القطار وهو ينادى أنا لها أنا لها والناس فى ضجيج زائد والغوغاء يصفقون بأيديهم ويضربون الارض بأرجلهم فسار به القطار الى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليوم يتابعون ارسال المؤن وآلات الحرب الى التل الكبير وتوارد الجند من مشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثر الوارد منهم فتعطلت قطارات السفر من الاسمعيلية والسويس وهاجر من بالسويس من رجال الدولة وبعض الاهالى وأجهد الجند الطاقة فى انشاء الحصون والمعاقل وأقاموا المتاريس على مسافة وجمعوا الكثير من أهل البلاد

لهذا

لهـذا العمـل ورتبوا المقـدمات وبالغوا فى تعبئتها وعاجلوا قطع الماء الحلو عن الاسمعيلية والسـويس وتبع العسكر كثـير من الســوقة وأصحاب الصنائع الدنيئـة مثل الاسكافيـة والقهوجيـة والسمكرية والخياطين وباعـة الافيون والاكيفات ونصبوا لهم المطاول وعملوا التايات والعشش من القش والبوص وغـير ذلك فاصبح ذلك الصعيد آهلا باصناف الناس وكانت لما رست تلك السفينة الانجليزية أمام مدينة الاسمعيلية تصـدت إلى سائر ماوجدته هنالك من بقيـة السفن على اختـلافها ومنعت وقوفها أمام المدينة وشـددت على أصحابها وضيقت فرحلوا عنها وهم صاغرون وخلا لها الجو فلم يمض الاالنصف الاول من تلك الليلة حتى قامت فى المدينـة حركة شديدة للغاية وضوضاء وجلبـة ثم اشـتد بعيد ذلك اطلاق البنادق وجر المـدافع وزحف الجنـد فهب الناس من مضاجعهـم مذعورين وكأنّ على رؤسهم الطير وتطروا واذا العساكر الانجليـزية قد ملأت الفضاء وهم فى حركة زائدة كأنّ العـدو يهاجمهم ثم لم يمض على ذلك الا ساعة أو بعض ساعة حتى دوت أصوات المدافع من تلك السـفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارلـفورد واشتد الرمى وتراسلت القنابل على مواقع العرابيـين بناحيـة نفيشـة وما زال الحال هكذا طول الليـل فلما أشرقت الشمس سكتت المدافع وخرج جماعة من الانجليز قاصدين قرية العرب فلما رآهم أهلها مقبلين خرجوا على وجوههـم هائمين فاخذتهـم نيران البنادق من كل جانب لاسيما منهـم النساء والاطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة مابين السويس والاسمعيلية والقاهرة فاشـتد الخوف بأهل الاسمعيلية من الاجانب والاهلين ونزح الكثير منهم الى بور سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل الى الاسمعيلية سمور أمير سفن الحرب وولسلى مقدم العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحـرب ودواب الحمـل من الجمال والخيل والبغال على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجر المدافع وتحميل الاثقال قبل فأخذت أحمد عرابى وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد معدى لسبس فاتح خليج السـويس بانه لا يمكن سفن الانجليـز من العبور والوصول الى مدينـة الاسمعيلية فكتب أحمد عرابى الى المابين الهمايونى كتابا يقول فيـه * كنت قد بسطت لعطوفتكم قبـل الآن أمر اعتداء الانجليز وتسلطهم فى جهـتى الســويس والاسمعيلية على الترعة ومخالفتهم للعهود عما جاء مخلا بنظام الترعة وبسطت أيضا ماكان من الهمة التى بذلناها فى جعـل الـترعة على الحيادة لانها نقطة وحيـدة لاجتماع منافع الامم وممر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجـه المحمل الشريف والحجاج المسلمين الى جهـة الحجاز كتب الى المسيو دى لسبس الموجود الآن فى الاسمعيلية بالاستفهام عما اذا كانت انجلترا تمانع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف قائلا انه بالنظر الى الاحوال الحاضرة لايمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة إرسال المحمل الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الانجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور

مطلب ماكتبه أحمد عرابى الى المابين السلطانى بعد نزول العساكر الانجليزيه الى مدينة الاسمعيلية

بالقنال وقطعوا الاسلاك البرقية الكائنة بين السويس والاسمعيلية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أجرينا الاحتياطات لمقاومة العدو اذا تقدم الى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الاسمعيلية ويوزباشى المستحفظة هنالك قد أفادوا أن من عزم الانجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى مداخل البلاد فى هذا الصباح علم من الاخبار الواردة أن الانجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى اطلاق القنابل من جهة الاسمعيلية على نفيشة أما نحن فبالنظر الى احترامنا لعهود الترعة بان تكون على الحياد والى عدم تقوية تلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فماعدا نقط العساكر المستحفظة وموالاة التحريض الشديد على عدم مس حقوق الترعة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعة كانت . ولما بدا من الانجليز هذا الاعتداء على ضفاف الترعة أقام المسيودى لسبس الحجة على الاميرال الانجليزى وارسل صورة الحجة بالتلغراف الى الحكومة الفرنساوية فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار اليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الانجليز فسيرا منهم على حكم المثل السائر « البادى أظلم » لم يلتفتوا الى إقامة الحجة بل أصروا على الاخلال بنظام الترعة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف الى المسيودى لسبس بما يأتى « بما ان الانجليز خرقوا نظام حيادة الترعة فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها منعا لاعتداآتهم فاذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين ساعة اضطررنا الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة المدافعة » — قال — فمن التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الانجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لاتحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع انها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضا أنها مقاومة لجميع المصريين الامة الخاضعة للدولة العثمانية وأنها داست بأرجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال إقليما عظيما فبما أن أعمال الانجليز وصلت الى هذه الدرجة لم يبق فى الامكان أن نتراخى فى اتخاذ الوسائط الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الاحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعرضها غير خاف على شريف علم ظل الله بادرنا الى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم اه * وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الانجليز الى جوف البلاد سيكون من هذه الارجاء الواسعة ولاسيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع الضباط وكبار العصابة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجييش قوة ثالثة يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جمعوه من خفراء البلاد بالجهات القبلية والبحرية وألبسوهم الدرعيات من البفتة البيضاء ولبد الصوف

عوض

عوض الطربوش وسلموهم بالبنادق والقرابينات على غير دربة ولا خبرة وجعلوا المقدم عليهم على الروبى أحد زعماء العصابة وساقوهم الى الصالحية فعسكروا بها وعملوا بعض الخطوط والمتاريس وخرج معهم محمود باشا البارودى متطوعا يريد الغزو والجهاد فى الانجليز * وكان أحمد عرابى قد أعد لنفسه بالتل الكبير خيمة سعيد باشا ابن محمد على الكبير وهى من عجائب الخيام التى قل أن يكون لها مثيل وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كأنه فى عرس أو وليمة يجاه جميع العلماء والمشايخ والعمد والاعيان ووجهاء البلاد للسلام وهاداه عمد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والارز والعسل والدقيق وعجول البقر وفحول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجند المحاربين معه وأكثروا من إرسال الحلوى والفاكهة على اختلافها فكانت تأتى اليهم على قطارات السكة الحديد * وكان لما ذاع الخبر بما عليه المحاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثير من أرباب الطرق والاشاير والمتعممين وأصحاب العكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من مشية ابن خصيب الى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن البيون الشيخ الجنيد فى لموم كثيرة وطبول وزمور وكاسات وبيارق فأنزلوهم فى ناحية أعدت لهم فكان لاهم لهؤلاء القوم البتة سوى طلب المأكول والمشروب فى الاوقات الثلاثة فاذا أكلوا وشربوا وامتلأت بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وجحظت عيونهم عقد كل طائفة منهم مجلسا كما يسمونه فيذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البتة ويصيحون وينادون مدد مدد فاذا اشتبك القتال بين الجند والانجليز واشتد رمى المدافع والتقت نيران البنادق بالبنادق صاحوا وتراحموا ونادوا ياسيد يا بدوى ياأبا عبد العال ياآل البيت يارجال الله ثم لا يلبثون أن يختفوا عن الابصار فاذا بطلت الحرب عادوا الى حلقات الذكر وتكلموا برطانتهم ثم يقولون قتلنا من الكفار كذا وذبحنا بحد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم ان شاء الله حتى نأتى على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحية مع معسكر على الروبى عند النداء فى العسكر بالخروج الى القتال

وبينما كانت الحال على ماوصفنا فى مواقع التل الكبير وكفر الدوار والصالحية كان العامة بطنطا ودمنهور والمحلة الكبرى يفعلون مالا يوصف من النهب والقتل والعربدة ويكثرون من التطواف ليلا ونهارا جماعات وبأيديهم العصى والمساوق وهم فى ضجة وجلبة وصياح بيامولانا ياعزيز أهلك عسكر الانجليز وغير ذلك من العبارات التى لفقوها * حدثنى من شاهد فعال العامة بمدينة طنطا ورآها رأى العين بعد كلام قال * ولم أتجاوز البيت يعنى بيته حتى رأيت البلد يضج بالغوغاء وصراخ النساء والاطفال وتجمع الناس فى الازقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا فسألت عن السبب فقيل لى ان الحرب على أبواب البلد وقد ثار المسلمون على النصارى يذبحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت فى نفسى فتنة ورب البيت وأسرعت الى مقر ديوان المديرية فرأيت أمامه من المناظر المحزنة

مطلب فيما كان عليه المتطوعون من أصحاب الطرق والاشاير

مطلب المذابح فى داخلية البلاد

والمشاهد الموجعة ماتنفطر منه الاكباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الارض كالبهائم المأخوذة الى السلخ بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصى والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصارى ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستلمه جماعة آخرون فنهم من يجره من رجليه ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزاؤه اه

وحدثنى أيضا من شاهد ماوقع فى نفس ذلك اليوم بالمحلة الكبرى بعد كلام قال * وقد كنت فى سوق السلطان وكان الوقت بالغا اذ ذاك من النهار حد الساعة السابعة اذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمارة والسوقة وكلهم من السفلة والرعاع وفى أيديهم العصى والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أوزقاق انضم اليهم أهله من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون بالتجار اقفلوا حوانيتكم لان النصارى جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا الى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفا على العيال وكان معنا فى هذا الحين حسين افندى سامى مأمور تاريع المديرية فأبى الذهاب الى بيته وقال حتى أرى ماأصاب المسيو كيروس مفتش تاريع المحلة فذهبنا معه وقبل أن نصل الى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون يامسلمون اقتلوا النصارى وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد ووصلنا الى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقا وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين سامى وفرق جموعهم ودخل على المفتش وهدأ روعه وسكن جأشه وسار الاهالى رجالا ونساء وأولادا وهم يصيحون الله أكبر الله أكبر ويهجمون على الخانات ودكاكين التجار وينهبون مافيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف الى قبيل الغروب بقليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسى التاريع الاجانب وقد كانوا مقيمين فى ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولآخر ثلاث بنات أبكار وغلام وحماة التجؤا كلهم الى بيت محمود أفندى مفيد مأمور مركز سمنود فآواهم وذب عنهم جهد الاستطاعة - قال - وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البترول وألقوا البعض الآخر فى البحر ومنهم من دفن فى تل الواقعة اه

﴿ قلت ﴾ وكانت فعال العامة بالقاهرة أيضا بالغة حد الجفاء والشدة ولكن لم يقع شئ من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة ابراهيم فوزى بيك وتطوافه فى الشوارع والازقة والحارات ليلا ونهارا وقد رأيت جماعة منهم يوما يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (برنيطة) بالية والكلب فى غاية الذهول والكسل كأنه أطعم شيأ من المخدرات كالحشيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظما والتعب وهم يصيحون حوله بياسمور باوش القلة من قال لك تعمل دى العملة وما زالوا على هذه الحال من التطواف الى وقت الهاجرة ثم أتوا الى قشلاق جند الحرس الخديوى برحبة عابدين فلما

صاروا

صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة فصاح عند ذلك الجمع صياحا متتابعا الله الله قطع الله رأس سمور قطع الله رأس سمور يريدون سمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب فى كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الابصار ولجأت الى مواقد الحمامات وخرائب المدينة وكان اذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سمور انذعر وتراجع واختفى عن الابصار فرارا من الموت وكأن الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس أقول والشئ بالشئ يذكر حدثنى صاحب لى قال حدثنى أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوما فعال العامة بالكلاب فى تلك الايام فتبسم وقال ليس فى الامر مايدعونى الى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى الى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الانجليز ومعه زوجته للتفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول فى شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمبانى والمساجد والمعامل وكانت يومئذ كثيرة الى أن سار يوما الى ناحية الحسينية والدامرداش ومعه زوجته وكان زى ملابس الامراء فى ذلك الحين قبعة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطا من الامام ولفافة حول العنق وكان كساء النساء فسطانا تحته آخر بأسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الاقطة والاربطة فلما وصلا الى ناحية الحسينية عرج بهما ترجمانهما الى ناحية المذبح ليرا كيفية الذبح فى هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الاشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الامير وزوجته قومة واحدة فذعرتهما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك الخطة وخلصوهما فعادا الى المدينة ولبثا ما شاآ ثم عزما على الرحيل عن مصر فذهبا لوداع محمد على باشا فلاطفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما فى البلاد — قال وكان محمد على باشا شديد الرغبة فى تقدم البلاد وايرادها موارد العز والرفاهية ميالا الى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة محبا لخيرها جهد الاستطاعة فقال الامير قد رأينا فى بلادك أيها الامير كل ما يسر الخاطر ويقر الناظر ويبشر ان شاء الله بخير المستقبل غير أنا قد رأينا أيضا شيأ لم نره فى بلاد الأمم المتمدنة قال وما هو قال رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشا عرمرما من الكلاب فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فذعرتنا فتداركنا نفر من أهل تلك الخطة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتمدنة أن لا يترك فى شوارعها مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جدا ما أصابكما ولكن اذا عدتما الينا فى السنة القابلة ان شاء الله فلا تريان الا مايسركما فشكراه وودعاه وانصرفا فارسل الباشا فى الحال فى طلب كتخداه لاظه أوغلى فدخل عليه فقال عليك من الساعة ان تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسيرها الى الدار البيضاء وطره والجيزة



وإياك أن تبقى منها واحدا قال فنزل الكتخدا وسار الى ديوانه ودعا اليه مشايخ الحارات وقال تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك واحدا منها حل به ما يكره فنزل مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون فى الازقة والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة فكانوا يسيرون بها عشرات ومئات الى الدار البيضاء وطرا والجيزة فادركت الكلاب ماهنالك واختفت عن الابصار فشددوا فى طلبها أياما حتى ظنوا أنه لم يبق منها واحد فانكفوا فلما كان بعد بضع أيام ظهر منها ما كان مختفيا وهى فى أسوإ حال من الجوع وجعلت تسعى فى طلب الرزق ولا خفاء أن عادة السوقة وأصحاب الحوانيت اذا جلسوا فى حوانيتهم صباحا لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالفول المدمس والبصل والخبز ويجلس الرجل منهم وظهره الى الطريق فكان اذا أتى كلب ووقف أمام الحانوت يطلب صدقة التفت اليه صاحب الحانوت فيقول له اخسأ ـ جو ـ عصا ـ امش ـ فلا يتحرك فاذا قال الغلام مناد ياولد على شيخ الحارة ـ هرول الكلب مسرعا واختفى عن الابصار لادراكه ماوراء حضور شيخ الحارة من القبض عليه والتغريب وبقى الحال هكذا فى منع الكلاب وطردها عن الحوانيت أياما كثيرة

وكثرت فى هذا الحين شرور مهاجرى الاسكندرية وعظمت فعالهم فعاثوا وأفسدوا وبالغوا فى ايذاء الناس بلا فرق ولا تمييز فابعدوهم عن مصر والقاهرة وفرقوهم فى الاقاليم القبلية والبحرية وأسكنوا من بقى منهم بالقاهرة فى دور الحكومة وبيوت الامراء الذين لجؤا الى الخديوى بالاسكندرية وأنزلوا جماعة منهم فى بيت محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على ما فيه من فرش وبسط وأثاث نكاية وانتقاما ورتبوا لهم خبزا فى كل يوم وأقاموا عليهم من يقوم بتدبير أمورهم واحضار طعامهم فى أوقاته فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا ولا ينفكون عن المهاترة والشناعة والملاكمة بعضهم مع بعض رجالا ونساء وأولادا وكان الرجل منهم اذا أعوزه الافيون أو الدخان أو بعض المكيفات عمد الى الحوانيت المقفلة ففتحها وأخذ ما فيها بلا خوف ولا اكتراث فكان ابراهيم فوزى بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينفك عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بايديهم العصى فاذا رأوا جماعة من هؤلاء الحرافيش فى احدى الطرق فرقوا جمعهم وباعدوا بينهم وبين بعض كى لا يتمكنوا من فعل شئ بالدور والحوانيت المقفلة وكانت فعال من تفرق منهم فى القرى والبلدان غاية فى الشناعة والايذاء أيضا فكانوا ضربة على البلاد وأهلها

ولما تكامل حضور العساكر الانجليزية الى مدينة الاسماعيلية جعل مقدمهم يستكشف مواقع العرابيين ومعاقلهم وحصونهم التى كانوا يشتغلون بعملها بين الاسماعيلية والمحفوظة وكانوا قد تمكنوا من منع الماء عن الاسماعيلية وبور سعيد والسويس فرأى مقدم الانجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى

أوقع

أوقع بهم واستولى على مواقعهم ثم كر عليهم العرابيون فأخرجوا الانجليز من مراكزهم
ولكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال * وسار جماعة منهم قبل ظهر السادس من شوال يبلغ
عددهم زهاء الثلاثمائة قاصدين نفيشة فوصلوا اليها فلم يجدوا فيها أحدا من العرابيين فانهم
لما علموا بقرب الانجليز منهم تركوا نفيشة وساروا الى المحسمة فعلم الانجليز بخبرهم فتبعوهم
وضيقوا عليهم وأخذوا عليهم الطرق من كل جانب فتقهقروا من المحسمة وتركوا بعض ماكان
معهم من المؤن والذخيرة وآلات الحرب وكان محمود باشا فهمى ناظر الاشغال العمومية وأحد
زعماء العصابة مع العرابيين يومئذ فى ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الامامية للتل
الكبير فتركه العرابيون وتقهقروا فلاقاه نفر من الانجليز عند محطة السكة الحديد ولم
يعرفوا من هو الا بواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لانه كان لابسا لباس الملكيين وبيده
مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندى المجروح وكان الجندى جالسا قام وأدى له اشارات
التعظيم ففطن الانجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليلتهم تلك فى حجرة صغيرة ثم أصبحوا
فسيروا به الى الاسماعيلية فلما تمثل بين يدى مقدم الجيوش الانجليزية قال له أأنت ممن
تركوا العسكر وولوا الادبار أو ممن أسروا قهرا قال انى أسير ولست منهزما فأمر به مقدم
الجيوش فنقلوه الى الاسكندرية وسجنوه فى دار محافظة المدينة وتقدم الانجليز فى ذلك
اليوم يريدون قطع شأفة العرابيين فخرج عليهم جماعة من العرابيين ورموا عليهم
بالبنادق رميا متتابعا وكذلك رمى الانجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران
العرابيين بالانجليز فعلا رديئا وكان القيظ لايطاق فى ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضا بهم من
الموت مالم تفعله نيران العرابيين وظهرت مدافع المصريين أيضا وتابعت الرمى بالقنابل على
مواقع الانجليز واشتدت فى الرمى حتى اتصلت بمؤخر الانجليز وفعلت بهم فعلا أليما وكان
العرابيون قد حصنوا التل الذى هنالك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا اذ
كان يشتغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم
نيران الانجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا الى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الانجليز فى
عاشر شوال وقاتلوهم قتالا عنيفا وكان مقدم المصريين فى هذه الواقعة الفريق راشد باشا
حسنى الجركسى المعروف بابى شنب فضة فقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت
نيران مدافع العرابيين بالانجليز فعلا رديئا وكانت قنابلهم تأتى الى مواقف الانجليز تباعا
محكمة الرمى والاصابة حتى اتصلت بموقف ولسلى مقدم الجيوش فقتلت من حاشيته وجرحت
فشهد الانجليز لاصحاب المدافع وامتدحوا كفاءتهم وما زالوا على هذه الحال والرمى متراسل
من الفريقين وراشد باشا يدير الحركة ويتابع الاشارات لاصحاب المدافع وهو بين ملتقى
النارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفشلوا وانهزموا فتبعهم
الانجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقفهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخيرة
واشتد التعب بالانجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضوا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع

لاياكلون سوى البقسماط اليابس ويشربون الماء الآسن الممزوج بدماء القتلى من الانسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئا ووقع فيهم الموات واشتدت بهم العلل والامراض وحاول العرابيون رجوع الكرة عليهم واسترجاع مواقع القصاصين منهم فخرجوا عليهم بقوتين احداهما قدمت من مواقع التل الكبير والثانية من مواقع الصالحية وكان مقدم هاتين القوتين فى ذلك اليوم على باشا فهمى المعروف بالديب فخرج الانجليز لقائهم واقتتلوا قتالا عنيفا فظهر الانجليز على العرابيين وجرح على الديب جرحا خفيفا وتقهقر المصريون وانفشلوا وتبعهم الانجليز وقد مات فى هذه الوقعة من كبار الانجليز وصغار ضباطهم جماعة وعدد من الجنود وتحصن العرابيون بعد ذلك فى حصون ومعاقل التل الكبير فتبعهم الانجليز رويدا فجعل المصريون يرمون عليهم بالقنابل رميا متتابعا غاية فى الاحكام فتربص الانجليز حتى تكاملوا * حدثنى صاحب لى قال ودبر العرابيون الامر ورتبوا كيفية هجومهم على الانجليز والايقاع بهم بان تسير من مواقع الصالحية قوة مؤلفة من الجنود بين مشاة وركبان ومدفعيين وجماعة من العربان بقيادة على الروبى والبارودى فتأتى على ميمنة وخلف الانجليز قبل مطلع الفجر الاول وتسير قوة أخرى من مواقع التل الكبير وتأتى على ميسرة وخلف الانجليز أيضا بعد وصول القوة الاولى بقليل ثم تلتحق القوتان بطرفيهما فيصير الانجليز فى القلب ويقطعان عنهم خط الرجعة الى المحسمة ويعملان فيهم القتل والتشريد قال وسمعت أهل الحرب يقولون كانت هذه الخطة غاية فى الاتقان بالغة حد التفنن الحربى ولكن لحظ الانجليز لم يتم للعرابيين شئ من ذلك اذ تأخر حضور عسكر الصالحية فى الميعاد المحدد لالتقائهم بجند التل الكبير وانقسم الرواة فى سبب تأخرهم الى قسمين قسم قال ان الخبراء من العربان الذين تولوا الاسراء بالجند ليلا من صحراء الصالحية الى المحسمة قد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا الاونور الفجر قد لاح وهم على قيد فراسخ من المواقع لخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحققوا الامر فسمعوا أصوات المدافع مترادفة فرجعوا على أعقابهم القهقرى وقسم قال ان الذى أوجب تأخرهم انما هو ضخامة الجيش وثقل مدافعه وصعوبة السير على رمال تلك الصحراء المتموجة فلما وصلت طليعة جند التل الكبير الى مقربة من مواقع الانجليز وكان الانجليز قد أحسوا بما دبره العرابيون قابلهم فرسان الانجليز بالسيوف شمال المراكز وأعملوا فيهم الضرب فتقهقروا وعادوا الى الوراء بدون قتال ولجؤا الى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا فى هذه الخطة التى كان عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده

مطلب قيام العساكر من الصالحية وانفشالهم

وبدأت تظهر من هذا الحين طلائع الاخبار ببعض المدن وفى القاهرة بعزم السلطان على اشهار عصيان أحمد عرابى ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقون واتصلت هذه الاقوال ببعض أخصاء أحمد عرابى والمقربين اليه من أهل البلاد فبالغوا فى كتمانها وكانهم قد أشفقوا عليه فكثرت رؤياهم وأحلامهم أوهم أكثروا منها وجعلوا يذيعونها بين العامة

وصغار

وصغار الناس عليها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عرابى والنداء بخروجه وشقه لعصا الطاعة * حدثنى صاحب لى ممن كان فى ركاب أحمد عرابى بالتل الكبير قال وكثر وقوع الاحلام والرؤيات لبعض المشايخ والمتعممين من أهالى القاهرة ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها الى أحمد عرابى بالتل الكبير وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض مافى تلك الاقوال فرأيت أنها من الافك والبهتان بمكان عظيم وعلى الخصوص منها أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخها فقد أرسل أحدهم الى أحمد عرابى يوما يقول رأيت فى نومى الليلة البارحة كانى دخلت بستانا كثير الاشجار يانع الثمار تجرى فيه الانهار فأدهشنى حسن مافيه وتقدمت رويدا وأنا أسرح الطرف فى ذلك البهاء الظاهر والجنة التى لايعرف لها أول من آخر فبينما أنا على هذا الحال اذ أمسك بكتفى صبى مارأت عينى أجمل طلعة من طلعته وقال الى أين ياهذا أصلحك الله فقلت لا أدرى ورب البيت قال انظر الى يمينك ولا تجزع فنظرت فاذا بى أرى كرسيا من الزمرد الاخضر وبجانبه آخر من العقيق الاصفر ثم سمعت دويا كصوت النحل ومناديا ينادى انزل يامصطفى انزل ياأحمد انزل يامحمد فاشتد عند ذلك صوت الدوى وارتج المكان رجة مزعجة حتى كدت أسقط مغشيا على من شدة الخوف فلم ألتفت الا وقد جلس على ذلك الكرسى الاخضر انسان لم تر عينى أحسن شكلا منه وبيده سبحة حباتها من العنبر فنظر الى المكان نظرة المشفق ثم دق كفا لكف فحضر لديه فى الحال جماعة من الغلمان كانهم البدور اذا بدت وقبلوا الارض بين يديه وقالوا لبيك ياحبيب الله قال أين المجاهد أين الغازى أين نسل ولدى الحسين فغاب بعضهم لحظة لطيفة وعادوا وأنت بينهم أيها الامير الجليل متشحا بحلة من السندس الاخضر وعلى وجهك هيبة وجلالة الله أكبر فقال النبى عليه الصلاة والسلام تقدم يا أحمد فتقدمت وأنت خاشع مطرق فمد النبى صلى الله عليه وسلم لك يده الشريفة فقبلتها مبتهلا وقلت انظر يارسول الله مافعل الكفار بنا ونحن فى جوار عترتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقوا أرض الكنانة بخيلهم ورجلهم فعاثوا وأفسدوا وأراقوا الدماء هدرا ثم اغرورقت عيناك أيها الامير بالدموع فنظر اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باسم وقال خفف عنك ياأحمد فسوف تظفرون بهم وينصركم الله عليهم نصرا مبينا ثم ناولك سيفا قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر وقال اضرب بهذا رقابهم ولا تكف عنهم حتى يقتلوا باذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانى والله فى يقظة لافى منام صحت فرحا وقلت الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبر فانتبهت من نومى وكانت رؤياى منقوشة على صدرى فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته * قال الراوى لهذه العبارة * وكانت هذه الاكاذيب تتلى بين المحاربين فى مواقع التل الكبير من ضباط وجند وعربان وفى مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامة والسوقة الذين يتبعون

الجيش فى مواقع القتال وهؤلاء يبثونها محشوة بالافك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لايشكون قط فى صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة فى جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على امداد المحاربين فى مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس و يموّهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الاحلام والمنامات محشوّة بالخلط والتحريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنة واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتطاولون على مقام الخديوى بالسباب وفحش القول ويرمونه بالمروق ويتهمونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبدالله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائرمفتريانهم محلا عظيما • وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنة تتأجج فى جوف البلاد كان سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية يكثرمن تهديد رجال المابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذى كان مشدودا بينهم و بين أحمد عرابى ولاسيما منهم الشيخ أحمد أسعد امام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح مابين الباب العالى ومقر السلطان ويعمل بدهائه ويدبر بفطنته وذكائه ويلح بطلب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابى • وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما صرف وجه أحمد عرابى وأشياعه عن السلطان ورجال المابين فيفتتنون وتنفصم عروة اتحادهم والثانى تنزيل أحمد عرابى من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمروق واعتبارأن حربه للانجليز حرب غير جائزة ولا هى من الجهاد فى شئ كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر بالسلطان ورجال مابينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابى وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك الى الآفاق وأوعز الى صاحب جريدة الجوائب العربية التى تطبع فى دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسيرها الى الهند ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية فوصل منها الى مدينة الاسماعيلية شئ كثير فأمر بمقدم الجيوش الانجليزية فنشروه على أيدى الجواسيس من العربان والفلاحين فى معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر مافيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفشلون وعم خبر ذلك بين الافراد فصدقوا به كثيرا

وكان ممن جاء مع عسكر الانجليز الى الاسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحزبين للخديو وقد سيرهم الخديو فى ركاب مقدم العسكر الانجليزية ليكونوا له عونا على قضاء حاجاته و يمهد أمام جيوشه مايحدثه أهالى القرى من الموانع والعقبات فجمع اليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العرابيين واستمالهم وأجزل عطاءهم وقرب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا الى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر مارسم به السلطان من عصيان عرابى

ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الامر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أوكادوا واتصل خبر ذلك بأحمد عرابى وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقوا على كتمانه واخفائه الى حين ولكنهم لم يفلحوا اذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر * قيل وجاء فى هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الانجليزية فاجتمع بأحمد عرابى فى سرادقه وتحادثا ساعة فيما لم يصل أحد الى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا الى معسكر الانجليز فظهرت بعد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابى دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الخول فلم يكن له هم فى هذا الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة الاوراد والاحزاب وتقليب سبحته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس الا القليل من مقدمى العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الأمامية اسمه على يوسف المعروف بعلى خنفس فراسله محمد سلطان باشا أيضا واستماله الى طاعة الخديوى فأطاع واستوثق لنفسه * فلما كان ثامن عشرى شوّال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الانجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا فى حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهم موقدة ايهاما بانهم متربصون فى مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا فى خدمة الخديوى بالاسكندرية وجماعة من عربان الهنادى يدلونهم على الطريق ومازالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرابيين فأخلى لهم على بك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر فى هذا الحين نياما على الحصون والمتاريس والضباط فى فراشهم بأقصة النوم كأنهم فى أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين ومازال الانجليز حتى صاروا فى وسط المعاقل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العرابيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وحملوا على الانجليز فلم يثبتوا الا لحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم وولوا الادبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمى بالقنابل فركب الانجليز عند ذلك أقفيتهم وأعملوا فيهم السيف وأثخنوا فى قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابى أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبيس وقد ترك عرابى ما كان فى سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الانجليز وتراخوا خلفهم فلم يدركوهم أو لم يشاؤا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا انشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة انشاص قطار من قطارات المهمات قاصدا القاهرة فتزاحم أحمد عرابى ومن معه حتى أدركوه وركبوا فى آخر عربة فيه فسار

بهم الى القاهرة فدخلوها فى الساعة الثامنة عربى نهارا من تاسع عشرى شوال والناس فى شاغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضجيج فى الشوارع والحارات فقد كان العامة وأرباب الطرق والاشاير وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمرا فى ذلك اليوم ويصيحون بيالطيف * باخبار اهلاك عسكر الكفار وكان المؤذنون يصيحون على المنائر ويبتهلون الى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدو فلما دخل عرابى القاهرة طاف صاحب الشرطة ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع فى الشوارع ويشدد على العامة بملازمة السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة الى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف والضجيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابى ومعه رأس سبور أميرسفن الحرب الانجليزية ورؤس كثيرين من كبار الانجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحدب وتبعتهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبتهم وتزاحمت الغوغاء فى الشوارع والطرق وكثر صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة فخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف أصحاب البيوت وتطيروا من شر ذلك اليوم العصيب وسار عرابى بعد وصوله الى قصر النيل وجمع اليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الانجليز فى جوف الحصون والمعاقل قيل وشكى وبكى فتكلموا فى الامر طويلا فألح عليهم بالتعجيل فى انشاء الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكامات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من العسكر ويلتقوا بالانجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب الطائف فى ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض هممهم فاختلفت كلمتهم وكان ممن حضر معهم يومئذ فارا من الصالحية على الروبى فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفى فعقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين والوجهاء والاعيان فقص عليهم عرابى ماجرى وبكى وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال وانى مازلت على قدم الدفاع ورد العدو عن البلاد مادام فى رمق من الحياة وجعل ينتصب فرد عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال * أو ما كفاك ياهذا أن دمرت الاسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضا بسوء فعالك فان كنت لم تبق فيها على شئ فان لنا فيها عيالا وأطفالا وأموالا كالانسلم بضياعها ضحية لاغراضك فكفى كفى ماجرى * فعند ذلك أطرق عرابى رأسه خجلا ولم ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الاخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم التعرض لعسكر الانجليز بشئ ما وأن يتقدم أحمد عرابى وأصحابه الى مقام الخديوى فى طلب العفو عنهم بعريضة يرفعونها اليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملأها بالطعن والتنديد بفعال الانجليز وشحنها بالافك والتغرير والتضليل وقص فيها ما وقع من البداية الى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شئ من ذنوب أحمد عرابى وذنوب أصحابه ثم جعل يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر فى ذلك المجلس أيضا بطرس باشا غالى وكيل

الحقانية

الحقانيــة فتكلم عبــد الله فى ذلك وقال ان المقام الآن لا يحتمل شيئا من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليــك ما يحسن رفعــه الى مقام صاحب الامر فأملى عليــه شيأ من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابى وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهــذه السفارة محمد رؤف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبى مرافقتهــما وقاموا من ساعتهم فى قطار مخصوص فسار بهــم الى الاسكندرية فلم يصــلوا الى كفر الدوّار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبــد الله برسالة من عرابى وأصحابه فتربصوا حــتى حضر عبــد الله على قطار مخصوص ومعــه عريضــة أخرى يخالف ما فيها ما فى العريضة الاولى وقال يقول لكم عرابى باشا لا ترفعوا الى الخــديوى العريضــة الاولى وارفعوا اليه هــذه ● وكان لما قام رؤف باشا ومن معــه الى الاسكندرية فكر عبــد الله فيما سيلقاه من العــذاب اذا حوسب كل بعمــله فزين لعرابى العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضــعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب الى الخديوى قصــة يدفع بها عن نفسه عار الذل وشماتة الاعــداء فأجابه عرابى الى ذلك وعبد الله انما يريد بهذه الحيــلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصــل الى كفر الدوار اختفى ولم يوقف له على أثر الى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله ان شاء الله

ووصل رؤف باشا ورفاقه الى الاسكندرية فى غرة ذى القعدة بعد العناء الشديد وتمثــل هو وبطرس باشا بين يدى الخديوى ورفعا اليه عريضة عرابى وأصحابه فــلم يقبلها وأمر بعلى الروبى فقبضوا عليه وأودعوه فى السجن منفردا عمن أتى بهم الانجليز من مواقع الحــرب من العرابيين وفرح أهــل الاسكندرية يومئــذ فرحا لا يوصف وأتت رسائل التهانى الى ديوان الخديوى من كل صوب وطــاف طوائف الفرنجة بالاسكندرية يهللون وينشــدون أناشــيد النصر ونزل المــترمالت قومندان جنرال الانجليز الى الاسكندرية ودخل على الخديوى وهنأه من قبل ملكة الانجليز ومناه بالامانى الكثيرة ● أما المقاتلون من الانجليز بواقع التل الكبير فانهم لما دخلوا فى وسط معاقل العرابيين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الالفين وسار الباقون قاصــدين القاهرة من طريقــين الاولى بجانب السكة الحديد الموصــلة الى مدينــة الزقازيق وبنها وبلبيس والثانية على ضــفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كى يصلوا اليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينــة الاسكندرية وكان ســير فرسانهــم الى الزقازيق غاية فى البطء والفتور بسبب تعب الخيــل وضعف الجند عن الحركة فلما صاروا على قيــد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختــلال فلم يروا من يردهم فمال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها فى هذا الحين خمســة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثــير من المرضى والجرحى فأربعــة من سائقى هــذه القطارات لما رأوا اقتراب الانجليز منهــم قاموا وأسرعوا فى ســيرهم فنجوا بمن معهــم من

الوقوع فى أيدى الانجليز أما الخامس فانه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الانجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العرابيون ما حل بسائق القطار وهجوم الانجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الانجليز لقلة عددهم فنجا العرابيون جميعا وفى نحو الساعة الثالثة عربى نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثانى الذى سار الى القاهرة على ضفة الاسمعيلية فانه عبر الترعة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثا جدا على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى مدينة بلبيس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا فى ثانى يوم الذى هو غرة ذى القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه وما زالوا يجدون السير حتى بان لهم سواد القاهرة فى نحو الساعة العاشرة ونصف عربى نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم فى أسوأ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية فى تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضا زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا وأخرجوا من كان بها من العسكر المصرى وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم فى حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والاعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنايات قيل ولم يكن مقدم العساكر الانجليزية الذين صعدوا الى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاه على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهما فأطاعا وسارا مع الانجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية فى تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملى العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا باسلحتهم ونزلوا من ساعتهم الى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الانجليز سائر المواقع والابواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلى كبير مقدمى الجيوش الانجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع لملاقاتهم بعض موظفى الحكومة ممن كانوا فى حبوس العرابيين بالقاهرة وابراهيم فوزى بيك صاحب شرطة المدينة ♦ وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره الى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابى وكافة أصحابه والاتيان بهم الى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب الى حيث أحمد عرابى فوجد معه طلبه عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابى ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام ومعه طلبه عصمت وسار وا جميعا الى العباسية وأرسلوا فى طلب على يوسف أيضا وعلى يوسف هذا هو الذى سلم للانجليز قلعتى الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق فى مقدمات التل الكبير

مطلب
دخول الجنرال ولسلى قائد جيوش الانجليز الى القاهرة ومعه محمد سلطان باشا

كما تقدم بيان ذلك فى محله * فلما دخل عرابى ومن معه فى وسط معسكر الانجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالبنادق والحراب ثم أخذوهم الى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسى ورجلاه ممدودتان على كرسى آخر وحوله جماعة من عسكره وترجمانه فلما تمثلوا بين يديه لم يلتفت اليهم برهة طويلة ثم نظر الى أحمد عرابى نظرة الظافر وقال أأنت عرابى باشا قال نعم قال أأنت الذى عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولاك وحاربته بغير سبب حتى سقطت فى أيدى جند ملكة انجلترا فتلجلج عرابى ولم يرد الجواب فالتفت اليهم الجنرال وقال اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها وتقدموا بها اليه وقالوا اليك نسلم سيوفنا والى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كاسراء الشرف ألقوها الى الارض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار الى بعض صغار الجند الذين حوله فاخذوها وقبضوا على عرابى وطلبه عصمت وعلى يوسف وألقوهم فى سجن العباسية فى تلك الليلة * هذه رواية * وفى رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدى الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا اننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بانفسنا الى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وسيتضح لها أنا ما عملنا الا بواجبنا ولم نسع الا خلف حقوقنا وان عندنا من العسكر المنتظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم فى مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء فيهم ولكننا لم نقدم على فعل شئ بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بانفسنا فداء الوطن ﴿قلت﴾ وعندى ان لاحقيقة لهذه الرواية فقد كان موقفهم فى تلك الساعة محفوفا بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم الا اذا كانوا على يقين من السلامة وبينة من أمرهم وهذا ليس بالامر البعيد فقد كان فى انسحاب أحمد عرابى من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الانجليزية بين حصون ومعاقل المصريين على ما مر بيانه سر سيتجلى عليك فى محله ان شاء الله

ولبثوا فى سجن العباسية الى يوم الاربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم الى قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الانجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما فى دوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكراسى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الاثمان أو بشئ من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الاوراق والدفاتر الديوانية والادوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسراى عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسراى الحرم الخديوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسراى المدرسة التى برحبة عابدين وانبثت العساكر الانجليزية فى شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخاطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود

منهم يكثرون التطواف بالخطة المعروفة بخطة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يامسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلاصكم من أيدى العصاة المارقين ٭ واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكر الانجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة فى ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات فى أوقاتها ٭ وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتانى الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لى اسمه عبد القادر بيك فهمى من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت اليه فرسم لنا بأن نهيئ ديوانا يناط بلوازم العسكر الانجليزى وكتب بذلك الى صاحب شرطة المدينة والى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذى كان به ديوان المحافظ وقنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والارز والسكر والفلفل والعسل والشاى وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس فى كل يوم صباحا مساء قيمته ألف جنيه مصرى وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات

مطلب
ورود كتب الخديو من الاسكندرية بالقبض على سائر من كان له يد فى اضرام نار الفتنة

وعادت الاشغال الديوانية بعد أيام الى سابق مجراها ووردت كتب الخديو بالقبض على سائر من كان له يد فى اضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعوهم فى سجون بيت الشرطة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فأخش المديرون والمحافظون فى معاقبة الناس وبالغوا فى ايذائهم وعلى الخصوص منهم مديرى الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذا بالشبهات وملآ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتزاحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه فى ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فانكمش الناس وعم الخوف وبات كل لا يأمن على نفسه وولده ٭ وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقائه يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية فرسم له باحصاء ما فى تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة وخمسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك الى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتى من الانسان والحيوان وبصرف جميع العساكر الى أوطانهم فانصرفوا ما عدا الضباط فانه أمر فسيروا الى سراى الرمل تخفرهم جماعة من فرسان الانجليز ٭ قال بعض الانجليز ٭ وكانت مواقع كفر الدوار غاية فى المنعة وحسن الوضع

مطلب
فيما كانت عليه معاقل كفر الدوار

الهندسى والطبيعى قل أن يمكن التغلب عليها الا بعد معاناة الاهوال وموت الالوف من الابطال اذ كانت تنقسم الى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الاوحال والمرابك ويتفرع من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة الى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قل أن يمكن معها للعدو الظفر بها وكان أمام

كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الاول والثانى والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الاول منها قلعة تسمى قلعة الاسلام اعزازا للدين وهى من أجل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكمها وضعا اهـ

وكان العرابيون قد سدوا خط السكة الحديد بسد من البناء والتراب فرسم الجنرال وود بكسر هذا السد فكسروه بشئ من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشئ كثير من الجرائر والمقصبات والاطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الاسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه ● ولما أنجز يعقوب سامى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه اليه وقال لم يكن فيما فعلته الى الآن مع أصحاب الثورة الا طاعة مولاى الخديو وكمال الاخلاص فى خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابى فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال الى كلامه بل قال له وما الذى جرى للقائمقام الايطالى مسيو بولشى الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الايطالية ولحق بعرابى فى كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال الى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه ثم قال ذلك وسلمه الى نفر من الانجليز فساروا به الى الاسكندرية ليجازى عما فعل ● واستسلم أيضا من كانوا فى رشيد وحصون أبى قير والبرلس وطابية أشتوم الجميل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والمتاريس وجدّوا فى تحصين مواقفهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجميل وبقية الحصون ففترت هممهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتا ولم يفلح عبد العال فى ردهم وجاء الخبر بذلك الى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد الى دمياط فلما وصلوا السنانية ارسل كبيرهم الى عبد العال يقول انا لم نحضر الى هنا الا لنأخذك كرها اذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول انى مريض فعبر كبير الانجليز النيل الى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الانجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل الى السنانية ووضعوه ليلته تلك فى احدى عربات البضاعة والجند يخفره وأصبحوا فسيروا به الى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابى ومن معه وهى دار أعدوها لهم بجوار جامع أزبك عند رأس الازبكية

مطلب امتناع عبد العال بيك أبو حشيش من التسليم لعساكر الانجليز وما جرى له

وفعل الانجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها ما لا خير فيه وألقوا جميع ما وجدوه فى المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد فى النيل وقد كان شيأ كثيرا جدا

مطلب ما فعله الانجليز بمدافع القلاع والحصون

وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالانجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم * فلما تم للانجليز ما أرادوه من نسف مواقع كفر الدوار وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الاسكندرية الى أبى قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجبل وما بين هذا كله من المعاقل والابراج أنزلوا عسكرهم فى جميع المخافر ومراكز الأربطة بالاسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون فى الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم فى الطرق والشوارع العمومية وأماكن اللهو والقصف بخطة الازبكية والعتبة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتضاحكون فيهم ويمازحونهم أو يشوشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم الى المعسكرات فكان مقدمهم يرسل الاوامر تباعا الى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع فى الحانات والتشديد على باعة الخمور والمسكرات بالامتناع عن بيع الردىء منها اليهم والا بولغ فى عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة اذ تفشت الحميات الخبيثة بين العسكر كافة فى قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفى سائر المخافر حتى فى مساكن الضباط فأنشؤا الشفاخانات (وهى بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلأت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقالات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الانجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيق تعزف بألحان الحزن والحنان فاذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوادهم سيروا جواده خلف العجلة التى تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه فى ركاب السرج بشكل يخيل للرائى أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة اذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحموهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيأ من الضجر فاذا وصلوا بالميت الى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه وربما رثوه بشئ من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم فى الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفا كما أتوا وكانت المنية يشتد فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندى فأهلكت منهم خلقا كثيرا فاهتم لذلك مقدم الجيوش ورسم بارجاعهم الى أوطانهم وجاءه الامر بذلك فأخذوا يرحلون طائفة بعد أخرى الى مدينة السويس ومنها الى الاقطار الهندية على ظهور النقالات والشوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبولعيون بالعباسية وهم فى ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب الى عاصمة الانجليز فيمثلون بين يدى امبراطورتهم فتهنئهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن فى قتال العرابيين * هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التى دخلت فيها الجيوش الانجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان

الكثير

الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الاعراس والافراح والولائم وهم فى شاغل عن كل ماسوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابوليون بونابارته القاهرة بجيوش الفرنسيس سواء بسواء فكأن مدارك القوم هداهم الله لم تتصل الى شئ من الترقى من ذلك الحين الى الآن وفى ذلك مافيه من العجب العجاب

ونهض أصحاب صحف الأخبار من الانجليز يفصلون ويقيسون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والاطراء ثم جعلوا يعزمون بتذكر حروب بونابارته مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين مالاقته جنود بونابارته من التعب والموات بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقته جيوش الانجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدّوا أفعال مقدم عسكرهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعييب وقالوا ان الصورة التى هجم بها قائد الانجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلل بالغة حدّ الطيش الذى ما بعده الا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محنكا يجسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدو من احدى الدول الاروباوية فان إسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وان خروج مقدم عسكر الانجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى ليلا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجند وإسراءه وإياهم الى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراءه لمن أكبر الأغلاط وأتعس المناورات وقد عابوا أيضا طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا انها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الامر وشئ متفق عليه بين قائد العساكر الانجليزية وبين أحمد عرابى ومن معه من زعماء العصابة ولولا ذلك ما تمكن مقدم جيوش الانجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فنّ ونظام عسكرى * وكتب رجل اسمه جون نينى كتابا فى هذا الصدد يقول فيه * مالى أرى اخواننا الانجليز ولا سيما أصحاب صحف الاخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبونها كرامة لمقدم عسكرهم مع أن الامر ليس فى شئ من ذلك البتة لانه لما اشتدت الازمة واستحكمت على جيوش الانجليز حلقات الضيق قدم الى أحمد عرابى فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بان الانجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسيرون بعد ذلك الى بلبيس ليقصدوا الطريق منها الى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابى فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبيس جهد الاستطاعة كى لا يتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابارته عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيأ من ذلك وأرسل الى طلبه عصمت مقدم جند كفر الدوار يستمده ويقول له أرسل لى المدد بحيث

الجيش فى مواقع القتال وهؤلاء يبثونها محشوة بالافك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لايشكون قط فى صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة فى جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على امداد المحاربين فى مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس و يموهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الاحلام والمنامات محشوة بالخلط والتخريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنة واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتطاولون على مقام الخديوى بالسباب وفحش القول ويرمونه بالمروق ويتهمونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبدالله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائر مفترياتهم محلا عظيما * وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنة تتأجج فى جوف البلاد كان سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية يكثر من تهديد رجال المابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذى كان مشدودا بينهم و بين أحمد عرابى ولاسيما منهم الشيخ أحمد أسعد امام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح مابين الباب العالى ومقر السلطان ويعمل بدهائه و يدبر بفطنته وذكائه ويلح بطلب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابى * وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما صرف وجه أحمد عرابى وأشياعه عن السلطان ورجال المابين فيفتتنون وتنفصم عروة اتحادهم والثانى تنزيل أحمد عرابى من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمروق واعتبار أن حربه للانجليز حرب غير جائزة ولا هى من الجهاد فى شئ كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر بالسلطان ورجال مابينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابى وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك الى الآفاق وأوعز الى صاحب جريدة الجوائب العربية التى تطبع فى دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسيرها الى الهند ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية فوصل منها الى المدينة الاسماعيلية شئ كثير فأمر بمقدم الجيوش الانجليزية فنشروه على أيدى الجواسيس من العربان والفلاحين فى معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر ما فيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفشلون وعم خبر ذلك بين الافراد فتحدثوا به كثيرا

وكان ممن جاء مع عسكر الانجليز الى الاسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحزبين للخديو وقد سيرهم الخديو فى ركاب مقدم العسكر الانجليزية ليكونوا له عونا على قضاء حاجاته ويمهد أمام جيوشه ما يحدثه أهالى القرى من الموانع والعقبات فجمع اليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العرابيين واستمالهم وأجزل عطاءهم وقرب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا الى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر ما رسم به السلطان من عصيان عرابى

ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الامر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أوكادوا واتصل خبر ذلك بأحمد عرابى وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقوا على كتمانه واخفائه الى حين ولكنهم لم يفلحوا اذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر ٭ قيل وجاء فى هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الانجليزية فاجتمع بأحمد عرابى فى سرادقه وتحادثا ساعة فيما لم يصل أحد الى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا الى معسكر الانجليز فظهرت بعد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابى دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الحول فلم يكن له هم فى هذا الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة الاوراد والاحزاب وتقليب سبحته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس الا القليل من مقدمى العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الأمامية اسمه على يوسف المعروف بعلى خنفس فراسله محمد سلطان باشا أيضا واستماله الى طاعة الخديوى فأطاع واستوثق لنفسه ٭ فلما كان ثامن عشرى شوال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الانجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا فى حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهم موقدة ايهاما بانهم متربصون فى مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا فى خدمة الخديوى بالاسكندرية وجماعة من عربان الهنادى يدلونهم على الطريق ومازالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرابيين فأخلى لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر فى هذا الحين نياما على الحصون والمتاريس والضباط فى فراشهم بأقصة النوم كأنهم فى أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين ومازال الانجليز حتى صاروا فى وسط المعاقل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العرابيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وجالوا على الانجليز فلم يثبتوا الالحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم وولوا الادبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمى بالقنابل فركب الانجليز عند ذلك أقفيتهم وأعملوا فيهم السيف وأثخنوا فى قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابى أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبيس وقد ترك عرابى ما كان فى سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الانجليز وتراخوا خلفهم فلم يدركوهم أو لم يشاؤا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا انشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة انشاص قطار من قطارات المهمات قاصدا القاهرة فتراكم أحمد عرابى ومن معه حتى أدركوه وركبوا فى آخر عربة فيه فسار



بهم الى القاهرة فدخلوها فى الساعة الثامنة عربى نهارا من تاسع عشرى شوال والناس
فى شاغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضجيج فى الشوارع والحارات فقد كان العامة
وأرباب الطرق والاشاير وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمرا فى ذلك اليوم ويصيحون
ياالطيف • باخبار اهلك عسكر الكفار وكان المؤذنون يصيحون على المنائر ويبتهلون الى الله
بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدو فلما دخل عرابى القاهرة طاف صاحب الشرطة
ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع فى الشوارع ويشدد على العامة بملازمة
السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة الى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف
والضجيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابى ومعه رأس سيمور أميرسفن الحرب الانجليزية
ورؤس كثيرين من كبار الانجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحدب
وتبعتهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبتهم وتزاحمت الغوغاء فى الشوارع والطرق وكثر
صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة نخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف
أصحاب البيوت وتطيروا من شر ذلك اليوم العصيب وسار عرابى بعد وصوله الى قصر النيل
وجمع اليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الانجليز فى جوف
الحصون والمعاقل قبل وشكى وبكى فتكلموا فى الامر طويلا فألح عليهم بالتعجيل فى انشاء
الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكامات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من
العسكر ويلتقوا بالانجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب
الطائف فى ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض هممهم فاختلفت كلمتهم وكان ممن حضر
معهم يومئذ فارا من الصالحية على الروبى فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفى
فعقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء
الروحانيين والوجهاء والاعيان فقص عليهم عرابى ماجرى وبكى وبالغ فى الشكوى وعظم
البلوى ثم قال وانى مازلت على قدم الدفاع ورد العدو عن البلاد مادام فى رمق من الحياة
وجعل يتعصب فرد عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال • أو ما كفاك ياهذا أن
دمرت الاسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضا
بسوء فعالك فان كنت لم تبق فيها على شئ فان لنا فيها عيالا وأطفالا وأموالا كالانسلم
بضياعها ضحية لاغراضك فكفى كفى ماجرى • فعند ذلك أطرق عرابى رأسه خجلا ولم
ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الاخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم
التعرض لعسكر الانجليز بشئ ما وأن يتقدم أحمد عرابى وأصحابه الى مقام الخديوى فى طلب
العفو عنهم بعريضة يرفعونها اليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملأها
بالطعن والتنديد بفعال الانجليز وشحنها بالافك والتغرير والتضليل وقص فيها ما وقع من
البداية الى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شئ من ذنوب أحمد عرابى وذنوب أصحابه ثم جعل
يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر فى ذلك المجلس أيضا بطرس باشا غالى وكيل

الحقانية

الحقانيــة فكلم عبــد الله فى ذلك وقال ان المقام الآن لا يحتمل شيئا من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليك ما يحسن رفعــه الى مقام صاحب الامر فأملى عليــه شيأ من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابى وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهــذه السفارة محمد رؤف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبى مرافقتهــما وقاموا من ساعتهم فى قطار مخصوص فسار بهــم الى الاسكندرية فلم يصــلوا الى كفر الدوار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبــد الله برسالة من عرابى وأصحابه فتربصوا حــتى حضر عبــد الله على قطار مخصوص ومعــه عريضــة أخرى يخالف ما فيها ما فى العريضة الاولى وقال يقول لكم عرابى باشا لا ترفعوا الى الخــديوى العريضــة الاولى وارفعوا اليه هــذه * وكان لما قام رؤف باشا ومن معــه الى الاسكندرية فكر عبــد الله فيما سيلقاه من العــذاب اذا حوسب كل بعمــله فزين لعرابى العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب الى الخديوى قصــة يدفع بها عن نفســه عار الذل وشماتة الاعــداء فأجابه عرابى الى ذلك وعبد الله انما يريد بهذه الحيــلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصــل الى كفر الدوار اختفى ولم يوقف له على أثر الى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله ان شاء الله

ووصل رؤف باشا ورفاقه الى الاسكندرية فى غرة ذى القعدة بعد العشاء الشديد وتمثــل هو وبطرس باشا بين يدى الخديوى ورفعا اليه عريضة عرابى وأصحابه فلم يقبلها وأمر بعلى الروبى فقبضوا عليه وأودعوه فى السجن منفردا عن أتى بهم الانجليز من مواقع الحــرب من العرابيين وفرح أهــل الاسكندرية يومئــذ فرحا لا يوصف وأتت رسائل التهانى الى ديوان الخديوى من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالاسكندرية يهللون وينشــدون أناشــيد النصر ونزل المــترمالات فونصل جنرال الانجليز الى الاسكندرية ودخل على الخديوى وهنأه من قبل ملكة الانجليز ومناه بالامانى الكثيرة * أما المقاتلون من الانجليز بواقع التل الكبير فانهم لما دخلوا فى وسط معاقل العرابيين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمــل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الالفين وسار الباقون قاصــدين القاهرة من طريقــين الاولى بجانب السكة الحديد الموصــلة الى مدينــة الزقازيق وبنها وبلبيس والثانية على ضــفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كى يصلوا اليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينــة الاسكندرية وكان سير فرسانهــم الى الزقازيق غاية فى البطء والفتور بسبب تعب الخيــل وضعف الجند عن الحركة فلما صاروا على قيــد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختــلال فلم يروا من يردهم فمال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها فى هذا الحين خمســة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثــير من المرضى والجرحى فأربعــة من سائق هــذه القطارات لما رأوا اقتراب الانجليز منهــم قاموا وأسرعوا فى ســيرهم فنجوا بمن معهــم من

الوقوع فى أيدى الانجليز أما الخامس فانه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الانجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العرابيون ما حل بسائق القطار وهجوم الانجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الانجليز لقلة عددهم فنجا العرابيون جميعا وفى نحو الساعة الثالثة عربى نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثانى الذى سار الى القاهرة على ضفة الاسمعيلية فانه عبر الترعة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثا جدا على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى مدينة بلبيس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا فى ثانى يوم الذى هو غرة ذى القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه وما زالوا يجدون السير حتى بان لهم سواد القاهرة فى نحو الساعة العاشرة ونصف عربى نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم فى أسوإ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية فى تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضا زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا وأخرجوا من كان بها من العسكر المصرى وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم فى حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والاعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنايات قيل ولم يكن مقدم العساكر الانجليزية الذين صعدوا الى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاه على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهما فأطاعا وسارا مع الانجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية فى تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملى العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا باسلحتهم ونزلوا من ساعتهم الى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الانجليز سائر المواقع والابواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلى كبير مقدمى الجيوش الانجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع لملاقاتهم بعض موظفى الحكومة ممن كانوا فى حبوس العرابيين بالقاهرة وابراهيم فوزى بيك صاحب شرطة المدينة * وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره الى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابى وكافة أصحابه والاتيان بهم الى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب الى حيث أحمد عرابى فوجد معه طلبه عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابى ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام ومعه طلبه عصمت وسارا جميعا الى العباسية وأرسلوا فى طلب على يوسف أيضا وعلى يوسف هذا هو الذى سلم للانجليز قلعتى الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق فى مقدمات التل الكبير

مطلب
دخول الجنرال ولسلى قائد جيوش الانجليز الى القاهرة ومعه محمد سلطان باشا

كما تقدم بيان ذلك فى محله * فلما دخل عرابى ومن معه فى وسط معسكر الانجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالبنادق والحراب ثم أخذوهم الى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسى ورجلاه ممدودتان على كرسى آخر وحوله جماعة من عسكره وترجمانه فلما تمثلوا بين يديه لم يلتفت اليهم برهة طويلة ثم نظر الى أحمد عرابى نظرة الظافر وقال أأنت عرابى باشا قال نعم قال أأنت الذى عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولاك وحاربته بغير سبب حتى سقطت فى أيدى جند ملكة انجلترا فتلجلج عرابى ولم يرد الجواب فالتفت اليهم الجنرال وقال اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها وتقدموا بها اليه وقالوا اليك نسلم سيوفنا والى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كالسراة الشرف ألقوها الى الارض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار الى بعض صغار الجند الذين حوله فأخذوها وقبضوا على عرابى وطلبه عصمت وعلى يوسف وألقوهم فى سجن العباسية فى تلك الليلة * هذه رواية * وفى رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدى الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا اننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بانفسنا الى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وستتضح لها أنا ما عملنا الا واجبنا ولم نسع الا خلف حقوقنا وان عندنا من العسكر المنتظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم فى مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء فيهم ولكننا لم نتقدم على فعل شئ بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بانفسنا فداء الوطن ﴿قلت﴾ وعندى ان لاحقيقة لهذه الرواية فقد كان موقفهم فى تلك الساعة محفوفا بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم الا اذا كانوا على يقين من السلامة وبينة من أمرهم وهذا ليس بالامر البعيد فقد كان فى انسحاب أحمد عرابى من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الانجليزية بين حصون ومعاقل المصريين على ما مر بيانه سر سيتلى عليك فى محله ان شاء الله

ولبثوا فى سجن العباسية الى يوم الاربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم الى قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الانجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما فى دوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكراسى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الاثمان أو بشئ من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الاوراق والدفاتر الديوانية والادوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسراى عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسراى الحرم الخديوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسراى المدرسة التى برحبة عابدين وانبثت العساكر الانجليزية فى شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخاطب العامة بعبارات التهنئة وكان الهنود



منهم يكثرون التطواف بالخطة المعروفة بخطة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يامسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلاصكم من أيدى العصاة المارقين * واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكر الانجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة فى ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات فى أوقاتها * وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتانى الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لى اسمه عبد القادر بيك فهمى من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت اليه فرسم لنا بأن نهيئ ديوانا يناط بلوازم العسكر الانجليزى وكتب بذلك الى صاحب شرطة المدينة والى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذى كان به ديوان المحافظ وقنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والارز والسكر والفلفل والعسل والشاى وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس فى كل يوم صباحا مماقيمته ألف جنيه مصرى وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات

مطلب ورود كتب الخديو من الاسكندرية بالقبض على سائر من كان له يد فى اضرام نار الفتنة

وعادت الاشغال الديوانية بعد أيام الى سابق مجراها ووردت كتب الخديو بالقبض على سائر من كان له يد فى اضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعوهم فى سجون بيت الشرطة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فاحتفل المديرون والمحافظون فى معاقبة الناس وبالغوا فى ايذائهم وعلى الخصوص منهم مديرى الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذا بالشبهات وملآ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتزاحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه فى ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فانكمش الناس وعم الخوف وبات كل لا يأمن على نفسه وولده * وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر لملاقاته يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية فرسم له باحصاء ما فى تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة وخمسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك الى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتى من الانسان والحيوان وبصرف جميع العساكر الى أوطانهم فانصرفوا ما عدا الضباط فانه أمر فسيروهم الى سراى الرمل تخفرهم جماعة من فرسان الانجليز *

مطلب فيما كانت عليه معاقل كفر الدوار

قال بعض الانجليز * وكانت مواقع كفر الدوار غاية فى المنعة وحسن الوضع الهندسى والطبيعى قل أن يمكن التغلب عليها الا بعد معاناة الاهوال وموت الالوف من الابطال اذ كانت تنقسم الى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الاوحال والمرابك ويتفرع من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة الى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قل أن يمكن معها للعدو الظفر بها وكان أمام



كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الاول والثانى والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الاول منها قلعة تسمى قلعة الاسلام اعزازا للدين وهى من أجل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكمها وضعا اه

وكان العرابيون قد سدوا خط السكة الحديد بسد من البناء والتراب فرسم الجنرال وود بكسر هذا السد فكسروه بشئ من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشئ كثير من الحرائر والمقصبات والاطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الاسكندرية جمعوا ذلك كله وأحصوه * ولما أنجز يعقوب سامى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه اليه وقال لم يكن فيما فعلته الى الآن مع أصحاب الثورة الا طاعة مولاى الخديو وكمال الاخلاص فى خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابى فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال الى كلامه بل قال له وما الذى جرى للقائمقام الايطالى مسيو بولشى الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الايطالية ولحق بعرابى فى كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال الى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه قال ذلك وسلمه الى نفر من الانجليز فساروا به الى الاسكندرية ليجازى عما فعل * واستسلم أيضا من كانوا فى رشيد وحصون أبى قير والبرلس وطابية أشتوم الجميل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والمتاريس وجدوا فى تحصين مواقعهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجميل وبقية الحصون ففترت همتهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتا ولم يفلح عبد العال فى ردهم وجاء الخبر بذلك الى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد الى دمياط فلما وصلوا السنانية ارسل كبيرهم الى عبد العال يقول إنا لم نحضر الى هنا الا لنأخذك كرها اذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول انى مريض فعبر كبير الانجليز النيل الى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الانجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل الى السنانية ووضعوه ليلته تلك فى احدى عربات البضاعة والجند يخفره وأصبحوا فساروا به الى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابى ومن معه وهى دار أعدوها لهم بجوار جامع أزبك عند رأس الازبكية

مطلب امتناع عبد العال بيك أبوحشيش من التسليم لعساكر الانجليز وماجرى له

وفعل الانجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها مالا خير فيه وألقوا جميع ما وجدوه فى المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد فى النيل وقد كان شيأ كثيرا جدا

مطلب مافعله الانجليز بمدافع القلاع والحصون

وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالانجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بقدمهم * فلما تم للانجليز ما أرادوه من نسف مواقع كفر الدوار وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الاسكندرية الى أبى قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجبل وما بين هذا كله من المعاقل والابراج أنزلوا عسكرهم فى جميع الخافر ومراكز الأربطة بالاسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون فى الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم فى الطرق والشوارع العمومية وأماكن اللهو والقصف بخطة الازبكية والعتبة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتحككون فيهم ويعارضونهم أو يشوشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم الى المعسكرات فكان مقدمهم يرسل الاوامر تباعا الى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع فى الحانات والتشديد على باعة الخمور والمسكرات بالامتناع عن بيع الردىء منها اليهم والا يولغ فى عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة اذ تفشت الحميات الخبيثة بين العسكر كافة فى قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفى سائر الخافر حتى فى مساكن الضباط فأنشؤا الشفاخانات (وهى بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلأت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقالات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الانجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيقى تعزف بألحان الحزن والحنان فاذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوادهم ساروا جواده خلف العجلة التى تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه فى ركاب السرج بشكل يخيل للرائى أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة اذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحموهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيأ من الضجر فاذا وصلوا بالميت الى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه وربما رثوه بشئ من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم فى الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفا كما أتوا وكانت المنية يشتد فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندى فأهلكت منهم خلقا كثيرا فاهتم لذلك مقدم الجيوش ورسم بارجاعهم الى أوطانهم وجاءه الامر بذلك فأخذوا يرحلون طائفة بعد أخرى الى مدينة السويس ومنها الى الاقطار الهندية على ظهور النقالات والشوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبولجيون بالعباسية وهم فى ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب الى عاصمة الانجليز فيمثلون بين يدى امبراطورتهم فتهنئهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن فى قتال العرابيين * هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التى دخلت فيها الجيوش الانجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان

الكثير

الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الاعراس والافراح والولائم وهم فى شاغل عن كل ماسوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابوليون بونابارته القاهرة بجيوش الفرنسيس سواء بسواء فكأن مداولك القوم هداهم الله لم تتصل الى شئ من الترق من ذلك الحين الى الآن وفى ذلك مافيه من العجب العجاب

ونهض أصحاب صحف الأخبار من الانجليز يفصلون ويقيسون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والاطراء ثم جعلوا يعرّضون بذكر حروب بونابارته مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين مالاقته جنود بونابارته من التعب والموات بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقتــه جيوش الانجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدّوا أفعال مقدم عسكرهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعييب وقالوا ان الصورة التى هجم بها قائد الانجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلل بالغة حدّ الطيش الذى مابعده الا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محنكا يجسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدوّ من احدى الدول الاروباوية فان إسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وان خروج مقدم عسكر الانجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى ليلا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجند وإسراءه وإياهم الى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراءه لمن أكبر الأغلاط وأتعس المناورات وقد عابوا أيضا طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا انها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الامر وشئ متفق عليه بين قائد العساكر الانجليزية وبين أحمد عرابى ومن معه من زعماء العصابة ولولا ذلك ماتمكن مقدم جيوش الانجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فن ونظام عسكرى * وكتب رجل اسمه جون نينى كتابا فى هذا الصدد يقول فيه * مالى أرى اخواننا الانجليز ولا سيما أصحاب صحف الاخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبونها كرامة لمقدم عسكرهم مع أن الامر ليس فى شئ من ذلك البتة لانه لما اشتدت الازمة واستحكمت على جيوش الانجليز حلقات الضيق قدم الى أحمد عرابى فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بان الانجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسيرون بعد ذلك الى بلبيس ليقتصوا الطريق منها الى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابى فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبيس جهد الاستطاعة كى لايتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابارته عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيأ من ذلك وأرسل الى طلبه عصمت مقدم جند كفر الدوار يستمده ويقول له أرسل لى المدد بحيث

يكون وصوله الى التل الكبير ضحوة تاسع عشري شوال يعنى بعـد أن تكون قد خرقت جيوش الانجليز خطوط التل الكبير ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها الى بلبيس ليقصوا الطريق الى القاهرة ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الاجل المضروب ودخل مدينة الزقازيق ولكن ما الذى رآه يا ترى ذلك المدد رأى جنـدا شاردا كالابل الا بقة وأشلاء قد غطت وجه الفضاء وقد تم الامر للانجليز وفر أحمـد عرابى هاربا الى القاهرة فعاد المدد مع من لحق به من الفارين الى القاهـرة — قال — ومن العجب العجاب أن فى الليلة التى دخل فيها الانجليز معاقل العرابيين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا صوت أول طلق خرج من بنادق الانجليز صاحوا وتراعوا وعلت جلبتهم وجعلوا يدوسون بارجلهـم بطون الجند النائمين فهب الجند من نومهم مذعورين لا يعرفون من معهم ومن عليهـم وخرجوا على وجوههـم هائمـين ومع ذلك فقد قابل أصحاب المـدافع منهم عساكر الانجلـيز وهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلوهم فأعمل الانجليز فيهم السيف كأنهم يقاتلونهم وجها لوجـه ومع ذلك فقد واصل أصحاب المدافع الرمى على الانجليز فأصلوهم نارا حامية — قال — ولم يبق مجال للشك أو الريب فى أن سادتنا الانجليز قد قبضوا على كثير من صغار الضباط المصريين وكبارهم عند ما هموا بالفرار عما أخذوه من الرشاوى والبراطيل فأذاقوهم كأس المنون بحيث لم نر بين جثثهم جثة واحدة أوشيأ من مشامش أحد العربان الذين كانوا كما قلنا على رأس الخطوط الأماميـة فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم يكن ثمت ما يدنا عنهم فى تلك الساعة نيران الانجليز غير أنهم كانوا على عهد مع محمد سلطان باشا وبينة من الأمر قبل وقوعه ومن العجب العجاب أننا لم نر أحدا من هؤلاء العربان سيق الى المحبوس كما ساقوا غيرهـم مع أنهـم كانوا لا ينقصون عن أربعة آلاف كلهم مدججون بالسـلاح بل لم نر أحدهم أوقف يوما موقف المسؤل فليقل لنا السادة الانجليز هل بعد هـذا كله من دليل على صحـة ما يزعمون وما بالهم اليوم ينكرون على جماعة العربان ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهـم وما لنا لا نسمعهم يرددون آيات الشكر والثناء على سلطان باشا جزاء ما قام به من بذل الأصـفر الرنان حتى أزال به ما كان يتخلل طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما كان يترصدهم من المراجل والهلكات — قال — والحق أقول ولا أخشى لومة لائم أن جيش الجنرال ولسلى الذى كان يبلغ زهاء خمسة وثلاثين ألف مقـاتل كاملى الا لات والعـدد لم يقاتل فى تلك الليلة على خطوط التل الكبير سوى ثلاثة آلاف من المصريين وبينهـم قليـل من أصحاب المدافع وكلهم فى دهشـة من النوم فانه لما كثر صياح العربان عنـد دنو الانجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبتهم خرج سائر المصريين على وجوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك الساعة سوى هذا النزر القليل وعليه فانى لم أر فى نصرة مقدم الانجليز على مواقع التل الكبير شيأ يستوجب الاستغراب أو التفاخر والاعجاب اه بنصه

مطلب ما كانت عليه المناقشة بين الباب العالى واللورد دوفرين بشأن ارسال العساكر السلطانية الى مصر

وقد كانت رحى المناقشة الى يوم دخول الانجليز مواقع التل الكبير دائرة مابين الباب العالى واللورد دوفرين سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية على قاعدة تقرير عصيان أحمد عرابى وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المناقشة غاية فى المواربة بل كانت من قبيل إظهار غير الحق وإخفاء الظاهر المشاهد لانه بعد أن كانت انقطعت المخابرة بينهما بشأن ارسال العساكر السلطانية الى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان ووصل الى المابين الهمايونى الخبر بقيام الجنرال ولسلى مقدم حملة الانجليز بعسكره من الاسكندرية الى مدينة بور سعيد وانه قد احتل القنطرة ثم الاسمعيلية وأنه أخذ يقاتل العرابيين تباعا وأن مساعى محمد سلطان باشا فى استمالة العربان الى طاعة الخديو قد تمت أو كادت عاد رجال الدولة الى فتح باب المخابرة مع السفير بشأن ارسال فريق من العسكر السلطانى الى مصر وألحوا فى الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد الى المواربة فى القول فلما آنسوا منه بعض الرغبة عادوا فاظهروا عدم الرضا عن قاعدة الاتفاق الذى عوجبه يرسل السلطان عسكره قبل فانقبض السفير عند ذلك وانكف عن الكلام أياما أخرى • وكان الانجليز قد سيروا جماعة منهم فى هذا الحين الى الشام لشراء بعض الدواب من البغال والخيل والجمال لحملتهم على مصر فأرسل الباب العالى الى عماله بالولايات يحذرهم من بيع تلك الدواب وخروجها من بلاد الدولة ففعلوا وقبضوا على من استخدمه الانجليز من أهل البلاد فى خدمة هذه الدواب وألقوهم فى الحبوس فجاء الخبر بذلك الى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الاعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى وأكثر من الترداد بين الباب العالى والمابين وما زال يغدو ويروح حتى رسم السلطان فى ثامن شوال باطلاق أمر البيع والشراء فى تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا فى الحبوس بسببها وأرسل السلطان بعد ذلك أحد رجال ديوانه الخاص الى السفير يسأله أن لايكون نزول العساكر السلطانية المزمع ارسالها الا فى مدينة الاسكندرية فقام السفير من ساعته واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلهم فى الامر فكلموه طويلا وبعد أخذ ورد قال السفير انه سيبلغ هذا كله الى كبير السياسة الانجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضا على جميع الاوجه التى كانت سببا فى الاختلاف ورفع السفير الامر الى كبير سياستهم ثم عاد فكلم السلطان فى اصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وشقه لعصا طاعة الخلافة قبل فتململ السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو فى الامتناع ورسم الى رجال دولته فجعلوا يطاولون ويحاولون ويهوّنون على السفير الامر والسفير لايزداد الا تشديدا فى الطلب وسير إلى الصدر الأعظم يوما من يقول له ان دولة الانجليز لاتعتبر ارسال العسكر السلطانى الى الاسكندرية أمرا مقضيا وأنه لايصير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه وباتوا وأصبحوا وقد جاء الخبر من صاحب سياسة الانجليز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الاسكندرية فكبر الامر

على السلطان ورسم الى الصدر الاعظم بمعاودة السفير وفتح باب المخابرة معه وأنه متى تم ارسال العساكر السلطانية الى الاسكندرية رسم السلطان بعصيان أحمد عرابى وطير الخبر بذلك الى الآفاق فعاد الصدر الى الكلام مع السفير وأظهر غاية اللين والتلطف وثابر على الكلام مع المجاملة لعله ينال أربا فلم يفلح قبل فارسل الى الولاة ثانية يمنع من خروج دواب الحمل لجملة الانجليز على مصر ففعلوا وأحس السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياما فراسله الصدر الاعظم فى ذلك فامتنع وقال لاسبيل الى ما تطلبون فسير اليه من يعلمه بأن أمير المؤمنين لايمتنع من قبول نزول عسكره بأبى قير عوضا عن الاسكندرية فاذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه فاظهر السفير رضاه بهذا الشرط ولكنه طلب قبل كل شئ أن ينفذ الامر لسائر الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم فاجابه الصدر الى ما طلب وشاع الخبر بذلك فى دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للمواربة والتكلف لاسيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بتقدم العساكر الانجليزية وتغلغلهم فى جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان اليهم * فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة الى دار سفير الانجليز وأعلمه بان أمير المؤمنين ميال كل الميل الى التعجيل بتسيير عساكره الى أبى قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير فى ذلك اليوم وجها باشا ولا صدرا رحبا فانصرف عنه وعاد اليه فى ثانى يوم ومعه كاتم أسرار السلطان وقال الخليفة يقرئك السلام ويقول انه لم يكن ليأنف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الانجليزية كما هى اذا تساهل فى نزول عساكره السلطانية بمدينة الاسكندرية كما أنه لا يحجم أيضا عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله الى الفين أو آلف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الانجليزى قائدا ثانيا ولا يمنعه من أن يأخذ معه من الضباط الانجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية فى ديار مصر فى هذه الحالة تحت المراقبة الانجليزية كما كانت أيام حرب الروسية * قيل فرفع السفير محصل هذا الكلام الى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أو ورد ولكنه لم يبلغه الى الصدر الأعظم وجعل يطاول ويحاول الى ان وردت اليه الأخبار بنجاح حملتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الانجليز كانت لاتتأخر عن قبول شروط ارسال العساكر الشاهانية الى مدينة الاسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعى والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لاتمتنع من قبول ارسال ألفين منهم وتنزيلهم فى أحد مواقف ترعة السويس * قيل فلما سمع السلطان هذا الكلام حزن جدا لاسيما وقد جاء الخبر فى هذا الحين الى المابين والباب العالى بتغلغل ولسلى وعسكره فى جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم الى جهة الانجليز فأرسل السلطان الصدر الأعظم الى دار السفير يقول ان أمير المؤمنين يقبل

تنزيل

مطلب صدور الفرمان السلطانى بعصيان أحمد عرابى ومن معه

تنزيل عسكره فى مدينة بورسعيد وأنه فى مقابلة ذلك يتعهد باصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جوابا شافيا

فلما كان رابع عشرى شوال سار السفير الى الباب العالى صباحا ومعه ورقة مسطور فيها العهد المراد ابرامه بشأن ارسال العسكر السلطانى ودخل الى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور الفرمان الشاهانى القاضى بعصيان أحمد عرابى فسر بهذا الخبر سرورا عظيما ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزنا أو هو تظاهر بذلك وقال انه لم يتضمن شيأ البتة من الاسباب والقواعد التى وقع الاتفاق عليها فراجعه الصدر الاعظم فلم يلتفت اليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضى بارسال العساكر الشاهانية الى مصر فعاوده الصدر ولاطفه وهوّن عليه وقال لابد من ارجاع كل شئ الى ما وقع الاتفاق عليه وسأله ان يطلعه على ما فى ورقة العهد فأطلعه عليها فاذا هى لم تعين مدينة بورسعيد محطا للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبيح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس الا فاستاء الصدر الاعظم من ذلك وقال للسفير وددت أن لايبقى بيننا من الآن شئ من المواربة فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذى أبرم بيننا انما هو على جعل مدينة بورسعيد محطا لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب اذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب فى تلك الورقة مانصه ﴿ ان حكومة جلالة الملكة تبيح للعساكر السلطانية الرحيل الى مدينة بورسعيد ومنها الى الموقع أو المواقع التى يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمى الجيشين اه ﴿قلت﴾ وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأتون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها الا حيث يأمرهم مقدم عسكر الانجليز » فأبى السلطان عليهم ذلك وقال لابل ينزلون بمدينة بورسعيد فوعد السفير بتبليغ هذا الكلام الى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أياما فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصدهم من الخيبة لاسيما وقد جاءتهم الاخبار يومئذ بقرب تغلب الانجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طيروا الخبر بعصيان أحمد عرابى وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كما تقدم القول

وفى سادس عشرى شوال سار الصدر الأعظم الى مقر سفير الانجليز متأبطا بعض الاوراق وصورة من العهد المتعلق بارسال عساكرهم الى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكله فى الامر وقال قد رسم أمير المؤمنين بان لايمكن التغاضى عن عدم ذكر هذه العبارة فى بنود الاتفاق وهى « ينزلون بمدينة بورسعيد » فأبى السفير عليه ذلك وقال لا بأس من أن نأتى على تفسيرها فى سطور المذكرة بهذه العبارة « تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بورسعيد لكى تتمكن من الدخول من خليج السويس » وكانت تلوح على وجه السفير فى هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأنه كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان فى كل لحظة يدخل عليه أحد بطانته فيكلمه همسا فكان تارة يحمر

وجهه فرحا وأخرى يصفر وجلا ورجال الدولة فى شاغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق وقراءة عبارة المذكرة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل الا ما أشار به وأصر على الامتناع فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياما أخرى • فلما كان تاسع عشرى شوال وردت الاخبار الى السفير بانتصار الجنرال واسلى على العرابيين ودخوله القاهرة فأشاع السفير هذا الخبر وطيره الى الآفاق فجاءه فى ذلك الحين الصدر الاعظم وناظر الخارجية وكلماه فى أمر ارسال العساكر السلطانية الى بور سعيد وفى تعديل بنود العهد وكأنهما لا يعلمان شيأ مما حل بالعرابيين فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال قد ضاعت الفرص وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لارسال العساكر السلطانية وقد انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا باهل الثورة ظفرا مبينا قبل فأظهر الصدر الاعظم استغرابه من هذا الخبر وقال وكيف ذلك فقال السفير ثم وقد أتانى الأمر بأن أسترجع صورة الاتفاق التى قد كنت بعثت بها الى المابين ولقد كانت حكومة جلالة ملكتنا تود أن لا تعمل الا مافيه ارضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض ولكنها لم تغير قط شيأ من العلائق الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر الخارجية إى نعم وان حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها وبين حكومة جلالة الملكة وعليه فانى أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الاجل الذى ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض الكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدثهم بخبر ما لا قته العساكر الانجليزية من التعب أمام حصون التل الكبير وجعل يبالغ فيما بذلته حكومة جلالة الملكة من النفس والنفيس حبا فى ارجاع الهدو والطمأنينة الى البلاد بعد أن كادت تقوض الفوضى ربوعها الى أن قال • ولقد زادت هذه الضحايا فى نفوذنا نفوذا آخر تجم عنه مسؤلية عظيمة لايمكن التخلى عنها لا سيما وقد انحل الجيش المصرى وأصبح خديو البلاد فى حاجة الى تدبير حكومته وارجاع سابق سلطته فلا يجمل بدولة بريطانيا فى هذا الوقت اجلاء عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم وهى على عزم ان لاتبقى منهم أحدا فى جوف البلاد متى سمحت الظروف بذلك الى أن قال • ولا أرى نفسى مقصرا فى القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالته علىّ ذلك ولكن إعراض جلالته عن الأمر فى حين وجوب الاقبال والتزامه جانب التطويل فى الوقت الذى كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع ومع كل ذلك فان رباط المودة بين الدولتين لا ينفصم أبدا فقام الصدر الاعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع فى الاستانة خبر دخول جيوش الانجليز الى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقجعوا فعال الصدر الأعظم ووزير الخارجية ورموهما بالخيانة وسوء النية واتهموهما ببيع أملاك الدولة بثمن بخس وقامت الفتنة فى السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المابين ورمى كل رفيقه بالغش والخيانة وانكشف من اسرارهم المضحك والمبكى وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى

هذا

هـذا الأمر وتوسعوا فى القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفتـه عن الناس فنعوهـم وهددوهم فانكفوا وفى القلوب ما فيها وقد صدق من قال * وقد يغلب المقدر على التقدير حتى تكون الآفة فى التدبير فالله حسبنا وكفى

مطلب
ورسم الخديو بخلع سائر المحافظين والمديرين والمأمورين الذين تولوا على عهد أصحاب الثورة

ورسم الخـديو بخلع سائر المـديرين والمحافظين وسائر المـأمورين الذين استلموا زمام الوظائف على عهـد أصحاب الثورة فخلعوا ورسم أيضا بصرف سائر العساكر المصرية ورجوعهم الى أوطانهم فتفرقوا ولم يبق منهم بالقـاهرة الا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا فى خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتى رابع عشرى رجب ورابع عشرى شـعبان سنة تسع وتسعين بمـدينة الاسكندرية وفى طنطا وأخرى بالمحلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتـل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذى ولى نظارة الداخليـة الى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهـم من أهـل كل بلد ممن كان لهم يد فى إضرام نار الفتنة فـسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات وهـم فى أتعس حال وقام المأمورون بعمـل التحقيق بجىء لديهم بالمتهمين من كل فج عميق فخاف الناس وأوجس كل شرا من عدوه وصـديقه اذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى رياض باشا وتزاحموا على ديوانه وتسابق الغريم الى الشكاية بغريمه والجار الى الاضرار بجاره لأقـل سبب وأنشئت محكمة عرفية فى القاهرة وجعـل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى رئيسـها اسمعيل أيوب باشا فاختصت محكـمة رؤوف باشا بالحكم فى جميع الدعاوى التى ترفع من اللجنـة الخصوصية وجعلوا أحكامها فى ذلك قطعيـة لاتقبل الاستئناف وشكلوا لجنـة عسكرية أخرى بالاسكندرية لتحكم أيضا فى القضايا التى ترفع اليهـا من محكمتى الاسـكندرية وطنطا الخصوصيـتين حكما قطعيا لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على النـاس وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارين من المتهـمين فكانت شـدة عظيمـة للغاية كل هذا والخـديو بالاسكندرية يتابع اصـدار المراسـيم باعادة النظام وترويج الاعمـال كسابق مجراها * فلما كان حادى عشرى ذى القـعدة قام الخـديو من الاسكندرية الى القـاهرة

مطلب
مجىء الخـديو من الاسكندرية الى القاهرة وما كان من وراء ذلك

فـدخلها فى الساعة السـابعة عربى نهارا وكانت طوائف الجنـد من الانجليز والهنود مشاة وركبانا مصطفين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد الى سراى عابدين فلما نزل من القطار ونزل معـه الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الانجليـز * وكان هـذا الدوق قـد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الانجليزية * أطلقت المدافع من قلعة الجبل وفسحة المحطة تباعا وصـدحت الموسيقى بالنشـيد الخـديوى وهتف الجند باصوات التهليل فركب عربة يجرها أربعـة من جياد الخيـل وركب على يساره الدوق المشار اليه وجلس أمام الخـديو ولسلى مقـدم الجيوش الانجليـزية وأمام الدوق المستر مالت قونصل جنرال الانجليز وكلهـم بملابس الزينـة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وكبار الضباط وكوكبـة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجنـد وأصوات التهليـل ودعاء

العامة المتواصل وزغاريت النساء من أعالى البيوت حتى نزل بقصره بعابدين وأمر فعملت الولائم والمآدب لكبار عسكر الانجليز أياما كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة وصنف وأحدث نيشانا جديدا من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة المصرية وأهداه لجميع الجنود الانجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير ثم أتت جميع الجنود الانجليزية الى القاهرة فلم يبق منها الانفر بالاسكندرية وبورسعيد والاسمعيلية فاستعرضها الخديو برحبة عابدين بين عزف الموسيقى وأصوات المدافع وكانوا قد أعدوا لذلك كشكا لطيفا فى وسط الرحبة وزينوه بالبيارق والرايات وكان بين هذه البيارق والرايات الراية الانجليزية فجلس الخديو بالكشك ومر الجند من أمامه تباعا على أشكال متنوعة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الانجليزية وعلى يمينه الدوق أوف كانوت فتطير الناس من ذلك وخافوه وترامت ظنونهم فى ذلك اليوم الى المرمى البعيد وجعلوا يتساءلون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والاشارات الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الانجليزى

وانقضت ليالى الافراح والولائم على أحسن ما يكون من الابهة والزينة وعادت الاعمال الديوانية الى سابق مجراها فجعل الوزير محمد شريف باشا يدير الامور على أحسن ما يكون من التدبير وقد رأى أن فى بقاء جميع العساكر الانجليزية فى جوف البلاد خطرا دائما وكدرا ملازما فكلم قونصل جنرال الانجليز فى ذلك وكشف له عما فى سياسة بقاء جيوشهم بالقاهرة من الخطل وضعف الرأى وطال الاخذ والرد بينهما أياما حتى تقرر الاتفاق على بقاء اثنى عشر ألفا منهم بين القاهرة والاسكندرية وطالبت حكومة الانجليز الخزينة المصرية بنفقة هذه الجنود ورسمت بصرف ثمانية وأربعين ألفا ذهبا فى كل شهر مادامت هذه الجنود قائمة بحراسة البلاد قالت حتى يستتب الامن وتتوطد الراحة وتقوى الحكومة الخديوية على القيام بشؤنها المالية والادارية منفردة * ثم رحل عن القاهرة سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلى الى عاصمة بلاده وقد أهداه كبار القاهرة وأعيانها سيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليه هذه العبارة (هدية من المصريين الى الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية) * ولم يكد يستقر بالجنرال المقام فى عاصمة بلاده حتى قدم الى القاهرة اللورد دوفرين سفير الانجليز فى دار الخلافة لينظر فى تنظيم أمور البلاد على ما تقتضيه المصلحة الانجليزية فقوبل بغاية الاحتفال وأنزلوه مع حاشيته وبطانته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القاهرة فلبث به أياما ثم انتقل الى دار قطاوى بسك بمحلة الاسمعيلية فلازمه بعض الاجانب النازلين بمصر ممن يدعون العلم بعادات البلاد وأخلاق أهلها وما يحتاجونه من خير أو اصلاح ثم قصوا عليه ما وصلت اليه معارفهم وبث هو كذلك العيون لتأتيه بأخبار العامة وما يقوله أهل البلاد وجعل يوالى الاجتماع تارة بالخديو وأخرى بالوزير محمد شريف باشا ويكثر من التطواف فى شوارع

مطلب مقدم اللورد دوفرين الى ديار مصر وما كان من وراء ذلك

القاهرة

القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على هذه الحال أياما ثم حرر تقريرا فى غاية التطويل والاسهاب وقسمه الى أبواب وفصول دون فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والادارية والقضائية وما ينفعها من التنظامات الداخلية وبالغ فى اظهار حاجتها الى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أولا ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة فى حالة أقوى وأكمل مما هى عليه الآن ثم توسيع نطاق المصالح الأميرية المتولى ادارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين * قال وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم * وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الاجانب والاهلين وانشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شئ من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هى مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وابطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين الديار الاوروباوية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص حرية المرور من خليج السويس * هذا أهم ما جاء فى تقرير دوفرين هذا فلم تتناوله الايدى حتى قابله أصحاب صحف الاخبار المحلية بألسنة الطعن وعابوا عليه كثيرا من الملاحظات ولاسيما ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه النكير ورموه بالخلط والخبط وقالوا انما هى سفسطة نقلها عن رسله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حوافيشها وزعانف النزلاء فيها الذين لاخبرة لهم ولادراية بالامور فما هو الا كلام فى كلام فى كلام * فلم يلتفت دوفرين الى هذا كله ولم يعبأ به وعمد الى الاهتمام بأمر من كانوا فى الحبوس بتهمة الاشتراك فى الفتنة وقد غصت بهم وضاقت اذ بلغت عدتهم يومئذ ألفا ومائتى مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمى وأحمد عرابى وطلبه عصمت ومحمود البارودى ويعقوب سامى وعبد العال حشيش وعلى فهمى وعلى الروبى وغيرهم من كبار العصابة ومقدمى الثورة فكلم مصطفى رياض باشا فى ذلك وسأله التعجيل فى أمر أولئك المتهمين وفك قيود البرئ منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لانه لا يستطيع أن يرى يدا فوق يده أوكلة سابقة لكلمته فلم يلتفت الى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مقر دوفرين من أصحاب الحبوس يعددون فيها ما يقاسونه من أليم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسائهم وذراريهم الى مقره يبكون ويتوجعون اليه مما يلاقيه أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرأفة باهلهم فهال دوفرين أمرهم وأحزنه وقيد جماعة من كبار ضباط الانجليز بتفتيش جميع السجون التى بالاقليمين القبلى والبحرى وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لاسيما حبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم الى الخديو فى العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فاجابه الى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط الا من كان منهم فى مظاهرتى غرة ربيع الأول ورابع عشرى

مطلب
احصاء اللورد دوفرين لمن فى الحبوس

شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحة حادى عشر يوليو سنة اثنتين وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبثوا فى الخدمة العسكرية الى حين ظهور الفتنة واضطرام نارها وما عدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحة حادى عشر يوليو المذكور فسكنت عند ذلك خواطر الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف * قال بعض الكتاب * فلم يرق هذا فى عينى مصطفى رياض باشا وأغضبه فنزع الى التفرد بالأمر وعمد الى معاكسة اللورد دوفرين فشدد فى تعقب أعمال أحمد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء ذلك وأدرك ان العاقبة انما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه وفى ذلك نكث لعهدهم معه فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك الى محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العبث بالنظام الذى جاءت الجيوش الانجليزية لتثبت أركانه * قال المستر شارلس رويل أحد كتاب الانجليز فى كتاب ألفه فى حوادث مصر الأخيرة * فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى الا معاقبتهم بغير تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على اجراء التحقيق والتزام جانب العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ الى حد لم يطق معه السكوت فسار الى مقر اللورد دوفرين وكلمه طويلا واحتد وأغلظ فى القول فلم ير من اللورد دوفرين أذنا واعية ولا وجها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف باشا وكلمه أيضا فى ذلك فقال الوزير لا بد من التحقيق ورفع الامر الى محكمة فكاد مصطفى رياض باشا يتميز غيظا وسأل الوزير أن يقيله من منصبه فأجابه الى ما طلب بغير معاودة وقد قيل فى أمر تنزيله من هذا المنصب أقوال أخرى أضربنا عن ذكرها ومن هذا الحين أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته الى محكمة لتحكم عليهم بما تراه أمرا مقضيا لا راد له

مطلب
حصول الخلاف بين رياض باشا واللورد دوفرين وتنزيل مصطفى رياض باشا من منصبه

وكان لما أخذ الانجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك فى حينه وأتوا به الى الاسكندرية أرسل المستر مالت قونصل جنرال الانجليز الى اللورد جرانفيل زعيم أوصاحب سياستهم يقول ان الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى ان من مواجبه تسليم جميع الاسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال الى سلطة وتصرف الخديو فأجابه اللورد جرانفيل الى ذلك بشرط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل ما لم تصادق على ذلك حكومة الملكة فاعلم القونصل الخديو بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى حقهم قبل أن تعترف به دولة الانجليز * فلما كان سلخ ذى القعدة قدم الى القاهرة رجل اسمه مارك نابيير من كبار علماء الشريعة الانجليزية ومعه آخر اسمه ريشارد آيث وتقدما الى المحاماة والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سيرفع لها أمره فمانع فى ذلك الوزير محمد شريف باشا وقال ان الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا

مطلب
مقدم مارك نابيير من أصحاب شريعة الانجليز للدفاع عن أحمد عرابى

اجراء التحقيق معهم علانيـة ولا تجيز وجود أحـد من الأجانب فى هيئـة المحكمة وأبلغ هذا الكلام الى المستر مالت فرفعـه الى زعيم سياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمم الزعيم المشار اليـه على وجوب الدفاع عن أحمـد عرابى ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعـد أخذ ورد طويلين قبل الوزير محمـد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامى عن أحمـد عرابى مصريا لا انجليزيا فلم يقبـل اللورد جرانفيل وأعاد القول بترك الدفاع عن أحمد عرابى الى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الاكراه والتهـديد فامتنـع الوزير من قبول ذلك وطال الاخـذ والرد بين الفريقـين أياما وقفت فيها رحى التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السياسة الانجليزية رغما عن كل مكابرة وعناد ❊ وانقسمت الآراء وتباينت الاقوال فى أمر دفاع الانجليز عن أصحاب الثورة ومحاماة كبار شريعتهم عن أحمد عرابى فكان الناس فى ذلك على طرفى نقيض لاسيما أصحاب صحف الأخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهـل الثورة لشريعـة البلاد ومنع دفاع الانجليز عنهـم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يجدوا لندائهم من مجيب ونزع فى عاصمة الانجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيحون بألسنة أقلامهم وا عدالتاه وا إنسانيتاه وا مرحمتاه وكان فى مقـدمة هؤلاء القوم السير وليم جريجورى والمستر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعلاه وجاء بلانت هـذا برجـل من أصحاب الشريعـة الانجليزية اسمـه برودلى وقيـده بالدفاع عن أحمـد عرابى وكان هذا الرجل من موظفى حكومة الهند ثم انفصل عنها ولحق بباى تونس مولاى حسن باى فقدم القاهرة فى رابع عشرى ذى القعدة وطلب الاجتماع بأحمد عرابى فلم يسمحوا له بذلك فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جنرال الانجليز فاعانهـم ونزع الى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعـل التحقيق مع أحمد عرابى وبقية أهل الثورة علنيا فطال بين الفريقـين الجدال وكثر القيل والقال وأبى القونصل الا ما أراد ومازال حتى تقررت القاعـدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابى وأصحابه وعمن يشاء من بقية المجرمين الى برودلى هذا وتقييد بورالى بيك أحد محامى الحكومة باقامة الدعوة العمومية ثم تعينت أوجه التهم وأسبابها فكانت – أولا – تهـمة أحمد عرابى وطلبه عصمت ومحمود سامى ومحمود فهـمى وعمر رحمى كاتم سر أحمد عرابى بكل ما حدث من الاضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طوابى الاسكندرية فى يوم الاربعاء خامس عشرى شـعبان ثم اخراجهـم جميع العساكر المصرية من المدينة واضرام النيران فيها بينما كانت تلك الراية تخفق على حصونها – ثانيا – تهـمة أحمـد عرابى وطلبه عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى وعلى فهمى بتحريض الناس وحضهم على حمل السلاح والخروج عن طاعة أمير البـلاد وماترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقـة دماء الابرياء من النساء والاطفال ثم تهمة أحمـد عرابى



ومحمود فهمي وطلبه عصمت ومحمود سامى باستمرار القتال ومحاربة الانجليز بعد عامهم باتمام الصلح وتقرير قاعدته * وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار الموظفين بمحكمتى طنطا والاسكندرية واشتد أصحاب الشرطة فى البحث على الفارين منهم فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغة

فلما كان سابع ذى الحجة انتظم مجلس التحقيق فأتوا باحمد عرابى ورفاقه وخلفهم الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والحراب فكان لا يرى على وجه أحمد عرابى شئ من الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ اللب وكان اذا سئل أجاب بلا تردد ولا تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقبح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم الى هيئة المحكمة كثيرا من الرسائل التى كانت تأتيه من كبير المابين الهمايونى ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد امام السراى السلطانية وكلها استنهاض وتحريض وتشجيع على التظاهر عما كان واعلاء كلمة السلطان فى داخل البلاد * قال احد الكتاب العارفين بحقائق هذه الامور بعد كلام طويل * وقد نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الانجليزية وفازت فى دار السلطنة عامى اثنين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية واثنين وثمانين فانه ما تظاهر أحمد عرابى مظاهرته الحربية بميدان عابدين التى لم يكن القصد منها الا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفاقه من منصب الوزارة حتى حض الانجليز الباب العالى على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية فى بلاد مصر فأطاع وعمل بما أشاروا فلما رأوا فلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال الدولة ومنوا السلطان بالامانى البعيدة التى منها محو امتيازات عائلة محمد على باشا الكبير واعادة مصر الى ولاية عثمانية خاضعة تماما للباب العالى ان هو عمد الى تعضيد أحمد عرابى وأصحاب الحزب الوطنى — قال — ولم يقف أرباب السياسة الانجليزية عند هذا الحد من التغرير بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضا الى أصحاب صحف أخبارهم أن يساعدوا على نوال هذه الحظوة فصاحوا بالثارات السلطان عبد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن تسأل الباب العالى فى ارسال جيوشه المظفرة لاخماد نار هذه الثورة التى لا يقوى على اخمادها الا العساكر العثمانية فاغتر الباب العالى بذلك أيضا واندفع دفعة أخرى فى غير طريق الهدى وسير الى القاهرة جماعة من المابين والسراى السلطانية بينهم الشيخ أحمد أسعد وقدرى أفندى ليؤكدوا الى أحمد عرابى ورفاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم فنشط عند ذلك أحمد عرابى وتجرد للدفاع عن حقوق أمير المؤمنين فمالت اليه قلوب أهل البلاد واستمال اليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد اه وقدم أيضا أحمد عرابى الى هيئة المحكمة عدة محاضر موقعا عليها من عمد وأعيان البلاد يمتدحون فيها أعماله ويشكرونه على نهضته ويسألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضا بمعنى ماذكر الى رئيس المابين الهمايونى فأعجبت هذه

الاوراق

الاوراق جماعة الانجليز وعظمت لديهم الأمر واشتد بها أزر بروذلى الذى تقيد بالمحاماة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالغ فى الدفاع وشدد فى الحجة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الانجليزية وجماعة من أصحاب الكلمة فى دولتهم اذ قام منهم الخطباء والفصحاء يشددون النكير على رجال السلطنة العثمانية ويرمونهم بالخديعة والمكر فتبدلت عند ذلك الاحوال وتبددت الآمال وانقلبت من طور الى طور وما زالت الامور بين أخذ ورد واقبال وادبار حتى ثبت عصيان أحمد عرابى ورفاقه فكتب رئيس لجنة التحقيق الى برودلى يقول قد صار من المقرر فى نية هيئة مجلس التحقيق احالة أحمد عرابى على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد وكلهم مجمع على فشل الحكومة وفوز جماعة الانجليز

مطلب
محاكمة أحمد عرابى
ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى محرم الحرام افتتاح سنة ثلثمائة وألف هجرية أى رابع دسمبر ختام سنة اثنين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمعت هيئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بجماهير الانجليز وكبار ضباطهم وكتاب صحف أخبارهم وجميع قناصل الدول وكانت أمارات الهيبة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن الاساعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدقت بهم العيون من كل جانب وتهللت الوجوه فرحا بوقوفهم فى موقف الجزاء فأشار الرئيس الى أحمد عرابى وقال * يا أحمد عرابى باشا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كما ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى فهل تعترف بانك مذنب أم لا فقام فى الحال برودلى المقيد بالمدافعة عن أحمد عرابى وناوله ورقة فاخذها عرابى وجعل يقرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا * أعترف بارادتى وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا متهم بها الآن * فلما أتم أحمد عرابى كلامه قال الرئيس * انفضت الجلسة مؤقتا وسيتلى الحكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يحضر فى ذلك اليوم برودلى بيك المدعى العمومى لكى يشرح لهيئة المحكمة موضوع التهمة ويسمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمون من الفظائع وما ارتكبوه من الجرائم ولاقام من يتكلم بدلا عنه فاندهش عند ذلك الحاضرون وجعل ينظر بعضهم الى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الانجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس

الى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن الا لحظة حتى خروج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأتوا لديهم بالمتهمين فلما صاروا فى وسط الجمع أشار الرئيس الى أحمد عرابى وقال اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ مانصه * حيث قد ثبت ارتكاب أحمد عرابى باشا جناية العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجناية منصوص ومعاقب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايونى * وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجناية لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث فى شئ خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة الا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها فى المادتين المذكورتين وهى عقوبة القتل * فبناء على هذه الاسباب * قد حكم باتحاد الآراء على أحمد عرابى بالقتل لارتكابه جريمة العصيان والخروج عن طاعة الجناب الخديوى طبقا لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزا آت الهمايونى ورفع هذا الحكم للجناب العالى للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضا على بقية المتهمين بجريمة العصيان مع أحمد عرابى المذكور * فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهللت وجوههم فرحا ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ مافيها واذا به عفو خديوى ونصه * قد اقتضت ارادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبه عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفى الى الأبد من جميع الاقطار المصرية وملحقاتها وان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية أوملحقاتها وأن يجردوا جميعا من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرية

فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفرار وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينظر الى بعض وكأن على رؤسهم الطير وجلس عرابى وبقية المجرمين وهم باشو الوجوه منشرحو الصدور فتقدمت عند ذلك احدى النساء الانجليزيات هى زوجة نابير شريك برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أولئك المجرمين وهى علابس الزينة والاعراس وناولت عرابى باقة من الورد الابيض اشارة الى الظفر والغلبة ثم صافحته ضاحكة فصافحها باسما فاشتد تعجب الناس واستغرابهم وكبرعليهم هذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويعجبون من تصاريف الأيام * وأخذ العهد على أولئك المجرمين بالبقاء فى الجهة التى تعينها لهم الحكومة بعيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صكا فوقعوا عليه جميعا * فلما كان ثالث صفر رسم الخديو بمصادرة أحمد عرابى وسائر أصحاب الثورة وقيدوا جماعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيأ يذكر ولم يتعرضوا الى شئ من متاعهم وكان كثيرا خصوصا متاع أحمد عرابى وقد قيل انه كان يحتوى على شئ كثير مما نهبه النهابون من الاسكندرية مما خف حمله وغلا ثمنه ولم يمسوه بشئ كما أشار بذلك

مطلب ورسم الخديوى بمصادرة أصحاب الثورة

وزير سياسة الانجليز ثم تأهب المجرمون للرحيل الى سيلان احدى ممالك الهند الانجليزية وقد كانوا يعلمون بانها ستكون دار اقامتهم قبل أن يصدر الحكم عليهم بالاعدام بأيام كثيرة كما هو ظاهر مما كتبه برودلى المحامى عنهم فى كتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عرابى) أو (كيف كان دفاعنا عن أحمد عرابى) فحملوا اليهم سائر متاعهم وذخائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صفر المذكور وكذلك حضر اليهم من شاء الذهاب معهم من نسائهم وجواريهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا نيفا وستين ما بين اناث وذكور وساروا جميعا فى قطار مخصوص فى تلك الليلة الى مدينة السويس ثم أنزلوهم فى احدى بواخر الشركات الانجليزية وصحبهم بعض رجال الانجليز مودعين ومطيبين لخواطرهم فأقلعت بهم السفينة بسم الله مجراها

وكلم اللورد دوفرين الوزير محمد شريف باشا فى أمر من بقى من أصحاب الفتنة فرسم الوزير بالتعجيل ففعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحكم على سليمان داود مقدم جند الاسكندرية بالاعدام شنقا لارتكابه جريمة احراق المدينة فضلا عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضهم بالتبعيد الى سواكن ومصوع وعلى البعض الآخر بالتبعيد الى الشام وغيرها وكانوا كثيرين وعفى عن البعض وانفضت حينئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلى أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم اذ قام تجار الاسكندرية يطالبون الخزينة بثمن ما أخذه النهابون وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه وزع قناصل الدول كافة الى الشدة فى الطلب فجعل الوزير محمد شريف باشا يطاول ويكثر من مخابرة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على الزام الخزينة برد ثمن جميع مانهبه العامة والرعاع وكانت الخزينة الى هذا الحين قد أنحلتها الحوادث وزادها انحلالا نفقة الجنود الانجليزية القائمة بين الكنانة والاسكندرية فضلا عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر الزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الانجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوار فلم ير رجال الدولة بدا من الاستدانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب وتقدم اللورد دوفرين الى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت روتشيلد الغنى الشهير بعاصمة الانجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماما عظيما كى لايفشل فى سياسته بعد نصرة التل الكبير وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة باحصاء مانهبه النهابون وحوافيش الاسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشؤا لذلك ديوانا بدار محافظة الاسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطيروا خبره الى الآفاق فتزاحمت على بابه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب البيوت فكان شيأ لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرته فردوا لهم قيمته ذهبا من ذلك القرض وما زالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون

مطلب
قيام تجار الاسكندرية لمطالبة الخزينة بثمن مانهبه النهابون

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل الى البناء واعادة ماتهدم فتوسعوا فى العمل وبالغوا فى الاتقان فلم تمض الا أشهر حتى عادت المدينة الى أحسن ما كانت عليه من الرونق والبهجة واتسعت وعمرت ربوعها وامتلأت حوانيتها بأصناف المتاجر الفاخرة والبضائع الثمينة وعاد اليها من نزح منها من الاجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الانجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغريبة فاتسع نطاق الاخذ والعطاء وراجت التجارة وعادت الامور الى سابق مجراها واتصلت العلائق التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والاسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أسباب الوحشة فلم يبق من الثورة الا حديثها والحديث ذو شجون

ونظم بعض الادباء فى سير هذه الحوادث المهمة ومآل هذه الخطوب المداهمة كثيرا من القصائد المتضمنة لبعض وقائع الحال وما بلغت اليه يومئذ الاحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الاعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحى التى عنوانها « صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال » وهى

تبين عقبى غيه كل معتدى   وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى

يعض بنان المستكين ندامة   ويقرع بالاذلال سن المسهد

فهلا رعى نعماء كانت ظليلة   عليه وهلا قد وعى نصح مرشد

وهل ندم الباغى اذا حم أمره   الى الحين يجدى بالرجاء المردد

بنى الجهل والطغيان كيف كفرتمو   بأنعم توفيق العزيز محمد

مليك توافيه الملوك لنصره   بأنفسها غير الخميس المجرد

وهل غير احسان الخديوى عليكمو   سوابغ كانت من طريف ومتلد

نبذتم قوانين الشريعة ضلة   وجاهرتمو بالبغى فى كل مشهد

ومن كان لايدرى حقيقة أمركم   أبثه الانباء عنكم ليهتدى

ولست مريدا بالقوافى مصانعا   ولا راهبا من غائل أو مفند

فقد تلجئ الاحوال للعجز حازما   كما تلبس الاحرار أثواب أعبد

ويدخل فى عد النواصب خيفة ال   ـردى علوى حين لم يلق مفتدى

وما أنا الا ذاكر ما جنيتمو   كما يذكر الرائى فعال المعربد

سرقتم نقود الجند ثم رميتمو   دفاترها ليلا بسرداب مفقد

وقد ظهرت تلك الخفايا جلية   وحان جزاء السارق المتعمد

كما سرق التفتيش طلبة عامدا   وبالرفت أمسى فى عقال التلدد

ورب يتيم قد أكلتم تراثه   وأبعدتموه عن مجير ومسعد

وقلتم جنى ذنبا العرابى وتطفروا   باعدامه والمال يبقى لذى اليد

وأرملة أتلفتمو جل مالها   وصيرتموها عرضة للمفند

وأظهرتم التوكيل عنها تسترا ... على نهب محصولاتها والتردد
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم ... تضررتمو كالارقش المتوقد
ووطأتم العصيان بالعهد بينكم ... وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
وفى مصر ساورتم سراى أميركم ... مرارا وأوريتم زناد التمرد
وجئتم تجرّون المدافع حولها ... حصارا وأبرقتم بأصوات مرعد
فأصبحتمو أصحاب سيف ومدفع ... وللفأس والشادوف وسمات باليد
ولما تيقنتم بأن جزاءكم ... هو القتل أعلنتم دسائس ملحد
وأجمعتمو كيد ابن ملجم اذ غدا ... يحاول قتل الارباء ولا يدى
وألفتمو حزب الضلال يحوطكم ... بترقيش بهتان وزور ممهد
وقلتم عن الاوطان والدين انكم ... تحامون فى الجلى محاماة صندد
وما كان للاوطان والدين آفة ... سواكم عليها اذ أتيتم بعوّيد
وزدتم على ماهية الجند وافرا ... ومن يسترد بالبغى ما شاء يزدد
وأنشأتمو قانون يربى معاشكم ... بتلفيق أحكام وقول معقد
يخالف أسلوب القوانين وضعه ... ويزرى ببيت المال ازراء محصد
فأمست به بعض الارامل منكم ... لواء وأخرى كالفريق المجند
وغيرتم الضباط عمرا بفاسد ... وسعدا بمشؤم وحرّا بأوغد
ولقبتمو منكم عبيدا بخالد ... تريدون سيف الله بعدا لمعتدى
وألقاب شتى من همام وقائد ... وحامى حمى الهيجا وفارس معهد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو ... كما شئتمو فى مسند بعد مسند
يجرّون أعقاب السيوف على الثرى ... فتعركه فعل السفيه البلندد
وجمعتم الاضغاث بالوهم بينكم ... وبالرغم سدتم لا بفضل ومحتد
وأبرمتمو عهد التحالف بينكم ... على الحرب ان فى اليوم تنشب أوغد
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم ... فما لبتمو إلا وفاء التعهد
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه ... ويرمى به الاهواء فى شرّ مورد
ولما أتى الاسطول مصر مسالما ... أثرتم بريح البغى نار التعند
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم ... وأدمج غشا فى حماس مقلد
وأوهم زورا أن فيكم بسالة ... فحاولتمو بالجهل خطة أصيد
وهيأتمو بعض الطوابى تمرا ... وهددتمو سيمور كل التهدد
فسبتمو احراقها وخرابها ... وكانت حصانا بالبناء المشيد
وأتلفتمو الخرطوش من غير عائد ... مع الريح يدوى لا الى الفلك يهتدى
ولم تر منكم فى سفين اصابة ... تعلل نفس الحر عند التهدد

وغادرتمو قتلاكمو دون ملحد ... وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
وصلتم على المستأمنين لتأخذوا ... بثار الطوابى من ضعيف ومقعد
وأخرجتم السكان من دور ثغرهم ... سراعا بتهديد وضرب مبدد
وكم من بريء قد قتلتم ببغيكم ... وكم من عزيز قد أهنتم وسيد
وكم ذات خدر قد فضحتم وحامل ... جهيتم فألقت حملها دون مولد
وأحرقتمو منشية الثغر بعد ما ... نهبتم وسرتم كالنعام المشرد
وكان سليمان الغبى معينا ... الى الحرق وقافا لذى كل مرصد
فمالكمو لا أحسن الله حالكم ... هربتم هروب الارعش المتبلد
وخلفتمو فى الثغر عارا ورحتمو ... بخزى لكم يبقى بذم مخلد
وعاودكم بعض الغرور فلتمو ... الى الرمل ميل الغادر المتقصد
وحاصرتمو قصر الخديوى بعسكر ... وخيل توالت من كميت وأجرد
وفى كفرة الدوار خلتم مقامكم ... منيعا فأظهرتم كمين التصفد
وحالفتمو ابليس فيها وقد خلا ... لكم جوها فى فدفد بعد فدفد
فصفرتمو تيها ونفر بعضكم ... ولاح لكم بيض به النصر يقتدى
وفى العزل والتنصيب والحكم جرتمو ... وكنتم لجمع المال أشره مجتدى
سلبتم من الاغناء محصول زرعها ... وما للاهالى من لجين وعسجد
وأظمأتم الاسكندرية حينما ... منعتم وصول الماء من كل مورد
وكم محضر أمضيتموه بقهركم ... وممتنع أرهبتمو بالتوعد
وأخربتم البلدان ثم صعدتمو ... الى التل فى جيش كثيف معقد
اليكم اليكم انما قد تركتمو ... الى أجل دون القصاص محدد
فهذى جيوش للنضال تواصلت ... بكل سفين مثل صرح ممرد
لنصر الخديوى أو لقهر عداته ... لهم وثبات بين راغ ومزبد
وأضحت رحى طغيانكم فى عديدكم ... تدور عليكم بالكروب المهدد
بطالع توفيق المفدى وبغيكم ... خذلتم غداة الحرب فى كل مطرد
وفى وقعة التل الكبير انهزامكم ... بعير كم فى كل عصر مجدد
أغارت عليكم فيه أول فرقة ... فطرتم شعاعا كالهباء المبدد
وما رابها الروبى هنالك بخيله ... ولا زار الذئب الكمين بمرقد
فأين الذى واعدتمو وادعيتمو ... به من ثبات فى الوغى وتجلد
فهلا صبرتم وهو تصديق زعمكم ... وهلا قتلتم وهو خير لمرتدى
اذا كانت العورات يخفى ظهورها ... لدى البحث فى ناد دقيق التفقد
ولكن فضحتم بالفرار كدأبكم ... وكان العرابى بالهزيمة مبتدى

كدأب

كدأب بنى كلب غـداة تمكنت ... بنـو أسـد منها بضرب المهنـد
كدأب جهول باع ثورا لبومـة ... وقيـده فى غصنها المتـأوّد
لعمرى لقد أبدى العزيز لجهلكم ... من الحلم ما وهى صلابة أقـود
ورقاكـو بالمكرمات فخدعو ... وكل لئيم ان رق يتمـرّد
مطايا العلى فى الخطب تحو بصادق ... وتكبو بعقل السريرة أحقـد
بمن الخديوى مصر كانت لاهلها ... عـروسا تجلت فى كساء زمردى
سقاها غير النيل صفوا فأزهرت ... وراقت بنى الدنيا بوجـه مـورّد
تدبرها للسـلم نظار مجـدها ... وأحكامها تبـدو بعـدل موطد
فمهـد رياض كان يزهو نضارة ... وكان شريف للعلى خير منجد
وقد حذرا كم ما استطاعا فخنتمو ... وأضحى بكم سامى أشرّ مقلـد
تضـلونه جهلا ومكرا يضلكم ... وكل بآراء المضلين مقتـدى
ومازال فى أمر [1] البريثين آخذا ... بقول العـرابى مظهـرا للتشـدد
الى أن هوى بعد العتو ولا لعا ... لعـثرة باغ فى الحماقة أوحـد
جعلتم [2] لذى الدامين فيها رئاسة ... فعـرضتموها للـدواهى بأجود
وهل ميت الاحياء يرجى لمعظم ... من الامر فى يوم من الخطب أسود
بمنشـوره السبرق هيج فتنـة ... وأسند عهد الحكم فى غير مسند
كأن له فى الامر حق تصرف ... وصيره فيكم بقصـد التـودّد
لقد زاد فى الطنبور أنكر نغمة ... بها أرق المحـزون صـوت المغرّد
ولولاه ما حاز العصاة من القرى ... مغانم شـتى غـير رفـد ومرفـد
فقل للعرابى ان رؤياك صادفت ... ولكنها وافت على غـير مقصـد
وتأويلها بالحبس تلق اهانة ... ويعقبها شرّ يسـوءك فى غـد
فيا كل مشـئوم ويا كل غافـل ... لك الويل من عاد عن الرشد مبعد
أراك درست البغى بالجهل كاملا ... وفى الحزم لم تبـدأ بأوّل أبجـد
وسلمت سيف الذل فى مصر صاغرا ... فيا شؤم سيف فى الوغى لم يجرّد
فلو كنت تجـزى بالذى تستحقه ... أناداك داعى الحكم غـير مرتد
تقـدم عرابى وأرق أعواد واعظ ... بصمت وقبـل الارتقاء تشـهد
ومثلك فى ذا الحكم كل مجاهـر ... ببغى على عـدل العـزيز المؤيد
ولكن عفا عنكم أمـير تعوّدت ... خلائقـه الاحسان كل التعـوّد
له الفضـل أما أنتمو بفضولكم ... تعيشـون أمـواتا بزاة أنكـد
ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم ... وغص بنـوكم بالقـراح المبرّد
وان تبعـدوا لاقرّب الله داركم ... ولا دار من والا كم فى التعيـد

(١) البريثين يريد بهم جماعة الشراكسة

(٢) لذى الدامين يريد به راغب باشا

فبغيكمو أبقى عراقيل جمة | عليكم بها لعن من الله سرمدى
فسيروا الى أرض الجزيرة حيثما | منيتكم حمت بها وكأن قد
وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا | وهل أمنت أوطاننا عود معتدى
فقل فى جواب السائلين مؤرخا | بلى خرجوا كرها لنفى مؤبد
سنة ١٣٠٠ | ٤٢ ٨١٠ ٢٢٦ ١٧٠ ٥٢
يعيش أبو العباس ذخرا لمصره | وكهفا لاهليها ورغما لحسد
يعيش الخديوى مصلحا لرسومها | بعدل واجلال ومجد وسودد
وتسمو به الانجال مثل جدودهم | سموا لابراهيم بعد محمد
ولا زالت الانظار تحمى ذمارها | بحزم وتدبير ورأى مسدد
وان تعرض الآراء من أى وجهة | فان الخديوى ينتقى كل أقيد
أصالته بالرأى فى مصر أرخت | محمد توفيق به الكل يقتدى
سنة ١٣٠٠ | ٩٢ ٥٩٦ ٧ ٨١ ٥٢٤

(وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندى الليثى فى ذلك أيضا)

كل حال لضده يتحول | فالزم الصبر اذ عليه المعول
يا فؤادى استرح فما الشأن الا | ما به مظهر القضا يتنزل
رب ساع لحتفه وهو عن | ظن بالسعى للعلى يتوصل
قدر غالب وسر الخفايا | فوق عقل الأريب مهما تكمل
غاية العقل حيرة وعقال | واللبيب الذكى من قد تأمل
كيف ننسى وحادثات الليالى | فاجأتنا بكارث ليس يحمل
أذهبت أنفسا وغالت نفيسا | وذوى مربع الحظوظ وأمحل
كان اقليمنا رياض صفاء | فيه للواردين أعذب منهل
من رآه يقول توفيق مصر | أبصر الناس بالأمور وأعدل
قد أمنا الزمان فيه وقمنا | آمنين الخطوب لا نتململ
تتهادى فى ظل أسمى مليك | من سجاياه كل خير يؤمل
فسرت أعين الحوادث فينا | فاطرحنا الوقار والامر أعضل
ورأى غيرنا من الحلم أمرا | غره فابتغى الذى لا يحصل
واذا المرء كان بالوهم يبنى | فخيال الظنون مافيه تمثل
ويح قوم سعوا لادراك أمر | دون ادراكه الجبال تزلزل
ما أصروا عليه الا أضروا | بأناس من نابه أو مغفل

ذلك

ذاكَ يسعى على التقية خوفا وسواه يسعى لحكما يحمل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء كانت الغاية الجليلة أمثل
وكفينا معرّة أوبقتنا فاستوى شائك السلاح وأعزل
آه من رقدة الحلوم ودهر أيقظتنا صروفه اذ تبدّل
كانت الناس فى ظلال نعيم تجتنى من ثمار غصن تهدّل
مالنا لم نقم بجد وندعو من عدا المهتدى وننصح من ضلّ
مالنا كلنا سوى القل منا قد سلكنا سبيل غاو مضلل
قد تساوى الغبي والمتغابى وعليم من جاهل صار أجهل
قد جبنا وصاحب الجبن جان وهو بالطبع فى الانام مرذل
لو رزقنا السداد لانسد باب وحقنا دماء قوم تحلل
كان باقوته المذاب مصونا فسقينا به الثرى اذ تهيل
كم غرسنا جاجا وجسوما وجنينا الاسى بزلة من زلّ
ياترى من يقوم عنا بعذر اذ أطعنا الغواة فى كل محفل
حيث حدنا عن المليك وخفنا سطوة من عداه والقطر مقفل
حيث لا يرفع البريد شكاة وسلوك السلوك صار معطل
حيرة أدهشت أولى اللب حتى ما اهتدى للصواب منهم مجمل
ذاك سر القضا وليس عجيبا أن يحار الاديب فيه فيذهل
غير أنا لما أفقنا أرقنا من شؤون العيون دمعا تسلسل
وبسطنا اللسان فى ذم قوم ان ذكرناهمو نغص ونخجل
ومددنا أكف ذلّ لمولى شأنه البر كم عفا وتطوّل
آل مصر بغيره لا تلوذوا اذ هو الملجأ الملاذ لمن زل
ياعظيم الجناب يا خير ملك سعده قد أباد من قد تغوّل
من بغى والوغى أثار ففكم فى طلاه الحسام فالسيف فيصل
واجعل العدل عادل الرمح فيهم نافذا قدر ما يعلّ وينهل
واسقهم كالذى سقيناه إنا قد شربنا من بعد بعدك حنظل
واغتفر زلة لمن جر غما لبلاد ولا منيع يؤمّل
كم مليك عفا وأنت المفدّى فوقهم همة فلا تتعجل
وامنح الناس من عطاياك عطفا واجعل العفو موضع الشكر واعمل
بجدير بمجد ذات الخديوى كل فضل وليس للعذر محمل
فابق واستبق من رعاياك قوما أملوا العفو من حيالك المسهل
ان تدقق تدق أعناق ألف بل مئين من الالوف تقتل

والرعايا تضيع بين عدو ... وولي له الفخار المؤثل
حاش توفيقنا يقصر عما ... ينشر الصفو في البلاد وينقل
سيدي لاعدمت شكرا سناه ... عم الخافقين ليس يعطل
لا تكلف جميل طبعك أمرا ... غير ما فيه فهو لا يتحول
كان ما قد أساء حلما فلما ... أصبح الصبح بالسرور تأول
هذه مصر زينت واستعدت ... لسعيد الركاب لما تفضل
وازدهت بالجمال حين تبدى ... موكب بدره بنور تهلل
موكب حف بالكواكب زاه ... من رجال أعزة قد تجمل
كلهم صادق شريف الطوايا ... نعمهم والخطوب تنهل يبذل
ما رأت مصر يوم بشر كهذا ... أي يوم بدا أغر محجل
دمت للدين والدنا خير راع ... ولعباسك النجيب المؤمل
ما جرى بالفخار عنك حديث ... صار بين الملوك بالمدح أكمل
أو أشار الزمان للسعد أرخ ... الخديوي لمصر باسعد أقبل

سنة ١٢٩٩ ... ٦٦١ ٣٦٠ ١٤٥ ١٣٣

وصل

(فيما كان من وراء احتلال الجيوش الانجليزية لأرض الكنانة)

قد كان من وراء ما تقدم من الحوادث والانباء واحتلال الجيوش الانجليزية للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالاسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والاسمعلية أن وقع أمران خطيران في نوعهما وعليهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية في مستقبل الايام . — الاول — قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وابطال الكثير من مراسيمها المعمول بها من أيام محمد علي باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والاحداثات التي تناسب روح العصر وترقي البلاد وأهلها الى ذروة العمران والمدنية . — والثاني — سلخ الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرسحا للفوضى وعيث العائثين من الخوارج الذين هم مدعي المهدوية والملتفون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين في ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الاصقاع شرقا وغربا ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن اخماد نارها بسبب الثورة العرابية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوة والصولة على أنه لم يمض على مقدم اللورد دوفرين رسول الانجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الاحداثات وسن النظامات الجديدة آتيا الامور من أبوابها فرسم بانشاء المحاكم الأهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع في نفقتها وساعده على ذلك الوزير

محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لان انشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى اسمعيل وأتوا لهذه المحاكم بجماعة من القضاة البلجيكيين والهولانديين منعا لتطاول أيدى رجال الدول الكبرى الى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تمهيدا للوصول الى حل عقدة المحاكم المختلطة واذهاب سلطها لانها عقبة كؤد فى سبيل بسط الحماية الانجليزية على البلاد واخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت هذه المحاكم سيرا حثيثا واشتدت عزيمة رجالها جميعا بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحا عظيما وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل ۞ وبينما هم على هذه الحال اذ وردت كتب صاحب السياسة الانجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل الى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها الى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصدع دوفرين بالامر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقه وقال لايكون هذا الامر وفى عروقى قطرة من الدم فراجعه دوفرين فلم يقبل فكبر الامر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز الى مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الاخذ والرد وبدت علامات الوحشة وجعل مالت يكيد المكايد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يزحزحه عن عزمه شئ من ذلك ثم اشتد دوفرين فى الطلب وجعل يسد فى وجه الوزير أبواب كل عمل وظلمة كل أمل حتى استفزه وأضاع صبره وتقدم الى الخديوى فى قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجابه الخديوى الى ذلك بحضرة الوزراء وقال له أقلتك قيل فالتفت الوزير الى دوفرين وقال انى برىء مما سيراق من الدماء فى سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاؤن والله من وراء ما تفعلون ۞ قال بعض الكتاب وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها الوزير نوبار باشا فصدع نوبار باشا بالامر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر

(مطلب)
اعتزال الوزير محمد شريف باشا وتولية الوزير نوبار باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعلقا به واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الاخبار يلهجون بحمده فجاءت اليه رسائل التهانى تترى من كل فج عميق وزاره أصحاب السياسة من الانجليز والفرنسيس ليعرفوا منه ما خفى من الاسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامض هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الانجليز فكتب يومئذ الى احدى صحف أخبارهم يقول ۞ زرت الوزير محمد شريف باشا فى داره بعد اعتزاله الرئاسة فحادثنى طويلا فى جميع القضايا التى ضاعها فى سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بمصر لعلمهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبته ثم قال لى وهو يتنفس الصعداء ۞ قد أقسم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أتصرف فى العمل حسبما تقتضيه

مصلحة البلاد اذا قبلت الرئاسة ومع ذلك فلما كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الانجليز فيما يتعلق بالاصلاحات فقط لا فيما يمس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الاصقاع السودانية الشرقية والقبلية والا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الامة التى تعتبر ذلك أمرا ضروريا لحياة مصر وراحتها * وليس يخاف أنى كثيرا ما خشيت محبة الامة لى وتعلقها بى ارضاء لمطالب الانجليز ومع ذلك فانى أعتبر نفسى غير أهل لمنصبى اذا افتخرت بهذا العمل * أما زعيم السياسة الانجليزية فانه لم يعمل عملا طيبا لنا نحن معاشر المصريين وتشديده علينا بترك السودان فى أيدى المهدى أكبر برهان على ما أقول لانه من المعلوم أن ترك السودان للمهدى مما يزيد فى قوته ويصيره عزيزا قوى الجانب فاذا بلغ متمناه هذا فماذا تكون يا ترى الواسطة فى ايقاف تيار تلك القوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيرة أن جعل حدود مصر عند اسوان أو وادى حلفا كما أشار صاحبكم يستلزم وضع جيش من خمسة عشر ألفا الى عشرين ألفا من الجنود ليبقى رباطا هنالك فمن يا ترى يقوم بنفقة هذا الجيش ثم ان الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قريبا على الابواب ولا أنكر عليك سيدى أن السودان كانت تكلفنا الشئ الكثير من المال غير أنه لا خسارة علينا اذا حافظنا على حدودنا بانفاق زهاء مائتى ألف جنيه وأظنك لا يعزب عليك أن محمد على باشا أدرك فى أيامه أن حماية حدود مصر الاصلية تستلزم ضم أراضى النيل الابيض اليها فسعى فى ذلك وأخضع بقوته تلك الاطراف وجعلها تابعة لديار مصر فنعم ما فعل وهل يصح بعد ذلك أن تترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمأنينتها مدى الايام على أن النفقات التى تنفق على اقامة خط دفاعى على النيل الابيض لا تبلغ جزأ من النفقة التى يستلزمها الدفاع عن وادى حلفا أو اسوان وان خمسة عشر ألفا من المصريين يقومون على حراسة الخرطوم وبربر ودنقلة وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق فى الرأى بل من قلة التبصر تضحية سكان هذه المدن ومن فيها ونحن مسؤلون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم * قال الراوى ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال وماذا تفعلون يا ترى أيها الانجليز بدعاة المهدى الذين أقسموا الايمان الغلاظ أن يموتوا بحد السيف أو يفتحوا مصر السفلى أما أنا فلم أفهم ما الحامل للانجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدى واحتلال السودان وما الباعث لهم على معارضتنا فى استرجاع البلاد التى أخذها مدعى المهدوية ولماذا لا يسمحون لنا بابقاء النيل الابيض فى حوزتنا كما كان ولماذا لا نطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد النصرة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمددناه مرارا عند حاجته الى ذلك وانى أقول لك الحق انا لو أجلينا المهدى عن الخرطوم لاتخذت المسألة دورا آخر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن الى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لها المهدى بأقوامه وها هو الزبير باشا قد أبى الذهاب الى دار فور والآن حيث انى

خلعت

خلعت نفسى من الرئاسة وما دام أمر الجلاء عن السودان شأ مقررا ولا يمكن التخلى عنه فلا بد أن حسين باشا ومن معه من العربان لا يتقدمون الى الامام وتفتر عزيمتهم تماما — قال — وانى لآخذ عنك أنى ناظر الى المسألة من وجهها الحقيقى فلذلك أرانى مشاهدا من بعيد جميع المصاعب التى تترصدنا فان نجاح المهدى أحدث تأثيرا قويا فى عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا انفاذ مانتوبه حالة كون البلاد بأسرها تضادنا فى ذلك — قال وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون الا عند مباينة رأى الرئيس لآراء الاعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد أما وزارتنا فقد كان سقوطها سببا عن اتفاقنا فى الرأى بشأن عدم ترك السودان نم انى مع وفاقى سلمنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودنقلة أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهى ليست من أملاكنا الخالصة وما نحن الا قائمون بحراستها بموجب فرمان سلطانى لايسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأنى بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان فى يدنا ضرب من الجور والظلم فاذا كان الامر كذلك فلما ذا يا ترى جازفنا بانفاق الاموال الطائلة فى ابطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الانسانية وان كنا قد أنفقنا الاموال الكثيرة فى ذلك فانا ولله المنة لم يعاونا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة نم انى صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكننى لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ماسيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستكبده البلاد من النفقة الثقيلة لا لشئ سوى المحافظة على التخوم فقط ❊ قال الراوى ثم حلق الى الوزير بعينيه وقال انى أقول لك الحق انى حزنت جدا من جراء حادثة السودان ولكنى لم أضجر وثابرت على العمل وأجهدت النفس ما استطعت فلما أيقنت أنى مشرف على هوة عظيمة جزعت ووقفت ثم خلعت نفسى من منصب الرئاسة وكان بودى لو يعلم الناس كافة اخلاصى فى الخدمة حتى النهاية ولكن يأبى الله الا ما يريد اه ❊ قلت فكان لمقالة الوزير غاية الوقع فى نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الاخبار الاجنبية وعدوها غاية فى الاصابة والسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصالة الرأى وازدحم على بابه كبار الكتاب من الانجليز والفرنسيس لاستكتاب حقائق أفكاره فكان يحدثهم غير متهيب من عظيم أو كبير

وبينما كانت الظنون تتراءى الى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها الى أقصاها كان زعيم السياسة الانجليزية يتخبط فى الامر ويعمل على سلخ السودان شرقا وجنوبا لأقل الاسباب وأوهى العلل ❊ ثم قدم فى هذه الاثناء الى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الانجليزية اسمه الاميرال هيوت مبعوثا الى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التخوم بين الاملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث فى القاهرة أياما ثم سار الى السويس ومنها

(مطلب) بعثة الاميرال هيوت الى نجاشى الحبشة

الى مصوع فوصلها فى أخريات جمادى الثانية من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف هجرية ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفينته يريد لقاء الرأس أولا قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدومه وبسبب حضوره و يطلبوا تعيين المكان الذى يأذن النجاشى بمقابلته فيه فعادوا وأخبروا بان اللقاء يكون فى بلدة عدوة فسار اليها بمن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب الى النجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى ينبنى عليها الاتفاق بين الدولة الانجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبث ينتظر الجواب أياما حتى جاءه الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن النجاشى مقيم ببلدة مكله فاذا شاء المسير اليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الاميرال الذهاب الى مكله وسار بمن معه الى عدوة فلما بلغوها لبثوا بها أياما بخاطبهم أمير الجيوش بحمل الامر من النجاشى بالمداولة معه فيما جاؤا بصدده فوارب الاميرال ولم يمتنع بتاتا وأكثر من الاخذ والرد فيما لاطائل تحته وجاء الخبر بذلك الى النجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك الى عدوة وبارح مكله وعرج فى طريقه الى دبه ومدريا وغيرهما ثم رجع الى مكله ثانية كل هذا والأميرال ومن معه يتصلون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الانجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا * فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضا الى حضرته فمثلوا بين يديه وهو فى زيه الملوكى فحادثوه طويلا فى أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود ثم ودعوه ورحلوا الى مصوع وعادوا الى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم النجاشى واسم الاميرال وماصون بيك محافظ مصوع قالوا انها هى تلك المعاهدة وانها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحرية التامة للمملكة الحبشية فى نقل جميع البضائع والاسلحة والذخائر من مينا مصوع تحت حماية الراية الانجليزية ثم اعادة بلاد بوغوس الى المملكة الحبشية مع كسلا وأما ديت وسنهيت بما فى جميعها من المبانى والاسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن النجاشى يسهل لاولئك العساكر سبل الجلاء * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتساءلون عما يراد منها فى حين ان تلك البلاد آمنة مطمئنة لاخوف عليها من اغارات العدو فقال قوم انها غلطة من غلطات زعيم السياسة الانجليزية وقال آخرون بل هى آية من آياته يريد بها اضرام نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط النجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما او يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الانجليز لقمة سائغة وتضمه الى ماناله من قبل على أنه لم يكد ينتشر خبر هذا الوفاق وما جره على البلاد من الخزى والعار حتى ظهرت الاشاعة بتعاقد زعيم السياسة الانجليزية مع زعيم السياسة الايطالية على تنازل السلطنة الانجليزية للايطاليان عن مدينة مصوع بعد سلخها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقط الحربية الواقعة على سواحل البحر الاحمر مابين عصب ومصوع على شرط أن الجنود

الايطالية

الايطالية التى تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب صحف الاخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الوقوف فى وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل ان هم ظلوا على هذا الاغضاء والتعامى • وكان ممن أكثر من هذا الصياح والجلبة صاحب جريدة افرنسية اسمها البوسفور فانه بالغ فى الوقيعة بزعيم سياسة الانجليز وزاد فى الطعن والسباب والحط من كرامته حتى استشاط جماعة الانجليز ولم يطيقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار باشا القبض على الرجل وابعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بالغاء صحيفته واغلاق محل تحريرها فمانع قنصل الفرنسيس فى ذلك ووردت اليه الاخبار من وزير السياسة الافرنسية بالمثابرة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة ان هى أصرت على ما تبغيه من اغلاق مكان صاحب البوسفور فأصبح الوزير نوبار باشا وهو بين منتطح كبشين لايدرى أى للطرفين أدنى الى السلامة إغضاب جماعة الانجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيس ثم انه كأنما رأى الثانى أهون الشرين فأوعز باغلاق المحل فرحل القنصل فى الحال عن القاهرة الى الاسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبث ينتظر مايأتيه من زعيم سياستهم وقد اشتغلت الخواطر بهذا الامر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين مستضعف لدولة الفرنسيس وشامت بها فكان بعضهم يقول لوأن فرنسا أظهرت هذا الحزم والعزم يوم كانت مراكب حربها أمام طوابى الاسكندرية ولم ترض بانسحابها صاغرة ذليلة لما حاق بقومها والناطقين فى بوقها ماحاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون هذا جزاء ماقاسته بنا من التغرير حتى أصبحنا واياها على ما ترى من الضيم والحيف والجزاء من جنس العمل وقد كثر الأخذ والرد حينئذ بين وزير السياسة الانجليزية ووزير سياسة فرنسا ونوبار باشا ونسى جماعة الانجليز أوتناسوا أنهم النافخون فى ضرام هاته الفتنة فجعلوا يسعون بين المتخاصمين ويصلحون ذات البين كأنما لم يكن لهم يد فيها وطالت المخابرة فى ذلك أياما والانباء تأتى فى كل يوم الى القاهرة أشكالا وألوانا • واتفق أن جاء فى هذه الاثناء الى مينا الاسكندرية بعض سفن الحرب الافرنسية فطاش عند رؤيتها جماعة الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفاء بمن جاء فيها من كبار الجند ومقدمى العسكر وهب أصحاب صحف أخبارهم مما كانوا فيه من خمول وأخذوا يفصلون خبر مجيء تلك السفن ويظهرونه فى مظهر الفداء والوعيد حتى خيل الناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة وبينما هم على هذه الحال اذ انتهت المخابرة عن حصول الاتفاق بين الفرنسيس والوزير نوبار باشا على أن تعود جريدة البوسفور الى الظهور وأن يذهب الوزير نوبار باشا الى دار قنصل الفرنسيس بكسوة التشريف معتذرا عما وقع فعاد حينئذ القنصل من الاسكندرية الى القاهرة ومعه أمير تلك السفن الحربية وبعض كبار عسكره فلما كان اليوم الثالث بعد عودتهم زارهم الوزير بكسوة التشريف فقابلوه هنم كذلك فابتدروهم بعبارات الاعتذار

والمصالحة فأجابوه بتلطف وفضت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور الى سابق مجراها وبطل حينئذ القيل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث الناس من ذلك الى سبب رحيل فنس جرالد أحد رجال الانجليز الذى تولى ادارة أعمال حسابات الحكومة وخزينتها حينا فقلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذى تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوى اسمعيل ولهذا الرجل وخلعه من منصب الوكالة حديث طويل كله أحاجى ومعميات قد ضربنا صفحا عن ذكره هنا * رحل فنس جرالد هذا فى تاسع عشرى رجب من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وألف هجرية فلم تكن الا أيام حتى جاء بدله آخر اسمه ويستلاند فلم تطل أيامه وانقلب راجعا قالوا لانه رأى فى أعمال حسابات الخزينة من الخلل والخلط ما لم يوافق عليه وقد كان من رأيه اعادة شكل الحسابات القديم الذى كان على عهد رؤساء كتاب الخزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر الى القاهرة من ديار الهند الانجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الانجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال اياما حتى اذا ماهم بارجاع شكلها الى ما كان عليه مانعه فى ذلك جماعة الانجليز فلم يسعه الا التخلى عن منصبه مفضلا الرجوع الى وظيفته فى ديار الهند على البقاء مقيدا بعمل لا يرضاه نفسه فحمده الناس على ذلك فجاء بدلا منه آخر يدعى بلر فسار على خطة فنس جرالد وزاد فيها توسعا وبالغ فى الاكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن فنس جرالد من ابطاله الى يوم رحيله عن البلاد وما زالت طريقة فنس جرالد هذه مرعية الى هذا اليوم

ومن الحوادث الجوية الغريبة التى وقعت فى ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية أنه انفجر بعد العشاء الاولى فى السماء ضوء حتى ملأ الجو ثم ظهرت بعده فى السماء نيازك وجعلت تتساقط وكانما كأنها سهام ترمى فى أعقاب الشمس حتى خيل للناظر أن الحرب فى السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وان لم يسمع لها دوى فخاف العامة كثيرا وتراكضوا وهم يولولون ويصيحون باللطيف ياخفى الالطاف وصعدوا الى أسطحة البيوت وصاروا يضجون ويبتهلون الى الله تعالى وكانت النساء يبكين والاطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرهم فى ذلك مقبول اذ هم لم يسمعوا بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر فى تلك الليلة غاية فى الغرابة فلم يبق طرف الا مد اليه ولا نظر الا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة فى تلك الليلة أشبه بالمنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تميز عن سائر صغار النجوم ثم لاتلبث أن تنبسط فتعود الى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متناثرة ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدوث الخطوب المدلهمة

وكانت

(مطلب)
اهتمام دولة الانجليز باعطاء الخزينة قرضا فلم تفلح

وكانت الى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغة فهمت دولة الانجليز باقراض الخزينة قرضا يقوم بسد احتياجاتها فعارضها فى ذلك وزير سياسة الفرنسيس وقال ان الحكومة المصرية مرتبطة بعهود ومحالفات دولية لا يصح معها انفراد الانجليز بهذا العمل فضلا عن أن البلاد مازالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين الا باذنه * قال بعض الكتاب وقد كان وزير الفرنسيس يريد بذلك غل يد الانجليز فى مصر واظهار عجزهم عن سد حاجاتها حتى لا يعتبر احتلالهم اياها لازما لابد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه اذ مالبث الانجليز ان سعوا لدى السلطان ورجال المابين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التى حدثت فتم للانجليز عمل ذلك القرض فراجت الاعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حينئذ الى مخابرة زعيم السياسة الانجليزية فى صعوبة جعل وادى حلفا حدا فاصلا بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد وقد كان زعيم السياسة المشار اليه رسم بذلك لاصحابه وأشار بالتعجيل فقال الوزير نوبار باشا ان طمأنينة البلاد لا تتم الا اذا صارت مديرية دنقلة غاية تخومها لا وادى حلفا لتتمكن من السيادة على النيل — قال — ولما كان ذلك يستلزم ارسال حملة اليها بعد جلاء العساكر الانجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة الى الحكومة المصرية بحيث تجند عسكرا كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصرى خبير بأحوال السودان وان هذه الواسطة أقرب من سواها الى الوصول الى أحسن النتائج فضلا عن أن النفقة التى تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التى يقتضيها تجريد حملة انجليزية وانه ينبغى أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم واذا تحقق خبر موت المهدى كان الأمر أيسر وكانت العاقبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الانجليز مقالة الوزير أرسل اليه يقول اترك كل شئ على ماهو عليه الآن حتى يفد عليك رسولنا دروموند ولف * وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التخلى عن السودان وتركها لمدعى المهدوية وأخذت أقلام الكتاب ومشد تقرع صاحب السياسة الانجليزية بأشد ما يكون من التقريع عمد الى شئ من المواربة تسكينا للفتنة وأرسل كتبه الى السلطان يعلمه بما عزمت عليه السلطنة الانجليزية من ارسال رسول ينوب عنها فى التعاقد مع الباب العالى على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان فى مستقبل الايام * فلم تكن الا أيام بعد ذلك حتى سار الى الاستانة عظيم من الانجليز اسمه السير دروموند وولف يحمل الامر بانابته عن السلطنة الانجليزية فى عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفادته وأحسن لقاءه فأخذ يغدو ويروح على الباب العالى تارة والمابين الهمايونى أخرى أياما لم يتعد الكلام فيها تعيين القاعدة اللازمة لمواد ذلك الاتفاق وكان الكلام بين الفريقين غاية فى المواربة والتعقيد * وبينماهما على هذه الحال اذ قامت الفتنة فى امارة

(مطلب)
بعثة السير دروموند ولف الى دار السلطنة العثمانية

البلغار وتظهر أهلها ومن ولى الامارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعية الدولة العثمانية ❊ قال بعض الكتاب ويقال ان دولة الانجليز هى التى أغرتهم على فعل ذلك وجرتهم الى التظاهر فى تلك الايام بما يوجب فشل الدولة العثمانية واضطراب أمورها عساها تتساهل مع رسولها ولف فتنال منها ما تتمناه فتعطلت المخابرة بين ولف والباب العالى ووقفت عند حد الانتظار واشتدت الفتنة البلغارية وتطاولت أيدى رجالها الى العبث بحقوق السلطنة العثمانية واستخفوا بها فجيش أميرها الجيوش وأعد المعدات وسير الرسل الى الدول الكبرى يستفزها الى نصرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى وعظموا البلوى فمن الدول من مناهم بالامانى البعيدة ومنها من حضهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الأيام على مبعوث الانجليز وهو ينتظر فى دار السلطنة العثمانية ما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورائها مغنم لهم فلم يقع شئ من ذلك وتلاشت الفتنة على أيسر ما يكون وعادت الامور الى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالى وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل السلطان مبعوثا من قبله الى ديار مصر مع ولف مبعوث الانجليز فيكون مندوب السلطان هو الاول ومندوب الانجليز هو الثانى ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء مأموريته بحيث ان هذه الرسالة لاتتناول الا البحث فى أحوال خزينة البلاد وأمورها الادارية والعسكرية مع اصلاح ما يمكن اصلاحه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريرا عما يريانه مشتملا على تفصيلات المسائل بابا فبابا ووصل ولف الاسكندرية فقوبل بغاية التجلة والتعظيم وسارت خلفه وأمامه الفرسان من الانجليز والمصريين الى محطة السكة الحديد فلما وصل القاهرة بالغ الخديوى فى الاحتفاء به فقد كان فى انتظاره على المحطة ذو الفقار باشا كبير التشريفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمى العسكر وكوكبة من الركبان والمشاة ثم زاره الخديوى وكبار الدولة والامراء كافة ولبث ينتظر قدوم المبعوث السلطانى وهو يجتمع فى كل يوم بعظماء أهل البلاد ولا سيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها ❊ وبينماهم يترقبون قدوم مبعوث السلطان اذ جاء الخبر الى ديوان الخديوى بالانعام من الخليفة على الخديوى بنيشان الامتياز العالى وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بك فوصلا الى الاسكندرية وقدما منها الى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد فى موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر النزهة من ضواحى القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا الى مقر الخديوى بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عادا الى قصر النزهة ❊ فلما كان اليوم الثانى عمل التشريف فدخل على الخديوى كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنئوه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفى عصر اليوم سار الخديوى الى قصر النزهة حيث الوفد العثمانى فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد الى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياما ثم بارحا القطر الى الاستانة



(مطلب) قاعدة الاتفاق الذى رامت الدولة الانجليزية عقده مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة فى ثانى عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذى تم ما بين دولة الانجليز والباب العالى بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الانجليز وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والامور التى سيجريها فى مصر بالاشتراك مع الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتى بنصه

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وارلانده وامبراطورة الهند اتفقت مع جلالة السلطان على ارسال معتمدين فوق العادة الى مصر لاجل تنظيم الشؤون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مرخصين وهما المحترم السر هنرى درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كروا من صنف سان مشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الانجليزى ومعتمد الدولة الانجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بأموزية خصوصية تتعلق بالاكثر بشؤن مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وارلانده وامبراطورة الهند ودولتلو محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية الحامل النيشان الاول المرصع والنيشان المجيدى الاول من قبل جلالة السلطان * وبعد أن تبادلا الاطلاع على أوراق تعيينهما الرسمية ووجداها صحيحة توافقا على المواد الآتية المبنية على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية

المادة الاولى — يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان معتمدا ساميا الى مصر

المادة الثانية — يبحث المعتمد السامى العثمانى بالاتحاد مع سمو الخديوى أو مع المعتمد الذى يعينه سموه فى أصلح الوسائط الممكن الوصول اليها لاخماد ثورة السودان بطريق سلمية ويوقف المعتمد السامى العثمانى وسمو الخديوى المعتمد الانجليزى السامى على سير المخابرات . ولما كانت الاحتياطات التى ستقرر متعلقة بتسوية شؤن مصر العمومية اقتضى اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الانجليزى السامى

المادة الثالثة — ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى

المادة الرابعة — يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع الادارات المصرية ولهم أن يعدلوا فيها مايستصوبون طبقا للفرمانات الشاهانية

المادة الخامسة — تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهدات الدولية التى أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى الفرمانات الشاهانية

المادة السادسة — عقب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الامن على التخوم وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريرا الى حكومته وعندئذ تبحث الحكومتان فى عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الانجليزية عن مصر فى أجل مناسب

المادة السابعة ـ يصدق على هذا الوفاق ويصير تبادل النسختين المصدق عليهما فى الاستانة فى خلال خمسة عشر يوما أو أقل اذا أمكن

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما اه

(مطلب) تعدى العساكر الايطاليسة على مصوع واحتلالها عنوة وما جرى

وبينما كان المبعوث الانجليزى ورجال الحل والعقد فى مصر يراقبون حضور مبعوث السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة اذ جاء الخبر من عامل الخديوى على مصوع بأن الجيوش الايطالية التى كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأماكن ودواوين الحكومة وطلبت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بمن معه من المرابطين وتسليم القلاع والحصون الى قائد الايطاليان فمانع المحافظ فى ذلك وقال انه لايفعل حتى يأتيه الامر من الخديوى فشدد قائد الايطاليان فى الطلب وأغلظ فى القول وهدد المحافظ باطلاق القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها ان هو أصر على الامتناع فلم يسع المحافظ الا الانسحاب بمن معه من الجند وبارح البلد وانحدر الى سواكن فلما شاع خبر هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاف نساء وذرارى الضباط وأصحاب الوظائف الذين بمصوع يتساءلون عما جرى لرجالهم وهم فى ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوى وتكلموا فى الامر طويلا ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة ايطاليا هذا ورفعوا الامر الى الباب العالى ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وظنوا أن الغازى مختار باشا لايفد الى مصر الا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن المتتابعة * فلما كان ثانى عشرى ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية وصلت السفينة عز الدين احدى البواخر السلطانية تقل الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فقابله الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات فى أبهة وجلالة وأطلقت المدافع لقدومه من قلاع وحصون الاسكندرية وكان فى انتظاره العدد العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعا بات ليلته تلك بالسفينة وأصبح فسار بمن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمه وأتباعه الى محطة السكة الحديد فحملهم القطار الى القاهرة وكان فى انتظاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع الى سراى الاسمعيلية التى أعدوها لنزوله ولم يستقر به المقام حتى زاره المبعوث الانجليزى ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء والوجهاء وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم ثم زار الخديوى فى ثانى يوم ولبث معه برهة وعاد الى مقره فرد له الخديوى الزيارة وهو فى موكب التشريف ثم بعد أيام قلائل جعل الغازى والى الاجتماع بمبعوث الانجليز ويتكلمان فى أمر الاصلاح وفى أوجهه وأسبابه وظلا على هذه الحال أياما * وجلسا يوما يتكلمان فقال الغازى لولف لا أخفى عليك ان حالة البلاد الآن داعية الى تجييش جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من المسلمين ليتولى ارجاع الامور فى الديار السودانية الى سابق مجراها والزحف على بلادها كلها

سنحت الفرص فقال ولف ان الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلمية لاعلى تجنيد الجنود وتسليح العساكر وارسالها لقتال العدو فقال الغازى نعم انى لم أتعود أن أروى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاى الخليفة يظن ذلك فعلى أن أرفع الى سدته الملوكانية ماأراه الآن من استحالة ارجاع الامور الى ما كانت عليه بالوسائل السلمية مالم تعضدها قوة عسكرية فقال ولف ومن أين المال للنفقة فقال الغازى ان شاءت دولة الانجليز مساعدتنا فالامر هين والنفقة متيسرة وما عليها الا أن تعطينا ما تأخذه من خزينة البلاد نفقة على جيشها المحتل الآن مصر * قال محدثى فسكت عند ذلك السير ولف وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال سأكتب بهذا القول الى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فاذا جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الامر

واتفق فى هذه الاثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار المهدى الى مواقع العساكر المصرية والانجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد فقامت عليهم العساكر وضربتهم ومزقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع وكثيرا من القرى والبلدان الصغيرة وما زالت تطاردهم وتعمل فى أقفيتهم السيف حتى صارت على أبواب دنقله ووردت الانباء بذلك الى القاهرة من عاصمة الانجليز لامن الحدود ففرح الناس فرحا عظيما وتعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقله وارجاعها الى حوزة الحكومة وجعلها مقرا للحركات العسكرية ووردت رسائل التهانى على الخديوى من كل فج عميق فلم تكن الأيام حتى جاء الامر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الانجليزية الى الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية بالحدود أن ردوا المقاتلين كافة عن دنقله وأرجعوهم الى الحدود قيل فراجعه الجنرال استيفنصون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى ارجاعهم فانحدروا الى مواقعهم الاصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعاقل والمراكز فعاد اليها العربان وتقووا فيها وتترسوا وجعلوا يراقبون الفرصة لاعادة الكرة على الحدود وانحدر الجنرال استيفنصون الى القاهرة فشعر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة الانجليزية وأكثر أصحاب الصحف المحلية من الكلام على سوء الأثر المترتب على هذه السياسة وعلى بقاء العساكر الانجليزية فى الحدود من الاضطراب ودوام القلق وان الحال يحتاج الى غير ذلك * ولم يشغلهم عن هذه الجلبة الا ماوقع لقنصل جنرال الفرنسيس ووكيلهم السياسى بمصر وذلك انه قد جاء فى هذه الاثناء عظيم من الفرنسيس اسمه الكونت رونى لتولى منصب الوكالة السياسة بمصر فلما وصل القاهرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتاد واستلام الاوراق المؤذنة بتعيينه فى هذا المنصب على الطريقة المألوفة فلما حل الاجل المضروب لذلك وتمثل القنصل بين يدى الخديوى بملابس الزينة والتشريف وسلمه تلك الاوراق وألقى عليه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسيس لم تطلق المدافع لذلك من قلعة الجبل كالمتبع فى مثل هذا الاحتفال وانفضت الحفلة على غير سنتها المألوفة

(مطلب)
ماوقع الى الكونت رونى وكيل الفرنسيس السياسى بمصر واعتذار الوزير اليه وهو بكسوة التشريف

ونزل القنصل الى داره وفى قلبه ما فيه لا سيما وان المتولين أمر قلعة الجبل والطلاق مدافعها فى هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الانجليز فما استقر بالقنصل المقام فى داره حتى كتب الى الوزير نوبار باشا يقيم الحجة ضد ماوقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أى انزعاج ورسم الخديوى باطلاق المدافع فى اليوم الثانى استرضاء للقنصل وتطييبا لخاطره فلم يقبل وقال لابد من الترضية بأن يأتى الى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عما فرط فتطلق عند ذلك المدافع ثانية وبأن يأتى كذلك الوزير نوبار باشا بملابس التشريف وتطلق المدافع ففعلا وأطلقت المدافع ثانية وثالثة * واندفع أصحاب صحف الفرنسيس ينادون بالويل والثبور على جماعة الانجليز بمصر وشاركهم فى ذلك أصحاب الصحف المحلية فاهتم السير ولف مبعوث الانجليز بالامر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسار الى دار قنصل جنرال الفرنسيس ومعه قائد الجيوش الانجليزية قبل واعتذرا وتلطفا فى المقال فطلب القنصل عندئذ نشر بيان جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل فى ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الامور الى سابق مجراها * وعاد ولف الى الاجتماع بالغازى مختار باشا والمكالمة فى شؤن البلاد وحاجاتها وفى قواعد الاصلاح الواجب ادخالها فى سائر دواوين الحكومة وفى تنظيم الجيش على النمط الذى يمكن معه اعادة الكرة على دنقلة ثم استرجاع البلاد السودانية الى الطاعة وتدويخها وارسال رسول من قبل الخديوى الى وادى حلفا لمخابرة مع زعماء القبائل رجاء الوصول الى تقرير قاعدة الصلح معهم وظلا على هذه الحال أياما وجاء الطلب من عاصمة الانجليز الى السير افلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشاع الخبر يومئذ بخلعه من منصبه وأنه لايعود اليه الا اذا عاد ولف الى بلاده ظافرا بما يرجونه من بعثته فتحدث الناس فى ذلك كثيرا وقالوا ان استدعاءه فى هذه الظروف الحرجة وافراغه من كل عمل يدلان على وقوع شئ من النفور بينه وبين السير ولف أو أن يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار اليه قد أقلق صاحب السياسة الانجليزية ومال به الى استدعاء القنصل وقالوا غير ذلك أيضا فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حينا ثم جاءها وقد أعلوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الظنون أدراج الرياح وتم له ماأراده فى منصبه من النجاح والفلاح

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الانجليزية على ارسال غردون الذى هو غردون باشا الى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجند وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يمض الا أيام حتى جاء الطلب فى أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار اليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان واعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بارنج هذا الطلب الى الخديوى والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا ومانعا فى ذلك كثيرا فلم يقبل

السير

السير بارنج وصدع بالامر ثم لم تكن الا أيام أخر حتى وصل غردون الى القاهرة فى أخريات ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف واجتمع بالسير بارنج فأسر اليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم فى أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ الى معرفة ماالذى تنويه الهيئة الحاكمة ولا ما اذا كانت شاركت السير بارنج فى آرائه أولا * ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعه الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والسير بارنج والعدد العديد من مقدمى العساكر الانجليزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جندا ولا كراعا ولا حشما ولا أتباعا سوى وعاء لملابسه وحل الى الخرطوم كأنما هو ذاهب الى داره للقاء أم أولاده فتأمل

قال صاحب كتاب السودان فلما وصل كروسكو كتب كتابا الى المهدى وأرسل معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم الى مشايخ الاعراب كالبنش وغيره وفحوى الكتاب اننى أعترف بك سلطانا على السودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودار فور * قلت وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهيدها — قال — واننى لما بلغنى ماأصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرنى غم شديد ولذا قد انتدبتنى جلالة ملكة بريطانيه العظمى وامبراطورة الهند واليا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية واننى من صميم فؤادى أرغب توثيق عرى العلائق الودادية بينى وبين سلطنتكم وأرجو أن تسمحوا باعادة المواصلات التلغرافية وأظن أن أدوات التلغراف قد أتلفت فى غضون تلك الخطوب ولهذا أصدرت الاوامر الى مركز الحكمدارية بأن يعطيكم كل ما تطلبونه من تلك الادوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير وقد داخلنى الحزن الشديد لما علمت بقفل طرق السودان الشرقى مما حال بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها فى كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق والقاء السلاح وتشييد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اه

ووصلت الاخبار الى الخرطوم بمقدم غردون وولايته العامة على السودان ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهانى من كل صوب فأرسل الى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والاموال وخراج ثلاث سنوات مستقبلة وبترك جميع السودان الغربى الى مدى المهدوية واعتباره منفصلا عن الخديوية المصرية وأن حكومة جلالة ملكة الانجليز هى التى منحت المهدى هذا السلطان الواسع * وسير كذلك الى حسين سرى باشا باعتزال منصب وكالة الولاية فاعتزله صاغرا وأقام بدله رجلا من الانجليز اسمه الكولونيل برى كوتلمف — قال — وكان هذا الرجل قد حضر الى الخرطوم فى مهمة سرية من قبل زعيم السياسة الانجليزية قبل مقدم غردون بكثير ورسم غردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم انه رحل عن كروسكو الى بربر فلاقاه مديرها ومعه أعيان البلد



وأصحاب الوظائف الديوانيـة خضهم على الولاء والاخلاص وقال قد تركت لكم سائر المتأخر من الاموال الاميرية وتجاوزت عن خراج ثلاث سـنوات مستقبلة وقد أبحت لكم الاتجار في الرقيق وأبطلت كل مرسوم يخالف ذلك ثم أهداهم بعض الهـدايا النفيسـة والتحف الغالية وسار عنهم قاصدا الخرطوم فكان يرى من الاهالي في طريقه عين المقت والقلى اذ كانوا يسبونه ويكثرون من شتمه ويقولون في وجهه قد زالت دولتكم يا كفار ﷺ قال الراوي فاندهش غردون من ذلك وأكبره جدا وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبته في هـذه البعثة الا أنه تجلد واستعان بالصبر الى أن وصل الخرطوم فجمع الاعيان والعلماء والوجهاء والمشايخ وتلا عليهم فرمان الولاية * ثم جعل يقول للناس يا أهل السـودان جميعا ان الخديوي يسلم عليكم صغيرا وكبيرا أحرارا وعبيـدا اناثا وذكورا وكذلك جلالة الملكة فيكتوريه ملكة دولة بريطانيه العظمى وامبراطورة الهند * وانكم لاتجهلون شفقتي عليكم ومحبتي لكم وقد ساءني ماسمعتـه عنكم لما قامت بينكم الحـرب وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التي هي من أركان الاسـلام ومن زيارة قبر النبي عليه السـلام وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوي المعظم فانتـدبت من قبـل حكومة جلالة الملكة لا كون واليا على السودان ومرخصا فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلا تاما وتوض الى الحكم المطلق عليـه وقد خابرت حضرة السـيد محمد احمد المهـدي بكنه مأموريتي واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربي برمتـه بشرط أن لايمد يده لغيره * وقد أبطلت جميـع الاوامر المانعـة من الاتجار في الرقيـق وتجاوزت عن جميـع المتأخر من الضرائب لغاية سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجاوزت أيضا عن خراج ثلاث سـنوات منـذ أول سـنة أربـع وثمانين وأمرت باحراق دفاتر المتأخرات وباطلاق جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم وقد عزمت منذ الآن أن لاأجعل أعضاء حكومتي الا من الوطنيين حيث انني أود تشكيل حكومة وطنيـة لحكم السودان نفسـه بنفسه وقد عينت عوض الكريم أبا سن مديرا للخرطوم وأحسنت عليه برتبة الباشوية ولي الامل بأن العلائق ستصبح بيني وبين سلطان الغرب « يعني المهـدي » وثيقة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسحب الجنود منها لكي تتفرغوا الى عمارة بلادكم وحرث أراضيكم وانماء تجارتكم ومني عليكم السلام اه

قال صاحب كتاب السودان وكان أهل الخرطوم يسمعون هذا الكلام وأعينهم تذرف الدمع حزنا واشفاقا لانهم كانوا يعلمون أن دوام الحال من المحال وأن مدعي المهدوية سوف يجهز عليهم بخيله ورجله فلا عهد ينفع ولا حنان غردون يدفع * فدخل جماعة العلماء والوجهاء على غردون وقالوا انا نموت موتا ان أنت أتلفت شيأ من الحصون والقلاع فان المهدي لايلتفت الى شيء مما دعوته اليه ولا يرده عنا الا عسكر جرار وهاهم طوائف العربان الضاربون حولنا يتحفزون للوثبة علينا والايقاع بنا فلم يلتفت غردون الى قولهم ولم يحفل به

فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر الى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جراهام وقتل جل رجالها * وكانت هـذه الحملة قد سارت من القاهرة الى شرقى السودان لتمهد الطريق الى غردون فى مقاصده فلما شاع خبر اندحارها وانخذال رجال المهدى فيها اشتد الخوف بمن هم فى الخرطوم وأكبروا المصيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيما عساه أن يكون اذا امتنع المهدى عليه وهاجمت جموعه الخرطوم وأخذ من يومه يطوف الحصون والقلاع ويتعهد المعاقل التى كان أشار فى مقالته بفتح أبوابها وتخريبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبار العدو من كل صوب وحدب فكانوا يتخبطون فى القول ولا يصدقون فى الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الاحوال

واعلم أن ذهاب غردون الى الخرطوم فى هذه الظروف المحفوفة بأكبر الاخطار وأعظم المكاره واندفاع أصحاب السياسة الانجليزية وراء هذه الغاية ليس من الهنات الهينات ولا هو من المجازفة أو عمى البصيرة فى شئ وانما هى أعمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاحت لهم بارقة أمل تتبعوها أو فرصة انتهزوها حتى أيام الخديوى اسمعيل الذى بش لهم وفتح لهم الابواب مرحبا فولجوها آمنين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا فى مناصب الرئاسة وتصرفوا فى موارد ايراد البلاد وما زالوا يعملون على بلوغ الغاية تارة ببذل المال وأخرى بدهاء الرجال وتارة باستعمال الضغط والتشديد وطورا بالوعد والوعيد الى أن أتاح لهم القدر المقدور ظهور فتنة صاحب المهدوية ثم اشتداد الثورة العرابية فأصبحت حكومة البلاد وهى أشغل من ذات النحيين فنهضوا حينئذ الى اظهار ماتكنه الصدور وسيروا غردون هذا الى الخرطوم على ماوصفنا وهم يقدرون له السلامة فى الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطتهم غاية الآمال * ولاجل أن لا يفوت القارئ معرفة بعض الشئ من ضروب هذه السياسة الحازمة نذكر فى فصل آت شيأ مما جرى من أقيال هؤلاء القوم فى السودان على عهد الخديوى اسمعيل والله سبحانه من وراء كل عمل

فصـــــل

(فيما كان من دهاء رجال سياسة الانجليز على عهد الخديوى اسمعيل)

لما فتح محمد على باشا السودان ودوخ مدنها وبلدانها شرقا وغربا وملأها بعسكره وجنوده جنوبا وأنشأ عاصمتها الجديدة التى هى مدينة الخرطوم وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدنى الواقعة على شاطئ النيل الازرق جعل يولى عليها الولاة والعمال بعد ولاية الدفتردار العامة فكان حالهم على ما قاله بعض الكتاب ممن يحسنون التدبير عارفين بحاجات

البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف فلما مات محمد على باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر عمالهم أغرارا كثيرى الجور والظلم ميالين الى أخذ ما بأيدى الناس مع غلظة وتجبر وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامه بيك

قال صاحب كتاب السودان كان نعم الرجل عادلا شفوقا على الرعية » وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلى وبحرى السودان وبقى الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوى اسمعيل فجعل يبدّل ويغير فى الولاة وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه الى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلا عادلا شفوقا بارا بالرعية عارفا بحاجة البلاد وأهلها فأقام ما شاء الخديوى ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غردون الانجليز اسمعيل أيوب باشا وفى أيامه بلغت سلطة الخديوى فى تلك الانحاء أوجها وعمت كلمته أرجاء السودان شرقا وغربا وجنوبا اذ تتابعت غزوات عسكره وأوغلت فى أقاصى البلاد طلبا للمزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الانجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون الى فعاله بعين السخط ويحسبون لها حسابا كبيرا وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الايام فأرسلوا الكشاف والرواد من طريق الزنجبار ورأس الرجاء بعضهم فى زى المبشرين بالنصرانية وبعضهم باسم علماء الآثار وأصحاب علم طبقات الارض فلم يتم لهم ما أرادوا فعمدوا الى الحيلة والتدبير وجاؤا الخديوى اسمعيل من أقرب المسالك وأحبها اليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الاصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما فى جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفحم وما زالوا به حتى ظفروا منه ببغيتهم وساعدهم على ذلك ما كان فيه يومئذ من التورط فى الدين لاصحاب الاموال من الانجليز والفرنسيس ثم انهم سيروا اليه رجلا من أقيالهم العارفين بمناحى سياستهم ومرامى غاياتهم اسمه السير صمويل بيكر فتلقاه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياما وكان قد أتى معه من ديار الانجليز بشئ من الهدايا والتحف برسم زعماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغة والفراء والقبعات الحمر والأساور والاقراط والخواتم والقلائد من الصفر والاحذية وشقق الكتان والخناجر والسكاكين والشئ الكثير من ألاعيب الاطفال كالاكر والمزامير والصفافير والعصىّ والسياط فاستصحب كل ذلك وبارح القاهرة على عجل ومابرح سائرا حتى تغلغل فى جوف السودان وأوغل فى مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب وراد الطرق واستكشف المسالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشئ الكثير من طباعهم وعاداتهم وما يميلون اليه وماينفرون منه قيل وعاهد بعضهم على الولاء والاخلاص للسلطنة الانجليزية وعاقدهم على ما لم تصل الينا معرفته وبعد أن لبث بتلك الاصقاع ماشاء هو أوماشاء صاحب سياسة الانجليز قفل راجعا الى قومه بسلام فلم تكن الا فترة بعد ذلك

حتى

حتى أخذ قنصل جنرال الانجليز بالقاهرة يصبح الخديوى ويمسيه فى طلب معاقدة دولة الانجليز على منع الاتجار فى الرقيق وقطع شأفة النخاسة من أرجاء السودان المصرى فكان الخديوى يماطل ويحاول والقنصل لاينفك عن الطلب ولا ينثنى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب وتم التعاقد على شروط أقل ما فيها من الحيف أن صار لامراء سفن الحرب الانجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الاحمر وحق التفتيش عليها وضبط مايوجد بها من الاماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الاخبار الانجليزية نشوة الفرح فتهللوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عما سيكون من وراء ذلك فى مستقبل الايام * ثم رسم الخديوى الى عماله بالسودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شيأ من أحكامها فصدعوا بالامر وذاع خبرها فى البلاد شرقا وغربا وجنوبا فلم تكن الا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت اشارات الخروج أو كادت و وقفوا فى وجه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ وثقل نيرهم على الاهلين لان القوم رأوا أن منع المتاجرة فى الرقيق مصيبة كبرى لان هذا الاتجار معين ثروة كبيرة لهم فضلا عن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمة الارض بأيديهم ولاخدمة ماشيتهم بل ان نساءهم فلما يؤدين شيأ من الخدمات البيتية وكل اعتمادهم فى زرع الارض وتربية الماشية والخدمة البيتية انما هو على أولئك الاماء والعبيد

ولما تم للانجليز ما أرادوا من أمر تلك المعاهدة أوعزوا الى قنصلهم يومئذ أن كلم الخديوى فى ارسال رجل منهم الى مجاهل خط الاستواء مرة ثانية ليحيى ما اندرس من معالم المدنية التى كان وضع أساسها فى تلك الانحاء السير صموئيل بيكر ولكى يقطع شأفة الاتجار بالعبيد و يسد المسالك على القوافل التى تقوم بالنخاسة ففعل القنصل وأكثر من ملازمة باب الخديوى اسمعيل والخديوى لايجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويمنى القنصل بالمواعيد والقنصل لا ينكف عن الطلب حتى أذعن الخديوى فأتوا له برجل من كبار عسكرهم اسمه الكولونيل غردون . « وهو غردون هذا الذى نحن بصدد الكلام عليه » فرسم له الخديوى بالولاية على سواحل البحر الاحمر التى هى شرقى السودان المصرى فتولاها حينا وكأنه لم يطب له المقام هنالك أو كأن لم يحسن فى عينى زعيم السياسة الانجليزية أن يرى سلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجاوز شرقى السودان فوردت حينئذ كتبه على الخديوى بطلب تولية غردون الولاية العامة على خط الاستواء وما يليه * وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت كاهل الخزينة وأعلتها فأصبحت وهى بين أيدى أصحاب الديون من جماعة الانجليز والفرنسيس كالريشة فى مهب الرياح فكان الخديوى يبذل فى مرضاة أصحاب سياسة الدولتين كل مرتخص وغال عساهم يدفعون عنه بعض ما يعانيه من جور الدائنين فلم يربذا



يومئذ من اجابة طلب صاحب سياسة الانجليز ورسم الى غردون بالولاية على خط الاستواء في أخريات سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية فسار غردون الى الخرطوم على الطائر الميمون فتلقاه اسمعيل أيوب باشا والى السودان يومئذ وبالغ في اكرامه وأطلق المدافع اجلالا لقدومه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياما ثم سار بمن أخذه من العساكر والجنود الى فشوده ومنها الى منزلة سبت التى هى أول بلاد خط الاستواء شمالا فأمر ببناء القلاع والحصون فيها وحفر خندقا عظيما وجعلها مقرا لحكومته الجديدة ثم رحل عنها بعد أيام الى جبل الرجاف وكند كور التى كانت مقرا لاستاذه السير صمويل بيكر من قبله وما زال يتنقل من مكان الى مكان ويأخذ العهود على من يلتقى بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقيم الولاة والحكام من صغار ضباط الجند ومن كانوا في خدمة صمويل بيكر حتى قامت في وجهه قبائل العبيد وقاتلت عسكره قتالا عنيفا وما زالت تقاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم بغير عهد ولا ذمة وظل غردون يجوب البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى نزل على بلاد الملك أمبتسه صاحب بلاد مروبى فعمد الى ضم بلاده الواسعة الى فتوحاته وهمّ بذلك ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الانجليز الذين قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مروبى خاتمة فتوحاته

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انحدر غردون الى القاهرة وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما ثم برح القاهرة الى ديار الانجليز فلم يستقر به المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الانجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان المصرى شرقا وغربا وجنوبا قبل فاندهش الخديوى ورجال دولته لانهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك شيأ البتة ولم تمض الا أيام حتى عاد غردون الى القاهرة في هيبة وجلالة ودخل على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان الولاية بيده مكرها فسار غردون الى الخرطوم ودخلها في ضجة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وطير الخبر بولايته الى الآفاق فجاءه مشايخ وزعماء القبائل فخلع عليهم الخلع من الأكسية والفرجيات من الجوخ الاحمر وشقق الحرير وبالغ في اكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والاعيان وبعض أصحاب الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء له اذ كانوا لم يروا شيأ من ذلك البتة على يد أحد من كبار الولاة قبل جعفر باشا الصغير * وكانت ولاية غردون على سائر السودان المصرى ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وصرفه في سائر الامور * قال بعض الكتاب وهى محنة أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الانجليز وفتنة كبرى لا يعلم بعاقبتها الا الحكيم العزيز فان غردون مالبث أن تربع في دست الولاية حتى وردت الكتب منه تباعا على الخديوى فلم يكن الاشهر أو بعض الشهر حتى جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد خط الاستواء الى ولايته فرتب لها الحكام وعين جباة الاموال وسلم مقاليد المهمات الى جماعة

(مطلب) انحدار غردون بعد ذلك الى القاهرة

من

من الانجليز والالمان والاميريكان والطاليان ونفر من أهل البلاد كادريس بن أبتر وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون فى الاماء والعبيد والريش وسن الفيل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا فى سائر الأمور فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالغوا فى منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار فى أموالهم وأرزاقهم وضيقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا فى وجههم أبواب الكسب • واستكتب غردون يومئذ رجلا اسمه التهامى بك وجعله كاتم أسراره فتمكن التهامى هذا من قلب غردون وأخذ بمجامع لبه فكان لايأتى أمرا الا باشارته ولا يعمل عملا الا برأيه

قال صاحب كتاب السودان وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبثهم نية وأفسدهم طوية فسلك بغردون مسلكا نفر منه القلوب وحرك فى صدور أهل البلاد كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكام لا سيما من الانجليز والايطاليان فى منع الاتجار بالرقيق وتحرير كل من علموا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الاسباب التى دفعت بأهل السودان الى شق عصا الطاعة كما سيأتى بيان ذلك فى محله • اذ كان الناس هنالك يحسبون أن تحرير مواليهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الاجانب اضطهاد دينى من النصرانية للاسلام وكان شيوخهم وعلماؤهم يؤيدون لهم ذلك بالادلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لاشك فيها فكانوا يخفون ما بقلوبهم من نار التألم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سانحة حتى ظهر محمد أحمد مدعى المهدوية وأيقظ الفتنة الراقدة فهبوا جميعا لنصرته ولبوا على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهاد ضدّ أولئك القوم الكافرين فلما انتشرت دعوته أوكادت عاهده حتى الذين كانوا ينكرونها عليه وقالوا عاهدناك سواء صدقت فى دعواك أوكذبت ما بقيت على عداء هذه الدولة الجائرة ومحاربتها • وقد بقى هذا السر مكتوما والدعاة يجوبون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد التخوم بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بمعاداة النجاشى والاستخفاف بشأنه استغضابا له وتكبيرا الفتنة فلم يطق الخديوى اسمعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفا من استفحال الخطب واضطرام نار الفتنة بين البلدين لاسيما وقد كانت دولتا الانجليز والفرنسيس فى ذلك الحين تشدّان عليه النكير بسبب كثرة الديون وتضيقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب فى موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفى الى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهينات • وكان قد آنس من غردون أيضا الميل الى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة فى أخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلا من منصبه فأقاله الخديوى ورسم الى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فسار رؤوف باشا الى الخرطوم فلم يصلها الا ودعوة المهدى قد استفحل شأنها اذ كان قد بايعه أهل الحلوين والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتا دقيم وكنانه المعروفتان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة والبأس والصبر فى الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته

بالاخبار والتف حوله زهاء الثلاثة آلاف من العربان كل هذا ورجال الحكومة لاهون عنه أوهم مغضون لا بدون كشف أسراره ولا ذكر شئ من أمره حتى وردت الرسائل تترى على رؤوف باشا من بعض أعداء المهدى يعيبون فيها الحكومة على ذلك الاغضاء ويلومونها على تركها الرجل يعمل على ايقاد نار الفتنة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلمته كل هذا الظهور فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك الى مدير فشوده وهو يومئذ الطيب بك ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصدع بالامر وسار الى آبا فى نفر من الجند وكبس الخارجى فى مقره وأمسكه حيا وزجه فى السجن أياما ۞ قال صاحب كتاب السودان حتى جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم وتوعدهم ان هم عادوا الى الشكوى ثم انه قفل راجعا الى فشوده * أما الخارجى فانه ماأفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت قحته فأرسل الكتب الى سائر من عاهدهم يقول فى مطلعها بعد البسملة والحمدلة انه قد جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم فى اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والاقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدى صلى الله عليه وسلم وأجلسنى على كرسيه وقال لى أنت المهدى المنتظر من شك فى مهدويتك فقد كفر وان الترك كفار وهم أشد الناس كفرا لانهم ساعون فى اطفاء نور الله ويأبى الله الا أن يتم نوره ولوكره الكافرون وأخبرنى صلى الله عليه وسلم بأن النصر يسير بين يدى أربعين ميلا وأنه صلى الله عليه وسلم يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى ومعه الخلفاء الراشدون وأن الله تعالى أمدنى بالاولياء والشهداء والصالحين من عهد آدم عليه السلام الى زماننا هذا وأن مؤمنى الجن يجاهدون معى ولا يهزم لى جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين وأن أصحابى كأصحابه صلى الله عليه وسلم وعامتهم أكبر مقاما فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الجلى ۞ قال صاحب كتاب السودان وهو شيخه الذى نهاه عن الخروج فى هذه البدعة ثم طرده — قال وأرسل نسخا عديدة من هذا المنشور الى أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الأمين الضرير رئيس العلماء بالسودان وهذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا الى أبى السعود بك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأصحبه بجماعة من الدنقليين المقيمين بالخرطوم وأنفذهم وسلا اليه يعنى الى الخارجى يدعونه الى الطاعة ويحذرونه عاقبة الفتنة ويبلغونه أمر الوالى بدعوته الى الحضور لديه فذهبوا على الباخرة الفاشر ولما وصلوا الى جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد فى سرداب فى الارض فامتنع عن مقابلتهم أولا ثم أذن لهم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى مافى منشوره فقال له أبو السعود بك ان الوالى يدعوك الى الحضور لديه فقال لا أذهب فقال يا سيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فقبض المهدى على سيف كان على فخذه الايسر وكشر عن أنيابه وقال أنا ولى الامر الآن على سائر الانس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهم وهم الناس بالايقاع

بهم لولا أنه شدّد عليهم فى الكف عنهم وقفلوا راجعين الى الخرطوم

وعلم الملتفون حول الخارجى من المريدين والدراويش بخبر رسل الوالى وما جرى لهم فخافوا شر العاقبة وأيقنوا أن الحرب قائمة لامحالة وأن لاقبل لمدعى المهدوية على الوقوف فى وجه العسكر المصرى فتفرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة وهؤلاء أيضا كانوا يتوقعون القتال فى كل يوم * ووصل رسل الوالى الى الخرطوم وأخبروا عما جرى لهم فسير الوالى طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجى ومن معه والاتيان به حيا فخرجوا فى أخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا فوصلوها قبيل الغروب وكان الوقت صيفا والامطار تهطل غزيرة والاوحال تملأ الطرقات فلم يتم نزولهم من السفن التى كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يقودان هذه الحملة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعا فى مكانهم تلك الليلة بعد أن وضعوا أحمالهم والتموا حولها فعلم الخارجى بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام لايشعرون وما زال يراقبهم عن معه من المقاتلة حتى مابعد نصف الليل فانقض عليهم حينئذ وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم الا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجى جميع متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر عما جرى فعم حينئذ الخوف وذاع خبر هزيمة العسكر فى أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الاجانب والاهلين يرحلون من المدن والقرى و يأتون الى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتبك رؤوف باشا وتحير فى أمره وكأنما كان يعتقد سرا بصحة مهدوية ذلك الخارجى فلم يأت شيأ من الحزم أوحسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل الى مدير كردفان فى طلب النجدة العاجلة وكان المهدى لما ظفر بالعساكر المصرية فى تلك الواقعة حسب ماوراء ذلك فجمع اليه أصحابه وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى أن نعمل العبج .« قال صاحب كتاب السودان هو نوع يشبه الفلين خفته وطفوه فوق الماء » مراكب لنعبر بها النيل الى الجانب الغربى وان الله تعالى سيأخذ على ناصية الترك الكفار فلا يقدرون على ايصال الاذى الينا حتى نبلغ مأمننا من الجانب الغربى ومن هنالك نتوجه الى دار هجرتنا بجبال ماسه وقدير وهى دار هجرة الانبياء كلهم الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيأ كثيرا من تلك المراكب وعبروا النيل فلم يأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذين كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكأنما كان يعمل فى ذلك الحين بمشورة جيغلر باشا الالمانى وكيل الولاية وهو تلميذ غردون فى سياسة السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجى بالجانب الغربى حتى جاءته رجالة دقيم وكنانة والتفوا حوله وبايعوه على السمع والطاعة والجهاد فى سبيل الله ثم قدموا له الاقوات ❊ قال صاحب كتاب السودان وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن لانسرق ولا نزنى ولانأتى بهتانا نفتريه ولانعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر بايعناك

على زهد الدنيا وتركها وان لانفر من الجهاد رغبة فيما عندالله اه

وكان الذين بايعوه فى ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف الهندية وبينهم جماعة من الفرسان ثم ساروا معه الى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل النوبة الساكنة هنالك وقاتلوهم أياما كانت الحرب فيها سجالا ثم حلت الهزيمة بأهل الجبال فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومرّ بجبال تقلى فلم يتمكن من اخضاع أهلها لانهم أصحاب بأس وقوة فى الحروب وشاع الخبر بما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها فى مهدويته وتاقت نفوسهم الى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا الى قدير ليبايعوه ۞ قال صاحب كتاب السودان وفد عليه زعيم قبيلة الحوازمة الذين هم البقارة وزعيم قبيلة القدبات وكل منهما فى مائتى فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على القتال فأحسن لقاءهم فبايعوه على السمع والطاعة * قيل وقال له زعيم قبيلة الحوازمة أبايعك على المهدوية وان لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت بهؤلاء القوم عزيمة الخارجى وأنصاره ووقعت مهابته فى قلوب أهل الجبال المجاورة فكان اذا تحرك جماعة منهم الى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة * وفى هذه الاثناء كان قد خلع السلطان الخديوى اسمعيل من مسند الخديوية وتولاها ولده محمد توفيق باشا وكان ما كان من ظهور الثورة العرابية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شأفة الفتنة المهدوية فلما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الامر الى رؤوف باشا بالتخلى عن الولاية فاعتزلها وسلم مقاليدها الى جغلر باشا وكيلها وسافر من فوره الى القاهرة يريد لقاء عبد القادر باشا الذى تولى الولاية العامة بعده فجعل جغلر يتصرف فى الامور كما يشاء وأرسل يوسف باشا حسن الشلالى فى جيش ضخم لقتال المهدى فظفر به المهدى وفتك بعسكره فتكا ذريعا وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب الحمل فعظمت بذلك قوة الخارجى واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت بيعته سائر الاصقاع السودانية أو كادت فتاقت نفسه الى التشبه بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام عمر بن الخطاب ۞ قال صاحب كتاب السودان وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسود على جميع المقاتلين معه من قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفة الصديق والثانى الخليفة على بن محمد حلو وعقد له لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الابيض والجبال الواقعة حول جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله مقدما على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار وجعل الزعامة العامة لاخيه محمد عبدالله ولقبه بأمير الجيوش المهدوية وولى رجلا اسمه أحمد بن سليمان من قبيلة المحس أمانة بيت المال فكان أحمد هذا من أقرب المقربين اليه وأصدقهم فى طاعته وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته ـ قال وهؤلاء هم

الخمسة

الخمسة الذين كانوا موضع ثقته اهـ ۞ وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجي على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من فى قلبه مرض وكانوا لهم بالمكيل الوافى وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفى فى لموم كثيرة على سنار فقاتل من بها وفتحها عنوة وأفحش فى القتل والنهب وسبى النساء والذرارى وجاء الخبر الى بجلر فقام من الخرطوم فى نفر من العسكر يريد اللحاق بابن المكاشفى واجلاءه عن سنار فسمع الصائح فى طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أحمد طه ووقوفه فى لموم كثيرة بين الخرطوم وسنار فتربص بمن معه وأرسل اليه يدعوه الى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير اليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شر هزيمة وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب بجلر بمن معه من العساكر الى سنار فأنقذها وشتت شمل من كان حولها من لموم المكاشفى وكان ابن المكاشفى قد مات قبل وصول بجلر بجراح أصابته عند دخوله سنار

(مطلب وصول عبد القادر باشا الى الخرطوم)

وبينما كان أهل الخرطوم فى خوف ما عليه من مزيد وهم يتوقعون فتك العدو بهم فى كل لحظة من الزمان لخلو البلد من المرابطين وانتشار أهل الفساد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند مسيس الحاجة اذ جاءهم عبد القادر باشا فى نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يستقر به المقام حتى طاف البلد وعلم مايحتاج اليه من أسباب الدفاع فرتب العسس للحراسة فى الليل وجمع من العبيد عسكرا لحراسة النهار والدفاع عند الحاجة وحصن البلد تحصينا منيعا وخندق عليه وأوقف الحرس على الابراج فذهب الخوف من قلوب الناس وانتشر الامن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكمشوا ثم أرسل فى طلب المرابطين عند حدود بلاد الحبشة فجاؤا فعهد اليهم بحراسة بعض المواقع والابواب ۞ وكان اذ ذاك قد التهب جوف السودان المصرى جميعه بنار الفتنة وعمت دعوة المهدى سائر تلك الاطراف وخرج من كان باقيا على الطاعة وكثرت المذابح فى كل صوب وحدب ۞ قال صاحب كتاب السودان فكان لا شئ أيسر من أن يهب كل من فى قلبه مرض الى الخروج وشق عصا الطاعة فتلتف حوله اللوم من أهل حلته على أسرع ما يكون بسيوفهم ورماحهم ومؤنتهم طلبا للجهاد وغزو الكفار فيسير بهم حينئذ الى الخارجى فى جبل قدير فيولبسه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع بمن معه ويقفون فى طريق الجند ويقاتلونهم أو يطاردونهم أو يهاجمون مراكزهم مستقتلين مستبسلين والدعاة يجوبون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يدعون القبائل الى طاعة الخارجى حتى لم تبق قبيلة الا استعبدوا بها ولا بيت الا طرقوا بابه ۞ وجاء الخبر سرا الى عبد القادر باشا بعزم الخارجى على ترك جبل قدير والزحف على الابيض لبقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المرابطين من العسكر المصرى بها ۞ قال صاحب كتاب السودان وكان زحف المهدى الى الابيض بدعوة من تجار كردفان والحاح منهم بجعل عبد القادر باشا يتأهب لقائه بالابيض وينظم التجدات ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدى

اذا انحدر الى كردفان سير دعاته حول الخرطوم فيحرضون الناس على الخروج وشق عصا الطاعة فيشتغل بمن معه من الجند بارجاعهم ويتعذر عليه حينئذ ارسال النجدة الى كردفان فتتمكن لموم المهدى من الفتك بمن فيها من الحامية — قال — وقد صدق ظنه فانه ما انحدر المهدى من قدير حتى قامت الفتنة حول الخرطوم واشتبك عبد القادر باشا معهم فى القتال واشتد عليهم واشتدوا عليه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهدى الاستيلاء على الابيض وتخريب ما فيها من آثار المدنية والعمران ٭ ثم جعل عبد القادر باشا ينتقل من بلد الى آخر ويلح فى قتال انصار الخارجى ويصليهم نارا حامية ويجدّ فى تمزيق جموعهم حتى تمكنت مهابته من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شظف العيش وعرى الاجساد اذ كانوا يستترون بالجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التى كانوا يغنمونها من العدو ويعملون أحذيتهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهم وتأخير جماكيهم الشهور الكثيرة وكان عبد القادر باشا لا ينفك عن استعطاف رجال الدولة بمصر عليهم يرثون لحالهم ويطلقون لهم شيأ من رواتبهم ٭ فبينماهم على هذه الحال اذ جاءه الخبر من ديوان الخديوى بأن قد قامت الى الخرطوم حملة عظيمة من الجنود المصرية بقيادة رجل من الانجليز اسمه هيكس وانها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم فى القريب العاجل ٭ فلما ذاع هذا الخبر اندهش الناس أىّ اندهاش اذ مع ما هو معلوم من أن الفريقين المتحاربين كليهما من المسلمين فان الفتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهادا فكيف اذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الانجليز وكيف يكون تأجج نار الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهدوية متى تحقق للخارجى وأصحابه ذلك ٭ أما هيكس هذا فهو رجل من مقدمى عسكر الانجليز أوفده زعيم سياستهم الى أرض مصر لهذه الغاية فلم يلق عصا ترحاله حتى طلب السير بارنج الى الخديوى ارساله على رأس ذلك الجيش الى السودان لاخضاع أهله والقبض على مدعى المهدوية فأكبر الخديوى الامر وأعظمه وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فامتنع الوزير وقال لا سبيل اليه والفتنة دينية والرأى عندى أن نمد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف والا اختلط الحابل بالنابل وتعذر اطفاء نار هذه الفتنة فراجعه السير بارنج ووردت الكتب من صاحب سياسة الانجليز بالتعجيل وخروج العسكر والوزير يحاول ويطاول ٭ وكان اسمعيل أيوب باشا الذى تولى السودان على عهد الخديوى اسمعيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع الوزير محمد شريف باشا وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر باشا ويميل الى خذلانه وحرمانه من فخر الفوز على الخارجى وشرف الظفر بقطع دابر الفتنة فزين الى السير بارنج طلب استرجاع عبد القادر باشا وارسال هيكس بدله قيل وما زال هو والسير بارنج يعملان يدا واحدة وبقلب واحد حتى تم اخراج الجيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفا ممن كانوا فى الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبة

(مطلب)
قيام حملة هيكس
الى الخرطوم

الباشوية فوصل بالجيش الى الخرطوم ومعه الشئ الكثير من الاسلحة والمدافع ودواب الحمل والذخيرة وكان الى يوم وصوله قد تم تحصين سنار ورحل عنها العدو وزالت القلاقل من الجزيرة وحصر عبد القادر باشا دعوة الخارجي فى اقليم كردفان فزال الخوف عن الخرطوم أيضا بتقدم جيش هيكس أو كاد ﷺ قال صاحب كتاب السودان ﴿ وكان عبد القادر باشا قبل قدوم جيش هيكس يتمنى لو أن الحكومة تمده بشئ من المال والرجال فيتيسر له اذ ذاك وضع حامية تقاوم دعاة المهدى فى الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتقدم هو نحو كردفان من طريقها الشمالى الذى يكثر فيه الماء لامن طريقها الجنوبى الذى لاماء فيه ولا رواء تاركا فى كل مرحلة يقطعها حامية تحفظ له خط الرجعة ثم يؤلف ممن بقى قوة للهجوم فيهجم بها على العدو فيفرق شمله ويقضى عليه القضاء الأخير ولكن قد جاء هيكس وقضى الامر اه وقد اشتد العجب بالناس أيضا من قدوم كبير من كبار عساكر الانجليز اسمه الكولونيل استيورت الى بربر ومعه كتاب من الديوان الخديوى الى سائر العمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره فى كل ما يطلبه وكان مع استيورت هذا رجل آخر اسمه دالبه ايطالى الجنس ممن كانوا فى خدمة السودان على عهد الخديوى اسمعيل فسار استيورت من بربر الى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها أياما لا يعلم أحد من عمله شيأ ثم غادر الخرطوم الى سنار فالقضارف فكسلا فصوع فمصر فاختلف الناس فى داعى حضوره فمن قائل انه جاسوس جاء ليتحقق من أمر طموح عبد القادر باشا الى الاستقلال بملك السودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على ماذهب اليه بعضهم اسمعيل أيوب باشا وأشياعه أو على مذهب غيرهم هم صاحب السياسة الانجليزية ورجال حزبه ومن قائل بل حضر ليمهد العقبات أمام جيش هيكس ومن قائل غيرذلك وعلى كل حال فلم تكن الا أيام بعد عودة استيورت الى القاهرة حتى جاء الامر من الديوان الخديوى الى عبدالقادر باشا بالتخلى عن الولاية والعودة الى مصر فتخلى عنها فى الحال وجعل يتأهب للرحيل وبينما هو على هذا اذ جاء علاء الدين باشا واليا بدله فانحدر عبد القادر باشا من الخرطوم يريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف فى الأمور وعلم الخارجى بخبر جيش هيكس فاهتم له كثيرا ﴿ قال صاحب كتاب السودان وظهرت على وجوه أصحابه علامات الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد فى أعداء الله ورسوله ثم نادى فى عسكره بالخروج الى ظاهر البلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهور فلما كان شهر ذى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان برا وبحرا حتى بلغ الدويم وتربص حتى تكاملت رجاله ومعداته وجاء الصائح الى الخارجى بمسير الجيش فأرسل فى الحال رجلا من مقدمى عسكره وآخرين ممن لاذوا به من عسكر الحكومة ومعهم أربعون ألفا من الجعليين والدناقلة ورسم اليهم بأن ينزلوا جميعا بمكان يعرف بالبساطة على مقربة من أم درمان — قال — وقال لهم اذا سارت حملة هيكس من

أم درمان فسيروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم و بين مؤخرها رمية قوس * وخرج علاء الدين باشا ليسير مع الجيش ومعه بعض الخدم والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما الى الخرطوم بايعاز من مدعى المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها ماء ورواء وكان هذا الجيش كما وصف صاحب كتاب السودان مؤلفا من ستة عشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكثير من الفرسان الترك الغير المنتظمين وكان عدد دواب الحمل فيه زهاء الثلاثين ألف جمل ماعدا البغال ومع الجيش الشئ الكثير من الاسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الجديد والمؤن والذخيرة وسار هذا الجيش الضخم من الدويم الى شاة ثم منها الى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدو يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكان لايقدر على المبيت الا فى داخل زريبة من الشوك فكان كل من ابتعد من العسكر عن الزريبة فى طلب الحشائش لعلف الدواب وقع فى أيدى العدو فتعذر الحصول على العلف ومات أكثر الدواب جوعا ولحق بالعسكر مالا مزيد عليه من التعب من قلة النوم لان العدو كان لايتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته فى كل ليلة مما يضطرهم الى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر

(مطلب) الخلاف بين علاء الدين باشا وهيكس باشا

وبينما كانت الجنود على هذه الحال من التعب وتهديد العدو لهم فى الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائما ما بين علاء الدين باشا وهيكس على أى منهما تكون له الرئاسة اذ كان كل منهما يزعم أنه مقدم هذا الجيش وصاحب الكلمة بين افراده * حدثنى صاحب لى قال حدثنى رجل ممن وقع فى يد العدو بعد هلاك جيش هيكس قال كانت فعال هيكس هذا تدل على جهله بأحوال البلاد وعادات السود وكان كثير التقلب قريب الغضب وكان علاء الدين فخورا مختالا فكان اذا أبدى رأيا فى أمر خالفه هيكس وعابه واذا أشار هيكس بشئ مانعه علاء الدين وخطأه ورماه بالجهل فظهر عندئذ من جماعة الضباط وطوائف العسكر الاستخفاف بالاثنين فنبذوا طاعتهما وقد أضناهم العطش وأنهكهم التعب وتفشت بينهم الامراض العفنة وكثر الموات فى دوابهم لقلة العلف والماء وما زالوا والعدو محدق بهم من كل صوب يسيرون وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له غدير شيكان مملوء بماء الامطار فأقاموا عليه أياما قلائل حتى استنزفوا ماءه وسبقهم الخارجى بجيوشه الى غدير كثير الماء ونزل حوله ليمنعهم من الوصول اليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدروا على مناجزة العدو لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدير شيكان حتى أكلوا طينه وأوحاله من شدة الظما وتمرد الجند على كبارهم وهموا بقتلهم مرارا * فلما كان يوم الاثنين رابع المحرم افتتاح سنة احدى وثلثمائة وألف قاموا على ماهم عليه من الجهد والضعف يريدون الابيض لخلوها من رجال الخارجى والتماسا للماء فيها ﴿ قال صاحب كتاب السودان وكانت جواسيس المهدى قد أبلغته ماهم عليه من حالة الضعف والظما وأنهم قد أصبحوا جثثا

لاحراك

لاحوالهُ بها فنادى فى أصحابه بالخروج عليهم فأطبقوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم السيف فلم يقدروا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفنتهم سيوف العدوّ ولم يبق منهم الا بضع عشرات ممن اختفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعه فجعلوا يحرقون جثث القتلى من أعدائهم معلنين ذلك بأنهم كفار وقتلوا علاء الدين وهيكس شر قتلة * قلت هذه رواية * وفى أخرى أنه لما خرج الجيش من أم درمان على ماتقدم ذكره سار الدليلان أمامه فى طريق كثير الغابات شديد المرابط والعقبات قليل الماء والرواء والعدوّ من خلفه وعن يمينه وعن شماله يثب على مربع العسكر كل حين وهم يجدّون السير رجاء أن يدركوا الماء ويرووا بعض مابهم من الظما فلم يمكنهم العدوّ من ذلك وقد قلّ علف دوابهم فكثر فيها الموات وضعفت عن حمل أثقالهم وجرّ مدافعهم ثم تفشت فى العسكر الامراض العفنة وأنشب فيهم الموت أظافره ولما كان كلهم أو جلهم من الذين كانوا فى مظاهرات الثورة العرابية وكان كبارهم ممن حكم عليهم بالتجريد من الرتب وألقاب الشرف وكان انتظامهم فى هذا الجيش انما هو بايعاز من صاحب السياسة الانجليزية ولنكد حظهم كان ماكان من سوء تدبير الجيش وتغرير الدليلين بعلاء الدين وهيكس أيقنوا جميعا بأنهم انما هم مسوقون الى الموت لا محالة فانتقضوا وعصوا كبارهم وأكثروا من سبهم وتعنيفهم وضربهم قيل وهموا بقتلهم مرارا وما زالوا على هذه الحال من الظما والتعب والعدوّ من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدرون على دفعه حتى نزلوا على غدير شيكان فشربوا مافيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدوّ ترمقهم حتى أيقنوا أنه لم يبق فى أحد منهم شئ من القوّة يدفع بها قاتله فانقضوا عليهم وهم كالاموات وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا نفر قليل ممن اختبؤا بين جثث الاموات وقتلوا هيكس وعلاء الدين وجمعوا السلاح والمتاع والمدافع وما بقى من دواب الحمل وقفلوا راجعين الى الابيض فرسم الخارجى بتقسيم الاسلاب والغنائم على المجاهدين والانصار والخلفاء * وجاء الخبر الى القاهرة بما أصاب جيش هيكس فكان لذلك رنة حزن وأسف شديدين وكثر البكاء والعويل فى بيوت الضباط وكبار الجند وجلس الناس للعزاء أياما وظن أهل الخرطوم أن الخديوى لايلبث أن يبعث عبد القادر باشا فى عسكر جرار للاخذ بالثار وشاع بينهم أيضا خبر عزم زعيم سياسة الانجليز على ارسال غردون قائدا على ذلك العسكر فجعلوا يهجون و يبتهلون الى الله بتحقيق هذا الخبر واختلط الحال على الخديوى ورجال دولته فجعلوا ينقضون اليوم ما أبرموه أمس و يتخبطون فى العمل كن فقد الرشد ووزير السياسة الانجليزية يضرب على أيديهم ولا يمكنهم من أخذ أو ردّ فكانوا اذا قاموا أقعدهم واذا قعدوا أقامهم واذا قالوا عاب عليهم قولهم واذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل فى اخلاء الدوم وفشوده والكوه والجبلاء عنها وتركها الى الخارجى والاتيان بحاميتها الى الخرطوم فصدعوا بالامر فلم يتم الجلاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الامر أيضا باجلاء سائر المصريين

عن الخرطوم واعادتهم الى مصر على نفقة الخزينة فصدعوا كذلك بالامر صاغرين وأخذ الناس فى الجلاء الى بربر وأحصوا النازحين يومئذ فكانوا زهاء مائتى ألف وخمسين ألفا وشاع خبر ذلك فى البلاد شرقا وغربا فأجمع الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجى والاسراع الى متابعته فكانوا يجتمعون فى القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخلعون أثوابهم ويلبسون المرقعات التى هى شعار المهدوية ويوفدون الوفود الى حيث الخارجى ليبايعوه ويأخذوا عليه العهد فتم الى هذا الحين سقوط هيبة الحكومة المصرية وزوال سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام البلاد يذهبون بما لديهم من الاموال الى مقر الخارجى تزلفا وتقربا منه فكان يمنيهم بالامانى الكثيرة وكان ممن سلم وتزلف وبالغ فى ذلك جدا سلاطين باشا ومن كان معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجى ولازم باب الخليفة التعايشى ۞ قال صاحب كتاب السودان أما مقدمو العسكر فقد فعل بهم المهدى من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الابدان

وصل

(فى ظهور الفتنة بالسودان الشرقى)

قد كانت الفتنة الى هذا الحين فى السودان الشرقى نائمة ولم يحرك أحد من القبائل لها ساكنا وكان بقرية الداهر على ساحل النيل شيخ من أرباب الطرق اسمه الطاهر المجذوب وكان محبوبا موقرا معظما عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام وافر الهيبة معززا فأرسل اليه مدعى المهدوية يدعوه الى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته ويسأله الانضمام الى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على الخروج على عمال الحكومة وأجازه بمبايعة الناس وخاطبه بألقاب الامارة على السودان الشرقى جميعه فبعث اليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقنه بن أبى بكر دقنه وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله وبيعت أملاكه لاسباب سياسية لا محل لسردها هنا وكان عثمان دقنه هذا يحمل كتابا من الشيخ الطاهر الى الخارجى يقول فيه ان عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه وانه من أولى العزم والحزم وانه أجدر بامارة شرق السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر وان الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعا لافضل مريديه وانه سيكون هو مستشاره ومدبر أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموازرته وأنه لم يكن من مانع من قبول منصب الامارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير فلما وفد عثمان دقنه على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالغ فى الاحتفاء به وسأله عن الحال فى شرقى السودان قبل قهوته عليه وقال بأسيدى الناس طرا طائعون لك واهبون

أرواحهم

أرواحهم فى سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جميعا على أهبة الغزو والجهاد فى الكفار قال ثم ماذا قال وأستاذى يقول ان الدولة قد عزمت على قهرك بارسال جيش جرار الى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بارجاعى للوقوف مع المجاهدين فى طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم ﴿ قال الراوى ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقنه وسرحه الى سواكن وكتب له كتبا الى سائر القبائل الضاربة هناك يستصرخهم ويستفزهم الى نصرته ونجدته وانه قد أمر عليهم عثمان دقنه فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان الى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل الى سواكن آمنا مطمئنا واجتمع بالشيخ الطاهر وسلمه كتب المهدى فجمع الشيخ سائر مريديه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام فى وسطهم ومد يده الى عثمان دقنه وبايعه بالامارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره الى مصوع وكسله فدخلت جميع القبائل فى طاعته فجاء الامر الى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ فى سنكات فسير اليه توفيق بك مأمور طوكر فى ستين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من أمر جموعه ومن التف حوله من القبائل شيأ فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه لموم عثمان دقنه فقاتلهم وأصلاهم نارا حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراسا عظيما وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوه بناره

(مطلب)
ارسال جيش لاستخلاص سنكات وطوكر

وجاء الخبر الى القاهرة بظهور الفتنة أيضا فى شرقى السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة فبعد أخذ ورد طويلين مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السياسة الانجليزية بارسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدى أصحاب الفتنة فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هكس وبالغوا فى الاكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش الى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى اسمعيل فسار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقنه وتأهب لقتالهم فى عدة كثيرة من المقاتلة وكمن بهم فى منتصف الطريق بين طوكر والترنكتات فبينماهم سائرون خرج عليهم الكمين من كل صوب وحدب وداهمهم على غرة فأوقع بهم ومزق شملهم فلم ينج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقنه سائر ما كان معهم وعاد الفارون الى سواكن فتبعهم العدو اليها وأحدق بها وجعل يتهددها وجاء الخبر الى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جدا وكبر قلقه أيضا على الخرطوم لترادف الاخبار يومئذ بما هى عليه من الشدة والضيق واقتراب دعاة الخارجى من أبواب البلد وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى ثم لم تكن الا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على ارسال جيش آخر معقود لواؤه لكبير من كبار عسكر الانجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا

عجز الدولة وعدم قدرتها على ارجاع الامور فى شرقى السودان أيضا الى ما كانت عليه وكأنما أراد صاحب سياسة الانجليز بارسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الاحمر فى قبضة الحكومة المصرية الى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وادخالها ضمن ممتلكات مملكتهم فخرج بكر باشا فى أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء القبائل وبالغ فى استرضائهم والتودد اليهم وأقام على هذه الحال أياما فلم يفلح فعمد الى مخابرة القبائل الضاربة بجهات مصوع لعله يجد بينهم من يشد بهم أزره فى فتح الطريق الى كسله ثم الى الخرطوم فلم يفلح أيضا وقد علم أن الطريق مابين مصوع وكسله كلها ادغال وغابات كثيرة المرابط والمهلكات وأن الطريق الى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للسير الى طوكر لانقاذها ثم لانقاذ سنكات فلما كان شهر ربيع الثانى من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف خرج بعسكره من سواكن الى ترنكتات وسلك ذات الطريق التى سار فيها محمود باشا بجيشه فلم تكن الا مرحلة أو بعض مرحلة حتى انقض عليهم عثمان دقنه بخيله ورجله فاختل عندئذ نظام العسكر وفشلوا أى فشل وركن من فى الساقة الى الفرار وألقوا ما بأيديهم من السلاح فأثخن العدو فيهم قتلا وضربا حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة آلاف وفر بكر باشا ومن بقى الى ترنكتات وغنم عثمان دقنه سائر ما كان معهم من سلاح ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقائع وجاء الخبر عما جرى الى القاهرة فكثر صياح وعويل نساء الضباط فى بيوتهن وجلسوا للعزاء وكثر اللغط بأن هلاك هذا الخلق الكثير من العسكر والضباط انما كان بايعاز من الخديوى وجماعة الانجليز لغاية فى النفس واشتد القلق بالناس جميعا حيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضا وقتل من كان بها من العسكر مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبوحا ذبحا

وقد كانت عمت الفتنة سائر أطراف السودان وتفشت أيضا فيما حول الخرطوم من القرى والبلدان فأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخارجى يريد الانقضاض عليها بخيله ورجله ليقبض على ناصيتها حتى اذا ما علم ذلك فى شرقى السودان وغربيه وشماله وجنوبه دانت له البقية الباقية من زعماء بعض القبائل الموالين للحكومة فخلا له الجو حينئذ وكانت عيونه تنقل له أخبار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت اليه الدولة من العجز ووهن العزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمسا وغرورا ويكثر من البعوث والدعاة ويرسل الكتب مشحونة بما حدثه به الخضر والياس وأوما بشره به صاحب الشريعة الاسلامية وما أعده الله له ولاصحابه من الاسرة والكراسى فى جنات النعيم وغير ذلك من الخرف والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيائه ورسله حتى افتتن الناس طرا واتسع الخرق وتعذر الخلاص وقد زاد الامر خبالا والطين بلة بما ورد على الخديوى من صاحب السياسة الانجليزية من وجوب ترك جميع السودان والتخلى عنه بما فيه من مال ومتاع وكراع الى الخارجى والاسراع باجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقى من العسكر ومن يريد

الجلاء

الجلاء من الاهلين أيضا فكان ما كان مما مر بك بيانه فى محله من تنحى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله وما وقع من استبداد زعيم السياسة الانجليزية على الخديوى والوزير نوبار باشا وترادف طلباته وتباين بعضها لبعض حتى تولى غردون الولاية العامة على السودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقا وغربا وذهب الى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمره وما وقع بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى بابه ان شاء الله تعالى

وصـــــل

(فى هزيمة أخرى وكسرة كبرى)

لم يكن غردون ليتوقع الفشل الى هـذا الحد بعد أن اعترف للخارجى بالملك والسلطنة على غربى السودان وبعد أن خطب فى الناس بما خطب من ترك البقايا من الاموال ومنع الجباية ثلاث سنوات واطلاق حرية التجارة فى الرقيق وغيرذلك من عبارات المجاملة والتلطف ولكن خانتـه الاقدار وسقط فى يده واختلط عليـه الحال وفسد التدبير وقلت منـه الحيلة وضاق عليه الفضاء بما رحب لاسيما وقد جاءته الانباء فى هذا الحين بفشل جيش جراهام وموت أكثر رجاله وقد كان يعتقد أن خلاصه وخلاص من معـه مرهون على فوز هـذا الجيش ونجاح غزوته * وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب سياسة الانجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله فى قبضة عثمان دقنه على ماتقدم بيانه كبرت عليه هـذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق مابين سواكن و بربر أمر لابد منه لفائدة سلطنتهم فى مستقبل الايام فعمد الى ارسال جيش ثالث من رجالهم وصفوة أبطالهم ليتم له مايريد من فتح ذلك الطريق فجاء جراهام هـذا على رأس ذلك الجيش الى سواكن فى العشرة الاخيرة من ربيع الثانى من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف ومعهم الشئ الكثير من آلات الحرب ومعدات القتال وانحدروا من سواكن الى ترنكتات وسار معـه بيكر باشا مقـدم الجيش الذى أفناه عثمان دقنه قاصدين الالتقاء بدقنه وقد علم دقنه بوصولهم فتحصن فى التيب وخندق عليها وأحاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المدافع التى غنمها من محمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفاع فلما صار جيش جراهام على مقربة من التيب وشاهد جراهام ما هو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى فى عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الادبار فلحقتهم قنابل العدو وتساقطت عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكا ذريعا جدا فما زال بهـم جراهام حتى لم شعثهم وأعاد صفوفهـم وسار بهـم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العـدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم فى الرمى ويصليهم نارا حامية حتى انكشف نظام أحـد جوانب الجيش وفعلت فيـه

قنابل العدو فيهم جراهام بتغيير شكل صفوفه ليدرأ عنهم تلك النيران الآكلة فأحس بذلك عثمان دقنه فلم يكن بأسرع من أن هجم بقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف وبقى الحال هكذا بضع ساعات من النهار ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين لا تعد وتقهقر عثمان دقنه الى طوكر لعل جراهام يتبعه فيقع فى مخالب العطب فأدرك جراهام الحيلة ولم يغرر بعسكره ❊ فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراهام كاد يذوب حزنا وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم الى كبار عسكره بترميم الحصون وتحصين القلاع وشاع خبر ذلك وملأ الاسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية من المصريين وظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فرارا من البلاء المنتظر وورد على غردون جواب الخارجى هادما لصروح أمانيه مفعما باللوم والتقريع وقارص القول ورد هدية غردون التى كان أهداها اليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرقعة من مرقعات الدراويش ❊ قال صاحب كتاب السودان وأرسل يقول له ان أحسنت فى دنياك وآخرتك فعجل بترك الكفر واعتنق الاسلام دينا والبس هذه المرقعة التى هى لباس الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ولا تكن سببا فى اراقة الدماء واعمل كما عمل غيرك من الولاة والحكام فغضب غردون غضبا ماعليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جدا ❊ وكان الناس الى ذلك اليوم لايعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الانجليز فى شأن السودان المصرى ولا يدرون ما اذا كان الخديوى مطلق اليد فى التصرف فى بلاد هى ينبوع حياة مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لا راد له ولا ممانع فيه فدلهم يومئذ تخبط غردون وخلطه وعدم حضور عسكر من الانجليز كما كانوا يتوهمون على أن صاحب سياسة الانجليز لم يبعث غردون الا ليعمل على ترك السودان للخارجى حينا حتى اذا تم لهم مايريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجى بخيلهم ورجلهم وانتزعوها منه أو من خليفته من بعده وضموها الى أملاكهم فى هذه القارة السوداء وأضخموا بها جسم سلطنتهم الواسعة وهى غاية فى نفسهم طالما تمنوها حتى مهد لهم رجالهم الاسباب وفضوا لهم بحسن كياستهم مغلق تلك الابواب بأن أوقدوا نار الثورة العرابية فى جوف القطر المصرى ونفخوا فى ضرام نار الفتنة المهدوية فى جوف السودان وأدنوا لهم فى القريب العاجل من الايام مالم تكن لتناله سلطتهم فى البعيد من السنين والاعوام

وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى فى أرباض الخرطوم الى غردون مفعمة بالسباب واللعن والحط من قدره وتهديده بالويل والثبور وعظائم الامور ان لم يعجل بالتسليم بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياما كاد يهلك فيها غردون كمدا ❊ قال صاحب كتاب السودان فاجتاز غردون النيل الازرق الى قصر راسخ بك وأرسل احدى عشرة رسالة برقية الى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت اليه حالته ويقول ان العدو على وشك الزحف للاحاطة بالبلد وان اسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخابرته ثانية وأرسل

كذلك الى الخديوى والوزير نوبار باشا فأجابه السير بارنج عما معناه – انى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الاحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكر الطويل – على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم الى ارسال النجـدة وحفظ الاتصال ما بين دنقـله وبربر – قال – ولعل السير بارنج كان يقصـد بقوله لم أفهم ما معناه – ياغردون انك لاتجهل أن مقاصد حكومة جـلالة الملكة غـير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهـم منك هـذه الطلبات حيث انك لا تجهل انها لا تتحول عما عقـدت النية على تنفيذه – قال – وفى تلغراف غردون أن الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعـذر بعد هـذه الفرصة وصول أخبار الى القاهرة فكانت اشارة السير بارنج بمخابرته بعـد التفكر أمرا فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضى الله أمرا كان مفـعولا اه ۞ قلت وهذه كانت صـفوة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عند ما كان يقاتل الخارجى واتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاسـتقلال بحكم السودان ثم استقدامه على غرة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون الى استعطاف السـير بارنج اذ كتب اليـه يقول ليس فى الامكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين عن معهم من العيال الا أن تفتحوا لى الطريق التى قلت لكم عنها فرد عليه ردا كله مماحكة وفيـه شئ من الامانى وفى كل عبارة يحضـه على التروى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفـقه ما أسره اليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك ۞ حدثنى صاحب لى خبير قال كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الحرجة تقضى بالعجب العجاب فانه بينما كان يمنى غردون بالمدد و يعـده بقرب وصول النجـدة اليـه كانت رسائله ترسـل تباعا الى عاصمة الانجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفـة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة كما أن ارسال جماعة من عسـكرهم الى اسوان ووادى حلفا لتأمين السـبل وتسهيل الجـلاء عن الخرطوم كما يشـير غردون لامعنى له البتة ولا هو من حسن السـياسة فى شئ فكانت كل هـذه الاحاجى والمعميات قاضـية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفـة من الرجال والنساء والاطفال فى الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهـم غـير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسـن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل

ورأى غردون كثرة مناوشة العدو للجنـد والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقق من دخول سائر سكان الضواحى فى طاعة الخـارجى وخروج جميع السـود من سكان البلد الى معسـكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام اليه فأكبر الامر جدا وكان العدو قد جعـل مركز حركاته فى الحلفايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرد العدو من حلفايا واجلائه عن الضواحى المتاخمة ۞ قال صاحب كتاب السودان خرج من الجند لذلك يعنى لطرد العدو ثلاثة آلاف من الباشيبوزق وألفان من المنظمين وعقـد لواء هـذا الجيش الى السعيد حسن الجيعاقى وحسن ابراهيم الشلالى

ابن عم يوسف باشا الشلالى وكلاهما من جماعة الشفاسين — قال — والسعيد حسين هذا من أسافل القوم وزعانف الجعمات وقد كان غردون عند وصوله الى الخرطوم قد ولاه الامارة على جماعة الباشيبوزق وأعطاه رتبة الباشوية كما أعلى مقام غيره من زعانف السود وزعر الشفاسين رجاء استمالة القلوب اليه والعمل على مرضاته فسارت الجنود الى حلفايا فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى فشلوا وولوا الادبار فركب العدو أقفيتهم وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم أو كاد وقد غرر بهم السعيد حسين وحسن ابراهيم الشلالى * فلما دخل من بقى المدينة حزن غردون حزنا شديدا قيل وبكى بكاء مرا وأمر فى الحال بمقاضاة السعيد حسين فكان ذلك وحكم عليه بالقتل فلم يكد يخرجونه من محبسه حتى هجم عليه جماعة من العسكر وقتلوه بطعن الحراب ووخز السنك وقيل بالمعاول * وخرج محمد الخير الفقيه المدرس وهو ممن كانت تجلهم الحكومة وتعطيهم المرتبات والجاكى فى كل شهر وانضم الى أصحاب الخارجى وقد كان جاءه كتاب من الخارجى يقول له فيه إما أن تنضم الينا أو تنضم الى عدونا والله يحكم بيننا * ووفد محمد الخير على الخارجى بالابيض فأكرم الخارجى وفادته وولاه الامارة على بربر ودنقله ورسم له بالجهاد والغزو فقدم الى بربر مثقلا بالهدايا التى أهداه اياها الخارجى فلما صار على مقربة منها أرسل الكتب يدعو الناس اليه فى المتة فانسلوا اليه فدعاهم الى بيعة الخارجى فرأى منهم تباطؤا فوقف بينهم وقال ياقوم أشهد الله وملائكته أن صاحبنا هو المهدى المنتظر فاذا لم يكن المهدى فخذوا بلحيتى هذه بين يدى الله عز وجل وقولوا هذا أضلنا سواء السبيل * قال الراوى فصدقه الناس وبايعوه على طاعة المهدى وقتال الدولة والغزو فى الكفار فسار بهم لقتال المرابطين فى شندى وكان بها جماعة من الباشيبوزق زهاء الثلثمائة فعلموا بعزمه وهموا بالخروج من معاقلهم والالتحاق بمن هم فى بربر فلم يمكنهم محمد الخير من ذلك وكبسهم بخيله ورجله وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم جميعا وغنم ما فى البلد من مال ومتاع ومنع أصحابه من سبى الذرارى ونساء المصريين كما كان الخارجى يفعل وقال حرام أن يمسسن بسوء ثم سار بلومه يريد قتال من فى بربر من المرابطين فحاصرها أياما ثم فتحها عنوة وأعمل فيمن بها السيف وغنم سائر ما فيها وكان مما غنمه شئ من متاع غردون كان قد ورد اليه من القاهرة وطير الخبر بما جرى الى الخارجى ففرح بهذا الفتح فرحا عظيما وأرسل الى محمد الخير يقول عجل بفتح دنقله واقطع الطريق على من يقدم عليك من مصر وجاءت الاخبار الى غردون بسقوط المتة وبربر فأيقن أن كل سعى فى الخلاص باطل لاسيما وقد جاءه الخبر بعيد ذلك بأيام بقيام الخارجى من الابيض الى الرهد فى لمومه الكثيرة وأن أبا قرجة وابن البصير على عزم الزحف على الخرطوم وفتحها

فلما خلت العشرة الاولى من رجب سنة احدى وثلثمائة وألف سار أبو قرجة فى لموم كثيرة حتى نزل على قرية الجريف القريبة من الخرطوم فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دقت

طبولهم ودنوا من حصون الخرطوم وجعلوا يراسلون الرمى عليها بالقنابل واشتدوا فى ذلك شدة بالغة فلم تجاوبهم الحصون فما زالوا يقتربون منها حتى صاروا على أدنى من رمية قوس وكانت عساكر الحصون قد ألغمت الارض بالبارود والمقذوفات النارية فلما توسط أصحاب أبى قرجة مكان الالغام أوقد العسكر فيها النار فالتهبت وتفرقعت وفتكت بالعدو فتكا تشيب من هوله النواصى وتغطت الارض بالاشلاء والشاموش فكان المنظر مريعا مزعجا وعاد أبو قرجة بمن بقى معه الى الجريف ٭ قال صاحب كتاب السودان وكثرت يومئذ الاحزاب حول الخرطوم وتوارد الدعاة على أرباضها فرأى غردون أن يدفعهم عنها ويناوشهم القتال كل قليل حتى لايتكامل عددهم وعددهم ويستفحل أمرهم فرسم الى محمد على بيك أحد كبار الجند بالخروج لقتالهم فخرج فى عدة من الباشيبوزق والعساكر المنظمة مع بعض المدافع وسفن النقل وسار الى الجريف وقاتل من بها فظفر بهم ومزق شملهم وملك حصونهم ومتاريسهم وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم ما فى معسكرهم من المؤن والذخائر واحتمل عسكره شيأ كثيرا من الاقوات ثم سار الى الحلفايا فأصلى من كان بها نارا حامية وكانوا جماعة من الدعاة وزعماء القبائل فخرجوا على وجوههم هائمين وقتل كثير من رجالهم وهدمت عساكره حلفايا ودكتها دكا وحملوا أخشاب دورها الى الخرطوم وجاء الخبر بما جرى الى مدعى المهدوية فانزعج وحزن حزنا ما عليه من مزيد وأرسل رسله تستصرخ القبائل وتستفزهم٭ثم ان محمد على بيك سار الى أبى حراز فخرج أهلها على وجوههم فأباحها للعسكر ثم سار الى العلفون على النيل الازرق وكان بها الفارون من نيران عساكره وقد أمروا عليهم شيخا اسمه مضوى فلما أحس الشيخ بمجيء محمد على بيك استصرخ القبائل المجاورة ومن لم يخرج الى ذلك الحين من أهل الجبال فالتف حوله زهاء عشرة آلاف فقاتلوا عسكر محمد على بيك قتالا عنيفا فاشتد عليهم محمد على بعسكره حتى هزمهم شر هزيمة وفر من بقى الى الجبال وفر مضوى فى مائتين من الفرسان ولحق بأم ضبان وهنالك جمع من تفرق من أصحابه ولبث ينتظر ما سيكون ولما تم الى محمد على بيك النصر وفاز بالغلبة والظفر أرسل جواسيسه الى أم ضبان ليأتوه بخبر من بها من العدو فغابوا أياما ثم عادوا يقولون انه ليس فى البلد من القوم الا العدد القليل مع شيخ اسمه العبيد وان التعب قد أضناهم وكاد يقعدهم عن الحركة ٭ وكان الجواسيس قد التقوا بالشيخ العبيد فاستمالهم بالرشا والبراطيل حتى مالوا اليه فأسر اليهم أن يخدعوا محمد على بيك ليجذبوه بعساكره الى الاحراش والغابات كى يتمكن هو ومن معه من البطش بهم فلما أعلموا محمد على بيك بخبر قلة العدو وما هو عليه من الجهد زحف بعسكره ومتطوعته وكان قد لحق به كثير من المتطوعة من أهل الخرطوم طمعا فى إحراز الغنائم من الاقوات لانهم كانوا فى حاجة اليها فلم يبلغوا منتصف الطريق حتى خرج عليهم كمينان من وسط الغابات أحدهما من خلفهم والثانى من أمامهم وداهماهم على غرة ففشلوا وتمزق عقد نظامهم وأثخن فيهم العدو فقتل محمد على بيك وسائر

من معه من مقدمى العسكر ولم ينج الا بضع عشرات عادت بهم السفن الى الخرطوم وما انتشر نعى القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وحزن غردون حزنا عظيما وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءته أخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم فنظر فلم ير أمامه بابا يلجه فى طلب النجدة الا استعطاف السير بارنج بمصر لعله يفرّج كربته بنفر من العساكر الانجليزية سوى ارسال الكولونيل استيورت الذى كان فى ركابه من الخرطوم الى دنقله ومنها الى القاهرة مزوّدا بالرسائل والكتب بطلب النجدة فانحدر استيورت هذا من الخرطوم على احدى البواخر فى آخريات ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة وانحدر معهم كذلك نفر من المهاجرين يريدون اللحاق بدنقله فبيناهم فى طريقهم خرج عليهم العدوّ وجعل يطلق عليهم بنادقه وهم يجدّون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس بمن فيها من المقاتلة وانطلقت سفن المهاجرين تمخر فى النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الامواج والعدوّ من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق الى أن قطعت الشلال الاول واستيورت يحث ربانها على الاسراع فى المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر عظيم ولم تكن الا لحظة حتى دخلها الماء وملأ جوفها فانزعج استيورت ولم يوفق لنكد طالعه الا الى القاء المدفع الذى كان معه وسائر الذخرة فى الماء وأنزل متاعه فى زورق وسار به مع من كان معه من الخدم والاتباع الى جزيرة فى وسط النيل ونزل بها فأشار عليه بعض من كان معه أن يسير بالزورق الى حدود دنقله ثم يرسل من يحمل الخدم والاتباع فامتنع من ذلك ولم يقبل لنفاذ القدر المقدور وبيناهم فى تردّد وحيرة اذ أقبل عليهم جماعة من أهل السلامانية ونادوا بأنهم فى طاعة الحكومة وأنهم على عهد الخديوى فأرسلوا لنا بنفر منكم لنتكلم معهم فصدّق استيورت كلامهم وأرسل اليهم جماعة من الأتباع وملاحى البارجة فعبروا النيل والتقوا بأولئك القوم وسألوهم عما اذا كانوا باقين على الطاعة فأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل استيورت وأخبروه بالخبر وباتوا ليلتهم تلك بالجزيرة فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقولان لاستيورت ان شيخ القرية قد عاد من غيبته وعلم بما أصاب باخرتكم فجهز لكم ما يلزم من دواب الحمل وهى فى انتظاركم بالجانب الشرقى من النيل فان شئتم فاعبروا وامتطوها وسيروا على بركة الله ــ قال ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غير سبع من النوق ضئيلة فقالوا لهم ان الفرق آتية الساعة فلبثوا فى انتظارها حتى قريب الزوال وبينما هم كذلك اذ جاء رجل من أهل القرية يقول لاستيورت ان الشيخ أعدّ لكم طعاما فهيا كلوا واشربوا هنيأ مريئا فقام استيورت من ساعته ولبس ملابسه كأنه ذاهب الى وليمة أحد الاصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيأ من الحيطة أو الحذر وسار معه قونصلا النمسا والفرنسيس اللذان نزلا معه من الخرطوم وترجمانه فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا فى وجوههم وأدخلوهم فى مكان فسيح كان فيه

حسون



خمسون رجلا فى زىّ السيارة فرحبوا بهم وهنؤهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا فى رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية الى شاطئ النيل وأعملوا السيف فيمن كانوا هنالك حتى أفنوهم جميعا وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق وكتب غردون التى كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك الى الخارجى ـ قال ففرح الخارجى بها فرحا عظيما وأمر فدقوا البشائر وطير الخبر بذلك الى غردون وعرض له بذكر ما فى كتبه التى كان استيورت يحملها ودعاه الى الطاعة والدخول فى عداد الدراويش فحزن غردون حزنا شديدا وأيقن أنه لم يبق فى طاقته دفع هذا المقدور وتحقق الناس طرا أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة الا بالله

(مطلب)
اشتداد الحال على بربر ومن بها

والى هذا الحين كانت قد اشتدت الحال على بربر وضاقت ذرعا بأمرها ووصل اليها دعاة الخارجى وضيقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الاطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل البلاد يصيحون المدد وكتبهم تأتى الى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا وقد أرسلوا يوما عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم الفؤاد وتفتت الاكباد فما جاء فيها قولهم هل من العدل أن نترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم يا أصحاب الامر أين العاطفة الانسانية والشهامة والحمية أين منا جرائد لوندره وجمعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها للهلاك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الارقاء فانهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال فأين الدولة البريطانية العظمى التى وعدت وصرحت برغبتها فى انقاذنا وانتشالنا مما ألمّ بنا ما بالها لا تتقدم الى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الاجل وهل تمدّ يد المعونة بعد أن نذوق حتفنا فتقيمنا من القبور أو كيف وما القصد والداعى الى تقاعدها وتهاملها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها فى سواكن واعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا أما نحن فلا نستمد الفرج من انجلترا وحدها بل نلتمس اسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فان القصد الوحيد انقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الامر المدد اه * فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الاخبار المحلية وجعلوا يقرعون الهيئة الحاكمة ويحطون عليها باللائمة وهى لا تقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكالمة صاحب سياسة الانجليز فى ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده فى طلب اخلاء السودان بجميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا * وأخذت الخديوى آخذة من الغمّ فجمع اليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتناجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ وردّ ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جلبتهم وطال بينهم الجدال فأخذت أحدهم عند ذلك « ولعله الوزير محمد شريف باشا »

هزة الغضب فقال ما بالكم تقولون غير ما تفعلون وتطلبون ما أنتم عن ادراكه عاجزون وكأنكم تجهلون أو تتجاهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح ازاء وزير السياسة الانجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعيالكم شيأ منذ احتلت جنودهم البلاد وها كم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيرة الى ما هنالك فعلام هذا الاجتماع والام نتغافل ونتعامى عن الحقائق ۞ قال الراوى وبينما هم على هذه الحال اذ جاءهم الخبر بأن داعية الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتابا الى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعوه الى التسليم هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره وجموعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعا فأكبر الوزراء الامر جدا وأرسلوا فى الحال الى صاحب السياسة الانجليزية يسألونه عما يفعلونه فجاءهم الجواب بأن لانجدة الا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك * وكتب الوزير نوبار باشا الى حسين باشا خليفه يقول ان قدرت على الدفع فادفع عن نفسك والا فانحدر بمن معك والسلام فلم تكن الا أيام قلائل حتى شاع الخبر بقيام سائر القبائل المتاخمة لبربر الى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام بعض المرابطين اليهم أيضا وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله والامر لله من قبل ومن بعد

وصـــــل

(فى سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك)

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعا من كل صوب وحدب تقوت عزيمته واشتد ظهره فرسم الى عبد الرحمن ولد النجومى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين الى أمير وهذا الامير خاضع الى ولد النجومى وانضم الى جيش ولد النجومى أيضا عبد الله بن النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين ۞ قال صاحب كتاب السودان ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلحق على بركة الله بجيش ولد النجومى فخرج الناس أفواجا أفواجا من الاحرار والعبيد فبلغت بهم عدة الجيش زهاء ستين ألفا وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم الى بلدة الجسريف فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف ونزل بها ولد النجومى أياما حتى تكامل عسكره فقسمهم الى ثلاثة معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ المتاريس وسلم الى مقدمى العسكر مواقع الدفاع ومغارق الطرق وأرسل الى غردون يدعوه

الى

الى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع – قال – وتراجع أيضا المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا فى الحلفايا كما كانوا واحتفروا الخنادق وعملوا المتاريس فكانت مقذوفاتهم تصل الى منازل المدينة يعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيرا منهم فى كل يوم ولبث الحال على هذا المنوال الى أوائل المحرم افتتاح سنة اثنتين وثلثمائة حيث زحف الخارجى فى جيش عظيم قيل انه يبلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون كتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشوارع البلد من تلك الكتب شيأ كثيرا * وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها فى أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برمى القنابل فتراجعوا عنها خاسرين وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى فى قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالا شديدا حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الامامية ثم حاصروها حصارا شديدا الى آخر ربيع الاول فنفد ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شئ يقتاتونه فسلموا الى صاحب المهدوية باشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملة كبارهم واستخدمهم فى مصاف جيوشه

فلما سلمت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والاجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الضجر وزاد الامر شدة نفاد ما فى المخازن والاشوان من المؤن والغلال وعدم امكان الحصول على شئ منها من الخارج لاخذ العدو باطراف الطرق فتفشت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها و يلعقونها – قال – وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطا مع جمار النخل وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الاصناف يصابون بالاسهال وتظهر على وجوههم اعراض تشبه اعراض مرض اليرقان ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاثة أيام وتعقبها اعراض الموت – قال – ومن غرائب مارأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الاسماك ولما بدأ الحصار انقطع وجود الاسماك كأنها فرت من فرقعة البنادق وهزيم المدافع حتى ان غردون اشتهى سمكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم بأربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها وكما أن الاسماك هجرت شواطئ الخرطوم فان أراضى بساتين المدينة التى كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبحت فى إبان الحصار وقد تلفت كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شئ من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها – الى أن قال – وكانت أسعار الاقوات فى البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الاقة

البقسماط وخمسة ريالات ثمن الاقة من اللحم البقرى وكان بعض السكان يذبحون الحمر الاهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك اه * واختل نظام الجند بالخرطوم فتمردوا على كبارهم وساروا عصابات تعيث فى البلد وتسطو على باعة الاقوات وتخطف كل ما هو معرض للبيع ولحق جماعة كثيرة منهم بالخارجى عند أم درمان هربا من الجوع وكان غردون مع كل هذه الكروب يظن أن صاحب السياسة الانجليزية ربما يكون غير أو بدل من أسرار سياسته فيعمد الى ارسال حملة لخلاصه فأعد لاستطلاع طلع هذه الحملة الموهومة تسع بواخر مدرعة كانت الى ذلك الحين تناوش العدو وتأتى بالمؤن الى الخرطوم من القرى فسير بهذه البواخر الى المتمة وبربر ولكن على غير طائل * وكان يضرع الى الله تعالى أن يقرب عودتها حاملة أخبار تلك الحملة وظل على هذه الحال أياما ثم يئس وقنط وتولاه الحزن والاضطراب فكان لا يستقر له قرار لا فى الليل ولا فى النهار وكان يغدو ويروح بين الحصون والقلاع يشدد عزائم الجند بلين الكلام ويحضهم على الامانة والاخلاص وكان كلما رآهم وهم يتألمون من وخز الجوع يذوب حسرة وتوجعا ويقول كيف يهدأ بالى وها هى جنودى تقاسى ألم الجوع ومرّ العذاب قيل وكان يقضى اليوم والليلة لا يذوق الا الشئ اليسير من الطعام وأكل جمار النخل أياما حتى أضناه وكاد يودى بحياته * وكانت كتب الخارجى ترد عليه كل قليل يدعوه بها الى التسليم وترك العناد ويقول له فى بعضها ان الانجليز ان قدموا لنجدتك فلا يصلون اليك ولا يكون حظهم الا كحظ يوسف الشلالى وهيكس * قال صاحب كتاب السودان وكتب المهدى ثلاثة كتب الى غردون نص الاول منها — بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا هداه الله الى طريق النجاة قبل أن يتلاشى آمين نعلمك أن جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك على عدم إذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر الحقيقة التى نحن عليها وتحسب مقامنا ودلالتنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا نداركك عسى الله أن يهديك الى سواء السبيل فأجب داعى الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب ارساله لك فعلام ذا هل أنت منيب الى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور أم أنت على تصميمك على اعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أىّ الوجهين ونرسله لك ان رأينا فى ذلك صلاحا للدين وأقول لك ان عزة الاسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك فى الدارين فتحلّ بها ان عقلت والسلام

قال — والكتاب الثانى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة

على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله المعتصم به محمد المهدى ابن عبد الله الى غردون باشا أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك فقد أتى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجردة الآتية لوكان معي أمامها ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد يموت أو وحدى كذلك ولوكانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتانى خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالى وهكس وسأملك المديريات الغربية كلها والبحر الابيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله وما دام أن الله القادر أيدنى بالكرامات والنصر فلا يضرنى انكار منكر وانما يضر نفسه فقط والامر الذى وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم جار على أن الجردة التى تعتمدونها مالها وجه بوصلها لكم لسد الانصار الطرق فان أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله وسترى والسلام اه * تحشية — وان طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتضبرك المرأة الواصلة اليك وان رأيت التمكين واليقين ان أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الامان ولا مانع وبذا لزمت التحشية اه بنصه

قال — والكتاب الثالث بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد الفقير الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشى فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانجليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاك من فى الخرطوم الا من آمن وسلم بنعيه الله ولذلك أحببت لك أن لا تهلك مع الهالكين لانا قد سمعنا مرارا أن فيك الخير ولكن قدكاتبناك للهداية والسعادة فما أجبتنا بكلام يؤدى الى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن تتيسر هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى — ولاتقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما والسلام * وقد قلت فى جوابك الذى أرسلته الينا ان الانجليز يريدون أن يفدوك ويحطك منا بعشرين ألف جنيه ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاما كثيرا ليس فينا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفسه الا من اجتمع بنا وأنت ان قبلت نصحنا فبها ونعمت والا فان أردت أن تجتمع بالانجليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام اه بنصه

﴿ قلت ﴾ وقد عثرت على صورة كتاب آخر من ذلك الخارجى الى غردون يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم وبعد فمن العبد الفقير الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى عزيز بريطانيه والخديويه غردون باشا قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه والحال أنك تزعم ارادة اصلاح حال المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام واتصال المودة فيما بيننا وبينكم واطلاق المسجونين من النصارى والمسلمانيين وأن تجعلنا سلطانا على كردفان فأقول والامر لله انى قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم الى ربهم وأن يفزعوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا بأنا بدعوته الى الحق وبأن مهدويتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بمتحيل ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا وانما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وعز السلاطين وتنزههم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبنين وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر أهل القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيأ وتندموا على قدر الذى تمتعوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكبرى لدلالتهم الى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى الى العز الدائم والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يامعشر الحواريين ابنوا على موج البحر لكم دارا واياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا « قلت ان المسيح لم يقل شيأ ولا شبه شئ من هذا الكلام فى انجيله البتة » ــ قال المدعى ــ فمن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخرة شأن فأنب الى الله الباقى واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبى صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيادة الكلاب كما ورد فان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فمن عبد غير الله نسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شفيقا على المسلمين فالاولى لك أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقومها على اتباع دين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحيا ما اندرس من ملل الانبياء عليهم السلام الذين لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته وما بعد لايقبل منه دين غير سنته فطهر نفسك أولا بالدخول فى ملته ثم اشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من الحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين ــ الى أن قال

أيما

انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون وانا امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا الا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا وما دام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وأنبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هذه الآية فى قوله تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية فبعد هذا تظل المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الابدى * وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون فاعلم أن حزب الله واصل اليك مزيل لك عما شاركت به خالقك فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الارض لله يورثها عباده الصالحين وان المسلمانيين والمسيحيين الذين دعوت باطلاقهم اليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفى دار الابد كما أريده لك ولكافة عباد الله خلاء من جنتهم الى محنتهم فان الله قد أبدى رحمة لعباده ولأنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم أنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة لى بالسلطة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا رغبة لى فى مال الدنيا وزخرفها وانما أنا عبد الله دال الى الله والى ما عنده فمن كان سعيدا أجابنى وتبعنى ومن كان شقيا أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذابه عند الله الى الابد وقد أيدنى الله تعالى بالانبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع الاولياء والصالحين لاحياء دينه وقد بشرنى النبى صلى الله عليه وسلم بأن جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك اخوانك فافهم وسلم تسلم

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك الى الصواب واعلم أنه كما كتبنا أنا لا نرغب فى متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هى مرسلة اليك مع ما نرغبه من الملبس لنفسنا ولاصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقى الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الابد وملك الدوام كما درج على ذلك الانبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه وقد قال كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى « قلت والمسيح لم يقل هذه الترهات أيضا ولا جاءت فى انجيله »

ـ قال ـ فتعلم بذلك أن من خالفه من الاحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وانما غرتهم الحياة الفانية والامتعة الآيلة الى أن تكون جيفة وعذرة ثم عدما

محضا فتكون حسرة ووزرا عنـد فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلبا لما عند الله وأقول لك فى ذلك كما قال سليمان عليه السـلام لبلقيس وقومها أتمدونن بمـال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهـم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعلم أنك اذا أتيتنا مسلما نؤنسك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم بعـد ذلك ان رأينا فيك خيرا وصلاحا للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير دارا سابقا فانه لما أتانا ورأى الحـق وفرح بلقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن قلبه بالايمان واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبـد القادر سلاطين « بريد سلاطين باشا » بالتسليم فأكرمناه والى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وكذلك السـيد جمعه الذى كان مديرا لفاشر والآن أرسلنا الى محمـد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والارشاد وبلغنا حسـن اسلام الدمترى سجاده وصدق اتباعه لنا وانابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله كباقى سـلاطين دارفور وسلموا جميعا أمرهـم الينا فى حب الله ورسوله لحسـن تسليمهم واتباعهم لنا وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجرا لما رأى الحق وحسـن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخيـر كثير وهلم جرا فكل سـعيد لا بد أن يتصـل بنـا من جميع أقطار الارض ومن أبى لا بد أن يخذله الله ويعـذبه فى الآخرة كما أشار الى ذلك النبى صلى الله عليه وسـلم مرارا وليكن معلوما عندك بحضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدى قد أنذرتهـم أولا انذارا بليغا وها هو واصل اليك انذار ولد الشـلالى بعد مخاطبته لى وانذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له ولأكابر جيشـه وقد أرسلنا الى باشـة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعـد أن وقع فى يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميـلة ليتدرج الى الصدق مع الله ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقتدى بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هـم كالنفس فلم يصـدق ولا زال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته منيته فمات ومع ذلك لاجل مبايعته لى ومجالسته معى أياما قد أتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد فى الآخرة فهو المقصود ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها بل انما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونبتى بالعباد سـعادتهم فى آخرتهـم الابدية وازالة الهـلاك عنهـم من الله ولذلك لاطفت جميع الاكابر من الدولة والحكام فما عملنا معهـم الا الخيـر والاكرام فمن صـدق منهم معنا فهـم الآن فى خير كثير وازدياد شرف والسـلام — وبعد هـذا البيان فان اهتـديت وسلمت لى واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك إثمك وآثام جميع من اتبعوك وان كان لك حسـن نور فى العقل تعلم أنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فلم تتهمنى فيما أسوق به الى الله

والدار

والدار الآخرة ولم تسمع على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره — وقد قال صلى الله عليه وسلم من شك فى نصرة المهدى فليقرأ قوله تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقوله كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله وزيادة الشفقة عليكم لزمت النصيحة بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدانا الله والعباد الى الصواب آمين اه بنصه

قيل وكتب المدعى على الظرف الذى أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغنى محمد سعيد المسلمانى الذى يسمى جرجو اسلامبولى أن رجلا يسمى السيد افندى نعيم الابزجى له معرفة بلغتكم وبالخط العربى وما دام انه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما فى هذا الظرف جميعه حرفا حرفا على يد المذكور أو من هو مثله والسلام

وأرسل الى غردون بعد هذه الرسالة خطابا يذكر له فيه بيان الهدية التى أرسلها اليه فى مقابلة الهدية التى كان غردون أرسلها عند مقدمه الى الخرطوم ونص هذا الخطاب بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى غردون باشا باطلاعك على ما تدون بالجواب اليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون عما فات من المشتهيات طلبا لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فان أنبت الى الله وطلبت ما عنده لايصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذى أتانا منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اه وعندى أن هذا الجواب يجب أن يكون أول كتب المدعى الى غردون ومع ما فيه من سماجة الاسلوب وركاكة التركيب فانى أستبعد أن يكون من انشائه اذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذى هو أحد الخطابات التى نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من انشائه وعلى كل حال فانها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل فى دينه ويقينه الثابت بأنه هو المهدى المنتظر بلا جدال

وجعل غردون منذ اشتداد العدو على حصون البلد ومعاقلها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه فى الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا لا بل نبقى حتى تصل الجنود الانجليزية فأجابهم غردون الى ذلك وقد كانت الاخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الانجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ ورد لامحل لا برادهما هنا وان تلك الحملة بلغت النيل عند المتمه فقاتلها انصار الخارجى قتالا عنيفا فقهرتهم وغلبتهم ووردت الاخبار كذلك الى الخارجى بما وقع لاصحابه فاضطرب وجمع اليه خواصه وأهل شوراه وكلمهم فيما هم فيه فاختلفوا فمنهم من أشار عليه بالزحف فى جيوشه وأنصاره والوقوف فى طريق الانجليز وقتالهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار

الخرطوم والجلاء عنها والرجوع الى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك
۞ قال الراوى ثم سكتوا لحظة فالتفت الخارجى الى أبى قرجة أحد الامراء وعبد القادر
على ابن عم الخارجى وقال وأنتما ماذا تقولان فقال أبو قرجة ان الفرنجة لا يقصدون
الا الخرطوم فاذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها فى قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها
ونلح فى قتالها حتى نفتحها فاذا وصل خبر سقوطها اليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس فنكر
عليهم ونقاتلهم حتى نقهرهم وقال عبد القادر مقالة أبى قرجة أيضا فظهرت عند ذلك
على وجه الخارجى علامات الفرح وقال هذا هو الرأى الصواب فنعمل به ان شاء الله تعالى
وقد كان الخارجى الى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية الخرطوم كافية وأن أهل البلد
فى أمان من الجوع كما كان يكتب اليه غردون كل قليل من الايام فكان لذلك يخشى
الزحف على البلد وفتحها عنوة وكان يحسب لذلك حسابا كبيرا فلما قال أبو قرجة وعبد
القادر مقالتهما هذه اشتدت عزيمته وزال خوفه وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها
وكان من عساكر الباشيبوزق ضعفان قد مالا الى دعوة الدعاة وكأنهما استوثقا لانفسهما
منهم ۞ قال صاحب كتاب السودان فخرجا فى احدى الليالى من البلد سرا ولحقا
بالمهدى فأكرم مثواهما وقربهما منه وسألهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل
شئ وكشفا له عن عورات البلد وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان فى طرف الخندق من
ناحية النيل الابيض قد انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه الى البلد ففرح
المهدى بذلك فرحا لا يوصف فلما كان صبح الاحد ثامن ربيع الثانى من السنة أى سنة
اثنتين وثلثمائة وألف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوص مملوء رملا
وسار فتبعه الناس حتى جاء الى شاطئ النيل فأحاط به الناس احاطة السوار بالمعصم فوقف
صامتا لا يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ
حفنة من الرمل بيده ورماها فى اليم فصاح الناس جميعا الله أكبر على الخرطوم وما زال
يصيح هكذا ويلقى بالرمل فى اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما فى
المقطف فالتفت الى من هم حوله وقال ياقوم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لى يا محمد
اهجم على البلد فى هذه الليلة فتسقط فى يدك لامحالة قال ذلك وعبر النيل الى الجانب
الشرقى يريد معسكر ولد النجومى وبعد صلاة العصر ركب جملا فاحتشد الناس حوله فأتى
على ولد النجومى وقال له ان النبى صلى الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء على الخرطوم فى هذه
الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته الى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو فى القلب
ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد الميمنة ومعه حملة البنادق ومحمد نوبارى
شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبابيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقارة
أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند
البرج المعروف باسم باب المسلمية - قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية

ويكون

ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلى النيل الازرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلى النيل الابيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكمت عليه الاوحال وصار فى الامكان الوصول منه الى المدينة وقدم المهدى عمر ابراهيم وهو أحد الصنجقين اللذين دلا على عورات البلد الى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده الى ذلك المكان « يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء » ودفع اليه شخصا آخر اسمه بدوى الدنقلاوى وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدى الى محمد النور أمرا قال فيه ما يأتى — لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتى ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدا يتعدى عليه حتى توصله الىّ سالما بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلا لا يتعرض منكم أحد الى حياة غردون بسوء لاننى أريد أن أفدى به أحمد عرابى باشا ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الآخرة وقال لهم فى ختام خطبته احملوا الحشائش لالقائها فى الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعا الى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفتين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيبا الى أم درمان اهـ

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان الى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تباعا من عصر الاحد ثامن ربيع الثانى الى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الاحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصا وعلم غردون بحركة العدو واحتشاده فصعد الى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات الى كثرة العدو وعبوره النيل فانزعج وتحقق أن العدو على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأسرع الى الحصون والمعاقل وجعل يستنهض همم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكانوا فى شاغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضر فعاد الى مقره قبيل والدمع ملء عينيه فقابله قناصل الدول فقال لهم لا قدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح علىّ ولا بدّ للعدو من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صافحهم جميعا قائلا انى أبرأ الى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم فقالوا نحن نشهد بما تقول فصافحهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلا أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن الا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم ❁ قال صاحب كتاب السودان وكان القائد فرج باشا واقفا وقت زحف العدو عند باب المسلمية فلما أحس بدخول الميسرة الى الخندق مما يلى البحر الابيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد أن تنكر بملابس جندى ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته

سراى غردون ـ قال ـ وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر اليهم ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لأىّ أحد يريد الوصول الىّ واياكم أن تبدوا أقل دفاع ـ قال ـ ولبس كسوة التشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشا ووضع عليه رداء حريريا «كوفية» وربطه بعقال كزىّ الاعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجماعة من مقاتلته فوجدوه جالسا على كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك ياغردون ياكافر قال فتبسم غردون ضاحكا وقال له أين محمد أحمد يقصد المهدى فابتدره الرجل بطعنة فى صدره خر منها صريعا على الارض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة ـ قال ـ ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحدا من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له لا تقتله بل أبقه كأمر المهدى فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله ان الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتا حين نطق بهذه العبارة قال ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل انه كان يتبسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه الى حوش السراى وهنالك قطعوا رأسه وأرسلوها الى الخليفة محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدى فركب الباخرة اسمعيلية وأوصل رأس غردون الى المهدى الذى أنكر قتله وصاح قائلا لماذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله فقال له التعايشى ان قتله خير من استحيائه فبدت من المهدى علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل الى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعا صغيرة اهـ

و وردت الاخبار تترى الى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الامر همسا ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الانجليز لاستخلاص غردون معقودا لواؤها الى الجنرال ولسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشئ الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطرز والمؤن والخيل ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال ولسلى يتوقع بالجنود الى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها وقيل بل كان فى تردد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تأتيه تباعا تارة بالاقدام وأخرى بالاحجام والمخبرون يأتونه من الانباء بأشكال متضاربة حتى وقع فى القنوط واليأس أوكاد وكثر ورود كتب الخديوى على ولسلى أيضا فى طلب معرفة بعض الشئ من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأربا واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وترددهم على دوان الوزير نوبارباشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شيأ سوى الشائع بين

الناس

الناس * وجاءت الاخبار فى هذا الحين أيضا بوصول طائفة من العساكر الايطالية فى عدة وذخرة عظيمة الى فرضة مصوّع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع فى ضواحى البلد وهم على عزم الزحف الى بربر للالتقاء بجيوش الجنرال ولسلى وانقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان الناس بين مصدق ومكذب اذ البلد تابعة لمصر وكان الخديوى ورجاله لايعلمون من أمر هذه العساكر ونزولها على مصوع شيأ الا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الاخبار أوكانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلا يوقظوا الفتنة الراقدة وكان مقدم سياسة الانجليز لما عوّل على ارسال جيش ولسلى الى الخرطوم عن طريق اسوان استمال السنيور كرسبى وزير ايطاليا يومئذ الى أن بعد جيش ولسلى بعدد من العساكر الايطالية يسيرون الى فرضة مصوع ومنها الى بربر فيلتقون بالجيش و يتضافرون جميعا على غزو ما فتحه الخارجى من البلاد ولجماعة الايطاليان فى مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من بلاد الصومال وما جزاء الاحسان الا الاحسان ففرح كرسبى بذلك وأرسل أولئك العسكر على السفن والشوانى الكبار فأنزلوهم فى بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم ولبثوا ينتظرون الاخبار عن جيش ولسلى وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم يتقربون فى تلك الايام من مشايخ القبائل الضاربة فى تلك الاطراف ويتزلفون اليهم بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين وهوّنوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وادخال بلادهم فى طاعة سلطنتهم قبل فعاقدوهم وعاهدوهم على ذلك وكتموا السر الى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سيتلى عليك فى محله ان شاء الله تعالى

وسار جيش ولسلى والاخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتيه مبتورة مقتضبة لا تشفى عليلا ولا تروى غليلا وعيون الخارجى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم تنقل أخبارهم وهم لايشعرون وكان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية يظنون الى هذا الحين ان غردون حىّ يرزق وبعضهم يقول انه يقاتل دعاة الخارجى على بربر فاذا تقدم جيش ولسلى الى ما وراء دنقلة تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والاتيان الى دنقلة بطريق بربر دون ان يلقى معارضة من أصحاب الفتنة اذ هم يخلدون الى السكينة بمجرد نزول جيش ولسلى على دنقلة وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به وكان الخديوى قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والاعيان فى جميع البلاد السودانية بأن يكونوا عونا الجيش وفى طاعة الجنرال ولسلى وشدد عليهم فى ذلك تشديدا كأنهم باقون على طاعة وولاء حكومته والامر يومئذ على غير ذلك وكثر توارد سفن النقل للجيش على أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشوانى الكبار صعدا وهبوطا الى اسوان وكبرت المركة وعمرت اسوان بالبيوت والاشوان والحوانيت لارباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمى العسكر وغيرهم وقدم بعض السعاة فى



هـذا الحين بكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم وكلها استجارة واستغاثة واعلان بأن لوم الخارجى أصبحت أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول فى بعضها انى لاأرى الخلاص الا اذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية والا فالبلد ساقط لا محالة ويقول أيضا انه اذا جاءه الزبير باشا فى نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضا وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أوكأنه قد أشفق على قومه من الوقوع فى مخالب ذلك العدو الاسود وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحدثوا بها كثيرا وكلهم مجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم فى الاجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكاز أكثر شوانى النقل فى معبر الشلالات حتى تعذر المسير فيها * ووصل ولسلى مع أركان حربه الى دنقله فلاقاه مديرها وأجله اجلالا عظيما فألبسه ولسلى نيشانا انجليزيا وأراه مرسوم الخديوى الى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة الى مقدمه فجمع المدير الى ديوانه سائر المأمورين والجند والاعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها ــ الى حضرات المديرين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعايانا الكرام سلامنا الخصوصى وبعد فان الجنرال ولسلى ذاهب الى السودان بوظيفة قائد عام للجيوش الانجليزية بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدن الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لاجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فانا نوصيكم جميعا بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لاوامره مجيبين لمطالبه كى تفوزوا برضانا ويتمكن من اتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اهـ ❁ قال الراوى فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يجبهم مافيه * ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والكراع وجعل بلدة الدبة أول النقط الاستحكامية ورتب جماعة من المرابطين فى مروى لحفظ المواصلات وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسيرون بعد ذلك قاصدين بربر فاذا تمكنوا من فتحها زحفوا الى شندى فاذا قابلهم المهدى بأصحابه جعلوا تلك النقطة حدا فاصلا والا زحفوا الى الخرطوم وأنقذوها واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن الا أيام حتى تفشت بينهم الامراض المعدية والحميات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال ولسلى وضاعت تخميناته هباء منثورا ❁ قال صاحب جريدة الفازيت الانجليزية بالله ان المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى الى السودان ظهرت أكثر جدا مما خمنها ولسلى وقد تعود المرء أنه اذا صحت له نبوة مرة حاول التكهن أخرى ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهن فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن ان جيشه يجتمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشرى

ديسمبر من السنة فها قد مضى الاجل الاول ولم يجتمع من عساكره فى دنقلة الا العدد القليل فاذا كانت نيته أن لا يتقدم الى عطمور أبى حمد قبل احتشاد جميع عساكره فى دنقلة فعسير عليه اذا المسير قبل أخريات ينار افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما اذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض الى الخروج مع فرقة الهجانة المتسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر ينار المذكور — قال فقل لى بحقك اذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله الى الخرطوم من الاجل الذى ضربه لنا كل فيه مع غردون على خوان واحد ان فى ذلك العجب العجاب اهـ * وشاع الخبر يومئذ بأن ولسلى سير رسله الى الخارجى فى طلب تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستنتج الناس من ذلك حرج موقف جيوشه وتحققوا خبر تفشى الامراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلى عليهم وقد جاءت كتبه الى القاهرة بتعجيل ارسال المؤن والادواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فعجلوا بارسالها فى الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفى بولاق التكرور وبالغوا فى التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعا حتى كان بعد ذلك ما سيتلى عليك فى محله

وصــــــل

﴿ فى حركة بعد أخرى ﴾

بينما كانت الخواطر فى حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الاخبار عن هم فى الخرطوم من الجند والعسكر والاهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى اذ جاء الخبر من زعيم سياسة الانجليز بقدوم عظيم من عظمائهم الى القاهرة اسمه اللورد نور ثبروك ومأموريته هى أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دواوين الحكومة من القلب والابدال كأن الذى أتاه دوفرين رسولهم من قبل لم يكن شيأ مذكورا فلم تكن الا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفا على السير بارنج ثم جعل يجتمع برجال الدولة وأصحاب الحل والعقد وأرباب المناصب العالية فحادثهم فى أمر المكوس والضرائب وأمن البلاد ونظام عمل وعمال الدواوين وغير ذلك ثم سار عن القاهرة فطاف الاقليمين القبلى والبحرى واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشايخها وكلمهم فى الامر كذلك ثم قفل راجعا الى القاهرة وكان قبل مبارحته عاصمة الانجليز قد أرسل الى الهند فى طلب قاض من قضاتها وأصحاب الشورى فيها فجاء الى القاهرة رجل طويل القامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجهه علامات السذاجة اسمه سميع الله خان ومعه صبى فى الرابعة عشرة من العمر قالوا والرجل صديق اللورد نور ثبروك جاء به ليطلع على قانون البلاد المعمول به فى محاكمها الجديدة ويعمل فكره فى تنقيحه وفى التوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة

الحنيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شئ جديد يناسب روح العصر فأدهش الناس حضوره اذ البلاد بلاد علم وعلماء الشرع فيها ليسوا بقليلين فلبث سميع الله هذا بالقاهرة أياما زار فيها سائر دواوين الحكومة ورجال الدولة وقاضي القضاة بمصر وأرباب المحاكم الاهلية فلم يظهر للناس من أمره شئ وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية فجاءنا الامر من الوزير نوبار باشا بلقاء الرجل فلاقيناه على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكلف وعلامات الاعجاب والخيلاء بادية على وجهه فقال — أنتكم تنظرون المقدمات * يريد هل أنتم تنظرون فى قضايا الاحوال الشخصية وكان يتكلم وهو يقلب صفحات نسخة من القانون الاهلي فقلت ان للقدمات التى يعنيها الاستاذ محاكم أخرى وقضاة آخرين فقال وكم من المقدمات عندكم اليوم * فقلت لا شئ منها عندنا وكما قلت لك هى من خصائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال * أنتكم تحكمون بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم * فقلت قد شغلنا عن الحكم بها شاغل من هذا الذى بيدك وأشرت الى نسخة القانون فدمدم بالهندية وقال أنتكم تجلسون وين فأخذت بيده وأريته قاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر اليها وهو باهت جامد ثم رحل عنا الى القاهرة قبل واجتمع بشيخ الازهر وبعض كبار العلماء وحادثهم فى شئ من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهند الانجليزية قالوا وبالغ كثيرا فى مدح الامة الانجليزية وفى رجال دولتها ثم رحل عن القاهرة الى عاصمة الانجليز وغاب عنا كما غابت عن الناس نتائج مأموريته * وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الانجليز اسمه كليفورد دلبود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظامات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القدم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشريعة الانجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقننه من القوانين فكان الرجل من شر الرجال متسرعا مخاطرا فخورا مختالا مستخفا بعظائم الامور صلفا عنيدا مكابرا فعاث وعبث وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبدع السنن السيئة ويكاتب مشايخ البلاد والقرى ويزين لهم الخروج عن حدودهم التى ألفوها وينظر الى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية بعين السخط والقلى ويمد يده الى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين بالملامة والتقريع لأقل سبب واتخذ له مقرا بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه فى كل يوم باسم جديد فتارة يقول مأمور الاصلاح وأخرى يقول مستشار الاصلاح وآونة مدير النظام وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الاسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالهر الذى عثر عليه الاعرابي وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجده على غير ذلك ضرب به الارض وقال لا بارك الله فيك ما أكثر أسماءك وأقل ثمنك * وظل كليفورد دلبود هذا على ما وصفنا من الغرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شئ حتى ضج الناس وعجوا وصاح المأمورون والحكام صيحة



القصر والملل وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن رده وايقافه عند حده فأرسل كتبه الى زعيم السياسة الانجليزية يشكو من فعال الرجل ويحذر أصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة الانجليزية من شر العاقبة ويلقى كل تبعة على الرجل فجاء الامر بخلعه فانخلع وسار الى بلاده متنكرا وقد ترك من آثاره ابطال سائر دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الاخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بآرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق فى وجوه المرتزقة من أبناء البلاد

وقدم الى القاهرة فى هذه الفترة شارم ساليد عامل الانجليز على شرقى السودان وسواحل البحر الاحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استيفاء شرقى السودان وعدم تركه لاصحاب الثورة — قال — حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدى واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاء الامر بالتخلى عن بعضها لدعاة المهدى وبعضها الى نجاشى الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم يرددا من النصوص الى مصر ومكالمة الوزير فى ذلك اشفاقا فعقد الوزير مجلسه فى دار السير بارنج وحضره عبد القادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية بديار مصر والمستشار المالى وشارم ساليد وتكلموا فى الامر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه الى دار السلطنة الانجليزية وانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وأرسل الوزير فى ذلك اليوم أيضا الى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أنباء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل الا على بعض كليمات كلها أحاجى ومعميات لا تشفى غليلا على حين أن الاخبار مترادفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقله واعراض ولسلى عن المدير اعراضا تاما — قالوا — وذلك لامتناع المدير من المسير عن عنده من العساكر فى طليعة الحملة الى بربر وتكلم أصحاب صحف الاخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل الى سواكن وكادت تتحقق الاشاعة بعبور بعض سفن النقل والشوانى الكبار ترعة السويس الى سواكن وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدى ومن التف حولهم قد تحصنوا بعبر بربر وان طلائعهم نازلة فى جهات مروى أو ما يتقدمها وانه لما علم ولسلى بذلك أخذ الحيطة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة فتربصوا بها وهم على قدم الاهبة والاستعداد لصد العدو عنهم وأرسل كتشنر بعض الجواسيس من الدبة الى الخرطوم عساهم يأتون ببعض الشئ من أنبائها فلم يتمكنوا من ذلك وجاء الامر الى شارم ساليد عامل شرقى السودان بالنصوص الى سواكن واجلاء الحامية الباقية هنالك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دقنه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة

(مطلب) وتوالت الطلبات على الخزينة لكثرة النفقة

وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رتق هذا

الفتن فعمدوا الى ايقاف دفع أقساط استهلاك دون الخزينة فى آجالها فأوقفوها فقام عند ذلك أصحاب صحف الاخبار الاجنبية وقعدوا لاسيما منهم أصحاب صحف الفرنسيس والألمان وصاحوا يا لثارات أصحاب الدون وكان الوزير نوبار باشا يتمنى لو انه يتمكن من اظهار عجز الخزينة وعدم قدرتها على القيام بنفقة ربا دونها لعل الدول تساعده على تخفيضها رحمة بالبلاد وأهلها فقام يومئذ أعضاء صندوق الدين فى وجهه ومانعوا فى ذلك بايعاز من دولتى الألمان والفرنسيس وأقاموا الحجة ضد ناظر الخزينة ومديرى الاقاليم المرهونة ايراداتها لوفاء الدون ثم رفعوا دعوة بذلك أمام المحاكم المختلطة فلم يسع الوزير يومئذ الا العدول عما كان يقصده ورسم بدفع الاقساط فى آجالها فسكنت الخواطر واطمأنت القلوب وعاد الناس الى حديث السودان وجيش ولسلى ولم يلتفتوا الى ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والمحن المتتابعة بسبب المصاريف الفادحة المترتبة على تلك الفتنة * وبينماهم على هذه الحال اذ جاء الخبر من ولسلى وهو يومئذ فى بلدة القرطى بأن مقدمة جيوشه السائرة فى طريق الصحراء التقت بطلائع الدراويش فى نقطة فيها آبار تبعد عن المتمة زهاء خمسة عشر ميلا قال ــ فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا واختلطا معا فكان القتال شديدا والطعن عميقا وظلوا على هذه الحال من الضرب والنزال بضع ساعات حتى انهزم الدراويش ومات منهم خلق كثير وكذلك من الانجليز وجرح كثير من العساكر ومقدمو العساكر وتشتت شمل من بقى من الدراويش وجعل الانجليز بعد هذه الموقعة الشعواء يتقدمون نحو المتمة ثم جاء الخبر مفصلا فدل على أنه بينما كانت مقدمة جيش ولسلى تتقدم نحو آبار أبى كلية القريبة من المتمة راجعة من آبار غدقول تريد اللحاق بالمتمة تقدمت طليعة من الفرسان لتستكشف موقع العدو فرأت العدو فى عدد وعدد عظيمين عند آبار أبى كلية فقفلت راجعة على الاعقاب وأخبرت بما كان فلم تتمكن العساكر من مناوشة العدو لدخول الليل وباتوا وهم على قدم الدفاع وبينهم وبين العدو ثلاثة أميال أو نحوها وقد اقتلعوا ما وجدوه فى مواقفهم من الانشجار والاحجار وأنشأوا زريبة وضعوا فيها المؤن وآلات الحرب وشيدوا أمامها حصنا ليعتصموا فيه وكان فى أعالى جبل هنالك نفر من العدو يرصدون مسير الحملة وحركاتها فأحسوا بقدوم العسكر فأخبروا رفاقهم فجعلوا حينئذ يطلقون على العساكر نيرانهم واستمروا على ذلك طول ليلتهم تلك فأطلق عليهم كذلك جناح الحملة الايمن ثلاثة مدافع وأصبحوا وقد نادى مقدم العسكر بالزحف فتقدموا نحو العدو وناوشوه القتال فلم يتحرك ولا بادر بالهجوم على الانجليز كما كان يؤمل قائدهم فتقدمت العساكر نحو العدو على شكل مربع قوى الاضلاع فتحرك العدو عند ذلك وجعل يرقب مؤلفة المربع ثم اختفى معظمه عن الابصار وقد تركوا راياتهم مركوزة فى المحلة التى كانوا نازلين بها وهى خدعة قد احتالوا بها ليستقدموا الانجليز فى بعض العقبات كى ينقضوا عليهم ويظفروا بهم ولقد كان كذلك فان الانجليز انخدعوا وتقدموا فلم تكن الا لحظة حتى عادت طلائع العدو وأخذوا يقذفون

على

على مقدمة مربع الانجليز نيرانهم الحامية ويرسلونها عليهم إرسالا فقابلهم الانجليز بأشد منها وظلوا على هذه الحال ساعة لم يشعر الانجليز بعدها الا وقد هجم العدو على مؤخرتهم هجمة عنيفة وخرق صفوفهم فالتحم الفريقان ووقع الضرب والطعان وتراسلت على السود النيران قبل فانقهروا وولوا الادبار وقد انصبغ أديم تلك البيداء بالدماء واكتسى بجثث القتلى والاشلاء من الفريقين وسار الانجليز بعد إصلاح حالهم ودفن جثث أبطالهم يريدون آبار أبي كلبة فبلغوها قبيل الغروب فاستقوا منها وقد كادوا يهلكون من الظما وسقوا خيلهم ودواب حملهم وضربوا هناك بعض المضارب لراحة الجرحى منهم وأقاموا حولهم رباطا وساروا يريدون المتمة ﴿ وكان المهدى قد علم بأن الانجليز انما هم قاصدون المتمة ليقيموا فيها الحصون والمعاقل التى يتعذر على أصحابه أن يوقعوا بها فسير جماعة من المقاتلة ورسم لهم بالوقوف فى طريق الانجليز ومناوشتهم القتال كى لا يتمكنوا من بلوغ المتمة وقد أحس مقدم الانجليز يومئذ من كثرة انتشار المهدويين فى تلك الانحاء ووقوفهم فى طريقه فى كل صوب وحدب أن شندى ساقطة فى يدهم لامحالة وعلم أن المهدى نازل على أم درمان وان الحصن القريب من مدينة الخرطوم أصبح فى قبضته فرأى أن المخاطرة بجنوده والتقدم بهم الى المتمة ضرب من الهوس والجنون فأرسل الى الجنرال ولسلى فى طلب النجدة واستحثه قبل أن يتمكن العدو من لم شعثه وارجاع الكرة على العساكر مع ما هم عليه من الضعف والتعب ﴿ وجاءت كتب المهدى كذلك الى سائر العربان ومشايخهم الضاربين فى البيداء يحظر عليهم معاونة الانجليز أو أن يبيعوا لهم شيأ من المؤن أو العلف لدوابهم أو أن يدلوهم على الطرق وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ان هم فعلوا شيأ من ذلك فنزح العربان فى الحال من تلك الاطراف وابتعد عن الطرق من لم يكن محاربا ووردت الاخبار بجميع ذلك الى جماعة الانجليز بالقاهرة فاشتد قلقهم وكثرت كهانة أصحاب صحفهم ونقلة أخبارهم وجاءت كتب الخديوى الى الجنرال ولسلى بالاستعلام عن حالة جيش الكولونيل استيورت الذى سار الى المتمة بعد تلك الواقعة الشعواء فأجابه ولسلى بما لا يشفى الغليل ولم يذكر شيأ عن استيورت وجنوده فقال الناس قد هلك استيورت وجنوده وهو قول يكاد يكون له من الصحة نصيب لان بين آبار أبي كلبة والمتمة مسيرة أربع ساعات للجد المسافر وثمان ساعات للبطىء المثقل فان لم يكن قد وصل بجيشه المتمة ثانى يوم الواقعة فيكون قد قضى عليهم جميعا كما قضى على جيش هكس الا أن يكون قد أدركهم الله برحمة منه ﴿ ثم تحقق الخبر بأنه بعد أن جرى ماجرى أقام الجيش على آبار أبي قلدمة رباطا قويا وسار يريد المتمة فوصلوا الى آبار شباكات فلم يدركوها حتى تبينوا أن فى المتمة قوة كبيرة من أصحاب المهدى فعدل استيورت بالجيش عن الطريق واتخذ الجهة اليمنى طريقا له فبينماهم يسيرون مجدين اذ بدا للانظار تجمع لموم كثيرة من أصحاب المهدى على قيد غلوة من النيل فحط الجيش الرحال وأخذ الرجال فى اقامة زريبة يجتمعون فيها ثم

يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدو نارا حامية وأرسل الرمى واشتد فى ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الانجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب فى الزريبة وسار بمن بقى من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل كان المقاتلون من أصحاب المهدى متترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان فتراجع المهدويون حينئذ وتبعهم ولسن بجنوده * فلما كان ثانى يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لاترام وأن بها زهاء الالفين من الحامية يتهم ألف من العساكر المنظمة برأسهم الامير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخرة فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لايوصف فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا الى جيش ولسن ولبثوا يومهم فى تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لاستكشاف ما فى شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الاسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن ورفع بهم يريد اللحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره فى كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام وجاء الخبر بذلك الى القاهرة ففرح به جماعة الانجليز فرحا عظيما وقالوا ها قد أصبح الجيش الانجليزى على أبواب الخرطوم وغدا غردون فى مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الابطال البواسل الا اقتسام الأسلاب والغنائم وبسط السلطة الانجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها الى أقصاها * كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيى العظام وهى رميم

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا الى الجبال مستصرخين الاهالى للاخذ بالثار * وكان الى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذى سيره ولسلى عن طريق أبى حمد فخاف أصحاب الحل والعقد من الانجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم فجاء الخبر بوصوله الى برتى الواقعة شمال أبى حمد وأنه لم يلق فى طريقه الا شرذمة قليلة من أصحاب المهدى فبدد شملهم وأوقع بهم ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأتى له أخذها الا اذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المتمة وهذا عسر عليه الانضمام الى جيش آرل الا اذا تم له فتح المتمة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة ورفع ولسن بسفنه ومعه الجنرال شارلس الذى كان ربان السفينة الحربية الكسندرا يوم ضرب حصون الاسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلى وخمسة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر الا وقد علتها

نيران

نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابى الخرطوم وطوابى معسكر المهدى واشتدوا عليها جميعا بالرمى فتأمل آرل ومن معه حينئذ فرأوا أن الخرطوم جميعها قد تهدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا منحدرين بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدو اثنتين من السفن فأغرقتهما بما كان فيهما ونجا ولسن ومن معه وطلعوا الى احدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت السفينة الثالثة وكان عليها الكولونيل ورتلى من النجاة فانحدرت مسرعة الى حيث مقدمة الجيش وأخبر ورتلى بما جرى فطيروا الخبر بذلك الى ولسلى مقدم الجيوش فأخذ فى الحال يخابر صاحب سياستهم على لسان البرق من دنقله الى لندن عاصمة السلطنة الانجليزية مباشرة واختلط على ولسلى يومئذ الحال وفسدت تدابيره وانعكست آماله وقام أصحاب صحف أخبارهم وقعدوا وعلت ضوضاؤهم واشتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد رأى زعيم سياستهم وسوء تدبيره فى ارسال جيش ولسلى وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون وما حل بالضعفاء من أهل البلد من النساء والاولاد حتى قال بعضهم ان حامية الخرطوم كانت صادقة فى الخدمة أمينة اذ كان غردون يقول لهم كل قليل من الايام انه انما قدم اليهم من قبل الخديوى وأمير المؤمنين السلطان عبد الحميد فكانت واثقة من صدق الرواية دائبة على الطاعة وحسن الولاء فلما رأت رأى العين قدوم العساكر الانجليزية بأكسيتهم الحمراء وقبعاتهم المحدبة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضته ففتحت للعدو أبواب البلد فولجها وأعمل فيمن بها السيف ولربما أصاب غردون ماأصاب آحاد الناس ۞ قلت وحدثنى فى هذا الحين رجل ممن فر ناجيا من الخرطوم قال كانت جميع القبائل الضاربة حول الخرطوم الى ماقبل سقوط البلد مخلصة فى طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة للخارجى ولا مصدقة لدعواه ولا هى حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه التدبير وساءت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلى الواقع على قيد غلوة من الخرطوم وبقتل خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أىّ نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من الجند والناس فأكلوا الصمغ والجلد أياما حتى سقطت البلد وقتل غردون ذبحا ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا اه وأرسل ولسلى سفينة لتأتى بالجنرال ولسن ومن معه ممن تركوا بالجزيرة بعد غرق السفينتين كما تقدم الكلام فأتوا بهم بعد العناء الشديد وقد عثروا فى طريقهم بخمسة رجال من الفارين من البلد فأتوا بهم الى ولسلى فأخبروه بمقتل غردون وما جرى عليه وكيف مثل العدو برأسه تمثيلا شنيعا فى أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والأيمان الغلاظ فطير ولسلى الخبر بذلك الى صاحب سياستهم قبل فاختلط عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفى الذى يشيرون على ولسلى بعمله وقام بينهم الخطباء والقوالون ينادون بالثارات غردون ولبث ولسلى ينتظر الجواب وقد كان الى ذلك اليوم

يظن أن قبيلة الشايقية مازالت باقية على الولاء والاخلاص للحكومة الخديوية فلما جاءه الخبر بسقوط الخرطوم آنس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدى أيضا ومظاهرته على الانجليز فرسم الى سائر العساكر بالتحفظ وملازمة المعاقل والمتاريس حتى يأتيه المدد ولكن العربان لم تتركهم بل هاجموهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمى بالبنادق أياما فلم ير ولسلى بدا من استمالتهم فسير اليهم رسلا يقولون ان الانجليز انما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام فى ربوعهم وانه خير لهم أن يخلدوا الى السكينة والطاعة فيكونون فى مأمن على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وهو يكفل لهم جميعا القيام بسائر ما وعدهم به غردون وظل على هذه الحال أياما والاخبار ترد الى القاهرة أشكالا وألوانا حتى شاع فى خلالها أن قد وقع الاتفاق بين زعيم السياسة الانجليزية وزعيم السياسة الايطالية على حضور جماعة من العساكر الايطالية النازلين عند مصوع وما والاها ليحلوا محل العساكر الانجليزية بالقاهرة فيرحل حينئذ من بالقاهرة من الانجليز الى السودان لنجدة اخوانهم وتأكدت الاشاعة أوكادت بظهور الحركة بين قلعة الجبل ومنازل الجند بقصر النيل والعباسية وتسابقهم فى جر المدافع وانزال الأثقال والاحمال وآلات الحرب من مخازن قلعة الجبل وذهاب طائفة من العسكر الى مدينة السويس بخيلهم ومدافعهم ونزولهم بخيامهم فى ظاهر البلد أياما

(مطلب)
تحرك نجاشى
الحبشة للحرب

وزاد الامر تخوفا وخبالا تحرك نجاشى الحبشة وتأهب عسكره لتذمره من فعال الانجليز وخرقهم العهد الذى عاهدوه عليه من ترك مينا مصوع وبوغس حرة له ومفتاحا لاملاكه لا يحتلها أحد غير عساكره ورجال دولته فانه لما علم بتوارد العساكر الايطالية ونزولها حول مصوع أكبر الامر وأعظمه وراسل المهدى ومناه بالمساعدة على قتال الانجليز وأرسل كذلك الى عثمان دقنه واستفزه الى قتال الايطاليان وجاءت صحف أخبار الانجليز وهى ملأى بالحض على ارسال المدد الى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص وكانت عيون عثمان دقنه وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه فلما شاع خبر قدوم المدد من الانجليز الى سواكن أخبروا به عثمان دقنه فزحف عثمان بمن معه من المقاتلة وخيم فى طمانيب فانضم اليه أكثر القبائل الضاربة فى شرقى السودان وشايعه أهالى اكبيج وغيرها واجتمعت لديه قوة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر * وكانت الى هذا الحين مابرحت حملة آرل السائرة عن طريق أبى حمد على قدم المسير والعدو يتخطف ساقها ويجول على يمينها و يسارها وهى تدافع بالامر الخفيف فلما صارت فى منتصف الطريق بين مروى وأبى حمد بان العدو أمامها فى عدد كثير ثم اختفى فخاف آرل شر العاقبة وأرسل طليعة للكاشفة فعادت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آرل وجمع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثائرين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرابطهم كالاسود الضوارى واشتبك القتال بين الفريقين

فاظهر

فأظهر أصحاب المهدى بسالة واقداما غريبين واشتدوا فى الطعن والضرب شدة بالغة وأبلوا بلاء حسنا وما زالوا حتى انكشف القتال عن قتل الجنرال آرل وأربعة من مقدمى العساكر الكبار وترفع العدوّ الى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدى فى هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى ولد أبى جحل وعلى ولد حسين وحامد ولد على وقد ماتوا جميعا فى ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصير ونفرا من الرباطاب وجماعة من دراويش بربر ثم جعل من بقى من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير الى أبى حد وهم على أشد ما يكون من الجهد والاعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبورى بعد مقتل آرل

(مطلب)
ارسال الامير حسن الى السودان باسم مندوب فوق العادة

وبينما هم على هذه الحال اذ وردت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالمكالمة مع الأمير حسن أخى الخديوى فى ذهابه الى السودان من قبل السلطنة الانجليزية باسم مندوب مدنى فوق العادة بدلا من غردون الذى تحقق لهم خبر مقتله فصدع السير بارنج بالامر وكلم الامير فى ذلك فأجابه الى ما طلب وقال لى شروط أشترطها فقال السير بارنج وما هى — قال أن ترسل معى الحكومة الخديوية خمسة آلاف مقاتل من الباشيبوزق وأن تكون لى الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشاء من الحكام والمأمورين وأن يعطى لى التصرف المطلق فى سائر الامور ولا يكون معى قط أحد من الانجليز — فلم تعجب صاحب سياسة الانجليز هذه الاشتراطات وأرسل يقول اذا قبل الامير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأذعن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا ان أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الامير القاهرة فى نفر من الكتاب والجاويشية على الباخرة زينة الصحر بن الى اسوان ومنها الى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلى فلم تكن الا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة فى قرطى والدبة وغدقول ودنقله وفى سواكن وشرق السودان وبان عزم الانجليز على الجلاء عن تلك الاطراف أوكاد ووردت كتب صاحب السياسة الانجليزية بذلك الى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض الا أيام على ذلك حتى أرسل الى الوزير يقول أن اتركوا السودان الى صاحب المهدوية واجعلوا وادى حلفا حدا بينها وبين مصر وعجلوا فى ذلك * فاختلط حينئذ على الوزير الحال وتولاه الاستغراب فجعل يكثر من التردد بين مقر الخديوى ودار الوزير محمد شريف باشا وهم يتكلمون فى الامر وقد استعصى على الناس ادراك مغزى هذه السياسة اذ كيف يرسلون بالامس الامير حسن مندوبا بدلا من غردون ليحافظ على مابقى من البلاد فى طاعة الحكومة ويسترجع مايقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلى الحكومة عن سائر البلاد السودانية الى صاحب المهدوية بغير شرط ولا عهد واجلاء من بها من العساكر * واختلف الناس فى أسباب ذلك الجلاء العاجل فمنهم من قال انه مترتب على عجز جيش ولسلى عن مقاومة العدو وتفشى الامراض الخبيثة بين افراده وسوء الحال الذى بات

فيه كبار العسكر فضلا عن تعذر النجدة عند الاقتضاء قالوا فاذا ظلوا مرابطين فى مواقفهم التى هـم فيها الآن أفنتهم الامراض العفنة والحميات الخبيثة ولو لم يقاتلهم العـدو فلذلك قد عجلوا بالجلاء لفرصة فى مستقبل الايام ومنهم من قال بل كان هذا الجلاء قسرا فانه لما تحقق قيصر الروس من اشتباك الانجليز مع أصحاب المهـدى وأنهـم سيتغلغلون فى جوف تلك القـارة السوداء ولا بد لهـم من النجدات تلو النجدات والاشتغال بهذه الحرب الكؤود وكانت مسئلة تحديد التخوم بين أملاك السـلطنة الروسيـة والديار الهندية لم تكن لتتم على مايشاء الروس أمر القيصر بحشد الجيوش على تلك الحـدود وسير المواكب والاثقال من المدافع والمكاحل والمؤن والذخرة وبالغ فى الحركة فصاح عنـد ذلك والى الهند طالبا المدد وهب أصحاب صحف أخبارهـم يستصرخون الجيوش ومقـدمى الجيوش و ينادون يا قوم عصفور فى اليد خير من ألف على شجرة فأشار عند ذلك زعيم سياستهم بالجلاء العاجل عن السودان واجتماع عسكره على مقربة من ذلك العدو الاكـبر والدب المظفر ولولا ذلك لكان من العسير على الانجليز الجلاء فى هذا الحين ـ فانحدر ولسلى من دنقله الى القاهرة واجتمع بالسير بارنج والوزير نوبار باشا والخديوى فوقع بينهم من حديث الجلاء عن السودان ما لم يصـل أحـد الى معرفته وتحقق النـاس جميعا أن ترك السودان الى صاحب المهدوية أصبح أمرا مقضيا وتأكد الخبر بانحدار الامير حسن ومن معه من الخدم والاتباع وازوائه فى بيته وامتناعه من مقابلة أحد من الناس * ثم لم تكن الا أيام بعد مقدم الجنرال ولسلى حتى قبض نفر من عساكر الانجليز على الزبير باشا وجت أحـد عظماء الســودان ونزيل مصر على عهد الخـديوى اسمعيل وأرسلوه على ظهر احـدى سفن حربهم الى جبل طارق مبعـدا عن الاهـل والبلد بغـير قضاء ولا حكم فاندهش الناس وأخذتهـم الغيرة وصاح أصحاب صحف الاخبار المحليـة ووقعوا باللائمة على الخـديوى والوزير نوبار باشا وقالوا كيف يصح للســير بارنج فعـل ما لا يحل فعله فى بلاد قائمة بحكم نفسها بمقتضى قوانينها وشرائعها والرجـل مسـلم لاسلطة للانجليز عليـه فكانت صيحتهم كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأقام الرجـل مبعدا عاما أو بعض عام فيـل حتى استكتبوه ما شاؤا ثم أرجعوه فلم يعرف أحد منه ماجرى له فى منفاه

وجاء الخبر فى هـذا الحين بجلاء من فى بلاد شرقى الســودان من العساكر المصرية فاسـتولى نجاشى الحبشـة على بعضها واحتـل جماعة الايطاليان البعض الآخر وبقيت سواكن تتجاذب بقاءها الظنون فيوما يقولون انه ستحتلها عساكر السلطان ويوما عساكر هندية انجليزية ويوما ايطاليـة والهيئة الحاكمة بمصر لا تبـدى فى ذلك نقضا ولا ابراما ثم سار الجنرال ولسلى الى سواكن فلبث بها أياما قلائل ثم عاد ومعه بعض كبار العسكر وكأنه قد ذهب لاجـلاء من بها من الجنـد فلم يصـل الى مدينة السويس حتى أخذ المرابطون بسواكن فى الجلاء عنها فلم يبق بها سوى نفر من الانجليز والهنود وجماعة من المهندسين

وارسـكان

وأركان الحرب رباطا وانحدر كذلك من كان فى مروى من العسكريين الانجليزى والمصرى وانكف المأمورون عن شراء الجمال والخيل والبغال التى كانوا يشترونها من كل صوب لخدمة الحملة فكبر الخوف بأهل دنقله والباقين على ولاء الحكومة مما سيحيق بهم من ذلك العدو الكنود بعد جلاء العساكر عنهم فنزحوا أفواجا أفواجا وانحدروا الى اسوان وأسيوط والقاهرة ونزل العدد العديد منهم بالوكائل والدور المتخربة فى ضواحى القاهرة ومصر القديمة وطاف بعضهم فى الازقة والحارات يتكففون ويطلبون صدقة أهل البر والاحسان فكانت حالهم مما رق لها الجلود فضلا عن العدو الكنود وقد أحصوهم يومئذ فكانوا زهاء خمسة عشر ألفا عدا الصغار منهم وقد لقوا مرّ العذاب عند جلائهم لانهم تركوا متاعهم وكل شئ لهم لتعذر النقل وامتناع أصحاب الحمل من معاونتهم على الجلاء وقد بلغ ثمن الجمل خمسين جنيها وأكثر هذا اذا وجد ولم يتم جلاء الانجليز عن قرطى حتى احتلها أصحاب المهدى وأقاموا فيها المعاقل والحصون واتخذوها مركز حركتهم الى دنقله عند جلاء العساكر الانجليزية والمصرية عنها * ومن عجيب الاتفاق أنهم ما احتلوا قرطى وبقية المواقع التى كان بها الانجليز والمصريون حتى أصابهم الجدرى والاسهال والحميات الخبيثة وعمل فيهم الموات عمله وقد كان الانجليز يقاسون هذه الامراض من قبلهم ومع ذلك فان أصحاب المهدى لم يبارحوا تلك المواقع ولم يثنوا عنان العزم عن انجاز كل ما رسم لهم به المهدى * وبينما كانت الجيوش تنحدر من أعالى النيل الى وادى حلفا واسوان وقد بلغ القاهرة جماعة من كبار العسكر اذ شاع الخبر وتناقله الناس بأن زعيم السياسة الانجليزية على عزم ارجاعهم جميعا الى مواقف القتال حتى يفتحوا ماتركوه من البلاد ويسترجعوا ما فاتهم منها — قالوا وذلك لانه جاءه الخبر اليقين بموت مدعى المهدوية بالجدرى فى خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلثمائة وألف ثم لم تكن الا أيام حتى وردت الكتب من مصوع وسواكن ودنقله وعن السعاة والجواسيس الذين أرسلهم الجنرال جرانفل باشا بصحة الخبر وبأن الذى تولى الخلافة بعده عبد الله التعايشى والتعايشى هذا كان رفيقا للمهدى منذ ظهوره أى من اليوم الذى كان أصحاب المهدى لا يتجاوزون الستة وقد لازمه ملازمة الظل للشبح فكان مدبر أموره وبيت سره ولكنه دونه فى الذكاء وبعد النظر والدهاء

(مطلب) عبث اللصوص فى شرق البلاد وغربها

وكأن اللصوص وأشقياء الناس قد تحققوا من ضعف الحكومة فى هذه الايام وعجزها عن الحركة والذب فكثروا فى البلاد وانتشروا فى الاقليمين فأفسدوا وأضروا بالحرث والنسل وانبثوا عصابات فى كل صوب وحدب فكانوا ينزلون على البلاد والقرى ليلا كأنهم المغازون الفاتحون فيقتلون وينهبون ويقضون ليلهم فى التطواف على البيوت بين ضرب وطعن غير هيابين ولا وجلين وكانوا اذا دخلوا بيتا أوقدوا ما معهم من الشموع وأيقظوا صاحب البيت أو صاحبته وأجلسوها وسألوها عما عندها من مال أو متاع فاذا أجابتهم

بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا مما يعثرون عليه من طعام وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لا خوف عليهم واذا رأوا من أصحاب الدار دفعا كانت الداهية الدهياء على البلد وجميع من فيه فيتفرقون فى أزقته ودروبه أو خارجا عنه ويصلون أهله نارا حامية ويعيثون فى القتل والتخريب وهتك الاعراض وكان الذى أكبر فيهم هذه الهمة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه العساكر المصرية إبان الثورة العرابية فى ميادين القتال بكفر الدوار والمحفوظة والتل الكبير *
وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية فرأيت من غرائب أفاعيل أولئك الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصورها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية « احدى بلاد الشرقية » وكان منسرهم زهاء الاربعين لصا وهم مسلحون ببنادق رمنجتون التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا فى وجههم وأطلقوا عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد بما عندهم من الاسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الاخيرة حتى مطلع الفجر وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى اتصلوا بمكان لرجل اسمه عبد الجليل أغا المورلى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما اسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام أهل البلد وهم على أشد ما يكون من الهمة والجراءة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمائة خرطوشة واهتمت الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الاشقياء اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخولت لها شيأ فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شقى وتودعه الحبس ثم تتحقق من جنايته وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلأت الحبوس بعديد أولئك الاشقياء فى الاقاليم البحرية والقبلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العرابية فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكبس دور أهالى كافة القرى والبلاد واخراج ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شئ منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعوه يومئذ من قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الاخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف من الخرطوش فخاف عند ذلك الاشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب الناس قليلا وأمنت الطرق وبات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لا يلتفتون اليها اذا قربت الشمس الى الغروب وسارت تلك اللجان فى عملها سيرا حثيثا فلم تخل من الانتقاد والتعييب ولم تتنزه أحكامها عن الخطا بأخذ البرىء بذنب المجرم وظلت على هذه الحال عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بحلها فانحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها الى المحاكم الاهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد

وصـــــل

(فى آمال وفرض احتلال)

الى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستون شيخ الاحرار وزعيم السياسة الانجليزية الذى فعل بالسودان ما فعل وزارة المحافظين القائم على رأسها اللورد سلسبورى وأصبح هذا اللورد زعيم السياسة والقابض على دفة الرئاسة فلما علم المصريون بهـذا التغيير رامت ظنونهـم الى أبعـد المرامى وتعلقت آمالهم بأعصى المواعى وجعلوا يفرضون الاحتمالات ويتساءلون فيما بينهـم عما عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعيم فلم تكن الا أيام حتى وردت كتبـه على قائد جيوشهم بمصر بلزوم التخلى عن سائر بلاد السـودان وتركها شرقا وجنوبا الى خليفـة الخارجى وغيره ممن يشاء احتلالها وعدم الخروج عما رسم به الوزير غلادسـتون فلما كان السابع من رمضان من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية اجتمع الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والمشير مختار باشا مبعوث السلطان والسير ولف مبعوث الانجليز والسـير بارنج والجـنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية بمصر وكبار العساكر المصرية والكولونيل كروف أحد مقدمى العساكر الانجليزية وبعض كبار عسكرهم أيضا فلما انتظم عقد اجتماعهم أبرز الجنرال استيفنصون ورقة وقرأ ما فيها علنا واذا هى مرسوم زعيم سياستهم الذى كانت ترجى رحمته بأهل السودان يقول فيه ـ ان حكومة جلالة ملكة الانجليز تطلب من أصحاب الحـل بديار مصر ـ أولا اخلاء وادى حلفا التى تبقى مستقرا لطائفـة من العساكر المصرية فقط ورباطا ـ ثانيا استرجاع سائر الجيوش الانجليزية من اسوان وتحديد مواضع استقرارهم فى مدينتى أسيوط والقاهرة ـ ثالثا امداد القبائل المصافيـة عما يحتاجونه من المال والذخيرة لتتيسر لهـم مقاتلة العـدو فى وادى حلفا اهـ فما أتم الجـنرال قراءة ذلك حتى أخذ العجب من جماعة المصريين مأخذه وعرتهـم الدهشة وسكتوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الانجليز ويراجعونهم فى الامر فاشتد الاخـذ والرد بين الفريقـين واختلفوا وذهب كل الى مذهب فقام حينئـذ الوزير نوبار باشا وقرأ على مسمعهم نبأ ورد اليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به الى وادى حلفا بعد رجوع الامير حسـن ليسهل الجلاء على النازحـين من تلك الاطراف ويكلم دعاة المهـدى فى أمر الصلح والتعاهد معهم على الهدو والسكون يقول فيـه ـ انه قد وصـل الى وادى حلفا خلق كثير من الموظفـين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخـبروا بأن الفوضى ضاربة فى تلك البلاد بين الاهالى والامراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التعايشى خليفة المهـدى وأبى الخـير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لاحجة لخبير تحفز العصاة للوثوب على التخوم فما أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلت الضوضاء وكثرت حجة

المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم فى الامر طويلا ولكنه رأى من جماعة الانجليز غلظة فى الرد وجفاء فى القول واشتد السير ولف فى الكلام مع المشير مختار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهمّ الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى الى صاحب سياستهم وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدى باشا بعجزه عن العمل وبعدم امكان استتباب الأمن على التخوم الا اذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدى وقد هوّن على أولى الامر بلوغ الغاية بنفر من العساكر المصرية وبشئ قليل من النفقة فلم يقو المشير مختار باشا على اقناع السير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استمالة السير بارنج الى رأيه ورحل السير بارنج عن مصر الى دار السلطنة الانجليزية فلحق به الوزير ولم يلقيا عصا الترحال حتى جاء الخبر بنجاح الوزير فى استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصريح للقوافل بالخروج الى الدروب ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وتأهب أصحاب التجارة لذلك وبعثوا البعوث الى أسيوط وحلفا واسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الابل وراجت أصناف التجارة السودانية أوكادت رغما عن الاخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة فى جميع الدروب والمسالك وشنهم الغارة على الحدود * وكان الناس يقولون كما أقول ان اعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولاهما تدانى الخواطر فى السودان من جانب الصلح والسلام والثانية نهوض التجارة من حضيض الكساد الى أوج الرواج * وكان المشير مختار باشا مندوب الباب العالى يذهب أيضا الى هذا المذهب ويكثر من ارسال الكتب الى الباب العالى والمابين الهمايونى فى ذلك ويقول انها مفتاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العدو الى السكينة وظل الحال هكذا أياما حتى جاء الخبر ثانية بعدم نجاح الوزير فى رسالته وامتناع زعيم السياسة الانجليزية من استرجاع دنقله ومن اعادة الصلات التجارية بين مصر والسودان فعاد الوزير وعاد كذلك السير بارنج وكتب يوسف باشا شهدى متتابعة الى الخديوى والوزير نوبار باشا بالحض على فتح دنقله وانتهاز هذه الفرصة التى أنشب فيها الجوع أظافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان الى أقصاه وكبار عسكر الانجليز باسوان يشكون من فعل الامراض الخبيثة بعساكرهم وامتلاء بيوت المرضى منهم فترفع الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الانجليزية الى وادى حلفا وأقام بها رباطا من الانجليز والمصريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخلصا من تغرير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك باسوان رباطا ورسم بتبعيد الروم بائعى الخمور والمسكرات فأقصوهم الى اسوان رحمة بالعساكر الانجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب ادمانهم على السكر وأراقوا خمورهم فى النيل وفى الطرقات فضجوا وعجوا وانحدروا الى القاهرة صفر اليدين وجعلوا يرجفون ويشيعون الاخبار المقلقة عن الجنود الانجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيأ مما يقولون لما تولد فى صدورهم من البغض لسائر المحتلين على اختلاف طبقاتهم

وأنى

(مطلب)
والى هذا الحين لم تقف رحى المحارات مع الباب العالى

والى هذا الحين لم تكن لتقف رحى المخابرات بين الباب العالى وصاحب سياسة الانجليز
ولم تنكف الرسل عن التردد بين الفريقين وهم بين أخذ ورد وكتب الغازى مختار باشا
تترادف على المابين الهمايونى وكلها ملأى بأوجه الاصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان
صاحب السياسة الانجليزية يطاول فى ذلك ويحاول وفى كلامه شئ من الجفاء والغلظة وكان
اذا جاءت جواسيس الحدود بخبر تحول نفر من السود عند التخوم فى طلب الماء أو الكلا
لماشيتهم طير الانجليز الخبر الى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع ميدان القتال بين دعاة
المهدى والجند المرابطين هنالك فيصبح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وا حرباه المدد المدد
واذا تخاصم هنالك اثنان من سائقى الابل على ركوة من الماء أو شئ من التمر قالوا هما
من أمراء الدراويش وقد أتيا يسترقان السمع ويستكشفان مرابط الجند فيصبح حينئذ
أصحاب صحف أخبارهم وا كرباه النجدة النجدة فاذا أغضى الباب العالى وخفض المابين
الجناح أو أظهر شيأ من المجاملة انكفوا وقالوا ان الحدود آمنة مطمئنة لا خوف عليها من
زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع الباب العالى الى هذه المغامز نظرة الحائر فلاهم
يجسرون على نبذها وايقاف تزهاتها عند حد ولاهم قادرون على اكراه هذا الاسد الرابض
على الجلاء عن البلاد وتركها لأهلها وغاية ما فعله كل من زعيم السياسة الروسية وزعيم
سياسة الفرنسيس أنهما كتبا الى زعيم سياسة الانجليز يقولان انهما لا يعترفان بصحة أى
اتفاق يحصل رأسا بين الباب العالى ودولة الانجليز فكان من وراء ذلك أن وقفت رحى
المخابرات بين الباب العالى وسفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح السير ولف
رسولهم القاهرة وانكشف شئ مما خفى من تلك المخابرات وهو اعتراف السلطنة الانجليزية
بسيادة السلطان عبد الحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الانجليز بتأييد الراحة
والطمأنينة فى داخلية البلاد ودفع كل عدو خارجى بحيث ان خزينة البلاد هى التى تقوم
بالنفقة على ذلك فى كل عام ثم جلاء الجيوش الانجليزية عندما يصح الجلاء بامتناع الاسباب
الحائلة دونه فاذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجبت زيادة القواد بينهم
من الانجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فاذا مضت ثلاثة شهور
ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الانجليزية عنها الى اسوان ووادى حلفا وحلت
محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الانجليزية الى مدينة الاسكندرية بحيث
يبقى لجماعة الانجليز أرجحية الرأى والادارة فى سائر المسائل المتعلقة بالخزينة والاشغال
العمومية قالوا أما وزارة الداخلية ووزارة الحقانية فتبقيان مصريتين مطلقا مع الاعتراف
بسيادة السلطنة الانجليزية الادبية على مصر اعترافا لا يقبل اللبس والابهام فلما شاع خبر
ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المابين الهمايونى وقالوا عليكم
بالتأنى فى تدبير حل هذا المشكل واياكم والعجلة فان الخطب جلل وخذوا برأى صاحبى
سياسة الروس والفرنسيس حتى لا يكون فى عملكم ما يوجب الندم أو يدفع الى زلة القدم

(مطلب) العـزم على انقاذ أمين باشا من خط الاستواء

قالوا وأنتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين » عليكم بملازمة الهدو والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف جماعة الانجليز بذلك ولا تنكره فيجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء » فلم تكن الا أيام بعد هذه الصيحة حتى أتت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى الوزير بعزمه على ارسال حملة خصوصية الى خط الاستواء بقيادة الرحالة استانلى لانقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وانقاذ من معه من العساكر والمرابطين فى تلك الاطراف فلم يعجب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامز والمقاصد الخفية ۞ قلت وأمين باشا هذا رجل ألمانى الاصل كان طبيبا مع غردون على عهد الخديوى اسمعيل فولاه غردون بمنشور الوظائف العالية حينا ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الالمانية الى العربية وديانته من النصرانية الى الاسلامية وسار فى تلك الارجاء سيرة الملوك والسلاطين وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب أىّ تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الاصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا فى دست منصبه لا يزاحمه مزاحم ولا يحاربه مناجز فتاقت نفسه حينئذ الى الاستقلال على تلك الاطراف واستمال اليه زعماءها وتحبب لعظمائها وادخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة ــ وعلم أصحاب الشركة الافريقية الانجليزية بخبر ماعنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد فى السلطنة الانجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كؤودا فى طريق ملك مملكتهم الجديدة التى ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل فى حوزتهم السودان من أدناه الى أقصاه وتتبع ذلك الاقطار المصرية الى الاسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة الى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الاسف وضجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون وا غوثاه أغيثوا يا أهل المروءة سجين خط الاستواء ارحموا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والاطفال والنساء وأمين باشا فى إبان هذه الضجة قرير العين جذل بما أتاحته له الايام من السكينة والاطمئنان وكان فى حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمى العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الاقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والاطفال والخدم والاتباع وكلهم فى صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدق الناس أوكادوا يصدقون أن خلاص أمين باشا والاتيان به من تلك المجاهل البعيدة عمل من أجلّ الاعمال المشكورة التى تفردت بها أمة الانجليز ولم تمض بعد ذلك الا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم الى الوزير بتقدير النفقة لارسال حملة لانقاذ أمين باشا هذا ومن معه والاتيان بهم الى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج فى ذلك فلم يفلح واشتد السير بارنج فى الطلب فتقرر على الخزينة القيام بنفقة الحملة وقدرها

اثنا عشر ألفا ذهبا وسار استانلى رسولهم لانقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى في طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياما وما زال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبثا يتجادلان أياما اذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم فى سلطانه فجعل استانلى يجهده تارة ويمنيه بالامانى الكثيرة أخرى حتى تمكن من احضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين الى الزنجبار فلقيه قنصل الالمان وتحادثا فيما هم فيه هنالك * فحبب اليه الرجوع الى مقره والعمل تحت ظل الراية الالمانية وعدم الالتفات الى شئ مما يقوله استانلى فبل ففرح أمين بذلك وتقوت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع الى واد لاى ووافقه على ذلك نفر ممن جاء معه من المهاجرين ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة وتحدث الناس بها كثيرا وكبرت الوحشة بين أمين واستانلى فبل وتلا كا ثم تماسكا بالاطواق وانحدر استانلى الى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهنأه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن الا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ماخفى من سر بعثة استانلى وداعى انقاذ أمين باشا اذ قام أصحاب صحف الالمان يرمون استانلى بالخديعة والمكر ويسمون السلطنة الانجليزية بالخيانة والغدر ويقولون انها أخلاط من أصحاب المتاجر فى ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرابين والسوقة ثم جعلوا يتهددونها بالحرب والقتال فى تلك القارة السوداء ان لم تقلع عن عدائها لدولة الالمان ومعاكستها فى مستعمرتها الافريقية أو ان هى عملت عملا يكون من ورائه الاضرار بأمين باشا فرد على ذلك أصحاب صحف الانجليز ردا جافيا واستطالوا على دولة الالمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيبة وسوء المصير ان هو عاد الى واد لاى ليؤيد فيها السلطة الالمانية وقالوا سوف يرى « يعنون أمين باشا » من الشدائد ما ليس له فى حسبان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول الى بحيرة نيانزه أو أوغاندة فان وصل فلا بد أن يرى عند وصوله اليها العلم الانجليزى خافقا عليها لان الشركة التى قد سيرت استانلى لخلاصه سبقته اليها لتمد فيها النفوذ البريطانى وتمنع يد الالمان من التطاول اليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفيس * وكأن استانلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الالمان ووخزهم لفؤاده الدامى بعد خيبته فى استرجاع أمين باشا فالتقى يوما بأحد مراسلى صحف الانجليز الكبرى فقال له وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقك ما الذى دفع بأصحابنا الألمان الى كل هذه المهاترة والهراء ولقد كان من واقع أمرى أننى خيرت أمين باشا بين خصال ثلاث ليختار احداها إما البقاء فى واد لاى تابعا للسلطنة الانجليزية براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة جنيه مع مساعدة مالية قدرها اثنا عشر ألفا وإما أن يرحل الى جهة أخرى من تلك القارة ليستقل بحكمها واما أن ينحدر معى الى القاهرة فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتطاول على غير مسوغ فبلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا » فلما بلغت أمين باشا مقالة استانلى هذه وأن استانلى يتهمه أيضا

بأنه لم يذعن الى مبارحـة واد لاى الا بعد أن فرض له جعلا على ذلك قدره اثنا عشر ألفا ذهبا أكبر الامر وأعظمه وكتب الى صديق له من أصحاب الحل والعقد فى السلطنة الالمانيـة يقول لم يبق فى وسعى وايم الله مراعاة السكوت والكتمان فى حق من لم يكتم السر ولم يراع حقوق الذمة فلقد عرض علىّ استانلى رسول تلك الشركة الطامعة قبول خصلة من خصلتين إما أن أترك منصبى فى خدمة الحكومة المصرية وأدخل فى خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطتى على واد لاى وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مبلغ الاثنى عشر ألف جنيه الذى سيتقرر كنفقة للادارة واما أن أجمع له جندا من السود ليكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الانجليزية لايقل عددهم عن أربعة آلاف ليسيروا معه « يعنى مع استانلى » الى الجنوب الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ويحتلوا كافير وندو ثم يؤسسوا فيها مركزا اذا وجدوها موافقة ويذهب استانلى فى أثناء ذلك الى مومباسا ليأتينى بسفينتين نقالتين لتقلى مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونيورو حتى اذا تم لنا فتح ذلك الصعيد كانت مركزا لنا نزحف منه رويدا رويدا الى واد لاى مقر حكومتى القديمة ثم أجمع بين البلادين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الافريقيـة الانجليزية لاباسم الحكومة المصرية — قال — وقد ألح علىّ ذلك الانجليزى « يعنى استانلى » بوجوب الدخول فى خدمة تلك الشركة وتفضيلها على الحكومة المصرية وكان عافاه الله يخاف كثيرا من أنى أفضل البقاء فى مقر سلطانى على الرحيل معه لعلمه أنى بانفصالى عن خدمة الحكومة المصرية لايعنينى شئ من الرجوع الى خدمة دولتى اذا دعيت اليها ولذلك قد عقد نيته وعزم عزما ثابتا على أنه إما أن يكرهنى على قبول خصلة من الاثنتين وإما أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القارة الافريقيـة والا سلبنى جميع ما عنـدى من ذخيرة ومؤنة وآلات حرب وتركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطررت الى مرافقته كارها حزينا فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بعفنه وساعدته القـدرة على تقليم أظافر ذلك الاسد ولكن قد خابت آماله وفسدت احلامه وها أنا اليوم خادم للراية الالمانية فى تلك الارجاء والله من وراء ما يعملون

قلت وشاع عند وصول استانلى الى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلا الى سلطان الزنجبار فى طلب أمين باشا وانه اذا حضر لديه عاقه ومنعه من الرجوع الى واد لاى فلم يغلطوا جميعا فى ذلك لما ناله أمين باشا من المكانة وعزة الجانب بين الالمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعة الانجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحاب المروءة الى فك أسر أمين باشا وانقاذ من معه ليست من الحنان فى شئ ولا هى لوجـه الله تعالى ﷺ وظهـر اهتمام دولة الالمان بتلك الارجاء وبحملة أمين باشا فبالغت فى تشيعها وأكثرت لها من المعـدات وآلات الحرب وأوعـزت الى أمين باشا بأن يبسط يده على بحيرات نيانزا وما والاها مع واد لاى وان لا يبقى ولايذر وسيرت اليـه جماعة

من مقدمى العسكر وعظيما من قومها اسمه الماجور ويسمن قد ولته الولاية العامة على ما كان وسيكون لها من المرافق والاملاك هنالك ثم صاحت على جماعة الانجليز بلسان أصحاب صحفها الكبرى أن ارجعوا عن طمعكم وخففوا من جشعكم فى القارة السوداء واعلموا أن يومكم ليس كأمسكم فلا ارعاد سلطنتكم القديم ينفع ولا ازبادها اليوم يدفع واقصروا أيديكم من التطاول الذى هو دأبكم فعيوننا وأرصادنا ترمقكم من كل صوب وحدب وعسكرنا يحول دون بلوغ سلطنتكم كل أرب لا سيما وان كلمتها هنالك قائمة على الابهام والتغرير وسلطانها أفرغ من كف الفقير فلا عسكر لها هنالك ولا كراع ولا حصون ولا قلاع فان أحسنت العمل فلنفسها وان أساءت فعليها والسلام * فقام لذلك جماعة الانجليز وهموا بعمل شئ يرجون من ورائه كشف هذه الغمة فلم ينالوا مأربا واهتمت دولة الالمان من هذا الحين بتوسيع نطاق استعمارها فى قارة افريقية بعد أن كانت تبتعد عن ذلك وتحسبه ضربا من الطمع وعمدت الى المزيد من الفتح — حصل هذا كله ورجال مصر لاهون بما عندهم من المشاغل معرضون عن الاهتمام بشئ مما وراء الحدود التى رسمها لهم صاحب السياسة الانجليزية والناس فى دهشة مما يرون ويسمعون — وقد تفرق بعض من حضر من المهاجرين مع أمين باشا فى أزقة وحارات مصر والقاهرة يستعطون أهل البر والاحسان ويحدثون الناس بما كانوا فيه وقد طرقوا أبواب الحكومة فى طلب ما تأخر من جماكيهم وما يستحقون من المعاش حتى وقفوا فى طريق الوزير فاهتم بأمرهم وكشف عن بعض غمتهم وصرفوا لهم ثلث ما تأخرلهم وطالب كذلك أمين باشا الخزينة بماله من المتأخر مدة السبع سنوات التى لبثها فى أواسط أفريقيا فاجابته الى طلبه صاغرة وأعطته ما يستحق كارهة ورتبت له معاشا شهريا يتقاضاه من الخزينة * وأشاع جماعة الانجليز عن أمين باشا بعيد ذلك الاشاعات المختلفة والاقوال المقلقة عند قومه فيوما يقولون انه مريض ويوما يقولون انه فقد السمع والبصر ويوما انه جن وآخر انه سقط من شرفة مكانه فدق عنقه ومات وغير ذلك من الاشاعات المتباينة حتى قدم الماجور ويسمن من الزنجبار الى القاهرة ومعه بعض الخدم من السود والاتباع فاحتفل بمقدمه جماعة الالمان وبالغوا فى اكرامه وأدبوا له المآدب الفاخرة فوقف مرة خطيبا فى احدى تلك المآدب وقال أشكركم على المقابلة التى قمتم بها نحوى كلما أسعدنى الدهر بالمرور فى هذه العاصمة الزاهرة ثم انى أخبركم بأننى قد قمت بالمأمورية التى عهدها الىّ امبراطور المانيا وأؤكد لكم بأن السلام الذى عبث به بعض الثائرين قد استتب فى جميع سواحل افريقيا الشرقية والفضل فى ذلك للعساكر والمدافع التى استخدمتها لاخضاعهم ولكننى مع ذلك أقول انه يتهدد مصالح المانيا فى أملاكها الآن مصاعب سياسية ولذلك فقد دعانى عظمة الامبراطور « يعنى امبراطور المانيا » لأبين له نتيجة بعثتى وأعين الرسوم الجديدة لاملاكنا فى افريقيا حسما للنزاع الذى ربما ينشأ عن هذه المصاعب السياسية ثم انى أؤمل أن أعرض على

دار بدوتنا حالة دولتنا فى أملاكها فى افريقيا وأسأل النفقة اللازمة لاقامة مملكة استعمارية المانية ثابتة فى تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغما عن المساعى التى يبذلها البعض لمنع النفوذ الالمانى فى افريقيا فان المانيا لاتتأخر البتة رغم أنوف الذين يحولون دون أعمالها المدنيــة

هذا وانى أنقل لكم سلام أمين باشا الذى لايزال يذكر اصدقاءه فى مصر وأبشركم بأنه على غاية الصحة والعافيــة خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتوه العــقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشر سـنوات بدليــل أنه بدلا من أن يعود الى بلاده للمعالجة قد أحب أن يعاود سفره الى أواسط أفريقيا رئيسا لحلة عظيمة ولقد أخذه العجب من الذين كانوا يدعونه بالشهير « يعنى الانجليز » أيام كان فى خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعونه بالكفيف العاجز المعتوه بعد أن فارقهم وعاد الى خدمة دولتنا فسبحان مغير الاحوال اه وعاد استانلى الى عاصمة الانجليز فأجزلت له سلطتها العطاء ولقبته بأكبر الالقاب عندها وأسـندت اليه مسـندا عاليا وهو اليوم فى مصاف أهل الرأى وأصحاب الشـورى فنشط الى استنهاض أصحاب الحل والعقد الى الوقوف فى وجــه الدولة الالمانية ومنعها من التغلغل فى جوف القارة الافريقية ووقوفها سدا قويا فى طريق الانجليز هنالك وجعل يخطب فى الناس وعلأ صحف أخبارهــم بعبارات الحض والاستنهاض والأنين والشـكوى من تقاعــد رجال السلطنة الانجليزية عن تدارك الخطب قبــل استفحاله لاسيما وقد تمكنت دولة الالمان من قلب القارة الافريقية أوكادت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهمّ صاحب سياستهم بارسال عظيم منهم الى عاصمة الالمان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع تلك الخصام واللدد فلبث الرجــل هنالك أياما حتى رسم الامبراطور لرجــل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن يناقش رسول الانجليز فيما جاء فيــه فأقاما على هذه الحــال أياما طال فيها الاخذ والرد بين صحف الفريقين وكثرت بينهم المهاترة والقول الهراء على ماتقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس تسخر بهم وتهزأ بفعالهم * فما قالته احدى تلك الصحف الافرنسـية عبارة لا بأس بايرادها هنا فانها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدله على نوايا الســلطنة الانجليـزية فى تلك القارة من أقصاها الى أقصاها ــ قالت لعــمرى ان من تأمل مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار سائر الدول حتى دولة البرتغال ولكن متى تذكر ما اتصــفت به الدولة الانجليزية من الطمع والانانية واستعمار الدولة الالمانية واندفاعها فيــه عاد به الامر الى عكس ماتوهم من كفايتها حتى تتسأل عن الدولتين بعــد اذا حومتها منها دولة البرتغال حتى لا ينتهى بهــما الحال الى الخصام عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين نعنى بهما رسول دولة الانجليز ورسول الالمان بكلام نسـطره لهما عما يوافق الحال وان لم نبلغ فيه الى ما دار بينهما من الجــدال بحرفه ولكنه يبين للقارئ بأجلى بيان نوايا الدولتــين فى تلك القارة الســوداء

فنقول

فنقول ليتمثل القارئ النبيه رسول الانجليز متكئا على خريطة افريقيا وفى يده قلم يخط به خطا من الدرجة الحسين طولا على طول طريق يؤدى الى أواسط افريقيا من بوغاز السويس ثم التفت الى صاحبه الالمانى وقال أليست هذه أرضا انجليزية فانحنى له الالمانى وتبسم فأردف الانجليزى عبارته هذه وأتبعها بقوله اننا اذا اتبعنا الدرجة الحسين طولا نجد أنها تقطع النيل فى موضعين أو ثلاثة مارة به فيكون نهرا انجليزيا ان شاء الله تعالى — فقاطعه الالمانى بقوله نعطيكم اياها ان شاء الله — فقال الانجليزى وبذلك نصل الى الخرطوم ولاننكر عليكم أن غردون قد مات ولكن لابد من الاخذ بثاره لان استانلى عند ما عاد الينا فى هذه المرة جعل يقول ان ترك السودان بعد جرعة لنا لا تغتفر وان أخذها من الهنات الهينات اذ لا يلزم لافتتاحها سوى مد خط حديدى بين البحر الاحمر والنيل كما بين سوا كن وبربر مثلا وهو خط لا يكون طوله أكثر من ثلثمائة كيلومتر وذلك ليس بالشئ العسير ثم نمتد من بربر مقتفين الدرجة الحسين طولا فنأخذ العبيد وسنار ثم نصعد فى النيل الذى هو ملكنا كما لا يخفاك حتى نبلغ كوندوكورو وبذلك نضمن لتجارتنا سلامة النهر بطوله على مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر تبتدئ من بربر ومن ثم نتصل الى البحيرات العظمى بلا مشقة ولا عناء — فقاطعه الالمانى على رسلك ياصاح لقد وصل الدكتور بترس عالمنا الشهير الى تلك البحيرات العظيمة أيضا وكنا نظنه ميتا قد دفن فاذا بنا نجده حيا يرزق وفى وعائه الشئ الكثير من المعاهدات والاتفاقات التى عقدها مع ملوك وزعماء تلك الاصقاع بعد المخاطرة فى قطع جبلى كينا وكليمنجارو اللذين قد أصبحا جبلين تابعين لدولتنا بعد الآن ولم يقتصر على ذلك بل دار حول بحيرة نيانزه فيكتوريا حتى صار الآن فى أواسط أوغانده حيث يتبعه أمين باشا عما قليل ويلاقيهما الماجور ويسمن قادما من الزنجبار فاذا الدرجة الحسون التى قد اتخذتموها لأنفسكم ملكا حلالا ليست لكم فانها تمر فى درجة نفوذنا ولا يصح قط التسليم لكم فيها — فقال الانجليزى اذا أنتم تريدون أن تنازعونا فى البحيرات العظمى التى هى خزانات النيل ومنبع حياته كأنكم تجهلون أنها انجليزية وأن مكتشفها من الانجليز فان كنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فانظروا الى اسمها تجدوه فيكتوريا وكفى بهذا الاسم دليلا على أنها انجليزية فضلا عن أن سكان تلك الجهات لايعرفون من الامم الاخرى سوانا وفوق ذلك فان الرحالة استانلى لم يسمح لزعيم سياستنا بأن يتخلى عنها وهذا الزعيم لم يسمح لى بأن أتخلى لكم عن قيد شبر قط بل ولا عن مخط اصبع من تلك الارض ثم أنتم تعلمون أن أمين باشا كان حاكم السودان وقد بسط يده عليها باسم الحكومة المصرية أى باسم السلطنة الانجليزية كما أنكم لاتنكرون أن تلك الدرجة الحسين انما هى طريقنا الى تانقانيكا أفتريدون أن نتخلى عنها ونتركها لكم — فأجابه الالمانى ما هذا ياصاح ان تانقانيكا هذه التى تقول عنها انما هى قلب النفوذ الالمانى وفلذة كبده وأنت هداك الله لا تجهل اننا عزمنا على أن نمد مستعمراتنا من الزنجبار الى

الكونغو وتانغانيكا كما هو واضح ومعلوم واقعــة فى طريقنا فهى اذا لنا ولا كلام ــ فهز الانجليزى رأسه وقال هيهات ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استانلى المعاهدات القوية مع زعماء القبائل الضاربة فى شمالها وستتخذها شركتنا الانجليزية الافريقية قاعدة لنفسها سيما وان استانلى رجلنا عافاه الله لايدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط ــ فقال الالمانى وصاحب سياستكم أظنه لايدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها ــ فقال أجل وكيف أتخلى عن شئ من ذلك فتقطعون طريقنا بين البحــيرات وتانغانيكا من جهــة وبين أملاكنا فى نياسا من جهــة ــ فصاح الالمانى رويدك رويدك ما ذا وكيف تقول ألا تدرى اننا ملكنا نصف نياسا وأنها احــدى طرقنا المطروقة الى الكونغو وغيرها حتى ان البرتغاليين قد تركوها لنا انى أراك متسرعا متعديا على حدود نفوذنا وهذا لا يمكن أن يكون وفينا قطرة من الدم ــ فقال الانجليزى كيف تزعمون امتلاك بحــيرة نياسا ونحن الذين حمينا منازل المرسلين الايكوسيين حوالبها بل من الذى مدّ الطريق بين تانغانيكا وبينها ومهده غير جماعة المرسلين الانجليز أما ما تدعيــه دولة البرتغال من الحقوق فانكم معشر الالمان تعرفون اننا نجهلها ولا نعترف بشئ منها ولذلك فانها لم تقدر أن تتنازل لكم عن أراض ليست لها فى الحقيقة وفضــلا عن ذلك فكيف تقــدرون أن تقطعوا علينا الطريق الوحيــدة التى توصــلنا من أملاكنا الواقعــة فى خط الاســتواء الى أملاكنا الشمالية الى بورتنال مارّة فى دالاكوا التى ان لم نبسط يدنا عليها اليوم ففى غد وغد لناظره قريب ــ فقال الالمانى يا لله ولما ذا اذا لا تقول ان الدرجة الحسين هى كلها لكم لالسواكم ــ فأجابه الانجليزى ولكن هــذا هو الحاصــل واذا أنصــفتم وعدلتم لم يسعكم الا جعــل الحق فى جانبنا وان تلك الدرجــة هى طريقنــا من مصر أرض الفراعنــة الى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم اذا تبصرتم فى الامر رأيتم اننا لانطلب الا طريقا بين مستعمرتين انجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاجحاف فى ذلك ونحن لانطلب الا الوصول الى اخواننا فى طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون فعنــد ذلك تعطى الالمانى وقال فما ذا نصنع اذا وما ذا يصــنع البرتغاليون والايطاليون ــ فأجابه على الفور مالنا وللبرتغاليين الآن أما جماعة الايطاليان فقد طاب لهــم المقام بمصوع فاذا أرادوا الحبشــة أيضا فليأخــذوها وان كنا قد دخلناها بجنودنا فيما مضى وصار لنا فيها بعض الحق ولكننا نتركها لهم هبة كريم مسامح ــ فقال الالمانى ونحن ــ فأجابه أما أنتم فقــد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد نكون أخطأنا فى ذلك لانه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محصولات خط الاســتواء الى البحر من غير بدّ فاذا ظل أصحاب المهدى آخذين علينا طريق النيل لم يكن لنا ندحة عن ايرادها من البحيرة الى البحر ولا سبيل لنا غير الزنجبار ولذلك كانت هذه الجهة أولى بنا من سواها لاننا اذا أطعنا الرحالة استانلى ــ فعنــد ذلك قاطعه الالمانى واحتد والتفت اليه محلقا وقال انى لاأرى فائدة من هذا الجــدال وانه خير أن نرفع الامر الى امبراطورنا لانى على ما أرى عسير علىّ أن أمالك

شيأ

شيأ بشأن تحديد النفوذ بيننا فقام الانجليزى وانصرف مقطب الوجه وهو يقول أجل ومن قال دائرة النفوذ الانجليزى فكأنما يقول دائر الكرة الارضية بتمامها اهـ

وجاءت فى هذه الايام أيضا كتب صاحب السياسة الايطالية الى ديوان الخديوى والوزير نوبار باشا يطلب فتح باب المخابرة بينهم بشأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الايطالى فيه من حد سواحل البحر الاحمر يعنى من فرضة مصوّع وما والاها الى ضفة النيل الازرق فأكبر الخديوى هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل ايطاليا فى ذلك فلم تكن الا أيام حتى وردت كتب صاحب السياسة المذكور بأنه انما يريد اطلاق الحرية له فى احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بنى عامر والممتدة الى ناحية ركة التى قبل أهلها حماية دولة ايطاليا لهم — قال فان لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيه المصلحة كلنا فى ذلك زعيم سياسة الانجليز فان لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا فى الامر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الافريقية يدخل ضمن دائرة نفوذنا ٠ وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغتة القبائل الصومالية المصاقبة للمكومة فكانوا اذا آنسوا منهم اخلادا الى السكينة ورأوا من نجاشى الحبشة تقاعسا أو من الرأس ألولا مقدم جيوش الحبشان تقاعدا عن الحركة تقدموا بعسكرهم ببطء ومدّوا يدهم الى بعض البقاع بلطف وساروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأتحفوهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسة الانجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهم بالمحال فان أحسوا من مقدم عسكر الحبشان بالحركة وزحف الجنود ورأوا الكتائب تتلو الكتائب انكشوا وعاودوا صاحب سياسة الانجليز فى الكلام فيتهم ويهوّن عليهم ويشير بالتأنى وترك العجلة فلما طال على نجاشى الحبشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الايطاليان عن تلك البلاد التى يعتبرها جزأ من سلطنته بحكم الاتفاق الموقع عليه مع رسول الانجليز « وقد مر بيانه » ولا هو تاركها للايطاليان يضمونها الى مستعمرتهم الجديدة رسم الى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش الى التاكا وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم وماشيتهم وأفحش فى قتلهم ثم قفل راجعا الى عدوه مقر كرسى النجاشى ولبث بها أياما ثم سار الى جندع الواقعة بين عائلة وأسمرة على مرحلة من مصوع وعسكر بها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الايطاليان وشاع الخبر بذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجؤن بعيالهم ومتاعهم الى الجزيرة وتتابع خروجهم من البلد حتى لم يجد الرائى فى طرقها سوى النوق المحملة بالاثاث والمتاع فقفى عند ذلك جماعة الايطاليان واشتدوا فى عمل الحصون والمتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الابراج وسيروا الى الكمشنر باشا عامل الخديوى على سواكن فى طلب المدد فأرسل اليهم سفينتين حربيتين من سفن الحرب الانجليزية وجاءهم كذلك بعض السفن الايطالية وكبر خوف المرابطين من العساكر الايطالية من اهتمام الحبشان باقامة الحصون والمتاريس



بعسكرهم فانشؤا هم كذلك قلعة حصينة على رأس الناحية المعروفة بحرقيقو وسموها طابية وعا ووضعوا عليها كثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشان عيونهم وأرصادهم حول البلد فانقطع عنها الوارد من المأكول والمشروب ورحل من كان نازلا حولها من العربان والمرتزقة فطير الجنرال جنيه قائد العساكر الايطالية الخبر بما جرى الى زعيم سياستهم ثم كتب يقول له قد استحكمت النفرة بيننا وبين الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية فالمدد المدد فلما أبطأ المدد لم ير بدا من تسليح الموالين من أهالى حرقيقو بالبنادق وأعطاهم شيأ كثيرا من الذخرة والمؤن واستعطفهم على أن يكونوا عونا لهم على الحبشان وتصاريف الزمان فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر الى مقدم العساكر الايطالية بحاجة المرابطين منهم فى موكوللو الى المؤنة والذخرة فأزعجه هذا الخبر لحراجة الموقف ويقظة العدو فجعل يراقب الفرص حتى آنس من الحبشان بعض الخلود الى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه من المؤن والذخرة الى موكوللو وأتبعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجهم من البلد حتى داهمهم العدو بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل بحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج من كانوا فى موكوللو من المرابطين على وجوههم الى مصوع لعدم قدرتهم على البقاء وتركوا رباطهم بما فيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم وغنموا مافيه غنيمة باردة فأكبر قائد العساكر الايطالية هذا الامر وأعظمه جدا ولكنه لم يجسر على الخروج بعسكره من البلد وسير الكتب تباعا الى صاحب سياستهم فى طلب المدد ولكن بالله ما ذا ينفع هذا كله وأرض السود هوة عميقة تبتلع الشئ الكثير من الاموال والاحمال والاثقال والعدد العديد من الرجال وتزهق دون اخضاع جبابرتها أرواح الابطال ولقد طالما أنفق فيها الدم والمال من الممالك القديمة كما يدل على ذلك تاريخها ورأينا رأى العين ما أصاب الانجليز والمصريين من نار هذه الارض الغبراء حتى جاءت اليوم نوبة الايطاليان الذين غر صاحبهم الطمع فأوقع قومه فى هذه المهلكة فلما اتصل خبر هزيمتهم هذه بزعيم سياستهم أبلغه الى دار ندوتهم فطير به السواد الاعظم من علمتهم وأهل الدعارة منهم فاجتمعوا حول دار الندوة ألوفا وارتفعت أصواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا بالويل والثبور على زعيم سياستهم واشتد بهم الهياج والهياج فجاءت طائفة من عسكرهم وفرقت جمعهم ومزقت بضرب العصى شملهم بعد لكم وضرب وجاء كتاب نجاشى الحبشة الى جنيه قائد عسكرهم بالجلاء العاجل عن مصوع وما جاورها حقنا للدماء والا فالسيف والنار ولا هذا العار قيل فلم يرد عليه وقيل بل رد بأحسن ما يكون من عبارات التلطف والتودد

وقد هيج ظفر الحبشان بجماعة الايطاليان ساكنا من أصحاب المهدوية النازلين حول سواكن فهبوا الى الحركة وجعلوا يتخطفون الناس والماشية من حول البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول والمشروب فاهتم كتشنر باشا بالامر وأكثر من تطواف العساكر حول

البلد

البلد فى الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الانجليزية نحو البلد تأهبا للدفاع عند الحاجة وأخذ كتشنر يستميل مشايخ القبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء الى عثمان دقنه والطاعة الى دعاة المهدى وخليفته فمال اليه بعضهم فأمدّهم بالاسلحة والذخيرة ودفعهم الى قتال العدوّ فقاتلوه وأبلوا فى قتاله فترفع العدوّ الى الجبال وانجلى عن ضواحى البلد ثم انحدر اليها بعد أيام وهكذا كانت فعاله كل قليل من الايام * وورد على كتشنر باشا يومئذ كتاب التعايشى خليفة المهدى مفعما بالتهديد والوعيد ان لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكر له شيأ كثيرا من مناقب المهدى وصحة مهدويته ثم دعا كتشنر الى ترك النصرانية واعتناق المهدوية فانها أصح المذاهب وأقربها الى الله تعالى فان لم يأت طائعا مخلصا فى العقيدة سير اليه جيشا عظيما فيستولى على سواكن وما والاها ويطرح حاميتها فى اليم حيث يكونون طعاما لأسماكه وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيما وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشى كل قليل من الايام وقد زادهم خوفا ما شاع فى ذلك الحين أيضا من تواطئ الرأس ألولا مقدم الجيوش الحبشية مع كبار المهدويين على قتال الاجانب الطامعين فى بلادهم وقطع شأفتهم وان النجاشى يوحنا مال الى ذلك وكاد يتحقق الخبر بخروج مشايخ الحباب والشاكرية والهدندوى والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقويت الذين استمالهم كتشنر الى طاعة الحكومة وموالاتها وامتناعهم عن مناهضة العدوّ رغما عما بذله لهم كتشنر من الاسلحة والاموال الطائلة والهدايا الكثيرة وكان كتشنر قد أرسل الى السيربارنج فى طلب الشيخ الميرغنى شيخ سجادة الطريقة الميرغنية التى يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا ليحمل العصاة على الرجوع الى طاعة الحكومة فجاء الشيخ الى سواكن وجعل يبعث البعوث ويرسل الدعاة ويحض القوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمروق عن الدين القويم واتهموه بالنصرانية وبيع الآجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار الى بلد اجيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مأربا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعاته على لقاء أحد من كبار المهدويين فكانت أخبار تلك الاطراف كل يوم فى شأن ان سرت يوما أحزنت أياما

وعاد الوزير نوبار باشا الى الرأى القائل بأن اعادة العلائق التجارية مع السودان لا بد أن يكون من ورائها تفرق العصاة فى البلاد طلبا للرزق وعدم اجتماعهم فى صعيد واحد للتألب على قتال الحكومة فكتب ثانية الى زعيم سياسة الانجليز فى ذلك ولبث ينتظر الجواب أياما حتى جاءه بالقبول ففرح الناس بذلك فرحا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أول الغيث قطر ثم ينهمل وقد كانوا لايتوقعون بلوغ هذه الامنية بعد امتناع زعيم السياسة الانجليزية من المكالمة مع الوزير نوبار باشا فى شأنها حينا على ماتقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لاعادة تلك العلائق فاجتمع



الوزراء كافة فى مجلسهم وقرروا سبعة أمور * حاصل ما فيها منع الاتجار فى الاسلحة وسائر أنواع الآلات والادوات الحربية وضبط ما يوجد منها ومعاقبة المتجرين فيها وجعل حلفا وكروسكو وأسوان ودراو المراكز التى تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العبابدة والكبابيش وغيرهم من قبائل العربان بذلك وبطاعتهم لتفتيش سائر البضائع التى ترد من السودان أو التى ترسل اليه أولا فى حلفا ثم فى كروسكو وفى أسوان وفى دراو ثم يعطى لاصحابها تسريح * فجعل التجار من ذلك الحين يتأهبون للعمل وسار جماعة منهم الى حلفا واسوان ونزلوا بهما فعمرت اسوان وكثرت فيها الحوانيت والمخازن والأشوان للبضائع وأصناف المتاجر وراجت التجارة فى القاهرة بعض الرواج وشاع خبر انحدار بعض القوافل من دنقلة بالصمغ والريش وسن الفيل وأشياء أخر من محاصيل أرض السود وشوهد كذلك عبر لاهل كردفان بأصناف المتاجر وجاءت الاخبار بخلود العربان والدراويش المرابطين على الحدود الى السكينة عند ما وصلت اليهم الاخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان

(مطلب) طلب الانجليز تخفيض عدد العساكر المصرية

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشا سردار العساكر المصرية الى الخديوى فى طلب تخفيض عدد العساكر المصرية وحل بعض ألويتها لعدم الحاجة اليها يومئذ وأن الجيوش الانجليزية تحل محلها فى سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الانجليزية قد رأى فى اعادة العلائق التجارية مع السودان وفى بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد فى عددها وعددها شيأ يخافه فى مستقبل الايام فأوعز الى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فوافقه الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا فى الامر فاهتم له الوزير وجمع اليه سائر الوزراء وعقد مجلسهم وجلس الخديوى بينهم فقال السردار مقالته وبالغ فى الطلب فرد عليه عبد القادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الاسباب الداعية الى بقاء الجيوش المصرية على ما هى عليه من العدد والعدد وما تحتاجه البلاد فى هذه الظروف من حفظ كرامتها فى أعين الاعداء وإعظام قوتها الدفاعية رهبة لهم فعارضه فى ذلك السردار وبالغ فى الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يبرم أمرا على غير الذى يرمى اليه زعيم السياسة الانجليزية تسكينا للخواطر وتطمينا للقلوب * قيل فعضد السردار فى رأيه وعاب على عبد القادر باشا قوله وسفهه فامتعض عبد القادر باشا وبالغ فى التعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له أنت بحضرة مولاك فاخفض من صوتك * قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائن والتهم الموسوم بها عبد القادر باشا شيأ كثيرا وكان الى ذلك الحين يغض الطرف عنها منعا للقلاقل وتحاشيا من سوء العاقبة وكان جماعة الانجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تلك التهم وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبد القادر باشا مع بعض أصحاب الاطيان بحوش عيسى والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله

سلطة

لسلطة وظيفته وتطاول يده الى أموال الناس شيأ كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاندة السياسة الانجليزية فى مجلسه كبر عليه الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الانجليز فى ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف ماخفى من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله الى عبد القادر باشا وقيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبد القادر باشا وهو يتوقع العزل فى كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم تترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الانجليزية ما أراده من تخفيض عدد العساكر المصرية فى أيام قلائل ✽ حدثنى صاحب لى قال كان مما أوجب بغض جماعة الانجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلعه من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته فى أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده الى أملاكهم على غير مسوغ شرعى وتطلعه الى ما فى أيدى الغير فقد كان يكيد للانجليز كيدا عظيما ويدس لهم الدسائس فى السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخوم بين الاراضى المصرية والاقطار الحجازية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العرابية فهم مقدم الجيوش الانجليزية بارسال نفر من عسكره ليحتلوها ويرفعوا الراية الانجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالى بذلك فسير فى الحال جماعة من كبار العسكر الشاهانى وطائفة من الجند الى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك الى عبد القادر باشا بصفته ناظرا للداخلية فاهتم له كثيرا واستحسنه وبالغ فى استحسانه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالى بمصر وتناجيا فى ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الانجليزية بما جرى وتحقق أن لاقبل له على اخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة الا اذا دفع برجال الحل والعقد فى الحكومة المصرية الى معمعان المقارعة مع الباب العالى أوعز الى السير بارنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا فى ذلك ففعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبد القادر باشا جفاء وغلظة فى القول فشكاه الى الخديوى وكان الخديوى يكره فعال عبد القادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفى الحكومة لتنظر فيما هو مسند اليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة فى عملها سيرا حثيثا وحققت من تلك الشوائن شيأ فلم تكن الا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه وعلم الناس بخبر مبارحته القاهرة على عجل فتحققوا أنه مكره لابطل فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخزينة اه

(مطلب) وكاد السلطان ينجح فى استمالة الروس والفرنسيس الى معاونته

وكاد السلطان فى هذه الفترة ينجح فى استمالة كبار ساسة الروس والفرنسيس الى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الانجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الانجليزية بما هم عليه أوعز فى الحال الى قائد جيوشهم بمصر بأن

أظهر الأهبة والاستعداد لجلاء بعض الكتائب فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت كتائبهم تغدو وتروح بين الاسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق التكرور بأثقالهم وأحمالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلى من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برحبة عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن الا أيام حتى كثر الارجاف بأن جماعة من الدراويش انحدروا الى حلفا بخيلهم يريدون الزحف على اسوان فالقاهرة وأن الفتنة ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى ارسال طائفة كبيرة منهم الى الحدود قالوا لمنع العدو وأنزلوهم بالمواقع والمعاقل التى قد كانوا أخلوها وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فسكت حينئذ أصحاب المنابذ وانكف السلطان عن استنهاض الدول ولبث كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد الاعظم بالوزير نوبار باشا السوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف المحازبة الى صيحتهم الاولى وهى طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وارجاع الوزير محمد شريف باشا الى منصة الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الاوراق التحريضية ملصقة على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الاجنبية وأكبروها جدا فلم تكن الا أيام بعيد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له الاطباء فأشاروا بسرعة مغادرته القاهرة والترفع فى النيل الى الصعيد الأعلى فاندهش الناس من هذا الحادث الغريب وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فمن قائل انه مريض بذات الجنب ومن قائل انه مريض بآفة فى الكبد ومن قائل قد سم فى التبغ بيد أجنبية ومن قائل غير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية الى الصعيد الاعلى فلبث أياما ثم انحدروا به على غير جدوى اذ اشتدت علته وكبر سقمه فأشار الاطباء بقيامه الى الديار الاوروباوية فسار فى نفر من الاتباع الى تريستا وأقام بها والناس كافة يسألون الله له السلامة والعودة الى منصب الرئاسة فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر بموته فحزن الناس جميعا وبكوه ورسم الخديوى الى الوزير نوبار باشا بتعطيل سائر دواوين الحكومة حدادا عليه والى كبير التشريفات الخديوية بالشخوص الى تريستا على باخرة مخصوصة ليأتى بالجثة الى مصر التى كان يحبها وكانت تحبه وتحن اليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت جثته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل اليه سفينة مصر فما ألقت السفينة مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة الى المسير أمام نعشه فسار أولا جمهور المشايخ والعلماء ثم صفوف جند البر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقدمهم موسيقى باخرة المحروسة ثم وجهاء البلد وأعيانها على اختلاف أجناسهم ثم تلامذة المدارس وما زالوا سائرين بالنعش والناس على جانبى الطريق يبكونه حتى وصلوا به الى محطة الباب الجديد فأنزلوه فى قطار مخصوص وسار القطار الى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعة من العساكر المصرية وساروا بالجنازة على شكل مهيب وترتيب عجيب أسكب عبرات الناس وأبكاهم

حتى

حتى واروه التراب * وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالاخلاص والترفع عن الدنايا مشهورا بالحزم والحكمة والدراية وسعة الباع فى المعارف السياسية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العصر ــ تلقى علومه فى مدارس الفرنسيس العليا وقضى فى خدمة البلاد وأهلها زمنا غير قليل فى الجندية على عهد الحاج محمد على باشا الكبير ثم على عهد ابراهيم باشا وعباس باشا الاول وسعيد باشا ثم فى ولاية اسمعيل باشا وتقلد فى كل هذه الازمنة وظائف خطيرة أدار مهامها بالحزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القائل ان تركنا السودان فلا تتركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الانجليز على أهل البلد واذلالهم لاقل سبب وأصغر حادث فقد وقع فى هذه الايام أن اثنين من كبار عسكر الانجليز خرجا يوما للصيد فى أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهما أطلق بارودته يريد صيدا فأصابت نارها وجه صبى لاحد الفلاحين كان يرعى جاموسته فانذعر الصبى وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيأ من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الانجليزى وأوسعه سبا ولكما فصاح الانجليزى على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الانجليزين بارودته على الرجل فسقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعين وقبضوا على الانجليزين وأخذوا ما كان معهما من سلاح وذخيرة وساقوهما الى القرية وزجوهما فى دار هنالك وحملوا القتيل الى القرية بين الصياح والجلبة وعويل النساء ثم ساروا بالانجليزيين الى دوان مديرية الجيزة وسلموهما الى ولاة الامر فلما اتصل خبر ماجرى بقنصل جنرال الانجليز وقائد جيوشهم قاما وقعدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا فى طلب معاقبة أهل تلك القرية جميعا لقبضهم على القاتل والجارح من الانجليز ولم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى سار الى تلك القرية طائفة من فرسان الانجليز وأحاطوا بها من كل صوب ودرب وأخرجوا جميع من بها من الرجال وساقوهم كالأنعام الى خيمة قد ضربوها على مقربة من الاهرام وبها جماعة من الانجليز فأخذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقوهم أياما ثم حكموا عليهم جميعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جمعوا ما فى القرية من سلاح وهراوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هدرا ثم هذا كله والهيئة الحاكمة لاتبدى حراكا ولا تظهر عراكا سوى أنها وافقت على زج أهل تلك القرية فى المحبوس حتى تحكم عليهم المحاكم بالعقوبات التى يقتضيها القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصابة من شبان أهل القاهرة ومصر القديمة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم باسم « الوطنيين الاحرار » فالتف حولهم جماعة من المحازبين لمصطفى رياض باشا وجعلوا يجتمعون فى بيت أحدهم فى السر



والعلن ويتكلمون فيما وصلت اليه الحكومة من الضعف وزوال الهيبة وفى استلام الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء الى السير بارنج وشوهدت بعض الاوراق المفعمة بالتقريع والتشديد على جماعة الوزراء ملقاة فى بعض دور الحكومة ودواوينها وجاء مصطفى رياض باشا من مزرعته فى طود الجيزة وأقام بالقاهرة فتزاحم على بابه أهل الدعارة والملقون ومن فى قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة فى ديوان الخديوى وترددت رسله على بيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الارجاف بعزم الوزير نوبار باشا على التخلى عن منصب الرياسة وما هو شائع بين الناس من أن كبار الانجليز أرسلوا الى الاقاليم القبلية نفرا من اليونان والمالطيين جواسيس يسعون فى استطلاع أفكار أهل البلاد بشأن احتلال الانجليز لمصر وغير ذلك من الترهات التى ما أنزل الله بها من سلطان * وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمته أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا الى الحركة أو سمع لهم صوتا فى مجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا فى احدى الصحف المحازبة عمد الى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهوّن عليه كل صعب من الامور كأن يقول خففوا عنكم فوالله ما استعملنا صاحبكم « يعنى مصطفى رياض باشا » الا بعد أن نكون قد دبرنا له المكايد والاحن وقلبنا لكم ظهر المجن وتلنا على يديه ما لا تستطيعون عليه صبرا ۞ حدثنى صاحب لى قال كان بعض هؤلاء الصبية يراسلون بعض مديرى الاقاليم وأصحاب بعض الوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف الى مصطفى رياض باشا وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان اذا زاره أحد من أعيان البلاد أو مديرى الجهات زلف أنّ واشتكى وعاب على الهيئة الحاكمة ضعفها وتأفف مما وقعت فيه البلاد من الدمار وكان كثير الوقيعة برجال القضاء يقول انهم أحداث أغرار لا خبرة لهم بالامور ولا دربة حتى خيل للناس يومئذ أنه ان عاد الى منصة الرياسة أراح جميع الخلق وسلك فى سائر أموره مسالك الحق ـ قال ـ وأخذت الحية من أولئك الصبية مأخذها فضعت سعايتهم وتحرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج الى النهج فى منهاج جديد والقبض على زمام سائر الامور بيد من حديد ـ قال ـ وكأنه كان على اتفاق مع الوزير نوبار باشا بأنه اذا شاء انفاذ أمر من الامور التى تقتضيها سيطرة الاحتلال الانجليزى وحفظ هيبته فى أعين أهل البلاد من مثل احداث الاحداثات المخالفة لعاداتهم أو ابداع البدع الداعية الى سقوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظامات الجديدة الحاملة على اقصاء أصحاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتزاق جعل انفاذ ذلك كله على يدى من كان معتمد أولئك القوم عليه وأرغمه على العمل به ـ قال ـ فقد مضى على رئاسة الوزير نوبار باشا فى هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه فى شؤن البلاد لم تتجاوز حد النصيحة والارشاد ولم تتعد عبارات التشجيع والاستنهاض ماعدا مايتعلق منها بالسودان شرقا وجنوبا وكان الوزير اذا رأى منه يوما اكراها على عمل شئ أراده صرفه عنه بالتى

هى

على أحسن واستماله الى التأنى وترك العجلة فينثنى عنه راضيا ولذلك قد تأخر ابرام الشئ الكثير من مقاصد زعيم سياسة الانجليز فى الأمور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الاخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الانجليز الى هذا الحين يعدون على الاصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيمته من فك قيود الحكومة من العقود التى كانت مرتبطة بها مع الاجانب النزلاء الذين فى خدمتها ونادى على رؤس الاشهاد بالكف عنها وعدم العود اليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الاجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر التحزب والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتقوت عزيمتهم بما كانوا يسمعونه من ضوضاء أصحاب الصحف الاجنبية وتكهنهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعالى منصة الرئاسة ❊ وكأن مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف الى رجال دوائه الخاص ويوالى المآدب الى كباره ويدنى من مجلسه أصحاب صحف الاخبار ويوحى اليهم بالذى يعمله اذا أفضت اليه الرئاسة

وأشاع المرجفون فى هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدى شيخ الجامع الازهر ومفتى الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها الى أملاك السلطنة الانجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التى أثقلتها كل هذه السنين والاعوام وتكلم فى ذلك أصحاب صحف الاخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الاعظم من الناس وأرجفوا ارجافا عظيما والامر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدى مالت نفسه فى ذلك الحين الى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعى الى صنائعه والاغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبد الخالق وقد كان اعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا الى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحقانية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فمانعه بطرس باشا فى ذلك واشتد فى ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتعض الشيخ وأخذته هزة الاحزاب فاستمال الى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لاحديث لهم فى سمرهم الا خبر وقوف بطرس باشا فى وجه الشيخ والحيلولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيس امتلك دارا بأحد شوارع القاهرة وآخر عثمانى امتلك دارا أمام دار ذلك الجزائرى قد تداعت الى السقوط فأخذ صاحبها فى لم شعثها وترميم ماتهدم من جدرانها وتنسيق شبابيكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجزائرى ومنعه من العمل وقال له ان منافذ دارك تكشف عورات دارى فعارضه صاحب الدار المتداعية وقال ان بين الدارين طريقا ولا سبيل قط الى المعارضة وطال بين الاثنين الخصام أياما لم ينكف فيها صاحب الدار عن العمل فشكاه الجزائرى الى قاضى قضاة مصر فحكم له القاضى بسد منافذ دار خصمه فهال صاحبها



حكم القاضي وأزعجه أيّ ازعاج فرفع ظلامته الى المحكمة المختلطة لتابعية خصمه لدولة الفرنسيس فأنصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هي وحكمت على خصمه بشئ من المال تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعي فلما شاع خبر ذلك بين الاحزاب هاجوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدى الامر وأعظمه جدا وقال انما هو عمل من أعمال بطرس باشا غالى التى يقصد بها الصاق الخزى بأصحاب الشريعة الحنيفية ونصرة أصحاب شريعة الفرنجة وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شورى البلاد والاعيان عند الخديوى ووشوا فى حق الباشا وما زالوا بالخديوى حتى كادوا يستهوونه ويغرّرون به فعلم بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الخديوى وأعلمه بحكاية الجزائرلى وما جرى لصاحب الدار المتداعية وماحكم به قاضى قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ المهدى وأعظم مقارعة المحازبين له من الاعيان وشورى البلاد وأرسل فى طلب الشيخ وكلمه فى ذلك طويلا ورسم الى بطرس باشا بعمل ما فيه المصلحة تسكينا لتلك القلاقل فأشار على الشيخ بتكذيب كل قال وقيل فى هذا الصدد فلم ير مناصا من الاذعان وكتب من يومه الى الجريدة الرسمية وبعض الاخبار المحلية يعلمهم بأنه لم يحصل شئ مما ذاع خبره البتة وأن جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفتريها عليهم المفترون وأن لا أصل لما أرجف به المرجفون العاملون على ايقاظ الفتنة فاختلف الناس وشذ حتى كادوا يفتتنون وداخل الخديوى ما داخله من بغض الشيخ المهدى حتى رسم بخلعه من منصبى الافتاء ومشيخة الجامع الازهر فخلع وولى مكانه فى مشيخة الجامع شمس الدين الشيخ محمد الانبابى وفى منصب الافتاء الشيخ محمد البناء الاسكندرى واتفق فى هذه الاثناء أن مرض الوزير نوبار باشا واحتجب عن الناس أياما فعاد الارجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة

(مطلب) وقوع القتال بسواكن مع عثمان دقنه

وبينما كانت الاحزاب فى قيل وقال وأماقٍ وآمال اذ وردت الاخبار من سواكن بوقوع القتال بين أصحاب عثمان دقنه والقبائل المصافية للحكومة والمرابطين من العسكر المصرى وبأن العدو أبلى فى قتال المرابطين بلاء حسنا ٭ وتحرير الخبر أنه لما كثرت مناوشات العدو للقبائل المصافية وكثر تعديهم على ضواحى البلد رسم كتشنر باشا العامل يومئذ على سواكن الى نفر من الجند والمولدين المرتزقة والى أولئك المصافين بقتال العدو واجلائه عن ضواحى البلد فخرجت طائفة من قبيلة الرمادر وجماعة من الباشيبوزق والمرتزقة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حامية كسلة وغيرها فى منتصف الليل يتقدمهم كتشنر وبعض كبار العسكر من الانجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين وساروا بجوار الخط الموصل الى هندوب وما زالوا فى طريقهم حتى اذا كان ما بعد زوال اليوم الثانى وصاروا على مقربة من هندوب بانت لهم طلائع العدو فهجم عليهم جماعة الباشيبوزق والعبيد وهزموهم أو كادوا فلم تكن الا لحظة حتى أحدق العدو بكتشنر وجنوده من كل صوب ودرب فثبتت الجنود فى مواقفها واشتدت فى رمى القنابل ورصاص

البنادق

البنادق على العدو وأصلته نارا حامية فقابلهم العدو بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على مبنة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها المبنة سحقا وأصابت كتشنر رصاصة فى فكه الاعن وأصابته كذلك جراحة عظيمة فتفرقت عساكره شذر مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدو أثر من بقى من العساكر يصليهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم فى أسوإ حال واشتدت علة كتشنر وعظمت جراحته فانحدر من سواكن الى السويس وجاء القاهرة فاهتم السيربارنج لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الاخبار ينقلون للناس أخبار صحته وما يطرأ عليه فى كل ساعة من ليله ونهاره كعظماء الملوك أو أقيال القوم اذا مسهم مرض وما زالوا حتى برأ وعوفى وزال عنه البأس

وكما كانت أحوال سواكن الى هذا الحين فى قلق واضطراب بسبب هجمات العدو المتتابعة فقد كانت أحوال مصوع أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشى الامراض الخبيثة بين الجنود الايطالية وفعلها فيهم وفى خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى سئمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدو الرابض كالاسد وكان قائد الجنود الايطالية يتقرب زلفى من القاضى ابراهيم شيخ قبيلة الاسورتيين ويستميله بالرشا والبراطيل الى معاونة الايطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفر من قومه فكان هذا الشيخ كثير التقلب اذا قرب يوما ابتعد أياما واذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشئ الكثير من المال حتى أعيت الحيلة زعيم السياسة الايطالية وهمّ باجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلى عما بأيديهم الى ذلك العدو الذى أشبعهم ضربا وطعنا قد طأطأت لشدتهما الرؤس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل فى كل قليل رسله الى الحماسين يستحثهم على اليقظة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم الى اجلاء العدو عن أرضهم فكان دعاته يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد فى حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الايطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشى الحميات الخبيثة بينهم

والى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الانجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم فى الخلاف الذى يقع بين الدول فى ذلك وفى حق سيادة الباب العالى وملكيته لسائر الاراضى التى يشقها الخليج من أدناها الى أقصاها فلما اشتدت الامراض بالعساكر الايطالية المرابطين بمصوع وفتكت بهم ذلك الفتك الشديد كلم زعيم سياستهم وزير السياسة الانجليزية فى أن يأذن لهم بالنزول فى قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم ابان القيظ فرارا من هذا العدو الذى قد ضم عداءه الى عداء الحبشان فكادوا لا يبقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الانجليز الى ما طلب فهب حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس من رقادهم وتبعهم أصحاب

العصف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوأ عاقبة هذا الامر وأكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة الا ورود الخبر بهجوم عثمان دقنه ولومه على حصون سواكن مرة ثانية فانه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع فى مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحى البلد ولا يقف عند حد من تخطف القادمين اليها أو الخارجين منها ورمى حصونها بالقنابل رميا متتابعا ليل نهار حتى فرغ صبر المرابطين وأعياهم الدفاع من خلف الاسوار فتقدمت عند ذلك سفينتان من سفن الحرب الانجليزية وجعلت ترمى قنابل مدافعها على العدو كلما اقترب من البلد وظلت على هذه الحال أياما فلما كان بعض الايام رأى الكولونيل تاب مقدم العساكر المصرية أن العدو قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هدسون وهى لا تبعد عن سور البلد الا بقدر فرسخ وأن قد جاءه المدد من المشاة والركبان من هندوب بخلاف تاب العاقبة ونادى فى العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعا بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الانجليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعا لاجلاء العدو عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى تقهقرت العساكر ورجعوا الى الوراء على أعقابهم فتبعهم العدو وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير ممن معه وما زالت نيران العدو تتساقط تساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقى من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقنه بما ظفروا به من الغنائم والاسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة الى الخديوى والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كتشنر باشا قد عوفى فكر راجعا الى سواكن قبل وأوصاه الخديوى بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كى لا يحركوا ساكنا من العدو وجاءت كتب زعيم مجلس الانجليز بالتخلى عن سواكن أيضا وتركها الى العدو فكبر أمر ذلك على الخديوى وأقلقه جدا ووردت أيضا كتب كتشنر الى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا الى سواكن أخبروا بأن عثمان دقنه أرسل الى الخليفة عبد الله التعايشى فى طلب النجدة على قتال المرابطين فى سواكن فاذا جاءته النجدة هاجم البلد بخيله ورجله ولم يتخل عنها حتى يفتضها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كتشنر يومئذ واهتم كثيرا باستطلاع أخبار العدو ومراقبة حركاته ورسم الى جميع العساكر بملازمة الحصون والسهر على حراستها وأرسل دعاته الى مشايخ قبيلة الرمادر يستفزهم الى الوقوف فى طريق عثمان دقنه ومنعه من التقدم الى البلد فبل فأجابوه الى ذلك وسيروا رسلهم الى دقنه يقولون له لا تبارح هندوب والا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جموعك فلم يلتفت دقنه الى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسل السيف يحكم بيننا فارحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا * واتفق أن جماعة من عساكر السفن الانكليزية الراسية أمام البلد نزلوا الى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد

قليلا فخرج عليهم نفر من أصحاب دقنه وأعملوا فيهم الطعن بالحراب والضرب بالسيوف فرأى المرابطون بالقلعة ماحل بالانجليز فأطلقوا على العدو مدافعهم فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفا وهاجموا القلعة هجوم الاسود الضوارى حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قنابل مدافعها ولم يرجعوا عنها الا بعد قتال عنيف للغاية * وخاف من فى البلد فكادوا يتركونها وينزلون الى السفن ولم تطمئن قلوبهم الا بعد رجوع العدو عن القلعة وكف المرابطين عن اطلاق المدافع وأصبحوا وقد رأى كتشنر أنه لا يمكن الذب عن البلد ورد العدو عنها الا اذا أنشؤا قلعة أخرى فأنشؤها وأتموها على أحسن ما يكون وسلحوها بالمدافع الكبيرة وعبوها بالاسلحة وآلات الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المرابطون فكانوا يدفعون العدو عن البلد كل قليل من الايام وهو لا ينكف عنهم فلما أعياه الحال وعجز عن مناجزة من فى هذه القلعة عاد على أعقابه الى هندوب فكبر أمر رجوعهم على عثمان دقنه وأعظمه وأرسل الكتب الى الخليفة عبد الله التعايشى فى طلب المدد ويبشره بقرب الفتح والخليفة يمنيه ويرد عليه الرد الجميل ولم يمده بشئ

وصـــــل

(فى ارتياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسة على طول أيامها لم تصف الى الوزير نوبار باشا من أكدار الوشاية وأوضار السعاية اذ كان له مع الخديوى من أمرها فى كل يوم شأن ومع السير بارنج فى كل لحظة أخذ ورد بشأن أعمال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفى نظام بعض الدواوين وفى غير ذلك مما يتعلق بشؤن البلاد الداخلية وقد كبرت فى هذه الايام شدته وعظم الحاحه فى طلب تنفيذ الكثير من الاحداثات المخالفة للمألوف عند أهل البلاد وابتداع البدع التى لا يقوى الوزير على عملها خوفا من صيحة الاحزاب وتألبهم عليه فكان اذا دافعه وحاجه وكادت حجته تغلب حجته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد عليه كل عمل وتدبير واذا سايره وعمل بعض الذى يريده كارها قامت صيحة الاحزاب وأخذت الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة فى بيت مصطفى رياض باشا وأخرى فى مقر الغازى مختار باشا فاذا علت أصواتهم وسمع الناس صيحاتهم ورأوا كثرة اجتماعهم أقبل السير بارنج على الخديوى وتبرأ من تبعة كل عمل وشجعه على الاخذ بأطراف الحزامة وحبب اليه الاستبداد بشؤن مملكته فداخل الخديوى من هذا الحين ما داخله وصار لا يأذن بانعقاد مجلس الوزراء الا تحت رئاسته ولا يبرم فى شؤن البلاد أمر الا برأيه ولا يعمل عمل الا بمشورته حتى كاد يستبد بالامر ولا يترك لاحد من رجال



دولته عملا وتعذر على الوزير حينئذ أن يوفى الرئاسة حقها أو أن يأتى عملا الا ويكون من ورائه الغد والكمد فكثر توجعه وعظمت شكواه الى بعض قناصل الدول وضعفت عزيمته عن العمل وضاعت تدابيره فخاب منه الرجاء والامل وظهرت علامات الوحشة بينه وبين الخديوى وكادت تستفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكيل نظارة الخارجية يومئذ الى زعيم سياسة الانجليز يشكو اليه علة الوزير وما يلاقيه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لا بد وأن تودى بنظام الحكومة وترجع بالاحوال الى أسوأ مما كانت عليه ولبث تكران باشا فى عاصمة الانجليز أياما ثم قفل راجعا الى القاهرة وشاع الخبر بعد رجوعه بوصول كتب صاحب السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالاقلاع عن كل عداء وعدم مساس كرامة الوزير بشئ ولا مراجعته فى شئ من أعمال منصبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الاحزاب ولا ليوقف الارجاف عند حد بل زاد النفور وربك الامور ومال بالخديوى الى التفرد بالعمل والبحث فى الصغيرة والكبيرة من أمور الحكومة وقد أحس مصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ الى عمل المآدب للكبراء والامراء وأصحاب الوظائف وبالغ فى التودد الى الناس والاقلاع عن التعصب فكثر تردد المديرين وأعيان البلاد على بيته تزلفا فلما كان شهر رمضان من السنة أى سنة خمس وثلثمائة وألف هجرية جاء من مزرعته بجهة روح الى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فقويت حينئذ ظهور المحاز بين له وظهرت جلبتهم وكثرت اجتماعاتهم وفى تاسع عشرى الشهر أرسل الخديوى الى الوزير نوبار باشا كتابا يقول فيه

انه بناء على ماوقع فى جلسة المجلس بالامس وما هو الا تكرار ماحدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك فلهذا قد أقلتك منه وعهدت رئاسته وتشكيل هيئة جديدة الى صاحب الدولة رياض باشا اه

ثم أرسل الى مصطفى رياض باشا يستقدمه الى الاسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هناك فجاءها فى ظهر الثلاثين من رمضان واجتمع بالخديوى ولبث بحضرته ساعة ثم نزل وطاف يزور بيوت الكبراء والامراء وقناصل الدول وغيرهم من الاجانب أصحاب الحيثيات فزاره الجم الغفير منهم وازدحم على بابه الشعراء والمهنؤن وأصبحوا وقد خرج الناس من الامراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهنئة بالعيد وصعدوا الى مقر الخديوى برأس التين فهنؤه وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشريف ساعة التبريك عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معى هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنظر الى أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الامير وقال أوتظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للاسباب التى تضمنها مرسومه قلت لا أظن غير ذلك — فقال اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم ينل من الوزير مأربا عمد الى

الولاية

الموارية فكان اذا اجتمع بالخديوي ورأى منه انقباضا خفف عنه وقال يا مولاى ان البلاد اسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الاحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع نداؤهم * وكان اذا طرأ شئ من الخلاف بين الخديوي والوزير على أمر من الامور دخل على الخديوي وأظهر التأفف وبالغ فى الاشفاق — كل ذلك ليتمكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة أكرامة الوزير عند صاحب سياسة الانجليز وتقديره له حق قدره — قال — وما زال بالخديوي وهو يهوّن عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوي أن السلامة فيما يشير به السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آنس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرمى بذلك الى غايتين أولاهما التنكيل بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يدى مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية واعجاب السواد الاعظم بكياسته وحسن تدبيره حتى اذا ارتفعت أصوات الاحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب صحف الاخبار وقالوا فعل الانجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فما هى الا فعال زعيمكم ومقدام وطنكم فلا لوم على الانجليز ولا تثريب فتأمل — فقلت ياهداك الله هذه ظنون وأوهام ولله وحده علم ما فى مستقبل الايام فقال نعم ولكن الامر ظاهر للعيان والنتيجة لايختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوي ما برح ذاكرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولاءه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس الى البيت العلوى وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة الا بالله

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارتى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية وذو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية وحسين فخرى باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية * وجعل الوزير مصطفى رياض باشا يغدو ويروح على مقر الخديوي الى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء الى القاهرة وطير الخبر بتوليته الى الآفاق وكتب الى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخى والاهمال ثم لم تمض الا أيام حتى استقدمهم الى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتقريعا ثم حضا على الاستقامة والاخذ بأطراف الحزامة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك فى انحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الاجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشئ من التهم ويوجهون الى بعضهم اللائمة فكان ممن أكثر الكلام فى ذلك صاحب جريدة الغازيت الانجليزية وهى لسان حال الانجليز بمصر فلقد شط فى المقال وأغلظ

فى التعبير وكان اذا أمسك عن الكلام يوما أتته كتب الخصوم فى ذلك تترى فيرجع الى المهاترة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم باتت على شفا جرف الزوال وأن قولى صاحب الغازيت فى ذلك موحى به اليه من المراكز العالية ولكنه لم يمض على هذه الجلبة الا أيام حتى نهض أصحاب صحف الانجليز الكبرى يعيبون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف اليه والى مباديه وأعماله الشريفة ثم جعلوا يعترضون بدسائس الغازى أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالى ويقولون انه هو هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصاب بايقاظه الفتنة الراقدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوى عمله وأخذوا من هذا الحين يقلبون للغازى مختار باشا ظهر المجن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه بسوء العقبى والمصير ان لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا فى سيرهم وتطرق بعضهم الى القول بأن الرئيس انما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحقانية وزج سائر ذوى قرباه فى مصاف أصحاب الوظائف العالية وقال بعضهم غير ذلك ، وأخذ الرئيس يتصرف فى الامور قد يده الى أعمال سائر الدواوين و بسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واشتعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلمته فاختلط بومئذ الحابل بالنابل وقالوا أى قائل وهو لا ينكف عن ترديد نداء الوعد والوعيد الى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات الى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات اذ كثر عبثهم فى هذه الايام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وافساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قحة وجرأة على الافساد واراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعا فى مشرق البلاد ومغربها حتى فى القاهرة ومصر القديمة اذ سطوا على بيت حسنين فخرى باشا ناظر الحقانية وأخذوا منه شيأ من الحلى والاعلاق النفيسة وكذلك فعلوا ببيت نوبار باشا بعد رحيله الى الديار الاوروباوية وبيت الشيب جرانت بك الانجليزى وأزعجوا أهل القاهرة ومصر و بلغ خوف الناس منهم مبلغه فكان اذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود والرئيس مع هذا كله كان يقول — عسير على أن أرى فى أيام رئاستى غير ما هو سائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة

واجتمع به يوما مكاتب جريدة الستاندرد الانجليزية فحادثه فى أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عيث اللصوص فى مشرق البلاد ومغربها وفى التهم الفاحشة الموجهة الى أصحاب بعض الوظائف الدوائية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التى يتولاها مجلس الاشغال العمومية فى عاصمة الانجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس ان مثل هذه اللجان فى بلادكم لاتتناول الا أبناء جنسكم فقط على حين أنها اذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية

موانع شديدة اذ تقوم الاحزاب وبندفع كل منهم على الآخر ويرمى غيره بالتهم والوشاية وهنالك تكون الطامة الكبرى ـ الى أن قال وحقيقة الامر أن الاحوال فى السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا » قد بلغت حدا من الخلل والارتباك لم أكن إخالها تبلغ اليه عند مااستلمت زمام الرئاسة فى هذه المرة والذى أراه أنه ليس فى الامكان الآن فحص جميع الاعمال المخلة التى عملها بعض موظفى الحكومة لا سيما وانهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين ممن كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعاقبتهم ـ قال وأؤكد لك أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بى أحيانا الى القنوط اذ أجد نفسى تجاه أمور ثقيلة تقضى علىّ بالعناء الكثير والذى يدهشنى ويوجب مزيد استغرابى هو عدم تداخل الدولة الانجليزية فى ذلك الامر واغماضها الطرف عن الاعمال السابقة « يعنى أعمال الوزير نوبار باشا » ـ قال وانى لا أقصد محو المغايرات القديمة والاغضاء عنها ولكنى سأجهد النفس فى نسيان الماضى لا سيما وأن المستقبل معقودة نواصيه بنزاهة الاعمال الحاضرة اه ۞ قلت ومحصل بعض هذه التهم التى أشار اليها ذلك المكاتب الانجليزى أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الانجليزية وتحقق الناس خروج الاقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم الى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون فى السودان يطالبون بمال لهم فى ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا الى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تثبت أن فى ذمته لاصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتزاحمت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم فى كل يوم يلحون فى طلب مالهم فاهتمت الخزينة يومئذ بالامر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هيئة ممن أشار بهم جماعة الانجليز فتقرب أصحابها حينئذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالى قبل ومنوهما ووعدوهما بالوعود الكثيرة ففصلا فى الامر وقاسا وألبسا كلا من أصحاب تلك الصكوك ما لاق فهمت الخزينة بالوفاء وهى فى إمحال وعسر فلم تتمكن فانبث أصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الاموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب أصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزور فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها وخابت مساعى كل من كان فى قلبه مرض بعد قيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ماتقدم وتناقله الناس أخذت الرئيس ألسنة الاحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاخره وقالوا عسير عليه أن يدرأ عن نفسه وصمة هذا التزلف وعار التقرب من الانجليز وهو رجل الوطن ووحيده وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته فى هذه المرة حسابا كبيرا

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث فى الفيوم ـ وذلك أن أحد أصحاب



الجنايات بها واسمه مصطفى بيك واصف قتل فى احدى ليالى شهر رمضان فى بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة بوقتئذ بالامر ورسم الوزير نوبار باشا الى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث واظهار الجانى فلم يفلحوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة وآنس من الناس قلقا واضطرابا لفقدان الامن وعبث اللصوص فى سائر البلاد عمد الى اظهار شئ من الشدة فى تحقيق مقتل مصطفى بيك هذا ورسم به الى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بيك رئيس محكمة المنصورة وأحمد خيرى بيك قاضى تحقيق جنايات محكمة مصر ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا الى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بيك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجوهم فى الحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا الا الى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب النرد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعد ذلك أن خليلا وأخاه خير الله هما القاتلان — قالوا وتحرير الخبر أن مصطفى بيك هذا جاء فى احدى ليالى شهر رمضان من مزرعته الى بيت الدهشان لزيارة لمودة وصحبة بينهما فبعد الافطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه النرد « الطاولة » فأجابه الى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فبينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى اياه ومد يده وأخذه فقلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله الى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك الا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال « أهى خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحبتكم » فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه ما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بازهاق روحه — قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته — قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتم جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بيك الى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى — قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالامر ورسم الى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية بتشكيل محكمة مخصوصة للحكم فى مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا الى الخديوى فأجابهم اليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم عبد الحميد باشا وأحمد بليغ بيك وابراهيم نجيب بيك ومحمد كامل بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا وسليمان رؤف بيك وأحمد حشمت بيك لاداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الاهلية بالاقاليم البحرية لانه الى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالاقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل الطعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم افتتاح

سنة ست وثلثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندى الحسينى وخليل افندى ابراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة باعدام خليل وأخيه شنقا وصادق قاضى قضاة مصر والخديوى على ذلك وأعطى للمحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكي يدبرا أمر عيالهما وعلاقاتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه باهربيت احدى قرى الفيوم فلما وضعوا حبل المشنقة فى عنق خليل وأزاحوا الكرسى الذى كان تحت أقدامه انقطع الحبل وسقط خليل مغمى عليه فأجلسوه على كرسى وذهب الجلاد يشترى حبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال ائتونى بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت الى الجمع وقال أشهدكم بأنى مظلوم مظلوم وبعلم الله ــ القصاص قريب ــ ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حركتهم وعاد الجلاد بالحبل ووضعه فى عنق خليل وشده فبقى معلقا وفاضت روحه فى الحال وشاع خبر هذا الحادث فانقبضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس فى ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وما كم البعض الآخر ممن كان لهم يد فى التحقيق الاول ۞ حدثنى وجيه من وجهاء الفيوم قال أيقن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بيك واصف ــ قلت لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد فى ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بيك منذ حين وأعرف وادى الدهشان من قبل فأحدهما وهو خليل صعب المراس قوى الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بيك صحبة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الاخلاص وكان أعرابى اسمه منصور مستأجرا لشئ من أطيان خليل الدهشان باحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هى كذلك به فكان خليل يزورها فى خدرها كل قليل من الايام وتزوره فى بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة حليلها وغيرته لاتخشاه ولا تنكف عن الاتيان الى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى نذد بعضهم يوما بزوج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من خليل وجعل يراقب الفرص وخليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل الى المهالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بيك فى احدى ليالى شهر رمضان لزيارة خليل فى داره باهربيت والافطار عنده فى تلك الليلة ففرح خليل بحضوره وبعد الافطار جلسا على مسطبة بصحن الدار يتحدثان ساعة ثم قال مصطفى بيك لخليل أوليس عندك طاولة للعب فقال عندى قال هاتها لنلعب معا قتلا للوقت فنادى خليل على أحد أتباعه أن ائتنا بالطاولة من بيت النساء فدخل الخادم وأبطأ كثيرا فقال مصطفى بيك أين الطاولة

باقوم ما هـذا الابطاء فخجل خليـل من ابطاء الخادم وأسرع الى بيت النساء فلاقاه الخادم عنـد الباب وقال له سـيدى فلان « يريد به ابن أخى خليل المتوفى » منعنى من أخـذ الطاولة ويقول ان أخته ماتت منذ خمسة أيام فكيف يليق لعب الطاولة وقد لطمنى على وجهى فلما سمع خليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحال فأسرع الى الطاولة وأخذ حجرا من أحجارها ليمنع من الاستفادة منها فمال عليه خليل وأشبعه ضربا ولكما وأخـذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتـذر الى مصطفى بيك ومصطفى بيك يضحك فجلس خليـل وفتح الطاولة يريد رص أحجارها فوجد حجرا فاقدا فنادى على الخادم أن أحضر لنا قـرشا نحاسا نضعه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم ــ وعلم منصور العربى فى تلك الساعة بخبر جلوس خليـل وضيفه فى صحن الدار فأتى مسرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سـور صحن الدار والسـور لا يتجاوز ثلاثة أذرع ارتفاعا وصـوب بارودته نحو رأس خليل وكان فى هاته اللحظة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فأخذه وانحنى قليلا وجعـل يرص الحجارة ثم رفع رأسه قليلا ثم طأطأها فأطلق الاعرابى بارودته فخرجت رصاصتها عنـد انحناء خليل واحتكت برأسه من خلف الى الامام وأصابت كتف مصـطفى بيك ثم استقرت بقلبه ففاضت روحه لساعتـه واختفى الاعرابى فلم يعلم به أحد فقامت ضجة فى بيت خليل وامتلأ صحن الدار بالعدد العـديد من أهل البلد وطيروا الخبر بما حصل الى المدير والى أهل الفقيد فوردت يومئذ كتب الوزير نوبار باشا مشددة بالقبض على القاتل وجاء بعض مأمورى الحكومة لتحقيق الحادث وبثوا العيون فدلت التحقيقات على أن الطلق النارى كان على بعد بضعة أمتار وأن مقذوف البارودة شظية من الرصاص لا رصاصة من رصاص المسـدسات واستخرج تلك الشظية جماعة من الاطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد فى أن القاتل هو غير الدهشان ــ قال ــ ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصـل العثور عليه الى ذلك الحين » واتفق أن عزل الوزير نوبار باشا من منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهذا الحادث اهتماما عظيما لسعاية بعض الخصوم وتقرب أصهار مصـطفى بيك من مجلس الرئيس فوردت كتبه على مدير الفيوم بالتشـديد فى طلب القاتل والتحـذير من عاقبـة التوانى ثم لم تكن الا أيام حتى أرسل أحمد حشمت بيك أحد رؤساء المحاكم الاهليـة ومعه جماعـة من المأمورين فما لبثوا أن قبضوا على خليـل وأخيه خـير الله وزجوهما فى الحبس مع نفر من أهـل البلد وعملوا ما لا خير فيه اذ نبشوا جثة المقتول وأخرجوها من قبرها وكبسوا بعض الدور وفتشوها ونقلوا شيأ مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة فى الليل والنهار واشـتدوا عليهم فى الاخذ والرد شدة بالغة وقالوا ان الجراحة التى شوهدت فى رأس خليل ليست الا كيا بمسمار محمى فى النار يراد به درء فعـل القتـل عنه ــ قال ــ وقد كان السواد الاعظم من أهل الفيوم يعلم بأن الحقيقة غابت عن أولئك المأمورين أوهـم أخفوها لغرض فى النفس فأخذتهـم الطيرة وكانوا اذا تكلم

بعضهم

بعضهم مع بعض فى شئ من ذلك تكلموا همسا خوفا من العيون وكثر غدو ورواح حشمت بيك الى القاهرة فكان كلما ذهب وعاد قلب الاعمال بطنا الى ظهر وبالغ فى الحيطة والتشديد على المسجونين ثم جاء جماعة من القضاة للحكم على خليل وأخيه فى محكمة مخصوصة أو هى محكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قام فيهما حشمت بيك مدعيا فبالغ فى القول وشط فى الطلب وعاب على بعض مأمورى التحقيق عملهم وارتاب فى ذممهم ولم يترك جارحة الا وطعن بها جسم خليل وأخيه خير الله ثم أخذ بعد كلام طويل ينادى القصاص القصاص احكموا لنا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلى ذلك البرىء احكموا فكان السامعون يدمدمون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيه وتكلموا واحتجوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم ما يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واستلفتوا أصحاب الحكم الى صوت الحق الصارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ ورد تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغلاله وقال بصوت استلفت اليه الانظار يا سادتى قد اتهمنى وأخى خير الله حضرة هذا المدعى الذى لم يراع الذمة ولم ينصر الحق واشتد علىّ وعلى أخى شدة الله يحكم فيها بعدله وزعم أن الجراحة التى أصابت رأسى من الطلق النارى الذى أصاب قلب فقيدنا مصطفى بيك انما هى جراحة أحدثها لى أحد الحلاقين اخفاء لحقيقة جريمتى وقد سمعتم من دفاع المدافعين عنى ما أسأل الله أن يوفقكم به الى الصواب فلم يبق الا أن أسألكم أمرا هو — ان وفقتم الى الحكم علىّ وعلى أخى بالقتل ولا أظنكم الا فاعلين فأستحلفكم بمن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تبدؤا بى وتستبقوا أخى خير الله أياما حتى تفحص الاطباء جراحتى بعد الموت فان كانت اصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخى ليعول صبيتى وأهلى ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقابا من عقابين وان كانت جراحتى كما يقول صاحبكم فأنتم فى حل من دمى ودم أخى والله على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناه الدمع فانتحب وبكى الناس لبكائه وكادوا ينحبون ويرفعون أصواتهم ۞ قال الراوى فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالاعدام شنقا فانذعر الناس وخرجوا وكأن على رؤسهم الطير — قال — واتفق أن عاد السير بارنج قنصل جنرال الانجليز الى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعلمت به عجوز هى أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبى لخليل لم يناهز الخامسة وانحدرت الى القاهرة واتصلت بباب السير بارنج واستجارت فأدخلها اليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك ياسيدى لا لتخلص ولدىّ من الموت بل ليبدؤا بقتل خليل وفحص جراحته فان كانت كما يقول فأبقوا لى خير الله يعولنى ويعول صبيته وصبية أخيه وان كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه فهم فى حل مما يفعلون — قال

وبكت العجوز بكاء مرا وترامى الصبي على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرها ووعدها خيرا — قال — وكأن السير بارنج أرسل الى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بيك الى الفيوم يحمل الامر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه ولم يكن قد مضى الاجل المضروب لذلك قانونا فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباق اه ۞ قلت وكأن الرئيس كان يظن أن فى قتل ولدى الدهشان عبرة وارهابا لاهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملؤا البلاد شرقا وغربا ينهبون ويقتلون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرمى فانه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قحتهم وعظمت جرأتهم وانبثوا فى سائر أنحاء الاقليمين فكانت الاخبار تأتى الى الرئيس تباعا بوقوع النهب والقتل واتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقا واضطرابا ورود الخبر بظهور الوباء فى مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماما كبيرا ورسم الخديوى بناء على ماقرره مجلس الكورنتينات بارسال قوة كبيرة من العساكر والاجناد الى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحى ما بينها وبين طور سينا وعيون موسى وتشديد مراقبة الحجر على الحجاج فى الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخزينة فى بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الاجنبية كافة فضربت الحجر على سائر مايرد الى موانيها من الموانى المصرية وسواحل البحر الاحمر وأرسل بعضهم الى السويس رسلا ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحة عند عودتهم الى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الاخبار وورودها مقتضبة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضا فى راوندوز من بلاد الموصل وفى جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهو آت اليها من الهند الانجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفى ديوان الصحة ليروا رأيهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدو الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة فى الازقة والحارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الحوارى يستحثون العامة الى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الاخبار تأتى فى كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها فى اليوم نيفا وألفا فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيطة رجال الحكومة ورسم الخديوى بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس الى دبه ومنها الى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الفارين من الحجر والاخبار ترد فى كل يوم باشتداد الوباء فى مكة وفى المدينة ودخوله الى جدة وفتكه بالحجاج فتكا ذريعا ثم كثر توارد الحجاج على ظهور السفن الى الطور وعيون موسى فأنزلوهم هنالك محجورا عليهم وبقى الحال هكذا أياما وجاء الخبر يوما الى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخولهم المدينة ثم فرارهم منها ليلا الى القاهرة واختفائهم فى بولاق مصر فطير الخبر بذلك الى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة

فى طلب الفارّين فعاثوا فى بولاق مصر ونبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل
واتفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القىء والذرب فأخبر شيخ
حارته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب الى منزل المريض ليبحث عن علته وسبب مرضه
فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فنعهم من ذلك وأرسل
فى طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبر الى محافظ البلد بأن
الرجل مات بالهيضة الوبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالغ فى ذلك فقام عليه
حينئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكما ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم
تكن الا لحظة حتى أتى رجال الشرطة ونفر من رجال الصحة ومعهم عربات نقل الموتى
وتطهير متاع المصابين بالامراض المعدية وشئ من العقاقير ومواد التطهير ودقوا باب بيت
الميت فلم يفتحوا لهم فظلوا على هذه الحال ساعة اجتمع فيها العامة وزعر بولاق بعصيهم
وهراويهم واشتدت جلبتهم وصياحهم فى وجه أصحاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل
النساء وصراخهن من شبابيك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطحة البيوت وكثر
الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة فى نفر من الجند والاتباع وما زال بأهل الميت حتى
فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وحملوا الجثة عنوة ووضعوها فى عربة
الموتى فسارت بها على عجل الى مستشفى القصر العينى والناس محتشدون حولها وهم فى ضجة
وصياح فكان المشهد مريعا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء
أظفاره فى جوف بولاق القاهرة بدخول الفارّين من الحجر الصحى اليها واستصرخت أصحاب
الصحف على اختلافها رجال الصحة واستنهضت أصحاب الشرطة الى الاخذ بأطراف الحزم
والثبات وسألت أصحاب الحل والعقد أن لا يضلوا ولا يقتروا فى النفقة حتى يدفع الله عن
البلد شر هذا العدو القاهر وأكثر الاطباء من نشر الارشادات الطبية والنصائح الصحية
لعل الناس يعوّلون عليها ويعملون بها * فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث
ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهيضة الوبائية وأن مرضه انما هو من الامراض
العادية التى تحصل عادة فى فصل الصيف من كل سنة وأن الرجال الفارين من محجر الطور
ليسوا من الحجاج وانما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج المحمل من القاهرة ثم تخلفوا
بالسويس لضيق ذات اليد ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الحجاج فينزلون معهم الى القاهرة
كأنهم حجوا وطافوا وعموا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت فى ذلك الجريدة الرسمية
وأقامت عليه الدليل فاطمأن الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد
بمراقبة السواحل والتشديد فى النطاق الصحى بمجرى عيون موسى وطور سينا

وبينما كان دعاة الصحة يطوفون المدن والبلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا
يحضون الناس على تنظيف دورهم واصلاح حالة طعامهم والعناية بماء شربهم والامتناع
عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء القتال الى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون

كان جباة الخراج يطوفون كذلك البلاد زمرا يجبون الاموال فى غير آجالها ويشددون على الناس فى ذلك تشديدا بالغا وكان بعض المديرين يبذلون من الهمة فى ذلك والعناية به ما أعجب الرئيس مصطفى رياض باشا وأرضاه اذ كان يخشى عاقبة امحال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة — قيل وهو فى كل يوم يقول لجماعة الانجليز إن أيام رئاستى خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجباة والتشديد عليهم فى جمع الاموال وعدم الوقوف فى التحصيل عند حد فطافوا وعاثوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا الى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى الى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدى الجباة الى حين فلم يلتفت الرئيس الى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شئ منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف الى الاقاليم يستحثون الجباة على التعجيل وعدم الابطاء فضاق خناق الناس وتولاهم القنوط وانحدر منهم جماعة كثيرة الى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دوس أوغلى فلم تمكنهم الحجاب من ذلك أياما

واتفق فى هذه الاثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الانجليز « وقد كان مديرا لحسابات الخزينة » بدلا من بلوم باشا الذى تولاها فى عهد الخديوى اسمعيل وبقى شاغلا لها حتى أقصاه الانجليز عنها فى هذه الايام صاغرا لاسباب لامحل لايرادها هنا فتزاحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الامر واهتم له اهتماما عظيما لانه أعلم الانجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بجباية الاموال وميله الى قهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره الى الاقليمين القبلى والبحرى وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد الى القاهرة فسير الى المديرين والمأمورين فى منع الجباية الا فى آجالها المقررة وكف الجباة عن المطالبة بالبقايا والمتأخرات الى ميسرة وشدد عليهم فى ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبه وهمّ برد كل شئ الى ما كان عليه وأرسل فى طلب سائر المديرين ووكلاء المديريات فحضروا فخلا بهم فى ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم الى مراكزهم فلم تكن الا أيام حتى ظهر لمنلر وجماعة الانجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج معجلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شئ من تلك العرائض فاهتم منلر بالامر كثيرا وطال الاخذ والرد بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه الى المديرين ثانية بالكف عن الجباية والاقلاع عن كل إكراه والا ساءت العاقبة وعظم الحساب وبدت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه

واهتم

واهتم منلر بايقاف الرئيس عند حده وبالغ فى السعى وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا وحمدوا منلر وشكروه فتكلم فى ذلك بعض أصحاب صحف الاخبار وعابوا على الرئيس فعاله وقالوا ما ضره لو أقلع عن هواه وقلل من حدته ولم يمكن منلر من الغلبة عليه وتنفير قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فرد عليهم بعض أصحاب الصحف المحازبة للرئيس ردا كله مما حكة ومهاترة ووقعوا على المستر منلر بالملائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريعا ۞ وتلاقيت يوما مع أحد المقربين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أتعاب صاحبكم فى التعجيل بجباية الخراج قبل أوانه وفى تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هدرا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابه فان ذلك كما تعلم أدعى الى الصغار وأدنى الى مهواة البوار وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيطة والقدرة على تلافى مثل هذه الغلطة المزرية المعيبة خصوصا فى هذه الايام التى قويت فيها شوكة الاجنبي واتسعت سلطته فسبحان الله ـ فتبسم الرجل عند ذلك وقال ـ وأى حيطة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة ولجانها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بمعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وادارة من الصغير الى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والاكثار منها وقلب النظامات وغير ذلك من دوام التفكير فى أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره ـ قلت انى لا أراك مصيبا فى ذلك لان ما لا يقدر على عمله بنفسه وقلمه وهو على كرسى ادارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو فى مسند وكالة الداخلية ـ قال وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الاعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله فى بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالحلمية نهارا وليلا وهو لا يجد مع ذلك ساعة يقضيها فى حوائج نفسه لانه يأتى نظارة الداخلية فى صباح كل يوم فيجد على مكتبته الشئ الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفض ختامها ويقرؤها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقى الى أصحاب الوظائف الديوانية كل هذا وهو يقابل الكتاب والحجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الاولى بعد الظهر فيذهب الى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهارة فى الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيستريح قليلا ويقوم بعد ذلك الى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والاخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم المرتزقة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه فى سماع ظلاماتهم وربما حن لشكوى بعضهم وتوجع لبلواهم حتى الغروب فيأخذ فى قراءة الصحف بتأمل وامعان فيذم الذامة منها ويضرب بها عرض الحائط ويقبل على المادحة ثم يقوم الى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه

ما اتصل به من أخبار نقلة الاخبار والجواسيس ثم ما قرأه في الصحف من مدح وقدح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر باقصاء زيد عن خدمة الحكومة وبادخال عمرو فيها وبرد بكر الى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء الى أن ينتهى من الطعام فيرجع الى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حينئذ المدلسون والملفقون والمداهنون والواشون والآكلون لحوم اخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا في مجلس الرئيس استأذن له وأدخله والا أخذ يسمع له شكواه ويتأوه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه ويذهب الى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو بعض اصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لى بعيشك أين الساعة التى يتمكن فيها من تطهر تلك الظلامات وهذه الحال حاله بين ليله ونهاره فقلت ان لله فى خلقه شؤنا

(مطلب) عدم بلوغ النيل حده المألوف من الزيادة

ولم تكد تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحجاج الى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء اليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده فى كل عام وعدم بلوغه حده المألوف الذى ترتاح اليه الخواطر فكان قلق أهل الاقليم القبلى والحوف الشرقى عظيما اذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفول والشعير والعدس والحلبة وقل علف دوابهم فانحدروا بها الى الاقاليم الوسطى والاقليم البحرى طلبا للكلا والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الانجليز بالامر تقربا من أهل البلاد وزلفى وسار محمد زكى باشا ناظر الاشغال الى الاقليم القبلى لينظر فى تدارك الخطر قبل استفحاله وسار معه الماجور روس مدير رى الاقليم القبلى وهو من كبار مهندسى الانجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة عالى الفكر مهندس حاسب مقدام لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الرى قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالامر وعمل من خوارق الاعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزح منهم الى بلده وجاء زمن الرى فلم يتعذر سوى رى الجزر المرتفعة والحوف الشرقى وقليل من الاحواض العالية ببلاد اسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضرر لا سيما أهل الحوف الشرقى منهم فمات بعضهم وأنشبت الامراض الخبيثة أظفارها فيمن بقى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمر رى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن ما يكون من الاشكال الهندسية وعمل من خوارق الاعمال شيأ كثيرا ولم تبخل الخزينة بالمال وأكثرت من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهى باقية الى ماشاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع

(مطلب) مجيء ولى عهد السلطنة الانجليزية الى مصر

وجاء الخبر فى هذه الايام الى ديوان الخديوى بقيام الامير دى غال ولى عهد السلطنة الانجليزية على ظهر احدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمكث فيها أياما معدودة فرسم الخديوى الى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وانجليز لذلك وقعدوا وبالغوا فى الاستعداد فلما كان يوم الاربعاء

سابع

سابع ربيع الاول من السنة أى سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه الامير حسين وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبد الرحمن رشدى باشا كبير التشريفات ومحمد زكى بك التشريفاتى الى الاسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال الامير فساروا الى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بور سعيد بقرب وصول الامير اليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم الى الثغر الاسكندرى وأنه أراد الذهاب الى القاهرة عن طريق الاسمعيلية فقاموا من ساعتهم الى الاسمعيلية على القطار الخديوى ومنها الى بور سعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الامير فى نفر من الحاشية والاتباع فقاموا فى ركابه الى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهيرة كوكبة من العساكر المصرية وأخرى من العساكر الانجليزية الى محطة السكة الحديد للقاء الامير وكذلك وفد اليها الوجهاء ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة الوزراء وكبار الدولة بزينتهم ووقفوا جميعا على أكمل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى يقل الامير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى بالتجلة والتكريم وأركبه على يمينه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة من الفرسان المصريين والانجليز وخلفها عربة أولاد الامير ومعهم الأمير حسين أخو الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة وما زالوا سائرين حتى وصلوا الى دار قنصلاتو الانجليز فنزل بها الامير وحاشيته وذهب الخديوى الى مقره بعابدين وأقام الامير فى تلك الدار لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه الى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لنزوله فزاره الخديوى فرد له الزيارة على الاثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الامير الى سراى عابدين بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث الى ما قبل نصف الليل بقليل ثم عاد الى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج الى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى ركابه السير بارنج وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الانجليزية والمصرية معا بميدان العباسية عند الجبل الاحمر فهرع الناس الى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب الشحنة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن الا ساعة حتى برز كل من الامير والخديوى الى الميدان فى ملابس زينته وتشريفه ممتطيين جوادين ووقفا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكريين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر والاجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير اشفاقا مما عساه أن يكون من وراء مجىء ذلك الامير الى هذه الديار * واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب الشريعة المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الامير العشاء مع الخديوى ركب عن يمينه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا الى ساحة المولد ونزلوا

بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظة لطيفة ثم انتقلوا الى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة كثر فيها لغط العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم الى أسمج المرامى ثم انصرفوا جميعا وباتوا وأصبحوا وقد ركب الخديوى فى موكبه وسار الى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء والامراء وكبار العسكريين يريدون وداع الامير حتى اذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل الامير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الحرس الخديوى فاستقبله الخديوى وبالغ فى وداعه فركب الامير مع حاشيته القطار الى الاسكندرية فلما وصلها نزل فى سفينته فأقلعت به الى بعض الثغور الايطالية

وما تحركت سفينته حتى تحركت معها أقلام أصحاب الصحف العربية المحازبة للسياسة الانجليزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبؤن بمستقبل الايام ويقولون قد قضى الامر ونفذ القضاء وأذن الله بضم الديار المصرية من أقصاها الى أقصاها الى ملحقات السلطنة الانجليزية فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لاهل البلاد سوى الاستسلام وخفض جناح الطاعة لأولى الامر من الانجليز وأن تقلع الاحزاب عن تلك الضوضاء وتنكف عن استصراخ الدول لتخلصهم من سيطرة الانجليز فقام حينئذ فى وجههم أصحاب الصحف الاخرى وكذبوهم فيما يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذمم وقالوا لهم انما أنتم فى اضرام نار هذه الفتنة مريدون السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط فى ذلك كثيرا حتى أرجف بعض أصحاب تلك الصحف بأن الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية على تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه و بين الامير دى غال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان

واشتدت عزيمة السير بارنج بعقدم الامير دى غال وأظهر ما كان يخفيه من الشدة والجبروت وكان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والادارات وقلب بعضها بطنا الى ظهر ومسخ نظام بعضها واشتد على قضاة المحاكم الاهلية فخلع بعضهم لغير علة ولا سبب ظاهر وهدد بعضهم بشئ من قارص الكلام فاختلط الحال على من بقى منهم وأصبحوا وهم فى ريب من استقلالهم وسلامة مراكزهم وبات حسين فخرى باشا ناظر دواوينهم مغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والامر للرئيس مصطفى رياض باشا وحده فكان اذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهمّ بعمل يرضى الله والناس قام فى وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفى النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال حينا حتى تحركت من جراء ذلك خواطر جماعة الانجليز القابضين على زمام بعض المصالح الديوانية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عسفه وخيلاءه وشكوه الى السير بارنج فعمد السير بارنج حينئذ الى ايقاف كل عند حده قيل وقد زاده اهتماما بهذا الامر ماعرفه من دخائل حادث مقتل خليل الدهشان وأخيه خير الله وما تحققه من أسباب التعجيل فى تنفيذ الحكم باعدامهما قبل الاجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيدا فكان اذا همّ الرئيس بأمر من الامور وقف فى وجهه ورده عنه ومنعه من هواه فيتركه أياما

ثم يرجع اليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعيان بغض بعضهما لبعض فتحقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوى أيضا عن مسايرته وعاب عليه الشئ الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلية الاحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج يسترضونه ويستميلونه وهو يكيد له كيدا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية الى جماعة الانجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسح لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الاهلين وهم لايملكون من أمرهم فى مناصبهم شيأ سوى جماكيهم وما يتبعها من الالقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم الى الخديوى فى طلب اقامة مستشارين من كبار الانجليز فى كل وزارة من وزارات الحكومة ليصولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحازبة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الانجليزية كصاحب التيمس وصاحب الدالى نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله ابعاد ووعيد وارهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الاغرار الذين زينت لهم أنفسهم الامارة اذهاب ما صنعته أيديك من الاصلاح فى أرض الفراعنة أدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه القصة الا أيام حتى تقدم السير بارنج الى الخديوى فى طلب اقامة رجل من الانجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحقانية ويختص بالاشراف على سائر أعمال المحاكم الاهلية والشرعية على السواء فلا يبرم أمر الا باشارته ولا يتم عمل الا برأيه — قال — كى لايبقى للرئيس مصطفى رياض باشا دخل فى شئ من هذه الشؤن وكى لا تزول بهجة ذلك النظام الذى أحدثته يد السلطة الانجليزية بعد ذلك العناء الكبير فبل فال الخديوى الى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لانه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهاه عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وايغار الصدور على غير مسوّغ فكتب صاحب جريدة الاهرام لمحة فى هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لفوارس التجارب» وهى من حسن السبك وخالص النصح بمكان عظيم قال فيها

سأل أحدهم حكيما من أجلّ الرجال فقال من قام بأجل الاعمال قال من هو وما هى قال من قاد أبدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال اذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت والى هذا المعنى أشار ارسطو الفيلسوف على الاسكندر حيث قال املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها واعلم انك انما تملك الابدان فاجمع لها القلوب لان الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول



تسلم من أن تفعل - نتج مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الاعمال وأن القائم بواجبها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فان المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام الا بسياسته وسياسة خاصته فكيف به وقد أضاف الى ذلك احسانه سياسة العامة * ولما كان مقدار فضل المرء على سواه موقوفا على مقدار نفعه سواه كما جاء فى الحديث الشريف « ان خير الناس من نفع الناس » كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التى تعدّ له سعة المجال فى سبيل نفع الناس وليس يخفى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنته ووسائطه اذ لا جود الا من وراء موجود فاذا أمسك موسرا ليم لوم من بسط معسرا واذا تبرت له الايام بساط العمل فطواه اما بذراع أدماها سهم الخمول والكسل أو بيد أشلها الغرض والحق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس احكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفترش الايام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مراء شريك الطبيعة فى المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواميسها بل هو آلتها المنفذة لاحكامها والقائمة بحركة دقائقها فاذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل اذا زل العالم زل بزلته العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياستهم فهو قد عهد اليه أهم أعمال الانسان فكان مركبه خشنا وموقفه هائلا وحسبه من صعوبة المراس جمعه من الاضداد ما قاله عمر رضى الله عنه وهو لين لا يتولاه ضعف وقوة لايمازجها عنف أو ما قاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وانصاف عن قوة

واذا سبرنا غور الحقائق بامعان الفكرة وانعام النظرة وأنسنا الى صحة المبادى التى شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسيه الاربع أربع كلمات وهى وطنية حكمة همة مسؤلية فوجدنا الموقف هائلا لان من ورائه التقاضى الى محكمة مهيبة عادلة قانونها الذمة وقاضيها الضمير ومنفذ أحكامها الشرف فن العبث اذا أن تسند المناصب الى من لا تهصر أعطاف الوطنية فى مقامه ولا يجنى ضرب الحكمة من ضروب بنانه ونفثات أقلامه ولا يسل سيف الهمة من أجفان نشاطه وأغماد إقدامه ولا تشام بارقة شعور فى أفق ضميره من سحب نقضه وابرامه الى أن قال

أما الوطنية فهى المحور الذى تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التى ترسم منها دائرة الشعور والعواطف ولدها الطبع وتمها التربية ويكفلها الشرف وتعززها الاريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه عليه لانها تقوم بكفايتهما ليقوما بكفايته ولم تعمر البلدان الا بمحبة الاوطان ولذلك قالوا ان حب الاوطان من الايمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس الى وفاء حقوقها العامة قبل النظر فى وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الاولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل فى الكل وان له من احتضان الطبر لعشه مهمازا لشاكلة تنبيهه

واما

وأما الحكمة فهي الدعامة الثانيــة المتممة للوطنيــة لان مجرد ارادة الميــل الى العمل لايغنى ما لم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التي تنطبق على ذاك الميل وتجاوب على تلك الرغائب الصادقة والا ضاع الميــل القويم باستكانة عن خمول أو نزق عن جهل فأتى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدو عاقل خير من صديق جاهل

وأما الهــمة فن متممات الحكمة لانها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هى التى تمتطى الليــل والنهار فى مجاهل العــمل انفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضى بمجاله الحكمة فن تبطت همته عن السعى الى الامام نقلته الى الوراء أدوار الايام

وأما المسؤليــة فما هى الا خلاصة القوى الثــلاث ومن خصائصها التنبيه والتحــذير وصون رب المنصب من الخطــل فى القول والزلل فى العــمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وادراك لاهميتها فن لا يسئل عما يعــمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود بمازجه كسل واما غرور يخالطه طيش وفى الاول سقوط وخمول يفضيان الى الاضاعة والضعة وفى الثانى استبداد وظلم يؤديان الى النفرة والضغينة وبئســت نتيجة المقدمتين

ولكن بأى شئ تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولا والاغماض عنها عملا أم بمجرد الانتماء النســبي دون القيام بواجبــه أم بالتحامل على قريب لم يسئ أم بكسر الأبواب الموصــدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التى تستلزمها الوطنية على مبدإ الدين والشرف — كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية فى شئ فالقول لايصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما ألطف ما قاله صــفى الدين الحلى فى مثل ذلك اذ ضمن فى شعره مثل البلبــل والصقر فقال البلبل مخاطبا الصقر

وقال أراك جليس الملوك	ومن فوق أيديهمو تحمل
وأنت كما علمــوا أخرس	وعن بعض ما قلته تنكل
وأحبس مــع أننى ناطــق	وقدرى عندهمو مهمــل
فقــال صــدقت ولكنهــم	بذلك دروا أنى الافضــل
لانى فعلت وما قلت قــط	وأنت تقول ولا تفعــل

وأما مجرد الانتماء دون القيام باللوازم فكالصفر عن يسار العــدد لا قيمة له أو كواو عمرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يســتر وذنب لا يغفر ومثله ايقاع الاذية بمن لم يسئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى ان ذلك ليس منا مع أن الســياسة تقضى بأن تعتبر من ليس عليــك فى مصاف من هو معك وبعا كس ذلك تمهــدك لمن هو عليــك السبيل الذى تمهده لمن هو معك وهذا من قبيل وضع الشئ فى غير موضعه ومثل ذلك اغضاؤك أو صمك الأذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يقضــيان عليك بأن تفــدى وطنيتك بما



عز وهان وتحتقر فى جنب صونها كل مصلحة خاصة وان عظمت وتحترم كل مصلحة عامة وان حقرت تلك هى الوطنية الحقة الصادقة التى يجب أن يتحلى بها كل ذى منصب ورئاسة

ثم بماذا نقوم الحكمة الوطنية يا ترى أبالاستبداد فى الرأى والعمل أم باتخاذ المنصب ذريعة للاضرار بالناس اجابة لداعى الانتقام أو اصاخة لاشارة أم بتفريق كلمة أبناء الوطن وايجاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للايقاع بالآخر أم بانفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالأمر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الارادة فى شؤون الادارة واطاعة كل اشارة أم بتفضيل حلاوة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نجمت المضرة من بينها وحكم العقل والعيان بها وأبى الطبع الشريف قبولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة بون شاسع وبعد سحيق — فأما الاستبداد فضرب من ضروب الحماقة وقالت الحكماء الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالاول من له رأى ومشورة والثانى من له رأى ولا مشورة له والثالث من لا رأى له ولا مشورة فالمستبد لا بد من أن يكون ثانى الثلاثة أو ثالثهم ولا يعزب عنا قوله وشاورهم فى الامر والمشورة من الروح القدس قال الشاعر

اقرن برأيك رأى غيرك واستشر فالامر لا يخفى على الاثنين
للمرء مرآة تريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال آخر

شاور سواك اذا نابتك نائبة يوما ولو كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها مادنا ونأى ولا ترى نفسها الا بمرآة

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم — وأما اتخاذ المنصب ذريعة للضرة فمن أكبر المعايب وأخس الافعال فعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصة وهو فى منصبه ولا ينظر الا فى صفته العامة التى تحظر عليه الانتقام إما لغاية داخلية أو لاشارة خارجية فان ذلك من الدنايا التى يترفع المنصب عن النزوع اليها ومن سوء الطبع اندفاع القوى الى الاضرار بالضعيف وان لم يحل دون ذلك حائل فكيف به وقد قام حاجز حصين هو منصة المنصب تحمل دعامتها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امتاز كبار الرجال بتنكبهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدو ألد فضلا عن صديق أود ثم الاغضاء عما لم يأت على مرادهم أو لم يلائم سياستهم * بل ما هى الحكمة الوطنية من وراء نثر النظيم وتشتيت الجميع اذا كان رب المنصب يثير ثائرة الحقد من هذا على ذاك و يفرق كلمة الرعية المؤتمرة بأمره ويولد الضغائن والاحقاد فى القلوب بانشاء الاحزاب المتباينة وتعضيد البعض للتغلب على الآخر اما لانتقام خاص عن كره لذاك واما لغاية أخرى مثل أن يتوهم أنه بتفريق كلمتهم تسود كلمته فيأمن فى سربه وينال مرامه ويجاوب جشع طمعه بينا تقضى الحكمة

يجمع الشتيت وتلم الشعر وازالة الاحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر ومثل ذلك يقال في تحميلهم ماليسوا مكلفين باحتماله بأن يكرههم وهو غير مصيب أو مسوق اليه بموجب قانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قال من تداخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه وأن ليس في القانون محاباة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر

ولم أنس المليحة حين راحت الى قاضي المحبة تشتكيني

فقلت لها ارحمي ضعفي فقالت وهل في العشق يا أمي ارحميني

وكيف يليق به وهو يرى نفسه أهلا لمنصبه أو أسمى منه أن يكلف من يأتمر بأمره اما عن رجاء أو عن تهديد بتحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنية والطبع الشريف والمنزع السامي ومن هذا القبيل أيضا عدم استقلال الارادة في شؤون الادارة وهكذا — الى أن قال — وليس من الحكمة أيضا رفض رب المنصب كل ما يطلب اليه ثم قبوله لكل ما رفض لان الرفض اما أن يكون عن أنفة واستكبار اجابة لخلق غريزي يرتاح الى مجرد النهي والامر دون النظر في صوابية المطلوب واما عن اقتناع مسبوق بتروٍ وامعان بأن المطلوب لا يناسب فاذا كان الاول ولا مناص من القبول فالاولى عدم الرفض لان مرارة العود الى القبول تربو على حلاوة الاستبداد بالرفض واذا كان الثاني فالثبات على الرفض أولى ولا عبرة بالصانعة اذا كان هناك سبيل التخلص منها والتنصل من تبعتها ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة على المركبة التي كدرتها المرارة فان في منابذتها حلاوة لا تعقبها مرارة وهي وسيلة التجرد عن مضرة تكتنفها معرة

ثم بماذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع الى انفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل — ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لان الاسراع في انفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو في كثير من الاحايين الى تجاوز الحقيقة والتخطي الى الاعتساف فلكل مقام مقال والاشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العمل التسرع في انفاذه ولذلك قالوا في العجلة الندامة وفي التأني السلامة وأما الضغط المنوه عنه فأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتسلسل الى الاخلال بالقانون والعبث بأحكامه وما أحسن ما جاء عن معاوية في هذا الشأن حيث قال اني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيل له وكيف ذلك قال كنت اذا مدوها أرخيتها واذا أرخوها مددتها — ثم بماذا تقوم المسؤلية وراء ذلك أبالاسراع في العمل حسنا أو قبيحا أم بمجرد تبنيه دون انفاذه أم برفعها عن كاهله والقائها على كاهل غيره — كلا لا تقوم المسؤلية بشئ من ذلك ولكنها تقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسؤل أمام منصبه أولا من ربه وثانيا من ضميره وثالثا من شرفه ورابعا من أميره وخامسا من وطنه وسادسا من خاصته وبأن يعلم عظم

هـذه المسؤلية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر ــ وان عليه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضي عليه بمغادرة الوسن وملازمة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومنابذة الاغراض والترفع عن الدنايا والتجلد على مضض الشغل واحتمال أثقاله بالصبر والتؤدة والرفق عن يأتمرون بأمره وزرع بذور الاتحاد والالفة والمحبة بينهم واستئصال جراثيم الشقاق والخلاف والضغائن والاحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبر أباه ويحفظ أخاه ويرحم ابنه تلك هي مسؤلية المنصب بل تلك هي بعض المواجب التي عليه ولا سبيل لتنصله من تبعتها اذا لم يقم بها فاذا قرن استقلال ارادته بحسن ادارته أتاحت له الايام ادراك غايته ونيل بغيته فلزم الوظيفة بشرفها وتشرفه واستمال اليه قلوب من سلم زمام أمرهم فأخلصوا له في السر والنجوى ووثقوا منه بعدم تغيره في سلوكه لوثوقهم بأن نفسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سئل عما دفع زيدا الى التغير بعد الولاية فقال من ولى منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغير له ولكن اذا كانت نفسه أصغر منه تغير له ــ فالمنصب اذا مقام خطير محفوف بالمصاعب فمن الخطا أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحبه آمر مطاع لا يهمه الا اصدار الامر ونيل الراتب بل يجب أن لا يفوتهم العلم بحقائقه من أن صاحبه أليف الارق حليف الفكر رفيق الهموم حديد الملاحظ شديد التأثر مديد التصور هدف لسهام اللوم عرضة للاحفظات العموم مسؤل عن كل ما يفعل عدو لنصف من رعاهم ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرارة فهل يحاوله ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل « درهم من عسل على قنطار من خل » وحسبه هما اضطراره الى الاحتفاظ على الاحكام السياسية ليتذرع بها الى نيل غاية صعبة المنال ألا وهي استمتاعه بهيبة الخاصة مع صدق مودته وانقياد قلوب العامة بالانعطاف اليها وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكنته حكمته من الوصول الى هذا المطلب ولذلك قلنا ان صهوات المناصب لفوارس التجارب اه

فكان كل ما في هذه المقالة من المغامز الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مصطفى رياض باشا لدى توليه المنصب في هذه المرة وتناقل الناس مقالة صاحب الاهرام هذه في الاندية والمجتمعات فكانت سمر ليلهم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز اليه بها من ديوان الخديوي الخاص ارهابا للرئيس وتحذيرا والامر على غير ما يظنون فانه لما اختلط على الرئيس الحال وفسد التدبير وساء المآل ونال السير بارتج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمة أصحاب صحف الاخبار المحلية على نشر هذه الشوائن على رؤس الملا والتعريض بها كل قليل من الايام عسى أن يقلع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مشتهاها فترجع عن بغضه القلوب وتنكف عن تقريعه الألسنة وتقف مطامع جماعة الانجليز عند حد ولذلك لم يهب أحد من المحازبين للرئيس الى الرد

على

على مقالة صاحب الاهرام وأقوال غيره ممن حذا حذوه بل أقبلوا على قولهم وأنزلوه من سمعهم وقلبهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الحلقوم والسكين العظم

(مطلب) وقوف عثمان دقنه بسواكن على قدم الكر والفر

وكانت أخبار التقوم الى هذ اليوم لم تخل من المفاخر الدالة على عدم خلود العدو الى السكينة ووقوفه على قدم الكر والفر ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقى السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعيتهم الحيل وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاء سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمى عسكر الانجليز وأقاموا بسواكن أياما يتروون فى أمر الخلاص من شر ذلك العدو وعلم دقنه بقدوم السردار فزاد فى الكر والفر بمن معه من أولئك الابالسة السود واشتد فى رمى القنابل على الحصون والمتاريس فى الليل والنهار ففعلت مقذوفاته بالمرابطين فعلا رديئا جدا واتصلت بسفن الحرب الانجليزية الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللا ونفورا اذ أعياهم القيام على قدم الدفاع ليلا ونهارا فأرسل الى صاحب السياسة الانجليزية يخبره بواقعة الحال ويسأله سرعة ارسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه الى الباب العالى بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها ــ قيل وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالالغاز والمعميات ليتعذر على السلطان ورجال دولته البت بارسال عساكره الى سواكن ولبث الحال على ذلك أياما فلما آنس من السلطان ميلا وعزما على ارسال حملة من عساكره الى سواكن بعد ذلك التردد والاحجام خاف العاقبة ورسم على الفور الى قائد عسكرهم بمصر بارسال النجدة العاجلة من عسكرهم الى سواكن فصدع بالامر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانيهم وأنزلتهم فى سواكن ففرح المرابطون بمقدمهم وأخذوا من يومهم فى ترميم الحصون والمتاريس وضاعفوا القلاع ورتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدو فلما شاع خبر وصول هذه النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الانجليز قامت الاحزاب فى عاصمتهم واشتد حزب الاحرار منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم فى دار ندوتهم وظهرت جلبتهم فى سائر محافلهم ونادوا وا ويلاه مالكم تعرضون بأرواح رجالنا وتبددون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم على ذلك أياما حتى كاد المطلع على صحف أخبارهم لا يشك فى أن الرجل على شفا جرف السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما ذلك الا ضرب من التغرير كأن يقولوا اذا قامت الدول فى وجه صاحبهم ومانعت فى حلول عسكرهم سواكن إنا ما احتللناها بعسكرنا وسفن حربنا الا مكرهين وهذا الباب العالى قد استصرخنا رجاله وسألناهم نجدة المرابطين فلم يصدوهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع سمعا فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تثريب ولا نحن مؤاخذون بما فعلنا

وعلم عثمان دقنه بقدوم العساكر الانجليزية مددا للمرابطين بحصون سواكن وما هم

عليـه من الحركة لجد حينئـذ فى قتالهم وألح وتابع الرمى بالقنابل على القـلاع والحصون أياما فهاجوه فلم ينـالوا منـه مأربا فألحوا فى قتاله بين كـر وفر أياما أيضا ثم عادوا الى الحصـون وجعـلوا يدافعون من وراء المتاريس أياما أخرى ووردت الاخبار الى ديوان الخديوى بماهم عليه من التعب المتواصل بسبب مناوشة العدو لهم فى الليل والنهار وعجزهم عن كفه عن تخطف كل من بعـد عن البلد ولو قليـلا وكبر على السلطان ورجال دولتـه خبر وصول المقاتلين من الانجليز الى سواكن فعادوا الى مخابرة صاحب السـياسة الانجليزية فى تقرير القاعدة التى على مقتضاها يرسل الباب العالى الى سواكن طائفـة من العسـاكر الشاهانية لتبقى مع المرابطين وأكثروا من الاخذ والرد فى ذلك أياما فلم يفلحوا ولم يساعدهم أحـد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هـذا الارب فتكلم حينئذ أصحاب صحف دار السـلطنة بكلام فى معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفى معنى كيان السلطنة العثمانية وفى شئ من ماهية الخلافة الاسلامية وفيما يعتورها من الضعف اذا زالت هيبتها وتقلص ظل نفوذهـا من سـواحل البحر الاحمـر وأطالوا فى ذلك القول وبالغوا فى التوجع حتى كتب أحـدهم صورة المعاهدة الدولية التى كان تم التوقيع عليها من كبار ساسة الدول صاحبات الشأن فى حياد بوغاز السـويس شاهدا على ما للسلطان من المقام الراجح بينهن ولم يكن أحد يعلم بها الى يومنا هذا وهى

أولا ـ يبقى بوغاز السـويس حرا مطلقا فى زمن الحرب والسلم لجميع السـفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هـذا الوفاق قد وافقت على أن لا يمس بحرية هذه الترعة سواء فى زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحاصر شطوطها على الاطلاق

ثانيـا ـ ان الدول الموقعات باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترعة الحلوة منفصلة عن الترعة الملحة قد أخـذن على أنفسهن القيام بالمعاهـدات المبرمة بين خـديوى مصر وشركة بوغاز السـويس العـمومية فيما يتعلق بالترعـة الحلوة كما هو مذكور فى الوفاق المبرم فى ثامن عشر مارث سـنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذى يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسن حالة هذه الترعة وما يتبعها ولا يمس فيها مايمنع حريتها

ثالثـا ـ قد تعهـدت الدول باحترام المواد والابنيـة والاعمـال الموجودة فى الترعتين المذكورتين وعدم مسها بشئ ما

رابعا ـ تبقى الترعة الملحة مفتوحة فى زمن الحرب بحيث تمر فيها المدرعات الحربية بدون ممانع كما جاء فى الوجه الاول من هـذا الوفاق ـ وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعات على أن لايباح عمل عدائى يكون من شأنه منع حرية الملاحة فى الترعـة والموانى الموصلة اليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانى ومن جملة هذه الموقعات الدولة العثمانية ولوكانت من المحاربات ثم ان المدرعات الحربية لايجوز لها أن تأخـذ الا ما يكون

ضروريا

ضروريا لها من المؤن والذخرة فى الترعـة والموانى الموصـلة اليها وأن يكون مسيرها منها فى أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف الا عنـد ما تقضى الضرورة بذلك وفى هـذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سـفن دولة معـادية لهـا من احـدى الموانى الموصلة للترعة أربعا وعشرين ساعة على الاقل

خامسا — ان الدول المتحاربات لا يمكنهن فى زمن الحرب أن ينزلن فى البوغاز والموانى الموصلة اليه جنودا أو ذخائر أو مواد حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن اذا حدث بها مانع فى الترعة كان لها عند ذلك أن تنزل الى تلك الموانى أو تأخـذ منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن

سادسا — ان ما اشترط على المدرعات فى مسيرها يشـترط فى مناوشاتها اذا حصلت فى الترعة

سابعا — لا يجوز لاية دولة أن تبـقى لنفسها فى مياه الترعـة أو فى بحـيرة التمساح والبحيرات المرة مدرعـة حربيـة على أنه يجوز لهـا أن تقيم فى الموانى الموصلة الى مدينـة بور سعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتـين لكل دولة الا أن هذا الشرط لا يباح للدول المحاربات

ثامنا — ان وكلاء الدول القائمين فى مصر من قبل الدول الموقعات على هـذا الوفاق منوط بهم مراقبـة تنفيذه بحيث انهم عنـد ما يحدث ما يهدد سلام الترعة وحرية الملاحة فيها يجتمعون بنـاء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم فى الوكالة لبحث فيما يجب اجراؤه ثم يخـبرون الحكومة الخـديوية بما يكونون قد عملوه من المحاضر لتأخـذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية الترعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فانهـم يجتمعون مرة فى كل سـنة ليروا ما اذا كانت المعاهدة معمولا بشروطها أولا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصوص تعينه الدولة العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هـذا المندوب آخر من رجال الحكومة المصرية عند غيابه ويصح له أن يحضر الجلسات اذا كان حاضرا ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق فى أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أى مكان من شطوط الترعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالترعة

تاسعا — تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة فى هـذه المعاهـدة كل ما يلزم من الوسائل توصـلا الى انفاذ المعـاهدة واحترامها ولكن اذا لم تكن هذه الوسائط كافيـة لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالى الشاهانى القيام بتلك الوسائط من عنـده واعلانها الى الدول الموقعات على التصريح الذى أبرم فى لنـدن فى سابع عشر مارث سـنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف مـيلادية

والاشتراك معهن عند الحاجة فى المحذورات الواضحة فى المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقا فى تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه

عاشرا — وأيضا فان المحذورات الواردة فى المواد المذكورة لاتحول دون الوسائل التى تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له الى اتخاذها لكى يكفلا بقوتهما الخاصة حماية مصر وتأييد النظام العام فيها ولكن اذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثناآت الواردة فى هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعات على تصريح لوندره بذلك ثم ان ما ورد بالاوجه الاربعة السابقة بشأن هذه الاستثناآت لايمنع الوسائل التى ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضمانة لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الاحمر

حادى‌عشر — ان الوسائل التى تؤخذ مراعاة للاحوال الواردة فى الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لايجب أن تكون عثرة فى سبيل استعمال الترعة وحريتها وفى هذه الاحوال يكون من الممنوع اقامة حصون مستمرة تخالف منطوق الوجه الثانى

ثانى عشر — تتعهد الدول الموقعات على هذه المعاهدة بناء على مبدا المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال الترعة وهو المبدأ الاساسى لهذه المعاهدة أن لايسعين بالتوسع فى الارض والتجارة بالنسبة للترعة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضا ماعدا الدولة العثمانية لما لها من الحق فى ذلك لكونها صاحبة البلاد

ثالث عشر — عدا المواثيق الواردة بايضاح فى بنود هذا الاتفاق فانه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض الى ما أغفل منه من الواجبات

رابع عشر — اتفقت الدول الموقعات على هذا على أن المواثيق الناشئة عن هذه المعاهدة لاتنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بوغاز السويس

خامس عشر — لاتحول شروط هذا الاتفاق دون التحوطات الصحية المتخذة فى الديار المصرية

سادس عشر — تتعهد الدول المتعاقدات بأنهن يبلغن هذا الوفاق الى الدول التى لم توقع عليه ويطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها فى الاستانة فى مدة شهر أو أقل ان أمكن

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها انتهى بنصه

ونقل

ونقـل أصحاب صحف الاخبار العربيـة نص هـذه المعاهدة وقالوا اذا كانت كل هـذه الحقوق للسـلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس اذا من النصفة فى شئ أن تستضعف الانجليز جسم السلطنة العثمانية الى هذا الحد فتسلبها حقها وتخصها أشياءها ولا من الكياسـة فى شئ أن تطيـل يدها الى هـذا الحد من التطاول على غير مسوّغ فرد عليهم أصحـاب صحف الانجليز وأغلظوا فى الرد وبالغوا فى التهـديد وعادوا الى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضـه على ترك المجاملة والاخذ بأطراف الحزامة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا

(مطلب) موت رجـل من الهنـود واحراق جثته

واتفق أن مات فى هذه الايام رجل من الهنود التابعين للسـلطنة الانجليزية وهو من كبار تجارهـم بمصر فعزم قومه على احراق جثته حسب عادتهم الدينية فطلبوا من قنصلهم التسريح بذلك فسرح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتمل القوم جثة فقيـدهم الى فضاء العباسيـة عند سفح الجبـل الاحمر وطرحوها على الارض ودهنوها بالزبدة ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعـة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوق القـدمين وأحاطوا بالجثة حطبا مرصوصا بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار الى ان احترقت وصارت رمادا فرآهم وهم على هذه الحال نفر من أصحاب مقالع الحجر بالجبل الاحمر وسمعوا دمدمتهم بشئ من الادعية الدينية فهلعت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين الى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الاسـلام أهلك الله دين الكفار فتبعتهم النساء والاولاد وهم فى صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جمعوا رماد جثة فقيـدهم فى ركوة وساروا بها على غير الطريق السـلطانى خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر فى تلك الليلة خبر هـذا الحادث فى سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهـم ان هذا الحادث قطرة من بحر مما سيحل بالمسلمين بعـد أن جاء ولى عهد السلطنة الانجليزية وانهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشـة وعظامهم محرقة بزيت البترول وجثث موتاهم تلقى على قمم الجبال وغير ذلك من الارجاف حتى كادوا يفتتنون

(مطلب) ما ترتب على كثرة اللصـوص من الحاج السيرباريخ بتعيين مستشار لنظارة الحقانية

وكثرت فى هذه الايام اللصوصية وعم فساد أهل الشـقاوة وكثر عيثهم فى القرى والبلاد وعظمت قحتهم فكانوا يتخطفون فى الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولا خوف لجد أصحاب الشرطة فى طلبهم واهتم الرئيس لذلك جدا تحاشـيا من ضوضاء جماعة الانجليز وأصحاب صحف أخبارهـم فلم يتمكن من ارجاع الامور الى مجراها وبقى الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السـير باريخ على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو سائر من الخلل وعدم الامن على الارواح والاموال بسبب فساد رأى المدير بن والمحافظين وعجزهم عن ارجاع الامن الى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديريات والمحافظات

الى جماعة من الانجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة الا بتسليم زمام سائر ادارة الحكومة الى جماعة الانجليز — قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه فى القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابات ورماهم بالجهل وقال انهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين اللين والشدة وطلب جعل النيابات تابعة لنظارة الداخلية وتحت سلطة رجال الادارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الاخبار الانجليزية وجعلوا يقرعون الرئيس ويرمونه بالعجز وعدم القدرة على تدبير الامور فى هذه الايام وأكثروا من عبارات الهزء والسخرية — قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى الى من يحسن تدبيرها من الانجليز لكى يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج الى الخديوى فى التعجيل باعطاء منصب استشارة الحقانية والاشراف على سائر النيابات والمحاكم الاهلية والشرعية الى رجل من الانجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت — وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى الى الرئيس بالعمل قيل فامتنع لما فى ذلك من الحيف والصغار لا سيما وانها كبيرة من الكبائر التى لم يكن ليقوى السير بارنج على اتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى فى قلق من تردد السير بارنج على دوانه فلما آنس الرئيس من الخديوى ميلا الى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ الى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الوقوف فى وجه السير بارنج والعمل على ايقافه عند حده فقام حسين فخرى باشا قومة الحازم غير هياب ولا وجل ورفع الى الخديوى صحيفة كلها تفنيد لمزاعم السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الامر ❁ حدثنى صاحب لى من المقربين من مجلس الرئيس قال كان الرئيس اذا رأى فى هذه الايام من حسين فخرى باشا مللا أو اغفالا لمقاومة مطالب السير بارنج حرضه وشجعه وأكبر قدره أو أنبه وقرعه وصغر نفسه وأحرج صدره فهب الى المشاغبة وبتصدر الى الدفاع وعلا فضاء دوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أنا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صيحته هذه انما هى كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأن لا راد للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاه وكانت كتب زعيم سياسة الانجليز مترادفة على دوان الخديوى بالتعجيل وترك الابطاء والخديوى فى أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الامل ويشجعه على الاخذ بأطراف العمل لعله ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ ان أحد الرجلين مخلوع لا محالة وان فوز زعيم سياسة الانجليز فى هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الانجليز ولوجه من دواوين الحكومة الى الآن فلما كان خامس عشرى فبراير من السنة أى سنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى

بتوليه

بتوليـة أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والاشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف اه

وحـدثني أيضا من لا أشك فى صدق حديثـه قال قد كان من دهاء صاحب سياسة الانجليز فى أمر تسليم زمام الاستشارة القضائيـة الى أحد رجال الانجليز أنه كان يرسـل الى الخـديوى الرسائل تلو الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والاشـفاق مما هو حاصل من ذهاب الامن من البـلاد وكثرة اللصوصية ويستميله الى تمحيص الاسباب الناجم عنها هذه الفوضى المستحكمة حلقاتها ويشـير بمنع تطاول يد الرئيس مصـطفى رياض باشا الى العبث بوظائف رؤساء النيابات ومأمورى تحقيق الجنايات وما زال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب حولا فان أفلح وتم لاهل البلاد على يديه فى ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستتباب الراحة فالى ما شاء الله أو الى أن تصير المحاكم فى غنى عنه والا عادت الامور الى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليـه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالاقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يمحو ويثبت ما يشاء من مواد القانون المدنيـة والجنائية ويعدل فى نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابات ويدون كل ما يعن له من أوجه الاصـلاح ووسائل الفلاح ثم سار الى الاقليم القبلى وسار معه حسين فخرى باشا فكان اذا نزل فى بلد اسـتدعى اليـه عمـدتها ومشايخها وحادثهم فيما عليـه المحاكم بالاقليم البحرى وبشرهم بقرب انفراج الازمة وزوال تلك الشـدة وبناهم بمستقبل كله خير واطمئنان ثم عاد الى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع الى الخديوى والرئيس تقريرا عما رآه من أوجه الاصـلاح فتحدث النـاس فى ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس اذا أحرج السير بارنج موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه فى هذا الشرك فعمد الى الخلاص منه وأوعز الى حسين فخرى باشا بأن يسـتعد لتقديم تقرير الى الخـديوى بما يراه فى مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن الا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسـين فخرى باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعـد عن الخطل — ورأى الرئيس أن لا ينجز لأسكوت غرضا ولا أن ينيله مأربا فرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية وابراهيم فؤاد بيك وكيل محكمة الاستئناف الاهليـة وابراهيم نجيب بيك رئيس المحكمة الابتدائية والمسيو لوجريل النائب العمومى واثنين من مستشارى الاستئناف الاجانب لينظروا فيما يشير به أسكوت من أوجه الاصلاح وفيما يعارضه به فخرى باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به — وسافر الخديوى الى الاقاليم القبليـة فى قلة من الخـدم والحشم والاتباع ترويحا للنفس أو كما شاع فرارا من عناء الاخذ والرد فى هذا الحادث الذى كثرت أذنابه واشتبك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترمى اليـه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعد تشكيلها ميلا عن الجادة وضررا بالاصـلاح وقال لا يصح تشكيلها على هذه الصورة قبـل أن يصادق مجلس

النظار على المبدإ الذى قد بنى عليه تقريره ولا سيما تصديقه على وجود المراقبة والتفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الانجليز أو من المصريين ان وجد بينهم من يصلح لذلك واشتد الاخذ والرد بين الرئيس والسير بارنج شدة بالغة كان من ورائها استبدال المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية بالمسيو مور ونو مستشار قضايا الداخلية وجعل رئاسة اللجنة لحسين فخرى باشا فكبرت عند ذلك جهة أسكوت وأنكر على اللجنة فعلها وقال ان حكمها فى ذلك سيكون من قبيل حكم المرء لنفسه وامتنع المستر بوند الانجليزى أحد الاثنين المستشارين المعينين بعضوية اللجنة من الحضور فى جلستها وقال لا تصح رئاسة حسين فخرى لها وهو خصم أسكوت المعارض له فى مبدئه وكذلك لا تصح عضوية بعض الاعضاء لانهم أصغر درجة من صاحبى الخصومة فلم يلتفت أعضاء اللجنة الى شئ من ذلك واجتمعوا بغير حضور بوند وبحثوا فى قولى الخصمين أياما ثم اتفقت كلمتهم على رفض سائر مطالب أسكوت الا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الاجانب بمحكمة الاستئناف العليا بشرط أن يكونوا من القضاة الاجانب الشاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جماعة الانجليز كما أشار أسكوت ولما علم السير بارنج بما قررته اللجنة أكبر الامر وأعظمه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا فى هذه الطفرة يكون هادما لاماني صاحب سياسة الانجليز وقاضيا على عظمة الاحتلال فرفع فى الحال الى الرئيس مذكرة يطلب فيها البت قبل كل شئ بتثبيت أسكوت فى منصب الاستشارة وعزل حسين فخرى باشا من مسند نظارة الحقانية وعدم المعارضة فى ذلك ويقول ان هذه المذكرة واردة اليه على جناح البرق من صاحب سياستهم وهو يلقى تبعة كل ابطاء فى تنفيذها على عاتق الرئيس * وكأن التعجيل بتثبيت أسكوت تعجيل أيضا بقبول سائر مطالبه على علاتها لانه اذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحقت على الرئيس طاعته _ فلما وقف الرئيس على ما فى تلك المذكرة عقد فى الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقبل حسين فخرى باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت فى المنصب ورفض عزل حسين فخرى باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس الى الخديوى بالصعيد الاعلى ولبث الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحر من نار الجمر

فلما كان تاسع عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر فى عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليال وأولم الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الامراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقض ليالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسراى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء فى مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية

عشرة

عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قرّ رأيهم أولا على ابقاء أسكوت فى المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذنابها بغير معارضة وثانيا رفض عزل حسين فخرى باشا من منصبه عما أنه قد تقررت ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لا بد من عزل حسين فخرى باشا لاستحالة حصول الوئام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الخديوى والسير بارنج بقية يوم الجمعة الى ظهر السبت والناس فى تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزال الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة الى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة فى هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الاشغال بيد منكريف والحربية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد مناروبالمر والداخلية بيد فنلد والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتم لا يقدر على فضه الا الجبار العظيم فلم يبق الا أن يقضى على البقية الباقية بأيدى أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا وتحيا جماعة الانجليز — أو ثناه عنه عزة المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن الا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء فى منصبه فقالوا لعل فى ذلك حكمة

واشتد أصحاب صحف الانجليز على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالضعف وحب الذات وقالوا انهم جميعا زعماء الحزب الذى عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الانجليزية أن تفسح لهم فى الأجل ولا أن تتركهم يتضافرون على مثل هذا العمل فاما عيشة راضية واما ضربة قاضية والا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطانة البحار بلوغ الآمال ❁ وهب صاحب سياسة الفرنسيس من الخمول وأرسل الى قنصلهم بمصر أن يحتج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمانع فى تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيس لا تتساهل فى شئ من ذلك البتة فصدع القنصل بالامر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتيكران باشا وأدى الرسالة حقها قبل فخرج الرئيس بذلك وأبلغ الخبر الى السير بارنج وهذا رفعه الى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس فى داره يوما وبعض يوم ثم سافر الى مزارعه ببلود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الاخبار المحلية بشئ من مطاعن أصحاب الصحف الانجليزية ثم جاء الخبر الى ديوان الخديوى بنزوع صاحبى سياسة الانجليز والفرنسيس الى المناقشة فيما أفضى الى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة فى اشتداد وقد دخلت فى غمارها أيضا دولة الالمان والباب العالى

واتفق أن مات فى رابع عشر رجب قاضى قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن نافذ نخلا بموته منصب القضاء الشرعى فتساءل الناس عمن يخلفه وعما اذا كان ذلك الخلف يأتى من دار السلطنة بفرمان من الباب العالى على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة



المصرية تولى من تشاء من قضاتها وظنوا أن وقوع هـذا الحادث فى هـذا الحين قد يمكن السـلطان من التوسع فى الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفى تطاول يد الاحتلال الانجليزى الى العبث به وفى تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مسوّغ فيتضافروا جميعا على ما فيـه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فانه ما بلغ الباب العالى خبر موت الشيخ القاضى حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان على الغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سـنة احدى وتسـعين ومائتين وألف هجرية من بقاء الشيخ عبد الرحمن فى منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالى فى كل سنة اذ بموت الشيخ عاد الى الباب العـالى حقه فى تولية القضاء كل عام لمن هم متوسمون لذلك من مشايخ الوقت فى دار السـلطنة ــ فاهتم الخـديوى بالامر وكلم الغازى مختار باشا فى بقاء حق انتخاب القاضى الجديد للخديوية المصرية فأرسل الغازى الى الباب العالى فى ذلك فجاء الجواب قائلا انه قد جرت العادة من قديم أن للباب العالى وحـده حق تعيـين قاضى قضاة مصر من أصحاب الدراية والاهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فاذا انقضت السنة يرسـل الباب العالى صاحب الدور وهكذا * فلما كانت سـنة احدى وتسعين ومائتين وألف هجرية التمس الخـديوى اسمعيل من لدن الذات الشاهانية بقاء الشيخ عبد الرحمن نافذ فى منصب القضـاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيـه فى كل سـنة لصاحب الدور من مشـايخ الوقت فى دار السـلطنة بدون أن يشغل الوظيفة فأجاز الباب العالى للشيخ عبـد الرحمن البقاء فى مصر من سـنة اثنتين وتسـعين بمرتب قدره ألف وخمسمائة جنيـه يتقاضاه من خزينـة الخـديوية المصرية فى كل سـنة الى أن يتوفاه الله ولما كان هـذا الامتياز لم يختص به الا الشيخ عبـد الرحمن وحده فقد زال بموته وعاد الى الباب العالى حقه فى ارسال صاحب الدور من علماء دار السـلطنة الى هذا المنصب * فـال الرئيس مصطفى رياض باشا الى مقالة الباب العالى وأحلها محلها ولم يغضبه حقه وكأنه كان يتمنى لو أن السـلطان ينال من هـذه الفرصة مأربا فيوقف مطالب صاحب سياسة الانجليز عنـد حد و يعمل على ارجاع الامور الى ما كانت عليـه ولكن هـل يطلب أثرا بعـد عين وقد جاء فى المثـل « الصـيف ضيعت اللبن » وقيـل ان من التوقى ترك الافراط فى التوقى لان من حنكته التجارب قاد هامة الحوادث بنوائبها فدانت له ورجـل الانام من قدر على الاستيثاق من موادعة الايام

فلما كان ثالث عشرى رجب جاء الخبر من دار السـلطنة العثمانية بأن قد صدر الفرمان السـلطانى بتولية الشيخ عبد الله جمال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقب هـذا الخبر ورود كتاب من الصـدر الاعظم الى الديوان الخديوى يقول فيـه ــ ان جلالة مولانا المتبوع الاعظم أمير المؤمنـين قد ساءته توليـة أسكوت الانجليزى منصب الاستشارة القضائيـة بالخـديوية المصرية فى حين أن القضاء بديار مصر قد بلغ أقصى درجات الكمال

وشاع

وشاع الخبر بذلك فأرسل الخديوى الى الباب العالى على جناح البرق رسالة يقول فيها بعد الاستعطاف والتلطف ـ انه باجازته تولية أسكوت هذا المنصب لم يأت أمرا جديدا فى ديار مصر بل هو فعل مثل ما فعله خلفاؤه من تولية بعض الاجانب فى المصالح والدواوين المهمة للاستفادة من نشاطهم وعلمهم وأنه لا شئ بيد أسكوت من القوة الاجرائية ولا هو مطلق الكلمة فى شئ وأن مشروعاته لايعمل بها الا بعد تمحيصها والتصديق عليها من مجلس النظار وصدور الامر بتنفيذها ـ فلم يجب الاحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا ان الباب العالى سيطاول فى ارسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيس الاتفاق مع زعيم السياسة الانجليزية على ارجاع الامور الى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى الى الاسكندرية فى صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته و بعض الخدم وبات ليلته تلك فى بيت مفتى الثغر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد الى القاهرة فاستقبله فى محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحقانية وشيخ الجامع الازهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى فى مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين فخرى باشا ونزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب فى عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلمى وحضر الى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقابله بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السمور فنزل بها الى المحكمة واحتفل به قضاة مجلسها وهنؤه وبعد برهة لطيفة سار الى المشهد الحسينى فزاره وركب من هنالك الى منزل مضيفه وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الامراء من البيت العلوى وبعض الوزراء وكبار الدوان الخديوى والعلماء * واتفق أن ابتاعت حكومة الانجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لقنصلاتو الانجليز بثمن وقع الاتفاق عليه وكان المشترى لها السير بارنج باسم ملكة الانجليز وامبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية الى قاضى القضاة جمال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما اذا كان تحديد الارض يشمل شيأ من ساحل البحر فاذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تمليكه للغير فقال السير بارنج ان البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الارض الى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لايجوز تمليك الطريق السلطانى للغير فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لا بد من استخراج الحجة بما تم بيعه فسأل حسين فخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تمليك الطريق السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى

لتلك الارض مجرى النيل « وأكثر السير بارتيح من الغدو والرواح الى مقر الخديوى تارة وديوان الرئيس مصطفى رياض باشا أخرى وشاع خبر ذلك ففرح به العامة وضعاف العقول وعدوه فوزا للقاضى جمال الدين ونصرا للسلطان على صاحب سياسة الانجليز وتكلم فى ذلك أيضا أصحاب صحف الاخبار المحلية على اختلافها وهم بين مخطئ للقاضى ومصوب وظل الحال على ذلك أياما حتى أشار بعض أصحاب الكلمة المسموعة بترك القاضى جمال الدين يفعل ما يشاء مما قضاه الشرع ثم باجتماع مجلس النظار واصدار قرار بجعل الحد الغربى لتلك الارض مجرى الحوت ففعلوا وكتب القاضى الحجة كما شاء وانفرجت الازمة وقد كان يود أصحاب العقول الضعيفة ومن فى قلبه مرض أنها لا تنفرج

(مطلب) تعيين كتشنر باشا صدرا لجند البوليس

ولم تقف مطالب صاحب سياسة الانجليز بعد هذا كله عند حد فانه بعد أن نال مناله من تولية أسكوت منصب الاستشارة القضائية وقضى بولايته على تداخل الرئيس مصطفى رياض باشا فى أعمال المحاكم وأقلام النيابات وضرب بينها وبين هواه فيها سياجا من حديد جاءت كتبه الى الديوان الخديوى يطلب تسليم زمام ادارة البوليس جميعها الى كتشنر باشا مقدم الجند المرابطين بسواكن وسلخها من نظارة الداخلية أى من سيطرة الرئيس وجعلها مستقلة مسؤلة عن الأمن فى سائر انحاء البلاد ـ قال والحكمة فى ذلك أنه اذا جعلت ادارة البوليس فى يد كتشنر واتحدت القوة القضائية بالبوليس الذى هو القوة المنفذة وقاما بواجبهما القانونية كما يجب انقطع دابر اللصوصية وانكمش أهل الشقاوة والفساد واستتب الامن بين البلاد واطمأنت القلوب الواجفة فلا يبقى بعد ذلك من شك ولا بلبال واذا دام الحال على ما هو عليه فلا قضاء ينفع ولا جند يدفع ـ فكلم الخديوى الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فأجفل وتولاه اليأس وطال الاخذ والرد بينهما أياما كان من ورائها أن رسم الخديوى بولاية كتشنر الرئاسة على جند البوليس ومنحه حق النظر فيما تستلزمه حالة الحفظ فى البلاد كافة من اقامة المرابطين من الجند والخفراء وتحديد وظائف مشايخ البلاد ومشايخ الخفر والتوفيق بين القوة القضائية والقوة التنفيذية فقام كتشنر من يومه بتقنين القوانين وانشاء اللوائح وأكثر من الاجتماع بأسكوت كل قليل من الايام حتى تم الاتفاق بينهما على ما شاآ الاتفاق عليه وقررا فيما بينهما اختصاص كل من القوتين فلم يبق للرئيس فى ادارة البوليس بعد ذلك كلمة ولا رأى وقد كان يظن استحالة الوفاق بين كتشنر وأسكوت وان يتنازعا فى السلطة ويميل كل منهما الى الاستبداد بالأمر وأن ذلك سيكون باعثا على انخفاق سعيهما وتفرق كلمتهما فترجع الامور بعد ذلك الى ما كانت عليه من قبل ولكن لم يصب ظنه المرمى اذ اتحدت كلمتهما واعتصما بعروة وثقى لا انفصام لها وأصبحا فى منصبهما كأنهما رأسان فى قلنسوة واحدة وبات الرئيس ولا عمل له بل ولا كلمة مسموعة ولا اشارة مطاعة فكبر همه وعظم حزنه وغمه وتأمل حوله فرأى أن عيون الانجليز قد أخذته من كل صوب وألسنة القوالين قد تناولته من حيث يدرى ولا يدرى وعابوا عليه استسلامه وضعفه فخار

فى

فى أمره واختلط عليه الحال وتولاه القلق وعراه الريب فى صدق ولاء المقربين من مجلسه فتفر من بعضهم وانكف عن الجلوس فى مجلس ليله على عادته وتحجب أياما ثم تمارض وأظهر للناس عجزه عن القيام بمهام المنصب فكان اذا ذهب يوما الى ديوانه جلس على كرسيه واجما مشتت الفكر كثير الهموم وقد ذهبت عنه تلك الهيبة وضعفت منه تلك العزيمة وظل على هذه الحال حتى جاءت أيام عيد الفطر فجعل يفكر فى ترك المنصب والتخلى عنه * فلما كان يوم الثلاثاء رابع شوال من السنة وثانى عشر مايو دخل على الخديوى بعثره وشكا اليه عجزه عن القيام بمهام المنصب وما يلاقيه من اعضاء الخديوى وعنت السير بارنج ثم رفع الى الخديوى عريضة يقول فيها ـ مولاى ان اعتلال صحتى قد أوصلنى الى درجة لا أستطيع معها القيام بمهام المأمورية التى أنا مكلف بها من قبل ذاتكم الفخيمة ولهذا الداعى أتقدم لاعتابكم السنية ملتمسا مع الاسف من تعطفاتكم الجليلة اقالتى وأنا على كل حال خادمكم المخلص اه ـ فى الحال قبل منه الخديوى ذلك وأقاله * وما شاع خبر ذلك حتى تناوله الناس وجعلوا يتحدثون به واختلفوا فى الاسباب فقال فريق انه لم يترك المنصب الا مكرها لان كتشنر رسم الى سائر رؤساء أقلام نظارة الداخلية بأن ترفع اليه سائر الاوراق الديوانية وهو يأذنهم بما يلزم ولا يلزم اطلاع الرئيس عليه كما يفعل مثل بنظارة المالية ـ وقال فريق آخر بل انه لم يرق لديه اتفاق كتشنر وأسكوت على ربط قوتى القضاء والتنفيذ ببعضهما ورفعهما تقريرا بذلك للخديوى فصدق عليه ولا علم للرئيس به فلم ير بدا من ترك المنصب والتخلى عنه ـ وقال فريق آخر بل ان بغض جماعة الانجليز ونفورهم منه منذ حادثة تولية أسكوت منصب الاستشارة وضربهم على يده كل قليل من الايام مال به الى التعجيل بترك المنصب ـ وقال آخر انه رأى من نفسه اعتزاله المنصب بعد الذى حاق به من جراء تولية أسكوت وكتشنر وأخبر صاحبه البارون مالورتى مدير قلم المطبوعات أثناء شهر رمضان بعزمه على التخلى عن المنصب فى رابع أيام العيد ـ وقال فريق غير ذلك وعلى كل حال فقد تم لجماعة الانجليز ما كانوا يطلبونه وبعث السير بارنج بخبر ما جرى الى صاحب سياستهم وكذلك فعل سائر قناصل الدول الكبرى

وفى عصر ذلك اليوم أرسل الخديوى الى عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات بأن يقوم بتشكيل الوزارة تحت رئاسته فامتنع واعتذر بأنه شيخ فان لاقدرة له على تحمل مشاق الرئاسة وتنوعت الاشاعات فى تلك الليلة فيمن يتولاها فمن قائل انه فخرى باشا ومن قائل ان مصطفى فهمى باشا هو الذى سيتولى ومن قائل سيعود اليها الوزير نوبار باشا وتباينت الآراء وانقضى الليل ولم يتم شئ وأصبحوا وقد ذهب الخديوى يتنزه فى ضواحى الجزيرة ورجع عند الساعة التاسعة صباحا فدخل عليه السير بارنج وأبلغه خبر ما ورد اليه من صاحب سياستهم وكلمه طويلا فيما هم بصدده ثم دخل أيضا الغازى مختار باشا مندوب الباب العالى ثم قنصل جنرال الروس ولم يخرج السير بارنج من حضرة الخديوى حتى شاع الخبر بولاية



مصطفى فهمى باشا الرئاسة * فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا الى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته برهة ثم خرج فأرسل اليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول فيه — انه بناء على ما رأيناه فى عطوفتكم من الدراية والاهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة ولكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم على الاعمال المهمة التى دعونا كم لأدائها وعما أن المنهج الذى سلكناه منذ توليتنا لحسن سير أعمال حكومتنا وسرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد الاساسية وهى ان حكمنا واجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصدنا وغاية مرغوبنا هو العدل والاستقامة والاصلاح وحسن الترتيب فى جميع ادارات القطر والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع انحاء البلاد حسا ومعنى فلكن ذلك دائما مطمح انظاركم حتى يتسنى لنا باذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد اهـ فلما وصل الى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارنج برهة طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين يدى الخديوى بمقره ورفع اليه عريضة تتضمن أسماء من ستتألف منهم هيئة الوزارة الجديدة فكان فيها أن عبد الرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية والمعارف وحسين فخرى باشا للحقانية ويوسف شهدى باشا للحربية والبحرية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على اسناد هذه المناصب اليهم ورسم بذلك فساروا جميعا الى مقره بعابدين فهنأهم فقبلوا يده وانصرفوا وسافر مصطفى رياض باشا الى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الامر على خلع محمود باشا دوس اوغلى صهره من وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله

(مطلب) ظهور الجراد بالاقليمين القبلى والبحرى

ووردت الاخبار من بعض مديرى الاقليمين القبلى والبحرى على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وبلوط وآها من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النصلة والدلنجات والبهودية وقبور الامراء بالبحيرة وطود ودمامريس والبرجين والاخصاص وغيرها بمديرية المنيا وأكثر بلاد القليوبية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى أخريات رمضان فخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت الى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجدوا فى تأثره وكانت الاخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة

حتى

حتى أذن الله سبحانه بأن هبت فى أخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياما فاكتسحته وجلت بعضه الى الحوف الشرقى و بعضه الى الجبل الغربى ولم تنزل منه الا القليل فى البلاد والقرى التى نزل عليها فأباده أهلها بضرب العصى وسعف النخل وجدّوا فى جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن يأتى بأقة من بيضه فتسابق الناس الى البحث عن مواطنه واخراجه منها فكان أكثره فى مركز الصلية بالجيزة وفى الجبل الغربى وسواحل البحر وفى الفشن بمديرية المنيا * ومن غريب ما نقل عنه أن مجاعة منه نزلت على مزرعة قطن باحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها لجماعات أخرى الى مزرعة فى جوار المزرعة الاولى فلما رأت ما أصاب الاولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم ير بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحول ضرره الى الاشجار والنباتات الاخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديرها وحلفوا له الايمان المغلظة بأنهم شاهدوا فى بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شبها بأبى قردان ولكنه أطول منقارا قد نزل من الجبل الغربى أسرابا أسرابا وأخذ يتتبع الجراد أينما وجده ويكبس عليه ويزدرد منه المئين والالف ثم يتقيؤه ميتا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة الا وقد أفنى ما فيها من الجراد وأباده — وان بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير فيرجمونه بالاحجار وهو لايلتفت الى ذلك ولم يثن له عزما ﴿ قلت وقد شاهدت شيأ كثيرا من ذلك الطير نازلا على طول الطريق من نفيشة الى السويس وهو على هيئة صفوف الجند بعضها خلف بعض ساكن القلب لايزعجه مزعج ولا يحركه محرك وقد أخبرنى بعض أهالى نفيشة بأنه قد نزل عليهم منذ أيام وهو يترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية الى الحوف الشرقى حتى اذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحته ومنقاره ويبتلع منه الالف فلا تستقر فى جوفه لحظة حتى يتقايأها فاذا أفلت منه شئ تعقبه وقتله ثم يعود الى مكانه متربصا قيل وبقى على هذه الحال أياما حتى قامت تلك الريح واكتسحت ما بقى من الجراد فسبحان مدبر الاكوان ومسلط الابدان على الأبدان انه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه

(مطلب)
موافقة عيد الاضحى لعيد بلوغ ولى العهد سن الرشد

وبالغ الخديوى هذا العام فى اظهار أبهة عيد الاضحى لموافقة أيامه لأيام عيد بلوغ الامير عباس ولى العهد سن الرشد وكان الخديوى باسكندرية على عادته فى ابان الصيف فطير الخبر بعمل تشريف العيد الى الآفاق فهرع الامراء من البيت العلوى والكبراء والعلماء والمشايخ وأرباب الوظائف على اختلاف مراتبهم الى الاسكندرية استعدادا لحضور يوم التبريك بالعيدين عيد الاضحى وعيد بلوغ الامير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهانى على ديوان الخديوى من كل صوب * فلما كان صبح الخميس عاشر ذى الحجة ركب الخديوى عربة التشريف وعلى يساره الامير عباس وأمامه الامير محمد على ولده الثانى وأمام العربة

كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار الى مسجد أبي العباس فصلى صلاة العيد ثم عاد الى مقره برأس التين فدخل عليه الأمراء من البيت العلوى فهنؤه بالعيد وبلوغ ولى العهد سن الرشد وهنؤا كذلك الامير ثم دخل الوزراء والكبراء والعلماء والوجهاء والرؤساء وأدوا فروض التهانى وخرجوا من عنده الى سراى الحرم وكانت رحبة السراى مزدحمة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسها والموسيقى تصدح فى كل ناحية من ساحة السراى وكانت والدة ولى العهد قد أولمت ثلاثة أيام قبل يوم العيد وأطعمت وتصدقت على الفقراء وأصحاب البيوتات وفرقت بعض التحف والهدايا النفيسة وكذلك فعل الخديوى وجاء الى ولى العهد نيشان الافتخار من امبراطور النمسا والمجر فسلمه اياه القنصل فى حفلة من الامراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده فى حفلة أخرى النيشان العثمانى الاول فوقف على باب الامير يومئذ الشعراء والقوالون وتسابق المهنؤن من كل صوب فما قاله أحدهم فى الامير

نبه يراعك من وصف وتشبيب ... وخذ بنظم التهانى كل أسلوب
ان الهناء اذا طابت موارده ... أغناك عن غزل فى الشعر مطلوب
واليوم جلت تهانينا فكان لها ... صدر المقام كعنوان المكاتيب
قد بلغ الله مصرا ما به وعدت ... ونعمة الله وعد غير مكذوب

الى أن قال

والبدر فى أصله تم تحجبه ... أيامه ثم يبدو غير محجوب
يابالغ الرشد فى ترتيب مدته ... وأنت بالغه من قبل ترتيب
ونائل الادب الوضاح من خلق ... من قبل تأديب أستاذ وتهذيب
ليس الحداثة من حلم بمانعة ... قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب
وليس رشد الفتى فى سنه أبدا ... بل فى فؤاد وأخلاق وتدريب
كذلك قد خلق الله الامير لنا ... والجد فى النفس طبع غير مكسوب
فنال من بعد تقريب معارفه ... ولم ينل فضله من بعد تقريب
فضل توارثه عن خير محتده ... والفرع من أصله فى الحسن والطيب
جارى أباه فكادا يجريان معا ... لولا مهابة اجلال وتأديب
وأصبحت مصر فى آمالها ولها ... قلب المحب أتاه وعد محبوب
حتى ترى منه غيثا فى شمائله ... والغيث فى وشك سكب مثل مسكوب
لقد دعوه بعباس ليوم وغى ... لكنه فى الندى من غير تقطيب
فأبصروا منه بحرا فى مكارمه ... تحلو عذوبته من كل تعذيب
وشاهدوا منه عقل الشيخ فى حكم ... برأس أمرد داعى الشعر غربيب
ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا ... بدع اذا كان مجموع الاعاجيب

حاولت وصف الهنا فيه فأزعجني كأنه شـقة فى عـين متعـوب

فـلم أنل وصـفه الاعلى بعـد ولم أنل مدحـه الا بتقـريب

وركب ولى العهد فى ذلك اليوم فى عربة فاخرة وخلفه نفر من الجنـد فطاف على بيوت الامراء من البيت العلوى وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا

(مطلب) ظهور الوباء بمكة ومصوع

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء الاصفر بها ودخوله اليها مع الحجاج الهنود فقام رجال الحكومـة لذلك وقعـدوا وأرسـل الخديوى كتبه الى تحيى باشا أمـير ركب الحج المصرى بجاه الرد يقول ان الوباء على أشـد ما يكون بمكة وانه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأحـمد أفندى عمر طبيب الركب المصرى ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء الى مصوع وفتكه بمن فيها فتكا ذريعا فرسم الخديوى من فوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا فى يوم الاربعاء سادس عشر ذى الحجة جماعة من الاطباء والصـيدلية وخدام المـرضى الى محجر الطور على ظهـر الباخرة عائدة ومعهم الادوية والخيام والملابس لفـقراء الحجاج وأرسل ديوان الصحة الى سائر عماله بالتأهب والاستعداد لسوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من اقامة سائر الموالد فى انحاء الـبلاد فخاف النـاس وجعلوا يبالغون فى الحيطة والتوقى من شر ذلك العدو القتال وطاف مشايخ الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهـم والعناية بما كلهم ومشربهـم وملبسهم فضلا عن نظافة أجسامهم فوقع هـذا النداء من قلوبهم موقعا رهيبا وكثر بينهـم الهرج والمرج على عادتهم عند ظهور خبر هـذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الاقسام يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بنظافتها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى وصـل الحجاج الى محجر الطور ولبثوا به أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع ولم يبق عليهم من خوف فجاؤا الى السـويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف واطمأنت قلوبهـم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون فى كل يوم

(مطلب) حريق سراى عابدين

وفى فجر يوم الخميس سابع عشر ذى الحجـة سمع دوى شديد وصوت كأشـد ما يكون من قصف الرعد وانتشر دخان كثيف ملأ جو القاهرة فهب الناس من نومهـم مذعورين وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت فظهر لهم لهب النـار يرتفع من سراى الخديوى بعابدين الى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجنـد من المصريين والانجليز يتسابقون الى وجهـة السراى ومعهـم أصحاب المطافئ وجماعة ينفخون فى البوق نداء لمن تخلف منهـم وكانت النـار قد ظهـرت أولا من غرفة فى الجهـة الشرقية المجاورة لاحـد مطابخ الدائرة الخاصة واشـتد لهيبها ثم اتصلت الى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز فتفرقعت الأنابيب فاشـتد سعير النـار وامتد لسانها وكثر خطرها وكثر نداء البوق فهرع الجنـد من كل صوب وناحية وجاءت خيـل الحمل وعربات المياه وعربات الرش والطلمبات والفعلة ثم حضر الوزراء ووكلاء

النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدين وجعل كل منهم يقول رأيه في كيفية اطفاء تلك النيران الآكلة فاختلفت الآراء واشتد اللهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا اجراء الهدم الفصل بين الاماكن التى أخذت النار تأكل فيها وبين الاماكن التى لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما فى السراى من الامتعة الفاخرة والفروشات الثمينة والتربات والمقاعد والاسرة والتحف التى لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها الى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضه وتعطل البعض الآخر وكانوا يلقون بالشئ الكثير منها من النوافذ والشبابيك فيتحطم وهكذا ولم ينتبه أحدهم الى الهدم والحيلولة بين النار وبين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سميعا حتى أتت النار على جميع ما فى الجهة الشرقية الى قرب باب المعية من الجهة الامامية والى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنبهوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بالقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت فى الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند القائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادت له الارض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل وما زالوا على ذلك حتى تمكنوا من اخمادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنفائس والتحف أما الاوانى الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والاوراق المهمة فقد نجت كلها من النار فحفظوها فى مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهدم منها فى الليل والنهار وطيروا الخبر بما جرى الى الخديوى فجاء ولى العهد ووالدته الى القاهرة على قطار مخصوص وذهبا من فورهما الى بناء السراى ولبثا هنالك الى قريب الغروب ثم عادا الى الاسكندرية ومعهما من حضر من الخدم والاتباع * واختلف الناس فى أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت الى أسمع المرامى فرسم الخديوى بتحقيق الاسباب قيل وبلغه مايقوله الناس فشدد على النائب العمومى فى ذلك — واتفق أن وجد جماعة العسس فى فجر الخميس ثانى عشرى ذى الحجة كيسا ملقى فى الطريق مابين ترعة الاسمعيلية وكنيسة الافرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تخفرها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم الى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وكثرت ضوضاء العامة وقالوا ان صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وانه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللغط بذلك وانتشر فى القاهرة ومصر القديمة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجد أصحاب الشرطة

فى البحث عن القاتل وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلوا أن القاتلين للرجل جماعة دعاهم الى فعل القتل الطمع فيما معه من المال * وتحرير الخبر أن القتيل رجل من المزارعين من أهالى سيوط وله عادة أن يأتى الى القاهرة فى مثل هذه الايام من كل سنة لبدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء فى ذلك اليوم على سابق عادته فى احدى المراكب ومعه شئ من القمح والفول ليبيعه ويدفع ايجار الارض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطة الاسمعيلية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه ايجار الارض لصاحبها على عادته فى كل عام فلما نام الرجل آمنا مطمئنا فى حمى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكلته فانكبوا على الرجل وهو فى نومه وذبحوه ذبح الشاة وفتشوه فلم يجدوا معه شيأ لانه لم يكن الى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته فى كيس وألقوها فى الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعا وألقوهم فى الحبس لينالوا جزاءهم

(مطلب)
جبر البحر

ورسم الخديوى بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء فى خليج الخليفة المار بوسط القاهرة فى يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وان ينوب عنه فى حضور المهرجان ولى عهده الامير عباس فقام الامير من الاسكندرية فى يوم الاربعاء على قطار خاص فكان كلما وقف القطار فى محطة أطلقت له المدافع اجلالا وتعظيما حتى وصل القاهرة وقد كانت محطتها مزدانة بالرياحين والازهار وغاصة بجماهير الامراء والوزراء والعلماء والموظفين والوجهاء وقضاة المحاكم الاهلية وأعضاء مجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مشاة وركبان فى ساحة المحطة مع بعض العساكر الانجليزية فلما نزل الامير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية فسار بين هذا الجمع حتى ركب العربة والى يساره شقيقه الامير محمد على وركب أمامهما شوقى باشا ناظر الخاصة ودومرتينو باشا أحد رجال المعية وسارت بهم المركبة وخلفها الجند حتى الجفت الخديوى بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صوب فباتوا ليلتهم بالجفت فلما كان مساء اليوم الثانى فى نحو العشاء الاولى ركب الامير وشقيقه الى مصطبة فم الخليج وقد أعدوا لهما بصدر المصطبة سرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأنير بالثريات وصفت فيه الكراسى الملبسة بالحرير فجلس الامير واجتمع الناس فى تلك الساحة وفى الساعة التاسعة أحرقت الحراقات وأطلقت الاسهم النارية وجعل كبار القوم يدخلون على الامير ويهنئونه الى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته الى قصر الجزيرة فباتوا وفى الصباح عاد الى المصطبة وكان قد اجتمع هنالك الوزراء وموظفو الحكومة بملابس الزينة والتشريف وبعد برهة لطيفة أمر الامير بقطع السد فجرى الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانير فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب فى قلة من الخدم والحشم الى مدينة حلوان فقضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته فى الجفت الخديوى وأصبح يوم الجمعة فزار فى

مسائه المشهد الزينبي والمسجد الجامع والمسجد الحسيني ومن هنالك عاد الى الجفت وفى يوم السبت قضى هو وشقيقه نهارهما بين المطرية والقبة والاهرام ومتحف الجيزة وسافرا فى صبح الاحد عائدين الى الاسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمير وامتدحوه بالابيات الابيات فمن قال فى ذلك محمود أفندى حسنى المعاون بمحافظة مصر قصيدة طويلة قال فى مطلعها

وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام ولاحت شموس البشر للخاص والعام

وقال فى المديح

صفات صفت من معدن الجود والتقى صفات أمير القطر والسودد السامى

وقال فى الختام

جبرتم قلوب العالمين تكرما بتشريف جبر النيل فى خير أيام

وقال فى التاريخ

بذا لسعود القطر قلت مؤرخا وفى النيل بالانجال يمنا لذا العام

(مطلب) تحقيق دون غردون باشا

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لاصحاب الاموال بالسودان أيام حصار الخرطوم والنظر فى شكاوى النازحين من الاقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والاهلين فقد كان قناصل الدول فى سعى متواصل مع رجال الدولة فى ذلك فرسم الخديوى فى سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونت زالوسكى والمسيو لوشوقاليه والمستر موفى والمسيو روميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيو روكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر فى تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التى حكم بها قضائيا بأحكام صارت فى قوة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد الخزينة جميع الاموال التى تأمت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فاحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفا وستين جنيها مصريا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفا ومائتان وثمانية وخمسون للاجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالى على تباين مذاهبهم فعدلوا فيها ماشاؤا وحكموا بما شاؤا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الاهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الاسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدى هدرا

(مطلب) العثور على عبدالله نديم بعد هروبه

وشاع خبر عزم الخديوى على الحضور الى القاهرة من مصيفه بالاسكندرية وان بعض العيون أبلغت ديوانه الخاص بأن فى بلد الجميزة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبد الله نديم صاحب الطائف وخطيب

عصابة

عصاة الثورة العرابية وصاحب تلك الاحوال والاهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالامر وسير الى مدير الغربية مرسوما بتحقيق الخبر ومعرفة ذينك الغريبين فصدع المدير بالامر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس الى ذلك البلد فلم تكن الا أيام حتى عادوا فى ثانى ربيع الاول ومعهم عبد الله نديم بعينه ومعه خادم له اسمه صالح أحمد وكان عبد الله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شبها بعرب العبابدة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك الى ديوان الخديوى ونظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبد الرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكنشنر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلا فى ظهور عبد الله نديم بعد اختفائه كل هذه المدة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجيزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظار انفاذ الامر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم الى الشام واطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الامر بذلك الى مدير الغربية وبأن يرسل عبد الله الى الاسكندرية ليسير منها الى الشام فأنزلوه فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعاونى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضا على جماعة من أهل الجيزة ممن آوى اليهم عبد الله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبد الله الى الاسكندرية فأنزلوه فى سجن الترسانة ليلته تلك ثم أصعدوا فنقلوه الى احدى بواخر الشركة الخديوية الذاهبة الى الشام وقد رسم الخديوى الى ربانها بأن لايضيق على عبد الله ولا يشوش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شئ من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز الى عبد الله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحدثوا به كثيرا وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العثور عليه لا يكون الا الصلب أو قطع يديه أو النفى من أرض الشرق بأجمعه فوقع غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزلوه بيافا فأنزلوه بها قيل ففتح مكتبا لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسنت حاله

(مطلب) فتح جسر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة

وجاء الخبر الى الديوان الخديوى فى الاسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الانجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الاقليم القبلى فى هذا العام وعدم تخلف شئ من الشراقى الا النزر القليل من أطيان الحوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الاذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الاول من السنة وسابع عشر اكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة اليها بالاعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الاشغال العمومية والكولونيل منكريف والنابغة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باشروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية

وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف ونظار المزارعين وطوائف المهندسين من أجانب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الاخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا فتحوا خمسا من عيون تلك القنطرة فانحدر الماء انحدارا عجيبا ثم جلسوا على مائدة الطعام الذى أعده لهم المسيو زورو مقاول بناء القناطر فأكلوا جميعا وشربوا وعادوا الى القاهرة فى القطار الخصوصى الذى حضروا به ۞ وقد كان بناء هذه القناطر باشارة من الماجور روس فانه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الاقليم القبلى بسبب المياه التى تسلط عليه أوان انحدار مياه الحيضان القبلية الى حوض قشيشة وعدم تيسر ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الحيضان التى تنصرف اليه وضرورة وجود الموازنة فى مياه الصرف حرصا على فائدة حيضان الاقليم البحرى وانتفاعه منها أشار بعمل تلك القنطرة فاتفقوا مع أحد المهندسين الاجانب واسمه المسيو زورو وشريكه المسيو ونا فى أخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسى فأتموا بناءها وهى تشتمل على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفى عقود أحدهما فوق الآخر والصف الاعلى منها أبواب أفقية من الحديد المتين والصف الاسفل أبواب من حديد أيضا مركبة فى دروندات سطحية ترفع بواسطة مرفعتين متحركتين على خط حديدى مستوى الدورند من الامام ووزن الباب الواحد من الابواب العليا نحو سبعة وأربعين قنطارا مصريا ومن الابواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطارا وكيفية استعمال هذه الابواب هى أنه قبل أن يأخذ النيل فى الزيادة ترفع سائر الابواب العليا منها وتجعل أفقية فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى مياه النيل الى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك البوابات لكى تعلو مياه الحوض مما يرد عليه من مياه الملق ومياه البحر اليوسفى فاذا زادت المياه بالحوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجىء وقت الصرف العمومى فيفتحون الابواب العليا كلها حتى اذا ماهبط منسوب الحوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لسهولة صرف ما يكون قد بقى فى الحوض من المياه ــ وبصرف مياه قشيشة ابان الصرف يرتفع النيل عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الحوض والبحر فى ابان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة فى الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة ما بين عشرين وأربعين سنتى متر ــ وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين وستين ألفا وستمائة وعشرين جنيها مصريا فجاءت من أجل الاعمال الهندسية وأكبرها فائدة اذ هى تصرف فى النيل مياه سلسلة الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة على مسافة مائة وسبعة وسبعين ميلا تجمع خمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين

وخمسين

وخمسين فدانا وأخبرنى جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف فى كل عشرين يوما ألفى مليون متر مكعب فى السنين التى يكون نيلها عاليا وألفا وخمسمائة مليون فى السنين التى يكون نيلها منحطا فيكون صرفها فى كل يوم مائة مليون متر مكعب فى الحالة الاولى ومائة وخمسين فى الحالة الثانية ۞ قلت وكانوا قبل انشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ النيل موضع القنطرة الآن ردما محكما ويغطون سطحه بالاحجار الضخمة أيام الشتاء وينفقون على ذلك الكثير من المال فضلا عن تسخير العدد العديد من أهالى مديرية الجيزة وأهالى مديرية بنى سويف وبعض أهالى مديرية الفيوم فاذا جاء الصيف وبدأ النيل فى الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تشعث منه وبالغوا فى حراسته وأكثروا من التطواف عليه فى الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الحيضان القبلية فاذا جاء أوان صرفها الى قشيشة قام بحراسة ذلك السد مدير بنى سويف ومدير الجيزة وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العديد من أهالى البلاد القريبة والعمد والمشايخ فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضون ليلهم ونهارهم متأهبين لكل طارئ حتى يأتى الامر بكسر السد فيكسروه مع التحفظ والالتفات فتنصرف منه مياه الحيضان كافة الى النيل وهكذا فى كل عام يصرفون على هذا السد الشئ الكثير من المال ثم هم يكسرونه ويلقون به فى اليم حتى انشؤا تلك القنطرة فتخلصوا من جميع تلك المخاوف ۞ ولم يمض على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكيل نظارة الاشغال والماجور روس صاحب الايادى البيضاء فى أعمال رى الاقليم القبلى على ترك منصبيهما والعودة الى عاصمة الانجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير بارنج من البغض والشحناء قالوا لان الرجلين من أقيال القوم وأصحاب البيوتات العالية والمعارف السامية فلم يخفضا جناح الطاعة العمياء الى ذلك الداهية ولم يطيقا الصبر على ذل النفس واكراهها على مالا ترضاه فبادرا الى اعتزال المنصب وترك السير بارنج وشأنه فى هذه الارض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من صنائعه والملتفين حوله من شبان الانجليز الاغرار حتى اذا قال لاحدهم قم قام أو افعل فعل بغير أخذ ولا رد ۞ فلما كان أول ربيع الثانى من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس النظار بغير حضور الخديوى وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارستن لوكالة نظارة الاشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الاقليم البحرى والمستر براون لتفتيش رى الاقليم القبلى والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع انشاؤها باسوان عند قصر أنس الوجود والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث واسمعيل بك سرى لرى القسم الرابع — وأن يؤتى باثنين من الانجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الاول وثانيهما رى القسم الثانى فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هى حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها أعناق أهل البلاد ما دامت مصر مغنما والانجليز ساداتها وقال آخرون ربما كان فى تخلف

الخديوى عن الحضور بجلسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالاسكندرية . فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الاسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال دوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الامراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطار أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجند هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار الى مقره بسراى عابدين وكان قد تم بناء ماتهدم منها وكل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شيأ كثيرا جدا وكان يعمل فيها من الصناع والبنائين وأصحاب الصنائع الاخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة — وبالغ أهل القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والالعاب النارية اجلالا لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف فى تلك الشوارع ويحيى الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه والدة ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعا الى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على بابه الشعراء والقوالون وأتت الى دوانه قصائد التهانى والمدائح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بك حسنى الطورانى يرحب فيها بالخديوى قال فى مطلعها

توسمت بدر الفوز من مطلع اليسر   فبشرت آمالى بطالعة البشر

وفى مخلصها

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى   ولولا سنا توفيق ما عدت الشعر
له موكبا بأس ولين كلاهما   أقام المنى والأمن فى البر والبحر
أنام الورى فى أمنه وهو ساهر   وأتعب منه النفس فى راحة القطر

وفى ختامها

وأرخ بافراح القدوم زها الهنا   وقل عاد توفيق المليك الى مصر

وقال فى ذلك أيضا محمود افندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر

بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا   وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا

وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى

لسان اسعادها نادى يؤرخها   بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا

ثم شفعها بتاريخ هجرى آخر قال فيه

بالصفو عاد الخديوى والانس بالبشر عرف
ياقطر فاهنأ وأرخ بالحسن توفيق شرف

ومضت أيام الافراح والزينات والناس متشوفون الى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الرى الى جماعة الانجليز واطلاق أيديهم فى شؤونه فلم تكن الا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مرتبات أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة فى كل سنة وستمائة فقط الى اسمعيل سرى بيك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلط حينئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه فى ذلك فوق كل حكمة * فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل ترعة المحمودية عند جسر جر النوتية وان الماء قد انحبس عن الاسكندرية وانهال على ملاحة مريوط وأن سبب ذلك اهمال أصحاب الرى ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الاسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وان الاهالى فى قلق واضطراب لاسيما الاجانب منهم وقد تزاحمت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظ الاسكندرية وسعد الدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الانجليز الى مكان القطع وحشدوا الانفار وجمعوا بعض الصناع واشتدوا فى العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدار الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد العناء الكبير من سده ورجعت المياه الى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث الا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسيوط بأن قد جرت المياه الى حوض الزنار وغمرتها ثانية بعد انقضاء أوان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأماتتها جميعها وان قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام جهات الاختصاص على أصحاب الرى ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الرى الذين تسلموا زمامه فى هذه الايام فأكبر الخديوى الامر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى فى ذلك فأوعز الرئيس الى مدير أسيوط بملاطفة أصحاب تلك المزارع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يتروى فى الامر * ثم كلم أصحاب الرى فى شكوى أهالى حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الاحواض فقام على الفور الماجور براون مفتش رى الاقليم القبلى الى أسيوط وغاب أياما ثم عاد ورفع الى نظارة الاشغال تقريرا قال فيه — ان الضرر الذى أصاب الزروعات بذلك الحوض ليس بالامر العظيم لان المزروعات تتراوح ما بين مائتين الى ثلثمائة فدان وان أصحاب الرى لم يخطؤا فى عملهم عند فتح الحيضان للصرف وان الاهالى كسروا سدا لم يشر أصحاب الرى قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه الى الحوض يعنى حوض

الزنار وغرق تلك المزروعات * وعلم مدير أسيوط بما قاله الماجور براون فأنكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال ان الاهالى لم يكسروا شيأ من السدود وان الخطأ كل الخطا فيما فعله أصحاب الرى * وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزنار وأنذر بعضهم نظارة الاشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الاخبار يقرعون جماعة الانجليز ويرجعون على أصحاب الرى منهم باللائمة ويقولون انهم أغرار يجهلون طرق الرى المصرى ولا يعرفون شيأ من وسائل الحيلولة بين النافع منها والضار وان اعطاءهم تلك الجماكى الفادحة ضرب من الجور ومحنة كبرى لا دواء لها وصاح لصيحتهم هذه أيضا بعض أصحاب صحف الفرنسيس فأكبر الرئيس مصطفى فهمى باشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتناجوا طويلا وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمد سعد الدين باشا وعامر عبد الربيك واسماعوم بيك لتحقيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصحابها من الخسائر واقامة الدليل على ما اذا كان الخطا الناجم عنه تلك الخسائر واقعا بفعل أصحاب الرى أو الاهالى أوغيرهم فساروا الى أسيوط وقد أحس السير بارنج بما وراء ذلك فعمل على استرضاء الكولونيل مونكريف والماجور روس واستبقائهما فى منصبيهما حولا آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاما أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم الى حين ثم خففوا من مطالب أصحاب حوض الزنار واسترضوهم بشئ من المال فسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعد ذلك فى خبر كان

(مطلب) ما أبطل من المغارم والمكوس

ورأى منلر وكيل المالية عند عمل ميزانية الخزينة لسنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد ايراد الخزينة شيأ كثيرا من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بها من سلطان وهى غل فى أعناق الفقراء من أهل البلاد فأخذ منذ ولايته يدبر الامر على ابطالها ويعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد وما زال دائبا على ذلك وبعض كبار الانجليز يمانعونه حتى تمكن فى أخريات ربيع الثانى من السنة وأخريات ستمبر من اعفاء بيوت القاهرة ومصر القديمة التى لا يتجاوز ايجارها فى السنة خمسمائة قرش من الاتاوة السنوية ومن ابطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعة الطب والولادة والجراحة الصغرى ومهنة القوابل والمحلات المعدة لبيع العقاقير والمواد الاقرباذينية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مصر والاسكندرية وخصصوا دخل دخولية الاسكندرية لمجلس بلديتها وأبطلوا كذلك السخرة والعونة وما يتبعها من البدل النقدى وتكفلت الخزينة بالنفقة على خفارة الجسور والاعمال المستعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل ففرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الازمة بعد أن استحكمت حلقاتها

وانى

(مطلب) ماوقع من التبديل في قضاة المحاكم الشرعية

والى هذا الحين أى الى شهر ربيع الثاني من السنة كان المستشار القضائي قد كاد ينجز ما أراده من القلب والابدال فى هيئة القضاء والقضاة بالمحاكم الاهلية وأعضاء ورؤساء النيابات كما تقدم القول فلما كانت أخريات الشهر عمد الى التغيير والتبديل فى قضاة المحاكم الشرعية أيضا فقد بده الى محاكم الجيزة واسيوط وبنى سويف والغربية والشرقية وسيوه وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الافتاء بالمديريات ثم انقلب على محكمة الاستئناف الاهلية فنحى عبد الحميد صادق باشا عن مركز رئاستها فتولاها ابراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة مصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله وأكبر فى القلوب هيبته وتمكن من منصبه أى تمكن واستبد بالامر حتى بلغ الغيظ من حسين فخرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى على ابراهيم فؤاد بيك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمة الاستئناف فقال الناس انه سيخلف حسين فخرى باشا فى منصبه وشاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الاخبار فى حكم الشئ المقرر لان السواد الاعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين فخرى باشا فى عداد وزارة مصطفى فهمى باشا لبغض جماعة الانجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم وراء خذلانه * فلما كان صبح الثانى عشر من جمادى الاولى من السنة أى رابع عشر ديسمبر ذهب السير بارنج الى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا معه فى كيفية افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض مجلسهم وذهب كل منهم الى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جاء الطلب من الديوان الخديوى الى حسين فخرى باشا فقام من فوره وتمثل بين يدى الخديوى فقال له الخديوى ان الرئيس مصطفى فهمى باشا قد شكا الىّ منذ أيام مما هو بينكما من الخلاف والتباين فى الرأى ويقول انه يستحيل اتفاقه معك وقد أتانى اليوم وعرض علىّ خصلة من ثنتين اما أن يخلع نفسه ويترك منصب الرئاسة واما أن تخلع أنت من مسند الحقانية فقال يامولاى انى لا أريد أن أكون حجر عثرة فى سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسى وتركت منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين فخرى باشا من حضرة الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الاوراق الخصوصية فأتوه بها ـ حدثنى أحد المقربين من باب الخديوى قال ـ خرج حسين فخرى باشا فى ذلك اليوم من حضرة الخديوى وهو يجر أذيال الغيظ ويعض اصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع فخرى باشا انما هو مكره عليه من أسكوت ومدفوع اليه من السير بارنج وأن خلع فخرى باشا وتنحيته عن منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تعب أسكوت بالاجازة فلما غاب أسكوت وحان الاجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامزها على أحد من العالمين ـ قال ولقد كان الاجدر بحسين فخرى باشا أن لايبقى فى هذا المنصب

المحفوف بصنوف المكاره الى أن يكرهوه على التخلى عنه فان ذلك يحط من الكرامة وتأباه الشهامة — قال — وبعد فقل لى بحقك من ذا الذى يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة اذا لم ترض جماعة الانجليز طاعتهم أو لم تعجبهم شمائلهم * ان الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم فى هذه الايام هى تمزيق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤس الملا من أنه لا رجال فى مصر يحسنون التصرف فى مناصب البلاد اهـ

واتفق أن أحمد بليغ بيك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب فى ليلة اليوم الثانى لخلع حسين فخرى باشا مأدبة لابراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا فى تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابات فأكلوا وشربوا وبينماهم حاصلون على أكمل ما يكون من أسباب الأنس والصفاء اذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ ابراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوى من توليته مسند نظارة الحقانية بدلا من فخرى باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهنأه الحاضرون وأصبح فسار الى مقر الخديوى بعابدين فهنأه الخديوى بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جمادى الاولى وسابع عشر ديسمبر من السنة موعد افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوى الى ابراهيم باشا بالذهاب الى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف * وركب الخديوى كذلك عربة التشريف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوى وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار الى قاعة الشورى فلقيه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس فى احدى غرف المكان فقدموا اليه عمد البلاد المنتدبين لعضوية الجمعية العمومية فحلفوا بين يديه يمين الامانة اذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الاخيرة ثم دخل الخديوى القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الاعضاء الخطبة المعتادة ثم قال ان الغرض من اجتماعكم فى هذه المرة هو النظر فى مشروع تقليل فئات ضرائب الاطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع انما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه عما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع الى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الاعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصدده وفى ثانى يوم سادس عشر جمادى الاولى رسم الخديوى بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من ابراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحا جذلا عما ناله من الظفر والغلبة على حسين فخرى باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن الا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوى أيضا بتولية اسمعيل صبرى بيك رئيس محكمة الاسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق فى نفس أسكوت بعد ذلك حاجة الا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى

رياض

رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس القضاة والنواب وأعضاء النيابات شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهى زنار من الحرير فى عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الاحمر والاخضر اللذين هما لونا الراية المصرية العثمانية فكانوا اذا جلسوا فى كراسى القضاء تقلدوها على صدورهم وألبس كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الاسود على شكل الفروجيات أو أقبية العلماء وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الازهر يلبسونها عند الوقوف فى موقف المحاماة وقد كانت هذه الشارات والاكسية من مبتكرات شفيق بيك منصور على عهد ولايته وكالة النيابة العامة ولكنه رحمه الله لم يقدر على اخراجها الى عالم الظهور لممانعة مصطفى رياض باشا فى ذلك أيام رئاسته فأهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد فى محاكم البلاد ‎* وكما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل وأدنى من قضاتها من شاء وأقصى منهم من شاء وسن لهم السنن وقنن القوانين فعل كذلك كتشنر باشا فى نظام الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمى الجند وقد بالغ فى الحيطة وإحكام التدبير لعله يتمكن من قطع دابر اللصوصية وارهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لابنائها فكان له فى كل يوم منذ تولاها شأن جديد وعزم لا يفله الحديد وكان لا ينكف عن التجوال بين الاقاليم القبلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسسها وسبر مشايخ القرى وعمدها وما يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والاسباب وقد غير وبدل كثيرا من ضباط الجند وسن لهم السنن وقنن القوانين الصارمة وسن كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والاجانب سكان المدن والمتشردين من القشاشين لا يقدر على العمل به الا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه فى تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المآل وخشن قناصل الدول للرئيس مصطفى فهمى باشا بسببه المقال وظلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد مع أعضاء شورى البلاد باهماله والكف عن مشاغبة الناس الى حين ‎* وكذلك فعل المستر منار وكيل نظارة المالية فانه لما ساءه مافعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد على مأمورى الحكومة بجمع الخراج فى غير آجاله وبشه أصحاب الجباية فى شرق البلاد وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض باشا من الوحشة والجفاء واستفحال العداء الى الحد الذى بيناه فى محله عمد من ذلك الحين الى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت اليه حالة أهل البلاد مع المرابين وتجار الارياف من جماعة الروم وغيرهم وفى أسباب استداناتهم وما عليهم من الديون المتراكم بعضها فوق بعض وفى كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدى أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن الى صاحب سياستهم على أن فلاحى البلاد فى أشد ما يكون من حالات العسر والافلاس وعلى أن البلاد فى أحرج المواقف وأدناها من مهواة الدمار وعلى أن فعال رياض باشا يومئذ كانت ضربا من العسف بأهل

(مطلب) مافعله كتشنر باشا من النظام

(مطلب) مافعله المستر منار وكيل المالية

البلاد وتغريرا بأصحاب الوظائف الديوانية من جماعة الانجليز فرفع الى صاحب سياستهم صحيفة مطولة فى معنى ما ذكر وتناقل ما فيها أصحاب صحف أخبارهم الكبرى كالتيمس والدالينيوز وغيرهما وتعقبوا عليها بشئ من قارص الكلام وقد أحصى منلر فى صحيفته تلك حماه الله ما على أهل البلاد على اختلاف درجاتهم من الديون المسجلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لاولئك القوم الى أخريات سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنيها مصريا وان ما حبس لوفائها من الاطيان بلغ ألف ألف وثلثمائة ألف وأربعمائة فدان ومن العقار تسعة آلاف وخمسة وتسعين عقارا هذا عدا ما استدانوه فى سنة احدى وتسعين الحالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعية وفضلا عن المبالغ المتعامل بها بين الاهالى والأفراد الأخر من الاجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف جنيه وأطنب منلر فى المقال وأكثر من البرهان على وجوب تعديل الخراج والتعجيل بالتخفيف عن أهالى مديريتى الحدود واسوان وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا ومدحوا منلر وقالوا « اذا تزاحمت الخيل فمن سعد الركاب » وجعل منلر من هذا الحين يكثر الترداد مابين مجلس النظار ومجلس شورى البلاد حتى تم له ما أراده من التخفيف عن تينك المديريتين وتقررت قاعدة ذلك بينهم

(مطلب)
مرض الخديوى توفيق باشا ووفاته

واتفق أن ذهب السير بارنج فى سابع عشرى جمادى الاولى من السنة أى تاسع عشر ديسمبر الى سراى عابدين ليكلم الخديوى فيما وقع الاتفاق عليه مع منلر فعلم من رئيس التشريفات أن الخديوى بعد أن كان على عزم الانحدار من قصره بحلوان الى عابدين على عادته فى كل يوم وقد أخذ رجال ديوانه الاهبة لذلك جاءهم الخبر بعدم قدرته على الحضور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصدر فعاد السير بارنج الى مقره ولبث يومه ينتظر الخبر فاذا بهم أرسلوا يقولون انه قد شعر فى ذلك اليوم بقشعريرة أتعبته ولكن الاعراض ليست شديدة وليس فيها ما يدعو قط الى القلق * فلما كان اليوم الثانى أى ثامن عشرى جمادى الأولى سار السير بارنج وجماعة الوزراء وبعض الكبراء الى حلوان للسؤال عن صحته فعلموا فى طريقهم بأنه انحدر من حلوان الى القاهرة فعادوا ودخلوا عليه بمقره بعابدين فشكا اليهم ما يلاقيه من أعراض النزلة وبات ليلته تلك بسراى القبة ثم عاد فى ثانى يوم الى حلوان فلم يصلها حتى اشتدت به الاعراض فلازم مخدعه ولم يخرج منه واستدعى طبيبيه الخصوصيين وهما سالم باشا سالم وعيسى باشا حمدى فأثبتا أنه مصاب بالنزلة الصدرية فى درجتها البسيطة وبقى على هذه الحال الى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديوانه قد أعلن عزم الخديوى على أن يأدب فى هذا اليوم أى خامس جمادى الآخرة مأدبة يحضرها ثلاثون مدعوا من الأمراء والعظماء ومقد... العسكرين المصرى والانجليزى وقد كانوا أخذوا الاهبة والاستعداد لذلك فلما اش...

حتى
ستدت به
علته

علته شاع الخبر بأن قد أبطلت تلك المأدبة وتأجلت الى يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ثم جاء الخبر الى القاهرة بتقدمه الى العافية وزوال البأس عنه وتكلمت صحف الاخبار فى ذلك وهنأ بعضهم بشئ من مليح القول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الخديوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيبه عيسى باشا وشكا اليه ألمه فجس الطبيب نبضه فاذا به على أشد ما يكون من السرعة وكذلك الحرارة على أشد مايكون فسهر عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه اعراض أخرى خطرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحالة قد بلغت أشدها وأن الخديوى على شفا جرف الموت فطيروا الخبر الى صاحب شركة سكة حديد حلوان باعداد قطار خاص يستحضر بعض الاطباء من القاهرة فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى حضر الطبيب كانوس والطبيب هيس فلما عاينا حالة الخديوى قالا انه فى النفس الأخير وأن لامفر من القدر المحتوم وكان الى هذه الساعة قد اشتدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة

ان الطبيب له فى الداء مخبرة ... مادام فى أجل الانسان تأخير
أما العليل فان حانت منيته ... تاه الطبيب وخانته العقاقير

وقضى الاطباء الليل كله فلم تنجح لهم طريقة وبقى الحال هكذا الى الساعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الاطباء جماعة آخرون ليشاوروهم فى الامر فحضر الطبيب أمبرون والطبيب بنيت والطبيب ويلد فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل فى النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر الى القاهرة بطلب هؤلاء الاطباء تسارع كبار قناصل الدول والامراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم الى حلوان * ومنذ الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعى وسأله الطبيب كانوس عما يؤلمه فلم يجبه بشئ سوى هذه الكلمات « هاتوا لنا الضوء » فتحقق جماعة الاطباء أنه قد دخل فى غمرات النزع الأخير واستمر النزع الى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصياح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعويل فهب الناس من نومهم وتسارعوا الى رحبة القصر وكلهم باك منتحب ووصل الخبر الى القاهرة اذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الامراء يخبرونهم بالحادث وانتشر نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم الى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارنج قنصل جنرال الانجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقروا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى الى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل الى المابين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسراى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى وكتشنر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة



والاتيان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر الى الباب العالى قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجىء الاذن من صاحب السياسة الانجليزية

ونشروا فى ضحوة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية * الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى الى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة ثامن ينايرسنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف فى الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة افرنكى ليلا بسراى حلوان * وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا حلمى تلغرافيا (بوبانا) وينتظر قدومه لمصر بوابور مخصوص وسيدير أعمال الحكومة الى حين حضور سموه مجلس النظار تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا

الاحتفال بجنازة جنتمكان الخديوى سيكون فى الساعة الثانية على الحساب الافرنكى بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والجنازة ستشيع من سراى عابدين

وابذانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير

وانتشر الخبر وذاع ونقله البرق الى الاسكندرية وسائر المدن والبلدان فى داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الاوربا وية فى تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الاعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصابيح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأناروها فى النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوكة والمخازن والدكاكين والمدارس والمكاتب ورفع قناصل الدول أعلامهم منكسة وجاء الى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والاعيان وفى الساعة الاولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان فى قطار مخصوص فسار به الى القاهرة وكان قد ركب فى القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الاهلين والاجانب ممن جاؤا حلوان فلما وصل القطار الى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة * وقد كان مقيما فى بلدة مغاغة فى الاقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فانحدر الى القاهرة مسرعا * واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعدد العديد من الوجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جند الحرس وسار المشهد الى سراى عابدين بين الزحام وولولة النساء من الشبابيك وأسطحة الدور فلما وصلوا الى السراى قابلهم العلماء والرؤساء الروحيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوكة والتجار وأرباب الاشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الاهالى والقادمين من الاقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فمشت أمامه جمال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجانة ثم جماعة من الفوارس المصرية وأمامهم رجال الموسيقى ساكتة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم حملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجاجيد وأرباب الاشارات وبأيديهم البيارق

ثم تلاة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاة الاحزاب والاوراد ثم نقباء الاشراف والاشراف ثم مشايخ التكايا ودراويشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الازهر ثم تلامذة المكاتب الاهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والامراء والكبراء من الاهلين والاجانب ثم موظفو النظارات والمصالح فى العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والاهلية والافوكاتية والمحامون ومدبرو صندوق الدين والسكك الحديدية والدائرة السنية والدومين ثم الرؤساء الروحيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظار ثم الامراء من البيت العلوى والغازى مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القماقم والمباخر ثم أولاد الكتاتيب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصرى ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيد وبعض ماعنده من النياشين

وخرج المشهد من سراى عابدين الى شارع عبد العزيز الى العتبة الخضراء الى الموسكى الى السكة الجديدة ومنها الى المشهد الحسينى فوضعوا هنالك النعش وصلوا عليه ثم حملوه الى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع الى رحبة عابدين حيث نصبت السرادقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعزاء كما جلسوا للعزاء أيضا بسراى القبة وقصر حلوان فلم تكن الا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس الى الرئيس مصطفى فهمى باشا يقول — ان خبر وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلتى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصرى أيضا فتى وصلتنى منكم الاخبار الاكيدة عن الوابور الذى سيصير تحضيره فى تريستة أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر وانى على يقين من أن الاعمال ستستمر سائرة الى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم اه

وجلسوا للعزاء ثلاث ليال متواليات ثم جعلوا يجلسون فى مساء كل يوم خميس الى تمام أربعين يوما — وفى ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج اشارة من ملكة الانكليز وامبراطورة الهند يطلب موافاتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قبل فارسل السير بارنج خبرا مفصلا للحادث وجاءت بعد ظهر اليوم الى الغازى مختار باشا والرئيس مصطفى فهمى باشا ارادة سلطانية مؤداها — انه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية الى الأمير عباس وكالة أشغال الحكومة الى الرئيس مصطفى فهمى باشا وبقية النظار الى حين حضور الخديوى عباس وانه برفع هذا القرار الى أعتاب المتبوع الاعظم صدرت الارادة الشاهانية بالموافقة عليه — فعقدوا فى الحال مجلس النظار وقرروا تبليغ هذه الارادة السلطانية الى سائر قناصل الدول وأن يوالوا الاجتماع فى كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد



واختلفت الاقوال فى مرض الفقيد وفى كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الاطباء الذين شاهدوا الفقيد قبل موته بقليل أن عـدم العناية بالعـلاج واهمال مراقبة سير المرض كانا سببا فى تسمم دم المريض واختلاط علته الاصلية التى هى النزلة الصـدرية بعلل أخرى أودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الامراء من البيت العـلوى وقبل الســير بارنج تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيبين فسأل الرئيس مصطفى فهمى باشا الطبيب هيس والطبيب كانوس أن يبديا رأيهما فى ذلك وكلم والدة ولى العهـد فى هذا الامر فلم توافق على مقاضاة الطبيبين ورفع الطبيب هيس والطبيب كانوس تقريرا قالا فيـه — فى الساعة الرابعة الافرنجية من صباح الخيس سابع ينابر الجارى دعينا للتوجـه الى حلوان على قطار مخصوص لاجل عيادة الجناب العالى فوصلناها منتصف الساعة السادسة الافرنجية من الصباح واستقبلنا هنالك سالم باشا الطبيب الخصوصى بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالايجاز أن الجناب العالى أصيب منذ ثمانية أيام بالنزلة الوافدة وكان سـير المرض الى البارحة عاديا وان الحمى لم تشتد وطأتها الا فى الليلة الماضية وأن الجناب العالى كان يعانى الارق وضيقا فى التنفس وبعض الالم فى الجانب الايسر وانه لاجل تخفيف الالم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعـد هـذا التعريف الى غرفة المريض اندهشنا اذ رأيناه فى حالة موجبـة للقلق الشديد وكان منظره على العموم متغيرا ولونه أصـفر وبصره شاخصا وكان متكئا على أذرعة جاريتين وظاهرا عليـه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عـدم ابصاره للضياء وبالفحص وجـدنا أن الحمى بلغت درجة أربعين وان ضربات النبض سريعة وضعيفة جدا ويمكن ايقافها بسـهولة ثم فحصنا الجسـد فوجدنا ارتشاحا شعبيا رئويا زائدا فى الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة فى الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هى بهـذه الشدة فانها ليست كافيـة لاحداث الاعراض الخمسـة التى كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا الى فحص الوظائف الاخرى وخصوصا الكليتين وباستيضاحنا من الاطباء المعالجـين عن حالة البول كان الجواب أن لا شئ فيـه خارجا عن الحالة المعتادة وعنـد ما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشـددنا فى التنبيه على اتباعـه ثم رجعنا الى مصر لاخـذ الاحتياطات اللازمة لمرضانا والعودة الى جنابه العالى فلما رجعنا الى حلوان فى الساعة الواحدة الافرنجية بعـد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت فى الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وان الاعراض التى فى جهة الصدر قد اشـتدت وفوق ذلك ان الاعراض المخية قد وصلت الى درجة ينقطع معها الامل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم الدم بالبول فألححنا فى طلب البول فعلمنا حينئذ ان جنابه الفخيم لم يبـل منـذ الليلة الماضية فأدخلنا المجس وتحصلنا بواسطة القسطرة على كمية صغيرة من بول أسـود قاتم فحللناه تحليلا كيماويا اتضح منـه وجود كمية عظيمـة من الزلال فى البول فقادنا ذلك الى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو ان الجناب العالى بعـد اصابته بالنزلة

الوافدة

الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن مصحوب بالتهاب وريدى عفن أيضا وانه فى هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم يمنعنا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفعالة حسب ما يقتضيه فن الطب وان لم تجد نفعا ومزيد الاسف علمنا انه لا بد من الوفاة التى حصلت فى الساعة السابعة وربع مساء اه فتحقق الناس طرا أن الوفاة كانت بسبب اهمال الطبيبين وخصوا الخطأ كل الخطا بالطبيب عيسى باشا لاخفائه خبر احتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المثانة المزمن وتحدثوا فى ذلك كثيرا فكان سمر ليلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضهم بأن سيقبض على الطبيب عيسى ويودع فى ظلمات الحبوس حتى تتم مقاضاته ثم شاع بعد أيام ان والدة ولى العهد لم تسمح بذلك وأنها اشارت على الرئيس مصطفى فهمى باشا بالكف عن متابعة هذا الحادث فانكف اذ لم يبق الا التفويض لله الواحد القهار الذى لا يزول ولا يحول وهو وارث الارض ومن عليها واليه المآب

قلت * وهو محمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد فى يوم الخميس عاشر رجب سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المنيل فتعلم فيها العلوم الاولية ثم انتقل الى التجهيزية فتلقى بها علومها واللغات العربية والافرنسية والانجليزية والتركية والفارسية ولما بلغ التاسعة عشرة تولى رئاسة جلسات المجلس المخصوص فى سنة ثمان وثمانين ثم تولى نظارتى الداخلية والاشغال العمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظار قبل توليته الخديوية بقليل وفى سنة تسعين ومائتين تزوج بابنة الأمير الهامى بن عباس باشا الاول والى مصر وفى سنة احدى وتسعين ولد له بكره الاول الأمير عباس وفى سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفى سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفى سنة ثمان وتسعين ولدت شقيقتها الأميرة نعمت هانم وتولى الخديوية المصرية فى يوم الخميس سابع رجب الفرد سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشرى يونيه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبعا وعشرين سنة هجرية الا ثلاثة أيام وأقام فى هذا المنصب ثلاث عشرة سنة الا شهرا ومات فى ليلة الجمعة لسبع مضين من جمادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية الا ثلاثة وثلاثين يوما ـ وكان رحمه الله شفوقا على رعيته يواليهم فى شدائدهم و يعفو عنهم كثير التساآل عن حالهم وما هم عليه فى إبان الشدة والرخاء وكان بارا بذوى قرابته مع رأفة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروءة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وانفاق فى الخير وتصدق فى السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكسة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة ان سرت يوما أحزنت أياما وان صفت عاما كدرت أعواما وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد فى وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر مللا ولا ضجرا ولا قنوطا بل كان دائما هادئ اللب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدور وقد رثاه الشعراء وأبنه

الفصحاء وبكاه أصحاب الصحف على اختلاف مذاهبهم فمن قال فى ذلك صاحب المؤيد

هى الدار ما الآمال الا فجائع   عليها وما اللذات الا مصائب

فكم سخنت بالأمس عين قريرة   وقرت عيون دمعها الآن ساكب

يا لله أىّ خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة القلوب قد تولت على خاطر كل انسان وخارت القوى وحارت النهى ووهى العزم وخان الجلد فانا لله وانا اليه راجعون ثم آمنا بقول القائل

ألا كل شئ ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

وأىّ نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جارحة بالشكل فلا عجب ان ناحت الثاكلات وأوحت الى المحاجر كيف تجود بالعبرات فانا لله وانا اليه راجعون

يا لله عما ذا نسمى الداهية الدهياء والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حوادث الايام فقضت باليأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأنين وعلى الأحداق بالرنين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدى الحادثات فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذات الجوانح

فلقد أبى لك أن تودع خلة   رثت وكان حبالها أرماما

كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنيا وموضوع سعادتها قد تولى

وهل تستطيع النادبات الى العلا   تقول بفقدى الملك بعد الذى حلا

وفى نعيها نعى الملوك بأسرهم   ودون الذى تنعيه كم حادث جلا

فيامصيبة الملك والدين والدنيا بعد أن قضى توفيق أمير البلاد المحبوب نحبه وعاجله المنون فانا لله وانا اليه راجعون

وقال صاحب الاهرام

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الامر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

طلع على مصر صباح اليوم بما أظلم ضحاها وودّ الناس معه لو طال ليلها وامتد دجاها ينعى الى رجالها خطب فقد تقومت لمنعاه الاضالع وفقد عظيم ارتجت لوقعه القلوب واستكت لمنعاه المسامع فقامت تندب بفقد اميرها الكريم على توفيقها المحبوب وتبكى على عزيزها العظيم بما استنزف شؤون المدامع واستدر حبات القلوب وكيف لايبكى الوطن على من كان له أبا شفوقا بل كيف لا تسفح عين العدالة والمكارم على من كان لها خدنا ورفيقا بل كيف لايندبه وطن ساوى بعدله بين جميع سكانه حتى ذهب كر عما مندوبا ينشده الحال بلسانه

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم   أخا ولذى التقويس والكبرة ابنما

فلتبك عليك البلاد ياتوفيقها عدد انعامك وعدلك وتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار

ما خزنت فيها من حبك وفضلك فانها لو بكتك بما لك فى نفوسها من الفضل والمكارم اذن ما رأينا مقلة الا وهى دامعة ولا مدمعا الا وهو ساجم فعليك رحمة ربك من ذاهب ذهبت الاكباد على آثاره وفقيد فقدنا الصبر من بعده فحل محله شديد تذكاره وكريم تولت المكرمات لما مات وواعظ مرشد هدى الناس فى الحياة حتى هداهم فى الممات فأى آثار فضلك لاينديون بعدك وأنت لم يطلبوا منك محمدة وعدلا الا وجدوهما عندك بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا رحيما كما أنت أبو العباس أمحاسن فضلك أم ما ثر عدلك أم فيض مراحمك أم غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم اعراقك

أى الفضائل منك نندب فقدها يا ابن المكارم يا أبا العباس
فلقد حويت من المحاسن مثل ما جمعت جميع الناس لفقة ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود فى تأبينك ان كنت أبقيت لغير الحزن مجالا فى قرائحها وللاقلام أن تبكيك بدمع محابرها وللكتاب أن تتفجع عليك بما يسود وجوه دفاترها فلقد طالما بيضتها بمحاسن أعمالك ومعاليك فصار يحق لها أن تلبس أثواب الحداد من خط مراثيك فانك الراحل الذى لم يحمل مطاياه غير القلوب والمودع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتهبة ودمع مصبوب فنحن نودعك بما أبقى فقدك فى نفوسنا ان كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالها ان كان يوجد مثلها رزية رحمك الله رحمة واسعة عداد حسناتك وأجل أجرك وأجر البلاد فيك بعدد مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك

ثم نتقدم بعدك بالعزاء الى صاحبة الطهر والعفاف والنجلين الكريمين اللذين يعز علينا أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهنئك ببدريهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من جلل المصائب ومثل آلك المصون من عودته على اتقاء الخطوب واستقبال النوائب فانا عهدنا الصبر على قدر قلب الثاكل كما عهدنا الاجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم والى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله أن يعوضهم وايانا جميل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الاجر فانك لم تخل قلبا من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفسا قط الا فى مماتك

ومن يحزن الناس فقدانه يسر ملائك دار النعيم

هذا ما سمحت به بادرة الحزن وأجازه على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعه مقام الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيق والقلب أصغر وأحرج ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

يادهر بع رتب المعالى بعده بيع السماح ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من تشاء فانه مات الذى قد كنت منه تستحى

وقال صاحب النيل

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير

سمو ولى نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالامس محمد توفيق الاول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز هو اليوم ساكن الجنان فى جوار رضوان عليه الرحمة والرضوان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

قد مات توفيقنا والدائم الله فليهرق الدمع ولتستتبع الآه
مات الخديوى الرحيم البر فطرته قديسة ملكيات سجاياه
قضى فيا حسرة الملك العظيم له ومات فلتندب العلياء علياه
فازت بطلعته الاخرى و يا أسفا أضحت تعزى به من بعد دنياه

إى وربك ان خديوينا العزيز أمير مصر المحبوب توفيق الاول قد فارق الدنيا مأسوفا عليه بقلوب الامة ميكى الشمائل بدموع الوطن انتقل الى جوار مولاه طيب ثراه وأكرم فى الفردوس مثواه فترك القلوب تسامى الجيوب فى الانشقاق وودع العيون المتدفقة تجارى المهج المحترقة فالتقى النهران دم براق ودمع مهراق وحق لهول هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق

بكينا خديوينا العزيز وانما بكى كل مصرى أميرا ووالدا
ولو أن فى الاقدار مايبلغ المنى تمنى بنوها أن يكونوا له الفدا

يعز على الاقلام التى كانت تستمد الخير من آثار حكمته أن تبتلى بصب دموع المداد يوم رحلته رحيل مدهش وسفر بعيد وأوب غير منتظر الى يوم موعود رسم وداع لكن الى الابد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحزن قهار وقلوب فى نار وعقول فى انبهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع » أيها المولى المنعم البر بالامة الرحيم بالملة المشفق بالكل الذى لا نشكو منه الا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع يامن سهر لياليه لتنام الرعية فى مهد أمانه وأجهد أيامه لرغد عيش الامة تحت ظلال فضله واحسانه لقد قضيت عمرك العزيز وحياتك الشريفة وأوقاتك الناضرة وشبيبتك الوضاء فى توخى الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العمومية لم تلهك الدنيا بزهرتها ولم تلفتك جلالة الملك عن التماس رضا الخالق بالاحسان الى الخلائق فلم يسوءهم منك الا حزنهم عليك وبعدك عنهم وهم فى حاجة اليك « الوداع الوداع » يامن لم نر من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت القريب من الضعيف الرفيق بالبائس العافى عن المسيء المتفضل على المحسن المعزز لأبناء الوطن المحب لخير البلاد المعين على السراء والضراء فنعم سيرتك الجميلة وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضية ووجهتك المرضية

شيم ينقضى الزمان وتبقى   وثناء تبلى الليالى و يبلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكيناها وفواضل كلما تأثرنا بها فعليك الرحمة والرضوان وغاية الحديث فى عالم الامكان كان وسبحان من يبقى وكل شئ فان نودعك يا خديوينا العزيز بقلوب واجفة وعيون واكفة وأفكار مضطربة مضطرمة وأذهان مستوحشة مندهشة ونسأل الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا الالهى قرينا انه هو الرؤوف الرحيم الى آخر ما قال

وقال صاحب الفلاح

انا لله وانا اليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهمى منا الدموع وأجمد الدم فى العروق وابتلانا بالصدوع وأجج فينا نار حزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل فى صدر كل سامع رزأ للقلوب فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مازج ولى النعم من الاعتلال والاخبار تفد الينا مبشرة بتقدم صحة سموه فى خطة الاعتدال الى الكمال اذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولت واضطربت وتغيرت فاستدعى كبار الأطباء للاسراع الى حلوان ليتبصروا فى هذا الشان فما ذاع هذا الخبر وكلح البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل فى اندهاش وتلهف الى أخبار ترد الى الارواح الانتعاش — الى أن قال ولكن أبى الدهر الخؤون الا أن ينفذ مطالب المنون ويحرق القلوب ويدمى العيون فانه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس اذ نعى من قضى وهو حى بذكره ومضى وأثره مخلد فى قطره ولى نعمتنا « محمد توفيق » الأول خديوى مصر الذى لم يماثله مماثل فى هذا العصر فياله من خبر تهون دونه الخطوب فانه فتت الاكباد وأذاب القلوب — الى أن قال ونعق بوم التلغرافات الى كل الجهات للقيام بمراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال

أصوت صاعقة أم نفخة الصور	فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية	وذاق منها البرايا صعقة الطور
تصدعت قلل الاطواد وارتعدت	كأنها قلب مرعوب ومذعور
أنى بوجهه نهار لا ضياء له	كأنه غارة شنت بديجور
أم ذاك نعى لتوفيق الزمان ومن	قضت أوامره فى كل مأمور
معلى معالم دين الله مظهرها	فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى الى الخيرات منصرف	وصدق عزم على الالطاف مقصور
بآية العدل والاحسان ممتثل	بغاية القسط والانصاف موفور

مجاهد في سبيل الله مجتهد — مؤيد من جناب الله منصور
راية رفعت للمجد خافقة — تجرى على علم بالنصر منشور
يا نفس مالك في الدنيا مخلفة — من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الارض غافلة — أليس جثمانه فيها بمقبور
حق على كل نفس أن تموت أسى — لكن ذلك أمر غير مقدور
يا نفس فاتئدى لا تهلكى أسفا — فأنت منظومة في سلك معذور
اذ لست مأمورة بالمستحيل ولا — عما سوى بذل مجهود وميسور
سبحان من ملك جلت مفاخره — عن البيان بمنظوم ومنثور
لا زال أحكامه بالعدل جارية — بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة ليلاء قضتها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء وتنفس الصعداء وقل ما تشاء عن حلوان التى جللها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسيم احترام ساكن الجنان فأعظم به من مؤلم ملم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب بل تمزقت له القلوب قد محا سطور الصبر من الصدر وظهر به ما في اللوح مكتوب واقشعر له الوجود اذ قيل مات توفيق مصر والجود

فانفض يديك من الدنيا وساكنها — فالارض قد أقفرت والناس قد ماتوا
فأكرم به ميتا كثر احسانه — وقلد أعناق الجود امتنانه الخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية في ثامن جمادى الآخرة وتاسع يناير الى جميع قناصل الدول يقول — انه ليحزننى أن أنبئكم بوفاة مولاى الفخيم الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى الى رحمة الله في مساء اليوم السابع من هذا الشهر يعنى شهر ينابر بقصره الحلوانى اثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام وانى بمواصلتكم بهذا المصاب الذى حل بالبلاد أتشرف بابلاغ جنابكم أن الجناب الخديوى المعظم عباس حلمى باشا قد تبوأ الأريكة الخديوية خلفا لساكن الجنان والده الفخيم طبقا للفرمانات الشاهانية العلية اه

وقد رثاه رحمه الله وهنأ ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة اسمعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية حالا فقال

نحن لله ما لحى بقاء — وقصارى سوى الاله فناء
نحن لله راجعون فمن ما — ت ومن عاش ألف عام سواء
يفرح المرء في الصباح وما يعـ — لم ما ذا يكنه الامساء
ومتاع الدنيا قليل وما يلـ — هو به المرء من حطام هباء
زهد الناس في الحياة ملم — روعتنا بهوله الانباء

قصر حلوان كنت أنضر قصر   فيه يحلو ويستطاب الهواء

كنت ذا هيبة يحاذرها الده   ر وتكبو أمامها البأساء

كيف أصبحت مستضاما وللخط   ب الى ركنك المنيع ارتقاء

ما كذا عهدنا بعزك ترميـ   ـه الليالى أو يعتريه انقضاء

كان بالامس فى ذراك أبو العبـ   ـاس تحيا ببشره الاحياء

فطوت برده الخطوب وكانت   قبل تشقى ببعده وتساء

وبح من شيعوه قد أودعوا القبـ   ـر كريما يبكى عليه العلاء

وارتضوا بالبكا وما الحزن الا   أن تسيل القلوب والاحشاء

عاش فينا عذب البشاشة والاخـ   ـلاق تروى به النفوس الظماء

وتولى وفى الصدور من الوجـ   ـد عليه ما ليس يرويه ماء

عطلت مصر من سناه كما قد   عطلت من حليها الحسناء

كل خطب فى جنب خطبك يا مصـ   ـر يرجى للناس فيه عزاء

ما يقول الراثون فى فقد توفيـ   ـق وما ذا تحاول الشعراء

والرزايا فى بعضها يطلق القو   ل وتعيا فى بعضها البلغاء

ان مولاك كان أحسن من تز   هى بأنوار وجهه البطحاء

كان للتاج فوق مفرقه ضو   ء لديه تحقر الاضواء

كان يجلو دجى الكوارث ان حلـ   ـت برأى تعنو له الآراء

كان أدرى الملا بكسب ثناء   آه لو خلد النفوس ثناء

آل توفيق الكرام البسوا الصبـ   ـر رداء فالصبر نعم الرداء

أنتم الراسخون فى علم ما كا   ن فقولوا من ذا عداه الفناء

أين قوم شادوا البلاد وسادو   ها وكانت تهواهم العلياء

ملكوا الارض حقبة ثم أمسوا   وهمو فى بطونها نزلاء

سنة الله فى البرية لم يسـ   ـتثن منها الملوك والانبياء

لا أعزيكمو وأنى لقولى   أن تعزى بمثله الحكماء

احمدوا الله فى العشية والاصـ   ـباح فالبؤس قد تلاه هناء

ان يكن من سمائكم خر بدر   ما حوت شبهه بدورا سماء

فلقد أشرقت لآخر أنوا   ر بها يصدع الدجى وضياء

قد أرانا العباس بعد أبيه   كيف يلقى العظائم العظماء

فاجتلبناه طود مجد وسورا   دار منه حول البلاد بناء

حبذا منه همة تترك الصعـ   ـب ذلولا وعزة قعساء

وثبات فى طيه وثبات   للمعالى وحكمة وإباء

وصفات عن كنهها يعجز الوصـ ... ف وفيها يستغرق الاحصاء
دام يكسو الزمان حسنا وبسدى ... أنعما لا يشوبهن انتهاء

ورثاه العـــلامة البحر الفهامة حفني بيك ناصف القاضي بالمحاكم الاهليـــة حالا فقال

شقوا القلوب وغادروا الأطواقا ... وذروا الدموع تقرّح الآماقا
ودعوا النفوس تصبها أجفانكم ... دمعا وتسكبها دما مهراقا
ذوبوا من الاحزان لا تبقوا على ... أكبادكم واستنفدوا الأرماقا
قد فارق الدنيا العزيز محمـــد ... يا لهف نفسي من يطيق فراقا
خطب دوت في الخافقين رعوده ... فــزعا وطبق نعيـــه الآفاقا
غشى الأنام ولم يكن متوقعـا ... كالسحب صيفا أرسلت ابراقا
وأصمت الاسماع رنة وقعـــه ... والحزن أولى الألسن استغلاقا
ودجا الزمان فكل نور حلكة ... ونبا المكان فكل رحب ضاقا
ناشدتكم يوم ارتحال محمـــد ... من في الرعيـــة لم يود لحـــاقا
هـــل تعلمون معمرا أو ناشئا ... لم يوله نبـــأ الردى تصـــعاقا
هل تعلمون معمرا أو ناشــئا ... لم يوسع الصبر الجميـــل طلاقا
أيّ امرئ لم يسقه يوم النوى ... كأســـا من الروع المرير دهاقا
لا كان يوم سار فيـــه نعاته ... يلقـــون في مهج الورى احراقا
هي ساعـــة راش القضاء سهامه ... فيها وحـــل بنا البـــلاء وحاقا
أودى فأيّ فريصة لم ترتعـــد ... أم أيّ قلب لم يكن خفـــاقا
بدر عراه وهو في استقباله ... خسف وصادف في الكمال محاقا
حلتـــه أعناق الرجال وطالما ... بنواله قـــد طـــوّق الاعناقا
تركوه عمدا في الظلام ولم يكن ... يرضى الشموع لبيتـــه إشراقا
سكن القبور وكم قصور شادها ... وأوى الى غـــرف وحل طباقا
ان فاق في المجـــد الملوك فانه ... أربى عليهـــم في العلى انفاقا
خلق كما سرت الشمال ورقـــة ... تحكي الشمول لطافة ومـــذاقا
وبديهـــة تقف الروية دونهـا ... والسمع يلق عنـــدها الأرواقا
وعبارة تشـــفي الغليل ومنطق ... بمجامـــع المعـــنى يحيط نطاقا
وتساؤل يذر المعـــمى واضحا ... وطـــلاقة تولي النهى اطـــلاقا
خفق السماح عليـــه حتى انه ... لم يخش طالب جـــوده اخفاقا

لا يرهب الاقلال بعـد لقائه   عاف ولا يتهيب الاملاقا
ان قيـل عفو فهو بحر زاخر   لا يعـرف الجانى له أعماقا
طبعت سجاياه عليـه أما ترى   فى كل بادرة له مصداقا
أوقيـل دين فهو حافظ عهـده   كم شـد منـه عرى ومدّ رباقا
أو قيـل اصلاح فذلك صنعه   فى مصر أعتـق أهلها اعتاقا
لدغت أفاعى الحـادثات عينها   دهـرا فكان لسمهـا ترياقا
رأب الصدوع بحكمة منه وقد   ملئت طباق بلاد مصر شقاقا
وأقر فيها العـدل بعد تزعزع   والحـق أولى أمره احقـاقا
ونفى الضلال فما تصدى باطلا   الا وأزهـق روحـه ازهاقا
أولى المعارف فى البلاد عوارفا   والعـلم بعـد ذبوله ايراقا
مهد الطريق لمن تقلد بعـده   وهـدى السراة وفتح الاغلاقا
فسروا بنبراس الذكاء ليغمضوا   عمن تطالـع نحوها أحـداقا
ما وفـق الله امرأ فى أمـة   الا وكان لنفعها منساقا
تربت عين الدهر غيب فى الثرى   هذى الخصال وتلكم الأخلاقا
سبق الكرام الى النعيم وعهدنا   فيـه لكل عظيمـة سباقا
وسرى الى الرب الرحيم ملاقيا   بين الملائكة الكرام رفاقا
عن فضله حدث فطيب حديثه   يشفى المحب ويطرب المشتاقا
ياراحلا عنا تركت نفوسـنا   تشكو الاسى وتساور الاشواقا
لم يبق منا الحـزن الا مهجـة   حـرّى والا مـدمعا دفاقا
خطفتك خاطفـة المنيـة فجأة   منا وغادرت الجسـوم رقاقا
لم تنتثر شهب السماء ولم يطل   مرض ولم يبـد الغـراب نعاقا
ويد الردى سرقتك ليـلا ليتهم   حـذوا بقطع يديهم السراقا
بحمالك حراس وحولك عسكر   وصنوف أبهـة فكيف أطاقا
إنا عـلى الود الذى مكنتـه   منا وعنـه لا نحول فـواقا
لا كان من ينسى الولاء لسـيد   يوما وينقض بعـده الميثـاقا

وقال العلامة وهى بيك ناظر المدارس القبطية على منوال العزاء والهناء

مهادك فى حسن العزاء ممهد   وجدك ملحوظ به الكل يشهد
وبدر علاك اليوم أسفر ضوءه   فأودى به ليل الأسى يتبدد
وعادت بك العليا الى مصر راقيا   على الطائر الميمون والعود أحمد
ودانت لك الاقدار حتى كأنها   بأمرك تشقى من تشاء وتسعد

فوال بنى الآمال واصدع بما تشا ... فانك فى كف الزمان مهنـــد
وفــوّض الى الله الامــور فانه ... الــيه تعالى فى العظــائم يعمد
ومن عجب أن الحوادث جمــة ... ولــكن سهم النائبــات مسـدّد
أساءت الى المعروف فينا صروفها ... وما الأجــل المحتوم الا محــدّد
وقد كان توفيق البــلاد مليكا ... حـديث حلاه للمكارم يسـند
تحلى به جيـــد الفضــائل ناشئا ... وأوتى منها فوق ما كان يعهـد
وساس شؤون الملك خـير سياسة ... بها الفضـل يحيـا والفخار مؤيد
فلا غرو أن ساء الأنام فراقــه ... وقد أصبحت نار الجـوى تتوقد
ولما رقت شوقا الى الله روحـه ... وأتهم فينا المرجفون وأنجـدوا
تلافت أمر القطر خوف تلافه ... وأنت بتوفيـــق الاله مــؤيد
وجاءك مرسـوم الخليفـة مؤذنا ... بأنك مشروع الوراثة أوحـد
وآلت الى عليائك فى العـز دولة ... اذا سـيد منهـا خـلا قام سيد
وها أنا أهــديك الثناء مرجيا ... على الوالد المـبرور وهو الممجـد
وأنشـد يا مولاى فيـــه مؤرخا ... توفى توفيـــق العــزيز محمـد

سـنة ١٣٠٩

رعاك إله العـرش جـل ثناؤه ... وألهمك الصبر الذى ليس ينفد
ولا زلت مشكور العناية دائما ... وذكرك فى تاريخ مصر مخلــد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه

من عادة الدهر بعد الحزن ايناس ... وما على الدهـــر فى أفعاله باس
يوما يوم به للهـــم قد مزجت ... كأس ويوم هنـا تصـــفو به كاس
فاضرب عن الحزن صفحا واحمِ سيرته ... فهكذا الدهر ناس بعـدهـم ناس
واستقبل الامر بالتعزيز من ملك ... فى قطر مصر فأنت الروح والراس
وكن على الله فيما شئت معتمدا ... تطب لعليائك بالتأييـــد أنفاس
بالجد والجد نلت الامر ذا شرف ... لا غــرو ان أثمرت بالعز أغـراس
وفى الوراثة معـنى عـز مدركه ... وما به بعــد هـــذا اليوم إلباس
لله من خلف فى القطر عن سلف ... سادوا الورى وعلى هام السها داسوا
وأجمعوا الامر فى تدبير ملكهــم ... وللرعية بالانصاف كم ساسوا
هذا وعذراء فكرى لا انال منى ... بل مامنى لاشتداد الخطب احساس
ولا لسـان به أطــرى ولا قــلم ... يجرى وللضيق ذرعا ضاق قرطاس

وفضل

وفضل والدك المرحوم لست له أنسى ولو ضمنى بالموت أرماس
لازال فى كرم الرحمن مسكنه جنات عدن بها الريحان والآس
ولا تزال لهذا القطر معتصما وأعين الله مهما كنت حراس
وهذه حكمة المولى مؤرخة توفيق مات وولى اليوم عباس
سنة ١٣٠٩

قلت ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد فى يوم خميس وولى الخديوية المصرية فى يوم خميس ودخل القاهرة فى موكبه بعد الفتنة العرابية فى يوم خميس وتوفى الى رحمة الله تعالى فى يوم خميس فسبحان الله الأزلى الذى لا يموت سبحان مالك الملك والملكوت منه المبتدا واليه المنتهى وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى وما أخذ وما أبقى ولا شك أنا جميعا فى هذا السبيل نسعى وان الى ربك الرجعى

اللهم كما حمدتك فى المبدا أحمدك فى الختام وأشكرك على مر الأيام اللهم كما وفقتنى للحق فأرض عنى الخلق ووفقهم الى معذرتى والتجاوز عن عثرتى فانى أشفق أن يكون على هذا عملا حابطا أوشغلا ساقطا اللهم انى معترف بأنى لست من أهل ذلك الشان ولا من خيل هذا الرهان ولكنى قد توكلت عليك سيدى فأعنتنى ولم تكلنى الى نفسى فلم أضل وأريتنى الغى غيا فاجتنبته وأريتنى الهدى هدى فاتبعته والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر لا سيما وقد أصبت فى خلال العمل بما غلب على التجلد والصبر وفت فى العضد والصدر من فقد شقيقى لى كان مرجعى فى كل أمورى اليه ومعتمدى فى سائر أعمالى وآمالى عليه وحيدى الذى أورثنى فقده جزعا وهلعا وسقما ووجعا وغما وهما وحزنا لم تزل فى أحشائى ناره وفى صدرى أواره فعندك اللهم أحتسبه وأستمنحك أحسن الصبر فلك سيدى الامر اللهم أنت تعلم أن بغية مُرادى وغاية مَرادى تعميم النفع بقدر اجتهادى فان كنت قد أجريت البراعة فى هذه الغاية الى منتهاها وبلغت النفس من هذه الأمنية مشتهاها فذلك لكى أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفى المطلع مؤنة الرجوع الى قريب الاخبار وبعيدها ليتم النفع بما ألفته منها وصنفته بعد اعمال الفكرة واجهاد الفطرة اللهم أنت تعلم أنى فعلت ما فعلت تقربا الى أبناء وطنى بخير ما لدى بعد معاناة الأهوال فى طوال الأحوال وما بى إطراء نفسى ولا تزكية على فانى أكره المباهاة فوفقهم مولاى الى أن يتلقوه بالقبول والاقبال وهم فى كال الأحوال كى أنال من على ما أتمناه وأفوز من أملى فى وجهك سيدى بأسناه ولا حول ولا قوة الا بك فأنت حسبى وكفى

دببت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

الى هنا تم الجزء الرابع من الكافى وبه ختام الكتاب فاذا فسح الله لى فى الأجل ووفقنى الى شئ من العمل وأعاننى على بلوغ الأمانى عنيت بجمع أخبار أيام صاحب الولاية الحالية والأريكة الخديوية (عباس باشا حلمى الثانى) ورتبتها كما تستحق من التنسيق والترتيب فانها جمعت أمورا عجيبة وحوادث غريبة وشؤونا تستوقف الطرف وتستدعى الاسهاب فى الوصف وكلها تشهد بأن الأمير «حرسه الله» وأنا له ما يتمناه لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن يفكر ولم يقطع قبل أن يقدّر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين متباعدين فكيف به اذا قضى الله تعالى بنفاذ ما أراد وانقشعت سحب تلك المحن عن سماء هذه البلاد فزاده الله نبلا وعزما وفضلا وحزما ووقاه من شرها حتى يطويها على غرها

وما أحسن ما قيل

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقول آخر

فاصطبر وانتظر بلوغ الامانى ... فالرزايا اذا توالت تولت

واذا أوهنت قواك وجلت ... كشفت عنك جلة وتجلت

اللهم هب لى مغفرة من لدنك وارحمنى يا أرحم الراحمين

(تم)



﴿ يقول طه بن محمود قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الاميريه ﴾

ان أحسن الحديث في القديم والحديث بعد التيمن باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العام للخاص والعام كرمه وجوده الأول قبل كل شئ بلا بدايه الآخر بعد كل شئ بغير نهايه المنزه عن أن يؤرخ بزمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذى خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفا للأولين وقص لنا عنهم أحسن القصص فى كتابه المبين وحدثنا عن مضى بما فيه مزدجر من الانباء فكان لنا قدوة حسنة فمن أحسن منهم وعبرة بينة عن أساء ونصلى ونسلم على نبى الرحمه وهادى الامه أول الانبياء موجودا وآخرهم مولودا وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين

أما بعـد فان من حسن البخت وصفاء الوقت للمصريين عامة ولطلاب التاريخ خاصة طبع هـذا الكتاب الجليل الذى لم تسمح الأيام له فى بابه بمثيل المسمى بالكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة «ميخائيل بك شاروبيم» مدير الأملاك الميرية بنظارة المالية حالا بلغه الله آماله وأكثر فى فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجد والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام فجاء كتابا بأحوال مصر وماجرياتها حافلا وبشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطا كافلا وبسط الكلام على سياسة ملوكها فى كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة الى الآن أعنى سنة ١٣٠٩ هجرية التى انتقل فيها الى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فلله در هـذا المؤلف من همام خدم الوطن بهـذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذى قلد به الاعناق أعظم المنن فلا غرو ان افتخرت به مصر على سائر الامصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكرا وشرح لأبنائها صدرا ورفع لهم قدرا فما من المصريين أحد إلا وهو فى حاجة الى تحصيله واضطرار الى الوقوف على اجماله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه فى هـذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذى يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذى كم شدت اليه الرحال وتطاولت اليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد فى وصفه من قال

ان مصرا لأطيب الارض عندى ليس فى حسنها البديع التباس
واذا قستها بأرض سواها كان بينى وبينك المقياس

ومن قال

ما مصر إلا منزل متحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا
هـذا وان كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيدا طيبا

وبالجملة فهو تاريخ وحيد وعقد فى فنّ التاريخ فريد جاء كاسمه كافيا وللداء العضال شافيا وكان لنا دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على فضل هـذا العلم المعلوم وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمه وأصبح من القضايا المسلمه

ليس بإنسان ولا عالم من لم يع التاريخ فى صدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعمارا الى عمره

قد سلك المؤلف حفظه الله فى كتابه سبيل الاحتياط والتحرّى التام فجاء بالأحوال والماجريات والمقاصد السياسية فضلا عن الاخبار من مصادر الصدق الموثوق بها وهذه هى الطريق القويم التى أفلح من تمسك من المؤرخين بسببها وتأدب بأدبها

الصدق أوفى خليل إن ظفرت به يغنيك عن جمع اخوان وأحلاف
ومن أراد بأنباء الذين مضوا علما وصدق حديث يكفه الكافى

هـذا وقد ضاعف المؤلف حفظه الله احسانه فقام بطبعه على نفقته
وباشر تصحيحه واتقانه بطبعة بولاق الأميرية فى عهد الدولة
الفخيمة الخديوية العباسية أطال الله أمدها وأسبغ
ظلالها وألهم العدل والاصلاح رجالها وتم طبعه
المنير فى أوائل رجب سنة ١٣٢٣
من هجرة البشير النذير عليه
الصلاة والسلام وعلى آله
الكرام وأصحابه
بدور التمام

﴿ ولما آذن طبعه بالتمام قرظه حضرات الادباء الفضلاء أرباب الاقلام ﴾

كتب فى ذلك العلامة البحر الفهامة صاحب السعادة اسمعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية الجليلة حالا يخاطب حضرة المؤلف فقال

قرأت كتاب الكافى ووقفت من تحريك الوقائع المدونة فيه وابرازك اياها لمحب التاريخ على مبلغ الاتعاب التى تجشمتها فى تأليفه فجاء وله نصيب من اسمه كافيا وافيا يخبر عن أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأثنيت على واضعه مع المثنين وأعجبت به مع المعجبين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس فى الانتفاع منها سواء وان اختلفت منهم المشارب والاهواء يقرأ فيه الامراء كيف تحاط الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر الأمم وتتعاضد الهمم للوصول الى السعادة ضالة كل مجتمع انسانى إن الشاعر اذا أجاد فى شعره قيل له أجدت والناثر اذا أحسن فى نثره قيل له أحسنت والحكيم يصيب كبد الحقيقة يهنأ بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق فى تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ماتحملته من العناء فى جمعه وتنسيقه وترصيفه فانى أهنيك بقولى لك أجدت وأحسنت وأصبت وصدقت

وقرظه العلامة الفضال صاحب العـزة وهبي بك ناظر المدارس القبطيـة قال

بسم الله الرحمن الرحيم

ماصدحت حمائم البيان للدلالة عمائق الجنان بأوجب من حمدالله القديم ولاترنحت عذبات البان بأطرب من صلاة الملك المنان على كل رسول كريم فالحمد لله أجرى أعنة الأقدار بما تتضاءل عنـه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمـه وهو الفاعل المختار مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء

(أما بعد) فان التاريخ على ما ينطوى عليه من خصائص حسان ألحق أدناها بأقصاها لم يغادر من شؤون بنى الانسان صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحسبنا شاهـدا على ذلك ما أودعه تاريخ مصر من آثار ملوك وخلفاء سالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تتقلب بها رياح العفاء فى غضون الجاهلية والاسلام فلاغرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا بأذيال التنقيب عن آثار القـدماء فدونوا فى وصفها كما فعل عبداللطيف البغدادى العالم الطبيب من الحوادث والأخبار ماحقه أن يتخذه اللبيب كتاب إفادة واعتبار وإن للافرنج فى تمحيص تاريخها القديم استقراء لايتأتى لكل محسان ولا يقدره كل من أقلته الغبراء وأظلته الخضراء من أبناء هـذا اللسان فأحرينا أن نطاول كل ذى استئثار بمزايا هـذا البلد الأمين وما شاده فيـه السلف الصالح من الآثار الباقية فى العالمين ولقد ألم العالم الفاضل صاحب العزة ميخائيل بك شاروبيم فى مؤلفه هذا كل الالمام بما رق وراق وتناولته يد المريد على طرف الثمام من ثمـرات الاوراق فهو عقد فريد اندمجت فيه الحوادث كأنها اللؤلؤ والمرجان أو جنـة كثيرة الاغاريد بها من كل فاكهـة زوجان فلو أنه تداولته الايدى فى العهد الذى غبر عهد ابن خلدون لقومه وأورده فى ديوان المبتدا والخبر بالدون أومثله العيان لابن خلكان لألحق وفيات الاعيان بخبر كان فقصدت مؤلفه أتحف ذوي الألباب بما تأخذ بمجامع الافئدة حلاه واستخلص فى تاريخ مصر القشر من اللباب ومصر كنانة الله فى أرضه فيا أيها الأريب الذى أصاب مرمى السـداد وأماط اللثام عن كل غريب من مآثر الآباء والأجداد لقد سحرتنا بآياتك بعد أن ألقينا عصا الاذعان والتسليم ومحوت سيآت الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لا زلت تستدرج فى أى غرض تتوخاه مايهزأ بقلائد العقيان على لبات الغوانى ونصيب مؤلفك فى الاستغناء عما سواه نصيب الاغانى لابى الفرج الاصبهانى ان الله على ما يشاء قدير وباجابة هذا الدعاء جدير

وقرظه أيضا الكاتب الفاضل والنحرير الكامل صاحب العزة جرجس بك حنين أحد مديرى الاموال المقررة بنظارة المالية حالا مخاطبا لحضرة المؤلف فقال

لقد طالعت يا أبا الفضل تأليفك « الكافى » فى التاريخ وأمعنت النظر فيما احتواه وجئت بهذا لأؤدى لجنابك واجب التهنئة على ما توفقت اليه من أحاسن التأليف والتصنيف التى بها أكسبت علم التاريخ مجدا وفخرا وخلدت لاسمك السعيد على مرّ الدهور كرامة وذكرا ۞ نعم تحق التهانى فكتابك ياناصر الأدب له قيمة عظيمة ومنزلة رفيعة بين المؤلفات العربية اذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسمار بل هو ميدان تمثلت فيه مشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيه مشهد نشأة الخلق وأدوار تكوينه يرى أيضا دولابا عظيما جدا تديره يد العناية الالهية على سلاسل نظامية طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقلبات المدهشة العصرية من قيام الممالك والأمم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعد الايناع وانحلالها بعد الارتباط وغير ذلك من مجتمعات الأضداد التى بها تمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبياء والأولياء والملوك والقواد والعلماء والحكماء والكتاب والخطباء والشعراء وغيرهم من أبطال العصور

التاريخ الصادق هو أعدل شاهد على درجات العصور فى الحضارة والمدنية بل هو حياة الذكرى بل هو رسول القدم لمن يشاء الاقتداء بفضائل السلف من أمور الدين والدنيا وكيف لا يكون كتابك أيها السيد من أصدق التواريخ وقد عرف القاصى والدانى عن شمائلك من شهامة فى الأخلاق وطيب فى الأعراق وقلم سيال ولسان قوال ورجحان فى البرهان واقتدار فى البيان وسلامة فى الذوق ودقة نظر فى الترتيب وجميل وضع فى الأساليب وحسن اختيار فى الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للمعانى الرشيقة وغير ذلك من الخصائص الغراء والشيم الشماء التى أكسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجذبت النفوس لتلاوته والاعتماد على صحة روايته ۞ وكيف لا يتخذ كتابك حجة يرجع اليه ويعوّل عليه وقد توفرت فيه شروط الاعتماد الخمس وهى



(أولا) اعتبار الينابيع المستمدّ مواده منها (ثانيا) صفاؤه من شبهة الغرض وابتعاده عن هوى التعصب فى المدح أو الهجاء (ثالثا) جلاء عباراته ودقتها وخلوها من التطويل الممل (رابعا) تجرّده عن الخرافات والترهات التى لا يحتملها العقل ولا يقبلها الذوق السليم (خامسا) تجرّده من التمويه والتلبيس والمصانعة التى يراد بها التزلف لأصحاب المراتب السامية ولا يقف بى القلم عند هذا الحدّ فى وصف هذا الكتاب الجليل الشان لأنك قد زدته بهجة وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التى عاصرتها بنفسك والمعلومات الواسعة التى لجنابك فى الوقائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القرن التاسع عشر واعتمادك فيما عدا ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب — وأخيرا فانى أكرر لك التهنئة وأرجو الله أن ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير

(فهرست الجـــزء الرابع من الـكافى)

صحيفة

(تمت)

(تصويب ما فى هذا الجـــزء من الخطـا)

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢	٧	هذا	هذه
٣	٣	هذا	هذه
٤	٢٢	اليه	الى الباب
٥	٢٣	انقيب	النقيب
٥	٢٧	منه	منهم
٧	٠٨	هذا	هذه
٧	١٢	الحرف	الخوف
١٢	٠٧	واستوق	واستوثق
١٢	٩	والاختياريه	والاختيارية
١٩	٠٢	وخطعوا	وخطفوا
١٩	٣	وغيرذلك	غيرذلك
٢٧	٢٨	هذا	هذه
٣٠	١٣	وعقدلابنه لواء الاميرطوسن	وعقد لابنه الاميرطوسن لواء
٤٠	٣٠	سيفر	ساف
٥٧	١٠	خليفة رب العالمين	خليفة رسول رب العالمين
٥٨	١٥	فأنت	فأتت
٦٣	٣١	من الموابرته	الموابرة
٦٧	٠٢	السار	النار
٧١	٠٥	فى	من
٨٠	١٢	تكون	فتكون
٨٠	١٦	سفير	سفيرا
٨٦	٢٣	محمدعلى باشا	تابير
٨٨	٠٣	يخول	يخول
٩٠	٢٣	كاية	كتابة
٩٣	٠٩	وخدمة	خدمة
٩٤	٠٦	معاددته	معاودته
٩٦	٢٤	سيف	ساف

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٩٦	٢٧	سيف	ساف
٩٧	٠٤	سيف	ساف
٩٧	١٤	سيف	ساف
١٠٠	٠٥	جعلت	قدجعلت
١٠٠	٠٧	ما	مما
١٠٣	١٢	الانكليزية	الانكليز
١٠٤	٢٦	رى	رجى
١١٠	١٢	بالذهاب	الذهاب
١١١	١٥	الاحدوثات	الاحداثات
١١٣	٣٠	ينقى	ينشر
١٢٠	١٨	أبناء	أنبياء
١٢٠	٢٨	خالوها	خالبوها
١٢٤	٠٣	ولما	فلما
١٢٩	٠٥	اقامة	رسامة
١٣٢	١٦	هذا	هذه
١٣٦	١٨	فى ذلك	فى ذلك اليوم
١٣٦	٢٠	بما	فيما
١٣٧	٠١	وتركوها	تركوها
١٣٨	١٠	درفورا	درفيو
١٤٤	١١	والمتقربين	والمقربين
١٤٤	٢٥	هذا	هذه
١٤٥	٠٨	ونواب الامة	وهؤلاء النواب
١٤٥	١١	لنواب الامة	النواب
١٤٥	١٦	وأهدى لهم	واهداهم
١٤٦	٠١	ومعامل	وانشأ كذلك معامل
١٥٠	٠٧	فى	على
١٥٠	٠٩	هذا	هذه
١٦١	٢٢	يهتم	يحفل به
١٦٢	١٧	ملامة	ملائمة

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٦٣	٢٦	وهو	هو
١٦٣	٢٦	من	ومن
١٦٤	١٨	ونصب	ونصبت
١٦٤	٢٤	فطالب	فطلب
١٦٤	٢٤	بدونهم	بدونهم
١٦٧	٠٧	وأمرا	فأمرا
١٦٩	٢٣	وركب	فاركبوه
١٧٣	٠٧	أراد	أرادا
١٩٥	٣١	دونيا	رومانيا
١٩٦	١٣	فقد	ثم
١٩٦	٣١	لكثير	الكثير
٢٠٥	٢٤	فتحرك	فتحركت
٢٠٥	٢٥	تفنيذ الاحكام	تفنيد تلك الاحكام
٢٠٦	٢٣	على	ولا
٢٠٧	٢٧	لاسبيل الا الى التصفية	لاسبيل الى الاصلاح الا بت
٢٠٨	١٥	وخصتهم	واختصوا
٢٠٨	١٦	ولم تقفا عند	ولم تقف الدولتان عند
٢١١	١٧	سفرا	سفيرا
٢١١	٣٠	يظهر	بظهر
٢١٢	٠٢	الجبة	الشهامة
٢١٣	٠٧	وطير	وطيروا
٢٢١	٠٦	يعتبر	يعتقد
٢٢١	٠٦	لن	ان
٢٢٣	٠٧	مقال	فعال
٢٢٤	٠٤	يغفر	يغفرله
٢٣٠	٠٣	هيئة مجلس الوزراء	هيئة الوزراء
٢٣٠	٠٤	فى الامر طويلا	فى الامر فطال
٢٣٠	٢٠	من ترتيب	لترتبت
٢٣٣	٠٥	والعفو السماح	العفو والسماح

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٢٣٤	١٨	لتوقيع	على التوقيع
٢٣٤	٣٠	واجتمعوا	فاجتمعوا
٢٣٧	٠٩	ذاو	ذو
٢٣٨	٠٣	أحد	أحدهم
٢٣٨	١٨	فاذا مروا	فكانوا اذا مروا
٢٦٥	١٢	ثم تيسر	لم يتيسر
٢٦٨	٢٨	على	الى
٢٧٣	١٦	يسايره ويتلطف	يسايره أيضا ويتلطف
٢٨٩	٣٠	الحرمة	المرأة
٢٩٩	٢٠	سيربه	سار الى السودان
٢٩٢	٠٩	فكان	فكانوا
٢٩٧	١٥	عشرون	عشرى
٢٩٩	٢٥	الى	على
٣٠٤	١٤	مشاشهم	مشاشيهم
٣٢٢	٢١	وبالوا	وباتوا
٣٣١	٠٩	هذا	ذلك
٣٣٨	١٠	عن	من
٣٧٢	١٨	قد فعل جنرالهم	قونصل جنرالهم الذي تولى بدلا من مالت الذي خلعوه بعد أن مهد لهم سبيل الاحتلال
٣٧٧	٢١	يعابه	يعانيه
٤١٢	١٨	قدكانت	كانت
٤٢٩	٢٠	عندقومه	لقومه
٤٤٩	٢٩	لستقبل	لمستقبل
٤٥٥	٠١	ولبسوا	وكبسوا
٤٥٩	٠٢	حسن	حسين
٤٧٢	٢٤	السير	السير بارنج

(تمت)